

٨٠٤

ش

حاشية
عبر العصور

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1429هـ - 2008م



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

ص.ب ، 14/6364

خليوي ، 833 814 3 961+

تلفاكس ، 135 1541 961+

دمشق - سوريا

ص.ب ، 13414

هاتف ، 30 24 224 11 963+

فاكس ، 36 10 245 11 963+

www.kotaiba.com

E-mail : dar@kotaiba.com

جيرارد دو جورج

دعبلشع

عبر العصور

ترجمة :

د.لينا موفق دعبول

المراجعة الجغرافية :

محمد عصام الحجار



دمشق عبر العصور ترجمت من الفرنسية إلى العربية لكتاب من جزئين

الأول:

DAMAS, Des Origines
Aux Mamluks

دمشق، من الأصول حتى المماليك

الثاني:

Damas, Des Ottomans A Nos
Jours

دمشق، من العثمانيين حتى أيامنا

GERARD DEGEORGE

جيرارد دو جورج

L'Harmattan
Paris 1994/1997

G. DeGeorge
à / Da' Boul.

Paris, le 28/09/02

L'éditeur et l'auteur certifient que la traduction
de Lena Da' Boul de l'ouvrage de Gerard Degeorge. Damas
des origines aux Mamluks, Paris, L'Harmattan 1992, et
Damas des Ottomans à nos jours, Paris L'Harmattan, 1994 est
la seule autorisée.

Gerard DeGeorge

الصور الموجودة في الكتاب قد قام بالتقاطها الكاتب نفسه جيرارد دو جورج

مقدمة المترجمة

أشار علي أحد الناشرين أن أنظر في كتاب من جزئين للمؤلف جيرارد دو جورج عنوانها:

DAMAS, Des Origines Aux Mamluk. DAMAS, Des Ottomans A Nos Jours ،

وأن أفكر في إمكانية نقلها إلى العربية.

وفعلاً طلبت من والدي وكان على سفر إلى باريس لحضور مؤتمر هناك أن يحضر لي هذين الكتابين.

اطلعت عليهما، وقرأت فيهما فصولاً عدة، فوجدت فيهما من المعلومات ما يصعب الحصول عليه من كتب عدة. نظرت إلى المراجع التي اعتمد عليها المؤلف، فوجدتها عدداً ضخماً من المراجع القديمة والحديثة.

رغبت أن أنقل هذين الكتابين إلى القراء العرب، وقد أعجبت بموضوعية المؤلف وإعجابه بدمشق، مدينتي الحبيبة. ولكن قبل ذلك عرضته على بعض المختصين فشجعوني على بذل الجهد. اتصلت بالمؤلف أسأله الإذن في ترجمته، فأبدى حماساً شديداً، وعرض علي مساعدته بتزويدي بالصور التي التقطها بنفسه لدمشق.

حاولت خلال ترجمتي للكتاب أن أكون وفية للنص الأصلي قدر المستطاع، وقد وجدت نفسي أحياناً مضطراً لتصحيح أخطاء نادرة تخالف حقائق تاريخية لدينا كعرب ومسلمين، وربما تخفى على الغربيين، فالتاريخ كما نعلم مرتبط باللغة والثقافة والتوجه الفكري ارتباطاً كبيراً. وقد وضعت هذه التصحيحات في الحاشية بشكل يميزها عن تعليقات الكاتب نفسه.

قمت كذلك بإعداد فهرس حاولت من خلاله مساعدة القارئ على الوصول للمعلومة التي يرغب بالحصول عليها، وذلك بالبحث عنها حسب الترتيب التاريخي. فالمواضيع في الفهرس ليست مرتبة حسب الترتيب الأبجدي وإنما بحسب ترتيب مواضيع الكتاب.

أرجو أن يحوز هذا الكتاب على إعجاب القارئ العربي، وأن يكون وسيلة للتعرف على وجهة نظر غربية في تاريخ دمشق، معتمدة في كثير من الأحيان على مراجعنا العربية. وككل كتاب يتناول التاريخ يصعب على الكاتب أن يكون محقاً في كل ما كتب، فالتاريخ يصعب تحقيقه، وخاصة التاريخ

القديم قبل اختراع التصوير وإمكانية تسجيل الأحداث والأقوال صوتياً، ويظل للعامل الإنساني دور كبير في دقة الأحداث وصحتها.

والسيد جيرارد دو جورج الذي قابلته عدة مرات وعرفته شخصياً يمتاز بالموضوعية والدقة العلمية، وقبل كل شيء بحبه للعرب وسوريا ودمشق تحديداً.
إليك أيها القارئ المحب لدمشق، أو الذي يحاول الوقوع في حبها أقدم هذا العمل، وحسي أنني بذلت غاية الجهد، والله من وراء القصد.

د. لينتة موفق دعبول

المقدمة

صورة عن الجنة

لولا نهر بردى لما كانت دمشق إلا استراحة مغمورة للقوافل، فهي تقع على خط التماطر^(*) مئتي مليمتر الذي يفصل بين الفيء والصحرَاء، وتعزلها سلسلة جبال لبنان عن الأمطار القادمة من الغرب. إن نفاذية تربة جبال لبنان⁽¹⁾ العالية تساعد على رشح أمطار الشتاء الثمينة⁽²⁾ إلى الأعماق لتظهر بعدها على ارتفاع 1100 متر، نابعة من أكثر المناطق انخفاضاً في سهل الزبداني. ولما كانت هذه المنابع تتزود من مخزون عميق يمتد على مساحة كبيرة جداً، فإن لهذه المنابع التي تسمى أحياناً بالينابيع الانبعائية، تدفقاً عالياً ومنظماً لا يتأثر إلى حد ما بتغيرات الفصول وتقلبات الطقس⁽³⁾. وفيما عدا العديد من الينابيع وعيون الماء النازلة من الجبال فإن بردى يتلقى على طول خمسة عشر كيلومتراً تقريباً مياه عين الفيحة الغزيرة، وهو أهم منبع من حيث تدفقه، وعلى شرفه صك اليونان في الماضي نقودهم. ثم يلتوي هذا النهر عبر مضيق صخري ليصب قرب قرية الربوة على ارتفاع سبعة عشر متراً في سهل دمشق الطمبي قبل أن يتابع مسيره وينتهي به الأمر في بحيرة العتبية بعد خمسة وثلاثين كيلومتراً شرقاً. منذ زمن بعيد، زمن الآراميين، ساعد الإنسان هذه الميزة الطبيعية ووزع مياه بردى في العديد من القنوات مشكلاً مروحة كبيرة تسمح إضافة إلى تصريف المياه الراكدة التي كانت تأتي بها أمطار

(*) هو الخط الذي يمر بمجموعة المواضع التي تهطل فيها الكمية نفسها من المطر.

(1) الارتفاع الوسطي: 1500 متر.

(2) يهطل على الجبال 600 ملم تقريباً من الماء في السنة.

(3) في سنوات الجفاف الشديدة يمكن أن يجف بردى. يذكر المؤرخ الدمشقي محمد بن جمعة سنة 1620م: "شح الماء في مدينة دمشق، وأصبح بردى جافاً". (حكاه دمشق في العهد المملوكي وأوائل الحكم العثماني) دمشق 1952م، ص 202. وعلى العكس فمن الممكن أن تكون الفيضانات مدمرة مثل فيضان 30 كانون الثاني 1940م الذي أغرق ساحة المرجة. (دمشق ومنطقتها) دراسة جغرافية للمنطقة، رسالة تخرج من جامعة باريس الأولى، باريس 1976م، ص 653.

الشتاء بتزويد المدينة بالماء وسقي آلاف الهكتارات من الأراضي الطمئية الخصبة. وهكذا ولدت الغوطة⁽¹⁾، أشهر واحة في المشرق حول أقدم مدينة في العالم. القنوات الرئيسية هي: اثنتان على الضفة اليسرى، يزيد وتورا، وأربع على الضفة اليمنى: المزوي والديراني والقنوات وبانياس، كلها متفرعة من المجرى الرئيسي في أعلى الربوة. يروي تورا الأراضي والأحياء الواقعة على الضفة اليسرى من بردى، في حين يروي القنوات وبانياس أحياء داخل المدينة، وتروي بقية القنوات الأخرى المراعي والبساتين⁽²⁾. كانت هذه الغزارة في مثل هذه المنطقة موضع إعجاب دائم، فلقد كتب عالم الجغرافيا ابن حوقل في نهاية القرن العاشر: "تجري المياه في كل مكان، في المساكن والشوارع والحمامات"⁽³⁾. وأضاف ابن عساكر عالم التاريخ الدمشقي في القرن الثاني عشر: "إنها حقاً إحدى الميزات الحسنة لهذه المدينة (...). إذ إنه في معظم البلدان لا يحصل على الماء إلاً مقابل دفع المال"⁽⁴⁾. ولاحظ عالم الطبيعة الفرنسي بلون دي مان عام 1555م، أن: "الحصول على الماء سهل جداً في دمشق بحيث توجد نافورة ماء تقريباً في كل بيت وحديقة"⁽⁵⁾. وهناك شبكة قنوات أخرى في شرق المدينة لتصريف المياه المستخدمة وجزء كبير من ماء عالية النهر، الذي يرجع بسبب حث مجرى النهر الرئيسي لبردى. يتباعد بردى على شكل مروحة مجاوراً باب توما ليسقي الجزء الشرقي من الغوطة، ثم يتوغل شرقاً أكثر فيسقي الزور وهو الجزء المنخفض من الوادي⁽⁶⁾. يضاف إلى هذه الشبكة الرئيسية رافدان مكملان: في الشمال مياه "منين" وفي الجنوب مياه نهر الأعوج (النابع من أعالي

(1) الغوطة تعني وادياً أخضر مروباً، وعندما تذكر كلمة الغوطة معرّفة فالحديث يكون عن غوطة دمشق.

(2) قَسَم التقليد المتعارف منسوب بردى في كل نقطة من مجراه إلى 24 قيراطاً. (القيراط إذن قياس نسبي). الجزء المقطع لكل قناة في نقطة التفرع كالتالي: يزيد: 18 قيراطاً، مزوي: 6، ديراني: 18، تورا: 14، قنوات: 20. (جغرافية سورية المركزية،

Géographie de la Syrie Centrale, Tours P55. 1936 .

(3) ابن حوقل (شكل الأرض)، باريس - بيروت، 1964م، والجزء الأول، ص 171.

(4) ابن عساكر، (وصف دمشق)، دمشق، 1956م، ص 255.

(5) Belon du Mans P، ملاحظات لعدة أمور غربية وجديدة بالذكر موجودة في اليونان وآسيا الصغرى وبيها ومصر والجزيرة العربية وبلاد أخرى غربية، باريس، 1555م، ص 149. كان سكان المنطقة الواقعة على الضفة اليسرى ليزيد في أسفل قاسيون يرفعون الماء بالنواعير أو بالآلات للرفع تحركها الحيوانات أو كانوا يستخدمون نظام سواقي تسمح بتعبئة الآبار. كانت مياه بردى وحدها تروي دمشق حتى عام 1892م، حين نظم الوالي العثماني في هذا العام توزيع ماء الشرب.

(6) القنوات الرئيسية لهذا النظام الثاني هي: العقراني والدعياني والملكة والمجدول. عادة تسمى هذه القنوات باسم آخر قرية يروها.

الحرمون) التي تجرّها قناة طولها تقريباً ثلاثون كيلومتراً إلى قرية داريا حيث تلتقي بشبكة مياه بردى⁽¹⁾. من بداية شهر آذار إلى نهاية شهر تشرين الثاني يكون الماء تحت تصرف كل قرية دورياً وعلى فترات تختلف وفقاً لنوع الزراعة. ويوفر هذا توزيع "المزّاز" وهو اختناقات تشكلها حجارة كبيرة مقطّعة، أو سد بسيط من الطين والأغصان وأحياناً سُكور حقيقية. ويكون هذا التوزيع عادلاً أساساً، تبعاً لتدفق الماء والمساحة المروية. في منطقة مثل الغوطة يوفر الشاوي الصيانة ومراقبة النظام، وهو موظف يتقاضى راتباً مقابل هذا العمل ويقوم بنفسه بفتح وإغلاق موزع المياه، وفقاً لحقوق كل ساكن وكل بستان وذلك بسد الثغرات والسهر على منع أي غش من قبل المتفعين.

وهكذا نشأت إحدى أقدم المناطق الزراعية وأكثرها غنى في الشرق الأدنى حول مدينة قوية منذ ألف سنة قبل زمننا هذا⁽²⁾، وازدهرت بالصناعة وجلّد الإنسان في أرض طمي واسعة خصبة تمتد على سفوح جبل قاسيون. توجد الغوطة الحقيقية في الجزء الغربي حيث التحكم في الماء من سقي وتصريف جيد جداً. فالخضرة تمتد هناك على مساحة تزيد على ثمانية آلاف هكتار، أي ما يقارب خمسة وعشرين كيلومتراً طويلاً وما يزيد على عشرة كيلومترات عرضاً. لقد وجد الدمشقي أن عدد البساتين هناك في بداية القرن الرابع عشر كان مئة وأحد عشر ألفاً⁽³⁾. كلها رياض ومزارع للبقول والمشمش والرمان والجوز والتفاح والإجاص والخوخ والكرز والدراق والتين والآس والخيار

(1) تصب مياه الأعوج في الشرق في بحيرة المهبجانة التي كانت فيما مضى تلتقي ببحيرة العتبية. حفظ لنا شيخ الربوة الدمشقي، في بداية القرن الرابع عشر، وصفاً دقيقاً لنظام التروية الدمشقي، فهو يتحدث عن بحيرة وحيدة يصب فيها الأعوج ويردى

(Cf. Manuel de la cosmographie du Moyen Age), St-Petersbourg P266., Paris 1866.

يبدو من المؤكد أن تقسيم البحيرة قد كان قبل زمن الدمشقي بكثير. أدى الطقس الذي ازداد مع الوقت جفافاً وزيادة السكان والاستخدام المبالغ فيه للمياه إلى تجفاف تدريجي للبحيرتين بدءاً من سنة 1954م. (تجاوز الاستهلاك الكلي لدمشق 20000 متر مكعب/ يوم عام 1932م إلى 400000 متر مكعب/ يوم عام 1980م). والجدير بالذكر أن التاريخ الإسلامي يحتفظ بذكرى زمن بعيد جداً حين كان معدل المطر والرطوبة أعلى بكثير مما هو عليه في أيامنا هذه. فلقد كانت سورية في زمن إبراهيم عليه السلام كما يذكر الطبري مغطاة بالأشجار والخضرة والماء الجاري والأراضي المزروعة. (Chronique)، الجزء الأول، باريس، سندياد، 1980م، ص 167. نذكر نصوص أخرى وجود غابة من الأرز في وادي بردى.

(2) انظر إلى المرجع السابق ص 44-49.

(3) الدمشقي نفس المرجع المذكور ص 261.

والكوسا والبندورة والفاصولياء والحمص والقنب واليانسون⁽¹⁾... ثم توجد منطقة واسعة مزروعة بأشجار الفاكهة والحبوب، وبعدها الزور حيث تجاور بساتين الفاكهة الحور وزراعة القنب. وإذا اتجهنا شرقاً أكثر حيث الأراضي أقل حظاً بالسقي وجدنا الأراضي المزروعة بالعنب والحبوب والزيتون. أما إذا تجاوزنا هذه الأراضي فنجد المريج، حيث تحل الزراعة الخفيفة محل المزارع، وتتباع القرى بعضها عن بعض، ويندر الماء ويقل عدد السكان. إلا أن المريج يمتد على مساحة تعادل ضعفي مساحة الغوطة. وفي المريج نجد المراعي وزراعة البقول، وهو هضبة خضراء في الربيع كثيفة ورملية باقي السنة. وبعد المريج نجد الفيحاء الصحراوية أي البادية، ثم الصحراء وهي منطقة ضخمة من الحجارة تمتد لتصل إلى شمال شبه الجزيرة العربية.

أما فيما يتعلق بمدينة دمشق نفسها فيشرف عليها جبل قاسيون⁽²⁾، وهو أحد الخواصر الجبلية الأخيرة المقابلة للبنان. وقد رصع هذه المدينة طوق فخم من الخضرة⁽³⁾ إلا أنها بالنسبة لما يحيط بها ليست إلا نقطة صغيرة جداً. تقع دمشق في بداية السهل الطمبي على الضفة اليمنى من نهر بردى وتمتد لتصل قريباً من الجبل - لأسباب استراتيجية على الأرجح. وهكذا تمتد دمشق من الشرق إلى الغرب على طول يقل عن الكيلومترين مطوقة بأربع هضاب اصطناعية يزيد ارتفاعها عن عشرين متراً، شكلها على مدى القرون توضع الطبقات الأثرية. يحدد أعلى هذه الهضاب وأقدمها بالتأكيد مكان أول قرية نيوليتية على الأغلب، وهي تقع في الجنوب الشرقي للجامع الكبير على بعد خمسمئة متر على الأقل من بردى. في حين تقع الهضبة الثانية في الحي النصراني والثالثة في الحي اليهودي والرابعة في الجزء الشمالي لحي الشاغور.

(1) يجب ألا ننسى الزهور والورد الدمشقي خاصة "الذي يفقد عطره إذا قُطف عند الفجر"

(Les Ragionamenti, premier livre, Paris, G. Briffaut) P188. 1939

يصف الدمشقي وصفاً دقيقاً ورود المزة وتحضير ماء الورد "تصدر إلى كل بلدان الجنوب مثل الحجاز واليمن والحبشة" (Cosmographie)، ص 264 - 265.

(2) ارتفاعه: 1149 متراً.

(3) لقد بدأت المنطقة المدنية تتوسع منذ نهاية القرن التاسع عشر وما زالت تتوسع بسرعة كبيرة على الرغم من توصيات المهندسين المدنيين وذلك على حساب الغوطة

Cf. Degeorge G. (Damas des Ottomans à nos jours) P196-202, 1994

تعد دمشق مركزاً للإنتاج الزراعي والتبادل بين البدو والحضر، ونقطة تلاقي بين الطرق الصحراوية والأروقة الجبلية، ومفترق الطرق القادمة من الهند والصين عن طريق الخليج الفارسي وشبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر وأفريقيا الشرقية والأناضول وآسيا الوسطى، كما أنها على اتصال وثيق بمنطقة البحر الأبيض المتوسط عن طريق مرافئها الطبيعية، صور وعكا⁽¹⁾. لذا أدت دمشق منذ زمن بعيد جداً دوراً سياسياً وتجارياً وثقافياً، فلقد حققت مكانتها منذ الزمن الآرامي باعتبارها إحدى المدن السورية الأولى التي تعد منطقة استراتيجية ونقطة اتصال بين القارات الثلاث، وبين البحر الأبيض المتوسط والفرات، وبين جبال طوروس وصحارى شبه الجزيرة العربية.

لقد كان لمياه دمشق الجارية وكثرة بساتينها سحر قوي على الإنسان، فدمشق في نظر الكتاب المسلمين صورة عن الجنة نفسها. فالطبري يعدّها واحدة من الأماكن الأربعة في العالم "المليئة بالمسرات والمتع"⁽²⁾، ويعتبرها المقدسي واحدة من الجنان الأربع الموجودة على الأرض⁽³⁾، وهي في نظر ابن خردانبة أحد الأماكن التي حبتها الطبيعة بالجمال⁽⁴⁾. وها هو الدمشقي يصنفها مع مدن العالم "الصحية والتي هي أكثر جمالاً وروعة"، ويشبّها بالعصفور الأبيض المستقر على مرج واسع ليشرب من مياهه التي تتوارد عليه الواحدة بعد الأخرى⁽⁵⁾. أما ابن بطوطة رحالة القرن الرابع عشر المشهور، فإنه يرى أن دمشق "فاقت كل المدن الأخرى جمالاً وكمالاً"⁽⁶⁾. في حين يجعل منها أحد الشعراء "شامة على وجه العالم"⁽⁷⁾. ودمشق في نظر الأوروبيين المرفأ الجذاب الأمين، حيث يستريح الإنسان بعد عناء أيام طويلة من المشي في الصحراء، فلقد كتب جان بالرن في 1582م⁽⁸⁾: "حقاً، فقط

(1) المسماة في التاريخ الأوروبي القديسة جان دارك.

(2) الطبري، المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص 102.

(3) المقدسي، (أفضل تقسيم لمعرفة الولايات) دمشق، 1963م، ص 80 وص 152 - 153. يعتبرها ابن الفقيه من بين جنان الأرض الثلاث مع نهر بلخ ونهر إيبلا - ميناء على مصب نهر دجلة عند مصب قناة البصرة - (موجز لكتاب البلدان)، ص 128. انظر أيضاً ابن حوقل، نفس المرجع، الجزء الثاني ص 455.

(4) ابن خردانبة، (Le livre des routes et des provinces)، باريس، 1865م، ص 273.

(5) الدمشقي، نفس المرجع، ص 259 و 261.

(6) ابن بطوطة، الرحلات (Voyages)، باريس، 1853 - 1858م، الجزء الأول، ص 188.

(7) ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 188.

(8) PALERNE J.، من الإسكندرية إلى اسطنبول، باريس، 1991م، ص 208.

ذلك الذي رأى دمشق هو من يعترف بأنها أكثر المدن جمالاً في العالم". ثم إن القنوات والمراعي والبساتين كانت حياً ملهماً للكتاب وموضع وصفهم.

لم يكتفِ التاريخ الإسلامي بما تمتعت به دمشق من مكانة استثنائية ودور لامع في التاريخ العالمي في عهد الأمويين، بل بالغ في تقييمها وزاد دون أي حرج وتحيز للصدق والدقة. إذ بغية تعظيم أهميتها ومجدها ونبلها أمام المدن الأخرى التي فضلها التعاقب التاريخي، جرى تحريف واستكمال كل النصوص سواء كانت من الإنجيل أم القصص أو التاريخ. ولما كان الغموض مهيمناً فيما يتعلق بأصول دمشق، إذ كان من الصعب معرفتها قبل تطور علم الآثار وما وصل إليه اليوم من التقدم، فقد اجتهد كل على طريقته - وفي أغلب الأحيان جرى اللجوء إلى الأسفار - من أجل تأريخ دمشق إلى أكثر العصور قدماً. كتب المقدسي أن "دمشق بن قاني بن مالك بن أرفاشاد بن سام هو من بنى دمشق قبل ولادة إبراهيم بخمس سنوات"⁽¹⁾. ويؤكد ابن روسته بحزم، وهو كاتب أصفهاني من القرن العاشر مدعياً المعرفة وعدم التكلم بالقليل والقال، أن "أول بناء بني على الأرض بعد الطوفان كان بناء حرّان، ثم بناء بابل، ثم بناء دمشق"⁽²⁾. وقد أسس دمشق، كما يذكر المسعودي المشهور صاحب المصنفات المتنوعة في القرن العاشر، جيرون بن سعد بن عاد الذي جاء ليستقر فيها بعد وقت قصير من حادثة برج بابل وذلك على ضفاف نهر بردى⁽³⁾. ولجبل قاسيون أهمية خاصة، إذ يوجد على قمته "كهف آدم"⁽⁴⁾، على بعد يقل عن ميل واحد من مسقط رأس النبي إبراهيم، وحيث توجد قرية برزه ويطل كهف الدم الذي قتل فيه قابيل أخاه⁽⁵⁾. هناك كان الأنبياء إبراهيم وموسى ويوسف ولوط ويعقوب يتلون صلواتهم الشعائرية⁽⁶⁾، وهناك وجد إلياس مأمناً له من ملوك

(1) المقدسي، نفس المرجع، ص 174. يقول سفر التكوين بأن دمشق كانت بلد خادم النبي إبراهيم وهو إليزر (سفر. 15، 2). اعتبر الإنجيل - خاصة "الكلام الفارغ" في سفر التكوين - مدة طويلة إلى أن أصبح الإنسان أكثر تعقلاً وثقافة، سلطة لاجدل فيها. يقول في القرن السابع عشر Pierre Bayle: على الفلسفة أن تنهار أمام الكتاب المقدس (Continuation des pensées diverses, LVI).

(2) ابن روسته "الخلي الثمينة"، القاهرة، 1955م، ص 228.

(3) (Mas'udi; Les Prairies d'Or, Paris) المسعودي، المروج الذهبية، باريس، 1965م، الجزء الثاني ص 431.

(4) ابن بطوطة نفس المرجع، الجزء الأول، ص 232. ابن جبير، رحلات، باريس، 1953 - 1956م، الجزء الأول ص 317.

(5) ابن جبير، الجزء السادس، ص 317، ابن عساكر، نفس المرجع، ص 184 و187، مسعودي، الجزء الأول ص 27.

(6) ابن جبير الجزء السادس، ص 317.

قييلته⁽¹⁾، وهناك مكث المسيح مع أمه⁽²⁾ وفقاً لإحدى الروايات، وإلى هناك أتى القديس يوحنا المعمدان مع أمه وفق رواية أخرى. في حين أن المسيح صلى هناك فقط مع الخواريين⁽³⁾. ورعى يعقوب خرافه في الغوطة⁽⁴⁾. وفي بيت لها، في شرق دمشق، كان آزر والد النبي إبراهيم يصنع تلك التماثيل الشريرة التي عمد الابن إلى تحطيمها مؤمناً بالله الواحد الأحد⁽⁵⁾. فقط الكهف المشهور حيث نام المؤمنون السبعة لم يجد له مكاناً في دمشق⁽⁶⁾. وأخيراً يقول ابن عساكر بأنه بين الجبل وباب الفراديس - أحد أبواب الحصن السبعة - توجد مقابر سبعين ألف نبي⁽⁷⁾. وتذكر إحدى الروايات أن دمشق ستكون "ملجأ الناس عندما تنفجر الاضطرابات الدامية في نهاية الزمن"⁽⁸⁾، وتذكر رواية أخرى أن المسيح سينزل عندما يقترب يوم الحساب من المنارة البيضاء الكبيرة في الباب الشرقي⁽⁹⁾. كل هذه الأقوال تؤكد الأقدمية الأكيدة لدمشق والمكانة المرموقة التي احتلتها ومازالت تحتلها دمشق في خيال الشرقيين.

(1) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 184.

(2) تعتمد هذه الرواية على تفسير مغرض للآية 50 من سورة المؤمنون: (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآتيناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين)، إذ اعتبرت الربوة ذات القرار والمعين جبل قاسيون، وهذا لم يوضحه طبعاً القرآن. الطبري، الجزء الثاني ص 102، وابن عساكر، ص 184، وابن جبير، الجزء السادس ص 318.

(3) ابن عساكر ص 195.

(4) نفس المرجع السابق ص 203.

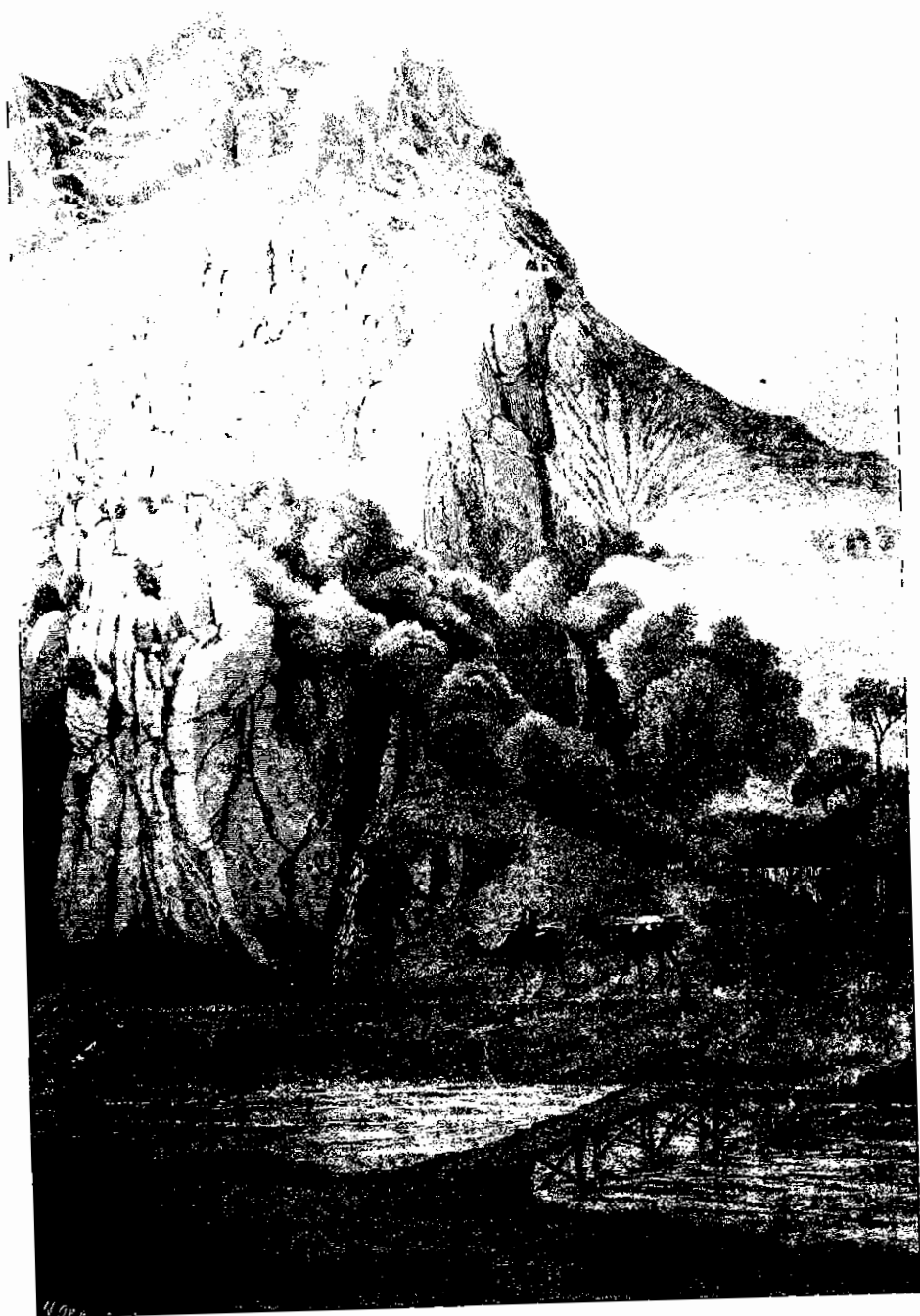
(5) ابن جبير، الجزء السادس ص 320.

(6) هذا على الأقل ما يمكننا استدلالة من فقرة لابن جبير عندما يتحدث عن "كهف الجوع" حيث مات، كما يقول، سبعون نبياً من الجوع. (غالباً ما تضرب الأرقام بعشرة عند ابن جبير).

(7) ذكر هذا ابن جبير في الجزء السادس ص 316، ويؤكد ابن جبير أن عدد هؤلاء الأنبياء قد كان سبعة فقط (وعلى الأغلب إنه كان يضرب عددهم بعشرة على الأقل).

(8) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 305.

(9) ابن جبير، الجزء السادس، ص 328، عادة تذكر هذه الرواية أن المسيح سينزل من إحدى منارات الجامع الأموي، وهي المنارة الشرقية التي تسمى بمنارة عيسى.



صخرة المنشار الريوة

عالمان وجهاً لوجه

نادى أوائل بابوات الكنيسة، ترتوليان ولاكتانس وأوريجين بالتسامح والحرية الدينية تقيداً بتعاليم المسيح، وحرصاً منهم على بقاء ما لم يكن في ذلك الوقت سوى طائفة في حالة دفاع عن النفس (المسيحية). واختلف الأمر عندما اتحد النظام الملكي والكنيسة في مشروع مشترك للسيطرة على العالم، وأصبح هدفهما ومصيرهما واحداً. وتدنت الإمبراطورية بذلك التعذيب الفظيع الذي ما كان يمكن للعصور القديمة التي كانت تنادي بالتسامح أن تتصوره مطلقاً⁽¹⁾. ليس بالإمكان وصف الحد الذي وصل إليه التعذيب من فظاعة وقسوة، فقط بذكر بعض الشهداء النصاري الذين أعطاهم المجمع التبشيري الكنسي الكثير من الاهتمام بشيء من المبالغة⁽²⁾. لقد أصاب التعذيب أولاً الذين كانوا يسمونهم بالملاحدين، ثم اليهود والسامريين، وانصبت ضراوته بلا هوادة على من تبقى

(1) نفس الفكرة كان عبر عنها فولتير: "ما إن جعل قسطنطين الديانة النصرانية ديانة المملكة حتى بدأ يتقاتل athanasiens و eusebiens ومنذ ذلك الوقت والكنيسة النصرانية غارقة بالدماء حتى يومنا هذا".

(Dictionnaire philosophique, Paris, garnier) P204.1967.

ويعبر بييريل Pierre Bayle عن نفس الفكرة مشبهاً الديانة النصرانية برجل ينهض مراوفاً ويكل وقار، وبمجرد أن يحقق أهدافه ينزع القناع عن وجهه ويصبح "وباء البشرية بسبب فظاعته وكبرائه الظالمة"

(Commentaire philosophique, Paris, Presses Pocket P131.1992

ويلاحظ في إنكلترا معاصر بييريل Bayle جان لوك John Locke، أن "أكثر ما أنتجت الديانة النصرانية كان مؤامرات وحروباً واضطرابات في المجتمع المدني"

(Lettre sur la tolérance, GF-Flammarion) P163-167. 1992

(2) كتب فولتير كلاماً ملائماً تماماً عن هذا الموضوع: "يخمدوننا بالشهداء لدرجة تجعلنا نتفجر ضحكاً، ويصورون لنا أتباع تبطس وتراجان والمرقس أورل الأتقياء كأنهم وحوش بفظاعتهم وقسوتهم (...) لقد حاولوا جعل الرومانيين القدماء شنيعين فجعلوا من أنفسهم موضع سخرة ومهزلة. هل ترغبون في هجمات ثابتة ومذابح مؤكدة؟ أيها الوحوش الظلمة، لا تبحشوا طويلاً عن هذه الحقائق في سجلاتكم: بإمكانكم إيجادها في الحروب الصليبية ضد الألبانيين (...) إنه يلائمكم تماماً، أيها الممجون، أن تلصقوا فظاعات لا مثيل لها بأفضل الأباطرة، وقد أغرقتم أوروبا بالدماء (...)"

(Dictionnaire philosophique, Paris, Garnier-Flammarion) P295-297 1977

(Voltaire, Essai sur les moeurs et l'esprit des nations, Paris, Garnier) P 243 VOL .II 1963)

من الوثنيين، لأن الحقد الديني، كما يذكر فولتير، أكثر الأحقاد شراسة⁽¹⁾. وهدمت تلك الهمجية، بهدف تخريب الآثار الفنية التي لا مثيل لها في تاريخ البشرية، حتى المعابد، تلك الروائع التي صنعتها عبقرية الإنسان. لقد هدمها عامة الناس الثائرون يقودهم الرهبان المتعصبون. ومنذ بداية القرن الخامس عمد أغسطس، أكثر المفكرين أهمية في تاريخ النصرانية بعد القديس بول، معتمداً على نصوص من الدوترونوم التي تدعو إلى رجم الملحد، وعلى تفسير مغلوط لفقرة من إنجيل القديس لوك، إلى الدفاع بشدة عن التنصير الإجباري والتعذيب.

عندما ظهر الإسلام، عرف هذا الحقد الموجه ضد الملحد كيف يعبر عن نفسه⁽²⁾، ولا سيما أنه أضيف إلى المنافسة الروحية، من أجل الحقيقة العقيدية وأسر النفوس منافسة سياسية عسكرية دنيوية مؤلة جداً: وانتزع الفتح الإسلامي الساطع من البيزنطية في بضعة عشرات السنين أكثر مقاطعاتها جبالاً، سورية ومصر وأفريقيا الشمالية وإسبانيا؛ من أجل هذا احتفظ التاريخ الغربي في أعماقه بصورة عن الإسلام مرتبطة للأبد بالكراهية والعداوة. في حين أنه من الناحية الدينية بدت الديانة الجديدة⁽²⁾ وهي الأخرى ديانة تدعو إلى السلام الموجه إلى الآخرة - كما فهمها خاصة جان الدمشقي في القرن الثامن - لا تختلف كثيراً عن بعض الطوائف النصرانية العديدة التي تلقت الكثير من التعذيب، وأنكرت هي الأخرى تلك الفكرة الخارقة في أن المسيح ابن الرب الذي هو الأب في الجوهر. وهنا

(1) السفر الثاني عشر 9 والثامن عشر 5-6: "ستقود الرجل أو المرأة الذين ارتكبوا هذا العمل السيء إلى أبواب المدينة، وسترجمها حتى الموت". فيما يتعلق بتهديم معابد الشعوب الأخرى نجد في السفر الثاني عشر 2 - 3: "ستهدم (يقول يهوا) تماماً الأماكن التي تستخدمها تلك الشعوب الذين يستملكونهم في عبادة آلهتهم في أعالي الجبال والهضاب (...) ستقلب رأساً على عقب المعابد (...)". (Augustin, La cité de Dieu, XVIII, 5051 - XIX, 21).

ويذكر أغسطس كلام المسيح (لوك، 14 - 23): "أذهب عبر كل الطرق والحوافز لتجبرهم على الدخول، حتى يمتلئ بيتي"، ليستدل بها ويبرر "التعذيب الصائب". (Lettre au tribun Boniface de 417)، ويكتب بيير بيل سنة 1686م كتاباً كاملاً "التعليق الفلسفي" (le Commentaire philosophique) لكي يعارض هذا الاستخدام المغاير للشرع لكلام المسيح (Commentaire Philosophique).

(*) الإسلام لم يكن أبداً حاقداً على الملحد، وإنما هو رسالة للبشرية جمعاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وينقلمهم إلى أجواء الطمأنينة والعدل والمساواة. (الترجمة)

(2) نقول الديانة "الجديدة" للسهولة اللغوية. فالجدير بالذكر أن الإسلام وهو ثالث ديانة متزلة بعد اليهودية والنصرانية لم يفرض نفسه أبداً كديانة جديدة وإنما جاء ليعيد إلى الصراط المستقيم الديانات التي ضلت وابتعدت عنه.

يضيف في القرن الرابع عشر المسافر الإنكليزي جان ماندوفيل وهو يتحدث عن المسلمين، بعد أن عدد الكثير من النقاط العقائدية المشتركة بين الديانتين، فيما يخص المسيح عيسى ومريم العذراء ومذهب الخلاص، قائلاً: "إن إيمانهم قريب جداً من إيماننا، لذا من السهل جداً جعلهم يعتنقون النصرانية"⁽¹⁾.

لقد لامت النصرانية نبي الإسلام الذي اعتبرته كذاباً ومنافقاً، لأنه أوقف تقدم البشرية باتجاه التنصير العام، بدلاً من أن تكون شاكرة له لأنه قاد جزءاً كبيراً من البشرية إلى الإيمان بالله الواحد. لقد تركزت كل دراسة الغرب النصراني على شخصية نبي الإسلام، المسؤول عن هذا الانقلاب التاريخي المؤلم لهم، سواء كانوا من عامة الشعب أم من رجال الدين والفلاسفة. وها هو "دانتة" يرجو في كتابه "الجميح" لنبي الإسلام سبب الانشقاق والانفصال، أن يُقطع إلى نصفين وأن تنفتح جراحه كلما اندملت، لكي يطول عذابه الفظيع إلى اللانهاية: "محمد دائماً مفلوق من الذقن إلى مخرج الغازات، تتلوى من بين رجله أمتعاه ورتناه وذلك الكيس التعيس الذي يحول ما نأكله إلى براز"⁽²⁾.

وكان المسافرون الوضيعون الذين لا يملكون موهبة الشاعر المشهور دانتة ينعنون هذا النبي بشتى أنواع الشتائم البذيئة. فيصفه غرفن أفاغارت مسافر من القرن السادس عشر من مدينة لومان "إنه طاعون كبير"⁽³⁾ و"نبي كاذب (...)" وجاهل وبتن"⁽⁴⁾. وكثيراً ما تتكرر مثل هذه الشتائم حتى يومنا هذا. أما علماء الدين، فهم وإن حاولوا أن يكونوا أقل بداعة، فإنهم لم يكونوا أكثر إقناعاً. حتى باسكال عالم المنطق الفحل يثير الشفقة عندما يتحدث عن نبي الإسلام ويثير الشكوك عن نبوته ويصفه بالتافه ولا يتوقف عن التساؤل: "هل نبي به؟"⁽⁵⁾. ولم يكن عصر النور أكثر إنارة؛ حتى فولتير أمير الفكر الذي

(1) Mandeville J. de, Voyage autour de la terre, Les Belles Lettres, Paris P103-104.1993

لا يوافق هذا الاعتراف السهل الذي يذكره ماندوفيل أبداً الواقع. بل إننا نجد أنفسنا مجبرين على الاعتراف فيما بعد - بغية لا مثيل له - بأن كثيراً من النصارى قد اعتنقوا الإسلام.

(2) (Dante, La Divine Comédie, chant XXVIII)

(3) Greffin-Affagart, Relation de Terre Sainte, Paris, P139 . 1902.

(4) Greffin-Affagart, Relation de Terre Sainte, Paris, P220-221 . 1902.

(5) (Pascal, Pensées, I, §450).

يحرص عادة على الدقة كان يعتبر القرآن "كتاباً مبهماً كل صفحة فيه تصطدم مع العقل" ونبي الإسلام "تاجر إبل يثير العصيان (...)" ويخطف النساء ليجبرها على الإيمان بكتابه"⁽¹⁾..

تظهر من بين أكثر الأفكار القبلية عناداً ورسوخاً فكرة الإكراه على اعتناق الإسلام بالسيف. وهكذا نرى قوليه برغم معرفته للمشرق وتاريخه جيداً، يقول على لسان أحد الأئمة بأن: "الله سَلَّمَ العالم إلى محمد ليخضع بالسيف من يرفض الإيمان بشريعته"⁽²⁾. إذا انتشر الإسلام حقاً بعدما تمت الفتوح العسكرية فإنه لا مجال لمقارنة هذه الفتوح بالشراسة والمذابح الفظيعة التي واكبت الحروب الصليبية أو الإبادات الجماعية الحقيقية التي رافقت التوسع الأوروبي منذ القرن السادس عشر وفي كل القارات⁽³⁾. إن النجاحات الدينية التي حققها نبي الإسلام لا تدين بشيء إلى قوة السلاح. فهو

(1) فولتير، مقدمة كتابه عن "محمد". نذكر هنا فولتير بسبب غزارة مؤلفاته، إلا أن وضعه مختلف قليلاً. فمحمد في نظره ليس في الحقيقة إلا حجة. إن ملاحظاته في كتابه (Essai sur les mœurs) معتدلة، حتى إنه غالباً ما يدافع عن الديانة الإسلامية أمام الأفكار القبلية وأكاذيب معاصريه المختلفة عن الإسلام. ويكتب ليرد على الفكرة القائلة بأن الإسلام ديانة إباحية وأن مؤسسها داعر عجوز: "إنه من العيب على مدام شاتليه وإنه لمن جبن اليونان المهزومين ومؤرخينا ومقلديهم أن يتهموا محمداً بإقامة ديانة جنسية، فقط لأنه قلص عدد النساء اللواتي يحل للرجل أن ينكهن إلى أربع بعد أن كان يحل له في كل آسيا أن يتزوج ما شاء من النساء بلا تحديد للعدد". الجزء الثاني ص 902، وقد كان فولتير يقارن دائماً بين تسامح المسلمين وتسامح أمراء النصارى.

(2) (Volney, Les Ruines, Ressources) P133, 1979.

إن هذا للكذبة كبيرة إذ لم يستطع أي إمام أن يقول عبارة كهذه.

(3) كان قد كتب Volney في سنة 1791م عن الأوروبيين "اليسوا هم من ملؤوا الأرض منذ ثلاثة قرون ظلماً؟ اليسوا هم من خرب الهند بحجة التجارة وأبادوا شعب قارة جديدة ويخضعون أفريقيا إلى أكثر أنواع العبودية وحشية حتى اليوم؟" ذكر هذا D. Urvoى، في مقالته "العالم الإسلامي ومبادئ الثورة الفرنسية"، مجلة العالم الإسلامي وبحر الأبيض المتوسط Revue du Monde musulman et de la Méditerranée 53/ 52، ص 41. من بين الجرائم الوحشية العديدة التي رافقت التوسع الأوروبي نذكر حادثة الأسلحة المذكورة بالتفصيل في رسالة Afonso de Albuquerque إلى الملك إمانويل الثاني: "لقد حرقنا المدينة (غوا) بعد أن قُتل الجميع... ففي خلال أربعة أيام بدون هدنة أسال رجالك الدماء. وفي كل مكان استطعنا أن نمر به لم نرحم ونترك أي مسلم حي، لقد ملأنا الجوامع منهم وأحرقناها (...). لقد أحصينا عدد المسلمين والمسلمات الموتى وكان ستة آلاف. لقد كان هذا، مولاي، حدثاً كبيراً، قتال جيد وانتهى جيداً أيضاً... هذا الرعب وهذا الذعر مفيدان جداً لطاعتك دون الحاجة إلى الفتوحات". Bouchon G، "ألبركك أسد بحار آسيا"،

(Bouchon G. Albuquerque, le lion des mers d'Asie, Desjonquères Paris, 1992.

=

بعيد كل البعد عن التعذيب والاعتناق الإجباري للدين. بل على عكس الغرب النصراني كان يفرض حتى القرن الثامن عشر على أهل الكتاب من نصارى ويهود لأنهم من أهل الذمة، ضريبة خاصة بهم، وهي الجزية تعفيهم من المساهمة في أي نشاط عسكري، وتوفر لهم حرية عقائدية وشعائرية كاملة واحتراماً فرضه القرآن ذاته⁽¹⁾. بل يجب الاعتراف أنه في بعض الأحيان كانت تعمل بعض السلطات، الضعيفة الالتزام بالإسلام، على كبح اعتناق أهل الكتاب للإسلام، حرصاً منها على سلامة الخزينة المالية أكثر من حرصها على سلامة الأرواح. وإذا حدث شذوذ عن هذه القاعدة - وقد حدث⁽²⁾ - فلقد كان من بعد الحروب الصليبية كنتيجة سياسية للتدخل الأوروبي، الذي عمد بدعمه لبعض الأقليات إلى بليلة التوازن الحساس الذي كان يسود بين فئات الناس. وهكذا نجد جان ماندوفيل يمدح في القرن الرابع عشر التسامح الذي كان سائداً في أمبراطورية الخان الكبير التتري⁽³⁾. وقد كتب جان بالرن بعد قرنين، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تغوص في الدماء بسبب الحروب الدينية: "إنه من عظمة الأتراك السماح بالحرية الدينية"⁽⁴⁾. ويمدح بيريل خلافاً للأفكار القبلية السائدة في عصره وعصرنا الحاضر، التسامح الذي سمح لنصارى الإمبراطورية العثمانية بممارسة دينهم، مقارناً هذا التسامح بعدم تسامح البابوية وأمراء النصارى⁽⁵⁾. حتى دافيد ابن غوريون الرئيس الصهيوني حياً تسامح المسلمين، وتوجه إلى الأمبراطورية العثمانية في بداية الحرب العالمية الأولى عندما كانت الحركة الصهيونية تسعى للحصول بالطرق الشرعية على أراضٍ في فلسطين كاتباً: "لقد أتينا إلى هنا لنستقر ونصبح مواطنين للدولة التي نحبها منذ طفولتنا بسبب موافقها المتساعحة الوحيدة في تاريخ البشرية باتجاه الشعب اليهودي"⁽⁶⁾.

(أشكر Arthur Thèvenard الذي لفت نظري إلى هذا المرجع). إضافة إلى إبادة الشعوب التي كانت طريقة جلية للاحتلال، يمكننا أن نذكر تخريب مجتمعات كما حدث في الجزائر خلال مئة وثلاثين سنة من الوجود الفرنسي وكذلك "التصفية العرقية" كتلك التي حدثت في فلسطين سنة 1947 - 1948م.

(1) نفس المرجع السابق ص 60.

(2) كتاب De Degeorge G، "دمشق من العهد العثماني إلى يومنا هذا"، باريس، 1994م، ص 122 - 125.

(3) (Mandeville J. de, Voyage autour de la terre, Paris) p 185, 1993.

(4) (Paleme J. D'Alexandrei à Istanbul, Paris) p 275, 1991.

(5) Bayel، نفس المرجع ص 275. ليس بالإمكان أن نمنع أنفسنا من التفكير بالجرائم التي جرت أخيراً في يوغوسلافيا.

(6) (Ben Gourion D., Mémoires, Paris, Grasset) p63, 1971.

=

وتبنت أوروبا النصرانية في نهاية القرن الثالث عشر، بعد هزيمة الحروب الصليبية نهائياً وبطلانها أمام قوة المماليك، شكلاً جديداً وماكراً لتدخلها وهو البعثات التبشيرية. هذه "الحروب الصليبية المستمرة بالصلوات والدموع" كما يعرفها الأب بسون من الرهبان اليسوعيين في القرن السابع عشر⁽¹⁾، استمرت لتحقيق أهداف نفعية وذرائعية، وإن كانت موجهة أساساً لخلاص النفوس، غير جاهلة بأن "تأثير الكلام والتأثير المعنوي يمهدان الطريق للمعاملات التجارية والامتيازات الاقتصادية"⁽²⁾، وهما أساس السيطرة السياسية. الجدير بالذكر أن العديد من المفكرين ينكرون بشدة هذا الشكل الجديد للتوسع، فها هو شوبنهاور يرى فيه ليس فقط "قمة التطفل والتبجح والوقاحة الإنسانية"، بل سخافة واستحالة، وذلك عندما يتوجه إلى شعوب تتفوق على أوروبا بأخلاقها ودينها، ولا شيء يدفعها لتحسد أوروبا عليه، كما هو الحال في المشرق والأناضول والصين⁽³⁾. ماذا يفعل شعبٌ معروفٌ "بنبله" و"لياقة" و"أخلاقه الشديدة" و"كرمه" و"بساطته التي هي أكثر نبلاً من بساطتنا" و"أدبه" و"لطفه" و"رحابة أفقه" و"عاداته" و"وقاره الطبيعي"⁽⁴⁾ بقسميين بدائيين وفظين وجهلة، ويتفوق مزعوم لحضارة غربية معجبة بنفسها. ويلخص شوبنهاور المرحلة النصرانية الأولى للتوسع الأوروبي مبنياً مرة أخرى الفجوة التي تفصل بين الأخلاق التي تدعو إليها الديانة النصرانية وتصرفات مؤمني النصارى، فيقول: "إن قائمة الأعمال الوحشية التي لا تليق بالإنسان طويلة جداً: منها تلك الجرائم التي رافقت النصرانية والحروب الصليبية التي لا يمكن غفرانها، وإبادة الجزء الأكبر من سكان أمريكا البدائيين،

ورد هذا النص في مذكرة موجهة إلى الجنرال العثماني جمال باشا، حاول ابن غوريون من خلاله إلغاء مذكرة طرده لكونه عضواً في منظمة سرية معادية للإمبراطورية العثمانية. والجدير بالذكر أنه في ذلك الوقت، أي قبل ثلاث سنوات من تصريح بلفور، لم يكن من أهداف الصهيونية السياسية في بلاد الشام سوى الاستقرار كطائفة في داخل الإمبراطورية العثمانية. أما اليوم فلم يعد المسؤولين والصحافة الصهيونية يمدحون أبداً تسامح المسلمين، بل على العكس، إنهم يستقبحون بشدة التضامن الإسلامي وهو يقوى من إيران إلى الجزائر عبوراً بتركيا ويقعون بإرادتهم في عداوة الإسلام الابتدائية.

(1) (Besson le P.J., La Syrie Sainte et la Terre Sainte au XVII^{ème} siècle, Poitiers, H. Oudin). 1862

(2) (Bordeaux H., Voyageurs d'Orient, Paris) p289, VOL I, 1926.

تعليمات الأب جوزيف للرهبان الكبوشيين. (Instructions du Père Joseph aux Capucins).

(3) (Schopenhauer, Sur la religion, GF-Flammarion, Paris) p 56, 1996..

(4) استخرجت هذه الصفات الحميدة التي يُنعت بها السورويون وسكان الإمبراطورية العثمانية من كتاب فولني "رحلة في مصر وسورية" ومن كتاب لامرتين "رحلة إلى المشرق"

(Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, Gautier TH., Constantinople et Lamartine, Voyage en Orient).

واحتلال ذلك الجزء من العالم برجال سُرقوا من أفريقيا (...) وتعذيب الملحددين المستمر ومحاكم التفتيش (...) وليلة القديس بارتلمي (...) وجرائم كثيرة أخرى⁽¹⁾. اعتباراً من نهاية القرن الثامن عشر، مع ظهور التقدم التقني والقيم الجديدة، قيم عصر النور والثورة الفرنسية، لم تعد الاعتبارات الدينية مبررات لمشاريع التوسع والفتوح، وإن استمرت البعثات التبشيرية تمولها في بعض الأحيان جهات مضادة للنصرانية. ولكن من بونابارت إلى الصهيونية، أصبح التوسع يجري باسم القيم العلمانية: التعليم وتحرير الشعوب التي يعتبرونها متخلفة، ونشر الحضارة والتقدم. وجاء نوعان من الاعتبارات لترضي مشاعر الإنسان الأوروبي في التفوق، ولتساعده على التغلب على مخاوفه الأخيرة: نظرية أرتور دوغوبينو العنصرية التي تضع الأوروبي في قمة هرم الأجناس البشرية، ورسالة أرسطو الوجودية التي تقسم البشرية إلى قسمين: "الدُّونِيُّون عقلانياً" وهم "عبيد بطبيعتهم" و"المتفوقون القادة بطبيعتهم"⁽²⁾. كان هذا التصدير "للحضارة" على حساب الشيء الجوهري وهو حرية شعوب لم يؤخذ برأيها أساساً. فلقد ذكر هذا جون ستوارت ميل قبل عام 1859م عندما قال: "ليست روح التقدم دائماً روح الحرية، لأنه من الممكن أن تهدف إلى فرض التقدم على شعب متحفظ"⁽³⁾. وهكذا في عام 1920م عندما فرضت فرنسا بالقوة الانتداب على سورية، وهي تحمل بيد شعار حقوق الإنسان وفي اليد الأخرى البندقية، قدّمت أولاً ونفاقاً رسالتها "التاريخية" في حماية الأقلية النصرانية من جهة ومن جهة أخرى "ثقانيها" و"نجاتها النبيلة" ورغبتها في "جلب الخير بوضع نظام قائم على الاستقلال والنظام والتسامح والغنى"⁽⁴⁾. لم يُقَصِّر السوريون في التعبير عن استيائهم وخيبة أملهم، واعتبروا ما قامت به فرنسا خيانة

(1) (Schopenhauer, Le fondement de la morale, Paris, Le livre de poche) p 189, 1996.

هناك فقرة مشابهة حيث يحمل "منطق المنتصر" على القيم النصرانية، انظر كتاب ليفيناس

(Lévinas E., Entre nous, Paris, Grasset/Poche) p 197, 1991.

(2) (Aristote, Politique, Denoël/Médiations) p 21-24, 1983.

(Ethique à Nicomaque, Paris, Presses Pocket) p209, 1992.

والجدري بالذكر بأن رسالة أرسطو استخدمت لتبرير ظلم الهنود الذي لا حدود له: "يجب إخضاع (...) الذين عليهم طاعة الآخرين بالسلاح بسبب ظروفهم الطبيعية". هذا ما أجاب سبولفيدا لاس كزاس في منازعة فالادوليد المشهورة

(Valladolid, Paris, Critérion Cf. Dumont J., La vraie controverse de) p 192, 1995.

(3) (Stuart Mill J., De la liberté, Presses Pocket) p 127, 1990.

(4) هذه الأقوال مستخرجة من ملاحظة ومن رسالة أرسلها الجنرال غورو إلى الأمير فيصل

(Pichon J., Sur la route des Indes un siècle après Bonaparte, Paris, Société d'Éditions géographiques, maritimes et coloniales) p 356-362, 1932.

من المثير مقارنة رسائل غورو هذه بمقدمة كتاب "وصف مصر" التي دققها وراجعها بونابارت نفسه.

حقيقة للمبادئ العالمية المزعومة. وهذا خسرت فرنسا نهائياً ثقة الشعب العربي بها⁽¹⁾.



(1) سيعبر عن المآخذ نفسها والاعتراضات الشعب الجزائري فيما بعد. كتب من أعماق سجون الجمهورية أحد القادة: "ابحث عن فرنسا التي درستها على مقاعد المدرسة، ولا أجدها إلا عند بعض الفرنسيين الذين يخرجون من كونهم فرنسيين عندما يكون الأمر متعلقاً بحرب الجزائر".

(Cité par Stora B., l'effet "89" dans les milieux immigrés algériens en France) 19201960 -

(Revue du monde musulman et de la Méditerranée)p 238, 52-53.

هذا النفاق ذاته سمح لفرنسا اليوم أن تدعم الأنظمة (السلطوية) التعديبية لابن علي في تونس ولزروال في الجزائر. هذا النفاق ذاته سمح لها مرة أخرى بدعم العراق سنوات طويلة في حربها ضد إيران، ثم لتشارك بعدها بجانب الولايات المتحدة الأمريكية في حرب الخليج الشائنة.

الكارثة

كان النصف الأول من القرن العشرين من أكثر الحقب ظلمةً في تاريخ دمشق وسورية. ففي سنة 1915م وعد الإنكليز العرب، مقابل مساهمتهم في محاربة الأمبراطورية العثمانية، بالاستقلال لكل الأراضي الواقعة إجمالاً في جنوب جبال طوروس⁽¹⁾. ولكن في العام التالي تقاسمت إنكلترا وفرنسا أثناء مفاوضات سرية الشرق الأوسط وجعلته مناطق نفوذ. وأخيراً في 2 تشرين الثاني 1917م كان وعد بلفور، وهو عقد ملزم لطرف واحد قرره حكومته جلالة بدون علم الشعوب المعنية، متصرفاً بأرضي لا تملكها، متذرعاً باحترام حقوق العرب⁽²⁾، وملتزمة بالعمل على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي⁽³⁾. بعد نصر الحلفاء في الحرب العالمية الأولى تقرر نهائياً تقطيع تلك الأقاليم في مؤتمر سان ريمو في نيسان 1920م، وقد أكدته معاهدة Sèvres في آب من العام نفسه وأيدته عصبة الأمم المتحدة في 24 تموز 1922م. وخلافاً لمبدأ حق الشعوب في حرية التصرف، وجدت سورية نفسها، بدل الاستقلال والوحدة الموعودة، ليس فقط مجزأة بل موضوعة تحت وصاية أجنبية. وكان الجزء الجنوبي والصفة الغربية وشرق الأردن تحت انتداب بريطاني، في حين كان الجزء الشمالي والمعروف اليوم بسورية تحت

(1) Pichon J. Le partage du Proche-Orient, 1938. Degeorge G.،

(نفس المرجع، ص 149 - 150). إن مشاركة العرب هذه تحت قيادة شريف مكة في مكافحة الأتراك لم تكن برضا الجميع، فضلاً على ذلك، سببت المشاركة إلى جانب الحكومات النصرانية ذات المطامع الإمبريالية في مكافحة دولة مسلمة شقاً خطيراً في داخل الأمة الإسلامية. لقد كان هذا عملاً مستحسناً وخطيراً لم يسبق أن حدث مثله، وفتنة حقيقية لا تزال نتائجها ملموسة حتى اليوم في العلاقات التركية العربية. إن مبدأ "الوطنية" المستورد من الغرب - لا يلائم بالتأكيد المشرق اليوم أيضاً - أبعد المشرق عن التضامن المعتاد على أساس الدين.

(2) تلك الحقوق المذكورة في التلميح الجميل التالي: "... بشرط ألا يمس الحقوق المدنية والدينية للتجمعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين أي أذى".

(3) (Cf. Neher-Bernheim R., La déclaration Balfour, Paris, Julliard) p 10, 1969.

في الصفحة العاشرة من نص وعد بلفور نجد بوضوح تام ما يلي: المقصود هو إنشاء بؤرة في فلسطين (وحدة قانونية كاملة لم يسبق لها مثيل)، وليس جعل فلسطين دولة. قُدِّم التصريح على شكل رسالة موجهة من وزير الخارجية إلى اللورد Walter Rothschild نائب رئيس المنظمة التي تمثل اليهود الإنكليز.

انتداب فرنسي⁽¹⁾. وطرّد جيش الجنرال غورو⁽²⁾ الأمير فيصل من دمشق بعد سنتين من الحكم، وذلك في تموز 1920م. ولجأت السلطة الانتدابية آملة تحطيم الترابط القومي وروح الاستقلال، إلى التجزئة الإقليمية. فخلقت على الساحل دولة في لبنان ودولة في حلب وأخرى في دمشق، وفي أراضي العلويين، وذلك حرصاً منها على ربط السكان عن طريق حكومات ذاتية محلية مستقلة.

ولكن هذا لم يخفف من الرغبة في الوحدة، وعبر الأمير فيصل جيداً - متأسفاً على الوحدة التي كانت سائدة أثناء الحكم العثماني - عن خيبة أمل ومرارة العرب، من خلال مذكرته التي قدمها إلى مؤتمر الحلفاء الذي عقد في لندن في آذار 1921م. وكان قد كتب فيها: "لم يجلب السلام لأي من الحلفاء - العرب - خيبة أمل أكثر مرارة. لم يحصل العرب على استقلالهم، بل خسروا وحدتهم التي كانوا ينعمون بها عندما كانوا موالين لاسطنبول (...). بل يصعب تبرير تقسيم الأقاليم إلى دول مختلفة ومستقلة بعضها عن بعض"⁽³⁾. واقرّفت فرنسا ذروة أخطائها السياسية في تشرين الثاني 1925م عندما لجأت - من أجل كبح الانتفاضة الوطنية على طريقها - إلى قصف دمشق المركز، مسببة العديد من الضحايا المدنيين وغربة كل الجزء الغربي من المدينة داخل السور.

واستمر الانتداب - كلمة قانونية ملطقة، تخفي وراءها في كثير من النقاط احتلالاً حقيقياً - مدة قصيرة من الزمن⁽⁴⁾، إلا أن نتائج هذا التدخل الأوروبي قد كان له تأثير طويل وحتمي في تطور الشرق الأدنى فيما بعد. كان من هذه النتائج: استمرار التقسيم الإقليمي، الذي عمل بالتأكيد على انقسام وضعف المنطقة، وخلق في الجزء الجنوبي من سورية سنة 1948م دولة إسرائيل، وهي دولة توسعية محبة للحرب، كان وجودها سبباً لخمسة نزاعات مسلحة هدّدت السلام في العالم في مدة تقل عن أربعين سنة. لم تخف الدولة الصهيونية منذ البداية أهدافها: ليس فقط في إنشاء "وطن قومي" في

(1) Degeorge G p 156-166.

كان السوريون الراغبون في الانتداب الفرنسي من الطائفة المارونية، في حين خاب أمل عديد من السوريين بعد تقسيم المنطقة، غانم ش.، كتابات سياسية، دار النهار، بيروت، 1994م، ص 216.

(2) أدان سياسة غورو اللبنانية الجترال كاترو بشدة، وهو أحد أفضل المختصين بالقضايا العربية في فرنسا: "لقد كانت خطأ نفسياً خطيراً"، أوجت بها "عقيلة متصلة وتحيّز طائفي". وكان هذا في كتابه

(Deux missions en Moyen-Orient 1919-1922 Paris, Plon)p 57, 1958.

(3) Neher-Bernheim p 415.

(4) انتهى الانتداب الفرنسي في سورية في نيسان 1946م. غادر آخر الجيوش الاحتلال البلد في 7 نيسان 1947م.

فلسطين لليهود كما وضحه وعد بلفور، ولكن في تحويل فلسطين إلى دولة يهودية. وقد عمل هذا بالطبع على إثارة الريبة أولاً، ثم عداوة سكان فلسطين الشرعيين. وعندما سأل وزير الخارجية الأمريكي عن القصد من "الوطن القومي" أجاب الدكتور وايزمان في مؤتمر السلام الذي عقد في 27 شباط 1919م بأن المقصود منه "أن تبنى تدريجياً أمة يهودية كما أن فرنسا فرنسية وبريطانيا بريطانية"⁽¹⁾. ويُعرّف فلاديمير جابوتنسكي الصهيونية بأنها حركة تهدف إلى "إقامة أغلبية يهودية في أرض إسرائيل وعلى ضفتي الأردن"، ويصرح بأن "هذا التعبير لا سابق له، وقد اختير بكل بساطة لكي لا يثيروا حفيظة السلطات التركية"⁽²⁾. والجدير بالذكر أن فلاديمير جابوتنسكي، رئيس الحزب الأصولي، ذا الميول الفاشية، كان يسميه ابن غوريون "فلاديمير هتلر" كما كان يدعو ميناخيم بيغن "الأب الروحي للبطولة اليهودية المستعادة"⁽³⁾. إن التفسير الذي أعطاه فلاديمير "للوطن القومي" يماثل تماماً تفسير منافسه السياسي اليساري ابن غوريون - مع أنه كان معروفاً بكونه أقل حزماً - فهو يقول: "يعني الوطن القومي تحويل كل الأراضي التي كانت تحت سيطرة الانتداب من فلسطين وضفتي الأردن إلى دولة يهودية، أي كومنولث ذي أغلبية يهودية"⁽⁴⁾. إننا لنجد هذا الهاجس في تحويل الوطن إلى دولة وفقاً للنظريات الصهيونية حاضراً في خلد الأغلبية، وفي تصريحات ونصوص كل السياسيين اليهود. يصرح ابن غوريون في تموز⁽⁵⁾ 1932م في أحد اجتماعات الحركة الصهيونية المعقود في لندن: "إن تحقيق المثل الصهيوني الأعلى يتطلب أغلبية يهودية". وبدأ هذا على أرض الواقع

(1) Neher-Bernheim p.366.

(2) مذكرات ابن غوريون ص 320، (تصريح 2 تموز 1931 أثناء مناقشات المؤتمر).

(3) Begin M., La révolte d'Israël, Paris, la Table Ronde) p 431, 1971.

(4) مذكرات ابن غوريون ص 326، تصريح 12 تموز 1931م أثناء المؤتمر.

(5) نفس المرجع ص 353، وانظر أيضاً الصفحات 213، 257، 278، 293، 312، 320 ومواقع مختلفة. يقول وايزمان في 15 تموز 1930م: "لا نريد بناء بلد نكون فيه أقلية" (ص 278). يقول الصهيوني ميشل بار زوهار في كتابه التبريري الغني بالاعترافات "ابن غوريون، النبي المسلح"

(Ben Gourion, le prophète armé, Paris, Fayard) 1969.

في عالم ابن غوريون، في دولته، لا وجود للعرب، فهو لا يعرف أحداً منهم ولا يريد معرفتهم" (ص 226). ويقول ابن غوريون: "أرض بعرب وأرض بلا عرب نموذجان من الأراضي المختلفة"

(Ben Gourion, Archives du gouvernement 1949 (Seguev T., The first Israelis, The free Press, New - York p26, 1986.

بالدعوة إلى الهجرة بأعداد كبيرة، وطرده الفلاحين من أراضيهم، التي جرى الاستيلاء عليها من خلال التنقل والأفضلية الممنوحة لما تسميه النصوص مرة "العمل الذاتي" ومرة "العمل اليهودي" وذلك في كل القطاعات والنشاطات الاقتصادية. وبرغم العبارات المناقفة التي كانت تدعو إلى الأخوة بين العمال أو إلى صراع الطبقات ضد "الأفندية" المستغلة، فقد كان اللجوء إلى اليد العاملة العربية الرخيصة يعتبر مقاطعةً للعمال اليهود⁽¹⁾، بل طعنةً لجوهر الصهيونية نفسه⁽²⁾. كتب أحد أصدقاء ابن غوريون الذي كان يأتمنه على أسراره وهو ميشل بارزور⁽³⁾ في كتابه عن ابن غوريون: "كان ابن غوريون يحارب أصحاب الممتلكات الذين يستخدمون أيدي عامله عربية". أما من الناحية السياسية فقد بدا هذا جلياً برفض كل نظام برلماني يعتمد على الأغلبية النسبية، كما كان مقترحاً في كتاب باسفيلد الأبيض الصادر في تشرين الأول 1930م بعد ثورات 1929م الشعبية. وصرح ابن غوريون في مؤتمر بال الذي عقد في تموز 1931م عن مخاوفه من إنشاء دولة ذات أغلبية عربية، مما يعني بلا شك ضربة قاضية على الهجرة اليهودية، قائلاً: إننا نرفض سيطرة الأغلبية

(1) نفس المرجع السابق، ص 284، "تهمد فكرة المندوب السامي في استخدام المزيد من العمال العرب فكرة الوطن القومي اليهودي". كتب هذا ابن غوريون الذي يعترف مع هذا بحاجة فلسطين إلى الأيدي العاملة، رسالة 8 كانون الأول 1933م، (ص 497).

(2) (Cohen M., Du rêve sioniste à la réalité Israélienne, Paris) p 162, 1990.

"من الحلم الصهيوني إلى الواقع الإسرائيلي" 1990م، ص 162.

(3) (Bar-Zohar M., Ben Gourion, Le prophète armé, Paris, Fayard) p 33, 1966.

ابن غوريون النبي المسلح" 1966م، ص 33. يقول بار زوهار في كتابه "ابن غوريون، النبي المسلح": "لا يحب ابن غوريون العرب (ص 75). إنه لا يقول هذا أبداً، بل إنه في كثير من الأحيان دعمهم من خلال نشاطاته النقيية. في حين أنه عندما يتحدث عنهم في مذكراته الخاصة فإنه يعتبرهم في أغلب الأحيان أعداء". فيما يتعلق بصراع الطبقات لم يتوقف حليم أرلوزوروف عن التكرار لأمثاله الصهاينة بأن هذا المفهوم كان عديم التأثير في فلسطين. نفس المرجع، Cohen M، ص 152. كان جزء من الشيوعيين فقط يدافعون عن العمال العرب ذاكرين "بؤس عشرات الآلاف من الفلاحين العرب وسيطرة الإمبريالية والصهيونية" وكانوا يطالبون بمشوراتهم الجماعة العربية "بأخذ الأرض بالقوة من المحتلين والصهاينة" (مذكرات ابن غوريون ص 337). انظر أيضاً في ص 440 هذه الحادثة: في اجتماع 27 أيار 1933م، طُرد أحد المشاركين الذي قاطع ابن غوريون صارخاً "إنك تحرم العرب من العمل". في مفهوم ابن غوريون، ليس اليهود من يأخذ مكان العرب، بل على العكس، كما تشهد عليه مقولته في 9 تشرين الثاني 1932م: "إذا لم يصعد الرواد (أي لم يهاجروا إلى فلسطين)، سيأخذ العرب أماكنهم"، مذكرات، ص 374؛ وبرغم وضوح الحقائق، فإن انتزاع الملكية من الفلاحين العرب كان يعتبر عادةً بالنسبة للصهاينة "كذبة مخنقة" مذكرات، ص 354.

الموجودة "العرب" على الأقلية التي لا تكون إلا جزءاً من الأمة اليهودية والتي في طريقها إلى بلدها"⁽¹⁾. ودافع بعد بضعة أيام أمام رئيس الوزراء راماسي ماك دونالد عن مبدأ التمثيل المتساوي قائلاً: "نحن لا نريد سلطة يهودية عندما سيكون اليهود أكثر عدداً من العرب في إسرائيل، لهذا نرغب اعتماد مبدأ التساوي في التمثيل"⁽²⁾. أما فيما يخص الأهداف التوسعية الجلية في تفسير عبارة "الوطن القومي" فقد كانت متكررة في التصريحات الرسمية. وصرح ابن غوريون في 1930م بعد تسع سنوات من خلق إمارة شرقي الأردن عن طريق الانتداب البريطاني، وذلك في مؤتمر بال قائلاً: "توجد في الجزء الشرقي، أي على ضفة الأردن اليسرى، أراضٍ كبيرة وشاغرة. فنحن لا ندرك لماذا يعد نهر الأردن حداً لهجرتنا واستقرارنا"⁽³⁾. عندما اقترحت لجنة بيل سنة 1937م خطة تقسيم لاتمنح

(1) ابن غوريون، نفس المرجع السابق، تصريح في مؤتمر 2 تموز 1931م في بال. من الواضح أن كل هذه الادعاءات مستندة إلى أسطورة صهيونية معروفة تزعم أن الأرض للشعب اليهودي ورثة العبريين القدامى وأن العرب منتفون مؤقتون. "ليس اليهودي غريباً ولا متطفلاً ولا مهاجراً في فلسطين. إنه في بيته". (ابن غوريون "من الحلم إلى الواقع" باريس، 1986م، ص 110)، في حين أن العرب "أناس متخلفون توارثوا هذه الأرض دون أن يكون لهم فيها أي جذور"، (بار زوهار، نفس المرجع ص 29)، قد كانوا يتصرفون بمساحات واسعة من أرض شعب نادر"، (من الحلم إلى الواقع ص 88). لم يكن كل الصهاينة يتمتعون بنفس أمانة ووضوح إليزوين يهودا - أب العبرية الحديثة - فلقد قال وقد أخذ منه القلق كل مأخذ عندما دخل لأول مرة إلى فلسطين: "هذا هو الواقع، الواقع الملموس. ها هم مواطنو هذه الأرض، إنهم العرب، لقد استقروا فيها ويعيشون فيها، في حين أننا متبعثرون هنا وهناك في العالم (...)" BERNHEIM - NEHIER، في مرجعه السابق، ص 107.

(2) مذكرات، ابن غوريون، ص 323 - 324.

في ضوء تصريحات صهيونية أخرى عديدة وحوادث سابقة خاصة، يعتبر التصريح وقاحة لا أساس لها. لأنه ليس واضحاً كوضوح تصريح الدكتور إدر، رئيس المجلس الصهيوني العالمي، الذي صرح به أمام هيئة هيكرافت التي أتت إلى فلسطين لتحقيق في أمر أول ثورة عربية، أي ثورة عام 1921م، ولقد قال فيه: "لن يكون في فلسطين إلا وطن قومي واحد، وهو وطن اليهود. لن يكون في هذا البلد مشاركة متكافئة بين العرب واليهود، ولكن هيمنة يهودية إلى أن يصبح عدد أعضاء العرق اليهودي كبيراً بقدر كاف (...)" علينا أن نمنح اليهود في فلسطين حق حمل السلاح ونمنع عن العرب

(Porath Y., The Emergence of the Palestine Arab National Movement, London, Frank Cass) p57, 1974.
(Soliman L. (Pour une histoire profane de la Palestine, Paris) p33, 1988.

تظهر ازدواجية القادة الصهاينة فيما يتعلق بهذا الأمر بوضوح في تقرير ابن غوريون أثناء اجتماع 18 كانون الأول 1933م: "فيما يتعلق به (أي بوايزمان)، لا يريد مثل هذه المؤسسة (أي التمثيل المتساوي) وهو لا يعتقد بأنها مستحصل. ولكن من المهم أن نكون من ضمن المعارضين لها. إن فكرة التكافؤ ستهدئ النفوس بدون أن تورطنا"، مذكرات، ص 502.

(3) مذكرات، ابن غوريون، ص 313. منذ عام 1919م، والصهاينة يعلنون استرداد الأراضي: فلسطين من اللطاني إلى العقبة، من ضمنها شلالات حرمون، وسهل الجولان وحوارن والضفة الشرقية للأردن. نهر برنيم، نفس المرجع، ص 376 والصفحات التالية.

اليهود إلا 25٪ من الأراضي الفلسطينية، كانت الرغبة بنقض الاقتراح واضحة جداً، وإن استدعى الأمر استخدام القوة، وصرح ابن غوريون: "سنحطم الحدود التي يقترحونها لنا، وليس بالضرورة بالحرب"⁽¹⁾. وكانت كل التصريحات والتحركات تناقض في كل النقاط وعد بلفور نصاً وروحاً، كما ذكر النيبيل هربرت سامويل المندوب السامي البريطاني الأول في تقريره لصيف 1921م. إن تطلعات الصهيونية خاضعة فيما يتعلق به لحقوق العرب، لذا نجده يقول: "إن الدرجة التي يمكن أن تحقق تطلعات اليهود في فلسطين تتعلق بحقوق سكانها الحاليين"⁽²⁾. من جهة العرب، كانت هذه التطلعات تثير القلق والثورة عند الفلسطينيين، الذين كانوا لا يجهلون كل شيء عما يرمي إليه المشروع الصهيوني وما يخبئه لهم، وتثير عند الدول المجاورة العديد من الاحتجاجات. فمنذ ربيع عام 1914م نادى عليّة القوم في القدس ويافا وغزة في جريدة إسطنبول: "إذا لم يأت الرجال المخلصون لنجدة الفلسطينيين، وسيكون مصيرهم كمصير هنود أمريكا. تهدد الصهيونية - وهي كيان في الدولة العثمانية - وجود العرب أنفسهم في فلسطين"⁽³⁾. وصرح في 13 تشرين الثاني 1933م محافظ مدينة نابلس أمام المندوب السامي البريطاني قائلاً: "يشعر العرب بالخطر الذي يهددهم بالعبودية أو الطرد من البلد. القول بأن اليهود يجعلونهم مزدهرين كلام لا معنى له، لأننا إذا وجدنا أنفسنا مطرودين أو مستعبدين، لا يهم ما سيؤول إليه البلد من غنى أو جمال"⁽⁴⁾. لم يكن الطرد بدون أي شرط - لم يتأخر المستقبل القريب عن البرهنة عليه - مخاوف لا مبرر لها، فضلاً على أن العناصر يمين الأصولي التي هي أكثر تطرفاً كانت تطالب به علناً. تبني حزب العمل الإنكليزي ذاته قبل ستة أشهر من الحرب العالمية الثانية مشروع قانون يطالب على الأقل بنقل كل العرب من أرض إسرائيل إلى البلدان

(1) بار زوهار، نفس المرجع، ص 85.

(2) ابن غوريون، "من الحلم إلى الواقع"، ص 55.

(3) كيبالي، أ.، "تاريخ فلسطين 1896 - 1940م" باريس، ص 39، لم يكن التشبيه بأمريكا غريباً على الفكر الصهيوني. إذ لم يتردد ابن غوريون الفتى وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة بذكر نموذج تلك الدولة القائمة على إبادة الملايين من الهنود: "نحن الذين نرغب في إقامة بلد جديد في الصحراء... علينا أن نرى كيف بنى المنفيون الملعبون من إنكلترا دولة غنية جداً ذات قوة لا تضاهي"، مذكرات، ص 71.

(4) مذكرات، ابن غوريون، ص 482، تعد مقولة أن الهجرة اليهودية ناقلة للحضارة والغنى - استخدم هذه الفكرة فيما مضى هرتزل وهو نتاج الإيديولوجية الاستعمارية الأوروبية - لازمة المبررات الصهيونية. لذا صرح ابن غوريون بدون تردد أثناء مؤتمر صحفي عقد في لندن في كانون الأول 1933م قائلاً: "تجلب الهجرة اليهودية للعرب ازدهاراً لا يمكن تخيله"، مذكرات، ص 494.

المجاورة⁽¹⁾. وهاجمت منذ بداية الحرب العالمية الثانية الجماعات الإرهابية غير المشروعة والمشكلة من رجال مدرّبين جيداً ينتمي جزء كبير منهم إلى فدائيي الصدام في الجيش البريطاني، قوات الانتداب، برغم الحرب التي كانت تشنها هذه على ألمانيا النازية. وطالبت جماعة شترن أكثر الجماعات تعصباً بدولة يهودية تمتد من الفرات إلى النيل، حتى إنها ذهبت بعيداً وتحالفت مع هتلر ضد بريطانيا العظمى⁽²⁾. وابتداءً من تشرين الأول 1945م كثرت على الأرض الفلسطينية الاغتيالات وخطف الضباط والرهائن وسرقة الأسلحة ومهاجمة مراكز الشرطة وثكنات الجنود وتخريب مصافي البترول والجسور والسكك الحديدية... إلخ. ففي 22 تموز 1946م فجرت جماعة إيتزل التي يقودها ميناحيم بيغن فندق الملك دافيد ومقر القوى البريطانية العام، مسببة أكثر من مئتي ضحية منهم خمسة عشر يهودياً مدنياً⁽³⁾. في ذا الجو قررت بريطانيا، مدركة التعارض المطلق بين أهداف وطرق الصهيونية والوعود التي يحتويها وعد بلفور، وخاصة تلك التي تتعلق بحق العرب، في 14 شباط 1947م أن ترفع القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة. وجرى التصويت على مخطط التقسيم بأغلبية الثلثين فيها⁽⁴⁾ في

(1) "هذا ما لم نطلبه أبداً الحكومة الصهيونية والشعب اليهودي"، أضاف ابن غوريون في مذكراته، ص 134 - 135، مرة أخرى يُضبط الزعيم الصهيوني في حالة تلبس بالكذب. منذ عام 1940م كتب يوسف ويتز، رئيس مديرية الصندوق الوطني للاحتلال اليهودي: "فيما بيننا، يجب أن يكون الأمر واضحاً في أنه لا مكان في هذا البلد لشعبيين معاً (...). الحل الوحيد هو أرض إسرائيلية أو على الأقل أرض إسرائيلية في الغرب من نهر الأردن، وذلك بدون عرب (...). ليس هناك أي وسيلة أخرى سوى نقل العرب من هنا إلى البلاد المجاورة، نقلهم جميعاً، بحيث لا يبقى منهم أي قرية أو أي قبيلة"

(Shayak I., L'idée du transfert, Renvue d'études palestiniennes) p 155, 1988.p

(2) بار زوهار، نفس المرجع، ص 99، أي مساعدة روميل ضد منافسه مونتغمري، بشرط أن يعد هتلر بخلق دولة يهودية بعد فتحه للشرق الأدنى. نقل هذا الاقتراح إلى السفير الألماني في أنقرة مبشورون يهود صرحوا: "بوضوح مشاعرهم الموالية للاشتراكية القومية وأفكار هتلر"،

(Leibowitz Y., Israël et le judaïsme, ma part de vérité, Paris) p46, 1993.

ولقد عمل يائير شترن الذي كان لا يرى في النازية إلا "مناهضة سامية معتدلة" على تحقيق ذلك التحالف حتى شباط 1942م عندما قتلته الشرطة الإنكليزية. في نهاية 1943م، نفس المرجع Dieckhoff A، ص 279.

(3) نفس المرجع، Begin M، ص 256 - 276.

الجدير بالذكر أن الإرهاب المناهض لبريطانيا أثار تغييراً في السياسة السوفيتية التي حتى ذلك التاريخ كانت تعتبر فلسطين أرضاً عربية والصهيونية دمية في يد الإمبريالية البريطانية.

(4) كان هذا أقل ما يمكن المطالبة به. إذ كانت بريطانيا من المستنكرين وأبدت أنها لن تساعد في تطبيق المخطط وأنها ستحتفظ بكل سلطتها حتى 15 أيار 1948م، يوم انتهاء الانتداب ورحيل الجيوش الأخيرة. جرى التصويت على القرار تحت ضغط الولايات المتحدة الأمريكية الكبير، فلقد كان رئيسها ترومان حريصاً على إعادة انتخابه، وكان يدي اتهامه الكبير بأصوات

29 تشرين الثاني 1947م: اتفاق من جهة واحدة هي المنظمة العالمية، دون موافقة الجهة الثانية وهي سكان فلسطين الشرعيين الذين رفضوا هذا الاتفاق بمبادئه وشروطه الأساسية. ومع أن ثلث سكان فلسطين المتتدبة كانوا من اليهود فقط، فقد منحهم الخطة 57٪ من الأراضي وخاصة أكثر المناطق خصوبة⁽¹⁾. ومع هذا لم يرض الاتفاق الصهاينة الذين زعموا أنهم لم يحصلوا إلا على "ثمن المساحة الموعودة لهم في وعد بلفور"⁽²⁾. ومنذ كانون الأول 1947م ضاعف الصهاينة من كل جانب تصريحاتهم للحرب رغبة منهم في توسيع الحدود التي رسمتها منظمة الأمم المتحدة وتحقيق الحلم القديم في "الصفاء العرقي"، فعلوا ذلك وهم يتظاهرون بقبول القرارات العالمية. فها هو ابن غوريون "الذي لم يؤمن أبداً بإمكان التعايش مع العرب" يطالب بدفع الهجوم على نطاق واسع "بغية تقليص نسبة السكان العرب إلى أكبر حد في حدود دولة المستقبل"، ويؤكد أنه "كلما قل عدد العرب كان هذا أفضل"⁽³⁾. ويصرح إرغون بأن "تقسيم الوطن" غير شرعي وبأنه لن يعترف به أبداً وأن

اليهود الأمريكيان ولقد صرح قائلاً: "إنني أنأسف لمجموعة السفراء الأمريكيان في البلاد العربية، ولكنني ألبى رغبة مئات الآلاف من المنتخبين اليهود الذين يرغبون بشدة نجاح الصهيونية، إذ ليس من بين المنتخبين مئات الآلاف من العرب". ذكر هذا سوليمان في نفس المرجع، ص 99، بالطبع حيّاه الصهاينة بشدة وها هو بار زوهار يرى أنه "أحد الموالين الرئيسيين لدولة اليهود بلا نزاع"، نفس المرجع، ص 177.

(1) إضافة إلى أن عدد السكان العرب يعادل اليهود في الدولة اليهودية.

(2) (Sharef Z., Les trois glorieuses d'Israël, Paris, Robert Lafont)p 227, 1963.

(3) بار زوهار، نفس المرجع، ص 146، "يضيف المدّاح ابن غوريون بمكر: يمكننا أن نتهمه بالعنصرية ولكن عندها علينا إدانة كل الحركة الصهيونية القائمة على أساس كيان يهودي يحث في فلسطين"، ص 146، وقد مدح الشاعر أوري تزيغه غرينبرغ (1897 - 1981م) صفاء الدم اليهودي وشبهه تفوق الصبغيات اليهودية على غير اليهود والعنف المنفذ بمفاهيم عنصرية جديرة بغويينو تلك التي كان يجب أن تقود الإبادة العنصرية في ألمانيا النازية. في نفس المرجع يذكر

Dieckhoff A p 273 - 272 A l'égard des Arabes, l'ouvrage d'Amnon Kapeliouk, Hébron, un massacre annoncé, Paris, Arléa/Seuil 1994.

لكل أولئك الذين لم يخالفهم الحظ أن يشهدوا في إسرائيل أو في الأراضي المحتلة حشداً من السمات العنصرية اليهودية التي لا تطاق ضد العرب: يصرح بروخ غولدشتاين وهو مذبذب مشهور في سرداب البطاركة وطبيب في دولته قائلاً: "طبيب بيطري كافي جداً للعرب" (ص 39). ولا يفتأ أجاب اليهود بترديد العبارة التلمودية القديمة: "أنتم، إنكم بشر، أما الغوييم فلا" (الغوييم كلمة يهودية تطلق على غير اليهود) (ص 71). إن العبارة المفضلة عند المتطرفين: "العربي الجيد هو عربي ميت" (ص 148) وكل النعوت التي يوصف بها الفلسطينيون: ذوو قائمتين، حيوانات بقائمتين، صراصير سامية، حيوانات على شكل بشر (ص 71، 73) إضافة إلى عبارة رافيتل إيتان المعروفة: "يجب وضع العرب في زجاجات مثل الصراصير"،

القدس ستصبح العاصمة الأبدية". وينادي بالمهجوم سواءً أكان هذا "بالدم أو بالنار" متبنياً عبارة المكابيين (أسرة معروفة في تاريخ العبرانيين) الأثرية عند اليهود⁽¹⁾. لذا بدأت تعمل ورشات التسليح بكل طاقتها وتضاعفت مشتريات الأسلحة في الخارج ودُبِّرَت سلسلة من العمليات المصممة والمنفذة بدقة كبيرة في كل أنحاء فلسطين، في داخل كما في خارج الحدود الممنوحة لدولة اليهود⁽²⁾، وقد كان هدفها جميعها الفتح بكل ما تعني الكلمة من تهديم القرى وطرد سكانها. في 19 كانون الأول هوجمت قرية غزة المجاورة لمستعمرة رهوفوت وفجر بالديناميت "رجال من الداخل" منزل المختار، كما ذكر ناطق باسم الهاغانا⁽³⁾. وكان يُدَبِّح المدنيون والمسنون والنساء والأطفال ببرودة في عقر دورهم⁽⁴⁾. وباقترب 15 أيار 1948م تاريخ رحيل آخر الجنود البريطانيين، تابعت العمليات بحدة مجدداً. وقامت قوى إرغون وهي المتحدة في ليلتي 9 و10 من نيسان 1948م وفي الساعة الرابعة ونصف صباحاً باختراق قرية دير ياسين (المخصصة لدولة العرب في مخطط التقسيم) وقضوا على أكثر من ثلاثمئة شخص بالرشاشات والقنابل والسلاح الأبيض. وقدم إرغون العملية في مؤتمر صحفي معلناً مسؤوليته عنها: "كبدية فتح فلسطين والأراضي الأردنية الشرقية". وفي نهاية الشهر، وبمجرد أن جرى إخلاء الجنود البريطانيين، تقدمت القوات اليهودية باتجاه حيفا "مثل تقدم السكين في الزبدة" فأصاب العربَ الرعبُ وهربوا وهم يصرخون "دير ياسين"⁽⁵⁾. ونُقِلَ بعضهم عن طريق الخليج إلى عكا في زوارق للجيش البريطاني وبعضهم الآخر في شاحنات إلى الناصرة ونابلس ولبنان⁽⁶⁾. وفي نفس الوقت انقضت على يافا والقرى المحيطة بها عملية شامتز "التنظيفية"⁽⁷⁾ التي

(لبراسيون، العدد الأول من حزيران 1996م) وحتى عبارة شمعون بيريز "لا يهم ما يقوله الغويزم، ما يهم ما يفعله اليهود"

(لوموند، 3 أيار 1996م).

(1) بيغن، نفس المرجع، ص 386.

(2) "لقد تابعنا غاراتنا في المنطقة العربية مدة خمسة أشهر"، المرجع السابق، ص 401.

(3) 12 (The New-York Times) كانون الأول 1947م، ذكرها Sanbar E. في (Palestine 1984، L'expulsion)، 1984م، ص 154.

(4) (Arieh Y., Yediot Aharonot)، نيسان 1972م، و Sanbar E. في نفس المرجع ص 172 - 173.

(5) Begin M. نفس المرجع ص 200.

(6) 25 (The New-York Times) نيسان 1948م، ذكرها Sanbar E. في نفس المرجع ص 179.

(7) لا نستطيع اختراعها.

يعتبرها بيغن "معركة فاصلة لاستقلال إسرائيل"⁽¹⁾. وفي الوقت الذي كانت فيه تقصف المدينة القديمة بالقنابل، بدأ العرب بمغادرة المدينة وقد أصابهم رعبٌ شديد. كتب بيغن: "لقد كان الاضطراب شديداً جداً وازدهت الشوارع وانهارت المنازل بعنف وعم النهب والقتل في كل مكان"⁽²⁾. وفي نهاية نيسان أُخلي ثلاثة آلاف شخص من الحي العربي في القدس. وعلق زيف شارف سكريتر الحكومة المؤقتة على هذه "العمليات" برضاً واضح: "سهلت هذه الهجرة الجماعية بوضوح إنشاء السلطة اليهودية، وحل العديد من المشاكل كالسحر (...). وقد كنا من قبل نعتقد أساساً أن أغلبية سكان الدولة الجديدة ستكون يهودية"⁽³⁾. وبدأت تتحقق المعجزة الأثيرة على وايزمان في دولة من اليهود فقط. وفي 15 أيار عندما كان المنتدب البريطاني السامي يغادر فلسطين، كان قد أصبح مئات الآلاف من الفلسطينيين لاجئين واحتلت القوى اليهودية مناطق كثيرة مخصصة للعرب متجاوزين خط تقسيم الأمم المتحدة بكثير⁽⁴⁾. وكان ابن غوريون وحكومته المؤقتة يتهيأن للتصريح علناً باستقلال إسرائيل. كان هذا التصريح يهدف تأكيد حدود الدولة الجديدة، لأنه كما كتب بار زوهار في إحدى مراسلاته: "لم تكن في نية ابن غوريون الالتزام بالحدود التي وضعتها الأمم المتحدة على الإطلاق. لقد كان يريد وهو مدرك تماماً ما يريد توسيع أراضي الدولة. لقد كان متيقناً أن هذا كان مرحلة، وأنه من الممكن أن تحدث فرص جديدة وأن إسرائيل ستحقق في النهاية، وإن تطلب ذلك قروناً، أهدافها الأولية"⁽⁵⁾. أما ميناخيم بيغن فقد صرح في المذيع: "فقط الجيوش العبرية هي

(1) بيغن نفس المرجع ص 408.

(2) المرجع الأخير، ص 418.

(3) شريف، المرجع نفسه، ص 106 - 107، وكذلك بن زوهار، ص 153: "سببت دير ياسين انهيار العرب المتخلفين وإخلاء مقاطعات واسعة من سكانها". ويعترف بيغن من ناحيته بأن دير ياسين "ساعدت بوجه خاص على إنقاذ طبرية وفتح حيفا" (ص 200). في ليلة 15 أيار 1948م، يصرح بيغن ذاكراً أن اليهود قد نجحوا في انتزاع "الاستقلال العبري" في "جزء فقط" من البلد الذي هو من حقهم "بتنامه": "ولدت الدولة الإسرائيلية من معركة دامية". (ص 427 - 428).

(4) غلوب باشا، جندي مع العرب، باريس، بلون، 1958م، ص 70.

(5) بار زوهار، نفس المرجع، ص 175، وكذلك في ص 189: "ليست الحدود التي منحها منظمة الأمم المتحدة إلى إسرائيل ولا تلك التي ستحددها بقوة السلاح في 1948م بحدود نهائية للبلد فيما يتعلق به. إنها ليست هي إلا البداية". والجدير بالذكر أن زيف شريف، في نفس المرجع له ص 134، يؤكد أن ابن غوريون وهو يعارض تحديد الحدود، كان يضرب كمثل استقلال الولايات المتحدة - البلد الذي، كما يعرف الجميع، توسعت بطرق معروفة جيداً على حساب المكسيكيين والهنود.

التي تقرر اليوم مثل الغد حدود الدولة العبرية"⁽¹⁾. بعد بداية الأعمال الحربية مع القوات النظامية العربية التي جاءت لنجدة إخوتها في الدين⁽²⁾، بدأ تنفيذ مباشر لخطة داله التي كانت تخطط لإخلاء السكان المدنيين من المناطق التي كانت تجري فيها المعارك. وكوم الجيش الإسرائيلي الآلاف من المدنيين في شاحنات لنقلهم إلى حدود شريط غزة. وقد سرد غلوب باشا جزءاً كبيراً من العمليات بالتفصيل ذاكراً أنه في نهاية تشرين الأول: "فتش رتلٌ إسرائيلي كل القرى العربية في طريقه وطرده كل السكان الذين تراجعوا باتجاه بيت لحم. وأصبح حرمان كل المدنيين العرب من حقوقهم صفة مميزة للعمليات العسكرية الإسرائيلية"⁽³⁾، وأنه في بداية تشرين الثاني: "خلال هذا الوقت، استمر اللاجئون بالتراجع. وأصبح الإسرائيليون يطردون الآن كل العرب. وكانوا يدعمون من وقت لآخر هذا الإجراء بالمذابح المعتادة والمخطط لها"⁽⁴⁾. ثم فيما يتعلق "بفتح" اللد ورام الله: "ما أن أصبح العدو في هاتين المدينتين حتى باشر بالاستيلاء. فلقد كان يزور المنازل واحداً تلو الآخر، ويعتقل كل الرجال الذين تسمح لهم أعمارهم بحمل السلاح ويرسل المسنين إلى مخيمات التجمع. ثم كانت تشق السيارات الإسرائيلية الطرق مجهزة بمكبرات للصوت امرأة كل السكان المتبقين بالرحيل في مهلة

(1) بيغن، نفس المرجع، ص 430.

(2) على عكس ادعاءات الدعاية الصهيونية، تصدت الجيوش العربية لهذه الحرب وهي ضعيفة التجهيز وقليلة التدريب (فيما عدا فرقة غلوب باشا الأردنية) وسيئة التنسيق (بسبب التنافس في التقسيم السياسي والأراضي في سورية). لقد كان هذا رأي غلوب باشا الذي يذكر أن عدد المقاتلين العرب كان 21000 مقابل 65000 مقاتل في الصفوف الصهيونية. ويذكر زيادة على هذا أن ضابطاً بريطانياً كان قد أتى من مصر "وعلى علم بالحقائق" يعطي العرب نسبة خمسة بالمئة في النجاح (ص 75). وكان هذا رأي الصهاينة أنفسهم إذ صرح ابن غوريون في يوم من الأيام: "لقد ربحنا لأن الجيش العربي كان سيئاً" (بار زوهار، نفس المرجع، ص 226). ويذكر الكتاب الأبيض في 15 أيار 1948م أن القوى اليهودية قد كانت "منظمة تنظيمياً ملحوظاً ومجهزة بكل أسلحة المشاة الحديثة" وأن الـ 84000 رجل من الجيش البريطاني كانوا غير كافين للمحافظة على النظام والقانون أمام الحملة العنصرية التي كان يقودها. بيغن، نفس المرجع، ص 135، من هو يعقوب ومن هو غولياس في هذه المعركة؟.

(3) غلوب باشا، نفس المرجع، ص 94.

(4) المرجع الأخير، ص 201، يتابع غلوب باشا: "تبين للأمم المتحدة في 31 تشرين الأول أن الإسرائيليين قد قتلوا ثلاثين امرأة وطفلاً في الدوايمة، في غرب الخليل (...). وأنهم يسيئون معاملتهم أو يقتلون منهم ما يكفي ليضمنوا هرب كل السكان المرويين، وهكذا يزداد تحليهم عن أراضيهم، حتى يتحقق بناء المستعمرة اليهودية في المستقبل". انظر أيضاً ص 216 و278، إذ فيها ملخص ممتاز للخطة الصهيونية.

نصف ساعة⁽¹⁾. في اليوم التالي للنزاع استولت إسرائيل على ستة آلاف كيلومتر مربع تقريباً من دولة العرب وهدمت ثلاثمئة وثمانين قرية عربية⁽²⁾، وهاجر إلى المنفى أكثر من سبعمئة ألف فلسطيني، وحملت الأردن وحدها تقريباً، وهي بلد بلا موارد ويبلغ عدد سكانها ما يقارب المليون، كل ثقل الكارثة واستقبلت خمسمئة ألف فلسطيني. في حين استقبلت مصر مئتين وخمسين ألفاً في شريط غزة في المقام الأول⁽³⁾. ومنع اللاجئون من العودة إلى ديارهم برغم اتفاقيات جنيف، لأنه كما كتب ما يصعب ذكره بار زوهار: "كان ابن غوريون مستاءً من وجود مئات آلاف العرب على الأرض التي يجب فتحها. لقد أمر بدون أي أسف تهديم كل القرى ومنع تسرب اللاجئين بكل الطرق، الذين ما أن انتهت المعركة حتى حاولوا العودة إلى وطنهم القديم"⁽⁴⁾. "وقد ذُبحت الدوريات العسكرية كثيراً من أولئك الذين غامروا بالعودة بمجرد أن شوهدوا"⁽⁵⁾.

وزاد من حدة المصيبة العربية الفلسطينية الجبن واللامبالاة العالمية، وكذلك الدعاية الصهيونية التي كانت تدعمها وسائل الإعلام الغربية والمفكرون والسياسيون الغربيون بكل سرور وانسجام، فنجحت عموماً في قلب الحقائق وجعل المعتدي معتدئاً عليه⁽⁶⁾ وجعل اللاجئين هاربين قد تخلوا

(1) المرجع الأخير، ص 147.

(2) وفق التقرير الذي نشره في 1973م البروفسور إسرائيل شاهاك، رئيس الرابطة الإسرائيلية في حقوق الإنسان، في كتابه "الملف الفلسطيني"، باريس، لادكوفرت، 1991م، ص 102، كتب ابن غوريون في كانون الأول 1948م وهو راضٍ جداً عن العمليات قائلاً: "لقد حررنا نيفوف ولقد حررنا الخليل (...). يجب أن تأمل أن نتابع في هذا الطريق" (من الحلم إلى الواقع) ص 109.

(3) يبلغ عدد اللاجئين اليوم قرابة ثلاثة ملايين.

(4) بار زوهار، نفس المرجع، ص 226، وانظر أيضاً غلوب باشا، المرجع نفسه، ص 231، ساهم تخريب القرى المبني بدرجة كبيرة في منع عودة اللاجئين. صرح ابن غوريون في مجلس الوزراء في تموز 1948م، بشأن اللاجئين: "يجب علينا أن نفعل كل شيء لكي لا يعودوا" (ص 207) لأنه، كما أسر فيها بعد إلى المبعوث إيشنهو: "لا يمكن لدولة بمليون ونصف يهودي أن تسمح بعودة مليون عربي يحترقون حقداً" (ص 272). حل كهذا في "المسألة اليهودية" يشير مؤكداً عديداً من التحفظات: "كتب هانا أرندت منذ 1951م، على العكس، لم ينجح هذا الحل للمسألة اليهودية إلا في إنتاج فئة جديدة من اللاجئين، وبذلك يزيد عدد المشردين والمبوزدين من نحو 700000 إلى 800000 شخص"

(Les Origines du totalitarisme, l'impérialisme, Fayard/Point, Paris) 1951 1984 .

(5) غلوب باشا، المرجع نفسه، ص 231.

(6) من قلب الحقائق الوقح - والصهاينة بارعون في هذا - نذكر هذه "الدرة" التي اختلقها في شباط 1969م لفي إشكول: "من هم الفلسطينيون؟ عندما وصلت إلى هنا، كان هناك 250000 غير يهودي، من العرب والبدو. لقد كانت إسرائيل صحراء، ولم تزهّر الصحراء ولم تسكن إلا بعد مجيئنا، والآن يطالبون بها". Soliman L. نفس المرجع ص 168.

عن أراضيهم بكامل رغبتهم بعد أن شجعهم على ذلك القادة العرب. واستمرت الإشاعات المتكررة بدون توقف بالانتشار كحقائق برغم شهادة الضحايا وشهادة غلوب باشا⁽¹⁾ وتقارير منظمة الأمم المتحدة وما كشفتها الصحافة الأنغلوساكسونية منذ بداية الستينيات⁽²⁾. ربما حدث ذلك لأنه لم يكن من السهل اتهام ما تبقى من اليهود، بعد محاولة هتلر إبادة عرقهم، بطرد شعبٍ بتهامه من أرضه التي ورثها من أجداده، وربما لأنه لم يكن من السهل تقبل أن أوروبا قد قدمت العرب كضارة عن جرائمها وجنبها مع اليهود. في 6 كانون الأول حاول ابن غوريون في رسالته إلى الجنرال ديغول أن يبرر سياسته ويؤكد بدون حجل: "عندما اشتد القتال في المدن ترجى العرب جيرانهم اليهود والمهاغانا أن يبقوا إلا أنهم رحلوا متبعين أوامر مفتي مصر"⁽³⁾.

(1) "جندي مع العرب" ص 238: "إن الأسطورة التي أشاعتها الدعاية اليهودية ونجحت في أن يتقبلها العالم والقائلة بأن اللاجئين العرب قد رحلوا بكامل إرادتهم كذبة (...). الحقيقة هي أن معظمهم قد هرب من الرعب لينتجوا من المذبحة، على الأقل كما كانوا يظنون". ظهرت النسخة الأصلية باللغة الإنكليزية في 1957م.

(2) كتلك الحقائق التي كتبها البرلماني القديم من حزب العمل إرسكن شيلدر في مقالته "The other Exodus" في Spectator 12 أيار 1961م.

بدل الأوامر المزعومة التي أصدرها القادة العرب إلى الفلسطينيين بمغادرة مساكنهم، نجد النداءات التي كان الراديو الإسرائيلي يرسلها في المقاطعات بحث فيها العرب على الهروب وإعلان تفشي وباء الكوليرا، إضافة إلى المخاطر التي كان يتعرض لها هؤلاء الذين يرفضون الرحيل وكذلك إعلان ما هو مقنع بالرحيل من وصول داهم لقتلة دير ياسين

(Le dossier Palestine) p100, (hadawi S., Les réfugiés arabes), Les temps, modernes p 176-212, 1967 (Le Figaro)

عدد 16 تشرين الثاني 1948م يمكننا القراءة فيها بقلم ف. موريالك: "إنه من قانون هذا الوقت أن تعذب بدورها آخرين جماعة من البشر المعذبين بمجرد أن تحررت من معذيبها، يولد الفكر الكلياني نفس الوحوش عند ضحايا الأمس كما عند جلادهم.

لقد اقتلع يهود جماعة شترن بالرعب الذي نشره ما يقارب 600000 إنسان من ديارهم، منهم 100000 نصراني (...). ذكرها Kassir S. et Mardam-Bey F, (Itinéraire de Paris à Jérusalem; la France et le conflit israélo-arabe, Washington) p 109, VOL I, 1992.

(3) ابن غوريون، "من الحلم إلى الواقع"، ص 251 و218، تأكيد ابن غوريون نفي "التنظيف العرقي" - يتكرر مراراً في رسالة تحتوي على كل الأمور البتيلة التافهة المعروفة في التبريرات اليهودية - إن المبررات الغامضة التي يحاول أن يعطيها بشأن رحيل العرب تدل بدون أي شك على انعدام الضمير. من المفاجئ أن نجد نسخة طبق الأصل لهذه النظرية كتبها ريموند أرون في 1961م:

"اندلعت الحرب، وترك السكان العرب مساكنهم جماعات، مقتدين باقتراحات قادتهم، ومقتنعين بالعودة بعد بضعة أيام،

(Dimension de la conscience historique, Paris, Presses Pocket) p195, 1991.

وبنفس الطريقة تكلم ريموند أرون عن قبول الصهاينة لمخطط تقسيم منظمة الأمم المتحدة.

تحققت الأهداف الأولى من طرد الفلسطينيين والاستيلاء الحقيقي بعد الانتصار على الجيوش المتحالفة، على ستة آلاف كيلومتر مربع من أراضي الدولة العربية التي خصصتها لها منظمة الأمم المتحدة. واستمرت الصهيونية باتباع نفس السياسة المتعجرفة الوقحة ذات المطامع التوسعية والحربية، تحركها العنصرية المضادة للعرب، وذلك بعناد لا مثيل له، منتهزة الفرص والظروف بعد أن تحكمت تماماً بالعلاقات الدولية. وأخضع ستمئة ألف فلسطيني كانوا قد نجوا من التصفية العرقية - أغلبهم من سكان الخليل - لنظام إداري عسكري تعسفي يجعلهم غرباء في أرضهم، ونجح اليهود بعد سلسلة من الإجراءات الجائرة بمصادرة 50٪ تقريباً من أراضيهم. ولم يكن هذا إلا البداية كما أعلن ابن غوريون. ففي 1956م نفذت الإمبريالية البريطانية الفرنسية حرباً خاطفة على مصر، وفي 1967م جرى فتح سيناء والضفة الغربية وشريط غزة، فوجد لاجئو 1948م⁽¹⁾ الذين لم يطردها من هذه المناطق أكثر من ربع قرن - حتى اتفاقيات السلام الحديثة المزعومة⁽²⁾ - أنفسهم تحت سيطرة الجيش الإسرائيلي. وفي 1982م، حدث غزو لبنان واحتلال الجزء الجنوبي من البلد ومذابح أخرى على غرار مذبحة دير ياسين كمذبحة اللاجئين في مخيمات صبرا وشاتيلا وإلخ. وأنكرت قرارات منظمة الأمم المتحدة بشدة سياسة الأمر الواقع التي انتهت بها المطاف بالاستيلاء على الجولان والقدس الشرقية، وأنكرت النظام المفروض على "الأراضي المحتلة" الذي يناقض تماماً الاتفاقيات الدولية، إلا أن كل هذه القرارات باءت بالفشل بفضل محاباة أمريكا⁽³⁾. وكم هي طويلة قائمة

(1) في 1947 - 1948م، رأى الـ 80000 من سكان غزة وصول 200000 لاجئ. يحتوي اليوم شريط غزة على أعلى كثافة للسكان في العالم: 800000 شخص على 360 كم² = 2285 ساكن/كم². لقد كان شريط غزة هذا كابوس ابن غوريون الذي كان يتمنى أن يبتلعه البحر. نوع من التنظيف العرقي البحري. (تصريح 28 تشرين الأول 1956م، بار زوهار، نفس المرجع، ص 313).

(2) اتفاقيات السلام المزعومة هذه التي تقدسها وسائل الإعلام والتصريحات القانونية، ليست في الواقع إلا اتفاقيات تسليم مخزنة لرؤساء منظمة التحرير الفلسطينية. إنها لا تجلب إلى الدول العربية ولا إلى اللاجئين إلا القليل جداً مما يحق لهم من التعويضات التي تعترف لهم بها القرارات الدولية.

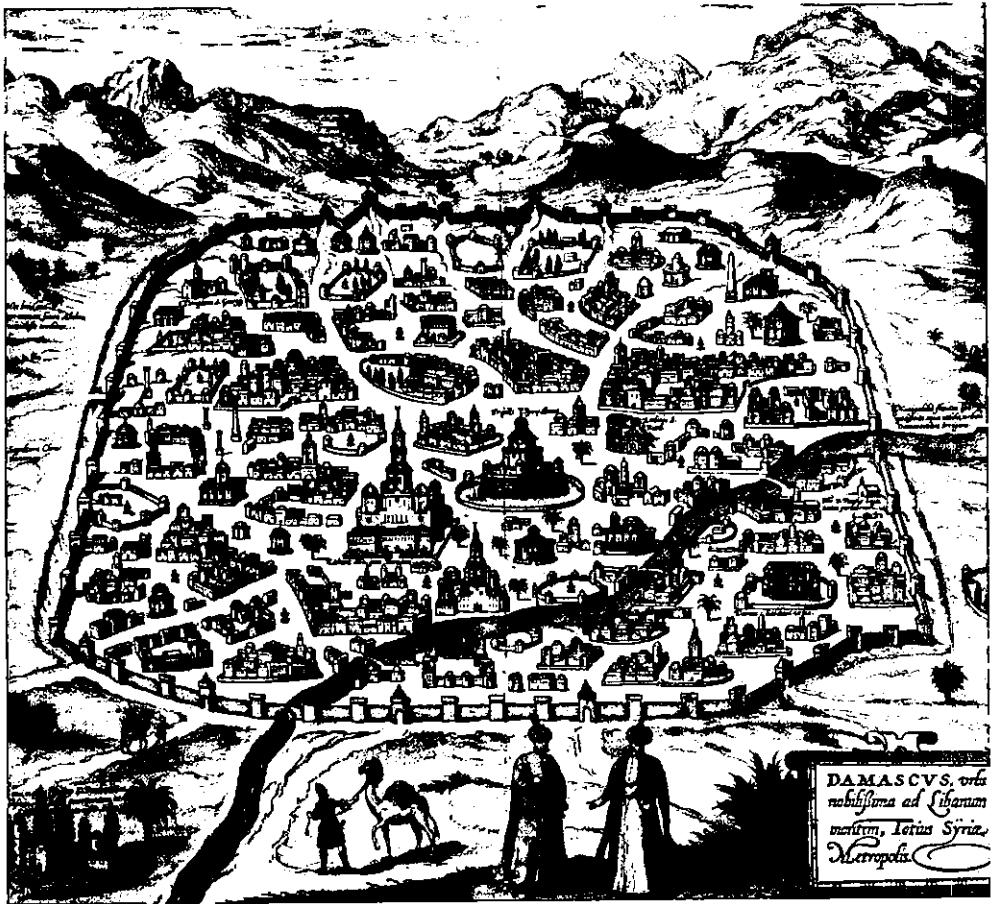
(3) خاصة أكثر هذه القرارات أهمية وشهرة، القرار 242 الذي صوت عليه في 22 تشرين الثاني 1967م مجلس الأمن من منظمة الأمم المتحدة والذي يطالب بالعودة إلى الوضع الذي كانت عليه الأراضي، مقابل السلام الإسرائيلي العربي النهائي و"بحل عادل لمسألة اللاجئين". كتب غلوب باشا بشأن المسألة الأخيرة في بداية الخمسينات: "إن حل مشكلة وجود مليون لاجئ عربي لازمة لحماية بدون أي شك للاستقرار"، نفس المرجع، ص 461. كانت وتبقى سياسة الأمر الواقع أساس الحركة الصهيونية. ولقد صرح فيما مضى ابن غوريون في 1942م: "سيأقلم العرب مع الواقع الجديد عندما يصبحون تحت الأمر الواقع"، "من الحلم إلى الواقع"، ص 111.

المخالفات الشرعية: الاستغلال الوقح للموارد الإنسانية والطبيعية، والسيطرة على المياه وتغيير مجراها وإعاقة التصدير الزراعي ونزع الملكية واستيطان المستعمرات على مدى واسع، والتوقيف والاعتقالات التعسفية لعشرات الآلاف، والقرع بالعصا والنفي والتغريب والطرْد، والاعتقال والتصريف والإعدام بلا محاكمات، ومؤسسات التعذيب ومنع التجول وتهديم المنازل والإجراءات التنكيدية والمذلة والاستيلاء الصريح على جزء كبير من الأراضي... إلخ. وكم من صوت نادى حتى من داخل إسرائيل نفسها لإدانة سياستها الشائنة التي تناقض بشدة الحق الدولي وكرامة الإنسان. وصرح الأستاذ ياشايا هوليبويتز في 1978م مع أنه صهيوني مؤمن بصهيونيته قائلاً: "إننا نتصرف في الأراضي المحتلة والضفة الغربية للأردن وشريط غزة ولبنان كما كان يعاملنا النازيون في الأراضي المحتلة من تشيكوسلوفاكيا والغرب"⁽¹⁾. ثم يؤكد أن إسرائيل مسؤولة بعنادها عن حرب 1973م وأنها لم تكن أبداً حريصة على السلام، بل على الاحتلال فقط ويختم حديثه قائلاً: "إن الدولة الإسرائيلية اليوم أداة السلطة اليهودية لاضطهاد شعب آخر"⁽²⁾.

باريس، حزيران، 1996م

(1) (Leibowitz Y., Israël et le judaïsme. Ma part de vérité, Paris, Desclee de Brouwer) p120, 1987-1993.

(2) نفس المرجع الأخير، ص 28-29.



منظر تخيلي لمدينة دمشق

الفصل الأول

من البداية حتى الأمويين

مع أن سورية تحوي أقدم الآثار لوجود الإنسان، وأن من الممكن تأريخ بعض الأدوات النادرة والمصقولة من الحجارة حتى مليون سنة تقريباً، فإن دلائل إقامة البشر فيها التي استمرت طويلاً وكانت على ضفاف الأنهار الكبيرة مثل نهر العاصي والنهر الكبير ونهر الأردن والفرات، لا ترجع إلى أكثر من خمسمئة إلى ستمئة ألف سنة.

في العصور الحجرية القديمة، أي قبل مئتين وخمسين ألف سنة من زمننا هذا، في ذلك الوقت الذي ظهر في الشرق الأدنى أول استخدام للنار، كانت سورية معمورة بكثافة عالية من السكان، كما تدل عليه الأدوات الحجرية المنتشرة قريباً من السطح في كل أراضيها. تعود إلى هذا الزمن أقدم آثار تعمير دمشق أدوات حجرية، وجدت خصوصاً قرب قرية برزة الحالية وعلى مصاطب نهر بردى، وفي الأشرفية على بعد عشرين كيلومتراً شمال دمشق، حيث كانت الأدوات الحجرية منتشرة على مساحة ثلاثين هكتاراً تقريباً.

ابتداء من نهاية العصور الحجرية، أي قبل خمسة عشر ألف سنة تقريباً، توطّنت الحبوب "الطبيعية" كالشعير والقمح والذرة البيضاء في المناطق شبه الصحراوية، بفضل ميل الطقس إلى الدفء التدريجي وقلّة الرطوبة، وكوّنت جزءاً مهماً من الغذاء البشري، وأصبحت الأدوات المصنوعة من الصوّان ذات أحجام صغيرة، وكان هذا بداية الاستقرار وتعلم الزراعة.

من الألف العاشر قبل الميلاد إلى الألف الثامن ومئتين سنة قبل الميلاد ظهرت حضارة جديدة في كل بلاد شرقي المتوسط وهي حضارة النطوفيين. شوهدت مظاهر هذه الحضارة في مواقع مختلفة من مثل صحراء النقب وجبل الكرمل والجليل الأعلى وحوض الفرات ووحدات بادية الشام. سميت هذه الحضارة بالنطوفية نسبة إلى واد في فلسطين، "وادي النطوف"، حيث لوحظت لأول مرة خصائصها المميزة. وأنشأ النطوفيون الذي كان اقتصادهم البدائي يعتمد بالدرجة الأولى على القنص

وصيد الأسماك وجني الثمار، القرى الأولى الحضرية في المنطقة، وكانت مساحة بعضها تصل إلى عدة مئات من الأمتار المربعة. وكانت البيوت كما يمكننا مشاهدتها في أريحا التي تقع في أسفل وادي الأردن، والمربط التي تقع في حوض الفرات على شكل دائري، شبه مدفونة في الأرض وقد صنعت جدرانها من مواد خفيفة وغطيت بالأغصان والقصب، ومن الجدير بالذكر أن هاتين المدينتين قد أسستا حوالي الألف الثامن وخمسة سنة ق.م.

في هذا الوسط الحضري منذ بداية الألف الثامن ق.م، ظهرت زراعة الحبوب الحقيقية، وبمعنى آخر أوليات التجارب الزراعية. استمرت حيوانات الصيد في كونها مصدراً أساسياً من مصادر الغذاء، ولكن تطوّر الإنسان تدريجياً من مرحلة القنص إلى مرحلة الاعتماد على النفس في إنتاج الغذاء. وقُسمت المساكن الدائرية الشكل في الداخل بجدران مستقيمة، وظهرت صناعة الخزف والحجارة المصقولة من أجل الاستخدامات الرسمية، وتعايشت أدوات العصور الحجرية، والتي هي رؤوس سهام ونصول مناجل أساساً، مع صناعة متنوعة جداً معتمدة على العظام. وتراجعت أهمية صيد الأسماك عند النطوفيين وتركز الصيد على الحيوانات آكلة العشب الكبيرة كالأبقار والخيول البرية. ولما كان الفن تعبيراً عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي تنبع من بيئة حيوانية في المقام الأول عند النطوفيين، فقد تطور ليأخذ طابعاً إنسانياً أكثر فأكثر، وذلك على هيئة تماثيل صغيرة وأشكال أنثوية من المحتمل أن تكون مرتبطة بعبادة الإخصاب في مراحلها الأولى، وهي على كل حال جَدَّات لتلك "الآلهات الأم" التي كان لها أهمية كبيرة في الحضارات القديمة، ابتداءً من حضارة مصر إلى حضارة الأناضول، ومن حضارة بلاد ما بين النهرين إلى الجزر اليونانية في بحر إيجه.

في منطقة دمشق، على خلاف فلسطين ووادي الفرات، لم يحدد بعد أي موقع سابق لوقت زراعة الحبوب. فالتل الأسود الذي سمي بهذا الاسم لأنه كان مكوناً بكامله تقريباً من رماد ناعم رمادي اللون، هو أقدم موقع معروف من العصور الحجرية القديمة، ولقد سُكن، وفق ما أظهرته نتائج التأريخ بالكربون المشع، قبل 7900 إلى 6500. وعلى بعد عشرين كيلومتراً باتجاه الجنوب الشرقي من دمشق، وعلى نفس المسافة من بحيرتي العتيبة والهيجانة اللتين كانتا في ذاك الوقت على الأغلب متحدتين وتمتدان حتى أطراف الموقع، كان التل الأسود يغطي مساحة تقارب خمسة هكتارات. إن المقاطع الجيولوجية في القشرة الأرضية التي أنجزها عام 1971م هنري دوكونتسون في أكثر الطبقات عمقاً، تلك التي تعود إلى بداية عمارة الموقع، قد أظهرت أنه كان هناك اقتصاد يقوم على زراعة القمح

والخَصْر مثل العدس والحمص وعلى جني الشعير البري والفواكه المتنوعة: الفستق والتين وزهرة
الكبر واللوز وعنينة الورد البري والعنب... وعلى صيد الغزلان والخنازير البرية وصيد الأسماك. ولما
كانت الأدوات الأثرية تظهر التطور الاقتصادي، كانت الأدوات الحجرية في ذلك العصر مكونة من
أنصال مناجل طويلة، ذات أسنان في أغلب الأحيان، ومجهزة أحياناً بقاعدة تستخدم لتركيب مقابض
للسهام، ومن المثاقب والمناقب... وكانت الأدوات العظمية أقل توفراً ولكنها متنوعة: ملاقط وإبر
وصقالات ومقدّات وسكاكين ومساقط ومقابض أدوات، ومعلقات. ومن الأجر المعدل المشوي
صُنعت تماثيل حيوانات على هيئة غزلان وعز بري وخنازير برية وأشكال بشرية أسطوانية أو هرمية،
وكذلك نساء قاعدات وقد قبضن أيديهن على بطونهن تحت أثدائهن الشديدة البروز جداً. ثم إن الحجر
الزجاجي الأسود المستخدم لصناعة الإزميل والمثقاب، والذي مصدره أناسولي بدون أي شك، دليل
على تبادل تجاري حقيقي قبل الألف الثامن ق.م، أو على الأقل دليل على انتقال الرجال والبضائع بين
منطقة دمشق، والمناطق التي هي على بعد عدة مئات من الكيلومترات. وكان الطين المدكوك والآجر
المصنع من التراب الخام، وعلى الأخص العناصر النباتية مثل القصب المستخلص من البحيرات، من
المواد الأساسية للعمارة ولم تستخدم الحجارة مع أنها متوفرة بكثرة في التلال البازلتية في الهيجانة التي
تبعد سبعة كيلومترات. أما فيما يتعلق بالجنائز، فلقد كان من الشعائر دفن الجثث في وضعية منقبضة
بشدة بعضها على بعض، وذلك في حفرة فردية محفورة في أرض لم تُحرث بعد.

في الجزء الأول من الألف السابع قبل الميلاد كانت القرية المبنية على التل الأسود قد وصلت
إلى أكبر اتساع لها يغطي كل مساحة الهضبة الطبيعية. وتطور التحكم بالتقنية الزراعية تحكماً أفضل،
فأصبحت الحبوب، ومن ضمنها الشعير المزروع تؤدي دوراً أشد أهمية في تغذية الإنسان، ويشهد
على ذلك زيادة نسبة المناجل بين أدوات ذلك الزمن. وأصبحت الأدوات الحجرية التي بدأت تقلّ
تشمل أقداحاً كلسية ومعاول مصقولة ورّحى من البازلت. ونُحتت أشياء أخرى متنوعة مثل حبات
الزينة والأقراط، والأسطوانات الصغيرة التي كانت تستخدم في الزينة من صخور مختلفة جداً: الجير
والمرمر والعقيق الأحمر والسربنتين والطلّق والأسود. في حين أصبحت صناعة العظام أكثر
شيوعاً وتمتاز بتنوعها: الملاقط والإبر وآلات الصقل والسكاكين والمقدّات والمقابض والفناجين
وحبات الزينة والأقراط. وحُسّنت صنعة تماثيل الحيوانات والنساء، المصنوعة من الطين المشوي.

وتشهد الأدوات الأثرية التي تشبه كثيراً تلك الأدوات الموجودة في أريحا والمربيط، على ازدهار ذلك الموقع في النصف الأول من الألف السابع قبل الميلاد.

خلال تلك الحقبة - أي عام 6800 قبل الميلاد تقريباً - أسست مجموعة من البشر أصلها على الأغلب من التل الأسود، مركزاً حضرياً جديداً على بعد خمسة عشر كيلومتراً شمالاً وعلى الضفة الغربية لبحيرة العُتبية، وهو تل الغُريفة، لكن استقرار الناس به لم يحدث قبل عام 6200 قبل الميلاد تقريباً.

إن المرحلة الأخيرة لعمارة تل الغريفة بالناس، تواكب إنشاء قرية جديدة في موقع تل الرماد، وذلك على بعد خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب الغربي لدمشق. أعطت الطبقات الجيولوجية لتل الرماد، التي يصل ارتفاعها في بعض المناطق إلى ستة أمتار حملات التنقيب التي جرت ما بين 1963 و1973م والتي كان يقودها هنري كونتستان نموذجاً مهماً جداً لأدوات العصور الحجرية لمنطقة دمشق. وعلى ارتفاع ثمانمئة وثلاثين متراً وعلى مقربة من ملتقى واديين، وعلى أطراف سهل بازلتي حيث مستوى الأمطار يسمح بالزراعة دون الحاجة للسقي، يوجد تل الرماد ذو الموقع المهم، لأنه على طريق الاتصال بين الشمال والجنوب. هناك كان السكان يزعمون ليس فقط الحبوب كالقمح والشعير، بل أيضاً العدس والكتان. وفي الوقت الذي كانوا يمارسون فيه قطف الخضراوات المتنوعة والفاكهة البرية، مثل اللوز والفسق، وكذلك صيد الغزلان والخيليات في الفيءاء، والقطف المتوحشة في منحدرات الحرمون، عرفوا من حينها تربية الخرفان. وكانت أدواتهم الحجرية شبيهة جداً بتلك التي تعود إلى حقبة تل غريفة، وتشبه أيضاً الأدوات المستخدمة في مواقع أخرى مثل المربيط وأريحا وحتى رأس شمرا. واستخدموا البازلت في صناعة الأدوات الضخمة التي وجدت بكثرة في التربة: مدقات أسطوانية ورحى مزدوجة التقوس وهاونات وأدوات صقل وكرات وإبر قدح، واستخدموا الحجر المصقول في صناعة الأوعية المختلفة والمعاول. في حين يشهد السيج الأسود والمرمر المتوفران دائماً، على استمرار التبادل مع الأناضول. وكانت المساكن المتباعدة جداً بعضها عن بعض، تبدو كأنها أكواخ بيضوية من التراب المدكوك ذات قطر يبلغ ثلاثة أو أربعة أمتار، نصفها مدفون في الأرض. وإضافة إلى التماثيل الحيوانية أو البشرية، كانت الجماجم التي أعيد تجسيمها بالكلس - لتكون على صورة الشخص الميت بعد أن وضعت على التماثيل - قاعدة من الفخار، وقد ملئت المحاجر بالكلس الرمادي بحيث يمكن تمييز الحدقة والقرحية من بياض العين - دليلاً إضافياً على الحياة الدينية، وربما على ديانة يُعبد فيها الأجداد مرتبطة بمفهوم اعتقاديّ بالبقاء، وبإحساس جديد

بالاستمرارية والوراثة. نجد آثار هذه الديانة في معظم المواقع المتزامنة في سورية العصور الحجرية، وخاصة في أريحا وفي المناطق النائية مثل غينيا الجديدة.

في نهاية الألف الأول ق.م، بلغ فن العمارة مرحلة كبيرة من التطور: بفضل تحكم أفضل في البناء، واستخدام سلاسل جدران قائمة الزوايا، وبعد أن ألغى استخدام المخطط الدائري ليحل محله المخطط القائم الزوايا. ورُصِّت المنازل على طول الشوارع الصغيرة، وطُليت الأرض بالكلس وأصبحت أسس الأبنية حجرية مع كتل بلا زوايا ورصف للحصى، في حين كانت البنى العلوية من الأجر المصنوع من الطين المشوي بأبعاد 8/30/40 سم، وهي شبيهة بالأجر الذي يصنعه في أيامنا هذه الفلاحون في قرى منطقة دمشق. واستمر استخدام الحجارة في صناعة الأوعية والفناجين والأحواض، ولكن بدأت تظهر مواد جديدة مثل الجير بعد أن يُقوَّب ويصقل ويزين أحياناً بأشرطة حمراء اللون. هذه الأبنية البيضاء المماثلة لتلك الآنية المعاصرة لها في رأس شمرا والجليل، تدل على مرحلة مهمة من التطور التقني الذي سيتهي به المطاف قريباً باستخدام الخزف (السيراميك) في صناعة الأوعية.

في نهاية الألف السابع ق.م، حين كان التطور في العصور الحجرية الحديثة المتميز بالحياة القروية وزراعة النباتات وتربية الحيوانات وصقل الحجارة واستخدام الطين المشوي لصناعة الأشياء المتعلقة بالعبادة والزينة يشارف على نهايته، تَسَارَعَ التحضُّر: فعلى الساحل، رأس شمرا التي غدت أيام الكنعانيين أوغاريت سكن الفلاحون في عام 6500 قبل الميلاد. وفي الصحراء عُمِّرت ثانية واحة الكوم التي كانت مهجورة منذ نهاية العصور الحجرية القديمة، وعلى الضفة اليمنى للفرات أصبحت قرية البقراس - التي أسست في عام 6400 قبل الميلاد - بسرعة بلدة بثلاثة هكتارات مكونة من شبكة من المنازل المتلاصقة والمتعددة الغرف بجدران مزينة برسوم للنعامات.

في النصف الأول من الألف السادس ق.م، أدت تقنية الفنون المعتمدة على النار إلى انتشار الخزف (السيراميك)، وهو آخر ما توصلت إليه العصور الحجرية الحديثة، والذي يستخدم من حينها، بفضل تنوع أشكاله وزخرفته، في معرفة الحضارات بخصائصها المميزة. في ذلك الزمن تَوَجَّج تل الرماد حقبة ثقافية ظهرت مراكزها على الساحل السوري في أموق ورأس شمرا والجليل. هناك ظهر الخزف المصنوع باليد سواء كان مصقولاً أم كان مزيناً بالرسوم، أو مصنوعاً من عجينة بنية بزخرفات محززة أو مرسومة في بعض الأحيان. في ذلك العصر جرت تربية الماعز والخرفان والخنازير والأبقار والكلاب، مما يدفعنا إلى التفكير بأن اقتصاد تل الرماد كان حينها رعوياً في المقام الأول.

في منتصف الألف السادس ق.م، يشهد اختفاء المنازل وقلة الأدوات التي شوهدت في مراحل سابقة، على تحلي واضح عن الحياة الحضرية. ربما يعود هذا التطور وهو الشبيه بما حصل في فلسطين، إلى تغير المناخ الذي تسبب في اختفاء الزراعة وهجر المنطقة لأكثر من ألف سنة.

نعرف بما توصلنا إليه من المعرفة في الوقت الحاضر أن الحياة الحضرية في منطقة دمشق لم تعد إلا في النصف الثاني من الألف الخامس ق.م، وذلك في تل الخزامي الواقع على بعد ثلاثة كيلومترات من تل الأسود، ولقد بُني، ويا للأسف، المطار الجديد في موقعه، ولم تستمر عملية التنقيب الانقاذي إلا لمدة عشرة أيام تقريباً فقط. وفيما عدا تل الخزامي وبعض العناصر من الفخار الملتقطة على سطح تل الرماد، وقد خربت عوامل الحت طبقاتها العليا، فإننا لا نعرف شيئاً عن منطقة دمشق في الألفين الخامس والرابع ق.م.

في نهاية الألف الخامس ق.م، أضاعت حضارة العبيدين، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى المدينة الصغيرة التي انطلقت منها قبل ألف سنة من ذلك التاريخ، والتي كانت تقع في أسفل منطقة حوض الفرات، وانتشر نورها في كل أنحاء سورية من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان من خصائص هذه الحضارة الجديدة الخزف الأحادي اللون الذي يشير إلى خطوة أساسية في طريق التمدن. وظهرت في تجمع أريدو للمرة الأولى بجانب المساكن، مبانٍ ضخمة لعوام الناس على هيئة معابد تشهد على أشكال جديدة للتنظيم الجماعي. وفي شخصية الملك الراهب، الذي تنبع هيئته من تواطؤ مفترض مع قوى عالم الآخرة المزعومة، والذي يقوم هذره على أساس المعرفة العليا، تجاوزت السلطة، يدعمها تراكم الغنى والعمارة الضخمة التفاخرية، الفئات المحصورة لتمتد إلى كامل الجماعة المجتمعة في مكان مدني وما دونه. وسمحت القرية ذات الطابع الطبوغرافي والاجتماعي المميز ببعض العلاقات التبادلية المعقدة الخاصة والمتدرجة طبقياً. وانتهى المطاف "بالتطور في العصور الحجرية الحديثة"، ذلك النضج البطيء الذي تدرج خلال آلاف السنين "بتطور مدني" جرى إنجازه في بضعة أجيال.

بين 3300 و3100 سنة قبل الميلاد تقريباً، ظهر فجأة في بلاد سومر وفي أسفل الجزيرة وفي منطقة سوس المجاورة تجمعات مزدهرة تمتد عشرات الهكتارات، وقد جُهزت بهندسة معمارية ضخمة وشبكات اقتصادية ممتدة، في حين كان باقي العالم ومن ضمنه المشرق مازال يعيش حياة العصور الحجرية الحديثة. وبسبب كثافة التبادل، قام نظام من الحساب والتسجيل مستخدماً

الأرقام، في البداية بواسطة أجسام صغيرة من الطين بأشكال متنوعة، ثم بواسطة تخريبات بسيطة على لوحات، وكانوا على عتبة الكتابة التي أُخترعت في نهاية الألف الرابع في مدينة أوروك. لم تتأخر هذه الحضارة الساطعة المتمثلة بكثافة التبادل الناتج عن تركز السكان في مكان مدني، عن التآلق متجاوزة مركزها الأصلي. في أعالي وادي الفرات وحلب، ظهرت "حُبوبة الكبيرة"، - نفس خط العرض الذي تقع عليه حلب وهي تجمع من ثمانية عشر هكتاراً محاط بسور مستقيم مدعوم ببرج عمودي - كسوق حقيقي شيده المهاجرون القادمون من بلاد سومر على أرض لم تطرق بعد.

في بلاد المشرق، منذ نهاية الألف الرابع قبل الميلاد وخلال الألف الثالث، تكونت حضارة يقال عنها الحضارة البرونزية القديمة، وهي غير معروفة جيداً حتى اليوم. تتميز هذه الحضارة بنشوء دول حقيقية حول المدن المحصنة، بقيت مجهولة للتاريخ بسبب عدم اختراع الكتابة في ذلك الوقت. ولكن بجانب الحضارة الساطعة لبلاد سومر التي امتدت على مساحة أربعين هكتاراً تقريباً، ظهرت متأخرة جداً وبتواضع مدن سورية الأولى التي لم تتطور حقاً إلا في بداية الألف الثالث قبل الميلاد.

في الألف الثالث قبل الميلاد، سيطرت مدينة إيبلا على شمال سورية، في حين كانت أوغاريت على الساحل ميناءً مهماً، وهيمنت كركميش، في منطقة الفرات، على نقطة عبور استراتيجية للنهر، وكان موقع إيبلا حيث يصبح الفرات صالحاً للملاحة، وحيث كانت مملكة مارى تحتل موضعاً متوسطاً بين سورية ومنطقة الجزيرة السومرية. ذُكرت دمشق في هذا الزمن في ألواح إيبلا ولكن، تقرر، ويا للأسف، تعليق نشرها. ومع أنه لم تُنشر بعد أي دراسة عن منطقة دمشق في الألف الثالث قبل الميلاد، ومع غياب مثل تلك الدراسات المهمة التي أجريت في فلسطين، فإنه بإمكاننا أن نؤكد مشاركة دمشق في نهضة الحضارة المدنية التي ظهرت في سورية خلال الحقبة البرونزية القديمة. والجدير بالذكر أن التنقيبات التي أجريت عام 1965م في حرم الجامع الأموي الحالي، وجدت زَهْرِيَّة يعود عمرها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، أثارت انطلاقة البدو الآموريين في العديد من مناطق سورية نكسة للحياة المدنية، وأدى ذلك إلى نهاية آخر سلالة سومرية في منطقة الجزيرة، سلالة الإمبراطور أور، الذي امتدت سلطته من سوس إلى الجليل. تفاعل القادمون الجدد، الذين ينتمون لغويّاً إلى الساميين الغربيين، بسرعة مع نتاج الحضارة السومرية وأنشؤوا في منطقة حوض الفرات سلسلة من الممالك، منها مملكة بابل التي أعادت وحدتها الضائعة تحت حكم هورابي، ملكها السادس. أما

استقرارهم في سورية وتحضرهم فيها فلقد كان أبطأ، ولم يحصل إلا في منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وفي كل مكان حلت فيه سلالات الآموريين، أنشأت دولاً صغيرة حول المدن تُعَرَّف عن طريق سجلات مملكة ماري. وقد نافس بعضها دول حوض الفرات التي عاصرتها. في شمال سورية، كانت مملكة كركميش وخاصة مملكة يمشد التي كانت أكثر الممالك قوةً وعاصمتها حلب، والتي امتد نفوذها حتى زاكرو، وفي وسط سورية، كانت مملكة قطنا التي كانت عاصمتها تقع قرب مدينة حمص الحالية، وفي جنوب قَطُنًا كانت تمتد أرض أمور التي كانت تضم على الأغلب منطقة دمشق المسماة حينها "عبوم". ويشهد سطل أسطواني اكتشف في عام 1948م في دير خبيّة، على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً جنوب غرب دمشق، على علاقات المنطقة بالجزيرة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. في الساحل، كانت حقبة ازدهار الحضارة الكنعانية، التي كانت دويلاتها مدينة أوغاريت والجبيل وغيرهما على علاقة ثقافية وتجارية وثيقة مع مصر، ولكن خوفها على استقلالها دفعها للاحتواء وراء أسوارها المبنية على نحو رائع.

كان القرن السادس عشر قبل الميلاد حافلاً بالتغيرات السياسية والعرقية العميقة. ففي 1595، هاجم الحثيون - وهم شعب أوروبي هندي كان قد استقر منذ زمن طويل في الأناضول - بابل فأدى هذا إلى نهاية السلالة الأمورية بعد أن خربوا في طريقهم مملكة يمشد وعاصمتها حلب. في نفس الوقت، وحد الميتانيون والحيوريون - وهما شعبان قريبان إلى الحثيين - سورية ومنطقة الجزيرة الشمالية، بعد أن جعلوا معظم الولايات الكنعانية والأمورية دولاً تابعة^(*)، وأسسوا الإمبراطورية الميتانية الجديدة، التي لم يُعرف موقع عاصمتها بعد، وكانت توجد في سهل الخابور، وهو رافد من روافد الفرات. ولما كانوا مروحي خيول وفرساناً ممتازين، فقد أدخلوا إلى الشرق الأدنى استخدام العربات التي تجرها الخيول والتي أصبحت فيما بعد سلاحاً أساسياً في المعارك. ومن الناحية الدينية، جلبوا معهم آلهتهم الفيدية مثل ميترا وفارونا وإندرا... إلخ. إلا أنهم فشلوا في فرض لغتهم على سكان المنطقة الأصليين.

(*) تعتمد جميع المراجع الغربية - وذلك بتدخل الأيدي الصهيونية - إلى ربط جميع السكان السوريين بالتسمية الكنعانية في سعيها المحموم من أجل توظيفها في النزعة الاستعمارية للصهيونية العالمية. وفي نفس الإطار نجد نسبة الميتانيين والحيوريين إلى الحثيين وهم شعب هندو أوروبي دخيل على المنطقة، رغم أنه من الثابت أن الحيوريين هم أبناء شعير الحيوري، قوم عرب، سكنوا بعض جبال غامد من شبه جزيرة العرب. (الدكتور أحمد داود، تاريخ سورية القديم، تصحيح وتحرير، ص 224، الطبعة الثانية، 1997م).

إننا لا نعرف أي شيء عن دمشق في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، وذلك بسبب غياب ذكرها في نصوص ذلك العصر. إلا أنه في بيان طرق القوافل في ذلك العصر، ذكرت دمشق ذكراً متواتراً كمحطة رئيسية من محطاتها. فإذا لم تزودنا دمشق، بسبب قلة التنقيب، بأي شيء عن ذلك الزمن فإن تَلين مجاورين لدمشق قد زودانا ببعض الدلائل. فعلى الضفة الشمالية لنهر بردى، وعلى بعد خمسة عشر كيلومتراً شرق دمشق، أظهر تل الصالحية وجود مدينة مهمة محاطة بسور ثخين على ارتفاع ثلاثة أمتار. وفي دير خبية، على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً جنوب غرب دمشق، وعلى الضفة الشمالية لنهر الأعوج، اكتشفت آثار سورٍ وسطلٍ أسطواني، يمكن عدُّهما دليلاً على التبادلات التجارية بين منطقة الجزيرة وسورية الوسطى، فضلاً على أن دمشق قد كانت محطة استراحة للقوافل المسافرة، فلقد كانت بالتأكيد مركزاً تجارياً مجهزاً هو الآخر بحصن قوي.

خلال الحقبة البرونزية الحديثة، كانت منطقة دمشق تسمى بنفس الاسم الذي كانت تحمله في الأزمنة السابقة، مع اختلاف بسيط جداً وهو أن الاسم "عبو" كُتِبَ "أوبي" في الخط المسماري⁽¹⁾ إلا أن الحدود الجغرافية لأرض "عبو" ليست أكيدة، حتى إنه ليس من المؤكد أن دمشق قد كانت عاصمتها، شأنها شأن المدن الأخرى المعاصرة لها. حكم دمشق ملوك لا نعرف إلا اثنين منهما وهما أريوانا وزلايا. كل ما نعرفه من تاريخ "أوبي" في العصر البرونزي الحديث، مسجل في تاريخ المعارك التي جرت بين القوى الثلاث الكبيرة في ذلك الزمن وهي المصريون والميتانيون والحثيون.

بدأت حركة التوسع من مصر باتجاه الشرق خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد، عندما قاد الفرعون حموسيس (1570 - 1546) ق.م جيوشه - بعد أن انتصر وطردهم الهكسوس خارج مصر - إلى جنوب فلسطين مستولياً على مدينة شارو، مقوياً بذلك حدوده الشرقية. وفي ظل حكم أمينوفيس الأول الذي خلف حموسيس في عام 1546 ق.م، يبدو أن تأثير مصر وصل إلى الفرات، وذلك على الأقل خلال مدة الغزو العسكري. وأصبح استمرار سيطرة مصر حتى منطقة الفرات الكبير منذئذ الشغل الشاغل لفراعنة السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. إذ تبقى روايات غزواتهم المحفورة على جدران معابدهم أحد المصادر الرئيسية للمعلومات عن سياسة مصر في سورية. ولقد قاد تحوتمس الأول (1525 - 1512) ق.م جيوشه حتى منطقة كركميش حيث انتصر

(1) Pitard, W.T., Ancien Damascus, Eisenbrauns, Winona Lake, Indiana p49, 1987.

على الميتانيين وأمر بإقامة مسلة تذكارية على ضفة الفرات. ومع صعود تحوتمس الثالث إلى العرش في عام 1490 ق.م، وصلت قوة مصر إلى ذروتها. فلقد اخترق الفرعون، أثناء حملته الأولى، سورية براً وليس كما فعل قبله أمينوفيس الأول وتحوتمس الأول اللذان نزلا عن طريق الساحل الفلسطيني. وانتصر على التحالف الذي كان يقوده الأمير قادش ودفع بمنافسيه إلى مدينة مجدو التي سيطر عليها بعد سبعة شهور من الحصار. وحفرت أسماء مئة وتسع عشرة مدينة، سُجِن حكامها على جدران بوابة ضخمة في هيكل آمون في الكرنك، ورُسم عليها فرعون ممسكاً بأطراف شعر أعدائه وقد ارتعوا على الأرض عند قدميه. من بين هذه المدن، ذكرت مدينة دمشق لتظهر للمرة الأولى في التاريخ باسم تا - ماس - ق (ta-mas-q). بعد هذه الحملة الأولى، استمرت مصر بالسيطرة على سورية الشمالية وتكررت الهجمات شمالاً. وفي أثناء حملته الثامنة، تغلب تحوتمس الثالث، الذي انتصر سبع عشرة مرة خلال أربع وخمسين سنة من الحكم، على الجيش الميتاني في غرب حلب، واستولى على الفرات، وأقام مسلة النصر قرب مسلة جده، تحوتمس الأول، ثم نزل على طول النهر ووصل إلى إمار، مدينة "مَسْكِنَه" حالياً، قبل عودته إلى مصر. وبرغم حملاته العديدة ونجاحاته العسكرية، فشل تحوتمس في أن يستبدل بسيطرة الميتانيين على سورية سيطرة مصرية مدة طويلة. ولكن لأنه نجح في إخضاع كل الحكام من السودان إلى الفرات، فقد استطاع أن يرفع القوة السياسية المصرية إلى الذروة.

نجح أمينوفيس الثاني (1438 - 1412 ق.م)، ابن تحوتمس الثالث، في الحفاظ على سلطة مصر في سورية الجنوبية حيث قاد ثلاث أو أربع غزوات لكي يجمع الثورات التي كان يدعمها الميتانيون. في حين قاد تحوتمس الرابع (1412 - 1402 ق.م) غزوة واحدة ثم تزوج ابنة آرتاماء، الملك الأول للميتانيين مفضلاً دبلوماسية المصاهرة. واستمرت العلاقات السلمية بين الإمبراطوريتين في عهد حكم ابنه أمينوفيس الثالث، وقد دل على هذا كتابةٌ محفورة في قاعدة تمثال موجود في المقبرة الملكية للفرعون في الجزء الغربي من طيبا (Thèbes). هنا بدت لنا (ت - ماس - ق) للمرة الثانية في النصوص، ولكن ذكرت هذه المرة لأنها من المدن السورية الصديقة لمصر. وفي ظل حكم أمينوفيس الرابع - أختاتون (1379 - 1362 ق.م) نقلت العاصمة إلى وسط مصر في أختاتون، حيث يوجد حالياً تل العمارنة، وحيث اكتشف في عام 1887م عدد كبير من لويحات الفخار باللغة البابلية والخط المساري، تحتوي على قسم كبير من المراسلات الدبلوماسية أثناء حكم أختاتون، سواء كانت من إقطاعي مصر أم كانت من رؤساء قوى البلدان المجاورة، مثل الميتانيين والحثيين والبابليين، إضافة

إلى بعض الرسائل التي يعود تاريخها إلى السنوات الأخيرة من حكم أمينوفيس الثالث. تشهد هذه اللويحات في ظل حكم أخناتون على أن مصر قد نجحت في الحفاظ على سيطرتها على سورية الجنوبية، ومن ضمنها "أوبي". وتزودنا بأدلة ثمينة على الكيفية التي جرت فيها السيطرة على المقاطعات: فما دامت الضرائب والحاصلات الزراعية تصل إلى مصر، كان الإقطاعيون يحتفظون بسلطتهم الأساسية، ولكن كان هناك دائماً حامية تحت قيادة ضابط مصري في بعض المدن بغية التحكم في المنازعات بين المدن المتنافسة، وخاصة إذا كان هناك خطر يهدد المصالح المصرية. ولقد كان هناك رسالة تذكر دمشق فيما يتعلق بنزاع بين ملك أمورو وملك جبيل. وهناك رسالة أخرى وجدت عام 1969م في كوميدي، مدينة "كميد اللوز" حالياً، في سهل البقاع، كان قد أرسلها فرعون إلى زالايا، ملك دمشق. نفهم منها أن الحكام كانوا يشتكون من نهب العبّيرو، وهم عصابات مسلحة بلا قلب ولا ضمير - يبدو لنا كأنهم يتكلمون عن العبريين - وكان حكام آخرون يتهم بعضهم بعضاً بالخيانة، ونفهم منها خاصة زيادة القلق أمام زيادة القوة الحثية.

ما أن صعد الملك الحثي سوبيلوليوما إلى العرش في 1380 ق.م، حتى اعتمد سياسة هجومية، سمحت له خلال حكم يزيد عن ثلاثين سنة أن يغير كل التوازن بين القوى في الشرق الأدنى. إذ قد استولى على كل ممتلكات الميتانيين في شمال سورية، فقد عمل على ضم عدد من الإقطاعيات القديمة إلى إمبراطوريته تدريجياً، مثل أوغاريت وأمورو وقادش القريبة من مدينة حماة الحالية، وربما أوبي التي سجن ملكها أريوانا بعد أن هزم ونفي إلى الأناضول. وقد اكتشفت كتابة في القاهرة عام 1973م، تذكر أن حارحباب (1347 - 1320 ق.م) قد قاد ابتداءً من جبيل حملة في سورية من الشمال إلى كركميش، مما يدفعنا إلى التفكير في كل الأحوال إلى أنه في ذلك العصر كانت سورية الجنوبية، من ضمنها أرض أوبي، تحت سيطرة مصرية محكمة. وقد تابع ستي الأول (1318 - 1304 ق.م)، الفرعون الثاني من السلالة التاسعة عشرة، الحرب على الحثيين، واسترجع قادش وأعاد السيطرة المصرية في أمورو وخلد مآثره في رحاب قاعة هيبوستيل لهيكل أمون في الكرنك. كما وصل رمسيس الثاني (1304 - 1237 ق.م) في السنة الرابعة من حكمه إلى وادي نهر الكلب حيث أمر بنحت كتابة يصعب اليوم قراءتها إلى حد ما. وفي العام التالي، تخلى المصريون مجبرين في معركة قادش المشهورة عن أمورو للحثيين مؤقتاً. وفي عام 1283 ق.م، بعد سبع عشرة سنة من الحروب المستمرة وقعت معاهدة سلام بين رمسيس الثاني والملك الحثي، حاتوسيلي الثالث، محددة تقريباً الحدود بين المملكتين على طول خط يمر بجنوب قادش.

يبدو أن القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كما تشهد المواد الأثرية، كان حقاً عصرًا ذهبيًا لسورية، التي بدا ازدهارها جلياً عن طريق تبادلات تجارية واسعة النطاق، مع أودية النيل ودجلة والفرات ومناطق الأناضول وقبرص والعالم الميسني. وفي نهاية العصر البرونزي، غرق هذا العالم الغني والعريق في مصيبة مازالت أسبابها وسياقها مجهولة حتى اليوم. إذ يبدو أن نوعاً من الاتحاد بين شعوب غربية، "شعوب البحر" استطاعت، بعد عدة محاولات لغزو مصر بءت كلها بالفشل، أن تسحق الإمبراطورية الحثية، وعاثت في سورية فساداً حتى السهول الداخلية، ووصلت إلى وادي الفرات فحرقته مدينة إمار وأسالت الدماء فيها، وخربت المدن المزدهرة مثل أوغاريت والألاخ وقطنه، قبل أن تصدهم عند أبواب مصر جيوش رمسيس الثالث حوالي عام 1190 ق.م. فالنص المحفور على جدران هيكل مدينة حبو في الطيبة لا يدع مجالاً للشك في مدى عظم الكارثة: "لقد هدمت كل البلدان ونهبت في المعارك. لم يستطع أحد أن يقاوم أمام أسلحتهم (...). الكل هُدم بضربة واحدة (...). لقد حطموا شعب أمورو وبدت بلاده وكأنها لم تكن أبداً"⁽¹⁾. تذكر النصوص المصرية، من ضمن الغزاة، الفلسطينيين الذين احتلوا مدينة غزة وعسقلان وأشود قبل أن يصبحوا، بحلول عام 1100 ق.م، الأعداء الرئيسيين للقبائل اليهودية. بعد مرور "شعوب البحر"، خيم السكون على سورية لعدة أجيال.

عندما عاودت الوثائق بالظهور، كانت الصورة السياسية مختلفة جداً. في شمال سورية، حول المدن مثل كركميش وحماة، كانت هناك ممالك صغيرة قد قامت على حطام الإمبراطورية الحثية. وفي أطراف الصحراء أنشأ القادمون الجدد من الآراميين، وهم ساميون تغلب عليهم البداوة، الإمارات. تروي لنا الروايات التوراتية بعض القصص الأسطورية عن أصل الآراميين وعلاقاتهم بأجداد اليهود. يذكر سفر التكوين في المرة الأولى "آرام" كأحد أبناء سام⁽²⁾، وفي المرة الثانية كأحد أبناء إبراهيم⁽³⁾ وأعطى إسحاق ويعقوب، وهما جدّان مباشران لليهود، زوجات آراميات⁽⁴⁾. ترجع كتابة هذه الروايات إلى عصر يُنظر فيه إلى الآراميين على أنهم شعب قوي، عصر يلي الأحداث المروية. تدل

(1) (Briend, J. et Seux, M - J., Textes du Proches - Orient ancien et histoire d'Israël, Paris, Edition du Cerf) p69, 1977.

(2) سفر التكوين، 10، 22.

(3) سفر 22، 21.

(4) سفر 25، 20.

هذه الروايات على أنه كان هناك بين اليهود والآراميين حياة بدوية مشتركة في صحراء سورية. ومع أنه يبدو من المحتمل أنهم كانوا بدواً في أعلى ووسط منطقة الفرات منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، فإن أول مرة ذكر فيها الآراميون تعود بلا شك إلى كتابات الملك الآشوري تغلات بيلسر الأول التاريخية (1116 - 1076 ق.م): "لقد عبرت الفرات ثانياً وعشرين مرة ألاحق الأخلام (Akhlamê) الآراميين. لقد انتصرت عليهم من تدمر في أرض أمورو، وأنات في أرض سوهو، حتى راييكو في بابل. لقد جلبت معي خيراتهم إلى مدينتي آشور"⁽¹⁾. إن عناد المقاومة الآرامية التي تبدو لنا من خلال العدد المرتفع للهجمات التي شنها تغلات بيلسر لم يتوقف أثناء حكم آشور بلكالا (1073 - 1056 ق.م) الذي تشهد لنا كتابة عن حملاته العديدة في صحراء سورية.

ونعود مرة أخرى للحديث عن مركز جنوب سورية، إلى المصادر التوراتية. ففي زمن شاول، الملك الذي اختارته القبائل العبرية لكي توحد قواها في كفاحها ضد الفينيقيين، ظهرت عدة دول آرامية عند الحدود مع المملكة اليهودية؛ منها بيت رحوب التي كان موقعها على الأغلب في جنوب وادي البقاع، وآرام ماکاه في جبال الجولان، وحنشور شمال وادي اليرموك، وآرام زوبه أكثر الدول قوة، والتي تمركزت في شمال البقاع. أما دمشق، فلقد ظهرت للمرة الأولى في قصة حروب يعقوب (1004 - 965 ق.م) التي شنها على عمون، إحدى ممالك شرقي الأردن، بغية وصل الطرق التجارية مع الجزيرة العربية⁽²⁾. بعد أن هزم يعقوب (قرب حماث، حماة حالياً)، حداديزير، ملك آرام زوباه، الذي طلب منه أمورو التحالف معه، عاد يعقوب لمواجهة جيش النجدة الذي أرسله آراميو دمشق. إن موقع التحام الجيشين غير معروف، ولكن وفق 2 سام 8.5 كان انتصار يعقوب ساحقاً. فسجن العديد من الجنود واستولى على غنائم كثيرة وعلى دمشق حيث وضع حامية. يذكر نيقولا الدمشقي، عالم دمشقي عاصر أوغست، كما ذكر فلافيوس جوزيف في كتابه عن ماضي اليهودية القديم

(1) Pitard, W.T., p 82-84 Starcky, J., "palmyre", Paris, A. Maisonneuve, p34, 1985 Briend, J., Seux, M.J p 72..

سوهو: منطقة واقعة في غرب وسط منطقة الفرات التي تمتد حتى أنات، أنا حالياً، (على بعد مئة كيلو متر تقريباً من أبو كمال). وكانت راييك تقع على بعد 65 كم تقريباً من غرب بغداد حالياً.

(2) سردت هذه الحوادث بالتفصيل في 2 Sam. 8, 1 - 14؛ 2 Sam. 10, 1 و 19 - 18 Chr. 1، 16 - 19 Chr 1، 19 - 1.

(Antiquité judaïque): "كان حداديزير ملكاً قوياً جداً (...) وكان أكثر الملوك شجاعة وقوة ولقد كان يحكم دمشق وبقية سورية فيما عدا فينيقيا" (1)(*) .

أوصل النبي سليمان، ابن وخليفة النبي داود القوة الإسرائيلية إلى ذروتها، ولكنه اضطر في العديد من المقاطعات إلى مواجهة ثورات كانت تدعمها في أغلب الأحيان مصر. وفي سورية المركزية، زحف ريزون، ابن إلادا خادم حداديزير الزوبي، بجيش صغير استطاع أن يجمعه وأعلن نفسه ملكاً على دمشق، وجابه اليهود خلال حكم النبي سليمان (2). مع موت النبي سليمان بدأت دولة اليهود بالانهيار، في حين جعلت سياسة ريزون وخلفائه، هيزيون وتاب رامان وبار حداد الأول، الدولة الآرامية في دمشق أول قوة في المنطقة. وها نحن نراه في بداية القرن التاسع قبل الميلاد، يتدخل في النزاع بين آسا وباسا، ملكي دولتين نشأتا من انحلال المملكة اليهودية بعد موت النبي سليمان، وهما يهوا وإسرائيل (3). لما كان آسا قلقاً من محاولات التحصين التي كان يقوم بها منافسه في رامة الواقعة على بضعة كيلومترات شمال القدس، جمع كنوزه من ذهب وفضة، كما يحدد النص التوراتي، وأرسلها إلى بار حداد في دمشق، وهو يدعو أن ينقض عهده مع باسا. فغزا بار حداد أراضي إسرائيل الواقعة في شمال بحيرة طبرية، فوسع بهذه الطريقة هيمنة دمشق مدة لا تقل عن عشر سنوات على الطرق التجارية التي تصل إلى الموانئ الفينيقية المستقلة حينها: صيدا وصور وأشزيب وعكا. وفي منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، في ظل حكم حداد عيدر، كانت دمشق قوية بقدر يكفي لتكون على رأس تحالف لمواجهة المطامع الآشورية، كان يضم إرخولنا، ملك حماث، وأشاب، ملك إسرائيل. تابع سلمانصر الثالث (858 - 824 ق.م) سياسة والده آشورناسيربال التوسعية رغبة منه في الوصول إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، والسيطرة على الطرق التجارية في سورية الشمالية. لذا ضم في بداية حكمه، بيت عديني، إحدى أكثر الدول الآرامية قوة في أعلى وادي الفرات، وذلك ليضمن نقطة عبور سهلة للنهر. وفي 853 قبل الميلاد، استولى على حلب، حيث تقرب بالأصاحي إلى إله حداد، بعد أن استلم الغنائم من الذهب والفضة. ثم زحف إلى حماث

(1) (Flavius Josèphe, Antiquités Judaïques, VII, 5,2).

(*) فينيقيا: منطقة الساحل السوري حيث انتشر الفينيقيون تاريخياً ما بين جبل الكرمل في الجنوب ورأس شمرا (أو غاريت) شمال اللاذقية.

(2) سفر الملوك 11، 25.

(3) سفر الملوك 1، 15، 16 - 22 و 2 Chr. 16، 1 - 6.

فهدمها. وبعد أن "هدم وحطم وأشعل النيران"⁽¹⁾ في قرقر⁽²⁾، مدينة إرخولنا الملكية، ثم سحق جيش القوى المتحالفة، قاقار وجيلزاعو، عند أطراف نهر العاصي، عاد أدراجه إلى آشور. إن أعداد المقاتلين كما زودتنا به النصوص الآشورية - إضافة إلى أنها أعطت أرقاماً مضخمة لكي تمجد المنتصر - تؤكد المكانة المهيمنة والرئيسية التي كانت تحتلها دمشق في التحالف، والتي أصبحت تُسمى منذئذ إمريشو أو شا - إمريشو. في الوقت الذي كان فيه جيش أشاب مكوناً من 200 عربية⁽³⁾ و10000 جندي من المشاة، كان جيش إرخولنا مكوناً من 700 عربية و700 فارس و10000 جندي مشاة، وجيش حدد عيدر يشتمل على 1200 عربية و12000 فارس و20000 رجل. يذكر النص من بين القوى المتحالفة 1000 رجل من "جندوبو من بلاد عربة"⁽⁴⁾، أي العرب الذين جاء ذكرهم للمرة الأولى في هذه النصوص. وقد وجب على سلمانصر الثالث أن يواجه ثلاث مرات، في 849 و848 و845 قبل الميلاد، قوى التحالف التي كان يقودها حدد عيدر دون أن يتمكن - برغم التصريحات الرسمية المبالغ فيها عن الانتصار، والمذكورة في سجل الأحداث - من فرض سيطرته على سورية المركزية والجنوبية.

توفي حينذاك حدد عيدر في ظروف غامضة، ربما قُتل مخنوقاً تحت غطاء مبلل بفعل شخص "نكرة" يدعى حزائيل، - كما نعتة النص المكتوب على تمثال سلمانصر الموجود في آشور - الذي استولى بعد جريمته على العرش⁽⁵⁾. لم يتمكن التحالف المضاد للآشوريين من الاستمرار بعد تغير العائلة الحاكمة، وبدأت العلاقات تسوء بين آرام وإسرائيل اللتين تواجها في معركة راموث غلاد⁽⁶⁾. في ذلك الوقت عبر سلمانصر الثالث مرة أخرى الفرات، ولما كانت حماث قد وقعت معاهدة سلام، في حين كانت إسرائيل وصور وصيدا تدفع الضرائب، وجدت دمشق نفسها معزولة في مواجهة الآشوريين. بعد أن هُزم حازائيل في جبل سانيرو، وذلك في الحصون الشمالية الأخيرة في

(1) نفس المرجع Briend, J. et Seux, M. ص 85.

(2) نحو سافلة نهر مدينة حماة الحالية.

(3) يقدم النص الرقم 20000، انظر إلى نفس المرجع لـ Briend, J. ص 87.

(4) نفس المرجع Briend, J. ص 86، في مفردات اللغة الآشورية، تعني الكلمة "عرباً" طريقة حياة بدوية وليس فقط عرقاً معيناً، و كانت تطلق أحياناً على أناس أسماؤهم لا تدل على أنهم عرب.

(5) تاريخ و ظروف الأحداث ليست معروفة بدقة. إن رواية 2 سفر الملوك 8، 7 - 15 تذكر شخصاً يدعى بار حدد (بن حدد)، ملك دمشق أثناء الاغتصاب. ربما كان المقصود به بار حدد الثاني الذي استمر حكمه سنتين فقط.

(6) 2 سفر الملوك 8، 28 و 2 سفر الملوك 9، 14.

سلسلة جبال لبنان، انسحب إلى دمشق التي حاصرها آنذاك سلمانصر الثالث. ولقد كانت المرة الأولى التي يصل فيها جيش آشوري إلى دمشق. من المؤكد أن دمشق كانت محصنة، لأن الآشوريين الذين لم يفلحوا باقتحامها هاجموا بساطينها وقطعوا أشجارها وخربوا ضواحيها وأضرموها فيها النيران. كان هذا الحصار الأول بداية سلسلة طويلة من الحصارات يزيد عددها عن مئة. زحف بعدها سلمانصر الثالث إلى حوران مخرباً ومشعلاً النيران في القرى، ثم غيّر توجهه إلى المنطقة الساحلية، حيث أقام تمثالاً له على مرتفع في جبل لبنان بجانب تمثال تلغات بليس، وذلك رغبة منه في تخليد ذكرى مروءته من هناك. في عام 838 ق.م، أي في السنة الحادية عشرة من حكمه، قام الملك الذي لا يعرف التعب بحملته السادسة والأخيرة، ووجد حازائيل نفسه للمرة الثانية وحيداً، على حين كانت معظم مدن سورية الأخرى قد سقطت في أيدي الغزاة أو تدفع الإتاوات. وهُزم سلمانصر الثالث مرة أخرى أمام دمشق بعد أن انتصر انتصاراً غير ذي بال على جيوشها. ومرت بعدها ثلاثون سنة أخرى قبل أن يظهر جيش آشوري جديد يهاجم دمشق.

بعد أن تحرر حازائيل - الذي تعتبره النصوص التوراتية أداة ليهو الانتقامية - من التهديد الآشوري، ركز جهوده المضادة لإسرائيل. فلما ضعفت إسرائيل كثيراً بسبب التطهير الدامي الذي تبع صعود جيهو إلى العرش - ذكر هذا التطهير بالتفصيل في 2 سفر الملوك 10، حيث لا نقرأ إلا قصصاً مليئة بالمجازر والمذابح والرؤوس المقطوعة والمرسلة في سلال - لم يعد بإمكان إسرائيل المقاومة والوقوف أمام قوى دمشق المتفوقة، وفقدت تقريباً أغلب أراضيها في شرقي الأردن. يمكننا أن نجد في 2 سفر الملوك 10، 32: "في تلك الأيام بدأ يهو ببيت إسرائيل وهزم حازائيل اليهود على كل الجبهات: من نهر الأردن وباتجاه المشرق، كل بلاد الغلاديين والغاديين والروبيين والمنسيين، من أروير القريبة من مجرى نهر أرنون كما هي قرية من غلاد وباسان". أثناء حكم جُواشاز، ابن وخليفة جيهو، تابع حازائيل سياسته التوسعية وعبر نهر الأردن وتقدم باتجاه فلسطين واستولى على مدينة غاث. وأصبحت إسرائيل التي لم يعد جيشها يضم إلا 50 فارساً و10 عربات و10000 رجل من المشاة، كما هو مذكور في 2 سفر الملوك 13، 7، إقطاعية لدمشق. لما توجه حازائيل باتجاه يهو زحف على القدس التي كان ملكها جواس كسابقه آسا قد دفع ثمن انسحاب الآراميين من كنوز الهيكل وكنوز قصره. وأصبحت يهو بدورها إقطاعية لدمشق. وأثناء مدة حكم حازائيل الطويلة، والتي قاربت أربعين عاماً، وسعت المملكة الآرامية في دمشق، التي أصبحت أول قوة في سورية، سلطتها

من حمص إلى سيناء ومن الساحل إلى أطراف الصحراء. واحتفظت فقط المدن الكنعانية الساحلية باستقلالها. وفشل بار حدد الثالث، ابن وخليفة حازائيل، في الحفاظ على سطوة دمشق، إذ تمردت الدول المستعبدة في فلسطين في حين عبر الآشوريون الفرات مرة أخرى. إنه لمن الصعب أن نعرف بدقة تاريخ وقائع الأحداث المذكورة بالتفصيل في التوراة والكتابات الآشورية.

تلقي بار حدد الثالث في سورية الجنوبية ضربات عسكرية مُوجعة. فكما هو مذكور في 2 سفر الملوك 13، 25، خسر ابن جواشاز، بعد أن هزمه جواس ثلاث مرات، كل المدن التي كان قد فتحها والده حازائيل في مملكة إسرائيل. واضطر بار حدد الثالث كما هو مذكور في 1 سفر الملوك 20، 34، منح ملك إسرائيل كل الامتيازات التجارية في عاصمته، وذلك تعبيراً عن شكره لجواس الذي تركه ينجو بنفسه عندما كان محاصراً في مدينة أفق حيث كان ملتجئاً. فلقد قال له: "يمكنك أن تقيم لك في دمشق أسواقاً كما كان فعل والدي فيما مضى في السامرة"⁽¹⁾. من المحتمل أن أول استقرار طويل الأمد لليهود في دمشق كان نتيجة معاهدة التحالف التي وقعها حينذاك جواس وبار حدد الثالث. لم يكن حظ بار حدد أسعد في مناوشاته مع جيرانه في الشمال. فحين قَدِم، على رأس تحالف ستة عشر حاكماً لمحاصرة ملك حماة زكور في مدينته - وقد كان هذا الملك معروفاً بسياسة التصالحية مع الآشوريين - اضطر بار حدد لسبب غير معروف - ربما كان تدخل الملك الآشوري حدد نيناري الثالث - أن يفك الحصار عن حماة وأن يعود أدراجه إلى دمشق. نعرف هذه الأحداث عن طريق نصوص مبتورة مذكورة على مسلة وجدت في عام 1903م في جنوب شرقي حلب وقد قدمها زاكور إلى إله العواصف المطرية إليور تعبيراً عن شكره لدعمه له.

وجه الآشوريون الضربة القاضية إلى حكم دمشق ونفوذها. وفي ذلك العام 796 ق.م تقريباً، حين زحف حدد نيناري الثالث (810 - 783 ق.م) باتجاه أرض شا - إمريشو (دمشق)، وفرض هيمنته تدريجياً، بعد أن عبر الفرات، على الأراضي الحثية ثم على كل أرض أمورو، ووصل إلى "بحر غروب الشمس الكبير" وشيد تمثالاً له في أرمادا - جزيرة أرواد حالياً - وأمر بقطع المئات من أشجار أرز جبال لبنان لبناء قصوره وهياكله، ثم أخضع إسرائيل وصور وصيدا وبلاد الفينيقيين، ووصل

(1) إن القصص المذكورة في 1 سفر الملوك 20 و 22 (التي يضعها الناسخ التوراتي تحت حكم أشاب في زمن التحالف الإسرائيلي الآرامي) يجب أن يدل مكانها إلى ظل حكم جواس.

قرب دمشق، حيث اضطُرَّ بار حدد الثالث إلى الاستسلام. ولقد ذكر بوضوح للمرة الأولى في نص محفور على مسلة وجدت في تمرود بأنه في قصر ملك دمشق نفسه استلم الملك الآشوري الضريبة وقد كانت: "2300 تالان من الفضة و20 تالان من الذهب و3000 تالان من البرونز و5000 تالان من الحديد، وملابس من الزركش القيطاني الملون ومن الكتان، وسريراً وأريكة مزخرفة ومرصعة بالعاج وخيرات كثيرة وممتلكات لا تعد ولا تحصى"⁽¹⁾. تقدم النصوص فتح دمشق هذا على أنه إنجاز عظيم جداً حققته حملات حدد نيراني الثالث الآشورية. إلا أن هذا الفتح لم يؤد إلى اندماج نهائي للعاصمة الآرامية في الإمبراطورية الآشورية. ففي عام 773 ق.م ذكر في نص محفور على مسلة شيدت أثناء حكم سلمانصر الرابع (782 - 772 ق.م) والتي اكتشفت حديثاً في بازارسيك في تركيا بأن الآشوريين أتوا من جديد إلى دمشق، واضطر ملكها خادبانو - لم يكن معروفاً قبل اكتشاف هذه المسلة - لدفع الإتاوة. وأثناء الربع الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد، إذا صدقنا ما هو مذكور في 2 سفر الملوك 14، 28، كانت تربط دمشق بمملكة جيروبووم الثالث اليهودية روابط تبعية على الأغلب. لقد كان حكم جيروبووم الثالث من أكثر الحكومات ازدهاراً في التاريخ الإسرائيلي⁽²⁾، وقد أدى موته إلى انفجار صراع من أجل السلطة في السامرة استغلته دمشق في استعادة استقلالها.

وفي ظل حكم تلغات بليسر الثالث، في عام 735 ق.م تقريباً، بدأ النزاع الذي أدى إلى موت المملكة الآرامية نهائياً في دمشق. ذكر هذا النزاع، في الكتاب الثاني للملوك، النبي الذي عاصر هذه الأحداث وهو النبي إسحاق، والسجلات الآشورية. عندما كان الملك الآشوري في حملة شمال وشرق مملكته، قَدِمَ تحالف يقوده راديان ملك دمشق، وقد ضم على الأقل فاسيه ملك إسرائيل والمدينة الكنعانية صور، ليحاصر القدس التي استنجد ملكها أشاز بتلغات بليستر. ومنذ عام 734 قبل الميلاد، انقض الملك الآشوري على سورية خلال سنتين مصمماً على الانتهاء من هذا الأمر. فنزل أولاً إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث استولى على كل المدن واحدة تلو أخرى، ووضع على رأس كل منها حاكماً. واستسلمت صور التي كانت، كما يذكر النبي إسحاق، "ملكة البحار، إذ كان

(1) نفس مرجع (Briend) ص 95.

(2) كما هو مذكور في سفر الملوك 14، 28، امتدت مملكة إسرائيل في عهد جيروبووم الثاني حتى حاث، وهذا يصعب تصديقه.

ارجع إلى نفس مرجع (Pitard) ص 176.

تجارها أمراء ومفاوضوها سادة كباراً"، ودفعت جزية كبيرة جداً⁽¹⁾. بعد أن شيد تلغات بليستر الثالث في غزة - التي هرب ملكها - مسلة النصر أجبر ملك إسرائيل، الذي لم يعد له سلطة إلا في أطراف السامرة، على قبول التبعية الآشورية. وقُسم شمال البلد المضموم إلى الإمبراطورية الآشورية إلى ثلاث مقاطعات: مقاطعة مجدو ومن ضمنها الجليل، ومقاطعة دور على الساحل ومقاطعة جيليد. وفي نفس الوقت أخضع زيبية ملكة العرب، ثم استولى على المدن واحدة تلو الأخرى، وهو يسمح في طريقه كل شيء ويأخذ معه في كل مرة مئآت من المساجين مع ثرواتهم وقطعانهم. ذكرت النصوص الآشورية خمس مئة وواحدة وتسعين مدينة - أي قرية - وسبع عشرة مقاطعة، كل هذا في أرض شا إمريشو فقط، التي كانت تضم وقتئذ إضافة إلى منطقة دمشق، البقاع والمنطقة المواجهة للبنان والجولان وحوران⁽²⁾. وفي عام 733 جاء دور دمشق التي كانت كما يقول لنا النبي إسحاق مشهورة بثرواتها⁽³⁾. وهرب راديان الذي خرج على رأس جيشه لمواجهة أعدائه الآشوريين من أرض المعركة، و"لكي ينقذ حياته دخل مثل النمى إلى مدينته من الباب الكبير"⁽⁴⁾. ورفع تلغات بليستر أشرف القوم الذين وقعوا أحياء بين يديه على الخازوق عند السور وعلى مرأى من السكان المذعورين، في الوقت الذي نُهب فيه ضواحي المدينة. يذكر سطر مجزأ في أحد النصوص "البساتين التي لا تحصى" والتي خربها الآشوريون؛ لا بد أنها بساتين دمشق. بعد خمسة وأربعين يوماً من الحصار، هوجمت المدينة ونفي جزء كبير من السكان وقُتل راديان⁽⁵⁾. وكانت هذه نهاية آخر موقع مُحصن آرامي في سورية. وأصبحت دمشق عاصمة مقاطعة آشورية صغيرة وجزءاً من شا إمريشو بعد أن وزع الباقي بين عدة مقاطعات مجاورة. لم تتحقق نبوة النبي إسحاق وهي: "ستوقف دمشق

(1) إسحاق، 23، 8.

(2) J. - Briend, J. et Seux, M. في نفس المرجع، ص 100، يجب اعتبار الأرقام التي يقدمها سرد الوقائع وكذلك تلك الأرقام المذكورة في الإنجيل بكثير من الحذر. ففي ظل حكم شلمنصر الثالث مثلاً، تجاوز عدد الأعداء الذين تم قتلهم في معركة قارقار من نص لآخر من 14000 إلى 25000 ومن ثم إلى 29000.

(3) إسحاق 8، 4.

(4) نفس المرجع الأخير، ص 100.

(5) 2 سفر الملوك 16، 9.

من كونها مدينة وستصبح كومة من الحطام⁽¹⁾، إلا أنه كان لابد من الانتظار على الأقل أربعة عشر قرناً تقريباً لتعود المدينة الكبيرة الآرامية عاصمة لدولة مستقلة.

ومع هذا لم تتوقف الغزوات الآشورية في غرب حوض الفرات. فلقد كان هذا دور سرغون الثاني (722 - 706 ق.م) الذي حدث أثناء حكمه أكبر توسع آشوري، والذي أنجز ما بدأ به سالفه. ففي عام 722 قبل الميلاد، وكان قد خلف حديثاً سلیمانصر، احتل السامرة التي نفى سكانها. وفي عام 720 قبل الميلاد بعد أن هزم في قرقر ملك حماث الذي كان يرأس تمرداً شاملاً كانت قد شاركت فيه دمشق، حمل الجيوش المصرية والغزاوية المتحالفة خسارة فادحة في رفع. وفي عام 717 قبل الميلاد، سقطت آخر دولة حثية في شمال سورية. وكما يذكر النبي إسحاق لقد "قرع سرغون في التراب أولئك الذين كانوا يتربعون في أراضيهم" و"سيطر على ثروات الأمم كما يُستولى على عُش الفراع"⁽²⁾.

إذا كان سقوط دمشق قد وضع حداً نهائياً، في سورية على الأقل، للتاريخ الآرامي السياسي، فإن تأثيرهم الحضاري امتد عدة قرون. فلقد كانت اللغة الآرامية، وهي لغة سامية قريبة من اللغة العبرية واللغة العربية، لغة الدولة في الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، وقد استعملها في مصر الموظفون الفرس والمصريون في مراسلاتهم. وباللغة الآرامية كتب اليهود الترجومة والتلمود، وبها دعا مسيح الناصرة بدعوته. وحتى اليوم مازالت هي لغة الطقوس للعديد من الجماعات النصرانية في الشرق الأدنى، ولكن تحت اسم اللغة السريانية. ولم تبدأ هذه اللغة بالاختفاء شيئاً فشيئاً إلا مع الفتح الإسلامي أمام اللغة العربية. في حين أننا نجهل تقريباً كل شيء عن الهندسة المعمارية الآرامية، فقد اكتشف حطام أحد القصور الملكية في تل حلف عند ينابيع الخابور حيث شُيدت في القرن التاسع قبل الميلاد غوزانا القديمة، عاصمة دولة آرامية صغيرة في بيت بحيان. أما فيما يتعلق بطقوس ومعابد الآراميين، فعلينا أن نرجع إلى نصوص الأستاذ الساخر لوسيان دوسموسات، عن الآلهة السورية، (Sur la déesse syrienne)، يصف فيها بسخرية هيكل وشعائر هيرابولس، مدينة منبج في شمال سورية حالياً. لقد كان الإله المعظم للشعب الآرامي هو حَدَد، رب العواصف المطرية.

(1) إسحاق 1، 17.

(2) المرجع الأخير 10، 13 - 14.

وقد شُيِّد الهيكل المحاط بسورين على هضبة في وسط المدينة مطلقاً على شروق الشمس⁽¹⁾.

من دمشق الآرامية، برغم غياب التنقيب في موقع المدينة نفسه، يمكن وضع مخطط للمضواحي. فلقد تبين من النصوص الآشورية والتوراتية، التي ذكرت سابقاً، أن دمشق كانت مدينة قوية ومزدهرة وتحتوي على قصر، ولقد كانت محمية بأسوارها التي نجهل حتى الآن آثارها بدقة. كان موقع القصر على الأغلب على تل بارز من الطبقات الأثرية وليس على مرتفع طبيعي. كما كان ارتفاع هذا القصر ستة أمتار تقريباً، ويقع قرب مركز المدينة الحالي، تماماً في جنوب الشارع المشهور - شارع الطويل - في حي ذي اسم إغريقي آرامي، "الباريس". ومن المحتمل أن يكون المقصود به هو "القلعة"⁽²⁾ التي كانت موجودة عند الفتح الإسلامي. إن وجود البساتين، التي جاء ذكرها مراراً عند الحديث عن الآشوريين وتقطيعهم لأشجارها، يجعلنا نعتقد بوجود شبكة للسقي. إذ يذكر 2 سفر الملوك 5، 11 نهريْن في دمشق، "إبانا وفرفر". من الممكن أن يكون أحدهما نهر بردى نفسه والثاني نهر بانياس وهو أحد فروعه التي تعبر المدينة وقد كانت مهمتها الأولى تزويد معبد حدد بالماء. إضافة إلى أنه من الممكن أن يكون الفرع الذي مازال مرتبطاً بالتسمية الآرامية، وهو نهر تورا "الثر" قد جرى حفره في حافة الجبل. أما ما يتعلق بالمعبد فإنه من المحتمل جداً أن يكون قد شيد في موقع الجامع الأموي الحالي في الجزء الشمالي الغربي للمدينة. في الواقع، نحن نعرف من مصادر أكيدة أن الجامع قد خلف كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي لم تكن هي الأخرى سوى تعديل لمعبد جوبيتر الدمشقي، وهو مسخ روماني للإله الآرامي الأعظم، إله المطر والعواصف "حدد". من الممكن أن تبدو عبادة هذا الإله جلية من دراسة أسماء أعلام الملوك الذين كانوا يدعون باسم بار حدد "ابن حدد" أو تاب رائمأن أي "رائمأن الطيب"، إذ

(1) Lucien de Samosate, Sur la déesse syrienne, Oeuvres complètes, tr. Fr. E. Talbot, Paris, Hachette, 1912

الجزء الثاني، ص 454، إن الأهمية التي حظي بها الآراميون في الشرق الأدنى القديم مازال يشهد بها تلك الملاحظة التي أدلى بها أحد الكتاب المسلمين في القرن العاشر بعد الميلاد: قبل حقة برج بابل، كان كل الناس يتكلمون السريانية.

Mas'udi, Les prairies d'or, Paris, Société asiatique p430 VOL II 1965.

إذ يذكر أن النبي إبراهيم وقحطان كانا يتكلمان اللغة السريانية وأن النبي إسماعيل هو من بنى اللغة العربية. (ج2، ص380).

(2) (Sauvaget, Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, Revue des Etudes Islamiques, p 432 vol 8 1934.

وفق العالم التاريخي والجغرافي المسلم، مسعودي، الذي كتب في المتصف الأول للقرن العاشر: "كان يوجد في دمشق أيضاً بناء رائع يسمى الباريس؛ مازال قائماً في مركز المدينة. كان هذا فيما مضى مركزاً لتوزيع الخمر؛ وقد جاء ذكره في شعر مديح قيل في الغسانيين"

Mas'udi, Les Prairies d'or, tr. fr.Ch. Pellat, paris, Société asiatique, p 545 VOL II 1965.

إن رامّان "القاصف" ليس إلّا حدد نفسه. دُكر هذا المعبد الذي كان مشهوراً في زمانه مرتين في التوراة، أولاً في 2 سفر الملوك 5، 18 حيث يروي بالتفصيل شفاء القائد الحربي الآرامي نعمان، والمرة الثانية في 2 سفر الملوك 16، 10، 12 حيث يذكر لغناه ومجده خاصة. عندما حدث الاستيلاء على العاصمة الآرامية في 732 ق.م، أتى ملك يهو "أشاز" إلى دمشق ليمثل أمام تلغات بليستر الثالث. فأعجب بشدة بمذبح المعبد فأرسل نموذجاً عنه إضافة إلى مخطط لكل المبنى إلى الراهب أورياس مع أوامره المستعجلة ببناء مذبح مشابه له في معبد القدس.

بغياّب التنقيب في موقع الجامع الحالي، فإننا لا نملك أي أثر هندسي للمعبد، حتى اكتشف في سنة 1948م في الجزء الشرقي للجدار الشمالي لسور الجامع حجر عمودي بازليتي يعود مؤكداً إلى المبنى الآرامي القديم⁽¹⁾. إذ يوجد في زخرفته سفنكس "أسد مجنح برأس رجل" تدل بميزات الإبداعية والقطعية وصّدّاره ولحيته الطويلة وتسطح تاجه المزدوج على أنه يعود إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد وأنه قريب من الفن الكنعاني. في الواقع، من الممكن أنه اقتداء بالنبي سليمان الذي طلب من حيرام ملك صور أن يبني قصره وهيكله، أن يكون ملوك دمشق قد استعانوا بخبرات الفنانين القادمين من المدن الساحلية. إضافة إلى هذا الحجر العمودي البازليتي الموجود اليوم في متحف دمشق - الأثر الهندسي الوحيد لدمشق الآرامية - اكتشفت مجموعة من الألواح العاجية المزخرفة في قصر الحاكم الآشوري في مدينة حاداتو، التي تسمى حالياً أرسلان طاش في شمال سورية. إن اسم حازائيل المسجل على أحد هذه الألواح يجعلنا نعتقد أنه من الممكن جداً أن يكون تلغات بلستر قد أتى بها عندما هُبت دمشق عام 732 قبل الميلاد. إلى جانب حدد الذي كان موقراً جداً في دمشق مثل هيرابولس كانت توجد آلهة أخرى مثل إله الكنعاني "إل" الذي يظهر اسمه من بين أسماء حازائيل، "إل ينظر"، وتاب إل التي تعني "إل الطيب"، ولكن هناك أيضاً إله أدونيس ويويه⁽²⁾. من هذه الأزمنة القديمة احتفظت لنا قرى الغوطة بأسمائها الآرامية مثل كفر بطنا وعقربا، وإلخ.

انهارت الإمبراطورية الآشورية التي كانت قوية في ظل حكمي أسرحدون (680 - 669) ق.م وأشوربانيال (668 - 627) ق.م اللذين قادا حملات على صور ومصر، بعد بضع سنين من حكمهما

(1) عبد القادر (الأمير جعفر)

Un orthostate du temple de Hadad à Damas p190-195, 1949.

(2) Dupont - Sommer, A.K Les Araméens, Paris, A. Maisonneuve, p114-115, 1949.

بتأثير ضربات ميدس وسيث والسلالة البابلية الحديثة التي وصلت إلى الحكم حديثاً في بابل. سقطت آشور عام 614 ق.م وسقطت العاصمة نينيف بعد سنتين وكذلك حران التي تبعد أربعين كيلومتراً جنوب شرق مدينة أورفه حالياً وذلك في عام 609 ق.م ثم كان دور كركميش في عام 605 ق.م حيث سُحق آخر كتائب الجيش الآشوري وحلفائه المصريين. تقاسم المنتصرون الإمبراطورية المحتضرة وُضمت سورية كلها إلى الإمبراطورية البابلية الحديثة التي من المحتمل أن يكون قد مر ملكها نبوخذنصر الثاني (604 - 562) ق.م بدمشق عندما خرج للحرب في فلسطين. ولقد ذكر في سفر Judith 1، 7، في الواقع، أنه بعد أن أُنذر نبوخذنصر عبثاً سكان سورية وخاصة سكان دمشق لكي يدعوه في حربه التي كان يشنها على الفرس الميديين، أرسل قائد قواته هولوفرن ليجهز مجيئه وذلك بتأديب الإقطاعيات السورية. فبعد أن أشعل النيران وأراق الدماء في شمال سورية "نزل القائد البابلي إلى سهل دمشق في وقت حصاد القمح: فأحرق كل حقولهم، وأباد ماشيتهم السمان والعجاف، ونهب مدنها وخرب ريفهم وقتل كل شبابهم"⁽¹⁾. لقد كانت حقاً كارثة ملأت قلب النبي جيروم المعاصر لها فرحاً، فذكر "المدينة المجيدة، مدينة الفرح" فريسة "اللسنة اللهب التي تلتهم قصور بار حد"⁽²⁾. في حين نقل لنا إزيشيل صورة أكثر إشراقاً، صورة مدينة مزدهرة تجارية تتبادل مع صور "خمر حلبون وصوف سحر (...)" والقصب المعطر"⁽³⁾.

وبعد أقل من قرن، سقطت السلالة البابلية الحديثة بدورها، ففي 29 تشرين الأول 539 ق.م، دخل سيروس الفارسي بابل دون قتال وقد استقبله كهنة ماردوك كمُحرر ومخلص. هذا التغيير في السلطة بدأ مرحلة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى: إذ انتهت سيادة حوض الفرات التي دامت أكثر من ألف سنة حتى قدوم العرب المسلمين، خسر خلالها الساميون المبادرة السياسية. واستمعت سورية بالسلام لمدة قرنين حتى وصول الإسكندر وهي تحت سيطرة الفرس الأخمينيين، في ظل تلك الإمبراطورية العظيمة التي لا مثيل لها، وقد فرضت لغتها الآرامية نفسها لأنها لغة الحكم ولغة الحضارة. واندجت في البداية مع منطقة الجزيرة في مَرْزِيَّة^(*) واحدة، هذا إذا ما صدقنا هيرودوت

(1) Judith 2، 27.

(2) Jérémie 49، 25-27.

(3) Ezéchiél 27، 18.

(*) مَرْزِيَّة: تقسيم إداري فارسي يضم عدداً من البلدان ويحكمه حاكم يُسمى المرزبان.

الذي يصدق أحياناً، ثم كوَّنت بعد إصلاحات داريوس الأول (522 - 486) ق.م الإدارية الكبيرة، مع فينيقيا وقبرص المرزبية الخامسة، يفرض عليها سنوياً دفع 350 تالان⁽¹⁾ من الفضة⁽²⁾. وأصبحت مقاطعة "ما وراء النهر"⁽³⁾، وقد سميت بالفارسية القديمة آثورا (آشور)، لأن الفرس مثل الإغريق الذين تدين لهم سورية باسمها كانوا لا يميزون بينها وبين الأمبراطورية الآشورية المهدامة.

بدأت سورية الأخمينية خليطاً من المجتمعات بعضها مدني وبعضها الآخر عرقي قبلي: الآراميون واليهود والسامريون والعمونيون والقبائل العربية... إلخ. وقد خضعت بدرجات متفاوتة لحكومة مركزية بعضها تحت سلطة سلالة محلية وبعضها الآخر تحت إدارة حكام محليين أو فُرس فرضهم عليها ملك الملوك. واستمعت سورية باستقلال داخلي كبير نسبياً مادامت خاضعة وتدفع الجزية، فالإدارة الفارسية لم تكن تتدخل في قضاياها الداخلية. وفي الجنوب شهِدت الجهود التي صرفها أنتيغونوس الأعمور أحد الولاة في العهد الإغريقي - خلال مدة تقل عن عشرين سنة بعد موت الإسكندر بغية الاستيلاء على البتراء والسيطرة على تجارة القوافل - على غنى هذه المدينة التي كانت عاصمة العرب النبطيين الكبار. أما على الساحل، فلقد كوَّنت المدينة الوحدة السياسية: إذ حكم أرواد وجبيل وصور وصيدا وعكا ملوك كانوا يتوارثون الحكم مدعمين بمجلس من الأشراف، وامتدت سلطتهم إلى مدن مُلحقة أخرى وفي بعض الأحيان كانت سلطتهم تمتد إلى مساحة واسعة من الأراضي المجاورة، وسكَّوا عملتهم واستمتعوا في ظل ملك الملوك بدرجة كبيرة من الاستقلال. أما ما يتعلق بالمدن الموجودة على أطراف الصحراء فالمعلومات عنها شبه معدومة. ولم يتكلم عن دمشق هيرودوت ولا كسنوفون ولا أي أديب كلاسيكي إغريقي، لمح إليها فقط سترابون معتمداً على مصادر قديمة اختفت منذ زمن بعيد؛ وقد كتب: "ثم تبدأ منطقة دمشق، التي تستحق كل تمجيد، والتي كان مركزها دمشق، وهي ذات أهمية كبيرة جداً حتى يومنا هذا. وقد كانت تعتبر في زمن الهيمنة الفارسية أكثر المدن شهرة في كل هذا الجزء من آسيا"⁽³⁾. واكتشف عالما الآثار الألمانيان فولزنجر وفاتزنجر تاجين لعمودين في قصر الحاكم يعودان

(*) تالان: وحدة وزن ونقد فضية وذهبية كانت مستخدمة في الشرق واليونان.

(1) Hérodote, L'Enquête, III, 91.

(2) أي نهر الفرات.

(3) Strabon, Géographie, 16, 20.

لدمشق الإخمينية وذلك أثناء تنقيتها خلال الحرب العالمية الأولى⁽¹⁾.

في بداية ربيع عام 334 قبل الميلاد عبر الإسكندر على رأس ستة وثلاثين ألف إغريقي مقدوني مضيق الدردنيل. إذ مهد له انتصار غرانيك الذي حصل بعد وقت قصير من النزول على الشاطئ الآسيوي الطريق إلى المشرق، فحاذى الساحل مهملًا "الطريق الملكي" وهو طريق القوافل المعتنى به والمجهز بالقلاع الصغيرة ومراكز المياه والذي يعبر الأناضول حتى سوس عاصمة داريوس الثالث. وترك الإسكندر هذا الطريق وعمد إلى ضم المدن الساحلية في طريقه واحدة تلو أخرى مستبعداً بذلك خطر التفوق البحري الفارسي الذي كان يهدد اليونان وكذلك مؤخرة جيشه. بعد أن عبر الطرق الصقلية وانتصر في سهل إسوس انتصاراً ساحقاً وذلك في تشرين الأول عام 333، تابع طريقه باتجاه الجنوب وأرسل قائده المخلص بارمنيون إلى دمشق ليضع يده على الكنوز والنساء التي تركها داريوس ورجاله في مأمن قبل أن يأتوا إلى لقائه⁽²⁾. وبعد أن استولى على صور بعد حصار استغرق سبعة أشهر استكشف في أثنائه جبال لبنان وحارب قبيلة الإيتورين العربية⁽³⁾، واستولى على غزه، ثم احتل مصر التي خضعت له بدون مقاومة، وفي ربيع 331، استقر الإسكندر نفسه في دمشق قبل أن ينطلق باتجاه الفرات الذي عبره عند الطبقة⁽⁴⁾. وفي تشرين الأول، جرت معركة نهائية في سهل غوغاميل، قرب بلدة إربيل الصغيرة، مع آخر وحدة في الجيش الفارسي بقيادة داريوس الثالث الذي تخطى عن أرض المعركة وهرب إلى المقاطعات الشرقية، وكانت هذه نهاية الإمبراطورية الإخمينية. وفي 13 حزيران 323 قبل الميلاد بعد ثماني سنوات من الحملات المنتصرة في آسيا، مات الإسكندر في بابل بسبب لسعة بعوض

(1) Wulzinger, K. et Watzinger, C., Damaskus, Die Islamische Stadt, Berlin und Leipzig, W. de Gruyter p41, 1924.

(2) Arrien, Anabase, II, 11, 9-10.

(3) نفس المرجع الأخير، الجزء الثاني، 20، 4.

(4) مازالت تذكر الروايات الإسلامية المدونة في القرن الرابع عشر الميلادي ذكرى مرور الإسكندر من دمشق: "عندما عاد ذو القرنين (لإسكندر) من المشرق (...) وصل إلى أعالي جبل دمر؛ فرأى الموضع الذي تقوم عليه اليوم مدينة دمشق. وقد كان الوادي الذي يجري فيه اليوم نهر دمشق (بردى) غابة من شجر الأرز (...) وكان حينها الماء الموزع اليوم في عدة مجاري نهرية مجموعاً في نهر واحد". ذكر هذا العمري عن جاهز

Gauderfroy-demombynes M., la Syrie à l'époque des Mamluks d'après les auteurs arabes, p. 42 1301-1349
وإن أخطأت الروايات الإسلامية - ليس بعد عودته من المشرق استقر الإسكندر في دمشق، ولكن بعد عودته من مصر - إلا أنه من المثير أن تذكر عصرًا قديماً جداً سبق القرن الرابع قبل الميلاد حيث كانت غابة الأرز تمتد من جبل لبنان حتى سهل دمشق وحيث لم تكن أي قناة منشقة من بردى مخفورة بعد.

الملاريا. وتقاسم قواده الكبار، أولياء العهد الإغريقون "أي الورثة" الحكومات المحلية. في البداية كانت مصر من نصيب بطليموس بن لاغوس، والأناضول الشرقية من نصيب أنتيغونوس "الأعور"، والكابادوس والبالاغوني من نصيب يومن دوكراديا، وثراس الروميلي من نصيب ليسيماك. كانوا جميعاً مقدونيين فيما عدا يومن الذي كان إغريقياً. بعدها بوقت قصير تم منح بابل لسلوقس. كانت هذه بداية زمن طويل من الحروب المستعرة امتدت من باكتريا إلى الأدرياتيك. وقد كان من بين قتلى هذه المعارك إخوة وأخت وابن وزوجة الإسكندر. وكانت هذه بداية بناء الممالك الهيلينية وذلك بعد معركة إيسوس عام 301 قبل الميلاد. وطالب سلوقس، مؤسس السلالة السلوقية، بسورية، إلا أنه لم يستطع أن يضم منها إلا الجزء الشمالي لأن بطليموس الذي لم يشارك بمعركة إيسوس كان يحتل في أثناء هذا الوقت الجزء الجنوبي. وكان هذا سبب الحروب السورية التي جعلت المملكتين مدةً طويلة متحاربتين. لذا كانت الحدود غير ثابتة تبعاً لنتائج المعارك، إلا أنها بقيت مدةً طويلة بمحاذاة نهر الوثير؛ السلوقيون في الشمال والبطليموسيون في الجنوب. ولما كانت دمشق واقعةً قرب خط التقسيم فقد تغير حكمها مراراً، ولكنها ارتبطت في أغلب الأحيان ومنذ البداية بمملكة البطالمة المصرية. وقد فتحها في عام 274 قبل الميلاد أنطوخ الأول ابن وخليفة سلوقس. ثم عادت في 259 تحت سيطرة البطليموسيين وصكت عملتها ابتداءً من 243 قبل أن تسقط نهائياً في أيدي السلوقيين الذين وسعوا سلطتهم بعد معركة بانيون في 198 ق.م حتى حدود مصر. وهكذا قسمت سورية إلى أربعة مرزبيات نعرف عاصمة اثنتين منها وهما حمات وأنطاكية.

وضع سلوقس الأول وخلفاؤه، الذين تحكموا تقريباً بمصر سورية حتى وصول الرومان، سياسةً هيلينية شديدة قائمة قبل كل شيء على التنمية المدنية وزرع مستعمرات إغريقية أو مقدونية. لم تكن الهيلينية، التي منحتها فتوحات الإسكندر امتداداً واسعاً، مجهولة للشرق الأدنى، وخاصة عند أطراف الساحل السوري. فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد سكت غزة عملة كعملة أثينا، وفي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد كان للتجار الإغريق سوق في ميناء عكا حيث كانوا يأتون كما يفعلون في صور وصيدا وغزة لشراء الطحين والأرجوان والزجاج والمعادن المُصنَّعة، ومنتجات شبه الجزيرة العربية الثمينة مثل الذهب والبخور والبلسم والصبر. ومن الناحية الفنية تشهد توابيت الملوك الحجرية في صيدا الموجودة اليوم في متحف إسطنبول على تذوقهم للفن الهليني.

أسس سلوقس الأول في شمال سورية مدينتين على مجرى نهر العاصي: أنطاكية التي جعل منها عاصمته وقد سماها على اسم والده أنطاكية (Antiochos)، وأفاميا، سوق السلاح الكبير، على شرف زوجته الشرقية أفاميا. وعلى الساحل أسس لاوديسا، مدينة اللاذقية حالياً، على اسم أمه لاوديسا و"سولوقيا الحجرية المعروفة بمرفئها المحفور من الصخور" وفي وادي الفرات، أنشأ دورا أوروبوس وسلوسي زوجاً مع جسر جديد فوق نهر الفرات. لقد بنيت كل هذه المدن من لا شيء، ويعرفها علماء الجغرافيا العربية بأسمائها اليونانية إلا أن اسم مدينتي أنطاكية واللاذقية الذين عُربا قليلاً. وتبنت المدن الأخرى أسماء يونانية. ففي شمال سورية، حماة وحلب وقنسرين وزنزار (شيزار حالياً) أصبحن بالترتيب إيفاني وبروا وشاسيس ولاريسا. وفي جنوب سورية، أصبحت رَبَث آمون القديمة فيلادلفي وعكا بطليموس. وسكن كل هذه المنشآت الجديدة الإغريق والمقدونيون فقط، وقد تبنا الأنظمة الحرة للمدينة الهيلينية. وبقيت تفاصيل التنظيم البلدي وكذلك الطبيعة المميزة لعلاقاتهم بالسلطة الملكية غير معروفة جيداً. لقد كانت سلطتهم تمتد بالتأكيد إلى ما وراء جدرانهم على جزء من الأراضي المجاورة؛ وبرغم وجود الحاكم الذي تعينه السلطة المركزية، فقد كانوا يحتفظون بحكم ذاتي نسبي يجسده مجلس النواب والقضاة، وقد كانت مهمة كبار القضاة ومديري المعاهد الرياضية والقاضي الأول تنفيذ قوانينه (مجلس النواب).

في حين لم تكن الحضارة الهيلينية في سورية إلا ظاهرة سطحية لم تفسد إلا الطبقات الحضرية من الأغنياء، إذ نجد كبار التجار والشخصيات الإدارية الرفيعة الشأن، التي كانت تتمتع بامتياز اقتصادي عموماً يمثل حضارة المسيطر سياسياً. بالمقابل لم يكن للحضارة الهيلينية أي تأثير في سكان المدينة العاديين، ولا في سكان الريف المعزولين المتفرغين لزراعتهم. ولم تستطع اللغة اليونانية لغة البلاط الملكي واللغة الإدارية ولغة المحاكم والتجارة الكبيرة، أن تفرض نفسها على أغلبية السكان الذين بقوا مخلصين للغتهم الآرامية القديمة. بالمقابل تأثر بعض الإغريق، ولكن الظاهرة كانت نادرة جداً، بالحضارة المحلية، فهي هذا الشاعر ملياغر دوغادارا يتفاخر بمعرفته باللغة الآرامية والفينيقية. في حين يعد نيقولا الدمشقي (Nicolas de Damas) الذي ولد في عام 64 قبل الميلاد من أب وأم دمشقيين، النموذج السوري المتأثر بالهيلينية. ولما كان نيقولا الدمشقي حصل على علم واسع وتعلم اللغة الإغريقية على وجه ممتاز والقواعد وفن الشعر والخطابة والموسيقى والحساب والفلسفة واستقر في الإسكندرية وروما وروديس، التي كانت مراكز يتوافد إليها الطلاب والفلاسفة من كل

المدارس، فقد أصبح مستشار هيرود ومؤرخه الرسمي ونديم أغسطس ومربي أطفال أنطوان وكليوباترا، ولم يمنعه هذا من الاستهزاء من التقمص الزائف لبعض المثقفين السوريين المفتونين بالحضارة الإغريقية لدرجة أنهم كانوا يحبون أن ينظر إليهم وكأنهم أثينيون⁽¹⁾. ولم تقتصر الحضارة القديمة هي الأخرى على التأثير في المتصرين؛ ففي نهاية العهد السلوقي، أضاف العديد من عليّة القوم إلى أسمائهم الإغريقية أسماء آرامية مثل الإسكندر بالاس والإسكندر زابينا. وقد كتب بلهجة قاسية، تيت ليف، وهو عالم في التاريخ اللاتيني، متنبئاً الريبة القديمة التي كان يشعر بها أرسطو نحو الأجانب والدخلاء⁽²⁾، ومخالفاً المغالطين الذين كانوا يؤكدون رابطة الأخوة بين كل الرجال⁽³⁾: "لقد فسد المقدونيون في سورية"⁽⁴⁾.

أدى تطور الحياة المدنية في كل سورية، إلى سياسة مُهيمنة تُعطي الريف أهمية كبيرة. إذ زاد توطين أنواع من النباتات الجديدة مردود الأراضي، وعملت زراعة البلسان من بخور شبه الجزيرة العربية والكافور والناordin الهندي في خفض حجم الاستيراد، وتطورت الأدوات الزراعية، كما ظهرت الطاحونة التي تدار بالماء ولولب أرخميدس والنواعير وعصارات الزيت ومصافي الخمر، وفوق كل هذا أجريت تحسينات لأساليب الري، مما زاد في المساحات المزروعة. وتطورت صناعة السلع الثمينة مثل الأقمشة الراقية وصبغة الأرجوان والزجاجيات، إذ كانت السلع التجارية القادمة من الشرق الأقصى وشبه الجزيرة العربية تمر من سورية قبل أن تصل إلى اليونان ومدن حوض البحر الأبيض المتوسط. لم تكن هناك مدينة، ولا حتى الإسكندرية، بإمكانها منافسة أنطاكية في روعة

(1) Wacholder, B.Z., Nicolaus of Damascus, Berkely and Los Angeles, University of California Press, P14, 1962.

(2) أثينيون: من سكان أثينا عاصمة اليونان.

(2) Aristote, Politique, II, 4.

(3) Antiphone (fig. 44 a, B, col.2): "لا أحد منا يُعرف بأصله البربري أو الإغريقي: كلنا نتنفس الهواء من الفم والأنف". تأكيد على وحدة الجنس البشري، أمر غير مألوف عند بني آدم ولن نلقاه أبداً فيما بعد. Voltaire, Traité sur la Tolérance. ch. XXII يذكر فولتير في بحثه عن التسامح: "أقول لك إنه يجب النظر إلى كل الرجال وكأنهم إخوة، (...) الأتراك والصينيون واليهود والسياميون (...) ألسنا كلنا أولاد نفس الأب وخلق نفس الرب".

(4) The Live, Histoire romaine, XXXVIII, 17.

شوارعها المشجرة على الطرفين وطرقها المعبدة العريضة وعدد تيجان أبوابها وتنظيم الخدمة العامة وزخارف ضواحيها مثل دافنه (Daphné)^(*) المشهورة في كل المشرق.

أما دمشق، فلقد بقيت خلال السيطرة المقدونية تمارس في الظل دورها كمركز اقتصادي محلي. ثم في تاريخ غير معروف، من الجائز أنه بمناسبة استقرار أحد السادة السلوقيين في المدينة كما حصل في حلب وحماة أو حمص، استقرت مجموعة إغريقية مقدونية خارج المدينة الآرامية، وبُنيت الأحياء الجديدة تبعاً لمبادئ هيبوداموس الميلي^(*) في الهندسة المعمارية التي كان يوصي بها أرسطو⁽¹⁾ بحماس، وفقاً لمخطط منظم مشكل من شوارع متعامدة ومستقيمة ذات عرض يقع بين ثلاثة وخمسة أمتار فاصلة بين مجموعة منازل مستطيلة الشكل طولها 100 متر وعرضها 45 متراً تقريباً. وكل مجموعة مشكلة من بيوت متساندة ومدخلها يُطل على الشارع العام. منذ ذلك الوقت أصبح هناك مدينتان متجاورتان لم تندجأ إلا بالتدريج: في الشرق كانت المدينة الإغريقية المقدونية المتحلقة حول ساحتها العامة أغورا "agora"^(*)، وفي الغرب كانت المدينة القديمة الآرامية تحيط بمعبداتها. وليس من المستحيل أن يكون قد أُقيم سور جديد يجمع المدينتين ليحميها ويقاوم "عدداً كبيراً من الأدوات والآلات التي أبدعت لمهاجمة المواقع" التي تحدث عنها أرسطو⁽²⁾. وبالتأكيد حل قصر جديد كمركز دعم للسلطة الملكية، محل مركز إقامة الملوك الآراميين القديم.

ومن الناحية الدينية، فقد احترمت الهيلينية هنا كما في الأماكن الأخرى الديانات المحلية، واندجمت آلهتها بآلهة المشرق القديم. إضافة إلى زيوس الذي اندمج مع حدد، اختلط أيضاً هرقل مع ملكارت،

(*) Daphné: دافنه من الأساطير الإغريقية، وهي عشيقه أبولون إله الجمال التي تحولت إلى إكليل غار.

(*) الميلي: نسبة إلى ميليه "Milet" مدينة إيونية في آسيا الصغرى (تركيا) كانت اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد مدينة كبرى و مركزاً تجارياً ومثابة من مثابات الفكر اليوناني. وقد كانت مركزاً لمدرسة فلسفية يونانية تدعى الإيونية تحاول رد الأشياء إلى مبدأ بسيط هو الماء في نظر طالس، والهواء في نظر أنكسيمنوس.

(1) Aristote, Politique, 11, 7 Hiopodamos de Milet:

مهندس معياري وفيلسوف النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، وضع خريطة بيره (Pirée). تعتبر الفقرة التي يدرس فيها أرسطو في كتابه (Politique) "السياسة" المدينة من أحد أقدم النصوص المحفوظة التي تشير إلى التناقض المشهور بين تصورين مختلفين للمدينة.

(*) Agora: ساحة محاطة بأبنية عامة. وهي مركز للحياة الدينية والسياسية والاقتصادية في الحضارة اليونانية القديمة.

(2) Aristote, Politique, 11, 7.

وأفروديت مع أستارته، وأثينا مع آلات، وهليوس مع شمس... إلخ. منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد، أقامت صور العباباً على شرف هرقل - ملكارت، وقد بدت صورة زيوس - حدد المعبود في معبد دمشق الكبير على وجه عملة أنطوخ الثاني عشر التي سكّت في المدينة، والتي بدا فيها الإله ملتجئاً وواقفاً بين ثورين وقد ارتدى ثوباً طويلاً مربوطاً بحزام، وعلى رأسه قبعة مدببة الرأس، وفي يده اليسرى سيف.

أثناء الربع الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد أثارَت سياسة أنطوخ الرابع (175 - 163 ق.م) الساعية إلى التحول الهيليني التعسفي - والتي بلغ بها الأمر حد نهب هيكل القدس - رد فعل الطائفة اليهودية العنيفة. وفي أثناء الثورات المستمرة التي لم تنتهِ إلاّ بوصول الرومان، دفع جونائاس، وهو أحد أفراد العائلة المكايبية الكهنوتية المعارضة للسيد السلوقي ديمتريو الثاني (144 - 125 ق.م)، حملاته حتى دمشق⁽¹⁾. ولم تكن الثورة اليهودية إلاّ أول ظاهرة لضعف السلطة السلوقية. وفي أثناء النصف الثاني للقرن، تمكّنت السلطات المحلية مستغلة انشقاقات السلالة السلوقية في الداخل والاضطرابات الخارجية من تكوين ممالك مستقلة حقيقية. وحكم العرب الإنثوريون في لبنان وجبالها وأعلى وادي الأردن، في حين حكم العرب الأنباط في الجنوب والبحر الميت. وسهلت الحرب الأهلية المستمرة بين أنطوخ الثامن وأخيه أنطوخ التاسع عملية التفكك، كما استطاعت معظم المدن الساحلية أن تحصل على الاعتراف باستقلالها. وبدأت صيدا عهداً جديداً في عام 111 ق.م، وسلوقس في 108 ق.م، وطرابلس بين 105 و95 ق.م، وعسقلان في 104 ق.م، ولاوديكيّا (اللاذقية) في 82 ق.م وبيروت في 81 ق.م. ويبدو أن المدينة الوحيدة التي بقيت تعترف بالسلوقيين كانت دمشق حيث جاء أنطوخ التاسع في عام 111 ق.م ليقم فيها عاصمته. وأصبحت سورية مدناً وإمارات مفككة، في حين لم يكن الملك إلاّ واحداً من بين المتنافسين. في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ازدادت الحروب بين الإخوة حدة، وقد زادها اللاجيديون اضطراباً، حتى إنه كان هناك في وقت من الأوقات أربعة ملوك سلوقيين: أنطوخ العاشر وثلاثة من أولاد عمه: إذ حكم أنطوخ الحادي عشر وفيليب الأول كيليكيا (جنوب تركيا وعاصمتها أضنة) واستقر ديمتريوس الثالث في دمشق. ولكن تغير هذا الوضع بسرعة، وسقط أنطوخ الحادي عشر أمام أنطوخ العاشر

(1) 1 Mach., 11, 61-62.

الذي خسر أمام الأرساسيين^(*). واستغل ديمتريوس الثالث الوضع في مد سلطته بمساعدة مصر على أكبر جزء من سورية، إلا أنه وقع في أيدي الأرساسيين عام 88 ق.م ولم يظهر بعدها أبداً. ووجد حينها فيليب الأول سيد أنطاكية نفسه في حرب على أخيه أنطيوخ الثاني عشر الذي استقر في دمشق عام 87 ق.م حيث حكم وسك العملة مدة عامين قبل أن يصاب بجراح مميتة عام 85 ق.م في صحراء النقب عندما كان يحارب أوبوداس الأول، ملك العرب الأنباط. حينها رغبت السلطات في دمشق في إبعاد رئيس الإثوريين الجسور، بطليموس ابن منايوس، فقدمت العرش إلى أريتاس الثالث ابن أوبوداس الأول الذي دخل المدينة عام 84 ق.م. وإنه لمن المحتمل جداً أن يكون أثناء حكمه الذي استمر اثني عشر عاماً قد بني في شرق المدينة الهلينية وخارج السور حياً جديداً للأنباط فقط. وقد اضطر أريتاس الثالث الذي كانت تسميه عملته بـ "محب الهلينية" عام 72 ق.م إلى الانسحاب أمام تفران، ملك الأرمن الذي خضع له سكان أنطاكية عام 83 ق.م بعد أن ضاقوا ذرعاً بالمنافسات المميتة بين السلوقيين. كان حكم تفران في زمن الاضطرابات فترة من السلام والازدهار، وقد سيطر على دمشق حتى عام 69 ق.م حين أسرع بترك سورية لما علم أن القائد الروماني لوكولوس قد غزا مملكته. وانهارت السلطة السلوقية، وعمّت الفوضى، وظهر السادة المحليون المتسلطون في كل مكان؛ بعضهم من عرب القبائل الذين لم يعد أي شيء يمنعه من الانتقال من الصحراء إلى المنطقة الحضرية: فحكم ديونيسوس برؤيا وهيرابولس، وحكم سامبسيجرام شيخ أحد القبائل حمص وأرسوس. وفي شبال أفامية، أنشأ أحد اليهود ويدعى سيلاس إمارة حول ليزياس؛ وعلى الضفة اليسرى لنهر العاصي، وسع أرادوس سلطته في المنطقة الساحلية، ونشأت إمارات عربية على أطراف الصحراء، كما بدأت تدمر بالظهور نحو الشرق؛ وزاد عدد قطاع الطرق، كما تضاعف عدد أوكار القراصنة على الساحل في الوقت الذي أصبحت فيه الزراعة عشوائية وتردت تجارة القوافل الكبيرة.

عندها بدأت بسبب التهديد الروماني آخر مرحلة من المأساة السلوقية. بعد موافقة لوكولوس جعل رحيل تفران عودة ابن أنطوخ العاشر - أنطوخ الثالث عشر الملقب بـ "الآسيوي" - إلى سورية

(*) الأرساسيون: شعب فارسي قديم سكن الجزء الشمالي الشرقي من إيران (خراسان). استفاد ملكهم أرساس من ضعف الإمبراطورية السلوقية فأسس مملكة شملت في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد كلاً من إيران و جزءاً من الجزيرة بين نهري الفرات ودجلة. انتهى حكمهم على يد الفرس الساسانيين في العام 224 للميلاد.

ممكنة. عادت الاضطرابات وأسر سامبسيجرام أنطوخ الثالث عشر في حين نجح فيليب الثاني، ابن عم أنطوخ الثالث عشر في الاستقرار في أنطاكية حيث سقط حكمه سريعاً من جرّاء فتنة شعبية. وترفع سامبسيجرام عن تولي الحكم وعين أسيره وصياً على عرش السلوقيين.

خلال هذا الوقت، جاء بومبييه الوالي الروماني، مدعوماً بسلطة واسعة ليحل على طريقته مشكلة المشرق، أي مشكلة أرمينيا، وتهديد الأرمن في وثورة اليهود، فغادر كيليكيا حيث قضى الشتاء مع قواته وألحق مملكة أرمينيا بدولته. وفي صيف 64، نزل بنفسه إلى سورية حيث كان قواده يقومون بعمليات قبل قدومه: فأخذ أفرانيوس الفتن في أمانوس، واحتل لوليوس وميتلوس نبوس دمشق، واندفعوا باتجاه الداخل لطرد أرتاس الثالث النبطي من آخر المناطق التي فتحها، وزحف أميلوس سكوروس على يهودا. ولم يعد لأنطوخ الثالث عشر - المهرج الهزيل الذي جعله بومبييه يعتقد أن تغران قد أوصى له بسورية - أي سلطة، فهرب محتماً بسامبسيجرام الذي قتله لقلّة أهميته. وكانت هذه نهاية السلالة السلوقية. وحلت محل العالم الهيليني القديم مملكة بطليموس المصرية التي انهارت هي الأخرى بعد معركة أكتيوم وفي غمرة الحروب الأهلية الرومانية.

وما إن وصل بومبييه، الذي جعل من سورية مقاطعة رومانية إلى أنطاكية، حتى استقبل محزراً ومخلّصاً. فحرر - منادياً بالمبادئ الجمهورية المناهضة لتسلط الملوك - المدن من ظالمها وأعاد لها استقلالها المحلي، ووضع مكان الحكام الطغاة القدامى أمراء أقوياء من السكان الأصليين، في الوقت الذي قضى فيه على الأسر الصغيرة التي لم تكن إلا رؤساء عصابات أو قراصنة. فذلك ليسياس ومدينة سيلاس وكذلك قلعة أفاميه، ونزع من مملكة يهودا، التي أصبحت تدفع الجزية، مواقعها القوية المتاخمة للحدود ومواقعها الساحلية وتقريباً كل المدن التي فتحها المكابيون. واحتفظ ملك الأنباط، أرتاس الثالث - بعد أن اضطر أن يعلن نفسه تابعاً للرومان - بمملكته ودفع الجزية. في جنوب سورية ووسطها، كونت عشر مدن ائتلافاً سُمّي ائتلاف المدن العشر، تبنى التقويم البومبي الذي يبدأ من خريف 66 ق.م. وأرسل العاهل المصري، بطليموس الثاني عشر - وقد شعر بوجود خطر يهدد عرشه - سفيراً إلى دمشق مكلفاً بخطب ود الوالي الروماني القوي. وفي دمشق أيضاً استقبل هذا الوالي الإخوة الأعداء أريستوبول وهيركان المتنازعين على عرش يهودا⁽¹⁾. وجاء في خريف 63 ق.م بومبييه بنفسه إلى

(1) Flavius Josèphe, Antiquités judaïques, XIV, 3, 2, Reinach Th., Textes d'auteurs grecs et romains relatifs au judaïsme, Paris, E. Leroux, 1895 a.d., p. 79 .

القدس، ولكن لما كان مضطراً إلى مغادرة الشرق، عهد إلى قائده أميليوس سكاروس بأمر السلطة في دمشق. ولم يكن عرب القبائل المتمردون على كل سلطة مركزية أعداء يستهان بهم في نظر الرومان. فقد ذكر أبيان أن خليفتي سكاروس الأوائل، مارسيوس فيليس (61 - 60 ق.م) ولتولوس مارسليانوس (59 - 58 ق.م) قضيا وقتها في دفع غارات جيرانهم العرب⁽¹⁾.

وفي القرن الأول من العصور الحديثة، بدأت المقاطعة السورية الرومانية بعد ترتيبات بومبيه كقطعة من الفسيفساء مشكلة من مدن وإمارات وأراض بأنظمة مختلفة. ففي عهد الإمبراطور فسباسيان يعدُّ بلين على الأقل سبع عشرة مقاطعة فقط في شمال غرب سورية صغيرة لدرجة أنه يصعب تسميتها⁽²⁾. وعمدت روما إلى دمج هذه الأراضي تدريجياً في الإمبراطورية، وضمت مملكة كوماجين نهائياً عام 72 ق.م، ولم تعد سلالة حصص تحكم بحلول العام 78 ق.م، كما ضمت مملكة هيرود أغريبا، آخرها زوالاً قبل نهاية القرن. احتفظت المدن مدة طويلة إلى حد ما بحكم ذاتي نسبي، وسك بعضها عملة من الفضة، في حين توقف إصدار العملة البرونزية في دمشق بعد حكم تيبير (14 - 37 ق.م).

وأوت دمشق في ظل حكم كاليغولا (37 - 41 ق.م) مستوطنة نبطية، استوجب كثرة عدد رعاياها أن يكون لها ممثل من قبل الملك أرتاس الرابع، سماء القديس بول "عاملاً رومانياً" في رسالته الثانية إلى كورنثيان، أي والياً مكلفاً بالسهر على مصالحها⁽³⁾. وقد تبين وجود طائفة يهودية كبيرة، إذ ذكر فلافيوس جوزيف معلقاً ببخث أنه في عام 66 ق.م عندما عرف الدمشقيون - "وقد اعتنقت جميع زوجاتهم الديانة اليهودية" - أن الجيش الروماني قد مني بخسارة فادحة في فلسطين ذبحوا في أقل من ساعة عشرة آلاف وخمسمئة يهودي في الملعب⁽⁴⁾. وقد حصلت أحداث مشابهة بعد الاستيلاء على مزاد عام 74 ق.م⁽⁵⁾. وحتى إن كان فلافيوس جوزيف يببالغ بعض الشيء^(*)، فقد كانت الطائفة

(1) Starcky, J., Pétra et la Nabatène, Supplément au dictionnaire de la Bible, VII a.d, P1966 .909

(2) (Plinie), "Histoire Naturelle" 5, 81-81.

(3) 2 Corinthiens 11, 32-33.

(4) Flavius Josèphe, II.2, 20

(5) نفس المرجع الأخير الفصل السابع، 8، 7.

(*) إنه لا يبالغ فقط، بل يوحى بأن سورية الحالية كانت جزءاً من المملكة اليهودية وهذا يبرر طرح الشعار الحالي: من الفرات إلى النيل، أرض دولة إسرائيل!!!.

اليهودية كبيرة بقدرٍ كافٍ ليكون تحت تصرفها عدة معابد يهودية، كما بدا هذا في رواية القديس لوقا عندما كان يتحدث عن إقامة القديس بول في دمشق⁽¹⁾. مع ذلك فمن المحتمل أن ينطبق هذا على دمشق كما ينطبق على الإسكندرية، وأن الأقليات الثقافية من اليهود والأنباط وغيرهم قد كانت منظمة جيداً، وكانت تعيش في تجمعات متجانسة كمدينة ضمن مدينة لكي تحافظ على قوانينها وثقافتها. ولقد وصف سترابون هذا الوضع وذكره فلافيوس جوزيف قائلاً: "كان على رأسهم عامل روماني يدير الطائفة ويحكم الخصومات ويهتم بالعقود ويصدر الأوامر وكأنه رئيس مدينة مستقلة"⁽²⁾. لقد كانت مؤسسة كونت سابقة لمصطلح أهل الذمة الذي عُمل به فيما بعد في الإسلام.

زادت أهمية دمشق، التي كانت تمتد سلطتها على مساحة واسعة من الأراضي التي استلمتها من أغسطس، إلى مرتبة العاصمة في ظل حكم هدریان. وفي عام 198 ق.م ارتبطت بسورية الفينيقية التي أوجدها سبتيم سيفير أثناء تعديلاته الإدارية الكبيرة التي قسمت سورية إلى مقاطعتين، سورية كروز في الشمال وسورية الفينيقية في الجنوب، اللتين كانت عاصمتهما بالترتيب أنطاكية وحمص. لكل مقاطعة مفوض مكلف بالقيادة العسكرية والسلطة الإدارية، ومدعوم بالقضاة الذين يعينهم الإمبراطور بنفسه. وكانت المقاطعات مقسمة إلى دوائر إدارية وأبرشيات مدنية مراكزها مدن مهمة، أو مقاطعات ريفية مراكزها قرى وذلك عند غياب المدن. وأصبح لدمشق في ظل عهد الإسكندر سيفير مكانة تحسد عليها بين المقاطعات الرومانية، جعلتها تُعفى من الضرائب المالية. وعمل ديوكليان جاهداً في ترميم التحصينات أمام خطر وتهديد الساسانيين. فلقد كانت شبكة التحصينات والطرق المتحلقة تحمي الإمبراطورية من البحر الأحمر إلى الفرات. فأقام ديوكليان هناك مرتين، كانت المرة الأولى عام 266 ق.م والثانية عام 295 ق.م وقد زودها بورشة لصناعة الأسلحة. وقد أدت محاولة بعث الوثنية في عهد الإمبراطور جوليان (361 - 363) ق.م إلى اضطهاد النصارى في دمشق، ولم يرقم بهذا الاضطهاد الوثنيون، ولكن اليهود الذين أضرموا النيران في كنيستين رئيسيتين وذلك بالتنسيق مع السلطات المحلية. ذكر القديس أمبرواز الذي تعد كتاباته مجموعة من التفاهات الحمقاء أملاها عليه حقه على اليهود أنه في زمن ثيودوز (379 - 395) ق.م - الذي أرسل إليه الرسالة التي احتفظت لنا بوقائع

(1) فصل 9، 20.

(2) Flavius Josephus XIV.2، 7

الأحداث - كانت إحدى الكنيستين لم ترمم بعد في حين كانت الأخرى "كتلة فظيعة من الحطام"⁽¹⁾.

على عكس دمشق في العصور السابقة، التي لم يُحفظ لنا منها آثار مادية عن الحضارات التي مرت بها ما عدا لوحاً من الحجر البازلتي الأسود من معبد حدد، فإن دمشق الرومانية تعد من أقدم المدن بفضل بعض العناصر الأثرية المعمارية التي مازالت موجودة، والتي ساعدت على وضع مخطط دقيق بعض الشيء، عن الخطوط العريضة للمدينة في ذلك الزمن. فمن السور الروماني إضافة إلى الباب الشرقي بفتحاته الثلاث، بقي فقط القليل من أسس الأبنية، وقد اختلطت بأبنية بُنيت فيما بعد في الحي الشمالي خاصة. وطبقاً لطرق التحصين الرومانية الجيدة، كان هذا السور مستطيلاً أبعاده التقريبية 1500 متراً ب - 750 متراً، بأطراف مستقيمة فيما عدا الطرف الذي يحاذي في الشمال مجرى أحد فروع بردى. وقد كان السور يحيط من الغرب إلى الشرق بالمدينة الآرامية القديمة والمنشأة الهيلينية وحي الأنباط. فُتح في هذا السور المبني بحجارة ضخمة سبعة أبواب مهداة إلى الكواكب، ثلاثة باتجاه الشمال واثنتان باتجاه الجنوب وواحد باتجاه الشرق وآخر باتجاه الغرب. وقد أعيد بناء وتغيير جميع الأسماء باستثناء الباب الشرقي، وذلك في عهد المسلمين. في الجنوب، أهدي الباب الصغير إلى كوكب المريخ "Mars" وباب كيسان إلى زحل "Saturne" وفي الغرب، باب الجابية إلى المشتري "Jupiter"، وفي الشمال، باب جنين إلى القمر، وباب الفرديس إلى عطارد "Mercure" وباب ثوما إلى فينوس "Vénus". وما زال موجوداً أمام الباب الأخير في بداية القرن العشرين بقايا جسر روماني مرمرى على النهر⁽²⁾.

من الباب الغربي إلى الباب الشرقي، يقطع الشارع الطويل المشهور المدينة من الغرب إلى الشرق ليسهل الارتباط بالخارج، وفي نفس الوقت الاتصال بين الأجزاء الثلاثة للمدينة الجديدة: الجزء الآرامي والهيليني والنبطي. والجدير بالذكر أن الشارع الطويل هذا شارع كبير ذو أروقة، يبلغ طوله ألفاً وخمسمئة متر ومحفوظاً بالمخازن من جانبيه، ويبلغ عرضه الكلي ستة وعشرين متراً، خصص أربعة عشر متراً منه للطريق المُعبَّد الرئيسي. إن هذه الشبكة المعقدة من المواصلات تبدو وقد جرى رسمها عبر الأحياء الموجودة سابقاً كشبكة تدمر، وعلى عكس مخطط هيوودام لم تكن محدودة

(1) Amb سفر الملوك، Lettres, Paris 1741 e، الجزء الثاني، ص 95.

(2) Sauvaget, J. خريطة دمشق القديمة، سورية، الفصل السادس عشر، 1949م، ص 332، فيما يتعلق بالنباتات المرسومة على

الأبواب، انظر ملاحظات أبي البقاء في Sauvaire H.، جريدة أسبوعية، الجزء السابع، 2، ص 425.

بخطوط مستقيمة بل ذات اتجاهين متغيرين. يعرف كل واحد من هذين الاتجاهين ببناء أثري، الأول يعرف بقوس موجود على بعد خمسة متر تقريباً، غرب الباب الشرقي، وقرب كنيسة القديسة ماريا الحالية، وقد اكتشف الجزء الشمالي لهذا القوس على عمق يزيد عن أربعة أمتار من المستوى الحالي وقد رُمم عام 1950م؛ في حين يعرف الثاني بقوس يوجد على بعد مئتين وخمسين متراً غرب القوس الأول، بعض أجزاء هذا القوس اكتشفت أثناء أعمال إصلاح الطرق التي جرت أثناء الانتداب الفرنسي. اختفى هذا القوس الأثري كما يذكر المؤرخ ابن كثير⁽¹⁾ عام 1248م ليترك مكانه للمخازن والابنية السكنية، إلا أنه لم يهدم تماماً لأن المبشر الأمريكي "بورتير" الذي أقام في دمشق في منتصف القرن التاسع عشر قد رأى حينها إحدى فتحاته "مدفونة تحت كومة من الأنقاض"⁽²⁾. يقوم على القرب منه عمود تشريفي تعلوه كرة وتمثال. ذكرت المصادر العربية هذا العمود عدة مرات تحت اسم "مقسيل"⁽³⁾ مدعية بأنه يشفي من احتقان البول. بقي هذا العمود في مكانه إلى أن هُدم في 1168 - 1169م ليستخدم ساكفاً⁽⁴⁾ لبربخ الباب الصغير⁽⁵⁾. اختفى اليوم الباب الغربي ولكن وصفه قديماً ابن عساكر، مؤرخ القرن الثاني عشر المشهور كما يلي: "كانت له ثلاث فتحات: واحدة كبيرة في الوسط، واثنان صغيرتان على الطرفين كما هو عليه الحال في الباب الشرقي"⁽⁶⁾. تذكر إزابيل برتون أنه في عام 1870م كان هذا الباب في مكانه لأنها كتبت بعد أن ذكرت الباب الشرقي: "يوجد في الجانب المقابل من المدينة باب قديم غربي. وجدنا باب الجابية هذا قرب جامع السنانية، وقد انسدت الفتحتان المركزية والشمالية منذ زمن طويل، وبقيت الفتحة الجنوبية فقط: تشهد كتابة موجودة على الساكف بأن نور الدين قد رممها"⁽⁷⁾. لم يعد اليوم هناك أي شيء ظاهر للعيان من الشارع الطويل، ولكن في الربع الثاني من القرن العشرين كان مازال بإمكاننا ملاحظة أنه عند التقائه بسوق البزورية

(1) ربحاوي، عبد القادر، "دمشق"، دمشق، 1977م، ص 42.

(2) Porter, Rev. J.-L., Five years in Damascus..., London, John Murray P 57 VOL I , 1855.

(3) تعريب للكلمة اللاتينية "maxilla" تعني المصورات الإمبراطورية ذات الفك الضخم للإمبراطورية البيزنطية.

(4) الساكف: أعلى الباب الذي يدور فيه صائره.

(5) ابن عساكر، وصف دمشق، دمشق، 1959م، ص 70.

(6) نفس المرجع الأخير، ص 301.

(7) Burton, I., The inner life of Syria, Palestine, and the Holy Land, London P45 VOL I 1875.

توجد قطعة من حائط أحد الأروقة الجنوبية⁽¹⁾، وكان شارع كبير ثان ذو أروقة، عمودي على الشارع السابق يصل باب توما في الشمال بباب كيسان في الجنوب. ليس من المستحيل أن يكون هذا المخطط العظيم قد رسم في موقع الجانب الشرقي من السور الهيليني المهدم ذاته، سواء كان هذا أثناء بناء الحي النبطي في عهد أريتاس الثالث، أو أثناء التعديلات التي جرت أثناء العصر الإمبراطوري التي جمعت في داخل السور نفسه أجزاء المدينة الثلاثة. هذه الفرضية التي تؤكدتها شبكة المواصلات القديمة يسهل تقبلها عند دراسة طبوغرافية المدينة الحالية. وعلى الرغم من إعادة بناء الأبنية تكراراً بمواد خفيفة مثل الخشب واللبن، مما أدى في الأزمنة السابقة إلى تغيير الأماكن والتعدي على الطرق المعبدة، فإن الانزياح الوسطي للشوارع الحالية - مئة متر فيا يتعلق بالشوارع الشرقية الغربية، وخمسة وأربعين متراً فيا يتعلق بالشوارع الشمالية الجنوبية - يظهر تجمعات سكنية متعامدة من نفس نموذج تجمعات المنشآت الهيلينية الأخرى في سورية، كالتجمعات السكنية الموجودة في اللاذقية وأنطاكية وحلب. لذا، في حين أنه في الجزء المركزي تكون المواصلات الشمالية الجنوبية متعامدة تماماً، فإنها في الجزء الشرقي الذي يطلق عليه كما في القرون الوسطى "حارة الأنباط" تبدي انحرافاً قدره ثلاث أو أربع درجات لا نعرف سببه، ولكنه يدل على أن الحيين قد بنيا في عصرين مختلفين. في الجزء الغربي، موقع المدينة الآرامية القديمة الذي يسبق تطفل مخطط هبدودام، لم يعد من الممكن رؤية أي شبكة متعامدة بسبب الشبكة الحالية العشوائية للمواصلات.

كانت الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة الهيلينية، القريبة من باب توما، مشغولة بالأغورا "Agora"، أحد العناصر الأساسية من المدينة الإغريقية الرومانية. وهنا أيضاً، وعلى مساحة تعادل تقريباً عشرة تجمعات سكنية، أخفت شبكة المواصلات الحالية من شوارع صغيرة وضيقة ومتعرجة كل تنسيق متعامد. مع ذلك يحمل أحد شوارع تلك المنطقة - الذي مازال يحمل اسم "زقاق الساحة" - ذكرى الحالة القديمة للمكان، حيث كانت الساحة الإغريقية "أغورا" خالية وتوسط الأبنية. هذا ما يؤكد - إن دعت الحاجة - وصف قديم جداً لدمشق يذكر أنه في القرون الأولى من الإسلام كانت هناك ساحة بجوار باب توما وهي ساحة خالد. تعد الساحة "أغورا" مركز المدينة التجاري، وهي ساحة واسعة مستطيلة الشكل، يبلغ طولها مئة وثمانين متراً وعرضها مئة متر، تحفها

خريطة دمشق القديمة، سورية، الفصل السادس عشر . (1) Sauvaget, J., Le plan antique de Damas p 329-330. 1940

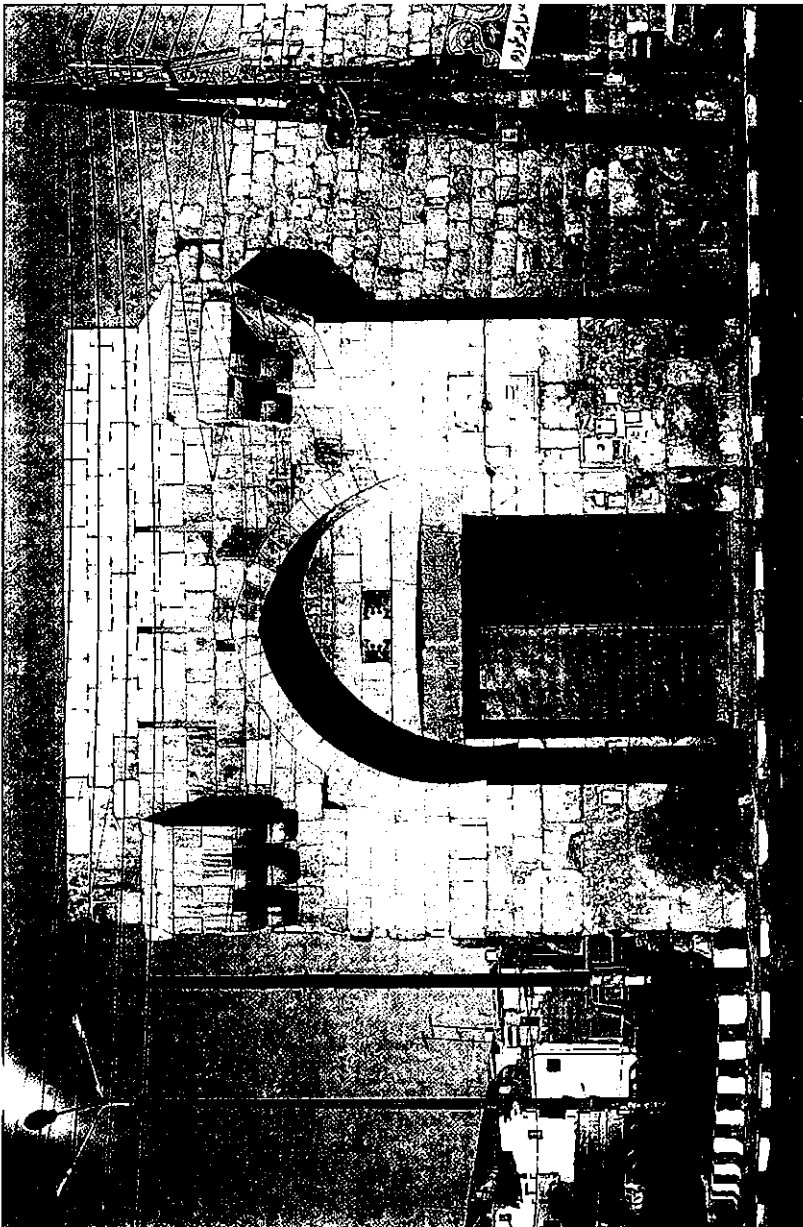
المحلات التجارية وتظللها الأروقة من جهاتها الأربع. تتصل هذه الساحة بالخارج عن طريق عدة أبواب، ويوفر الباب القريب من باب توما عبور القوافل حوّل في زمن سبتيم سيفير الشارع، الذي يربط ساحة أغورا بالمعبد، والذي يبلغ طوله مئتين وأربعين متراً، ويعود تخطيطه إلى الزمن الهيليني، إلى طريق فخم مخوف بالأعمدة يبلغ عرضه ثلاثة عشر متراً تقريباً. وما زال من الممكن تمييز هذا الطريق كامتداد لشارع قيصري الحالي وذلك بواسطة الأعمدة التي مازالت موجودة في الموقع، ويصل هذا الطريق حتى الباب الرئيسي للحرم الخارجي للمعبد.

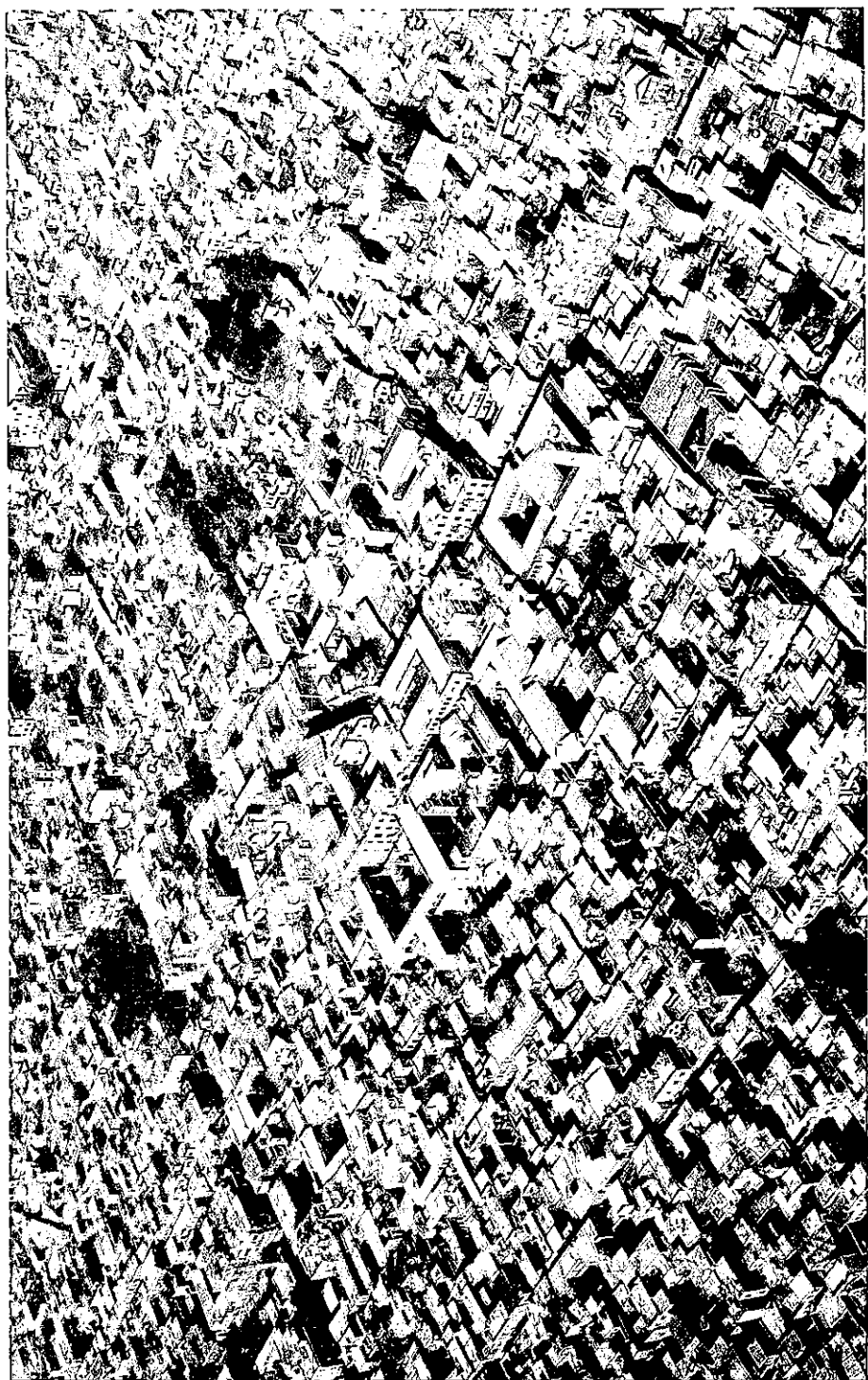
إن معبد جوبيتر الدمشقي، وهو أحد أهم معالم العصور القديمة بأبعاده، وأوسع المعابد في سورية، مكون من الهيكل "Cella" محاط بحرمين مستطيلين يتوجه محورهما الكبير من الشرق إلى الغرب. كان الحرم الخارجي على شكل رباعي الأضلاع، شبه منحرف هائل طوله ثلاثمئة وتسعون متراً وعرضه ثلاثمئة وعشرة أمتار، محاط داخلياً برواق مزدوج يحدد الفناء المقدس. ولم ينبج من هذا الحرم سوى بعض البقايا المبعثرة والتالفة. ونجا من الجانب الشرقي قطعة من سور مزين بأطبار، وباب فخم بثلاث فتحات يقع على محور شارع الساحة "أغورا" وهو اليوم نصف مطمور ويؤدي إلى مقدمة البناء ببروز طفيف عن سور الحرم. ومن الجانب الشمالي بقيت بعض جذوع أعمدة وقطعتان من السور. أما من الجانب الجنوبي، قرب الزاوية الغربية فبقي باب بفتحة واحدة. ومن الجانب الغربي بقي بعض قطع البناء وجزء من طريق بأعمدة يقع على المحور الشرقي الغربي. هذا الباب المكون من واجهة بعارضة منحنية تحملها أربعة أعمدة ودعامتان كإطار، يندمج ضمن صف الأعمدة الداخلية للرواق المزدوج ويحدد الممر بين الفناء و"الغاما". والغاما سوق واسع مغطى يحاذي الجانبين الغربي والشمالي للساحة، ولقد أطلق على هذا السوق اسم الغاما بسبب مخططة الذي يبدو وكأنه الحرف الثالث "غاما" في الأبجدية الإغريقية. من المحتمل أن تكون الغاما متصلة مباشرة بالخارج عن طريق فرعها الشمالي المستند إلى السور والذي يجاور باب الفراديس.



البوابة الغربية لمعبد جوبيتر

باب توما





منظر چوي ل باب توما

مازال الحرم الثاني، أي ساحة المعبد "Pérbole"، التي لا يستطيع الدخول إليها كما هو عليه الحال في القدس إلاّ الرهبان والمؤمنون المتطهرون، على حالته وعلى الأخص جزؤه الغربي. ولهذا الحرم شكل مستطيل طوله مئة وستون متراً تقريباً وعرضه مئة متر. الحجارة فيه مجهزة بمفاصل متحركة، ورُصِعَ بأطبار ناتئة بعض الشيء تعلوها حلقة مصرية، ويحدها رواق من الداخل. في كل زاوية نجد برجاً مربعاً مزوداً بسلم يرتفع فوق السور. تقوم اليوم منارة قايتباي فوق البرج الجنوبي الغربي، الذي مازال حتى اليوم في حالة جيدة، في حين انهارت الأبراج الأخرى في العصور الوسطى⁽¹⁾. فتحت أربعة أبواب على ساحة المعبد: الباب الغربي وباب البريد وهو في حالة جيدة ويستخدم اليوم كمدخل رئيسي إلى الجامع الأموي، وأصبح الباب الجنوبي الذي سدت فتحاته أثناء بناء المسجد بادياً مرة أخرى للعيان بعد هدم المحلات التجارية التي كانت تحفّيه وذلك في عام 1983م. في حين اختفى الباب الشمالي الذي يشبه إلى حد بعيد الباب السابق. وكان الباب الشرقي "باب جيرون" المدخل الرئيسي للمعبد. تؤدي بواباته الثلاث التي تستخدم واحدة منها كمدخل للجامع تحت رواق يبلغ عمقه سبعة عشر متراً، وعرضه ثمانية وعشرين متراً يسبقه درج فخم يؤدي إلى شارع ذي أعمدة يوصل إلى الساحة "أغورا". هذا الرواق مخرب كلياً تقريباً اليوم ولكن كما يذكر بورتر: كانت "ستة أعمدة، تحمل أنصاف أقواس"⁽²⁾، في مكانها حتى منتصف القرن التاسع عشر. ذكر هذه الأعمدة الستة فيما مضى في القرن الثاني عشر الرحالة المسلم ابن جبير⁽³⁾. وقد كانت مقصورة الرب في الزمن الإغريقي الروماني مستطيلة الشكل ومتّجهة باتجاه المدخل الرئيسي، أي باتجاه الشرق، كما هو عليه الحال في معبد هيرابولس الذي يتحدث عنه لوسيان⁽⁴⁾، إلاّ أن هذه المقصورة هدمت أثناء بناء الجامع بعد أن حولت إلى كنيسة في الزمن البيزنطي.

(1) على حسب رأي المسعودي، كانت هذه الأبراج في حالة جيدة في منتصف القرن العاشر: "أصبحت أبراج الكنيسة التي كانت في حالة جيدة منارات حيث يؤذن فيها اليوم المؤذنون". شذور الذهب الجزء الأول، ص 545 (Les Prairies d'Or).

(2) Porter, Rev. J.-L. نفس المرجع السابق، المجلد الأول، ص 66. يؤكد بورتر أن أبراج العمود المركزي فرجة تعادل تقريباً ضعف أبراج الأعمدة الجانبية. لا أرى لماذا يذكر "أنصاف الأقواس"، في حين أنه لا يوجد على التحقيق إلاّ نصف قوس وحيد في المركز.

(3) Ibn Jubayer, Voyages, Documents relatif à l'histoire des croisades, Paris, Geuthner P310 VOL VI 1959 - 1953

(4) Lucien de Samosate نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 454. إضافة إلى البقايا النادرة من الزمن الروماني التي مازال يمكن رؤيتها، هناك مقابر كبيرة و قبور اكتشفت مصادفة أثناء أعمال الحفر. انظر

Toueir K., Céramiques mameloukes à Damas, B.E.O., XXVI, 1973 a.d, z 209-217.

تؤكد ثلاث كتابات إغريقية مؤرخة بالتقويم السلوقي الذي يبدأ في أكتوبر 312 قبل الميلاد، والتي تحتفل بذكرى بناء عدة أجزاء مختلفة من البناء، تاريخ الأحداث الذي يسمح لنا تحليل الأسلوب بأن نستشفه. الحلقة المصرية هي في الواقع عنصر من عناصر الزخرفة الذي لا نجده في أي مكان آخر في سورية بعد نهاية القرن الأول. يثبت أول نص يعود تاريخه إلى عام 327 أي إلى 16/15 بعد الميلاد، وهو يروي بالتفصيل بناء الجزء الأعلى للبرج الشمالي الشرقي، أن بناء ساحة المعبد بدأ في عهد تيبير. ويذكر نص ثانٍ يعود تاريخه إلى 349 أي 38/37 بعد الميلاد وضع خمسة أسس من الحجارة الضخمة "على نفقة الرب جوبيتر" في الجزء الشرقي من الحرم الخارجي. ويحتفل نص ثالث بذكرى بناء السوق المغطى "غاماً"، على نفقة جوبيتر أيضاً في عام 402 أي 90/91 بعد الميلاد، في عهد دوميتيان. ومنه نستنتج أن معبد دمشق مثل معبد بل في تدمر وجوبيتر هليوبوليتين في بعلبك أخذ شكله النهائي قبل نهاية القرن الأول. بالمقابل يعود بناء البابين الجنوبي والشرقي وساحة المعبد، وكذلك بناء الرواق ذي الزخارف عند المدخل والذي يصل السوق "غاماً" بالفناء، بالتأكيد إلى زمن سيفيرين، عندما حدث إجراء العديد من التحسينات الأثرية لتعطي دمشق مظهر مدينة إمبراطورية رومانية كبيرة. تشكل الساحة "أغورا" والطريق الذي يوصلها بالمعبد والهيكل مع مقصورة الرب وساحة المعبد والحرم الخارجي، وقد اصطف الكل وفق تناظر محكم أحاطته الأعمدة، منظوراً جمالياً يمتد إلى ما يقارب كيلومتراً واحداً. لذا لم يكن غريباً أن يعتبر الإمبراطور جوليان (361-363م) بعد عدة سنوات دمشق "مدينة مقدسة وواسعة" ومشهورة "بجمال احتفالاتها وضخامة معابدها"، و"مدينة جوبيتر الحقيقية وعين المشرق كله"⁽¹⁾. كان في دمشق طبعاً معابد أخرى نجهل حتى اليوم مواقعها. فلقد كان هناك معبد قرب عين الفيحة قد طبعت صورته على النقود.

يذكر فلافيوس جوزيف: من المحتمل أنه كان في دمشق قبل نهاية القرن الأول قبل الميلاد مسرح وملعب رياضي هبة من هيرود (40-4 قبل الميلاد)، ملك اليهود الذي تجاوز كرمه حدود أراضيه بكثير⁽²⁾. ومن المفترض - ولكن يبقى هذا فرضية بسبب عدم إجراء أي تنقيب - أن المسرح كان مستنداً

(1) Julien, l'empereur, Lettre à Sérapion, Oeuvres complètes, Paris, Plon, 1863 a.d, p. 378.

(2) Flavius Josèphe, La guerre des Juifs

"حرب اليهود" الفصل الأول، 21، 11، ص 181 - 182. أمر هيرود ببناء سور في بيللوس "جبل" وأروقة ومعابد وأماكن عامة في بيروت وصور وقناة في اللاذقية؛ وفي أنطاكية أمر برصف الشارع décumanus إلا أن الوحل جعله غير صالح للاستعمال.

من الجانب الجنوبي إلى الجزء الغربي من الشارع "decumanus"، حيث من الممكن أن تكون الشوارع الدائرية قد احتفظت بذكرى بناء نصف دائري⁽¹⁾. أما فيما يتعلق بالملعب الرياضي، فلا شيء من الطبوغرافيا الحالية يسمح بافتراض موقعه. ويرتفع الحصن "castrum" الذي بناه ديوكليتيان (284 - 305) في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة، في موقع القلعة الحالي التي مازالت تبدي أجزائها القديمة - بعد أن أعيد استخدامها - عناصر من البناء الروماني. ومع أنه من الصعب استرجاع آثار الجزء الغربي من السور القديم، من المحتمل أن يكون موقع الحصن "castrum" في داخل المدينة.

جعل تزايد السكان من الضروري - في تاريخ يصعب تحديده - إعداد طريقة جديدة لجر المياه. وكان هذا وراء إنشاء قناة القنوات - كلمة معربة ومشتقة من الكلمة اللاتينية "canalis"⁽²⁾ - التي كانت تزود بالماء، حتى السنوات الأولى من القرن العشرين، ثلاثة أرباع أحياء المدينة ضمن السور. تجتاز قناة القنوات قبل أن تصل المدينة انخفاضاً في مجرى مائي اصطناعي تبدو بعض أجزائها اليوم في الضاحية الغربية للمدينة التي أعطتها القناة اسمها.

من المؤكد أن قُرب فلسطين سمح منذ السنوات الأولى من زمننا بظهور الديانة النصرانية في منطقة دمشق. حتى إنه من الممكن أن يكون من بين الدمشقيين يهود "أتوا من كل الأمم الموجودة تحت السماء" فاعتنقوا هذه النصرانية في القدس، يوم عيد العنصرة، على يد الحواربي بير⁽³⁾. في كل الأحوال، بعد ثلاث سنوات من موت المسيح⁽⁴⁾، كانت الطائفة النصرانية قد كبرت إلى حد استدعى أن يرسل إليها المجمع اليهودي سانهدران⁽⁵⁾ شاباً من الطائفة اليهودية الفريسية، يدعى شاؤول، وهو يهودي هيليني من مواليد تارس في كيليكية. لقد كان شاؤول حائك خيام "ولم تظهر منه نحو المؤمنين سوى التهديدات والمذابح"⁽⁶⁾ لذا كان، إذا وجد أن هناك "تابعين للمذهب، نساءً وأورجالاً، قادهم مقيدين إلى

(1) Sauvaget, J., Le plan antique de Damas, P350, 1949.

خريطة دمشق القديمة، سورية، الفصل السادس عشر

(2) في الحقيقية، القنوات هي جمع للكلمة العربية قناة، مشتقة من الكلمة اللاتينية canalis التي ابتداءً من معناها الأول "على شكل ساقية" أخذت معنى "conduit, canal" مجرى، قناة.

(3) Actes, 9, 1

(4) لم يمت المسيح حسب العقيدة الإسلامية ولكن رفعه الله إلى السماء ونجاه.

(5) مجمع ديني و مدني في نفس الوقت مكون من 71 عضواً معظمهم من كبار الرهبان.

(6) Actes, 9, 1

القدس"⁽¹⁾. في منتصف نهار اليوم الخامس من رحلة على ظهور الخيل، وصل شاؤول يرافقه وفده إلى أطراف بساتين دمشق، فغشيه نور ساطع قادم من السماء خطف بصره فسقط عن حصانه وفقد بصره. لقد كان لتغير الدين هذا دوي كبير في تاريخ الديانات: "لقد أصبح رسولاً ذاك الذي كان جليلاً بالأمس بعد أن تعرض لأكثر انفعالات الروح قوة"⁽²⁾. نهض شؤول "وسيق من يده إلى دمشق حيث بقي أعمى مدة ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب"⁽³⁾ في بيت كان يقع في "الشارع الطويل لشخص يدعى يهو"⁽⁴⁾. في حين أتى رجل يدعى أناني "وقد كان رجلاً تقياً يحترمه كل اليهود"⁽⁵⁾ ليعيد له، امتثالاً لإرادة الرب البصر، بوضع يديه على رأسه ثم قام بتعميده⁽⁶⁾. وفي الحال قام شاؤول ونادى في معابد اليهود بأن "المسيح هو ابن الله"⁽⁷⁾. واضطر بطل الأمس الوثني المتهود المتحمس إلى الهرب، بعد أن فرض عليه اليهود، الذين لم يرضوا عن رده، العقاب، إلى "مناطق العرب"⁽⁸⁾، في حوران والأردن. ثم عاد إلى دمشق حيث كان قد تأمر اليهود على قتله⁽⁹⁾، فأمر والي الملك النبطي أرتياس الرابع بحراسة أبواب المدينة ليلاً ونهاراً لمنع من الهرب⁽¹⁰⁾. لذا قام أتباعه بتنزيله ليلاً في سلة من أعلى السور⁽¹¹⁾. يسجل الهروب من

(1) Actes, 9, 2, يعني المذهب هنا الديانة النصرانية.

(2) Barrès, M., Une Enquête aux pays du Levant, Paris, Plon, P 142, VOL I 1923.

(3) Actes, 9, 8-9.

(4) Actes, 9, 11 جاك دو فيرون من القرن الرابع عشر أول رحالة أوروبي يذكر "في الشارع الطويل، كان يوجد بيت يهودا، حيث تم تعميد بول"

Vérone J. de, Le Pèlerinage du moine Augustin Jacques de Vérone (1335), Extrait de la revue de l'Orient Latin, t. III, 1895, n° 2, Paris, p. 292 (col. 166b).

(5) Actes, 22, 12 تجعل بعض الروايات من أناني أول قس في دمشق. وهناك دير يحمل اسمه ولكن من المستحيل تحديد موقعه

اليوم بدقة إذ بني حوالي المدينة، وقد ذكره الكاتب المسلم ياقوت (1179 - 1229م). ويذكر بعض الشعراء أن معاوية بن

هشام، الخليفة الأموي العاشر قد مات فيه. وقد تغنى شاعر من القرن الثالث عشر بخمور دير حناينا.

(Cf. NASRALLAH Mrg. J., les souvenirs chrétiens de Damas, Harissa.)

"ذكريات النصارى في دمشق" 1944م، ص 42 فيما يتعلق بمنزل أناني، نفس المرجع ص 31-42.

(6) Actes, 9, 17-18.

(7) Actes, 9, 20.

(8) Galates 1, 17.

(9) Actes, 9, 23.

(10) Actes, 9, 242 و Cor. 11, 32.

(11) Actes, 9, 252 و Cor. 11, 33.

دمشق، الذي كان حوالي عام 38 ميلادي، نقطة انطلاق حركة متحمسة ودؤوبة لا تكل ولا تتعب، قام بها ضمير الجلاد المعبّد المضطرب وقد تملكه الشعور بالذنب، ذلك الشعور الذي أعطى النصرانية فيما بعد أساس مادتها ومبدأها الأصلي الذي كان ينادي به شاؤول مراراً، ألا وهو خلاص البشرية على يد المسيح ابن الرب وذلك بتعميده⁽¹⁾. فجاب الإمبراطورية من القدس إلى أنطاكية، ومن إفيز إلى كورينث وروما ملهماً بالوحي "داعياً للإنجيل"⁽²⁾، و"واعظاً بالمسيح المصلوب، كفضيحة لليهود، وجنون الوثنيين"⁽³⁾، داعياً "كل الوثنيين إلى الطاعة والإيمان"⁽⁴⁾. ولقد كتب نيتشه⁽⁵⁾ معتبراً شاؤول مؤسس النصرانية: "لولا ضلال وعواصف ذلك الفكر وتلك الروح لما كانت النصرانية، وكنا أتباع فئة يهودية صغيرة لا أهمية لها مات زعيمها مصلوباً"⁽⁵⁾. في الواقع، استخلص شاؤول من اليهودية، حتى إن كان يعتبرها أسمى تقليد ظهر في الوجود، تعاليم المسيح وصنع منها ديانة جديدة⁽⁶⁾. مع شؤول أصبح الإيمان - أي الاستسلام الكامل الذي يمنح الفضل والنعمة، والذي قدمه إبراهيم "أبونا جميعاً"⁽⁷⁾ مثلاً لنا فوق القانون. فلم يعد "الارتباط الجديد" يحصل باستئصال القلفة ولكن باستئصال الذنوب، ولم يعد من الآن فصاعداً في نهاية القضيب، وإنما في صميم القلب⁽⁸⁾. مع مذهب خلاص البشرية بموت وبعث المسيح من جديد، فكل الناس مدعوون، اليهود منهم والوثنيون إلى اعتناق الديانة النصرانية ليرتقبوا الخيرات الأخروية من بعث الأجساد والحياة الأبدية ورؤية الله. يقابل هذا العالم الأخروي ازدياء

(1) Rom. 1, 9.

(2) I Cor. 1, 17.

(3) I Cor. 1, 22.

(4) Rom. 1, 5.

(*) نيتشه فيلسوف وكاتب ألماني شهير.

(5) Nietzsche, F., Aurore, Paris, Gallimard (collection Idées), 1974 a.d, p. 75.

(6) الخلط بين النصراني واليهود حصل مدة طويلة من الزمن، ويبدو واضحاً في رواية سوتيرن التي تذكر أن كلود طرد من روما اليهود الذين لم يتوقفوا أبداً عن بث الاضطرابات في المدينة امتثالاً للمسيح (cf. Suéton, Vies..., V, 25).

(7) Rom. 4; 16 الجدير بالذكر أن Paul مثل محمد اعتبر إبراهيم بعد ستة قرون أباً المؤمنين الموحدين.

(8) Rom. 2, 9 فيما يتعلق بالإيمان والمنطق يمكننا العودة إلى كلام أغسطان: "لا يمكننا أن نفهم ماهو ولكن علينا أن نؤمن به بلا تردد". La cité de Dieux, XI, 7. موقف الإسلام في هذا الأمر مختلف جذرياً، فالعلماء لا يتوانون في التأكيد أن الإسلام دين منطقي، وأنه لا تعارض بين الشريعة والعقل، لأن الوحي لا غموض فيه ولا توجد عقائد صعبة الفهم - فلا وجود لرب مبهم و للثالوث وإلخ.

جذري للعالم الدنيوي عالم الشيطان⁽¹⁾. و"لما كانت الشهوة الجنسية يبغضها الله"⁽²⁾ يعد الجسد دنياً وسبباً لموت الروح وأداة للخطيئة. لذا لم يعد يسمح له من الآن فصاعداً بالزنى⁽³⁾ لأنه "جزء من المسيح"⁽⁴⁾ و"سكن لروح القدس"⁽⁵⁾. وكم تنهد القديس الذي لم يكف عن بث كراهيته العميقة لجسده إلى أقرانه قائلاً: "من يخلصني من هذا الجسد؟ من ينذرنى للموت؟"⁽⁶⁾. أما فيما يتعلق بالعلم، فهو خبيث ويغذي الكبر، لذا يجب رفضه بدون تردد⁽⁷⁾، فالنصراني الحق يجب أن يكون طاهراً وجاهلاً.

من الناحية السياسية، أوصى شاؤول مؤكداً مبدأ أصل السلطة المقدس بالخضوع التام، لأنه "لا وجود لسلطة ليست من الله، والذي يقاوم السلطة يثور على الأمن المستتب"⁽⁸⁾. ولما كانت

(1) Actes, 26, 18 et Galates 1, 4.

(2) Rom. 8, 7 من تعابير أغسطان: "ترهبين الخلود"، La cité de Dieu, 1, 4.

(3) 1 Cor. 6, 13.

(4) 1 Cor. 6, 15.

(5) 1 Cor. 6, 19

هذه النظرية متكررة جداً في السيرة النصرانية. إذ يمتدح أغسطان "فوقية الرجال المتعفين على الرجال المتزوجين". La cité de Dieu, 36, XVI, كما يطلب من الرجال الذين لا يستطيعون مقاومة شهواتهم "اللجوء إلى زوجاتهم ولكن باعتدال و عفة". نفس المرجع الفصل السادسة 25.

(6) Rom. 7, 24.

(7) 1 Cor. 8, 1, 2

من الجدير بالذكر أن الإسلام من الناحية العقديّة على الأقل يجعل من البحث عن المعرفة عملاً صالحاً. ففي الحديث النبوي: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». لم يغب عن العالم الإسلامي انحطاط المعرفة بتأثير النصرانية، إذ كتب في القرن العاشر مسعودي (في نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 278): "عندما ظهرت النصرانية عند الروم، كان هذا بمثابة ضربة قاضية على الصرح العلمي: فاخترت آثاره و محيت الطرق إليه. وتلاشى كل ما وضعه الإغريق القدماء وفسدت اكتشافات العبقريّة القديمة". و يحذر في القرن التاسع عشر غويينو معاصريه من آرائهم القبلية الخاطئة عن الإسلام فيقول. "من الصعب أن نتفق مع الذين يريدون أن يظهروا العقيدة المحمدية كحاجز مباشر للتطور الفكري، فالعكس يبدو هو الأصح. إن ديانة تؤكد أن: "جُبر العلماء أئمن من دماء الشهداء"، و تؤكد أن كل إنسان سيحاسب يوم القيامة حساباً عسيراً على الذكاء الذي أهمله، (...)

من غير العدل اعتبارها معادية للتفكير والفكر". الديانات والفلسفات في آسيا الوسطى

(Les Religions et les Philosophies dans l'Asie Centrale, Paris, G. Crès et Cie, 1927 a.d, p.22).

أما فيما يتعلق بموقف الإسلام من الجسد والشهوة، فهو موقف مخالف جذرياً لموقف الديانة النصرانية: ففي الإسلام تعتبر المتعة عملاً صالحاً ففي الحديث: "إن في بضع أحدكم صدقة" بالمقابل يقول أغسطان: "الشهوة مخزية و غير مجدية"، (مدينة الله)

(La Cité de Dieu, XVI, 25)

(8) Rom. 13, 1, 2.

الديانة الجديدة معارضة بتعصبها في كل شيء للعالم الروماني، فإنها وجدت نفسها سريعاً معرضة لاضطهاد فظيع: ولقي شاؤول التارسي الشهادة في عهد نيرون عام 67م، وأتاني في عهد فسباسيان عام 70م. إلا أنه رغم الاضطهاد، بل بفضل هذا التعسف وصلت النصرانية - التي كان يعتبرها كثير من الرومان على غرار تاسيت "معتقداً باطلاً ممقوتاً (...). ووباء جاء إليهم من يهودا"⁽¹⁾ - إلى أعلى دوائر الدولة، مستغلة ما قدمت من الشهداء. وتبنى قسطنطين النصرانية، ربما بدافع الإيمان ولأسباب سياسية قطعاً، ومنحها بموجب مرسوم ميلانو عام 313م الحرية الدينية المطلقة والمساواة مع كل الديانات الأخرى. وصار القرن الرابع - متأثراً بانتقال العاصمة من روما إلى القسطنطينية، البيزنطية القديمة - قرن تحول الإمبراطورية الرومانية من إمبراطورية متعددة الآلهة ومتسامحة إلى إمبراطورية موحدة تنكر حرية الاعتقاد. وقادت الكنيسة - بعد أن دخلت صميم الإمبراطورية كعنصر موحد - حرباً بلا رحمة على الذين يرفضون معتقداتها والذين تبَنُّوها على نحو سيئ. وما هو الإمبراطور جوليان (361 - 363م) الذي كان يعتبر شؤول "أكبر مشعوذ وكاذب"⁽²⁾، والذي كان يعتبر طائفة الجليليين مكرراً بشراً أوجده "الفسق"⁽³⁾، والذي لم تمنع محاولاته اليائسة في نشر الوثنية، بل الحرية الدينية في الإمبراطورية، من انتصار النصرانية، يكتب: "أهدموا المعابد والهياكل، واذبحوا ليس فقط الذين بقوا مخلصين لديانة آبائهم، ولكن أيضاً الذين أفسدتهم البدع من بينكم، والذين لا يعبدون الميت (أي المسيح) بنفس الطريقة التي تعبدونه فيها"⁽⁴⁾. ويرثي بمرارة كاتب سوري من

(1) Tacite; Annales, 15, 44 من الجدير بالذكر أن رماد تاسيت تم نثره في عهد بابوية Pie V (1566 - 1572م).

(2) نفس المرجع ص 328.

(3) نفس المرجع ص 322.

(4) جوليان، الأمباطور، أعمال كاملة (Julien, l'empereur, Oeuvres complètes, Paris, Plon) 1863م، ص 339. وفي نفس الزمن فضح المؤرخ أميان مارسولان من مواليد أنطاكية هو الآخر عدم التسامح النصراني بعد أن أرعبته المنازعات الدينية - هل شاهدنا يوماً في الإمبراطورية أتباع جويتر يذبحون أتباع هرقل؟ - "لا وجود لحيوانات متوحشة مع الناس مثل وحشية النصراني بعضهم مع بعض". ذكرها (Rabbath (L' E Orient chrétien à la veille de l'Islam) "المشرق النصراني قبل قدوم الإسلام" ص 13. ولم يتوان فولتير في كتابه في فضح عدم التسامح النصراني قائلاً: "إني أقول هذا بتقزز ولكن بحق: نحن النصراني العذابين والجلادين والقتلة، ولكن لمن؟ لإخوتنا. نحن الذين هدمنا مئة مدينة، وصلبنا والإنجيل في أيدينا، ولم نتوقف عن إسالة الدماء وإشعال المحارق، منذ حكم قسطنطين وحتى ضراوة آكلي لحوم البشر الذين سكنوا سيفن" (بحث عن التسامح) (Traité sur la Tolérance) ص 599 Ed. Pléiade/Gallimard, Paris 1961م. قبل فولتير بنصف قرن قال بيير بايل ذاكراً عدم تسامح الكنيسة الرومانية و "خيانتها" للعالم النصراني، هذه الكلمات القاسية: "الكنيسة الرومانية ليست إلا عاهرة دنسة =

مواليد أنطاكية، ليبانيوس (314 - 393م)، الذي يعتبر الوثنيين هم وحدهم "الأتقياء" وأن النصارى هم "الملحدون والمندسون"، لكونه مجبراً للعيش بين "شعب عدو للآلهة"⁽¹⁾ وذلك بعد أن تبين له في عام 363م التقدم الذي حققته الديانة الجديدة. وإذا بدت البرجوازية - من الأطباء والمعلمين الذين كانوا لا يزالون حينها وثنيين - مصونة، فإن الشر أفسد الطبقات الشعبية، وفاز بأغلبية مجلس المشيخة الروماني، إذ قدر معاصر لليبانيوس، جان كريستوسوم، عدد النصارى في أنطاكية بمئة ألف من أصل مئتي ألف ساكن⁽²⁾. وكما يذكر القديس لوقا: "نمت الكنيسة بفضل دعم روح القدس المواسية"⁽³⁾.

في ظل حكم ثيودوس (379 - 395م) قرّعت ثلاثة تواريخ جرس نهاية العالم القديم الحزينة: ففي عام 380 ميلادي وقع الخيار على النصرانية كدين للدولة؛ وفي عام 391م منعت الديانات الوثنية، وفي عام 394م منعت الألعاب الأولمبية. في عام 390م، طرد الإمبراطور ذاته من رحمة الكنيسة، بعد أن ذبح عدة آلاف من سكان تَسَالُونِيك Thessalonique وتعرض للتكفير علنياً من قبل القديس أمبرواز. وطبقت نظرية القديس بول في جوهر السلطة المقدس لأبعد حدود مصلحة السلطة الكنسية. وفي 7 كانون الأول 416م، فصل الوثنيون من الجيش وأجهزة الحكم والقضاء. وفي العام 435 ميلادي صدرت عقوبة الإعدام بحق كل الذين كانوا لا يزالون يمارسون دياناتهم القديمة. وهجم العامة في العديد من المناطق على المعابد التي كانوا يعتبرونها مأوى للشياطين، بعد أن حرضهم الرهبان، وهدموها حجراً حجراً. وكانت الضربة القاضية تلك التي وُجّهت لما تبقى من الفكر القديم في عام 529م في عهد جوستنيان؛ إذ أغلقت المدرسة الأفلاطونية في أثينا، والتي كان آخر رئيس لها داماسيوس الذي ولد في دمشق 480م، وصودرت ممتلكاتها. ولكن بقيت مدرسة

استولت على المنزل، وقد ساعدها في ذلك فرقة من المنحطين وقطاع الطرق الأتمين، فطردت رب البيت والأم والأولاد، وذهبت من هؤلاء الأطفال قدر ما استطاعت، وأجبرت الآخرين على الاعتراف بها كسيدة شرعية أو أجبرتهم على العيش في المنفى "Commentaire philosophique, Paris, Presses Pocket 1992م و ص 58. من الواضح أن بيل يذكر اضطهاد وتعذيب البروتستانت، ولكن ملاحظاته تنطبق حرفياً على الكنيسة منذ زمن قسطنطين ومنذ ارتباط العرش بالمعبد.

(1) Petit, P., Libanius et la vie municipale à Antioche au IVe Siècle ap. J.-C., Paris, Geuthner, 1955, p. 204.

(2) هذه الأرقام لا تحسب إلا حساب السكان المحليين الذين تقدرهم اليوم في ذلك الوقت بخمسمئة ألف شخص

(3) Actes, 9, 31.

أفلاطونية في حرّان في منطقة الجزيرة العليا حتى وصول الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر. ومع اتحاد كهنوت الكنيسة والدولة تحولت الإمبراطورية إلى تيوقراطية^(*) بدت رغبتها في الهيمنة العالمية أكيدة من خلال اللقب الذي كان يحمله الإمبراطور "سيد العالم". وانقسمت البشرية إلى قسمين: قسم يعترف بالإمبراطور كسيد الأرض المسكونة بعد أن أعلن اعتناقه للديانة المفروضة، وشعوب باقي العالم البربرية. وفي داخل الحدود حيث تعيش مجموعة غير متجانسة من الناس تنقصهم الوحدة العرقية واللغوية، بدت الوحدة الدينية لعدم وجود روابط أخرى غيرها، ولأن اعتناق المعتقدات أسهل من تعلم اللغات، الضمان الوحيد لترابط الإمبراطورية.

ومن أجل تحقيق هذه الوحدة كان لابد من تحديد وحدة المعتقد وفرضه، وكانت هذه مهمة شاقة نظراً للأفكار الدينية المستعصية للديانة النصرانية الغامضة لعامة البشر، والتي تقبل الكثير من التأويل. حاول مجمع نيسه الديني الذي انعقد في 20 أيار 325م به جود قسطنطين وقد جمع ثلاثمائة وثمانية عشر قساً معظمهم من المشرق، أن يحل الخلافات العقيدية وأن يخفف من حدة الانشقاق. فأدينبت بدعة أريوس في الإيمان بالثالوث المقدس التي تنفي ألوهية المسيح كنقيض للتوحيد. وكان لها كثير من الأتباع في سورية، وحاولوا - على الطريقة التيولوجية في التوضيح - توضيح الاعتقادات في ألوهية المسيح والتقمص والإيمان بالثالوث المقدس. ومخالفة لرأي لوزب وجوستان وترثوليان أعلن أن المسيح يشارك الأب في الجوهر، وهو مولود وليس بمخلوق، ويعلق فولتير بسخرية على هذا القرار قائلاً: "قرار يستحيل إدراكه، ولكن هذا لم يزد إلا رفعة وسمواً"⁽¹⁾. وبرغم قول القديس: "يجب ألا يكون هناك أي انشقاق بينكم"⁽²⁾ أثار مجمع نيس الديني الذي لم يهدئ ما في النفوس، المنازعات الشهيرة فيما يتعلق بيهية المسيح التي حصلت في القرن الخامس الميلادي، والتي كانت وراء التجزؤ النهائي للنصرانية الشرقية، مما مهد الطريق للفتح الإسلامي في القرن السابع. وتكمن المسألة الأساسية في حقيقة طبيعة المسيح، ومن ثم في حقيقة طبيعة العذراء، من حيث كونها أمّاً لإنسان أم أمّاً للرب.

(*) تيوقراطية: دولة قائمة على مبدأ ديني "Theocratie".

(1) Voltaire, Dictionnaire philosophique, Paris, Granier, 1967a.d, art. "conciles", p. 143.

(2) القرآن، 1، 11. هنا أيضاً، موقف الإسلام مختلف جذرياً: ففي الحديث يقول محمد (ﷺ): "اختلاف أمتي رحمة" إلا أن هذا لم يمنع في الإسلام وفي كل مكان حدوث بعض التجاوزات التي لا يمكن غفرانها: مثل حرق الكتب في الأماكن العامة و تعذيب الرجال أو قتلهم بسبب اختلاف الآراء.

أعلن بطريرك القسطنطينية "نسطوريوس" بين العامين 428 و431 م - وهو من أصل أنطاكي - مؤيداً رأي سابقه يوحنا كريسوتوم، أن جوهرَي المسيح كإله وإنسان، منفصلان، وأنه يجب اعتبار مريم بنت عمران أمّاً للمسيح وليس أمّاً للرب. وقد تمت إدانة المذهب النسطوري في مجمع إفسس الديني في حزيران 431م بعد أن حاربه سيريل، بطريرك الإسكندرية المدعوم من قبل حكام مصر. ونُفي نسطوريوس مع أنه كان يتمتع بدعم السلطة الإمبراطورية، لأنه أتهم بنفي ألوهية المسيح. ووجد أتباعه ملجأً لهم في أرض فارس، حيث استطاعوا إنشاء كنيسة أولتها السلطات العليا الكثير من العناية والدعم بسبب العداوة التي كانت تضمهرها للإمبراطورية البيزنطية. في الوقت الذي أُدين فيه المذهب النسطوري، تزعم أشمندريت يدعى قديماً أوطيخا "يوتخيخس" - وقد كان يرأس في القسطنطينية ديراً مهماً - المذهب الذي ينادي بطبيعة المسيح الواحدة، وهو مذهب يعارض المذهب السابق، الذي يعتقد بأنه بعد التقمص لم يبق في المسيح إلّا الجوهر الإلهي. وفي تشرين الأول 451 ميلادي أدان المجمع القليدوني الديني، المؤلف من ستمئة قسّ، معظمهم من المشرق، المذهب الذي ينادي بطبيعة المسيح الواحدة، وعرض صياغة نهائية للعلاقات بين غموض التقمص والطبيعة البشرية وألوهية المسيح. وفي 25 تشرين الأول بعد نقاشات حادة بوجود الإمبراطور مارسيان والإمبراطورة قُرئ "المرسوم العقيدي" الذي يشرح النظرية الأرثوذكسية للتقمص: "كلنا ندعو بالإجماع إلى الإيمان بنفس الابن وحده، ربنا عيسى المسيح، بكامل صفاته الربانية وكامل صفاته البشرية. رب حقيقي وبنفس الوقت إنسان حقيقي، مُكون من روح عاقلة وجسد. يشارك الأب في الجوهر بربوبيته، ويشاركنا في الجوهر بإنسانيته، يشبهنا في كل شيء إلّا فيما يتعلق بالخطيئة؛ وهو إله لأنه ولد من الرب قبل كل القرون، وبشر لأنه ولد من أجلنا في الزمن المتأخر من مريم العذراء "أم الرب"؛ إننا نعتز بعيسى المسيح واحداً أحداً، ابناً وحيداً يتمتع بطبيعتين، بدون أن يكون هناك أي اختلاط أو تحول أو انشقاق أو انفصال بين الطبيعتين: لأن الاختلاف بينها لا يَبْطُلُ أبداً بوحدهما؛ بل على العكس، صفات كل طبيعة محفوظة وباقية في نفس الشخص وفي نفس الأقسام"⁽¹⁾. ليفهم

(1) Dictionnaire de théologie catholique, Paris, Letouzey et Ané, 1930-1967 a.d, t. II, art. Chalcédoine, pp. 2189-2208

هذه المنازعات المسيحية التي مازالت نتائجها ملحوظة بين الطوائف في سورية حالياً، وجدت صدئاً لها في كتابات المسلمين: "رأي آخر يثير الفضول وهو رأي بول الذي يقول بأن المسيح هو من أرسله وبأن المسيح رجلٌ و رب، لأن الرب يخلق الرجل و الرجل يخلق الرب". مسعودي، نفس المرجع، الجزء الثاني ص462. و إننا لنبتسم عندما نذكر كلام الأسقف: "يجب تجنب

هذا من يشاء!! لا يستطيع يهودي لم يفهم هذا الكلام جيداً أن يمنع نفسه من الضحك: ففي رسالة إلى الإمبراطور مارسيان يلاحظ هذا اليهودي أنه بعد مجمع القليدوني الديني "لم يعد بالإمكان اتهام اليهود بصلب الرب"⁽¹⁾. أضاف "المرسوم العقيدي" مدعوماً بالقانون وبنص المجمع الديني: "أما فيما يتعلق بالذين لم يخضعوا للمرسوم، فإذا كانوا قسيسين أو رجال دين، فهم معزولون، الأساقفة يعزلون من الأسقفيات ورجال الدين من الإكليروس؛ وإذا كانوا رهباناً أو بلا دين، فهم ملعونون"⁽²⁾. ويبدو هذا أوضح بكثير!!.

وانقسمت الإمبراطورية إلى معسكرين من الأعداء اللدودين، القليدونيون من جهة، وهم أنصار الأرثوذكسية والمقر الروماني، ومن جهة أخرى معارضو القليدونيين، الملتفون حول حاضرتي أنطاكية والإسكندرية، والذين يؤمنون بقوة، بطبيعة المسيح الواحدة. وها هو بطريرك أنطاكية، ميشل السوري، يكتب في نهاية القرن الثاني عشر⁽³⁾: "حطمت قليدونيا سلام الكنيسة". ولم توقف الفجوة عن الاتساع بين السلطة البيزنطية والمقاطعات الشرقية للإمبراطورية، وسورية ومصر حيث كان الاعتقاد بطبيعة المسيح الواحدة يستخدم للتعبير عن الخصوصية السياسية. ويحريض شخص يدعى يعقوب زنزالاس قامت في وجه الكنيسة الشرعية كنيسة تدعو إلى الاعتقاد بطبيعة واحدة للمسيح، لغتها الطقوسية هي اللغة السريانية "أي الشكل المعاصر للغة الآرامية". وطاف يعقوب هذا، الملقب بالباراداي، وهو اسم الأثواب التي كان يرتديها ليضلّل الشرطة الإمبراطورية في بحثها عنه - وقد دعمته الإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور جوستنيان الذي كان يعدّ بملل الملحدين - فكان يعين القسيسين وثبت الأساقفة بانياً أطر الكنائس يعقوبية في المشرق. ولما كان القيصر البابوي البيزنطي عاجزاً عن انتزاع موافقة الضباط (برغم قوة إقناع "مراسيمه الدينية"، وحرصاً على المحافظة مهما كلف الثمن على الوحدة التي عرف الساسانيون كيف يستغلون أقل صدع فيها) فإنه عمد إلى القمع الدموي الذي يمثل أسوأ أوقات التفتيش التعسفي. فمنذ ارتقاء الإمبراطور جوستان (518 - 527م) العرش، أصدر قراراً يجعل العقيدة القليدونية

منازعات الكلمات، فهي لا تفيد إلا في فقدان أولئك الذين يسمعونها". 142، 2، أو عندما نتذكر "أما فيما يتعلق بالبحوث

المجنونة و الحمقاء، فتجنّبها، عليك أن تعرف أنها تسبب النزاعات"، 2، 232، Th.

(1) Jean D'Asie, Histoire ecclésiastique, Revue de l'Orient chrétien, 1897 a.d, p. 458.

(2) Dictionnaire de théologie catholique, art. "Chalcédoine", p. 2195.

(3) Michel le Syrien, Chronique syriaque, ed. J.-b. Chabot, Paris, 1899-1914 a.d, t. 2, p. 89.

إجبارية على كل رعية الإمبراطورية. فلجأ عدد كبير من الأساقفة ورجال الدين إلى صحراء سورية ليهربوا من السجن أو القتل. وتبع إرتقاء جوستينيان العرش عام 527 هذنة قصيرة، ولكن لما كانت الوحدة بين الكنيسة والإمبراطورية عميقة جداً، لأنها مجسدة بشخص الإمبراطور رئيس الدولة والكنيسة في نفس الوقت، وسيد المؤمنين الأعلى الذي توحى إليه الساء كل أفكاره، أصبح القانون وحيأ إلهياً. فاشترط أول قانون جوستينيان فيما يتعلق "بالثالوث المقدس" أن "الإحتكاك بالهرطقة أمر دنس بحد ذاته، وأنه يجب محو آثارهم وأسمائهم على سطح الأرض"⁽¹⁾. وعاد التعذيب والاضطهاد أقوى مما كان، فأشعلت المحارق في كل مكان "حيث كانت تنبعث في الهواء رائحة لحوم الشهداء المحترقة، لتصل بحزن إلى أنوف المؤمنين"⁽²⁾. وعرف إفرام، بطريرك أنطاكية بنشاطه وحماسه، فقد كان يلقب "بالجلاد معذب المؤمنين"⁽³⁾. ومع كونه مفعماً بالرحمة النصرانية، فقد كان كما ذكر ميشيل السوري "يحرص بدون رحمة على تعذيب كل المشرق"⁽⁴⁾. كل الناس، سواء كانوا فقراء مساكين مؤمنين بقوة، دون إدراك أي شيء عن طبيعتي المسيح، أو هرطقة، أو مؤمنين بوحدة الجوهر في الأقانيم الثلاثة، جميعهم كانوا مطاردين ومجبرين على التخلي عن معتقداتهم والنفي إلى الصحراء، أو الموت أثناء تعذيب وحشي لا مثيل له، لدرجة أن المؤرخ الديني "يوحنا الآسيوي" وجده "عملاً فاحشاً وفظيلاً لدرجة أنه يصعب حتى ذكره"⁽⁵⁾. ففي مصر جعل أبولينير باباويته في الإسكندرية شهيرة بذبح حشد من المؤمنين بوحدة جوهر المسيح، إذ بدأت المذبحة في كنيسة القديس مارك أثناء القداس، وانتهت بالعنف العسكري في شوارع المدينة. وعندما لاينجحون في القضاء على الهرطقة بالموت، أو إجبارهم بالقوة على تبني العقائد المقدسة، وقد أذلوا إلى مرتبة المنبوذين، كانوا يُتهمون بعجزهم عن ممارسة السياسة والحقوق المدنية ويستبعدون من كل المناصب الرسمية، ويُحرمون من كل حرية دينية ومن حق الإرث. إذ منع مرسوم عام 544م

(1) القرار 5، 12، 2. لم يتوان آباء الكنيسة، وعلى رأسهم أغسطان، الذين كانوا يبررون التعذيب في الاعتماد على مقدمات توراثية فيما يتعلق بالتعصب الديني، ففي سفر Isaïe 22، 20، 21، 22: La cité de Dieu. كل من يعبد آلهة أخرى غير الرب يقضي عليه بالموت"، وانظر أيضاً: Deut., XII, 2; Lev., XXIV, 16; XVII.

، بيروت، نشر الجامعة اللبنانية، 1980م، ص 24. Rabbath E. L'Orient chrétien à la veille de l'Islam. ذكرها Jean d'Asie (2)

نفس المرجع ص 24. Rabbath E. ذكرها Jean d'Asie (3)

(4) Michel le Syrien, op. cit. t.2, p. 195.

(5) Jean d'Asie, The Third part of the Ecclesiastical History of John..., Oxford, 1860 a.d, p. 8.

المؤمنين بوحدة جوهر المسيح من إقامة قداسهم والتعميد وبناء الكنائس "كهوف الإلحاد"⁽¹⁾. ولقد احتفظ التاريخ بأثلة قليلة من هذا الاستبداد الذي وصل إلى هذه الدرجة من الضراوة. ففي عهد جوستينيان الثاني (565 - 578م) الذي كان يمارس سياسته بإلغام من البطريريك الأرثوذكسي يوحنا الفيلسوف اللاهوتي⁽²⁾، جرى في سورية وجنوب تركيا إغلاق الأديرة وتدمير الكنائس وتوقيف واعتقال الأساقفة وإشعال المحارق، ولم يستثن التعذيب والاضطهاد أحداً. في القسطنطينية في عهد جوستينيان، جُمع المانويون في زوارق وأُحرقوا أحياءً في وسط البحر، ولقد ذكر يوحنا الآسيوي: "أمر الإمبراطور بمصادرة ممتلكاتهم، لأنه لم يكن بينهم نساء مميزات ولا نبلاء أو أعضاء في مجلس الشيوخ"⁽³⁾. وفي عام 609م، في عهد فوكاس، في القدس وفي مدن كبيرة أخرى، أجبر اليهود على الخضوع للتعيمد، ولكن الأسوأ كان فيما ناله من تبقى من الملحدون الذين وفقاً لقانون جوستينيان "يشيرون غضب الرب العادل"⁽⁴⁾؛ إذ منعوا من امتلاك أي شيء "حتى يموتوا في البؤس بعد حرمانهم من كل شيء"⁽⁵⁾. ونُظمت حملات تنصير إجباري في كل مكان، وكان القانون يعاقب بالموت كل متنصر يرد عن دينه. وها هو يوحنا الآسيوي يفتخر بضمه إلى النصرانية نحو سبعين ألف مؤمن "بأكثر الوسائل حزماً"⁽⁶⁾؛ يذكر كيف كانت تجري الأمور في السنة التاسعة عشرة من حكم الإمبراطور جوستينيان قائلاً: "بفضل حماسي اهتمنا بأمور الملحدون الذين كنا نكتشفهم في القسطنطينية. لقد كانوا رجالاً لا معين ونبلاء مع جمهور من علماء اللغة والسفسطيين وطلاب مدارس وأطباء. عندما كنا نكتشفهم ونخضعهم للتعذيب، كانوا يعترفون بزملائهم فنمسك بهم ونجلدهم ثم نسجنهم ونسلمهم إلى الكنائس ليتعلموا النصرانية كما ينبغي أن يفعل الملحدون"⁽⁷⁾. يبدي يوحنا الآسيوي برغم تأثره ببؤس المؤمنين بوحدة جوهر المسيح، سعادته بمصير الملحدون البائس. وفي عهد هرقل (610 - 641م)، عندما بينت الحرب على الفرس

(1) Nouvelles 131, 14.

(2) نذكر للدقة أن المؤمنين بوحدة جوهر المسيح كما يذكر ميشيل السوري (Chroniques, t. 2 p. 412) الذين يرون أن القلدونيين ليسوا إلا هراطقة كانوا يدعون أنفسهم بالأرثوذكسيين.

(3) Jean d'Asie, Histoire ecclésiastique, Revue de l'Orient chrétien, p. 467.

(4) Code I, 11, 10, 5.

(5) Code I, 11, 10, 2.

(6) Jean d'Asie, Histoire ecclésiastique ذكرها Rabbath E. ص 33 في نفس المرجع

(7) Jean d'Asie, Histoire ecclésiastique, Revue de l'Orient chrétien, 1897a.d, p. 481.

الساسانيين كراهية المؤمنين بوحدة جوهر المسيح من السوريين والمصريين للإمبراطورية، عمد الرومان عن طريق توفيقات مذهبية إلى ضم المنشقين إلى الأرثوذكسية الإمبراطورية، وذلك مع مراعاة الأرثوذكسيين الأصليين. وقد كان المذهب الموحّد⁽¹⁾ هو الذي أكد أن للمسيح عيسى إرادة واحدة وطاقة أقنومية واحدة ومشئّة واحدة تؤثر أحياناً بإنسانيتها وأحياناً أخرى بألوهيتها. وفشل هذا المذهب الذي أعلن رسمياً عام 638 م أمام تعصب الأصوليين من الطرفين. وعاد التعذيب والاضطهاد وتجاوزوا بضرورتها ما كان في عهد السلالة الجوسنانية. إذ أمر هرقل "في كل الإمبراطورية بقطع الأنوف والآذان وسلب بيت كل من لا يلتحق بأفكار المجمع القليدوني"⁽²⁾. وكان هذا آخر التّرع لاحتضار نظام فظيع مبني على الكره والتعصب. حتى إن الإسلام لم يحتج في سورية ومصر إلّا إلى بضعة انتصارات ليمسح النصرانية⁽³⁾، لأنه كما كتب إدmond ربات: "لم يكن على العرب إلّا الظهور ليقطفوا سورية ومصر كما تقطف الفاكهة البانعة"⁽⁴⁾. ومن هنا نفهم دون صعوبة ما كتبه مؤرخ معاصر له، ميشيل السوري، بطريريك اليعقوبين في أنطاكية من عام 1166 إلى 1199 م: "لهذا بعث إله الشّار من منطقة الجنوب أبناء إسماعيل (العرب المسلمين)، بعد أن رأى شر الرومان الذين حيثما حلوا وسيطروا نهبوا بوحشية كنائسنا وأديرتنا وأدانونا بدون رحمة، ليخلصونا من أيديهم (...)، ولم يكن تخلصنا من وحشيتهم وشرورهم وغضبهم مجرد منفعة صغيرة"⁽⁵⁾. ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التقدير قد كتبه ميشال السوري في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، بعد ستة قرون من معايشة المسلمين، وخلال المدة التي عادت فيها النصرانية إلى أنطاكية مؤقتاً من الناحية السياسية على الأقل، حين كانت محتلة من قبل الصليبيين.

وبرغم هذه المنازعات حول جوهر المسيح، عرفت سورية تحت الحكم البيزنطي، عصراً من الإزدهار تشهد عليه النصوص المكتوبة والمعطيات الأثرية. فلقد وُفّر لها موقعها على الطريق الكبير

(1) لقد تم إدانة مذهب الموحدين نهائياً في المجمع المسكوني السادس في إسطنبول عام 681 م، ولم يكن هناك أي مبرر لوجوده منذ زمن طويل لأن سورية ومصر كانتا حينها في أيدي المسلمين من عشرات السنين، وقد اختفى دون أن يترك أي أثر إلّا في شمال سورية حيث كان أساس نشوء الطائفة المارونية.

نفس المرجع الجزء الثاني، ص 412. Michel le Syrien (2)

(*) هذا الكلام غير دقيق، لأن الفتوحات العظيمة التي قام بها المسلمون الأوائل تمت بعد معارك كبيرة حاسمة بذلوا فيها الأنفس والأموال. ويشهد على هذا استشهاد وموت العديد من الصحابة وقبورهم العديدة المنتشرة في بلاد الشام ومصر.

(3) Rabbath E. L'orient chrétien à la veille de l'Islam, p. 131.

نفس المرجع الجزء الثاني، ص 412. Michel le Syrien (4)

للتبادلات التجارية مع الشرق الأقصى، دوراً مهماً في الحركة الاقتصادية للإمبراطورية. ففي الشمال كانت نُصيين وكالينيكوم "مدينة الرقة حالياً" مركزين مهمين لتجارة الحرير، وعن طريق الجنوب كانت تأتي البضائع الثمينة القادمة من شبه الجزيرة العربية مثل المر المكاوي والبخور، وعن طريق الخليج ووادي الفرات بضائع الهند. لقد كان السوريون تجاراً جُسُورين؛ يذكُرهم القديس جيروم (347 - 420م) بأنهم تجار نهمون يشقون العالم كله، ويتصدون للبؤس والموت وهجمات البرابرة بحثاً عن الثروة حتى في الغرب حيث استقر بعضهم في مدن الغال (فرنسا)⁽¹⁾. كما كانت الصناعة مزدهرة، وخاصة صناعة الأرجوان التي ترجع إلى أيام الكنعانيين، وصناعة الحرير التي تركزت في صور وبيروت، وصناعة الزجاج الذي اشتهرت به دمشق. ولما نجح المبشرون في عهد جوستينيان في جلب بيوض دودة القز من الشرق الأقصى، تطورت زراعة أشجار التوت وصناعة الحرير في قلب الإمبراطورية، وخاصة في سورية في منطقة بيروت. وازدهرت المدن وقد أنعمتها التجارة والنهضة الزراعية الاقتصادية. وتأتي في المقدمة المدن الساحلية التي كانت تتمتع بأولوية التبادلات التجارية ثم المدن الداخلية مثل حلب وشالسي وحمص ودمشق.

ويصطحبنا ليبانيوس إلى أنطاكية القرن الرابع، أنطاكية المزدهرة والنشطة التي يبلغ عدد سكانها ما يقارب خمسمئة ألف نسمة. ففي شوارعها ذات الأروقة والمليئة بالخوانيت والمعارض حيث لا يتوقف البيع نهراً ولا ليلاً، كان زحام الناس شديداً حتى أصبح من المستحسن عدم السير فيها. أما الضواحي فلقد كانت عامرة بالسكان لدرجة أنه كان من السهل الخلط بينها وبين المدن. إلا أن المجاعات التي سببها الجفاف والمضاربات أو وجود حشود عسكرية عديدة كانت تجهز للقيام بحملات عسكرية على الفرس الساسانيين، كانت تدفع الطبقات الشعبية إلى الثورة بانتظام، فيحدث حينها غزو الأغورا "الساحة العامة" وقتل النبلاء المسؤولين عن تموين المدينة بالبضائع. ولقد اتخذ الإمبراطور جوليان بنفسه إجراءات للحد من ارتفاع الأسعار والأرباح المبالغ فيها، لما تبين له عندما مر بأنطاكية عام 362م أن السوق كان مزوداً تزويداً سيئاً "ليس بسبب المجاعة، وإنما بسبب جشع

(1) Jérôme saint, Epistolae ad Demetriadem, éd. Maurin, IV, 2, p. 788. Cité par Heyd W., Histoire du commerce du Levant au moyen-âge, Leipzig, 1885 a.d, t.1, p. 20.

أصحاب الأملاك⁽¹⁾. ورأى في القرن السادس المؤرخ بروكوب أن أنطاكية هي المدينة الرومانية الأولى في المشرق بغناها وامتدادها وسكانها وجمالها وآثارها⁽²⁾. وقد اندهش القديس أنطون الشهيد من البذخ الذي كان عاماً، وكذلك من روعة المدن الأخرى مثل أفاميا وبيروت وغزة⁽³⁾.

من الناحية الإدارية استمر الحفاظ على تقسيمات المقاطعات التي أجراها ديوكليتيان حتى نهاية عهد ثيودوس. ثم أجرى ابنه أكاديوس تنظيمًا جديدًا لم يتغير تقريباً منذ ذلك الوقت. وقسمت سورية المندجة بكونتية المشرق، والتي كانت عاصمتها أنطاكية، إلى خمس عشرة أبرشية، تنقسم كل واحدة بدورها إلى عدة مناطق. فكانت دمشق المركز الإداري والعاصمة الدينية لفنيقيا اللبنانية، التي تضم شمال جبال لبنان الشرقية، ووادي البقاع لتمتد شرقاً حتى تدمر. ومنذ بداية القرن الرابع أدى وضع نظام إداري معقد وتعسفي إلى تراجع واضح في اللامركزية المدنية والمحلية. ففي قمة إدارة إمبرطورية ذات نهم متزايد، أصبح الحكام "ممثلو السلطة المركزية" سادة المدن الحقيقيين، الذين لم تحز أساليبهم على رضا المواطنين في أغلب الأحيان. ويبدو أن ليبيانيوس، الذي كان من عائلة خورية كبيرة، لم يكن يحبهم قط، فرسمهم لنا بأسوأ الصور: ها هم هؤلاء "يغشون في كل شيء"، وهؤلاء آخرون "يرهبون المتقاضين" وأولئك "يبدرون ثروات كبيرة لإرضاء نهمهم"⁽⁴⁾. والأسوأ كان مع حكومة لوسيانوس، الذي كان قنصل سورية خلال النصف الأول من عام 388م، "لقد كان حكماً مطبوعاً بالغضب والعنف والرعب والخوف المجسد والاعتداءات والفسق وكل التجاوزات. وباختصار لقد كان طغياناً مستبداً بالقانون"⁽⁵⁾. ولقد شهد ليبيانيوس أيضاً "رؤمته" الإدارة المدنية، فكان يخشى من الاختفاء الكامل للأحرف الإغريقية، إذ تبين له بمرارة أن "التقدير والسلطة هما لأولئك الذين يعرفون اللغة الإيطالية"⁽⁶⁾. ولما كان المجلس البلدي في تدهور، ناب عنه في ذاك

(1) Julien, l'empereur, Misopogon, ed. Hertlein, Leipzig, 1875, p. 467. Cité par Petit P., Libanius et la vie municipale à Antioche au I^{er} siècle ap. J.-C., Paris, Geuthner, 1955a.d, p. 111

اللوحة التي رسمها ليبيانيوس عن الحياة المدنية تماثل في نقاط عديدة اللوحات التي زودنا بها المؤلفون المسلمون فيما بعد.

(2) Procope, De bello persico, II, 8.

(3) Ed. Tobler et Molinier, pp. 92, 109, 118.

(4) Libanius, Autobiographie, Paris, Les Belles Lettres, 1979a.d, p. 204.

(5) نفس المرجع الأخير، ص 197.

(6) نفس المرجع الأخير، ص 186.

الوقت الحكام الذين حاولوا تحسين شعبيتهم أمام مرؤوسيهـم بتشيد مباني فخمة بأموال الدولة. أما فيما يتعلق بالضرائب، فلقد ذكر جشع الجباة "Praktores" كثيراً في النصوص، فكانوا يأتون بأنفسهم إلى القرى يطالبون بـ "Phoros" أي الضريبة العقارية المحسوبة وفق سجل دقيق جداً للمساحة. ولكي يهرب الفلاحون من دفع هذه الضرائب كانوا يلجؤون إلى العنف المنظم، وربما يستعينون بفتوة رجال جسورين للتخلص من الضرائب.

من الناحية الثقافية، حلت لغة ديموستين، التي كانت مهيمنة بوضوح في المدن الشرقية، منذ العصر الهيليني محل اللاتينية وأصبحت في عهد هرقل لغة الإمبراطورية الرسمية، وذلك بتطور بطيء بدت أول ظواهره مع إنشاء قصص جوستينيان القصيرة باللغة الإغريقية. إلا أن الشعب السوري بطبيعته المتمردة بقي مخلصاً للغة الآرامية القديمة، لدرجة أن جان كريستوم كان مضطراً في نهاية القرن الرابع أن يؤكد أن سامعيه في أنطاكية لم يفهموه البتة. وعرف الأدب الآرامي الذي استعاد مجده في أيدس القرن الثاني (أورفه اليوم) أوجه مع المؤرخين مثل جان الآسيوي أو المبشرين مثل يعقوب بارداي.

حتى وإن كانت دمشق البيزنطية أقل شهرة من أنطاكية بسبب افتقارها إلى إنسان مثل ليانيوس، من المحتمل أن الأمور كانت سيئة إلا في عاصمة الشمال الكبيرة، وأصبحت دمشق باكراً مركز أبرشية، إذ إن شخصاً يدعى مانيوس "أسقف دمشق" اشترك في مجمع نيسه الديني عام 325م. وفي عهد ثيودوس، بعد زمن قصير من إصدار مرسوم 391م الذي شكل الضربة القاضية على ديانات المشركين، حولت مقصورة الرب في معبد جوبيتر - حدد إلى كاتدرائية باسم القديس يوحنا المعمدان، التي وضع فيها رفات رئيسها الذي نقل من حص حيث كان محفوظاً في مُذخر، وهو صندوق لبقايا أجساد القديسين. يذكر العُمري، وهو كاتب من القرن الرابع عشر: "كانت الكنيسة محاطة بالأروقة من جهاتها الأربع"⁽¹⁾، مما يؤكد أن مقصورة الرب الرومانية - التي تشبه إلى حد بعيد تلك الموجودة في معبد نيبوفي تدمر⁽²⁾ - لم تتعرض لأي تغيير عند تحويلها إلى الديانة النصرانية. وقد رمت الكنيسة في عهد أركاديوس (395 - 408م)، ابن ثيودوس، وفقاً لمخطوطة مشكوك في أمرها لم تذكرها إلا

(1) Al-Umari, Masalik al-absar, II, 7-11, cité par Creswell K.A.C., A Short Account of Early Muslim Architecture, Le Caire, Dar el-Kutub, 1989a.d, p.66.

(2) Cf. Degeorge, G., Palmyre, métropole du désert, Paris, Séguier, 1987a.d; p. 114.

الروايات العربية. من المحتمل أنه في هذا الزمن نحتت باللغة الإغريقية على عتبة الفتحة المركزية الكبيرة للباب الجنوبي لسور المعبد، الكتابة التالية المستمدة من الزبور والتي مازال يمكننا قراءتها اليوم: "أيها المسيح، إن مملكتك هي مملكة كل العصور وسيادتك تمتد من جيل إلى جيل"⁽¹⁾. وكان منقوشاً على ساكف الفتحة الجانبية الشمالية التي سدت فيما بعد بمحراب المسجد هذه العبارة: "الرب جبار وسط محفل كبير من القديسين يرهبه كل من يحيط به"⁽²⁾. وكان في دمشق قبل الفتح الإسلامي أربع عشرة كنيسة إضافة إلى كائدرائيتها التي كما يشهد أوطيخا "توتيمينوس": "لا مثيل لها في بلاد الشام"⁽³⁾. وقد اختفى بعض هذه الكنائس وأعيد بناء بعضها الآخر عدة مرات. تقع كنيسة المصلبة، التي اكتشفت بقاياها أثناء التنقيب الذي أجري عام 1921م مقابل الحائط الغربي لقبو الكنيسة الحالي، وذلك بين الباب الشرقي وباب توما في المكان نفسه الذي تروي الروايات أنه كان منزل أناني. هُدمت هذه الكنيسة في عهد صلاح الدين واستبدل بها مسجد⁽⁴⁾، ثم عادت كنيسة من جديد قبل مرور الرحال غرو فان أفاغارت بدمشق الذي ذكرها عام 1533م بأنها "كنيسة نصرانية سورية"⁽⁵⁾. اليوم، في نفس الموقع تقوم كنيسة صغيرة باسم القديس أناني. نذكر من بين الكنائس الرئيسية في داخل المدينة كنيسة المقصل في الشارع الطويل قرب العمود الفخري الروماني الذي يشفي من انحباس البول، وكنيسة القديسة ماري في الجهة الشمالية للشارع الطويل في مكان الكنيسة المربمية حالياً، وكنيسة القديسين سيريان وجوستين القريبة من الكنيسة التي سبق ذكرها، وكنيسة القديس بول قرب سوق الخياطين حالياً، وكنيسة اليعقوبيين قرب باب توما وكنيسة القديس ليونس، هبة الإمبراطور جوستنيان. وفي خارج السور بجوار المدينة مباشرة، نذكر كنيسة القديس نيقولا في الغرب، وكنيسة القديس يوحنا المعمدان الجديدة⁽⁶⁾ وكنيسة توما⁽⁷⁾ في الشمال، وكنيسة

(1) زبور 145، 13. في الحقيقة أنشد يعقوب الزبور متوجهاً في كلامه إلى يهوا.

(2) زبور 9، 89.

(3) ذكرها نصر الله، دمشق و منطقة دمشق، كنائسهم في الزمن البيزنطي

Mgr. Nasrallah, Damas, et la DamascèneM, Proche - Orient chrétien, XXXV, 12 -, 1985a.d, p. 42.

(4) Sauvaire, H., La description de Damas, Journal Asiatique, 9e série, t.VII, n°3, mai - juin 1896 a.d, p. 406.

(5) Greffin Affagart, Relation de Terre Sainte (1533-1594 a.d), Paris, V. Lecoffre, 1902 a.d, p. 218.

(6) احترقت اثناء إضطرابات شعبية عام 973م.

(7) استبدل بها في القرن الثاني عشر مسجد. يصفها ثفونوت في القرن السابع عشر بأنها كنيسة مهدامة،

(Relation d'un voyage fait au Levant, 1664 a.d, t. 3, pp: 45-60).

نعمان في الشرق. إضافة إلى كنائس أخرى مبشرة في بساتين وقرى الغوطة، وهناك العديد من الأديرة أشهرها دير مرّان وسامان والنّسا والخوراني التي تقع على منحدر جبل قاسيون حيث تذكر المصادر العربية وجود "قصر هرقل" الذي تحطم في القرن الرابع عشر. في المدينة، في المكان الذي يدعى "البريص"، كانت القبيلة العربية الغسانية التابعة للإمبراطورية البيزنطية تملك قصراً، إذ يذكر الشاعر حسان بن ثابت "أن من استسقى من ذلك القصر أعطي ماءً ممزوجاً بخمر لذيد"⁽¹⁾.

في الزمن البيزنطي، وعلى الأغلب منذ القرن الخامس، بدأ التنظيم المدني - من نموذج إغريقي روماني كان قد توضع جزء منه كيفما اتفق على شبكة داخلية غير منتظمة - يأخذ طابعاً شرقياً. هذه الظاهرة ازدادت في العهد الإسلامي، فغزت المحلات الشوارع العريضة الأثرية وخاصة الشارع الطويل، وحصل ذلك شيئاً فشيئاً في الأورقة الجانبية تارةً، وفي قطع من طرق معبدة شاغرة تارةً أخرى، وأصبحت الطرق ملتوية معوجة. كما غيّر تهديم المساكن وإعادة بنائها المتتابع والمتكرر، الذي استخدمت فيه مواد خفيفة مثل الخشب واللبن، مخطط وعرض شوارع عديدة. في نفس الوقت سُكّن تدريجياً الفناء الخارجي لمعبد جوبيتر الذي لم يعد هناك مبرر لوجوده في مدينة مكتظة بالسكان وقد أُبعد عنها الملحدون. حمت ممرات الأعمدة التي تصل أبواب ساحة المعبد بأبواب الساحة الخارجية، المداخل التي تؤدي إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان. في الغرب والشمال، مازالت هذه الأعمدة ذات النموذج البيزنطي بأقواسها وجبهات أبوابها على شكل جذع هرم مقلوب سليمة، في حين لم يكتشف في الشرق إلا قطعة واحدة من عمود دُمج في حائط بيت. ومن المحتمل أنه في الزمن البيزنطي بني قصر جديد في الجزء الجنوبي الشرقي للفناء.

أدى موقع دمشق على بوابة الشرق إلى تورطها في نزاع دام قرناً من الزمن بين الإمبراطورية الرومانية والفارسية الساسانية، وكان يهدف إلى احتلال المعابر الاستراتيجية للتجارة العالمية، كالخليج الفارسي، والساحل السوري، والبحر الأحمر. كان القرنان اللذان سبقا قدوم جوستينيان، فيما يخص سورية حقبة طويلة من السلام إذا استثنينا خمس عشرة سنة من الحرب فقط. وبالمقابل، منذ وصول جوستينيان عام 527م وحتى قدوم المسلمين عام 634م، أي مايقارب قرناً، دمرت

وكما يذكر المؤرخ المسلم محمد بن شاعر، مؤلف مصادر التاريخ، كانت الكنيسة أوسع من بازليك القديس يوحنا المعمدان.

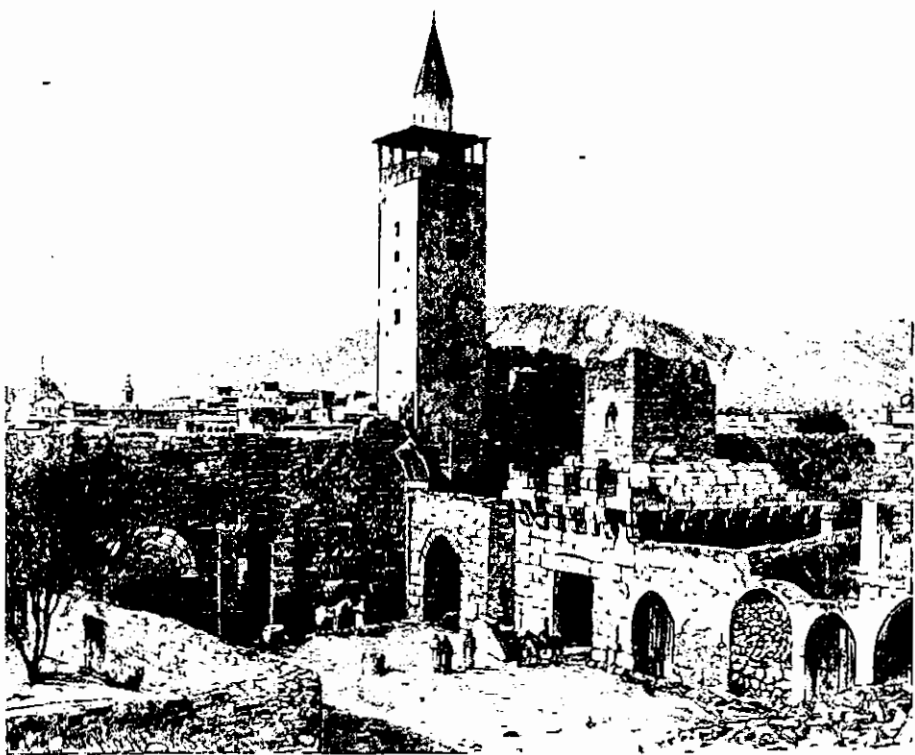
Cf. Quatremère, Sultans mamluks, t.2 p. 263.

(1) ذكر هذا عبد القادر ربحاوي، في نفس المرجع السابق، ص 47. وانظر أيضاً السعودي، نفس المرجع الأخير له، الجزء الثاني ص 545.

سورية أربع وستون سنة من الحرب؛ فلقد جرى الاستيلاء على المدن واحدة تلو الأخرى لتترك بعدها نصف مدمرة. يسرد لنا جان الآسيوي بالتفصيل كيف جرى الاستيلاء على أنطاكية قائلاً: "لما انتصر عليها ملك الفرس، اكتسحها وقمعها وحرقها ونهبها وهدمها من أساسها، واستولى حتى على قطع الرخام التي كانت تغطي جدران منازلها (...). ثم عاد إلى بلده"⁽¹⁾. لم تنج دمشق من المصيبة: إذ استولى عليها عام 612م واستمر احتلالها حتى عام 627م، واصطحب عدد كبير من سكانها عبيداً إلى ما وراء الفرات. وفي العام التالي هوجمت القدس بعد حصار دام ثلاثة أسابيع، ثم أشعلت فيها النيران وجرت الدماء لعدة أيام، وقد أحرقت كنيسة القديس سبلكر التي أمر ببنائها الإمبراطور قسطنطين، في حين نُحِل الصليب المقدس أو ما قام مقامه إلى ستريفون. من هذا النزاع الضاري الذي لم ينته إلا عام 627م بنصر هرقل الساحق أمام نينوى في منطقة الجزيرة، خرجت الإمبراطوريتان دامتيتين وغير قادرتين على الصمود أمام تقدم العرب المسلمين بعد سبع سنوات، إضافة إلى أنه أثناء هذا الوقت كانت الإمبراطورية الساسانية قد غرقت تقريباً في نزاعات دموية على العرش.

قيل قدوم الإسلام، كانت النصرانية واليهودية قد دخلت أعماق شبه الجزيرة العربية. في البداية دخلت في قبائل الفيحاء السورية مثل قبائل الغساسنة واللخمين وكتب وغيرهم، وتقدمت النصرانية شيئاً فشيئاً مقتفية أثر اليهودية التي حاولت عبثاً إزاحتها من داخل شبه الجزيرة العربية. منذ بداية عصرنا هذا، استقر عديدٌ من "أبناء يعقوب" كما يسميهم القرآن في يثرب "المدينة المنورة حالياً" خاصة، وخيبر وتيما ونجران واليمن، إذ يذكر الكتّاب المسلمون قدوم أحد أتباع عيسى المسيح "بارثلمي" إلى الحجاز، فاعتنقت مدينة دومة النصرانية كلها في بداية القرن السابع، في حين كان في مدن أخرى مثل تيماء وتبوك جماعات نصرانية صغيرة. وكان هناك أديرة وصوامع مبعثرة على طول الطريق بين دمشق والمدينة المنورة ذكرها الشعر العربي في كثير من الأحيان. طبعاً لم تنج النصرانية العربية من الانقسام: إذ هيمن المذهب الذي يؤمن بوحدة جوهر المسيح في الفيحاء السورية والحجاز ونجران، وهيمن المذهب النسطوري في وسط الجزيرة العربية وبالقرب من الحدود الإيرانية والخليج الفارسي. قبل الفتح لم يعد للإمبراطورية البيزنطية أي أتباع دينيين في شبه الجزيرة العربية، حتى الغساسنة الذين كانوا يؤمنون بوحدة جوهر المسيح وتابعين للإمبراطورية زمنياً طويلاً، وكانوا يساهمون في الدفاع عنها، أصبحوا في القرن السابع من أنصار العقوبة المتحمسين.

(1) Jean d'Asie, Histoire ecclésiastique, Revue de l'Orient chrétien, 1897 a.d, p. 485.



الباب الشرقي

وفي قلب الحجاز، في مدينة مكة الغنية، الواقعة على طريق القوافل والمتربعة حول كعبتها ويثر زمزم في أعماق مُدَّرج من الجبال المقطعة، أنشأت قبيلة قريش المكونة من عدة بطون: هاشم، أمية، نوفل، تميم... وغيرهم نوعاً من الأرستقراطية التجارية تعيش على تجارة القوافل⁽¹⁾. وبفضل حرص القرشيين المعروفين بحس متأصل في التجارة، ورغبتهم في إنجاز وحدة سياسية واقتصادية هم أول المستفيدين منها، تحولت الكعبة القديمة - بتأثيلها الثلاثمئة وستين المجتمعة حول ثلاثة آلهة عربية كبيرة، اللآة ومناة والعزى - إلى حرم قومي شيئاً فشيئاً، ينجح إليه العرب ومن بينهم الذين اعتنقوا اليهودية أو النصرانية، برغم كل الانشقاقات القبلية المستمرة التي كانت تمزق شبه الجزيرة العربية. وظهرت ديانة موحدة تدريجياً حول رب البيت، الخالق ورب العالمين "الله"⁽²⁾ الرب الذي عبده إبراهيم وإسماعيل.

وبرغم تحضر أهالي مدن شبه الجزيرة العربية، فإنهم لم يتوقفوا يوماً عن إبداء انتماهم إلى هذه القبيلة أو ذلك التحالف القبلي خوفاً من الاضمحلال الوجودي. تُقَرُّ القبيلة، وهي مجموعة متجانسة ومميزة باسمها تربط أفرادها روابط قوية من التضامن، سلطة السيد أو الشيخ. وغالباً ما يتصف شيخ القبيلة بالحلُم والمهارة في التعامل مع الرجال، وهو الذي يختار أماكن التخييم، ومناطق الرعي والبحث عن مواقع الماء، ومن يقرر الحرب التي كانت على شكل غزوات، والتي كانت تشكل المورد الأساسي في حياة البدو. لقد أدت الحياة القاسية في الصحراء إلى طريقة في الحياة مميزة، ونظام من القيم لم يكف الشعراء العرب عن تمجيدها بدون ملل، منها: الشرف واحترام الكلمة والوفاء بالوعد، فلقد ذكر هيرودوت⁽³⁾: "لا يوجد شعب يحترم كلمته كالعرب"، ومنها أيضاً الاستقلال ومقت كل تحكم وكل سلطة مركزية، والشجاعة في الحرب، وحرمة البيت (أو الخيمة)، وهو مأوى العائلة وملجؤها المقدس للضيف وطالب الحمى، وكره الزنى الذي قد يدنس دم الجماعة ويخلط الأنساب، وحماية المظلومين، وحق اللجوء، والكرم، والضيافة، وفوق كل شيء ذلك النظام العريق في الهدنة الذي، كما هو الحال في اليونان أثناء الألعاب الأولمبية، يفرض على الفئات المتحاربة وضع السلاح خلال شهر المحرم (شهر الحج في مكة)⁽⁴⁾.

(1) انظر مسعودي، OP. Cit., t. III, p. 561 يزود بقائمة تحتوي على 25 بطلاً.

(2) الله اختصار لكلمة الإله، أي الرب المعبود.

(3) Hérodoté, L'Enquête, III, 8. يعطي هيرودوت وصفاً لمراسيم القسم.

(4) شهر الحج هو شهر ذي الحجة وليس شهر المحرم.

في هذا الوسط المكي، الوسط التجاري العالمي الكبير، ومن عائلة متواضعة من قبيلة قريش الكبيرة ولد عام 569م محمد (ﷺ)^(*). أمه آمنة من بني زهرة، والده عبد الله بن هاشم بن عبد مناف. عندما مات عبد الله أثناء رحلته إلى يثرب، لم ترث امرأته التي كانت حاملاً إلاّ عبداً وخمسة جمال وبعض الخرفان. بعد ست سنوات ماتت آمنة بدورها فألت رعاية محمد إلى جده عبد المطلب. ولما مات الجد دخل الطفل وعمره حينها ثمانى سنوات ضمن عائلة أحد أعمامه، أبي طالب، أخى عبد الله من أمه وأبيه ورئيس عشيرة هاشم. طفولة مضطربة ذكرها القرآن: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾⁽²⁾.

بعد أن بقي عازباً مدة طويلة على غير المعتاد في مجتمعه، تزوج محمد وعمره ما يقارب خمساً وعشرين سنة بخديجة، سيدة أعمال محنة تكبره بخمس عشرة سنة، رُزِقَ منها عدة صبية ماتوا جميعهم وهم صغار، وأربع بنات: زينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم. في ذلك الوقت تبنى محمد (ﷺ) عبداً شاباً بعد أن أعتقه، هو "زيد بن حارثة" وابن عمه الصغير عليّاً الذي كانت أعمال والده التجارية تؤول إلى الخسران. وتذكر الروايات أنه في عام 610م، عندما كان عمر محمد أربعين عاماً، تلقى الوحي وأصبح نبياً. وذلك تقريباً كما حدث للقديس بولس قبل ستة قرون مضت، أثناء "رؤيا مثل فلق الصبح"⁽³⁾ يشعر أثناءها بوجود رباني. ثم، بالقرب من مكة، في سكون مغارة في جبل الحراء حيث كان يتعبد، سمع صوتاً غيّر مجرى العالم: "أنت رسول الله"⁽⁴⁾. وبعد فترة قصيرة، جاءت كلمات الوحي الأولى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾⁽⁵⁾.

(1) Cf. Mas'udi, op, cit, t. II, p. 499 "المحرم أول شهر من السنة؛ وقد سمي بالمحرم لأنه خلال هذا الشهر يحرم الحرب و

الضرب". ويذكر مسعودي أيضاً (t. III; p. 580) منع النصارى من الحج في العام التاسع للهجرة.

(*) (ﷺ) إضافة من المترجمة.

(2) القرآن، 93، 3 - 8.

(3) Al - Zuhri Watt, M., Mahamet à La Macque, Paris, Payot, 1977 a.d, p. 66.

الزُهري راوٍ من قبيلة زهرة ولد في عام 670 تقريباً.

(4) نفس المرجع الأخير، ص 66.

(5) القرآن، 96، 1.

إن أبرز ما كانت تدعو إليه هذه المرحلة المكية الأولى من الوحي هو الإيمان بالله الواحد الأحد، الرحمن، القدير، مالك يوم الدين، الخالق⁽¹⁾، وأن المخلوق ضعيف ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾⁽²⁾، والحساب بعد الموت والبعث⁽³⁾، والثواب والعقاب وجحود الإنسان، والتقليل من شأن الغنى ومتاع الحياة الدنيا⁽⁴⁾، والصدقة والإحسان إلى الفقراء واليتامى والسائلين⁽⁵⁾. لقيت هذه الرسالة - التي تذكرنا بما دعت إليه أيضاً الديانة المسيحية، والتي جاءت في بيئة من التجار وأرباب الأموال الذين تصادمت مصالحهم مع المعتقدات الجديدة - عدم الرضا والشك والسخرية. ووُصِفَ محمد (ﷺ)، كما عانى كل الأنبياء، بأنه مجنون، استحوذ عليه الجن، وبأنه كاهن، وبصفات كثيرة أخرى. إلا أن اعتناق الإسلام تزايد، فبعد إسلام أهل الدار من خديجة وعلي، نذكر من بين المعتنقين الأوائل: تاجراً غنياً من بني تيم، أبا بكر، الذي كان يصغر محمداً (ﷺ) بثلاث سنوات. ثم وصلت دعوة الإسلام إلى جميع العشائر، فأسلم الضعفاء والأقوياء وخاصة الشباب من "الطبقة المتوسطة"، وكذلك من أكبر العائلات مكانة في مكة، منهم خالد بن سعيد بن العاص وأخوه عمرو من بني عبد شمس أكثر العشائر قوة، وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان، الذي كان شاباً منعماً قد تزوج من رقية ابنة النبي (ﷺ)، وكلاهما من بني تيم عشيرة أبي بكر، وكذلك حمزة بن عبد المطلب، عم النبي (ﷺ)، من بني هاشم، والزبير من بني أسد، وأبو سلمة والأرقم من بني مخزوم، كما دخل الإسلام العبيد المحررون، وأشهرهم بلال الذي كان عبداً حبشياً جهير الصوت، ولقد تجاوز عدد المسلمين في هذه المرحلة أربعين.

عندما هاجم محمد (ﷺ) آلهة الأجداد بمثل هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُّونَ﴾⁽⁶⁾، كانت المعارضة شديدة جداً قادها أكبر الرجال مكانة من أكبر العائلات القرشية الذين بدت لهم أن هيمنتهم السياسية والاقتصادية والدينية مهددة. ودفعت

(1) القرآن، 73، 8-9 و 96، 1-5.

(2) القرآن، 80، 19.

(3) القرآن، 74، 8-10 و 84، 1-12.

(4) القرآن، 104، 1-3.

(5) القرآن 93، 9-10.

(6) القرآن، 21، 98.

عشيرة بني هاشم ثمن الحماية الكاملة التي منحتها لمحمد (ﷺ) بما عانته من حصار دام سنتين، وقرر ما يقارب خمسة عشر شخصاً اللجوء إلى الحبشة لأسباب غير واضحة تماماً^(*). في حين شهدت الجماعة التي بقيت في مكة، والتي أصبح عددها يتجاوز الستين مؤمناً، منهم عشرون امرأة، إسلام عمر بن الخطاب، الذي كان عمره حينها خمساً وعشرين سنة، وهو من قریش وأمير المؤمنين مستقبلاً. إن اعتناق عمر بن الخطاب الإسلام شجع المؤمنين حتى أصبحوا يتجرؤون ويصلون بالقرب من الكعبة.

وفي عام 619م فقد محمد (ﷺ) عمه وحصنه أبا طالب، الذي مات وهو على دين أجداده من عبادة الأوثان، وكذلك فقد زوجته خديجة. بعد مدة قصيرة تزوج مرة أخرى من إحدى النساء الأوليات في دخول الإسلام، سودة بنت زمعة، في حين سحب منه عمه أبو لهب - أخو وخليفة أبي طالب عند الهاشميين - حماية العشيرة له. وكثرت النوائب على محمد (ﷺ) وجاء ذكرها في القرآن الكريم. وخرج النبي (ﷺ) إلى الطائف وأقام فيها عشرة أيام، ولما لم يلق من أهلها إلا المعارضة والتهديد بالموت، استقر رأيه على اللجوء إلى يثرب، التي كانت تبعد ثلاثمئة وخمسين كيلومتراً شمال غرب مكة. كانت يثرب، التي سماها القرآن "المدينة"، واحة غزيرة المياه ومنافسة لمكة، فيها تتعايش طائفة يهودية مع قبائل عربية تقر باليهودية وقبائل أخرى مشركة أهمها، الأوس والخزرج، اللتان كانتا من أصل يمني. دفن والد النبي (ﷺ) في يثرب، وكان من أهلها من اعتنق الإسلام وأصبح من أنصاره. في نهاية 622م، أثناء اجتماع عقد بالقرب من مكة اتفق معتنقو الإسلام من المدينتين (مكة والمدينة) على النصرة المتبادلة. وأصبحت رابطة الدين فوق الروابط القبلية وروابط الدم. وغادر المؤمنون مكة بأفواج صغيرة متجهين إلى المدينة. كانت هذه الهجرة التي حُددت بدايتها في 16 تموز 622م ليكون أول يوم في السنة الهجرية العربية وبداية العصر الإسلامي. ووصل محمد (ﷺ) يرافقه أبو بكر إلى المدينة في 24 أيلول 622م، هناك ولدت ديانة جديدة، لم تكن أركانها من: شهادة وصلاة وصيام وزكاة وحج واضحة بعد، ولكنها كانت قائمة على أساس الإيمان بالله الواحد والآخره والجنة والنار والأنبياء. وولد نوع جديد من التضامن يذكره القرآن بكلمة "الأمة" بدلاً من كلمة قوم أو قبيلة أو شعب.

(*) أسباب الهجرة إلى الحبشة واضحة ومذكورة في كل كتب السيرة، وهي باختصار مرتبطة بما عانى المسلمون من الاضطهاد، و بحثاً عن مكان آمن لممارسة الشعائر والقيام بواجب الدعوة.

وفي المدينة بنى محمد (ﷺ) داره على أرض شاغرة في وسط الواحة، وقد كان بناءً متواضعاً من اللبن والأغصان، كان المسلمون يجتمعون فيه لأداء صلواتهم فكان أول مسجد^(*)، أي المكان الذي يُسجد فيه. وقد كان فناءً بسيطاً مستطيل الشكل، تحده جدران من اللبن والطين، أقيم في شماله مأوى صنع من جذوع النخيل المصفوفة وجعل سقفه من جريد النخل، وفي الشرق بنى بيتان لزوجتيه، سوده بنت زمعة وعائشة "الزوجة الجديدة" ابنة أبي بكر وكان عمرها ستة سنوات^(*). كان المسلمون مجموعتين متميزتين: الأنصار وهم أهل المدينة المسلمون، والمهاجرون الذين قدموا من مكة. في ظل حكم محمد (ﷺ) عُقد اتفاق ليحدد العلاقات بين الفئات الموجودة في المدينة من مؤمنين وغير مؤمنين، ليكون هذا أول مرحلة لما سيصبح دولة تدريجياً. وتتابع دخول الناس في الإسلام، في حين نظمت الجماعة المسلمة أمورها بإرادة مجاهدة، واندفعت في مهاجمة قوافل قريش على طريقة العرب أي بالغزو. وفي آذار عام 624م، كانت قافلة كبيرة جداً بقيادة أبي سفيان بن حرب من قبيلتي قريش وعبد شمس قادمة من غزة، ومحملة ببضائع كانت تقدر قيمتها بخمسين ألف دينار. فتطوع للحرب ثلاثمائة مؤمن منهم تسعون مهاجراً. نجح أبو سفيان بعد أن حُذّر في الوقت المناسب في أن يُجَنَّب القافلة القتال، ولكن المعركة قامت قرب بئر بدر على جيش قدم لنجدة القافلة من مكة. وبرغم قلة عدد المسلمين الواضح بالنسبة إلى المشركين، انتصر أهل المدينة، ووزعت الغنائم بالتساوي بين كل المحاربين وسُلم الأسرى الذين كان عددهم سبعين سجيناً مقابل فدية. كتب المؤرخ الطبري أن "هذا النصر الأول للنبي (ﷺ) على الكفار"⁽¹⁾ دعم سلطته في المدينة وقوى نفوذه في أعين المؤمنين وكذلك في أعين القبائل البدوية في المنطقة.

(*) أول مسجد بناه الرسول (ﷺ) عند وصوله إلى المدينة كان مسجد قباء في ظاهر المدينة، ثم بنى مسجده الذي أصبح فيما بعد المسجد النبوي الشريف.

(*) زواج الرسول (ﷺ) بالسيدة عائشة رضي الله عنها - إذ عقد عليها وهي بنت ست سنوات وبنى عليها وهي بنت تسع - قضية خلافية، وقد حقق هذه القضية بعض المهتمين بعلم السيرة النبوية وأثبتوا أن عمرها كان يزيد عدة سنوات عما هو مذكور في كتب السيرة التقليدية.

(1) Tabari, Mohammed, scean des Prophètes, Extrait de la Chronique, tr. Fr. H. Zotenberg, Paris, Sindbad, 1980a.d.

كرست معركة بدر التي لم يشارك فيها أي يهودي مقاطعة النبي (ﷺ) لليهود. ولما كان قد عانى، قبل المعركة، من تعنتهم وعداوتهم، أمرَ المسلمين، بوحي آيتين⁽¹⁾، بعدم التوجه إلى القدس أثناء صلواتهم، ولكن باتجاه الكعبة في مكة، مركز العالم الجديد، التي كانت كما يذكر الطبري، قبلة⁽²⁾ إبراهيم وإسماعيل⁽³⁾. بعد بدر، جاء الأمر بصوم شهر رمضان، الشهر الذي جرت أثناءه معركة بدر، ثم الأمر بأداء زكاة الفطر عند الانتهاء من صوم شهر رمضان. وطُردت قبيلة يهودية من بني قينقاع من المدينة، وأخيراً أُقرّر أن يكون خمس الغنائم من الآن فصاعداً من نصيب النبي (ﷺ) ليتمكن من سدّ حاجات اليتامى والمساكين والفقراء وابن السبيل. وكان هذا نواة خزانة الدولة في المستقبل. وازدهر هذا المجتمع الجديد، وتزوج محمد (ﷺ) زوجته الثالثة حفصة بنت عمر بن الخطاب وعمرها آنذاك 18 عاماً، ورُزقت بنته فاطمة التي تزوجت علي بن أبي طالب ولدها الأول الحسن في نفس الوقت. ولما كان اعتراض القوافل يهدد مصالح أهل مكة، عمد الكفار إلى تجهيز حملة عسكرية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي من المشاة، منهم سبعة مئتين مسلحون بالدروع، ومئتا فارس يقودهم خالد بن الوليد، الذي لقب فيما بعد بسبب بطولاته في الفتوحات الإسلامية "سيف الإسلام"^(*)، إضافة إلى العديد من الوحدات العسكرية من بدو المناطق المجاورة. واتجه هذا الجيش نحو المدينة بأمر من أبي سفيان وزوجته هند التي قتل والدها في معركة بدر. وفي 23 آذار 625م، وعلى بعد ثلاثة كيلومترات شمال المدينة، بالقرب من جبل أحد، انهزم أهل المدينة، وجرح النبي ذاته، وهرب قسم كبير من الرجال، وكان من بين القتلى الذي كان عددهم يقارب السبعين، حمزة، عم النبي (ﷺ). وعاد القرشيون أدراجهم إلى مكة سالمين.

في المدينة، عندما نزلت الآيات مبينة أسباب الهزيمة⁽⁴⁾، أمسك محمد (ﷺ) بزمام أمور جماعته مرة أخرى، وأخذ يعمل على توسيع تحالفاته مع القبائل البدوية. وتزوج بأم سلمى وزينب، أرملي اثنتين من المؤمنين المخلصين له، كانا استشهدا في معركتي بدر وأحد، في الوقت الذي رزقت فيه ابنته

(1) القرآن، 2، 139 - 140

(2) أي اتجاه الصلاة.

(3) الطبري، محمد، خاتم الأنبياء، ص 135.

(*) لقب خالد الذي لقبه به رسول الله (ﷺ) هو سيف الله وليس سيف الإسلام.

(4) القرآن، 3، 133 - 135 و 160 - 162.

فاطمة بابنها الثاني، الحسين. وتتابع الفتوحات ونمت ثروة الجماعة. وفي هذه الحقبة من الزمن أصبح يلقب أتباع محمد (ﷺ) بالمسلمين، أي المستسلمين لإرادة الله، ومن هذا الاستسلام لإرادة الله سميت هذه الديانة الجديدة بالإسلام.

في مكة عمد أبو سفيان راغباً في وضع نهاية للتهديد المدني إلى حشد كل قواه، فتحالف مع اليهود وحصل على دعم عدة قبائل بدوية كبيرة منها قبيلة قيس من غطفان. وفي نهاية آذار 627م خرج أبو سفيان على رأس جيش يضم عشرة آلاف رجلٍ ومقسم إلى ثلاثة أجزاء متجهاً نحو المدينة، حيث حفر محمد (ﷺ) خندقاً عميقاً حول المدينة من الجانب الشمالي الذي لم يكن محمياً بالعوارض الطبيعية. وحوصرت المدينة، فحاول المهاجمون بدون جدوى أن يقتنعوا ما تبقى من اليهود في المدينة، وهم بنو قريظة، بمهاجمة المسلمين من خلفهم. وبعد ستة وعشرين يوماً من مناوشات غير حاسمة رفع المحاصرون الحصار^(*). وفي الحال جهزت حملة في الجنوب الشرقي للواحة ضد بني قريظة الذين حاول بعضهم أن يتعاون مع المحاصرين. فذبح الرجال القادرون على حمل السلاح بكل بُرود، وبيعت النساء والأطفال كعبيد^(*)، ووزعت أملاكهم وفق معايير سيعمل بها دائماً خلال الفتوحات في المستقبل: الخمس للنبي (ﷺ) وسهمٌ للراجل وسهمان للفارس. هذا النموذج من العنف المنظم الذي لم يُعتد البدو، والذي لا يُزقّ كثيراً من الأرواح شبيه، بما كان يفعله أهل المشرق القدامى، كما أنه أدهش عرب شبه الجزيرة العربية.

يعد الصمود البطولي في معركة الخندق منعطفاً حاسماً على طريق إنشاء دولة حقيقية. فلم يعد رئيس هذه الجماعة أو الأمة المسلمة مُحدّثاً باسم الله ووسيطاً وممثلاً لإرادة الله فقط، وإنما هو رجل سياسي ماهر، وقائد حرب عظيم، ونبي مشرع. ووصلت سلطته المميزة بنزعتها المحبة للخير إلى أوجها بفضل نصائح صهره أبي بكر وعمر. ونشأت في المدينة دولة ثيوقراطية، السلطة المطلقة فيها بيد الله وحده، في حين كان التشريع فيها ينقل على شكل مجموعة من الأنظمة والوصايا بلسان النبي (ﷺ). إن محتوى تعليمات هذا الدين يبين جيداً الظروف والمتطلبات الآنية، فالأسلوب نفسه كان يتطور، فأصبحت الآيات أكثر طولاً والقافية أكثر رتابة. وأصبحت التعليمات الجديدة تمس كل

(*) تم رفع الحصار بعد ثبات المسلمين ودفاعهم عن المدينة، وبعد أن أرسل الله على المحاصرين ريحاً عاتية اقتلعت خيامهم وددت شملهم فلم يجدوا بداً من الرحيل.

(**) لم يذكر الكاتب أن اليهود قد نقضوا العهد، فعوقبوا بما تقضي به ديانتهم أي بالقتل.

مظاهر الحياة، من سلوك فردي، وعلاقات بين أفراد الأمة، والعلاقة بين الأمة والعالم الخارجي، وعلاقة الإنسان بربه. ونشأت فلسفة حقيقية في تفسير الغاية من خلق العالم ككل. ونُظمت العائلة والعلاقات بين الأفراد من زواج وطلاق وإرث على وجه دقيق، وذلك بهدف تحسين وضع المرأة والأيتام والضعفاء عموماً، والحد من الانحلال الجنسي ودعم الروابط الزوجية. وحُدّد عدد الزوجات بأربع بشرط أن يعدل الزوج بينهما، حتى في العلاقة الجنسية التي يعطيها الإسلام حقها من التقدير على العكس من النصرانية. أما المرأة التي كان ينظر إليها على أنها أقل مكانة من الرجل منذ القدم، ابتداءً بأرسطو وانتهاءً بالقديس بول⁽¹⁾، فقد أصبحت في الإسلام شقيقة الرجل، وتعدله فيما يتعلق بحق التملك. أما فيما يتعلق بالعبد، فلقد دعا الإسلام إلى الرفق بهم وحث على تحريرهم من الرق، في حين حرّم الخمر والقمار والربا⁽²⁾. وبغية وضع حدٍ نهائي لقضية الثأر التي كانت تشعل الحروب بين القبائل، نشأ نظام دفع "الدية" في حال القتل غير المتعمد، وحرّم وأد البنات. وبدعوة مؤثرة لتجاوز الحياة الدنيا، وجّه حياة المؤمن نظاماً كاملاً من الشعائر الإلزامية؛ الأخلاقية والقانونية؛ كلها تخضع لنفس الواجب الشرعي، وهو أن يحاسب الإنسان نفسه ليتمكن من الفوز بالجنة وينجو من الحساب. ونادى الإسلام بشدة - تذكّرنا بتعاليم النصرانية - بالمساواة بين الناس، دون تمييز طبقي أو عرقي: "كلكم من آدم وآدم من تراب"، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرَّكُمْ﴾⁽³⁾. وهكذا

(1) Aristote, Politique I, 1 (1) "أخضعت الطبيعة أحد الحيوانين للآخر. ففي كل الأجناس، يتفوق الذكر بوضوح على الأنثى: وليس هناك أي استثناء للجنس البشري" 1, 3: "في قانون الطبيعة، الذكر يفوق المرأة" و: "تكمن قوة المرأة في قهر صعوبة الطاعة". فيما يخص النصراني نذكر من بين آلاف الأمثلة ما يصعب روايته، قول القديس بول: "لا أسمع للمرأة أن تُعَلِّمَ أو تفرض رأيها على الرجل؛ بل عليها التزام الهدوء" (th 4, 41) وقول أغسطان: "أكثر الجنسين نبلاً هو الذكر"، La Cité de Dieu, XVI, 8.

(2) إن تحريم الربا ليس أمراً مبتدعاً في الإسلام؛ فلقد حرمه فيها مضي أرسطو: "... إنها النقود التي تجلب النقود، نوع من الربح يخالف تماماً الطبيعة" 2, Politique.

(3) القرآن سورة 49 (الحجرات) - آية 13. إن هذا التأكيد الحاسم للأخوة بين البشر، والدعوة السامية الخالية من أي عنصرية سيضرب به عرض الحائط تكراراً في المستقبل. فقبل غوينو، جعل المسعودي - صاحب المصنفات الغزيرة والمتعددة المواضيع - من نفسه داعية إلى "تباين الأجناس": "بعد أن مدح العرق الهندي، ذكر فيما يتعلق بالعرق "الأسود": "تركية عقله المضطربة وضعف ذكائه"، op. cit., t.I, p.68. وحتى ابن خلدون صاحب الفكر المميز والأب المؤسس لعلم الاجتماع الحديث، لم يخالف هذا الاتجاه فقد كتب: "السودان (الزنج)... أخلاقهم قريبة من خلق الحيوانات العُجْم"

وضعت مجموعة من القوانين المتطورة في كثير من النواحي، مقارنة بما كان سائداً في الجزيرة العربية وبما جاءت به النصرانية. هذه القوانين أصبحت فيما بعد نواة الشريعة الإسلامية. فالله، هو الرب العظيم القادر على كل شيء، ولكنه في نفس الوقت رحمان رحيم، وحده يستحق العبادة والحمد والثقة، ولا يكون الخضوع والاستسلام إلاّ له. وانقسم تاريخ العالم إلى قسمين: العصر الإسلامي وعصر الجاهلية: العصر الذي سبق الإسلام وعم فيه الجهل.

لم تدع الدعوة المحمدية أبداً أنها أتت بديانة جديدة، ولكنها أتت لتجدد الرسالات القديمة إلى البشرية التي تلقاها إبراهيم والأنبياء الذين تلوه موسى وعيسى.... ذلك لأن الديانتين الموحدين - اليهودية والنصرانية - قد حَرَفَهما مع مرور الزمن أتباعهما الذين لم يعودوا يتبعون التعاليم التي أرسلها الله في التوراة والإنجيل. إن رسالة محمد أتت لتكمل رسالات الأنبياء السابقين، ولتكون خاتمة لها. الإسلام آخر ديانة تبعث ليس فقط للعرب، ولكن للعالم أجمع. إنه الشكل الحقيقي والسامي والنهائي لديانة التوحيد.

مع تفاقم الانفصال بين النصارى واليهود الذين لم يعترفوا يوماً بأن الإسلام دين سماوي، تطورت شعائر من الوثنية العربية القديمة بعد أن أضيف لها طابع الدين الموحّد، مثل الحج السنوي والطواف حول الكعبة. ومن أجل أداء هذه المناسك طلب النبي فيما بعد من قريش السماح له وللمسلمين ببلوغ الحرم المكي والمناطق المجاورة. وأمر المسلمون بأداء خمس صلوات يومياً - في الحقيقة أمر الإسلام في القرآن بأداء ثلاث صلوات، وليس خمساً*) - لذا كان بلال، المؤذن الأول، يؤذن في المدينة على مرتفع قرب دار النبي داعياً المؤمنين إلى الصلاة.

أما فيما يتعلق بعلم الآخرة فلقد تحدّد مفهومه تدريجياً. ستقوم الساعة ويكون البعث - ولا يعرف أحد متى سيحدثان - عندما ينفخ في الصور بعد أن يموت كل من على الأرض. وما أن توزن السيئات والحسنات في الميزان السماوي، حتى يذهب الأشقياء إلى الجحيم، في حين يذهب السعداء المحسنون إلى جنات عدن، حيث تنتظرهم اللذات والمسرات الروحية والجسدية.

(*) صحيح أن الصلوات المذكورة في القرآن الكريم ثلاث، ولكن السنة النبوية وهي المصدر الثاني في مصادر التشريع عند المسلمين حددت عدد الصلوات بخمس و حددت أوقاتها وأحكامها وطريقة أدائها.

وحثت التعاليم السماوية - بلا شك - على الجهاد. فأصبح الموت مثاباً عليه، وعادت الحملات العسكرية من جديد، وعقدت تحالفات عديدة مع القبائل المجاورة. وفي نهاية السنة الهجرية السادسة، في آذار 628م، عزم النبي (ﷺ) مع فرقة من أتباعه، تتألف من سبعمئة إلى ألف وستمئة رجلٍ حسب الروايات، على أداء فريضة الحج، ولكن عندما وصلوا إلى الحديبية على بعد خمسة عشر كيلومتراً شمال غرب مكة، جرت محادثات بينهم وبين مندوبين قرشيين، واتفقوا على هدنة مدتها عشر سنوات. وعدل المسلمون مؤقتاً عن متابعة طريقهم باتجاه مكة، ولكن حصلوا على ضمان بأن يسمح لهم في العام المقبل بأداء عباداتهم فيها مدة ثلاثة أيام. وتذكر الروايات أنه أسلم في هذا الوقت شخصيتان كبيرتا القيمة في قريش، هما عمرو بن العاص الذي فتح مصر فيما بعد، وخالد بن الوليد الذي انتصر^(*) على المسلمين في أحد، وأحد الذين ساهموا في فتح سورية القريب.

بعد شهر من الحديبية، قاد محمد (ﷺ) جيشاً بألف وستمئة رجلٍ إلى واحة خيبر المكونة من سبعة حصون منتشرة في وسط البساتين، وحيث كانت القبائل اليهودية قد طورت زراعة النخيل. وحوصرت الحصون واحداً تلو الآخر وتمت السيطرة عليها. فكانت الغنائم كبيرة، واستملك المسلمون أراضي كان قد استأجرها اليهود وعملوا على زراعتها. في حين هادنت المستوطنات اليهودية الأخرى في المنطقة مثل مستوطنة فدك ووادي القرى وتيما، على أن يدفعوا الجزية ليتمكنوا من الاحتفاظ بأموالهم. وعبر ثلاثة آلاف رجلٍ من البدو الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، تحت قيادة زيد بن حارثة، ابن محمد (ﷺ) بالتبني^(*)، الحدود البيزنطية. وجرت معركة في مؤتة، في الجنوب الشرقي للبحر الميت، فلقى زيد وجعفر أخو علي وابن عم النبي (ﷺ) حتفهم. ورجع الجيش مهزوماً باتجاه المدينة بقيادة خالد بن الوليد. بعد وقت قصير أرسل النبي (ﷺ) عمرو بن العاص باتجاه الشمال ليعمل على دخول القبائل العربية الموجودة على الحدود السورية في الإسلام. وفي الأول من كانون الثاني عام 630م، لما خرقت قريش بعض بنود معاهدة الحديبية، اتجه النبي (ﷺ) بنفسه إلى مكة يقود جيشاً ضخماً تدعمه قبائل تميم وقيس وأسد قوامه عشرة آلاف رجل، وهو عدد كبير بالنسبة لشبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت. وتخلّى عن قريش من القرشيين العديد من الأشخاص

(*) قبل إسلامه.

(*) زيد بن حارثة هو مولى رسول الله ﷺ وليس ابنه بالتبني، فالتبني حرمه الإسلام.

منهم الصير في العباس - عم النبي (ﷺ) - وزعيم قريش، أبو سفيان. وفي يوم الخميس 11 كانون الثاني 630م، اخترق الجيش المسلم مكة بأربعة أرتال بدون قتال. بعد إحدى وعشرين سنة من بعثة الرسول، دخل الوثنيون العرب في الإسلام، وباع الجميع محمداً (ﷺ)، وبقيت ممتلكات وخيرات المكين على حالها. في حين حطمت التماثيل والآلهة الوثنية، إلا أنه لم يجبر أي شخص بالقوة على دخول الإسلام، دين المتصيرين.

أصبح باستطاعة محمد (ﷺ)، وريث السيادة القرشية، وحامي الكعبة ومسؤول الحج والتجارة المكية الكبيرة - وقد مجده انتصاراته الحديثة - أن يجابه تحالفاً قليلاً كبيراً وهو هوازن عدو قريش التقليدي، التي هيأت نفسها لخوض المعركة قلقاً من نمو واتساع السلطة الجديدة. وفي 31 كانون الثاني عام 630م، انتصر النبي (ﷺ) في حنين، ووزعت الغنائم الكثيرة وفق حسابات سياسية تهدف إلى تقوية ارتباط رؤساء قريش الحديث بالإسلام، إلا أن هذه القسمة أثارت انزعاج الأنصار من أهل المدينة الذين نُحُوا إلى الدرجة الثانية. ولما كان القرشيون من قبيلة النبي (ﷺ) وقد اعتنقوا الإسلام حديثاً وهم مدركون للمكاسب التي سيحصلون عليها من تغيير اتجاههم الحديث، جعلوا روابط الدم فوق كل شيء، وهذا يناقض تماماً ما كانت تدعو إليه رسالة النبي (ﷺ)، كما أنهم هيئوا أنفسهم ليؤدوا دوراً مهيمناً في قلب الأمة. فأصبح أبو سفيان سيد بني أمية وعدو الأمس، مستشار محمد (ﷺ)، في حين استلم ابنه يزيد ولاية تيماء، وأصبح معاوية - الابن الثاني لأبي سفيان - خليفة المستقبل ومؤسس حكم السلالة الأموية، سكرتير النبي (ﷺ) الخاص. هذه العودة إلى روابط الدم، وإن كانت تلوث المثل الإسلامي السامي في أنه دين عالمي، وفُرت الظروف السياسية لنجاح النبي (ﷺ) في العالم. وهكذا وفي وقت مبكر تعرضت السلطة الجديدة إلى نزاعات كامنة بسبب اعتبارات متعددة منها: رابطة الدم، والمهاجرون، والأنصار، والبدو، وأقدمية اعتناق الإسلام... إلخ. نزاعات كامنة أثرت في وجهة تاريخ الإسلام اللاحق^(*).

خلال السنتين التاليتين وللتين سبقتا موت محمد (ﷺ)، عملت السلطة الإسلامية في المدينة التي كانت المركز، على توسيع سيادتها في شبه الجزيرة العربية. وتذكر الروايات أن ممثلين أُسْتُقْدِمُوا من كل

(*) هذا الكلام غير دقيق، فالرسول (ﷺ) لم يعتمد على روابط الدم في اختياره للمسؤولين في دولته، ولكنه اختار عماله على حُسن إسلامهم وكفاءتهم. فمعاوية رضي الله عنه مثلاً كان من القلة الذين يجيدون القراءة والكتابة في عهد النبي (ﷺ)، وقد كان من كتبة الوحي، إضافة إلى ما اشتهر عنه من الذكاء والفطنة وحسن التدبير.

القبائل إلى العاصمة الجديدة للبيعة. حتى نجران في اليمن، المشهورة بكبر مجتمعها النصراني أرسلت وفداً بقيادة قسيسها، فأصبحت تحت حمى المسلمين مقابل دفع جزية سنوية، وهكذا أصبح على المسلمين أن يضمّنوا لها حمايتها من كل هجوم على أملاكها وأرواحها ودينها. وتعاملت مع محمد (ﷺ) قبائل عديدة من المنطقة المتوسطة لشبه الجزيرة (اليهامة)، ومن بينها قبيلة حنيفة النصرانية جزئياً وحليفة الساسانيين. وعقدت القبائل المؤمنة بطبيعة واحدة للمسيح مثل قبيلة بكر بن الوليد وتغلب القربيتين من الحدود الفارسية اتفاقاً سياسياً مع النبي (ﷺ). ومع أن شبه الجزيرة العربية لم تكن متحدة حقاً، فقد كان للنبي الذي امتدت سلطته في منطقة واسعة أتباع وأحلاف في كل المناطق فيها.

كانت قوات محمد (ﷺ) العسكرية كبيرة وقوية، فحوله كان المهاجرون والأنصار والعشائر والقبائل التي كانت تدخل الإسلام واحدة تلو الأخرى مثل: مزينة وجهينة وسليمة وكيرانة وقريش وثقيف... إلخ، فأصبح لمحمد جيش مسلم منظم ومتأهب دائماً. ودقت أجراس عصر الفتوحات، فبعد استسلام شبه الجزيرة العربية وخضوعها لم تعد تحقق له أي مغنم، وبعد أقل من سنة من فتح مكة، اتجه محمد - بذريعة الانتقام بعد هزيمة مؤتة - نحو سورية بجيش يضم كما تذكر المصادر ما بين عشرين ألفاً وثلاثين ألف رجل. ولما عرف النبي (ﷺ) في تبوك أن الجيش البيزنطي الذي كان قد خرج لقتاله قد انسحب إلى دمشق، أرسل خالد بن الوليد ليستولي على دوما (الجوف حالياً)، وقد كانت مركزاً قديماً جداً للقوافل وأحد أبواب سورية، في حين توجه هو بمعظم جيشه إلى المدينة.

وفي آذار 632م قاد محمد (ﷺ) بنفسه وللمرة الأولى الحج، وبصحبه زوجاته وأصحابه المخلصون، بعد أن نُظف الحرم المكي من كل أثر للوثنية. وبعد أن انتهت الشعائر عاد إلى المدينة، ولم ير بعدها مكة التي كان فيها مسقط رأسه مرة أخرى. فبعد شهرين مرض النبي (ﷺ)، على حين كان على أبواب المدينة جيش يتجهز للرحيل باتجاه تخوم الدولة البيزنطية، وقد سلّم قيادته لأسامة بن زيد - ابنه من عبدة حبشية محررة - برغم إستياء صحابته الكبار^(*). وفي 8 حزيران 632م، انتقل النبي (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى دون أن يعين خليفته، واحتدت المنافسة بين عناصر الأمة المتنوعة من

(*) من الثابت في السنة المظهرة والسيرة النبوية ولدى جميع المؤرخين أن أسامة هو ابن زيد بن حارثة مولى النبي (ﷺ)، ولكنه كان من المقرين إليه، وكان يُدعى حبّ الرسول وابن جبه رضي الله عنها، ولم يُعرف في التاريخ أن كبار الصحابة قد استأثروا من تعيين أسامة بن زيد قائداً للجيش، بل إن أبا بكر رضي الله عنه لما عُين خليفة بعد وفاة النبي (ﷺ) خرج راجلاً يودع جيش أسامة حتى مشارف المدينة.

مهاجرين وأنصار وبدو... والتي كانت حتى موته (ﷺ) مكبوتة بهيئته العظيمة، واتقد الخلاف بين الالتزام بقواعد الإسلام وبين عادات الجاهلية، وأصبحت الأمة المسلمة مهددة بالانحيار، فالكل يرغب أن يستلم الإرث لصالح عشيرته أو مجموعته، فعَمَّ الاضطراب. كتب المؤرخ الطبري⁽¹⁾: "لم يكن جسد النبي قد غُسل بعد عندما بدأ الانشقاق في المدينة". وأثناء الليل وبعد مناقشات طويلة وحادة، عُين أبو بكر، صاحب الرسول الأول، رئيساً للأمة المسلمة، حاملاً لقب "خليفة رسول الله"، وقد تأذى من هذا التعيين كل من كان يمني نفسه بالخلافة وخاصة أقرباء الرسول (ﷺ) مثل علي - الذي كان صهره - والعباس عمه^(*).

بعد حكم استمر عامين، قمع أبو بكر بحدة الردة التي كادت أن تنتشر بين القبائل بعد وفاة النبي، وفرض الإسلام بالقوة على كل شبه الجزيرة. ولكن أهم ما قام به هو أنه بعث لفتح سورية جيشاً عظيماً قد دربته عشر سنوات من القتال. وكانت هذه بداية الجهاد كحركة ضخمة من الفتوحات استمرت ما يقارب قرناً من الزمن، هدفها المعلن عدم إجبار الناس على دخول الإسلام، وإنما تحقيق سيادة الله على الأرض. وامتدت هذه الفتوحات من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، فكانت أكبر إمبراطورية على وجه الأرض لم يُعرف لبريقها مثيل إلا في حملات الإسكندر أو نابليون بونابارت. وفي 30 حزيران عام 634م انتصر جيشٌ من عشرين ألف رجل مقسم إلى عدة كتائب يقوده عمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة وخالد بن الوليد وأبو عبيدة ويزيد ومعاوية - ولدا أبي سفيان - على الفرق البيزنطية التي كان يقودها ثيودور صهر الإمبراطور هرقل. وكان هذا أول نصر في أجنادين من أرض فلسطين، وانفتح بذلك الطريق إلى سورية. وانضمت إلى الجيش الفاتح فرق من قبيلتي الغساسنة واللخميين بعد أن قطعت ارتباطها بالإمبراطورية البيزنطية والساسانية، وكانت قد دعمته كتائب عديدة من اليمن. وبعد أقل من شهر في 23 آب توفي أبو بكر. وبويع عمر بن الخطاب خليفة، وقد كان أحد أهم مستشاري الخليفة الراحل، ومن أصحاب الرسول ووالد حفصة زوجة النبي (ﷺ). إضافة إلى لقب "الخليفة" الذي يوحي بفكرة الإنابة، أضيف لقب "أمير المؤمنين" إلى رئيس الدولة ليدل على سيادة أعظم. واستمر الفتح الإسلامي الذي قرره وأعدّه أبو

(1) الطبري، نفس المرجع اسبق له، ص 349.

(*) كان أبو بكر رضي عنه أحق الناس بالخلافة، فلقد اعترف بفضلته وبايعه كبار الصحابة مثل علي والعباس وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين.

بكر، ولكن بقوة وعزيمة أكبر، فهو بالأساس إنجاز عمر الذي أقام أثناء حكمه الذي استمر عشر سنوات نظاماً سياسياً قامت عليه الخلافة أكثر من قرنين، فكرته الأساسية هي أن على العرب أن يكرسوا أنفسهم للجهاد، في حين يجب على الشعوب الخاضعة لهم والتي بقيت في أراضيها أن تسد حاجاتهم، وذلك بدفع ضريبة على الأرض وهي الخراج، وضريبة الأعناق وهي الجزية التي كانت تؤخذ فقط من الرجال البالغين القادرين على حمل السلاح. مقابل هذه الضرائب كان على الأمة الإسلامية أن توفر الحماية والدفاع عن أهل الذمة - أي "المحميين" - من كل هجوم خارجي. هذا النظام كان ينطبق على أهل الذمة وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، في حين لم يكن للمشركين وعبد الأوثان الخيار إلا بين اعتناق الإسلام أو العبودية أو الموت.

واحتل الجيش المسلم بعد نصر أجنادين غزة وتابع مطاردته للجيش الروماني إلى ما خلف نهر الأردن. وبعد نصر جديد في كانون الثاني عام 635م، في المناطق المجاورة لفحل، خضعت طبرية ومدن الائتلاف العشر^(*). وفي 25 شباط عام 635م انهزم البيزنطيون من جديد في المناطق المجاورة لدمشق، في مرج الصفر "مرج الطيور". وبعد خمسة عشر يوماً من احتلال كل الغوطة، حاصر الجيش المسلم دمشق، فتمركزت قوات خالد بن الوليد قرب الباب الشرقي، وأبو عبيدة قرب باب الجابية، ويزيد بين الباب الشرقي وباب كيسان، وعمرو بن العاص قرب باب توما وشرحيل قرب باب الفراديس. وبعد حصار دام ستة أشهر استطاعت في نهايته الحامية البيزنطية من الهرب، سلم المدينة إلى خالد بن الوليد أحد وجهاء دمشق، الأسقف حسب بعض المصادر، أو منصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي حسب مصادر أخرى. فدخلت كتائب خالد بن الوليد دمشق من الباب الشرقي، والتقت بكتائب أبي عبيدة التي دخلت من باب الجابية في الشارع الطويل، قرب كنيسة المقصلة. واستطاع أهالي دمشق والغوطة بعد دفع الخراج والجزية أن يحتفظوا مسرورين بأربع عشرة كنيسة ومعبدًا يهوديًا⁽¹⁾. وذلك إضافة إلى كامل الحرية في ممارسة دينهم، أصبح يحق لأهالي دمشق منذ ذلك الوقت أن يستلموا وظائف في الدولة كانت محرمة عليهم في زمن الإمبراطورية البيزنطية بسبب كونهم ملحدين. بعد خمسة عشر عاماً تقريباً كتب قس نسطوري معبراً عن تقديره

(*) تحالف عشر مدن فلسطينية تقع في شرق نهر الأردن، وقد دام من القرن الأول قبل المسيح وحتى القرن الثاني ميلادي.

(1) ابن عساكر، وصف دمشق، مترجم للفرنسية

Ibn 'Asakir, La description de Damas, tr. fr. N. Elisséff, Damas, IFD, 1959 a.d, p. 219.

لسماحة الإسلام: "هؤلاء الطائيون⁽¹⁾ الذين منحهم الله الهيمنة في أيامنا هذه، فأصبحوا ساداتنا، لم يجاربوا أبداً الدين النصرافي، بل هموا معتقداتنا واحترموا رهباننا وقديسينا ومنحوا الهبات لكنائسنا وأديرتنا"⁽²⁾. بعد الاستسلام رحل عدد كبير من الشخصيات البيزنطية الإدارية لتنضم إلى هرقل في أنطاكية، فشغل الضباط المسلمون منازلهم الشاغرة والكثيرة. يذكر مؤرخ دمشق من القرن الثاني عشر وهو ابن عساكر أن الذين حاربوا المسلمين لم يكونوا إلا أقلية صغيرة جداً⁽³⁾، وهم إثنا عشر قساً بيزنطياً كلدونياً حجزهم المنتصرون في دوائرهم، فهربوا بعد وقت قصير وتخلوا عن مساكنهم، فوهبت كإقطاعيات لوجهاء القوم⁽⁴⁾. ولم يمر وقت طويل حتى ظهر أول بناء إسلامي، وذلك "في مقبرة باب توما قرب نهر مجدول"⁽⁵⁾، وهو مسجد بني في المكان الذي صلى فيه خالد بن الوليد أثناء الحصار، فكان هذا أول جامع - كما يذكر ابن عساكر - تقام فيه الصلاة في دمشق⁽⁶⁾. عرف هذا الجامع باسم الفاتح خالد بن الوليد، وقد رمم عدة مرات في العصور الماضية، إلا أنه حالياً خرب وأصبح جزءاً من مصليات مقبرة الشيخ رسلان⁽⁷⁾. وكانت مقبرة باب توما هي الأخرى أول مقبرة للمسلمين في المدينة حيث دفن المقاتلون الذين ماتوا أثناء الحصار⁽⁸⁾.

وقضى معظم الجيش الشتاء في منطقة دمشق، في حين أتمت عدة حملات عسكرية فتح المناطق المجاورة مثل الجولان وبطانه وهوران. ولم تكن المدينة القديمة لسورية الوسطى (دمشق) - التي تغنى بها شعراء الجاهلية كثيراً في أشعارهم - غير معروفة للعرب، ومع هذا لم تستهو دمشق محاربي شبه الجزيرة الخنسين، إذ كان أكبر تجمع لهم في سورية في حاضر الجابية بحوران، حيث استقرت وتحضرت القبائل تحت الخيام وأكوخ من الطين والقصب.

(1) أي العرب، كان يدعى العرب في الأدب السرياني بالطائيين نسبة إلى إحدى كبريات قبائلهم.

(2) M. de Goeje, Mémoire sur la conquête de la Syrie, Leyde, Brill, 1900 a.d, p. 106. ذكره هذا

(3) Ibn 'Asakir, op. cit., p. 219.

(4) نفس المرجع الأخير، ص 219. بقيت دمشق على العكس من كل سورية مغلصة للمذهب القلدوني.

(5) نفس المرجع الأخير، ص 148.

(6) نفس المرجع الأخير، ص 148.

(7) infra ص 178.

(8) نفس المرجع الأخير، ص 309.

لما عرف المسلمون أن جيشاً قوياً لا يقل عن عشرين ألف رجل قد غادر أنطاكية، وهو يزحف باتجاه دمشق، غادروا المدينة وانسحبوا إلى جنوب شرق بحيرة طبرية إلى ضفاف اليرموك، حيث استطاع المسلمون في 20 آب عام 636 ميلادي - على قلة عددهم نسبة لأعدائهم - أن ينتصروا انتصاراً ساحقاً. فلما وصل الخبر إلى هرقل في أنطاكية عن هزيمة جيوشه قفل عائداً إلى القسطنطينية، وزحف الجيش المسلم مباشرة إلى دمشق التي جرى احتلالها للمرة الثانية بعد مقاومة صغيرة من قبل بعض الكتائب البيزنطية. يذكر المؤرخ محمد بن شاعر أن خالد بن الوليد، بسبب حرصه على إعطاء المسلمين مكاناً للصلاة أكثر توسطاً وفخامة من المسجد الصغير الذي بناه في مقبرة باب توما، ما إن دخل المدينة حتى أعد مسجداً في الجزء الجنوبي الشرقي للمنطقة المجاورة لكنيسة القديس يوحنا المعمدان، احتفظ باسم مسجد الصحابة إلى أن هدم في بداية القرن الثامن الميلادي وبني مكانه المسجد الكبير بأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك. وكان المسلمون والنصارى يدخلون المنطقة المجاورة للكنيسة من نفس الباب الأثري ذي الكُوات الثلاث المحفورة في الحائط الجنوبي لساحة المعبد، فمن أراد أن يصل إلى المسجد عليه أن يتجه إلى اليمين، ومن أراد أن يصل إلى الكنيسة فيلإ اليسار. وهكذا كان المسلمون يصلون مقابل الجزء الجنوبي الشرقي لساحة المعبد، حيث يوجد حالياً محراب مسجد الوليد الذي مازال يسمى بمحراب الصحابة محتفظاً بذكرى أول بناء في المكان. ولقد كان مكانا العبادة قريين، ثم إن النصارى - يضيف ابن شاعر - لم يكونوا يجرؤون، احتراماً منهم وخوفاً واعتباراً للمسلمين، على قراءة كتابهم بصوت عالٍ أو قرع أجراسهم⁽¹⁾.

بعد الاستيلاء على دمشق أنجزت الجيوش الإسلامية الفتح، واتجه أبو عبيدة، الذي رُقي إلى والٍ على سورية، إلى حمص وشالسي ووصل إلى منجب على الفرات. واتجه عمرو بن العاص ليحاصر القدس التي لم يستطع السيطرة عليها إلا عام 638م بعد مقاومة استمرت عامين، في حين توجه يزيد وأخوه معاوية ليفتحوا المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى: صيدا وبيروت وجبيل. وبعد استسلام القدس مباشرة، وجه يزيد جيوشه إلى القيسارية، وقد كانت موقعاً ساحلياً قوياً. وفي عام 639م، أصيب أبو عبيدة بوباء الطاعون الذي سبب موت خمسة وعشرين ألف شخص في سورية، فدفن في

(1) قصة مسجد دمشق - محمد بن شاعر - ذكر هذا

Quatremère, E.-M. La mosquée de Damas d'après Muhammad b. shakir..., Histoire des Sultans Mamelouks de l'Egypte, Paris, B. Dpurat, 1837-1845 a.d, t.II, I, p. 263.

دمشق وحل محله يزيد الذي أصيب بنفس المرض فلم يعيش بعده إلا قليلاً. فتولى الحكم في سورية معاوية الذي كان - كما يذكر المؤرخ بلاصوري - مميزاً جداً وترك انطباعاً قوياً أثناء حملاته العسكرية الحديثة⁽¹⁾، وتابع حصاره لقيسارية التي لم يستطع السيطرة عليها - لكونها تتلقى المعونات عن طريق البحر - إلا في عام 641م. وبعد وقت قصير فتحت عسقلان، وأصبح المسلمون سادة سورية نهائياً. وقد قال خالد بن الوليد ليعبر عن سهولة الفتح: "لقد استسلمت سورية تحت قبضة الإسلام، كما يستسلم الجمل"⁽²⁾. وجاء الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه إلى سورية "مرتدياً رداء بسيطاً من القماش الخشن، وقد كان ممزقاً من الخلف بسبب الاحتكاك ببردة الناقة"⁽³⁾، ليستلم مفاتيح البلد مهيباً أثناء الرحلة التي استمرت أربعة أشهر تفاصيل التنظيم الإداري والعسكري. واعتبرت كل الأراضي ملكية لا تتجزأ من الأمة المسلمة، ليس لمحتلها إلا حق الانتفاع بعد دفع الخراج عيناً أو نقداً. فلم تتغير حياة الفلاحين مطلقاً، لأنه منذ زمن طويل والأرض في سورية ومصر وتخوم العراق تعد من ملك الدولة والمزارعون ليس لهم إلا حق الانتفاع وذلك بدفع الإتاوات. ووضع سجل ديوان العطاء، الذي كان يقدر ويوزع ويدير النفقات المخصصة للمحاربين بكيفية دقيقة جداً ووفقاً للتسلسل والأقدمية في الإسلام. وانقسمت سورية إلى أربعة أجناد "مقاطعات عسكرية" توافق تقريباً التقسيم الإداري البيزنطي القديم: وهي جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص.

بعد زمن قصير من تعيين معاوية والياً على سورية، بنى في دمشق "جنوب مسجد الصحابة"⁽⁴⁾ مقراً لتعلوه قبة خضراء، كان من المفروض أن يسميها باسمه فسماها الخضراء، ومازال الحي المحيط بها يسمى بنفس الاسم حتى اليوم. في الحقيقة لم يكن هذا إلا إعادة بناء كبيرة إلى حد ما لمقر الحاكم البيزنطي القديم المبني في الزاوية الجنوبية الشرقية للساحة الخارجية لمعبد جوبيتر⁽⁵⁾. وقد أعدت وصلة

(1) Baladhuri, A. The Origins of the Islamic State, new-York, Columbia University, 1916-1924 a.d, t. 1, p. 180.

ترجمة للإنكليزية لكتاب فتح البلدان

(2) Cf. de Goeje, op. cit., p. 103.

(3) Tabari, Les quatre premiers califes, Extrait de la chronique, Paris, Sindbad, 1981 a.d, p. 185

تركز الترجمة كثيراً على نقش عمر بن الخطاب.

(4) ابن شاعر، ذكر هذا Quatremère, E.-M., op. cit., p. 263.

(5) supra, p. 80.

مباشرة، "ممر مغطى" - لأسباب أمنية بلا شك - بين الخضراء ومسجد الصحابة. يذكر ابن عساكر طرفة حول البناء، وذلك أنه عندما بُني هذا المقر أول مرة "كان معاوية قد بناه من الحجر، فعندما انتهى بناؤه وصل رسول من الإمبراطورية البيزنطية. فلما فحص البناء، طلب منه الخليفة رأيَه، فأجاب الرسول: "ينفع الجزء الأعلى للطيور، والجزء الأسفل للفئران". فأمر عندها معاوية بهدمه وبناءه من جديد بالحجارة"⁽¹⁾. وتذكر بعض المصادر أن المبنى كان مؤلفاً من جزأين، واحد للخليفة وعائلته وآخر للاستقبال.

في الوقت الذي كانت فيه سورية خاضعة للجيوش الإسلامية انطلقت هذه الجيوش لفتح الإمبراطورية الساسانية. احتلت الحيرة عام 633م، وفي حزيران 637م فتح للمسلمين نصرُ القادسية في جنوب غرب الحيرة أبواب العراق. وعندها أسس المسلمون أول مدينة لهم وهي البصرة فوق الموقع السابق لمخيم عسكري أسس قبل سنتين، وبعد شهرين احتلوا ستيزيفون السلوقية، العاصمة الشتوية للساسانيين، فلم يستقروا فيها و أسسوا مدينة ثانية هي الكوفة. وفي عام 642م، فتح لهم انتصار نهاوند فيما وراء جبال زاغرو الطريق إلى أصفهان في السهل الإيراني. ولكي يحتفظ الوجهاء القرويون وأصحاب الإقطاعات الكبيرة بأملاتهم قبلوا بدفع ضريبة، ولم يعد هناك ما يعترض طريق الجيوش الإسلامية. وفي عام 643م، احتلت إصطخر - مكان الإقامة الصيفي للساسانيين - القريبة من برسيبولس القديمة. وفي عام 651م سقطت خراسان في أيدي المسلمين، في حين قُتل يزيد جرد آخر عاهل ساساني، وذلك بالقرب من مرو في طاحونة كان قد اختبأ فيها. وفي نفس السنة، وصلت الجيوش المسلمة إلى الضفة الجنوبية لأموداريا، نهر أوكسس، حيث احتكت لأول مرة بالأتراك.

وبدأت العمليات العسكرية متأخرة بعض الشيء في الغرب، ففي كانون الأول 639م، اتجه عمرو بن العاص - البطل الأسطوري للملحمة الإسلامية - ذاك الذي يلقب بـ "داية العرب"⁽²⁾، إلى مصر يقود جزءاً كبيراً من فرق الجيش في سورية، ليكون ذلك بداية فتح شمال أفريقيا، فاحتل مدينة بابل المحصنة، والإسكندرية في العام التالي. وفي عام 645م حقق المسلمون انتصاراتهم البحرية الأولى على الأسطول البيزنطي، وأصبح البحر الأبيض المتوسط تدريجياً بحراً عربياً، حيث - كما يذكر أحد

(1) ابن عساكر، نفس المرجع الأخير له، ص 228.

(2) Tabari, Les quatres premiers califes, p. 161. الطبري.

المؤرخين - لم يعد في إمكان الأمة النصرانية أن تعومّ لوحاً من الخشب⁽¹⁾. وفي عام 647م انهزم البيزنطيون في أفريقية "تونس مستقبلاً" في أرض قرطاجة القديمة.

في 3 تشرين الثاني عام 644م، طعن عبدُ نصراني لحاكم البصرة، الخليفةَ عمر بن الخطاب الذي يعتبره التاريخ الإسلامي تجسيداً لأجمل الفضائل في الإسلام. فعقدت الشورى أي المجلس الاستشاري الانتخابي، وبعد مناقشات حادة بويح عثمان بن عفان خليفةً خلفاً لرأي الهاشميين. كان عثمان بن عفان الذي تعتبره الروايات مثلاً للجمال والأناقة وتاجراً غنياً من عائلة مكية هي بنو أمية، وهو من أوائل المعتنقين للإسلام من بين الطبقات الاجتماعية العليا⁽²⁾، وقد تزوج ابنتي النبي (ﷺ)، أولاً رقية، ثم بعد موتها أمّ كلثوم. وفي أثناء حكمه، تزايد الاستياء واحتدت الخلافات ضمن الأمة، إذ أتهم عثمان بتعيين أفراد عائلته حكاماً للمدن والمقاطعات، وبأنه لم يكن يخصص مجموع غنائم الفتح للجنود، بل كان يخصص جزءاً منها لأقاربه وللحكام، منمياً بهذا الأسلوب نظام الإقطاع الذي كان قد عمل به عمر من قبل. وباختصار اتهم عثمان بالمساهمة في تحويل السلطة المسلمة إلى نظام ملكي مطلق على النمط الشرقي، فجذب لنفسه عداوة أصحاب النبي (ﷺ)، الذين كان معظمهم من أصول متواضعة أو عبيداً أصلاً، وهم قُراء القرآن وحفظته، لذا كان لهم تأثير كبير في الناس وكانوا مستقلين إلى حد بعيد عن السلطة المركزية. وبدون أي شك عمد عثمان لكي يخفف من حدة تأثيرهم ويدعم الوحدة ويقوي سلطة الدولة إلى إعداد نسخة رسمية للنصوص القرآنية⁽³⁾. وبدأت في العراق حركات تمرد وخاصة في الكوفة يقودها القراء، ثم في مصر. وفي عام 655م تسلسل متمردون أتوا من مصر إلى المدينة المنورة، فانتشرت الفوضى فيها. وحوصر منزل الخليفة، ولكنه رفض الاعتزال. وفي حزيران 656م خلعت جماعة متآمرة يقودها ابن أبي بكر باب منزل الخليفة، واغتيل وهو مستغرق في قراءة القرآن. وفي وسط فوضى مخيفة تشكلت جماعة نصبت نفسها مجلساً للشورى وبايعت علياً قائداً للأمة، واستمرت الوحدة السياسية والدينية للإسلام، ولكن بدأت

(1) Cf. Wiet, G., L'Empire néo-byzantin des Omayyades et l'Empire néo-sassanides des Abbassides, Cahiers d'histoire mondiale, 1953 a.d, p. 66.

(2) انظر المرجع السابق ص 84.

(*) إن الدافع لجمع القرآن كان حفظه من الضياع والتحريف، خاصة وأن عدداً من الصحابة حفظوا القرآن كانوا قد توفوا. ويعتبر جمع القرآن - بإجماع الأمة - من أكبر مآثر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

مرحلة الانشقاق والحروب المدنية "الفتنة الكبيرة" التي أدت آخر المطاف إلى نصر بني أمية وعلى رأسهم معاوية، واغتيال علي وانتقال مركز الخلافة من المدينة إلى دمشق.

رفض علي في البداية استلام السلطة، ولكنه تقلد الحكم في 24 حزيران 656م في مسجد النبي (ﷺ) في المدينة بعد خمسة أيام من رفضه له. كانت مدة حكمه القصيرة جداً مسرح اصطدامات مستمرة، وبعد أن هُزم في 9 كانون الأول 656م قرب البصرة في معركة الجمل، قوات طلحة والزبير وعائشة أمثلة النبي (ﷺ)، صعد محاذياً الفرات واتجه لقتال معاوية الذي كان يطالب بالانتقام لموت ابن عمه عثمان. والتقى الجيشان قرب الرقة في سهل صفيين حيث استمرت المناوشات مدة تزيد عن مئتي يوم خلال صيف عام 657م. وكاد علي أن ينتصر، إلا أن دهاء عمرو بن العاص غير من مجرى الأحداث، إذ علق الجنود السوريون خمسمئة نسخة من القرآن على رماحهم مطالبين بالهدنة وبحكم الله، فقبل علي التحكيم. ولجأ عمرو بن العاص إلى الحيلة من أجل الماطلة، وأعلن أن من حق معاوية أن ينتقم لمقتل عثمان واتهم علياً بالمساهمة فيه. فعزل علياً وخانه قسم من جيشه، وتراجع إلى الكوفة، في حين طالب جيش معاوية بتعيينه خليفة.

شهدت صفيين تجزؤ الأمة المسلمة إلى ثلاث فئات شهد التاريخ الإسلامي صراعها إلى أيامنا هذه. أولاً الخوارج - أنصار علي في الأصل - الذين رفضوا خدعة عمرو بن العاص فصrchوا بوضوح بأن "الحكم لله وحده"، فغادروا ساحة المعركة في صفيين، وتحولوا المضادة بطل الأمس، واستمروا بعد موته في معاداة الأمويين. والخوارج صارمون ومتزمتون ومن أنصار المساواة المتشددين، فكل مؤمن من وجهة نظرهم يمكن أن ينتخب خليفة "ولو كان عبداً أسود". والفئة الثانية هم الشيعة الذين يرون أن قيادة الأمة لا يمكن أن تكون إلا في أيدي سلالة علي الذي يعتبرونه مقدساً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى. وأخيراً كل ما تبقى من المسلمين وهم أهل السنة. في 21 كانون الثاني 661م جرح علي جرحاً قاتلاً بعد أن ضربه أحد الخوارج بالسيف في جبهته في مسجد الكوفة، حين كان يتهيأ للزحف على سورية، وبعد ثلاثة أيام توفي فبايع الشيعة ابنه الأكبر الحسن خليفة. ولكن الحسن تخلى عن طموحاته في الخلافة بكل سهولة، وخاصة بعد أن استلم من معاوية مبلغاً كبيراً من المال، ووعد عائدات منطقة كاملة في فارس مدى الحياة. وهكذا انتهى نظام الدولة الدينية الذي ولد في حياة محمد (ﷺ)، واستمر مع الخلفاء الأربعة الذين تدعوهم الروايات

بالراشدين. وأصبح معاوية - أول خليفة ليس من أصحاب النبي الأوائل، ومؤسس حكم سلالة الأمويين التي استمرت حتى 750م - السيد الوحيد للأمة المسلمة.

خلال عشرين سنة من حكم معاوية في سورية، جعل منها أفضل المقاطعات إدارة، وجعلها بأحسن الفرق العسكرية، إضافة إلى أنه أحاط نفسه بأناس مخلصين جداً. وما أن تولى معاوية الخلافة حتى جعل من دمشق عاصمة الإمبراطورية، ونقل إلى دابق في شمال حلب معسكر الجابية حيث تمركز معظم الجيش السوري احتياطاً من عودة الهجوم البيزنطي. وأسقط المقاطعات التي كانت تعترف بعلي، وعمل جاهداً على إعادة وحدة الخلافة. وحرص معاوية على تنظيم الجيش الذي كان شديد الإخلاص له، وكانت غالبية من اليمنيين، وسهر بنفسه على تجهيز الفرق العسكرية ودفع أجورها التي كانت مرتفعة جداً. ولما كانت رغبته شديدة في السيطرة على الترسانات البحرية في الإسكندرية وعكا وصور وطرابلس نظم أسطولاً تقوده كوكبة من المهرة. واحتل قبرص ورودرس، في حين حاصر ابنه يزيد القسطنطينية مرتين. وتابع قواده توسيع الإمبراطورية، ففي كل سنة كانت الحملات العسكرية تتوغل أكثر فأكثر وراء جبال طوروس في الأراضي البيزنطية. وفي عام 668م ظهرت الجيوش المسلمة للمرة الأولى على الضفة الشرقية للبوسفور. أما من الناحية الإدارية فلكي لا يقع معاوية في خطأ عثمان وضع على رأس كل مقاطعة أكثر الحكام أهمية، من الذين لا ينتمون إلى بني أمية. واستطاع بدفع إعانات مالية ضخمة أن يحصل على حياد أفراد عائلة النبي من العلويين والهاشميين. ولما كان حريصاً على شؤون الحجاز حيث مازال كبار بني أمية مستقرين، فإنه أنشأ نظام البريد بين المدينة المنورة ودمشق. أما فيما يتعلق بالنصارى، فقد لجأ إلى سياسة الانفتاح والتسامح، وخاصة مع اليعقوبيين الذين يقول عنهم ابن عساكر بأنهم كانوا: "مفضلين خاصة"⁽¹⁾، وذلك على حساب البيزنطيين الإغريق. هذا وقد تابع معاوية سياسة سابقه عمر بن الخطاب، فعمل على مراقبة الموظفين عن طريق شبكة حقيقية من الجواسيس. ولأنه كان مرتاباً في أفراد عائلته نفسها، فقد اعتمد على الطبقة الوسطى من قريش ولجأ فيما يتعلق بالقبائل البدوية في صحراء سورية - التي كانت حصن الأمويين - إلى سياسة التقرب بزواجه من ميسون من قبيلة كلب الكبيرة. وعرف معاوية كأموي حقيقي وابن تاجر كيف يستفيد من خبرة بني سرجون - الذين كانوا موظفين قداماء في

(1) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 219.

الإمبراطورية البيزنطية، وهم أجداد القديس يوحنا الدمشقي - في تنظيم مالية الدولة. وشكلت وزارة المالية التي كان يرتبط بها ديوان الإقطاع. والمقصود بالإقطاع هو امتيازات عقارية ممنوحة من الأراضي غير المحسنة، والتي كان يدفع أكثرها مردوداً إلى الخزينة ضريبة يمكن أن تصل إلى خمس عائداتها طبقاً للقانون البيزنطي. فزادت مساحة الأراضي المزروعة وعائدات الدولة زيادة كبيرة، وأولى اهتماماً خاصاً لتطوير الزراعة واستصلاح شبكة الري. وهكذا عرفت سورية في ظل حكم معاوية وخلفائه مستوى من الازدهار لم تعرفه بعدهم.

إضافة إلى قصر الخضراء⁽¹⁾ بنى معاوية في دمشق مكتبة "بيت الحكمة" ضمت كتباً جمعت أثناء الفتوحات، وكذلك مدونات كتبها أو أملاها العلماء العرب. وكرس حفيده خالد بن يزيد حياته للعلم وأغنى بيت الحكمة بمؤلفات في الكيمياء وعلم الفلك والطب والفلسفة. وقد كان في دمشق ميدانان للخيول أحدهما في الجنوب هو ميدان الحصى، وآخر في الغرب على طول نهر بردى وهو الميدان الأخضر، حيث كان يساهم في مسابقات جري الخيول متسابقون يأتون من جميع أنحاء الإمبراطورية. ولما كان معاوية مدركاً أن مسجد الصحابة المجاور للزاوية الجنوبية الشرقية للمعبد لم يكن يمثل بأي وجه من الوجوه الديانة التي تمتد سلطتها على أكبر مساحة في العالم المعروف حاول - دون أن ينجح - الحصول من السلطات الكنسية على تنازلها عن كنيسة القديس يوحنا المعمدان⁽²⁾. ولكي يضمن سلامته أنشأ معاوية في مسجد الصحابة مقصورة مغلقة مخصصة للعاهل.

يؤكد القس الغولي أركولف الذي زار الأرض المقدسة في نهاية حكم معاوية خلال زيارة قصيرة لدمشق، وجود مكانين للعبادة منفصلين، وقد كتب: "تقع دمشق في سهل محاط بأسوار عالية وعريضة ذات أبراج عديدة، ويسقيها أربعة أنهار كبيرة، وتشاهد خلف الأسوار مزارع الزيتون من كل الجهات. لقد حصل ملك المسلمين على ملكية هذه المدينة وأقام فيها ملكه، وتحتوي دمشق على كنيسة كبيرة كُرسَتْ للقديس يوحنا المعمدان يرتادها النصارى، ولقد بنى المسلمون الكفرة مسجداً كبيراً فيها"⁽³⁾.

(1) انظر المرجع السابق ص 95.

(2) البلاذوري، نفس المرجع، الجزء الأول ص 191 - 192.

(3) Cf. Wright, T., Early Travels in Palestine, London, 1848 a.d, p. 10

الأنهر الأربعة المذكورة هما بردى و بانياس وتوره والقنوات.

انشغل معاوية - في نهاية ملكه رغبة منه في تجنب فتنة جديدة - بتأمين خليفته ليضمن الاستقرار للإمبراطورية. ونجح برغم مخالفته لمبدأ الانتخاب في الإسلام، وبرغم العديد من الاعتراضات في إقناع القادة العسكريين ورؤساء القبائل والوجهاء المحيطين به، بالاعتراف بابنه الأكبر من زوجته ميسون الكلبيّة، يزيد، وريثاً له في الحكم. ومات معاوية في دمشق في نيسان عام 680م، ودفن في مقبرة الباب الصغير حيث ما يزال قبره هناك. يشهد الرحالة الموسوعي المسلم المسعودي الذي أقام في دمشق عام 945م زمن العباسيين على التقدير والتبجيل الذين كان المسلمون يكتونهم لذكراه، فكتب: "إلى اليوم مازال المسلمون يزورون قبره حيث بني فوقه بناء مفتوح دائماً لاستقبال المحبين له يومي الاثنين والخميس"⁽¹⁾. ويذكر الأب هنري لامن أنه "نادراً ما يسأل عنه" في بداية القرن العشرين⁽²⁾.

لقد كان معاوية المؤسس الحقيقي للدولة العربية المسلمة بدون أدنى شك، وواحد من أكبر الملوك في التاريخ الإسلامي، فلم يكن له مثل في بلاغته ودهائه وذكائه وحلمه، وذلك المزيج الثمين من التحكم بالذات والرأفة وعزة النفس واليسر والأناقة. وتتضارب الروايات حول معاوية؛ فتلوم بعضها - ومن ضمنهم أهل السنة - لأنه حول الحكم من النظام الانتخابي الذي كان سائداً في عهد الخلفاء الأربعة الشرعيين إلى نظام ملكي، أي نظام يتوارث فيه الأبناء من نفس السلالة الملك، ولأنه حول السلطة العليا الدينية إلى ملك عضوض في أيدي عائلته. أما الشيعة فهم أشد قسوة، ويلومونه إضافة إلى هذا على أنه كان أول من بادر إلى عداوة علي، وسمح بلعنه على المنابر، ولأنه تحامل على عائلة النبي (ﷺ)، وسجن الحسن ليمهد لابنه الوصول إلى السلطة. وها هو أحد أعدائه من الخوارج⁽³⁾ يصرح قائلاً: "لقد جعل عبيد الله مستخدمين له، ومال الله أداة لسيطرته، ودين الله وسيلة إبادة". وكان غالباً ما يلقب هو وذريته "بعبدو الدين". كما تجنب المثقفون في بغداد القرن التاسع لفظ اسمه لكي لا يندسوا أنفسهم بنطقه، في حين لم يتوقف في سورية تبجيله أبداً، كما يشهد الطبري الذي ذكر أن الخوف من توحد السوريين حول ذكره كان يقلق الخليفة العباسي المأمون (786 - 833م). وكان

(1) المسعودي، البراري الذهبية، "Les Prairies d'or" Paris, Geuthner, 1989 a.d., الجزء الثالث ص 703.

(2) Lammens, H., Le califat de Yazid Ier, Mélanges de la faculté orientale, (2) جامعة سان

جوزيف، IV، 1910م، ص 244.

(3) Cf. Sauvaget, J., Historiens arabes, Paris, A. Maisonneuve, P 13, 1988.

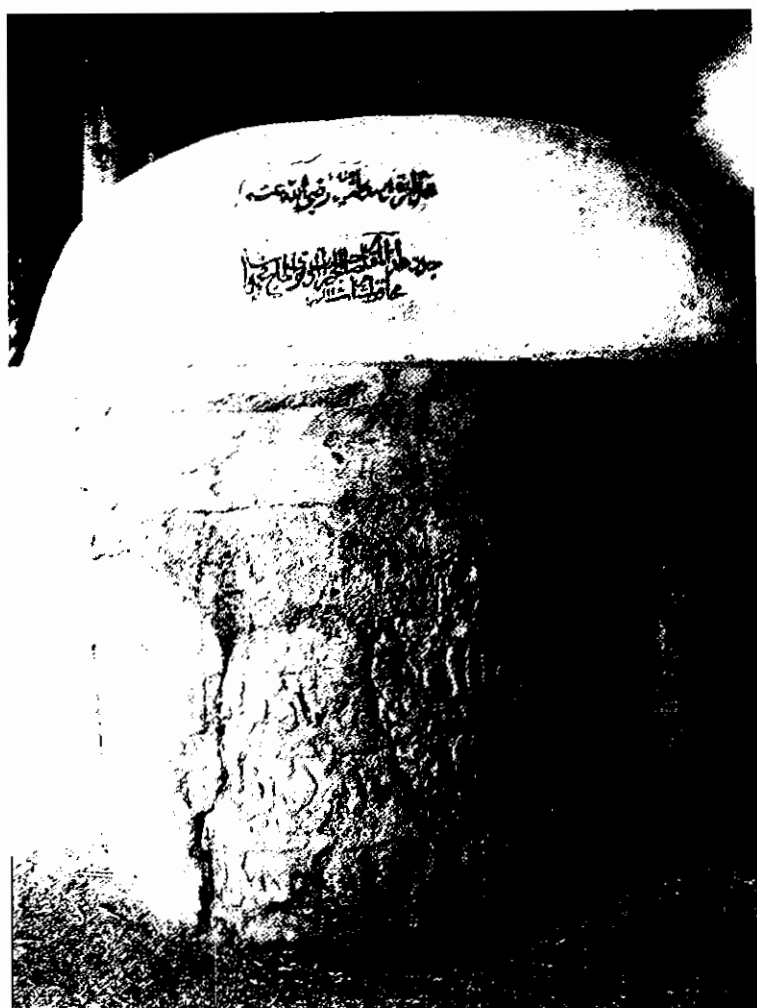
معاوية بالإجماع رجل دولة حق، وها هو المسعودي برغم ميوله الشيعة يمتدح "دماثته وقدرته على الحكم ومهارته في التعامل مع الرجال وفقاً لطبقاتهم، ومودته وحسن مراعاته للاعتبارات الخاصة، وهمة وحذقه في الحصول على محبة الآخرين وكرمه... إلخ"⁽¹⁾. ولقد ذكر المسعودي ذاته يوماً من أيام الخليفة المعتادة في قصره في دمشق⁽²⁾ قائلاً: في الصباح بعد الصلاة كان معاوية يستمع إلى قراءة التقارير، ويقرأ سوراً من القرآن ويستقبل المقرئين له، ثم وزراءه. ويرجع بعد ذلك إلى منزله ويتناول فطوره "ما تبقى من عشاء ليلة الأمس، لحم خروف بارد أو بعض لقيمات من هذا القبيل". ثم يذهب إلى المسجد وبعد الوضوء "كان يسمح - وهو متكئ على المقصورة وجالس في المنبر محاطاً بحراسه - من يريد أن يقترب منه من الفقراء وعرب الصحراء والنساء والأطفال والمحرومين...". ثم يستقبل وهو جالس على عرشه كبار القوم "مراعياً مراتبهم"، ثم يتناول غداءه ليعود إلى المسجد لصلاة الظهر، ويستقبل بعدها حاشيته المقرئين ويقدم لهم الحلويات أو الفاكهة الطازجة، ويستقبل وزراءه، ويؤدي صلاة العصر. يقوم بعدها باستقبال الناس ثانية حيث تصطف حاشيته حسب مراتبهم، ثم يتناول عشاءه ليعود إلى المسجد لأداء صلاة المغرب. يعود بعدها إلى منزله فلا يقابل أحداً حتى صلاة العشاء، فيذهب إلى المسجد وبعدها يسمح بدخول حاشيته المقرئين والوزراء والموظفين. وكان الوزراء يعملون معه خلال الساعات الأولى من الليل. وكان يخصص ثلث الليل الثاني لقراءة تاريخ العرب "أخبار العرب" وأيامهم المشهورة⁽³⁾ وتاريخ الشعوب والملوك العجم وسياستهم وسيرهم وحروبهم، وباختصار كل ما يشكل التاريخ الماضي. ثم كان يُجلب له من قبل زوجاته الخلوى وما لذ وطاب، وكان يخلد للنوم خلال ثلث الليل الأخير.

لما مات معاوية كان ابنه يزيد في حملة على الإمبراطورية البيزنطية، فعاد مباشرة إلى دمشق، وذهب إلى مسجد الصحابة، وصعد المنبر فبايعه الموجودون وأعلن توليه للعرش في كل المقاطعات. وبقدومه تفجرت مشاعر الحقد والكراهية الدفينة التي استطاع معاوية فيها مضى كبجها بحلمه: وثار الأنصار والعلويون والخوارج وقبائل مختلفة. ولم يشهد حكمه القصير الذي دام ثلاث سنوات إلا سلسلة من الحوادث المأساوية والمؤلمة. إذ انفجرت ردة الفعل في اليوم التالي من الاحتفال بتنصيبه

(1) المسعودي، نفس المرجع، الجزء الرابع، ص 727.

(2) المرجع السابق ص 724.

(3) أي ذكرى الغزوات والغارات في الجاهلية.



قبر معاوية بن أبي سفيان

على العرش، أولاً في العراق حيث كان العلويون - ووراءهم سكان الكوفة ومعظمهم من الشيعة - يطالبون بالحسين الابن الثاني لعلي وفاطمة وحفيد النبي (ﷺ) خليفة. وغادر الحسين مكة حيث كان مقيماً منذ وفاة معاوية، واتجه وبرفقته زوجاته وأطفاله ومقربوه إلى الكوفة تحميه كتيبة واحدة فقط مؤلفة من أربعين فارساً ومئة جندي مشاة. وفي 10 تشرين الأول 680م، في واحة كربلاء، وعلى بعد خمسة وسبعين كيلومتراً شمال الكوفة، وجدت الكتيبة نفسها وجهاً لوجه أمام جيش عبيد الله بن يزيد الذي قد عُيِّن حديثاً والياً على العراق. ويذكر الطبري أنها لم تكن معركة بل مجزرة حقيقية⁽¹⁾. لَوْح الحسين، وقد تعطر بالمسك، بالقرآن عوضاً عن السيف حتى لا يقهر، فمات ممزقاً وفي جسده ما يزيد عن ستين جرحاً. وهلك عدة عشرات من العلويين بدون مقاومة جادة، وانتشرت جثثهم في السهل حيث بقوا مكشوفين دون أن يدفنوا لثلاثة أيام. تذكر بعض المصادر أن يزيد كان مستاءً مما حصل، واحتفظ برأس الحسين الذي أخذ في البداية إلى الكوفة، ثم جلب إلى دمشق حيث وُضِع في ضريح أعد في الزاوية الشمالية الشرقية للمعبد. ومازال هذا الضريح موجوداً في المكان نفسه من الجامع الأموي⁽²⁾ يمحج إليه الشيعة من كل الأصول. إضافة إلى أن مجزرة كربلاء - التي يعتبرها المعاصرون حلقة من الحرب الأهلية فتحت باغتيال عثمان - قد ساهمت كثيراً في تعميق الفجوة بين أهل السنة والشيعة، فإنها ولدت للشيعة جرحاً لن يلتئم أبداً، وحددت بعمق مصيرهم السياسي والروحي. إذ أصبح المكان الذي صُرع فيه الحسين - الابن الثاني لعلي - بسرعة مزاراً للحج مشهوراً، تجري فيه مراسيم التعزية في ذكرى المأساة كل سنة إلى أيامنا هذه.

وكان المنافس الثاني ليزيد أكثر خطراً من وريث علي الضعيف. فبعد أن تخلص من الحسين الذي كان يعتبره منافساً، رفض عبد الله بن الزبير - ابن أحد أصحاب النبي (ﷺ) وحفيد أبي بكر لأمه وابن أخت عائشة مدعوماً بحزب قوي من الأنصار والقرشيين والمهاجرين - أن يبايع يزيد ولم يعترف له بحقه في أن يكون ولياً للعهد، ونادت به الحجاز كلها أميراً للمؤمنين وخليفة لها. وطرد من المدينة الأمويين المستقرين فيها، ومن بينهم مروان وابنه عبد الملك خليفتي المستقبل. ولكي يدفع الثائرين إلى التعقل أرسل يزيد إلى الحجاز جيشاً كان موجوداً حينها في طبرية تحت إمارة مسلم بن

(1) Les Omayyades", Paris, Sindbad, P38-51, 1983.

(2) ابن عساکر، نفس المرجع، ص 127، المشهد هو ديباس شهيد.

عقبة القائد القديم للمشاة في جيش معاوية في معركة صفين. وفي نهاية آب 683م اخترق الجيش الأموي المدينة فتعرضت للسلب مدة ثلاثة أيام، وكانت المذبحة مريعة، إذ يذكر المسعودي أن عدد القتلى كان عدة آلاف، وأن العديد من عائلات الأنصار فقدوا آخر من يمثلهم⁽¹⁾. وزحف مسلم بعد أن ترك كتيبة صغيرة في المدينة إلى مكة حيث كان عبد الله بن الزبير ملتجئاً، ولما كان طاعناً في السن ومريضاً مات في طريقه وحل محله رجلٌ يماني، وهو حسين بن نمير والي جند حمص القديم. واستمر حصار المدينة المقدسة مكة أربعة وستين يوماً، من 25 أيلول إلى 27 تشرين الثاني 683م. وقصف السوريون مكة بالآتهم التي نصبت في أعالي الجبال المحيطة بالمدينة المقدسة، وكما يذكر المسعودي فإنهم لم يستثنوا في قصفهم حتى الكعبة، إذ تلقت "وابلاً من النار والقار والكتان الحارق وأنواعاً أخرى من المواد الملتهبة"⁽²⁾، وفي هذا الوقت وصل خبر موت يزيد في 11 تشرين الثاني 683م في مكان إقامته في حوارين بين دمشق وتدمر، مما أوقف الأعمال العدوانية. ورجع حسين بن نمير بفرق جيشه إلى سورية، في حين انحاز جزء كبير من الإمبراطورية إلى عبد الله بن الزبير الذي اعتبر خليفةً في العراق والجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية وحتى في بعض المناطق السورية.

لم يكن يزيد الأمير الطائش كما يصفه المؤرخون بدافع الحقد الشيعي، فلقد اعتبره البلاصوري "أمير الكفار"⁽³⁾، وكتب ابن قتيبة عنه نقلاً عن كاتب من الخوارج: "فاسق بكل ماتعني به الكلمة، وفاسد الأخلاق"⁽⁴⁾، بل اعتبره بعضهم لوطياً، حتى إن الطبري يقول إنه كان "مشغولاً بالصيد ومستغرقاً في ملذاته"⁽⁵⁾، ويصفه ابن البصري بأنه "لم يكن إلاً سكيراً فاسداً، يلبس الحرير ويعزف القيثارة"⁽⁶⁾. ويذكر المسعودي، مستنكراً ظهور الموسيقى في المدينة ومكة أثناء حكمه، استحسانه

(1) المسعودي نفس المرجع، الجزء الثالث، ص 766.

(2) المرجع السابق، ص 767.

(3) Le califat Yazid I^{er} Mélanges de la faculté orientale, Beyrouth, Université Saint-Joséph V, fasc., 1, 1911 a.d, p.13

ذكر هذا "الخليفة يزيد الأول"، خليط الكفاءات الشرقية الصادر عن جامعة القديس يوسف، بيروت.

(4) Cf. Sauvaget, J., Historiens arabes, p. 13

(5) الطبري، الأمويون، ص 26.

(6) ذكر هذا Lammens، في دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوية الأول

Etudes sur le règne du calife omayyade Mu'awiya I^{er}, Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth, II, 1907 a.d, p. 104.

للمصقور والكلاب والقرود والفهود والخمر والولائم المرحية، وسلطته الجائرة وطاعة رعيته العمياء وقساوته وقساوة العاملين معه وميوله إلى الرذيلة، الذي كان منتشرًا في حاشيته ومثلي سلطة الخلافة، مؤكداً أن "عربدته وإفراطه كانا جديرين بفرعون"⁽¹⁾. فاجر كما يعتبره الرأي العام، ولكن على كل الأحوال ليس أكثر فسقاً من معظم الأمراء في زمانه وفي أي زمان آخر. بالمقابل فهو أحد أكثر الخلفاء جاذبية، شاعر وخطيب ماهر وهاوٍ للموسيقى، وصديق الشاعر الكبير النصراني الأخطل، وفارس بكل معنى الكلمة، ونصير الأدباء والعلماء، وراعٍ للفن والأدب، وبمختصر القول، إنه رجل مكتمل الشخصية، وكان حُصري يعتبره "الأكثر بلاغة بعد النبي (ﷺ)"⁽²⁾. ولما كان مدركاً تماماً لمسؤولياته، تابع ما قام به والده، فأنجز التنظيم الإداري والعسكري في سورية، وذلك بإنشاء جند قنشرين على الحدود الشمالية⁽³⁾ التي تمتد من أنطاكية إلى منجب، ووضع حداً للحروب السنوية المضادة للبيزنطيين. كما أعاد تنظيم المالية، واهتم كل الاهتمام بالزراعة، ومنح الكثير من الامتيازات في الأراضي البائرة.

وفي دمشق حسن يزيد الري في الغوطة، حيث أمر على نفقته الخاصة بحفر قناة عند سفح قاسيون وفوق نهر تورا، عرضها متر ونصف، وهي معروفة اليوم باسم مؤسسها: نهر يزيد. يذكر ابن عساكر أن من المحتمل أن يكون هذا النهر قد حفر في زمن الأنباط إلا أن الخليفة الأموي عمل فقط على جعله أكثر عمقاً وعرضاً⁽⁴⁾. ومع أن هذا الزعم يخالف وصف أركلف الذي لم يذكر في دمشق إلا "أربعة أنهار"⁽⁵⁾، فإنه ليس بمستحيل، خاصة أنه لا يمكننا أن نستبعد دون أدنى شك أن ابن عساكر - وهو دمشقي وأعلم من غيره - قد اختلط عليه الأمر بين هذه القناة وقناة تورا ذات الأصل الآرامي⁽⁶⁾. وعلى كل حال، يتفق علماء الجغرافيا⁽⁷⁾ عموماً على أن الفضل في إنشاء نهر يزيد

(1) المسعودي، نفس المرجع، الجزء الثالث، ص 763 - 764.

(2) Lammens, Etudes sur le règne du calife omayyade Mu'awiya 1er, p. 107

ذكر هذا، دراسات حول حكم الخليفة الأموي الأول معاوية، ص 107.

(3) شالبي الرومانية الاغريقية.

(4) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 247.

(5) المرجع السابق، ص 99.

(6) المرجع السابق، ص 50.

(7) Configuration de la terre, Paris-Beyrouth, P171, 1964.

يعود إلى يزيد نفسه، فهو الذي حفره كما يؤكد ابن حوقل والدمشقي⁽¹⁾ بصوت واحد. لقد زادت القناة الجديدة مساحة الأراضي المزروعة زيادة واضحة وساعدت قرى عديدة تقع في شمال دمشق، كما سمحت ببناء أحياء جديدة في المستقبل المنظور، هذا وقد كافأ التاريخ يزيد ولقبه "بالمهندس". وفي أثناء حكمه لم يُنس الجهاد وتابعت الفتوحات طريقها في شمال أفريقيا: إذ دفع عقبة بن نافع - ابن أخت عمرو بن العاص ومؤسس القيروان - الجيوش المسلمة حتى المحيط الأطلسي. فيما عدا القناة التي أمر بحفرها، بدا يزيد - وهو عدو المراسيم والمظاهر - مهملًا لدمشق، فلقد فضل عنها قرية دير مرّان الواقعة في شمال الغوطة، حيث كان منزله "سنّره" يقع في مكان هادئ ليس بعيداً عن الحمامات المعدنية الحارة في طبرية، التي كان يذهب إليها كل سنة ليعالج داء النقرس الذي أصيب به، أو إلى حُوارين قرب تدمر حيث فاجأه الموت في 11 تشرين الثاني 683م.

فتح موت يزيد فترة من الفوضى والنزاعات الدامية الطامعة في السلطة، وبعد العديد من المساومات الطويلة والجاهدة، عُيّن خليفةً ابنه الأكبر معاوية الذي كان في العشرينات من عمره، والذي وُلِدَ مثله من أم بدوية من قبيلة كلب. ويبدو أن العاهل الشاب قرر أن يقيم في دمشق في قصر الخضراء، حيث أغلق على نفسه الباب ورفض الخروج مزدرياً السلطة، ومتخلياً عن قيادة شؤون الدولة إلى وزير المالية. بعد خمسة أشهر مات ولي العهد بالطاعون، ولم يكن ابنه الأكبر خالد حينئذ إلا غلاماً يافعاً، فانقض تحالف رhib على السلطة الأموية: الهاشميون الذين كانوا يزعمون أنهم سلبوا من حقوقهم الشرعية، والأنصار الذين كانوا يشعرون أنهم مستبعدون، والقبائل التي كانت نزعاتها الإقليمية تصحو في كل مرة تضعف فيها السلطة المركزية. وفي نفس الوقت برزت منافسات دفينّة: إقليمية بين سورية والعراق وشبه الجزيرة العربية، وعرقية بين عرب الجنوب الكلبيين وعرب الشمال القيسيين وعائلية بين فرعين من قريش، وهما السفينانيون والمروانيون. وعندما كانت أشد أنواع الفوضى تعم دمشق، عُقد مؤتمر في الجابية جنوب المدينة برئاسة شيخ قبيلة كلب ابن بحدل.

في 22 حزيران 684م، بويع الخليفة مروان بن الحكم خليفة، وهو رجل مسن وقد كان أمين سر عثمان وابن اخته ووالياً على المدينة أثناء حكم معاوية، وهذا أصبح أمير المؤمنين مقابل تنازلات باهظة منحت لرؤساء القبائل. وهكذا جُمّد مبدأ توارث الالبناء للخلافة الذي وضعه معاوية،

(1) Cosmographies, Saint-Petersbourg, P261, 1866.

وانتقلت السلطة إلى فرع جانبي، وهم المروانيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم دائماً الورثة المباشرين لقريبتهم عثمان ويرون في تولي معاوية الخلافة أمراً يناقض حقوقهم المقدسة. وبمجرد أن عُين مروان أميراً للمؤمنين، وقف بحاجبه المعارضة من مؤيدي ابن الزبير. وانتهى أمر توارث الأبناء للخلافة في تموز 684م في شمال دمشق، وذلك في سهل مرج راهط حيث انتصرت القوات الأموية المؤلفة في المقام الأول من قبائل كلب وكندة وتنوخ وطى وغسان وتغلب، على القوات القيسية التي كانت تدعمها فرق يمنية. واستطاع مروان أن يحصل على الاعتراف به كخليفة في دمشق وذلك في شهر آب عام 684م. وأثناء حكمه الذي لم يتجاوز السنة، عمل على ارجاع السيطرة الأموية على سورية وفتح الأراضي التي كانت قد أصبحت تحت قيادة ابن الزبير. وبينما كان قاداته يقومون بهجمات على فلسطين فتح مروان بنفسه مصر، وعين عليها ابنه عبد العزيز والياً. لقد كان مروان عاهلاً ذاهمة عالية أنقذ السلالة الأموية من الانهيار الكامل، وبفضله اتسمت الخلافة بطابع ديني واضح. كما أنه أجرى اتصالات عديدة مع رجال الدين، وكان أول من جمع ودون السيرة. أصبحت حياة أهل الذمة أكثر صعوبة، في حين تزايدت مشاركة المسلمين من غير العرب "الموالي" في الحياة الثقافية للإمبراطورية. مات مروان في 7 أيار 685م في دمشق بداء الطاعون وفق إحدى الروايات، في حين تذكر رواية أخرى أن زوجته قد خنقته، ودفن في مقبرة الباب الصغير.

اعتلى العرش ابنه وولي العهد عبد الملك، فعمل جاهداً على ارجاع الهيمنة الأموية في أنحاء الإمبراطورية، إذ كانت معظم المقاطعات فيها عدا مصر وسورية مازالت تعترف بسلطة ابن الزبير. وفي 687م، احتلت الكوفة وأصبح الأمويون سادة العراق من جديد. ولكي لا يحارب عبد الملك على جبهتين، عقد مع البيزنطيين هدنة من عشر سنوات، وذلك مقابل ضريبة سنوية بلغت خمسة آلاف ليرة ذهبية، وأرسل إلى مكة جيشاً يقوده الحجاج بن يوسف. وفي 25 نيسان 692م، حوصرت المدينة المقدسة، وقصفت الكعبة للمرة الثانية. وفي تشرين الأول 692م، مات ابن الزبير وابنه الأصغر وفئة من المخلصين له وهم يدافعون عن الحرم، وكالعادة أحضر رأس الخليفة المعارض إلى دمشق. وجه الحجاج جيشه بعد تعيينه والياً على الحجاز واليمن واليهامة باتجاه الخوارج الذين كانوا قد ثاروا في شبه الجزيرة العربية. وفي 694م، عُين هذا الرجل النشط وعمره وقتئذٍ لا يتجاوز ثلاثين والياً على الكوفة، لما أبدى من إخلاص وولاء للسلالة الأموية، ومن هناك وسع سلطته في كل المقاطعات الشرقية. في عام 702م، وفي منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة - معقل تاريخي للمعارضة - أسس الحجاج مدينة

واسط المحصنة حيث بُني مقر اقامته الخاص. وأدار المشرق حتى موته عام 714م ادارة صارمة لا مثيل لها، وما من أحد ينسى جهلته الشهيرة التي قالها على منبر الجامع الكبير في الكوفة عند وصوله إلى المدينة: "إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها"، وقد قام فعلاً بتطبيقها.

في ظل حكم عبد الملك أجريت اصلاحات ادارية كبيرة كونت منعطفاً حتمياً في التاريخ الإسلامي. فلكي يسحق النزعات الإقليمية، حلت اللغة العربية محل الإغريقية والبهلوية في الإدارة المالية. ولكي يؤكد الاستقلال عن البيزنطيين سك عملة إسلامية، فحل الدينار الذهبي والدرهم الفضي⁽¹⁾ محل الديناريوس البيزنطي الذي كان لا يزال يُعامل به في الإمبراطورية في ذلك الحين. ومن الناحية الدينية احتل الخليفة - وقد تلقى في المدينة قبل اعتلائه العرش تعليماً دينياً كاملاً - مكانة بين أكثر العلماء علماً في علوم الدين. وبفضل نفوذه نشأت في مسجد الصحابة مدرسة للقرآن، السبع "al - sub". وعلى الرغم من معارضة أوساط الورعين في الكوفة أعيد نشر مصحف عثمان بأحرف منقطة ومُشكّلة لكي يمكن التمييز بين الكلمات التي تكتب بنفس الأحرف والتي يمكن أن يكون لها معانٍ مختلفة عند تشكيلها. وحاول عبد الملك مثل معاوية - ولكن دون أن ينجح - أن يساوم النصارى ليسمحوا له ببناء مسجد كبير مكان كنيسة يوحنا المعمدان⁽²⁾. وبني في فناء هيكل القدس قبة الصخرة، التي تعد أقدم صرح في الهندسة الإسلامية مازال قائماً حتى الآن، ولما انتهى بناؤها في عام 691م باشر في بناء المسجد الأقصى. لقد أوحى له بكل هذا البرنامج الهندسي الطموح عدة أسباب منها، منافسة الأبنية النصرانية الضخمة التي كانت تزين الرها واللدا والقدس ودمشق وبصرى إلخ، وفرض الإسلام وريثاً للديانتين الموحدين السابقتين، وحياء ذكرى تضحية إبراهيم بابنه ومعراج النبي (ﷺ)، وتحويل انتباه السوريين عن المدن المقدسة في الحجاز التي كانت حيثشذ في أيدي معارض الخليفة ابن الزبير، وربما بغية تحويل الحج السنوي إلى القدس⁽³⁾. على كل حال هذا ما نوه إليه الرحالة الفارسي نصير خوسرو عندما كتب في منتصف القرن الحادي عشر أن "أهل سورية

(1) كان وزن الدينار 4.25 غم معياره 96 - 98 / 0. وكان الدرهم يزن 2.97 غم فضة. يعادل الدينار الواحد عشرة دراهم. في سورية كان قد سك قطعاً مخلوطة منذ عام 638م. إحدى هذه القطع المحفوظة في المكتبة القومية في باريس، عليها تذكارات هرقل ورموز نصرانية من صليب يعلوه إكليل وهالة واسم المسيح، ومقوش عليها فقط تاريخ 17 الهجري أي 638 ميلادي.

(2) البلاضوري، نفس المرجع، الجزء الأول ص 192.

(*) لا يعقل أن يكون عبد الملك بن مروان قد فكر بتحويل الحج من الأماكن المقدسة في الحجاز إلى القدس في بلاد الشام.

وفلسطين الذين لم يكن باستطاعتهم السفر إلى مكة كانوا يذهبون إلى القدس في وقت الحج⁽¹⁾، خاصة أن التصميم المتمركز لقبة الصخرة كان يلائم أن تقام فيه شعائر الطواف. وكذلك في أثناء حكم عبد الملك بُني محراب المسجد، ذلك الصرح الذي يخلد ذكرى المكان الذي وقف فيه النبي إماماً بالأنبياء، والذي يتوسط الحائط الذي باتجاهه يقف المصلون يؤدون صلاتهم صوب الكعبة. يذكر أبو البقاء أن التجديد دخل المدينة المنورة عند إعادة بناء مسجد النبي عندما كان عمر بن عبد العزيز والياً عليها، وهو ابن أخ عبد الملك وخليفة المستقبل⁽²⁾.

عندما مات عبد الملك عام 705م، تربع ابنه الوليد على العرش، وبفضل الوضع الجيد لخزينة الدولة، استطاع العاهل الجديد أن يشبع شغفه بالبناء. لقد كان الوليد حقاً البناء الكبير للسلالة الأموية، إذ يذكر الطبري "أن الناس في أثناء حكمه كانوا عندما يجتمعون لا يتكلمون إلا عن الأبنية والمنشآت"⁽³⁾. ويذكر ابن الفقيه أنه أمر بحفر الآبار على طول الطريق الذي يؤدي إلى مكة، وقد كان أول من أمر ببناء المشافي للمرضى⁽⁴⁾. كما أنه أعاد بناء وتوسعة الحرمين في مكة والمدينة، وأنهى بناء المسجد الأقصى في القدس، وبنى قصرًا في منيا في شمال شرق طبرية، وقصرًا صغيراً "قُصير عمره" في الفيحاء الأردنية. وفي دمشق أمر بانشاء دار الضيافة لاستضافة الزوار الرسميين، وأخيراً أمر ببناء الجامع الكبير الذي مازلنا نراه حتى اليوم. من الناحية الادارية تابع الوليد عملية التعريب التي بدأها والده، فسحبت المسؤوليات الكبيرة من النصارى والإدارة المالية من بني سرجون، وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة. ومن الناحية العسكرية تابعت الفتوحات مسيرتها وبلغت الإمبراطورية أكبر اتساع لها؛ ففي المشرق ضمت بلاد ما وراء النهر (بلاد الصفد) وبلاد السند، وفتحت مدينة سمرقند وبخارى وفرغانة. وفي الغرب في 24 نيسان 711م عبرت الجيوش الإسلامية جبل طارق، ودخلت أراضي وزيفوث روديريك، فضمت في أقل من سنتين إشبيلية وماردة وطليطلة

(1) Nasiri-Khusraw, "Relation de voyage en Syrie, en Palestine..", Paris, E. Leroux, 1881 a.d, p. 61.

(2) Cf. Quatremère, E. M., "Histoire des sultans mamelouks de l'Egypte", II, I, p. 283.

(3) الطبري، الأمويون، ص 172.

(4) Abrégé du livre des Livres des Pays IFD

ألف ابن الفقيه وهو من أصل إيراني نحو عام 903م موسوعة، كتاب البلدان، لم يعرفه الغرب إلا على شكل مختصر حرر في القرن الحادي عشر. دمشق، 1973م، ص 130.

وسرقسطة وطركونة وبرشلونة. وبرغم أن المسعودي لم يكن يحب الأمويين، وكان يعتبر الوليد "فاسقاً ظالماً وطاغية عاتياً"⁽¹⁾ فقد كان الرعايا السوريون يقدرونه، إذ يذكر الطبري "أنهم كانوا يعتبرونه أفضل عاهل من نسل مروان"⁽²⁾. وشهد على ورعه الديني الجميع، وهذا لم يكن شائعاً جداً بين الخلفاء، فلقد قال ابن عساكر⁽³⁾: "أنه كان يختم كل ثلاثة أيام قراءة القرآن". ومات الوليد في دير مُرَّان قرب دمشق في 23 شباط 715م. وخلف الوليد أخوه سليمان وفقاً للترتيبات التي اتخذها عبد الملك.

قرر الوليد بمجرد أن جلس على العرش لكي يضيف إلى الإسلام نفوذاً أكبر في الحياة العامة، أن ينجز المشروع الذي دأب أحلام معاوية وعبد الملك، وهو أن يمنح دمشق جامعاً كبيراً. ولأنه لم يكن هناك أراضي شاغرة داخل المدينة، بدا معبد جوبيتر القديم كأنه يفي بالغرض، ولكن العقبة الوحيدة كانت وجود كنيسة القديس يوحنا المعمدان. يذكر محمد بن شاعر أن بعض المسلمين الذين كانوا يجتمعون في جامع الصحابة "كان يؤذيه سماع النصارى يقرؤون إنجيلهم ويتلون صلواتهم بصوت عالٍ"⁽⁴⁾. ويذكر ابن الفقيه بصرحة أكبر وبكل بساطة أن الخليفة الذي هدم عشر كنائس أخرى ليجعل منها مساجد "باشر في بناء جامع دمشق ليخلد اسمه"⁽⁵⁾. إضافة إلى هذا فإن بناء المسجد كان أمراً ملحاً، وثوابه كبير يوم القيامة كما يشهد على ذلك الحديث الذي رواه ابن عساكر: "من بنى مسجداً في الأرض وإن كان بحجم عش طير القطا، بنى له الله بيتاً في الجنة"⁽⁶⁾. فضغط الوليد على النصارى ليتخلوا له عن كنيسة القديس يوحنا المعمدان مقابل العديد من الأراضي، إضافة إلى أربع كنائس لم تكن من ضمن اتفاقية تسليم عام 635م، وهي: كنيسة ماري والمصلبة وتل الجبن وحيد بن دِرَّة. فلما رفض النصارى هدد الوليد بهدم كنيسة باب توما التي كانت أكبر بكثير من كنيسة يوحنا

(1) المسعودي، نفس المرجع، الجزء الثالث، ص 843.

(2) الطبري، الأمويون، ص 171.

(3) Cf. Lammens "Etudes sur le règne des Omayyades P229.

دراسة عن حكم الأمويين، ص 229.

(4) Cf. Quatremère, E. - M., Muhammad b. Shaker..., Histoire des sultans mamelouks de l'Egypte, La mosquée de Damas..

مسجد دمشق عن محمد بن شاعر... تاريخ سلاطين عماليك مصر الجزء الثاني ص 263،

(5) ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 131.

(6) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 83.

المعمدان وقلبها إلى مسجد، فأنتهى الأمر بأن قبل النصارى الاتفاق مرغمين، وقد أعطى الخليفة كما يذكر ابن شاعر أمراً بالهدم، وبدأ بنفسه العمل وانهار ضرباً بالمعول على قمة البرج الشرقي "الذي كان حينها صومعة يسكنها راهب"⁽¹⁾، في حين كان النصارى المتجمعون على درجات جيرون، الباب الشرقي للمعبد، "يصدرون صرخات اليأس"⁽²⁾. يذكر ابن عساكر، الذي يعطي رواية مختلفة إلى حد ما، أن العمال النصارى كانوا قد تشنجوا من الرعب تطيراً، فلم يتجرؤوا أن يسددوا أول ضربة معول، فأعطى الخليفة المثل بتسديد ضربات شديدة إلى مذبح الكنيسة⁽³⁾. وعلى الفور هُدم كل ما كان موجوداً في الفناء القديم، "المذابح والغرف والقناطر بحيث لم يبق إلا الساحة المربعة"⁽⁴⁾، وبدأت الأشغال مباشرة، "وفق مخطط عظيم ورائع لا مثيل له من قبل"⁽⁵⁾. فلقد استدعى الخليفة مئات الحرفيين البيزنطيين، ويضيف ابن عساكر أن طلبه لم يكن لبقاً كما يجب، فلقد كتب الوليد إلى نظيره البيزنطي: "أرسل إليّ مئتين من العمال من الروم فأنا أنوي بناء مسجد لا نظير له في أي عاصمة من قبلي ومن بعدي، فإذا لم تنفذ هذا فسوف أغزوك بجيوشي، وأهدم الكنائس الموجودة في بلدي (...)" وكل صرح تذكاري بيزنطي آخر"⁽⁶⁾. يذكر الرحالة الأندلسي الشهير ابن جبير (1145 - 1217م) أنه كان هناك اثنا عشر ألف حرفي أرسلوا من القسطنطينية⁽⁷⁾، ويذكر مؤلفون آخرون أن عددهم قد وصل إلى أربعين ألفاً. ويؤكد الدمشقي مثله كمثل العديد من المؤلفين المسلمين - بعد أن ذكر أن الحرفيين كانوا "مختصين فارسيين وهندوساً ومغاربة وبيزنطيين"⁽⁸⁾ - على ضخامة المبالغ التي أنفقت، والتي عهد بإدارتها كما يذكر المسعودي⁽⁹⁾ إلى عمر بن عبد العزيز، ابن عم الخليفة. كتب الدمشقي: "يقال: إن الوليد خصص مجموع ضرائب الشام المالية لمدة سبع سنوات، إضافة إلى حمولات الذهب والفضة

(1) Cf. Quatremère, E. M., نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 264.

(2) المرجع السابق، ص 264.

(3) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 30.

(4) Cf. Quatremère, E. M., نفس المرجع، الجزء الثالث، ص 265.

(5) المرجع السابق، ص 265.

(6) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 40. نفس النص تقريباً موجود في كتاب ابن شاعر ص 265.

(7) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 302.

(8) La meilleure répartition pour la connaissance des provinces. IFD P170, 1963.

(9) المسعودي، نفس المرجع، الجزء الثالث، ص 843.

لثاني عشرة سفينة قادمة من قبرص، وأدوات وفسيفساء قام بتزويدها ملك الروم⁽¹⁾. كما يذكر ابن شاعر أنه استخدم في بناء الجامع الكبير "مئتي صندوق يحتوي كل واحد منها على عشرين ألف دينار، ليكون المجموع الكلي خمسة ملايين وستمئة ألف دينار"⁽²⁾. ويذكر ابن خلدون بتفصيل أدق: لقد بلغت قيمة ما تناوله العمال من الخضار أثناء أيام العمل ستة آلاف دينار⁽³⁾. ولا عجب، كما يذكر ابن عساکر، أن تؤدي هذه المصاريف الجنونية إلى احتجاج العامة⁽⁴⁾.

يذكر لنا المسعودي محتوى النقش التأسيسي الذي يحتمل، كما يذكر ابن شاعر⁽⁵⁾، أن يكون الخليفة العباسي المأمون (813 - 833م) قد محاه عندما سافر إلى دمشق، مؤكداً أنه كان مقروءاً عام 332هـ/ 943 - 944م. ولقد كان النقش على الحائط الجنوبي لقاعة الصلاة بأحرف من الذهب على خلفية من الحجر الكريم السماوي الزرقة: "ربنا الله، لا إله إلا الله. أمر ببناء هذا الجامع وهدم الكنيسة عبد الله، الوليد، أمير المؤمنين، في شهر ذو الحجة عام 87م" (تشرين الثاني - كانون الأول)⁽⁶⁾. ويذكر مؤلفون آخرون مثل البلاصوري وابن شاعر، أن العام المذكور كان 86م.

وهدمت الكنيسة وسدت الفتحات الثلاث الموجودة في الحائط الجنوبي لقاعة المعبد، وبني صف من النوافذ في الجزء الأعلى وقاعة للصلاة، وشغل مستطيل ضخم أبعاده مئة وستة وثلاثون متراً بسبعة وثلاثين متراً كل الجزء الجنوبي للمعبد القديم. وكالعادة المأخوذ بها في مصر القديمة أو فارس الأخدية، والتي تذكرنا أيضاً بمنزل النبي (ﷺ) في المدينة بأساساته من جذوع النخيل، صُمم المسجد من صالة يتركز سقفها على أعمدة مكونة من ثلاثة صحون موازية لحائط القبلة، وقد فصل بينها صفان من القناطر وغطيت كل واحدة بأسقف مزدوجة الميلان. ويتألف كل صف من عشرين عموداً قديماً بقاعدة

(1) الدمشقي، نفس المرجع، ص 170

(2) Cf. Quatremère، نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 265. ابن عساکر، نفس المرجع، ص 53، يتحدث عن 400 صندوق يحتوي كل واحد منهم على 14000 دينار.

(3) ابن خرداذبه عن ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 131. ابن خرداذبه مؤلف كتاب المسالك والممالك وهو كتاب صغير للوثائق التقنية لإستخدام الموظفين وقد ألف عام 846م.

(4) ابن عساکر، نفس المرجع، ص 53.

(5) Cf. Quatremère، نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 270.

(6) R.C.E.A. الجزء الثاني، العدد: 18. Sauvair، نفس المرجع، الجزء السادس، الفصل الثاني، 1896م، ص 200. المسعودي، نفس المرجع، الجزء الثالث، ص 844.

مربعة وتيجان كورنثية يعود أصلها جميعاً إلى المعبد الروماني، واتصلت بعضها ببعض بأقواس كاملة العقد متعددة الأرجل لها جذع هرم مقلوب. وبغية زيادة ارتفاع الدعامات حل - بعد حريق 1893م الكبير - محل سلسلة من العقود الصغيرة، التي كان ارتفاعها قليلاً جداً ومكونة من أركان صغيرة متعامدة، أعمدة صغيرة تقوم فوق السابقة، وتدعم بواسطة كؤوس تيجان هيكل البناء المرئي من الخارج. يذكر ابن الفقيه أن أصل هذه الأعمدة الصغيرة كان من الدلب وكانت مزخرفة زخرفة رائعة⁽¹⁾.

يقطع جناح محوري يعامد حائط القبلة قاعة الصلاة في مركزها، ويصل إلى المحراب الرئيسي في الكوة الغربية لباب قديم لفناء المعبد القديم. إضافة إلى أن هذا الجناح أعلى وأوسع من كل الصحن الطولانية فهو مغطى بسقف مزدوج الميلان انبعثت منه قبة على عقد الزاوية، ومُقام فوق الصحن الأوسط. هذا الترتيب المتفوق حتى اليوم لم يكن يوافق على الأغلب النسق السائد في ذلك العصر. إذ يذكر ابن عساكر رواية تنص على أن القبة التي بناها الوليد، والتي "كانت ترتفع عالياً في السماء" قد انهارت بعد وقت قصير من إنجازها⁽²⁾. ومن الواضح أنه قد أعيد بناؤها في القرن العاشر، إذ يذكر الدمشقي: "قبة تقع في مركز المبنى على مستوى المحراب، يعلوها برتقالة ورمانة من الذهب"⁽³⁾. وليس مستبعداً أن يُقصد بالتعبير "على مستوى المحراب" أن تكون هذه القبة مثل قبة جامع الأمويين في الأقصى والقيروان قد بنيت في الأصل فوق القاعة الجنوبية. بعد الحريق الكبير عام 1069م، أعيد بناء القبة من جديد. إذ يخلد نقش كوفي - سجله عالم الآثار ماكس فان برشم قبل اختفائه أثناء حريق 1893م - محفور على ألواح من الرخام باسم الملك ملكشاه السلجوقي (1072 - 1092م)، بناء "القبة والمقصورة والسقف والقناطر والأركان عام 475" (1082 - 83م). كما ذكرت ترميمات طفيفة في كتابات المؤلفين ابن عساكر والعلموي⁽⁴⁾. وعندما دُعِمت الأركان الأربعة أثناء هذه الأعمال لزيادة مقاومتها للضغط وجعلت المسافة التي تفصل بين عارضتين مربعة، نقلت القبة بالتأكيد. وكانت هذه القبة كسابقاتها من الخشب مثل قبة الصخرة في القدس، إذ هذا ما نستنتجه من الوصف المفصل للرحالة ابن جبير، الذي دفعه فضوله إلى صعودها في 27 آب 118م. وقد

(1) ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 133.

(2) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 43.

(3) الدمشقي، نفس المرجع، ص 168.

(4) Sauvair, H. نفس المرجع، الجزء السابع، الفصل الثاني، 1896م، ص 194 - 195.

اكتشف وهو يتجول في هيكل البناء "مشهداً يحير الذهن ويجعله يقلع عن نقل ما هو أساسي في وصفه عن وعي وإدراك" لأنه كما يقول، "تتحير الأبواب في كيفية عقدها ووضعها لإفراط سموها"⁽¹⁾. من الواضح أن القبة كانت مزدوجة، كما يوضح ابن جبير: "تبدو هاتان القبتان للعيان كأنهما واحدة، ونحن نقول إنها اثنتان لأنهما متداخلتان الواحدة بالأخرى؛ والقبة الظاهرة هي القبة الرصاصية"⁽²⁾. تبدو هذه القبة دون أدنى شك، كما يصفها المبهورون بها، أكثر العناصر روعة في المبنى. يذكر ابن عساكر: "يبقى العقل مبهوراً أمام رشاقة الخطوط مع انعطافها في كل جهاتها"⁽³⁾ ويضيف: إنه في يوم من الأيام "أغمي على زائر بيزنطي من شدة انفعاله عندما رآها"⁽⁴⁾. وهي في نظر أحد شعراء البلاط عالية جداً لدرجة أنه حتى "الطيور لم يكن باستطاعتها بلوغها إلا بصعوبة"⁽⁵⁾. أما في نظر ابن بطوطة، فلم تكن أقل من أن تكون "أحد أكثر الأبنية روعة في العالم"⁽⁶⁾، وفي نظر ابن الفقيه "أكثر ما فيها من روعة (...)" أنها ترتفع عالياً في الهواء كأنها معلقة"⁽⁷⁾. ولقد ساهم معظم المؤلفين المسلمين وإن كانت تسمية خاطئة "قبة النسر". في الحقيقة إن الكلمة الإغريقية *aétos* التي تعني "نسر" و"جبهة" في آن واحد، قد كان يستخدمها على الأغلب العمال السريان أو الإغريق أثناء ورشة البناء عندما يريدون أن يتكلموا عن الجبهة التي تقوم على واجهة الجناح المحوري الذي تنبثق منه القبة. وبما أن العرب ترجموا *aétos* بالنسر، فاستخدمت هذه الكلمة في التعبير عن القبة. ورغم أنها غلطة في الترجمة، فإن الشكل المقطعي للبناء قد تماشى مع هذه الترجمة كما يؤكد ابن بطوطة قائلاً: "ندعم أعمدة القبة الرصاصية التي هي أمام المحراب والتي تسمى بقبة النسر، وكأننا نشبه المسجد بنسر يطير والقبة رأسه"⁽⁸⁾. على الأغلب حل محل قبة القرن الثاني عشر المزدوجة قبة بسيطة من الحجارة وذلك بعد حريق 1400م. وقد حدث الأمر نفسه للقبة الأخيرة إذ حلت محلها القبة

(1) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 340 - 341.

(2) المرجع السابق، ص 342.

(3) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 58.

(4) المرجع السابق، ص 63.

(5) Cf. Lammens, "Etudes sur le siècle Omayyades" دراسة عن القرن الأموي، بيروت، المطبعة الكاثولوكية، 1930م، ص 300.

(6) ابن بطوطة، "Voyages" Paris, Imprimerie impériale، الجزء الأول، 1853 - 1858م، ص 200.

(7) Cf. Quatremère، نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 280.

(8) ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 200.

التي نراها اليوم، والتي بناها بعد حريق 1893م المهندس المعماري الإنكليزي أبري.

وتعلو واجهة الجناح المحوري، وقد دعمت بركيزتين داعمتين تعلوهما قبة صغيرة رصاصية، بعشرة أمتار تقريباً الأجنحة الجانبية. وقد اتسم تنسيقها بالفن المعماري البيزنطي. وتكون قنطرة بثلاث فتحات وعمودين كورنثيين المدخل الرئيسي إلى قاعة الصلاة حيث تقام الاحتفالات في المناسبات الرسمية. وبني فوق هذه القاعة نفس النسق على مستوى أصغر وقد سدت كواته بزجاجيات ملونة. ويحيط بالكل قوس كبير حاد إلى حد ما ومتعدّد. وفي القمة توجد واجهة مثلثة الشكل بفتحة مدعومة بعينين عميائوين. وقد حفر في كلا جانبي الجناح تسع نوافذ مسدودة اليوم جزئياً بتخشيبية سقف الصحنون. وعلى عكس قواعد العمارة الصحيحة، ليس هذا التنظيم في الواقع هو نفس التنظيم الأصلي. ففي البداية كانت التغطية من الطين⁽¹⁾ بميلان مزدوج خفيف. والوليد هو من أبدل هذه التغطية بتغطية أخرى من الرصاص، وذلك بعد أن انهارت القبة⁽²⁾. جُمع الرصاص من كل الديار السورية، ويبحث عنه حتى في التوايت الحجرية القديمة⁽³⁾. ومن المحتمل أن هياكل البناء ذات الميلان الحاد لم تكن إلا بعد حريق 1400م - وقد أعاد بناءها أبري بعد حريق 1893م - هذا ما نستنتجه من وصف ابن جبير الذي لم ير برغم التغطية إلا "سطحاً كله من الصفائح الرصاصية"⁽⁴⁾. وعلى كل حال فلقد كان الوجه الداخلي لمجموع سقوف المبنى مزخرف بزخرفات فاخرة الغنى والجمال، و"مرصع بالذهب واللازورد" كما يقول أبو البقاء. ونشر ستمئة مصباح معلق بسلال من الذهب نوراً يبهر العقول، فلقد كتب عنها أحد الشعراء⁽⁵⁾ "إنها تنير جبل لبنان والساحل البحري". ويؤكد الدمشقي، وهو راو ماهر عام 1300م وشيخ وإمام جامع الربوة قرب دمشق، أن إنارة المسجد الكبير كانت تتطلب سنوياً ألف قنطار دمشقي من زيت زيتون نابلس، وإنه في منتصف شهر شعبان كان يشعل إثنا عشر ألف مصباح فيصل إستهلاكها إلى خمسين قنطاراً دمشقياً من زيت الزيتون⁽⁶⁾.

(1) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 45.

(2) المرجع السابق، ص 45.

(3) المرجع السابق، ص 45.

(4) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 340.

(5) Cf. Lammens, H., Etudes sur le siècle des Omayyades, p. 300.

(6) الدمشقي، نفس المرجع، ص 272 و 259.

في محور الجناح المتعامد، يدل المحراب الرئيسي على حائط القبلة. لا شيء يسمح لنا بمعرفة بدقة مظهر هذا المحراب الأصلي، ولكنه كان في كل الأحوال الجزء الأكثر غنى والأكثر زخرفة في البناء. يقول عنه ابن الفقيه: إنه كان "مرصعاً بحلى ثمينة وأحجار كريمة رائعة"⁽¹⁾، وكتب المقدسي: إنه كان "مزيناً بأكبر قطع رأتها عين من العقيق الأحمر والفيروز"⁽²⁾. ويذكر ابن جبير أنه كان "أحد روائع الفن الإسلامي بجماله وندرته وهندسته"⁽³⁾. ويصفه أبو البقاء قاتلاً: "محراب المقصورة من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة، يتقد ذهباً كله، وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بعضها ببعض ومحاطة بأعمدة، [صف من الفتحات المسدودة] (...)، لم ير أجمل منها"⁽⁴⁾. في الجزء الشرقي للقبلة، يذكرنا محراب الصحابة بالجامع المؤقت الذي بني بعد الفتح تحت رواق فناء المعبد. وكما يذكر الدمشقي، كان هذا المحراب أثناء الحكم الأموي مخصصاً لصلاة أعضاء الحكومة⁽⁵⁾. وفيما بعد، في زمن ابن بطوطة - في النصف الأول من القرن الرابع عشر - كان مخصصاً لأتباع المذهب المالكي⁽⁶⁾. وعلي يسار المحراب الرئيسي يوجد محراب ثالث بني على الأغلب في العصر الأموي لأتباع المذهب الحنفي الذي أسسه الإمام أبو حنيفة في القرن الثامن^(*). في حين يقع المحراب الرابع في أقصى الغرب وهو حديث.

إضافة إلى الفتحات الثلاث الموجودة في واجهة الجناح المحوري، فإن قاعة الصلاة كانت تتصل بالفناء بعشرين قنطرة مسدودة اليوم بأبواب نافذة بمصاريع خشبية، كانت في الأصل مغلقة باستائر فقط كما يؤكد ابن شاكر⁽⁷⁾، واستمر هذا الحال حتى بداية القرن التاسع عشر كما يذكر لامتري

(1) ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 133.

(2) المقدسي، نفس المرجع، ص 169.

(3) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء الخامس، ص 309.

(4) Cf. Quatremère، نفس المرجع، الفصل الثاني ص 282.

(5) المقدسي، نفس المرجع، ص 169.

(6) ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 203.

(*) عاش الإمام أبو حنيفة وأسس مذهبه في العصر العباسي، ولم يكن المذهب الحنفي معروفاً أيام الأمويين.

(7) Cf. Quatremère، نفس المرجع، الفصل الثاني، ص 273. وانظر أيضاً إلى البصري عن Sauvair، H. "وصف دمشق"،

JA، Description de Damas، الجزء السابع، ص 423.

الذي زار المسجد عام 1833م⁽¹⁾. كان هذا الترتيب من فناء واسع غُطي جزء منه، وقاعة الصلاة التي تسمى أحياناً بالظلة أي "المحمية من الشمس"، الذي كان دارجاً في الزمن البيزنطي⁽²⁾ ومازال يؤخذ به اليوم في مساجد الهند والباكستان، هو الأمر المعتمد في معظم أماكن العبادة الإسلامية في الزمن الأول، في المدينة المنورة والكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وسمرقند... فهو يترجم نظرية وحدة المكان الديني: فناء واسع تكون قاعة الصلاة الجزء المغطى منه وتسمى "الظلة" أي الجزء المحمي من الشمس، ويوجد فوق القناطر صف من النوافذ تماثل النوافذ الموجودة في حائط القبلة وتير قاعة الصلاة، كانت في الأصل مغطاة بمعجون المرمر المملوء بالزجاج الملون فسميت بالقمرية أو الشمسية، وكانت مصدر إعجاب الزوار، فهي أبو البقاء يكتب عنها: "عندما كانت تخترقها أشعة الشمس كان كل منها يشع بكل ألوانه (...). وكانت تلك الانعكاسات التي تصل إلى العيون ذات روعة ليس في استطاعة أحد أن يصفها"⁽³⁾.

وكان الفناء - الذي كان كله مبليطاً بالرخام الأبيض⁽⁴⁾ في زمن المقدسي - مستطيلاً واسعاً أبعاده مئة واثنان وعشرون متراً بخمسين متراً محاطاً من جوانبه الثلاثة بأروقة تعلوها قناطر ومغطاة بسقف مسطح ذي ميلان بسيط نحو الداخل. وفي الشمال - باستثناء ثلاثة أعمدة واحد في الطرف الغربي واثنان في الطرف الشرقي - تعد أعمدة الأروقة مثل أعمدة القناطر أركاناً مبنية، في حين يناوب التنظيم الثلاثي للرواق كل ركن بعمودين متتاليين في الشرق كما في الغرب، ويناوب التنظيم الثنائي للقنطرة كل ركن بعمود لكون العمود أفقياً بالنسبة لقمة القوس الأدنى. كان هذا التنظيم دون أدنى شك في الأصل هو نفس تنظيم الرواق الشمالي الذي نعرف أنه بني في الأزمنة اللاحقة. ولقد بني الجزء الشرقي للحائط عام 1089م، والجزء الغربي في 1109م؛ إضافة إلى أن نقشاً طويلاً على الجبس موجوداً على طول الحائط الشمالي والشرقي يخلد ذكرى ترميمات الرواق عام 1416م التي قام بها المهندس المعماري علي من الإسكندرية. إن هذا النوع من الخليط المعماري يفسد التناغم كثيراً، ويبتعد عن الأصول المتبعة للتركيبة الهندسية. وتشهد الأعمدة في طرفي الرواق الشمالي دون أدنى شك على

(1) Lamartine, Voyage en Orient, Paris, Furne, Pagnerre, Hachette, 1846 a.d, t. 2, p. 72.

(2) انظر إلى فيفساء كنيسة القديس أبولينير نيوفو في رافن التي تمثل قصر ثيودوريك.

(3) Cf. Quatremère نفس المرجع، الفصل الثاني، ص 280.

(4) المقدسي، نفس المرجع، ص 169.

وضعه الأصلي، الذي عُدِّلَ فيها بعد أثناء مشاريع إعادة البناء المتتابعة، وحلت الأركان عام 1416م على أبعد التقدير محل الأعمدة لصعوبة انجاز ما يماثلها ولكلفتها الباهظة جداً. أما فيما يتعلق بالمصادر الأدبية، فهي لا تدع في هذا أي مجال للشك، فهي هو العلموي بناء الوليد يؤكد: "كنا نضع دعامة بين كل زوج من الأعمدة"⁽¹⁾. إضافة إلى العديد من المؤلفين من مثل ابن جبير⁽²⁾ وابن بطوطة⁽³⁾ وأبي البقاء⁽⁴⁾ الذين وصفوا بدقة المبنى واعتبروا الأربع عشرة دعامة تابعة لرواق الفناء مما يتناسب مع التنظيم الثلاثي. وأخيراً من المؤكد أن هذا النسق يبدو أيضاً في واجهة قاعة الصلاة مؤلفاً مع الفناء انسجاماً انعدم في أيامنا هذه. ويحصى ابن جبير⁽⁵⁾ وابن بطوطة⁽⁶⁾ من بين دعائم الصحن الثلاثة لقاعة الصلاة أربعة وخمسين عموداً. وهكذا، بما أن القنطرتين الداخليتين تضم أربعين منها، فإن الأربع عشرة الباقية لا يمكن أن توجد إلا في الواجهة، وهذا هو العدد الضروري تماماً للتناوب الثلاثي. ويوضح ابن جبير⁽⁷⁾ خاصةً هذا الأمر بدقة نادرة قائلاً: "يقوم المسجد على ثمان وستين دعامة، منها أربعة وخمسون عموداً؛ ثمانية منها دعائم مغطاة بالجبس متداخلة بعضها مع بعض؛ واثنتان مغطتان بالرخام تعانقان الحائط الذي يلامس الفناء؛ ثم أربع دعائم مغطاة بالرخام على نحو فني رائع (...). قائمة في الجناح المحوري تدعم القبة الرصاصية التي تغطي المحراب". في منتصف القرن التاسع عشر، أكد المبشر الأمريكي بورتر أن الحائط الشمالي لقاعة الصلاة كانت تحمله أعمدة ولكن "معظمها كان من ضمن الدعائم"⁽⁸⁾.

(1) Sauvage, H. نفس المرجع، الجزء السادس، الفصل الثاني، 1896م، ص 196.

(2) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 304: "هذا الدهليز الذي عرضه عشرة أقدام، له سبع وأربعون دعامة، منها أربع عشرة ركيزة من الجبس والأخريات أعمدة".

(3) ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 304.

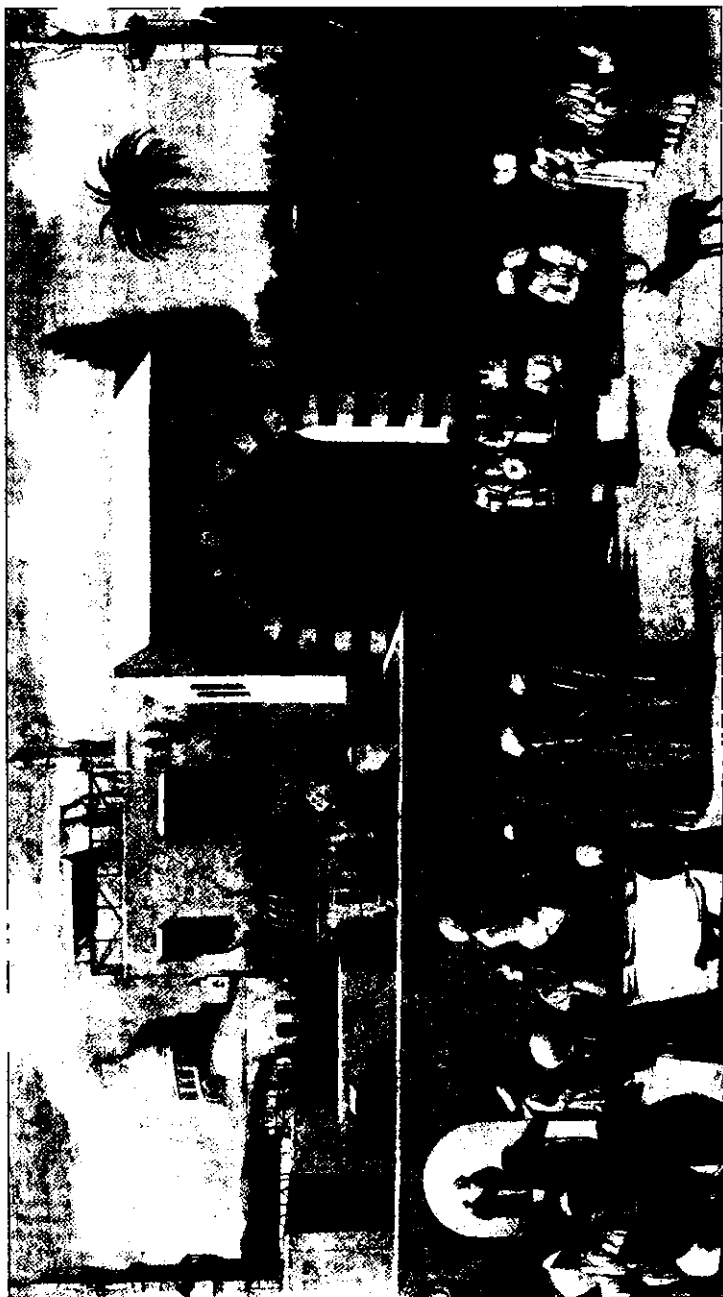
(4) CF. Quatremère نفس المرجع، الجزء الأول، ص 200.

(5) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 304.

(6) ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 200.

(7) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 304.

(8) Porter, Rev. J.-L., Five years in Damascus, vol. I, p. 62.



منظر تخيلي للجامع الأموي

لقد كان الوصول إلى الفناء يكون عن طريق ثلاثة أبواب: في الغرب، باب البريد، وهو باب روماني قديم لفناء المعبد لم يزل على حاله بكواته الثلاث دون تغييرات كبيرة. تذكر لنا الكتابات المنقوشة على التغليف البرونزية المطروقة التي مازالت حتى اليوم في مكانها على الدفتين الجانبيتين، أن التغليف النحاسية المذهبة التي تحدث عنها المقدسي في القرن العاشر قد استبدلت فيما بعد، عام 1416م أثناء الاصلاحات الكبيرة التي باشر بها حاكم دمشق في ظل حكم السلطان المملوكي، المؤيد. ومقابل باب البريد باب جيرون وهو باب روماني أيضاً لم يزل على حاله دون أي تغيير. ويؤكد المقدسي⁽¹⁾ أن الباب قد كان "من نفس طراز" الباب السابق، وكان مقر الفلكيين والخلان⁽²⁾. وفي زمن ابن بطوطة، كان تجار الأقمشة والمجوهرات والكتب وكتاب العدل وبائعو الورق "الذين يبيعون الورق وعيدان القصب للكتابة والحبر" مستقرين بالقرب من هذا الباب⁽³⁾. ويوجد مقابل الجناح المحوري باب بكوة واحدة، يدعى أحياناً باب الفراديس⁽⁴⁾، وباب البُلتكين⁽⁵⁾ وفي أغلب الأحيان باب الناطفين أي "باب بائعي الناطف والنوغا" أو "السكاكر"، ولقد كان هذا الباب يسمح بالوصول إلى الفناء من الجهة الشمالية. وفي نهاية القرن الثاني عشر - كما يذكر ابن جبير - كانت كل الأروقة التي بنيت في الزمن البيزنطي خارج هذه الأبواب "على حالها البدائي"⁽⁶⁾. ومن الواضح أنها كانت أماكن تجري فيها نشاطات تجارية كثيفة.

يؤدي بابان في حائط القبلة مباشرة إلى قاعة الصلاة. في الطرف الغربي باب الزيادة، يتقدمه رواق وهو يماثل رواق الأبواب الثلاثة الأخرى، منه يمكن الخروج للتوجه نحو قصر الخضر⁽⁷⁾

(1) المقدسي، نفس المرجع، ص 171.

(2) المرجع السابق، ص 171.

(3) ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 208.

(4) المقدسي، نفس المرجع، ص 172.

(5) Cf. Quatremère نفس المرجع، الفصل الثاني، ص 283.

(6) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 310. فيما يتعلق بالدهاليز انظر المرجع السابق، ص 80.

(7) لقد هدم القصر كله في زمن العباسيين (ابن بطوطة، الجزء الأول، ص 206)، وأعيد بناؤه فيما بعد للمرة الأولى وهدم نهائياً أثناء الاضطرابات في زمن الفاطميين. في القرن الثاني عشر يوضح ابن جبير (الجزء السادس، ص 310) أن مكانه كان مشغولاً بسوق النحاس. نفس الملاحظات أبداه ابن بطوطة في عام 1326م (الجزء الأول، ص 206). وسمي باب الزيادة بهذا الاسم لكونه فتح (أي أضيف إلى الأبواب الأخرى) في الحائط الجنوبي للمعبد القديم، بعد أن وضع المسلمون أيديهم على المكان.

وثكنة الفرسان "دار الخيل". كان هذا الرواق، كما يقول ابن جبير⁽¹⁾، عامراً في القرن الثاني عشر بتجار المصنوعات الزجاجية. وفي الطرف الشرقي باب الساعات، الذي كان، كما يذكر المقدسي، بمصرعين، ولا يحتوي على أي زخرفة ويتقدمه هو الآخر رواق، "مقر كتاب العدل وأمثالهم"⁽²⁾. في القرن الثاني عشر سُمي باب جيرون باب الساعات، إذ استقرت هناك آلة بارعة تسمح بمعرفة كل ساعات النهار وخاصة أوقات الصلاة. كتب ابن عساكر: "كان في الساعة مجسمات لعصفور وأفعى وغراب، ففي نهاية كل ساعة كانت تخرج الأفعى ويزقزق العصفور وينق الغراب وتسقط حصاة في طاسة صغيرة"⁽³⁾. في القرن العاشر، كان عند كل باب مكان للوضوء "مرصوف بالرخام ومزود بمنافذ ينبثق منها الماء ونوافير يصب ماؤها في حوض كبير من الرخام"⁽⁴⁾. و كان يجري غسل المسجد ذاته مرة في السنة: عن طريق نظام قنوات خاص معد بحيث يغزو الماء كل المبنى "بارتفاع ذراع" فتغسل الأرض والجدران، ثم "يختفي الماء كلياً عن طريق منافذ أخرى"⁽⁵⁾. ويبدو لنا عند قراءة ما كتبه المقدسي في هذا الموضوع أن هذا الحمام الكبير السنوي كان يعتبر أمراً فائق الروعة.

في المسجد اليوم ثلاث مآذن. في الشمال بالقرب من باب بائعي الحلوى توجد مثذنة العروس، وفي الشرق مثذنة عيسى وهي من الطراز العثماني، وفي الغرب المثذنة الغربية وهي من الطراز المملوكي بنيت كما يذكر نص التأسيس في عام 1488م. وهنا أيضاً فالوضع الحالي لا يوافق الوضع الذي كان عليه البناء في زمن بنائه، ففي زمن الوليد يبدو - كما يشهد بعض المؤلفين - أن المنارات كانت فقط أبراج المعبد القديمة ذات الجذع المضلع. كتب ابن الفقيه: "يعود أصل مآذن مسجد دمشق إلى أبراج مراقبة في زمن الروم، (...) وعندما جعل الوليد من المكان مسجداً فإنه ترك هذه الأبراج على وضعها القديم"⁽⁶⁾. وهذا ما يؤكد المسعودي بدون أي جدل بعد أقل من قرن في

وقد ذكره Porter في منتصف القرن التاسع عشر، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالدلهيز الذي يسبقه، وذلك في نفس المرجع، المجلد الأول، ص 64.

(1) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 310.

(2) المقدسي، نفس المرجع، ص 172.

(3) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 71.

(4) المقدسي، نفس المرجع، ص 172 - 173.

(5) المرجع السابق، ص 173.

(6) ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 131 ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 131.

عام 943م قائلاً: "بقيت أبراج الكنيسة القديمة على وضعها تماماً وأصبحت مآذن يدعو منها المؤذنون إلى الصلاة"⁽¹⁾. وفي عام 985م، يؤكد المقدسي وجود مئذنة قرب المدخل الشمالي يقول عنها: "بنيت حديثاً وغلفت بالفسيفساء"⁽²⁾ ولكن بعض المؤلفين⁽³⁾ ينسبون بناء هذه المنارة إلى الوليد. ومهما كان الأمر، فلقد هدمت هذه المئذنة الأخيرة في 1174 - 1175م وحلت مكانها قبل 1184م - التاريخ الذي حدده ابن جبير - مئذنة العروس التي نراها اليوم. ولم يتأخر البرجان الشماليان اللذان كانا في حال سيئة منذ بداية القرن الثامن في الانهيار بدورهما⁽⁴⁾. وبقي البرجان الجنوبيان محرومين من الطبقة العليا خلال عدة قرون، واستخدم البرج الغربي منهما ملجأ للنسك المغاربة حتى عام 1184م على الأقل، وهو التاريخ الذي ذكره ابن جبير. في الواقع ذكر ابن جبير وجود ثلاث مآذن: المئذنة الغربية التي كانت من الواضح برجاً رومانياً كان "أبو حامد الغزالي يعتزل في غرفته العليا ويسكنها اليوم ناسك"، والمئذنة الثانية في الشرق تماثل تماماً السابقة، أما المئذنة الثالثة في الشمال وتقع فوق باب تجار النوغا⁽⁵⁾. ولقد تضرر البرج الشرقي بزلزال عام 1202م، واحترق عام 1247م، وأعيد بناؤه واحترق من جديد عام 1339 - 1340م ورُمم مرة ثانية. يعود تاريخ جذع العمود المضلع القاعدة بالتاج الذي يعلوه على شكل مظفأة إلى الزمن العثماني. ووفقاً لبعض المصادر الإسلامية، يذكر أنه من هذه المئذنة سينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض عند اقتراب يوم القيامة ليحارب المسيح الدجال⁽⁶⁾. أما البرج الغربي الوحيد الذي مازال على وضعه سالماً، فقد بنيت فوقه طبقة عليا فيما بين 1184م ونهاية القرن الرابع عشر⁽⁷⁾. هدمت النيران هذا البرج الأخير عام 1401م أثناء الحريق الذي

(1) المسعودي، نفس المرجع، الجزء الرابع، ص 90.

(2) المقدسي، نفس المرجع، ص 192.

(3) Cf. Quatremère نفس المرجع، الفصل الثاني، ص 273.

(4) المرجع السابق، ص 273.

(5) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 307.

(6) Cf. Quatremère نفس المرجع، الفصل الثاني، ص 273.

(7) تدفعنا شهادة ابن بطوطة (وهي أضعف من شهادة ابن جبير، ولكن ليس فيما يتعلق بالجامع الأموي على كل حال...) إلى الاعتقاد أنه في منتصف القرن الرابع عشر لم تكن لأي منارة من المنارتين الجنوبيتين أي بناء فوقه بعد. فهو يذكر على عجل (Voyages، "الأسفار"، الجزء الأول، ص 203 - 204) أن المنارتين الجنوبيتين كان قد بناهما النصارى (أي كانتا برجين رومانين وعلى وضعهما القديم) وأن المنارة الشمالية فقط كان قد بناها المسلمون.

تلا احتلال دمشق من قبل جيوش تيمورلنك، ثم أعيد بناؤه عام 1488م بأمر من السلطان المملوكي قايتباي، وهذا البرج هو المئذنة الغربية التي نراها اليوم.

بني عدد من الأبنية الصغيرة في الفناء على نحو متتابع. يعود أقدم بناء بينها مؤكداً إلى زمن الوليد، وهو "بيت المال" ويسمى أحياناً "قبة الخزنة". وهو مُعد وفقاً للعادات الخاصة بأهل سورية لحفظ أموال الجماعة، وقد وصفه المقدسي بإيجاز ذاكرةً أن كل المدن السورية الكبيرة كانت تملك بيت مال مثله⁽¹⁾. بنيت قبة الخزنة هذه، وفقاً للطريقة البيزنطية، على قاعدة من الحجارة متناوبة مع صف من الآجر، مكونة غرفة مثمثة الأضلاع تحملها ثمانية أعمدة كورنيشية ضخمة وتعلوها قبة. ولما كانت الغرفة بجدرانها الخارجية المغلفة كلها بالفسيفساء لا تحتوي إلا على فتحة صغيرة في الجانب الشمالي الشرقي فلم يكن من السهل الوصول إليها إلا بسلم⁽²⁾. وهناك في الجزء الشرقي للفناء بناء صغير ثانٍ يعرف باسم قبة عائشة، بني على الأغلب، وفقاً لأبي البقاء عام 777م، في ظل حكم الخليفة العباسي المهدي (775 - 785م)⁽³⁾. وقبة عائشة هذه تشبه القبة الأولى ولكنها أصغر حجماً⁽⁴⁾، ويبدو أنها بقيت على الأقل حتى عام 1738م كما هو مذكور على خريطة الرحالة الأوروبي رتشارد بوكوك⁽⁵⁾، ولقد كان مكانها في موقع المقصورة المثمثة الحالية والمعروفة باسم قبة الساعة والتي يكاد أن يعود بناؤها - كما يدل طرازها - إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر. يذكر ابن عساكر أن قبة من الرخام المعرق تؤوي نافورة ماء من المحتمل أن تكون قد بنيت عام 1005 - 1006م، في وسط الفناء⁽⁶⁾. إلا أن حوض الوضوء الموجود حالياً في محل نافورة الماء هذه حديث. لم يذكر الرحالة الروسي بارسكي في القرن الثامن عشر غير بناء صغير واحد في الفناء وهو بيت المال، وعلى ما يبدو أنه نسي ذكر الأبنية الصغيرة الأخرى. وليست هذه هي الغلطة الوحيدة لبارسكي؛ فإضافة إلى

(1) المقدسي، نفس المرجع، ص 122. بيت مال دمشق هو الأخير حالياً. في حين هُدم بيت مال حماة في شباط 1982م.

(2) رمت فسيفساء بيت المال كلياً في القرن العشرين.

(3) Cf. Quatremère نفس المرجع، الفصل الثاني، ص 284.

(4) ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 201. ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 308.

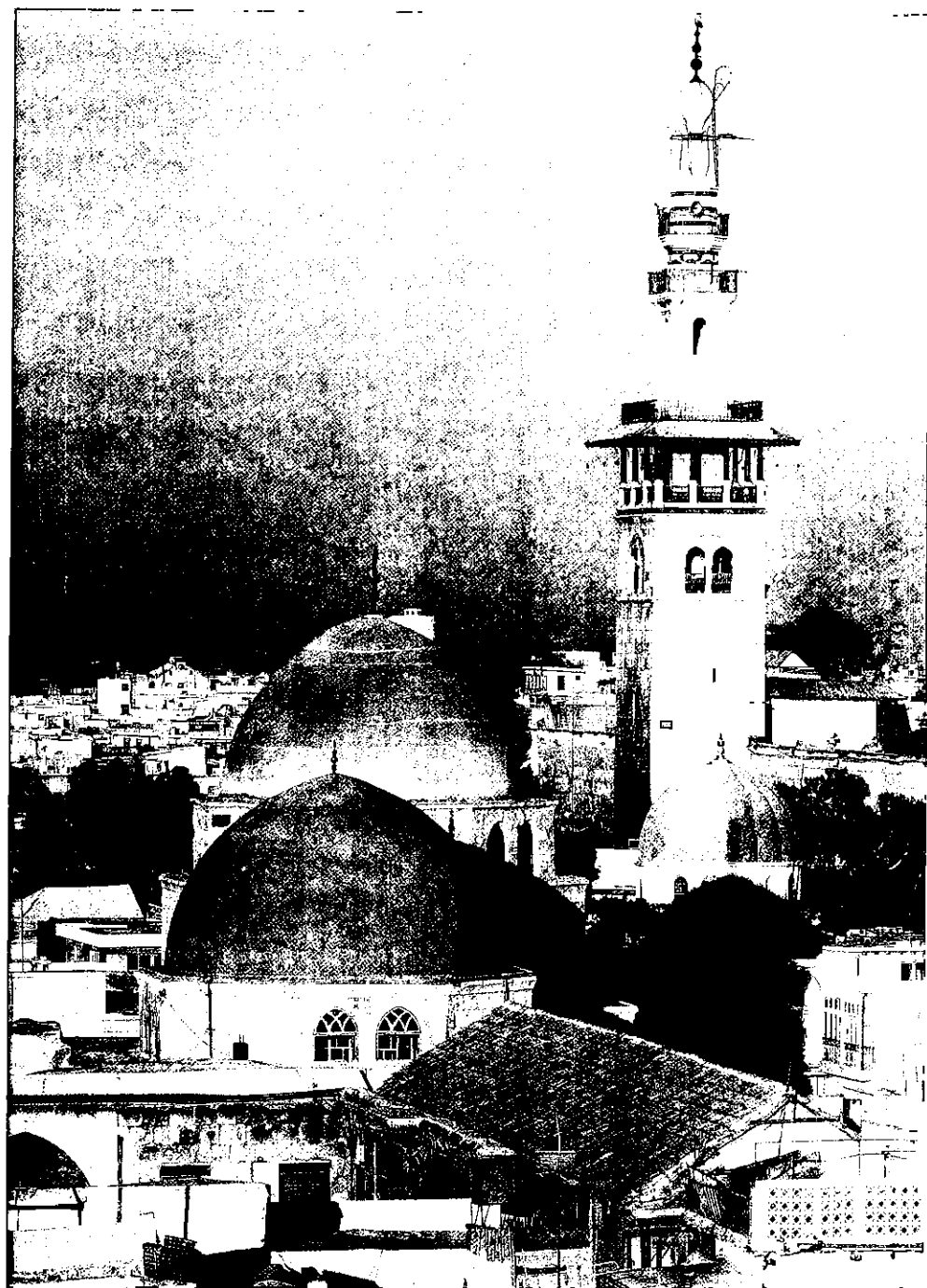
(5) Pococke, R. "A Description of the East" لندن، 1743 - 1745م، الجزء الثاني، ص 120.

(6) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 47 - 48. الوصف في ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 308. وانظر أيضاً كتاب

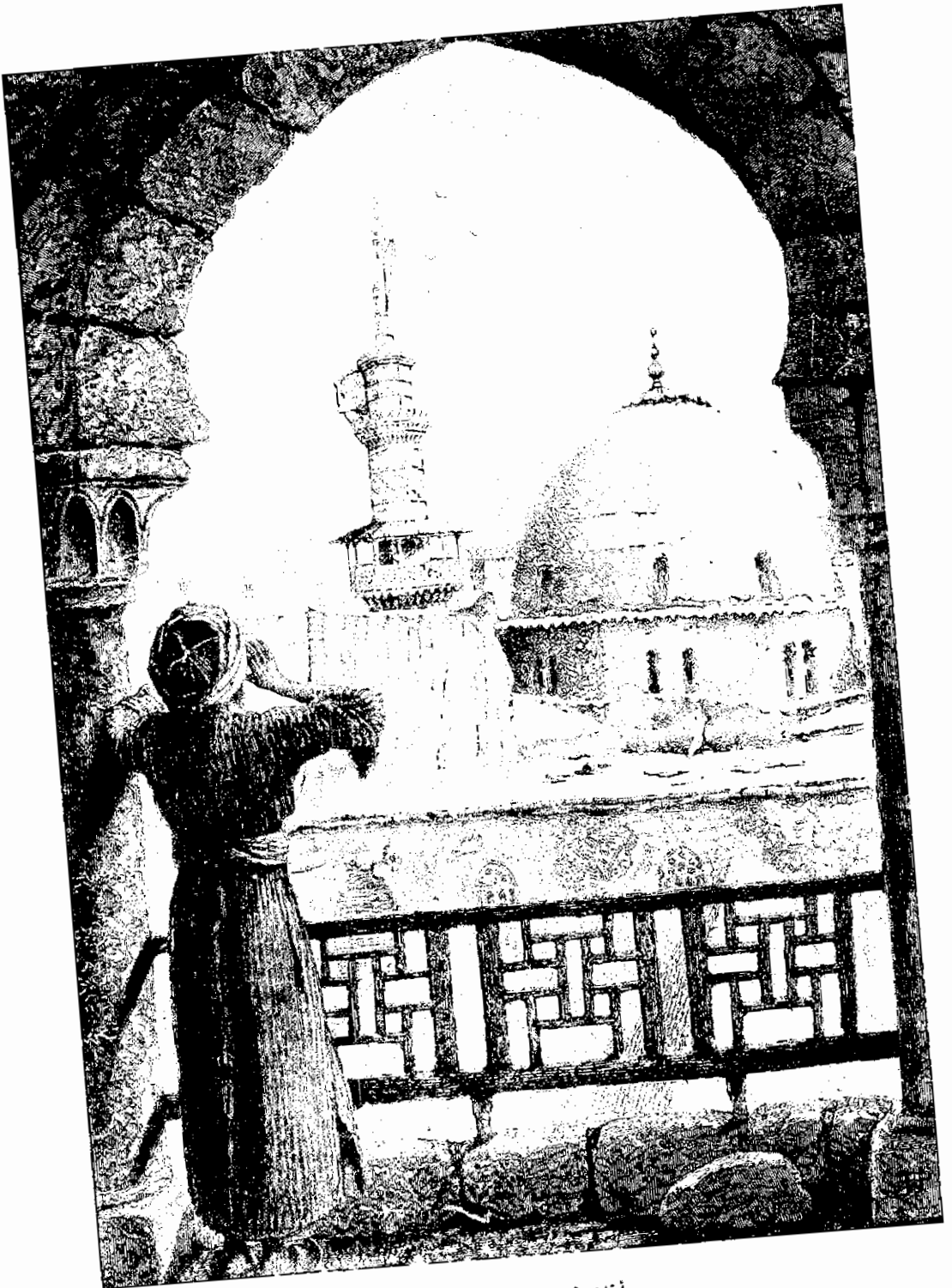
Degeorge. G. "سورية، فن، تاريخ، هندسة معمارية" (Syrie, art, histoire, architecture) باريس، هرمان، 1983م، ص 115.



الرواق الشمالي للجامع الأموي



مئذنة العروس



أذان في الجامع الأموي

العديد من الأخطاء وعدم الدقة فإن خريطته⁽¹⁾ التي رسمها على عجل ومن أعلى بيت مجاور - وهي أقدم خريطة للجامع استطعن الحصول عليها - فيها تحذُّ صارخ، إذ رسم في أعلى المنارات والقبة صلباناً. ولكن والحق يقال: إن معظم الرحالة الأوروبيين كانوا لا يزالون يعتبرون الجامع حتى ذاك الوقت كنيسة القديس يوحنا المعمدان القديمة.

إضافة إلى فخامة مسجد الوليد المعروف اليوم بالجامع الأموي وابتكار تصميمه، فلقد كان قبل كل شيء مشهوراً بروعة زخرفته التي ساهم فيها، كما يذكر ابن عساكر، ما لا يقل عن اثني عشر ألفاً من صانعي الرخام. فقليل من الأبنية الأثرية أثار من المديح مثل ما أثار هذا الجامع. فقد كان في نظر ابن الفقيه مع جسر سَرِيحَ ومنازة الإسكندرية وكنيسة الرُّها، واحداً من أربع روائع العالم⁽²⁾؛ وفي نظر المقدسي هو أجمل ما اقتناه المسلمون ولا يوجد في العالم مكان يضاهيه غنى⁽³⁾، ويفوق الجامع، في نظر ابن حوقل، بجماله وتركيبته الهندسية كل المساجد الأخرى في الأراضي الإسلامية⁽⁴⁾؛ والجامع في نظر ابن جبير، هو من أشهر جوامع الإسلام بجماله وإتقان بنائه، وابتكار هندسته وروعة زينته وزخرفته 312. ويؤكد ياقوت الحموي أنه إذا عاش رجل ألف سنة ودخل الجامع كل يوم، سيرى في كل يوم ما لم يلاحظه بالأمس⁽⁵⁾. وهو في نظر الشاعر الفرزدق لا يقل عن أن يكون أحد قصور الجنة⁽⁶⁾. أما الإدريسي، فلقد رأى في دمشق الجامع الأكبر والأجمل والأكثر صلابة في البناء والأكثر ندرة في العالم، سواء كان هذا فيما يتعلق بالرسم أو بالفن الذي هيمن على إنجاز زخرفته⁽⁷⁾. ويذكر ابن عساكر الذي زاره في منتصف القرن الحادي عشر أنه شاهد فيه "ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه، ولا الرائي أن يعرفه" فهو في نظره "بكرة الدهر، ونادرة الوقت، وأعجوبة

(1) توجد في Dussaud, R. "معبد جوبيتر الدمشقي" (Le Temple de Jupiter Damascène) دمشق، الفصل الثالث، 1922م، ص 249.

(2) ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 129.

(3) المقدسي، نفس المرجع، ص 171.

(4) ابن حوقل، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 302.

(5) Cf. Sauvage Cf. نفس المرجع، الجزء السابع، الفصل الثاني، 1896م، ص 186.

(6) Cf. Quatremère نفس المرجع، الفصل الثاني، ص 275.

(7) Idrisi "Géographie" Paris, Imprimerie royale, P351.VOL 1 1836-1840.

الزمان، وغريبة الأوقات"⁽¹⁾. وكما يذكر ابن شاعر: "لا يوجد مطلقاً على سطح الأرض بناء أثري أكثر منه جمالاً وأناقة وزينة"⁽²⁾. أما ابن بطوطة الذي رأى الكثير من المساجد الأخرى أثناء سفره وترحاله المتواصل، فيقول: إنه أكثر المساجد سمواً في العالم بفخامته وبنائه الفني وروعة جماله وأناقته وكماله". ويضيف "لا مثيل له ولا يمكن مقارنته ولا للحظة بأي مسجد آخر"⁽³⁾.

كانت تيجان الأعمدة كلها مغطاة بطبقة كثيفة من الذهب⁽⁴⁾، وكذلك الأمر فيما يتعلق بداخل القبة إذ "غطيت كلها بكتابة من حروف من الذهب رسمت بفن ووضوح رائعين"⁽⁵⁾. ووفقاً للأسلوب الروماني البيزنطي طُي الجزء السفلي لمجموع الجدران بترصيعات من الحجارة الملونة كان يعتبرها المقدسي أكثر الأشياء روعة في الجامع، حيث كانت كل قطعة تأخذ محلها بمحاذاة جارتها، والتي فيها يكتشف الإنسان المحترف، في كل يوم يزورها مدة سنة، شكلاً جديداً أو زخرفة جديدة"⁽⁶⁾. ومع هذا، فإنها قبل كل شيء بزخرفتها الفسيفسائية واسعة سعة لا مثيل لها، إذ تغطي الترصيعات كل الجدران الداخلية والخارجية للمبنى حتى إن جامع الوليد أصبح مصدر إعجاب عالمي. ويروي ابن عساكر أن الجامع كان يعتبر معجزة العالم الخامسة⁽⁷⁾.

وبدت فوق المحراب على طرفي الكعبة - نقطة المبنى المركزية المطابقة لمركز العالم⁽⁸⁾ - كل البلدان المعروفة "مع كل ما تنتجه من أشجار رائعة بثمارها أو أزهارها أو أي شيء آخر"⁽⁹⁾. كان هدف الوليد في الواقع ودون أدنى شك أن يقدم للناظرين تمثيلاً لهذه الدولة الواسعة التي كان يحكمها والتي تضم من المحيط الأطلسي إلى الهند في دار الإسلام⁽¹⁰⁾ الجزء الأكبر من العالم المعروف متسقاً

(1) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 24.

(2) ابن شاعر، نفس المرجع، ص 273.

(3) ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 197.

(4) Cf. Quatremère، نفس المرجع، ص 273.

(5) الإدريسي، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 352.

(6) المقدسي، نفس المرجع، ص 170. يعود حالياً تاريخ كل اللوحات الرخامية لجدران صالة الصلاة والدليل إلى ترميمات أبري.

(7) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 24.

(8) Cf. Quatremère، نفس المرجع، ص 271 - 272 و Sauvaire، نفس المرجع، الجزء السادس، 1896م، ص 423.

(9) Cf. Quatremère، نفس المرجع، ص 271 - 272 والمقدمي، نفس المرجع، ص 169.

(10) أي كل الأراضي التي كانت تحت سيطرة المسلمين.

حول الكعبة، مركزها الديني. ولكن لم يبق في بداية القرن العشرين من هذه الزخرفة الفخمة التي خربت بالكامل تقريباً أثناء حريق 1069 و1401 و1893م إلا بعض القطع المبعثرة على واجهة الجناح المحوري، وعلى الوجه الخارجي لأروقة الفناء، وعلى باطن القنطرة لبعض الأقواس. يذكر لنا بيير لوتي الذي زار المبنى عام 1894م خراب الفسيفساء: "يسطع هنا وهناك، ما تبقى من الفسيفساء مزخرفاً الأقواس التي مازالت قائمة: على خلفية من الذهب البيزنطي، بضع نخلات أو أغصان زهراء بسيطة. كما غطت الأرض آلاف من القطع الصغيرة اللامعة التي كانت تؤلف هذه الفسيفساء بدقة، وانتشرت على أكوام من خُشارة الجبص والأغصان المسودة؛ وكأن برداً قد هطل هنا، برداً من الرخام الأخضر والرخام السحائي والذهب"⁽¹⁾. منذ العام 1924م كشفت أسبار أُجريت تحت طلاء الجبص الذي كان يغطي حائط الرواق الغربي للفناء بقايا مهمة للوحة كبيرة مستطيلة أبعادها أربعة وثلاثون متراً طولاً بسبعة أمتار عرضاً. وانسط ما بين شريطين مزخرفين بأزرار الورد الكثير من الأشكال المتنوعة والمقصورات المتدرجة وطارمات بأعمدة وأبنية صغيرة بجبهات منحنية، في وسط طبيعة غناء انتصبت فيها أشجار كبيرة - لا تتناسب بحجمها مع مجموع التركيبة - على ضفاف نهر يجري. وحفظ بناء على شكل نصف دائري - مدعوم ببرجين مربعين ومغطى بسقف مسطح تحمله ستة أعمدة مضلعة، وزخرفته درابزينات مفرغة من الرخام الأبيض - ذكرى ميدان من ميادين خيل دمشق. وبرز وراء هذا البناء مباشرة منزل مغطى بسطح يسبقه رواق بثلاثة أعمدة في مكان كثيف الخضرة. في الأعلى توجد مجموعة من الأبنية تتوج جبلاً ينبثق منها برجان عاليان غطت أحدهما قبة على شكل بصلصة مضافورة الحواف تذكرنا بالكنايس الروسية. مباشرة إلى اليمين توجد أكثر القطع مهارة للوحة: على ضفة النهر وفي منحدر الهضبة، مجموعة من المنازل المتداخلة في غاية الجمال الطبيعي، من خطوط مائلة وواجهة وعوارض أرضية، وأسقف مسطحة أو مزدوجة الميلان، ونوافذ عالية صممت بإحساس حقيقي للمنظور، ومعالجة ذكية وصارمة للظلال. ودائماً على ضفة النهر، مقصورتان أنيقتان مئمتان بأعمدة كورثية وسقفين مائلين مزخرفين بغصينات مذهبة، توضع على طرفي شجرة، وارتبطت كل منهما بواسطة مصطبة محاطة بدرازين مفرغ، ببناء غني بدورين يذكرنا بذلك الذي يبدو في قاعدة قبة كنيسة سان جورج في

(1) Loti, "La Galilée", Paris, Calmann-Lévy P152-153, 1924.

سالونيك. وبين شجرتي سرو، سترت مقصورة مؤلفة من قبة مزخرفة بشبكة من المعينات على خلفية مذهبة، قائمة على أربعة أعمدة التفت حولها دوالي العنب، الجزء السفلي لمجموعة معقدة من الأبنية المتوضعة بعضها فوق بعض: أروقة وأعمدة وحواجز محززة، وقد علاها جميعها برج عالٍ بسقف مخروطي. كما حفظت مجموعة من المنازل - قد يحمل أعلاها صليباً - ذكرى حي دمشق حيث يعبر جسر أحد فروع بردى.

إضافة إلى مهارة انجاز هذا الفسيفساء المدهش والأكثر عفوية من مثيله في قبة الصخرة وما اتسم به من طابع متأثر بعمق بالحضارة الإغريقية، وقد أحيته دون أدنى شك مناظر الغوطة وقراها العديدة، فقد توضع الفسيفساء بألوان متألقة نادرة كأنها قصائد من الشعر، وبفن رائع في توزيع الألوان، إذ كون تسعة وعشرون لوناً سلباً من أربعين درجة في إشراقة الألوان: اثنا عشر درجة من الأخضر وتسع درجات من الأزرق، وخمس من البنفسجي والأصفر والأحمر والأسود والفضي والعاجي، ثم اللون الكلسي الأبيض والزهري والبنّي... ولقد زودنا المقدسي بتوضيحات قيمة عن تركيبة الفسيفساء فكتب: "صنعت الفسيفساء من توضع قطع زجاجية متناظرة وزنها درهمان من اللون الأصفر والرمادي والأسود والأحمر أو كتى من العقيق أو الذهب، على طبقة ذهبية مغطاة بشريحة زجاجية. يُمزج طلاء من الصمغ العربي يطلّى به الجدار، ثم توضع الفسيفساء الذي ترسم قطعها مجتمعة معاً صورة أو كتابة؛ وتكون المرصعات في بعض الأحيان مذهبة فيرى الجدار كله متألقاً بتأثير الذهب"⁽¹⁾.

تعد هذه الفسيفساء التي أنجزتها أيدي الفنانين البيزنطيين، وبأدوات أرسلت إلى دمشق بأمر من الخليفة، من الطراز القديم. في حين تبدو بعض العناصر مثل الصدف المدرجة في قوس وكأنها أتت من آثار الساسانيين. ونهل فنانون الفسيفساء وقد تحرروا من متطلبات الفن المسيحي الرسمي الاسطنبولي، من مصادر متنوعة توجد معظم لوحاتها التي اختفت اليوم في المدن الرئيسية للإمبراطورية الإسلامية. وتُذكر المباني الكبرى بتلك التي جعلت من ضمن زخرفتها صور الشهداء القديسين في سان جورج في سالونيك: المنازل المصفوفة سواء بتركيبتها أو بمعالجة المنظور والظلال، واللوحات الجدارية البومبية، وخاصة لوحات فيلة فانيوس سينيستور في بوسكوريل قرب مدينة

(1) المقدسي، نفس المرجع، ص 170 - 171.

نابولي؛ وتدفعا النزعة الطبيعية في الحدائق المذهلة للتفكير بتلك اللوحات الجدارية لفيلة ليفي في بريابورتا. ولم يغب عن بال الشعراء العرب ذكر هذه النزعة الطبيعية في أشعارهم: "أشجارها المثمرة دائماً لا تحشى الرياح العاصفة، فهي شديدة الخضرة كالزمرد مزروعة في أرض مغطاة بالذهب الصافي. هناك ترى فاكهة تظنها ناضجة لا يفسدها النضج على مرور الزمن"⁽¹⁾. وتذكرنا بعض الأجزاء وخاصة تلك الموجودة على الرواق الشرقي للفناء بفسيفساء قبة الصخرة في القدس. ويدل بعض التفاوت في انجاز الفسيفساء من رسوم ونقوش قد نقشت بطرق مختلفة على مساهمة فنانين مختلفين في انجاز هذا العمل. وقد جرت عدة ترميمات في القرن الثالث عشر بأمر من السلطان المملوكي بيبرس خاصة في الطرف الأيمن للوحة حيث يشابه مظهر المبنى سواء بشكله أو بطريقة تصميمه تلك الزخرفة التي تزين جدران ضريح بيبرس من الداخل⁽²⁾. في حين يمكن بكل سهولة تمييز الترميمات المعاصرة التي أنجزت بشيء من الخشونة وتلوين أقل مهارة من الأجزاء القديمة التي فصلت عنها بخط رفيع أحمر اللون.

تحت لوحة الفسيفساء، تجسد التشابكات الرخامية في نوافذ الغرفة الكبيرة الواقعة خلف جدار مؤخرة الرواق أحد المظاهر المهمة للفن الزخرفي الإسلامي، الذي تطور كثيراً فيما بعد؛ وهي التشابكات الزهرية. يبدو كل تشابك على شكل إطار مستطيل بتواءات يضم صفاً من القناطر قد ملئت فتحته - تحت قوس كامل منحوت ومتوضع على عمودين صغيرين جانبيين حلزونيين - شبكة من الخطوط المنحنية أو متعددة الزوايا قد تداخلت بمهارة وقد يتغير مخططها من نافذة إلى أخرى.

منذ بداية الإسلام وفي المدن المفتوحة كما في المدن المبنية حديثاً كالقوفة والبصرة وواسط والقسطاط، كان المسجد "المكان الذي يسجد فيه" مبنى حديثاً يرتبط بنفس النموذج الأصلي: فناء كبير وظلة، وهي الجزء المحمي من الشمس وهي صالة كبيرة يرتكز سقفها على أعمدة لا شيء يفصلها عن الفناء إلا ستائر معلقة بين الدعائم. والجدير بالذكر أن الدعائم نوعان؛ إما أركان أو أعمدة مقتطعة في أغلب الأحيان من الأبنية الأثرية القديمة. لم يبق مسجد واحد من هذه المساجد الأولى، ولا نعرفها إلا من خلال النصوص، فها هو ابن جبير يصف لنا باقتضاب مسجد الكوفة

(1) ذكر هذا ابن عساكر، نفس المرجع، ص 58.

(2) فيها يتعلق بضريح بيبرس و الفسيفساء، انظر المرجع السابق ص 251.



فسيفساء

الذي زاره في القرن الثاني عشر: "تضل العيون وهي تتابع ارتفاع الأعمدة. لم أر قط مسجداً في كل الأرض أعمدته أعلى منه، أو سقفاً أكثر ارتفاعاً من سقفه"⁽¹⁾. والمساجد ليست فقط أماكن للعبادة فهي أيضاً المكان الذي تناقش فيه الشؤون السياسية والعسكرية، وحيث تقام مراسيم تنصيب الخلفاء والولاء وحيث تحصل البيعات. إن سجلات الطبري مليئة بهذه الجلسات الصاخبة حيث غالباً ما تنسل الأسلحة من أعمدتها. فالمسجد نوع من الميادين، فهو مركز ترفيهي وملتقى ونزهة. مهمة المسجد هذه يشهد عليها المؤلفون، فلقد كتب أبو البقاء: في كل مساء يصبح الفناء مكان تلاقي سكان المدينة ومكاناً للنزهة، إذ نرى الناس غادين راثحين من باب جيرون إلى باب البريد، ولا يغادرون هذه الأمكنة حتى نهاية الليل⁽²⁾.

تطور هذا النموذج الذي يرجع أصله عادة إلى الصالات القديمة الكبيرة في مصر أو إيران الأخمينية تدريجياً ليصبح أكثر غنى وتميزاً بمساحات واسعة، وظهرت المقصورة للمرة الأولى. يذكر ابن الفقيه أن معاوية الذي يُلام لكونه حول الخلافة إلى ملك عضوض هو أول من اعتمد المقصورة وذلك في مسجد الصحابة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالشرطة والحرس والطواشية (الخصيان)⁽³⁾. يؤكد ابن خلدون هذه الصلة ويعتبر أن هذه البدعة التي "ميزت الخلفاء من عامة المؤمنين" ليست إلا مثل "كل ما يدعو للتفاخر، عادة خاصة بالسلالات الغنية والمزدهرة"⁽⁴⁾. هذا التفاخر الذي يفصل تلك الطبقة عن عامة الناس المقصود منه التمييز بالتأكيد والأمان أيضاً. إذ مات ثلاثة من الخلفاء الأربعة الأوائل موتاً عنيفاً، ومعاوية نفسه نجاً بأعجوبة من محاولة اغتيال. إضافة إلى المقصورة، نجح ابن جبير عن وجود باب من الحديد إلى جانب محراب الصحابة "كان يعبر منه معاوية ليدخل إلى المقصورة". كان استخدام المقصورة محصوراً في البداية على الخليفة ولكن الاستخدامات تعددت فيما بعد. يحصي أبو البقاء ثلاث مقصورات في صالة الصلاة: "الأولى

(1) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء الخامس، ص 241.

(2) Cf. Quatremère، نفس المرجع، ص 283. وانظر أيضاً إلى كتاب، ابن بطوطة، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 200.

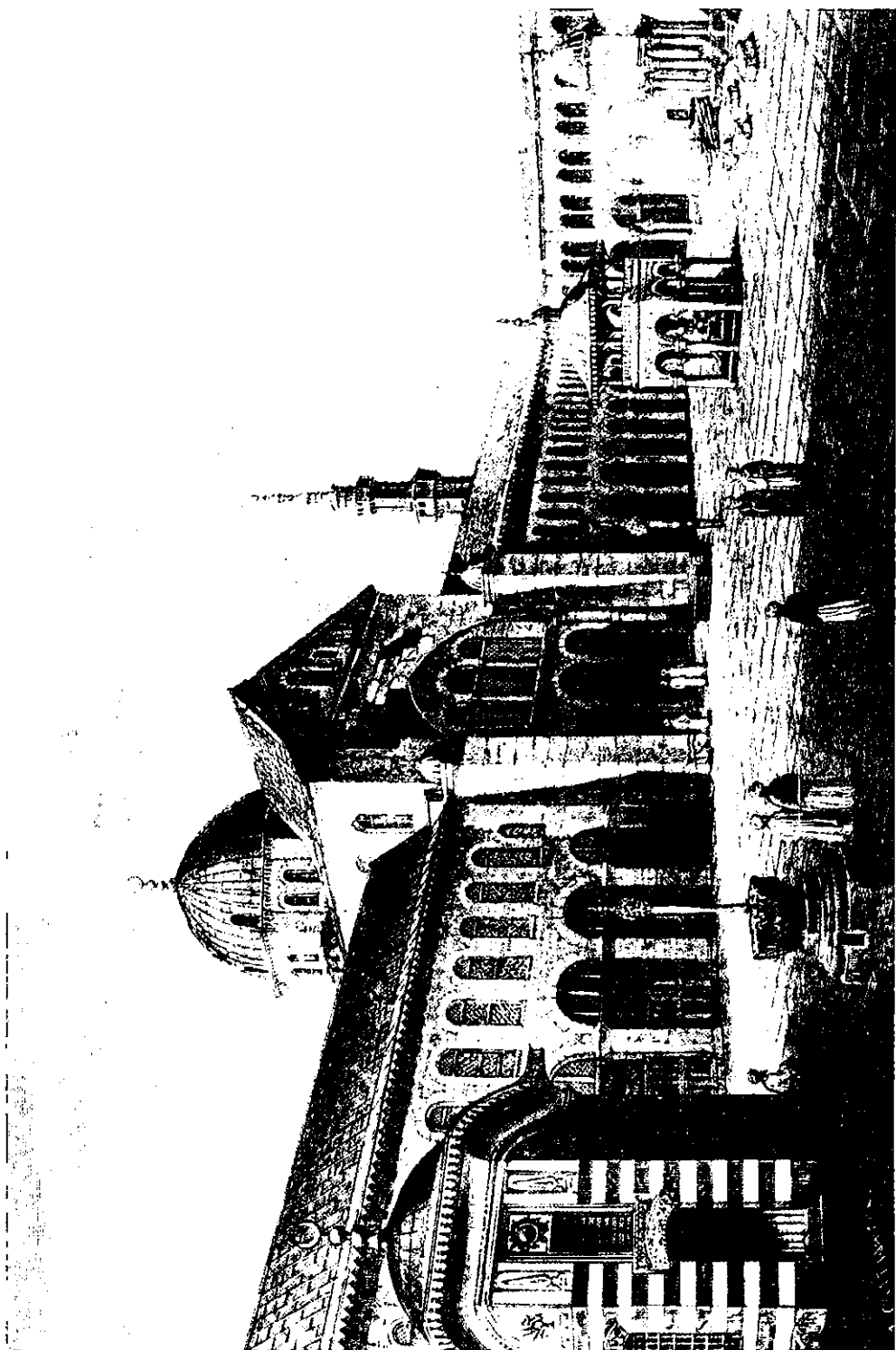
(3) ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 133. كما أن ابن الفقيه ينسب المحراب إلى معاوية على عكس أبي البقاء الذي يؤكد أن الأول كان قد بناء عمر بن عبد العزيز أثناء إعادة بناء جامع المدينة في عهد الوليد.

(4) ابن خلدون، "Discours sur l'histoire universelle" Sindbad 1978 Paris، الجزء الثاني، ص 551. يؤكد ابن خلدون الذي كان لا يجب معاوية أنه أول مسلم جلس على عرش.

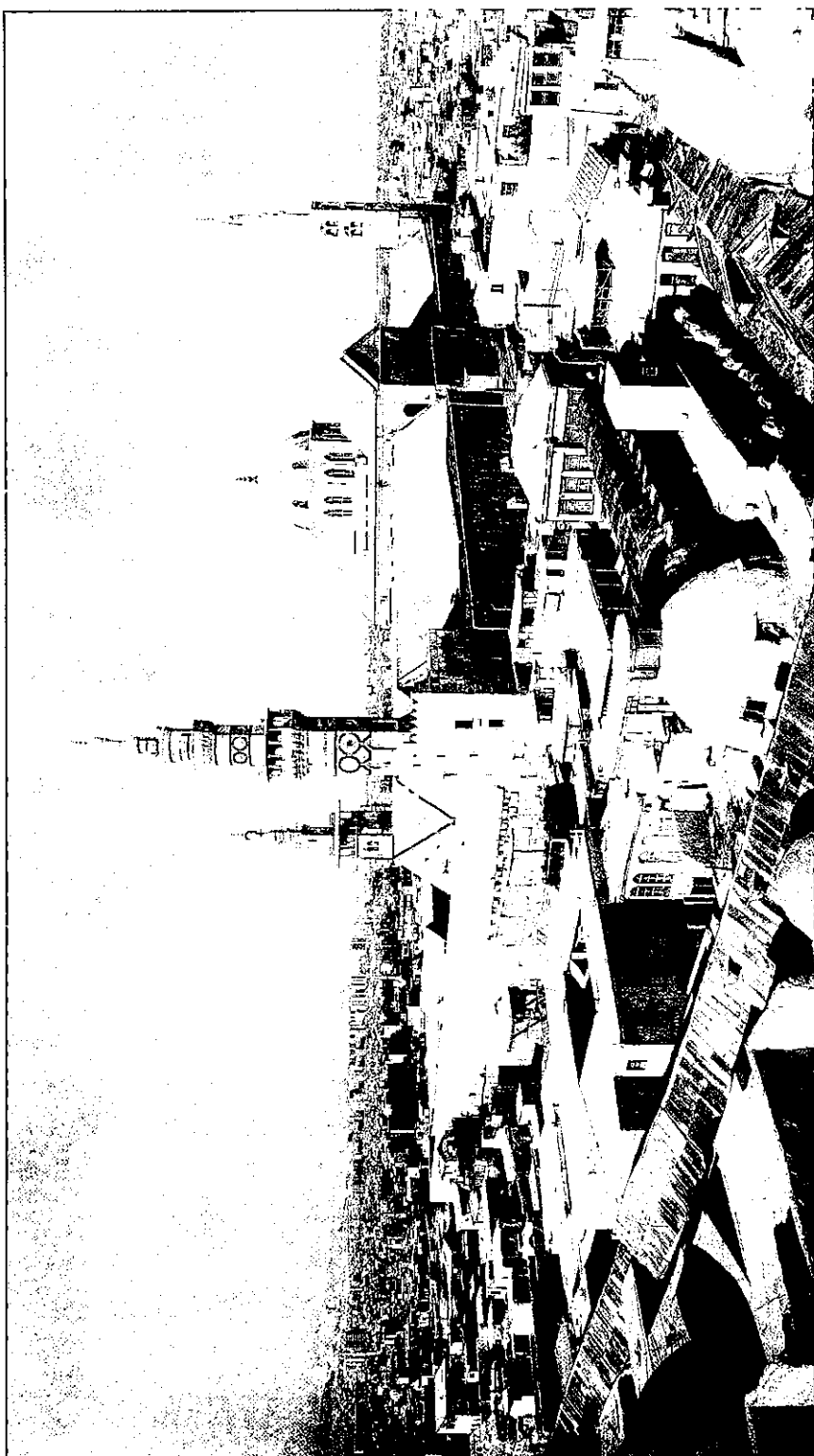
مقصورة معاوية، وغرب هذا المقصورة توجد مقصورة أخرى بنيت في عهد الوليد، والمقصورة الثالثة توجد في الغرب وهي المكان الذي كان يجتمع فيه الأحناف للتدريس والتعلم⁽¹⁾.

إن مسجد الوليد هو أقدم المساجد التي مازالت قائمة حتى اليوم إذا استثنينا مسجد الأقصى في القدس، وهو أول مسجد بني في سورية، يتميز خاصة بتأثيره الهندسي المدرك تمام الإدراك لهذا التطور الذي ترجم بالحجارة تغير طبيعة الحكم الإسلامي. فمحور الصلاة الطولاني مازال موجوداً، حيث يتجه المصلون الواقفون جنوباً إلى جنب صوب مكة، موازين حائط القبلة، إلا أن هذا المحور الطولاني مقطوع تعامدياً في مركزه بمحور ثانٍ، وهو محور السلطة مجسداً بالجنح المحوري وقبته وواجهته وجبهته والمحراب والمقصورة والخوض الموجود في وسط الفناء والمنارة الشمالية. وتعبّر الحدود بين الظلة والفناء عن هذا التطور على نحو خاص. حتى وإن لم تغلق الفتحات وقتاً طويلاً إلا باستائر، فإن الوحدة المكانية بين الفناء وصالة الصلاة أصبحت منقطعة بصف القناطر المتوضعة والجهة والباب الأثري بكواته الثلاث وزخرفته الفسيفسائية. وتشبه واجهة جامع الوليد على نحو عجيب واجهة قصر الملك أستروغوث ثيودوريخ (454 - 526م) - الذي استوحى هو الآخر تصميم فسيفسائه من قصر في القسطنطينية - وهذا في سان أبولينير نيوفو في رافن. إضافة إلى أن من المستبعد أن يكون أصل المهندس يعود إلى العاصمة البيزنطية. فللمبنى في الحقيقة أكثر من خاصية تذكرنا بالهندسة النصرانية: الصحن الثلاثة المتوازية، الأعمدة الخارجية التي تعلوها مناوور، والجنح المحوري ببابه ذي الكوات الثلاث وواجهته وقبته. ولكن كل هذه العناصر توضع بمضمون جديد غير من معناها جذرياً: فمن جهة لا يمكن الخلط بين الصحن الثلاثة ذات الارتفاع الواحد والعرض نفسه بالجنح والأروقة الجانبية، ومن جهة أخرى ليس الجنح المحوري إلا جناح كنيسة مصالباً، والمحراب الذي هو امتداد له ليس إلا صدر كنيسة مصغر، والمنارة ليست إلا جرساً. وفوق كل هذا، يستخدم المكان باتجاه يعامد اتجاه الكنيسة. إذ برغم الجنح المحوري الذي يتجه صوب مجموعة كبيرة من أجزاء المسجد الرمزية والزخرفية: من محراب ومنبر ومقصورة وقبة، فإن أداء الصلاة يكون في صفوف موازية لحائط القبلة.

(1) Cf; Quatremère نفس المرجع، ص 283.



د کونړ ولايت



ومع ذلك، فإن معظم الرحالة وعلماء الآثار الأوروبيين قد خدعهم التشابه الشكلي والترجمة الخاطئة لنص ابن عساكر، فادعوا أنه حتى بداية القرن العشرين لم يكن مسجد الوليد إلا كنيسة القديس يوحنا المعمدان. في الواقع نقل ابن عساكر عن أحد الرواة السلف من القرن الثامن أنه عند الفتح قُسمت الكنيسة بين النصارى والمسلمين. ومنه استنتج أن كل ما فعله الوليد هو استرجاع النصف الثاني من المبنى الذي كان ثيودور صاحب الفضل في بنائه. لقد كان هناك تقسيم بالفعل ولكن لفناء المعبد فقط وليس للكنيسة نفسها. ومنه استنتج ابن عساكر أن الوليد "هدم الكنيسة واستخدم أجزائها في بناء المسجد"⁽¹⁾. وكان الرحالة الإنكليزي ريتشارد بوكوك أول من أثار في القرن الثامن عشر الشكوك من مجرد ملاحظة المكان⁽²⁾. وكان لابد من الانتظار حتى عام 1872م لنفي هذه المقولة جذرياً؛ فلقد كتب أوجين ملشوار دو فوغيه: "يعتقد الناس أن المسجد ليس إلا كنيسة رئيسية نصرانية قديمة، وهذا الرأي لا يمكن الأخذ به خاصة عند مقارنة المسجد بمساجد القاهرة"⁽³⁾.

كان لمسجد الوليد، الذي هو نقطة اتصال في تطور النموذج الهندسي، والذي يعتبره المستشرق الفرنسي جان سوفاجيه "أحد أكثر المنجزات الهندسية روعة في كل الأزمان والبلدان"⁽⁴⁾، تأثيراً وصل إلى أطراف الإمبراطورية البعيدة. عندما أراد عبد الرحمن الأول (731 - 788) عام 786م بناء مسجد قرطبة اضطر - على حسب أقوال العديد من المؤرخين - أن يجعله مشابهاً لمسجد دمشق. وفي سورية نفسها، ليس مسجد حلب الكبير الذي بناه سليمان بن عبد الملك، وخليفة الوليد وأخوه، إلا

(1) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 31. وهذا ما نفهمه أيضاً من كلام الحاج المسلم أديب محمد الذي كتب في كتاب له ألفه عام 1682م كدليل للحجاج: "عندما فتح المسلمون دمشق، استولوا بالقوة على نصف هذه الكنيسة وحصلوا على النصف الثاني عن طريق اتفاقية تسليم مع الكفرة". نص من "كتاب مناسك الحج"، Paris, Everat Kitab Manasik al-hajj, 1825م، ص 35.

"باريس، 1772 - 1773م، الجزء الأول، ص 355 والتالية. Pococke, R. " Voyages de Richard Pococke en Orient.

(3) Creswell, 1910م، ص 75. للالمام بكل القضية انظر "Paris, Plon Vogüé, E. " De, Syrie, Palestine, Mont Athos " (من كاتدرائية دمشق إلى الجامع الأموي، سورية من الحكم البيزنطي إلى الإسلام) Acte de colloque, Maison de l'Orient Méditerranéen، دمشق، 1992م. Canivet et J. - P. Rey - Coquais، 11 - 15 أيلول 1990، طبعة

(4) Sauvaget, J. لمحة عن تاريخ مدينة دمشق، مجلة الدراسات الإسلامية، 8، 1954م، ص 448.

نسخة "تنافس مسجد دمشق بزخرفته ورخامه وفسيفسائه"⁽¹⁾. وكذلك الأمر لمسجد قصر الحيرة الشرقي، أحد القصور الأموية في الصحراء السورية، ولمسجد الخنابلة في الصالحية، أحد أحياء دمشق، ومساجد كثيرة أخرى، جميعها قلدته في كثير من الخصائص. في القرن الثاني عشر قال الإدريسي عن مسجد بيت لهيا، وهي إحدى قرى الغوطة، بأنه "يمكن مقارنته بجامع دمشق"⁽²⁾.

لقد شغل جامع الوليد بأبعاده وقدم بعض أجزائه التي نسي المعاصرون أصلها، مكاناً خاصاً في مخيلة المسلمين. تذكر إحدى الأساطير التي تذكرنا بتأسيس بعلبك أو تدمير أن الحائط الخارجي الذي كان يدهش الناظرين بأبعاده يعود الفضل في بنائه إلى هود، نبي قوم عاد⁽³⁾، أو إلى أهل سبأ الذين تنسب إليهم أيضاً قبة النسر⁽⁴⁾. أما فيما يتعلق بمداخل المعبد الشرقية التي مازال جزء منها موجوداً حتى الوقت الحاضر، فلقد هيمن عليها غموض كبير. فالاسم جيرون نفسه الذي أطلقه المسلمون على الباب الشرقي ذو أصل غامض جداً. يذكر المسعودي أنه في الزمن التوراتي، بعد وقت قصير مما حصل ببرج بابل، جاء رجل على ما يبدو إلى سورية وكان يدعى جيرون بن سعد بن عاد⁽⁵⁾، فأسس العاصمة "دمشق". وبعد أن جمع عدداً كبيراً من الأعمدة الرخامية، بنى قصره الذي كان بناءً فخماً: "إرم ذات العماد" كما تذكر سورة من القرآن⁽⁶⁾. ويوضح ابن مسعود أنه "في أيامنا (عام 943م) شغل القصر موقع أحد أسواق دمشق الواقع قرب باب المسجد الكبير ويسمى باب جيرون"⁽⁷⁾. أما فيما يتعلق بإرم،

القاهرة، 1956م، الجزء الأول، Harzfeld E., Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicum، ابن العديم، عن (1) المجلد الأول، ص 143.

(2) الإدريسي، نفس المرجع، الجزء الأول ص 349.

(3) ابن عساکر، نفس المرجع، ص 12. هود أقدم نبي من بين الأنبياء العرب الخمس (من ضمنهم محمد ﷺ) وقد ذُكر بالقرآن. انظر أيضاً المسعودي، نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 349.

(4) ابن حوقل، نفس المرجع، الجزء الأول، ص 171.

(5) قوم عاد: قوم قدماء ذُكروا مراراً في القرآن دون تفصيل لقصتهم. كان قوم عاد أقوياء وأغنياء عاشوا مباشرة بعد زمن نوح. ذكر المسعودي أن: "قوم عاد كانوا رجالاً عمالقة، طولهم بقدر ارتفاع شجر النخيل"، نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 349.

(6) المسعودي، نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 431 و 544. (ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد) القرآن، 89، 6.

(7) المرجع السابق، الجزء الأول، ص 431.

التي لا نعرف عنها شيئاً، يروي المسعودي للخليفة معاوية الذي سأل عنها أن الشاعر كعب الأحبار⁽¹⁾ قد وصفها بأنها "بناء رائع مغطى بالذهب والفضة مليء بالمسك والطيب"⁽²⁾. وفي القرن التاسع، كتب ابن خردادبه: "أن دمشق المسماة بذات العماد كانت موجودة قبل النبي نوح"⁽³⁾. كل هذه الروايات الغامضة غير المتوافقة تفصح في الواقع عن قدم المدينة التي يعود أصلها إلى أزمنة بعيدة عن معرفة ذلك العصر، وخاصة عن الذكرى الجميلة التي تركتها المدينة الرومانية الكبيرة بأروقتها الكثيرة وطرقها ذات الأعمدة عند عرب الجاهلية. إن كثرة الأعمدة بدت منذ زمن طويل من الخصائص المميزة لسورية وكأمر خارق للعادة: ففي منتصف القرن الحادي عشر كتب الرحالة الفارسي نصير خسرو: "الأرض في مقاطعات سورية مغطاة بأكثر من خمسمئة ألف عمود أو تاج عمود أو جذع عمود: لا أحد يعرف ما فائدتها أو من أين جيء بها"⁽⁴⁾. ويعقد ابن الفقيه الأمور أكثر وذلك بربط كل هذا بأسطورة سليمان فكتب: "قام على باب دمشق جيرون، أحد أبنية سليمان بن داود، وهو رواق ممتد من الأعمدة تنبسط حوله المدينة"⁽⁵⁾. وهكذا من الممكن أن يكون جيرون اسماً أطلق على المعبد القديم بأعمدته وأروقته، وهذا ما يؤكد الدمشقي الذي يذكر هو الآخر أن دمشق كانت تسمى فيما مضى "ذات العماد" فكتب: "يقال إن جامع دمشق كان في الأصل معبد جويتر قد بناه جيرون بن سعد بن عاد"⁽⁶⁾. ومع معلومة جديدة زودنا بها المسعودي يزداد الغموض، فهو يروي أنه أثناء بناء المسجد عُثر في حائط على بلاطة مكتوب عليها بالآغريقية كتابة لم يستطع اليهود ولا النصارى تفكيك رموزها وقد تبين أخيراً - وهذا شيء غريب جداً ولكن هذا ما كان - أنها كتابة من زمن سليمان⁽⁷⁾. الشوق إلى ما هو عجيب، والرغبة في جعل أصول دمشق تعود إلى الأزمنة الأولى، يُظهر على كل حال الحرص في ربط

(1) كعب الأحبار يهودي يباي اعتنق الإسلام في زمن أبي بكر الصديق. أقام في بلاط معاوية، ويذكر المؤلفون المسلمون اسمه كثيراً فيما يتعلق بعلوم الدين.

(2) المسعودي، نفس المرجع، الجزء الثاني، ص 544.

(3) ابن خردادبه، "Le livre des routes et des provinces" مترجم إلى العربية، Barbier de Meynard, Paris, Imprimerie Impériale 1865 م، ص 199.

(4) نصيري خسرو، نفس المرجع، ص 46. رحالة فارسي زار سورية حوالي عام 1040 م.

(5) ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 137.

(6) الدمشقي، نفس المرجع، ص 259، عن R. Dussaud "معبد جويتر"، سورية، 1922 م، ص 224.

(7) المسعودي، نفس المرجع، الجزء الثالث، ص 843.

المعبد القديم بالملك اليهودي العظيم الذي يعتبره القرآن أحد أعظم الشخصيات من بين الخليقة. إنه الحرص على ربط الخيط المقطوع بالماضي، بل وقبل كل شيء التأكيد أن تاريخ البشرية كله يؤدي إلى الإسلام. ويؤدي يحيى بن زكريا عند النصارى، - وهم يسمونه يوحنا المعمدان - والذي لذكراه بنيت الكنيسة، نفس الدور الذي يؤديه سليمان عند اليهود. ولقد كان من دواعي سرور كثير من المؤلفين المسلمين أن يسردوا بالتفصيل الرواية المفترضة عن اكتشاف زعيم المساكين القديس الذي سمي المكان باسمه. إذ عند بناء الجامع اكتشف قبو كنيسة، فكتب ابن عساكر: "عندما حل الليل نزل إليه الوليد حاملاً شمعة بيده (...). فوجد هناك صندوقاً ففتحه، ووجد بداخله في سفط رأس يحيى بن زكريا وهذه الكتابة: "هذا رأس يحيى بن زكريا". فأمر الوليد بتركه على حاله، وجعل للعمود القوائم على المغارة علامة تميزه"⁽¹⁾. وعلى حسب رأي ابن الفقيه، إنَّ هذا العمود يحمل اسم عمود السكاسك، أي "عمود الخشوع"⁽²⁾. وقد بُني بناء صغير لاستقبال هذا الرأس الشريف الذي رآه باقوت الحموي حين وضع تحت العمود "والبشرة والشعرة لم تتغير"⁽³⁾، ويقع هذا العمود بين العمود الرابع والخامس للرواق الجنوبي الشرقي بدءاً من الجناح المحوري. يصف ابن جبير الضريح المتواضع الذي رآه عام 1184م: "تابوت خشبي معترض من الاسطوانة، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف، كأنه القدح الكبير، لا يدري أمن زجاج عراقي أم صوري، أم غير ذلك..."⁽⁴⁾. أما الذي نراه اليوم فهو بناء أكثر فخامة بأعمدة وقبة مضلعة بني بعد حريق 1893م مكان ضريح قديم يرجع بناؤه إلى نهاية القرن السادس عشر على الأغلب. وساهم في انجاز المسجد الكبير الشيعة الأعداء، ولكن الأخوة في محبة النبي محمد (ﷺ). يروي ابن جبير أنه في القرن الثاني عشر أقيم في شمال باب جيرون أثر تذكاري كبير وواسع جداً، حيث وضع رأس الحسين قبل أن ينقل إلى القاهرة⁽⁵⁾. أما اليوم فما زال مشهد صغير يمكن الوصول إليه عن طريق باب تحت الرواق الشرقي لفناء المسجد - حسب الرأي الشائع - يحوي ذلك الرفات الثمين لشهيد كربلاء.

(1) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 14 - 15.

(2) ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 132.

(3) Cf. Sauvairé, H. نفس المرجع، الجزء السابع، ص 187 - 188.

(4) ابن جبير، نفس المرجع، الجزء السادس، ص 315.

(5) المرجع السابق، الجزء 6، ص 310. وانظر أيضاً ابن حوقل، نفس المرجع، ص 172.



منظر جوي للجامع الأموي

معتقدات وأساطير كثيرة أخرى زادت هالة الغموض التي تحيط بالمبنى غموضاً أشد. في عهد معاوية ردّد الشاعر كعب الأحبار رواية قديمة جداً تنبأ أنه: "سينى في دمشق مسجد يلقى أربعين سنة بعد نهاية العالم"⁽¹⁾، مؤكداً بهذا روعة هذا الجامع وما يوصف به من أشياء غير طبيعية. إن لأثر معماري كهذا، دون أدنى شك، ميزات ينفرد بها. إذ يروي ابن عساكر أن كل صلاة تؤدى فيه تعادل ثلاثين ألف صلاة تؤدى في مكان آخر⁽²⁾، وما كل هذا إلا وسيلة مثل غيرها لجلب المصلين الكسالى. ومن بين الأمور العجيبة الأخرى التي تتعلق بهذا المسجد نذكر ما كتبه الدمشقي: "يقال: إنه لا توجد عناكب لا في السقف ولا على الحيطان، في حين أن عصافير الدُّوري، مع أنها كثيرة جداً في الجوار، لا تبيض ولا تبني أعشاشها فيه احتراماً لقدسيتها"⁽³⁾. من الممكن أن يكون هيكل المبنى في زمن الدمشقي مبنياً من خشب الجوز، وهو خشب كما يعرف الجميع له الفضل في إبعاد العناكب⁽⁴⁾.

كان مسجد الوليد، إضافة إلى كونه مركز الحياة السياسية ومكاناً للصلاة والاستراحة، مكاناً تأمل وتعليم. يقول ابن جبير: "هناك العديد من الزوايا يرتادها المتعلمون لنسخ الكتب، والتعليم، وللابتعاد عن عامة الناس"⁽⁵⁾. بقي المسجد، على العموم، المكان الوحيد للتعليم، إلى أن أنشئ في القرن الثاني عشر، نمط خاص من المؤسسات هو المدرسة، أي مكان الدراسة.

عندما مات الوليد كان أخوه وخليفته "سليمان" في فلسطين، حيث كان حاكماً لمدينة الرملة، المدينة التي أسسها بنفسه. أكمل سليمان، حسب قول معظم المؤلفين، بناء مسجد دمشق الكبير أو على الأقل ما يتعلق بزخرفته. وعلى كل حال هذا ما يدفعا الدمشقي إلى الاعتقاد به، وذلك عندما يبيّن أنه في عهده استُخدم "إضافة إلى الرخام وأجزاء البناء القديمة، أربعون صندوقاً من الذهب للترصيع"⁽⁶⁾. ومع هذا لم تتوقف الحروب المضادة للبيزنطيين؛ فبعد أن استولى مسلمة بن عبد الملك

(1) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 11. يذكر ابن بطوطة أن هذه الرواية تعود إلى زمن النبي (ﷺ) نفسه، (الجزء 1 ص 204).

(2) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 18.

(3) الدمشقي، نفس المرجع، ص 259.

(4) ابن عساكر، نفس المرجع، ص 72 - 73، يدعي ابن عساكر أن الطلاسّم الموضوع في المعبّد كانت تبعد عنه البلابل والغربان والأفاعي والجردان والسلاطين والعناكب.

(5) ابن الجبير، نفس المرجع، الجزء 6، ص 307.

(6) الدمشقي، نفس المرجع، ص 259.

على برغام وسارد، حاصر في عام 716م القسطنطينية وقد ساندته ألف وثمانمئة سفينة حربية. وفي نفس الوقت، زادت أبعاد الانشقاق بين نصفي الإمبراطورية، وخاصة بعد اختفاء الحجاج، الحاكم الطاغية الوقي الذي اليد الحديدية، منذ عام 714م. وأصبح المتمردون، الذين لم يتوقفوا منذ ذلك الوقت عن تحريض الإيرانيين، أكثر عداوة للسوريين. وكانت هذه بداية الحركة الكبيرة التي عمت المشرق لمصلحة العباسيين، واضعة نهاية للحكم الأموي في أقل من نصف قرن. في عهد الخليفة سليمان، زاد رجال الدين تأثيرهم في الشؤون السياسية، مما سهل وصول ابن عمه عمر بن عبد العزيز إلى الحكم. وفي دابق، شهادي سورية، مات في تشرين الأول عام 717م سليمان الذي كان، كما يروي المسعودي، ذا نهم "يفوق التصور"⁽¹⁾ وكان، كما يروي الطبري، "محباً للنساء والملذات والولائم"⁽²⁾، إلا أن الطبري اضطر إلى الاعتراف أن سليمان كان "يعتبر ملكاً جيداً"⁽³⁾.

وخلف سليمان ابن عمه، عمر بن عبد العزيز، برغم اعتراضات ابني عبد الملك، يزيد وهشام. كان عمر بن عبد العزيز ابن أخ عبد الملك وزوج ابنته، وقد كان الحاكم الأعلى الأموي الوحيد الذي، بتقاه الشديد إلى درجة التزمت، استطاع أن يحظى برضا رجال الدين. وعمل الشيعة، راغبين، دون أدنى شك، على إبراز اختلاف عمر عن الآخرين، فكتب المسعودي: "كان تقوى وتواضع عمر بن عبد العزيز شديدين، حتى إنه استدعى كل العمال (الولاة) الذين كان قد عينهم سابقوه وأبدلهم بأشد من وجد من الرجال نزاهة (...). وتوقف الناس منذ ذلك الوقت عن لعن علي على المنابر"، لذا كان ضريح عمر بن عبد العزيز، كما وضع المسعودي⁽⁴⁾، الضريح الوحيد الذي حظى بتقدير بين أضرحة الأمويين التي دُست عند قدوم العباسيين. وقد صدمت فخامة المسجد الكبير تواضع هذا الخليفة، فرغب، كما يذكر لنا ابن شاعر، أن ينزع السلاسل والفسيفساء والرخام ويبدلها بحبال وطوب وحجارة⁽⁵⁾ ليعيد إلى خزينة المسلمين المبالغ الهائلة التي صرفت بطريقة غير شرعية. كما رغب أيضاً، بغية "استدراك هذا التبذير"، أن يقتلع من جدار القبلة الذهب المرصع به لأنه، كما كان يقول، يشغل

(1) المسعودي، نفس المرجع، الجزء 4، ص 858.

(2) الطبري، الأمويون، ص 172.

(3) المرجع الأخير، ص 204.

(4) المسعودي، نفس المرجع، الجزء 4، ص 868.

(5) Cf. Quatremère نفس المرجع، الجزء 2، ص 274.

المصلين أثناء صلاتهم"⁽¹⁾. ولم يحوله عن آرائه المتقشفة إلا اعتراضات الدمشقيين الحادة الذين كانوا فخورين جداً بمسجدهم. ولما كان عمر بن عبد العزيز مهتماً جداً بمصير المُعَلِّمين من الفقراء والمساكين، بنى على امتداد الشوارع العديد من الخانات والمآوي على شكل طوابق ومخازن للبضائع وملاجئ للمسافرين الذين كان بإمكانهم أن يتزودوا منها بأحذية ونقود دون مقابل. أما النصاري الذين كانوا يشتكون من اختفاء كنيستهم، كنيسة القديس يوحنا المعمدان، فقد رمم لهم عدة كنائس لم تكن من ضمن اتفاقية الاستسلام. ومن الناحية العسكرية أوقف منذ وصوله إلى الحكم حصار القسطنطينية الذي كان مستمراً منذ سنة، في حين عبرت الجيوش الإسلامية في الغرب لأول مرة جبال البيرينيه. ولما كان متعمقاً بعلوم القرآن والسنة والشرع التي درسها في المدينة (المنورة)، جمع حوله في دمشق كبار العلماء، مكوناً مجلساً للشورى مهمته السهر على تطبيق مبادئ الإسلام بدقة. وفي عهده، استمر جمع الزكاة والهبات الموصى بها، ونُشِر الدين بهمة لم يكن لها مثيل فيما سبق.

مات عمر مسموماً في شباط 720م، فخلفه ابن أخيه⁽²⁾ يزيد بن عبد الملك، حفيد يزيد الأول من أمه. ولما كان يزيد الثاني مولعاً مثل العديد من الملوك الذين سبقوه بالصحراء والصيد وحريصاً على الهرب من ضجة العاصمة، أمضى جزءاً كبيراً من خلافته في منطقة البلقاء، في شرق الأردن، وكان، كما كتب المسعودي، "مستغرقاً في الشرب والملاذات والفسق"⁽³⁾. واستبدل بجهود عمه⁽⁴⁾ في جمع أحاديث النبي (ﷺ) الشريفة بحثاً دؤوباً قَبْلَ القبائل بغية جمع تراث العرب، من حيث تسلسل الأحداث، وتأريخ الحروب، والشعر وعلم الأنساب واللهجات المحلية، وأصبحت للشعر قيمة وتقدير كبيران كما كان عليه الحال أيام الجاهلية. ولم يُنس الفن الغنائي: لذا تلقى المغني الكبير معبد أبو عباد الذي ربح في عهد عبد الملك مسابقة نُظمت في مكة، كثيراً من التقدير بسبب موهبته واستلم هبة تقدر بأثني عشر ألف قطعة ذهبية. وكانت تقام في قصور الصحراء سهرات ماجنة يحييها المغنون والعبيد، حافلة بالغناء والشعر الشهواني والخمرات، حيث كانوا يعاقرون الخمر، وحيث لم يكن هناك مكان للعلوم الدينية والعلماء بوجوههم العابسة. هذه الملاذات وما رافقها من عدم احترام الواجبات الدينية كانت

(1) ابن عساکر، نفس المرجع، ص 62-63.

(*) ابن عمه وليس ابن أخيه.

(2) المسعودي، نفس المرجع، الجزء 4، ص 880.

(*) بل ابن عمه أي عمر بن عبد العزيز.

سبب نعت يزيد بن عبد الملك بالزنديق. وتفاقت النزاعات القبلية في عهده بين القيسيين والكلبيين، في حين سُخِّرَت قوى كبيرة لسحق عُرد في العراق. ومات يزيد الثاني في 26 كانون الثاني 724م، ولم يتجاوز عمره آنذاك أربعين سنة، وهذا بعد أسبوع من موت حبيبته المغنية حَبَّابة، تلك الأمة التي تحدث عنها المسعودي. وخلفه أخوه هشام الذي عينه خلفاً له. فأحيا هذا الخليفة، الذي دام حكمه مدة حكم معاوية وعبد الملك، زمن الاشراف الأموي الأخير. ومع أن المسعودي قال لامراً إياه: "كان أحول عنيف الطباع، قاسياً وبذيء اللسان، ويجب أن يثري خزنته"⁽¹⁾، فإنه لم يستطع إلا أن يقدره لإدارته التي لا مثيل لها⁽²⁾، فكتب: "انتهت بموته السلطة الحكيمة والإدارة الجيدة". لقد عرف بحسن إدارته لدرجة أن الخليفة العباسي المنصور، كما يضيف المسعودي، كان "في كثير من المناسبات في حياته السياسية والإدارية، يقلد هشام بعد أن درس بتعمق تاريخه وحكمه"⁽³⁾. وشجع هشام صناعة الأقمشة والسجاد والأسلحة، ودعم الحدود، وأمر بحفر العديد من القنوات تحت الأرض وخزانات المياه على طول طريق الحجاز. وفي منطقة دمشق، اهتم كثيراً بأعمال الري، وأمر بحكام الغوطة بتوزيع الماء على أحسن وجه بين أصحاب الأراضي المطلة على النهر والقنوات المتفرعة عنه⁽⁴⁾. ولما كان مستعجلاً دائماً في الحرب من الإقامة في دمشق حيث كان يهيمن القيسيون المعادون له، وفي العيش في الصحراء حيث احتفظت اللغة العربية بصفائها، أقام في الرصافة، القريبة من الضفة اليمنى لنهر الفرات. وتشهد كل الصحراء السورية على ولعه بالبناء: ففي منطقة تدمر يوجد خرائب قصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي، وقصر الحلابات في الأردن، وقصر في عمان.

أما فيما يتعلق بالشؤون الخارجية، فلقد حققت الجيوش الإسلامية انتصارات في كل الجبهات. ففي الشمال، أوقفت هجمات الأتراك الخزر، ودُفعت معه الحدود حتى منافذ الفولغا مؤقتاً. واحتلت جيوشه في بلاد الغول "فرنسا"، كركاسون ونيم عام 725م، وأرل عام 735م وهددت البورغونيين. أما في الداخل، فبدأت تظهر أول علامات التفكك. ففي الغرب سُحِّقَ بحزم المعارضة "القومية" البربرية المتأثرة بالخوارج، ولكن لم يستطع الحكم الأموي الهيمنة على المغرب، كما أخذت سنة 740م

(1) المرجع الأخير، ص 889.

(2) المرجع الأخير، ص 894.

(3) المرجع الأخير، ص 479.

(4) ابن عساکر، نفس المرجع، ص 250 - 251.

أول ثورة شيعية في الكوفة كان يقودها حفيد الحسين، زيد بن علي، الذي قُتِلَ وسلاحه في يده، فقويت شوكة الحركة الهاشمية مستفيدة من هذا الشهيد الجديد. وفي دمشق، في نفس السنة، أشعل متمرّدون عراقيون حرائق خلفت وراءها أحياء عديدة مدمرة تماماً.

عمل هشام الشديد الالتزام، المتسامح مع النصارى، على نشر تعاليم الدين الإسلامي، ومع ذلك واصل الغناء والموسيقى والشعراء إبهاج البلاط الملكي بقدر لا يقل عما كان عليه. كانت السنوات الأخيرة من حكم هشام مقلقة بسبب مشاكل الخلافة: إذ بعد أن حاول أن يجعل أحد أبنائه خليفة له في الحكم، انتهى به الأمر بقبول تعيين الوليد بن يزيد الذي خلفه عندما مات في الرصافة في شباط عام 743م.

بعد ظهور الوليد في دمشق مدة قصيرة لحضور مراسيم تولي العرش والبيعة، أسرع بالعودة إلى أماكن إقامته في الصحراء، في الفودين والقسطل والمقر والأزرق والمشتى، حيث كان يجتذبه مزاجه المتشرد وولعه المجنون بالصيد، وحيث، إذا ما صدقنا المسعودي، كان بعيداً عن العلماء المستائين، يعيش حياة ماجنة، فلقد كان يحب الخمر والملذات، وكان، كما يذكر المسعودي، مولعاً بالموسيقى والحفلات الغنائية، فهو أول من أحضر مغنين من جميع بلدان العالم وأحاط نفسه بالمهرة من عازفي الموسيقى، واندفع علناً في العريضة وتذوق الموسيقى. ولما كان منحلاً أخلاقياً ولفاً ويهوى الصبية ويقرض الخمرات والأشعار الفاجرة، فقد كان يلقب بفاسق الروائيين؛ إذ يقال: إنه تجاوز الحدود مرتين، الأولى عندما كان يتمرن على رمي السهام مستخدماً القرآن الكريم هدفاً له، والثانية عندما أنكر في إحدى قصائده الشعرية أن الله أوحى إلى النبي (ﷺ)⁽¹⁾. ويبدو ذوقه الرفيع واضحاً في عبارة له عندما أجاب في أحد الأيام عندما سئل عما يجذبه من الملذات فقال: "محادثة هيمة في ضوء القمر على تلة من الرمل الناعم"⁽²⁾. وبينما كانت حياته تسير على هذا النحو في الصحراء، كانت الثورة تتأجج في المقاطعات، يؤججها أعمال عنف لا فائدة منه وحماقات ثقيلة، وللمرة الأولى بعد معاوية، وصلت الثورة إلى سورية التي كانت حتى ذلك الحين حصن الأمويين المنيع. وكوّن القاديون، أنصار حرية الاختيار الذين جرى ردهم بقوة في عهد هشام، والكلييون والروائيون، يدعمهم

(1) المسعودي، نفس المرجع، الجزء 4، ص 898-904.

(2) المرجع الأخير، ص 899.

أنصار من داريا والمزة⁽¹⁾، أهم قريتين في الغوطة، تحالفاً كان يقوده يزيد بن الوليد. غادر المتمرّدون دمشق واندفعوا في ملاحقة الخليفة، المشغول حينئذ بالصيد في الفيفاء السورية، وقتلوه في 27 نيسان عام 744م بعد أن أدركوه في حصن البخرة الصغير في جنوب تدمر.

بويح يزيد بن الوليد خليفة، إلا أنه مات بدوره بعد ستة أشهر بعد أن سممه أخوه إبراهيم، كما تذكر رواية المؤرخ اليعقوبي. وانفجرت حرب أهلية حقيقية في سورية حيث لم يحصل إبراهيم على الاعتراف به إلا في الجزء الجنوبي من سورية. ودخل مروان، حفيد الخليفة "مروان بن الحكم"، سورية كوصي على ابن الوليد، حيث انتصر على القوات السورية المكونة من الكلبيين في الدرجة الأولى، والتي كان يقودها سليمان بن هشام وذلك في 18 تشرين الثاني عام 744م في عين الجّر عند السفح الغربي لجبال لبنان الشرقية. وفي كانون الأول، دخل مروان دمشق مستقبلاً ولاء السكان، واستقر مثل العديد من الخلفاء الذين سبقوه، في شمال سورية، في حرّان، مدينة كرهى الرومانية قديماً، مهملاً العاصمة الأموية القديمة. ومن هناك عمل على إعادة فتح إمبراطوريته مدعوماً بالقيسين. وفي صيف عام 746م، وجه جيوشه بعد أن استتب الأمن في سورية صوب المقاطعات، وسحقت ثورة الخوارج في العراق، وعادت سورية ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية متحدة من جديد. ولكن في حزيران 747م، اندلعت ثورة في خراسان يقودها أبو العباس وأخوه أبو جعفر، زعيما الحركة العباسية. ولما كان العباسيون من نسل العباس، عم النبي (ﷺ)، استطاعوا أن يستغلوا بمهارة مشاعر كل المستائين: كأولئك الذين أبعدهم نجاح الأمويين عن السلطة من الهاشميين والعلويين، وكذلك طبقة الموالي، وهم الأسرى الذين اعتنقوا الإسلام ثم حُرّروا والذين كانوا يطالبون بتطبيق مبادئ الإسلام جيداً ليحصلوا على حقهم في المساواة مع المسلمين العرب في جميع الحقوق. وكان إعلان أبي العباس خليفة بعد الاستيلاء على الكوفة في 28 تشرين الثاني عام 749م، في نفس المدينة التي قُتل فيها عليّ قبل قرن من الزمن.

انهزم مروان في كانون الثاني عام 750م في الزاب الأعلى. إذ بعد مطاردته في الأراضي السورية برفقة حرسه الخاص وعائلته، نجح في الوصول إلى مصر، واحتلت دمشق في 28 نيسان عام 750م

(1) المرجع الأخير، ص 909.

بعد مقاومة قصيرة. وكانت المجازر مرعبة؛ إذ كتب المسعودي: إنَّ دمشق قد غرقت بالدماء⁽¹⁾ ودكت الأسوار⁽²⁾. وبعد وقت قصير، دُبِح ثمانون أمويّاً على ضفتي نهر "أبو فُتروس"⁽³⁾. وفوجئ مروان ليلاً عندما وصل بوصير في مصر الوسطى "بصوت الطبول والتكبيرات"⁽⁴⁾. وبعد مقاومة باسلة، سقط مروان في 17 آب 750م، وبموته كانت نهاية الحكم الأموي.

أُرسل رأس الخليفة وفقاً لعادات ذلك الزمان إلى أبي العباس، إذ كتب أبو الفرج الأصفهاني أنه "عندما وُضع الرأس أمامه، ارتمى على الأرض ساجداً لله وصرخ: "الحمد لله الذي كتب لي النصر عليك، وها أنا ذا انتقم منك ومن عصبتك أعداء الدين"⁽⁵⁾. وتلا هذا أحد أكثر المشاهد فظاعة في التاريخ الإسلامي، التي تعبر عن عمق الأحقاد المتركمة، إذ دُبِح الأمراء الأمويون بكل برودة عندما دُعوا إلى وليمة صلح، حيث "رمى عليهم أبو العباس سجادة وجلس عليها وأخذ يأكل ولم تزل حينها أجسادهم تحفّ من تحته، وعندما انتهى قال: "لم أتناول قط وجبة لذّ وأشهى من هذه"⁽⁶⁾، ويروي المسعودي أنه أضاف: "لا يهم الآن إن أتاني الموت، فلقد انتقم للحسين ولنسل أبي بدماء منّي أموي، لقد انتقم لابن عمي زيد بن علي بحرق جثة هشام، وإن قتل مروان كفر عن موت أخي إبراهيم"⁽⁷⁾. ولم ينبُج من هذه المجزرة إلاّ عبد الرحمن بن معاوية، حفيد هشام، الذي نجح في الهرب إلى الأندلس حيث أسس عام 756م إمارة قرطبة التي توافد إليها من سورية العديد من الموالى والأنصار.

عمل العباسيون المنتصرون على تشويه ذكرى الأمويين، ففي دمشق ودابق والرصافة وقسرين جرى الاعتداء على أضرحتهم ونُشِ رفاتهم وحرّقها. كما قُلبت في دمشق رأساً على عقب، وفق بعض الروايات، مقبرة الباب الصغير التي أسست عند حصار عام 635م، حيث دفن الصحابة الذين ماتوا أثناء الهجوم والعديد من الأمويين، وجرى تحويلها إلى أرض زراعية. ويروي بعض

(1) المرجع الأخير، ص 931.

(2) البلاذوري، نفس المرجع، الجزء 1، ص 193.

(3) المسعودي، نفس المرجع، الجزء 4، ص 931.

(4) المرجع السابق، ص 931.

(5) Cf. Sauvage, J. (المؤرخون العرب) "Historiens arabes" ص 57. الأصفهاني ولد في أصفهان ومات عام 967م.

(6) المرجع السابق، ص 59.

(7) المسعودي، نفس المرجع، الجزء 4، ص 942.

المؤرخين أن المنتصرين هدموا كل القصور. مع هذا يذكر اليعقوبي الذي كان موظفاً في الدولة العباسية - مؤلف "كتاب البلدان" عام 890م - أن معظم بيوت دمشق في زمانه كانت منازل قديمة أو قصوراً أموية قديمة، وكان قصر معاوية الأخضر لا يزال موجوداً وقد جرى تحويله إلى مقر الولاية⁽¹⁾. ويؤكد المقدسي بعد قرن: "أن دمشق عاصمة سورية، والمقر الملكي للأمويين، كانت تحتوي على بقايا قصورهم، وهي أبنية من الخشب والآجر"⁽²⁾. كان يوجد مقابل الجدار الشمالي للجامع الكبير قصر عبد العزيز بن مروان وابنه الخليفة عمر⁽³⁾، وقصر هشام في داخل الباب الجنوبي للصور الخارجي للمعبد القديم، وقصر الحجاج بن عبد الملك خارج السور جنوباً. وحوت دمشق أيضاً العديد من القيساريات⁽⁴⁾، أي مباني تجارية، بدون طوابق، مختصة بنوع واحد من البضائع الثمينة عموماً، فيها حوانيت وورشات وبعض المساكن لنفس أهل الحرفة. وبالتأكيد كانت الحمامات كثيرة وجميلة، لذا خاطب الوليد الدمشقيين عندما أراد بناء جامع الكبير فقال: "أربعة أشياء تجعلكم متفوقين على العالم أجمع: حرارة طقسكم وماؤكم وفاكهتكم وحماماتكم؛ ولقد أردت أن أضيف إليها ميزة خامسة، أعني بها هذا الجامع"⁽⁵⁾. إضافة إلى الجامع الذي بإمكانه، كما يذكر ابن خردادبه، احتواء عشرين ألف مصلي⁽⁶⁾، وإلى مسجد خالد بن الوليد الصغير القريب من باب توما، كان المصلي - وهو مكان مخصص للصلاة من أربعة جدران - في الجنوب على طريق حوران، حيث يوجد حالياً جامع المصلي الذي بني لإحياء ذكرى المصلي القديم. وكان في دمشق بيارستان⁽⁷⁾، أي مستشفى ومركز لعلاج كل الأمراض من ضمنها الأمراض النفسية وفي نفس الوقت مؤسسة للإحسان توزع فيها الصدقات على المرضى والمصابين بالجذام والعميان والمحتاجين.

(1) اليعقوبي، "Les pays" الترجمة الفرنسية Wiet، القاهرة، 1937م، ص 174

(2) المقدسي، نفس المرجع، ص 165

(3) ابن الجبير، نفس المرجع، الجزء 6، ص 313.

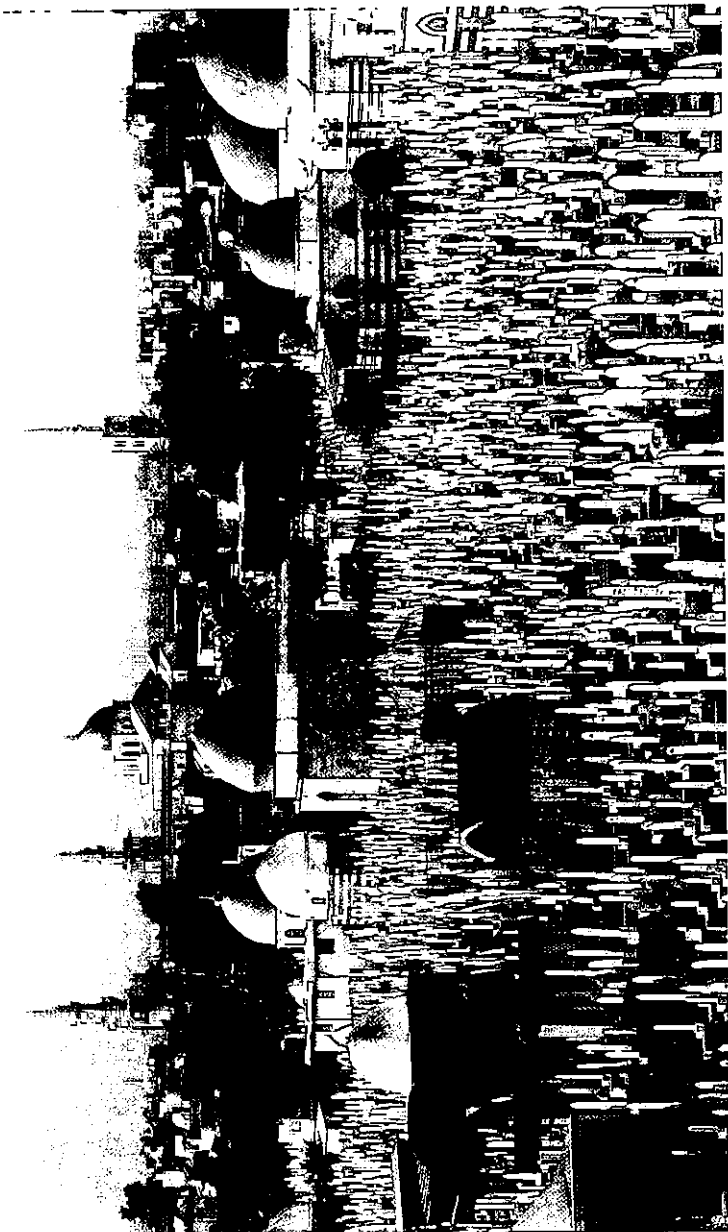
(4) أصل كلمة "القيصرية" مشتق من الإغريقية (kaiserèia) أي "إمبراطوري". مع الوقت أصبحت الكلمة تعني الفندق أو الخان. في سورية، كانت كلمة القيصرة أكثر استخداماً حتى نهاية زمن المماليك، وكان يقصد بها خان القوافل المدني المُنْعَد خصيصاً للتجارة والحرف البدوية للمنتجات الكهالية.

(5) M - Cf. Quatremère, E. نفس المرجع، ص 269.

(6) عن ابن الفقيه، نفس المرجع، ص 131.

(7) ربحاوي، عبد القادر، نفس المرجع، ص 52. بيارستان كلمة فارسية مكونة من شقين: بهار وتعني "مريض" وستان أي "بيت".

مقبرة الباب الصغير



الفصل الثاني

العباسيون والسلاجقة

كانت الثورة العباسية منعطفاً حاسماً في تطور العالم الإسلامي. فالدولة الأموية كانت دولة متوسطة بأغلبية عربية، متأثرة بالطابع الهليني، وقريبة جداً من العالم البيزنطي الذي اقتبست منه أساس نظامه الإداري. أما الدولة الجديدة، فلقد كانت على العكس، قريبة من التقاليد الساسانية، فحولت مصالحها الاقتصادية من منطقة البحر الأبيض المتوسط إلى آسيا، وشاهدت محواً تدريجياً للعنصر العربي لمصلحة الإيرانيين أولاً، ثم لمصلحة شعب أصله في آسيا الوسطى، وهم الأتراك. انتقل مركز ثقل الإمبراطورية باتجاه الشرق، أولاً إلى الكوفة، ثم إلى بغداد التي أسسها عام 762م الخليفة المنصور، أخو العباس وخليفته. فقدت سورية وضعها المركزي في قلب الإمبراطورية، ولكنها احتفظت بأهمية كبيرة لأنها منطقة متوسطة بين العراق والمقاطعات الغربية ولكونها مسرح المجابهة المستمرة للعدو الموروث البيزنطي. وهكذا تدنت مكانة دمشق لتصبح عاصمة إقليمية.

بقيت سورية، في ظل حكم الملوك العباسيين الأربعة الأوائل⁽¹⁾، مجزأة إلى سبع دوائر إدارية ومالية وهي الأجناد: أجناد العهد الأموي الخمسة، قنسرين وحمص ودمشق وفلسطين والأردن، أضيف إليها، في الشمال الشرقي، الجزيرة والموصل، وقد أنشئ جُند ثامن في حكم هارون الرشيد (786 - 809م) وهو جند العواصم. ولما كانت بغداد حريصة على السيطرة عن قرب على دمشق، لما أبدت من إخلاص للأمويين، أرسلت إليها موظفين من الطبقة العليا. فكان أول حكام ورؤساء عسكريين من الأسرة العباسية نفسها. ولكن ما أن اعتلى هارون الرشيد العرش حتى بدأت العناصر غير العربية من الفرس تتولى تدريجياً المناصب، في حين كانت أغلبية الأتراك جلية في ظل حكم

(1) أبو العباس (750 - 754م). المنصور (754 - 775م). المهدي (775 - 785م). الهادي (785 - 786م).

الوائق (842 - 847م). وقد كان الخلفاء أنفسهم كثيراً ما يقيمون في سورية، ولم يكن لإقامتهم فيها أي علاقة بمسؤوليات عملهم، فلقد أتى المنصور مرتين إلى دمشق في الأعوام التي تلت اعتلاء العرش، وفي عام 780م أنجز المهدي دورة تفتيشية في أسواق المنطقة الشمالية، وأسس قاعدة عسكرية على الفرات في الرقة، إذ حدث أن أثار في عهده مدح أموي يسمى السفياي ثورة في دمشق يدعمه القيسيون. وكان هارون الرشيد، الذي ألفته سورية لأنه كان مسؤولاً عنها أثناء خلافة والده المهدي، يزور سورية مرة كل عامين ليقود الحرب على البيزنطيين أو ليقود الحجاج إلى مكة. يذكر ابن الفقيه أن الرشيد كان يقول عن عاصمة الأمويين القديمة بأنها "جنة محاطة ببرك الماء تنتشر أشعتها في البساتين مثل النجوم المتألثة"⁽¹⁾. ومع هذا لم يتردد الرشيد، ليقمع في عام 796م حركة مقاومة قوية، في إرسال حملة لمعاقتها. وفي عام 802م نقل الرشيد مقر إقامته إلى الرقة رغبة منه في الابتعاد عن العراق، إذ أوشك استيلاء البرامكة أن يثير الانتفاضات بين السكان الإيرانيين، هذا إضافة إلى أن موقع الرقة أفضل له ليتمكن من مكافحة البيزنطيين، واحتواء الاضطرابات التي كانت تحرك أرمينيا وأذربيجان. وفي خلافة الأمين اضطرت حكام دمشق أكثر من مرة أن يتخلوا عن مراكزهم، تحت وطأة الثورات الشعبية، كثورة علي بن عبد الله الذي نجح في الاستيلاء على المدينة عام 811 - 812م ونصب نفسه خليفة.

لم يثر انتصار المأمون (813 - 833م) على أخيه الأمين حماس السوريين قط ولا سيما أنه وُلد من أمة فارسية، وكان يلام لتفضيله كل ما هو فارسي. ولأن الثورات عادت للظهور، أتى المأمون مرتين إلى دمشق محاولاً فرض سيطرته. وفي عام 829م عهد الخليفة في حكم مصر وسورية إلى أخيه المعتصم، وبهذا منح الأقاليم نفس الاهتمام الذي منحه الخلفاء الذين سبقوه. وفي العام التالي، عند عودة الحملة منتصرة من الأراضي البيزنطية، مكث المأمون في سورية وزار القدس حيث وضع اسمه محل اسم عبد الملك على قبة الصخرة. وفي دمشق - كما يذكر ابن شاعر - محي في المسجد الكبير نقش الوليد التأسيسي⁽²⁾. ولكي يحصل على رضا السكان لم يكن يتوانى عن فعل أي شيء، فلقد وزع مبلغاً كبيراً من ثلاثين مليار درهم. وفي قمة جبل قاسيون، فوق دير مُرَّان، بنى مرصداً فلكياً للتوثق من

(1) ابن الفقيه، المرجع نفسه، ص 128.

(2) Cf. Quatremère, E.- M. المرجع نفسه، الجزء 2، ص 270.

المقاييس التي أخذت سابقاً في بغداد وجنديسابور. ولكي يزود جيشه المعسكر تحت دير مران بالماء⁽¹⁾، عمل على حفر شبكة من القنوات، ابتداءً من نهر منين الذي يجري في شمال شرق دمشق⁽²⁾. ويذكر المسعودي أنه من المحتمل أنه أمر ببناء قصر "على بعد ساعة من المدينة وعلى ارتفاع يطل على أكبر جزء من الغوطة بين داريا ودمشق"⁽³⁾، كان هذا القصر معروفاً حتى عام 945م - التاريخ الذي استقر فيه المسعودي في دمشق - باسم قصر المأمون.

وإذا صدقنا ابن عساكر الذي كان كما هو واضح فخوراً بهذه الظاهرة، فإن الحكام العباسيين كانوا يأتون أيضاً إلى دمشق "للراحة وبحثاً عن الصحة والمنظر الجميل"⁽⁴⁾. ويضرب هذا الدمشقي بتلذذ وبصفته خبيراً في علم التغذية، المأمون مثلاً، إذ كان عندما وصل إلى دمشق "ضعيفاً جداً" ولكنه استطاع أن يأكل "أربعاً وعشرين لقمة في اليوم، بدلاً من ثماني عشرة لقمة كما كان يفعل من قبل، أي ثلث الكمية زيادة، فسمن ونمت عضلاته"⁽⁵⁾. كان المأمون بدون أي شك من أكثر العباسيين تعلقاً بالعاصمة السورية، ولقد قال يوماً: "إني لأعجب كيف يمكن السكن في مكان آخر غير دمشق، وكيف يمكن العيش بهناء دون هذا المشهد الرائع الذي لا يوجد مثيل له"⁽⁶⁾. ففي نظر المأمون، كانت أشجار الغوطة "أكثر الأشجار غنى على وجه الأرض"⁽⁷⁾. وفي عام 833م، أقام المأمون مرة ثانية في دمشق قبل عدة أشهر من موته وقبل قيامه بإجراءات التفتيش التقليدية على الحدود السورية البيزنطية. من هذه الإقامة يترك لنا ابن عساكر هذه الصورة الخالدة: "كان المأمون يتأمل في مقصورته والثلج يتساقط، فمد يده إلى الثلج ساعة كاملة، ثم تذوقه"⁽⁸⁾. إن تفضيل دمشق هذا لم يكن شعوراً يشترك فيه الجميع، وإن كان هذا لا يسر ابن عساكر، إذ عندما أتى الخليفة المتوكل

(1) دير بني في القرن السابع في مكان يسمى مران على منحدر جبل قاسيون وفوق الربرة. ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 229.

(2) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 288.

(3) المسعودي، البراري الذهبية "Les Prairies d'or", Paris, Imprimerie impériale, 1861-1917AD، الجزء 7، ص 257.

(4) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 288. منين قرية مشهورة بعنبرها وثلوجها.

(5) في الموضع نفسه، ص 289.

(6) في الموضع نفسه، ص 289.

(7) في الموضع نفسه، ص 289.

(8) في الموضع نفسه، ص 290.

(847 - 861م) إلى دمشق عام 858م، رفض أن يسكن المدينة بسبب "الجو الثقيل والأبخرة المضرة بسبب قرب الغوطة ومياهها المنتشرة" لذا ذهب وسكن في المرتفعات في قصر المأمون⁽¹⁾.

في عام 854م، مات حاكم دمشق أثناء تمرد عنيف، ولكن استطاعت قوات الخلافة تحقيق الأمن. وبعد أربع سنوات، فكر المتوكل أن ينقل عاصمة الإمبراطورية إلى دمشق التي كادت تسترجع بهذا طريقها الذي كانت تتمتع به في زمن الأمويين. فبنيت قصور ومساكن "ثرية" في المنطقة لاستقباله مع حاشيته والمثقفين والعلماء في كل المجالات الذين كانوا يرافقونه، فمكث المتوكل في دمشق ثمانية وثلاثين يوماً، لكنه اضطر أن يعود إلى العراق ليضع حداً للبليلة التي كان يثيرها حرسه التركي.

كان لحكم المأمون الذي استمر طويلاً أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي. ففي الفلسفة والأدب، كما في العلوم، أصبحت بغداد حينها مركزاً كبيراً للحياة الثقافية للإمبراطورية. فلقد بلغ الازدهار الفكري مبلغاً لا مثيل له، حتى إن الخليفة نفسه رأى في أحلامه أرسطو يطلب منه أن يترجم كل أعماله إلى العربية. فولدت حركة مجنونة في الترجمة: إذ حرص القادة والمفكرون على إحياء مؤلفات أفلاطون وأرسطو وجالينوس ومؤلفات المفسرين من أمثال فرفوروس وسمبليسيوس وبروكلوس... وأسس في بغداد، على نمط أكاديمية جنديسابور القديمة، بيت الحكمة حيث جرى إنجاز ترجمات للأعمال الإغريقية الأصلية، التي كما تذكر الروايات أحضرها وفد من بلاد الروم. وأثار هذا الفيض في الفلسفة والعلوم في مجتمع مازالت أسسه متزعزعة، فضولاً جديداً وزود المعرفة بالمنطق، ووصلت آثاره مع المعتزلة حتى إلى الدائرة الدينية.

ولد هذا الاتجاه الفكري (المعتزلة) في البصرة في نهاية العصر الأموي، وأصبح سريعاً أهم مدرسة عقيدية في علم اللاهوت. تتبين منهجية هذا الاتجاه الفكري - التي تذكرنا بالتزاعات البيزنطية فيما يتعلق بوحدة جوهر الأب والابن - من خلال الإنكار المزدوج الذي كان وراء أحد الانشقاقات الحادة في التاريخ الإسلامي: إنكار رؤية الله في الآخرة وإنكار النظرية التي تؤكد أن القرآن غير مخلوق، فتنزع النص المقدس من غموض الخلود، لتجعل منه رسالة يمكن تأريخها تاريخياً وفهمها لغوياً. ولأسباب سياسية ودينية، دعم المأمون وخليفته، المعتصم والواثق، هذا الاتجاه الفكري بقوة. وفي حزيران عام 827م، أعلن بوصفه مذهباً للدولة، فذكرت ثلاث رسائل من

(1) المسعودي، المرجع نفسه، الجزء 7، ص 257.

الخليفة أثناء إقامته في دمشق إلى ممثله الشخصي في بغداد، أنه يجب على كل الذين يمارسون الوظائف الدينية الرسمية مثل القاضي والمفتي وعلى كل الذين يعلمون الدين في الجوامع أن يصرحوا علناً ارتباطهم بنظرية خلق القرآن.

في نهاية حكم المأمون، عندما عاد إلى محاربة البيزنطيين، حث ليفرض مذهب المعتزلة على إجراء تفتيش تعسفي حقيقي، وكانت هذه المحنة في بغداد من مسؤولية مدير الشرطة، وفي الأقاليم من مسؤولية الحكام. وقاد قسراً غريب جداً عن روح الإسلام - وإن لم يكن دائماً بقدر ما حصل مع النصرانية في أسوأ ساعاتها - العديد من المتمردين إلى السجن أو إلى التعذيب أو إلى المشنقة. تركزت المعارضة الرئيسية للمعتزلة حول أحمد بن حنبل، أحد الأئمة الأربعة الكبار المؤسسين لمذاهب السنة التي مازالت حتى اليوم. رفض أحمد بن حنبل بإصرار الخضوع لعقيدة كان يعتبرها مخالفة للقرآن والسنة النبوية. وأعلن المذهب الحنبلي - وقد كان في سورية العديد من أتباعه وخاصة بين الطبقات الشعبية - بعد أن أثاره حسٌ محتدم بالعظمة الإلهية، عدم القبول المطلق لكل العلوم التي تعتمد على أعمال الفكر ومن ضمنها علم الكلام⁽¹⁾، وذلك حرصاً على تقليص حجم أسباب الشقاق في قلب الأمة. فعلى المؤمن من وجهة نظر الحنابلة، أن يتقيد بكل بساطة وخضوع بالمفهوم الواضح لكلام الله الأبدى، وبالتفسير الذي زود به النبي.

كانت بغداد في ذلك العصر، إضافة إلى كونها مركزاً سياسياً وفكرياً ودينياً، أكبر مدينة في العالم. كتب اليعقوبي عنها: "قلب العراق وعين الأرض، إنها أهم وأكبر مدينة، لا مثيل لها في الشرق ولا في الغرب"⁽²⁾. كانت بغداد عاصمة إمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسي إلى الصين، ومدينة جامعة لأجناس مختلفة من البشر، إذ يذكر اليعقوبي: "فيها حيٌ لكل من شعوب العالم"⁽³⁾. تمتد على ضفتي نهر دجلة على طول عشرة كيلومترات، لتغطي مساحة قدرها سبعة آلاف هكتار، لقد كانت بغداد أكبر بأربع مرات على الأقل من القسطنطينية وبثلاث عشرة مرة من قطيسفون⁽⁴⁾، وكان عدد سكانها يقارب المليون، وقد بلغ عدد حماماتها ومساجدها ونصبها الأثرية الآلاف.

(1) علم "الكلام" هو أساساً تساؤل عن كلام الله، يقابله علم الغرب النصراني في اللاهوت.

(2) اليعقوبي، المرجع نفسه، ص 4.

(3) في الموضع نفسه، ص 4.

(*) مدينة قديمة في وسط العراق على نهر دجلة.

إنها بابل الجديدة ومركز شبكة تجارية ضخمة تمتد فروعها إلى جهات العالم الأربع. إن الصورة التي زودنا بها ابن خردادبه عام 846م عن تجارة الدولة تثير الدهشة، ونستنتج منها أن اليهود كانوا الفعاليين الرئيسيين، وقد ساعدهم في ذلك معرفتهم للغات "الرومانية (أي الإغريقية واللاتينية) والعربية والإسبانية والسلافية"⁽¹⁾. لقد كانوا يتجولون من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب براً وبحراً، فكانوا يحضرون من الغرب "الطواشية والإماء والغلمان والحرير والفراء والسيوف"⁽²⁾. وكانوا يسافرون إلى بلاد السند والهند والصين إما من مدينة القلزم، الويس حالياً، وجدة والبحر الأحمر، أو من بغداد وأبله وعمان، ليجلبوا "المسك والصبر والكافور والقرفة ومنتجات شرقية أخرى"⁽³⁾. وكان التجار الروس يجلبون إلى بغداد "قرو القندس والثعلب وكذلك السيوف"⁽⁴⁾. وكان التجار الفرنسيون يسافرون عن طريق المغرب ومصر إلى الرملة والكوفة وبغداد والبصرة ويعبرون الأهواز وبلاد فارس وكرمان وبلاد السند، ثم يصلون إلى الهند والصين. وأثناء رحلتهم هذه، كما يذكر خردادبه، كانوا "يزورون دمشق"⁽⁵⁾ التي كانت "غوطتها تعد بخصوبتها من بين الأماكن التي فضلتها الطبيعة"⁽⁶⁾. ومن المثير للاهتمام ما يؤكد ابن خردادبه عندما يتحدث عن السحر الذي كانت تجذب به دمشق التجار الأوربيين في منتصف القرن التاسع الذين كانوا أثناء تنقلهم بين الرملة والكوفة يأتون إليها لزيارتها فقط، لا من أجل أعمالهم.

وفي الوقت الذي كان فيه العنصر الإيراني يزداد قوة في الحياة السياسية والثقافية، منذ عهد المأمون، ظهرت اتجاهات استقلالية في أرباض الإمبراطورية، ففي الشرق ظهرت أولاً في خراسان الدولة الطاهرية التي أسسها قائد فارسي استطاع بالقوة أن يفرض استقلاله عن الخليفة، ثم في

(1) ابن خردادبه، المرجع نفسه، ص 262. في القرن التالي، يذكر المسعودي "السفن العربية المتجهة إلى الصين والهند"، (الجزء 2، ص 332) و"التجار المسلمين الذين كانوا يذهبون إلى السلاف"، (الجزء 2، ص 342). عن التجارة مع الصين خاصة، انظر المرجع نفسه، الجزء 1، ص 121 - 127. وانظر أيضاً "العلاقة مع الصين والهند"

Relation de la Chine et de l'Inde. Jean Sauvaget, Les Belles Lettres, Paris, 1948 AD.

(2) في الموضع نفسه، ص 263.

(3) في الموضع نفسه، ص 263.

(4) في الموضع نفسه، ص 264.

(5) في الموضع نفسه، ص 264.

(6) في الموضع نفسه، ص 273.

سجستان، كانت الدولة الصفارية، وفي بلاد ما وراء النهر كانت الدولة السامانية. وفي الغرب كان أمويو إسبانيا، وفي إفريقية الشمالية كانت دولة الأغالبة وأخيراً الدولة الفاطمية. وتصدع البناء في كل الجهات وتعددت الإمارات المحلية وكان هناك في القرن العاشر ثلاثة مراكز متنافسة للخلافة: في بغداد والقاهرة وقرطبة. حرمت هذه التجزئة في السلطة السياسية الخليفة من موارد المقاطعات وفاقت الفوضى المالية التي عالجها الخلفاء بعلاج أسوأ من المرض، وذلك بالتزول عن الرسوم والضرائب للحكام المحليين غالباً، مقابل إتاوات تعاقدية.

جند الخلفاء في حرسهم، بعد أن لجؤوا إلى دعم الإيرانيين منذ حكم المعتصم (833 - 842م) المرتزقة الأتراك الذين كانوا متفانين في خدمتهم، ويتمتعون بميزات كان يمدحها الكتّاب المعاصرون بكثير من الإعجاب. وإذا صدقنا جاهز (776 - 869م) - وهو كاتب عربي صاحب مؤلفات غزيرة ورائعة جداً - فإن مهارة هؤلاء المرتزقة الأتراك الحربية كانت مذهلة ولقد كتب: "إذا طُورِد ألف فارس منهم، فإنهم سيرمون كل سهامهم دفعة واحدة ليسقط بعدها ألف فارس: لا يمكن لأي كتيبة أن تثبت أمام مثل هذه المحنة (...). فللتركي زوجان من العيون: زوج من الأمام وآخر خلف رأسه (...). أما فيما يتعلق بإمكاناتهم في تحمل الجري بلا كلال والسباقات المستمرة والتنقلات البعيدة في الليل والسير عبر البلدان فلقد كانت فوق العادة (...). التركي راع وسائس ومروض ونخّاس وبيطار وطبيب بيطري وفارس في آن واحد، فهو وحده يعادل جماعة بكمالها"⁽¹⁾. لم يكن الأتراك العبيد محاربين مرعبين فقط، ولكن أفضل العبيد أيضاً، كتب ابن حوقل: "أجل العبيد كانوا من بلاد الأتراك، إذ لا يمكن مقارنة أي عبد في العالم أجمع بعبد تركي لا من حيث سعر شرائهم ولا فيما يتعلق بأجسامهم"⁽²⁾. ولكن سرعان ما أصبح الخلفاء لعبة بأيدي موظفيهم الذين كان في

(1) Sauvaget, J. مؤرخون عرب، (Historiens arabes)، ص 7. تلك الملكة في استخدام القوس والرمح مشهورة منذ "سهم بارت" وقد فسرهما أيضاً السعودي قائلاً: "للأتراك مفاصل مرنة، وأرجلهم مقومة وعظامهم طرية جداً لدرجة أن بإمكانهم أن يرموا السهام إلى الخلف كما إلى الأمام، ثم إنه بسبب مرونة عمودهم الفقري تبدأ أجسامهم مقلوبة كلياً" (الجزء 2، ص 512). وانظر أيضاً الجزء 1، ص 145. فيما يخص المعتصم، يذكر المؤلف نفسه (الجزء 4، ص 1145): "كان يبحث بجدة عن العبيد الأتراك ليشتريهم من ملاكهم؛ وهكذا كَوّن كتيبة من أربعة آلاف عبد (...). وسرعان ما كَوّن هؤلاء الأتراك جيشاً كبيراً: لقد كانوا يزعمون سكان بغداد ويتركون جيادهم تعدو في وسط الأسواق".

(2) ابن حوقل، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 437.

مقدرتهم غالباً أن يعزلوهم أو يعينوهم وفقاً لهواهم. ففي بغداد اضطر الخليفة الراضي (934 - 940م) أن ينزل عن سلطته لأمير الأمراء. ومنذ عام 945م، أقامت السلالة البويهية، التي تعود أصولها إلى تخوم بحر الخزر، سلطة طاغية في قلب الإمبراطورية نفسها. وأصبح في يد الأتراك مصير الإسلام السياسي والعسكري حتى عتبة العصر المعاصر. وكانت هذه نهاية الهيمنة العربية السياسية والعسكرية. كتب ميشل السوري: "عندما يتحرك الأتراك ويخرجون، كانوا يغطون الأرض"⁽¹⁾، وأضاف ذاكرةً بكثير من الدقة "نقل السلطات" قائلاً: "لقد قبل الأتراك بمحمد (ﷺ) وانضموا إلى العرب وصاروا بهذا شعباً واحداً. وقبل المسلمون أن يسموا من يحكمهم من الأتراك "بأمير المسلمين" شرط أن يعينه ملكاً الرئيس الديني - وهو الخليفة - بنفسه"⁽²⁾.

وافق هذا الانهيار في الخلافة العباسية صحوة في الغرب، صحوة عسكرية أولاً مع محاولات إعادة فتوحات "نقفور فوكاس" في شمال سورية، ثم تجارية مع نهضة الموانئ الإيطالية، البندقية وأمالفي. وفي نهاية القرن العاشر، لم تعد بغداد إلاً ظلاً لنفسها، كتب ابن حوقل: "فسدت معظم الأحياء (...). إذ يمكننا أن نلاحظ جيداً الإهمال على الضفتين على مسير يزيد على خمسة أميال، حيث هُدمت معظم المباني"⁽³⁾. وأصبحت الفسطاط - القاهرة - وفتتد العاصمة الكبيرة، عاصمة الخلافة الفاطمية المنافسة، كتب ابن حوقل عن فسطاط: "مدينة كبيرة وجميلة جداً (...). بأراض خصبة جداً وكثافة سكانية كبيرة (...). وأسواق ضخمة ومراكز تجارية مهمة وأراض خاصة واسعة (...). وجو لطيف وبساتين مزهرة، وحدثات دائمة الخضرة في كل الفصول"⁽⁴⁾. ويذكر المعاصر المقدسي بوضوح أشد: "الفسطاط المصرية اليوم هي ما كانت عليه بغداد فيما مضى: لا أعرف في الإسلام مدينة أكثر منها أهمية"⁽⁵⁾.

(1) ميشل السوري، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 155.

(2) في الموضوع نفسه، الجزء 3، ص 155.

(3) ابن حوقل، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 234. نظرية انحطاط الإسلام لمصلحة البيزنطيين تتكرر كثيراً في كتابات المسعودي: "اليوم ضعفت قوة المسلمين وانحطت، وتفوق البيزنطيون على المسلمين، وأصبح الحج يجري على نحو سيئ ولم يعد هناك جهاد، وقطعت المواصلات وأصبحت الطرق غير مأمونة..." (الجزء 1، ص 182؛ وانظر الجزء 2، ص 227).

(4) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 144.

(5) المقدسي، المرجع نفسه، ص 81.

في عام 861م، فتح إغتيال الخليفة المتوكل الذي مارس سياسة قمع عنيفة للمعتزلة حقبة من الاضطرابات شهدت خلال مدة تقل عن عشر سنوات توالي أربعة خلفاء، في حين أسس في مصر موظف تركي يدعى أحمد بن طولون (868 - 884م) دولة محلية مستقلة وإقطاعية من إقطاعيات بغداد في نفس الوقت، استمر حكمها بملوكها الخمسة ربع قرن حتى عام 905م. وفي عام 878م، وسع ابن طولون سيطرته حتى سورية، مستغلاً الصعوبات التي كانت تتعرض لها الخلافة، ومتذرعاً بحجة الجهاد وبضرورة حماية الحدود من البيزنطيين. وفي عام 883م، أتى ابن طولون بنفسه إلى دمشق حيث دعا الأهالي إلى سحب بيعتهم للخليفة المعتمد (870 - 892م)، ودعا إلى تنظيم مؤتمر من القضاة وأهل السنة لإدانة نفوذ حاشية الخليفة السيئ. وفي عام 886م، عقد مُحَارَوِيَه، ابن وخليفة ابن طولون، اتفاقية مع المعتمد اعترف بناءً عليها بسلطته وبسلطة ورثته، على مصر وسورية وكيليكيا والجزيرة باستثناء الموصل، وذلك مقابل دفع إتاوة سنوية مقدارها ثلاثمئة ألف دينار.

تشهد كتابات ذلك العصر على ازدهار سورية، ودمشق خاصة، فسورية في نظر ابن حوقل كما في نظر الكثير من الرواة تارة "أفضل بلاد الله"⁽¹⁾، وتارة أخرى "عروس في وسط نساء جالسات يصحبنها جميعاً إلى بيت زوجها ويقدمن لها الهدايا"⁽²⁾، وتارة "إحدى جنات العالم الثلاث"⁽³⁾، وتارة "إحدى عروسي الدنيا مع ري"⁽⁴⁾. أما دمشق "التي يعتمد عليها خمسة موانئ: صيدا وبيروت وطرابلس وعرة وصور، فيصل خراجها إلى أربعمئة ألف دينار"⁽⁵⁾، وهذا ما يؤكد اليعقوبي بفارق قدره مئة ألف دينار، مضيفاً أنه "لا مثيل لها بين كل المستوطنات السورية بغزارة مياهها الجارية وشدة ازدهارها"⁽⁶⁾.

(1) ابن الفقيه، المرجع نفسه، ص 114.

(2) في الموضع نفسه، ص 115.

(3) في الموضع نفسه، ص 128.

(4) في الموضع نفسه، ص 128.

(5) في الموضع نفسه، ص 128.

(6) اليعقوبي، المرجع نفسه، ص 173. لا يشارك اليعقوبي الجميع في رأيه عن سورية: "منطقة ذات هواء نتن ومنازل ضيقة وتربة وعرة وأرض الأوبئة الدائمة، يسكنها أناس أجلاف" (المرجع نفسه، ص 7) أما فيما يتعلق بطرابلس فهو يذكر "ميناءها الخارق للعادة والذي يمكنه إيواء ألف سفينة" (المرجع نفسه، ص 178).

إلا أن هذا لم يمنع أن تعيش سورية مع الدولة الطولونية حقبة من الاضطرابات السياسية امتدت عدة قرون، شهدت تجزئة الأراضي ومعارضات مذهبية وثورات عديدة، ووصول غزاة معتدين مختلفين من البيزنطيين والصليبيين ثم المغول. ومنذ بداية القرن العاشر، أبدت السلطة الطولونية المتدهورة عجزها عن احتواء غزو القرامطة الذين يعتمد مذهبهم في المساواة والمعادي للمدينة، على قبائل بدوية من الفيحاء. واحتلت حمص وحماة ومعرة النعمان وبعبك والسلمية وذُبج جزء من سكانها، وتعرضت دمشق للخطر مرتين، في عامي 903 و906م، وسحقت حوران ومنطقة طبرية وهوجت قوافل الحجاج ونُهبت. وفي عام 905م، دخلت القوى العباسية الفسطاط وبهذا أقاموا، مؤقتاً على الأقل، في مصر وسورية سلطة الخليفة المقتفي (902 - 908م). وبعد ثلاثة أعوام، قُضي نهائياً على القرامطة في سورية، وأرسل المتمردون إلى بغداد حيث ماتوا تحت أفظع أنواع التعذيب. وفي بداية القرن العاشر، برغم تحفظات العلويين الذين كانوا يذكرون بامتيازاتهم السياسية لكونهم من أقارب النبي، أتت عائلات الأشراف من مكة والمدينة ليستقروا في دمشق حيث لم يتوانوا في ممارسة سلطتهم العقائدية والأخلاقية. وفي عام 935م، أصبح حاكم دمشق محمد بن طنج، الذي كان والده حاكمها أثناء حكم الطولونيين، وكان حمى الدمشقيين من احتلال القرامطة، أصبح بدوره سيد مصر. وأسس محمد بن طنج الدولة الإخشيدية التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى لقب "إخشيد" الذي كان يحمله ملوك فرغانة الإيرانيون في الحقبة التي سبقت الإسلام، والذين يدعي أنه من نسلهم. ثم نجح، في الجانب الغربي في مواجهة طموحات توسع الفاطميين، سادة إفريقية الذين لم يكن مذهبهم الشيعي بعيداً عن مذهب القرامطة. وفي سورية واجه الأمير الحمداني سيف الدولة، الذي بعد أن استقر في حلب واحتل دمشق في نيسان - أيار 945م، انهزم أخيراً في معركة قنسرين، فُقُسمت سورية بين المتنافسين بخطط يعبرها من الشرق إلى الغرب ماراً بمنطقة حمص. أتى محمد بن طنج بعد انتصاره واستقر في دمشق حيث مات في 24 حزيران 946م. وأثناء حكم الإخشيديين كان الحاكم العسكري للمدينة ينزل في الغوطة عند سفح جبل قاسيون، حيث كان يقيم في العديد من المنازل المبعثرة في البساتين. في حين كان ينزل مثله، المكلف في المقام الأول بالمحافظة على النظام، في داخل المدينة في دار الإمارة الواقع في مكان القلعة الحالية، حيث كان يجري في كل سنة جمع الضرائب المالية المُرسدة للسلطة المركزية. بعد موت ابن طنج خلفه ابنه أنوجور، ولكن بقيت السلطة في أيدي كافور، وهو (طواشي) أسود اللون أُعِد ليتولى أعلى الوظائف. استطاع كافور أثناء حاكميته التي استمرت اثنتين

وعشرين سنة أن ينتصر على الفاطميين والقرامطة والنوبيين والحمدانيين، وأن يحمي مصالح الدولة الإخشيدية. وفي عام 947م، وقعت معاهدة سلام مع الحمدانيين: فاحتفظ أنوجور بأجناد دمشق والأردن وفلسطين في حين كان من نصيب سيف الدولة كل شمال سورية. ومنذ عام 949م، بدأ البيزنطيون الهجوم بغية استرجاع الأراضي اليونانية القديمة المحتلة من قبل المسلمين، وتحرير الأماكن المقدسة النصرانية في فلسطين، وكان هذا ضرباً من الحروب الصليبية قبل بدايتها الفعلية. قاد "نقفور فوكاس" (963 - 969م) شخصياً جيوشه إلى سورية فدمر اثنتي عشرة مدينة، وهدم المساجد وأسر أكثر من مئة ألف مسلم. عمت الفوضى دمشق أثناء مدة قصيرة استمرت ثلاثين شهراً فصلت بين موت كافور في نيسان - أيار 968م ودخول الكتائب الفاطمية، وتغيرت السلطة أثناءها ثمان مرات. لقد كانت التمردات وما يرافقها من مواكب نهب وإشعال الحرائق يومية، وتنفجر لأسباب متنوعة جداً مثل: تعيين قاضي أو حاكم غير شعبي، إضافة إلى هجمات البدو الذين استطاعوا مرات عديدة أن يصبحوا سادة المدينة، وإلى التنافس بين الميليشيات الشعبية، إلخ. كان الدمشقيون في كل الأحوال معروفين بتمردهم، صفة كان عليهم أن يحافظوا عليها إلى يومنا هذا. كتب المعاصر المقدسي: "ليس هناك أناس أكثر غمراً من أهل دمشق"⁽¹⁾، ويفسر المقدسي هذا التمرد بسبب غزارة المياه لأنه يقول: "كل بلد محاط بالأنهار يكون شعبه ثائراً وتمرّداً كما هو الحال في دمشق"⁽²⁾. ولم يفت ابن حوقل أن يلاحظ هذه الصفة عند أهل دمشق، ويرى أن السبب يعود إلى طالع المدينة الفلكي، لأنه من عيوب برج الأسد: "استبدال التمرد بالطاعة"⁽³⁾. ويذكر الإصطخري: "كان الدمشقيون يتمردون باستمرار على حكامهم وكان الجحود من طبيعتهم"⁽⁴⁾. والحق يقال كانت التمردات شبه مستمرة بلا توقف.

في 25 تشرين الثاني 969م، غادر الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح، أحد ضباط القائد جوهر، القاهرة، العاصمة الجديدة التي أسست قرب القديمة القسطنطينية. وكان هدف الجيش المصرح به شن حرب في العراق للقضاء على الخلافة العباسية. طلب حمدانيو حلب المساعدة من البيزنطيين حرصاً منهم على الحفاظ على عرشهم، وهذا النوع من التحالف إن كان مغايراً للطبيعة فإنه سيرى

(1) المقدسي، المرجع نفسه، ص 78.

(2) في الموضع نفسه، ص 81.

(3) ابن حوقل، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 173.

(4) Le Strange, Palestine under the Muslims, London, P.Watt, p237, 1890 AD.

"ازدهاراً" في عصر الحروب الصليبية. في 17 شباط 970م، انتصر جعفر على الجيش الإخشيدي قرب الرملة ثم احتل طبرية حيث قابل نواباً من كبار القوم أتوا من دمشق. وفي يوم السبت 14 تشرين الأول، وصل جعفر إلى مشارف المدينة وأقام معسكره في جنوبها، في الشاسية والقطيعة بالقرب من مسجد القدم. وسرعان ما استعرت الحرب عند أسوار المدينة واحترق العديد من مباني الضواحي. ونجح المهاجمون في اختراق باب الجابية، إلا أن مدنيين مسلحين استطاعوا ردهم إلى الوراء. وفي الليل دَعَم السكان بمساعدة ما تبقى من الجيش الإخشيدي الأبواب وحفروا الخنادق وأقاموا المتاريس. أخبر جعفر الوفد الذي جاءه للتفاوض، عن رغبته في إحراق المدينة وفي قتل سكانها بالسيف، ولكنه غير رأيه شرط أن تخرج إليه نساء المدينة سافرات وقد حللن شعورهن وأن تتدللن له بعد أن يتمرغن بالطين ويغطين وجوهن بالتراب. فهذا القائد حين حقق السكان رغبته، وأعلن لهم الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم وأنه سيؤم المصلين يوم الجمعة القادم في المسجد الكبير. وفي يوم الجمعة 20 تشرين الثاني، ما إن انتهت الصلاة حتى انتشر الجنود المغاربة من الجيش الفاطمي - وكانوا قد أتوا حديثاً من جبال البربر الإفريقية - في المدينة وأخذوا في نهب الأسواق. فقتل الدمشقيون المسلحون عدداً كبيراً منهم، فكان رد الفعل فورياً وعنيفاً. هدد جعفر بتدمير المدينة ولكنه عدل عن رأيه مرة أخرى، وفرض عليهم ضريبة مالية كبيرة، وأمر بتوقيف قواد المعارضة، ثم ذَبَّحُوا وعُلِّقَتْ رؤوسهم على أبواب المدينة وعلقت أجسادهم بالمشانق. وأُلْقِيَ القبض على روح المقاومة الشريف العباسي ابن أبي يعلى أثناء هروبه نحو تدمر، وكان حصل على لقب رئيس المدينة، وجيء به إلى دمشق فجعلوه يكابد الأمرين: فجعلوه على سنام جمل، ووضعوا على رأسه طاوية مؤنَّفة من اللبد وغرسوا ريشاً في لحيته، وحملوه عود قصب في يده على أنه صولجان، وأخذوا يجولون به عبر المعسكر الفاطمي، في حين، كما تذكر بعض الروايات، أخذ أحد الجنود الأقوياء في مضاجعته. وعسكرت الكتائب الفاطمية في شمال غرب دمشق في "الدكة" الواقعة عند نهر يزيد فوق مضيق الربوة. وبنوا هناك العديد من المباني، في حين أمر جعفر ببناء قصر له بين نهري يزيد وتورا حرصاً منه على أن يجعل من دمشق عاصمة ممتلكاته السورية الجديدة.

أرسل جعفر، وقد شجعته انتصاراته، جيشاً نحو الشمال، فاخترق الجيش الأراضي الحمدانية بعد أن احتل حمص وحاصر أنطاكية. إلا أنه بعد حصار دام خمسة أشهر، اضطر الجيش، أمام خطر تحالف يضم العديد من الوحدات العسكرية البدوية يقوده القرامطة باسم خليفة بغداد، أن ينسحب

إلى دمشق في تموز 971م. وفي 31 آب، انهزم الفاطميون ومات جعفر في ساحة المعركة. وفي كانون الأول، وصل القرامطة إلى أبواب القاهرة حيث اصطدموا بجوهر الذي قاومهم مقاومة قوية جداً نجح بعدها في استرجاع الجزء الجنوبي من سورية. واستمرت المعارك بين المقاتلين ولم يستطع الجيش الفاطمي، الذي كان يقوده أبو محمود إبراهيم بن جعفر⁽¹⁾، في احتلال دمشق للمرة الثانية إلا في 18 حزيران 974م من غير مقاومة شعبية حقيقية. واعتقل هذه المرة الشيخ ابن النابلسي المعروف بأرائه المعادية للفاطميين، وأُرسِل إلى القاهرة في قفص من الخشب، حيث نُزع جلده حياً في مكان عام، وعُلّق جلده المحشو بالقش أشهراً طويلة بالمشقة. كانت دمشق تمثل في نظر الدولة الجديدة التي استقرت في القاهرة مفتاحاً استراتيجياً هاماً جداً: لكونها تقع عند تقاطع طريقي الاحتلال الكبيرين، طريق يأتي من العراق ماراً بالرحبة وتدمر، وطريق يأتي من شمال سورية ماراً بحمص، ولأنها تؤدي دوراً دينياً هاماً، فقد كانت تسيطر على طريق الحج القادم من شمال سورية ومن الجزيرة.

عسكر الجيش الفاطمي خارج المدينة في الشامية، وفي المكان المحيط بقصر جعفر في الدكة. وعادت ابتداءً من منتصف تموز المناوشات بين السكان والكتائب المغربية، خاصة أن أبا محمود توقف عن دفع أجور جنوده بسبب حرمانه من الإعانات المالية، فأخذوا في نهب الأحياء والقرى والقوافل. فأصبح يُرى في دمشق والغوطة عصابات من الشبان المسلحين "الأحداث"، الذين كانوا طوال ما يزيد على قرن الموضوع الوحيد لحديث الناس. وفي 9 آب، انفجر عصيان، فاشتعلت المدينة وضواحيها وجرت الدماء خلال أربع وعشرين ساعة. أقام الدمشقيون المتاريس وأخذوا يرمون السهام وبالمقلاع على المغاربة الذين كانوا يصدونهم برمي النيران اليونانية على المساكن التي كانت تُؤوي المتمردين. أصبح حياً القنوات والقنيّة الواقعة في الضاحية الغربية فريسة للنهب، ولما كانت المنازل من الخشب والطين، انتشرت فيها الحرائق بسرعة، واحترقت منازل جميلة في داخل المدينة، وقذفت الأسقف الخشبية الجميلة الصنعة والمزخرفة بالرسوم بجُزءٍ من الشرر أثناء الليل، فكانت الخسارة المادية في الأبنية كبيرة جداً. نزل الجيش الفاطمي من الدكة واجتمع في ميدان الخيل الأخضر، فذهب لملاقاتهم مدنيون مسلحون بالحُرَبات والفؤوس والمراوات والمقاليع وبرفقتهم بغال محملة بالحجارة. ومع أن أبا محمود كان قد صرح لوفد من كبار رجال المدينة أنه يلوم عدم

(1) لم يكن أبو محمود هذا ابن جعفر الذي كان قائد جوهر.

انضباط جنوده، استطاعت الكتائب المغربية اختراق المدينة، ودخل ضابطان متدبان للحفاظ على أمن المدينة دخولاً صاحباً، وأقاما في محكمة الشرطة الواقعة في موقع قصر معاوية القديم. وعادت المعارك أعنف مما كانت عليه، تتخللها هذات عابرة واستمرت حتى أيار 975م. كان الاصطدام يزداد كل يوم عنفاً، وكانت الكتائب الفاطمية تحقق انتصاراتها خارج المدينة في الأراضي المكشوفة، في حين كان "الأحداث" سادة المعركة في داخل المدينة، إذ إن هندسة المدينة كانت تساعدهم في حربهم على نمط حروب العصابات. واشتعلت الحرائق مرة أخرى، وهُجرت قرى الغوطة، وغزا البدو الأراضي المزروعة ليرعوا فيها قطعانهم، ويقطعوا أشجارها المثمرة ويستخدموها وقوداً، ولم تعد تصل المؤونات، حتى الماء ندر بعد أن غيّر المغاربة مجرى القنوات، فأغلقت الحمامات والأسواق الواحد تلو الآخر. وجاء دور أحياء النصارى واليهود الواقعة في الجزء الشرقي من المدينة وأصاها بعض ما أصاب غيرها من الأحياء. وبعد أن ملّ السكان وتعبوا من الفوضى المستمرة لم يجدوا، كما هو عليه الحال في مثل هذه الظروف، أفضل من أن يلجؤوا إلى الله: فجمّع حفلٌ ديني في المسجد الكبير المسلمين بمصاحفهم والنصارى بإنجيلهم واليهود بتوراتهم وسار موكب في شوارع المدينة يطلب النجدة من الله، في حين ذهب وفد من كبار رجال المدينة الذين يفضلون قبل كل شيء النظام الذي يناسب مصالحهم وهيمتهم، ليضعوا بين يدي أبي محمود مصير دمشق. ولكن روح السكان المعارضة كان لها أسباب أخرى أشد قوة من غزارة مياه المدينة أو من طالعها الفلكي، إذ رأى المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي، في تلك الظروف على الأقل، أسباباً دينية في جوهرها، فلقد كتب: "كان الدمشقيون يمقتون المغاربة لأن معتقداتهم الدينية لم تكن تتوافق مع معتقداتهم، ذلك لأن ميلهم كان أمورياً ولأن إدارة هؤلاء المفروضين عليهم كانت سيئة"⁽¹⁾.

في 14 أيار 975م، وصل إلى دمشق ضابط تركي، ألب تكن، وكان متمرداً على سيده البويهبي في بغداد، يرأس عدة مئات من الفرسان بعد نزهة مثيرة عبر الصحراء. ولما كان أبو محمود حينها في الرملة، استلم "ألب تكن" السلطة من كبار رجال المدينة وطلبوا منه أن يُعَقِّل الميليشيات الشعبية ويقيم النظام. كتب ابن القلانسي: "دخل المدينة وحكم فيها بحكمة وعدل ورؤى الذين يرغبون

(1) Cf. Sauvaget, J. (1) مؤرخون عرب، ص 87. ابن القلانسي وهو من العائلات الدمشقية العريقة كتب عن تاريخ الحروب الصليبية حتى منتصف القرن الثاني عشر، مات في دمشق عام 1160م.

في البلبلة وامتلات القلوب بالخشية منه"⁽¹⁾. ثم زحف إلى البدو الذين عاثوا فساداً في الأراضي المزروعة في المناطق المجاورة، وتحقق من سجلات الوقف العقاري، وراقب المالية بشدة، وأقام الصلاة باسم الخليفة العباسي وهو متمسك بوفائه للخليفة الفاطمي المعز (925-975م).

قبل نهاية شهر أيار، وصلت إلى دمشق أنباء مسير الجيش البيزنطي بقيادة القيصر جان ترميسس نحو عالية نهر العاصي متجهاً إلى القدس، بعد أن انهزم في محاولته الاقتراب من بغداد التي دافع عنها البويهيون كما يجب. وبعد حريق بعلبك، في 29 أيار، نفذ البيزنطيون في شعب مدينة الزبداني التي كانت محمية من قبل سكان مسلحين. وجرت مفاوضات في "عين الجر" بين القيصر و"ألب تكن" الذي كان جيشه يتألف من بضعة مئات من الفرسان. ودفع إلى ترميسس ضريبة من مئة ألف درهم فلم يهاجم المدينة التي أسرته بجهاها كما يذكر ابن القلانسي: "عندما وصل إلى المدينة واستقر في ضواحيها بدت له الغوطة رائعة، فأمر جنوده ألا يؤذوا سكانها وأن يحترموا كل ما يتعلق بها"⁽²⁾.

بعد موت المعز في كانون الثاني 975م، رفض ألب تكن أن يبايع ابنه وخليفته العزيز (975-996م). وكادت أن تندلع حرب بين القاهرة ودمشق، إذ غادر مصر جيش من عشرين ألف رجل تحت إمرة جوهر ووصل إلى مشارف دمشق في 22 تموز 976م، حيث كان ألب تكن قد نظم جيشاً للدفاع عنها بمساعدة القرامطة والميليشيات وشخص كان يدعى قسام الملقب "بالتراب"⁽³⁾ وكثيراً ما كان يوصف بأنه "رئيس الصعاليك". استمر الحصار مدة طويلة، اضطر بعدها جوهر أن يرجع إلى عسقلان في 29 كانون الأول حيث وجد نفسه محاصراً بقوات ألب تكن. وجرت مفاوضات واضطر جوهر أن يجمع من جنوده المبلغ الكبير المطلوب منه، وأن يمر من تحت سيف "ألب تكن" ورمح رئيس القرامطة قبل أن يرحل إلى القاهرة حيث حث العزيز على حشد جيش كبير ليدمر التحالف السوري القرامطي. وفي 31 آب 978م، وبالقرب من الرملة، جرت معركة جديدة بين الجيشين: من جهة جيش ألب تكن المؤلف من اثني عشر ألف رجل، ومن جهة أخرى الجيش الفاطمي المؤلف من سبعين ألف رجل يقوده العزيز بنفسه، الذي قاد العمليات وهو تحت مظلة ليرمز من بعيد إلى حضوره الكريم. ولما بدا أن النصر مال إلى جانب المصريين، هرب ألب تكن

(1) في الموضع نفسه، ص 83.

(2) في الموضع نفسه، ص 85.

(3) في الموضع نفسه، ص 85.

إلى القدس، ولكن قبض عليه وجيء به إلى معسكر الفاطميين. ولكن العزيز الذي كان معجباً بميزات منافسه، ومن بينها كفاءته العسكرية التي لا تقبل الجدل، عفا عنه واصطحبه معه إلى القاهرة وغمره بالذهب والهبات وجعله حاجباً له، ولكن في عام 983م أمر الصدر الأعظم يعقوب بن كيليس بتسليم هذا القائد التركي الباسل الذي - كما وصفه ابن القلانسي، كان مستقيماً وإدارياً ممتازاً وعادلاً شجاعاً وبطلاً هماماً⁽¹⁾ - ففضى نجه ضحية غيرة أصحاب الرتب العالية.

في دمشق تركت هزيمة "ألب تكن" المجال حراً لقسام التراب، رئيس الميليشيات، الذي استغل الوضع لينشر سيطرته. واعترفت القاهرة بسيطرته بعد أن ابتهل إلى الله أن يحفظ الخليفة الفاطمي الحاكم في ذلك الوقت. ومارس سلطته مدة خمس سنوات متمركزاً في المسجد الكبير دون أن يواجه معارضة حقيقية من قبل السكان أو الحاكم الفاطمي. لقد كان معروفاً بابتزازه: إذ كان يُحَصِّل الضرائب مهدداً بالسلاح. ومع أنه كان غير قادر على حماية الغوطة من هجمات البدو الذين كانوا يرعون قطعانهم فيها، كان يقطع من أهل الغوطة ضريبة "الحماية" أراضيهم.

في عام 983م، قرر الفاطميون أن يتهوا من أمر القبائل العربية التي وسَّعت سلطتها إلى فلسطين ومن ابتزازات قاسم، فأرسلوا إلى سورية - وقد شجعهم موت الأمير البويهي عضد الدولة - جيشاً كبير العدد، مؤلفاً من مقاتلين مغاربة وعرب وأنراك. وفي أيار - حزيران، وصل الجيش إلى مشارف دمشق التي كان قسام قد أعدها للدفاع، فجند رجالاً من قرى الغوطة، وأصلح المتاريس وأقام المنجنقات. وجاشت المعارك من 4 إلى 11 تموز في ضواحي المدينة فأصابها مثل ما أصابها في 969م و973م من مناوشات وكمائن وهدم وحرائق. وفي النهاية سلَّم قسام نفسه إلى الفاطميين بعد أن تخلَّى عنه السكان، فأرسل إلى القاهرة حيث عُفي عنه واستعاد حرّيته. أصبحت السلطة حينها في دمشق في يد القائد التركي بكجور مكافأة له على خدماته العديدة التي أسداها إلى الدولة الفاطمية، ومنها مجابته للحمدانيين في حلب. كان بكجور حاكم حصص من قبل، وكان دائماً يطمح أن يصبح حاكم دمشق، فتحقق طموحه وشغل منصبه حاكماً لدمشق من عام 984 إلى 988م، ولكنه كان طاغية حقيقياً، إذ قُتل النصاري وجمع ثروة كبيرة. فحاول الصدر الأعظم ابن كيليس - الذي كان يمتلك مساحات زراعية كبيرة في منطقة دمشق - أن يرسل من يغتاله، لكن خطته

(1) في الموضع نفسه، ص 83.

فشلت. فزحف جيش يقوده منير الصقلي، وهو طواشي سلافيّ لابن كيليس، إلى دمشق وهزم قوات بكجور في غرب المدينة في 29 تشرين الأول 988م. هرب بكجور إلى الرقة فخلفه منير في الحكم. ولكن لأن منير اتهم بعد وقت قصير بتفاهمه مع البويهيين في بغداد، عين الخليفة "العزیز" حاكماً جديداً لدمشق، وهو التركي "منجو تكن" الذي اتجه إلى دمشق في نيسان - أيار 991م يرأس جيشاً. في 28 تشرين الثاني، جرت معركة في شرقي الغوطة، انهزم فيها منير، وهيمن الفاطميون من جديد على سورية المركزية. واتهم "منجو تكن" بدوره بالتمرد، فغادر جيش جديد مصر بقيادة سلمان بن جعفر بن فلاح، ابن فاتح دمشق البربري الأول، وكان ذلك في نيسان عام 997م. انهزم "منجو تكن" قرب عسقلان، فأرسل سلمان بن جعفر بسبب انشغاله في فلسطين، أخاه علياً ليستولي على دمشق بجيش مؤلف من خمسة آلاف رجل. وعندما انفجرت المعارك بين قواته والسكان، غادر عليّ المدينة ليعود إليها مرة ثانية في شهر آب مجهزاً بقوات أكثر عدداً تضم فريقاً من رماة النفط. أسرع كبار رجال المدينة لمقابلته ولكنه هاجم المدينة ودخلها من باب الحديد وأشعل النيران في الحي الأرستقراطي "حجر الذهب" حيث كان يوجد دار الإمارة ومنازل الأشراف والأغنياء. في اليوم التالي دخل سلمان المدينة واتخذ إجراءات لتهدئة الوضع فذهب إلى المسجد الكبير على بغلة يسبقه قراء القرآن. في كانون الأول، عاد التمرد وسُلبت مُؤنة الكتائب الفاطمية من الطعام والسلاح. ففوجئ سلمان الذي لم يكن لديه وقت إلا للهرب، فتقاسم حينئذ رؤساء الميليشيات المدينة. وصل الحاكم الجديد "جيش بن السمسمة" إلى دمشق في بداية تموز 998م بعد أن استرجع ميناء صور الذي كان قد تمرد. فاستقبله الأشراف ورؤساء الميليشيات، لكنه رفض دخول المدينة مستعجلاً للزحف ومحاربة البيزنطيين الذين ساروا بأمر من الدوق داميان دلاسنوس إلى وادي نهر العاصي لمحاصرة مدينة أرامية. وفي 19 تموز، اندلعت المعركة عند أسوار المدينة. بدا النصر في البداية لحليف الكتائب البيزنطية، وكان عرب القبائل ينهبون أمتعة الجيش المسلم الذين كانوا يقاتلون في صفوفه، حين سقط الدوق بعد أن اخترقه سهم. فانتشر الرعب بين المقاتلين اليونان وقُتلوا، وأرسل عشرة آلاف رأس وألفا أسير إلى القاهرة. في الخريف، عاد "جيش" إلى دمشق مبعجلاً بانتصاره، فخرج لاستقباله الأشراف ووجهاء القوم ورؤساء الميليشيات، وعلى وجوههم أمارات الاحترام والتبجيل، ولكنه لم يدخل المدينة بل أقام معسكره في قرية بيت لحيا المجاورة لبساتين "الفراديس" الجميلة. وإذ وجد نفسه مضطراً لملاطفة رؤساء الميليشيات، غمرهم بالهدايا من خيل

وبغال وأسرى وأسيرات كان قد حصل عليهم من غنائم النصر، ثم سلمهم رسمياً إدارة شرطة الأحياء. وبخدعة مشهورة منذ مذبحة الأمويين المعروفة، دعا اثني عشر واحداً منهم إلى وليمة كبيرة ثم قتلهم مفرزة من المغاربة متكررة في حمام مجاور. وفي الوقت نفسه انتشرت كتائب في المدينة والغوطة فطاردت الميليشيات وقتلت منهم أكثر من ألف. وبعد أن طُهرت المدينة، دخل "جيش" المدينة ومنح الأمان لسكانها، الذين اهتمهم بالتآمر، وفرض عليهم غرامة كبيرة بقيمة خمسمئة ألف دينار، وأمر الأشراف بضرب أعناق رؤساء الميليشيات الذين علقوا أجسادهم بالمسامير على المشائق. ثم مارس "جيش" في دمشق أسوأ أنواع الاستبداد والطغيان مدة ستة عشر شهراً. ولما سمعت السماء أهات سكان دمشق المتألمة مات "جيش" موتة فظيعة كما ذكرت كل الروايات: بعضها يروي أنه أصيب بورم شرجي فعانى ألف موتة قبل أن يسلم روحه، وبعضها يروي أنه مات بمرض الجذام بعد أن تعفن جسده من تكاثر الديدان فيه. وعلى كل حال مات "جيش" في آذار نيسان 1000م. إلا أن سياسته أثمرت، إذ لم تذكر الأخبار التاريخية أي وجود للميليشيات طوال عشرين سنة تلت موته.

أثناء حكم الخليفة الفاطمي "الحاكم" (996 - 1020م)، تغيرت وجهة سياسة القاهرة في سورية؛ إذ بعد أن تغيرت مرتبة محاربة العباسيين على الصعيد العقائدي، لم تعد سورية تعتبر قاعدة هجوم على العراق، وإنما مجرد منطقة واقية بسيطة ضرورية للحماية مصر. تتالى الحكام في دمشق مع فرض رقابة شديدة عليهم وكانوا غالباً يعزلون ما إن يُعيّنوا، فلقد حكم دمشق أكثر من اثني عشر حاكماً ما بين عام 1002 و1011م. كان يؤرخ تسلمهم المنصب احتفالاً كبير، بحضور وجهاء القوم المدنيين والعسكريين والقاضي، يُقرأ فيه مرسوم تعيينهم على منبر المسجد الكبير. وكان للقاضي مكانة أساسية، فهو أول شخصية مدنية في المدينة يعينه قاضي مصر الكبير وليس حاكم سورية، وذلك وفقاً لأصول وزارة العدل، ومن مهامه تمثيل السكان أمام السلطة المركزية. وإن صورة الجماعة التي ينتمي إليها القضاة كما يبدو في الأخبار التاريخية، كانت صورة كثيفة إلى حد ما: إذ لم يكونوا قضاة حقاً وإنما كانوا غالباً تجاراً أغنياء يعلمون القليل عن القانون، تعينهم السلطة للين عريكتهم وسهولة انقيادهم، ولم يكن يهمهم عموماً إلا أن يستغلوا مركزهم لزيادة ثرواتهم. وكان الحاكم العسكري، قائد الحامية، مسؤولاً عن مقاومة محاولات الغزو البيزنطي أو البويهي أو الحمداني، وإقامة النظام في حال الاضطرابات أو التمردات في المدينة كما في الواحة، ومنع بدو

الفيفاء المشاغبين من التعدي. وكان عليه أن يزود محصّل الضرائب بكل مساعدة عسكرية ضرورية لإنجاز مهمته، عندما لا يقوم هو بنفسه بهذه المهمة. ولما كان هو ممثلاً لخليفة القاهرة، كان وجوده في المسجد الكبير كل جمعة، بين وجهاء القوم والشيوخ والعلماء ورؤوساء كبار العائلات، رمزاً للسلطة الفاطمية في سورية. في حين كانت مهمة المحتسب السهر على حسن تطبيق الأنظمة فيما يتعلق بالتجارة والعمل، ومن مهمة صاحب الشرطة أن يدير الشرطة المحلية.

بدأ "الحاكم" منذ عام 1002م ييدي علامات جنون دموية، فكان فجأة في أثناء نزهاته يقضي بضربة من سيف على كل من يزعجه وجوده، لقد كان "نيرون" و"كاليغولا". فعدد الذين قضى عليهم بشتى أنواع التعذيب وأكثرها فظاعة كبير جداً. يقال إن السرور الذي انتابه أثناء مشاهدته لحريق القسطنطينية - الذي ساهم في نشره فرقة من العبيد السود بأمر منه - وهو في أعلى جبل المقطم كان لا مثيل له. ولكي يهدئ مشاعر أهل السنة الذين كانوا ضحية مضايقات السلطة الشيعية عمد برغم استياء القبائل العربية النصرانية الأردنية مثل بني الجراح خاصة، إلى وضع حد للوضع المميز الذي كانت تتمتع به القبائل اليهودية والنصرانية: فأمرهم بوضع أحزمة سوداء على خصورهم وأن يعلقوا في رقابهم في الحمامات علامة تميزهم، وحرّم عليهم شرب الخمر حتى أثناء قداسهم، كما حرّم طواف الشعانين وإظهار الصلبان أو دق الأجراس، إضافة إلى إجبارهم على تغيير دينهم ومصادرة ممتلكات الكنائس والأديرة، وانتهاك حرّيات مقابرهم. وأحلّ محل الموظفين النصارى واليهود موظفين مسلمين. بالطبع لم يمض هذا الإجراء الأخير دون صعوبات، لأن الموظفين النصارى، وهم أغلبية كبيرة في الإدارة الفاطمية، كانوا معروفين بمهاراتهم، إذ كتب المقدسي عام 985م: "كان معظم الأطباء والموظفين من النصارى"، ثم أضاف: "(...) وكان المسلمون يثقون بهم في تصحيح اللغة لضعف حماسهم في تحصيل ثقافة عامة"⁽¹⁾، أما اليهود فقد وصلوا إلى أعلى الوظائف الإدارية في الوقت الذي كان يعمل فيه مجموعهم أعمالاً متواضعة مثل الصرافة والصباغة والدباغة⁽²⁾. في أيلول - تشرين الأول 1009م، أمر الخليفة بهدم كنيسة القيامة في القدس

(1) المقدسي، المرجع نفسه، ص 224-225.

(2) في الموضوع نفسه، ص 225.

وكان هذا - كما اعتبره العديد من المؤرخين في الغرب - من الأسباب البعيدة للحروب الصليبية. وفي نفس السنة لقيت كنيسة السيدة الكاثوليكية نفس المصير في دمشق.

تميز حكم "الحاكم" من الناحية الدينية بظهور الطائفة الدرزية التي أدّت دوراً هاماً في تاريخ سورية. ففي عام 1017م، نشرت في القاهرة مجموعة من المبشرين بوحى إمامين، أحدهما فارسي يدعى حمزة، والثاني تركي يدعى دَرَازي، مذهباً معقداً يتبع مواضيع شرقية قديمة أغنتها مساهمات يهودية وغنوصية ونصرانية وقرآنية، وحصل وفقاً لهذا المذهب بعد عدة تجسّدات متتابعة في آدم وعليّ والسلالة الفاطمية، أن تجسّد الرب في شخصية الخليفة "الحاكم" ذاته. وبرغم حيادية هذا الخليفة المتسامحة الذي بدا لا اعتراض على قدسيته، لم يكن للتبشير بهذا المذهب أي صدى في مصر، ولكنه حاز رضا سكان جبال سورية الجَهْلَة والسُدج.

في دمشق، بفضل الرحلات المستمرة لعلماء الدين، الذين خصص ابن عساكر لسيرهم الآلاف من الصفحات، كانت مجموعة من العلماء في العلوم الدينية، البعيدين من المذهب الرسمي الشيعي الذي تدعّمه القاهرة، على اتصال مع كل المراكز في ديار الإسلام حتى البعيدة منها. وكان المسجد الكبير، المكان الرئيسي للتعليم، قلب هذه الحياة الدينية ومركز تبادل الأفكار واختلافات الرأي بين المذاهب الدينية لأهل السّنة.

في 27 تشرين الأول 1019م، وصل الحاكم الجديد، عبد الرحمن بن إلياس، ابن عم "الحاكم" ووريثه المنتظر إلى دمشق، فاستقبله السكان بحفاوة وأعدوا على شرفه احتفالاً عظيماً في المرة، بيد أنه أثار بُشْحَه استياء عسكره، فتمردوا عليه وقاموا بنهب مقر إقامته الواقع خارج المدينة. ونجح شخص يدعى أحمد بن أبي طالب، والملقب بالجزّار، مع عصاباته المسلحة في طرد الكتائب المغربية. ودمرت الخرائق وأعمال النهب والقتل المدينة المتضورة جوعاً والتي لم يبق لها سيد إلا الجزّار. فانقلب وجهاء القوم وجزء من السكان عليه يدفعهم قلقهم من مجرى الأحداث، فسجنوه وأعدموه ثم سمروا جسده على باب الجابية في الوقت الذي قُتل فيه رجاله بعد مطاردتهم بلا رحمة. فعاد ابن إلياس إلى دمشق، إلا أن سياسته المقوّنة وموت "الحاكم" في شباط 1021م وخلافة أخيه الزاهر من بعده، كل ذلك أضعف من وضعه، فرُحِّل إلى مصر في قفص على ظهر ناقه، حيث وجد نفسه مضطراً للانتحار في ظروف مؤلمة.

في أثناء حكم الزاهر (1020 - 1035م) بدأت الدولة الفاطمية بالانهيار: إذ تراجعت ميزانية المالية العامة، ونمت سلطة كبار الموظفين الأتراك في صميم جيش مزقه التنافس بين أركانه المختلفة

وأعراقه المتباينة. وإذ لم يعد بإمكان الدولة إطعام قواتها ولا دفع أجورها، قامت هذه القوات بمهاجمة المخازن، وتفاقم الأمر إلى درجة أنه في عام 1025م، دخل جنود سود اللون كالإعصار إلى صالة الولايم الرسمية في القصر، وأكلوا بشرافة المأكولات المخصصة للمدعوين وهربوا ومعهم الأواني. ولم تكن مكاسب الموظفين الكبار أقل، إذ كانت تقدر الممتلكات التي كان يخلفها وراءهم الموتى الفاطميون أو كبار الموظفين بمئات آلاف الدينارين: من نقود ومعادن ثمينة جعلت جواهر، والأواني والحرير المذهب، ومغزونات الحبوب والمسك والبهارات وغير ذلك. أثار في سورية ضعف السلطة المركزية أطماع البدو. ففي خريف 1024م، استولى ثلاثة رؤساء لثلاث قبائل كبيرة على معظم البلد؛ إذ احتلت قبيلة ابن الجراح الرملة، وقبيلة ابن مرداس أسفل مدينة حلب ثم حاصرت قلعتها، وحاصر ابن عليان دمشق. ولم يستطع الجيش الفاطمي في فلسطين بقيادة القائد التركي أنوش تكن الدزيري إعادة هيمنة القاهرة الفاطمية إلا بصعوبة كبيرة. وفي أيار 1029م بعد سنوات طويلة من الحروب المستمرة، انهزمت القبائل في الضفة الشرقية لبحيرة طبرية، وأرسل رأس ابن مرداس إلى القاهرة، في حين نُبت جسدُه بالمسامير على أحد أبواب صيدا، واستمر اثنان من أولاده في الحكم في ممتلكاته في شمال سورية. اختار الدزيري دمشق مقراً لإقامته، إلا أن عصيان الكتائب، الذي أثارته القاهرة على الأغلب، اضطره إلى الحرب ليلاً مع عدد صغير من جنوده. ولم يقصّر هذا الحاكم، الذي يُعد أحد أفضل الحكام الفاطميين في سورية، في تكديس ثروات كبيرة: إذ وصلت قيمة ما نُهب من قصره في دمشق في اليوم التالي لهروبه إلى ما يقدر بمئتي ألف دينار.

إذا ثبت أنه ابتداءً من منتصف القرن الحادي عشر تلقى انحطاط الدولة الفاطمية تسارعاً مفاجئاً - توالي الوزراء السريع وتراجع التجارة والمالية وارتفاع الأسعار وتعددت المجاعات - فقد بقيت سورية كما رسمها الرحالة الفارسي ناصري نحسرو في عام 1047م مزدهرة ازدهاراً مدهشاً⁽¹⁾. كانت طرابلس وصيدا وبيروت وصور وعكا وطبرية والقيصرية والرملة والقدس كلها محاطة بأسوار منيعة وكانت المياه فيها تنبثق في كل مكان. في طرابلس وهي مركز تجاري ترتاده السفن القادمة من اليونان وفرنسا وإسبانيا والمغرب، كانت البيوت بأربعة أو خمسة أو ستة طوابق، توجد فيها كل المؤن وكل أنواع الفاكهة والأطعمة التي نجدها في بلاد فارس، ولكن بوفرة أكثر بمئة مرة.

(1) ناصري نحسرو، المرجع نفسه، ص 4 والتالية. ولكن من المؤسف أنه لم يزر دمشق.

كانت صور معروفة بين كل هذه المدن بغناها ورخائها. في القدس حيث كان يوجد مستشفى وحيث كان أهل الحرف كثيرين جداً وكان يشغل أهل كل حرفة في البازار صفاً مميزاً من المحال، كان يأتي إليها النصارى واليهود بأعداد كبيرة من بلاد الروم وبلاد أخرى لزيارة الكنيسة والهيكل⁽¹⁾. ومع أنه كانت توجد بين عكا والرملة "عصابات تهين الأجانب بالمعاملة السيئة وتسرق كل ما يحملونه معهم"⁽²⁾، فقد كانت تبدو له سورية بلداً هادئاً يعم فيها الرخاء والأمان. أما عن مصر فلم يعد لدى كاتبنا الفارسي كلمات، فاكتمى بالقول: "لم أعرف بلداً تتمتع أكثر من مصر بالهدوء والأمان (...)" لقد رأيت في القاهرة ثروات كبيرة لدرجة أنني لو حاولت أن أحصيها وأصفها ما وجدت في فارس من يصدقني"⁽³⁾. ولكن الوصف الذي رسمه للمدينة غني بتفاصيل ثمينة. فالبيوت المبنية من خمسة أو ستة طوابق وسطياً وأحياناً من أربعة عشر طابقاً قد بنيت بكثير من الدقة والفخامة بحيث يظن المرء أنها من الحجارة الثمينة⁽⁴⁾. ولما كان لا يوجد في القاهرة قنوات لتوزيع المياه مثل دمشق، كان ينقل الماء من النيل اثنان وخمسون ألف ناقة، في حين كان يقوم بهذه المهمة في الشوارع الضيقة جداً، حيث لا تستطيع النوق المرور، حمالون مجهزون بأنية من النحاس. آية تفوق الوصف، ففي المدينة خدمة حقيقية للنقل المأجور (تكسي)، ويضيف ناصري خسرو: "تجد عند مدخل كل شارع وكل سوق حميراً بسروج جميلة. يمكنك ركوبها حين تشاء مقابل أجرة رخيصة. قيل إن عدد الحمير خمسون ألفاً يمكن أن يستأجرها الناس كل يوم"⁽⁵⁾. من الناحية الاقتصادية، من المفيد أن نذكر أن ناصري خسرو ذكر استخدام الشيكات. كان هذا في البصرة، ولكن يبدو أن هذا كان يحصل أيضاً في دمشق والقاهرة، فقد كتب: "كانت تجري المعاملات التجارية على النحو التالي: كل من يملك أشياء ذات قيمة يضعها عند صراف أو صاحب مصرف فيعطيه بالمقابل وصلاً. وعند شراء أي شيء يُعطى

(1) هدمت كنيسة القديس Sépulcre عام 1009م وبقيت حطاماً حتى عام 1037م. حصل الإمبراطور البيزنطي ميشل الخامس في ذلك العصر من خليفة مصر المستنصر على الإذن بإعادة بناء الكنيسة مقابل تحرير خمسة آلاف عبد مسلم.

(2) ناصري خسرو، المرجع نفسه، ص 51.

(3) في الموضع نفسه، ص 155.

(4) في الموضع نفسه، ص 146.

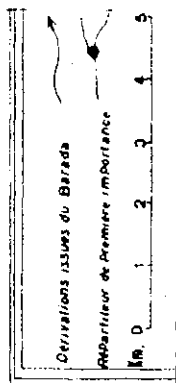
(5) في الموضع نفسه، ص 154. يشك في هذا العدد - خمسون ألف - الذي كثيراً ما يستخدمه ناصري خسرو في كتابته.

البائع حوالة على صاحب المصرف. فلا يستخدم التجار خلال إقامتهم في المدينة إلا بطاقات، على صاحب المصرف أن يدفعها"⁽¹⁾.

في عام 1055م دخل السلطان السلجوقي طغرل بيك بعد أن استدعاه وزير الخليفة إلى بغداد يتبعه جيش كبير العدد، فوضع حداً " لنظام الحماية" الذي كان البويهيون يمارسونه منذ عام 945م على الخلافة العباسية، ولُقّب بملك المشرق والمغرب لاتساع نطاق الأماكن التي كُلف بالسيطرة عليها. كان ظهور الأتراك السلجوقيين القادمين من آسيا الوسطى مروراً بإيران حادثة مهمة في تاريخ الشرق الأدنى، فإضافة إلى أنه وضع حداً نهائياً للهيمنة العربية، أعطى الشرق المتوسطي خصائصه المميزة. فلقد تبنت كل الدول التي توالى خلال أربعة قرون تنظيمهم وسياساتهم: الحفاظ على السلطة أطول مدة ممكنة وذلك بالتمسك بأكثر المواضيع إثارة وهي: الدفاع عن الإسلام السني وحمايته من الكفرة والشيعة الخارجين عن الإسلام⁽²⁾. على حين كان السلجوقيون يستقرون في بغداد، سرّعت الأزمة السياسية والاقتصادية والعسكرية، التي كانت تعيث في القاهرة فساداً من 1064 إلى 1072م، سقوط الدولة الفاطمية التي اندحرت سلطتها في كل مكان. وبويع الخليفة العباسي في اليمن عام 1067م وفي الحجاز عام 1070م. كما بايع الأمير المرداسي عام 1069 - 1070م في حلب الخليفة في بغداد وسلطان السلجوقي ألب أرسلان (1063 - 1072م). وفي جنوب سورية، وسّعت قبيلتا كلب والطائي سلطتهما في حوران والأردن باغتصاب الأراضي الحضرية. وفي المدن كان السكان يتولون مسؤولية الأمور العامة، ويعملون بأنفسهم على توفير الدفاع عن أنفسهم، أو يسلمون هذه المهمة لأول مغامر يأتي إليهم. وفي دمشق توالى التمردات والانتفاضات على نحو متسارع. في عام 1068م، هُدم واحترق مقر الحكام الفاطميين، قصر السلطنة، الواقع خارج المدينة فوق الربوة على الأغلب، وذلك أثناء تمرد. وفي 10 أيار من العام التالي، أثناء بلبلة حادة بين المغاربة

(1) في الموضوع نفسه، ص 236.

(2) نظام الملوك، الوزير المشهور للسلطان السلجوقي ملك شاه يعرف الحرب التي كان يشنها على أهل الشيعة كالتالي: "في كل مرة يظهر فيها الخارجون عن الإسلام، فما من عمل يجرى عليه العاهل الذي يحكم حينها كما يجزى على إبادتهم وإخلاء الدول منهم لتصبح طاهرة من وجودهم". Traité de gouvernement, Paris, Sindbad, 1984 AD, ص 251. يعطي الفصل 44 (ص 283 - 285) فكرة عن مدى عمق العداوة بين الخلافتين المتنافستين، العباسية والفاطمية.

[illegible]

دمشق و غوطتها

وأهل المشرق أصابت سهام نارية بيتاً مجاوراً للمسجد الكبير، فانتشرت النيران في المبنى المكرّم لتلتهمه ألسنة النار خلال ليلة كاملة. وفي الصباح، لم يكن هناك إلا جدران محترقة وحطام ينبعث منه الدخان. كتب أحد المؤرخين: "اختفى جمال المسجد وولت روعته"⁽¹⁾. ومن شدة الانفصال تحلى السكان عن أسلحتهم وأخذوا يلومون أنفسهم علناً وجماعياً، ثم عادوا إلى المعركة بحماس أشد من السابق. فنهب المغاربة جزءاً من المدينة وأحرقوه وانتهى الأمر بنصرهم.

في 1071م، استولى التركمان بقيادة الأمير "أتسز بن أوفق" على القدس والرملة وكل فلسطين، ومن هناك أخذوا يشنون هجمات على دمشق. قاوم الحاكم الفاطمي "المعلّاب بن منزو" محتمياً وراء الأسوار، هجمات الأتراك الذين اكتفوا، بغية خنق المدينة، بالعودة إلى الغوطة في كل فصل ربيع ليعيثوا فيها فساداً، ويقطعوا الأشجار ويدمروا المزروعات ويحطموا القرى. أما في داخل المدينة فلم تتوقف المناوشات بين الميليشيات وكتائب المغاربة، فعانت دمشق مرة أخرى المجاعة والهجرة الجماعية والإفقار.

عندما اغتيل السلطان ألب أرسلان في كانون الثاني 1073م، تحالف أتسز مع خليفته ملك شاه (1073 - 1092م) الذي أرسل له المدد. ولم يبق للفاطميين في دمشق إلا أيام معدودة. ففي 1075م، زادت المعارضة لابن منزو، وانضم الكثير من الدمشقيين إلى معسكر أتسز وحثوه على مهاجمة المدينة. في شهر آب هرب ابن منزو، وسلّم جنوده أمرهم لشخص يدعى "انتصار بن يحيى" من إحدى قبائل "المصمودي" البربرية الكبيرة. وعاثت المجاعة في المدينة فساداً؛ كتب ابن القلانسي: "ارتفعت الأسعار واختفت الحبوب واضطر الناس من الحاجة إلى أكل الجيفة وأكل بعضهم بعضاً"⁽²⁾. حينئذ ضيق أتسز الخناق على دمشق. وفي حزيران 1076م، جرت مفاوضات، واستطاع ابن يحيى أن ينسحب إلى بانياس مع جيشه، وفي 5 تموز دخل الأمير التركي المدينة حيث خطب في الناس لمصلحة العباسيين واضعاً حداً لقرن من الهيمنة الفاطمية، قرن من أسوأ القرون في تاريخ سورية.

أثناء العصر الفاطمي، ونتيجة انعدام الأمن المزمّن، انقلبت معالم دمشق رأساً على عقب. إذ حلت الأبنية المتتالية بتركيبتها المعقد العشوائي شيئاً فشيئاً محل مجموعة المنازل الرومانية الإغريقية

(1) Cf. Sauvage, المرجع نفسه، الجزء 7، 1896م، ص 209.

(2) ابن القلانسي، دمشق من 1075 إلى 1154م، الترجمة الفرنسية، Tournieu، بيروت، 1952م، ص 3.

بسبب الحرائق العديدة والهدم. وامتداداً لتطور بدأ منذ العصر البيزنطي، حل محل الشوارع التي كانت مخصصة للسير والتي كانت تؤدي أيضاً إلى المنازل، شبكة ملتوية من الطرق المتسلسلة تناسب الوضع الدفاعي كما ذكر أرسطو سابقاً⁽¹⁾: شوارع رئيسية للمواصلات تنطلق ابتداءً من أبواب الأسوار، وشوارع صغيرة تُغلق كل مساء بباب، ورُنقات، تُغلق بأبواب، تفتح عليها المساكن بواجهات بلا نوافذ. في نهاية القرن العاشر ذكر المقدسي أن "المنازل كانت قليلة السعة والشوارع سيئة التهوية والفسح ضيقة"⁽²⁾. وهكذا حل محل الوحدة النظامية للمدينة الرومانية القديمة توضعات من الأحياء المستقلة إلى حد ما، كل حي مجهز على حسب مستواه بمجموعة من المنشآت المدنية: من مساجد صغيرة وفرن للخبز، وسويقات للمتجات الضرورية، وحمامات تعتبر أجمل الحمامات في المشرق⁽³⁾. واستعادت دمشق جزئياً على الأقل خصائصها في العصر الآرامي. كان لكل حي مسؤول يعرف بالشيخ أو العريف كحاكم صغير وناطق باسم السكان ووسيط بينهم وبين الإدارة المركزية وحارسها وحاميها. وكان يجمع سكان كل حي تضامناً متنوعة ومتعددة أحياناً: محلية أو مذهبية أو عشائرية أو عرقية أو مهنية أو عائلية⁽⁴⁾. وسرعان ما ظهرت ثلاثة اتجاهات كبيرة: المسلمون في الغرب والنصارى في الشمال الشرقي واليهود في الجنوب الشرقي. وبرغم هذه التجزئة فقد أضفت بعض العوامل المشتركة على المدينة مظهراً من الوحدة. في المرتبة الأولى كانت التحصينات التي بنيت من حجارة الآجر أثناء إقامة المقدسي حوالي عام 970م⁽⁵⁾، وفيها سبعة أبواب: باب الجابية وباب الصغير وباب الكبير وباب توما وباب نهر وباب الشرقي وباب المحملين⁽⁶⁾ (باب صانعي المفارش). ويأتي في المرتبة الثانية المسجد الكبير، مركز الحياة الدينية والتعليمية والسياسية، حيث تُعلن الأخبار والقرارات التي تهم الجميع من: تعيين الحكام وإلغاء

(1) انظر في الموضوع نفسه، ص 56، الملاحظة 46.

(2) المقدسي، المرجع نفسه، ص 167.

(3) المقدسي، المرجع نفسه، ص 165.

(4) في المدن التي بناها المسلمون من الأساس مثل الكوفة والبصرة وواسط وبغداد كان يوزع السكان قبائلياً في الأحياء المختلفة. ثم أصبح الأصل العرقي عاملاً مهيماً. وفي نهاية القرن التاسع، ذكر اليعقوبي هذه الملاحظة عن بغداد: "لكل شعوب العالم حي في بغداد." (البلدان، ص 4).

(5) المقدسي، المرجع نفسه، ص 165.

(6) في الموضوع نفسه، ص 165.

ضرائب غير مشروعة إلخ.، وحيث كان يدير الفقهاء حلقات دراسة لتدريس أحاديث وأفعال النبي (ﷺ)، وحيث كان يجتمع الناس بعد صلاة الفجر بحضور القضاة والفقهاء وعلما الحديث وقراء القرآن ليقرؤوا سُبع القرآن الكريم وحيث، تحت الأروقة وفي الزوايا⁽¹⁾ المخصصة لهم كان الفقهاء من المذاهب المختلفة يدرسون وحيث كان يجتمع الدمشقيون مهما كانت ظروفهم من أشعة الشمس أو يستلقون على السجاد في حرم المسجد أو يذرعون المسافة بين باب البريد وباب جيرون. ويأتي في المرتبة الثالثة الأسواق التي كان معظمها مغطى⁽²⁾ ومؤلفة من مجموعة من الشوارع المتوازية وقد خُصص كل شارع منها لحرفة بعينها ويُغلق باب في نهايته. كانت بعض هذه الأسواق توجد بالقرب من الجامع الأموي، خاصة تحت الأروقة البيزنطية القديمة التي تنتهي بأبواب، وبالتحديد في موقع الشارع الروماني الكبير الذي تحول تدريجياً إلى مجموعة من الشوارع الصغيرة شبه المستقيمة، عرضها من متر إلى ثلاثة أمتار، والمغطاة في بعض النواحي بحصير من القصب أو الأغصان أو الأجر وهي غير مبلطة ومحاطة بحوائط صغيرة لا تتجاوز أبعادها في بعض الأحيان أبعاد خزانة. ويندفع إلى هذه الأسواق في كل لحظة جمهرة من الناس يتعذر وصفها، مكونة مزيج من المشترين والمارة والبائعين المتجولين، والمنادين للمزاد والمتسولين وفلاحى الغوطة وبهذو الفياء والعتالين والمهرجين وحيوانات برودة وحير وبغال ونوق وإلخ. إن المقدسي يتحدث عن هذا السوق دون أي شك حين قال: "إنه جميل جداً بسماء مكشوفة يمتد على طول المدينة"⁽³⁾، لم يبق من هذا السوق إلا الأبواب الطرفية التي تذكرنا بالطريق الكبير ذي الأعمدة من العصر الإمبراطوري. تُطل على هذه الشوارع التجارية مبان تجارية تسمى القيساريات، وهي مخصصة للمنتجات الثمينة، وفنادق كلها مبنية بنفس الطريقة مع اختلافات بسيطة، فهي تتكون من فناء محاط بأربعة أبنية، يوجد في دورها السفلي محلات وورشات ومخازن وإسطبلات ومكان للصلاة، وفي الدور الأول غرف صغيرة. ذكرت النصوص قيصريتين من العهد الفاطمي: القيسارية الفخرية التي بناها فخر الدولة، قاضي دمشق (توفي 1042م) وكانت توجد في شرق كنيسة

(1) في الموضع نفسه، ص 165.

(2) المقدسي، المرجع نفسه، ص 165.

(3) في الموضع نفسه، ص 165.

7. Damas — Pont de Bab-Touma



باب توما

القدّيس بول، بالقرب من خان الزيت الحالي، وقيصرية البرّز، "الأقمشة الثمينة"، تقع في غرب جامع الأموي، قرب باب البريد حيث مازال يوجد في أيامنا هذه مركز مهم لتجارة الأقمشة. يحصي المقدسي من المنتجات التي تشتهر بها دمشق والتي ساهمت في ازدهارها: "زيت الزيتون والبلعسي (وهو غالباً من الأقمشة الرقيقة) والبروكار ومرهم البنفسج - من النوعية السيئة - والنحاسيات والجوز والتين والزبيب"⁽¹⁾.

من الأمور التي كانت تثير دهشة زوار دمشق بدون جدل غزارة المياه، مصدر خصب وجمال لا مثيل له. كتب المقدسي: "إنها بلد تشقها سواقي المياه وتحيط بها أشجار بشار وفيرة ورخيصة الثمن"⁽²⁾. في دمشق لا حاجة إلى خمسين ألف ناقة وحمالين ليكدوا في نقل الماء بالقرب من النهر إلى الأماكن الأخرى كما هو الحال في القاهرة، إذ يوزع الماء عن طريق قنوات، والبديع أن هذا يحدث بفعل الجاذبية، فكما كتب ابن حوقل الذي وضع دمشق مع صُغد سمرقند ومصب نهر أبله بين أجمل المواقع في العالم: "كان الماء يجري في كل مكان، في المنازل، وفي الشوارع وفي الحمامات"⁽³⁾. ولكن من المؤسف أن تكون مثل هذه المدينة معمورة بالدمشقيين، إذ لم يحبهم زوارها مطلقاً؛ ويجدهم ابن حوقل إضافة إلى طبعهم الصعب: "أجلاًفاً وغير مرهفين"⁽⁴⁾، وكتب المقدسي عنهم: "إنهم حازمون ولكنهم مشاغبون"⁽⁵⁾.

بدأت خارج المدينة، على طول الطريق الذي يؤدي إلى أبوابها، ضواح شبه ريفية تعتمد على زراعة البقول في الدرجة الأولى: في الشمال العقبية، وفي الجنوب الشاغور، وفي الجنوب الغربي قرب الأسوار قصر الحجاج، على اسم الأمير الأموي الذي كان مقرّاً له. ثم نجد العديد من منازل الاصطياف منتشرة في الغوطة هنا وهناك، على ضفاف القنوات وفي ظلال الأشجار.

لم يبق من دمشق الفاطمية أي أثر مادي سوى قبر أثري منحوت جرى نبشه نحو عام 1920م أثناء ترميم ضريح صغير في مقبرة باب الصغير. يوجد في القبر على ثلاثة جوانب حوض من الحجر

(1) في الموضع نفسه، ص 219.

(2) في الموضع نفسه، ص 165.

(3) ابن حوقل، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 455.

(4) في الموضع نفسه، الجزء 1، ص 172.

(5) المقدسي، المرجع نفسه، ص 165 - 167.

متوازي السطوح آية قرآنية (256،2) وشاهدة قبر امرأة تدعى فاطمة بنت أحمد ابن الحسين ابن السبتي، ماتت في كانون الثاني 1048م، ويرغم التاريخ وسلسلة النسب يصير بعض السكان على أنها ابنة الحسين، حفيذة عليّ. كتب النص بأسطر منضودة ومفصولة بعضها عن بعض بمساحات بارزة - اختفت معالم النص اليوم بسبب طبقة سميكة من الدهان الأسود - بحيث تبرز الحروف نتيجة إزالة ما حولها. كما مدّت الأحرف الكوفية الفائقة الروعة ذيولها بين التفافات أغصان مزهرة يتخللها زهور متداخلة غنية بالإبداع. تقترب شاهدة قبر فاطمة الأثري، بأحرفها وزخرفتها، من أعمال لها نفس الأسلوب، معاصرة لها تقريباً وموجودة في إيران وعالية الجزيرة السورية في ماردن وديار بكر والموصل.

منذ وصول أتسر إلى دمشق غير أولئك الذين دعوه اللهجة بمرارة. فقد كتب ابن القلانسي: "احتل الأتراك المنازل بعد أن طردوا منها سكانها واغتصبوا ممتلكاتهم وغالوا في استخدامها على نحو سيئ وأبدوا نياتهم الشريرة إلى درجة أن الجميع أخذ يدعو على أتسر دون توقف" (1). وعانت دمشق من قفزة تجاوزت ما شهدته أثناء الاحتلال الفاطمي. لقد أصبح عدد سكانها ثلاثة آلاف من بينهم خبازان بدلاً من مئتين وأربعين خبازاً. وأصبحت الأسواق خالية ولم تعد تجد المحال التي كان ثمنها ألف دينار من شارب. وأحرقت منازل الأحياء الجميلة التي لم يتمكن أهلها من بيعها لتحويل خشبها إلى فحم. وتكاثرت الفئران وارتفع ثمن الققط، لمكافحة القوارض أو لأكلها كما كانت تؤكل الكلاب. ووصل الأمر من سوء لدرجة الهجوم على المارة العزل لشيئهم في الخفاء وقضمهم في العتمة (2).

بعد عامين في عام 1078م، عند دخول الجيش الفاطمي سورية، طلب أتسر مساعدة الأمير السلجوقي تاج الدولة تئش، أخي السلطان ملكشاه، بعد أن وعده بتسليمه دمشق وأن يصبح والياً عنده. ولم يتأخر تئش الذي كان حينها يتجهز بأمر من أخيه لفتح سورية. وعلى حين كانت الكتائب الفاطمية تتراجع باتجاه الساحل، دخل تئش دمشق واكتفى بخلق أتسر. بالطبع لا وجود لأي أثر مادي لزمان إقامة أتسر القصيرة في دمشق. كل ما نعرفه هو أنه كان دون شك مؤسس القلعة

(1) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 4.

(2) Bianque Damas et la Syrie sous la domination fatimide.

دمشق وسورية تحت السيطرة الفاطمية، الجزء 2، ص 551 (ملاحظة لابن القلانسي عن سبت بن الجوزي).

الموجودة في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة وذلك ليوافقه عودة الهجوم الفاطمي⁽¹⁾. ولم يبق من هذه القلعة أي شيء، فالبناء الضخم الذي نراه اليوم تعود أصوله إلى القرن الثالث عشر.

عمد تتش منذ وصوله إلى دمشق، إلى توسيع وتقوية السلطة السلجوقية في سورية. ففي عام 1085م احتل حلب وعهد في أمرها إلى آق سنقر، وهو مملوك قديم للملكشاه، وأبي الأمير عماد الدين الزنكي، بطل الحروب على الصليبيين مستقبلاً⁽²⁾. عندما مات ملكشاه عام 1092م، اختلف تتش مع ابن وخليفة ملكشاه السلطان بركيارق (1094 - 1105م) ومات في ساحة المعركة في 25 شباط 1095م في جنوب الري، إذ قطع رأسه أحد رجاله وتناقلته صفوف الجيش المعادي قبل أن يرسل إلى بغداد. في ظل حكمه في عام 1082 - 1083م أعاد أحد الوزراء على نفقته الخاصة بناء قبة الجناح العرضاني للجامع الأموي في دمشق والدعامات الأربع والأقواس الأربع التي تحملها⁽³⁾. ترك تتش وراءه ولدين، رضوان ودقاق، عسكر الأول على ضفاف الفرات الذي كان يتجهز لعبوره لكي يأتي لنجدة والده، لكنه عاد أدراجه عندما وصله خبر وفاته وأسرع لاحتلال حلب، في حين أسرع الثاني إلى دمشق وحكم فيها تحت جناح حاميه الأتابك⁽⁴⁾، طغتكين، الذي كان يشغل وظائف مهمة في المدينة عند غياب تتش.

كان طغتكين ماهراً نشيطاً دقيقاً ونفسه عفيفة وضميره يقظاً، وقد ساس الناس بحكمة، فمدحه المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي، الذي لم يُعرف عنه المديح، وكان بسبب مكانته الاجتماعية انتهازياً ومن أنصار النظام بدون شك، فبعد أن مدح في طغتكين "رجاحة عقله ومهارته في الإدارة وحسن قيادة الجنود المرتزقة"، أضاف: "ازدهرت ونمت أثناء حكمه التجارة في دمشق والمقاطعات التي تعتمد عليها، بفضل مهارته السياسية (...). وانخفضت الأسعار، وأصبحت الحبوب وفيرة

(1) Sauvage, H. المرجع نفسه، الجزء 7، 1896م، ص 374، Sauvaget, J. قلعة دمشق، "La châtelle de Damas"، سورية، 1930م، ص 63.

(2) ابن خلكان، Biographical Dictionary، الترجمة الفرنسية لسلان، باريس، B. Dupart، 1842-1871م، الجزء 1، ص 225. ابن خلكان (1211 - 1282م) مؤلف قاموس جيوغرافي، شغل وظيفة القاضي في دمشق حيث أمضى جزءاً كبيراً من حياته وفيها مات. كان المملوك جندياً بعد أن كان عبداً اشتراه أحد الأمراء أو السلاطين من الأسواق.

(3) انظر في الموضوع نفسه، ص 110.

(4) الأتابك هو الرجل الذي يثق فيه السلطان ويعهد إليه تعليم ابنه، على أن يساعده في الحكم عندما يصل إلى السلطة.

جداً، واستطاع الناس استثمار أموالهم بكل سهولة في الداخل كما في الخارج بفضل سياسته الممتازة وإدارته الحكيمة التي جعلت العدل يعم، وتختفي معه كل أسباب الظلم"⁽¹⁾. في عام 1096م جاء "رضوان"، الذي كان يرى في أخيه مغتصباً، يداعبه الطموح بتوحيد كل سورية تحت سيطرته، وحاصر دمشق التي كان يقوم بالدفاع عنها طغتكين أثناء غياب دقاق. فأغلقت الأبواب وأخذ السكان والعدد الصغير المتبقي من المماليك يرمون السهام من أعلى الأسوار على المهاجمين الذين كانوا قد اقتربوا من "الباب الصغير" عن طريق سوق الخرفان، ولكن عندما علم رضوان بخبر عودة دقاق رجع أدراجه إلى حلب. في العام التالي، بايع رضوان الفاطميين آملاً مساعدتهم في الهجوم ثانية، فألقيت خطبة الجمعة من منابر حلب باسم إمام القاهرة المستعلي (1094 - 1101م) مدة شهر.

في ذلك الوقت، عندما كان العالم الإسلامي في حالة من التفكك السياسي العميق جداً - خليفتان متنازعان، أحدهما شيعي في القاهرة والآخر سُني في بغداد، وقد مزقت السلجوقيين، وهم يد الخليفة العباسي المسلحة، نزاعات الإرث، وحلب ودمشق بأيدي أخوين عدوين - ظهرت عند الحدود الشمالية السورية الحشود الصليبية. كتب ابن القلانسي: "بدأت تتوارد إلى دمشق ذلك العام (1097م) أخبار ظهور جيش الفرنجة القادم من بحر مرمرة بأعداد لا تحصى. ولما كانت هذه الأخبار تتتابع دون توقف، تملك الرعب الناس، وذعروا من سماعها"⁽²⁾. لقد كانوا حقاً معذورين؛ التفاصيل التي لم يزودنا بها ابن القلانسي وصلت إلينا عن طريق نصوص تاريخية مجهولة المصدر من الحملة الصليبية الأولى. تقدمت "أعداد كبيرة مجنونة"، كما كان يصفها فولتير⁽³⁾، بحجة تحرير الجزء الجنوبي من سورية، الذي كان النصاري المتدينون يسمونه "الأرض المقدسة"، من الكفرة. وبعد أن انتصرت في هجومها على مدينة نيقية وهزمت الأتراك في معركة دورويليوم في الأول من تموز عام 1097م، عبرت الأناضول تدريجياً وهي تزرع الموت والخراب والكآبة: لقد أحرقوا المدن بسكانها، وقضوا على اليهود، ونهبوا كل شيء⁽⁴⁾. وفي نهاية تشرين الأول عام 1097م، حاصر الصليبيون أنطاكية، فاستنجد حاكمها التركي يغني سيان

(1) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 33.

(2) المرجع نفسه، ص 38.

(3) Essai sur les moeurs et l'esprit des nations, Paris, Garnier, p573 VOL I 1963 AD.

(4) Histoire anonyme de la première croisade, Les Belles Lettres, p23. 1964

تاريخ مجهول للحروب الصليبية الأولى، باريس.

بكربوغا، أمير الموصل. في حين كان وزير الخليفة الفاطمي، الأفضل شاهنشاه، يتفاوض مع الغزاة ويعرض عليهم أن يتقاسم معهم سورية. أما دقاق ورضوان فلم يستعجلا بالتدخل: قام كلٍ منهما على حدة بمحاولات دفاعية، لكنهما هُزما الواحد تلو الآخر، هزم الأول في كانون الأول 1097م، والثاني في شباط 1098م. وفي 3 حزيران 1098م، بعد سبعة أشهر من الحصار، اخترق الفرنجة أنطاكية بفضل خيانة شخص كان يدعى فيروز، وهو صانع أسلحة من أصل أرمني. ففُطِع رأس يغني سيان بعد أن تعرّفه الأرمن، وكانت المجزرة مروّعة، إذ كتب مؤرخ مجهول⁽¹⁾: "امتلأت ساحات المدينة كلها بالجثث لدرجة أنه لم يكن بمقدور أحد البقاء فيها بسبب رائحة نفسخها، ولم يكن ممكناً السير في شوارعها دون المشي على جثث الموتى"⁽²⁾. وصلت كتائب كربوغا التي زاد عددها بانضمام مقاتلين أرسلهم دقاق في 5 حزيران وحاصروا المدينة، إلا أنهم هُزموا في 28 من نفس الشهر عند الأسوار، فانسحبوا، وسقطت أنطاكية نهائياً في أيدي الفرنجة وانفتح أمامهم الطريق إلى سورية. استغل الفاطميون الوضع وعادوا إلى الهجوم في الوقت الذي كان الفرنجة يرفضون عروضهم في التقسيم، وفي 26 آب 1098م احتلوا القدس، التي كانت حين ذاك في أيدي أميرين تركيين، الأخوين سوكمان وإيلغازي بن أرتق. في دمشق عندما شعر دقاق بخطر تقدم الفاطميين لم يفعل شيئاً ليدفع تقدم الفرنجة. وبينما كانت نزاعات الإرث مستمرة في البيت السلجوقي، كان الفرنجة يتابعون تقدمهم داخل سورية، في حين كان أسطول جنوة يجول في عرض البحر قرب الساحل آملاً الحصول على امتيازات تجارية كبيرة بها يقدمه من مساعدة. في 11 كانون الأول هوجمت معرة النعمان وتجاوزت أعمال النهب والمجازر التي قام بها "فرسان الرب الحق" المسلحون بالصليب⁽³⁾ كل الرعب والفظاعة التي شاهدها العالم إلى ذلك اليوم، إذ كتب شخص مجهول: "ثم دخل جنودنا المنازل، واستولوا على كل شيء ذي قيمة وجدوه في المنازل أو المخابئ. وفي الصباح أخذوا يذبحون أعداءهم في كل مكان يجدونهم فيه، رجلاً كان أو امرأة. ولم يكن هناك زاوية في المدينة خالية من جثث المسلمين، وكنا لا نكاد نستطيع السير في شوارع المدينة دون المشي على الجثث (...). وكان بين جنودنا من لم يجد ما هو بحاجة إليه (...). لذا كانوا يبقرون بطون الجثث لأنهم كانوا

(*) المقصود بالراوي المجهول، على الأغلب، هو ذلك الشخص الذي كان يرافق الحملات ويدون الأحداث في مذكرات.

(1) في الموضع نفسه، ص 111.

(2) في الموضع نفسه، ص 93.

يجدون دنائير مخفية فيها، وكان بعضهم يقطعون لحومهما فيطبخونها ويأكلونها"⁽¹⁾. وشهدت طرطوس وطرابلس والجيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وقيسارية والرملة مرور كتائب الفرنجة الذين وصلوا إلى أسوار القدس في 7 حزيران 1099م. وبعد خمسة أسابيع من الحصار، اخترقوا المدينة في 15 تموز. يزودنا نفس المجهول ببعض الايضاحات عن الأساليب التي كان يستخدمها فرسان المسيح أثناء تقدمهم: "(...) تابع حُجَّاجنا مسيرهم حتى هيكل سليمان (قبة الصخرة)، وذبحوا المسلمين الذين كانوا قد اجتمعوا هناك، وجرت معركة فظيعة استمرت نهائياً كاملاً لدرجة أن الدماء كانت تسيل في كل أنحاء الهيكل (...). كانت المذبحة فظيعة لدرجة أن جنودنا كانوا يمشون والدماء تصل إلى كواحلهم (...). وأخيراً بعد هزيمة الكفرة (المسلمين)، أسر جنودنا في الهيكل عدداً كبيراً من الرجال والنساء فقتلوه أو تركوا بعض الذين استحسنوهم أحياء (...). ثم انطلق الصليبيون في كل المدينة ينتشلون الذهب والفضة والخيل والبغال، وينهبون المنازل المليئة بالثروات. ثم ذهب جنودنا سعداء ليكون فرحاً ليقبسوا ضريح منقذنا "المسيح" وليؤدوا حقه. في صباح اليوم التالي، تسلق جنودنا سطح الهيكل وهاجموا المسلمين، رجالاً ونساءً، وضربوا أعناقهم لأنهم تجرؤوا وجردوا سيوفهم. ورمى بعضهم أنفسهم من أعلى الهيكل (...). وصدر أمر برمي جثث كل المسلمين خارج المدينة بسبب تفسخها، فالمدينة كلها كانت تقريباً ممتلئة بها. وجرَّ المسلمون الأحياء جثث موتاهم خارجها (...). لم يسمع أو ير أحد مذبحة شبيهة بهذه المذبحة للأمة الكافرة (المسلمة): إذ أقيمت أعداد كبيرة من المحارق لا يعرف عددها إلاَّ الرب"⁽²⁾. ويزودنا ابن القلانسي بتوضيح إضافي لم ينس عنه هذا المجهول بينت شفة: كان الصليبيون يهاجمون اليهود أيضاً، "فلقد جمعوهم في معابدهم وأحرقوهم أحياء"⁽³⁾. كتب فولتير معلقاً على هذه الحادثة: "يمكن تصديق هذا بالفعل بعد الضراوة التي أبدوها في قتلهم أثناء تقدمهم"⁽⁴⁾ مشيراً إلى قتل الفرنجة المتكرر لليهود أثناء عبورهم للأناضول، والذي رواه المؤرخ المجهول وهو يجد صعوبة في إخفاء بهجته.

(1) في الموضوع نفسه، ص 177 - 179.

(2) في الموضوع نفسه، ص 203 والتالية.

(3) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 43.

(4) فولتير، المرجع نفسه، الجزء الأول، ص 567.

انتُخب جودفروا دو بويون أميراً للقدس وزحف الفرنجة إلى عسقلان فانتصروا هناك على الكتائب الفاطمية التي كانت تنهياً للقيام بهجوم مضاد. وانتهت الحملة الصليبية الأولى بانتصار الفرنجة الكامل الذين، برغم الوعد الذي قطعوه للقيصر البيزنطي بإعادة الأراضي السورية البيزنطية القديمة في الشمال، أقاموا على الساحل، وأخذوا يَكُونون تدريجياً عدة إمارات عُرِفَت بالدول اللاتينية في الأرض المقدسة: مملكة بيت القدس، سيده الممالك نظرياً، وإمارة أنطاكية وإمارة الرها، وأضيف إليها بعد وقت قصير بفضل دعم أسطول جنوة إمارة طرابلس. أما في دمشق، فعلى الرغم من محاولتين لاحتلالها لم يتمكن الفرنجة - الذين كانوا يسيطرون على كل المنافذ التي عن طريقها تُعبر منتجاتها باتجاه أوروبا، وعلى المراعي والطرق التجارية وحقول قمح منطقتين تابعتين لها طبيعياً، البقاع وحوران - من احتلالها. وبدأت حينها لعبة دبلوماسية لم يكن للاعتبارات الدينية فيها أي مكان، تحركها فقط طموحات الأمراء الذين كانت سياستهم الوحيدة هي عمل كل شيء بغية الحفاظ على السلطة. وهذا ما أكدته المؤرخ كمال الدين بهذه الكلمات: "أراد أمراء ذلك العصر أن يطيلوا مدة احتلال الفرنجة ليبقوا في السلطة"⁽¹⁾. واعتبرت حكومة دمشق التي قبلت منذ البداية مجاورة الفرنجة، مملكة بيت المقدس ترساً لها أمام الفاطميين، وإمارة طرابلس وإمارة الرها حامية من هجمات أتابكة الموصل. وكان بقاء دمشق متعلقاً بتوازن دقيق بين السلطات، واعتبر جهاد الغزاة الفرنجة أكبر ضرر لها، فحتى في عام 1104م - بعد أن انتصر الأتابك جركمش وأسّر بوهيموند صاحب أنطاكية وبولدين الثاني صاحب الرها وسيطر على دوليتها - بقيت دمشق بعيدة عن النزاع.

في 18 حزيران 1104م، أصيب دقاق بحمي معاودة - ويقال أيضاً إن أمه قد سمته - ثم مات، فخلفه أتابكه الوفي "طغتكين"، ودفن في حكر الفهادين، على ضفة بردى اليسرى، في غرب المدينة. وغطى قبره - الذي تعرض للدمار أثناء النزاعات الداخلية في زمن الأيوبي، ودمرته النيران في عام 1229م - بقبة تسمى "قبة الطواويس"⁽²⁾، كما يروي ابن عساكر، وجاوره مسجد بنت أمه صفوة الملك، التي يعود لها الفضل في بناء بيارستان (مستشفى)⁽³⁾، وخانقاه الطواويس حيث يوجد قبرها،

(1) R.H.O.C., III, 607. في المشرق الأدنى المعاصر أوضاع شبيهة جداً بذلك الوضع.

(2) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 165.

(3) Sauvaire، المرجع نفسه، الجزء 3، 1984م، ص 282.

وأول مدرسة في دمشق⁽¹⁾. ماتت صفوة الملك في 7 أيلول 1119م، وكما يروي ابن القلانسي، "دفنت بجانب ابنها في قبر (القبة) الذي بنته على مرتفع يطل على الميدان الأخضر"⁽²⁾. وكان هذا القبر الأثر المادي الوحيد للأمراء السلجوقيين في دمشق وأقدم أثر تذكاري للمدينة بعد الأمويين حتى عام 1938م، التاريخ الذي هُدم فيه لأنه كان مهدداً بالانهيار. أعطانا جان سوفاجيه وصفاً مفصلاً لهذا القبر⁽³⁾. غرفة مربعة مغطاة بقبة، تمتد في المحور الشرقي الغربي مدعومة بدعامتين تغطي كل منهما نصف قبة محمولة على قاعدة مضلعة تتناوب فيها الفتحات والعقد. نجد هذا التنظيم - الذي يعود في الأصل إلى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية، العراق وفارس - في بيارستان نور الدين الذي بني بعد أقل من نصف قرن. يوجد فوق الباب المفتوح في مركز الجانب الشمالي، أربعة أسطر كوفية مزهرة تحل ذكري البناء الذي بنته السيدة "صفوة الملك وأجد نساء العالم، وأم الملك دقاق، في عام 504هـ/ 1110م - 1111"⁽⁴⁾. القفل البازلي الأسود لقوس التنزيل الذي يعلو ساكف الباب هو من أقدم النماذج المعروفة للمداميك المتعددة الألوان، وهو تقنية ستعرف فيما بعد تطوراً كبيراً وستصل إلى كامل تألقها في العصر المملوكي (1250 - 1516م). يخفي طلاءً جصياً من الداخل والخارج توضع حجارة غير منتظمة ومقطعة عشوائياً. تحتوي الزخرفة المتواضعة جداً على شرائط من تشبيكات زهرية، وتداخلات مورقة وسلاسل من عقود صغيرة، وكتابات بأحرف طويلة الذيل مضمورة وملونة بلون أزرق الكوبالت في الخنايا الركنية وفي الكؤات المحورية.

إن ضريح سَكِينَة الذي اكتشف في نفس الوقت الذي اكتشف فيه ضريح فاطمة في مقبرة باب الصغير معاصر لضريح صفوة الملك. كانت سَكِينَة بنت الحسين حفيد النبي مشهورة بمواهبها وجمالها وزواجها المتعدد. ماتت، كما يروي معظم مؤرخي الأخبار، في المدينة عام 735م. نقش آية من القرآن الكريم⁽⁵⁾ بأحرف صغيرة في الجزء العلوي لصندوق من خشب الجوز، فوق شاهدة القبر⁽⁶⁾.

(1) عن هذا النموذج من المنشآت انظر في الموضوع نفسه، ص 179 - 177.

(2) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 150.

(3) Sauvaget, J., Les monuments ayyubides de Damas, Livraison I, Paris, E. de Bocard, p 1-13.

(4) R.C.E.A.، الجزء 8، العدد 2942.

(5) القرآن، 2، 255: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم).

(6) R.C.E.A.، الجزء 8، العدد 3195.



بيمارستان نور الدين

وانبسطت أحرف من الحجم الكبير ممشوقة ومتينة، خُطَّ تحت كفافها حُرٌّ دقيق، ومتداخلة أحياناً وفق الطريقة الشائعة في إيران وتركستان، على خلفية من تشبيكات مزهرة. بدت هذه التشبيكات المزهرة المنقوشة عميقاً غنية بتزيينات متنوعة جداً: متناظرة أو غير متناظرة، قصيرة أو طويلة، بفصين أو بثلاثة فصوص وملتوية أحياناً كاللؤلؤ. نجد أسلوب الزخرفة الموجود في ضريح سكيته - وهو وريث الزخرفة العباسية كما تبدو في زخارف سامراء الجصية - في محراب المسجد الكبير لنور الدين في الموصل. وفي دمشق، نجد هذا الأسلوب فقط في لوحة المقصورة في مسجد باب المصلى - وهي محفوظة اليوم في متحف دمشق - ويعود تاريخها إلى 1103م⁽¹⁾.

يبدو قبر بلال التذكارى المصنوع من الخشب والواقع في ضريح في مقبرة باب الصغير، كما يدل طرازه، معاصراً لضريح سكيته. كان بلال من أصحاب الرسول (ﷺ)، وهو من أصل حبشي وأول مؤذن في الإسلام، صاحب أبي عبيدة في حملته إلى دمشق حيث، كما يذكر معظم أهل السنة، مات ودفن عام 641م⁽²⁾. يذكر ابن عساكر أربعة أماكن يظن الناس أنها المكان الذي يوجد فيه قبره. يشهد قبر بلال التذكارى وقبر المحدث "أبو بن عثمان"، ابن الخليفة الأموي الثالث، وقبر الشاعر كعب الأحبار وقبر أبي الدرداء - وهو من أصحاب النبي (ﷺ) وقاضي دمشق أثناء حكم عثمان - على مدى تعلق الناس في النصف الأول من القرن الثاني عشر بأفراد عائلة النبي (ﷺ) وأصحابه.

في العصر السلجوقي عمد أحد الأمراء إلى ترميم مسجد خالد بن الوليد، وقد خلّدت ذكرى هذه الترميمات كتابة كوفية منقوشة فوق الباب، من المؤسف أنها اختفت اليوم تحت طلاء أسود: "هذا مسجد خالد بن الوليد، من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين"⁽³⁾.

بعد موت دقاق، حكم طغتكين دمشق وحده إلى أن مات في عام 1128م. لقد كان طغتكين مؤسس الدولة البورية التي استمرت حتى وصول نور الدين عام 1154م. توالى أثناء حكمه المناوشات والهدنات مع الفرنجة، إلا أنه هزمهم في كانون الأول 1105م قرب طبرية، واستولى على

(1) كتالوغ متحف دمشق القومي، (طبعة 1976م)، ص 219. انظر الريماوي، عبد القادر، دمشق، ص 102.

(2) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد 3093 مكرر.

(3) R.C.E.A.، الجزء 8، العدد 2918.

القلعة وهدمها ثم عاد إلى دمشق مع "أعداد كبيرة من الرؤوس المقطوعة والأسرى والغنائم الكثيرة جداً"⁽¹⁾. وأبرم في عام 1108م هدنة مع بلدوين، ولكن في العام التالي أصبح الفرنجة بعد أن استولوا على طرابلس وبيروت وصيدا سادة الساحل السوري فيما عدا صور وعسقلان. اضطر طغتكين في أيلول 1109م بعد سقوط طرابلس مباشرة أن ينزل لبلدوين عن ثلث عائدات البقاع. وفي نيسان 1110م، بعد خمسة وثلاثين يوماً من الحصار، انتصر في هجومه على بعلبك التي كان حاكمها، طواشي تش سابقاً، قد تحالف مع الفرنجة، وعهد في الحكم إلى ابنه تاج الملوك بوري.

إن إقامة الفرنجة في سورية لم تكن سهلة إلا بفضل النزاعات الداخلية في العالم الإسلامي، ثم إنها لم تتردد فعل الخليفة العباسي في بغداد إلا في وقت متأخر، وكان هذا بعد إلحاح سفير حلب، إذ كتب ابن القلانسي: "في 17 شباط 1111م حضر شريف هاشمي يرافقه مجموعة من الصوفيين والتجار ورجال الدين إلى جامع السلطان في بغداد، واستطاعوا بعد أن استعطفوا المسلمين الحاضرين في المسجد أن ينزلوا الخطيب من المنبر، وأخذوا يصرخون ويكون بسبب المآسي التي يعاني منها الإسلام من الفرنجة الذين كانوا يقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال (...). فأمر السلطان الأمراء ورؤساء الجيش العودة إلى مقاطعاتهم ليجهزوا أنفسهم لجهاد الكفرة، أعداء الله"⁽²⁾. وعُهد إلى شرف الدين مودود، أتابك الموصل، بتنظيم الكفاح. لم يساهم طغتكين في البداية إلا بمساعدة محدودة، ولكن في عام 1113م طلب دعم شرف الدين مستاءً من حملات الفرنجة في حوران. وفي 28 حزيران، قاتل الجيشان المتحdan قوات بلدوين بالقرب من بحيرة طبرية، وأرسل إلى السلطان السلجوقي غياث الدين في أصفهان أعداد كبيرة من الأسرى والرؤوس المقطوعة والخيول والدروع والخيام وكل أنواع الأسلحة. وحين بدت نهاية مملكة بيت المقدس قريبة، وصل الدعم من طرابلس وأنطاكية، فأجبروا طغتكين ومودود على الانسحاب إلى دمشق حيث جهزوا هجوماً للربيع القادم. ولكن في يوم الجمعة، 18 تشرين الأول، بينما كان القائدان التركيان يتقدمان، وسط "حشد من الناس المسرعين لرؤية عظمتها وروعتهما"⁽³⁾، في المسجد الكبير، وقد أحاط بهما الأتراك وجنود خراسان وميليشيات وفرسان، وهم يحملون كل أنواع الأسلحة: سيوف مسنونة

(1) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 63.

(2) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 103 - 104.

(3) في الموضع نفسه، ص 126.

وأخرى عريضة أو معقوفة وخناجر "كانت تبدو كأنها أشواك مرصوفة وغابة كثيفة"⁽¹⁾، ظهر رجل بين الحشد، "دون أن يراه أو يلفت انتباه أحد واقرب من الأمير مودود وكأنه يريد أن يدعو الله له (...) وطعنه بخنجره مرتين فوق السرة (...). فمضى الأمير بخطى ثابتة إلى أن وصل قرب الباب الشمالي للمسجد ثم انهار (...). ومات في اليوم نفسه بعد بضع ساعات"⁽²⁾. دُفن جثمانه المغلف بالكفن في ضريح يقع داخل باب الفراديس. واستراح - دون أدنى شك - طغتكين، الذي ليس من المستبعد أن يكون مسؤولاً عن عملية الاغتيال هذه، باختفاء حليفه القوي. ثم تابع سياسته في تحقيق التوازن، واتجه أولاً إلى حلب، وفي ربيع عام 1114م، وقّع هدنة مع بلدوين. ولم يكتف طغتكين بعدم المشاركة في الجهاد الذي كان يقوده ذلك العام برشق، أتابك الموصل الجديد، بل انضم إلى حلف مضاد لبرشق يتألف من لولو الوصي على عرش حلب وإيلغازي صاحب ماردين وثلاثة أمراء فرنجية: روجر صاحب أنطاكية وبلدوين صاحب بيت المقدس وبون صاحب طرابلس. وبعد هزيمة برشق في 14 أيلول جنوب غرب حلب، تخلى السلاطنة السلجوقيون عن كل أمل في إعادة سلطتهم المباشرة على سورية. وفي أيار - حزيران 1116م، ذهب طغتكين إلى بغداد حريصاً على تجهيز نفسه لمواجهة مطامع روجر صاحب أنطاكية، الذي كان حليفه بالأمس، وبائع الخليفة المستظهر (1094 - 1118م) والسلطان غياث الدين (1104 - 1117م)، فاستلم حكم سورية رسمياً باسم الدولة العباسية بعد أن أنعموا عليه "بأثواب رائعة وهدايا قيمة"⁽³⁾.

في عام 1124م، بعد أن نجح بلدوين الثاني بفضل مساعدة بحرية البندقية في الاستيلاء على ميناء صور، وبرغم كل الجهود التي بذلها طغتكين في المقاومة، زحف بلدوين الثاني إلى دمشق، إلا أنه أوقف في مرج الصفر، في جنوب المدينة. وفي 1126م نزل طغتكين عن قلعة بانباس إلى طائفة إسماعيلية من الحشاشين كان ابن القلانسي يرى أنهم: "عصابة من الفقراء الشياطين، ومختلي العقول وفلاحين، وجماعة من الصعاليك"⁽⁴⁾. ومن هذه القلعة المنيعه ضاعفوا نشاطهم، وعين الخليفة المسترشد (1118 - 1135م)، في تشرين الثاني - كانون الأول 1126م عماد الدين زنكي، حاكم بغداد

(1) في الموضوع نفسه، ص 126.

(2) في الموضوع نفسه، ص 126 والتالية.

(3) في الموضوع نفسه، ص 167.

(4) عن الحشاشين انظر Lewis, B. الحشاشون "Les Assassins", Paris, Berger Levrault, 1982 AD.

وأتابك أحد أبناء السلطان محمود، ليحل محل أمير الموصل، بعد أن قتله الحشاشون بخناجرهم. كان عماد الدين زنكي كما اعتبره المؤرخ ابن خلكان "أحد أكثر الأمراء السلجوقيين نبوغاً"⁽¹⁾، وقد دخل الموصل في أيلول 1127م ثم حلب في كانون الثاني 1128م.

في 11 شباط 1128م، مات طغتكين في دمشق بعد ثلاث وثلاثين سنة من الحكم الفعلي. وقد منحه ابن القلانسي، بعد أن مدح الازدهار الذي شهدته المنطقة أثناء حكمه، الكثير من الثناء إذ كتب: "لو أن القدر يحفظ الأقوياء من الموت، لكان هذا الأمير الفقيد البار جديراً بأن يستثنى من الموت وألا يرى المصائب تحط عليه"⁽²⁾. تحت الرواق الشمالي للمسجد الكبير في دمشق نقشت ستة أسطر بأحرف كوفية مزهرة على ساكف باب صغير لتخلد ذكرى ترميم جزء من الحائط أمر ببنائه في عام 1109 - 1110م "ساعداً للإسلام، وسند الدولة، وفخر الأمة، وعون الأمراء وسندهم، وسيف أمير المؤمنين، سعادة الأتابك أبو سعيد طغتكين"⁽³⁾. أمكن تعرّف اثنين من أصحاب الرتب العليا في بلاطه، وهما بدر بن عبد الله والأمير ألتنشاه، بفضل شاهدي قبريهما في مقبرة باب الصغير⁽⁴⁾.

خلف تاج الملوك بوري والده، وأصبحت الحرب على الحشاشين الذين لم يتوقف نفوذهم عن النمو في دمشق أثناء حكم طغتكين تشن بضراوة لا مثيل لها، فدُبحوا بلا رحمة، إذ كتب ابن القلانسي: "في صباح أحد الأيام، تخلصت الشوارع والساحات منهم، وأخذت الكلاب النابحة تتنازع أعضاءهم وجشهم"⁽⁵⁾. وصلب أحد رؤسائهم وبعض من رجاله في شرفات الأسوار "ليرى الجميع ماذا يفعل الله بالطغاة وكيف يعاقب الكفرة"⁽⁶⁾. واستمرت سياسة التوازن بين الفرنجة وزنكي، سيد شمال سورية الجديد، الذي كان في الوقت نفسه لا يخفي طموحه إلى توسيع سيطرته على كل سورية وخاصة على دمشق باعتبار ذلك تمهيداً لأبد منه للجهاد. واحتفظ التاريخ الإسلامي بذكرى زنكي كأول من باشر جهاد الصليبيين، وكقائد حرب لا يرقب في العدو إلا ولا ذمة، وكرس

(1) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 539.

(2) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 175.

(3) R.C.E.A، الجزء 8، العدد 2933.

(4) R.C.E.A، الجزء 8، العدد 2980.

(5) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 182.

(6) في الموضوع نفسه، ص 183.

ورد فعل على الغزاة الفرنجة طال انتظاره. كتب المؤرخ ابن الأثير: "لو لم ينعم الله القدير على المسلمين بفتح الأتابك زنكي لسورية، لاستولى الفرنجة عليها كلياً"⁽¹⁾.

وسهل الفرنجة بسياستهم الحرقاء عمليات زنكي، فبدلاً من التحالف مع تاج الملوك، خرجوا عام 1129م من قلعة بانياس التي سلمها لهم الإسماعيليون، وزحفوا على دمشق بقيادة فولك دانجو الذي كان قد وصل حديثاً من فرنسا. ويروي ابن القلانسي مبالغاً على الأغلب، أنهم اقتربوا بأعدادهم التي بلغت ستين ألفاً من قرية داريا الواقعة في الغوطة، جنوب غرب دمشق على بعد عشرة كيلومترات. ولما فوجئت إحدى فصائلهم التي ذهبت إلى حوران للتزود بالمؤونة والمطاييا، واستأصلت كتائب تاج الملوك القسم الأكبر منها، انسحبوا بسرعة تاركين وراءهم جزءاً كبيراً من عتادهم. طلب زنكي، الذي لم يتحرك أثناء هذا الهجوم، المساعدة من دمشق ليمكن من إعداد حملة قوية لمواجهة الدول اللاتينية. فأرسل له تاج الملوك أفضل ضباطه وخمسمئة فارس وابنه سفنج، صاحب حماة. فلما وصلوا إلى معسكر الأتابك استقبلهم بكل حفاوة وتكريم، ولكنه أمر باعتقالهم فجأة وأرسلهم إلى حلب. استولى زنكي حيثئذ على حماة التي خلت من حماها، ولكنه عندما أخفق في الاستيلاء على حصص، عاد إلى الموصل مصطحباً معه سفنج والضباط الدمشقيين رهائن وطلب مقابل تحريرهم فدية بلغت خمسين ألف دينار، وافق تاج الملوك على دفعها. وفي 7 أيار 1131م، وقع تاج الملوك ضحية هجوم قاده إسماعيليو الموت⁽²⁾: "في أحد الأيام هاجمه رجالان من حرسه الخاص وهو عائد من الحمام (...). قرب باب قصره في قلعة دمشق (...). قطعنه أحدهما بخنجره في خاصرته فدخل بين الجلد واللحم"⁽²⁾. ومات من جراء جراحه في 6 حزيران 1132م بعد حكم استمر أربعة أعوام، فخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل الذي عهد في إدارة مملكته إلى الحاجب يوسف بن فيروز، ليتفرغ لمحاربة الفرنجة. فأخضع أولاً بعلبك، حيث أخوه المسيطر على جزء من مؤونة دمشق، لأنه رفض الاعتراف بسلطته، ثم حاصر بانياس، التي اقتحمها ونهبها، وعاد إلى دمشق بعد ذلك مصطحباً معه "الأسرى مقيدين، ونساء وأطفال الحاكم وعدداً كبيراً من الرؤوس علقت على

(1) Cf. Gabrieli, F., Chroniques arabes des croisades, Paris, Sindbad, p 67.1977 AD

(*) قلعة الموت بجوار بحر قزوين.

(2) ابن القلانسي المرجع نفسه، ص 193.

قضببان من الخيزران"⁽¹⁾. وتعمق في زحفه في أراضي الفرنجة، فنهب وأشعل منطقة طبرية وهدد الناصرة وعكا. قام بترميم أبواب القلعة في دمشق، وبنى في الداخل دار المسرة وحماماً ومباني بلغت، كما يروي ابن القلانسي، "قمة الروعة في جمالها وزخرفتها وتناسقها وتناغمها"⁽²⁾، ولكن لم يبق منها أي أثر. بعد أن نجا من محاولة اغتيال في شباط 1134م، "عمل على ابتزاز المال من رؤساء المقاطعات، وارتكب أعمالاً حقيرة محرمة وأبدى جشعاً متزايداً وابتزَّ أموال الوجهاء عن طريق التعذيب"⁽³⁾، ففقد كل شعبيته، وهرب حاجبه يوسف بن فيروز فاراً من التهديد إلى تدمر "في الخفاء"⁽⁴⁾، واستنصر زنكي. وفي 30 كانون الثاني 1135م قُتل شمس الملوك بتحريض من أمه، فاستراح الناس منه مسرورين. فجاء زنكي وحاصر دمشق حيث كان يحكم أخو الأمير الراحل شهاب الدين محمود. وبعد عدة مناقشات انتهت بمفاوضات، انسحب زنكي وعاد ليكون سيد القلاع الموجودة بين حمص وحلب.

في 1137م، دخل القيصر البيزنطي جان كومنن سورية يقود جيشاً كبيراً، وفرض على ريموند صاحب أنطاكية السيادة البيزنطية المطلقة، ثم هاجم حلب بعد أن عبأ جيش الفرنجة من أنطاكية والرها. وأمام مقاومة المدينة، انسحبت الكتائب الفرنجية البيزنطية وغادرت لتحاصر شيزر، إذ كانت قلعة مهمة في وادي نهر العاصي. لقد كان زمناً حرجاً للأمرء المسلمين في سورية، فقرر زنكي وشهاب الدين أن يضعوا حداً لنزاعهم وأن يوحدوا قواهم، وعُقد اتفاق على عجل في 31 أيار 1138م، على أساسه استلم زنكي مدينة حمص وتزوج خاتون زمرد، أم شهاب الدين، في حين زوج ابنته لشهاب الدين، وبهذا التوفيق الزواجي حصل الاعتراف بسيادة زنكي المطلقة على دمشق. وفي 23 حزيران 1139م قتل شهاب الدين وهو في سريره ثلاثة من خواص غلمانته، نجح أحدهم في الهرب في حين صُلب الآخرين بوحشية على جدار باب الجابية. فحضر جمال الدين محمد، أخو شهاب الدين من أبيه، في أسرع وقت من إمارة بعلبك، ودخل دمشق برغم زنكي، وهناك فرض

(1) في الموضوع نفسه، ص 204.

(2) في الموضوع نفسه، ص 208.

(3) في الموضوع نفسه، ص 218.

(4) Degeirge, G Palmyre, métropole du désert", Paris, Sèguier, p 112. 1987 AD.

في الموضوع نفسه، ص 218. عن يوسف بن فيروز في تدمر عاصمة الصحراء.

عليه واقع الحال أن تبقى السلطة في يدي معين الدين أنر، أتابك شهاب الدين سابقاً. ولم يتأخر رد فعل زنكي بعد أن حرصته زوجته زمرد، فذهب في 19 آب مجهزاً بعناد كبير بغية حصار بعلبك، ونصب حولها من المنجنيقات أربعة عشر ترميها ليلاً ونهاراً، ثم استولى عليها في 10 تشرين الأول، ونجا السكان بأرواحهم، ولكن صُلب كل المدافعين عن حصن القلعة تقريباً برغم كل الضمانات التي أعطيت لهم. في 6 كانون الأول أقام زنكي معسكره في داريا في جنوب دمشق، وهزم فصيلة أرسلت لمحاربته، ودحر إحدى الميليشيات قرب مصلى ميدان الحصى، وتجهز لحصار المدينة التي كان أنصاره يعملون فيها على إثارة السكان لمصلحته. عمل أنر جاهداً ليقنع الفرنجة أنه ليس بإمكانهم البقاء في سورية إن ملك زنكي دمشق، لذا طلب المساعدة من فولك صاحب بيت المقدس، وزوده برهائن والتزم بتمويل كل مساعدة يمكن أن يقدمها له، وبتسليم مدينة بانياس، برغم أهمية موقعها الإستراتيجي والحيوي لضمان أمن دمشق. كانت الفرصة سانحة جداً لفولك الذي عبأ جيشه وأجبر زنكي على الانسحاب إلى حماة، مركز عملياته المعتاد في وسط سورية، واستولى على بانياس التي هاجتها كتائبه مع كتائب أنر.

لم يظهر زنكي مرة ثانية عند أسوار دمشق إلا في فجر يوم السبت 22 حزيران 1140م، فعرض عليه مجير الدين أبى - الذي كان قد حل محل أبيه محمد الذي مات في 29 أيار - الاعتراف به سيداً مطلقاً وذكر اسمه في الخطبة. ولما كان زنكي مدركاً أنه لن يتمكن من أخذ المدينة بالقوة، قَبِلَ بذلك وعاد إلى منطقة ما بين النهرين العليا حيث أخضع بالقوة التركمان والأكراد والأمراء الأرمن قبل أن يحاصر الرها، المدينة الفرنجية الكبيرة، التي كان الدفاع عنها بغياب جوسلين الثاني على عاتق القساوسة. فقصفت المدينة دون توقف سبعة منجنيقات أكثر من ثلاثة أسابيع، وفي 24 كانون الأول 1144م، ليلة عيد الميلاد، دلف جيش المسلمين من إحدى الثغرات، فقتل كل فرنجي بلا رحمة، ونهب الكنائس اللاتينية ثم هدمت. كتب ابن القلانسي: "أخذ المنتصرون يجلبون الغنائم ويقتلون ويحبسون ويقيدون وينهبون، فامتلات النفوس بهجة، وانشرت الصدور مادامت الأيدي مليئة بالنقود والأشياء والأمتعة والخيل والأسرى"⁽¹⁾. وهكذا نُحيت الوليدة الأولى للدول اللاتينية من

(1) Cf. Gabrieli, F. المرجع نفسه، ص 76.

الخريطة بعد ست وأربعين سنة من تأسيسها. وكوفئ بطل الجهاد، زنكي، بلقب "زين الإسلام" و"الملك المنصور" و"نصير أمير المؤمنين" وتلقى كثيراً من الهدايا: خيول بسروج من الذهب وسيوف ذهبية وعمامة العباسيين السوداء.

تركت إعادة فتح الرها عالم النصارى في حالة من الذهول، ولكي يأتوا لنجدة الدول اللاتينية بتحريض من البابا أيجين الثاني، وبمساعدة فصاحة راهب صغير "برنارد دو كليرفو"، توجهت حملة صليبية ثانية نحو سورية. وقادها خلافاً للأولى، التي لم تكن تحتوي إلا على بارونات، كونارد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا اللذان لم يصلا إلى أنطاكية إلا في أيار 1148م بجيش قضت مضايقات أتراك الأناضول على عدد كبير منه.

بعد سنتين من الاستيلاء على الرها، في 15 أيلول 1146م، أغتيل زنكي من قبل أحد رجاله الطواشي أثناء حصار قلعة جعبر على ضفة الفرات اليمنى مقابل ساحة المعركة المشهورة "صفين". فخلفه في الموصل ابنه البكر سيف الدين، في حين حكم ابنه الثاني نور الدين حلب، وله من العمر تسع وعشرون سنة تحت سيادة أخيه. تابع الأخير ما بدأه والده ونجح في بسط سلطانه على دمشق وقضى نهائياً على أملاك الفرنجة. كتب عنه المؤرخ كلود كاهن: "كان أكثر الشخصيات السياسية بروزاً في الإسلام في منطقة آسيا في القرن الثاني عشر: كان أكثر أهمية بالتأكيد من صلاح الدين، مع أن حرب هذا الأخير مع الغرب أعطته المكانة الأولى في المجد"⁽¹⁾. كان مجده الأول أنه استطاع بعد عدة حصارات تحرير واستعادة مدينة الرها، التي كان قد استرجعها الفرنجة في تشرين الثاني بمساعدة سكانها الأرمن. ومنذ ذلك الوقت وجه اهتمامه إلى دمشق بغية تهديد مملكة بيت المقدس، وليضمن في نفس الوقت المؤونة من حبوب حوران في حال قلة عطاء سهول الجزيرة التي بقيت تحت سلطة أخيه.

بمجرد أن وصل إلى أثر خبر موت زنكي أسرع ليسترجع بعلبك حيث كان يحكم منذ تشرين الأول 1139م تحت سيادة زنكي المطلقة، الأمير الكردي نجم الدين أيوب، أبو صلاح الدين. فرض

(*) ذكر ابن الأثير في "الكامل في التاريخ"، الجزء 9، ص 332: "أمر (زنكي) في العساكر برء ما أخذه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا الجميع عن آخره، لم يفقد منه شيء، إلا النادر، الذي أخذ، وفارق من أخذه العسكر، فعاد البلد على حاله الأول..."

(1) Cahen, C. La Syrie du nord à l'époque des croisades, p 374. 1940.

نجم الدين شروطه: إقطاع عدة قرى في الغوطة، وملكية واسعة ومبلغاً كبيراً من المال، فحصل على الموافقة وباع الأمير البوري، وجاء إلى دمشق ليسكن في منزل كبير يقع بالقرب من المسجد الكبير، تماماً في موقع المدرسة الظاهرية اليوم.

تقرب نور الدين من البوريين حرصاً منه على فصل بيت المقدس عن دمشق، فتزوج في نيسان 1147م من إحدى بنات أنثى، التي أصبحت فيما بعد زوجة صلاح الدين. قاد الأميران منذ ذاك الوقت عمليات مشتركة مضادة لقوات بلدوين الثالث التي كانت تهدد بصرى وصلخد، وهما مدينتان محصتان في حوران. تسلم أنثى، بغية تعزيز مكانته أمام نور الدين في دمشق، شهادة تولية وثوب شرف من بغداد. في الواقع ما من أحد كان يريد أن تكون سورية موحدة تحت سلطة الزنكيين، لا الفاطميون ولا السلطان السلجوقي ولا الخليفة العباسي ولا الفرنجة طبعاً.

في ربيع 1148م، رست تعزيزات فرنجية في موانئ صور وعكا، والتحقت بها بقى من كتائب لويس السابع وكونارد الثالث. وفي 24 حزيران، اجتمعت الأحزاب في عكا. كانت الرها بعيدة وكانت ثروات سهول منطقة دمشق غنيمة أكثر إغراء بكثير في متناول يد النبلاء الساعين وراء الاقطاعات. فتقرر خرق الهدنة الطويلة الأمد التي وقعها فولك دانجو، والزحف على دمشق. وفي تموز اجتمع الصليبيون في طبرية "وقد ارتدوا دروعهم وكان عددهم نحو خمسين ألفاً بين جندي مشاة وفارس، ومعهم كثير من البقر والجمال"⁽¹⁾، ثم عبروا الجليل، واخترقوا يوم السبت 24 حقول داريا في جنوب غرب دمشق. جهز أنثى نفسه للمعركة، فجمع المؤن وسمم الآبار ودعم أكثر النقاط عرضة للخطر، ووضع رجالاً في طرق الدوريات وفي كوى الرمي من القلعة، وأرسل فرقة لحماية مضائق الربوة حيث تنطلق قنوات الري الرئيسية. واستنصر سيف الدين ونور الدين اللذين انطلقا مباشرة، ولكنهما طلبا منذ وصولهما إلى حمص أن يحكما دمشق مؤقتاً مقابل مساعدتهما، وبالطبع رفض أنثى طلبهما. قطع الفرنجة أشجار الغوطة لبناء الحصون ودمروا الجسور. ضاعفت كتائب دمشق التي تلقت دعماً - "حشداً كبيراً من الجنود والأتراك والميليشيات"⁽²⁾ - غزواتها "مهاجمة العدو مثلما تنقض الصقور على حبال الجبال والسنافر على أعشاش طائر السنان"⁽³⁾. ووصل الأمر بأنثى، كما يروي

(1) Cf. Gabrieli, F. المرجع نفسه، ص 83.

(2) في الموضوع نفسه، ص 83.

(3) في الموضوع نفسه، ص 84.

غيوم Guillaume صاحب صور، أن يرشو - بنقود مزيفة - بعض البارونات، وعرف كيف يستغل النزاعات التي انفجرت بين صفوف الغزاة المحاصرين فيما يتعلق بوضع دمشق المستقبلي. ولما انهزم الفرنجة عدة مرات، وعانوا من الحر وقلة المؤونة والماء، وبعد أن ضايقتهم المليشيات والفلاحون، وخافوا أن تصل قريباً كتائب سيف الدين "لم يجدوا حلاً آخر، كما كتب ابن القلانسي، من الشباك التي وجدوا أنفسهم فيها ومن الهاوية التي تردوا إليها، إلّا الهرب عشوائياً في مطلع فجر يوم الأربعاء والانسحاب مخذولين بعد أن تخلى عنهم الرب (...). وشوهد فيما تبقى من معسكراتهم وفي الطرق التي سلکوها العديد من قبور موتاهم وخيولهم الرائعة حتى إن رائحة جثثهم المتفسخة كادت تُسقط الطيور من السماء"⁽¹⁾. ارتد الفرنجة بعد مضايقات عصابات التركمان إلى الجليل في وسط فوضى كبيرة؛ وذهبت الحملة الصليبية الثانية هدرًا.

لم تتوقف قوة سورية المسلمة بقيادة نور الدين عن الازدياد. وعمل نور الدين بعد أن أثبت أنه بطل الإسلام السني على وضع سياسة حازمة بغية توحيد العالم الإسلامي معنوياً ودينياً وسياسياً، وشجع عمل الفقهاء والصوفيين في مكافحة الدعاية الشيعية، وزاد من عدد المنشآت التعليمية والمدارس، وأنشأ دار الحديث لينشر السيرة النبوية السنية لينافس دور العلم الشيعية. ومنع في حلب المظاهر الشيعية العامة، ومنها عبارتهم التي يقولونها في الأذان: "حي على صالح العمل" التي أدخلها عام 969م الأمير الحمداني سعد الدولة. إذا كان المسلمون من أهل السنة متفقين على تكريم وتبجيل نور الدين، ويساعدهم في ذلك المدّاحون من أمثال ابن عساكر وابن الأثير، ويعتبرون نور الدين "بطل الإيمان" و"الملك العادل"، إلّا أن بعضاً من خصاله وخاصة ورعه الشديد وتقشفه كانت تثير سخرية بعض معاصريه. يذكر ميشل السوري، بطريك أنطاكية اليعقوبي: "لقد كان مفعماً بالفخر لأن منطقة آشور ومنطقة ما بين النهرين وسورية ومصر كانت جميعها تحت سيطرته، وكان كل أمرائها يجرون كالعبيد حيثما يأمر (...). لم يكن يسمح بشرب الخمر في معسكره ولا يتقبل الموسيقى أو الرقص، وكان معسكره هادئاً تماماً. كان مواظباً على سماع تلاوة كتابهم، القرآن؛ وكان يعتبر نفسه محمداً (ﷺ) ويتنظر أن يكلمه الرب كما كلم موسى. لهذا كان المسلمون الذين فهموا

(1) في الموضع نفسه، ص 85.

غرور رغباته يسمونه "بالنبي"⁽¹⁾. من الناحية العسكرية، إضافة إلى طموحاته في دمشق، هاجم الدول اللاتينية هجمات قوية وقاضية، وانتزع منها الواحدة تلو الأخرى كل القلاع وراء نهر العاصي التي كانت تابعة لإمارة إنطاكية: بيرة، أفاميه، تل عمار، حارم... وغيرها.

في 28 آب 1149م، مات أثر من التهاب الأمعاء، ودفن في المدرسة التي بناها عام 1130م قرب باب البريد، فخلفه مجير الدين آبق الذي أسرع لتوقيع معاهدة تعاون متبادل مع بلدوين الثالث. ومنذ 25 تشرين الثاني، اندلعت اضطرابات في دمشق بتحريض من أنصار الزنكيين، إلا أن نور الدين كان مشغولاً بترتيب أمور خلافة أخيه الذي توفي قريباً في الموصل، فلم يستطع التدخل. وفي بداية أيار 1150م، بينما كان جيشه معسكراً في الغوطة، هطل وابل من الأمطار أعاق العمليات العسكرية فأجريت مفاوضات اعتُرف بناء عليها بسيادة نور الدين في دمشق، وأصبح يذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر اسم الخليفة والسلطان السلجوقي، وتلقى مجير الدين ثوب الشرف رمزاً للبيعة. في ربيع 1151م، انتهت الهدنة الموقعة بين مجير الدين وبلدوين ولم تتوقف البلبلّة عن التفاقم في دمشق. بدأ نور الدين أعماله الحربية المضادة للفرنجة معلناً ضرورة معاقبة المدينة لتحالفها معهم، فأقام معسكره في جنوب الأسوار ونادى في الناس: "لا أريد إلا الخير للمسلمين، وجهاد المشركين وتحرير الأسرى الذين هم في قبضتهم. إذا وقفتم بجانبني مع جيش دمشق، وإذا تساعدنا وجاهدنا معاً وجرت الأمور كما يجب، ستتحقق أمنيّتي وأبلغ هدفي"⁽²⁾. وكان الجواب أن طلبت السلطات في دمشق النجدة من ملك بيت المقدس ووعدته بتعويض كبير. وفي 20 حزيران، وصل الفرنجة إلى ضفة نهر الأعوج في جنوب دمشق، في حين انسحب نور الدين إلى الزبداني في أعلى وادي بردى. ولما علم الفرنجة أن أسطولاً فاطمياً يدمر سواحل دولهم، قبضوا جزءاً من المبلغ الموعودين به ورجعوا إلى دولهم. نزل نور الدين من الزبداني مرة ثانية وعاد إلى موقعه في القطيعة في جنوب حي الميدان الحالي، بالقرب من مسجد القدم. فتناوبت الهجمات والحملات بلا توقف، في حين كانت عناصر - مسيطراً عليها جيداً تقريباً من كل من الجيشين - تحصد محاصيل المروج والغوطة، وتخرب منازل القرى، ثم ينقل بعض العناصر الفاكهة والمنهوبات إلى المدينة، وينقل بعضها الآخر إلى معسكره. كتب ابن

(1) Michel le Syrien، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 352-353.

(2) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 318. كلمة المشركين تعني هنا النصارى كما يسميهم أحياناً المسلمون بسبب اعتقادهم بالثالوث.

القلانسي: "لم تتوقف الخسائر التي أصابت الملاك من المدنيين والقرويين، عن الازدياد، وفتح شهية اللصوص والصعاليك، ووصل النهب إلى أعلى درجاته في غياب القانون والمقاومة. ونقص العلف المخصص لإطعام الدواب في كل مكان، وارتفعت الأسعار وأصبح الوضع حرجاً"⁽¹⁾. ومرة أخرى استمر الحصار طويلاً فأجريت مفاوضات، وفي 27 تموز حصل الاتفاق على أن تكون سيادة نور الدين مطلقة وأن يطع اسمه، الذي كان يذكر باستمرار في الخطبة، على النقود.

في العام التالي، العام الوحيد الذي لم يشهد ظهور جيش نور الدين، وفك مرض، قد يكون الطاعون، بالمدينة. كتب ابن القلانسي: "خلال الثلث الأول من شهر تشرين الثاني (1152م) تلوث الماء والهواء وأصاب السكان الحمى والسعال، فمرض الجميع، النخبة وعامة الناس، الشيوخ والشباب والأطفال، وتزاحمت حشود الناس أمام دكاكين الأدوية ليحصلوا على حصصهم من العلاج (...). نجا معظم الناس وشفي، ولم يستمر المرض أكثر من أسبوع. أما الذين جاء أجلهم فماتوا، وتضاعف عمل مغسلي الموتى وحفاري القبور، إذ كانت الحاجة إليهم ماسة بسبب عدد الموتى الكبير"⁽²⁾.

في 19 آب 1153م، استولى الفرنجة على عسقلان، آخر مدينة ساحلية كانت لم تنزل في أيدي الفاطميين. وضيقوا الخناق على دمشق حتى اضطر مجير الدين إلى أن يدفع ضريبة سنوية كبيرة إلى القدس، برغم استياء السكان الشديد إلى درجة أن نادى أنصار الزنكيين الناس إلى الجهاد. في ذلك الوقت كانت دمشق تحت سيطرة الفرنجة عملياً. وفي بداية نيسان 1154م، وصلت طليعة جيش نور الدين المكونة من ألف رجل يقودها الأمير الكردي أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين، أمام المدينة وأقامت في مرج القصب في شمال باب توما. ومرة أخرى، طلب مجير الدين نجدة الفرنجة، ووعدهم بالمقابل أن يعطيهم بعلبك وجزءاً من محاصيل وعائدات البقاع. وبعد عدة أيام من المعارك، في فجر يوم الأحد 25 نيسان استطاع أحد جنود نور الدين أن يصل إلى المدينة بواسطة جبل رُمي من أعلى السور بالقرب من باب كيسان، وأرسل الإشارة المتفق عليها مع الأنصار. فأوقفت المليشيا المعركة ووضع السكان أسلحتهم جانباً في حين كسر نقاب حليي أقفال الباب الشرقي وباب

(1) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 320.

(2) في الموضوع نفسه، ص 329.

توما من الداخل. واندفع نور الدين بقواته إلى المدينة، في حين أسرع مجير الدين ليحتمي في القلعة، وأخذ للصوص ينهبون الأسواق، واحتفى الأثرياء مرتجفين خوفاً في بيوتهم المترسة. أوقف نور الدين البلبل، ودخل في مفاوضات مع مجير الدين الذي قبل بمقاطعة حمص مقابل استسلامه. وكانت هذه نهاية الدولة البورية التي تحكمت بمصير دمشق منذ وفاة دقاق مدة نصف قرن. وعُين أسد الدين شيركوه حاكماً لمقاطعة دمشق وأخوه نجم الدين أيوب حاكماً عسكرياً للمدينة.

مع أن القرنين السابقين كانا مليئين بالاضطرابات المستمرة، فإن المدينة التي أصبحت تابعة لنور الدين لم تكن تبدو مدينة ممزقة، فالوصف الذي أعطاه العالم الجغرافي المعاصر، الإدريسي (1100-1165م) في عمله الكبير الذي ألفه للملك روجر الثاني ملك صقلية واكتمل في عام 1154م بالتحديد، يصف دمشق بأنها مدينة غنية ومزدهرة، إذ كتب: "إنها تعتبر من أكثر مدن سورية جمالاً وجلالاً. موقعها رائع ومناخها صحي ومعتدل⁽¹⁾، أرضها خصبة ومياهها غزيرة ومتجاتها متنوعة وثرواتها هائلة وقطعانها عديدة ومبانيها رائعة⁽²⁾. ترتبط بهذه المدينة منطقة جبلية ووادٍ مزروع وخصب يدعى الغوطة (...) حيث توجد قرى كبيرة كالمذن (...) يصل عدد سكان الواحدة منها إلى ألفي شخص. يتألف القسم الأكبر من الغوطة من حقول وبساتين تشقها قنوات الماء، وهذا ما جعل كمية وجودة الفاكهة التي ينتجها هذا الوادي تفوق كثيراً كل ما يمكننا تصوره، وجعل دمشق إحدى أكثر المناطق التي صنعتها يد الخالق روعة وسحراً"⁽³⁾. إضافة إلى بساتينها ومبانيها الرائعة ومنها طبعاً المسجد الكبير، فإن شبكة الري والإمداد بالمياه التي تحدث عنها الإدريسي طويلاً، وحرفها اليدوية ساهمت هي الأخرى كثيراً في شهرتها: "في هذه المدينة مجموعة فنون متنوعة ومفيدة وصناعات عديدة. ففيها يُصنع كثيرٌ من أقمشة الحرير وخاصة البروكار (الديباج) النفيس ذو الصنعة المتقنة التي لا تقلد. إذ تُصدّر منه كميات كبيرة جداً إلى البلدان المجاورة والبعيدة. تضاهي هذه الأقمشة أجمل ما صنعته الإمبراطورية الإغريقية، وتقارب المنتجات النادرة من مصنوعات أصفهان ونيسابور. من المستحيل أن ترى صناعة أكثر اتقاناً مما تنتجه أيدي حرفيي دمشق سواء كانت صناعة أقمشة على نسق أثواب

(1) ليس هذا ما لاحظته كل من شاهد دمشق في تلك الحقبة، انظر في السعودي، المرجع نفسه، ص 137 انطباع الخليفة المتوكل السلبي عنها.

(2) لم يبق من المباني الرائعة التي ذكرها الإدريسي إلا المسجد الكبير.

(3) Géographie, Paris, Imprimerie royale, p349-350. 1836-1840 AD.

مدينة تنيس أو كل أنواع المصنوعات عموماً⁽¹⁾. إضافة إلى حرفها، فإن منتجاتها الزراعية وتجارتها ساهمت كثيراً في ازدهارها، كتب الإدريسي: "أنشئ على قنوات الماء التي تجري في داخل المدينة عدد كبير من الطواحين، فالقمح وفير جداً في دمشق مثل الفاكية. أما المربيات المحضرة فيها فإن كميتها وجودتها تفوق كل مديح ووصف. وأخيراً، فيما يتعلق بالرخاء والأمن والازدهار والصناعة والتجارة، فإن هذه المدينة تأتي في مقدمة كل المدن السورية"⁽²⁾.

إذا كانت إقامة الدول اللاتينية قد حرمت دمشق من موانئها الطبيعية، بيروت وصيدا وصور وعكا، وحولت مؤقتاً تجارتها إلى القاهرة، فقد استفاد الفرنجة من هذا الوضع، وحصلوا على حق العبور من القوافل، ولكن النشاط التجاري - وهو دائماً تقريباً محلي ومحدود - لم يكن تأثره طويلاً ولا عميقاً، فيما عدا أوقات الحروب⁽³⁾. في منطقة البحر الأبيض المتوسط، أمنت المدن الإيطالية وخاصة جنوة والبندقية حركة التجارة الرئيسية، واستطاعت أن تحصل على امتيازات كبيرة بما كانت تقدمه من مساعدة أثناء حصار المدن الساحلية، وأن تمتلك فيها أحياء حقيقية مستقلة حيث يفلت من سلطة أمراء الفرنجة تجارها الذين كانوا يتصرفون وفقاً لقوانينهم الخاصة بهم (أنواع من الامتيازات الأجنبية). كتب الإدريسي: "كان سكان جنوة تجاراً أغنياء جداً، يسافرون برأ وبحراً، ويُقدّمون بجرأة على عمل الأشياء السهلة والصعبة على حد سواء، ويمتلكون أساطيل رائعة، وكانوا خبراء في مكائد الحرب وكذلك في العمليات العسكرية، ويتمتعون بكثير من الشهرة عند النصارى"⁽⁴⁾.

كانت دمشق نقطة تلاقي القوافل القادمة من بلاد فارس وما بين النهرين وآسيا الصغرى ومصر وشبه الجزيرة العربية، لذا كانت مركزاً تجارياً كبيراً في سورية، ومستودعاً تنتهي إليه البضائع القادمة من الشرق الأقصى سواء عن طريق الخليج الفارسي أو عن طريق البحر الأحمر. ساهمت قافلة الحجاج السنوية - التي كان لها أهمية كبيرة في الزمن المملوكي والعثماني - في ازدهارها، وكان التجار الذين يرافقون القافلة والحجاج أنفسهم - دون أن يسيء هذا إلى صدق إيمانهم في أي حال من

(1) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 352، توجد تنيس في دلنا النيل مشهورة بما تنتجه من الأقمشة.

(2) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 352. في القرن الأول من زمننا، مدح الشاعر اللاتيني مارشال برقوق دمشق، Epigrammes, V, 18.

(3) عن العلاقات التجارية الجيدة بين الفرنجة والمسلمين انظر في الموضوع نفسه، ص 217.

(4) الإدريسي، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 249.

الأحوال - يحصلون على أرباح كبيرة من عمليتي التصدير والاستيراد. لقد كانوا يأخذون معهم إلى الحجاز منتجات جَرَف دمشق، ويجلبون منها بضائع شبه الجزيرة العربية أو بضائع الهند، التي كانت تفرغ في عدن أو في جدة، ميناء مكة الذي "كانت تجارتها، كما يقول الإدريسي، ضخمة"⁽¹⁾. ولهذا كانت قافلة الحجاج هذه بما تقوم به من أعمال تجارية وبما تتمتع به من ثروات كبيرة تثير مطامع البدو باستمرار. فالروايات التي تذكر عمليات السطو عليها كثيرة في الأخبار المؤرخة. لقد كان لعملية السطو عليها عام 1150م ضجيج كبير في دمشق لشدة عنفها، كتب ابن القلانسي: "عندما عاد الحجاج من حجهم كانوا ضحية العرب الكفرة والغجر واللصوص الذين كانوا يكونون عصابة كثيرة العدد. روى الذين نجوا منهم من الموت مأساتهم: قتل معظم الناس، ونجا من الموت القليل، واغتصبت النساء ونُهَب الجميع ومات كثيرون جوعاً وعطشاً"⁽²⁾.

لدينا من معالم المدينة - قبل وصول نور الدين بالضبط - برغم غياب الآثار المادية، بعض المعطيات الدقيقة بفضل نصوص المؤرخين من أمثال ابن القلانسي (1073 - 1160م) وابن عساكر (1105-1176م). درس ابن عساكر، الذي كان ابن فقيه ومن عائلة دمشقية عريقة، العلوم القرآنية وقام برحلات بحث عديدة، وبأشر عام 1134م بالقيام بعمل عظيم عن تاريخ مدينة دمشق استغرقت كتابته ثلاثين عاماً. ولقربه من السلطة، حظي بثقة نور الدين القوية فدعم سياسته الدينية بنفوذه وقلمه.

في عام 1154م، كان يوجد في دمشق إحدى عشرة مدرسة، وهي منشآت تعليمية خاصة في الأصل، أُسست أُولَياتها في نيسابور ومرو وبخارى في زمن محمود الغزنوي (970 - 1030م). أصبحت المدارس في عهد السلجوقيين منشآت حقيقية للدولة، حلت محل بيوت الحكمة القديمة ودور العلم. كان يدرّس فيها معلمون تعينهم السلطة كل العلوم الدينية والشرعية، وقراءة القرآن وتفسيره، والسُّنة النبوية وأحكام القضاء (كانت العلوم الطبيعية تدرّس في المستشفى)، وكانوا يقومون بالدعاية والدعوة للسُّنة، وكانت مهمتهم الأولى إعداد هيئة من الموظفين المهرة والمخلصين. كانت المدارس مثل مؤسسات البر والمنفعة العامة، تتمتع عموماً، ولمدة غير محدودة، بوارد ممتلكات

(1) في الموضع نفسه، الجزء 1، ص 136.

(2) ابن القلانسي، المرجع نفسه، ص 315.

وَقَفَّهَا بعض المحسنين الكرماء لمصلحتها. أصبحت هذه الممتلكات، التي تسميها المصطلحات العربية "وقفاً"، والتي هي ملك لله، لا يجوز التصرف بها، وغير قابلة للحجز، وفي منأى عن كل غصب أو مصادرة. كان مخطط المدرسة مستوحى من مخطط المنزل: فناء كبير مكشوف يوجد في جانبه الجنوبي قاعة للصلاة وفي الجهة المقابلة إيوان، وهو قاعة عالية السقف مقببة تطل على الفناء إطلالاً عريضاً، وفي الجوانب الأخرى غرف صغيرة لسكن الطلاب والمدرسين وأماكن متنوعة: للتدريس ومكتبات ومطابخ وبيوت الخلاء.

أدخل المدارس إلى دمشق في نهاية القرن الحادي عشر الأمراء السلجوقيون وأتابكهم. كانت أولها المدرسة "السدرية"، بناها عام 1098م الأمير دقاق قرب باب البريد (باب المسجد الكبير الغربي). ثم أسس الأتابك كمشتكين المدرسة "الأمينية" عام 1120م جنوب المسجد الكبير، وأسس أُنُر المدرسة "المعينية" سنة 1131م قرب باب البريد، وأسست "الترخانية" عام 1131م في حي جيرون، و"الخاتونية" عام 1134م على ضفة بردى اليسرى التي منحها الأميرة السلجوقية زمرد خاتون، أخت دقاق، وقفاً. وأسس "المجاهدية" عام 1135م في جنوب غرب المسجد الكبير الأمير الكردي مجاهد الدين الملقب بـ "سيف الدولة وبطل المملكة" وألقاب أخرى فيها كثير من المدح. وأسست أول مدرسة حنبلية "الشريفية" قبل عام 1141م في حي جيرون، و"الأكاذية" 1141 - 1142م، وتم بناء "المجاهدية" عام 1145م على ضفة نهر بردى قرب باب الفراديس لأمير كردي دفن بها عام 1160م، وأسست "الجاروخية" قبل 1148م في شمال المسجد الكبير و"المسارية" قبل 1152م في شرق المسجد الكبير.

بنى أفراد البيت السلجوقي من أمراء وأميرات وأتابكة، وفق عادة ذات أصول تركية يرفضها الإسلام - لأنه يدعو إلى التواضع في الحياة وبعد الممات - العديد من الأضرحة وخاصة في غرب الأسوار، على ضفة بردى اليسرى في مكان يدعى "الشرف الأعلى".

أسس السلجوقيون أو البوريون العديد من الخانقاهات - ما يقابل الأديرة عند الغرب - كمركز نشاطات دينية للصوفيين، ومركز استقبال المسافرين الساعين وراء الكمال الروحي، من هذه الخانقاهات: "الدويرية" الواقعة بالقرب من باب البريد وخانقاه "صفوة الملك" المبنية في الشرف الأعلى، وخانقاه "شمس الملوك إسماعيل" في الميدان الأخضر على ضفة بردى اليمنى.

أما المساجد، كما يروي ابن عساكر، فكان هناك قبل وصول نور الدين مئتان وواحد وأربعون مسجداً داخل أسوار المدينة ومئة وثمانية وأربعون خارجها. كانت القصور والمنازل الفخمة، والتي سكن صحابة النبي (ﷺ) أكثر من ثلاثين منها، يقع معظمها في شمال الشارع الطويل، وخاصة في الجزء الغربي منه. بالمقابل، عانى سكان الغوطة كثيراً ومدة طويلة من انعدام الأمن. كتب ابن عساكر: "كان يوجد خارج المدينة عدد كبير من المساكن للقبائل، وقرى متتابعة دون انقطاع، ومنازل قرية بعضها من بعض، هُدم معظمها أثناء الاضطرابات والحروب والحصرات، فرحل السكان وبقيت خرابات حتى اليوم"⁽¹⁾.

بدأ العديد من الضواحي ينمو خارج الأسوار، ففي الشمال، من الغرب إلى الشرق، في وسط البساتين، نشأت ضاحية العقبة والسديف والأوزه والفردوس والسترة التي تضم مسجد الأقباص حيث توجد، كما يروي ابن عساكر، رؤوس الصحابة الذين أمر معاوية بقتلهم عام 671م⁽²⁾. ونشأت خارج باب توما ضاحية بيت لحيا والمصيصه والصفوانية، التي فيها ضريح شيخ أرسلان، الذي بني عام 1146 - 1147م، بالقرب المباشر من مسجد خالد بن الوليد. وفي زاوية السور الجنوبية الغربية، أنشئت ضاحية قصر الحجاج. وعلى طريق حوران، جنوب ميدان الحصى القريب جداً من مسجد الفلوس، ونشأت ضاحية "السفليون"، وإلى جنوبها نشأت ضاحية القدم حيث أقيم مسجد القدم.

إن استيلاء نور الدين على دمشق كان منعطفاً أساسياً في تاريخ الشرق الأدنى في القرون الوسطى. فمع نور دين تحققت وحدة سورية المسلمة، واتحدت المدن الكبرى، الموصل وحلب ودمشق، تحت سلطة واحدة مكونة دولة تمتد من منطقة ما بين النهرين العليا إلى حوران، وأصبح الطريق إلى مصر سالكاً، وأنشأت القواعد بغية محاصرة مواقع الفرنجة التي تراجعت إلى البحر. ولما كان الخليفة العباسي المقتفي قد أضعفته البلابل المزمنة التي كانت تتور في بغداد، ولما كان سلاطين العراق وخراسان السلجوقيون في غمرة نزاعات بين الإخوة، كانت سورية الزنكية وحدها في مجابهة شيعة مصر والدول اللاتينية، فكان الوضع لا يسمح بالجهاد مطلقاً. ولما كان نور الدين حريصاً قبل كل شيء على وحدة سورية الروحية والسياسية، فإنه اعتمد سياسة توازنات ذكية على كل

(1) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 244.

(2) في الموضع نفسه، ص 152.

المستويات، إذ تابع ولو مؤقتاً السياسة البورية التي كانت تلجأ إلى التفاهم مع مملكة بيت المقدس، واستمر يدفع لها الضريبة المفروضة، وفي الشمال، حاول استيعاب طموحات سلاجقة قونية، والحصول على حياد الدولة البيزنطية وإمارة أنطاكية. وفي الجنوب راعى جانب الخليفة الفاطمي الذي كان غارقاً في فوضى كبيرة.

في 1157م، خرق بلدوين الثالث الهدنة لحاجته إلى غنيمة يسددها ديونه، وهاجم منطقة القنيطرة في أسفل جبل حرمون. فتحرك نور الدين، واستولى في 21 أيار على بانياس التي أخلاها مباشرة متقبلاً وصول الكتائب الفرنجية السريع. في العام التالي، قام الفرنجة بحملات جديدة على منطقة دمشق، مدمرين حقول العنب والمراعي وبساتين الغوطة، وسلبوا قرية داريا وأحرقوا مسجدها. وفي عام 1160م، قاد فرنجة بيت المقدس حملة جديدة على دمشق. ولما كان الحاكم نجم الدين أيوب تعوزه الفرق العسكرية بسبب غياب نور الدين الذي كان في شمال سورية، حصل على انسحاب الغزاة مقابل دفع ضريبة بلغت أربعة آلاف دينار. وبعد موت بلدوين الثالث في شباط 1163م، وجه ملك بيت المقدس الجديد "أموري الأول"، أخو المتوفى الصغير، اهتمامه إلى مصر، حيث كان الفرنجة والمسلمون يستغلون لمصلحتهم النزاعات الداخلية في السلطة الفاطمية ويتنافسون لتثبيت سيادتهم.

في عام 1164م، جاء الوزير شاور إلى دمشق بعد أن طرده من القاهرة الحاجب الكبير "ضرغام"، يطلب مساعدة نور الدين، ويوعده، إضافةً إلى اعترافه بسلطته، ثلث عائدات مصر وتعويض تكاليف الحملة والتنازل عن مقاطعة الدلتا، جارة بيت المقدس. وفي نيسان 1164م، زحف جيش باتجاه مصر بقيادة شيركوه برفقة ابن أخيه يوسف بن أيوب، صلاح الدين مستقبلاً، وعمره حينئذ سبعة وعشرون عاماً. طلب ضرغام من جهته مساعدة أموري الذي وعده الاعتراف بسيادته. وفي الأول من أيار، حاصر شيركوه القاهرة، وفي الوقت الذي كان ضرغام يحاول فيه الهرب، اعتقل ثم قُتل. وعاد شاور وزيراً إلا أنه رفض الوفاء بوعوده لنور الدين. فأرسل حينها شيركوه، الذي كان جيشه معسكراً في ضواحي القاهرة، صلاح الدين ليستولي على مقاطعة الدلتا الشرقية، وأثناء هذا الوقت كان شاور يعمل على قلب تحالفه ويطلب مساعدة أموري واعداء إياه بأن يساهم بألف دينار لكل يوم من الحملة. وفي تموز وصل الفرنجة عن طريق غزة والعريش إلى وادي النيل، فاتحدوا مع القوات المصرية وحاصروا الجيش السوري الذي تراجع إلى بلبيس التي كانت

حصناً يقع في الطريق الذي يصل القاهرة بسيناء. ولما كان نور الدين قد فتح جبهة ثانية في الشمال، أسرع أموري لعقد اتفاقية مع شيركوه. وتراجع جيش الفرنجة وجيش المسلمين وبقي شاور سيد القاهرة وحده. وعند عودة صلاح الدين إلى دمشق عُيِّن نائباً لها، أي قائد الحامية.

عادت الحروب عام 1167م، وفي شباط من ذلك العام غادر شيركوه دمشق على رأس جيش كبير العدد يتكون في الدرجة الأولى من الأكراد والتركمان، وقد انضم إليهم كثير من عرب القبائل. غادر أموري من جهته عسقلان في نهاية كانون الثاني وتقدم مسرعاً نحو مصر. ووصل الجيشان في وقت واحد تقريباً إلى القاهرة. فأقام الفرنجة في القسطنطينية وشيركوه في الجيزة. وبعد شهر من معركة متأرجحة جرت في مصر الوسطى، تراجع أموري إلى القاهرة في حين اتجهت القوات السورية إلى الإسكندرية، وهناك حاصره بعد وقت قصير الجيش الفرنجي - المصري والبحرية الفرنجية. استمر الحصار طويلاً، ولما كان نور الدين قد استولى في سورية على حصون عديدة للفرنجة منها صافيتا وبانياس وحنين، قبل أموري عرض المحاصرين للسلام، وللمرة الثانية انسحب الجيشان في وقت واحد مما أسعد شاور الذي احتفظ بسلطته، والبحرية الفرنجية التي حصلت مقابل مساعدتها على تخفيض في الرسوم الجمركية المصرية. في العام التالي، خرق أموري الاتفاقات السابقة وزحف باتجاه مصر وحاصر القاهرة في 13 تشرين الثاني، فطلب شاور مساعدة نور الدين وعرض عليه هذه المرة ثلث عائدات مصر. في 2 كانون الأول اجتمع ألفا فارس وستة آلاف تركمان في جنوب دمشق. وعندما علم الفرنجة بوصول الجيوش السورية، رفعوا حصارهم في 2 كانون الثاني 1169م. وبعد ستة أيام، دخل شيركوه ومعه صلاح الدين القاهرة كمتقذين للإسلام، فاستقبلها الخليفة العاضد بحفاوة كبيرة وبحضور كل البلاط، وأعطاهما وأعطى كل أمرائه الرئيسيين أثواب الشرف والهدايا. ولأن شاور لم يحترم مرة أخرى وعوده، سُجن في معسكر الجيش السوري وقتل أخيراً في 13 كانون الثاني بأمر من الخليفة. شغل شيركوه وظيفة الوزير وعهد إلى صلاح الدين في إدارة الشؤون السياسية. أصبحت كل الحدود الأرضية للدول اللاتينية مهددة بعد ذلك من قبل فرق عسكرية بإمرة سلطة واحدة وهي سلطة نور الدين.

عندما توفي شيركوه في 23 آذار بعد وعكة معوية، عين صلاح الدين وزيراً لمصر، فتلقى من الخليفة ثوب الشرف والعمامة وشهادة تنصيب ولقب الملك الناصر. لم يُرض هذا التعيين نور الدين الذي كان يرى في ابن أخ شيركوه قائداً لجيشه في مصر فقط. مع ذلك - وهذا ما أضر كثيراً بالأمرء

الفاطمين - تأكدت سلطة الوزير الجديد سريعاً في القصر كما في الجيش، يدعمها جيش يضم أربعة عشر ألف فارس وألفاً وثلاثمائة بدوي محمول، في حين لم تتوقف سلطة الخليفة عن التراجع. ولما كان صلاح الدين حريصاً على استرجاع أهل السنة مكائنتهم، استبدل أولاً بالقضاة الشيعة قضاة أتوا من سورية، ثم في 10 أيلول 1171م، في حين كان العاضد مريضاً مرضاً شديداً، أعاد الخطبة على المنبر باسم الخليفة العباسي المستضيء. وبهذا عادت مصر إلى السيطرة العباسية بعد قرنين من الهيمنة الشيعية. وبعد ثلاثة أيام، مات العاضد، وأصبح صلاح الدين صاحب السلطة العليا، ولكنه استمر الاعتراف بسيادة نور الدين المطلقة دون أن يخفي رغبته في الاستقلال. وفي يوم الأربعاء 15 أيار 1174م، بعد ثمانية وعشرين عاماً من الحكم، عشرون منها في دمشق، وقع نور الدين فريسة التهاب حلق شديد بينما كان يتهياً ليرأس حملة على صلاح الدين^(*). دُفن في البداية في القلعة ثم نُقل جثمانه إلى المدرسة التي بناها في سوق صانعي السلال في جنوب غرب المسجد الكبير.

أثر حكم نور الدين الطويل على دمشق تأثيراً عميقاً فيما يتعلق بتطورها المدني والعماري. وفضلاً على ذلك فإن المباني الأثرية لذلك العهد، باستثناء المسجد الكبير والآثار الرومانية، هي أقدم الآثار التي بقيت إلى يومنا هذا. عمل نور الدين أولاً كما عمل في منبج وبلبك والرقعة وحران وحلب، على تحسين التحصينات. ولما كان هذا المشروع مستعجلاً وضرورياً، سمحت فتوى⁽¹⁾ في ذلك الوقت بتمويل أعمال البناء من فائض وقف المسجد الكبير. في عام 1154م، وبمجرد دخوله

(*) عندما عزم نور الدين على قصد مصر وإخراج صلاح الدين منها، "سمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين، وحركته إليه واستشارهم، فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين، فقال إن جاءنا قاتلناه، ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهلهم، فشتهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك، واستعظمه، وشت تقي الدين، وأقعدته وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر حجة لك من جميع من ترى، والله لو رأيت، أنا وهذا خالك، نور الدين، لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عتقك بالسيف، لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا (...) هذه البلاد له، ونحن مماليكه، ونوابه فيها، فإن أراد سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب، تقول فيه، بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأني حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقتي منديلاً وبأخذني إليك، وما ههنا من يمتنع (...). ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء 10، ص 36.

(1) قرار قانوني يقرره، أساساً، المفتي لكونه مستشار القاضي.

دمشق سُدَّ باب كيسان⁽¹⁾، ثم جرى إصلاح الأبواب واحداً تلو الآخر وتزويدها بأماكن لقذف المهاجمين بالحجارة، أو صب السوائل المحرقة عليهم وبمساجد ملاصقة لها. وفي عام 1156م، أُصلح "باب الصغير" وأنشئ فيه مرمى سهام، وفي عام 1164م جاء دور الباب الشرقي، فسُدَّت كوته المركزية الكبيرة والكوة الجنوبية، وفي عام 1165م جُهِز باب الجابية بمرمى سهام⁽²⁾. وتُنقل جزء من واجهة السور الشمالية إلى ضفة نهر بردى، لتضم ضاحية "الفراديس" - حي العبارة اليوم - حيث يوجد شارع يسمى "بين السُورَيْن". وفتحت أربعة أبواب جديدة: باب الفرج بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة، وباب الحديد في شمال القلعة، وهو يُقضي إلى جسر بردى، وفي سور الواجهة الشمالية الجديدة فتح باب السلام، وباب الفراديس. وهناك أبواب أخرى سرية صغيرة يمكن فتحها عند الضرورة مثل باب المُرَبَّة في شرق باب توما، وباب ابن إسماعيل بين باب الصغير وباب كيسان. ودُعِّمت الواجهة الجنوبية للسور بأبراج نصف دائرية، نُقش على ثلاثة منها اسم نور الدين. بُني البرج القريب من الباب الصغير في عام 1159م، وبني البرجان الآخران في جنوب باب الجابية في عام 1174م، كما يوضح نص التأسيس: "أمر بتأسيس هذا البرج المبارك، المتشوق لرحمة ربه، محمود بن زنكي بن آق سنقر رغبة في الثواب، عام 569/1174م"⁽³⁾.

بني نور الدين في القلعة، حيث كان يقيم وهو في دمشق، مسجدين، أحدهما صغير، والثاني كبير مزود بمئذنة مربعة وحوض للوضوء يمدُّه بالماء خزان. كتب ابن جبير عام 1184م: "في هذا المسجد كان السلطان يؤم الناس في صلاة الجمعة". كان المسجد ضمن القلعة، لأن هذا أضمن سلامة الأمير من صلاته في الجامع الأموي⁽⁴⁾.

كان الجيش المكون في المقام الأول من أمراء أكراد وجنود أتراك يضم ما بين ستة وعشرة آلاف فارس، من ضمنهم فرق مساعدة من التركمان والبدو. كان الجنود يتقاضون أجورهم، في حين كان الأمراء يتمتعون بعائدات الإقطاعات، وهي امتياز عقاري تمنحه لهم السلطة المركزية مقابل

(1) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 297. سمي باب كيسان بهذا الاسم نسبة إلى عبد جُرَّ لمعاوية. بقي الباب مدوداً حتى عام 1364م.

(2) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد 3262 و3263. نقل النص التذكاري الذي يخلد ذكرى بناء هذا المرمى للسهم إلى حديقة المتحف القومي في دمشق عام 1946م.

(3) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد: 3308.

(4) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 335. في هذا التاريخ كان صلاح الدين هو السلطان. (لم يحمل نور الدين لقب السلطان أبداً).

خدماتهم. كان الأمراء والضباط والجنود يارسون دورياً رياضة البولو في أحد الميدانين: الميدان الأخضر، وهو الأكبر، وهو أرض واسعة عارية في غرب المدينة، تبلغ أبعاده خمسمئة متر بمئة وخمسين تقريباً⁽¹⁾، وميدان الحصى، وهو الأصغر، يقع في الجنوب على طول طريق حوران. كان هذان الميدانان، حيث كانت تجري أيضاً العروض العسكرية وسباقات الخيل، يستخدمان في المناسبات لتخيم الفياق العسكرية أو مواكب الملوك أو السفراء عند زيارتهم لدمشق. وكانا أيضاً منتزهي السكان المُفضّلين.

إضافة إلى ترميم الأسوار، شيد نور الدين فور وصوله إلى دمشق في حي حجر الذهب، بين القلعة والمسجد الكبير، بيهارستاناً⁽²⁾ جديداً مُمَوَّلَ بناؤه من فدية أمير فرنجي. أدخل هذا النمط من المنشآت ذات الأصل الساساني إلى العالم الإسلامي الخليفة الأموي الوليد الذي بنى واحداً منها في دمشق عام 707م⁽³⁾. احتفظ بيهارستان نور الدين، الذي كان يؤدي منذ تأسيسه دور المستشفى إلى أن أصبح داراً لیتامی البنات عام 1899م، بجزء كبير من بنائه الأصلي، برغم التعديلات التي أجريت عليه عام 1283م. تطل بوابة المدخل الرئيسي، التي تعلوها قبة من المقرنصات عالية وقليلة العمق، على الجهة الغربية ببروز واضح عن الواجهة. واحتفظ الباب، المفتوح تحت ساكف ذي زخارف مصدرها أحد الآثار القديمة، بمصراعيه، وقد كسته من الخارج شرائح من الحديد مُبرّشمة وراسمة تداخلات هندسية جميلة، ومن الداخل ألواح خشبية منقوشة نقشاً رائعاً. ثم إن مطرقتي الباب الضخمتين بفصوصها البرونزية المتعددة أصليتان، في حين يعود أصل النافورة الواقعة على يمين البوابة إلى إصلاحات عام 1283م.

يغطي البهو المربع قبة بأحد عشر صفاً من المقرنصات مستندة من الجهتين الجنوبية والشمالية إلى نصفي قبتين من نفس الطراز. يذكرنا هذا التنسيق بضريح صفوة الملّك المبني قبل نصف قرن. أما القباب، فهي بطرازها وطريقة تنفيذها بالملاط على هيكل خشبي، تشبه طراز منطقة ما بين النهرين ذا الأصل الفارسي، الذي يمكننا رؤيته في بغداد في قبر زبيدة أو السهور ودي. يتكون مصراعا الباب

(1) في موقع أبنية المعرض الدولي الحالي مقابل فندق المريديان. ابن جبير، الجزء 6، ص 335، يتحدث عن ميدانين يفصلهما بردي.

(2) الكلمة ذات أصل فارسي، مكونة من شقين "بيهار" وتعني مريض و"ستان" أي بيت أو منشأة.

(3) اختفى بيهارستان الوليد بلا شك منذ زمن نور الدين، لأن ابن جبير لم يذكر عام 1184م إلا بيهارستانين أحدهما بيهارستان نور

الدين والآخر هو بالتأكيد بيهارستان دقاق. (ابن جبير، الجزء 6، ص 311-312).

الكبير الذي يفصل هذا البهو عن الفناء من لوحات خشبية منقوشة بأشكال مزهرة تجمعها قضبان مزينة بتنوعات. يعود الفضل في إنجاز هذا العمل الفني العظيم إلى شخص يدعى مؤيد الدين الحارثي (ت. 1202م)، وهو طبيب في البيمارستان أثناء حكم نور الدين، ولكنه في نفس الوقت نجار وقاطع حجارة كما يؤكد لقبه "المهندس". يعلو هذا الباب كتابة تخلد ذكرى إصلاحه عام 1283م أثناء حكم السلطان المملوكي قلاوون، وتحتوي هذه الكتابة إضافة إلى آيتين من القرآن تمدحان الكرم⁽¹⁾، على تذكير بالغرض من تأسيس المبنى المخصص "لمعالجة الفقراء والمعدمين"⁽²⁾ وعلى الوقف الذي خصصه له نور الدين "الذي جمع الله فيه كل الصفات الحميدة في الكون"⁽³⁾. يفضي فناء مستطيل الشكل، يتوسطه حوض كبير من جهاته الأربع إلى إيوانات معقودة بقناطر نصف أسطوانية. يوجد على متكأ لوحات⁽⁴⁾ الإيوان الشرقي، أكبر الإيوانات الأربعة، نقش لآيات قرآنية تتحدث عن الشفاء من الأمراض⁽⁴⁾، مما يدفعنا إلى الاعتقاد أنه في هذا الإيوان كانت تجري العيادات والدروس. يوجد أيضاً نص التأسيس في هذا الإيوان منقوشاً فوق المحراب على قطعة كانت فيما مضى "طاولة مذبح": "أمر بانجاز بنائه العبد الفقير إلى الله ورحمته (...) سيدنا الملك العادل، العالم (...) محمود بن زنكي بن آق سنقر، حامي أمير المؤمنين (...) في عام 549/1154 - 1155م"⁽⁵⁾.

تعود زخرفة الإيوان الجنوبي، وهو أكثر غنى، إذ كان يستخدم على الأغلب قاعة للصلاة، إلى إصلاحات القرن الثالث عشر. يتكون المحراب فيه من لوح رخامي أبيض منقوش بأوراق العنب وعناقيده. يعلو أبواب القاعات الثماني المظلة على الفناء من جميع زواياه، تشييكات جصية جميلة جداً مفرغة بأشكال هندسية وتزهيرات. تعد زخرفة الباب الجنوبي الغربي الوحيدة الأصلية. يحتوي الجزء المفقود من البناء على غرف للمجانين وحمام وبيوت خلاء يجري فيها الماء. يسهب ابن جبير

(1) القرآن، 2، 264 و 73، 20.

(2) Sauvaget, J.، اللحظات التاريخية في دمشق، "Les moments historiques de Damas"، بيروت، المطبعة الكاثوليكية،

1932م، ص 51.

(3) في الموضع نفسه، ص 51.

(*) نقش بارز على ارتفاع المتكأ، وبخاصة في جدران غرفة لتسند إليه اللوحات المعروضة (معجم المنهل).

(4) القرآن، 10، 58؛ 16، 71؛ 26، 78 - 80.

(5) R.C.E.A.، الجزء 8، العدد. 3164.

الذي زار دمشق بعد عشرة أعوام من وفاة نور الدين في ذكر هذا المبنى، ويزودنا بتوضيحات ثمينة سواء فيما يتعلق بعمله أو فيما يتعلق بالمفاهيم الطبية السائدة في ذلك العصر: "يوجد في دمشق مستشفيان، أحدهما قديم (مستشفى دقاق) وآخر جديد. يعتبر الجديد أشد أهمية وأكبر، تُخصص له وارد يومي يقارب خمسة عشر ديناراً. يديره إداريون في أيديهم السجلات التي يكتب فيها أسماء المرضى والنفقات الضرورية لمعالجتهم وتغذيتهم وغير ذلك. يأتي الأطباء إليه كل صباح يفحصون المرضى ويأمرون بتحضير الأدوية والمواد التي يمكنها شفاء كل واحد منهم وفقاً لحالته. للمستشفى الثاني نفس التنظيم ولكن الترتيب في المستشفى الجديد أجمل (...). فيها يُعالج أيضاً المجانين وهم مقيدون بالسلاسل بإحكام (...). يعد هذان المستشفيان من أجمل الشواهد على أمجاد الإسلام"⁽¹⁾.

قُسِّمَ البيمارستان الذي كان يأتي إليه المرضى سواء للعيادة أو الإقامة، إلى قسمين منفصلين تماماً، أحدهما مخصص للنساء والآخر للرجال. كان كل قسم يضم، إضافة إلى غرف للمجانين، قاعات تخصصية في مختلف أنواع الأمراض أو المعالجة: الأمراض الداخلية والجراحة والعينية والعظمية. وكان هناك قاعة مخصصة للمرضى الذين يعانون من الإسهال. كان العلاج المعمول به للسيطرة على نوبات أمراض الفصام في البداية هو نفس العلاج المستخدم في الغرب إلى أن أتى الطبيب الفرنسي فيليب بينل (1745 - 1826م): وهو القوة والوسط. فيما بعد، أصبح العلاج أكثر إنسانية، ولم يعد يحتوي إلا على جرعات من شراب اللوز الممزوج بالأفيون. كان الموظفون في البيمارستان كثيرين: مدير عام وإداريون ورؤساء أطباء وصيادلة وممرضون وأطباء عيون وجراحون وعطارون وصانعو أدوية معجونة بالعسل، ومراقبون وخدم وأمناء مخازن، وأمين صندوق. وكانت تتجاوز ميزانيته السنوية خمسة آلاف دينار.

كان البيمارستان أيضاً منشأة لتعليم العلوم والطب، يجري فيه إعداد الأطباء الممارسين وتصديق شهادات دراساتهم. لهذا كان البيمارستان مزوداً بمكتبة تحتوي على مؤلفات مختصة، كشروح مفصلة عن البول، أو بحوث في الجماع. وكان التزاوج في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت موضع تفكير عميق يتجاوز كثيراً إطار المؤلفات المختصة. كتب ابن الجوزي، من أتباع المذهب الحنبلي، وهو واعظ وأستاذ وعالم دين سني لامع، وصاحب مصنفات متنوعة ومعاصر لنور الدين، في كتابه "صيد

(1) ابن جبير، رحلات، "Voyages"، الجزء 6، ص 329 - 330.

الخاطر "معلومات عن الأخلاق والمجتمع، وقد خصص فيه للجماع المكانة التي يستحقها، والتي تبين بوضوح عمق الهاوية التي تفصل النصرانية عن الإسلام في هذا الموضوع. أولاً، التعاليم هنا مناقضة لتعاليم بولس الرسول. فللشهوة مكانة عالية، فهي شرعية: "الزواج بهدف إنجاب الذرية دليل على الإيمان الكامل، والزواج لقضاء الشهوة والمتعة يقرّه القانون"⁽¹⁾. إذن لا مجال للشعور بالذنب. إضافة إلى هذا (وقد تكلم ابن الجوزي عن هذا الموضوع عديداً من المرات) ثمة ضرورة فيزيولوجية ويجب أن ندرك أنها وحدها كافية، إذ لا بد من إخراج المنى، وبعبارة أخرى، إن إيعاز الطبيعة القوي هذا يبرر العمل الجنسي وهو إيعاز يصعب تحاشيه دون ضرر. فعلى الذين يكتبونه لسبب ما الحذر، "إن تجمع السائل المنوي بكميات كبيرة وكتبته طويلاً يسبب أمراضاً خطيرة، ويعمل على ظهور أفكار سيئة، ويدفع إلى الشغف والهوس، لأن أبخرة المنى تصعد إلى المخ، وتسبب له اضطرابات وتسمى أحياناً"⁽²⁾. يا له من تحسيد سابق لنظرية سيغموند فرويد أو فلهلم راينغ! إذن لا للامتناع الطويل الأمد. من الواضح تماماً أنه في نظر ابن الجوزي أن مدة الامتناع "المسموح" بها قصيرة جداً. ثم يتبع هذا تفكير طويل مفيد جداً عن "مواضع" الجماع، "بين الفخذين، في مكانه الطبيعي (...). مع عذراء، أو مع امرأة فقدت عذريتها، إلخ."⁽³⁾ إذ لا تسبب جميعها نفس "قوة القذف"⁽⁴⁾، فلهذا علاقة باختيار الشريك المناسب، أي الشريك القادر على إثارة "قذف كامل بحيث تصل النفس إلى اللذة التامة". ولنلاحظ كلمة النفس، لا الجسد. إلا أن بحث ابن الجوزي يخون تلك الرابطة التي يمكن إحساسها بعمق ويادراك سابق بين الشريكين. ففي نظره لا مجال للشك في أن: "القذف التام لا يتم إلا مع امرأة جميلة"⁽⁵⁾، بيد أنه يمكننا القراءة بين السطور أنه لم يكن أبداً شحيحاً في هذا الفصل من الكتاب. ونجد في كتابه كثيراً من النصائح العملية الجديرة بأساتذة الصين الكبار في فن الحب، يأتي في مقدمتها هذه النصيحة التي توجه أصابع الاتهام إلى كثير من

(1) ابن الجوزي، "La pensée vigile", Paris, Sindbad, 1989 AD، ص 56. هذا المفهوم يعارض الكبت الذي هو أساس

المذهب النصراني: Saint Paul I th 4,4: على كل واحد أن يعرف كيف يتملك وعاءه على نحو سليم وبأمانة وليس بشبق

الملحدين المرضى الذين لا يعرفون الله". انظر أيضاً Augustin، مدينة الرب، XIV، 16، "La cité de Dieu".

(2) في الموضوع نفسه، ص 81.

(3) في الموضوع نفسه، ص 81.

(4) في الموضوع نفسه، ص 81.

(5) في الموضوع نفسه، ص 157.

الأفكار المتوارثة، التي من العتب البحث عنها في كتابات المؤلفين النصاري وحتى أكثرهم تحمراً اليوم: "إذا جامع رجلٌ تجاوز الستين، فعليه أن يمنع نفسه من القذف ليحتفظ بقوته ويشبع شهوة شريكته، فهذا من حقها عليه"⁽¹⁾. ونقول: إن الإسلام حضارة تجهل حق المرأة! يا للعجب كيف هذا؟ إن أشد الحضارات تفضيلاً للرجال على النساء، ليست - ربما - تلك التي يتصورها الناس. ثم هذه الرابطة وهذه التناسبية العكسية بين الشهوة ومشاعر الحب: "الحب شهوة لذيدة، ولكن الجماع يضعف الحب ويدمر الشهوة"⁽²⁾. ولكي نختم، نورد هذا التعبير اللاذع التهكمي السقراطي: يعتبر الجماع تقارباً سامياً بين الأرواح⁽³⁾. نحن هنا مع ابن الجوزي بعيدون جداً عن عبارة القديس بولس: "من ينقذني من هذا الجسد الذي نذري للموت"⁽⁴⁾، وعن ذلك الحرمان والكبت غير الصّحّيين اللذين هما أساس الديانة النصرانية.

إذا كانت التدعيمات والبيمارستان من أولويات أعمال نور الدين الهندسية، فإن أشد إنجازاته أهمية وأكثرها عدداً كانت المباني الدينية من مساجد ومدارس ودور حديث وخانقاهات ومشاهد ومقامات. لم يكن هذا الفيض المعماري بلا أهداف سياسية من: دعم أهل السنة أمام الشيعة، وإيقاظ روح الجهاد لمواجهة الفرنجة، وتجديد الدراسات المذهبية من العلوم التشريعية والصوفية، وخاصة أن تظهر للعيان حمية الأمير السنية، وهي طريقة نافعة لزيادة رفعة. إضافة إلى هذا، فإن العديد من الأحاديث الشريفة

(1) في الموضوع نفسه، ص 251. قبل العصر النصاري، أكد المعلم الصيني الكبير جونغ - تشينغ هذا الأمر: "فن مجامعة النساء يكمن في السيطرة على النفس، بمنعها من القذف لكي يصعد المنى إلى المخ ويقويه Cf. Etimble، الفن والحب في الصين "China"، Genève, Nagel, 1975 AD L'art et l'amour en" ص 18.

(2) في الموضوع نفسه، ص 267.

(3) في الموضوع نفسه، ص 267 - 268. لم يفتأ ابن جبير الذي قابل ابن الجوزي في بغداد بمدحه: "لقد كان بديع زمانه، ومجدد عيون الإيوان وسيد الحنابلة، متخصصاً في أعلى درجات العلوم، وإمام الأمة (...)، شهيراً بتفوقه في الخطابة وبموهبة في الكلام، (...) ماهراً في الغوص في بحر ذكائه ليجد فيه أثمن اللآلئ. (...) كان عندما ينتهي من القاء خطبته، يفيض بوعظ لبقٍ وعليه إمارات التقى تغمر القلوب حباً. (...) كان يحدث أن يفقد وعيه أحياناً مما يستوجب رفعه ونقله". (ابن جبير، رحلات، "Voyages"، الجزء 5، ص 251 والتالية). من العتب البحث في العالم النصاري عن موقف يماثل موقف ابن الجوزي، لقد كان حقاً علامة، "رجل دين" ذا شخصية متفوقة وموقرة، وكاتباً - ولكن بلا فجور ومكر - عما يمكننا تسميته "بحثاً حقيقياً في المعاشرة"، لا "فن الحب". إضافة إلى ذلك، ومع أن المذهب الحنبلي متحرر نسبياً فإنه معروف بتمسكه بالتفسير الحرفي وبشيء من الاستقامة المترتبة.

(4) انظر في الموضوع نفسه، ص 69.

تحت على بناء مثل هذه المنشآت وتُعدُّ من يقوم بها الثواب في الآخرة: "من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة ليضها، بنى الله له بيتاً في الجنة"⁽¹⁾. ثم إن دمشق تبدو بوجه مستعدة سلفاً لهذا لأنه، كما تروي بعض الأحاديث الشريفة، ستصبح دمشق في نهاية العالم "أكثر المدن عمارة بالمساجد"⁽²⁾.

أضاف نور الدين العديد من المساجد إلى المئتين وتسعة وثمانين مسجداً التي كانت تحتويها دمشق قبل قدومه. وكما يروي ابن عساكر، "كانت هذه المساجد، والعدد الكبير من المصلين الذين يأتون إليها دليلاً على مدى ارتباط السكان بدينهم"⁽³⁾. إضافة إلى مسجدي القلعة والمساجد التي تجاور الأبواب، بنى نور الدين مسجداً في حي الجنيق في شمال شرق القلعة، في موقع كنيسة قديمة، ومسجداً بمئذنة قرب معبد يهودي، ومسجداً يعرف باسم "الكشك"، في سوق تجار الخشب، ومسجداً في جنوب دار البطيخ، ومسجداً في سوق البزورية. وهناك مساجد أخرى بنيت خارج سور المدينة من مثل: مسجد في جنوب الميدان، على طريق الحج، بالقرب من مسجد كبير بناه شيركوه، ومسجد في الغوطة في شرق المدينة، وآخر في غربها، عند القبة المهدودية. أعاد نور الدين في عامي 1167 - 1168م بناء مسجد قرية داريا الكبير الذي كان قد دمره حريق قبل عشرين عاماً.

أجري العديد من التعديلات والترميمات على مسجد دمشق الكبير. تُخلَّد أجزاء من كتابة أنجزت بالفسيفساء واكتشفت عام 1953م، أثناء اصلاح الرواق الشرقي، فوق القوس الثاني انطلاقاً من الشمال، تاريخ الأعمال التي جرت بلا شك عام 1159م وهي: ترميم سقف الجناح العرضاني، وتليس سقف الرواق الشمالي بالرصاص، تحويل قاعتين واقعتين في الجانب الغربي - أصبحتا اليوم هو استقبال الزوار من غير المسلمين - إلى مصلين جنازتين، وإعادة بناء الزاوية الشمالية الشرقية للفناء، وتثبيت ساعة مائية عند باب جيرون، وهي من صنع مؤيد الدين الحارثي، الطبيب ونجار البيمارستان الشهير. وصف ابن جبير هذه الساعة المائية التي يدين لها باب جيرون باسمه الجديد "باب الساعات". إن آليتها الذكية، "تدفعنا إلى أن نتخيل أنها ضرب من ضروب السحر"⁽⁴⁾، يقوم بمراقبتها شخص موجود في غرفة عالية، تُسقط عند انقضاء ساعة من النهار

(1) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 83.

(2) في الموضع نفسه، ص 81.

(3) في الموضع نفسه، ص 174.

(4) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 312 - 311.

سنتجتين من منقاري صقارين نحاسيين، يُسمع عند سقوطهما في طاسين نحاسيين رنين. ويعرف الوقت في الليل من مصابيح تعمل على نظام هيدروليكي يُديرها خلف قطع زجاجية حمراء اللون. عندما حضر نور الدين إلى دمشق كان فيها إحدى عشرة مدرسة. وقد بني أثناء حكمه اثنتا عشرة مدرسة جديدة، اثنتان فقط مازالتا حتى اليوم، واحدة تحمل اسم المدرسة "النورية" والأخرى لم ينته بناؤها إلا عام 1223م في عهد الأيوبيين⁽¹⁾، وهي المدرسة "العادلية". أحصى ابن جبير في عام 1184م عدد المدارس في دمشق فكان "نحو عشرين مدرسة"⁽²⁾، صنفها مع البيارستان بين "أجل الشواهد على مجد الإسلام"⁽³⁾.

تشغل المدرسة النورية الواقعة في سوق الخواصين، كما يروي بعض المؤلفين، موقع منزل كان يسكن فيه الخليفان الأمويان، معاوية وهشام. احتفظ ساكف باب الدخول، المفتوح في بوابة جميلة ذات مفتاح متدلٍ بستة أسطر من نص التأسيس مع تفصيل للأموال الموقوفة لمصلحة المنشأة: "أمر بتأسيس هذه المدرسة المباركة، الملك العادل، الزاهد نور الدين (...). أنشأها وقفاً لأتباع الإمام، مصباح الأمة، أبي حنيفة (...). وقد جعل وقفاً لها وللفقهاء والطلاب: الحتام المبني مجدداً في سوق القمح، والحمامين الجديدين المبنيين عند مصنع الورق خارج باب السلام، والمنزل المجاور له، ومصنع الورق في عونية الحُمى، وبستان الوزير الصغير، وثلاثة أرباع روضة الجوره في الأزرة، وأحد عشر حانوتاً خارج باب الجابية، والفناء المجاور له شرقاً، وتسعة حقول في داريا، كما هو مذكور ومصرح به في صك الوقف، رغبة في الثواب والجزاء من الله يوم الحساب. وكان هذا في مدة من الزمن انتهت في شعبان عام 567/ نيسان 1172م"⁽⁴⁾. وعلى باب المدخل نص، منقوش على شريط من الصُفَرِ يسترعي انتباه المؤمنين، بألقاب الأمير: "المجد لسيدنا الملك العادل، العالم الزاهد، بطل الإيمان، المنتصر" نور الدين "ركن الإسلام والمسلمين، محيي العدالة في العالم، حامي الحقيقة بالبراهين، الذي يقتص

(1) نسل صلاح الدين الذين حكموا سورية ومصر حتى عام 1250م.

(2) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 329.

(3) في الموضع نفسه، الجزء 6، ص 330.

(4) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد. 3293.

للمظلومين من ظلامهم، قاتل الكفرة والمشركين، أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، حامي أمير المؤمنين، أطال الله عمره⁽¹⁾.

وبرغم بعض التعديلات التي أجريت فيما بعد على المدرسة النورية - منها الترميم المفجع الذي اقترّف عام 1990م - فالخطط والطابع العام للمبنى بقيا كما كانا عند تأسيسه. نسقت العناصر المتنوعة للمدخل كما حصل في البيمارستان: باب خارجي في بوابة، ودھليز ضيق وردهة مقببة بزوايا بارزة، باب ثانٍ وإيوان. كان الحوض الواقع في مركز الفناء مرتبطاً عن طريق قناة صغيرة بنافورة واقعة في الحائط الذي هو صدر الإيوان الغربي. هذا التنسيق أثار إعجاب ابن جبير فقال: "يصل الماء ليجري فيها (المدرسة) نازلاً أولاً من نافورة متطاولة، قبل أن يندفع ليصب في حوض في وسط المبنى، إنه حقاً لمنظر جميل يبهّر الأبصار، فيردد كل من يتأمله دعواته لنور الدين"⁽²⁾. يشغل الجانب الجنوبي للفناء قاعة للصلاة يسبقها دھليز، مسقوفة بأسقف مدرجة، ويدخل إليها عن طريق ثلاث فتحات، واحدة كبيرة في المركز، وعلى جانبيها فتحتان أصغر منها. لم يبق إلا القوس الرئيسي من الإيوان الكبير الذي يزيد عرضه عن ثمانية أمتار، ويقابل قاعة الصلاة من جهة الشمال. تطل غرفة مدفن مربعة على الجهة الجنوبية لردهة المدخل، تنيرها نافذتان منخفضتان تطلان على الشارع، وتغطي الغرفة قبة مُنَحَرَبَة تشبه من جميع النواحي قبة البيمارستان. دُفن نور الدين في القلعة بدايةً، ثم نقل رفاته ابنه الصالح إسماعيل ما إن انتهت أعمال بناء المدرسة. وكان هو أول أمير يُدفن في المدرسة التي بناها. وهناك سطر واحد من نص قصير على جوانب القبر الحجرية الأربعة. يأتي أولاً التعريف بالمتوفى: "قبر الشهيد نور الدين زنكي"، يتبعه آية قرآنية لها علاقة بدخول السعداء الجنة: (ويسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمرأ، حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)⁽³⁾. الضريح ذو القبة والواقع في الجانب الشمالي لردهة المدخل هو ضريح

(1) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد: 3310.

(2) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 330.

(3) القرآن، 39، 73.

مدرسة الأمير أقش النجيبى، وهو مملوك الملك الصالح وحاكم دمشق أثناء حكم السلطان المملوكى بيارس (1260 - 1277م)⁽¹⁾.

لم نعرف المدارس العشر الأخرى التي بنيت أثناء حكم نور الدين إلا عن طريق النصوص: المدرسة "الطاشية"، أسسها داخل أسوار المدينة عام 1155 - 1156م الأمير تاش الدين الدقاقى، ومدرسة "الكلاسة" التي بدأ بناءها نور الدين عام 1160م بالقرب من الجدار الشمالى للمسجد الكبير الذي يتصل بها بباب⁽²⁾، والمدرسة "العمادية"، وهي ملتصقة بالسور قرب باب الفرج، والمدرسة "الأسدية" خارج الأسوار أسسها شيركوه شمال الميدان الأخضر قبل 1168م، والمدرسة "الركانية" أسسها عام 1169 - 1170م قرب البيارستان شرقاً أحد الطواشيّة السود كان قد عهد إليه بمسؤوليات مهمة أثناء خدمته لنور الدين⁽³⁾، وأربع مدارس أخرى أسسها نور الدين: النورية الصغرى في مسجد القلعة، ومدرسة نورية أخرى مقابل البيارستان، تدعى عادة المدرسة "الصلاحية" لأن صلاح الدين هو من أنهى بناءها، والمدرسة العسرونية في حي الحجر الذهبى، أتم بناؤها عام 1175م ومدرسة نورية صغرى أخرى تجاور المدرسة الأخيرة.

كان نور الدين أول من عمد إلى بناء طراز جديد من المنشآت: دار الحديث، وهو مكان مخصص لإعداد القضاة ولتعليم الحديث، الذي هو مجموعة من المعارف تجمع سنة النبي (ﷺ) الشريفة من روايات عن أقواله وأفعاله ونقل لكلامه. إن حداثة هذه المنشأة التي تدل على الأهمية

(1) Sauvage, H. المرجع نفسه، الجزء 3، 1894م، ص 444. انظر أيضاً Sauvage, J. آثار دمشق التاريخية "Les monuments

historiques de Damas"، ص 54 و Laoust, H. حكام دمشق أثناء حكم المماليك والعثمانيين الأوائل، "Les Gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans" النسخة المترجمة، أخبار ابن طولون وابن جمعة، دمشق،

1952م، ص 5. مات أقش النجيبى في منزله في القاهرة ولم يدفن في دمشق.

(2) بين قبر صلاح الدين والمدرسة المملوكية الحقيقية. احترقت في الوقت نفسه الذي احترقت فيه منارة العروس في آب عام 1174م، وأعاد بناءها صلاح الدين عام 1185م وقد تضررت كثيراً أثناء زلزال 1201 - 1202م. سميت بهذا الاسم نسبة إلى الكليس، لأن في موقعها كانت توجد ورشة للكلس أثناء بناء المسجد الكبير. بقي منها حتى عام 1945م بعض الآثار من حوض وبعض الأعمدة. أما اليوم فلقد اختفت كلها وشغل مكانها حديقة صغيرة عامة وملجأ من الغارات الجوية.

(3) بقي المبنى قائماً حتى 1940م وإن كان مهتماً. Cf. Sauvage, J. آثار الأيوبيين في دمشق، "Monuments ayyubides de

Damas"، الجزء 2، ص 51 - 56 و R.C.E.A.، الجزء 9، العدد 3342 و Wulzinger, K. و watzinger, G. "Damascus, Die

Islamische Stadt"، برلين 1924م، ص 70 و Sauvage, H. المرجع نفسه، الجزء 4، 1894م، ص 259 - 260.

التي اكتسبها هذا النظام في إعداد رجال الدين كتب عنها المؤرخ ابن الأثير (1160 - 1234م) قائلاً: "نور الدين هو - فيما نعلم - أول من أبدع تعليمًا من هذا النوع"⁽¹⁾. أنشئت دار الحديث في دمشق - حيث كان نور الدين وأمرؤه الرئيسيون يأتون مراراً لحضور الدروس - في عام 1171م على طول الشارع المؤدي من القلعة إلى المسجد الكبير على شرف المحدث والمؤرخ ابن عساكر، وهو صاحب "تاريخ دمشق" الضخم المكون من ثمانين مجلداً، والذي، كما ذكر ابن خلكان، "تلقى علوم الحديث، ووصل فيها إلى درجة من التفوق لم يصلها أحد غيره"⁽²⁾.

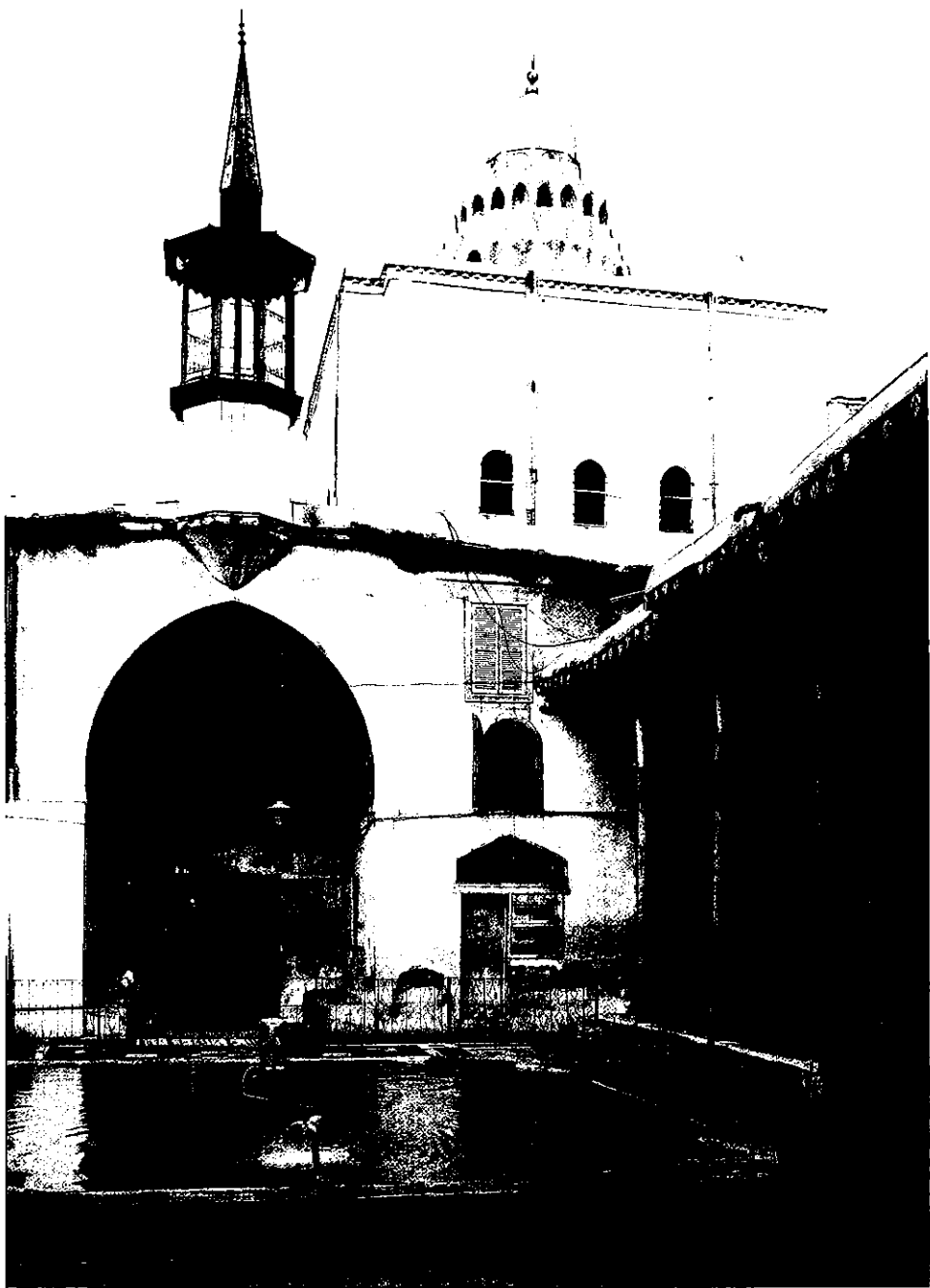
كان مخطط مبنى دار الحديث - وهو أثر تذكاري أصابه الخراب اليوم - مربع الشكل مفتوحاً من الجهة الشمالية. يسمح التشابه بين مخططة ومخطط المدرسة بتعرّف الهدف من بناء الحجرات المختلفة المصنوفة حول فناء يتوسطه حوض مركزي للوضوء: في الجنوب توجد قاعة الصلاة التي تتكون قنطرة محرابها من "صدفة" قديمة أعيد استخدامها؛ وفي الشمال، على جانبي المدخل، توجد غرفتان صغيرتان مقببتان، ومسكن للحارس ومستودعات؛ وفي الشرق والغرب، توجد قاعتان متطاولتان، وصالات للتدريس، ألحقت غرفة بكل واحدة منها، ومكتبة أو مسكن للمدرسين كانت الغرف الجانبية وقاعة الصلاة على الأغلب مغطاة بسقف مزدوج الميلان وله صقالة بارزة. تتصل قاعة الصلاة، وفق الطراز السوري في الهندسة، بالفناء بواسطة ثلاث فتحات مقوسة بساكف خشبي، بحيث تكون الفتحة المركزية أكبر من الآخرين. استخدمت في بناء دار الحديث حجارة من الحجم الصغير، مثل معظم الآثار التذكارية الدمشقية من القرن الثاني عشر التي تأثرت كثيراً بطراز منطقة ما بين النهرين في البناء، وخلافاً لطراز شمال سورية الذي يفضل الحجارة المنحوتة والمربعة والكبيرة الحجم. في هذا المبنى - حين كان جديداً - نزل الرحالة الأندلسي ابن جبير أثناء إقامته في دمشق عام 1184م⁽³⁾.

(1) ابن الأثير، تاريخ أتابكة الموصل، "Histoire des Atabegs de Mossul"، في R.H.O.C، الجزء 2، ص 305.

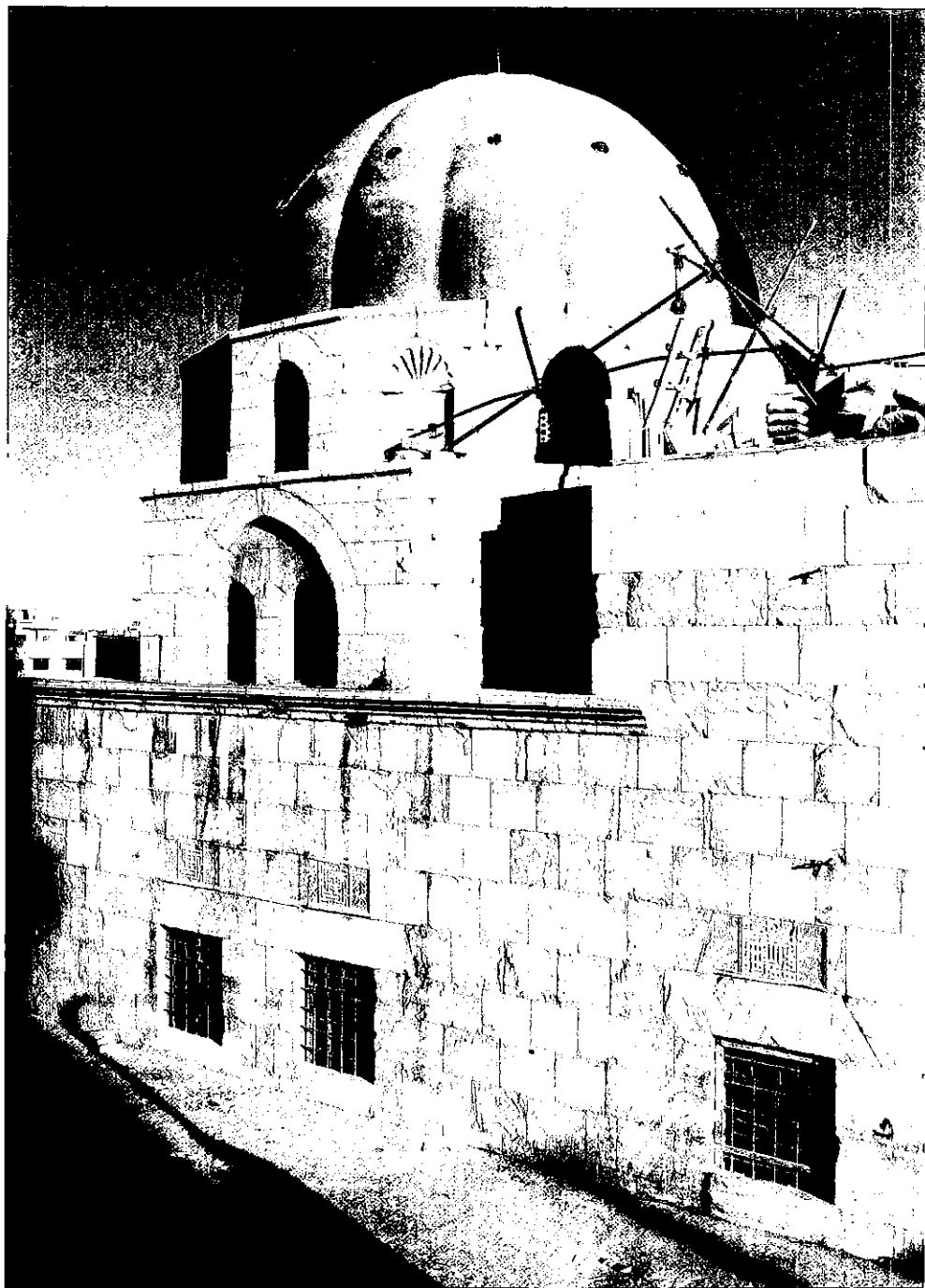
(2) ابن خلكان، (1211 - 1282م). ولد في أربيل، ومات في دمشق في المدرسة النجيبية، وهو صاحب قاموس عظيم.

Biographical Dictionary، الجزء 2، ص 252.

(3) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 300.



المدرسة النورية



المدرسة الركنية

رافق رد فعل أهل السنة، الذي كان وراء بناء المدارس، توجه كبير نحو الزهد، كانت الصوفية من أبرز مظاهره. سمي الصوفي كذلك نسبة إلى ثوبه البسيط من الصوف، وهو إنسان تحرّكه رغبة عميقة في تطهير نفسه والتقرب من الله. كان الصوفيون يعيشون في تجمع واحد تحت سلطة شيخ في داخل خانقاهات (ما يقابل الأديرة في المصطلح الغربي). مخطط مبنى الخانقاهات هو نفسه دائماً تقريباً: توجد حول فناء بحوض مركزي، قاعة للصلاة وإيوان وقاعات اجتماعات، وغرف للسكن، وتتجمع في إحدى الزوايا المستودعات وبيوت الخلّاء والمطابخ. بني أثناء حكم نور الدين سبع خانقاهات في دمشق، واحدة منها في شمال المسجد الكبير مخصصة للنساء فقط. أمر نور الدين، قبل 1168م، ببناء خانقاه "الطاحونة" خارج المدينة. وفي 1169 - 70م أمر نجم الدين أيوب، مباشرة قبل رحيله إلى القاهرة ببناء الخانقاه "النجمية" في حي باب البريد. كما بنيت اثنتان قرب باب الجابية، الأولى برعاية أسد الدين شيركوه وكانت تسمى "الأسدية"، والثانية برعاية الأمير التركماني سيف الدين جاروخ. وأسست الأميرة عصمت الدين خاتون، ابنة معين الدين أنر وزوجة نور الدين، الخانقاه الخاتونية وذلك في خارج المدينة، على ضفة بانياس اليمنى، في غرب الأسوار. وعلى بعد كيلومترين تقريباً شمال دمشق، على منحدر جبل قاسيون، وفي وسط بعض منازل الاصطياف النادرة والمنتشرة في البساتين، بنى أحدهم وكان يسمى أحمد بن قدامة على نهر يزيد خانقاه مخصصة لأتباع المذهب الحنبلي فقط. كان أحمد بن قدامة من مواليد القدس، أتى مع جميع أفراد عائلته ملتجئاً إلى دمشق بعد أن هرب من احتلال الفرنجة لبلده، واستقر في البداية عام 1156م خارج الباب الشرقي في مسجد أبي صالح⁽¹⁾.

من بين عديد من دلائل الحماس الديني الذي أخذ يصبح أكثر فأكثر من خصائص دمشق المميزة، أصبحت الخانقاهات كما لاحظ ابن جبير مصدر متعة وبهجة، فكتب عنها بشيء من السخرية غير الخفية: "كانت خانقاهات الصوفيين كثيرة جداً، إنها قصور كثيرة الزينة، يجري فيها الماء في كل مكان، وتقدم أجمل ما يمكن رؤيته من المناظر"⁽²⁾. في الواقع، لا شيء يبدو لهذه الجماعة الصوفية مفرط الجمال. وأضاف ابن جبير قائلاً: "هؤلاء الصوفيون هم ملوك البلد، لأن الله أراحهم

(1) أسس عام 942م.

(2) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 330. إن اللاأخلاقية وعادة اللواط بين رجال الدين أمر متواتر في الأدب الإسلامي كما هو عليه في الأدب الغربي. فيما يتعلق بقاؤهم بممارسة اللواط مع الأطفال، ذكر المسعودي آياتاً شعرية لابن أبي نعيم،

Prairies dor، مروج الذهب، الجزء 4، ص 115.

من هموم هذا العالم ومن أباطيله، وأعفاهم من السعي لكسب العيش، إذ نذروا أنفسهم للعبادة. وأسكنهم في قصور تبشرهم بقصور الجنة"⁽¹⁾. لكنهم في نظر بعض الناس "رجال الله"، وفي نظر البعض الآخر "كفرة". يعتبرهم الإسلام التقليدي هامشين ويتهمهم بالكذب والشعوذة. فالصوفيون بميلهم للتطرف وتحللهم الأخلاقي، كانوا بعيدين عن أن يكونوا سواسية سواء بشخصياتهم أو تصرفاتهم. وهم كما يقال، ليسوا دائماً أتقياء، ولكنهم كانوا يعتبرون جزءاً مكملًا "للطريقة". الداهية ابن الجوزي، عالمًا في الجنس، كان أكثر تقريعاً من ابن جبير واعتبرهم بكل بساطة محتالين، وهجاهم بكلمات قاسية جداً: "في كل خانقاه يوجد مطبخ، وهم لا يمشون ليايهم في العبادة (...)، فالحمام لا يفرغ أبداً، والمغني يدق الطبل بالجلالجل ويعزف قرينه على المزمار، وهناك بنات في الأغاني وصبية تحت الشموع"⁽²⁾.

إضافة إلى بناء وترميم المباني الدينية، وبغية إرضاء السكان المتدينين، ومراقبتهم وضمان التزامهم بالحدود الضيقة للأصولية السنية، عمد نور الدين إلى إجراء تعديلات وإصلاحات في مزارات عديدة من مثل المشاهد والمقامات، خلداً ذكرى عديد من الأنبياء، آدم وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم..، وصحابة النبي (ﷺ)، وكذلك العديد من الزاهدين والشيخ والعلماء والفقهاء الذين استحقوا درجة الشفاعة. وما زال بعض الناس حتى اليوم يزورون المشهد الذي أمر ببنائه عام 1169-1170م في داريا فوق قبر أحد الأتقياء، وهو أبو سليمان الديрани.

تأثر عديد من الأشخاص المهمين من الأمراء والشيخ بالذين سبقوهم من سامانيي آسيا الوسطى، فبنوا أضرحة بقباب، أو تربة، كترية "العمادي" الواقعة عند سفح جبل قاسيون، حيث دفن شخص قريب من نور الدين في 25 أيلول 1169م⁽³⁾. كان ضريح العمادي "أول ضريح بُني في الصالحية"⁽⁴⁾ وأقدم نموذج من التربة مازال باقياً، وهو قاعة مربعة الشكل مغطاة بقبة متوضعة على رقتين متراكبتين، رقبة داخلية مثمثة الأضلاع وأخرى خارجية باثني عشر ضلعاً. وقد كثر الاعتماد على هذا الطراز الهندسي وتألق في العصر الأيوبي.

(1) في الموضوع نفسه، الجزء 6، ص 330-331.

(2) ابن الجوزي، المرجع نفسه، ص 166.

(3) Sauvage, H., المرجع نفسه، الجزء 6، 1895م، ص 246.

(4) في الموضوع نفسه، ص 246.

أمر نور الدين بعد وقت قصير من دخوله دمشق ببناء دار العدل في حي الأروام - مدخل سوق الحميدية حالياً - حيث تعقد جلسات للنظر في قضايا خرجت من أيدي القضاة العاديين لأهمية شخصياتها. ذكر هذا الابتكار ابن الأثير قائلاً: "كان نور الدين أول ملك مسلم يقيم محكمة عليا مهمتها الحكم في أعمال الظلم والطغيان التي كان يرتكبها كبار الأشخاص"⁽¹⁾. ولكن، برغم ما يؤكد ابن الأثير، كان الإسلام التقليدي يقبل بنقض حكم القضاة مبدئياً بدون استئناف. فهذا ما كان من أمر "محكمة التعسف" التي ابتكرها الخلفاء العباسيون، والتي كانت تعقد برضاهم وتحت سلطتهم المباشرة للنظر في القضايا التي يتواجه فيها الأفراد من عامة الناس مع أصحاب الرتب العليا في النظام الحاكم. وعلى كل حال، كان شريكه، الذي كان بشهادة ابن الأثير "يستغل سلطته ليمتلك المزارع وممتلكات جيرانه"⁽²⁾ يشعر أنه معني شخصياً بهذا النظام القانوني الجديد لأنه، كما يوضح مؤرخنا، كان الشخص الوحيد الذي بإمكانه معارضة قرارات القاضي كمال الدين، حتى وصل به الأمر إلى أن يتوعد مديري أملاكه بالصلب إذا ما دُكر اسمه خطأً.

قبل ابتكار هذا المبنى الجديد لم يكن النظام القانوني يمتلك أماكن خاصة به، إذ كان كبير القضاة يحكم في الجزء الغربي من المسجد الكبير. كان نور الدين يعقد بنفسه الجلسات في دار العدل، مرتين في الأسبوع، الثلاثاء والخميس، يرافقه كبير القضاة وممثلون لمذاهب الإسلام الأربعة والفقهاء الرئيسيون. كان كبير القضاة - الذي كان يحكم في القضايا المدنية والجنائية ويتمتع فوق ذلك بسلطة على الإدارة القضائية - يعين من قبل السلطة وكان عليه أن يدفع ثمن مقامه الرفيع. وكانت بعض المهام المسندة إليه تتعدى وظيفته القضائية لتمتد إلى المجالات الإدارية: فراقب بيت المال وورشات سك العملة. ومن الناحية الدينية، كان يؤم المصلين ويؤدي الخطبة ويدير المساجد والأوقاف. وكان يرتدي ثوباً أسود فضفاضاً، ويضع عباءة الشرف على كتفيه، وعمامة سوداء على رأسه مغطاة بقماش رقيق من الكتان، ويتجول في أغلب الأحيان ممتطياً بغلته.

في القرن الثاني عشر، أحصى ابن عساكر الحمامات في دمشق فوجدها سبعة وخمسين حماماً، أربعون منها داخل سور المدينة. أمر نور الدين في تاريخ غير محدد، ولكن على الأغلب نحو 1165،

(1) ابن الأثير، تاريخ الأتابكة، "Histoire des Atabegs"، في R.H.O.C. II، ص 305. بعد استخلاص بيت المقدس عام 1187م، كبر صلاح الدين المبنى الذي أصبح اسمه "دار السعادة". إلا أنه زال اليوم.

(2) في الموضوع نفسه، ص 305.

بناء حمام في سوق البزورية لجعله وفقاً مع الأموال الأخرى، لمصلحة مدرسته - مدفنه، المدرسة النورية الكبرى⁽¹⁾. كان الحمام - وهو وريث حمامات المياه المعدنية الحارة القديمة التي عدلها البيزنطيون، ولكن بمقياس أصغر وبدون مسبح وميدان رياضي - مقترناً غالباً بمسجد، ويشغل مكانة كبيرة في حياة المدينة الدينية والاجتماعية. فعلى العكس من الديانة النصرانية التي بازدرائها للجسم كانت تُصَرِّفُ أتباعها عن الاهتمام بأجسامهم، يعتبر الإسلام النظافة من الفضائل الدينية، ففي الحديث الشريف: "النظافة من الإيمان". فلا بد من الوضوء قبل كل صلاة، ومن الاغتسال في الحمام قبل صلاة الجمعة. فصلاة غير الطاهر غير مقبولة، ففي حديث شريف آخر: "لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يتوضأ". إضافة إلى أن تُقْبَل الصلاة مرتبطة بدرجة النظافة، لذا "الصلاة التي تؤدي بعد تنظيف الأسنان أفضل من الصلاة التي تؤدي قبل غسلها"⁽²⁾. وكذلك على المرء الذي أكل ثوماً أو بصلاً نيئاً أن يصلي في منزله وألا يدخل المساجد⁽³⁾. الطهارة بعد الانتهاء من بعض الحاجات الطبيعية كالقبول والغوط والقذف وغيره أمر إجباري، فالأحاديث المتعلقة بها كثيرة وتوصياتها دقيقة. وفضلاً على ذلك، هنا كما في أمور أخرى، على المسلم الصالح أن يتخذ من النبي (ﷺ) المثل الأعلى ويقلده، فلقد كان النبي (ﷺ)، كما يذكر ابن الجوزي، "أكثر الرجال نظافة وأفضلهم تعطراً"⁽⁴⁾. النظافة ضرورة دينية، وهي أيضاً مظهر من مظاهر احترام الآخرين. يقول ابن الجوزي: "يهمل كثير من الناس أجسامهم، بعضهم لا ينظف فمه بالسواك بعد الأكل، والبعض الآخر لا يغسلون أيديهم المتسخة ولا يكادون ينظفون أسنانهم ولا يكتحلون ولا يهتمون أبداً بنظافة إبطهم. ينتج عن هذا الإهمال قصور في الدين والعرف الاجتماعي"⁽⁵⁾. وهكذا تعد الحمامات دليل

(1) R.C.E.A.، الجزء 9 العدد 3293. كان من بين الحمامات المخصصة وفقاً لمصلحة المدرسة النورية كل الحمامات المبنية مجدداً في سوق القمح.

(2) ابن الجوزي، المرجع نفسه، ص 123.

(3) في الموضع نفسه، ص 122.

(4) في الموضع نفسه، ص 123. في الإسلام، نظافة السيلين من الدين. كتب مؤلف عربي مجهول، هو صاحب كتاب "العلاقة بين الصين والهند" عن الصينين: "إنهم غير نظيفين: فهم لا يغتسلون بالماء عندما يقضون حاجتهم، ولكن يمسحون التنجاسة بالأوراق الصينية "CF. Sauvaget, J.", "أخبار الصين والهند" نص مترجم، باريس، 1948 AD، Les Belles lettres، ص 11. في مثل هذه الظروف نعرف أن الإسلام يأمر بالوضوء للطهارة.

(5) في الموضع نفسه، ص 122.

تحضر وتدين، فالأمران في نظر الإسلام متلازمان. لذا عندما يريد رحالة أو عالم جغرافية أن يمتدح مدينة ما فإنه يذكر قبل كل شيء عدد مساجدها وأضرحتها المشهورة وقُرَائِها وحَفَظَةِ القرآن فيها وحماماتها. في القرن العاشر كانت بغداد تفتخر بوجود سبعة وعشرين ألف حمام فيها⁽¹⁾، وفي عام 1184م، ذهل ابن جبير بوجود ما يقارب مئة حمام و"أربعين مبنى للوضوء تجري المياه فيها جميعاً في دمشق وضواحيها"⁽²⁾.

سواء كانت الحمامات مصممة وفق مخطط دائري أو مستطيل، فإن أجزاء بناء الحمام هي نفسها في كل حمام: باب رئيسي، وهو عادة صغير وبسيط يفتح على قاعة لخلع الملابس، غالباً ما تكون مربعة، مسقوفة بقبة ومجهزة بمقاعد من الخشب مزودة بوسائد، ويتوسطها حوض بنافورة ماء⁽³⁾. في هذه القاعة يخلع الزبائن ملابسهم ويستريحون بعد الاستحمام، وبعد أن يُدَثَّرُوا بمناشف ساخنة ونظيفة ليشربوا الشاي. ويؤدي دهليز ملتو - يغلق بباب من طرفيه - إلى القاعة الباردة، وهي قاعة غير مزودة بجهاز للتدفئة، إلا أن القسم المُدْفَأَ المجاور للقاعة يعمل على تعديل برودتها، وهو صالة شتوية تستخدم عادة لتغيير الملابس لكبار السن والمرضى. تُهَيَّئُ القاعة الدافئة الانتقال إلى القاعة الحارة. وهي مجهزة بغرف صغيرة ملحقة (المقصورات) مخصصة للعناية الجسدية والاستحمام والتنف وخلق الشعر والتدليك، وهي مناسبة لإشباع نزوات متنوعة، ثم إن الاختلاط المشبوه جنسياً أمر وارد فيها، مما استدعى فرض الرقابة عليها⁽⁴⁾. وأخيراً القاعة الحارة، وفيها غالباً مقصورات ملحقة بها، وتجاور موضع الرجل الذي تتلقى منه البخار مباشرة بواسطة سلسلة من ثقب في حائط مشترك. تعد هذه القاعة بفضل درجة الحرارة المرتفعة مكاناً للتعرق (ساونا). وتقع بيوت الخلاء عادة بين قاعة الثياب والقاعة الباردة. تولد غرفة المراجل - التي يُزود موقدها بالنشارة

(1) Bouhdiba, A.، الجنس في الإسلام، "La sexualité en Islam"، باريس، PUF، 1975 AD، ص 197.

(2) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 336. يبدو العدد الذي أعطاه ابن جبير مبالغاً فيه بعض الشيء. في عام 1259م، وفقاً لجرد ابن شداد، كان يوجد في دمشق تسعة وثمانون حماماً. في أقل من مئة سنة، تضاعف عددها. وفي عام 1940م كان مايزال يستخدم 41 منها، وفي عام 1961م، بقي منها ثلاثون فقط.

(3) Bouhdiba, A.، المرجع نفسه، ص 205. انظر أيضاً Flaubert, Correspondance, Paris, Pléiade, 1980 AD، ص 674.

(4) استمرت هذه القنوات دون أن يطرأ عليها تغيرات كبيرة حتى تم إنجاز قنوات تزويد دمشق بماء الشرب من عين الفيحة عام 1928م.

أو بالزوث أو بالقش - البخار والماء الساخن ليرسل عن طريق شبكة من الأنابيب إلى أحواض رخامية مختلفة موزعة في القاعات وخاصة في المقصورات، ويجري تفريغ الدخان عن طريق مسلك يمر تحت أرضية الغرف الحارة، ثم عبر مدخنة بين القاعتين الباردة والدافئة يبلغ ارتفاعها من خمسة إلى ستة أمتار فوق السطح.

ولما كان الاحتفاظ بالحرارة أمراً جوهرياً، فقد جعلت جدران الحمام ثخينة، وعدد الفتحات فيها قليلة جداً. ينير قاعة خلج الثياب طوال الوقت تقريباً فانوس معلق في أعلى القبة، وأحياناً نوافذ منخفضة في الواجهة. في حين لا ترى القاعات المدفأة النور إلا بواسطة أقراص من الزجاج الثخين ترصع القناطر أو مثبتة في أطراف أنابيب من الفخار التي تعبر البناء على نحو ظاهر للعيان. وتبنى الجدران - التي تبلغ ثخانتها نحو متر واحد - من الدبش (حجارة المقلع)، وتبنى القناطر - التي تبلغ ثخانتها وسطياً اثنين وعشرين سنتيمتراً - من الآجر المسطح، بأطراف متتابعة تصل إلى ثلث ارتفاعها، ويتقوس دائري فيما بعد يكسو كل الجدران الداخلية، ما عدا جدران قاعة خلج الثياب حين تكون حجارتها مرئية، طبقة من الجص والكلس. وتختصر الزخرفة عموماً - وهي بسيطة دائماً - إلى مقرنصات تحقق الوصل بين القناطر والسطوح المضلعة، والمربعة والمستطيلة والمثمنة وذات الاثني عشر ضلعاً في مختلف القاعات.

على عكس حمامات الحمة الرومانية حيث الاختلاط هو القاعدة حتى عصر أردبان على الأقل، فإن الحمام إذا لم يكن مخصصاً لأحد الجنسين، فهو محجوز وفقاً للأيام أو الساعات للزبائن الرجال أو النساء. ويتطلب تشغيله عدداً كبيراً من العاملين: إضافة إلى مدير الحمام الذي يقع مكتبه في قاعة تغيير الملابس، بالقرب من المدخل عموماً، هناك رئيس غرفة المرجل، والمتكفل بتزويد الموقد (الإقميم) بالوقود، والعديد من الخدم، والمدلكون خاصة، والخبراء بفن طقطقة العظام واسترخاء الأجسام، وآخرون خبراء بالحجامة، وأحياناً حلاقون ماهرون بقص الشعر وصباغة اللحى وتشذيبها وحلق وتلميع وتعطير الرؤوس.

يعد حمام "البرورية" من أقدم حمامات دمشق التي مازالت تعمل حتى اليوم. وبرغم التعديلات التي أجريت عليه في زمن العثمانيين، فإنه ترميمه كان ممكناً وفقاً لمخططة الأصلي بفضل القباب التي حافظت على وضعها الأصلي. البناء متمركز حول القاعة الدافئة، ذات القاعدة المثمنة والمسقوفة بقبة، تقوم على رقبة بستة عشر ضلعاً مزينة بتخريبات سطحية. توجد في الجانبين الشمالي

والجنوبي قاعتان جانبيتان متطاولتان غطت كلاً منهما قُبتان، كما غطت القاعة الحارة المستطيلة قنطرة نصف أسطوانية تنتهي عند طرفيها بربعي كرتين. في حين تؤدي القاعة الباردة المربعة والمسقوفة بقبة ملساء إلى قاعة صغيرة مرتفعة مغطاة بقبة مضلعة تستخدم غالباً للاستراحة.

كانت الحمامات مباني تعتمد اعتماداً مميّزاً الماء وشبكة توزيعه. لذا تعد دمشق الأولى بين مدن العالم الإسلامي فيما يتعلق بالحمامات. إذ يُكوّن نهر بردى والأنهر الستة المتفرعة منه، يزيد وتورا وبانياس والقنوت والدراي والمزاوي⁽¹⁾ - وهي الأخرى متفرعة فروعاً لا نهاية لها - شبكة واسعة بارعة، للتزويد بالماء وللري، وهي تجلب الماء بفضل الثقالة الأرضية فقط إلى بساتين الغوطة ومنازل المدينة في مساحة طولها خمسة وعشرون كيلومتراً وعرضها خمسة عشر كيلومتراً. أحصى ابن عساكر القنوت فوجدها تسع عشرة قناة خارج أسوار المدينة، ومئة وثلاثين داخلها، سميت جميعاً بأسماء عجيبة: قنوات الخيار وقنوت سوق اللؤلؤ وغيرها، كما تُخصّص لبعضها أوقاف⁽²⁾. يزود الأحياء الشمالية بالماء نهر بانياس الذي يدخل المدينة عن طريق القلعة، ثم تزود قناة متفرعة منه المسجد الكبير بالماء وكذلك أحياء باب البريد وباب جيرون وباب الجنين قبل أن تخرج إلى باب توما. في حين تزود الأحياء الجنوبية بالماء أربعون قناة متفرعة من نهر القنوت الذي كان منذ العصر الروماني يقتضي أثر الشارع المستقيم (السوق الطويل). وتعبّر القناة الجامعة لمياه الصرف المدينة من جهة إلى أخرى. يبدو أن التجديد الوحيد الذي قام به نور الدين في هذا النظام، والذي لم تطرأ عليه أية تعديلات منذ الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، هو إيصال المياه الجارية إلى العديد من بيوت الخلاء العامة. كانت خدمة الماء، التي كانت تحت رقابة عاملين محلفين عمومية وبلا مقابل، مِيزةً افتخر بها ابن عساكر قائلاً: "يدخل الماء إلى المدينة بقنوت ليستخدمه الناس في المصلحة العامة. كان الماء يوزع على الأحواض والحمامات ويجري في الشوارع والنوافير. إنه حقاً من الميزات والنعم التي تتميز بها هذه المدينة، لأنه لا يُحصل عادة على الماء في معظم البلدان إلاً بالمقابل، وبفضل هذا الماء يعيش الناس وتُزال الأوساخ"⁽³⁾. وعجز ابن جبير عن إيجاد الكلمات التي تفي بالغرض لمدح مياه دمشق فقال: "ضجرت أرضها من غزارة مياهها، حتى إنها تحلم بالعطش؛ فالأحجار القاسية مستعدة لتقول لك:

(1) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 267.

(2) في الموضوع نفسه، ص 255.

(3) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 301.

"اضربني برجلك لأصبح مكاناً للوضوء المنعش ولأروي عطشك"⁽¹⁾ ويضيف: "ليست المدينة كلها إلاً مناهل. فمن النادر أن يخلو شارع أو سوق من منهل"⁽²⁾.

بفضل النظام الصارم الذي أقامه نور الدين والأمن المسترجع في المدينة أو على طرق القوافل، استعاد النشاط الاقتصادي مستوى لم يعرفه منذ عدة قرون. كتب حاخام إسبانيا بنجمن دوتدل أثناء إقامته فيها عام 1173م قائلاً: "تجذب البلد (دمشق) إليها الناس من جميع البلدان الأخرى في العالم بفضل الأعمال التي تجري فيها"⁽³⁾. فيها نشاط لم يزعه وجود الدول اللاتينية ولا الحروب. بل على العكس، هنا كما في أماكن أخرى وكما هو الحال دائماً، يتغلب جاذب الربح المادي على كل الفضائل الأخلاقية، وهذا ما كتب عنه ابن جبير بلهجة يشوبها الإنكار الصريح والسخرية اللطيفة: "لم يتوقف ذهاب وإياب القوافل من مصر إلى دمشق في الأراضي النصرانية أكثر من توقف قوافل المسلمين من دمشق إلى عكا. ولم يلق القبض على أي من التجار النصارى ولم يتعرض لهم. كان النصارى يجبرون المسلمين على دفع ضريبة في أراضيهم، فيدفعونها راضين. وبدورهم كان التجار النصارى يدفعون ضريبة في أراضي المسلمين على بضائعهم. كان التفاهم بينهم تاماً والإنصاف معمولاً به في كل الظروف. فرجال الحرب مشغولون بحربهم، والناس يعيشون في سلام، وخيرات هذا العالم تنتهي إلى المنتصر. هذا ما كان من سلوك الناس في هذا البلد أثناء حربهم. وكان هو نفسه أثناء الصراع الداخلي بين الأمراء المسلمين وملوكهم، إنه لا يصل إلى الشعب ولا إلى التجار. لا ينقصهم الأمن في حال من الأحوال، سلام أو حرب. الوضع في هذا البلد عجيب فيما يتعلق بهذا الأمر لدرجة أن الكلمات تعجز عن التعبير عنه"⁽⁴⁾. وكانت معظم التبادلات البحرية مع أوروبا في أيدي الجمهوريات الإيطالية، وكان أول قنصل أوربي في سورية من مدينة جنوة، الذي استقر في منتصف القرن الثاني عشر في مدينة عكا عندما كانت تابعة للمملكة اللاتينية في بيت المقدس.

إن معظم الأسواق - التي أجرى عليها نور الدين تحسينات ملموسة، وذلك برصف بعض شوارعها - نمت وكبرت في موقع المراكز التجارية في العصر الروماني "La Via Recta" الشارع

(1) في الموضع نفسه، الجزء 6، ص 315.

(2) Benjami de Tudèle, Voyage du célèbre Benjamin de Tudèle..., La Haye, Neaulme, 1735 AD p29.

(3) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 326.

(4) في الموضع نفسه، ص 336.

المستقيم الذي يصل معبد جوبيتر بالأغورا "الساحة العامة"، حيث استمر سوق الأحد حتى القرن الثاني عشر. يروي ابن جبير أن هذه الأسواق كانت تعد "من أكبرها في العالم"، ومن أكثرها تنظيماً وجمالاً وأفضلها موقعاً⁽¹⁾. أكثر هذه الأسواق روعة هو السوق الذي كانت مجموعة أزقته تشغل موقع الشارع المستقيم القديم، إنه "السوق الكبير الذي كان يمتد من باب الجابية إلى الباب الشرقي، وتوجد فيه صفوف من الحوانيت لكل حرفة"⁽²⁾. كانت التجارة كالحرف المهنية تجمعها هيئات، زوّدت كل واحدة منها عموماً بمسجد خاص بها وحمام، والقائمة التي تركها لنا ابن عساكر عنها مثيرة⁽³⁾. هناك في منتصف الشارع المستقيم وفي موقع الكنيسة القديمة توجد دار البطيخ، وهو سوق للفاكهة بنافورة ومسجد، فيه تباع كل منتجات الحقول وبساتين الغوطة، وبالقرب منه يوجد سوق الصرافة وسوق الخُصَر، وسوق النسيج وسوق الصوف المغزول، وسوق الجواهر وسوق العصافير وسوق الأقمشة وسوق اللبّاد، وسوق الحرير والقطن والديباج. ويوجد في الزاوية الجنوبية الغربية للأغورا القديمة سوق القناديل، وهو بناء كبير مغلق ومُضاء، كانت تباع فيه السلع الثمينة وكل الأشياء النادرة والنفيسة والأقمشة المطرزة. وفي جنوب المسجد الكبير، كان سوق البزورية المحاط بالمخازن سوقاً لتجارة الحبوب القادمة من الجزيرة السورية ومنطقة حمص وسهل البقاع وحموران، وتشتمل على قمح وشعير وأرز وسمسم. وفي الجهة الثانية للشارع المستقيم، يوجد سوق الطحين بطاحونة يشغلها ماء نهر قُليط، وهو فرع من بانياس، وفي خارج المدينة وليس بعيداً عن الباب الصغير، سوق الخرفان والماعز والدواب.

إضافة إلى الحوانيت المترصة على طول الأزقة، كان تحت تصرف التجار والحرفيين أبنية خاصة بهم: القيساريات والفنادق. كانت القيسارية - وهي ورشة "السوق الملكي" والمجاورة للأغورا في العالم الإغريقي - بناءً مستطيلاً مخصصاً عموماً للبضائع الثمينة والمصوغات والحرير والسجاد وغيره، يقوم حول فناء مكشوف، وله رواق في الطابق الأرضي، وقاعة عرض في الطابق الأول تحتوي على ورشات عمل ومخازن للبضائع ودكاكين وبعض المساكن. أثارَت قيسريات دمشق

(1) في الموضوع نفسه، ص 336.

(2) من أجل معرفة أماكن هذه النشاطات بالتحديد (على الخريطة) انظر إلى Elisséff, N., هيئات دمشق أثناء حكم نور الدين "Corporations de Damas sous Nur al-din, Arabica"، الجزء 3، 1956م.

(3) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 336.

فضول ابن جبير الذي كتب عنها قائلاً: "إنها عالية جداً حتى إنها تشبه الفنادق، تُغلق كلها بأبواب حديدية شبيهة بأبواب القصور (...)"، كل قيسارية مستقلة بنفسها، ولها هندسة معمارية خاصة بها وسياج من الحديد"⁽¹⁾. أصبح الفندق الذي كان يدل معناه على نُزُل في العصر الأموي، منشأة تجارية شبيهة جداً بالقيصرية، إلا أنه مخصص في الدرجة الأولى لتخزين البضائع، ولا يحتوي على ورشات أو متاجر. وكان الفندق، إذا صدقنا ابن جبير القول، أعلى من القيسارية عموماً. وفي دمشق أيضاً في شمال الشارع المستقيم دار الوكالة التي ذكرها ابن عساكر دون أن يوضح مهمتها، ولكنها كانت على الأغلب نوعاً من المؤسسات الجمركية، حيث يقدر موظف الضرائب ضريبة البضائع المصدرة أو المستوردة⁽²⁾. إضافة إلى قيسارية القَوَّاسين التي أسست في العصر السلجوقي، تذكر لنا النصوص اثنتين وعشرين قيسارية أو فندقاً يعود تأسيسها إلى عهد نور الدين. نذكر منها: فندق الزيت وفندق البيع وفنادق الخشب وفندق الراهب وقيصريات الوزير والقَصْع والفُرْش والفراء.

كانت الصناعة نشيطة جداً ومتنوعة كثيراً. ففي داخل المدينة المسورة كانت هناك مسبكة ومعمل لصناعة الزجاج ومعصرتان واحدة للزيت والأخرى للمسسم، وفي خارج المدينة قامت الصناعات المضارة: فعلى ضفاف نهر بردى، كانت هناك منشرة وعديد من الطواحين، وعلى الأنهار المتفرعة منه، بين باب السلام وباب توما، معامل الصباغة والدباغة. أما صناعة الورق - التي أتت من الصين في القرن التاسع عبر سمرقند وبغداد وظهرت في دمشق - فكانت كلها متمركزة على طول نهر بردى.

كان الحرفيون والتجار يَكُونون جمعيات مهنية، ولكنها محرومة من استقلالها عن السلطة السياسية إذا ما قرنت بالاتحادات الأوروبية. منها جمعيات تجار التوابل والإبر (والمسلات) والسكر والخشب والكتان والقطن والقرب والبلح والتمر والحبوب والسَّمْن؛ وجمعيات أصحاب الحرف، مثل صانع الجلال، الحدَّاء، الإسكاف، الدبَّاغ، مجهز الجلود بعد دبغها، الجلاد (بائع الجلود)، الحبال، الحدَّاد، صانع الأدوات الحديدية الزراعية، صانع المساليف (المِسْلَفَة: آلة تَسَوِي بها الأرض للزراعة)، السلال، الجزار، المطرز، القباني، النِّحَّاس، النقاش، النِّحَّات، القصار، الصباغ، صانع الإطارات، الصَّفَّار (صانع النحاس الأصفر)، السكاكيني، السُّرُوجي، البرداعي، السَّقَطِي (بائع الملابس

(1) مع الوقت أصبحت كلمتا الفندق والقيصرية اللتين كانتا تستخدمان للدلالة على أمرين مختلفين، تبعاً للعصر أو المنطقة، كلمتين مترادفتين في سوربة خاصة، حيث حل محلها كلمة خان الفارسية الأصل والتي تعني "منزل".

(2) في العصر العثماني حلت في مصر كلمة الوكالة محل الكلمتين "خان وفندق".

المستعملة)، السقاء، الطاهي، الشواء، صاحب مطعم يوصل الطعام إلى البيوت، الصناديقي، الحجام، فارز العملة المغشوشة، حفار القبور ودفان الموتى (أصحاب الحرفة الأخيرة مجتمعون في حي قريب من "الباب الصغير")، وشتى الصناعات الأخرى، مثل: صانعي الأطباق من القش المصفور، صانعي الأسفاط والقفف، صانعي الغرابيل والأقمشة من وبر الحيوانات، والقلانس، وخاصة تلك التي لها شكل قالب السكر (المخروطي) وتوضع تحت العمام.

كان يدير كل مؤسسة تجارية شخص يسمى الرئيس يقضي بين الآخرين ويساعده مندوب تجاري وسكرتيران. تتوقف صلاحياته، غير المحددة بدقة، على شخصيته وعلى الظروف السياسية. من مهامه ضمان أدبيات المهنة وحماية الأموال والأفراد والحسابات، ومن الممكن أن يفرض النزاع بين التجار ويكشف على البضائع ويراقب تنظيم الأعمال العامة. يقوم هذا الرئيس في الأوقات التي تضعف فيها السلطة المركزية بمهام الشرطة، وقد يساهم أحياناً في عمليات السطو مترسلاً ميليشياته "الأحداث". كان الذين يجتذبهم من طبقة من السكان يسميها المؤرخون "الصعاليك".

لما جاء نور الدين، صارت المحافظة على النظام تقوم بها الشرطة - المتحدرة من الجيش والتي كان رئيسها "صاحب الشرطة" تابعاً مباشراً للحاكم العسكري - فقدت مهمة الرئيس أهميتها لمصلحة الحسبة، وهي هيئة الحكم المدنية الحقيقية الوحيدة في الإسلام. كان المحتسب، وهو شخصية رئيسية في المدينة الإسلامية، مكلفاً - طبقاً للشرعية - بدور غير واضح المعالم وهو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". تعين المحتسب السلطة المركزية - بسبب الأهمية الممنوحة لمهامه - ويجري عادة اختياره من بين الفقهاء "رجال القانون"، الذين تعلموا في "المدارس". وكان مكلفاً بالتعاون مع القاضي والشرطة في الرقابة ومراقبة أخلاقيات العامة والعمل على تطبيق التعاليم الدينية، كما كان يفتش الأسواق ويسهر على حسن سير الأعمال التجارية، ويعمل بدلاً من الرئيس على تحديد ظروف ممارسة بعض المهن، والسهر على احترام الأنظمة المدنية، ويشرف على تزويد المدينة بالمؤونة وعلى نظافة الشوارع وعلى مكتب دفن الموتى، إلخ...

كان يهيمن على الهرم الاجتماعي الدمشقي في زمن نور الدين أفراد الحكومة و"الأرستقراطية العسكرية" المكونة في الدرجة الأولى من الأتراك والأكراد. يليهم مباشرة مجموعة من المسلمين المتميزين، وهم نسل النبي (ﷺ) من ولدَيْ عليّ الملقبون بالأشراف، ثم يأتي دور "الطبقة المتوسطة" المكونة من كبار التجار وكبار الملاكين وكبار الموظفين والأطباء والتجار الرئيسيين في الاتحادات الغنية:

من الصاغة وتجار الذهب والصرافين وتجار العطور. إن رواج المذهب السني اقتضى وجود فئة من الناس لم تتوقف عن كسب الأهمية، وهي فئة رجال الدين ذوي العمامات المنصّون تحت اسم العلماء - أي العارفون بعلوم الدين - ومنهم الفقهاء والقضاة والمفتّون و"شهود العقود" والمحدثون الذين يعملون على جمع سيرة النبي (ﷺ)، الجميع يساهم - كل على طريقته - في تطبيق القانون الإلهي. وكلهم يأنف الفكر الناقد والمنطق وحرية التفكير، ويتمتعون بحظوة عظيمة عند الناس. ولما كانوا مسؤولين عن التزام المجتمع والسلطة بالإسلام، كانوا غالباً - شاؤوا أم أبوا - تابعين مجاملين للسلطة أكثر من كونهم ممثلين ومدافعين عن عامة الناس. ثم تأتي طبقة الشعب من الحرفيين وصغار التجار والعمال، وأخيراً، في أسفل الهرم نجد طبقة اللصوص تحت أسماء متنوعة من الأَخِساء واللصوص والمفسدين وقطاع الطرق والعاطلين عن العمل، تحركهم جميعاً سلطات متنوعة، وكلهم يستحقون الضرب بالعصا أو الشق عند القبض عليهم بالجرم المشهود. وكان حول المدينة فلاحو الغوطة الذين يأتون كل صباح - حتى اليوم - يبيعون منتجاتهم في الأسواق. وإلى جانب السكان المسلمين، كان أهل الذمة من النصارى واليهود، الذين لم تكن سياسة نور الدين الدينية الضيقة في مصلحتهم، يرأسهم ممثل لهم، بطريك أو حاخام، مكلف بعرض شؤونهم على الأمير. استمر أهل الذمة كما كان عليه الأمر في زمن الفاطميين في التجمع في الجزء الشرقي من المدينة، اليهود في جنوب الشارع المستقيم La Via Recta، والنصارى في شماله، وهذا ما يؤكد تركز المباني الدينية التي بناها نور الدين في الجزء الغربي من المدينة بالقرب من المسجد الكبير. يروي الحاخام الاسباني بنجامين دو تُيدل - الذي جال في المشرق لزيارة معابد اليهود وإحصاء عدد إخوته في الدين - أن دمشق كان فيها عام 1173م نحو ثلاثة آلاف يهودي منهم من "كان يعمل جاهداً لدراسة الحكمة ومن كان فاحش الغنى"⁽¹⁾.

(1) Benjamin de Tudèle، المرجع نفسه، ص 28. لم يكن عدد اليهود في منتصف القرن الثاني عشر في سورية كبيراً. كان عددهم في صيدا عشرين (ص 16) وفي صور خمسمئة تقريباً (ص 17)، لم يكن هناك يهودي واحد في نابلس (ص 18)، وفي عسقلان مئتين (ص 25)، وفي طبرية خمسين (ص 26)، وفي حلب ألفاً وخمسمئة (ص 29). كانت مهتهم الأكثر ذكراً في النصوص هي الصباغة. ولقد كان يهود دمشق أكثر غنى من يهود باقي المدن. والجدير بالملاحظة أن الحاخام Petachia de Ratisbonne، أحصى في دمشق أثناء مروره بها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر عشرة آلاف يهودي، وهذا الرقم مبالغ فيه على الأغلب Cf. Travels of rabbi Petachia de Ratisbonne...، لندن، 1856م، ص 53.

كان من مهام إدارة المملكة الرئيسية تحصيل الضرائب: الجزية من أهل الذمة، والزكاة من المسلمين، والخراج من الممتلكات العقارية، إضافة إلى بعض الجبايات العرضية من إتاوات وهدايا وغرامات ومصادرات، ونُحُس غنائم الحرب، وأموال من لا وُزَّات له وغيرها⁽¹⁾. يضاف إلى هذه العائدات التي كان القانون الإسلامي يعتبرها شرعية، سلسلة من الرسوم "غير الشرعية"، وهي "المكوس"، وهي ابتكار مستنكر لم يرض الناس عنه، وإن قُرِرت بفتوى متساهلة أصدرها المفتون، إلا أنها كانت تلغى من وقت لآخر حرصاً من بعض الأمراء على شعبيتهم في بداية حكمهم خاصة. حين ذاك ينقش نص قانون إلغاء هذه الرسوم - نادراً ما يترتب عليه أي تطبيق - على حجر بالقرب من المكان الذي توجد فيه فئة السكان المعنيين بهذه الرسوم. وهكذا في شهر آب - أيلول عام 1156م، أمر نور الدين "بالغاء الضريبة المعمولة على التجار المسافرين إلى العراق، والتجار القادمين منها إلى دمشق (...). إكراماً منه لرعاياه وتعبيراً عن عطفه عليهم ورأفته بهم، وإرضاء الله تعالى (...)"⁽²⁾، وعلق نصّ المرسوم فوق "الباب الصغير".

كانت الإدارة تحت سلطة الوزير الذي كان راتبه يعادل عشرة في المئة من عائدات الدولة. وكان الحاجب، وهو في الأصل المسؤول عن الاحتفالات الرسمية، يقوم عادة بمهام وزير الداخلية، ومن الممكن أحياناً أن يقوم بمهام وزير أو سفير. وفي المدن الكبيرة يُعيّن نائب على رأس الحامية يُحوّل مقابل السلطة المدنية - السلطة العسكرية - من مهامه الحفاظ على النظام، ومساعدة الجابي - عند الاقتضاء - على تحصيل الضرائب. استطاعت السلطة المركزية بفضل تحسين وسائل الاتصال تنمية نفوذها. وكان يدير العلاقات بين الأجزاء المختلفة في المملكة ديوان الرسائل، "مكتب المراسلات"، المكلف بالعلاقات مع حكام المقاطعات. يستخدم هذا البريد الرسمي الحثام - وهو نظام استخدمه السلاجقة في المناسبات - لتسريع نقل الأخبار المستعجلة. إضافة إلى هذا البريد كان هناك معتمدون خاصون يتكثرون بهيئة تجار أو مسافرين أو صوفيين، ويتمتعون برواتب مرتفعة تجعلهم في منأى عن كل فساد إداري يجوبون أرجاء المملكة ويراقبون موظفي الأقاليم.

(1) ذكر الحاخام Petachia أثناء مروره بشمال العراق في القرن الثاني عشر: "أنه من العادة هناك عندما يموت مسافر يهودي أن يستملك السلطان نصف أمواله". وإذا لم يكن هذا الأمر معمولاً به في ذلك الوقت، فإنه أصبح فيما بعد يطبق على كل المسافرين من كل الديانات، وحتى على المسلمين منهم.

(2) Sauvaget, J., Quatre décrets Saljoukides, PIFD, R.C.E.A.p 8-11, VOL. 9 No.3216

في ظل حكم نور الدين، بدت دمشق المدينة الأولى وأكثر مدن سورية ازدهاراً، "عاصمة بكل معنى الكلمة"، كما وصفها جان دو فرزبرغ⁽¹⁾. كتب بنجامين دو تدل: "إنها مدينة كبيرة وجميلة جداً، ومحاطة بسور؛ الريف التابع لها تشغله البساتين، وتوجد أماكن أخرى مُبهجة، يقال إنها تمتد حتى خمسة عشر ميلاً تقريباً. يستحيل أن تجد على وجه الأرض مدينة أغنى بكل أنواع الفاكهة من دمشق، إذ يُحيطها نهران "إبانا" و"فرفر" النازلان من جبل حرمون (كذا)"⁽²⁾. ويدّعي هذا الخاخام أن المسجد الكبير - الذي يعتبره "معبداً للإسماعيليين"⁽³⁾ والذي يؤكد الدمشقيون - كما يقول - كان "قصرأ ملكياً لابن حدد فيما مضى"⁽⁴⁾ - "لا مثيل له في كل المعمورة"⁽⁵⁾. كانت مساحة المدينة تقارب مئة وعشرين هكتاراً. كتب ابن جبير: "إنها ليست كبيرة جداً ولكنها ممتدة طويلاً. شوارعها ضيقة وقليلة الضوء"⁽⁶⁾، وبيوتها مبنية من الطين والقصب، طبقات من الطين والقصب متناوبة (...)، تتكون البيوت كلها من ثلاثة طوابق، وبهذا تشتمل المدينة على سكان يملؤون ثلاث مدن. إنها أكثر المدن سكاناً في العالم. جمالها داخلي لا خارجي"⁽⁷⁾. شجع الأمان المسترجع ووصول عناصر جديدة وافدة بأعداد كبيرة على توسع الضواحي. ففي شمال غرب المدينة، في أسفل جبل قاسيون، بين نهر يزيد ونهر تورا، وحول الخانقاه التي أسسها أحمد بن قدامة، نما تجمّع متدين مميز دعي باسم الصالحية نسبة لمؤسسه الذين كانوا "رجال مسجد أبي صالح"⁽⁸⁾.

عند موت نور الدين آل الإراث الكبير من ممتلكاته الواسعة الممتدة من دجلة إلى النيل ومن ديار بكر إلى اليمن إلى ابنه الملك الصالح إسماعيل الذي اعترف به الأمراء ووجهاء دمشق ملكاً. لم

(1) Würzburg, J. (1) "Description of the Holy Land", PPTS، المجلد 5، ص 64.

(2) Benjamin de Tudèle، مرجع سابق، ص 27. لم يتذكر هذا المسافر من أنهار دمشق إلا المذكورة في التوراة (2 الملوك 11، 5).

وهذا أمر لا يدهش البتة، لأنه صادر عن حاخام.

(3) في الموضع نفسه، ص 27.

(4) في الموضع نفسه، ص 27.

(5) في الموضع نفسه، ص 27.

(6) ذكر هذا أيضاً المقدسي قبل قرنين.

(7) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 328.

(8) انظر المرجع في الأعلى، P et Pouzet، دمشق في القرن السابع/ الثالث عشر، حياة وهيئات دينية في العاصمة الإسلامية،

Damas au VIIe/XIIIe s. Vie et structures religieuses dans une métropole islamique، p82. 1991

يكديكُم الحادية عشرة من عمره، لذا وضع تحت وصاية الأمير ابن المقدّم الذي تسلّم قيادة الجيش. لم يمنع انتقال السلطة الذي جرى بلا عنف التفكك المعتاد الذي يتبع في أغلب الأحيان سقوط سلطة قوية. استغل سيف الدين غازي - ابن أخي نور الدين وأمير الموصل، الذي كان يتهيأ للذهاب إلى سورية على رأس جيش قوي ليلتحق بالحملة التي كان يعدّها عمه لمواجهة صلاح الدين - الوضع وضم إليه ضفة الفرات اليسرى كلها. وفي حلب تحرك الشيعة، بيد أن الأمير كمشتكين، قائد قلعة الموصل سابقاً، استطاع في النهاية السيطرة على الوضع باسم إسماعيل الشاب فارضاً نفسه حامياً له، ثم تمكن من إحضاره إلى حلب في نهاية تموز 1174م. أما الفرنجة، فقد هاجموا من جهتهم بانياس وهددوا دمشق، إلّا أن ابن المقدّم فاوضهم ودفع الجزية وحصل على الهدنة. أمام هذه الفوضى التي لم تتوقف عن التفاقم، جاء وقت صلاح الدين، والي مصر القوي والطموح. لعب صلاح الدين ورقة استمرارية وشرعية الزنكيين، وفرض نفسه هو الآخر حامياً لإسماعيل، واستجاب لرّجاء أمراء دمشق القلقين من طموحات كمشتكين غير الخافية. وفي 28 تشرين الأول، دخل صلاح الدين المدينة وسط حشد متحمس يردد على أسماع من يستطيع السمع بأنه ليس إلّا تابعاً لإسماعيل، وبدأ بإلغاء كل الضرائب غير الشرعية التي فرضت على الناس عقب موت نور الدين. ووجدت سورية نفسها مرة ثانية مجزأة إلى جزأين، الشمال تحت السيطرة الزنكية والجنوب تحت سيطرة صلاح الدين. وكان اللجوء إلى السلاح أمراً حتمياً، ففي تشرين الثاني، بعد أن عهد صلاح الدين في حكم دمشق إلى أخيه طغتكين ليحل محل ابن المقدّم الذي عين في بعلبك، زحف إلى شمال سورية. وفي 9 كانون الأول استولى على حمص، وفي 28 دخل حماة التي فتحت له أبوابها، وفي 30 حاصر حلب، ولكن تدخل ريموند الثالث صاحب طرابلس استجابةً لنداء الزنكيين، أجبره على التراجع إلى دمشق. ولما فشلت سياسته في "حماية" إسماعيل أمام مقاومة الزنكيين، اتجه صلاح الدين إلى بغداد وطلب من الخليفة المستضيء (1170 - 1180م) أن ينصبه رسمياً ويعترف له بالسلطة على مصر واليمن وسورية، وأيضاً على كل الأراضي التي سيفتحها عليها مستقبلاً، وكل هذا طبعاً لمصلحة الخلافة. وفي 13 نيسان 1175م، بفضل الدعم الذي وصل من مصر في الوقت المناسب، انتصر صلاح الدين قرب حماة على القوات المتحالفة الخلبية والموصلية. وفي 6 أيار عينه الخليفة رسمياً، كما طلب، على مصر وسورية، وأصبح منذ ذلك الوقت يُذكر في الخطبة، وسُكَّت النقود باسمه: الملك الناصر يوسف بن أيوب. إلّا أن هذا لم يمنع الحروب من الاستمرار. ففي 22 نيسان

1176م، في تل السلطان، على بعد عشرين كيلومتراً جنوب حلب، انتصر صلاح الدين بفضل تفوق فرسانه انتصاراً ساحقاً على القوات الزنكية. وبعد هدنة قصيرة، احتل صلاح الدين بزاعه ومنبج، قاطعاً بذلك الاتصالات المباشرة بين حلب والموصل، وقام بحملة على قصر مصياف، معقل سنان رئيس طائفة الحشاشين الذين عقد معهم معاهدة في النهاية. أذن صلاح الدين لجيوشه بالانصراف، وفي 25 آب عاد إلى دمشق حيث تزوج زوجته الخامسة، وهي ابنة معين الدين أنر وأرملة نور الدين، مؤكداً عن طريق الزواج طموحه إلى إرث الأمير المتوفى.

في الخريف، بعد أن ترك صلاح الدين سورية تحت سلطة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه، عاد إلى مصر حيث عمل على تعزيز أسس سلطته، وذلك بترميم أسوار القاهرة وبناء القلعة وتحسين وضع البحرية، التي أصبحت قوية في بداية 1179م ومكونة من ستين سفينة شراعية حربية وعشرين سفينة نقل، وأنشأ ديوان الأسطول، وهو ضرب من الوزارة البحرية، وقوى الجيش المكون أساساً من الأتراك والأكراد والتركمان إضافة إلى عرب البدو ووحدات المماليك الذين كانوا بالأصل عبيداً اشتراهم الأمراء من عائدات إقطاعاتهم.

في تموز 1182م، هاجمت القوات الأيوبية بيروت تدعمها البحرية بعد أن نادى بجهاد الدول اللاتينية. ثم تحول صلاح الدين، أمام مقاومة بيروت، إلى مواجهة منافسيه من المسلمين في شمال سورية، واحتل على التوالي سنجار وعמיד، وأخيراً حلب، حيث في 11 حزيران 1183م، بعد ثمانين سنوات تقريباً من الجهاد، رفر لواء الأيوبيين الأصفر فوق قلعة حلب. وبرغم إخفاق صلاح الدين أمام الموصل، اتحدت سورية كلها تحت سلطته الوحيدة. ووجدت الممالك الفرنجية نفسها من جديد في وجه منافس واحد على كل حدودها الأرضية. وازدادت قوة الجيش المجاهد خصوصاً بعد اتفاقية وقعت في أيار 1186م، وضع بناء عليها عز الدين، عاهل الموصل الزنكي، قواته تحت تصرف صلاح الدين. وفي نهاية آذار 1187م اخترق صلاح الدين "الجليل" على رأس جيش من اثني عشر ألف فارس، وحاصر طبرية. وحد الفرنجة قواتهم بعد أن نجحوا في تجاوز خلافاتهم، إلا أنهم أصيبوا بهزيمة ساحقة في 4 تموز في حطين في غرب المدينة. ودُمرت قوات الداوية والاستبارية بلا رحمة، ووجد ملك القدس الجديد غي دو لُزنيان Guy de Lusignan وكبير الكهنة جيرار دو ريدفورت Gérard de Ridefort نفسيهما بين الأسرى، ولقي رينو دو شاتيون Renaud de Châtillon حظه على يد صلاح الدين، ووقعت تلك القطعة الخشبية التي كان يظنها المؤمنون النصاري "الصليب

الحقيقي" في أيدي المسلمين، وانهارت قوة الفرنجة، وانفتح الطريق إلى فلسطين أمام القوات المسلمة فاستغلت تفوقها دون تردد. في اليوم التالي لمعركة حطين، احتُلت طبرية، ثم جاء دور عكا والناصرة وقيسارية ونابلس وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان التي سلمت مقابل إطلاق سراح Guy de Lusignan. زحف صلاح الدين إلى القدس بعد أن أهمل مهاجمة صور حيث كان يحتمي عديدٌ من الفرنجة، فاستسلمت له في 2 تشرين الأول 1187م، بعد اثني عشر يوماً من الحصار. كتب الأصفهاني أمين سر صلاح الدين الخاص وشاهد عيان: "حمل الفرنجة معهم الأشياء الثمينة بعد أن تركوا كل ما هو ثقیل، وتخلوا عن إرثهم وكنيسة القيامة، وهاجر معظمهم إلى صور فزادوا الليل ظلمة بما أثاروه من غبار، وبقي منهم نحو خمسة عشر ألفاً لم يدفعوا الغرامة المفروضة مقابل مغادرتهم، فصاروا عبيداً: اعتاد الرجال، الذين بلغ عددهم تقريباً سبعة آلاف، العبودية التي لم يكونوا ألفوها، ووزعوا على أسيادهم فتفرقوا هنا وهناك"⁽¹⁾.

وعاد صلاح الدين أدراجه إلى دمشق عندما فشل في استخلاص صور التي حاصرها في بداية تشرين الثاني. كانت دمشق، كما يذكر ابن شداد: "تعجبه بوجه خاص ويفضلها على باقي المدن"⁽²⁾. وبناء على شهادة الأصفهاني، الذي لا شيء يثنيه عن تعظيم بطله، "استقبله الدمشقيون بوجوه مستبشرة فرحين بقدمه، وبألسنة تبتهل إلى الله داعية له، وبأعين منبهة بجلاله وقلوب مفعمة بحبه (...)"⁽³⁾. واستقبل صلاح الدين سفيراً بيزنطياً يهتئ باستيلائه على بيت المقدس حيث أتى رجال الدين الإغريقيون يحملون محل الرهبان اللاتين، ثم استغل ضعف الدول الفرنجية الناجم عن قلة عدد سكانها، فأصبح يعد الحملات ويستولي على المواقع الحصينة، الواحد تلو الآخر، التي كانت تحمي إمارة أنطاكية منها: مدينتي جبلة واللاذقية والقصور المحصنة في صهيون وبكاس والشجر وبرزية ودر ب ساك وبغراس، ثم في جنوب سورية، الكرك وقلعة صفد وكوكب. وفي بداية عام 1189م كان وضع الدول اللاتينية ميئوساً منه بعد أن تحولت إلى بضع مناطق ساحلية صغيرة محصورة، بلا أراض خلفها تساندها، وإلى بضع قلاع يديرها الداوية والاستبارية مثل: المرقب

(1) عماد الدين الأصفهاني (1125 - 1201م)، فتح صلاح الدين لسورية وفلسطين،

"Conquête de la Syrie et de la Palestine par Aladin", Paris, P. Geuthner, 1972 AD, p 49-50.

(2) ابن شداد في R.H.O.C، الجزء 3، ص 91.

(3) عماد الدين الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 112.

وطرطوس وصافيتا وقلعة الحصن المشهورة. لقد كان الإستيلاء على القدس بعد ثمان وثلاثين سنة من وصول الحملة الصليبية الأولى، ونتائجها المباشرة منعطفاً كبيراً في تاريخ احتلال الفرنجة للساحل السوري، ووصف نيتشه هذه الحروب الصليبية بأنها لم تكن إلا "قرصنة راقية"⁽¹⁾. كانت الضربة قاسية حقاً معنوياً: إذ أصبح قبر المسيح، الذي كانت حجة "تحريره" أساس مبررات حملات الفرنجة، في أيدي مسلمين من الآن فصاعداً.

نادى الأب جريجوري الثامن أمراء الغرب إلى إعداد حملة صليبية أخرى، لإعادة فتح هذا الأثر المقدس، ونجدة القلة من الدول اللاتينية التي تبقت. فاستجاب لندائه الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا، وملك فرنسا فيليب أغسطس وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد، وحملوا الصليب يدعمهم المحاربون الإسكندنافيون وتحالف البحرية الإيطالية. وكان أول من سار من أولئك الملوك فردريك بربروسا الذي عبر الأناضول حيث تحمل جيشه خسائر فادحة وغرق هو نفسه في نهر "سالف" في ولاية كيليكيا. في حين سلك ملك فرنسا وملك إنكلترا طريق البحر، فرحل الأول من جنوة والثاني من مرسليليا والتقى في صقيلية ووصلا إلى سورية حين كان الفرنجة يحاصرون عكا منذ ثمانية عشر شهراً. فتضاعف الهجوم على المدينة، وقصفت قصفاً شديداً حتى إن أسوارها تهدمت وأصبحت، كما قال الأصفهاني، "بارتفاع رُجل". وفي 12 تموز 1191م، استسلمت المدينة، وأرجع صلاح الدين هذه المصيبة "لأمر الله العليّ القدير"⁽²⁾. أُذن للحامية وللسكان المسلمين بمغادرة المدينة بعد دفع غرامة كبيرة جداً وتحرير الأسرى النصاري وإعادة "صليب الصليبيات" وأصبحت عكا عاصمة مملكة القدس الجديدة، وآخر معقل لسورية اللاتينية في القرن الثالث عشر⁽³⁾.

(1) Nietzsche, F.، المسيح الدجال، "l'Antéchrist"، باريس 1967 AD، Union générale d'édition، ص 106.

(2) الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 319.

(*) شرع صلاح الدين في جمع المال... فلما اجتمع عنده مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم، فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود ويستحلفهم على إطلاق أصحابه (...). فراسلهم صلاح الدين... فقال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب، فلنا الخيار فيمن عندنا، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر، فلم يرسل إليهم شيئاً، أعاد الرسالة إليهم، وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكهم رهناً على الباقي وتطلقون أصحابنا (...). لما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل، وركب المسلمون إليهم وقصدوهم، وحلوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم، وإذا أكثر من كان من المسلمين قتل قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين =

عوضاً عن الاستفادة من تفوقها بالزحف المباشر على بيت المقدس انقسمت الحملة الصليبية. وعاد فيليب أغسطس إلى فرنسا بحجة سوء صحته، وحرصاً منه في الحقيقة على متابعة تكبير مملكته. في حين تابع ريتشارد قلب الأسد العمليات العسكرية وحده، وبعد أن قتل ببرودة بالرمح والسيف أكثر من ثلاثة آلاف أسير مسلم، قاد جيشه على طول الساحل باتجاه قيسارية، وانتصر في أيلول في أرسوف، ثم احتل يافا حيث قضى جزءاً من الشتاء مع كتائبه، تاركاً خلال هذا الوقت صلاح الدين يجهز نفسه للدفاع عن بيت المقدس. وفي 20 كانون الثاني 1192م، احتل قلب الأسد عسقلان ثم الداروم، فهدد باحتلاله هذا الاتصالات بين سورية ومصر. وبعد تسير عدة حملات فاشلة نحو القدس لجأ قلب الأسد إلى المفاوضات التي انتهت في 2 أيلول 1192م، بعد آخر معركة قرب يافا، بتوقيع هدنة تسمى "صلح الرملة" التي اضطرت صلاح الدين إلى قبولها تحت ضغط جيشه. وجرى الحفاظ على الوضع الراهن وذلك باحترام طرفي النزاع لمواقعهما: إذ بقيت القدس في أيدي المسلمين على أن يسمح للصليبيين الحجاج بزيارتها، في حين أعيدت عسقلان التي هدمت تدعيماتها إلى المسلمين الذين اعترفوا بدورهم للدول اللاتينية بامتلاك الشريط الساحلي من صور إلى يافا. وكان لابد من انتظار قرن كامل حتى يتحقق أخيراً الهدف الذي كان أصبح في متناول الأيدي بعد إعادة فتح القدس، ألا وهو رمي الصليبيين في البحر نهائياً. مع أن الحملة الصليبية الثالثة انتهت بنصف هزيمة للفرنجة إلا أن وضع صلاح الدين لم يكن أفضل البتة. ففي 1191م بسبب الأزمة الاقتصادية التي أدت إليها الحرب عانى صلاح الدين من معارضة زاد من حدتها ارتفاع الضرائب المفروضة في دمشق خاصة، حيث اضطرت صلاح الدين إلى تغيير قاضيه وفي حلب حيث اجتمعت المعارضة حول شيخ من أصل إيراني وهو السهروردي الذي أعدم بعد وقت قصير من فقدان عكا في 29 تموز 1191م.

مكث صلاح الدين بعد توقيع الصلح شهراً في القدس، وفكر في أداء الحج إلى مكة، ولكنه عاد إلى دمشق التي دخلها بعد أربعة أعوام من الغياب وذلك في 4 تشرين الثاني 1192م، واستقر هناك في القلعة وأدار جلسة في المحكمة، "يُعقد الهبات على السائلين" كما كتب الأصفهاني⁽¹⁾. وفي 16 شباط 1193م، سار صلاح الدين للقاء قافلة الحجاج العائدة من الحجاز. وبعد خمسة الأيام وقع

ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له، فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء 10، ص 207.

(1) في الموضوع نفسه، ص 402.

فريسة الحمى، ودخل في غيبوبة بعد مدة قصيرة. فأُسرع أخوه "الملك العادل" - الذي كانت دمشق اقطايعته منذ 1186م وقد اتخذ كل الإجراءات لتكون الخلافة له - ليحصل على مبايعه كل الأمراء السوريين له، وأرسل سفيراً إلى بغداد مع هدايا باهظة الثمن. وفي 3 آذار مات صلاح الدين وعمره خمسة وخمسون عاماً، ودفن عند صلاة العصر في مسكنه في القلعة⁽¹⁾. يذكر بعض المؤرخين أن حامل راية صلاح الدين جاب شوارع المدينة وقد علّق كفن السلطان على سنان رمح وأخذ ينادي: "هذا ما ذهب به صلاح الدين المنتصر على المشرق من فتوحاته"⁽²⁾. وتأكد تقشف وزهد صلاح الدين إذ سجل الأصفهاني كاتب سيرته: لم نجد في خزانته الخاصة إلا ديناراً وستة وثلاثين درهماً⁽³⁾. وترك السلطان المتوفى وراءه سبعة عشر ابناً وابنة واحدة. كتب الطيب عبد اللطيف وهو شاهد عيان للأحداث: "حزن الناس حزناً كبيراً لفقدانه كحزنهم لفقدان نبي"، وأضاف: "إنه، على حسب معرفتي، الملك الوحيد الذي سبب موته حداداً وحزناً"⁽⁴⁾.

وما أن توفي صلاح الدين حتى اندفع أبناؤه الشباب الثلاثة الناقصو الخبرة، الأفضل والعزيز والزاهر - حكم الأول دمشق وفلسطين والثاني مصر والثالث حلب - إلى صراع مستمر بين الإخوة، فاضطروا إلى تحكيم عمهم "العادل" رئيس الأسرة الأيوبية وسيد الجزيرة وبلاد ما بين النهرين العليا وديار بكر. كان "العادل" - الذي كان صلاح الدين يشرّكه في سياسته إشرافاً وثيقاً - بتصرّفه بمهارة في تحالفاته، في طريقه إلى إعادة إنشاء وحدة الإمبراطورية الأيوبية لمصلحته. في 1196م، أبعد الأفضل من دمشق بعد هزيمته، فملكها العادل بصفته تابعاً للعزيز. ولما مات العزيز في القاهرة في تشرين الثاني 1198م ولم يكن له من وريث إلا ولد صغير "المنصور" استدعى بعض الأمراء "الأفضل" وبعضهم الآخر "العادل". وحاول الأفضل بمساعدة أخيه الزاهر صاحب حلب صدّ عمه وأخذ دمشق، ولكنه رُدّ إلى مصر أخيراً وانهمز في بلبس. في 6 شباط 1200م، دخل العادل القاهرة وصياً على المنصور، وأخذ بعد وقت قصير لقب السلطان. امتدت سلطة العادل على مصر

(1) في الموضوع نفسه، ص 409.

(2) Marin, F. L. C., تاريخ صلاح الدين، سلطان مصر وسورية، "Histoire de Saladin, sultan d'Egypte et de Syrie"، باريس، 1758م، الجزء 2، ص 396.

(3) الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 409.

(4) عبد اللطيف، علاقة مصر، "Relation d'Egypte"، باريس، 1810 AD، Imprimerie Impériale، ص 468.

وسورية وعلى جزء من منطقة ما بين النهرين باستثناء حلب حيث نجح الزاهر في الحفاظ على استقلاله. وقامت إمبراطورية صلاح الدين من جديد.

في العام التالي، عاد الأفضل والزاهر إلى الحرب من جديد واحتلا منبج وقلعة نجم، وهي قلعة هامة على الفرات، وزحفا إلى دمشق. إلا أن العادل حاصر بدوره حلب بعد أن نجح بالحيلة في كسر التحالف بين الأفضل والزاهر، ولكنه ترك حلب في النهاية للزاهر، في حين عين الأفضل، الذي اضطر إلى المبايعة والياً على شمال سورية في سميساط. وفي 1207م، بعد أن تلقى العادل تأييداً لسلطته من الخليفة الذي أرسل له أثواب الشرف ولقبه "بخليل أمير المؤمنين"، نهج العادل نهج صلاح الدين وعمد إلى توزيع الأقاليم بين أبنائه، فاستلم الكامل، ابنه البكر، مصر، والمعظم دمشق التي كان حاكماً لها منذ 1198م والتي وسّع منها سلطته من إقليم حمص - الذي كان في أيدي عائلة شيركوه - إلى العريش، واستلم الأوحداً أيوب ديار بكر، والأشرف موسى الجزيرة. أما العادل، فكان يمكنه عندما لا يكون في حملة أحياناً في القاهرة وأحياناً أخرى في دمشق التي أعاد بناء قلعتها كلياً تقريباً. وفي 31 آب 1218م، مات العادل في علقين قرب دمشق، وعمره حينها سبعة وسبعون عاماً بعد حكم استمر ثلاثة وعشرين عاماً، ودفن في المدرسة الكبيرة "العادلية" التي بدأ بناءها نور الدين⁽¹⁾. أثار موته بين أبنائه سلسلة من الصراعات التي اضطروا إلى تأجيلها مؤقتاً ليتحدوا أمام عدوهم الفرنجة، ولكنها أدت في النهاية إلى ضياع الدولة الأيوبية.

سار المعظم بعد أن أصبح سيد سورية الجنوبية تحت سيادة الكامل المطلقة، إلى قلعة جبر ليضع يده على ثروة أبيه، وحاول عبثاً إقناع الأشرف، الذي كان في صراع مع الزنكيين، بالانضمام إليه لنجدة الكامل في مصر. لم يمنع وصول المعظم إلى مصر في بداية شباط 1219م الفرنجة من احتلال دمياط في 5 تشرين الثاني. واقترح الكامل مقايضة المدينة بالقدس والمناطق الساحلية التي كان صلاح الدين أعاد فتحها. ولما رفض الفرنجة الاقتراح لجأت الكتائب السورية المصرية إلى الهجوم، وفتحت سدود النيل، فحصل فيضان أذاق الصليبيين المشقات فاضطروا إلى الاستسلام. وبعد توقيع هدنة مدتها ثمان سنوات وتبادل الأسرى، عادت دمياط إلى أيدي المسلمين في 8 أيلول 1221م.

(1) انظر في الموضوع نفسه، ص 187. عن موت العادل، انظر ابن العميد، "Chronique des Ayyubides (602-658)", وثائق

تتعلق بتاريخ الحروب الصليبية، 1994م، ص 26.



قبر صلاح الدين الأيوبي

وعادت النزاعات بين الإخوة من جديد بعد أن استُبعد خطر الحملة الصليبية الخامسة. وما أن عاد المعظم من مصر طامعاً بوسط سورية، حتى زحف إلى حماة. ولكن أمام تحالف الكامل والأشرف، اضطر إلى الانسحاب وإعادة مكاسبه. ولم يتوقف والغيط يتملكه عن تجهيز نفسه للانتقام من أخيه. فسعى للتحالف مع سلطان خوارزم، منغبردي، الذي أصبح حديثاً سيد إيران وأذربيجان، ووصل به الأمر إلى ذكر اسمه في الخطبة بدءاً من عام 1226م بدلاً من اسم أخيه الكامل. فاستنجد هذا بدوره بالإمبراطور الألماني فريدريك الثاني الذي كان قد أصبح وصياً على مملكة القدس منذ زواجه عام 1225م من إزابيل يولند بنته جان دوبريان^(*).

وفي ليلة 12 تشرين الثاني 1227م، مات المعظم بالزحار في دمشق وله من العمر ستة وأربعون عاماً. دفن في البداية في القلعة ثم نقل جسده وفقاً لرغبته إلى المدرسة المعظمية التي بناها عند منحدر جبل قاسيون، فخلفه ابنه الملك الناصر داود تحت وصاية الأمير عز الدين أيبك المعظمي. وزحف الكامل إلى دمشق راغباً في الاستيلاء عليها من الأمير الشاب، الذي طلب مساعدة عمه الأشرف في آب 1228م. وبعد أقل من شهر رسا فريدريك الثاني في عكا - بعد أن تردد طويلاً قبل أن يتوجه صوب فلسطين، إذ لم تكن الحرب في سبيل قبر المسيح مشكلة هذا الأمير المستنير - يقود جيشاً مكوناً من ستمئة فارس وعدة آلاف جندي مشاة. أجريت مفاوضات بعد وقت قصير مع الكامل وانتهت في 18 شباط 1229م بتوقيع اتفاق مدته عشر سنوات وعشرة أشهر. فاستعاد فريدريك الثاني القدس التي كانت أسوارها مهدمة، وبيت لحم والناصرة وعكا ويافا وصيدا، ووعد بتقديم دعمه للسلطان في مواجهة أعدائه. أثار هذا الاتفاق - الذي أضاع معظم جهود صلاح الدين ووضع في أيدي الفرنجة دون اراقة قطرة دم أكثر مما كانوا يحلمون به من حرب بلا هوادة - غضب البابا غريغوري التاسع، وأعلنه الملك الناصر داود خيانةً بغية، كما كتب مؤرخ متحيز بعض الشيء - "إبعاد الناس عن الكامل وضمان اخلاصهم للناصر لمساعدته في القضاء عليه"⁽¹⁾. استفاد الملك الناصر سياسياً دون أدنى شك مما كان يمكن أن يعتبره بحق غدرًا وخيانة، وهكذا كان الاستياء عاماً وكانت مشاعر المسلمين متأججة. يذكر لنا سبط ابن الجوزي (1186 - 1256م) الذي كان يعيش في دمشق وله

(*) حنايرين.

(1) ابن وسيل (1207 - 1298م) في F. Gabrieli، المرجع نفسه، ص 298.

علاقة حميمة بالعائلة الأيوبية: "وصلت أخبار تسليم المقدس إلى الفرنجة، فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام. لقد بدت الحادثة فظيعة جداً حتى إنه أعدت مراسم عزاء عامة. ولقد دعاني الناصر داود لرئاسة اجتماع في المسجد الكبير والتحدث بما حصل في بيت المقدس (...). لذا صعدت المنبر والناصر داود يُشرف الاجتماع بوجوده عند باب مشهد علي. لقد كان يوماً لا ينسى: لم يتخلف أحد من سكان دمشق (...). ونظم الشعراء كثيراً من الشعر يمجدون فيه بيت المقدس"⁽¹⁾.

في 2 تموز 1229م، وفي نهاية حصار دام ثلاثة أشهر، استولى الأشراف بالاتفاق مع الكامل على دمشق حيث، كما قال ابن خلكان، "كان مقر إقامته المفضل على باقي مدن ولاياته"⁽²⁾. وعُيّن الناصر داود على الكرك، وأرغم على الاكتفاء ببضع مدن في فلسطين: شوبك ونابلس وبانياس. مات الأشراف في دمشق في 27 آب 1237م في الوقت الذي كان يتهياً فيه لحرب قوات الكامل والناصر داود على رأس تحالف يضم سلاجقة الأناضول وأمراء حلب وحماة وحصص الأيوبيين. دفن في البداية في القلعة، ثم نقل جثمانه إلى مكان الضريح الذي كان قد بناه لنفسه في الكلاسة على طول الجانب الشمالي للمسجد الكبير الذي يتصل به بنافذة مشبكة⁽³⁾. فخلفه أخوه الصالح إسماعيل، ولما كان التحالف السوري السلجوقي قد انحل، استولى الكامل بسهولة على دمشق وعين الصالح إسماعيل على بعلبك. في 9 آذار 1238م وبينما كان الكامل يجهز حملة على حلب في قصر القلعة في دمشق عن عمر يناهز الستين عاماً كانت وفاته بداية انهيار السلالة الأيوبية، فاضطر الجيش إلى اتخاذ مبادرات سياسية أكثر من مرة.

أسرع الأمراء الموجودون في المدينة، لخوفهم من هجوم الناصر داود، في تسليم السلطة إلى الجوّاد المظفر، ابن أخي السلطان المتوفى، في حين اعترف الجيش في مصر بالسلطة لابن الكامل الثاني وهو العادل الثاني أبو بكر، الأخ الأصغر للصالح أيوب، في الوقت الذي كان مسؤولاً فيه عن الأقاليم الشرقية. في نهاية عام 1238م استنصر الجوّاد، لخوفه من هجوم القوات المصرية بالصالح أيوب الذي استولى على دمشق. وذهب سيد سورية الجنوبية الجديد إلى فلسطين ليجهاز حملة على

(1) سبط ابن الجوزي، في، Gabrieli, F.، المرجع نفسه، ص 299 - 300. عن مكانة بيت المقدس في الفكر الإسلامي، انظر Sivan،

E.، أساطير سياسية عربية، "Mythes politiques arabes"، باريس، Fayard، 1995 AD، ص 67 - 106.

(2) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 489.

(3) في الموضوع نفسه، الجزء 3، ص 244. عن الكلاسة انظر في الموضوع نفسه، ص 189 الملاحظة 189. عن موت الأشراف، انظر

كتاب ابن العميد المرجع نفسه، ص 52 - 53.

مصر، واستغل عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك غيابه ليضم دمشق إليه في 30 أيلول 1239م. أسر الناصر داود ابن عمه الصالح أيوب في نابلس بعد أن تخلى عنه جزء كبير من قواته، وسجنه في قصر الكرك. في ذلك الوقت أشرف الاتفاق المَعقود قبل عشر سنوات مع فريدريك الثاني على الانتهاء، فعادت الحرب على الفرنجة. وانتهت الحملة الصليبية الجديدة التي كان يقودها تيبالد، كونت منطقة الشمبانيا ومَلِكُ نافار، بخسارة عسكرية فادحة قرب عسقلان وذلك في تشرين الثاني 1239م، في حين استعاد الناصر داود بيت المقدس وهدم أسوارها التي كان قد بدأ الفرنجة إعادة بنائها. وفي 11 نيسان 1240م، حُرِّر الصالح أيوب نتيجة دسائس عائلية جديدة، في حين كان الجيش يطالب به في القاهرة لاستلام السلطة وقد عزلت العادل الثاني. في 18 أيار دخل الصالح أيوب إلى القاهرة سلطاناً جديداً وسط هتاف الحشود. ولم يطمح خلال حكمه الذي استمر تسعة أعوام إلا إلى إعادة فتح سورية.

في دمشق، لكي يتقي الصالح إسماعيل الخطر، تقرب كما فعل سابقوه - مخالفاً رأي العلماء - من الصليبيين وطلب منهم المساعدة والحماية مقابل التنازل المباشر عن منطقة الجليل الأعلى مع قصر بوفورت وقلعة صفد ووعد أن ينزل عن فلسطين. في القاهرة عمل الصالح أيوب راغباً في مقاومة كل منافسيه السوريين على تقوية جيشه. فأنشأ فرقاً جديدة مكونة من رجال شديدي الإخلاص له، هم عبيد أترك، أي "ماليك"⁽¹⁾ جرى شراؤهم من بلاد ما وراء النهر أو من قبتشاك ثم دُربوا على حمل السلاح. لم يتأخر هؤلاء المماليك المقيمون في قلعة بنيت حديثاً على جزيرة الروضة في بحر النيل⁽²⁾ في فرض أنفسهم سادة للوضع. وفوق ذلك استدعى الصالح أيوب مساعديه القدامى في منطقة الجزيرة: الخوارزميين الذين كانوا مهتدين بتقدم المغول، فأخذوا بالزحف دون تمهل، فعبر آلاف منهم "سهل البقاع" يحرقون ويقتلون خلال صيف 1244م، ثم استولوا على بيت المقدس في 23 آب بعد حصار قصير الأمد، واحتلوا فلسطين، والتحقوا بالقوات المصرية التي كان يقودها الأمير المملوكي ركن الدين بيبرس. وبرغم الدعم الذي أتى من قبرص وأنطاكية انهزم تحالف سوري فرنجي كان يقوده الأمير الأيوبي صاحب حصص في 17 تشرين الأول في غزة. استعاد بيبرس فوراً من الفرنجة ما حصلوا

(1) المملوك تعني حرفياً "الشخص الذي جرى استملاكه" من فعل ملك.

(2) من هنا يأتي الاسم الذي أطلق عليهم "المماليك البحرية".

عليه حديثاً في فلسطين، واحتل من جديد القدس التي بقيت مسلمة حتى الاحتلال الصهيوني الحديث. في السنة التالية، اتجه الجيش المصري إلى دمشق واحتلها في 2 تشرين الأول 1245م بعد حصار فظيع استمر أكثر من ستة أشهر. وتلقى الصالح إسماعيل تعويضاً عنها المنطقتين الزراعتين الكبيرتين في سورية الوسطى وهما: البقاع مع بعلبك، وحوران مع بصرى. وتمرد المحاربون الخوارزميون الذين منعهم المصريون من دخول المدينة، وخربوا الغوطة، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الصالح إسماعيل، وحاصروا في دمشق حلفاءهم بالأمس، قبل أن يُقضى عليهم نهائياً قرب حمص في 19 أيار 1246م.

حثت سياسة سلطان مصر العدائية وفقدان بيت المقدس وهزيمة غزة، البابا إنوسنت الرابع على توجيه نداء جديد لحملة صليبية جديدة. استجاب لها من بين كل أمراء الغرب، ملك فرنسا "لويس التاسع" فقط ليسلك طريق الأرض المقدسة. وفي صباح 5 حزيران 1249م، نزل في شمال دمياط التي أخلاها قائد حاميتها. كان لهذا تأثير كبير في مصر، إذ كتب ابن وسيل: "سيطر قلق شديد ومشاعر الألم واستولى اليأس على مصر كاملة، إضافة إلى أن السلطان كان مريضاً (بالسل) وأضعف من أن يستطيع الحركة، ولم يعد يملك أي سلطة على جيشه الذي كان يسعى لفرض إرادته"⁽¹⁾. سمح قرار لويس التاسع في عدم متابعة الهجوم قبل وصول الدعم الذي كان من المفروض أن يرسله أخوه ألفونس دو بواتيه، للقوات المصرية أن تتجمع في الجنوب. وفي تشرين الثاني، صعد الجيش الفرنجي النيل باتجاه القاهرة تتبعه مراكب المؤونة، ولكنه أوقف أمام المنصورة فأقام معسكره على ضفة البحر الصغير اليسرى⁽²⁾. وفي 23 تشرين الثاني، مات الصالح أيوب عن عمر يناهز أربعاً وأربعين سنة، إلا أن زوجته، شجرة الدر، أخفت خبر وفاته وأخذت بزم أمور الدولة بمساعدة الرؤساء المماليك، واستدعت ابنها "المعظم توران شاه" ليقف إلى جانبها. في 8 شباط بدأت الحروب في المنصورة واستمرت غير محسومة مدة شهرين. اقترح لويس التاسع مقايضة دمياط ببيت المقدس، ولكن السلطان رفض. في 5 نيسان تخلى جيش الفرنجة عن معسكره بعد أن أنهكه جيش المماليك وأهلكه الزحار والحمى التيفية (الصفراء)، فانسحب إلى دمياط. وفي اليوم التالي حاصر المسلمون الجيش الفرنجي في فاركسور، "فلم ينبُج أحد من القتل أو الأسر"⁽²⁾، وأسر ملك فرنسا وأخوه

(1) ابن وسيل، في Gabrieli, F.، المرجع نفسه، ص 313.

(*) عند أشموم طنّاح.

(2) في الموضع نفسه، ص 321.

وعدد كبير من البارونات، في حين وصل مجموع القتلى إلى ثلاثين ألفاً⁽¹⁾. وهكذا قضى على الحملة الصليبية السابعة.

في تلك الأثناء كان التمرد على أوجه في معسكر المسلمين. وبدأ المماليك صانعو النصر غير مستعدين للخضوع لتوران شاه الذي لم يعد يُخفي رغبته في التخلص من جيشه الخاص الذي أصبح من الصعب السيطرة عليه. وفي 2 أيار 1250م، قتلت جماعة متآمرة يقودها ركن الدين بيبرس توران شاه وطالبت بشجرة الدر سلطنة، برغم استياء الأمراء الأيوبيين وخليفة بغداد الذي لم يستحسن أبداً أن ترتقي العرش أمة تركية من حريمه كان قد أرسلها حديثاً هدية إلى الملك الصالح.

وأعلنت الخطبة باسمها بوصفها سلطنة القاهرة وكامل مصر، مما أثار استغراب المسلمين، إذ كتب ابن وسيل: "كان هذا حدثاً لم يسبق له مثيل في التاريخ الإسلامي"⁽²⁾. وعينت شجرة الدر رئيساً لجيوشها الأمير التركماني عز الدين أيبك الذي تزوجته وتنحت له عن السلطة. وفي الوقت نفسه اعترف أمراء المماليك البحرية بالإجماع بالسلطة لعز الدين أيبك ولقبوه بالملك المعز، وجعلوا له شريكاً الأمير الطفل الأشرف موسى الثالث وله من العمر ستة أعوام، وذلك للحفاظ ظاهراً على الشرعية الأيوبية.

في سورية، رأس الناصر يوسف، صاحب حلب وابن حفيد صلاح الدين، تحالفاً أيوبياً لمواجهة المماليك، واستولى على دمشق بلا مقاومة، ثم زحف صوب مصر، ولكنه هُزم في الكوره⁽³⁾ في تشرين الأول 1250م. وسُجن الصالح إسماعيل في قلعة القاهرة بعد أسره، ثم أمر المعز بقتله بعد وقت قصير⁽⁴⁾. في العام التالي، رمى المعز الأشرف موسى في السجن وحذف اسمه من الخطبة، وبقي وحده يلقب بالسلطان. يروي المؤرخ المقرئ أن "رَفَعَ العديد من مماليكه إلى رتبة الأمراء ولجأ إلى

(1) في الموضوع نفسه، ص 321. يذكر ابن العميد، مبالاً على الأغلب، عشرين ألف فارس قتل من جهة الفرنجة، ومئة ألف أسير تقريباً من فرسان ومشاة وحرفيين ونجار، المرجع نفسه، ص 87 - 88.

(2) في الموضوع نفسه، ص 325.

(*) بالقرب من العباسية، قرب مدينة الصالحية في المحافظة الشرقية بمصر.

(*) وفق ما ذكر د. قاسم عبد قاسم ود. علي السيد علي في كتابها "الأيوبيون والمماليك" أنه نفاه سنة 652 هـ إلى القسطنطينية. ص 131.

كل الوسائل للحصول على المال⁽¹⁾. وبدأ النظام الجديد طالع سوء، فقد أضاف المقريزي، الذي لم يكن يحبهم البتة: "ارتكب المماليك في مصر عديداً من الانتهاكات، وهاجموا السكان وذبحوهم ونهبوا الثروات ودخلوا الحمامات واختطفوا منها النساء بالقوة، وسمحوا لأنفسهم بارتكاب تجاوزات ما كان الفرنجة يسمحوا بها لأنفسهم لو كانوا هم سادة البلد"⁽²⁾. وفي نهاية آذار 1253م، حصل الناصر على السلام بتنازله عن بيت المقدس لمصر.

وبدأ الفصل الأخير من المأساة الأيوبية مع الرعب الذي أثاره تقدم المغول. ففي 12 نيسان 1257م، دبرت شجرة الدر اغتيال زوجها المعز، وقُتلت بدورها بعد ثلاثة أيام تحت وقع قباقيب الحمام، وعين الأمراء الفتى المنصور علياً، ابنَ المعز، سلطاناً. في تلك الأثناء حث المغول سادة آسيا الوسطى وإيران منذ 1220م، خطاهم باتجاه الغرب. ووصلت الحملة الكبيرة التي كان يقودها هولاكو حفيد جنكيز خان - وكان قائداً متحمساً يرغب أن يشغل المكانة التي كان يحتلها السلاطين السلاجقة عند الخليفة والتي رفضها له - إلى العراق، وحاصرت بغداد في 17 كانون الثاني 1258م. بعد ثلاثة أسابيع، استسلم الخليفة المستعصم، وذُبح جزء كبير من السكان، في حين اندلعت الحرائق في كل مكان، وهُدمت المساجد والمدارس والمشاهد و"جرت الدماء في الشوارع سيولاً" كما كتب المقريزي⁽³⁾. ودخل قائد المغول بنفسه المدينة وسط حطام ينبعث منه الدخان وفوق جثث الموتى في 15 شباط من نفس العام. بعد خمسة أيام، قُتل المستعصم أيضاً: وهكذا غرقت الخلافة العباسية بعد خمسة قرون من الوجود في بحر من الدماء.

تابع الجيش المغولي تقدمه صوب سورية حيث كان يعرف أنه بإمكانه الاعتماد على دعم الفرنجة والأرمن. واتجهت فرقة عسكرية كان يقودها كتبغا، وهو ضابط مسيحي على المذهب النسطوري، صوب دمشق، في حين زحفت معظم القوات بقيادة هولاكو إلى حلب. واحتلت على التوالي الموصل ثم نيزب وماردين وميفارقين وأورفه وحران ومنبج.

(1) المقريزي (1364-1442م)، تاريخ سلاطين المماليك في مصر، الترجمة الفرنسية، -Qatremère E.-M., Paris, Dupart, 1837-

AD 1845، الجزء 1، ص 37.

(2) في الموضوع نفسه، ص 31-47.

(3) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 78. عن الاستيلاء على بغداد، انظر أيضاً ابن العميد، المرجع نفسه، ص 102-103.

كتب المقرئزي: "لما عرف السكان في دمشق أن التتار قد عبروا الفرات أصابهم الرعب، فهرع قسم كبير منهم إلى مصر بعد أن باعوا ممتلكاتهم بأرخص الأسعار، ولكن لما كان الفصل شتاءً هلك كثير من الهاربين في الطريق، وسُلب معظم الآخرين من كل ما كانوا يحملونه"⁽¹⁾. وبعث الناصر زوجته وابنه وثرواته إلى مصر بعد أن تخلّى عنه قسم كبير من قواته، وطلب مساعدة القاهرة. عندها نحى قوتوز، أحد ممالك المعز القدامى، المنصور علياً من السلطة ونصب نفسه سلطاناً مكانه في 12 تشرين الثاني 1259م "متدرباً بضرورة وجود سلطة قوية"⁽²⁾. وفي 18 كانون الثاني 1260م، حاصر جيش كبير من المحاربين المغول والأرمن والفرنجة حلب التي كان صاحبها الناصر يوسف قد عهد في الدفاع عنها إلى المسن "المعظم توران شاه" آخر أبناء صلاح الدين. واحتلت المدينة في أقل من أسبوع. قاومت القلعة شهراً ثم هُدمت، وقتل قسم كبير من السكان أو سيقوا لبيعوا عبيداً في أسواق قلاع الفرنجة وكيلىكيا. أما في دمشق، كما يروي المقرئزي، فلقد كان الرعب شديداً: "فرض الناصر يوسف على السكان مساهمات وقام بالتجنيد لحرب التتار. ولكن تفرقت قواته بعد كارثة حلب، وتخلّى الكل عن متاعه وباعه بأرخص الأسعار وهرب بأسرع ما يمكن. ورحل الناصر يوسف من برزة يرافقه قليلٌ ممن بقي معه من الجنود باتجاه غزة تاركاً دمشق بلا دفاع (...). وما أن رأى السكان الناصر يوسف يرحل حتى فقدوا كل شجاعة وأسرعوا بالهرب مضطربين. وكأن الساعة آتية عن قريب"⁽³⁾. بعد أن نهبت حمّة، زحف الجيش المغولي إلى حمص التي كان قد هرب سكانها منها. في دمشق، جمع الأمير زين الدين سليمان من بقي من السكان وأقنعهم بتسليم المدينة إلى المغول. وفي آذار 1260م، دخل كتبغا دمشق على رأس فرقة من التتار دون أن يلقى أية مقاومة. وعُهد في الإدارة غالباً إلى الفرس الشيعة، وتحول المسجد الكبير إلى كنيسة بوجود حتم، ملك الأرمن، وصهره بوهيموند الرابع أمير أنطاكية وطرابلس. واندفع النصارى يشجعهم السادة الجدد في ارتكاب تجاوزات رواها لنا المقرئزي باستياء وتفصيل: "لقد أخذ النصارى يبيمنون على المسلمين هيمنة مميزة. ولما كانوا قد حصلوا من هولاكو على فرمان يضمن لهم حماية صريحة وحرية ممارسة ديانتهم، أخذوا يتعاطون الخمر علناً في شهر رمضان ويصبونه في الطرق على ملابس المسلمين وأبواب المساجد. وكانوا عندما يمرون حاملين

(1) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 85. انظر ابن العميد، المرجع نفسه، ص 112 والتالية.

(2) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 85.

(3) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 93 والتالية.

صلبانهم يجبرون التجار على القيام لهم ويعاملون الذين يرفضون ذلك معاملة سيئة: كانوا يجوبون الشوارع ومعهم صلبانهم، ويزورون كنيسة مريم حيث يتلون مواعظ يمدحون بها ديانتهم ويقولون علناً: "انتصر اليوم الدين الحق، دين المسيح". فاشتكى المسلمون مستائين إلى الحاكم (كتبغا) الذي عينه هولأكو، ولكن هذا الضابط عاملهم باحتقار وأمر بضرب العديد منهم. وكان يشرف الرهبان النصارى ويزور كنائسهم ويدعم ديانتهم علناً⁽¹⁾.

بعد بضعة أيام من وصول كتبغا، تمرد قائد القلعة. فحاصر المغول الحصن، وأخذت أكثر من عشرين آلة حربية تلك القلعة دون توقف خلال عدة أسابيع، فهدمت قسماً كبيراً من السور. واستسلم المحاصرون ودخل المغول القلعة في 3 حزيران 1260م، "واندفعوا ينهبون كل ثمين، وأشعلوا النيران في أماكن عديدة وهدموا عدداً كبيراً من البروج وخربوا الآلات والمعدات الحربية"⁽²⁾. أرسل المغول بعد أن أصبحوا سادة دمشق العديد من الحملات إلى جنوب سورية، واستولوا على بعلبك بمساعدة بوهمند واحتلوا حوران، ثم الجليل وبناس وعجلون، وعبروا نهر الأردن ودخلوا نابلس واحتلوا مؤقتاً بيت المقدس، في الوقت الذي وصلت فيه طليعتهم إلى غزة. كان يبدو من المستحيل مواجهة تقدمهم. ولكن عندما علم هولأكو بموت الخان الأعظم عين (كتبغا) على حلب و (بيدرا) على دمشق وعاد مستعجلاً إلى آسيا لا يصطحب معه إلا بضعة محاربين. استغل قوتوز هذا الوضع ليجمع قوات كبيرة تضم إضافة إلى القوات المصرية جزءاً كبيراً من القوات السورية والعرب البدو والتركمان. "ونادى في الناس، كما كتب المقريري، أنه على كل فرد حمل السلاح للجهاد في سبيل الله ودعم دين النبي"⁽³⁾. وفي 3 أيلول 1260م اتجه قوتوز صوب فلسطين بعد أن قتل السفراء الأربعة الذين أرسلهم المغول إليه يدعونه إلى الاستسلام

(1) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 98. في هذا العصر، كان المغول سواء كانوا وثنيين أم بوذيين يفضلون النصارى على المسلمين. هذا وقد كانت دقر خاتون زوجة هولأكو نصرانية. أول أمير مغولي إيراني اعتنق الإسلام كان أحمد (1281 - 1284م)، ولكن الذي اعترف بالإسلام - دين دولة كان قازان (1295 - 1304م). عن الأحداث المأساوية التي عاشتها دمشق عام 1260م وتغير العلاقات بين النصارى والمسلمين انظر في: Cf. Pouzet L.، المرجع نفسه، ص 305 - 338. الجدير بالذكر أنه أثناء الحملات الصليبية بقي النصارى المحليون باستثناء الأرمن وجزء كبير من المارونيين حيادين ولم ينفقوا إلى جانب الفرنجة الذين كانوا في نظرهم أجنب وأعداء كما هم في نظر المسلمين.

(2) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 99.

(3) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 103. من الجدير بالملاحظة أن كتاب المغول كانت تعتبر نفسها "جنود الله في الأرض". (مقريري، ص 101).

للخان الأعظم، وسحق الجيش المغولي في عين جالوت قرب بيسان. ووقع كتبغا في فخ فقتله قوتوز بيده وأرسل رأسه إلى القاهرة. وبعد يومين، ما أن وصل نبأ المصيبة الجديدة إلى دمشق حتى أسرع المغول إلى مغادرتها. كتب المقرزي: "هاجمهم سكان القرى وسلبوا كل أمتعتهم"⁽¹⁾. وفي المدينة حان وقت الثأر بمشاهد الفظيعة التي لا تفتأ عن التكرار في كل مرة يختل فيها التوازن بين الجماعات المختلفة بسبب التدخل الخارجي: "ما أن أعلن الانتصار حتى أسرع سكان دمشق إلى مهاجمة منازل النصارى يهبون ويخربون كل ما يستطيعون تخريبه. فهدموا كنيسة يعقوبيين وكنيسة ماري وأضرمو النيران فيها فلم يبق منها إلا كومة من الحطام. وذبحوا عدداً كبيراً من النصارى واستعبدوا الآخرين (...)"⁽²⁾. ومع أن حقد المسلمين كان موجهاً أولاً ضد النصارى الذين استفادوا أثناء الحكم المغولي، فإن حقدهم لم يستثن اليهود: "إذ نبهوا منازل اليهود دون أن يتركوا فيها شيئاً. وأصبحت الدكاكين التي كانوا يمتلكونها في الأسواق كتلاً من الحطام. في تلك الأثناء منع جنود الميليشيات الحشود من إضرام النيران في معابد اليهود ومنازلهم"⁽³⁾. ولم يستثن أيضاً المسلمون الذين تعاونوا مع العدو: "في نفس الوقت، هاجم الناس العديد من المسلمين الذين كانوا مع التار وقتلوهم وهدموا منازلهم التي كانت بالقرب من الكنائس، كما ذبحوا عدداً كبيراً من المغول. وشهدت المدينة كلها مشهداً مريعاً"⁽⁴⁾. بمجرد أن أعلن نبأ هزيمة عين جالوت أمر هولاكو بقتل الناصر يوسف الذي كان قد انتهى به الأمر إلى اللجوء إليه بعد أن تاه في تخوم مصر. وبموته كانت نهاية آخر عاهل أيوبي في دمشق.

في 10 أيلول، بعد أسبوع من النصر، دخل قوتوز دمشق وسط فرحة عارمة، وأقام في القلعة وفرض على النصارى غرامة تبلغ خمسين ألف قطعة فضية⁽⁵⁾. ثم ذهب ليخضع كل المدن السورية "من أطراف الفرات حتى مصر"⁽⁶⁾، وأعاد إلى الحكم هنا وهناك بعض الأمراء الأيوبيين، ومنح إقطاعات إلى أمرائه وضباطه، وعين حكاماً وموظفين. ثم عاد إلى مصر بعد أن سلم دمشق إلى

(1) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 106.

(2) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 106.

(3) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 106.

(4) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 107.

(5) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 108.

(6) في الموضوع نفسه، الجزء 1، ص 107.

الأمير علم الدين سنقر الحلبي. وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ دمشق بعد ستة وثمانين عاماً من السيادة الأيوبية وسبعة أشهر وعشرة أيام من الاحتلال المغولي. إلا أن القرن الذي حكم أنشاء الأيوبيون دمشق كان بلا شك عصرأ ذهبياً حقيقياً. فلقد ساعد الأمن على توسع الضواحي التي أخذت بالظهور في ظل حكم نور الدين، ويشهد ياقوت الحموي على هذه الظاهرة التي كان معاصراً لها (1179 - 1229م)، وهو مؤلف إحدى كبريات الموسوعات الجغرافية في زمانه، إذ يقول: "لم يكن هناك منازل تكفي السكان وأصبحت المدينة مكتظة بهم. وكان هناك خارج سور المدينة أحياء تحيط بها من جميع الجهات تقريباً باستثناء الجهة الشرقية على يسار القبلة. كانت هذه الأحياء تشغل مساحة كبيرة تعادل مساحة المدينة المسورة نفسها"⁽¹⁾. ففي جنوب السور كان حي الشاغور، وفي الشمال حي العُقية الذي كان يضم منذ نهاية القرن الثاني عشر خمسة مساجد وحمامين، وفي الغرب كانت توجد منطقة تُعرف باسم حكر السَّمَق. ولكن التوسع المدني كان أكبر ما يكون عند سفح جبل قاسيون حول موقع الصالحية المتواضع. وامتدت الصالحية تدريجياً من بضعة بيوت كانت تضمها في منتصف القرن الثاني عشر، على طول نهر يزيد حتى أصبح من الضروري في بداية القرن التالي بسبب تزايد عدد السكان، تأسيس مسجد كبير - وكان أول مسجد يبنى خارج السور - وهو المسجد المظفري أو مسجد الحنابلة الذي افتتح في عام 1202م⁽²⁾. في نهاية العهد الأيوبي امتدت ضاحية الصالحية أكثر من ألف وخمسمئة متر، من المدرسة الركنية⁽³⁾ شرقاً إلى قبة الرياح⁽⁴⁾ غرباً، ووصلت إلى جنوب الجسر الأبيض الذي يعبر نهر تورا بالقرب من المدرسة الماردانية⁽⁵⁾. وبدأت الصالحية بأضرحتها ومبانيها الدينية ومنشأتها المدنية وسوقها وخانها وحماماتها وبيمارستانها، الذي يعود بناؤه إلى منتصف القرن الثالث عشر، مركزاً مدنياً مستقلاً حقيقياً. وفي الشرق أقامت جالية الأكراد الذين قدموا إلى دمشق عقب وصول صلاح الدين.

(1) ياقوت الحموي، نقلًا عن الرحاوي، "دمشق"، ص 61. يقصد ياقوت "بالجهة الشرقية على يسار القبلة" خارج الباب الشرقي.

(2) كان المسجد الأموي حتى ذلك الوقت المسجد الكبير الوحيد في دمشق.

(3) بنيت عام 1124م، انظر في الموضع نفسه، ص 229.

(4) تاريخ بنائها 1243 - 1244م.

(5) بنيت عام 1226 - 1227م، انظر في الموضع نفسه ص 230.

من الناحية التجارية، برغم الجهاد أو ربما بفضلله، وبرغم تحريم البابا إنوسنت الثالث (Innocent III) وتهديده بالحرمان كّل من يتعامل مع المسلمين، كانت العلاقات مع الغرب كثيفة، ولم يتردد عديدٌ من التجار، من كلا الطرفين، الذين يتمتعون بحس عملي في إخماد حيرتهم الدينية. إذ ذكر بنيامين دو تودل أنه في عهد نور الدين كان ثمانية وعشرون بلداً أو منطقة أو مدينة يتعامل تجارها مع الإسكندرية منها: أمالفي والبندقية وجنوة وبيزا وأنجو وفلاندر وأراغون ونفار وبلاد الساكس والدنمارك وكتالونيا وغيرها. وبعد أن أعاد صلاح الدين فتح القدس وجنوب سورية أخذت التجارة اللاتينية تبحث مؤقتاً - متغلغلة نحو الشمال - عن البضائع القادمة من بلاد فارس وآسيا الوسطى، وفي موانئ الأرمن لكونها كاثوليكية وحليفة الامارات الفرنجية منذ عام 1198م. وفي عام 1201م حصل السفير الجَنَوِيّ من ملك الأرمن في سيس وماميسترا على تنازل عن وكالات تجارية أجنبية ذات امتيازات واسعة. كما حصلت جالية جَنَوِيّة في عام 1215م على إذن بالسماح لها بالإقامة في تارس، ولم تُستثنَ البندقية. ففي عام 1207م عقدت جمهورية البندقية السامية مع غياث الدين غازي (1186 - 1216م) سلطان حلب وابن صلاح الدين، اتفاقاً تجارياً يحدد الرسوم الجمركية بنسبة 12% عند الدخول والخروج، ويضمن لها حق التمتع في المدينة بحمام وكنيسة ومبنى - الأول من نوعه في البلاد الإسلامية - لسكن التجار ولخزن بضائعهم. لم تتوقف المبادلات التجارية بين الدول اللاتينية وداخل البلاد السورية بسبب الجهاد، مما أثار استغراب ابن جبير عام 1184م فكتب: "إنه من أكثر الأمور غرابة في هذا العالم تلك القوافل من المسلمين التي تذهب باتجاه بلاد الفرنجة، في الوقت الذي يذهب فيه الأسرى الفرنجة باتجاه البلاد الإسلامية"⁽¹⁾. أدى ازدياد التبادل التجاري في دمشق إلى توسع الأسواق وخاصة تلك الواقعة بين الشارع المستقيم والمسجد الكبير. كما أصبح مرج العشاريين الواقع غرب القلعة تقريباً - ساحة المرجة حالياً - مركزاً هاماً للحياة المدنية حيث قام عديدٌ من الأسواق. ونُقلت دار البطيخ⁽²⁾ وهي سوق الحُصَر والفاكهة خارج سور المدينة إلى الشمال، حيث مازال هناك إلى اليوم. أما فيما يتعلق بالضرائب، فلقد ألغى صلاح الدين عديداً من الضرائب المفروضة حائزاً بذلك رضا الرأي العام، وأسس مكتباً خاصاً لجباية الزكاة، هو ديوان الزكاة، يقوم موظف رسمي يدعى متولي الزكاة بالإشراف عليه.

(1) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 348 - 349.

(2) انظر في الموضوع نفسه، ص 197.

يعتبر قرن الأيوبيين من الجانب المعماري زمن ازدهار معماري واسع. إذ أنشئ المئات من المباني المدنية والتجارية وخاصة الدينية، وما زال باقياً منها نحو مئة حتى اليوم، أما المباني الأخرى فقد علمنا بوجودها من النصوص المكتوبة. جعلت هذه المباني من دمشق اليوم أكثر المدن الإسلامية غنى بالمباني الأيوبية الأثرية. في عام 1259م، عشية الغزو المغولي، أحصى ابن شدداد في دمشق داخل السور تسعة وثلاثين حماماً، أي أكثر من ضعف ما أحصاه ابن عساكر قبل أقل من قرن⁽¹⁾. أما فيما يتعلق بالمدارس، فلقد كان عددها إحدى وعشرين مدرسة عندما دخل صلاح الدين المدينة عام 1174م. بُني أثناء حكمه تسع مدارس، ونحو الستين أثناء حكم خلفائه وذلك بين عامي 1220 و1260م وهي أكثر الأزمنة ازدهاراً خلال الحكم الأيوبي في دمشق. قام ببناء المدارس الأمراء أولاً، ثم أفراد الأسرة الحاكمة وكبار القوم وأعيانهم، وكان هذا داخل أسوار المدينة وفي الجزء الغربي منها. أُقيم بعضها على مقربة من السور، سواء في شمال الميدان الأخضر حيث تذكر الأسطورة وجود ضريح البرامكة، أو في ضاحية الصاحية. كانت معظم المدارس وفقاً لما هو مألوف ويميز سورية الأيوبية أضرحة تضم قبر مؤسسها، الذي يحصل بعمله هذا على الأجر والثواب لما يجري في مدرسته من دراسة العلوم الدينية وقراءة القرآن. فضلاً على ذلك كانت هذه المدارس في كثير من الحالات، لكونها مؤسسات خيرية، وسيلة سهلة لحماية ممتلكاته من أي تصرف فيها⁽²⁾.

استفادت العمارة العسكرية التي نشطتها حرب الفرنجة من آخر الاختراعات التقنية. إذ رمت أبواب عديدة، كما حُدِّدَ السور والخندق: رُمِّمَ باب الجابية والباب الخارجي لباب الفراديس في القرن الثالث عشر، وباب توما في عام 1227م، والباب الداخلي لباب الفرج في عام 1239م، وباب السلام في عام 1243م. أما فيما يتعلق بالقلعة، وهي العامل الرئيسي في الدفاع عن المدينة وحماية الأمير، فلقد أعيد بناؤها بالكامل بدءاً من عام 1206م وأجريت لها آخر التحسينات في الهندسة العسكرية: من استحكامات وشُرَفات لرمي القذائف، فأصبحت إحدى كبريات القلاع السورية. يبلغ طول مخططها المستطيل الشكل 220 متراً وعرضه 160 متراً، وجهزت بمدخلين وثلاثة عشر برجاً ضخماً.

(1) انظر في الموضوع نفسه، ص 192.

(2) انظر في الموضوع نفسه، ص 310-311.



المدرسة الماردانية

وها هو الرحالة الأندلسي ابن جبير، الذي أقام في دمشق خلال صيف 1184م، أي بعد عشر سنوات من دخول صلاح الدين وقبل ثلاث سنوات من حطين، يجند كل مواهبه في الكتابة ليعبر عن إعجابه بدمشق قائلاً: "إنها جنة المشرق، والأفق الذي يشرق منه الجمال الباهر الرائع. إنها خاتم كل البلاد الإسلامية التي زرناها، وعروس المدن التي رفعنا عنها الحمار. لقد زينت بالنباتات المزهرة والعطرة، وبدأت ببساتينها في حلية مرحة. وشغلت من الناحية الجمالية مكانة مرموقة. وهي تزدهي بزخارفها الرائعة (...). فيها رياض تنعش نسائمها العليقة الأرواح. كما تبدو لناظريها بسفور متألق فتناديهم: "أسرعوا إلى استراحة الليل وقيلولة النهار لتنهلوا من الجمال". (...). وتحيط بها البساتين كما تحيط الهالة بالقمر وتحصرها كحصار كأس الزهرة لها. تمتد في الشرق غوطتها الخضراء قدر امتداد البصر. وتسحر روعتها المتألقة الأنظار أينما اتجهت ومن جميع الجهات. فكم هم محقّقون أولئك الذين قالوا عنها: "إذا كانت الجنة على الأرض فدمشق بلا شك جزء منها، وإذا كانت في السماء فدمشق ندّها ونسخة عنها" (...). المدينة كلها ليست إلّا نوافير ماء، فمن النادر ألا يوجد في أحد شوارعها أو أسواقها نافورة ماء. ولكن مباهجها أكثر من أن توصف. جعلها الله العليّ القدير موثلاً للإسلام"⁽¹⁾.

لم يبق من المباني الأثرية الأيوبية المعاصرة لصلاح الدين غير عدد قليل، أبرزها التّرب - أي الأضرحة - المرتبطة غالباً بالمدارس، قام ببنائها الأمراء والأميرات رغبة منهم بتخليد ذكراهم الدنيوية. تشهد هذه التّرب على تطور واضح من الناحية التقنية المعمارية. إذ حلت محل مواد البناء الخفيفة، من الدبش والآجر والخشب، حجارة منقوتة ومقصبة تقصيباً دقيقاً يعود أصلها إلى الهندسة المعمارية في شمال سورية، في حين لم يعد يُستخدم الآجر إلّا في بناء القباب. وتوضع القباب، الملساء منها أو المضلعة، عموماً على رقبتيّن متراكبتين: رقة عليا بست عشرة ضلعاً، ورقة سفلى مثمّنة الأضلاع تحقق الانتقال إلى "قاعة المدفن" المربعة وذلك بواسطة أربع قناطر زوايّة. زخرفت هذه الرقبات من الخارج بكوى صغيرة عميقة إلى حد ما، سواء كانت على شكل قوس قوطية مُدببة أو صدفة جرى قولبتها بالمونة⁽²⁾.

(1) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 301 و315.

(2) المونة طية تستخدم لتهامك حجارة البناء.

قامت ببناء أقدم ضريح والدة الأمير التركماني علاء الدين ابن الأمير زين الدين الذي بدأ حياته المهنية حاكماً للموصل في عهد زنكي. يقع هذا الضريح في شمال القلعة حيث يوجد حالياً حي سوق ساروجه الذي كان يسمى فيما مضى "العوينة"⁽¹⁾، وهو أقدم نموذج مؤرخ للقبّة الجنازية القائمة على رقتين متراكبتين مئمتي الزوايا وقد خلّت من الكوى والزخارف، واستدارت إحداها بالنسبة إلى الأخرى بمقدار خمس وأربعين درجة. فُتحت على المحورين القطرين للغرفة الجنازية أربع فتحات صغيرة وذلك عند بداية القبّة الملساء. ويوجد في مركز الواجهة الجنوبية فتحة كبيرة لها شكل قوس مكسورة حجارها منحوتة بدقة وحجمها يفوق حجم تلك الموجودة في الجدران. وقد بني هذا الضريح، وفقاً لنص التأسيس المنحوت على بلاطة مثبتة فوق سنان قوس المبنى، في تموز - آب عام 1173م⁽²⁾. وجاء في هذا النص أن علاء الدين - الذي كان أحد إخوة الأمير غوكبوري (1154-1223م)⁽³⁾ والذي كان من المفروض أن يتزوج ربيعة خاتون أخت صلاح الدين "شاب يافع" و"شهيد"، مما يدفعنا للتفكير أنه مات شاباً وهو يحارب الفرنجة. يعد هذا الضريح الذي بني كما هو مألوف في الهندسة الحلبية أول ضريح من سلسلة طويلة من الأضرحة يعتبر بعضها نجاحاً كبيراً في الهندسة المعمارية في دمشق.

يوجد في غرب الضريح السابق ضريح آخر أكبر أهمية بقبة مضلعة محمولة على رقتين، عُرف بفضل الكتابة المنحوتة فوق الباب أنه ضريح أحد أبناء صلاح الدين، وهو الملك المنصور حسن، والذي مات في 4 تشرين الأول 1179م. احتفظ المبنى، الذي حصلت في قبته فجوة، ببعض العناصر الزخرفية الداخلية: أفاريز من الجص وتشبيكات زهرية هندسية زرقاء اللون على باطن قناطر زوايّة. دُفِن قريبان آخران لصلاح الدين في هذه التربة وهما أخوه شاهنشاه، أمير بعلبك الذي مات في تموز 1148م وهو يحارب الفرنجة، وابن عمه فتح الدين ابن شيركوه⁽⁴⁾.

قامت زمرد خاتون الملقبة بست الشام - وهي أخت صلاح الدين وأخت ربيعة خاتون غير الشقيقة - ببناء مدرسة كبيرة، هي المدرسة الشامية، بالقرب من الترتين السابقتين، قبل عام

(1) Sauvage, H., المرجع نفسه، الجزء 3، 1894م، ص 407-409.

(2) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 535. غوكبوري كلمة تركية تعني "الذئب الأزرق".

(3) R.C.E.A., الجزء 9، العدد 3299.

(4) Sauvage, H., المرجع نفسه، الجزء 6، الفصل 2، ص 268.

1186م⁽¹⁾. لم يبق من المبنى الأصلي إلا التربة والحوض الواقع في الفناء، ويعود ترميم الباقي وخاصة الرواق ذا القناطر التي لحجارتها لونان والذي يتقدم المدخل، إلى القرن الخامس عشر. والشيء الفريد في هذه المدرسة بين جميع المباني المعاصرة لها، هو بناء غرفة الضريح على شكل مربع واسع يبلغ طول ضلعه عشرة أمتار تقريباً (بأربع انخسافات تعلوه قبة عظيمة مضلعة قائمة على أربع كتل مضلعة على ارتفاع متر وعشرين ستمتر فقط من الأرض. في هذه المدرسة أجمل وأكمل مجموعة من الجص المنحوت في دمشق: تنوءات ببروز طفيف مزينة باللون الأزرق الذي يحدد الخطوط الرئيسية للبنية، وخاصة منحنيات تقاطع السطوح المختلفة. ثم إن الشريط المزخرف بتشييكاته الزهرية للجدار الشمالي، والرسوم النافرة في الجدارين الشرقي والغربي هي من أروع ما يكون. ويوجد فوق المحراب وفي الجدارين الشرقي والغربي هياكل واجهات قديمة من الزجاج المعشق. وقد شغلت مركز الغرفة ثلاثة أضرحة على شكل قوس قوطية يمكن تعرفها من الكتابة الجميلة المنحوتة عليها. الضريح الموجود في الجنوب هو ضريح أخي صلاح الدين الكبير، توران شاه، "الشهيد المحظوظ، والابن اللامع لنجم الدين أيوب"⁽²⁾. إن توران شاه، وهو الخادم المخلص لطموحات أخيه صلاح الدين، هو من أخضع في عام 1172م النوبة، وفتح بعد عامين اليمن، التي رغب صلاح الدين في ضمها لكي يرفع من عائداته وذلك بالسيطرة على تجارة البحر الأحمر. في حزيران 1176م، قدم إلى دمشق في الوقت الذي ذهب فيه أخوه ليحاصر حلب، ومات في الإسكندرية في حزيران 1180م، فنقلت ست الشام جثثانه إلى دمشق عام 1182م ليُدفن برعايتها في المدرسة الشامية في تشرين الأول - تشرين الثاني 1186م. الضريح المركزي هو ضريح الأمير نصر الدين ابن شيركوه وابن عم صلاح الدين، "المجاهد والمغفور له"⁽³⁾، وهو زوج ست الشام الثاني، مات في القاهرة في 3 آذار 1186م. أما الضريح الشمالي فهو ضريح الأمير حسام الدين محمد، ابن ست الشام من زواجها الأول، "محارب وشهيد محظوظ"⁽⁴⁾، مات في تشرين الأول 1191م. وقد ماتت ست الشام نفسها في

(1) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد: 3407.

(2) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد: 3407.

(3) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد: 3408.

(4) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد: 3448.

23 كانون الثاني 1220م (في منزلها الواقع جنوب البيارستان النوري الذي أصبح المدرسة الشامية داخل السور) ودفنت بالقرب من ابنها.

أنشئ في المكان الذي يدعى الشرف الأعلى الواقع خارج السور غرباً، مدرسة قُروخ شاه، ابن شاهنشاه أحد إخوة صلاح الدين⁽¹⁾. عُيّن فروخ شاه حاكماً لدمشق عندما عاد صلاح الدين إلى مصر بعد أن فتح المدينة. وكما يذكر ابن خلكان تمتعت المدينة في ظل "إدارته الحذرة والحازمة" بازدهار كبير⁽²⁾. فقد قام بدور كبير جداً في الجهاد، وقاد عديداً من الحملات. ففي سنة 1181م عندما كان حاكماً لدمشق حارب الفرنجة في الكرك، ومنع رينو دو شاتيون من احتلال تيباء⁽³⁾. وفي أيار 1182م هاجم طبرية، واستولى على عديد من المواقع، وأحضر معه إلى دمشق غنيمة ثمينة مكونة من ألف أسير وعشرين ألف رأس من المواشي. مات في 20 أيلول 1183م، ودفن في التربة التي تحمل اسمه والتي أسست، كما هو مذكور في النص المنحوت على ساكف الباب، بأمر من أمه. يطابق المبنى نموذج الأضرحة المقبية في العهد الأيوبي: صالة مربعة في كل جانب انخساف كبير له شكل قوس مكسورة تعلوها قبة محمولة على رقتين متراكبتين وأربع قناطر على شكل نصف قبة. بنيت الجدران بحجارة المقلع، أما الرقتان والقبة فقد بنيت بالآجر. يغطي طلاء من الجص كل الجدران الداخلية وظاهر القبة والواجهات الداخلية للرقبتين. الزخرفة قليلة جداً، وتوجد فتحات صغيرة مزدوجة على الجوانب الداخلية للرقبة السفلى المثمنة الزوايا، في حين يوجد في الرقبة العليا التي تعلو السابقة كوى متناوبة مع فتحات. تبرز شرائط مسطحة، قولبت بنتوءات طفيفة، الخطوط الكبيرة للهندسة المعمارية وتحيط بالجدران وتسير بمحاذاة حروف الانخسافات وتتألق في قمة الأقواس بأشكال زهرية منحوتة في الجص. تزين زخرفة كبيرة من التشبيكات الزهرية والملونة بالأزرق على خلفية بيضاء باطن قناطر الزوايا. ويعلو الباب، الذي بني إطراره بحجارة مصقولة من الحجم الكبير ومُكحلة على نحو رائع، ساكفٌ عليه نص التأسيس وقوس لإنقااص الحمل يبدو في مركزه "قفل" كاذب من حجر أسود مرصع. يكمن الأثر الهندسي للمبنى في تقنية الانتقال من مكعب صالة الضريح إلى القبة نصف الكروية وفي الرقتين المتعددي الزوايا والمتراكبتين، وفي النسب المحسوبة

(1) Sauvage, H. المرجع نفسه، الجزء الرابع الفصل الثاني 1894م، ص 272، 273. و R.C.E.A.، الجزء 9، العدد: 3381.

(2) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 615.

(3) في شمال شبه الجزيرة العربية.

بدقة والتي تخفف من حدة الانفصال المفاجئ الذي لابد أن ينجم عن وجود رقبة واحدة. تبدي هذه الطريقة في البناء تطوراً رائعاً للطريقة الإيرانية في بناء القبة القائمة على قناطر زاوية ورقبة مثمثة الزوايا، وقد استمرت هذه الطريقة في دمشق حتى القرن الثالث عشر عندما ارتقت الهندسة الأيوبية بها إلى قمة الإتقان. لا تحتوي تربة فروخ شاه من الأبنية إلا على صالة الضريح، التي جعلت منها النصوص مدرسة للمذهب الحنفي، حيث كان التدريس يجري قطعاً تحت القبة⁽¹⁾.

تلتصق تربة أخرى أصغر أبعاداً بالتربة السابقة من جانبها الجنوبي. ولما كان الإطاران الموجودان عند طرفي الشاهدة خاليين من الكتابة المنقوشة، كانت الوسيلة الوحيدة التي سمحت لنا تأريخ المبنى هي النصوص الأدبية⁽²⁾. هذه التربة - مدرسة مثل غيرها - هي تربة ابن فروخ شاه، الملك الأحمدي بحرم شاه، أمير بعلبك مدة ثمانية وأربعين عاماً، وهو أمير "فصيح وعالم فاضل وكريم"⁽³⁾، قام باغتياله في 1229 - 1230م في دمشق أحد ممالিকে بعد أن شك في أنه سرق منه حزاماً ومحبرة. قام ابنه ببناء المبنى بعد وقت قصير من اغتياله.

قامت أخت فروخ شاه، عصمت الدين عدرا خاتون، ببناء مدرستها العدروية على مقربة من السور الجنوبي للقلعة، وقريباً من باب النصر ودار العدل التي أنشأها نور الدين. وقد هدم هذا المبنى عام 1936م بعد أن أصابته قذائف الجيش الفرنسي التي قصفت دمشق في تشرين الأول عام 1925م⁽⁴⁾. ولما كان المبنى قد خلا من كتابة منقوشة تُعرفنا به، استطاع جان سوفاجيه⁽⁵⁾ تعرّفه بفضل مصادر أدبية⁽⁶⁾ حدّدت موقعه بكثير من الدقة. ثم إن طراز بنائه يُرجّعه إلى العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر. في شرق المدرسة السابقة تقريباً توجد المدرسة الرّيحانية، التي كانت مهذمة جداً في بداية هذا القرن واختفت اليوم. قام ببنائها في 1169 - 1170م جمال الدين رَيحان أحد ممالك نور الدين السُّود

(1) Sauvage, H. المرجع نفسه، الجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، والجزء: 3، الفصل: 3، 1894م، ص 393.

(2) في الموضوع نفسه، الجزء: 3، الفصل: 3، 1894م، ص 392 و 460، العدد 76، والجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، ص 272.

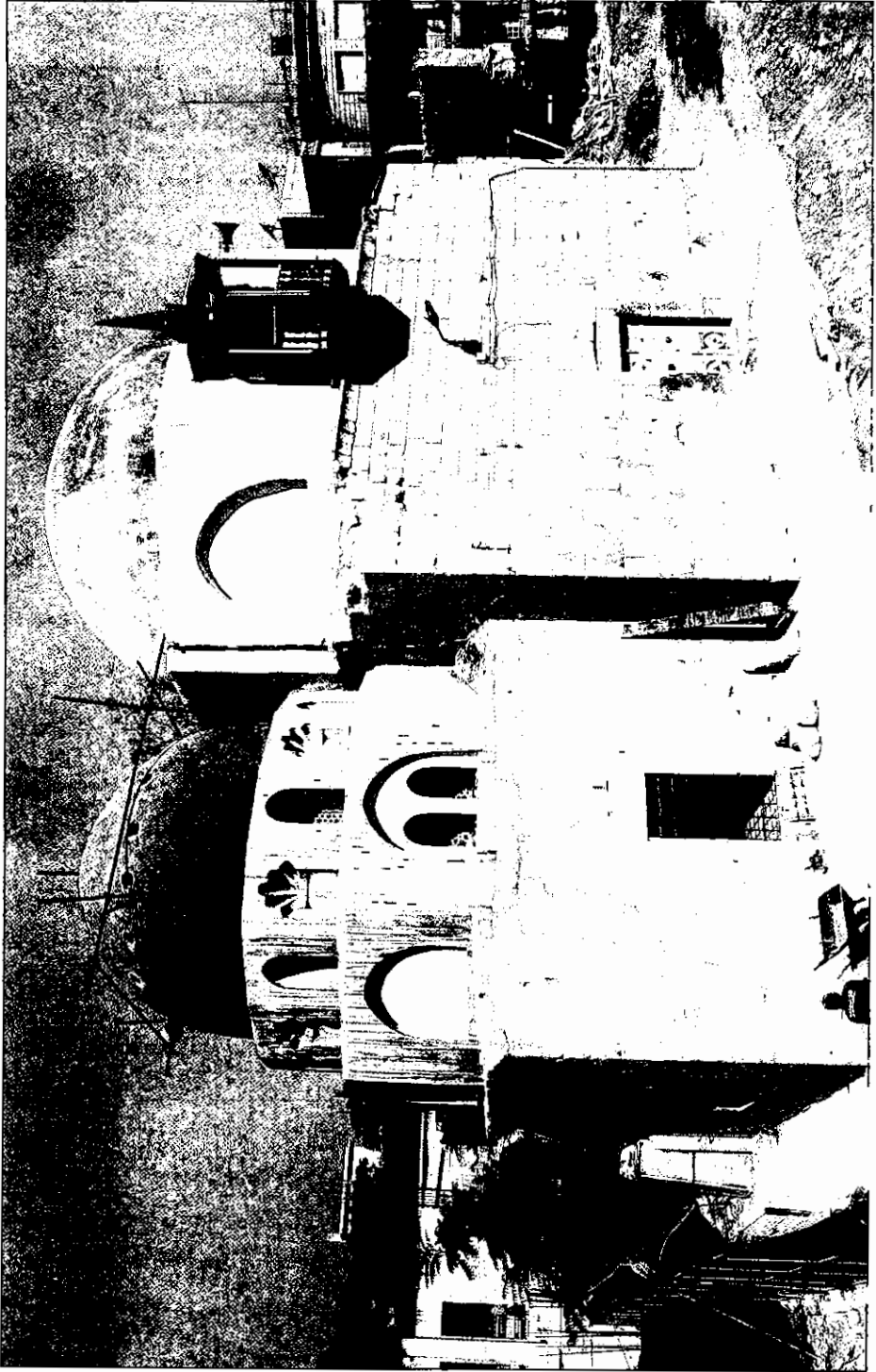
(3) في الموضوع نفسه، الجزء: 3، الفصل: 3، 1894م، ص 394.

(4) Degeorge G. Damas des Ottomans à nos jours p 164-165, 1994.

(5) Sauvage, J. "المباني الأثرية الأيوبية في دمشق"، ص 57 - 63.

(6) Sauvage, H. الجزء: 3، 1894م، ص 425 - 426.

تربة فروخ شاه



وأرقاهم مكانة⁽¹⁾. وجمال الدين ربحان هو من فتح أبواب القلعة التي كان حاكماً لها عند دخول صلاح الدين دمشق.

وفي شمال المسجد الكبير في حي الكلاسة تقوم تربة صلاح الدين، حيث - بعد أن دُفن بالقلعة مؤقتاً كما تذكر الروايات في 4 آذار 1193م - استقر جثمانه نهائياً في 15 كانون الأول 1195م. يذكر لنا عماد الدين الأصفهاني كيف جرت مراسيم المأتم قائلاً: "كان الأفضل يمشي أمام التابوت. وأراد العلماء والقضاة أن يحملوا بأنفسهم تابوت من غمرهم بالخيرات، ولكن "الأفضل" قال لهم: "تكفيه دعواتنا لتحفظه في الآخرة". فحمل جثمانه المهالك والطواشي والمقربون من المتوفى. فخرج من باب القصر باتجاه باب البريد مروراً بدار الحديث ليدخل المسجد الكبير ويضع أمام باب النصر. وبأمر من الأفضل قام بالصلاة عليه القاضي (...)، وبعدها وضع جثمانه في القبر نفس الأشخاص الذين حملوه. دخل الأفضل وحده التربة وسلمها هذه الأمانة الثمينة، ثم خرج مغلقاً الباب تاركاً وراءه والده، ومكث في المسجد ثلاثة أيام وهو في الحداد"⁽²⁾. في العام التالي أي في عام 1196م، بنى العزيز كما يذكر ابن خلكان بعد أن أخذ دمشق من الأفضل "إحدى أكثر الترب شهرة في دمشق"⁽³⁾ والتي لم يبق منها اليوم إلا قوس كان يعلو إيواناً. تطابق هذه التربة طراز أضرحه ذلك الزمن: صالة مربعة مغطاة بقبة ذات ستة عشر ضلعاً عمودياً محمولة على رقتين متراكبتين بثمانية أضلاع وستة عشر ضلعاً. وبجانب "القبر المهيّب من المرمر الأبيض"⁽⁴⁾، هدية الإمبراطور غيوم الثاني، التي وُضعت سنة 1903م في مركز صالة الضريح، يوجد قبر أثري رائع من الخشب المنحوت - جانبان منه فقط أصليان - يعود بناؤه إلى نهاية القرن الثاني عشر. ينقسم الجدار تحت شريط أفقي من الكتابة المنقوشة⁽⁵⁾ إلى لوحات مزخرفة بأشكال زهرية محددة بنقوش بارزة جداً وبتنوعات متعددة الزوايا تحدد أشكالاً نجمية مرسومة في مُثَنَّنات. يوجد في كل زاوية أشرطة عمودية مزخرفة بقرون كثيرة وزهور وعناقيد عنب. يعتبر سوفاجيه، الذي

(1) في الموضوع نفسه، الجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، ص 259.

(2) العماد، في R.H.O.C، الجزء: 5، ص 95-96.

(3) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 547.

(4) "Le cénotaphe de Saladin"، Sauvaget, J.، مجلة الفنون الآسيوية، الجزء: 6، 1929-1930م، ص 168.

(5) آية من القرآن، 2، 256.

يصنف هذه المنحوتات "بين أجمل المنحوتات التي تركها لنا القرن الثاني عشر في دمشق"، هذه التشبيكات الزهرية "تحفة في فن الزخرفة في كل العصور"⁽¹⁾. تعود الإطارات التزيينية الجصية والكسوات الخزفية المزخرفة إلى ترميمات حصلت في سنة 1627م بأمر من باشا عثماني كان يرغب في شكر صلاح الدين لإنقاذه القدس من "رجس الكفرة"⁽²⁾. في خارج باب الفراديس، وعلى طول الجانب الشرقي لمقبرة الدحداح، توجد تربة ابن المقدم التي "بناها الأمير فخر الدين إبراهيم الذي مات عام 597 (1200 - 1201م) ودفن فيها"⁽³⁾. تولى فخر الدين بن شمس الدين محمد بن المقدم، الذي حكم دمشق في عهد نور الدين، وحكم بارين⁽⁴⁾ ثم منبج. لم يكن المبنى المنحدر من الهندسة المعمارية الحلبية، والذي يشترك مع تربة علاء الدين بعدة نقاط، يطابق النموذج المؤلف في بناء الأضرحة في دمشق. تطل صالة الضريح المربعة على الخارج بأربع فتحات عالية على شكل أقواس قوطية فُتحت في مراكز جدران الصالة الأربعة. كانت هذه الفتحات في الأصل مغلقة بحواجز شبكية خشبية يشهد على وجودها حروز تركيبها. يعلو غرفة الضريح من الخارج فُرْضة مصرية ومن الداخل طنْف (كورنيش) مزخرف بتواءات بارزة، وقد غطتها قبة باطنها عقدٌ كاملٌ يُبدي اثني عشر أخذوداً ذا مقطع نصف دائري، وهذه الأخاديد جلية على ظاهر القبة. تتوضع هذه القبة مثل قبة المدرسة العادلية المنحدرة هي الأخرى من الهندسة المعمارية الحلبية، على رقتين من اثني عشر ضلعاً مبنيتين من الحجارة، ومتصلتين بالمرج بمثلثات منحنية الخطوط، تبدي كل منها من وجهها الداخلي اثني عشر تجويفاً. وإضافة إلى الفُرْضة المصرية، والفواصل بين المداميك، وهي ظاهرة من الخارج بقدر حبة الشعير وإلى أقواس الفتحات في لبّات العقد، والمنحوتة من كتلة حجرية واحدة، والمتناوبة مع أقواس أخرى مثلها من حجارة المقلع، فإن الزخرفة متمركزة خاصة في الوجه الداخلي للرقبتين. وهناك على كل تجويف زخارف مختلفة منحوتة في طلاء من الجص: سواء

(1) Sauvaget, J., المرجع نفسه، ص 175.

(2) في الموضوع نفسه، ص 168.

(3) Sauvage, H., المرجع نفسه، الجزء 4: الفصل 2، 1984م، ص 325، العدد 205. تعرف التربة اليوم باسم قبر سيدنا طلحة قام بالتعرف عليها خالد معاذ "Le Mausolée d'Ibn al-Muqaddam", Cf. Moaz K.H.K., ضريح ابن المقدم

Mélanges de l'Institut français de Damas, I, 1929 AD، ص 67.

(4) بارين قلعة موفرند في شمال شرق الكرك.

كانت تشبيكات زهرية متناظرة ومتوضعة حول محور عمودي على نمط بعض الزخارف الجصية المخرمة في مسجد الحنابلة، أو زخرفة مثل زخرفة محراب مسجد الفلوس⁽¹⁾، أو زخرفة على شكل سعف النخيل مكونة من أربعة أوراق متناظرة بالنسبة لغصن يتوسطها وينتهي بتزهيرة، أو زخرفة مقرنصة. هذه المجموعة من الزخارف المنحوتة من أروع وأجمل ما تبقى من العهد الأيوبي.

تقوم على مسافة قريبة غرب تربة صلاح الدين مدرسة استطاعت المصادر الأدبية وحدها تعرّفها بسبب غياب الكتابة التي يُفترض أن تكون منقوشة عليها⁽²⁾. بدأ بناء المبنى في عهد نور الدين ثم توقف بناؤه مؤقتاً بعد موته، ولكن تابع الملك العادل أخو صلاح الدين بناءه لينهيه ابنه، الملك المعظم الذي حكم دمشق من سنة 1218 إلى 1227م. لما توفي الملك العادل في 31 آب 1218م في علقين، دُفن أولاً في القلعة ثم دفنه ابنه في عام 1222م في تربة هذه المدرسة التي أصبحت تسمى باسمه "المدرسة العادلية". يدل نقش البناء وحجارتة على أنه قد أنجز على مرحلتين: واجهات ملساء وفواصل ضيقة جداً بين المداميك العشرة الأولى للجدار الخارجي للتربة، وفي الأماكن الأخرى واجهات خشنة ذات فواصل أكثر اتساعاً. يبدو المبنى بمخططة المائل للمدرسة النورية وأيضاً بالتقنيات المتبعة في بنائه كأنه يتبع المدرسة الهندسية الحلبية. تتوزع الأجزاء الأساسية للمدارس الكبيرة في سورية الأيوبية حول فناء كبير مربع يتوسطه حوض للوضوء، وهذه الأجزاء هي: قاعة للصلاة يدخل إليها عن طريق خمسة أبواب، وقاعة ضريح مقبية، ومدخل مؤلف من بوابة ودهليز ورواق داخلي وإيوان كبير وآخر أصغر، وقاعات عديدة مستطيلة الشكل، وبيوت للخلاء وغرف للطلاب في الطابق العلوي. أُجري في القرن الخامس عشر تعديل على الغرف الواقعة في جهتي الإيوان الكبير. غطت الدهليز وقاعة الصلاة قبوتان مضلعتان، وغطت قاعة الضريح قبة. وعلى عكس المؤلف في دمشق فإن الانتقال من المربع إلى الدائرة لا يحصل هنا بواسطة القناطر الزواية والرقبات المترابكة، وإنما وفقاً لطريقة تتميز بها منطقة شمال سورية، وذلك بواسطة أربعة مثلثات كروية زوّد كل منها بستة صفوف من النخاريب في الدبش، وتكوّن في الخارج رقبة واحدة مشمئة. وتعد البوابة تحفة فنية رائعة حقاً في فن قطع الأحجار وترتيبها. يغطي الإنخساف قبتان

(1) عن مسجد الفلوس انظر في الموضوع نفسه، ص 178 والمرجع الذي يسبقه، ص 234.

(2) Sauvair, H. الجزء: 3، 1894م، ص 423، والجزء 6، الفصل: 2، 1895م، ص 248. تقول النصوص إنها "تقع في مواجهة باب المدرسة الزهرية"، وهي مدرسة السلطان المملوكي بيبرس، ويفصل بينها "الطريق".



قريّة ابن المقدم

ذواتا نخاريب ومتلاصقتان في حين زُودَ القوس الرئيسي بمفتاح متدلٍ ملتصق بقوسين ثلاثيين الفصوص. يحتوي المبنى في وضعه الحالي على قليل من العناصر الزخرفية، ففي الفناء توجد بقايا بلاط من حجارة سوداء وزهرية، وبقي في الدهليز إطار مزين بنتوء حول باب القبر، وفي صالة الضريح بقيت مثلثات القبة ذات النخاريب والأقواس الكبيرة المكسورة في انخساف في الجدران، وفي البوابة بقي إضافة إلى القباب ذات النخاريب والأقواس الثلاثية الفصوص والمفتاح، إطار مثلث مزين بنتوء بلا نقش، وزخرفة ملونة خفية في إطار باب من البازلت والكلس، ونقوش مسننة مكونة إطاراً حول الفتحة، وتشبيكات هندسية من الجص الأسود المرصع فوق الساكف. وبقيت في قاعة الصلاة المقرنصات وصدفة المحراب. كان هناك وفقاً للمعهود في العهد الأيوبي اهتمام خاص بمرافق سواكف النوافذ في صالة الضريح: قوس عاتق بارتفاع مدمكين فوقه شق أفقي في البناء. إن الأثر المعماري للمبنى، الذي صممه على الأغلب مهندس حلبي، ناتج من تلاعب النسب ومن نوعية المواد المستخدمة، وإعمال التقنيات وكما لها، وتأكيد الدور البنيوي لكل عنصر.

من المدرسة التي وقفها قهرمان الملك المعظم الأمير "عز الدين أيبك" في عام 1224م للمذهب الحنفي، كما يذكر لنا نص التأسيس الموجود على ساكف الباب، بقيت تربة بقبة وبوابة في الشرف الأعلى المشرف على نهر بردى ومقبرة الصوفيين القديمة⁽¹⁾. ثارت الشكوك حول عز الدين أيبك، الذي كان حاكم صلخد عدة سنوات، واتهم بالخيانة فسجن مؤقتاً في القاهرة حيث مات عام 1248م بعد أن خصص وفقاً لمدرسة أخرى في دمشق وذلك في حي القنوات⁽²⁾. نُقل رفات هذا الأمير الذي يصنفه بعض الكتاب "بين أكثر الناس ذكاء وشهرة"⁽³⁾ بعد ثمانية أعوام من موته إلى دمشق ليُدفن في التربة التي أمر ببنائها لنفسه⁽⁴⁾. يعد هذا المبنى، المائل من جميع النواحي للتراب الأيوبية، الوحيد من ذلك العصر الذي احتفظ حتى بداية هذا القرن⁽⁵⁾ ببقايا زخرفة ملونة موجودة على ظاهر القبة: ففي الجزء العلوي يوجد طلاء قرمزي اللون، ومن تحته يبرز في مساحة واسعة بيضاء

(1) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد 3914.

(2) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد 4185.

(3) Sauvaire, H.، الجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، ص 269.

(4) في الموضوع نفسه، ص 269-270.

(5) SAUVAGET، المباني الأثرية الأيوبية في دمشق، ص 73.

صف من البراعم من نفس اللون. وفي الداخل، في لوحة جبهة الجدار الجنوبي مازال قرص ذو حافات مزخرفة على شكل براعم وتشبيكات زهرية منقوشة في طلاء من الجص الذي يغطي كامل القاعة. ومازال يوجد في الأسفل جزء من آية قرآنية غالباً ما تذكر في الكتابات التي تنقش على شواهد المقابر: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾⁽¹⁾. وكما هو عليه الحال في كل المباني الأثرية المعاصرة تسد ألواح من الزجاج المعشق في هياكل جصية النوافذ التي تحترق رقبات القبة.

تقوم في جنوب المسجد الكبير وقريباً من موقع منزل معاوية القديم مدرسة لأحد مملوكي نور الدين، وهو سيف الدين قلیج، الذي مات عام 1245م. وعلى عكس كل المباني الأثرية من هذا الطراز لم تبني هذه المدرسة في حياة من ستخصص إليه، وإنما بعد موته، بناءً على وصيته التي وصى فيها كبير قضاة دمشق ببنائها وجعلها وقفاً. بدأت أعمال بنائها في عام 1247م وانتهت عام 1253م⁽²⁾. التهمت النيران هذه المدرسة عام 1400م عند مرور جيش تيمورلنك، ورممت عام 1518م. لم يبق من كيانها الأصلي إلا البوابة، المغطاة في الأصل بأربع قباب صغيرة، والمزودة مثل بوابة المدرسة النورية والعادلية بمفتاح متدل وتربة وواجهة تُعدُّ بتنسيق حجارتها التي يتناوب فيها الأبيض والأسود أول نموذج دمشقي عن الزخرفة المتعددة الألوان التي انتشرت فيما بعد انتشاراً واسعاً في عهد المماليك. وقد نُقشَ على ساكني نافذتي الواجهة أبيات من شعر المؤسس تدعو المارة لتقليده: "هذه الدار حيث نوجد والتي هي دارنا هي البيت الحقيقي فكل البيوت فانية فيما عداها. فابن إن استطعت داراً يكون لك معاداً عما قريب. واعمل صالحاً ليرافقك فيها عملك الصالح كما يرافق الصديق صديقه"⁽³⁾.

في حي الصالحية الذي شهد تطوراً كبيراً في زمن الأيوبيين، بُني أكبر عدد من الترب والمدارس. في العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر حوّل الشيخ عمر محمد الجمالي الخانقاه التي بناها والده أحمد بن قدامة إلى مدرسة تدعى المدرسة العمرية. من هذه المدرسة، أفضل الأجزاء الباقية حالياً هو المسجد الذي يجري من تحته نهر يزيد، وهو قاعة مستطيلة الشكل يغطيها سقف ذو سطحين مائلين ميلاناً طفيفاً ومحمول على عمودين واقعين في المحور المتوسط الكبير. ويتقوس المحراب

(1) القرآن 55، 26.

(2) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد 4380.

(3) Sauvaget J. "Monuments de Damas"، المباني الأثرية في دمشق، ص 66.

بقبوته النصفية الملساء في لوحة كبيرة نسقت فيها الحجارة جيداً، إلا أن العمودين الصغيرين الجانبيين للمحراب قد اختفيا اليوم. وأصبحت الغرف، التي تحيط بالفناء والتي يحتمل أن تكون بقايا دير في الأصل، حطاماً. ويرجع الرواق ذو الأعمدة بحجارته المنسقة الثنائية اللون وتيجان أعمدته المقرنصة - التي يحتمل أنها من القرن الثالث عشر وقد أعيد استخدامها - والذي يمد الواجهة الرئيسية للمسجد باتجاه الشرق، إلى ترميمات حصلت في القرن الخامس عشر.

بُنيت تربة الأميرة عصمت الدين خاتون، ابنة معين الدين أنر، في عام 1182م. وصفت هذه السيدة كما هو مذكور في نص التأسيس بأنها "أميرة مشهورة وسيدة قديرة وحاكمة عادلة ورمز أصالة الأميرات وتاج نساء العالم"⁽¹⁾. تزوجت عصمت الدين نور الدين عام 1147م، وتزوجها صلاح الدين (وكان ذلك زواجه الخامس) في عام 1176م أي بعد ستين من وفاة نور الدين، حرصاً منه على دعم مطامحه في خلافة الزنكيين بكل الوسائل. وفي 3 نيسان 1185م ماتت هذه السيدة التي كان يعتبرها الجميع أكثر النساء طهراً وحصانة وتقديراً، والتي كانت لا تفتأ تعمل الخير وتوزع الصدقات، والتي استمسكت وفقاً للتعبير القرآني "بالعروة الوثقى لا انفصام لها"⁽²⁾ أي إنها في حماية الله. ولم يبق من تربتها على حاله الأصلي غير قاعة الضريح الغنية بزخرفتها في الجص المنحوت. وجرى تحويل القاعات المجاورة لها إلى مسجد في عام 1388م، وهو المسجد "الجديد"، الذي رمم ووسع في العهد العثماني عام 1568م⁽³⁾.

وجرى تحويل المدرسة البدرية التي أسسها في نهاية القرن الثاني عشر بدر الدين حسن، وهو أخو نور الدين بالرضاعة وأحد أمراءه الرئيسيين، إلى مسجد كبير عام 1340م، ولكنه أصبح في القرن السابع عشر حطاماً⁽⁴⁾. احتفظت التربة - وهي الجزء الوحيد المتبقي من هذه المدرسة - بقبة مضلعة متوضعة على رقتين، وقد احتفظت بزخرفتها الملونة سليمة: من تشبيكات زهرية ونقوش من الكتابة الكوفية المضفورة وآنية للزهور وقناديل.

(1) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد: 3367.

(2) Sauvaire, H.، الجزء: 5، الفصل: 2، ص 236.

(3) في الموضع نفسه، ص 236.

(4) Sauvaire, H.، الجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، والجزء: 5، الفصل: 2، 1895م، ص 281.

تقوم في شمال تربة عصمت الدين خاتون مدرسة ومدفن شركس بن عبد الله، وهو "رجل نبيل ذو نفوذ واسع وفكر رفيع"⁽¹⁾، وهو أيضاً أحد الأمراء المهمين في عصره، كان أولاً قائد ممالك صلاح الدين ثم ضابط الملك العادل، مات كما يذكر نص التأسيس المنقوش على ساكف النافذة في 29 كانون الأول 1211م، "بعد عودته من الجهاد"⁽²⁾. من المحتمل أن يكون، كما تروي المصادر الأدبية، قد بنى المدرسة أحد ممالكه بعد موته، وهو الأمير سارين الدين حُطْلُبا، الذي عينه صلاح الدين حاكماً للقاهرة عام 1178م قبل أن يصبح فيها بعد حاكماً لعدة حصون. مات هذا الأمير عام 1237م، ودفن بالقرب من سيده⁽³⁾. يحتوي المبنى حالياً، بعد أن اقتُطع منه على أغلب الظن جزء من قاعاته الأصلية من جانبه الشمالي وشغل اليوم بالمساكن: مدخلاً يُطل على الجهة الجنوبية، وفي صف موازٍ للمحور الشرقي الغربي مسجداً - هو اليوم بلا فناء - وقاعتين ضريحتين مضملمتين. تتوضع هاتان القبتان، كما هو معهود في العصر الأيوبي، على رقتين متراكبتين، في حين صارت قاعة الصلاة شرفة مسقوفة، بعد أن كانت مغطاة في الأصل بسقف ذي سطحين مائلين. تتمركز الزخرفة الخارجية في الرقتين اللتين تبدي أضلاعهما كوى بخلفية مسطحة أو صدفية أو فتحات مزدوجة، وفي سواكف نوافذ التربة الغربية التي نقش عليها نص التأسيس ونوافذ التربة الشرقية. في الداخل، توجد على الطلاء الجصي زخرفة مجسمة: قويزات في رُكنيات⁽⁴⁾ الرقبات السفلى وتزهيرات في قمة الأقواس الحاملة للقبّة. وقد كانت الفتحات الموجودة في الرقبات مسدودة في الأصل بزخرفة زجاجية ملونة. تحتوي كل تربة على قبرين لم ينقش عليهما كتابة، وهما على شكل متوازي سطوح ومن حجارة مقلع كبيرة الحجم. أمكن معرفة ثلاثة أشخاص دفنوا في هذه التربة وهم: شركس، من النصوص المسجلة فوق نوافذ التربة الغربية، وحُطْلُبا، من مصادر أدبية، وفخر الدين محمد، ابن شركس من نص موجود فوق الباب الذي يؤدي إلى الفناء، والذي ذُكر فيه أن فخر الدين محمد مات في دمشق في 29 آب 1218م. من الممكن أن تكون التربة الغربية - وهي أولاً بناءً، وهي تربة شركس قطعاً - هي أيضاً تربة ابن شركس، فخر الدين. أما التربة الشرقية فهي تربة حُطْلُبا وتربة ابن آخر لشركس، كان حُطْلُبا، طبقاً لمعلوماتنا، أتابكاً. وسمي

(1) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء: 1، ص 347، و. Sauvair، الجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، ص 249 - 251 وص 300 العدد 32.

(2) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد: 3687.

(3) Sauvair، الجزء: 4، الفصل: 3، 1894م، ص 249 - 251.

(4) رُكنية هي زاوية بين عقدين متماسين.

الجزء المركزي لصاحبة الصالحية بالشركسية نسبة إلى المدرسة الشركسية، التي يبدو أنها كانت ذات شهرة كبيرة كما يذكر ابن خلكان في النصف الثاني للقرن الثالث عشر: "كانت محط الأنظار".

أمكن تعرّف تربة الحسن بن سلامة، الواقعة في الجانب الجنوبي لشارع الصالحية الكبير والمغطاة بقبة مضلعة جميلة، عن طريق نص من خمسة أسطر منحوتة على ساكف النافذة، ويتضمن اسم المتوفى - شخصية غير معروفة - وكذلك تاريخ وفاته: 1213م، إضافة إلى آيتين قرآنتين: "كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"⁽¹⁾.

تقوم في شرق تربة عصمت الدين خاتون، شمال نهر يزيد مباشرة، تربة الأمير "سابق الدين مثقال" الذي شغل مراكز عالية أثناء حكم صلاح الدين - فلقد كان جداره، أي حاجبه - وكذلك الأمر أثناء حكم المعظم. لم تكن صالة الضريح المربعة الشكل مغطاة بقبة، ولكن - مثل المدرسة الشامية الواقعة خارج السور - بقبوة مضلعة هي اليوم مهدمة. هذه التربة غنية بالكتابة المنقوشة⁽²⁾، إذ يوجد على ساكف النافذة الغربية تعريف بالمتوفى وألقابه وتاريخ تشييد التربة: أيار 1224، وتوجد على الوجه الشرقي للقبر الآية القرآنية: ﴿قُلْ إِنْ أَلَمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾، يتبعها ذكرٌ للدور الذي قام به مثقال "في خدمة صلاح الدين" والجهاد ومساهمته في معركة حطين وفي استرجاع عكا وعسقلان والقدس وتبين صفد واللاذقية وبرزة وساؤن، إلخ. ونقش على الوجه الغربي الآية القرآنية: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾⁽⁴⁾، يتبعها نص يذكر فيه أن "مثقال" قد بنى القبر على أنه "عمل صالح" ليحصل على "نواب الله ورحمته ورضاه وعفوه..." "ذاكراً أن لعنة الله وملائكته والناس أجمعين على الذي يغير أو يؤذي المبنى "قولاً أو فعلاً".

وعلى مسافة قصيرة غرب المدرسة الشركسية تقوم تربة الشيخ علي الفرنثي الذي كان كما يقول

(1) القرآن 55، 26، 27.

(2) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد: 3908، 3909، 3910.

(3) القرآن الجمعة/ 8.

(4) القرآن: التوبة/ 21.

عنه بعض الكتاب "رجلاً تقياً، ذا نفوذ كبير، مولعاً بالعبادة والقيام بالأعمال الصالحة"⁽¹⁾. يؤرخ البناء ويعرف به النص المنقوش على ساكف النافذة⁽²⁾. تؤكد المصادر الأدبية أنه قد بني بعد وفاة الشيخ المفاجئ في تموز 1224م. واحتفظ باطن القبة المحمولة على رقتين متراكبتين بزخرفة من الجص المنقوش.

تقوم في نهاية الصالحية من الجهة الشرقية مدرسة ومدفن الأمير ركن الدين منكورس، الذي كان حاكماً لمصر ودمشق أثناء حكم الملك العادل⁽³⁾. بنيت، وفقاً للنص المنحوت فوق النافذتين، عام 1224م، وقد خصص "لصيانتها وتزويدها بالزيت والشموع والحصير وأجر خادميها وأجور قُرَّاء القرآن" وقف مكون من عشرة منازل وسُدس متجرين، وحديقة، وسدس بستان وسدس مقصورة للنزهة وطاحونة وبساتين أخرى، "دون أن يسمح لأي كائن يؤمن بالله تعالى بإفساد أو تغيير هذا الأمر"⁽⁴⁾. يتألف المبنى من ثلاثة أجزاء: التربة المغطاة بقبة مضلعة قائمة على رقتين من ثمانية وستة عشر ضلعاً من الحجارة المنسقة، وفناء صغير مربع يتوسطه حوض، غير مكشوف، على عكس المألوف، وإنما مغطى بقبة، وقاعة للصلاة مستطيلة الشكل ومغطاة بقبة نصف أسطوانية لطرفيها شكل قوس رواق دير. يمكن الدخول، كما هو الحال في دار الحديث لنور الدين وفي معظم المباني الأثرية الأيوبية، إلى قاعة الصلاة من الفناء عن طريق ثلاث فتحات، فتحة مركزية تتوسط اثنتين أخريين أصغر منها. يحيط رواق ضيق مقبب بالفناء من جانبيه الشمالي والغربي. تقوم القبة التي تغطيه على رقبة واحدة مثمثة وأربعة عقود زوايا وقنطرتين بعمود مركزي، وذلك من الجانبين الشرقي والغربي. يوجد على ساكفي النافذتين الشماليتين للتربة زخرفة نادرة في دمشق الأيوبية: وقد نقش اسم محمد (ﷺ) بالخط الكوفي - طراز من الكتابة المنتشرة في إيران السلجوقية - وكرر أربع مرات بالتعاقب الدوراني. أصبح هذا المبنى الذي يعد من أجمل مباني العصر الأيوبي مشوهاً اليوم بسبب متذنة مضلعة ألحقت به عندما أجريت له ترميمات حديثة. وقد كان هناك رغبة عام 1990م في إلغاء

(1) Sauvaire, H.، الجزء 4، الفصل 2، 1894م، ص 279.

(2) R.C.E.A.، الجزء 10، العدد: 3911.

(3) Sauvaire, H.، الجزء 3، الفصل 3، 1894م، ص 403، والجزء 4، الفصل 2، 1894م، ص 258.

(4) R.C.E.A.، الجزء 10، العدد: 3915.

الحوض الجميل المركزي للفناء- بانتظار أن يزال قبر الأمير - وذلك بغية توسيع المكان للمصلين بعد أن أصبحت قاعة الصلاة صغيرة بسبب زيادة عدد سكان الحي منذ عشرات السنين.

توجد بالقرب من المدرسة البدرية بقايا تربة شبل الدولة كافور، أحد عبيد حسام الدين الذي كان ابن لاجين وست الشام خاتون⁽¹⁾، والذي مات في تموز 1226م. كانت التربة في الأصل جزءاً من مجموعة من الأبنية الأثرية مكونة من مدرسة وممر مسقوف ونافورة ماء وخزان وخانقاه، ووجد نص إنشائها منحوتاً على ساكف بالقرب من التربة⁽²⁾. كانت هذه التربة الواقعة في الجهة الأخرى للفناء - مقابل قاعة الصلاة في المدرسة - مبنى مربع الشكل بثلاث فتحات واسعة على كل جانب من جوانبه، ومغطى بقبة من الآجر قائمة غالباً على رقتين متراكبتين من ثمانية وستة عشر ضلعاً. احتفظ القبر الأثري المبني بالحجارة المصقولة - قاعدته مستطيلة يعلوها غطاء على شكل قوس قوطية - ببعض العناصر الزخرفية التقليدية، من صفوف من حبات اللؤلؤ، و صفوف من العقد الوردية وكتابة منحوتة نحتاً بارزاً جداً على الشاهدة⁽³⁾ وآيتين قرآنيتين، آية في القاعدة، وهي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾⁽⁴⁾ وأخرى على طرف غطاء القبر الذي اتخذ شكل قوس قوطية وهي: ﴿يَبْشِرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾⁽⁵⁾.

على ضفاف نهر تورا وبالقرب من الجسر الأبيض، بنت زوجة الملك المعظم، عزيزة الدين أخصوراً خاتون، أميرة ماردين⁽⁶⁾، بدءاً من عام 1213م مدرستها (ومدفنها) المعروفة باسم الماردانية التي انتهى بناؤها عام 1226 - 1227م وجعلت وقفاً⁽⁷⁾، إلا أنها لم تضم أبداً قبر مؤسستها، وبقيت الألواح المزخرفة التي لها شكل ذيل السنونو، والمعدة لتُحفر عليها نقوش التشييد خالية منها. فلقد

(1) Sauvaire, H. الجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، ص 263 - 265. قبل أن يتزوج نصير الدين بن شيركوه، كانت ست الشام

متزوجة من لاجين. دُفن ابنه حسام الدين في المدرسة الشامية خارج السور. في الموضوع نفسه، ص 220.

(2) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد: 3949.

(3) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد: 3950.

(4) القرآن 2، 256.

(5) القرآن، 9/ 21.

(6) مدينة في شمال سورية هي اليوم مدينة تركية.

(7) Sauvaire, H. الجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، ص 282 - 283.

ذهبت هذه الأميرة إلى ماردين أو إلى مكة حيث أصبحت بسبب فقرها حاملة للماء ولم تعد إلى دمشق، فبقيت تربتها خالية إلى أن وجدها أحد الأمراء المماليك، "أزدمر" ملائمة له فتملكها، ودفن فيها في السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر. وفضلاً على إضافة مئذنة في الزاوية الشمالية الغربية للمدرسة، أجرى هذا الأمير عدة تعديلات على المبنى الأصلي. تلاصق التربة المغطاة بقبة متوضعة على رقتين، كما هو مألوف في المدارس الجنائزية الأيوبية، قاعة للصلاة وذلك من الجانب الشرقي. يغطي هذه القاعة طبقة رقيقة من الطين المعالج محمولة على هيكل ذي سطحين مائلين. ونجد فناء مكشوراً يتوسطه حوض للوضوء بأرضية مزخرفة أمام الواجهة الشمالية للمسجد التي يتصل الفناء بها عن طريق ثلاث فتحات (الفتحة المتوسطة أوسع وأعلى من الفتحتين الجانبيتين). يتاخم هذا الفناء من جانبيه الشرقي والغربي إيوانان بأبعاد غير متساوية. احتفظت الفتحات الموجودة في حائط الجملون لقاعة الصلاة - فتحان مزدوجتان تعلوهما كوة - بزخرفتهما الزجاجية الملونة القديمة والمركبة في هيكل من الجص المزخرف بغصينات وسعف وبراعم وتشبيكات زهرية متنوعة. في حين اختفت الزخرفة الغنية في قاعة الصلاة وحل محلها عناصر حديثة أثناء الترميمات الحديثة التي شوّهت الفناء والواجهة الشمالية. كانت مصاريع الأبواب مكونة من ألواح مستطيلة يحيط بها إطار أملس. تنتشر في كل لوح وعلى خلفية منحوتة بزخارف على شكل دولي، زخرفة محاطة بأغصان مورقة وشرائط من التشبيكات الزهرية يعود أصلها إلى إيران الساسانية، وكذلك إلى فن سامراء ومصر الطولونية والفاطمية ومنطقة ما بين النهرين العليا الزنكية. ويغطي ساكف باب المدخل للواجهة الشمالية لوح ملبس بالخشب ومكون من صفائح صغيرة متعددة الزوايا يجمعها عيدان ناتئة مكونة تشبيكات هندسية. وقد زين كل لوح، كما هو الحال في ضريح صلاح الدين، زخرفة من الأغصان المتشابكة عليها سعف وأنصاف سعف.

بنى الملك المعظم - الذي يصفه ابن خلكان بأنه محب للأدب، ومحترمٌ لرجاحة عقله وحزمه وشجاعته ومهارته وأعماله الخيرة، إلا أن ميله للسُّكر قد أفسده⁽¹⁾ - مدرسته (ومدفنه) الخاصة به "المعظمية" وذلك في الصالحية عام 1224 م. قامت هذه المدرسة التي اختفت اليوم بالقرب من التربة

(1) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء: 2، ص 428. يصفه ابن العميد بأنه "أمير كريم وهمام، عزيز ومثقف، عادل وعسن، لطيف وسمح الطباع Chronique des Ayyoubides، ص 39. في حين لم يتمتع ابنه الملك الناصر داود بمثل هذا الوصف الجميل (المرجع نفسه، ص 39).

التي دفنت فيها أمه عام 1205م وأخوه فتح الدين عمر الذي توفي عام 1209م. مات الملك المعظم عام 1227م ودفن أولاً في القلعة ثم نقل جثمانه إلى مدرسته في تشرين الثاني من عام 1229م.

تقوم مدرسة الأتابكية غرب تربة عصمت الدين خاتون غير بعيدة منها، وهي مدرسة الأميرة ترکان خاتون، حفيذة زنكي وأخت عاهل الموصل "نور الدين أرسلان شاه" وزوجة الأشرف موسى الذي حكم دمشق من عام 1228م إلى 1237م. ماتت ترکان خاتون في أيلول 1242م ودفنت في مدرستها التي جُعلت وقفاً في نفس ليلة وفاتها⁽¹⁾. تثير بوابة المبنى الاهتمام بوجه خاص، فهي انخساف عميق تغطيه قبة نصفية بأربعة صفوف من المقرنصات تعلوها صدف، وباب ينفتح تحت قوس مكسورة، لبُنائتها على شكل جرس مقلوب. أُجريت على المبنى الأثري الذي بقي على حاله بعض التعديلات في زمن المماليك: إذ هُدم الحائط الذي يفصل قاعة الضريح عن قاعة الصلاة، في حين ألحق به مثذنة مربعة المقطع من الجانب الغربي.

أنشأت ربيعة خاتون، أخت صلاح الدين، بالقرب من تربة ابن سلامة، مدرستها فيما بين 1233 و1245م. زوّجها أخوها أحد أبناء معين الدين أنر "سعد الدين مسعود" وتزوجت بعد موته في 1185 - 1186م أميراً تركمانياً هو الملك مظفر الدين الملقب بالكوكبزي⁽²⁾، أمير أربيل الآشورية، وعاشت معه أكثر من أربعين عاماً. بعد وفاة هذا الأمير في حزيران 1233م، عزلت ربيعة خاتون نفسها في دمشق في بيت العقيقي الذي كان ملك والدها نجم الدين أيوب، وماتت في كانون الثاني 1245م عن عمر تجاوز ثمانين ودفنت في مدرستها - المعروفة اليوم بالمدرسة الصاحبية - التي جعلتها وقفاً للمذهب الحنبلي. هذه المدرسة هي الوحيدة التي مازالت تحافظ على حالها الأصلية، ويبدو مبناها إفراطاً شديداً في التناظر. تطل البوابة، الموجودة في انخساف عميق في مركز الواجهة الشمالية والمغطاة بصدفة متوضعة على ثلاثة صفوف من المقرنصات، على فناء مربع تتوزع حوله أجزاء المخطط المتنوعة. ففي الزاوية الشمالية الشرقية توجد التربة وقد زُيّنت سواكف نوافذها المطلّة على الشارع تشبيكاتٌ هندسية جميلة. ومن الجانب الجنوبي توجد قاعة الصلاة، وعلى جانبيها الشرقي والغربي يوجد إيوانان. وفي الزاوية الجنوبية توجد قاعات طولانية الشكل (هي بالتأكيد قاعات

(1) Sauvare, H. الجزء: 3، الفصل: 3، 1894م، ص 385.

(2) في الموضوع نفسه، ص 219 الملاحظة 285.

الدروس، تغطيها قبوتان متراكبتان) تفضي في نفس الوقت إلى قاعة الصلاة والإيوانين الجانبيين. لم يكتمل بناء المبنى في أغلب الظن إلا بعد موت مؤسسته، إذ بقيت الإطارات الواقعة فوق الباب والنوافذ بلا كتابات عليها.

يقوم في جنوب التربة البدرية مبنى - منعزل اليوم في وسط حديقة - أمكن تعرفه بفضل المصادر الأدبية⁽¹⁾، على أنه تربة "أرغون الحافظة"، جارية الملك العادل المُنْتَقَة التي توفيت عام 1250م. في تاريخ لاحق جاور قاعة الضريح المغطاة بقبة متوضعة على رقبة واحدة مئنة مسجد مكون من بوابة وصالة للصلاة وفناء مسقوف كما هو الحال في المدرسة الركنية. إن البوابة، التي نسقت حجارتها بعناية، رائعة، وهي مغطاة بقبوة على شكل قوس رواق ذات قنوات مُكوَّنة في الواجهة قوساً برأس متعدد الفصوص نادر المثال.

في المكان المجاور لتربة الشيخ علي الفرنتي أنشأت ابنة الملك المعظم خديجة خاتون مدرستها المرشدية، وقد جُعِلت وفقاً كما تذكر الكتابة المنقوشة على ساكف الباب عام 1253م⁽²⁾. احتفظت قاعة الصلاة والتربة التي أُعيد حديثاً بناء قبعتها بجزء كبير من كسوتها الجصية المزينة بالتقوآت. وتقوم دار الحديث الأشرفية البرّانية التي بناها الملك الأشرف موسى في 1236 - 1237م إلى شرق المدرسة السابقة مباشرة، وقد فصلها شارع عن المدرسة الأتابكية⁽³⁾.

وتوجد إلى الشرق على مسافة قصيرة من المدرسة الشركسية تربة سيف الدين أبي الفوارس القيمري، أحد الأمراء البارزين، وهو مشهور بشجاعته وخبرته في الفروسية⁽⁴⁾، وقد توفي في 26 آب 1256م. يذكر النص المنحوت على ساكف النافذة اليمنى ألقابه التكريمية: "الأمير الكبير، بطل الإيمان، ركن الإسلام، ملاذ الرجال (...)" ويذكر أن رحمة الله تشمل "كل من يترحم على المتوفى"⁽⁵⁾. يغطي قاعة الضريح المربعة قبة من الآجر محمولة على المثلثات الكروية ورقبة وحيدة بسة

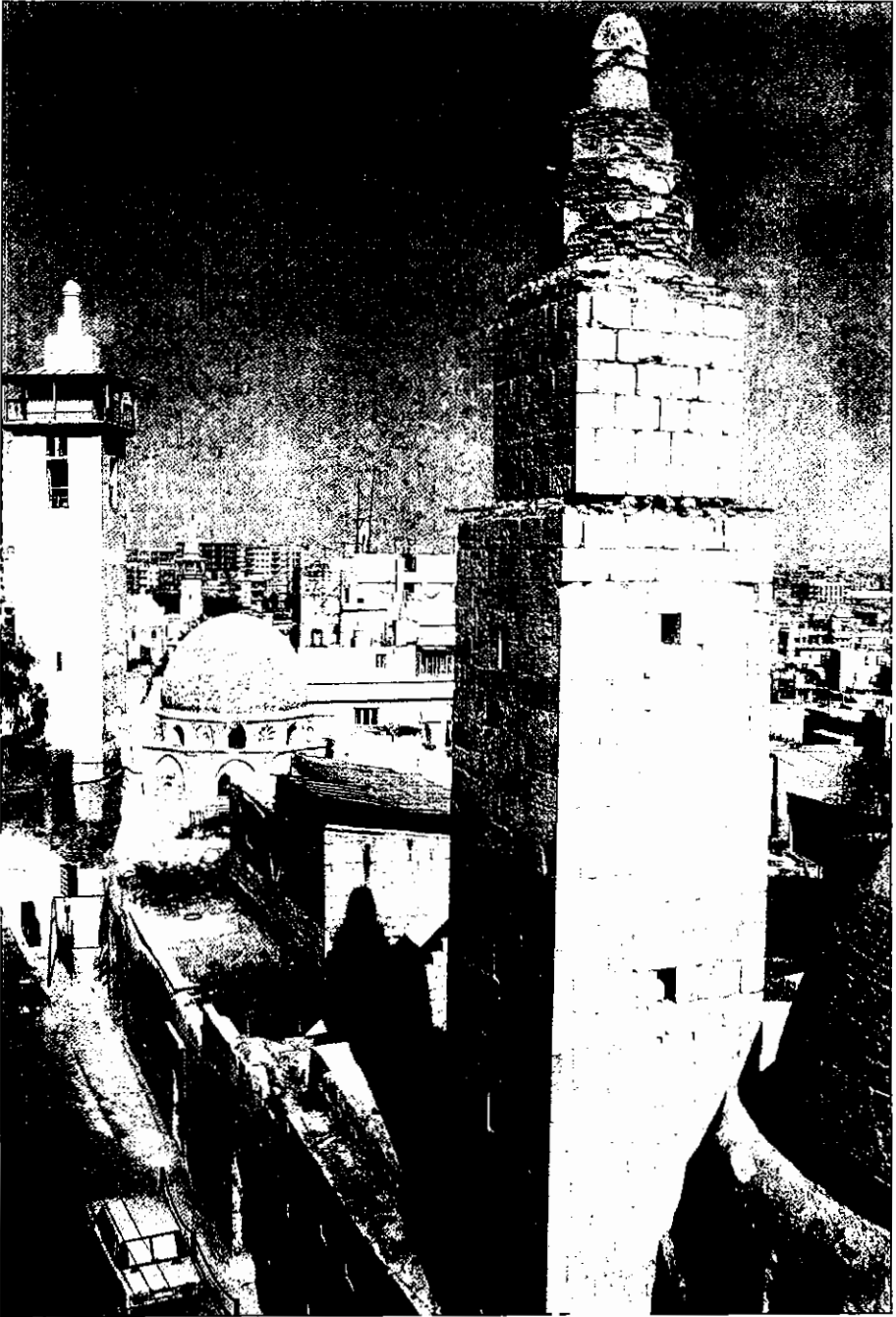
(1) Sauvair, H. في الموضع نفسه، الجزء: 5، الفصل: 2، 1894م، ص 235 - 236.

(2) R.C.E.A.، الجزء: 11، العدد: 4350.

(3) Sauvair, H.، الجزء: 3، الفصل: 3، 1894م، ص 273، والعدد: 25 ص 294. انظر أيضاً الجزء: 4، الفصل: 2، 1894م، ص 279 - 278.

(4) Sauvair, H.، الجزء: 3، الفصل: 3، 1894م، ص 438 والجزء: 6، الفصل: 2، 1894م، ص 252 والعدد 113 ص 296.

(5) R.C.E.A.، الجزء: 12، العدد: 4409.



مئذنة المدرسة المرشدية الحنظية وخلفها مئذنة الأتابكية

بسته عشر ضلعاً يحتوي كل واحد منها على فتحة صغيرة. في التربة أيضاً ضريح ابنه محمد الذي، كما يذكر النص المنحوت على قبره: "حُرْم من متع الحياة الدنيا في كانون الثاني - شباط 1260 م"⁽¹⁾.

إضافة إلى هذه التربة والمدارس، التي تؤكد جيداً مقولة ياقوت الحموي: "هنا في سفح هذا الجبل المقدس، المكان الوحيد الذي سينجو يوم الحساب من زلزلة الساعة، يرقد أكثر المسلمين تقى وأكثر الأمراء رفعة"⁽²⁾، كانت الصالحية تضم العديد من المباني المدنية الأثرية، من أسواق وخانات وحمامات ومنازل فاخرة وبيمارستان ومسجد كبير كان أول مسجد بني خارج السور. تُكون كل هذه المباني الأثرية متحفاً حقيقياً للعمارة الأيوبية.

يدل النص المنحوت فوق ساكف الباب الغربي⁽³⁾ أن المسجد الكبير الذي بدأ بناؤه عام 1203 م هو من أعمال مظفر الدين غوكبري (1154 - 1233 م)، سيد أربيل وصهر صلاح الدين. تميز كوكبري خاصة في معركة حطين كما يذكر ابن خلكان الذي جعل منه مثال الأمير التقى والهيام: "يمكننا التأكيد أنه لا مثيل له في احسانه"⁽⁴⁾. بدأ بناء المبنى حنابلةً دمشق بإشراف أحد أبناء ابن قدامة⁽⁵⁾، ولكن لما علم كوكبري أنهم لم يعد باستطاعتهم متابعة البناء لقلّة المال أرسل إليهم ثلاثة آلاف دينار لينجزوا بناءه⁽⁶⁾. استوحى هذا المسجد، الذي يسمى أحياناً المسجد المظفري وأحياناً أخرى بمسجد الحنابلة، خطوطه الكبرى من المسجد الأموي. يتألف من قاعة للصلاة فيها ثلاثة فراغات مستطيلة موازية لحائط القبلة، وفناء يتوسطه حوض محاط من جهاته الثلاث بأروقة مفتوحة كلياً على الفناء، ومثدنة مربعة المقطع، مستندة إلى الحائط الشمالي، الذي انتهى بناؤها كما هو منقوش على ساكف الباب في عام 1215 م. تنفتح ثلاثة أبواب على الفناء كما هو الحال في المسجد الأموي: باب في الشرق وثنان في الغرب وثلث في الشمال على يسار المثدنة. يغطي قاعة الصلاة

(1) R.C.E.A.، الجزء: 12، العدد: 4460.

(2) ذكره "Dussaud, Deschamps, Seyig, "Syrie antique et médiévale illustrée سوربة القديمة والعصور الوسطى المصورة، باريس، 1931، Geuthner، اللوحة 92، عن تكريم جبل قاسيون انظر في الموضوع نفسه، ص 241.

(3) R.C.E.A.، الجزء: 9، العدد: 3551.

(4) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء: 2، ص 535 والتالية.

(5) في الموضوع نفسه، ص 226.

(6) R.C.E.A.، الجزء: 9، العدد: 3552.

(الحرم) سقف ذو سطحين مائلين تتوضع صقالاته على رواقين يتناوب فيهما العمود مع دعامتين متتاليتين. تحدد الفتحة المركزية التي تكبر فرجتها الفرج الأخرى المحور العمودي الذي يؤدي إلى المحراب. وقد التصق بالمحراب عمودان صغيران لهما تاجان موزقان - من المحتمل أنها منقولة من كنيسة - ويغطيه قبة بثلاثة صفوف من المقرنصات تعلوها صدفة. شوه اليوم هذا المحراب تشويهاً فظيعاً بما لُطِّخ به من ألوان بذوق رديء. احتفظ المنبر، الذي أمر ببنائه كما يذكر النص المنقوش فوق بابهِ كوكبري "العبد الطامع برحمة الله" ⁽¹⁾، بزخرفته المنحوتة سليمة ولكنها مشوهة - كما هو الحال عليه في قاعة الصلاة - وذلك بسبب الاستهلاك المفرط للطلاء. على جدران المنبر الجانبية يضم شريط مزين بنتوءات مكونة من تشبيكات، أشكالاً هندسية متعددة الأضلاع منقوشة ومغطاة بغصينات ذات سعف تذكرنا بضريح صلاح الدين أو بمحراب مسجد الفلوس. يوجد فوق أبواب قاعة الصلاة السبعة سواكف من الخشب المنحوت؛ مازال يعلو اثنين منها سياج من الجص المخرم يمزج في تركيبة حية جداً السعف وعناصر مورقة جميلة جداً. واحتفظت نوافذ عديدة بزخرفتها الزجاجية المعشقة الأصلية.

يعد البيمارستان الأيوبي الذي مكتتنا كتابات عديدة من تعرفه وتأريخه، إضافة إلى بيمارستان نور الدين، البيمارستانين الوحيدين المتبقين حتى اليوم في دمشق. نُحِتَ على كَبْنة عقد قوس ثانوية لباب المدخل بأحرف صغيرة تاريخ بداية بنائه، وهو: آب 1248 م وتاريخ نهايته الذي انحى آخر رقم منه: 65 (؟) هجري ⁽²⁾. تذكر كتابة من ثلاثة أسطر بأحرف أنيقة منقوشة على شريط موجود على جوانب فتحة البوابة الثلاثة أن الأمير سيف الدين القيمري، "الأمير الشهير والمحارب الكبير والبطل المؤمن وعضد الملوك والسلاطين"، قد أمر ببناء هذا البيمارستان، "ابتغاء ثواب الله ورضاه في اليوم الذي يجزى فيه المحسنون ولا يضيع فيه أجر الصالحين" ⁽³⁾. وفي شريط ثان من سطرين تعلوه ستة إطارات مزخرفة منحوتة في تجاويف الصف المقرنص الأول، قائمة بالممتلكات المخصصة وفقاً

(1) انظر في الموضوع نفسه، ص 182 والتالية.

(2) R.C.E.A.، الجزء 12، العدد: 4408.

(3) R.C.E.A.، الجزء 12، العدد: 4410. شغل أمراء القيمرية الأكراد دوراً هاماً في سورية في ظل حكم الناصر يوسف.

للبهارستان، من بينها "قرى المرج وأجزاء من قرى وطواحين وقيصرية وما يزيد على ثلاثين متجراً وخانان (...) "(1).

مخطط المبنى - وهو أسلم المباني الأثرية الأيوبية حالاً - مستوحى من مخطط البهارستان النوري، وهو من نفس طراز المدرسة الصحابية، وييدي تناظراً كاملاً بالنسبة للمحور الشمالي الجنوبي: ويتألف من بوابة وبهو وفناء مربع يتوسطه حوض، وإيوان كبير على محور المدخل، في وسط الطرف الجنوبي، وإيوانين صغيرين متقابلين في وسط الطرفين الشرقي والغربي، وعشرات القاعات المطلة على الفناء. تتناسب أنماط التغطية مع الأماكن المختلفة: إذ يغطي البهو وعدة قاعات قبوات مضلعة، ويغطي قاعات أخرى والإيوانين الصغيرين قبوة نصف أسطوانية، في حين يغطي الإيوان الكبير قبوة على شكل قوس رواق. يميز هذا البهارستان وضوح المخطط وضخامة المكان والزهد الشديد الذي خففته الزخرفة الطفيفة التي تزين بعض الأجزاء الخاصة من البناء: على قبوة الإيوان الجنوبي المكسوة بطلاء من الجص، ينطلق رسمان ناتان مزخرفان بسعف النخيل إلى الحافة المزينة بشكل الزهرة، وعند بداية قبوة نفس الإيوان، توجد كتابة طويلة بأحرف حمراء على خلفية خضراء بخط نسخي أنيق جداً، وهي شهادة المؤمن "لا إله إلا الله محمد رسول الله". تعتبر بوابة المدخل القائمة في مركز الواجهة الشمالية المحاذية للشارع، أول نموذج للطراز المملوكي كما يبدو في مدرسة السلطان بيبرس⁽²⁾: أعمدة صغيرة مضلعة، وأشرطة من كتابة منقوشة على الجوانب الثلاثة، ونصف قبة بثلاثة صفوف من المقرنصات تعلوها صدف، وقوس رأسية بلبنتات عقد ثنائية اللون.

إضافة إلى مسجد الحنابلة في الصاحية، جعل تزايد السكان وتوسع الضواحي من الضروري بناء مساجد أخرى كبيرة، منها: جامع التوبة في العُقيبة ومسجد الجراح في الشاغور ومسجد المصل في الميدان.

إن ظروف بناء جامع التوبة التي ذكرتها لنا المصادر الأدبية تزودنا بفكرة جيدة عن عقلية الدوائر الحاكمة في النصف الأول من القرن الثالث عشر. عماد الأشرف موسى، الأمير الزاهد التقى، عندما أصبح سيد دمشق عام 1228م، إلى بذل كل جهوده في تهذيب الأخلاق. يذكر أحد الكتاب المطلعين

(1) R.C.E.A.، الجزء: 12، العدد: 4411.

(2) في الموضوع نفسه، ص 251.

أن هذا الأمير "كان رجلاً متعففاً لم يعاشر إلا نساء"⁽¹⁾. وهذا يعطينا فكرة إلى أي مدى وصلت إليه إصلاحاته من الحزم. فما إن استلم وظيفته حتى أمر: " (...) أن على كل قاض ألا يحكم إلا بمقتضى الكتاب والسنة والقياس"⁽²⁾. أزعج هذا الإجراء، كما يذكر المؤرخون، كثيرين. والأكثر من ذلك "أبعدت من المدينة"⁽³⁾ الفلسفة وعلوم القدماء؛ وزاد الاهتمام بدراسة العلوم الدينية حصراً زيادة كبيرة. ومع هذا فقد كان في ضاحية العقبة خان يعرف بخان الزنجاري حيث، إضافة إلى النشاطات التجارية التي بني من أجلها الخان أصلاً، كانت تشرب الخمر بكثرة، كما كان عليه الحال في العصر الأموي، وحيث "كانت المغنيات ترتكب كل أنواع الخطايا والمحرمات" و"يفرق الفاسقون في ارتكاب المعاصي"⁽⁴⁾. كانت هذه الخانات في الواقع - مثل كل الأماكن التجارية عموماً - مكاناً للدعارة، وكان صاحب الخان المرخص له بذلك - وهو قَوَّادٌ حقيقي - يُحصِّل رسماً من الزبائن، ثم يدفع جزءاً لا بأس به لخزينة الدولة⁽⁵⁾. تابع الأشرف عام 1232م سياسته في التطهير الأخلاقي، وهدم الخان - الخمار، وبنى محله مسجداً سمي جامع التوبة. ويبدو كما تذكر الكتابة المنحوتة على ساكف باب المدخل أن البناء لم ينته إلا في عام 1251م، أي بعد أربعة عشر عاماً من موت مؤسسه⁽⁶⁾. ويبدو تصميم البناء مماثلاً من جميع الوجوه تصميم المسجد الأموي: فناء محاط برواق بسيط، وقاعة للصلاة طولانية الشكل مغطاة بسقف ذي سطحين مائلين، وقلبها (وسطها) أوسع وأعلى وله واجهة وقبة (مقصورة). أما الأبواب فتوضعت توزيعاً مختلفاً: باب من الجانب الشرقي وآخر في وسط الجانب الشمالي، وبنيت المثانة في الزاوية الشمالية الشرقية. يتجلى الاختلاف الأساسي في قاعة الصلاة المتطاولة جداً، والتي تحتوي على فراغين مستطلين بدلاً من ثلاثة، مفصولين برواق ذي دعائم.

(1) SAUVAIRE, H., الجزء 6، 1896م، ص 263 - 264.

(2) في الموضع نفسه.

(3) في الموضع نفسه.

(4) Sauvaire, H., الجزء 7، الفصل: 2، 1896م، ص 238.

(5) يحیی، المرجع نفسه، ص 182. في عام 1480 - 81 جرى في دمشق بيع قيسارية ضاحية العقبة (على ما يبدو أن هذا الضاحية فاسدة) بقيمة ثلاثين أشر في وطلب من مومساتها ممارسة مواهبهن في مكان آخر.

(6) R.C.E.A., الجزء 11، العدد: 4332.

رسم الملك الأشرف مسجد الجراح - مسجد الصلاة على الموتى، القديم الذي ذكره ابن عساكر⁽¹⁾ الواقع خارج الباب الصغير قرب سوق الغنم، وحوّله إلى مسجد كبير. وبعد أن اشتعلت فيه النيران أثناء صيف 1245م، أثناء حصار الخوارزميين، أعاد الملك الناصر ترميمه في كانون الأول 1250م، كما يذكر النص المنحوت على ساكف باب المدخل⁽²⁾. يبدو المبنى بسيطاً جداً ومؤلفاً من فناء مربع الشكل يتوسطه حوض، ويحيط به رواق بثلاث عقد ودعائم مثمثة الأضلاع على كل جانب، ويتصل بقاعة صلاة مستطيلة الشكل بواسطة ثلاث فتحات.

تُعدُّ حمامات العصر الأيوبي - التي لم يبق منها إلا بعض النماذج النادرة - صورة عن حمامات عصر نور الدين. بنى حمام أسامة الواقع في شمال شرق الجامع الأموي في 1204 - 1205م الأمير عز الدين أسامة الحلبي، أحد مماليك صلاح الدين الكبار. كان في الأصل حماماً خاصاً بمنزله، ثم أصبح منشأة عامة بعد أن جُعل منزله مدرسة عامي 1255 - 1256م، وهي المدرسة البادرية. يشغل المبنى الزاوية الشمالية الشرقية للباحة الخارجية لمعبد جويتر القديم، وقد ضم إليه جزء كبير من الحائط الروماني وعمود لا يزال قائماً اليوم. لم تغير الترميمات المتتالية، باستثناء قاعة تبديل الملابس، مظهر القاعات المختلفة ولا حتى ترتيبها. يغطي بيت الخلاء بحجراته الثلاث الصغيرة وحوضه قبة متوضعة على رقبة مزخرفة بكوى على شكل صدفة تشبه تلك الكوى الموجودة في ضريح الدحداح وضريح ابن سلامه وضريح بهرام شاه والمدرسة العزيرية والشركية والماردانية. في القاعة الدافئة المثمثة الشكل والمزودة بثلاثة انخسافات من جهاتها الثلاث، مقصورةٌ يجري فيها تنف الشعر. وتتألف القاعة الحارة من ثلاثة أجزاء: الغرفة المركزية والملحقة بها، تتلقى كلتاها البخار مباشرة من الثقوب الموجودة في الجدار، و"المقصورة" وهي أقل حرارة ولا تزود بالبخار مباشرة. تغطي الغرف، كما هو الحال في بيت الخلاء، قبة ملساء أو مزلعة تسمح بمرور النور عن طريق قعور قناني موزعة وفق أشكال متحدة المركز أو نجمية. إضافة إلى الكوى ذات الأشكال المختلفة الموجودة في الرقبات يكمل الزخرفة أرضية سوداء وبيضاء هندسية الشكل.

أنشأت حمام ست عدرا قبل عام 1196م، ابنة أخت صلاح الدين، أخت فروخ شاه، الأميرة عدرا

(1) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 143.

(2) R.C.E.A، الجزء 11، العدد: 4324، Sauvair، H، الجزء 7، الفصل 2، 1896م، ص 270 العدد 114. تهذّب المسجد مرة ثانية بعد أن اشتعلت فيه النيران في عام 974 الهجري وأعيد ترميمه مرة أخرى. (H، Sauvair، المرجع نفسه، ص 232 - 233).

خاتون، بالقرب من مدرستها العدروية⁽¹⁾. تضرر الحمام أثناء قصف سنة 1925م⁽²⁾، فهدم نهائياً سنة 1936م أثناء إعادة بناء الحي. مكتنتا دراسة سابقة من معرفة خصائص هذا الحمام⁽³⁾. يبدو واضحاً أنه شبيه بزخرفته وكوات رقبته بحمام أسامة⁽⁴⁾، ولكنه ينتمي إلى الطراز المحوري الذي تكون فيه القاعات جميعها متوالية على استقامة واحدة.

أدت النهضة التجارية في العصر الأيوبي إلى زيادة المنشآت التجارية من: خانات وفنادق وقصوريات. واختفت كل هذه المنشآت مثل تلك التي تنتمي إلى العصور السابقة، إلا أن المصادر الأدبية والكتابات المنقوشة، التي تذكرها بين العقارات الموقوفة للمساجد والمدارس والترب وغيرها، احتفظت لنا بأسماء عشرين منها. وهكذا، وفقاً للكتابة المنقوشة في أعلى باب مسجد الجراح، جعل صلاح الدين خان الحاكه وفقاً في عام 1182م على مسجد الجراح وضريح معاوية⁽⁵⁾. كما ذكر فندق عصمت الدين في الكتابة المنقوشة في ضريح معين الدين أنر، التي تؤكد أن ابنته عصمت الدين قد جعلته وقفاً لضريح والدها⁽⁶⁾. ونعرف أيضاً فندق العبدى وتقي الدين والفندق الكبير والحج والخليين، وكذلك خانات ابن المقدّم وابن النحاس والمعظم وزنكي وعاتكة، والبيارستان والتوبة وخان الحمارة الشهير: "خان الزنجاري" الذي بناه الأمير عثمان الزنجاري، والقيصريات: سكران والشعرية والعاذل والقطن والصاغة والمخصي، ودارين للطعام باسم العتيقة⁽⁷⁾.

في مجال العمارة العسكرية يأتي أولاً إصلاح وإعادة بناء بعض أبواب سور القلعة: ترميمات أجراها المعظم للباب الشرقي وباب الشاغور وأخرى أجراها الصالح لباب الفرج في 1239م وباب السلام في 1243م وبناء برج جديد أمر به نفس الأمير في 1242م، وهو برج الصالح، في الجزء الشمالي

(1) انظر في الموضوع نفسه، ص 222.

(2) انظر "Damas, des Ottomans à nos jours" Degeorge G., دمشق من العهد العثماني إلى أيامنا هذه، باريس، 1994م، ص 164 - 165.

(3) "Les bains de Damas" Ecohard, M. et Lecoer, Cl.، بيروت، 1942 - 1943م، ص 23 - 26.

(4) انظر إلى الصور في مؤلف Sauvaget, J. "Un bain damascien du XIIIe siècle"، هام دمشق من القرن الثالث عشر، سورية، 1930م، ص 378.

(5) R.C.E.A.، الجزء 11، العدد: 4177.

(6) حُول الضريح اليوم إلى منزل للسكن. يقع غرب القلعة في حي سوق ساروجة الحالي. انظر ابن عساكر، ص 160 - 161، العدد: 7.

(7) Inventaire archéologique des caravansérails de Damas.

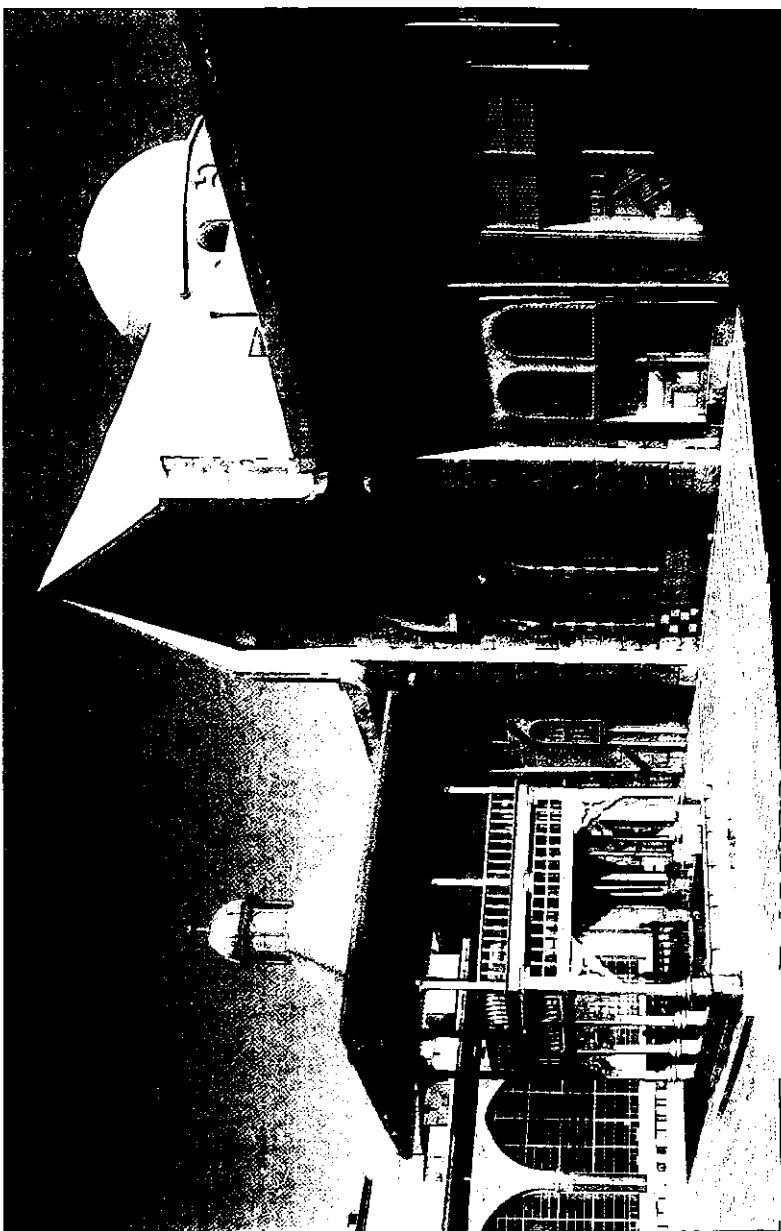
الشرقي للسور. وفقاً لنص اكتُشف عام 1924م رمم صلاح الدين برج القلعة الذي من المحتمل أن يكون قد تضرر أثناء معركة قامت عند سور دمشق في 10 نيسان 1179م. بدءاً من عام 1206م أعيد بناء القلعة بأمر من الملك العادل الذي كان أحرص على حماية نفسه من هجمات أبناء أخيه، ومنه على اتقاء الفرنجة. يخلد تاريخ إعادة بناء القلعة - وهي إحدى أهم القلاع الكبيرة السورية في زمن الحملات الصليبية وأفضلها حالاً اليوم - ست كتابات متدرجة من عام 1208 إلى 1217م. ويعود الفضل في شكل المبنى الحالي إلى إعادة البناء الأخيرة هذه، فهو يتكون من: حرم محدد بخطوط منتظمة جداً - باستثناء زاويته الشمالية الغربية بسبب مجرى نهر بردى - وهو حرم واسع مستطيل الشكل طوله 220 متراً وعرضه 150 متراً، يلتصق به ثلاثة عشر برجاً، مازالت ستة منها على وضعها الأصلي. ويحيط خندق - من الممكن أن يملأ بالماء عند الضرورة، إلا أنه اختفى اليوم - بالقلعة التي صممت واجهات جدرانها الخارجية بحيث تُركت فيها نتوءات خشنة بقصد الزينة. وفي الجهة الجنوبية التي مازالت على حالها الأصلي ارتبطت البروج التي تفصل بعضها عن بعض مسافة تقدر بثلاثين متراً - مسافة يقررها مدى القذافات - بمرام وستارة^(*) بشرفات بواسطة بدنة يبلغ ثخنها متراً وأربعين. وتبرز من البدنة البروج المستطيلة القاعدة والتي يصل ثخن جدرانها إلى ثلاثة أمتار وأربعين ستمتراً، وقد تضمنت ثلاث قاعات متوضعة بعضها فوق بعض ومغطاة بقبوة مضلعة أونصف أسطوانية. كما أحاط بسطح كل منها من الجوانب الخارجية الثلاثة حائط فيه ستارة بشرفات أعدت المرامي في داخلها ومنفذ إلى رواشن^(*) مزودة بساقطات^(*). أدى البرج الواقع في الزاوية الشمالية الشرقية، وهو أضخم البروج، دور محرّز أخير في الدفاع، وهو البرج الرئيسي في الحصن. يحتوي هذا البرج على ثلاث قاعات متراكبة يغطي كلاً منها قبوة بثمانية أضلاع مستندة إلى دعامة مركزية ضخمة. ونجد على واجهته الشرقية ضمن إطار ثلاثي الفصوص كتابة التأسيس: "أمر ببناء هذا البرج المبارك سيدنا السلطان الملك العادل (...) في عام 1209/606م"⁽¹⁾. يؤوي البرج الواقع في الواجهة الشمالية المحمية طبيعياً بنهر بردى - وهو اليوم في حالة سيئة -

(*) الستارة جدار في أعلى البرج أو السور مزود بالمرامي.

(*) الروشن شرفة دفاعية تشبه البلكونات في أعلى الأسوار.

(*) السقاطات فتحات في رواشن القلاع وغيرها ترمى منها الزيوت المغلاة والمقذوفات.

(1) R.C.E.A.، الجزء: 10، العدد: 3650.



جامع التوبة

مدخلاً ذا خمسة أكواع هو امتداد لجسر على النهر. ويفضي البرج في الداخل إلى قاعة كبيرة بدعامات وقبوة مضلعة، وذلك بواسطة بوابة يعلوها قوس ثلاثي الفصوص، وهو باب الحديد الذي حدثنا عنه المؤرخون⁽¹⁾، والذي مر منه صلاح الدين عندما عاد أدراجه إلى منزله في المرة الأخيرة⁽²⁾. بنى المعظم عيسى على سطح البرج طارمة وهي بناء مستدير مقبب، كان السلطان يشهد منها مرور المواكب العسكرية التي تجري "في أسفل القلعة". وهذه الطارمة ذاتها هي التي ذكرها كاتب من القرن الخامس عشر، خليل بن شاهين الظاهري عندما قال: "في حرم القصر بُنيت ظلة عالية جداً تشرف على المدينة. وهناك وُضع العرش الإمبراطوري الذي يبقى دائماً مغطى إلا عندما يأتي السلطان إلى دمشق"⁽³⁾.

يوجد مدخل ثانٍ للقلعة متجه نحو داخل المدينة في برج كُتب على واجهته كتابة تُرجع بناءه إلى عهد العادل في عام 1213م⁽⁴⁾، وذلك في بوابة جميلة تعد أقدم أنموذج في دمشق لبوابة بمقرنصات، وهي تطابق في كل النواحي الفن الهندسي في شمال سورية. تفضي في الداخل إلى قاعة كبيرة تؤدي إلى ساحة مركزية وسرداب طويل يصلها بباب الحديد. يعلو الجزء المركزي للقاعة قبة - انهارت اليوم - متوضعة على أربعة أقواس متقاطعة العقدتين ومحمولة على أعمدة قديمة ضخمة. يحصل الانتقال من المربع إلى الدائرة بفضل أربع مثلثات كروية ورقبتين متراكبتين لكل منها 12 ضلعاً. نفهم من نص للفارس أرفيو الذي زار القلعة خلال صيف 1660م أنه من المحتمل جداً أن يكون في الرقبة العليا، التي لم يبق منها اليوم إلا المداماكان السفليان، نوافذ - ما تزيد قطعاً عن اثنتي عشرة نافذة - ويتابع وصفه: "قبة واسعة جداً ومفتوحة تماماً وقد استندت إلى أربع دعائم ضخمة جداً بحيث يمكنها حمل قبة القديس سان بيير في روما"⁽⁵⁾.

(1) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 300: "سمي هذا الباب بباب الحديد، وهو في الشمال أيضاً، لأنه من الحديد. وهو اليوم خاص بالقلعة التي بناها الأتراك في غرب المدينة".

(2) Sauvaget, J. "La citadelle de Damas", قلة دمشق، سورية، 11، 1930م، ص 79.

(3) Cf. Gaulmier, J., زبدة كشف الممالك للخليل الظاهري، بيروت، 1950م، ص 66. ترك لنا المسعودي وصفاً للطارمة، المرجع نفسه، الجزء 4، ص 1071.

(4) R.C.E.A., الجزء 10، العدد: 3727.

(5) Arvieux, L. d' "Mémoires du chevalier d'Arvieux", باريس، 1735م، الجزء 2، ص 450. يذكر Thévenot أن هذه الدعائم الأربع كانت ضخمة جداً حتى إنه كان يتعذر على ثلاثة رجال معاً عناق واحدة منها "Relation d'un voyage fait au Levant"، باريس، 1664م، ص 435.

إضافة إلى هذين البابين الرئيسيين ذكرت النصوص باباً ثالثاً، وهو باب السر الذي كان يُستخدم كما يقول أبو البقاء لمغادرة القلعة سراً أو لدخولها عن طريق جسر من الخشب يُلقى فوق الخندق⁽¹⁾. يبدو أن هذا الباب الواقع في الواجهة الغربية هو الذي كان يُستخدم منذ أواخر العهد العثماني مدخلاً رئيسياً للقلعة.

في الداخل، في الزاوية الجنوبية الغربية، يقوم مبنى بطابقين، يحتوي على عدة قاعات متوالية من الممكن أن تكون بقايا قصر قديم للسلطين الأيوبيين، وقد احتفظت قاعتان منها على زخرفتهما المرمية الغنية التي يرجع طرازها إلى عهد العادل. بالجوار، أظهرت أعمال تنقيب عام 1924م بقايا مجموعة من الأبنية: أرضية من الرخام وحوض وحمام يرجع تاريخه إلى عهد المماليك، إلا أن وجوده هنا دليل إضافي على أن هذا الأمكنة لم تكن لأغراض عسكرية. وهذا ما يؤكد أيضاً الوصف الذي زودنا به تفنو "Thévenot" في القرن السابع عشر⁽²⁾. إذ إنه لما دخل من الباب الشرقي زار أولاً ورشة سك النقد وقاعة بقبة محمولة على أربع دعائم ضخمة، ثم "على بعد خمسين خطوة من هنا ندخل عن طريق قاعة كبيرة مقببة إلى الديوان حيث كان ينعقد المجلس الاستشاري، وقد طلي هذا الديوان بفسيفساء من الذهب واللون الأزرق، واحتوى على ثلاثة أحواض مليئة بالماء العذب"⁽³⁾.

لم تفسد الترميمات والإضافات التي أجريت في العصر المملوكي المظهر العام للقلعة، فإذا استثنينا السور، فإن جميع الأبنية الرئيسية قد اختفت وخاصة المسجد الكبير والطارمة وحماماً قديماً يرجع تاريخ بنائه إلى القرن الحادي عشر. يبدو من تنسيق الحجارة والقباب المقرنصة أو المحمولة على مثلثات كروية وطراز القباب المضلعة تأثير الهندسة المعمارية الحلبية كما هو الحال في المدرسة العادلية المعاصرة لها. هذا وقد أجبر العادل أفراد عائلته على المساهمة على الأقل مالياً، في البناء⁽⁴⁾، وليس من المستبعد أن يكون الملك الزاهر (1186 - 1216م) أمير حلب قد أرسل مهندسين مع فرق من العمال.

كانت القلعة قبل كل شيء، وهي الجزء الرئيسي في الدفاع عن دمشق، مركز السلطة السياسي ومقر الأمراء والسلاطين. فلقد اتخذها الأمراء البوريون مقر إقامتهم، وأضاف إليها شمس الملوك

(1) Sauvaget, J., ... القلعة، سورية، 6، 1930م، ص 220.

(2) Thévenot، المرجع نفسه، ص 434.

(3) Sauvage, H., الجزء: 6، الفصل: 2، 1895م، ص 248. تؤكد مساهمة أفراد عائلة العادل كتابةً منحوتة أيضاً.

(4) انظر في الموضع نفسه، ص 168.

إسماعيل سنة 1132م عدة ملحقات⁽¹⁾. إلى جانب المسكن الخاص بالأمير وأتباعه كانت توجد قاعة العرش أي الإيوان حيث تجري الجلسات الرسمية والولائم، ومكاتب الإدارة المدنية والعسكرية، وكذلك برج الحمام لإرسال البريد، وثكنة الحرس، ودار الصناعة، والخزينة، ودار النقود، وحديقة، وسجن الدولة، وحتى ضريح مؤقت للعائلة الحاكمة. إنها مدينة حقيقية في قلب المدينة، فهي تحتوي أيضاً على سوق وحمامات وجامع كبير حيث يمكن لكل المقيمين فيها أداء شعائر صلاة الجمعة بعيداً عن الدمشقيين المشاغبين.

إضافة إلى بناء أبنية جديدة بالمئات، رُمم وجدّد دورياً، بل وأعيد بناء كثير من المباني إعادة كاملة بعد الحرائق أو الزلازل. إذ أعيد في عام 1174م بناء مدرسة الكلاسة والمثدنة المجاورة، وهي مثدنة العروس، اللتين أحرقتهما النيران، وذلك بعد وقت قصير من تولي صلاح الدين حكم سورية. بالطبع، كان الجامع الكبير مركز اهتمام الأمراء باستمرار، ففي عام 1179م، قام صلاح الدين بتجديد الكسوة الرخامية لدعامتي القبة⁽²⁾. وفي عام 1183م، جُدد مسجد خالد بن الوليد برعاية أحد تلاميذ الشيخ أرسلان، وقد نقش على ساكف الباب الشرقي نص تذكاري. ومع أن البناء قد أصبح اليوم حطاماً تقريباً، فإنه احتفظ بمحراه الجميل - الذي جدد عام 1984م - بحجارته الثنائية اللون وقبوة معقودة الزاوية، وأعمدة أحادية الحجر وأعمدة مستطيلة القاعدة. وفي عام 1202م، أصاب سورية كلها زلزال عظيم، حتى إن الطبيب عبد اللطيف ذكر: "ظن الناس أن ذلك الزلزال من علامات يوم القيامة"⁽³⁾. انقلب قسم كبير من مدينة عكا رأساً على عقب، وخسف ثلث مدينة صور، وهُدمت صافيتا بالكامل⁽⁴⁾، وانهار في دمشق عدد كبير من المنازل، وتحطمت مدرسة الكلاسة، وتصدعت جدران المسجد الكبير وبعض المآذن وقبة النسر، في حين انهارت مثدنة أخرى وست عشرة شرفة⁽⁵⁾. منذ ذلك الوقت لم تتوقف التحسينات والترميمات: ففي عام 1208م بُلّط الفناء، وفي عام 1211م جددت مصاريع الباب الغربي، وفي عام 1214م بلطت قاعة الصلاة، وفي عام 1216م رمت صقالة القبة،

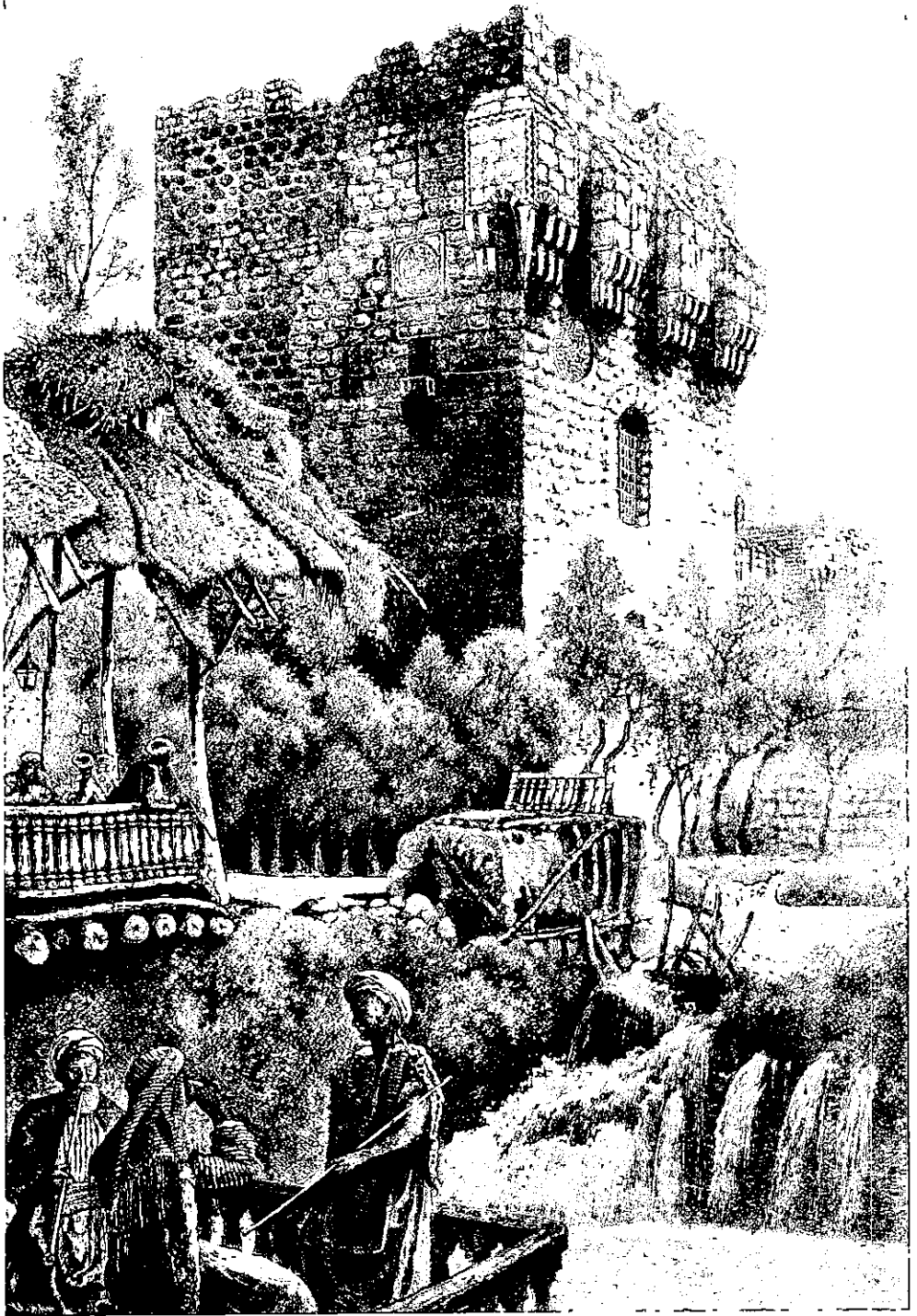
(1) في الموضع نفسه، ص 188.

(2) R.C.E.A.، الجزء 9، العدد 3343.

(3) عبد اللطيف، المرجع نفسه، ص 415-416.

(4) في الموضع نفسه، ص 415.

(5) في الموضع نفسه، ص 417.



برج في الجدار الشمالي لقلعة دمشق

وفي 1238م فتحت نافذة تحت الرواق الشمالي تطل على ضريح الملك الكامل، وفي 1249م أعيد بناء المئذنة الجنوبية الشرقية التي هدمتها النيران قبل عامين. وفي عام 1234 - 1235م قام الملك الأشرف بإجراء تعديلات هامة في مسجد الأقصاب، مسرحٍ عديد من الروايات الإنجيلية.

واهتمت السلطات متبعة سياسة السلاجقة ونور الدين⁽¹⁾، ببناء عديد من الأضرحة لشخصيات مشهورة ومُقدرة لورعها، وعديد من الأماكن المباركة كما يسميها ابن جبير⁽²⁾. ويشهد على شعبية هذه "الأماكن المباركة" ما ذكرته كتب أدلة الحجاج، التي من أقدمها دليل الهروي (توفي 1215م)، وما خصصه المسافرون لها من صفحات طويلة عند روايتهم لأسفارهم. ففي دمشق يبدو جبل قاسيون الذي يقول عنه ابن عساكر: إنه كان "أحد جبال الجنة الأربعة"⁽³⁾ قد حظي بمكانة خاصة، إذ نجد في قمته مغارة آدم⁽⁴⁾ التي أجلَّها الناس دهرًا طويلاً واتخذوا منها مصلى، وعلى مقربة منها توجد "مغارة الدم"⁽⁵⁾ بالقرب من المكان الذي نجد فيه آثاراً حمراء على صخرة لدماء هابيل بعد أن قتله أخوه قابيل⁽⁶⁾. كانت هذه المغارة تضاء في زمن ابن جبير بالقناديل، وكان يشرف عليها مصلى - يوصل إليه بدرج - يحتوي على غرف وكل وسائل الراحة للسكن⁽⁷⁾. وهناك أيضاً مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع لأنه، كما تروي الأسطورة، مات فيها من الجوع ما لا يقل عن سبعين نبياً كانوا لا يملكون من الغذاء إلا رغباً واحداً. في عام 1184م كانت القناديل تضيء هذه المغارة، كما يذكر ابن جبير، وكأنها في وضوح النهار، وكان يشرف عليها مصلى⁽⁸⁾. قامت عند أسفل منحدر جبل قاسيون الغربي "الربوة المباركة" - هضبة تيّرب القديمة التي أصبحت تسمى الربوة - حيث أقام سيدنا عيسى مع أمه كما تنوه عنه الآية الكريمة التالية: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ

(1) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 186.

(2) في الموضع نفسه ص 319.

(3) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 208.

(4) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 317.

(5) في الموضع نفسه، الجزء 6، ص 184.

(6) في الموضع نفسه، الجزء 6، ص 317.

(7) في الموضع نفسه، الجزء 6، ص 317.

(8) في الموضع نفسه، الجزء 6، ص 318.

قَرَارٍ وَمَعِينٍ⁽¹⁾. وهنا أيضاً كان يوجد مصلى قال عنه ابن جبير بأنه "من أروع المشاهد في العالم"، وكان يرى فيه "الجمال والروعة والسمو وصلابة البناء والغلو في الزخرفة والكمال"⁽²⁾. توجد في المغارة التي أقام فيها عيسى، والتي يسارع إليها المصلون للصلاة نافورة ماء "لا مثيل لجمالها"، وفيها أحواض للوضوء تجري فيها المياه⁽³⁾. ويقع هناك فوق هذه الربوة ضريح مريم العذراء وإن كان كثير من الناس يشككون في حقيقة كونه ضريحها. وهناك أيضاً على جبل قاسيون لجأ النبي إلياس أثناء مواجهته للملك قبيلته⁽⁴⁾، وهناك أيضاً كانت تؤدي صلواتها بعض الشخصيات الهامة مثل القديس يوحنا المعمدان (زكريا) والأنبياء إبراهيم ولوط وأيوب. وهناك في أسفل هذا الجبل المبارك، في قرية برزة يقع كما يذكر التاريخ الإسلامي المكان الذي ولد فيه النبي إبراهيم، "مغارة متطاولة ضيقة"⁽⁵⁾. رأى ابن جبير فوقها "مسجداً كبيراً ومرتفعاً مقسماً إلى عدة مصليات تشبه غرفاً مرتفعة تطل على الريف وله مثذنة عالية"⁽⁶⁾. وتؤكد أسطورة قبل الإسلام كما يذكر فلافيوس جوزيف وجود "قرية في ضاحية دمشق تدعى باسم Abram Oikésis أي مسكن إبراهيم"⁽⁷⁾. في حين تذكر روايات أهل السنة أنه في بيت لحيا، وهي قرية اختفت من قديم الزمان، وتقع بين دمشق وبرزة، أمضى النبي إبراهيم طفولته، حيث كسر الأوثان التي كلّفه والده بيعها. يخلد مسجد صغير في ذلك المكان ذكرى هذا العمل الذي هو أساس التوحيد.

يحتفظ مسجد القَدَم جنوب دمشق، في قرية القدم الواقعة في غرب حي القدم الحالي، بصخرة عليها آثار أقدام اختلف الرواة في شأنها، فمنهم من يقول إنها آثار أقدام النبي موسى ومنهم من

(1) سورة المؤمنون، الآية 50.

(2) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 318.

(3) في الموضع نفسه، الجزء 6، ص 319.

(4) سفر الملوك، 1، 19.

(5) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 316.

(6) في الموضع نفسه، الجزء 6، ص 316.

(7) J. F. Antiquités judaïques, I, 7. F. يذكر جوزيف الكتاب الرابع في التاريخ لنيكولا الدمشقي. ويقول أيضاً (I,

6) إنه قد أنشأ دمشق Us أحد أبناء آرام الأربع. وآرام هذا أحد أجداد الآراميين وهو بن سام، بن نوح.

الباب الشرقي



يؤكد أنها آثار أقدام النبي محمد (ﷺ)⁽¹⁾. لا يتورع خيال العوام عن الانبهار بأي شيء كان، فهم يتباركون أيضاً بقطعة من الحجر موجودة في المئذنة الغربية للجامع الأموي معتقدين أنها قطعة من الصخرة التي ضربها موسى⁽²⁾.

فضلاً على قبور الأنبياء، التي لا يتردد ابن جبير في القول: إنها تضم قبر موسى، والتي يتضاعف عددها مع الزمن، يورد ابن بطوطة، رحالة القرن الرابع عشر الشهير، رواية تذكر وجود سبعين ألف قبر⁽³⁾ بين باب الفراديس وقاسيون - وهي قبور الخلفاء الأمويين وأتباع علي والصحابه وحتى قبر إحدى زوجات النبي محمد (ﷺ)، أم حبيبة، أخت الخليفة معاوية، والملقبة بأُم المؤمنين⁽⁴⁾. كانت لهذه القبور مكانتها بين الآثار المباركة، وكان يُعتنى بها عناية دائمة ويجري ترميمها من وقت لآخر. فعلى سبيل المثال رمم ضريح مؤذن النبي بلال عام 1228م وخلدت كتابة منقوشة عليه تاريخ هذا الترميم⁽⁵⁾. إضافة إلى هذه القبور المباركة نذكر قبور معاصريهم الأتقياء والأجلاء مثل قبر ابن عساكر المحدث المشهور ومؤلف كتاب كبير عن تاريخ دمشق، والذي توفي في شباط 1176م ودفن إلى جوار وشرق قبر معاوية في مقبرة الباب الصغير⁽⁶⁾، وكذلك قبر الصوفي الأندلسي ابن عربي الذي توفي في تشرين الثاني 1240م ودفن عند سفح جبل قاسيون⁽⁷⁾.

(1) ابن عساكر، المرجع نفسه، ص 173 - 174. وفي القرن الرابع عشر يذكر ابن بطوطة (Voyages d'Ibn Batoutah, Paris, Imp.

Impériale, 1853-1858 AD, t. I, p. 227). أنها آثار أقدام موسى. ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 327.

(2) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 327 وابن عساكر، المرجع نفسه، ص 305. يوجد قبر نوح وفقاً لابن جبير (الجزء 6، ص 327) في وادي البقاع.

(3) ابن بطوطة، الجزء 1، ص 223. لا يوجد في الوقت الحاضر على منحدر قاسيون إلا مصليان تشهد النقوش والبقايا الأثرية على قدميهما: مصلى الثامنين السبع، يدعى قبة الأربعين والكهف المرتبط بذكرى آدم وجبريل. الحاج المسلم أديب محمد من القرن السابع عشر أكثر تعقلاً من ابن بطوطة، إذ يذكر أن في دمشق قبور خمسة نبي كبير، المرجع نفسه، ص 38، لا بد أن ابن بطوطة قد أحصى أيضاً قبور الأنبياء الصغار.

(4) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 323.

(5) R.C.E.A.، الجزء 10، العدد 3987.

(6) R.C.E.A.، الجزء 11، العدد 4184.

(7) ابن خلكان، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 252 والتالية. SAUVAIRE، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 307. R.C.E.A.، الجزء 9، العدد 3321.

وبعيداً عن ملاحظات كتب التراجم وروايات المؤرخين التي اتفقت على أن الدمشقيين كانوا عُرضة لكل مصائب العالم من الطاعون والحرائق والفيضانات وأسراب الجراد الهائلة والجفاف والزلازل والحصارات ووحشيات العسكر الغرباء المستمرة، يصف ابن جبير الدمشقيين، وهو راوٍ شديد الملاحظة ماهر، بأنهم كائنات من لحم ودم، تتنفس وتتغذى وتتسلى... ويركز قبل كل شيء على طريقتهم في استقبال الغرباء. ويذكر ابن جبير أنهم جميعاً يتمتعون بميزات لا تحصى⁽¹⁾. وهم يغدقون الهبات على "الذين يحفظون القرآن غيباً أو يجتهدون في حفظه" ويحترمونهم ويشرفونهم ويرعونهم أكثر من أي مكان آخر في المشرق⁽²⁾. ثم إن الاحترام الذي كان يبديه الدمشقيون للحجاج عند عودتهم من الحج أثار دهشة "رحالتنا"، إذ يقول: "...إنهم يخرجون جماعات، رجالاً ونساءً، لاستقبال الحجاج، لمصافحتهم وملاستهم (...). فتمد لهم النساء أرغفة الخبز، فما إن يعضوا منها قطعة حتى ينتزعنها من أيديهم ويأكلنها ليحصلوا على البركة"⁽³⁾. ويذكر تحت عنوان كيف يمكن أن تكون دمشقياً؟ مجموعة من الملاحظات المسلية عن سلوكهم وطرقهم. ويصف راوينا المغربي طريقتهم في السلام أولاً: "إنها شبيهة بالركوع والسجود. إذ نشهد تلاعبهم برقابهم التي ترتفع وتنخفض وتمدد وتتقلص، وقد يستمر هذا وقتاً طويلاً: ينحني الأول وينهض الثاني، وترتفع ثم تحتفي أمامهم العمامات"⁽⁴⁾. حتماً نحن هنا بعيدون عن آداب أهل المغرب حيث يعتبر هذا الانحناء مقصوراً على نساء الطبقة المتدنية، الجوارى ذوات أقرط الأذان⁽⁵⁾. وهكذا يتبع المديح الذم. ويختتم رحالتنا المغربي حديثه بأن الدمشقيين "يسرفون بالحركات وهذا أمر تعف عنه النفوس الكريمة"⁽⁶⁾.

(1) ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 332.

(2) في الموضع نفسه، ص 332.

(3) في الموضع نفسه، ص 333.

(4) في الموضع نفسه، ص 345.

(5) في الموضع نفسه، ص 345.

(6) في الموضع نفسه، ص 345.

حكم الأتراك

في المنصورة وعلى مرأى من سان لويس وجيشه قُتل في 2 أيار 1250م، توران شاه، لبدأ حكم سلالة المماليك الذي استمر في سورية ومصر حتى وصول الأتراك العثمانيين عام 1516م. وهكذا نشأ الحكم الجديد من تصرف مزاجي لعسكر شعروا بالتهديد بسبب طيش سلطان شاب متهور. برّر في الأعوام التالية تهديد الفرنجة المستمر وتقدّم المغول -الذين أزالوا بدءاً من الخليفة وانهاء بسلطنة سورية الرئيسيين كل سلطة مؤسّساتية في الشرق الأدنى - الحاجة إلى سلطة قوية، مما خلق الظروف المناسبة لوصول الأتراك إلى السلطة العليا. ولكن ولادة هذه السلالة الجديدة اقتضت بالضرورة حصول ثورات في قصر الحكم واضطرابات واغتيالات. ففي 12 نيسان 1257م، دبرت "شجرة الدر" عملية اغتيال زوجها الأمير المعز أيك، ولقيت هي الأخرى حتفها بعد ثلاثة أيام. فتقلد الحكم المنصور علي، ابن الأمير المتوفى، وفي 12 تشرين الثاني 1259م ببيع الأمير سيف الدين قوتوز، أحد مماليك أيك القدامى، سلطاناً باسم "الملك المظفر". وفي أقل من عام سيطر قوتوز على دمشق بعد أن انتصر على المغول في 3 أيلول 1260م انتصاراً ساحقاً في عين جالوت في فلسطين. ثم عمد قوتوز إلى توسيع سلطته لتشمل سورية كلها، ولأول مرة بعد وفاة صلاح الدين تتحد سورية ومصر في ظل سلطة واحدة. وأخذت ظروف مكافحة ما تبقى من الدول اللاتينية تتغير تغيراً عميقاً. وقامت جماعة متأثرة بقيادة مملوك قديم للملك الصالح، وهو الأمير التركي بيبرس، الذي كان مستاء لعدم تحقيق طموحه في حكم حلب، باغتيال قوتوز وهو عائد إلى القاهرة في أثناء نزهة صيد قرب القُصير في 2 تشرين الأول 1260. وبائع الأمراء الذين شاركوه في المؤامرة - بيبرس سلطاناً باسم "الملك الظاهر". ودخل بيبرس القاهرة وسط احتفال عظيم كان مُعدّاً لاستقبال قوتوز، ولكن لم يُثر هذا التغيير القاهرة المزينة بالأعلام، بل أخذ المنادون، كما يروي ابن الصقاعي بخبث وهو موظف نصراني في إدارة المماليك⁽¹⁾، يصرخون

(1) ابن الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، النسخة المترجمة إلى الفرنسية، ترجمة J. Sublet، PIFD، دمشق، 1974م، ص 65.

قائلين: "صَلُّوا ليرحم الله الملك المظفر، وادعوه ليوفق السلطان الملك الظاهر"، ثم جرت الاحتفالات المهيأة". وضع بيبرس، أثناء مدة حُكْمه التي تعد من أطول مُدد حكم المماليك، أسساً جديدة للدولة، وهي بالتأكيد من أقوى الأسس التي شهدتها التاريخ الإسلامي. قام بيبرس بتقليص الإمارات المستقلة الواحدة تلو الأخرى، ووجد سورية تحت سلطته: ومنذ 1268م، لم تبق مستقلة إلا حماة التي أبدى أميرها الأيوبي ليناً وطاعة لا مثيل لهما. حارب بيبرس بلا رحمة مدعوماً بجيش مؤلف من اثني عشر ألف رجل⁽¹⁾ - موزَّعين بالتساوي على مجموعتين، في القاهرة، وفي دمشق وحلب - المغول الذين كانوا لا يزالون يهددون الحدود السورية الشمالية. فهاجم المدين والقلاع الواحدة تلو الأخرى، وتابع بهمة لا تعرف الملل الجهاد الذي بدأه صلاح الدين، جهاد النصاري الكفرة.

كان بيبرس محارباً ذا خبرة كبيرة ودهاء ومقاتلاً صلباً عنيفاً صليفاً لا يكلُّ ولا يعرف التردد ولا الرحمة. لقد كان يتميز بذكاء سياسي لا مثيل له وبطاقة لا حدود لها. وصل إلى الحكم بعد أن رفع سيفه بنفسه في وجه الحاكمين، توران شاه وسيف الدين قوتوز، فاستحق تمام الاستحقاق لقبه "بيبرس" الذي يعني "الفهد". إن ما يرويه المقرئزي عن حملاته تجعل المرء يشعر بالدوار: سبعة عشر عاماً من الحكم ممتطياً حصانه يشق الشرق الأدنى من القاهرة إلى كيليكية ومن كيليكية إلى القاهرة، في المعسكرات ومحاصر أتارة ومحارباً مقاتلاً تارة أخرى.

في تشرين الثاني 1260م، بعد توليه السلطة بأقل من ثلاثة أسابيع، اضطر، كما يحصل عادة في كل مرة يحدث فيها تغيير في الحكم، أن يواجه انشقاق حاكم دمشق "سنقر الحلبي" الذي كان قد عينه قوتوز، إذ رفض الأخير الاعتراف بسلطة بيبرس وعمد، بعد أن بايعه أمراؤه على الولاء له، إلى تجديد القلعة بأقصى سرعة - كتب المقرئزي: حتى النساء شاركن في هذا العمل⁽²⁾ - وأعلن رغبته في الوصول إلى السلطة العليا واتخذ لقب "الملك المجاهد" لقباً له. فكان بعد الملك الناصر وهولاكو وقوتوز الملك الرابع لدمشق في ذلك العام 1260م. ولكن أخفق مشروعه، إذ سجن في بعلبك بعد شهرين، ونقل إلى القاهرة مقيداً بالسلاسل حيث سجن في قلعتها⁽³⁾. عمد بيبرس حينئذ إلى تنظيم ولاياته وتدعيم

(1) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 151.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 120.

(3) المرجع الأخير، ص 140. عفا عنه بيبرس وأفرج عنه كما يذكر ابن الصقاعي (ص 65).

سلطته. فحدثت ترسانته وأسطوله، مستخدماً عدداً كبيراً من السفن الحربية الشراعية في موانئ دمياط والإسكندرية. وأعاد تنظيم البريد بنفقات هائلة، فأقام على كل الطرق محطات جديدة، بفضلها كانت الأنباء تصل من دمشق إلى القاهرة في أربعة أيام. وهكذا كان طوال الوقت على علم بما كان يجري في أقصى حدود دولته. وكان يتسلم مرتين في الأسبوع بفواصل زمنية منتظمة أخبار مقاطعاته المختلفة "دون أن يخرج من قصره في الجبل"⁽¹⁾، ويرسل أوامره إلى كل أنحاء الإمبراطورية لتعيين أو إقالة الموظفين. ولما كان همه حماية سورية من هجمة مغولية جديدة وتجهيزها لمحاربة الفرنجة، عمد إلى إصلاح عدد كبير من القلاع: قلعة عجلون وصلخد وبصرى وبلبك...، وزودها بفرق من الجنود لحراستها، وجعلها بكميات كبيرة من الذخيرة والمؤنة. وأنشأ في دمشق التي، اتخذ منها قاعدة انطلاق لحروب عديدة قادها في سورية، وحيث كان يدخل بعد كل انتصار "يتقدمه الأسرى والذين يحملون على أسنة رماحهم رؤوس الأعداء"⁽²⁾، "دارَ العَدْل"، واهتم كثيراً بالقلعة التي هدم التتار⁽³⁾ متاريسها ورؤوس بروجها، وقام فيها بأعمال كثيرة مهمة خلدت ذكرها النقوش⁽⁴⁾. استخدم بيبرس عبقريته السياسية في سعيه لتوثيق سلطته شرعياً. هذه السلطة التي حصل عليها بعد اغتيال الملكين. فلقد قام باستقبال شخص كان يسمى أبا القاسم، وهو شاب لم يكن يتجاوز عمره خمسة عشر عاماً، أشاع أنه ابن الخليفة العباسي زاهر أبو نصر، وكان يدعي نجاته من مذبحه المغول. استقبله في القاهرة استقبالاً ضخماً بموافقة القضاة والفقهاء ونادى به خليفة. فبايعه الأمراء وشخصيات الدولة الرئيسية، وخطب باسمه، وأعد احتفال رسمي لتنصيبه، ألبس أثناءه أمير المؤمنين الجديد "المستنصر بالله أبو القاسم" بيبرس لباس الشرف ونصبه حاكماً ليس فقط على البلدان الخاضعة للإسلام، بل على كل البلدان التي بإمكانه أن يسترجعها من الكفرة، ونصحه بنشر العدل وإعلاء كلمة الإسلام، ونُصرة الإيمان، وتوجه إليه بالعبارة الشعائرية التي تقر انفصال السلطات الدنيوية عن الروحية: "أعهدُ إليك في حكم كل المسلمين، وأقلدك كل سلطة تقلدتها أنا فيما يخص الإيمان". السيف للأول والقرآن للثاني. وذهب

(1) المرجع الأخير، ص 142، كان قصر الجبل مسكن سلاطنة القاهرة.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 78.

(3) SAUVAIRE, H., op. cit., t. III, 3, 1894AD, p. 482.

(4) R.C.E.A., t. 12, n° 4476, 4477, 4738 et SAUVAGET J., La citadelle de Damas,

قلعة دمشق، سورية، 1930م، ص 227 - 229.

الخليفة والسلطان وكل الجيش حين ذاك إلى دمشق، حيث أجري احتفال رسمي بوجود الأعيان في المسجد الكبير. تليق الخلافة كان لا مأخذ عليه، ولكن لم يكن خليفة هارون الرشيد والمأمون إلا دمية لا سلطة لها - لم يكن له الحق حتى في الخروج من مسكنه في أي وقت شاء - حتى إن السلطان قلاوون، خليفة بيبرس، لم يتردد في رميه في السجن.

لجأ بيبرس، لكي يتملق للأشراف أمراء مكة والمتزمتين، إلى سياسة جديدة فيما يتعلق بالمدن المقدسة. فبعث في عام 1263م عن طريق البحر عدداً كبيراً من البنائين والنجارين مزودين بكمية كبيرة من مواد البناء بغية ترميم مسجد النبي (ﷺ) في المدينة. وأرسل في العام التالي شمعاً وطيباً وعطراً وزيتاً. وفي عام 1266م أعطى أمير الحج مبلغاً قدره عشرة آلاف قطعة فضية بغية إعادة بناء مقام النبي (ﷺ). وأخيراً، في عام 1269م، قام بنفسه بحج بيت الله الحرام. ومنع بواسطة رجال الشرطة - مطبقاً الشرع - بيع واستهلاك المشروبات الغولية: فحُرِّمَت الجعة عام 1264م، وأمر عام 1270م بإزالة الخمر وإلغاء الضرائب المفروضة عليها. وأمر عام 1271م بترميم جامع دمشق الكبير: تنظيف وإعادة تذهيب نيجان أعمدة قاعة الصلاة، وإصلاح الرخام والفسيفساء⁽¹⁾، وإلباس حائط قاعة الصلاة الشمالي الرخام، وهدم الترسانة التي كانت عائقاً في صحن الجامع.

وفي المجال العسكري، قام بيبرس بمجاهدة الإسماعيليين والمغول والفرنجة والأرمن. فنزع من الإسماعيليين القلاع الواحدة تلو الأخرى: مينقه والقدموس والكهف. ومنع المغول الذين انتصر عليهم عدة انتصارات من دخول سورية. وهاجم الفرنجة، بعد أن استبعد خطر المغول بموت هولاکو، هجمات حاسمة قلصت دويلاتهم إلى شريط ساحلي ضيق. وفي عام 1265م استولى على قيسارية وحيفا وأرسوف وتبين. وفي بداية 1266م بعد أن اكتسح ضواحي طرابلس، استولى على حصون حلبا وقلعة وعرقه التي كانت تشرف على منفذ حمص الشهير. وفي تموز 1266م، استولى على صفد معقل فرسان الداوية. وفي 1268م، بعد أن أقلق عكا وفتح بوفورت ويافا، ظهر أمام طرابلس. ثم قام، بسبب استحالة إخضاع سكان جبل لبنان الذي كان مغطى بالثلج، بالهجوم على أنطاكية فجأة عن طريق حماة، فاستولى عليها، بعد أن فشلت المفاوضات التي أدارها القائد العام سيمون منسِل، تاركاً المدينة للنهب والتدمير والحرائق. ولم تنهض هذه المدينة التي كانت إحدى

(1) R.C.E.A., t. 12, n° 4638.

المدن الكبيرة قديماً بعد ذلك أبداً. بالأمس كانت جميلة ومعصورة - وصفها عام 1185م الراهب البيزنطي جان فوكس Phocas قائلاً إنها: "تفوق كل مدن المشرق"⁽¹⁾ - فأصبحت ضيعة بائسة ومازالت. وهدمت كنيسة القديس بول وكنيسة القديسين كوسم ودميان، وكان عدد القتلى يقدر تبعاً للمصادر بين 17000 و40000⁽²⁾. وهكذا سقطت أنطاكية، فاستسلمت قلاع نهر العاصي: دَرْكُش وَكَفَرْدُبَّيْن وَبَلْمِيس، وتخلّى فرسان الداوية عن بَغْرَمُس وحجر سُغْلان وأرسوز دون قتال. واكتسح بيبرس ابتداءً من 1270م ضواحي حصن المرقب، ثم استولى في بداية 1271م على صافيتا، وأخيراً في آذار من نفس السنة استولى على قلعة الحصن، قلعة فرسان الأسبارتية المشهورة بمنعتها. وبعد عامين أخضع الإسماعيليين.

أمر بيبرس في عام 1266م، أثناء إقامته في دمشق بعد الاستيلاء على صفد، ببناء قصر في الميدان الأخضر (ميدان الخيل) في موضع التكية السليمانية حالياً، يُعرف باسم القصر الأبلق. بُني هذا القصر كله من مداميك يتناوب فيها الأبيض والأسود "بمهارة نادرة وفن عظيم"⁽³⁾، اتخذه بعد عدة سنوات السلطان قلاوون نموذجاً لبناء قصر له يحمل نفس الاسم في القاهرة.

كان لهذا القصر، وفقاً لوصف العمري غير الدقيق، مقدّم وجسر فوق بردى وإيوانان للاستقبال وقاعات ملكية مبلطة برخام من مختلف الألوان وبمتهى الجمال، وقد كسيت جدرانها برخام مرصع بالصدف والحرشفيات والذهب إلى السقف⁽⁴⁾. أثار المبنى إعجاب معاصريه ليس فقط بغناه وفنه، ولكن بضخامته أيضاً، فلقد كتب العمري: "كادت سقوفه تصل إلى الغيوم وتطل من جهات الأفق

(1) PHOCAS, J., The Pilgrimage of J. Phocas in the Holy Land in the year 1185 AD, Palestine Pilgrims' Text Society, vol. V, London, AD, 1889p.717.

(2) كاهن، سورية الشمالية في زمن الصليبيين

CAHEN, C., La Syrie du nord à l'époque des croisades, Paris, 1940AD, p. 717.

(3) العمري (1301 - 1349م) انظر GAUDEFROY-DEMONBYNES M., La Syrie à l'époque des Mamluks d'après

les auteurs arabes, Paris, Geuthner, 1923AD, p. 36. ولد العمري في دمشق، من عائلة عربية عريقة كان معظم أفرادها

من كبار الموظفين أثناء حكم المماليك. وهو مؤلف مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، كان قد كتبه ما بين 1342 و1349م،

وهو موسوعة تلخص المعارف الأساسية لرجل مثقف في ذلك العصر.

(4) المرجع الأخير، ص 36.

الأربع على كامل المدينة والغوطة"⁽¹⁾. وكان هناك، في الجوار، وسط الحدائق والمياه الجارية المنتشرة هنا وهناك ملحقات متنوعة من: أجنحة ملكية وإسطبلات وحمام، وغيرها. وكان يوجد على الضفة اليسرى، إيوان للاستقبالات في الهواء الطلق يطل على الميدان. من المحتمل أن يكون المبنى قد تضرر أثناء الفيضان الكبير الذي حدث عام 1270م والذي "جرف معه أعداداً كبيرة من الناس، واقتلع الأشجار، وأطفح الأنهار وقوّض المنازل"⁽²⁾. وعلى كل حال، هُدم القصر عام 1400م بعد أن كان مقراً للأمراء أكثر من قرن، وذلك عندما اكتسح تيمورلنك دمشق وعاث فيها فساداً.

في حزيران عام 1277م، أقام بيبرس في دمشق في القصر الأبلق بعد عودته من حملته التي قادها لمطاردة المغول حتى "قيسارية" في قلب الأناضول. وتوفي بيبرس بعد أن تناول خطأ سماً كان أعده لأمير يريد التخلص منه. فمات بعد عدة أيام من الحمى والإسهال الشديد عن عمر يناهز خمسين عاماً، وبعد حكم استمر سبعة عشر عاماً وشهرين واثني عشر يوماً. يذكر بعض المؤلفين السيئي النية أنه قد مات بسبب سهم أصابه في الشرج مؤكدين بأن "روحه لم تخرج إلّا بعد عدة أيام، وبعد أن نجح الجراح في استخراج رأس السهم"⁽³⁾. هؤلاء المؤلفون هم خنازير برية مختلة العقل وهم مسؤولون عن المستوى الوضع الذي كُتِبَ به تاريخ المهاليك⁽⁴⁾. كان بيبرس كما يذكر المقرئزي "طويل القامة، أسمر اللون، أزرق العينين، في عينه ودقة، جهوري الصوت، كما كان همماً عنيفاً، ذاهمة عالية وشجاعة ونشاط هائل"⁽⁵⁾. لقد كانت سياسته كسياسة كل المهاليك مع فوارق صغيرة. كان بيبرس من قبائل القفجاق، جاء به أحد تجار العبيد إلى حماة، فاشترته في دمشق بثمانمئة درهم وكيل المراسلة الذي باعه

(1) المرجع الأخير، ص 36.

(2) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 90. ليس بالإمكان ذكر بقية النص لما فيه من مبالغة مفرطة: "ارتفع الماء عالياً لدرجة أنه أخذ ينزل من فوق شرف السور".

(3) BARHEBRAEUS, Abu al-Faraj, Chronicon Syriacum, Leipzig, 1789AD, p. 458 - 459.

(4) انظر Volney في القرن الثامن عشر الذي سد الثغرة التي تركها المؤلفون العرب خجلاً والذين لا يتطرقون عادة إلى الحديث عن هذا الموضوع إلّا تعريضاً: "إنهم (المهاليك) مولعون بتلك العادة المخجلة التي كانت على مر الزمان خطيئة اليونان والتتار؛ إنها أول درس يتلقونه من قادتهم في الجيش". (Voyage en Egypte et en Syrie, Paris, 1823AD, t. I, p. 178) "رحلة إلى مصر وسورية" ومع هذا يجب ألا ننسى ما يلجأ إليه الغربيون عند تدوين ملاحظاتهم من المبالغات.

(5) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 150.

بسبب الودقة التي كانت في عينه إلى علاء الدين أيدكين البندقدار، وهو مملوك للسلطان الأيوبي الملك الصالح الذي استرعى انتباهه فألحقه بخدمته.

اعتمدت سياسته العسكرية المكلفة جداً على تحصيل الضرائب بعنف شديد غير مسبوق إلا نادراً. يذكر المقرئزي "لقد كان يجب ممارسة عديد من التجاوزات لمصلحة الضرائب وفي فرض ضرائب كبيرة على الأفراد. لقد تخيل وزيره طرقاً جديدة لتحصيل الضرائب وعمل على قياس أراضي الملاك. وفرض على الأغنياء غرامات كبيرة، فقضت الهموم على عدد كبير منهم. وضاعف الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة (الذين أجبرهم على ارتداء ملابس تميزهم عن غيرهم). وكانت الضرائب تفرض عليهم بضرب السياط، فهلكت أعداد كبيرة من هؤلاء التعساء تحت التعذيب"⁽¹⁾. وفي دمشق بدا له أن أراضي الغوطة من ملكه، فقرر منذ عام 1267م أن يدفع له الملاك القدامى إتاوات. وفرض على السكان عندما ذهب في حملة إلى الأناضول، مستنداً إلى براءة التشريع الإسلامي وموافقة العلماء، ضرائب استثنائية حُدِّدت قيمتها للمدينة والقرى المجاورة بلغت مليون درهم⁽²⁾. ومع هذا، لم يتردد المقرئزي في الكتابة: "... وبالجمل، فقد كان من خير ملوك الإسلام"⁽³⁾. ومع ذلك يجب أن نذكر من إنجازاته، انتصاراته على الفرنجة والمغول، فقد أنقذ الأراضي السورية والمصرية من التجزئة، والسكان من الاستعباد والذل، وهذا إنجاز كبير⁽⁴⁾.

يذكر المقرئزي أن أحد أبناء بيبرس، الملك السعيد، فرح فرحاً كبيراً في القاهرة عندما علم

(1) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 154.

(*) "بعد أن تولى بيبرس عرش السلطنة في قلعة الجبل بالقاهرة، بدأ في تنظيم أحوال دولته داخلياً وخارجياً. كانت أولى خطوات بيبرس في هذا الصدد إلغاء كافة الضرائب التي كان سلفه سيف الدين قوتوز قد فرضها لتمويل حربه ضد التار. وكانت تلك الضرائب بواقع دينار على كل فرد في مصر، كما استولى على ثلث إيراد الزكاة، وثلث قيمة التراكات التي مات عنها أصحابها من غير المالك. وكان صدى هذا الإجراء طيباً في نفوس المصريين الذين زينوا الطرقات والأسواق ابتهاجاً بذلك". د. قاسم عبده قاسم ود. علي السيد علي، الأيوبيون والمماليك، ص 149.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 155. فيما يتعلق بجباية الضرائب التي كان يقوم بها بيبرس في دمشق، انظر L. POUZET المرجع نفسه، ص 274 والتالية.

(*) "كان ملء العين والقلب، أحبه الناس ولهجوا بسيرته، وأضافوا إليها كثيراً من حياهم لأنه كان يسير على طريق تحقيق أماني الأمة ومخارية أعدائها. (...) ومات بعد سبع عشرة سنة فإذا سلطان دولة المماليك ممتد على كل المنطقة العربية". د. قاسم عبده قاسم ود. علي السيد علي، الأيوبيون والمماليك، ص 169.

بموت أبيه ثم جلس على العرش⁽¹⁾. وفي دمشق نُقل جثمان المتوفى مؤقتاً إلى القلعة، في الوقت الذي اشترى فيه حاكم المدينة الأمير، عز الدين أيدمر، بأمر من الملك السعيد بيت العقيقي الشهير مقابل المدرسة العادية بمبلغ ستين ألف درهم⁽²⁾، وبنى فيه "على عجل"⁽³⁾ تربة بقبة ومدرسة⁽⁴⁾. وما أن انتهى بناء التربة حتى "أُخرج جثمان بيبرس من القلعة ليلاً، فحمله رجال على أكتافهم إلى الجامع الكبير حيث صُلِّي عليه، ثم نُقل إلى المدرسة المبنية على شرفه ودُفن تحت القبة بحضور نائب (أي حاكم) سورية. ووضع قاضي القضاة جثمانه في القبر"⁽⁵⁾. ثم أخذوا يقرؤون على قبره سُوراً من القرآن الكريم ليلاً ونهاراً⁽⁶⁾.

إضافة إلى بوابة المدخل تعد التربة، وهي قاعة مربعة بسيطة مسقوفة بقبة على عقود زوايا محمولة على رقتين مئمتين، أكثر أجزاء المبنى سلامة. وقد زودت الرقبة العليا بنوافذ مزدوجة في كل أضلاعها، في حين ليس في الرقبة السفلية، وهي أكثر ارتفاعاً من الأولى، نوافذ إلا في أربعة أضلاع متوسطة. رصعت جدران قاعة الضريح الداخلية التي ينيرها الضوء المار من نوافذ منخفضة في الجدارين الجنوبي والغربي، بألواح من الرخام والحجارة الملونة، يعلوها شريط من الفسيفساء على خلفية مذهب. تشهد هذه الفسيفساء، وهي أقل جودة من فسيفساء الجامع الأموي، حيث تتناوب الأشجار والقصور، استمرار الطريقة البيزنطية في الفسيفساء في دمشق حتى القرن الثالث عشر. استدار بين نافذتي الحائط الجنوبي المئمتين تحت قوسين بلبنت عقد بيضاء وحمراء وسوداء، محراب بين عمودين، وسط إطار من ترصيعات متعددة الألوان ومزخرفة: توجد على كل جانب، وفي إطار مستطيل تشبيكات من الخطوط المضلعة سوداء وحمراء، وتوجد فوق القبوة أغصان ثلاثية الأوراق سوداء وحمراء متوضعة على خلفية بيضاء داخل شريط عريض نصف دائري. وزُينت الواجهتان الغربية والجنوبية من الخارج بترصيعات كبيرة منحوتة حول كوات مستديرة. تعد البوابة - وهي من

(1) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 156.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 150.

(3) ابن الصقاعي، المرجع نفسه، ص 66.

(4) SAUVAIRE, H. op.cit., t. III, 3, 1894AD, p. 420-422.

(5) المقرئزي، المرجع نفسه الجزء 1، 2، ص 162.

(6) ابن الصقاعي، المرجع نفسه، ص 67.

أفضل البوابات في سورية المسلمة - أكثر الأجزاء إثارة في المبنى، إذ بنيت في تجويف عميق ومستطيل من حجارة سوداء وصفراء وترصيعات رخامية. كما تعد هذه البوابة بشرطيتها المنقوشين عملاً فنياً رائعاً في فن الخط المملوكي. تشير القائمة المنقوشة على الشريط العلوي⁽¹⁾ إلى الممتلكات المخصصة وقفاً: قرى ومقاطعات وبساتين وطواحين وخائّن ودكان والطابق الأرضي لإحدى القيساريات. في حين يشير النقش على الشريط السفلي إلى تاريخ البناء: 1277م. وفي الزاوية اليسرى للبوابة، نقش توقيع المهندس على قاع نخروب: إبراهيم بن غنيم، وهو نفس المهندس الذي أشرف على بناء قصر بيرس⁽²⁾. وتعد القبة بصفوفها المقرنصة الأربعة والتي تعلوها صدفة، عملاً رائعاً بدقة الرسم وأجزائها المتناسبة وتواءمها البارزة.

جاء في عام 1278م، الملك السعيد مع أمه وأمرائه وجيوشه إلى دمشق، "للترفيه" كما يذكر المقريري⁽³⁾، فعقد اجتماعات في دار العدل، وألغى - ضمن الإجراءات الجالبة للشعبية، والتي تدشن بداية كل حكم - الضرائب السنوية التي كان والده قد فرضها على بساتين الغوطة. وفي العام التالي، أُجبر على التنازل وعُزل في قلعة الكرك التي جعلت إقطاعاً له. فخلفه أخوه سلامش الذي كان له من العمر سبع سنوات، وذلك تحت وصاية الأمير قلاوون الذي "كان يحكم وحده، وكان شغله الشاغل الوصول إلى السلطة"⁽⁴⁾. وبعد مئة يوم عُزل سلامش بدوره، والتحق بأخيه في الكرك، في الوقت الذي جلس فيه قلاوون على العرش متلقباً بالملك المنصور. وبايعت كتائب الجيش في دمشق السلطان الجديد وتزينت المدينة سبعة أيام، ثم "خرج حاكم سورية سنقر الأشقر إلى الناس وسط أبهة تحيط عادة بالسلطين"⁽⁵⁾ بعد أن اتخذ من "الملك الكامل" لقباً له، وتمرد علانية، واعتقل حاكم القلعة حسام الدين لاجين وأمين الخزانة تقي الدين توبة التكريتي، وغادر "دار السعادة" مقر الحاكم عادة وسكن في القلعة. وفي عام 1280م بعد أن هُزمت كتائب سنقر في معركة الكسوة، مُنح المتمردون العفو، وسُمّي سنقر نفسه أميراً لصهيون وأصبح حسام الدين لاجين حاكماً لدمشق.

(1) R.C.E.A., t. 12, n° 4734.

(2) R.C.E.A., t. 12, n° 4744.

(3) المقريري، المرجع نفسه، 2، ص 165 - 166.

(4) المرجع الأخير، 1، ص 174.

(5) المرجع الأخير، 2، ص 11.

استطاع قلاوون بعد أن استرجع سلطته في تركيز جهوده على المغول الذين كانوا يشنون على شمال سورية هجمات دامية لم تعرف سورية مثلها منذ عام 1260م. فتعرضت حلب بعد أن تخلت عنها حاميتها للقتل والنهب، وأشعلت النيران في المساجد والمدارس وقصر السلطان ومنازل الأمراء. وقد كتب المقرئزي أنه "لم ينج إلا الذين اختبؤوا في المغارات والأقباء"⁽¹⁾. وفي القاهرة عين قلاوون ابنه علاء الدين ولياً للعهد، ومنح كل أمير ألف دينار، ثم توجه صوب دمشق يقود جيشاً قوياً مؤلفاً من خمسين ألف رجل. وفي طريقه ضم إليه وحدات من التركمان وعرب القبائل "معتمرين خوذهم ومتوشحين سيوفهم وقابضين على رماحهم، تتبعهم نساؤهم وأمتعتهم، وترافقهم مغنيةٌ تشدُّ ممجدةً ثبات المحاربين أمام الموت"⁽²⁾. وفي هذا الوقت كان الجيش الممتد بمحاذاة نهر العاصي يتجه لمواجهة المغول. في دمشق، استعان الذين لم يهربوا إلى مصر بالله وقد نال منهم الرعب كل منال. وكتب المقرئزي: "اجتمع جميع السكان في الجامع الكبير، وتوجهوا إلى الله مبتهلين وهم يستغيثون ويبكون، وقد حملوا مصحف عثمان فوق الرؤوس. وبعد أن خرج الجمع من الجامع توجهوا إلى المصلى الواقع خارج المدينة راجين الله أن ينصر المسلمين على عدوهم"⁽³⁾. وفي سهل حمص، جهز قلاوون جيشه للمعركة في 29 تشرين الأول 1281م، عند مطلع الفجر، لقتال خمسين ألف مغولي وثلاثين ألف جورجي ويوناني وأرمني وفرنجي يقودهم منكوعمر. صفّ قلاوون في الجناح الأيمن عرب القبائل، وفي الجناح الأيسر التركمان، وفي الوسط الأمير تورونتاي، نائب ملك مصر، وأحاط نفسه برجال بلاطه الرئيسيين وبثمانمئة من مملوكيه وأربعة آلاف فارس من حلقتة "حرسه الخاص" الذين كانوا، كما يذكر المقرئزي، يكوّنون "قوة الجيش الرئيسية"⁽⁴⁾. منذ الدقائق الأولى تفرق الفارون بعد أن مُزّق جناح المماليك الأيسر، وهرب بعضهم إلى دمشق حيث كان الناس يجهزون أنفسهم للهرب

(1) المرجع الأخير، 2، ص 26.

(2) المرجع الأخير، 2، ص 33.

(3) المرجع الأخير، 2، ص 35. كان مصحف عثمان، كما يذكر ابن بطوطة، مودعاً في "الزاوية الشرقية" لقاعة الصلاة في الجامع الكبير، وذلك في خزانة كبيرة. ويؤكد "كانت تُفتح الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة، فيهرع الناس لتقبيل هذا الكتاب المقدس". Voyages, t. 1, p. 202-203. وإنه لاحتال ضعيف أن يكون هذا المصحف مودعاً في مشهد علي كما يقول بعضهم أحياناً.

(4) المرجع الأخير، 2، ص 35.

من شدة رعبهم. ولكن رجحت الكفة أخيراً لمصلحة المماليك، ووصل طائر من حمام الزاجل إلى دمشق معلناً النصر، الذي احتفل به بعزف الموسيقى في القلعة. وفي 7 تشرين الثاني، دخل قلاوون المدينة، فكان يوم احتفال رسمي كبير احتفل به الشعراء بنظم كثير من الشعر، كما يذكر المقرئزي⁽¹⁾. وعاد السلطان أدراجه إلى القاهرة بعد أن عيّن بعض الناس وعزل بعضهم الآخر كما يحصل عادة، وأمر بترميم أحد بروج القلعة⁽²⁾، وبإصلاح آخر خلّده نقش على ساكف باب بيمارستان نور الدين⁽³⁾. وفي 6 كانون الأول وصل قلاوون إلى القاهرة.

في عام 1286م، أضعفت المغول، وكانوا حلفاء الفرنجة، التمردات والحروب الأهلية المتتابعة بعد موت أبغا وأخيه منكوتر، فقطع قلاوون الهدنة التي جرى الاتفاق عليها في عام 1281م مع قائد فرسان الإسبتارية، وأعدّ في دمشق حملة على حصن المرقب. وفي 17 نيسان ظهر أمام الحصن جيش قوي فيه نقابون وزارعو ألغام ومهندسو الأسلحة النارية، وقد جُهِزَ جيداً بالعتاد والسهام والقطران وأنابيب قاذفة للهب ومعدّات الحصار والكثير من المنجنيقات والمعدّات الحربية. وفي 25 أيار، وبعد حصار استمر ثمانية وثلاثين يوماً، استسلم فرسان الإسبتارية. وبعد سنتين، في 20 نيسان 1287م، سقطت اللاذقية بدورها، وتخلص شمال سورية من وجود الفرنجة. وعلل رجال الدين هذه الهزيمة بأنها عقوبة من الله القدير أنزلها بالنصارى بسبب شقاقهم وكفرهم. وفي 8 شباط 1289م وصل قلاوون إلى دمشق ليرحل عنها بعد وقت قصير ويحاصر طرابلس. وفي 26 نيسان، بعد أربعة وثلاثين يوماً من الحصار، دخل جيش المماليك المدينة. ويذكر شاهد عيان هو "أبو الفداء" أنه بعد أن "انتهى المسلمون من القتل والتخريب"⁽⁴⁾، أمر السلطان "بهدم المدينة"⁽⁵⁾ هذه المدينة التي "كانت مصدر إعجاب كبير لارتفاع أسوارها وجمال مبانيها"⁽⁶⁾، وكان سورها، كما يذكر المقرئزي، "عريضاً بحيث

(1) المرجع الأخيرة ص 41.

(2) R.C.E.A., t. 12, n° 4796.

(3) R.C.E.A., t. 13, n° 4820. انتهت أعمال الإصلاح كما يذكر النص في تموز 1283م.

(4) Cf. GABRIELI, F., *Chroniques arabes des Croisades*, p. 372.

اشترك أبو الفداء (1273 - 1331م) عندما كان شاباً في الحملات التي شنت على طرابلس وعكا.

(5) Cf. GABRIELI, F., *op. cit.*, p. 372.

(6) PHOCAS, J., *op. cit.* p. 9.

يسير عليه ثلاثة فرسان بالخيول⁽¹⁾، وكان سكانها "أغنياء يملكون ثروات كثيرة، منها أربعة آلاف نول على سبيل المثال"⁽²⁾. ودخل السلطان دمشق وسط سعادة كبيرة، وأمر بإصلاح رواق مسقوف يصل بين بابين من أبواب القلعة⁽³⁾.

بعد عودته إلى القاهرة سارع قلاوون الاستعدادات العسكرية لمهاجمة عكا، مركز ورمز ما تبقى من الفرنجة في سورية. فقرضت ضرائب إضافية على الدمشقيين. كتب المقرئزي: "فرضت الضرائب على قرى المرج والغوطة وأجبر كل فرد على دفع ألف إلى خمسة آلاف درهم"⁽⁴⁾.

توفي قلاوون في 10 تشرين الثاني 1290 م. فأقيمت احتفالات مهيبية في دمشق. كتب الجزري: "اجتمع جميع القضاة والقراء والفقهاء والأئمة والصوفيون والأمراء والقادة وعدد كبير من السكان في الميدان الأخضر (وقد أضاءته الشموع وفرش بالسجاد)، وذلك مقابل القصر الأبلق خارج المدينة في مساء الإثنين 11 تشرين الثاني، بأمر من النائب (...)، وتلى القرآن كله من ظهر يوم الأحد إلى غروب الشمس عدة مرات. وبعدها أقيمت وليمة فأكل الناس، ثم عادوا لتلاوة القرآن إلى منتصف الليل (...). بعد ذلك أمر النائب الوعاظ بصعود المنبر وإلقاء خطبة على الناس يحدثونهم عن موت السلطان (...). وفي هذه الليلة لم تغلق أبواب دمشق"⁽⁵⁾.

قاد ابنه وخليفته، الملك الأشرف خليل الجيش. وظهر أمام أبواب عكا بعد أن أرسل نساءه إلى دمشق⁽⁶⁾ وذلك في بداية نيسان 1291 م، ومعه "عدد هائل من المعدات الكبيرة والصغيرة التي لا مثيل لها"⁽⁷⁾. شارك في الدفاع عن المدينة فرسان الداوية وفرسان الإستبائية وفرسان الأرض المقدسة وفرسان قبرص والصليبيون الذين وصلوا حديثاً من أوروبا والتجار الإيطاليون والسكان. باشر الثُّقَاب عملهم مباشرة، في حين بدأت المنجنقات تقذف نيرانها، وأمر الأشرف فجر 18 أيار بدق

(1) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 103.

(2) المرجع الأخير، ص 103.

(3) R.C.E.A., t. 13, n° 4925. SAUVAGET J., La Citadelle de Damas, Syria, 1930AD, p. 229 et suiv..

(4) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 109.

(5) Cf. SAUVAGET, J., La chronique de Damas d'al-Jazari, année 689H-698.

(6) المقرئزي، 2، ص 125.

(7) أبو الفداء في GABRIELI، المرجع نفسه، ص 376. يذكر المقرئزي (ص 125) 92 آلة حرب، ويذكر الجزري (ص 72) منجنقا.

الطبول الموضوعة على أسنمة ثلاثية جمل إعلاناً لبدء الهجوم. فكانت المجزرة رهيبة، إذ كتب أبو الفداء: "قتل المسلمون ونهبوا كثيراً"⁽¹⁾. ويذكر المقرئ بدقة أكبر: "عند الاستيلاء على المكان تقدم الفرنجة وعددهم تقريباً عشرة آلاف يطلبون العفو: ولكن السلطان وزَّعهم على الأمراء الذين قاموا بضربهم أعناقهم جميعاً"⁽²⁾. وغرقت مغامرة الصليبيين في دماء آخر المدافعين عن عكا. وبدأ هدم المدينة المنظم: "فهدمت الأسوار والكنائس والمباني الأخرى وأشعلت النيران فيما تبقى فيها"⁽³⁾. ونقل حمام الزاجل الخبر السار إلى دمشق، "فتزنت المدينة وعزفت الموسيقى العسكرية في القلعة وعند أبواب الأمراء"⁽⁴⁾. واستمرت الأفراح شهراً كاملاً، واحتفل بالأشرف محرراً لسورية. واستسلمت صور وبيروت وصيدا وعتليت وطرطوس دون قتال في الأشهر التالية. وهكذا حيت سورية اللاتينية من الخريطة. وكتب أبو الفداء: "وهكذا تطهرت سورية كلها والمناطق الساحلية من الفرنجة الذين كانوا فيها مضى على وشك فتح مصر والاستيلاء على دمشق"⁽⁵⁾. وبقيت فقط جزيرة أرواد مقابل طرطوس في أيدي فرسان الداوية.

في أيلول 1291م بدأت أعمال عمران مهمة في قلعة دمشق بإدارة الحاكم الأمير سنقر الشجاع. وأعيد بناء قصر السلطان والترتيا والقبعة الزرقاء. وُجِّع الرخام من كل أنحاء سورية، وفي دمشق كما يذكر الجزري "اقتلعت الأعمدة الرومانية من أماكنها"⁽⁶⁾. وأنجزت الخزاف بعناية فائقة واستخدم لتزيين السقوف ما يقدر بأربعة آلاف مثقال من الذهب⁽⁷⁾. وأعدت أحواض للاستحمام على طول القنوات، وجرى توسيع ميدان الخيل الأخضر شمالاً، وقد ساهم كما يذكر الجزري كل الأمراء والقادة وفائق الجيش وقسم كبير من سكان دمشق في هذه الأعمال التحسينية⁽⁸⁾. إذا كان الأشرف قد طهر سورية حقاً من الفرنجة، فإن حال المدن كما صورها أبو الفداء في

(1) المرجع الأخير، ص 377.

(2) المقرئ، 2، ص 125 - 126.

(3) المرجع الأخير، ص 126.

(4) الجزري، Chronique وقائع تاريخية، ص 6.

(5) أبو الفداء، في GABRIEL F. المرجع نفسه، ص 378.

(6) الجزري، المرجع نفسه، ص 11.

(7) المقرئ، المرجع نفسه، 2، ص 140.

(8) الجزري، المرجع نفسه، ص 10.

مطلع القرن الرابع عشر ترسم لنا البلد ممزقاً ومدمراً على عكس ما كان عليه في القرن الحادي عشر⁽¹⁾. إن وصف البلد يبين بالتأكيد تراجع الحياة المدنية وفساد أخلاق السكان اللذين لم يتخلص منهما - كما هو مذكور في ملاحظات الرحالة في القرون التالية - قبل الزمن المعاصر. فالرستن "بعد أن كانت مزدهرة أصبحت حطاماً"⁽²⁾ وقيصرية "أصبحت اليوم خراباً بعد أن كانت حاضرة كبيرة"⁽³⁾، وأصبحت أرسوف "حطاماً ومهجورة"⁽⁴⁾، وعكا "خراباً"⁽⁵⁾، وطبرية "محطمة منذ أن استعادها صلاح الدين من الفرنجة"⁽⁶⁾، وصور "مهذمة وفقراء"⁽⁷⁾، والرّها "بعد أن كانت مدينة كبيرة (...)" تحتوي على ما يزيد عن ثلاثمئة معبد نصراني. أصبحت حطاماً"⁽⁸⁾، وكذلك حرّان⁽⁹⁾، ومنبج (...)" حُطّم جزء منها"⁽¹⁰⁾، والرقّة "اليوم محطمة ومهجورة"⁽¹¹⁾، والموصل "لم يعد قائماً منها اليوم إلاّ ثلاثها"⁽¹²⁾. وإضافة إلى ذلك، لم تعد سفن الفرنجة ترسو إلاّ نادراً في الموانئ السورية بعد أن أصبحت في أيدي المسلمين، وصارت ترسو في "أياس" في أرمنية الصغرى.

إذا كانت البلاد قد أخلّيت من الفرنجة نهائياً - حتى ظهورهم مرة ثانية بصورة أخرى عام 1920م - فلقد عاد المغول بعد اعتناقهم الإسلام إلى القيام بعدة هجمات. ففي عام 1292م، هددوا الرقّة وخرج الأشرف للملاقاة، وحفظ لنا المقرئ صورة الاحتفالات الرسمية التي جرت عند مغادرته دمشق: غادر جميع السكان منازلهم والشموع في أيديهم أرتالاً من باب النصر إلى مسجد

(1) المرجع الأخير ص 152.

(2) أبو الفداء، جغرافيا، النسخة المترجمة إلى الفرنسية، 1833 Guyard, Paris, Imprimerie Nationale، ص 10.

(3) المرجع الأخير، ص 17.

(4) المرجع الأخير، ص 18.

(5) المرجع الأخير، ص 20.

(6) المرجع الأخير، ص 21.

(7) المرجع الأخير، ص 22.

(8) المرجع الأخير، ص 52.

(9) المرجع الأخير، ص 53.

(10) المرجع الأخير، ص 47.

(11) المرجع الأخير، ص 54.

(12) المرجع الأخير، ص 61.

القدم. وأشعلت الشموع في اللحظة التي امتطى فيها السلطان فرسه⁽¹⁾. وفي نهاية عام 1294م، في 9 كانون الأول، اغتال جماعة من الأمراء الأشرف في خيمته عند عودته من رحلة صيد. يذكر المقرئزي أساء هؤلاء الأمراء: قرسنقر وآق سنقر والحسام استادار والتنبغا ولاجين وبيدرا وغيرهم. كلهم ضربه حتى إن أحدهم "أدخل سيفه في شرجه وضغط عليه إلى أن خرج من حنجرتة"⁽²⁾. هذه الطريقة في القتل لها علاقة على أغلب الظن بما كان يؤخذ على الضحية: إذ إضافة إلى أنه كان يشرب الخمر حتى في شهر رمضان، "كان مشهوراً بفساده الأخلاقي مع الصبية المرد"⁽³⁾. ومع ذلك، فإن الصورة التي تركها لنا عنه المقرئزي تختلف عن صور معظم السلاطين المماليك. فعلى العكس من قلاوون، الذي كان لا يعرف من اللغة العربية إلا قليلاً، ومن كثيرين آخرين كلهم تقريباً جهلاء وأفظاظ⁽⁴⁾، "كان الأشرف يتميز بحديثه الجذاب، ويبدو أثناء حديثه مع رجال الأدب ذا حسٍّ أدبي عالٍ وموهبة مفعمة بالركة"⁽⁵⁾.

فتح اختفاء الأشرف حقبة من الثورات الدامية في القصر الملكي. فقد عرفت السنوات الخمس التالية أربع تغيرات في الحكم. فبمجرد أن اغتيل الأشرف بايع المتحالفون على قتله الأمير بيدرا. ثم وضع الأمراء على العرش بعد قتل بيدرا أحد أبناء قلاوون من أميرة مغولية وعمره حينذاك تسعة أعوام، وهو الملك الناصر محمد. وبدأت حين ذاك مطاردة قتلة الأشرف بلا رحمة. فلقد عذبوا جميعاً أشد أنواع التعذيب ليشوا بالمتآمرين معهم، كتب المقرئزي: "كان التعذيب يزداد شدة يوماً بعد يوم، وتتضاعف قسوته. فلقد كُلف بمهمة التعذيب أكثر الرجال فسقاً وظلماً، وأبعدهم عن مشاعر الرحمة"⁽⁶⁾. ويذكر ابن الصقاعي بمزيد من التوضيح "تعذيب بالمنجلة وبالتعليق"⁽⁷⁾. قُطعت أيديهم جميعاً على أزومة شجرة عند باب القلعة، ثم طُيف بهم جميعاً عبر القاهرة ومصر⁽⁸⁾ مربوطين على

(1) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 143.

(2) المرجع الأخير، 12، ص 152 - 153.

(3) المرجع الأخير، 2، ص 155.

(4) المرجع الأخير، 2، ص 111.

(5) المرجع الأخير، 2، ص 153.

(6) المرجع الأخير، 2، ص 7.

(7) ابن الصقاعي، المرجع نفسه، ص 128.

(8) الفسطاط.

الجمال، وقد علّقت أيديهم برقابهم، وفي المؤخرة كان رأس "بيدرا" يترنح على سنان رمح⁽¹⁾. وفي الأول من كانون الأول 1294م، بعد حكم استمر عاماً، خُلع الملك الناصر وحل محله في اليوم ذاته الأمير كتبغا، "نائب" دمشق سابقاً، فاتخذ لنفسه لقب الملك العادل. استمر حكمه عامين كانا، كما يذكر المقرئزي، "من أكثر الأزمنة تعاسةً، بسبب القحط والأوبئة الخطيرة وارتفاع عدد الموتى"⁽²⁾. وفي 7 كانون الأول 1296م، اغتتم الأمير لاجين، وهو أحد قتلة الأشرف وحاكم دمشق سابقاً، فرصة غياب كتبغا - الذي كان يقوم بعبادته في دمشق - فأعلن نفسه سلطاناً وتلقّب بالملك المنصور. كتب المقرئزي: "كان سلوكه لا غبار عليه، واستحق تعلق الناس به بما أبدى من نزاهة وعفة في التعامل مع رعيته"⁽³⁾.

وما أن وصل إلى السلطة حتى توقف عن شرب الخمر، وكفّ عن لعب القمار، وأعاد عدداً كبيراً من الممتلكات التي كانت قد صودرت إلى ملائكتها الشرعيين، وألغى العديد من الضرائب المفروضة، وعاقب بعنف قاس كل الأعمال المحظورة، ولم يتردد في جلد العديد من أبناء الأمراء الذين ضبطوا في حالة السكر. يضيف المقرئزي: "كان من الصعب أن يؤخذ عليه أي مأخذ سوى خضوعه المبالغ فيه لمملوكه و"نائبه"، الأمير منكوتمر؛ فلقد كان يسمع كل آرائه ويتبنى رغباته لما كان يكتفه له من خالص الحب"⁽⁴⁾. وما أن اعتلى العرش حتى بايعه أمراء دمشق في دار السعادة وأرسل لهم ستمئة ثوب شرف ومثلها إلى القضاة والوجهاء⁽⁵⁾. وفي 16 كانون الثاني 1299م، عندما شاع خبر هجوم مغولي جديد على مصر، سقط الملك المنصور في نهاية حكم استمر عامين وشهرين وثلاثة عشر يوماً، ضحية مؤامرة حاكها له الأمراء الحاسدون بسبب الهيمنة التي كان منكوتمر يارسها عليه. يذكر المقرئزي: "طعن بالسيوف في كل أنحاء جسده فصار بسرعة كتلة من اللحم الميت"⁽⁶⁾.

(1) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 4.

(2) المرجع الأخير، 2، ص 22. انظر أيضاً ابن الصقاعي، المرجع نفسه، ص 159.

(3) المرجع الأخير، 2، ص 141.

(4) المرجع الأخير، 2، ص 96-97.

(5) المرجع الأخير، 2، ص 46.

(6) المرجع الأخير، 2، ص 94.

عندها أخرج الأمراء الموجودون في القلعة الملك الناصر من عزلته في الكرك⁽¹⁾، وله من العمر وقتذاك سبعة عشر عاماً، وأجلسوه على العرش، شَرَطَ "ألا يُتَّخذ أي قرار إلا بعد موافقتهم عليه"⁽²⁾. وهكذا كانت السلطة الفعلية بيد الأميرين، سلال المنصوري مدير الحكومة، وبيبرس الجاشنكير قائد قوات الجيش. ويذكر المقرئزي⁽³⁾ أنه بغية مقاومة تقدم المغول الذين كان يقودهم قازان، ابن أرغون البكر، الذي خيم على ضفاف الفرات يقود جيشاً كبيراً مؤلفاً من مئة ألف رجل، اتجه الملك الناصر نحو سورية، ووصل إلى دمشق في كانون الأول 1299م في الوقت الذي كان قد جاوز المغول حلب. كانت نتيجة أول مواجهة في حمص لمصلحة المغول، وعاد الجيش المصري إلى دمشق وقد أنهكه دروز كسروان⁽⁴⁾ وعربُ القبائل الذين نهبا أمتعتهم. وضع قازان يده على ثروات السلطان في حمص⁽⁵⁾ وعلى عتاد جيشه ومتاعه، ثم تابع سيره. وفي دمشق حيث كان حاكمها أقوُش الأفرم هارباً ليلتحق بالسلطان في القاهرة، كان الملح في ذروته: "إذ خرجت النساء من منازلهن كاشفات الوجوه، وتخلّى الرجال عن دكاكينهم وممتلكاتهم هاربين خارج المدينة. لقد كان الحشد كبيراً حتى إن بعض الأشخاص اختنقوا عند الأبواب. وانتشر السكان على قمم الجبال وفي القرى. واتجه قسم كبير نحو مصر"⁽⁶⁾. وفي حين أسرع السلطان بالذهاب إلى القاهرة محاطاً بعدد قليل من المقرئين إليه، أرسل من بقي منهم بعد أن تجمعوا في الجامع الكبير إلى قازان مندوبين عنهم من "الشخصيات المميزة"⁽⁷⁾: من الفقهاء والقراء يرأسهم كبير القضاة وكبير المشايخ. وبعد خمسة أيام، انتشر في المدينة التتار وقد انضم

(1) كانت قلعة كرك الواقعة في الأردن مكان عزلة تقليدي للسلطين المخلوعين. كتب ابن بطوطه: "في هذا القصر كان الملوك يبحثون عن ملجأ من المصائب وكانوا فيه يتحصنون"، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 255.

(2) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 114.

(3) المرجع الأخير، 2، ص 147.

(4) المرجع الأخير، 2، ص 170 - 171.

(5) أدهشت الثروات التي كان ينقلها السلطان معه (والأمر يثير الرية) عديداً من المراقبين. كتب شاهد عيان Héthoum، وهو راهب أرمني كان يحلم باسترجاع الأرض المقدسة بمساعدة التتار: "اندهش الجميع بما كان ينقله السودان (السلطان) معه من الثروات في الوقت الذي كان يرتقب فيه القتال"

Cf. HETHOUM; prince de Gorigos, Histoire orientale ou des Tartares de Haiton,..., La Haye, J. Neaulme, 1735AD, p.59.

(6) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 150.

(7) المرجع السابق، 2، ص 150.

إلى صفوفهم الأمير المنشق قَبْجَق، حاكم دمشق سابقاً، وألقى على الناس المجتمعين في المسجد الكبير فرمان ينظم شروط الاستسلام. وأتى أولاً المبرر العقائدي: فلقد قام المغول تدفعهم الحمية الدينية والحماس الإسلامي بهذه الحرب على الحكام المماليك "الذين ابتعدوا عن الدين الحق"، وليس نصرهم الذي جاء ليحقق العدل إلّا هبة من الله⁽¹⁾. وفي الواقع أصبح المغول مدافعين متحمسين لدينهم الجديد منذ أن اعتنق قازان الإسلام عام 1294م، ويصفه المقرئزي بأنه "أكثر ملوك عائلة هولاكو تميزاً"⁽²⁾. ومُنِع النهب، وحُظِر على الجنود "أذية أي إنسان ينتمي إلى الديانات المختلفة، سواء كان يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً (...). لأن تعاليم الدين تجبرهم على منحهم الحماية"⁽³⁾. ونظم قائد القلعة الأمير سنقر آرغوش مقاومة رافضاً الاستسلام، فقصف المغول القلعة من سطوح الأبنية المجاورة، فاشتعلت النيران في كل ما يحيط بالقلعة: من دار السعادة حتى المدرسة العادلة وباب الفرج. كتب المقرئزي: "قضى الحريق على عدد من المباني الواقعة خارج المدينة من بينها جامع التوبة (...). وعدد لا يحصى من القصور والمنازل والبساتين"⁽⁴⁾. فأمر المغول القضاة والأعيان التباحث مع آرغوش، مهددين بنهب المدينة وقتل السكان إذا لم يستسلم. واحتدمت المعركة ونصبت المتاريس في كل مكان، وقام المتمردون بعديد من الغارات على سدة منجنيقات المغول التي كانت قد نصبت في صحن الجامع الأموي. وانجبه التتار مع حلفائهم من النصاري والجورجيين والأرمن إلى الصالحية وأضرمو فيها النيران وأراقوا الدماء، واستولوا على السجاد والقناديل التي كانت تزين مسجد الحنابلة، وهدموا المدارس والتُرَب، وأشعلوا النيران في عديد من الأبنية الأثرية وقتلوا كثيراً من السكان أو أسروهم. ووصل عدد القتلى والأسرى كما يذكر المقرئزي إلى تسعة آلاف وتسعمئة⁽⁵⁾. وبعد الصالحية نُهب المزة وداريا. في دمشق، كان الوضع أسوأ، فلقد تحول الجامع الكبير "إلى مكان فجور حيث مارس المغول الدعارة واللواط وشربوا الخمر"⁽⁶⁾. وارتفعت الأسعار وفرضت بقسوة ضريبة كبيرة على السكان: "فَرِض على سوق

(1) كما ذكر النويري، cf. QUATREMERIE E.-M.; op. cit. t. II; 2; pp. 152-154.

(2) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 241.

(3) انظر المرجع السابق، الملاحظة 4.

(4) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 161، فيما يتعلق بمسجد التوبة انظر المرجع السابق ص 235-236.

(5) المرجع الأخير، 2، ص 160.

(6) المرجع الأخير 2 ص 160.

صانعي الأحزمة مئة وثلاثون ألف درهم، وعلى صانعي الرماح مئة ألف، وعلى النحاسين ستون ألفاً. وَوَجَبَ على الأعيان دفع أربعمئة ألف درهم. وكان المغول المكلفون بتحصيل الضرائب يضربون الناس ويسومونهم أشد أنواع العذاب ويذيقونهم كل أنواع الشتائم والذل (...). وصل المبلغ الذي كان من نصيب قازان وحده (...) إلى ثلاثمئة مليون وستمئة ألف درهم، إضافة إلى الأسلحة والأقمشة والدواب والحبوب وكذلك كل ما تُهب. كان يُجلب للتتار في كل يوم عبر الباب الشرقي أربعمئة غرارة (...). وقد أخذ من المدينة أكثر من عشرين ألف جمل وحصان⁽¹⁾. يذكر المقرئزي أنه وصل عدد الجنود والفلاحين والناس القتلى في المدينة وضواحيها إلى مئة ألف⁽²⁾. وعين قازان، خوفاً من ثورة يقوم بها أحد أقاربه في فارس، حاكماً في كل المدن المحتلة، وناط حكم سورية كلها بالأمير قطلوشاه، وعاد أدراجه إلى بلاد ما بين النهرين. كان رحيله إشارة إلى حملة جديدة، إذ "انتشر النهب في كل المدينة ونزع منها مبلغ يقارب الضريبة الأولى. وأضرمت النيران في عديد من المنازل والمدارس. من بين الأبنية التي كانت فريسة للنيران دار الحديث الأشرفية وكل ما يحيط بها، ودار الحديث النورية، والكلية العادية وكل ما يجاورها، والكلية القيمرية وكل ما يحيط بها حتى دار السعادة والبيهارستان النوري، ومن الدماغية حتى دار الفرج"⁽³⁾. وكانت المدرسة العادية هي الأخرى فريسة للنهب.

وفي 11 شباط 1300م، أخلى المغول دمشق بعد أن يشوا من الاستيلاء على القلعة، وعلموا أن جيشاً كبيراً بقيادة الملك الناصر قد غادر القاهرة. وبعد مئة يوم من الانقطاع أعاد آرغوش إقامة الصلاة باسم السلطان، وألغى "السلوكيات الإجرامية التي أدخلها العدو، وأغلق الخانات وأراق الخمر وكسر قواريرها"⁽⁴⁾. وجاءت ساعة تصفية الحسابات كما جرى في عام 1260م؛ كتب المقرئزي: "جرى البحث بجذ عن الوشاة والفساقين الذين كانوا أثناء سيطرة قازان مكلفين بجباية الضرائب". وعوقبوا عقاباً رهيباً: "بعضهم صُلبوا، وبعضهم شُنقوا، وبعضهم قُطعت أيديهم وأرجلهم، وبعضهم أنتزعت ألسنتهم وفُقت أعينهم فماتوا ليومهم"⁽⁵⁾، وعاشت دمشق أظلم أيام تاريخها.

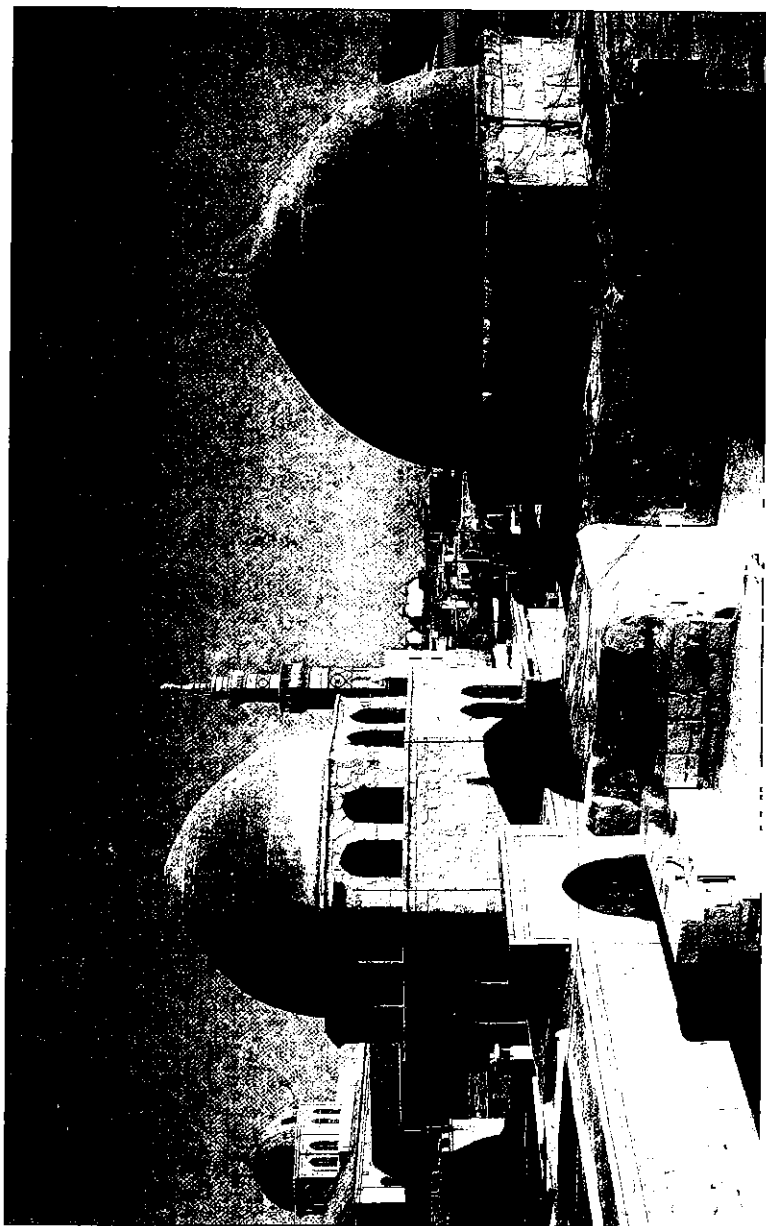
(1) المرجع الأخير 2 ص 161 - 162.

(2) المرجع الأخير 2 ص 161. الأرقام مبالغ فيها بوضوح.

(3) المرجع الأخير 2 ص 163.

(4) المرجع الأخير 2 ص 168.

(5) المرجع الأخير 2 ص 170.



المدرستان العادية والظاهرية

في تشرين الأول 1300م، وصل إلى دمشق خبر هجوم مغولي جديد، ففرضت ضرائب جديدة. وكان على كل السكان دفع أجرة الممتلكات والأوقاف عن أربعة أشهر، وعلى الفلاحين دفع ما يعادل محصول عام 1299م، وعلى الأغنياء ثلث عائداتهم. "قطع السكان أشجارهم المثمرة وباعوا الحطب (...)، وأخلت الغوطه، فلجأ قسم كبير من سكانها إلى القاهرة (...). التي امتلأت باللاجئين القادمين من سورية"⁽¹⁾. ولكن، كما يذكر المقرئزي، أمر قازان بالترجع بسبب سقوط وابل من الأمطار والثلوج "لا مثيل له"⁽²⁾، مما سبب موت عديد من إبل وخيل الجيش المغولي الذي لم يعد قسم كبير منه يمتلك ما يركبه⁽³⁾.

في نيسان 1303م، ظهر القائد المغولي من جديد عند ضفاف الفرات، وقد جهز ثمانين ألف رجل ليرسلهم إلى سورية الوسطى بقيادة قطلوشاه الذي انضم إليه ملك أرمينية ومعه العديد من الكتائب، بغية "القضاء كلياً على ملة محمد"، كما يقول الراهب الأرمني Héthoum، وإعادة الأرض المقدسة إلى النصارى نهائياً (...). والقضاء على كل الكفرة والاستيلاء على دمشق"⁽⁴⁾. وهوجت حصص "وقتل الناس دون تمييز"⁽⁵⁾، وظهر المغول أمام دمشق، ففرض على جميع السكان وقد أصابهم الهلع الشديد "الليلة في الجامع الكبير، يتوسلون ويرجون من الله النجدة وهم ييكون"⁽⁶⁾. وصل الملك الناصر "يقود جيش المماليك برفقة الخليفة المستكفي وقراء القرآن" الذين شرعوا يحثون المسلمين على الجهاد ويشرونهم بالجنه. ودارت المعركة في شقحب قرب دمشق. وانهمز المغول نهائياً⁽⁷⁾ في 20 نيسان 1303م، برغم سراياهم التي - كما يذكر المقرئزي - "كانت تقترب مثل ظلمات الليل"⁽⁸⁾. لجأ

(1) المرجع الأخير 2 ص 175.

(2) المرجع الأخير 2 ص 176.

(3) المرجع الأخير 2 ص 176.

(4) HETHOUM, prince de Gorigos, Histoire oriental ou des Tartares de Haïton...; La Haye, J. Neaulme, 1735AD, pp. 62-63.

(5) المرجع السابق، ص 63.

(6) المقرئزي، المرجع نفسه، 2، ص 199.

(7) يذكر HETHOUM أنه بعد عدة أيام من القتال المتأرجح "انسحب التار بنظام وقد أرهقهم الضجر والملل إلى سهل دمشق"، المرجع نفسه، ص 64.

(8) المرجع السابق، 2، ص 200.

قسم كبير منهم إلى الغوطة حيث وقعوا في فخ كان قد أعدّه لهم الدمشقيون الذين زادوا منسوب القنوات أثناء الليل ليَجبروهم على الانسحاب وسط بليلة كبيرة: "فابتلعت المياه عديداً من الحيوانات والأسلحة والعتاد وغرق العديد من الرجال (...). ولو تبعهم أعداؤهم وهم على هذه الحال لما نجا منهم أحد ولصادوهم كما تُصاد العصافير"⁽¹⁾. وخرج سكان دمشق لاستقبال الملك الناصر الذي كان يتقدم في مقدمة موكب ضخم "يتألف من فرسان وشخصيات مميزة ورجال ونساء وأطفال (...). كانت الدموع تسيل بغزارة (...). وشهد ذلك اليوم عرضاً لم يُر له مثيل"⁽²⁾، إذ تزينت المدينة كلها بأروع زيتها، ونزل السلطان في القصر الأبلق. كانت إقامته في دمشق قصيرة، فبعد عدة أسابيع دخل القاهرة وسط حشد كبير من الناس الفرحين "وقد سبقه أسرى التتار مقيدين بالسلاسل وقد تدلت من رقابهم رؤوس زملائهم الذين قُتلوا أثناء المعركة (...). إضافة إلى ألف رأس آخر علّقت على نفس العدد من أسنة الرماح"⁽³⁾.

وبموت قازان عام 1304م استبعد اتفاق السلام المعقود بين أخيه أولدجايغو⁽⁴⁾ والملك الناصر خطر المغول مؤقتاً. وفي 8 آذار 1309م أمام التنافس الذي كان قائماً بين الأميرين سلاور ويبرس⁽⁵⁾ الطامعين بالسلطة، تظاهر الملك الناصر بالذهاب إلى مكة وتوجه إلى الكرك حيث اعتزل⁽⁶⁾. وفي 5 نيسان، نُصّب بيبرس سلطاناً متخذاً لقب الملك المظفر. وكانت مدة حكمه قصيرة جداً، إذ لما علم أن الملك الناصر قد كوّن جيشاً وأنه دخل دمشق في 21 كانون الثاني 1310م، وأن حكام حلب وحماه وطرابلس قد أتوا لتقديم الولاء له، أسرع وتنحى عن السلطة. وفي 4 آذار 1310م دخل الملك

(1) HETHOUM? OP. cit. p. 64.

(2) المقرئزي، 2، المرجع نفسه، ص 202.

(3) المرجع السابق، 2، ص 211.

(*) "في أواخر السنة كان موت قازان وتولية أخيه خربندا..."، ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء 14، ص 130. ملك التتار خربندا محمد بن ارغون بن أبغا بن هولاكو فان ملك العراق وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان (...). نفس الموضع، ص 79.

(*) ركن الدين بيبرس الجاشنكير.

(*) خرج الملك الناصر من الديار المصرية قاصداً الحج (...). ولما اجتاز الكرك عدل إليها، فنصب له الجسر، فلما توسطه كسر به فسلم من كان أمامه وقفز به الفرس فسلم، وسقط من كان وراءه وكانوا خمسين فمات منهم أربعة وتهشم أكثرهم (...). ابن كثير، المرجع نفسه، الجزء 14، ص 49. انظر أيضاً التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، الجزء 7، ص 58. لم يذكر أنه تظاهر بالذهاب إلى الحج، بل قصد الحج. والله أعلم.

الناصر القاهرة. وقتل بيبرس خنقاً، في حين رُمي سلالر في زنزانة حيث مات جوعاً بعد وقت قصير. وبدأت المرحلة الثالثة من حكم الملك الناصر، وهي أطول مدة حكم في تاريخ المماليك وأنعمها بالسلام، إذ استمرت حتى موت السلطان في حزيران 1341م. في عام 1312م حاول المغول من جديد الهجوم على سورية إلا أنه جرى صدّهم في ماردين الواقعة على الحدود الشمالية. وفي العام التالي، حاصروا الرحبة ولكن انتهى بهم الأمر إلى الانسحاب. وفي عام 1323م افتتح السلطان "أبو سعيد" ابن أولدجايغو، بعد عقد اتفاق سلام بينه وبين الملك الناصر، حقبةً من الاستقرار النسبي استمرت إلى أن أغرق التنافس بين الأمراء الإمبراطورية في حروب داخلية لا نهاية لها مدة ربع قرن، وذلك بدءاً من عام 1388م. عمل الناصر مستفيداً من تجربته التي مر بها أثناء مدتي حكمه الأوليين على دعم سلطة السلطان تجاه أطباع الأمراء. فعُدّل توزيع الإقطاعات وبُدّل بآخر جديد؛ وأُلغيت وظيفة الوزير - إذ اعتُقل آخر وزير عام 1313م بتهمة الاختلاس - ووزّعت مهامه على ثلاثة موظفين من بينهم ناظر الدولة، وهو يُمنّ يثق بهم السلطان، ورئيس حقيقي للجهاز الحكومي، صار يُختار من رجال القلم لا من العسكريين. ترك الناصر بعد موته ثمانية أولاد حكموا الواحد تلو الآخر، معظمهم تحت وصاية أمير لا يتفقون معه طبعاً.

كانت دمشق في النصف الأول من القرن الرابع عشر محكومة من قبل تنكيز الذي كان صغيراً حين اشتراه الأمير حسام الدين لاجين من سوق العبيد في القاهرة، ثم انتقل إلى خدمة السلطان الناصر عندما مات سيده. شارك، وقد عُيّن أمير عشرة⁽¹⁾، في معركة شقحب مقاتلاً المغول، ثم بعد وقت قصير، في بداية مرحلة حكم الناصر الثالثة، عُيّن حاكماً لدمشق التي دخلها وسط احتفال كبير في 24 نيسان 1312م. "وجد السكان في ظل حكمه أنفسهم في منأى عن ظلم وتعسف الأمراء وكبار الشخصيات حتى إنه لم يعد يتجرأ أحد منهم أن يرتكب - خوفاً من غضبه - أية مظلمة ليس فقط في حق أي مسلم، بل حتى في حق أي ذمي"⁽²⁾. في الواقع كانت شعبيته ومكانته كبيرتين جداً لدرجة أنه أصبح بعد موته "يحج الناس إلى قبره ويدعون له"⁽³⁾. نعته المؤرخ الدمشقي ابن طالون بكثيرٍ من الصفات الحميدة التي لا يتحلى بها أمثاله عادة، ومن هذه الصفات:

(1) المرجع التالي، ص 305.

(2) SAUVAIRE, H., op. cit., t. III, 2, 1894AD, p. 284..

(3) المرجع السابق، ص 284.

أنه كان "عظيماً وعادلاً وعالماً ورائعاً ومتديناً وذكياً ويتمتع بنفوذ كبير"⁽¹⁾، في حين يقول أحدهم إنه "ولد في يوم سعد" وأنه كان "يتمتع بخصال الرجولة"⁽²⁾. أما الكتابات التي نقشت مغلدة ذكره فقد وصفته، وهذا ليس بالغريب، "بالنبل الكبير"⁽³⁾. وكانت هيمنته على السلطان - الذي كان حماءه (أبا زوجته) وقد تزوجت بناته من أولاده - كبيرة جداً لدرجة أن السلطان "كان في معظم الأحيان لا يفعل شيئاً في القاهرة دون استشارة دمشق"⁽⁴⁾. تتجلى هذه المكانة من خلال المراسلات الرسمية التي كانت تُوجّه إليه باسم "صاحب السمو"⁽⁵⁾ وتنتعته بـ "سيد أمراء الدنيا"⁽⁶⁾. وقد قدمه الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي مكث في دمشق أثناء حكمه في عام 1326م بأنه "من أفضل الرؤساء وأكثرهم صلاحاً"⁽⁷⁾. وإذا كان يبدو أكثر إنسانية من أمثاله من الحكام، فإنه لم يكن أقل منهم حرصاً على زيادة ثروته^(*). ففي الوقت الذي كانت تكبر فيه سلطته كانت ثروته تزداد، "وتضاعفت قطائع وقطعانه ووارداته"⁽⁸⁾. لقد كان مثل كل الذين وصلوا إلى الحكم يحب البذخ والترف، كتب ابن سسر: "كان كل شيء على دابته من الذهب، حتى طبل الصيد"⁽⁹⁾. بعد موت الناصر عام 1341م، كان - على الأرجح - قد أصبح غنياً جداً، فاعتقل وأحضر إلى الإسكندرية حيث مات مسموماً. وعند اعتقاله وُجِدَ في داره "ثمانمئة جمل ناقة ذهباً وفضة

(1) Cf. LAOUST, H., Les gouverneur de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans

"حكام دمشق أثناء حكم المماليك وبداية الحكم العثماني" (658 / 1156 - 1260 / 1744م). ترجمة لكتاب تاريخ الأحداث لابن طولون وابن جمعة، دمشق، PIDF، 1952م ص 8-9.

(2) SAUVAIRE, H., op. cit., t. III, 2, 1894AD, p. 285.

(3) R.C.E.A., t. 15, n° 5630, 5780, 5927.

(4) SAUVAIRE, H., op. cit., t. III, 2, p. 315.

(5) المرجع السابق، الجزء 3، ص 314.

(6) المرجع الأخير، ص 315.

(7) ابن بطوطة، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 217.

(*) "كان عادلاً مهيباً، عفيف الفرج والبد، والناس في أيامه في غاية الرخص والأمن والصيانة فرحمه الله، وبلى بالرحمة ثراه..." ابن كثير، المرجع نفسه، الجزء 14، ص 198 - 200.

(8) SAUVAIRE, H. op. cit. t. III, 2, p. 314.

(9) ابن سسر، AChronical of Damascus، 1389 - 1397م الترجمة الإنجليزية للدره المبعدة في الدولة الزاهيرية، University of California Press, Berkeley, 1963K pp. 241-242.

وأقمشة، عدا الخيل والبغال والعبيد"⁽¹⁾. ومن ممتلكاته التي ملأ جردها صفحات كاملة⁽²⁾، إضافة إلى دار الذهب المشهورة التي قُدر ثمنها بستمئة ألف درهم ودار الزمرد، كان يمتلك في كثير من المدن السورية عديداً من المنازل مع ملحقاتها من حمامات وخانات وقيصرات وحدائق وبساتين وحقول وكروم ونب، وأرباع وأنصاف وأجزاء من قُرَى أو قرى بتمامها وطواحين"⁽³⁾.

نعمت دمشق أثناء مدة حكمه بغنى لم تعرف له مثيلاً من قبل. ولما كان قبل كل شيء حريصاً على البنية الأساسية الاقتصادية، فقد أمر بتنظيف وتجديد قنوات المياه بمبلغ قدره ثلاثمئة ألف درهم، وشرع بأعمال مهمة فيما يتعلق بشبكات الطرق وخاصة في الضواحي الشمالية والغربية للمدينة، وبنى الجسور⁽⁴⁾، وحاول توجيه التوسع العمراني نحو شمال غرب السور، واتخذ كل الإجراءات لكي يخلص المدينة من الكلاب الشاردة. وفي تشرين الثاني 1333م، قام بتجديد باب توما حيث خُلد تاريخ هذه الأعمال نقش على ساكن الكوة⁽⁵⁾. وبالطبع نال الجامع الأموي كثيراً من اهتمامه: بين عامي 1326 و1328م، إعادة بناء الحائط الجنوبي لقاعة الصلاة وتثبيت نهائي لمواقع المحارب المخصصة للمذاهب المختلفة، وترميم البلاط الرخامي في قاعة الصلاة؛ وفي أيلول 1333م، ترميم نافذة في الرواق الغربي⁽⁶⁾. وفي عام 1339م، قضى حريق على المئذنة الشرقية، وذمر عديداً من الأسواق المجاورة، واتهم عشرات من النصارى بإشعال الحريق ومن بينهم شخص كان يسمى الحليق، "سقاء كان يسقي المسلمين في المساجد من أوعية مصنوعة من جلد الخنزير"⁽⁷⁾. فُصلوا وُسُطروا إلى نصفين بعد سبعة أيام. ولما كان الهدف الرئيسي من هذه الأعمال الإنشائية الكبيرة ضمان رضا وتعاون رجال الدين من العلماء والقضاة

(1) LAOUST, H., op. cit., p. 8.

(2) C.f. SAUVAIRE, H. op. cit., t. III; 2, 1894AD, pp. 315-317.

(3) من الواضح أن غنى تنكز كان بسبب احتياله. يذكر ابن الصقاعي، المرجع نفسه، أنه وجد في منزل مملوك قلاوون بعد موته: "ما يقارب ستمئة ألف دينار، وواحد وسبعين قنطاراً من النقود المصرية، عدا الأقمشة والخيول والبضائع".

(4) R.C.E.A., t. 15, n° 5670.

(5) R.C.E.A., t. 15, n° 5650.

(6) R.C.E.A., t. 15, n° 5649.

(7) ابن مسرر، المرجع نفسه، ص 158. إن مثل هذا الكلام العدواني وكذلك تصريح النصارى الكاذب الذي يدعي أن النصارى أرادوا الانتقام مما فعله المسلمون في مدينة سيس (انظر إلى E.I., IV, 453) تجعلنا نشك بذنوب المتهمين. إذ لم تكن مصنوعة من "الخنزير" وإنما من تيس... أضحية.

والفقهاء - لدورهم الهام جداً وهو الوساطة بين السلطة والناس - كانت مشاريع الحاكم الكبيرة رمزاً للسلطة التي من الممكن أن تؤثر في الناس وتقنعهم باهتمامه الكريم بالشؤون الدينية، وكذلك هي طريقة للتطهر من الذنوب الملازمة للحياة السياسية، ولكي يستحق أخيراً بعد الموت الدعوات الصالحة التي تليق بالمتقين. لم يتوقف شغفه بالمنشآت الهندسية عند أبواب مدينته أو عند أبواب ولاياته: فلقد بنى رباطاً في القدس، وقام بأعمال هامة تتعلق بجر المياه خاصة في مكة، وشيد بيارستاناً وحناناً وعدة أبنية أخرى في صفد، وبيتاً وحمماً ودكاكين عديدة في القاهرة. وفي دمشق حيث كان يتنافس العلماء وأغنياء التجار في الكرم، أسس أو جدد ما يقارب أربعين منشأة أثناء حكمه، في الوقت الذي لم يُبنَ فيها إلا ثلاث وأربعون منشأة بين عامي 1260 و1312م.

اشترى "دار الفلوس" التي كانت تقع بالقرب من سوق البزورية في موقع قصر العظم حالياً⁽¹⁾، وجعل منها مسكناً فخماً اعتبر حينذاك أجمل قصور دمشق جمالاً وسياه بدار الذهب. وبالقرب من موقع حمام هُدم في عامي 1338 - 1339م، بنى مدرسة ذُكر على ساكف بابها أنها "للفقراء المشتغلين بدراسة القرآن الكريم، وللفقهاء وعلماء الحديث"⁽²⁾. ولم يبق من المبنى اليوم، بعد أن تعرض لتعديلات جذرية، إلا البوابة بقنطرة المجوفة. وبنى عام 1330م بالقرب من سوق السلال ضرباً لزوجه سَيَّته، كُسي من الداخل بالحص الذي نُقشت عليه كتابات وشعارات⁽³⁾. وفي عام 1317م أمر ببناء جامع غرب القلعة، في محلة "حكر السباق"، زودت واجهته الثنائية اللون ببوابتين من المقرنصات. تعد هاتان البوابتان والمئذنة - وقد رُممت جميعاً كما ينبغي أثناء الانتداب الفرنسي - الأجزاء القديمة الوحيدة من المبنى. وتعد المئذنة نموذجاً للعمارة المملوكية: قاعدة مربعة، وجذع مشتمل الشكل، وحنيات بقناطر مضلعة، وأعمدة ناقصة أو حلزونية أو ذات أخاديد، وأشرطة من الكتابة المنقوشة، وشرف مقرنصة، ويزينات مقرنصة متدرجة في الجدار، ودرازين مخرم، وتوائم من الفتحات، وأقراص من الخزف المزخرف الأزرق الفيروزي الذي ظهر في ذلك الزمن لأول مرة في دمشق. اعتبر هذا المسجد من أجمل مباني دمشق، فقد كتب المؤرخ الدمشقي أبو البقاء: "إنه من أرقى الفنون المعمارية. يوجد في البناء عشرون نافذة، نظمت في صف أفقي، مطلّة على

(1) انظر إلى كتاب DEGEORGE عن دمشق "Damas des Ottomans à nos jours" ص 110 - 112.

(2) R.C.E.A., t. 15, n° 5780.

(3) R.C.E.A., t. 15, n° 5589.

الأنهار ومرج الميدان وما يضمه. وفي وسط فناءه كان يمر نهر بانياس الذي كان يتوضاً من مائه المصلون، وكانت توجد فيه ناعورتان تزينان المكان وتصبان في قطعتين من الأرض ممتلئتين بكل أنواع الأشجار والنباتات العطرية والزهور⁽¹⁾. وكانت توجد بمحاذاة البوابة الشرقية تربة دفن بها تنكز بعد أن نقل جثمانه من الإسكندرية عام 1344م. يبقى البناء إذا ما استثنينا بعض التفاصيل الصغيرة مطابقاً للأنموذج الأيوبي في البناء: قبة بصلية، ورقبتان مصلعتان، وقاعة مربعة. فُرِشت قاعدة الضريح بترصيعات رقيقة رخامية ملونة على شكل تشبيكات هندسية ورسوم نجمية الشكل، في حين أُلْبِسَتْ قبوة المحراب، المستديرة بين نافذتي الجدار الجنوبي، فسيفساء من معجون الزجاج على خلفية مذهبة.

ساعد الأمن المدني والازدهار الاقتصادي على إنشاء مبان تجارية جديدة. اختفت جميعها، ولكن حفظ لنا اسم مواقع بعضها النصوص أو النقوش. اثنان من هذه الأبنية على الأقل أمر ببنائهما تنكز: في عام 1315م، قيسارية "دهشة النساء" غرب الجامع الأموي، وقد جُعِلَتْ وقفاً له، وفي عام 1331م، قيسارية تنكز أو المُرْجَلَيْن داخل الباب الصغير. وذكرت أبنية أخريفي جرد الممتلكات التي صودرت بعد عزله: خان العَرَصَة⁽²⁾ خارج باب الجابية، وخان الجواري⁽³⁾، شمال الشارع المستقيم، حيث كانت تمارس تجارة العبيد أيام الاثنين والخميس. وبعدها تحول هذا الخان إلى مصبغة في زمن الحكم العثماني عندما نُقِلَتْ تجارة العبيد إلى خان جديد، وأصبح اليوم مكاناً خرباً يحتوي على مطبعة ودكاكين لبيع الأقمشة وحرف يدوية مختلفة.

زودنا مؤرخو ورحالة النصف الأول من القرن الرابع عشر عن دمشق في عهد تنكز بصورة من الازدهار والغنى الباهر. في الواقع بعد سقوط عكا نقلت أكبر أربعة مراكز تجارية في ذلك الوقت، البندقية وجنوة وبيزا وبرشلونة، مستعمراتها من سورية إلى جزيرة قبرص، وبرغم مساعي البابا لمنع كل تجارة مع المشرق، لم ينقطع التعامل التجاري. ففي عام 1302م، بعد أحد عشر عاماً من نهاية الدول اللاتينية، قدم سفير البندقية، غيدو دو كنالي، نفسه في بلاط القاهرة وطلب تجديد

(1) SAUVAIRE, H. المرجع نفسه، الجزء 7، 1896م، ص 434، عن ترميمات المبنى التي قام بها المهندس الفرنسي ميشل

إكروشار، انظر، *Revue des Etudes Islamique*، 1985م، ص 87-94.

(2) قُدِّرَ بمبلغ 110000 درهم عند إقالة تنكز.

(3) قُدِّرَ بمبلغ 150000 درهم عند إقالة تنكز. Yaya، المرجع نفسه، ص 273.

الامتيازات القديمة. وبعد مدة قصيرة من الانسحاب إلى أرمينية الصغرى، كثر عدد تجار الغرب الذين كانوا يرسون في الموانئ السورية، بيروت وطرابلس واللاذقية، المرتبطة بالمدينتين الكبيرتين، دمشق وحلب، حيث تركزت تجارة المشرق منذ ذلك الوقت. وفي عام 1332م، جعل غيوم دو بولدنسل Guillaume de Boldensele، وهو رجل دين من جماعة الدومينيكيين، من دمشق مركزاً تجارياً عالمياً، إذ كتب: "إن مدينة دمشق ساحرة وكثيرة المياه وال عمران وجميلة وغنية جداً بكل أنواع البضائع والمؤن: إليها تُجلب (...) التوابل، والأحجار الكريمة، والحريير، وكل مظاهر الغنى الأخرى، ومنها يصدرها التجار إلى جميع أنحاء المعمورة"⁽¹⁾. ورأى جاك دو فيرون Jacque de Verone، الذي أقام فيها مدة قصيرة خلال صيف عام 1335م، "أن مدينة دمشق - فيما يخص الموارد - هي المتفوقة: فهي تستورد البضائع والمنقولات من بلاد آشور والهند وبلدان أخرى عديدة. إذ يصل إليها أعداد هائلة من الإبل المحملة بالفلفل والزنجبيل والكافور وأنواع أخرى من التوابل بكميات هائلة"⁽²⁾. وأدهشه أعداد الجمال الكبيرة التي كانت تمر بالمدينة ليلاً ونهاراً، "محملة جميعها بالمؤن والبضائع"⁽³⁾ وذكر وجود، "خان، بالقرب من قلعة السلطان، أي كما وضع، فندق ينزل فيه النصاري"⁽⁴⁾. وذكر "أما المنازل، فهي جميلة، والمباني كبيرة وجميلة وقد صفت جيداً والشوارع عريضة"⁽⁵⁾. مدينة واسعة ومهواة على عكس صورة المدن الشرقية التقليدية. ويرى الحاج الألماني لدولف فون سُدْهم Ludolphe von Sudhem، الذي زارها عام 1340م، أنها "شديدة الروعة والغنى والرقي والجمال حتى إنه يصعب أن تجد مدينة في العالم تفوقها (...)، إنها مليئة بكل أنواع ملذات العالم، وتتمتع بكل المباهج التي يمكن للإنسان أن يتخيلها (...)، وهي كثيرة السكان، تسكنها أمم

(1) Cf. HETHOUM، أمير غوريكو، Prince Gorigos، (...)، L'Hystore mervzilleuse، من أكبر أباطرة التار، سيد التار، لقب

بخان الكبير، باريس، Hehan Saint Denys، 1529م، الورقة 81.

(2) VERONE, J. DE، حجة الراهب أغسطين جاك دو فيرون Jacques de Verone، Le Pèlerinage Augusyin، 1335م، نشره R. chricht، مقطع من مجلة الشرق اللاتيني، Extrait de la revue de L'Orient latin، الجزء 3، 1895م، العدد 2، باريس، 1895م، ص 291.

(3) المرجع الأخير، ص 293.

(4) المرجع الأخير، ص 294.

(5) المرجع الأخير، ص 291. لم يكن بالإمكان الاحتفاظ بسعة الشوارع إلا في الضواحي، المرجع التالي، ص 338، ملاحظات ابن بطوطة الأكثر دقة.

متنوعة من النصارى والمسلمين وطوائف أخرى (...)، وتوجد فيها كميات هائلة من الجواهر والفضيات والأحجار الكريمة والأواني والفرو والملابس المطرزة بالذهب والحريير والأقمشة الصوفية وكل أنواع الأقمشة الثمينة⁽¹⁾. ويلاحظ هذا الحاج، في آخر سنة من حكم تنكز - وهذا جدير بالملاحظة لأنه أمر نادر في تاريخ المدينة - أنه "كان يسود المدينة السلام فكان لا يحصل فيها أي عصيان ولا ترى فيها أي نزاعات داخلية، مع أن أمماً مختلفة كانت تسكنها"⁽²⁾. ووصفها الدمشقي "العمرى" وصفاً دقيقاً جداً. أولاً، حكمها عظيم يمتد من العريش جنوباً إلى السلمية شمالاً، ومن الساحل غرباً إلى الرحبة شرقاً. وهذا يعني دخلاً ضرائباً كبيراً. أما مبانيها، فينطبق وصف العمرى لها على الشكل القديم للمدينة الحالية⁽³⁾، فلقد كتب: "معظم مبانيها من الحجارة، وأحجام بيوتها أصغر من بيوت القاهرة، ولكنها أكثر زخرفة: ومع ذلك فاستخدام الرخام فيها أقل، ولكن تشكيلاته أكثر جمالاً، فليساكنها ذوق رفيع في بناء أبنيتهم وإعداد حدائقهم التي يعملون على جعلها أكثر روعة ويزينونها بذوقهم الفني. أما حلب فدون أدنى شك أكثر روعة في البناء، لاستخدام الحجارة في البناء استخداماً أوسع، في حين أن دمشق أكثر سحراً وبهاء، إذ توزع المياه في كل أرجاء المدينة وترى الماء في كل أجزائها. يستخدم في بناء البيوت خشب الحور عوضاً عن النخيل، ولكنه لا يطل أبداً بالطلاء الأبيض، إذ يكفي جمال مظهره الطبيعي"⁽⁴⁾. أكثر الأحياء كثافة بالسكان هي الأحياء الغربية والشمالية. وأكثر المنازل جمالاً هي تلك التي لها سقوف مذهبة وبلاط رخامي، وهي القرية من الجامع الأموي⁽⁵⁾. وقد خططت أسواقها تخطيطاً رائعاً وبنيت قيصرياتها بناءً متيناً⁽⁶⁾. الحرفيون وعمال البناء وصانعو الأسلحة والصاغة والمطرزون إلخ، مجيدون في كل المهنة، يصنعون

(1) P. Sebag، الترجمة الفرنسية، Von Suheim، De itinere Terre Sancte، Archives de l'Orient latin، ص 360.

(2) المرجع الأخير، ص 360.

(3) علماً أنه لا يوجد في دمشق في الوقت الحالي أي منزل أقدم من القرن الثامن عشر.

(4) GAUDERFOY-DEMOMBYNES، M.، La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes

سورية في الزمن المملوكي وفقاً للكتاب العرب، Paris، Geuthner، 1923م، ص 35. المقارنة بالقاهرة وحلب تسترعي صحتها النظر.

(5) المرجع الأخير، ص 44.

(6) المرجع الأخير، ص 44.

كل أنواع المنتجات الممتازة، وهم يفتخرون بتفوقهم على الحرفيين في باقي الإمبراطورية⁽¹⁾. ويذكر العمري بعض المنتجات المطلوبة كثيراً: الأقواس والنحاس الدمشقي والزجاجيات المذهبة وجلود الحُمْلان المدبوجة بالقرات التي يضرب بإتقانها المثل⁽²⁾.

ومع كل هذا الازدهار، وغنى أسواقها وجمال مبانيها، تبدو دمشق أكثر روعة بحدائقها وما توحى به من فن وذوق. إذ لهذه الغزارة في الخضرة وسط مناخ شبه صحراوي ما يثير الدهشة وسيكون التصدي لهذه النقطة بعد الآن مجالاً لإظهار براعة المؤلفين. يذكر جاك دو فرون: "في الجانب الآخر لدمشق، يوجد عديدٌ من الحدائق والبساتين التي تروىها الأنهار أو مياه جارية شديدة النقاء تسر الناظرين. يقدر عدد هذه الحدائق والبساتين بأكثر من ثلاثين ألفاً. توجد فيها أشجار البرتقال والليمون والتفاح السكري والرمان اللذيذ والتين والخضر وكل أنواع المنتجات الشهية الأخرى"⁽³⁾. ولم يستطع العمري وهو خبير في الكتابة الإدارية أن يمنع نفسه من أن يصبح شاعراً أمام جمال دمشق فكتب: "لدمشق والصالحية حدائق خصبة رائعة، احتوت شبكة سواقيها على أشجار مورقة غزيرة، وقد انحنى أغصانها تحت تغريد العصافير، وازدانت بمبان كثيرة ومقصورات عالية وأحواض عميقة وبساتين واسعة حيث تقوم المقصورات وقاعات الاستقبال على نحو متناظر. وتمتد حولها المزارع وصفوف السرو الكثيفة والمتشابكة، وأشجار الحور الشاهقة ورائحة النباتات العطرية المنتشرة، والفاكهة الناضجة، والعنبيات الشهية، وأشياء لذيذة بالآلاف معروفة جداً، فلا حاجة لوصفها ولا داعي للخوض فيها إذ لا بد من الإيجاز"⁽⁴⁾. كل هذا طبعاً بفضل نهر بردى وفروعه السبعة، ونهر تورا خاصة "نيل دمشق الذي تقوم على ضفافه المباني الرئيسية ومعظم المنتزهات حيث يتنزه المتنزهون"⁽⁵⁾. ليست مهمة هذه المياه ري البساتين فقط ولكن بفضل تقنيات هيدروليكية متقنة: "ينتشر نهر القنوات في المدينة (...)" وتجري مياهه في قنوات تحت الأرض حتى تصل إلى المساكن والأماكن المقرر تزويدها

(1) المرجع الأخير، ص 44.

(2) المرجع الأخير، ص 44. القرات من مواد الدباغة مصدره شجرة شبيهة بشجرة الجوز.

(3) VERONE, J. De, op. cit. p. 292.

(4) GAUDERFOY-DEMOMBYNES, M., op. cit., pp. 37.

لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من مقارنة هذا النص بشرط فيفساء الجامع الأموي. انظر المرجع في الأعلى، ص 120.

(5) المرجع الأخير، ص 38.

بالماء. وتصب الخزانات وبيوت الخلاء الماء الزائد في قنوات مقببة تحت الأرض تجتمع لتكوّن بدورها مجرى مائياً يسقي البساتين بعد خروجه من المدينة"⁽¹⁾. تقنية معقدة ساهمت في شهرة المدينة، إذ لم تكن كل المدن تتمتع بمثلها. وعبر عنها "الدمشقي" تعبيراً أقوى حين قال إن قسماً من دمشق موجود تحت الأرض و"يكون مدينة حقيقية قائمة بذاتها، فيها تشعب مجاري المياه في كل الاتجاهات"⁽²⁾. ولكن ذروة كل هذه الروائع كانت أعالي وادي بردى التي جعلت من نثر العمري شعراً يتغنى به: "إنه من أجهل المناظر يمكن رؤيتها، حيث يلتقي ماء السماء وماء الأرض بسخاء، حيث الشمس والهواء مشبعان بالندى؛ وفُرش الجبلان المحيطان ببردى بالبنفسج الذي تظله أغصان الصفصاف المجدولة؛ وتنتثر حدود الورود شذاها بينهما، وابتسم الياسمين، ومد السوسن لسانه، واستجاب خرير الماء لهديل الحمام، وتلاقت فيها خيل النسيم المجنحة، وهبت رياح الشمال على رياض الأرطاسيا (نبته عطرية)، ورياح الجنوب على الحقول العطرة"⁽³⁾.

في العقود الأولى لحكم المماليك، توسعت دمشق خارج أسوارها توسعاً كبيراً. كتب العمري: "كبرت الضواحي المحيطة بالمدينة، وخاصة الضواحي الغربية والشمالية. ووصلت الضاحية الغربية عند أسفل القلعة إلى مساحة واسعة امتدت على جانب النهر، هي سوق الخيل حيث تُمارس الفروسية"⁽⁴⁾. أما الضاحية الشمالية "التي تسمى بالعُقَيْيَّة، فلقد كانت مدينة مستقلة بذاتها، بمساكنها الواسعة ومبانيها الضخمة، وقد سكنها عدد من الأمراء والعسكريين"⁽⁵⁾. كما وذكر جاك دوفرون أيضاً أهمية الضواحي فكتب: "ليست المدينة المسورة كبيرة جداً. وتتوسع المدينة من كل الجوانب حول القلعة والمدينة، على طول يزيد على ميل ونصف، بحيث يتجاوز طولها في أي اتجاه ثلاثة أميال"⁽⁶⁾. ويوضح ابن بطوطة بدقة أكبر: "أحاطت الضواحي بهذه المدينة من كل الجهات فيما

(1) المرجع الأخير، ص 38.

(2) Manuel de Cosmographie du Moyen-age, St Pétersbourg , P 261.1899.

(3) GAUDERFOY-DEMOMBYNES, M., op. cit., pp. 46-47.

(4) GAUDERFROY-DEMOMBYNES, M. op. cit., p. 45.

(5) المرجع الأخير، ص 37.

(6) VERONE, J. DE, op. Cit. p. 291.

عدا الجانب الشرقي. وغطت موقعاً واسعاً، وقد فاق جمالها جمال دمشق بسبب ضيق شوارعها⁽¹⁾. واحتفظ لنا ابن بطوطة - وهو أقل فطنة وموهبة من سلفه ابن جبير الذي لا يأنف في كل مناسبة عن تقليده - ببعض المعالم المميزة لدمشق في عهد تنكز: فأول شيء أدهشه فيها - إذ كثيراً ما يذكره - هو الجامع الكبير، فهو يرى أن البناء بحد ذاته ليس إلا أعظم جامع في العالم وأنه لا مثيل له⁽²⁾، ولكن أكثر ما أدهشه التراحم الكبير للأنشطة فيه وما يثيره من الحماسة الدينية. يضم الجامع في الحقيقة سبعين مؤذنًا وثلاثة عشر إماماً⁽³⁾؛ لا تتوقف فيه الصلوات ولا قراءة القرآن أبداً، من بداية النهار إلى انقضاء ثلث الليل⁽⁴⁾؛ ويشارك المئات من الرجال في قراءة القرآن، وقد خُصص لهم رواتب محددة يُقتطع منها في حال الغياب⁽⁵⁾؛ ويحضر مستمعون كثيرون دروساً تعالج فروعاً مختلفة في علوم الدين والسنة وقراءة القرآن الذي يقرأ بأصوات جميلة⁽⁶⁾. ويشرح المدرسون وقد استندوا إلى أعمدة الجامع كتاب الله للأطفال⁽⁷⁾. ويقيم فيه المجاورون بأعداد كبيرة مشغولين دائماً بأداء الصلوات وقراءة القرآن وتسييح الله. ويتوضؤون من أباريق موضوعة في المثانة الشرقية، ويزودهم السكان تطوعاً وبلا مقابل بكل ما يحتاجون إليه من طعام ولباس⁽⁸⁾.

أما الدمشقيون، كما يذكر رحالتنا المغربي: "فهم يتنافسون في تشييد المباني الدينية، كالمساجد والزوايا والمدارس والتراب"⁽⁹⁾، وهذه الملاحظة تنمُّ دون أي شك على الحساس العمراني في عهد تنكز. نظامهم الغذائي غريب جداً: لا يأكل معظمهم إلا ما أُعِدَّ في الأسواق⁽¹⁰⁾، وضيافتهم مثالية:

(1) ابن بطوطة، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 229 - 230.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 197.

(3) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 204.

(4) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 212.

(5) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 205.

(6) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 212.

(7) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 213. يوضح ابن بطوطة أن النص القرآني لا يكتب على الألواح تكريماً، ولا يستخدم لتعليم

الكتابة: "فمدرّس الكتابة يختلف عن مدرس القرآن، ويعلم الأطفال باستخدام مؤلفات أخرى من الشعر وغيره".

(8) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 206.

(9) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 239.

(10) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 228.

فهم يعاملون الأجانب بكثير من الحذر مجتنبين كل ما يمكن أن يجرح مشاعرهم وكرامتهم⁽¹⁾، وموقفهم من الموت يستحق المدح: "فهم يصطفون على نحو مدهش عندما يرافقون مواكب الموتى، ويمشون أمام النعش في حين يرتل القراء القرآن بأصوات جميلة ونغم يستدر الدموع ويثير المشاعر حتى إن النفوس توشك أن تحلّق بعيداً"⁽²⁾.

بعد موت تنكز، دخلت دمشق في حقبة تراجع بطيئة نسبياً أمام منافستها حلب مدينة الشمال. عانت دمشق قبل كل شيء من ابتعاد الأنشطة العسكرية. إذ أدى اختفاء الخطر الفرنجي، واستمرار التهديد المغولي لمنطقة الفرات، إلى نقل التبعات العسكرية إلى حلب بعد حرب 1322م الأخيرة. وهكذا أصبحت عاصمة الشمال قاعدة انطلاق الحملات العسكرية الشامية التي انتصرت على أرمينية ما بين 1334 و1348م، والتي جرت جميعها، باستثناء واحدة، دون مشاركة جيوش دمشق ومصر. ومن جهة أخرى، استمرت الاضطرابات في السنوات العشر التي تلت موت الملك الناصر في سورية، وتكررت عدة مرات في السنوات العشر التالية. وفي عام 1351، أكد أمراء حلب للمرة الأولى - إذ كانت الامتيازات إلى ذلك الوقت في يد أمراء دمشق والقاهرة - رغبتهم في السلطنة. وشجع ضعف السلطة المركزية عنف البدو، فسبّب تمرد القبائل، المستمر تقريباً منذ 1330م وحتى بداية القرن العشرين، أذى مزمناً. ففي مصر العليا وسورية وعلى الحدود الشمالية كما في المناطق الشرقية عاق الهجوم على القوافل المبادلات التجارية، في حين أتلّف السطو على القرى المحاصيل، مسبباً أحياناً التخلي عن الزراعة، وخراب شبكات الري. وكان يجري القمع عادة بوحشية متناهية، إذ يذكر المقرئزي أنه في عام 1302م عندما لُقّب عرب القبائل في مصر العليا أنفسهم أمراء، ومنعوا بسبب قطع الطرق تحصيل الضرائب، أباح الفقهاء والقضاة محاربة القائمين بالشغب: "فقتل الناس (...) وذبحوا بلا رحمة. وبُقر بطن ما يقارب من ستة عشر ألف رجل (...). وانتشرت رائحة الجثث في كل البلد"⁽³⁾.

لقد عانت دمشق إضافة إلى ما كان يقوم به حاكمها من اختلاسات - الابتزاز الدائم المفروض عليها من القاهرة. وهكذا في عام 1373م، بعد أن عُيّن الأمير سيف الدين بيدمر حاكماً للمرة الثالثة تلقى

(1) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 240.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 244-245.

(3) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 187-189.

أمراً بارسال المواد الضرورية إلى القاهرة لبناء مبنى كان السلطان الأشرف شعبان (1363 - 1376م) ينيه في أسفل القلعة. فجمع بيدمر الذي "كان يهيمه الاستيلاء على ممتلكات الناس"⁽¹⁾ كل ما طُلب منه "في الوقت الذي كان الناس يعانون فيه وضعاً حرجاً"⁽²⁾ كما وضع ابن طولون. وأُرسل إلى مصر اثني عشر قنطاراً من الذهب والفضة، وتحفاً نحاسية مرصعة بالذهب والفضة حملها مئة وستون جماً. وبعد وقت قصير طلب السلطان أقمشة مطرزة وديباجاً (بروكار) لحريمه، وأعطية رحال مطرزة لنوقه، وسلاسل من الفضة والذهب ورحال جمال مرصعة بالفضة. فأجبر تجار دمشق على دفع الذهب والفضة الضروريين لِيُنَجَزَ على الفور سبعة مئة قطعة قماش من الديباج في كل منها ثلاثمائة إلى خمسمئة مثقال ذهب، وألفان من دبابيس الذهب برؤوس من اللؤلؤ، وثلاثة آلاف من دبابيس الفضة برؤوس من الذهب للعبيد، وألف ومئتا زوج من القماش المطرز، ونفس العدد من أعطية السروج، ومئة وعشرون بردعة قصيرة الزغب، وثلاثمائة هودج مرصع بالذهب والفضة، وستون زوجاً من أرسان من الفضة والذهب وسلاسل وأخطمة بأعداد كبيرة للجبال والنوق. "يذكر ابن طولون: "لقد كانت سلسلة متصلة من القوافل إلى القاهرة"⁽³⁾.

لم تُقلل الأزمة الاقتصادية الاستثمارات العامة، إذ تذكر مصادر موثوقة بها أنه بين وفاة تنكز ونهاية القرن كان في دمشق أقل من ثلاثين مشروعاً ما بين بناء وترميم.

في العقد الأخير من القرن الرابع عشر، أغرقت أحزاب المماليك المتناحرة الإمبراطورية في حقبة من الاضطرابات استمرت حتى عام 1422م، فسمحت مرة أخرى بظهور جيوش المغول في دمشق. وفي 26 تشرين الثاني 1382م، عُزل آخر خلف لسلالة قلاوون الكبير "الملك الصالح حاجي" وله من العمر أحد عشر عاماً، وعيّن الأمير برقوق نفسه، وهو عبد سابق اشترى من شبه جزيرة "القرم" في أوكرانيا، سلطاناً زاعماً أنه لا بد من سلطان نشيط لانتفاذ الإمبراطورية، وقد كان ذلك بواسطة جمع من الفقهاء برئاسة الخليفة. لقد كان برقوق الأول في سلسلة جديدة من سلاطين المماليك يسميها المؤرخون الغربيون أحياناً الجراكسة "Circassiens" على اسم بلادهم في الأصل، وأحياناً أخرى البرجيين لأنهم ينتمون إلى فيلق أسسه قلاوون وكان يعسكر في أحد بروج قلعة

(1) Cf. LACOST H., op. cit. p. 14.

(2) المرجع الأخير، ص 14.

(3) المرجع الأخير، ص 14.

القاهرة⁽¹⁾. وفي ظل حكم المماليك البرجية شاعت الفوضى وبلغ الفساد حدًا لا مثيل له من قبل.

في عام 1389م، اضطر برقوق إلى مواجهة صعوبات جسيمة أمام التهديد المغولي، إذ وصل خبر هدم تيمورلنك لتبريز إلى دمشق عام 1387م⁽²⁾ وخبر تقدم بعض مفارز جيشه حتى الرها وملاطيا. وتمرد حاكم حلب الأمير يلبغا الناصري، بعد أن انضم إليه أحد المماليك المغضوب عليهم، وهو المملوك منطاش وجميع حكام سورية ومن ضمنهم والي "سيس" في أقصى الحدود، فهزموا الجيش المصري في برزة وذلك في نيسان 1389م. فأسرع حاجب دمشق الكبير ألتنبوغا ليعلن خضوعه، ودخل يلبغا دمشق يتبعه كل أمرائها المتمردين. ونهبت مساكن الأمراء ودار السعادة في الوقت الذي عمت فيه الفوضى واستمرت ثلاثة أيام⁽³⁾. وبينما كان برقوق يحشد جيشاً جديداً، وصل يلبغا بجيوشه إلى الصالحية في شمال شرق القاهرة. والتحم الجيشان ولكن تضاعف عدد المنشقين في صفوف جيش برقوق الذي اضطر إلى مغادرة القلعة خفية متنكراً بملابس مستعارة. ولكنه أرسل إلى الكرك بعد أن قبض عليه، وأُعيد الصالح أمير حاج إلى العرش. ولما نجح برقوق في الهرب بمساعدة حاكم شوبك، أعاد برقوق تشكيل جيشه المؤلف في الدرجة الأولى من عرب القبائل والتركمان ثم زحف إلى دمشق. وبعد أن هزم في شقحب الجيش الذي أرسل لمواجهته في 31 تشرين الأول 1389م، عسكر في الميدان، في الوقت الذي عمل فيه حاكم دمشق الأمير جردمُر على تهيئة المدينة للدفاع عن نفسها وذلك بعد أن استنجد بمنطاش. وفي النصف الثاني من تشرين الثاني، أشعل حاكم حلب، الأمير كُشْبُغا الذي انضم إلى معسكر برقوق، النيران في عدة أحياء خارج أسوار المدينة. وكتب ابن سيرا "أنه أول من أشعل النيران في دمشق"⁽⁴⁾. لقد كان التخريب في الحقيقة هائلاً: فلقد دمرت وحرقت النيرانُ الأحياء المجاورة للقلعة والجامع الأموي، وأحياء باب الجابية وباب السلامه وباب الشاغور، وقصر الحجاج والمصلى، والقيبيات، وأسواق الحدادين وصانعي القبعات. وفي يوم الثلاثاء 22 تشرين الثاني، حاول جيش برقوق أن يهجم على قطاع باب

(1) من الجدير بالملاحظة أن المؤرخين العرب لا يذكرون حكم المماليك، البحري والبرجي، إلا تحت عنوان "حكم الأتراك".

(2) ابن سيرا، المرجع نفسه، ص7.

(3) المرجع الأخير، ص23.

(4) المرجع الأخير، ص55.

كيسان حيث كمن السكان " الذين كانوا لا ينامون ليلاً ولا نهاراً" (1) عند السور. وفي داخل أسوار المدينة تراحم سكان الغوطة والمرج الهاربون من أعمال العنف وابتزازات المحاصرين في المساجد والمدارس "بدون ماء أو مؤنة، يعانون البرد والخوف" (2)، لقد كان الوضع يائساً يائساً. ومع هذا لم يبد أن الحماسة للمعركة قد خفت: فلقد أعيد بناء برج قريب من باب الجابية، كان قد هدمه الحريق، أثناء الليل على ضوء الشموع والمشاعل. وبعد أن حاول برقوق في 27 كانون الأول أن يقوم بهجومه الأخير، علم أن منطاش في طريقه إلى دمشق يرافقه السلطان والخليفة على رأس جيش عرمرم، أحرق منجنيقاته وانسحب إلى شقحب.

وتتمة القصة لا يمكن تصديقها، ففي 5 كانون الثاني 1390م، بعد أن دارت الدوائر على برقوق، نجح الأخير وبرفقته بضع مئات من الرجال فقط أن يقبض، بعيداً عن ساحة المعركة، بمحض المصادفة على ما يبدو، على السلطان والخليفة وعلى فئة من القضاة، ثم أسرع بهم إلى القاهرة. في أثناء ذلك أخذ منطاش، الذي كان قد عاد إلى دمشق واستولى على القصر الأبلق، بإصلاح الاستحكامات والتصرف كسيد حقيقي لسورية، ووضع رجاله في كل مدن الضواحي. أما برقوق فقد دخل القاهرة متصراً ومعه غنيمته الخليفة في 7 شباط 1390م، وأخذ يجهز نفسه لفتح سورية. وفي 26 أيار، غادر منطاش قصره لما علم بوصول جيش قوي من مصر واستعرض جيشه عند قبة يلبغا (3) ورحل إلى شمال سورية. ولم يكن هذا إلا انسحاباً إستراتيجياً. فبعد سنة، في 4 حزيران 1391م، ظهر من جديد على رأس جيش "عدده عدد حبات الرمال" (4) عند أسوار دمشق وأقام مركز قيادته في القصر الأبلق. وفي 6 من نفس الشهر، دارت معركة عنيفة في شمال غرب المدينة. وتلقت الأحياء التي كانت تمتد من مسجد يلبغا (5) إلى دار البطيخ القصف القدام من القلعة. كتب ابن سسرا: "كانت المدفعية تزجر ليلاً ونهاراً، في حين كانت المنجنيقات ترمي حجارة ضخمة، وكان الناس يُقتلون أو يغرقون أو يصرخون يطلبون النجدة لمكافحة النيران (...)" أو

(1) المرجع الأخير، ص 58.

(2) المرجع الأخير، ص 64.

(3) انظر المرجع التالي، ص 343 و 344 العدد 575.

(4) ابن سسرا، المرجع نفسه، ص 107.

(5) انظر إلى المرجع التالي، ص 326 و 343.

يتوسلون إلى الله أن يخرجهم من هذه المصيبة"⁽¹⁾. وتتابعت المعارك حول دمشق خلال عدة أيام وأصبح جامع تنكز فريسة لألسنة اللهب⁽²⁾. وبدأت المجاعة تكوي بنارها، وارتفعت الأسعار، وطلب من كل السكان الانضمام إلى المعركة: "... وأجبر حتى النصارى واليهود على القتال. فلقد كانوا يحشدون في الأسواق والأحياء كل من له القدرة على القتال، ومعهم الأقواس والسهام، والأسلحة والمؤن، واجتمع عدد كبير من الناس خارج المدينة"⁽³⁾. واشتد وطيس المعركة عدة أسابيع، فأحرق العديد من المباني، ومن بينها دار البطيخ. وفي 26 تموز، أمر منطاش جيشه بالانسحاب لما حدث فيه من انشقاقات عديدة. عندها نهب حيّ الصالحية - الذي لم يكن بإمكانه، كما ذكر بحق ابن سسر، إلا أن يقف مع المتمردين - الدّهماء والتركمان وعرب القباطل، والأتراك، والناس الخقيرون وحتى الدمشقيون "الذين لا شرف لهم ولا دين"⁽⁴⁾. وفي صباح 24 آب 1391م، دخل برقوق دمشق برفقة الأمراء والأعيان الذين خرجوا لاستقباله. دخل دمشق وسط حشد من الناس ومشاعر البهجة، تحميه المظلة السلطانية التي كان الناصري حاكم سورية يحملها فوق رأسه. وفي دمشق مُدّت كالعادة الزينات ما بين باب المصلّى وباب السر الذي دخل منه إلى القلعة التي رُممت وفُرشت على عجل للمناسبة. وبعد الظهر، بعد انتهاء الحفل الرسمي المعتاد، صعد برقوق التّريّا وجلس فيها يشاهد الناس⁽⁵⁾. وفي منتصف تشرين الثاني، انشغل برقوق بعد أن قام بجولة تفتيش في منطقة شمال سورية بمعاينة أنصار منطاش. فسيق إليه عشرون أميراً، سُحبوا من مخبئهم، حفاة مقيدون بالسلاسل، فأمر بتعذيبهم. وبعد أن صلبوا عند سور القلعة أمام حشد كبير من الناس، طيف بهم على ظهور الجمال عبر المدينة قبل أن "يُشطروا إلى قسمين الواحد تلو الآخر"⁽⁶⁾، على مرأى من السلطان الذي كان يتأمل العرض من التريّا.

رُمم العديد من المباني التي تضررت حديثاً. وفي 4 أيار 1392م، وصل حفيد تنكز من القاهرة

(1) ابن سسر، المرجع نفسه، ص 111 - 112.

(2) المرجع الأخير، ص 112.

(3) المرجع الأخير، ص 115.

(4) المرجع الأخير، ص 124 - 125.

(5) المرجع الأخير، ص 130.

(6) المرجع الأخير، ص 140.

ليشرف بنفسه على أعمال إعادة بناء مسجد جدّه⁽¹⁾. ولكن في 13 تموز 1392م، اندلع حريق "لم يُر له مثيل في ذلك الزمن"⁽²⁾ ودُمّر العديد من الأسواق، منها سوق الوراقين، وكذلك مئذنة الجامع الكبير الشرقية. وأشعل الشرر الذي وصل إلى قاعة الصلاة النيران في عوارض الصقالة. واستحق المماليك، الذين ضاعفوا جهودهم ونجحوا في منع النيران من الوصول إلى المقصورة، مديح ابن سسر مرة أخرى، فكتب: "لقد قاموا ذلك اليوم بخدمة كبيرة للمسلمين، لأن الرعاع من الناس كانوا مشغولين بنهب ممتلكات الأمراء"⁽³⁾.

في 29 تموز 1393م، انتهت قضية منطاش المعقدة: ووصل رأس المتمرّد من حلب إلى دمشق في سلة البريد. وطيف به بعد أن وضع على رأس رمح عبر المدينة، ثم أرسل إلى القاهرة حيث عُرض عدة أيام على الناس عند باب زويلة. وكتب ابن سسر: "استعاد الناس الطمأنينة وأخذ بعضهم في بناء ممتلكاتهم التي هدمت خارج الأسوار"⁽⁴⁾. وللمرة الأولى منذ زمن طويل، غادر المحمل دمشق، في 2 أيلول 1393م - وهذه أفضل إشارة إلى عودة الأمن - متجهاً إلى مكة ليس وحيداً كما حدث عام 1390م ولكن وسط حشد كبير⁽⁵⁾.

لم يستمر الهدوء طويلاً. ففي نفس الشهر وصل نبأ استيلاء جيوش تيمورلنك على بغداد. كان تيمورلنك قد قام بمحاولة ودية لدى برقوق، الذي قتل السفير المغولي بلا أيّ توجّه للحدّز. وتجهزت دمشق مرة أخرى لتتمكن من الصمود أمام الحصار، وعلى الفور أقيمت المتاريس عند أطراف القلعة. وصل برقوق برفقة الخليفة إلى دمشق في 24 آذار 1394م بغية إعداد سورية للدفاع عن

(1) المرجع الأخير، ص 154.

(2) المرجع الأخير، ص 155.

(3) المرجع الأخير، ص 157.

(4) المرجع الأخير، ص 186.

(5) المرجع الأخير، ص 186. ذكر المحمل أول مرة عام 1266م، وهو رحل مكعب الشكل يعلوه هرم بأربعة جوانب، ومغطى بالحرير الأصفر، لون المماليك الرسمي، وفوقه كرة من الفضة المذهبة. يرمز المحمل في قافلة الحجاج إلى وجود السلطان الذي يبدو اسمه على إحدى واجهات المكعب بأحرف كبيرة. وهو قبل كل شيء رمز سياسي للتعبير عن الهيمنة على الحجاز. وعلى العكس مما ذكره جميع الرحالة الأوروبيين، فلقد كان المحمل خالياً دائماً ولا يحتوي على القرآن.

Cf. JOMIER J., Le Mahmal et la caravane égyptienne des pèlerins de la Mecque (XIIIe - Xxe siècle), Rech.

Arch. Phil. Hist. XX, Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1953AD..

نفسها، وهو يقود جيشاً "ملأت جنوده الصحراء كألسنه اللهب، يضاهي عددهم عدد النجوم"⁽¹⁾. وبرغم المعاملة السيئة التي ألحقها جيوشه مرة أخرى بالسكان⁽²⁾، شدّ وجود السلطان، دون أدنى شك، عزيمتهم وشجعهم كما تشهد على ذلك لهجة الاغتياب التي بدت فجأة في نص ابن سسرا: "فرحت كل المخلوقات بمقدمه، ومن السعادة تمايلت الأغصان، وعانقت القلعة وميدان الخيل الأرض أمامه، وغردت العصافير، وصفقت الأنهار، وفاح عطر الزهور، وانتشر الخبر السعيد في كل الأحياء"⁽³⁾. وفي شهر آب قام برقوق بجولة تفتيشية على القلاع في ضواحي حلب، ثم عاد أدراجه إلى دمشق حيث مكث فيها إلى شهر تشرين الثاني قبل أن يعود إلى القاهرة.

وفي 20 حزيران 1399م، مات برقوق على أثر نوبة صرع، فحلّ محله ابنه الملك الناصر فرج. ومرة أخرى استغلت دمشق الوضع وانشقت. إذ أعد الحاكم سيف الدين تنيك الحسني، رافضاً الاعتراف بفرج، جيشاً وزحف إلى القاهرة. إلا أنه هُزم قرب غزة واعتُقل وسيق إلى دمشق حيث قتل عند القلعة⁽⁴⁾. وفي تشرين الأول 1400م، اتجه الجيش المصري، الذي كان يضم بين صفوفه، مستشاراً خاصاً للسلطان، ابن خلدون المؤرخ المغربي الكبير والمفكر السياسي في الأدب العربي، إلى سورية مستعداً لحرب تيمورلنك الذي صعد وادي نهر العاصي بعد أن استولى على حلب. واجتمعت القوات المغولية القادمة من بعلبك، بعد أن احتلتها دون مشقة، غرب دمشق عند قرية قطنا، وذلك قبل أن تتمكن من داريا. وعند قبة بلبغا⁽⁵⁾ توقف الجيش المصري، الذي كان فرسانه - كما يروي شرف الدين، مؤرخ تيمورلنك التقريظي - "الأفضلين في العالم"⁽⁶⁾. وعسكر المغول "يائسين من الهجوم على المدينة" - إذا صدقنا تعليق ابن خلدون⁽⁷⁾ المغرور بعض الشيء - جنوب

(1) ابن سسرا، المرجع نفسه، ص 203.

(2) المرجع الأخير، ص 206.

(3) المرجع الأخير، ص 203.

(4) Cf. LAOUST H., op. cit., p. 15.

(5) ابن خلدون، رحلة الغرب والشرق، "Le voyage d'occident d'orient" باريس، سندباد، 1980م، ص 228.

(6) شرف الدين، تاريخ تيمورلنك، المعروف بلقب تيمورلنك الكبير،

Histoire de Timur-Bec, connu sous nom du Grand Tamerlan Paris, Deshayes, 1722AD, t. 3, p. 313.

(7) المرجع الأخير، ص 228. نفهم مما كتبه شرف الدين في هذا الموضوع أنه كان على الأغلب تخطيطاً عسكرياً.

دمشق في الكسوة، وأحاطوا معسكرهم بجدار "ارتفاعه طول رجل" وبخندق⁽¹⁾. راقب الجيشان بعضهما بعضاً مدة تزيد عن الشهر⁽²⁾، في حين عانت الغوطة "مكان النزعات"⁽³⁾ من فتك فرسان المغول المستمر الذين كانوا يأتون إليها لرعي خيولهم. وكثرت المناوشات مدة طويلة دون أن تحسم لمصلحة أي من الجيشين. وفي 5 كانون الثاني 1401م، كما كتب شرف الدين، "امتطى جميع فرسان الجيش السوري خيولهم وخرجوا من دمشق، والتحق عامة الناس بالجنود، يحمل بعضهم خناجر، وبعضهم الآخر عصياً وحجارة. ولما كان عددهم كبيراً، خاطروا بالمهجوم على مؤخرة جيشنا. وخرج أناس كثيرون من المدينة، حتى امتلأ كل الريف بالفرسان والمشاة. كان الفرسان يلبسون الدروع: وقد جردوا الخيول من سروجها وكانوا مسلحين جيداً بكل أنواع الأسلحة. وكان المشاة مسلحين بالأقواس والسهام والسيوف والدروع والفؤوس، يتوقعون نصراً مؤزرأً، ولم يُرَ من قبل مثل هذا العدد الهائل من الناس مجتمعين، خارج سور دمشق (...). وبعد قتال عنيف، رجحت كفة تيمور، وانهمز الجيش السوري ودُفع إلى سور دمشق وقد قتل أكثر من نصف جنوده وتفرق قسم كبير منه. ولم يتوقف الأمر هنا، فقد لحق التار بالمتفرقين وقاموا بذبحهم بوحشية، وأصبح لا يرى في كل مكان إلا أشلاء القتلى وسواقي من الدماء، وأسلحة وأعلام ورؤوس مقطوعة"⁽⁴⁾. حينئذ، وبعد أن علم السلطان فرج أن هناك ثورة تتهياً في القاهرة غادر ليلاً نحو مصر تاركاً دمشق وحدها لتواجه هجمات تيمورلنك. وكتب ابن خلدون: "استيقظ السكان في اليوم التالي في حالة من الذعر الشديد، وقد استولت الخيرة على النفوس"⁽⁵⁾. وحاصرت الجيوش المغولية المدينة متحصنة وراء سور حقيقي من الفيلة. واحتل تيمورلنك القصر الأبلق، في حين استولى ضباطه الرئيسيون على الضياع حيث وجدوا، كما يذكر شرف الدين، "كمية من الأثاث والأسلحة والأقمشة وكل أنواع البضائع"⁽⁶⁾. وفي المدينة حيث كان الرعب في أوجه، اجتمع القضاة والفقهاء مع ابن خلدون في المدرسة العادلية،

(1) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 317.

(2) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص 229.

(3) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 322.

(4) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 323-325.

(5) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص 229.

(6) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 332.

وقرروا إرسال قاضي الخنابلة تقي الدين بن مفلح، "فلقد كان يحميد التركية كما كان يحميد الفارسية"⁽¹⁾، للتفاوض مع المغول في شروط الاستسلام. فذهب ابن مفلح وخمسة آخرون من الأعيان إلى القصر الأبلق محملين بالهدايا الكثيرة، وذلك بعد أن جرى إنزالهم كالكديسين من أعالي السور في سلال من القصب.

لم يهمل تيمورلنك شيئاً وهو يخاطب رجال الدين ليخدعهم. فلقد كان احترامه للأديان، على حسب رأي مادحه، لا مثيل له⁽²⁾. إذ لم يفوت أية مناسبة ليبرهن فيها على ورعه وتقواه⁽³⁾، كزيارته في مقبرة باب الصغير لقبري زوجتي الرسول (ﷺ)، أم سلمة وأم حبيبة. ولم يتوقف أثناء المقابلة عن ذكر الله القدير، طالباً المغفرة لذنبه، ولم يترك المسبحة أبداً، وصرّح أنه سيعطي دمشق حريتها مراعاة للأنبياء الذين كانت سكناً لهم⁽⁴⁾. وأخبر أخيراً سامعيه أنه أمر بتجديد بناء قبر أم حبيبة الذي كانت قد انهارت قبته. وكم كانت حاقة الناس كبيرة - كتب ابن إياس: "كان مثل الجزار الذي يذكر اسم الله على دابته قبل أن يذبجها" - عاد الوفد، الذي لم يكن يطلب كل هذا، والذي لم يكن يهيمه على أغلب الظن إلاّ النجاة بحياته وبمصالحه المادية، يمدح ورع تيمورلنك ويردد ما توصلت إليه المفاوضات: النجاة للجميع مقابل فتح أبواب المدينة في اليوم التالي وتسليم الإدارة إلى الحاكم المغولي. وأراد ابن مفلح واثقاً من الحصول على موافقة أغلبية السكان فتح باب النصر. إلاّ أن قائد القلعة عارض وهدد باحراق المدينة. وعاد وفد من العلماء والشيخو والقضاة يقودهم ابن خلدون - بعد أن حصلوا من تيمورلنك على مقابلة ثانية - إلى دمشق ومعهم تصريح مكتوب يضمن أمن السكان⁽⁵⁾، فقرأ بصوت عالٍ في الجامع الأموي. وبعد ذلك، فُتح الباب الصغير للجيش المغولي الذي انتشر في المدينة. وفي يوم الجمعة قرئت الخطبة باسم تيمورلنك.

وكل تيمورلنك، وفقاً لتسلسل الأحداث صار تقليدياً بعد ذلك، ابن مفلح بفرض جزية

(1) ابن إياس كما روى عنه MARGOLIOTH, D.S., القاهرة والقدس ودمشق، منذ السلاطين المصريين الثلاثة، "Cairo, Jérusalem and Damascus. Three cities of the Egyptian sultans..." لندن، 1907م، ص 269.

(2) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 346.

(3) المرجع الأخير، ص 332-333.

(4) Cf. MARGOLIOUTH, D.S., op.cit., p. 269-270.

(5) المرجع الأخير، ص 270.

بقيمة مليون ثمن بسبب رَفُض حاكم القلعة - التي يعتبرها شرف الدين "من أشهر قلاع العالم"⁽¹⁾ - الاحتلال وتجهُّزه لاستمرار حالة الحصار. ولم يتردد القاضي المسكين وقد شوشه هذا المطلب، في تعذيب المتمردين، وعمل كل ما بوسعه لجمع هذا المبلغ، طالباً عشرة دراهم سورية عن كل شخص، ووارد ثلاثة أشهر من كل مؤسسة دينية. يذكر ابن إياس: "من الصعب وصف الضيق الذي نتج من هذه الإجراءات، إضافة إلى ارتفاع الأسعار أثناء الحصار، فقد وصل سعر صاع القمح إلى أربعين درهماً سورياً"⁽²⁾. وتوقفت الأعمال، وخلت الأسواق من الناس، وكانت كتائب جديدة من الجيش المغولي تخرق كل يوم المدينة لتدعم الحصار. واستقر شناه ملك وهو ضابط مغولي في الجامع الأموي مع نسائه وعسكره، وأغلق الفراغات الموجودة بين الأعمدة بسجاد وحصير قاعة الصلاة⁽³⁾ و"أخذ في شرب الخمر ودق الطبول ولعب النرد"⁽⁴⁾. وفي غضون بضعة أيام، نصبت المدافع في الصحن، وفي أماكن أخرى من المدينة، فبلغ عددها ستين منجنيقاً ومعدات أخرى مثل القاذفات والعرادات وقاذفات النفط⁽⁵⁾. وجُفِّف الخندق، ووُضعت أبراج عالية قرب الأسوار. وفي الوقت الذي كان المحاصرون يرمون فيه الحجارة والنيران والسهام وقدوراً مملوءة بالنفط، كان النقبون ينجزون مهمتهم عند أسفل السور تحميمهم مدافع المغول التي منعت المدافعين من الظهور المريح. كتب شرف الدين: "كانوا يشعلون النيران حتى تسخن حجارة السور الكبيرة، ويصبون الخل عليها ثم يكسرونها بالمطارق ويخرجونها من الجدران؛ وعندما يتمكنون من جعل السور وشقة الحصن في حالة انهيار، كانوا يستندونها بدعامات غليظة حتى لا تسقط فجأة. وخرقوا على هذا النحو في وقت قصير الحصن والتراب التي كانت أضخم الأبراج (...). إذ سبب انهيارها ثغرة كبيرة في السور. فأسرع الجنود ودروهم على رؤوسهم إلى الدخول من هذه الثغرة، ولكن انهارت شقة أخرى في السور فجأة، فسحق ثمانون رجلاً (...). واستغل المحاصرون الوضع في إصلاح الثغرة وتدعيم المؤخرة (...). فأشعلت حينئذ النيران في الأنقاب الأخرى، وشوهد انهيار جزء كبير من القصر. نزع هذا الحادث كل

(1) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 335.

(2) Cf. MARGOLIOUTH, D.S., op.cit., p. 271.

(3) المرجع الأخير، ص 271. تؤكد هذه الجزئية أن قاعة الصلاة في ذلك الزمن كانت مازالت متصلة مباشرة بالصحن.

(4) المرجع الأخير، ص 271.

(5) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص 236.

الأمل من المحاصرين، وفتح حاكم المكان الباب، بعد أن اضطر إلى الخروج مثقلاً بالأسى، وسلم مفاتيح القلعة والخزنة والدكاكين التجارية"⁽¹⁾. وإضافة إلى ما أودع فيها السلطان فرج قبل الهروب: من حيوانات لحمل الأثقال وخيل وجميع أنواع الممتلكات، استولى المغول على عدد كبير من الثروات والجواهر والأقمشة الثمينة، "والتحف النادرة التي كانت محفوظة منذ عدة قرون"⁽²⁾، وعلى مخزن الغلال "المشهور" المملوء بالقمح الذي تبلغ قيمته ما يعادل وارد المدينتين المقدستين مكة والمدينة"⁽³⁾. أعدم حاكم المكان "لأنه تأخر في الاستسلام"⁽⁴⁾، ووزعت النساء والأطفال والشيوخ والحامية، وهم الجراكس وأيضاً الجيوش القادمة من أتيويا وزنجبار، بين الأمراء، وأرسلوا إلى سمرقند، عاصمة الإمبراطورية المغولية"⁽⁵⁾. يضيف ابن إياس: "استولى المغول على كل شيء، حياً كان أم جماداً، لقد استولوا في الحقيقة على كل المدينة"⁽⁶⁾. "وإن كانت القلعة لم تُدك، كما يذكر ابن خلدون، والأسوار مازالت باقية مؤكدة هذا - فإن الأبنية الداخلية تضررت كثيراً.

غادر تيمورلنك القصر الأبلق ليسكن في شبال غرب القلعة في مسكن أحد الأمراء الممالك، ييثاس السُدي. لقد كان المسكن "محاطاً بكثير من الأشجار وكان أجمل وأروع منزل في هذا البلد"⁽⁷⁾. وأندرسون ابن مفلح الذي لم يستطع أن يجمع سوى ثلث الغرامة المفروضة بضرورة وفائه بما طلب منه بكل الوسائل ويدون أي تأخر. صودرت كل الممتلكات: ممتلكات السلطان وأمرائه وجنوده، وممتلكات التجار والأعيان الذين كانوا قد هربوا، واثنان عشر ألفاً من الغنم والخيل والبغال والإبل والحمير، وكل

(1) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 336-338.

(2) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 338-339.

(3) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 339.

(4) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 338.

(5) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 339. يعلق ابن خلدون على هذه الأحداث المؤلة بتحفظ مريب: "طلب المحاصرون الأمان، فمنحه لهم تيمورلنك وتمكنوا من المثل أمامه". وهذا كل شيء. من الواضح أن العشاء اللذيذ، الذي تاق إليه كثيراً، مع الغازي (ص 230-235)، وما لاقاه من التقدير والتكريم من قبله قد كان لها تأثير حاسم عليه. ويبدو لنا شرف الدين، الذي لم يتوان عن الالتواء في كل الاتجاهات ليظهر بطله (تيمورلنك) بأحسن وجه، أدق فيما يتعلق بهذا الموضوع.

(6) Cf. MARGOLIOUTH, D.S., op.cit., p. 272.

(7) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 339. يقع في حي سوق ساروجه الحالي، وقد حول الأمير بلبان منزل السوداني إلى

مسجد عام 1416.

الأسلحة "الجيدة والسيئة على حد سواء" كما يوضح ابن إياس⁽¹⁾. وأجبر تيمورلنك ابنَ مفلح على تزويده بمجرد مفصل لكل أحياء وشوارع دمشق. ثم "قام بتوزيع بطاقات فيها أسماء الشوارع على أمرائه واخترق الجيش كله المدينة. وكان كلما تمكن أمير من شارع طلب من سكانه مبلغاً مستحيلاً. وكان على كل ساكن أن يملكث أمام باب منزله مرتدياً أكثر ملابس تواضعاً وأن يسدد المبلغ المفروض عليه. فإذا أجاب بأنه لا يملك شيئاً، انهالت عليه السياط، ودخلوا بيته عنوة، وصادروا كل ما فيه من أثاث ومواعين، واغتصبوا نساء وبناته أمام عينيه (...). وقد اخترعت وسائل للتعذيب جهنمية: إذ كان يربط الحبل حول رأس الرجل ويشد إلى أن ينغرز فيه (...). وكان يُعلق بعضهم من إبهام قدمه ويُشوى على نارٍ خفيفة حتى آخر نفس. لقد قام جنود تيمورلنك بأعمال يشيب منها الرأس بمجرد سماعها"⁽²⁾. لم تكن هذه الأعمال الوحشية، التي استمرت تسعة عشر يوماً، والمقترفة لغايات - إذا صح التعبير - ضرائبية إلا مقدمة. ففي 4 آذار 1400م، انقض جنود المشاة الحانقون، "مثل أمواج البحر"⁽³⁾، على المدينة "وارتكبوا فيها ما لا يمكن تصوره من المجازر وأعمال العنف والنهب"⁽⁴⁾. واسترقوا الرجال وسبوا النساء، واستولوا على حليهنَّ وما يمتلكون من الذهب والأحجار الكريمة والبضائع الثمينة والأقمشة الرائعة وكل أنواع التحف النادرة. وكدمت كميات هائلة من الثروات لدرجة أن الخيول والبغال والإبل التي كانوا قد صادروها في طريقهم من سبست إلى دمشق لم تكف لحملها. واضطر عدد من الجنود أن يتخلوا عن الأقمشة المطرزة بالذهب والفضة، وعن الأحزمة الثمينة التي نهبوها في بداية حملتهم من مصر وقبرص وروسيا، ليأخذوا في محلها همولات كاملة من نقود الفضة والأحجار الكريمة وأواني من الذهب والفضة كانت من نصيبهم عند توزيع الحصص.

وفي 17 آذار اندلعت النيران في المدينة. إذ ذكر ابن خلدون أنها وصلت إلى جدران المنازل "عندما كانوا يحرقون الأسماك والأشياء التي لا قيمة لها"⁽⁵⁾. وهذا بالطبع ليس مقنعاً ويتعارض مع

(1) Cf. MARGOLIOUTH, D.S., op.cit., p. 272.

(2) المرجع الأخير، ص 273.

(3) المرجع الأخير، ص 273.

(4) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 344. نفهم من شرف الدين (ص 344) أنه من الممكن أن تكون الجيوش قد دخلت دمشق "دون أن تسلم أمراً بذلك"، وهذا طبعاً غير ممكن ولا يوافق رأي الشاهد العيان ابن خلدون ولا المؤرخ ابن إياس.

(5) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص 236.

شهادة ابن إياس التي تؤكد أن النيران أشعلت تنفيذاً لأوامر تيمورلنك. ووفقاً للرحالة البافاري شلتبرغر، الذي كان في ذلك الوقت سجين المغول، أمر تيمورلنك بحرق الخشب بعد أن أمر بتكديسه حول الجامع حيث كان يلتجئ ثلاثون ألف شخص⁽¹⁾. أما رواية شرف الدين، الذي لا يضع أية فرصة لتبرئة بطله، فإنها مضحكة ولكنها مثيرة. فلقد عمل جهده ليوضح قابلية المدينة للاشتعال الكبيرة جداً، وأتى بوصف ثمين عن دمشق في نهاية القرن الرابع عشر، فكتب: "كان تَوْضَعُ المنازل بحيث إِنَّ الطابق الأسفل من الحجارة والطابق الثاني والثالث من الخشب، وإنَّ معظم ألواح الأرضية والجدران كانت مطلية بالبرنيق، مما يجعلها قابلة للاحتراق بحيث إنه حين يشب حريق في مكان ما، لا يفلح القضاء والحكام، برغم كل الجهود المبذولة في حصر الحريق في حيٍّ واحد ويحترق دائماً قسم كبير من المدينة. وهذا يتكرر مراراً في وقت السلام المستقر"⁽²⁾. إذن، ما عليكم إلا تخيل ما يمكن أن يحدث أثناء الحروب: "لقد اندلعت النيران عَرَصاً⁽³⁾ في المدينة، وعمل الجميع على إطفائها، ولكن دون جدوى: لقد اشتدت اتقاداً حتى أصبحت تشم في كل مكان رائحة خشب الأبنوس والسندروس اللذين يدخلان في تركيب برنيق هذه المنازل الجميلة التي أصبحت سوداء كالجحيم"⁽⁴⁾. واحتدمت النيران أكثر فأكثر، ووصلت إلى الجامع الأموي؛ حينئذ أرسل "تيمور الذي كان يكن احتراماً لا مثيل له للدين"، كما يذكر شرف الدين، أميراً لكي يحمي المبنى المشهور من النيران، "ولكن، لما كان السقف من الخشب المغطى بالرصاص، بدلاً من الجص المزيّن، أراد الله أن يري أنه كان غاضباً على هؤلاء الناس، فلم ينجح الجنود برغم كل الجهود التي بذلوها في منع تحول مئذنة الجامع الشرقية إلى رماد، مع أنها كانت مبنية من الحجارة، ولم تبق إلا مئذنة العروس التي، كما يعتقد المسلمون، سينزل عليها المسيح عليه السلام من السماء يوم يأتي ليحاسب الأحياء والأموات. والعجيب في الأمر، أن هذه المئذنة، التي كانت من الخشب ومطلية بالكلس من الخارج، لم تحترق وبقيت سالمة، في حين احترقت دمشق كلها، ونهبت خيراتها الهائلة،

(1) Cf. GUATREMERE, Sultans mamluks, II, 1, p. 286.

(2) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 345.

(3) مؤلف الكتاب Gérard DEGEORGE ..

(4) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 345.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بباقي سورية⁽¹⁾. وقُلِّل شرف الدين من حجم الخسائر التي أصابت المبنى عمداً؛ في حين كان ابن خلدون وابن إياس أكثر وضوحاً. إذ يذكر ابن خلدون أن "القباب والجدران انهارت وأن فضاة المنظر بلغت أبعد حد"⁽²⁾. ويذكر ابن إياس: "لم يبق إلا جدران بلا سقف ولا أبواب ولا رخام"⁽³⁾. وكتب شرف الدين⁽⁴⁾، لولا أن المدينة لم تحرق بتمامها - إذ يبدو أن الحريق لم يتجاوز جنوب المدرسة القلجية - لما تعافت دمشق من آثار اجتياح الغزاة لها.

في نهاية آذار 1401، غادر تيمورلنك معسكره في القبيبات⁽⁵⁾ وقد أهتمّه مجابهة تهديد الأتراك، وذلك بعد أن أحرق القصر الأبلق وأمر "لكي يبرهن على أنه رحيم"⁽⁶⁾ بتحرير كل عبيد سورية. وفي الوقت الذي كان يرسل فيه فصائل لنهب تدمر وأنطاكية وحماة، قاد جيشاً كبيراً واتجه به إلى بغداد. وقد خلف وراءه مدينة محطمة تنزف دماً. إن تقرير ابن إياس عن الوضع يثير القشعريرة: "وهكذا أصبحت دمشق، التي كانت في غاية الازدهار والمرح والتألق والترف والروعة، كومة من الحطام وبقايا مهجورة جُرِّدت من جمالها وفنها. ولم يبق من الكائنات الحية إلا هياكل عظمية قد احترقت جزئياً، وأشباح شوهها الغبار وغطاها الذباب وأصبحت فريسة وغنمة للكلاب. ولم يعد بإمكان أحد، حتى اللبيب، أن يعرف طريقه إلى بيته أو يميز سكنه من سكن الآخرين"⁽⁷⁾.

وبرغم أعمال التجديد - تجديد دار السعادة، والجامع الأموي، وبيمارستان نور الدين والعديد من المدارس⁽⁸⁾ - التي بدأت في صيف 1403م والتي قام بها الحاكم الشيخ الخسكي، الذي أصبح فيما

(1) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 346. عكس شرف الدين المأذن. المئذنة المسماة بمئذنة "المسيح" هي المئذنة الشرقية. فهي إذن التي كان الجزء العلوي منها من الخشب والتي أصبحت رماداً.

(2) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص 236.

(3) Cf. MARGOLIOUTH, D.S., op. cit. p. 274.

(4) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 346.

(5) كانت في ذلك الوقت ضبعة صغيرة يسكنها العرب الحضر في جنوب دمشق،

(SAUVAIRE H., op. cit., Mars-avril 1894AD, p. 293 n° 20)

سميت بالقبيبات "القبب الصغيرة" بسبب بيوتها الطينية ومقوفها من قصب السكر. أما اليوم فهي جزء من الضاحية الجنوبية للميدان الواقعة بين مسجد منجك ومسجد الفلوس.

(6) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 347.

(7) Cf. MARGOLIOUTH, D.S., op. cit. p. 274.

(8) LAOUST, H., op. cit., p. 17.

بعد السلطان المؤيد، لاحظ غلبرت دو لانوا GHILLEBERT DE LANNOY أثناء مروره بدمشق عام 1422م، أن دمشق "التي دُمّرت تماماً في زمن تيمورلنك، قد باشرت أعمال التجديد وإعادة البناء النشطة"⁽¹⁾. وبعد عشر سنوات بقيت آثار المصيبة واضحة للعيان كما يشهد بترندو دو لا بروكيير BERTRANDON DE LA BROQUIÈRE: "لقد خرب تيمورلنك دمشق وحطمها في عام ألف وأربعمئة تقريباً، لأنه مازالت تُرى الدلائل كحيّ من المدينة لم يُجدّد بناؤه، وهو حي يقع قرب باب يدعى باب القديس بول (باب كيسان)"⁽²⁾. وإذا كانت التجارة لم تتأخر طويلاً، بعد النهب الذي تعرضت له دمشق حين ذاك، في استعادة نشاطها المعتاد، فإن هذا لم يكن حال الحرفيين، فلقد رحل كل العمال مجبرين إلى سمرقند. إذ سمع الحاج ستيفان فون غرمينبرغ STEPHAN VON GRUMPPENBERG الذي أراد شراء الحرير الدمشقي المشهور أن الحرير الموجود مصدره "البندقية، لأن تيمورلنك أخذ معه جميع الحرفيين"⁽³⁾.

واستمرت بعد رحيل تيمورلنك الحروب الداخلية نحو عشر سنوات. فسببت تدهور الحرف المهنية والتجارة، وتضخماً مالياً كبيراً، وانحيار النظام البريدي، وطغياناً ضرائبياً كان وراء هجرة الفلاحين من أراضيهم، وهيات الظروف لتسلّل التركمان الذي كانوا يعيشون في الريف فساداً، ولجسارة البدو الذين ضاعفوا غارتهم على الأراضي الزراعية. ولقد قام السلطان الملك الناصر فرج أثناء حكمه الذي دام ثلاثة عشر عاماً بما لا يقل عن سبع حملات على سورية لمكافحة العصابات التي كان يدعّمها زعماء الجماعات المنافسة في مصر وسورية. ولقد هرب السلطان إلى دمشق بعد أن هزمته القوات المحالفة للأميرين نوروز الحافظي والشيخ الخسّكي^(*) في نيسان 1412م، ثم أُعدم في القلعة، بعد أن خُلع في 7 أيار 1412م، ورُمي خارج المدينة على كومة من الروث حيث كان يأتي لشم جثته كل

(1) LANNOY, G. de, Oeuvres de Ghillebert de Lannoy, voyageur, diplomate et moraliste, Louvain, 1878AD, p. 156

كلف ملك إنكلترا وملك فرنسا ودوق بورغون غلبرت دولانوا بالقيام بمهمة "استطلاع" في المشرق هدفها الوحيد هو الاستعداد لحملة عسكرية.

(2) LA BROQUIERE, B. de, Le Voyage d'outremer de Bertrandon de Broquière, premier écuyer tranchant et conseiller de Philippe le bon duc de Bourgogne, Paris, 1892AD, p. 35.

(3) Cf. HEYD W., op. cit., t. I, p. 469.

(*) شيخ المحمودي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، ص 91.

الذين أرهقهم⁽¹⁾. وبعد مدة قصيرة من حكم الخليفة "الألعوبة" المستعين بالله، تولى الشيخ الخسكي العرش ملقباً نفسه الملك المؤيد، وقام قبل كل شيء بتدعيم سلطته وإعادة الأمن المدني. فحارب الحكام السوريين الذي رفضوا مبايعته، ونجح في اعتقالهم الواحد تلو الآخر وأعدم نوروز الحافظي الذي أصبح منافسه الرئيسي. وقمع التركمان والبدو بلا رحمة. وطرد من الإدارة توخياً للحد، الذميين اليهود والنصارى الذين أكرهوا على الخضوع للأنظمة القديمة المتعلقة باللباس، لأن القرصنة الأوربيين الذين اتخذوا من جزيرتي قبرص ورودس قاعدتين لهم كانوا نشطين ويتحركون بكثرة في حوض البحر الأبيض المتوسط. وتحسن الوضع الاقتصادي في جميع أنحاء الإمبراطورية: فراجع التضخم المالي، وعاد التعامل من جديد بالدرهم الفضي.

واستعادت الحرف نشاطها تدريجياً في دمشق وشمل ذلك صناعات الحرير والقطن والنسيج والتطريز والألباد والسجاد والجلود والسروج والنحاسيات والخزفيات، بعد انقطاع طويل بسبب اجتياح تيمورلنك. إلا أن الصناعات الكمالية لم تستعد تألقها السابق، خصوصاً لأنها تضررت كثيراً بسبب انخفاض دخل الأمراء المرتبط بالتدهور الزراعي. وإذا كان لا يزال بمقدور BERTRANDON DE LA BROQUIÈRE أن يمدح سيوف دمشق عام 1432م: "أجمل وأفضل سيوف سورية"⁽²⁾، فإن صناعة النحاس الدمشقي والزجاج المذهب والأقمشة المشهورة والحرير والديباج (البروكار) والمخمل والساتان لم تعد من الصناعات المتميزة. ثم إن بعض المهن اختفت فيما يبدو: إذ تطلب إعادة بناء سقف الجامع الأموي الذي تضرر بسبب حريق سنة 1401م استقدام عمال مختصين في التغطية بالرصاص من الأناضول. وبدءاً من القرن الخامس عشر، لم يعد بإمكان أي رحالة كتابة ما كتبه الفلورنسي غوتشي قبل خمسة عشر عاماً من وصول تيمورلنك إلى دمشق: "تُصنع في دمشق المنتجات الرخيصة والقيمة على حد سواء أكثر من أي منطقة في العالم، مثل ملابس الحرير والقطن والكتان ومصنوعات من الذهب والفضة والنحاس والشبه والزجاج. إنهم هنا ماهرون حقاً في

(1) GAULMIER, J., La Zubda Kachf al-Mamalik de Khlil al-Zāhiri, trad. (1) زبدة كشف الممالك لخليل الظاهري،

inérite de Venture de Paradis, Beyrouth, 1950AD, p. 250

(2) LA BROQUIÈRE, B. de, op. cit., p. 60.

صنع كل الأشياء بدون أي منازع في كل الفنون"⁽¹⁾. وانتهت تلك السيادة الحرفية التي ساهمت كثيراً في شهرة دمشق. وإضافة إلى ذلك بدأت منافسة المنتجات الأوروبية التي لم تتوقف عن النمو إلى وقتنا الحاضر. وأصبح البروكار والدمقسي والزجاج المذهب، المصنعة في إيطاليا، تصدر إلى المشرق. ونرى كاتباً مثل المقرئزي (ت 1422م) يشكو من الغزو المفجع للأقمشة الإيطالية وتفضيل السكان للبضائع الأوروبية القادرة على المنافسة والتي هي أعلى جودة. هذا الانقلاب الاقتصادي الذي نلاحظ هنا بداياته لم يكن إلاّ مظهر حركة عامة أبدت رجحان كفة الغرب، ابتداء من تاريخ يصعب تحديده ولأسباب عديدة ومرتبطة بعضها ببعض. وقد وعى هذا الانقلاب وأسف له معاصره ابن خلدون (ت 1406م)، فهيمن موضوع الانحطاط على مؤلفه، وإن صمّنه شهادة رضا عن النظام المملوكي⁽²⁾. ففي الوقت الذي يذكر فيه انحطاط العلوم والطب والنحو والتعليم في المدن المسلمة⁽³⁾ وتراجع الحضارة العام⁽⁴⁾، يذكر "غزارة الفنون في البلدان غير العربية مثل الصين والهند والأراضي التركية والأمم النصرانية الذين أصبحوا مؤرّديها الرئيسيين"⁽⁵⁾. وقد تحدث عن النهضة الفكرية الغربية المعاصرة واعتبرها أمراً جديداً، فلقد كتب: "علمت حديثاً أن العلوم الفلسفية تتمتع بحظوة كبيرة في بلاد الروم في الأرجاء الشمالية المجاورة لبلاد الفرنج. وقد أكدوا لي أنها تُدرس من جديد ويُعطى فيها عديداً من الدروس. ويبدو أن هناك كثيراً من المؤلفات في هذه العلوم، وكثير من الناس يسعون لمعرفة ما ومن الطلاب لتعلمها"⁽⁶⁾. وقد انقضى الزمان الذي كان فيه مؤلف مثل المسعودي (ت 956) يستهزئ، وهو مدرك التفوق الثقافي للعالم الإسلامي، من تخلف العلوم

(1) FRESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384, Jérusalem, 1948AD, p. 142.

(2) ابن خلدون، Discours sur l'Histoire universelle، الترجمة الفرنسية لكتابه "المقدمة" ترجمها Monteil باريس، سندباد، الجزء 3، 1967م، الجزء 2، ص 897، الجزء 3، ص 1238م.

(3) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 960، ص 1081، ص 1248.

(4) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 856.

(5) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 823.

(6) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 1049.

اليونانية في الغرب، الذي كان ينسبه بكثير من الفطنة إلى التعاليم النصرانية⁽¹⁾.

استمر التمكين لدولة المماليك أثناء حكم السلطان الأشرف برسباي الذي استولى على العرش في نيسان 1422م. وقمعت الثورات في سورية وتمدات البدو بقسوة، وجُدد منع الذميين من تولي المناصب الإدارية، وخُتمت ممتلكات الأوروبيين الذين منعوا من العودة إلى بلادهم بالشمع الأحمر، كما مُنع تداول العملات الأوروبية. واتخذت كل الإجراءات التي من شأنها أن تدعم شعبية السلطان وتشجع عدوانية الدهماء على المسافرين الأوروبيين. ففي السابق عام 1384م، أثناء حكم السلطان برقوق، ذكر ثلاثة مسافرين إيطاليين، MM. FRESCOBALDI وGUCCI وSIGOLI بالتفصيل الإهانات التي تعرضوا لها في شوارع دمشق من "أناس أخسَاء لم يكونوا من نسب كريم": "لقد أهانونا أولاً بأكثر الشتائم سوءاً، ثم جردونا من قبعاتنا التي كانت تغطي رؤوسنا، وحاولوا وضع قدمهم بين أرجلنا لكي نتعثر أمام الناس، وكان الذين يمتطون خيولهم يوجهونها نحونا لكي تعضنا وترفسنا بحوافرها. وكانوا يصبون علينا الماء من نوافذهم أو من الطريق، وكانوا يبصقون في وجوهنا ويحشون في أعيننا التراب، ويقذفوننا بالحجارة، ويضربوننا ويوجهون لنا اللكمات والصفعات، ولكي نتجنب ما هو أسوأ كنا نتحمل كل شيء"⁽²⁾. وفي عام 1432م، أثناء حكم برسباي، اضطر برترندون دو لا بروكير أن ينزل عن حصانه قبل أن يدخل دمشق لأنه كما قال: "لم يكن يجزئ أي نصراني على السير في شوارع المدن ممتطياً حصانه"⁽³⁾. وبعد وقت قصير عمد أحد الدمشقيين ومعه قضيب قصير "إلى نزع قبعته الكبيرة المصنوعة من اللَّبَد عن رأسه"⁽⁴⁾ لأنها "لم تكن مألوفة هناك"⁽⁵⁾. واستنتجوا بعد كل هذه المضايقات أن "النصارى مكروهون بشدة"⁽⁶⁾ في دمشق. وفي عام 1481م، يذكر المسافر اليهودي مشولام بن ر. مناحيم MESHULLAM BEN R. MENAHEM كان اليهود مجبرين على ارتداء عمامة

(1) المسعودي، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 278. الملاحظة نفسها فيما يتعلق بالديانة النصرانية من حيث إنها ظلامية تعارض تنقيف العامة نجدها في مؤلفات ابن خلدون، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 1046.

(2) FRESCOBALDI, GUCCI, SIGOLI, op. cit., p. 143.

(3) La BROQUIERE, B. de, op. cit. p.33.

(4) المرجع الأخير، ص 33.

(5) المرجع الأخير، ص 33.

(6) المرجع الأخير، ص 38.

صفراء "في كل مقاطعات السلطان"⁽¹⁾.

لم يَعتَق كل هذا التجارة مع أوروبا، وبرغم أعمال العنف الصادرة عن السلاطين والأمراء، ووقاحة الموظفين المرؤوسين والشتائم والابتزازات، والإهانات والتهديدات والضرب بالعصي، كان جاذب الربح يجذب عدداً كبيراً من المسافرين الأوروبيين للتجارة في مدن الشرق الأدنى. وفي عام 1395م، رأى السنيور أنكلور في القاهرة فنادق الفرنسيين وأهل البندقية وجنوة وكتالونيا وقبرص ونابولي وأنكوني ومرسيليا وناربون. وفي عام 1432م، قابل برترندون دو لا بروكير في دمشق "وهو تاجر غني جداً"⁽²⁾ أشخاصاً من البندقية وجنوة وفلورنس وكتالونيا وفرنسا، ومن بينهم شخص يدعى جاك كور، كان تاجراً قد أتى من بروج، جاء كغيره يبحث عن الثروة في المشرق، وقد أصبح فيما بعد مشهوراً بأمين خزانة ملك فرنسا، شارل السابع⁽³⁾. كان التجار الأوروبيون يمتلكون في دمشق خاناً يحمل اسم مؤسسه، السلطان برقوق، وكان بإمكانهم أن يضعوا فيه بضائعهم مطمئنين⁽⁴⁾.

عمد برسباي وقد شغله أمن الإمبراطورية إلى تقوية الاستحكامات: فزود القوات البحرية بأسطول حراقات صغير، وحصّن الساحل بسلسلة من الحصون الصغيرة، وقام بحملة عام 1426م على القاعدة الرئيسية للقراصنة النصارى في المنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، في جزيرة قبرص حيث أُمِرَ ملكها جانوس. وكان هذا أول انتصار بحري للمسلمين بعد عدة قرون. واستمرت محاربة التركمان بقوة متزايدة: وفي عام 1433م، حاصر جيش كبير مدينة عميد-ديار بكر حالياً- واضطر الأمير التركماني في منطقة الشاة البيضاء، قره يولك، إلى الاعتراف بسيادة السلطان المملوكي. وبلغت الإمبراطورية أقصى توسعها الإقليمي، وتابعت الحالة الاقتصادية نهوضها: ووضعت في التداول عملة من الذهب هي الدينار الأشرفي لمنافسة دوكا البندقية التي كان جارياً استخدامها. وكان السلطان وكبار الأمراء يتدخلون تدخلاً مباشراً في الدوائر الاقتصادية لزيادة دخلهم الخاص بهم. فاحتكر برسباي زراعة القصب لمصلحته الخاصة، وصناعة السكر وبيعه، وبيع القطن الخام والنسيج. وضاعف البيع الإجباري بأسعار تزيد على أسعار السوق:

(1) ADLER, E.N., Jewish Travellers, London, 1930AD, p. 163. وفيما يتعلق بوضع الذميين في بلدان العالم الإسلامي

انظر، Lévy, 1986AD, Cf. LEWIS B., Juifs en terre d'Islam, Paris, Calmann-

(2) La BROQUIERE, B. de, op. cit. p. 38.

(3) المرجع الأخير، ص 32.

(4) المرجع الأخير، ص 36. ذكر جاك دوفرون سابقاً وجود خان ينزل فيه النصارى عام 1335م، المرجع نفسه، ص 293.

وهكذا أجبر المفاوضون الأوروبيون عام 1429م على شراء الفلفل، القادم من جدة، من السلطان أو عملائه بسعر مئة وعشرين ديناراً للجمل، في حين كان سعره لا يتجاوز ثمانين ديناراً.

في عام 1438م، عهد برسباي بعد إصابته بالطاعون بالسلطة إلى ابنه العزيز يوسف. وبعد عدة أسابيع، خلع الأخير الأمير سيف الدين جقمق، وعيّن نفسه سلطاناً بلقب الملك الزاهر. ورفض الأمير أيناك الحكامي، حاكم دمشق، ككثير غيره من قبله، مبايعته وتمرد عليه علناً وحاصر القلعة. إلا أن جيشاً أتى من القاهرة هزمه، واعتقله في قرية من قرى الغوطة حيث كان هارباً، ثم سيق مقيداً إلى القلعة حيث أعدم. وكالعادة أرسل رأسه إلى القاهرة حيث طافوا به على رأس رمح في شوارع المدينة وسط بهجة العوام⁽¹⁾.

حين وصل في عام 1468م الأمير قايتباي، أحد مماليك برسباي القدامى، إلى السلطنة كانت الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية متردية، — ليستمر حكمه إلى عام 1496م — وكانت المشكلة السياسية الرئيسية هي العلاقة مع القوة المسيطرة في الأناضول متمثلة بالأتراك العثمانيين. ودخل الفريقان المتنازعان في صراع بدأ بين الأتباع على نقاط التماس، وانتهى أخيراً في العقد الثاني من القرن السادس عشر بسحق المماليك وانتهاء حكمهم. وفي عام 1484م، كتب ابن إياس، وهو "برجوازي"⁽²⁾ من القاهرة وحفيد أحد الأمراء، في كتابه "تاريخ مصر" متحدثاً عن ذلك الوقت العصيب في مسير الصراع، حين أرسل الأتراك جيشاً قوياً لنجدة أحد أتباعهم، وكان في صدام مع النظام في القاهرة: "كان هذا أول عدوان من قبل السلطة العثمانية على السلطان"⁽³⁾. ومنذ ذلك الوقت لم تكف العلاقة بين القاهرة واسطنبول عن التأزم⁽⁴⁾، وتضاعفت في شمال سورية النزاعات والمعارك على الحدود بين الدولتين. وفي عام 1486م، غزت الجيوش العثمانية كيليكيا واستولت على تارس وأضنه. وفُرضت ضرائب استثنائية لتجهيز كتائب جديدة وإرضاء المماليك المجبولين على العصيان والتمرد ما لم يمنحوا مكافآت مالية، وشملت الابتزازات كل طبقات السكان. ولم ينج

(1) LAOUST, H. op. cit., p. 25.

(2) وصف وتعبير لغاستون ويت Gaston Wiet.

(3) ابن إياس، تاريخ الممالك الجراكسة، الترجمة الفرنسية، G. Wiet، القاهرة، 1945م، الجزء 1، ص 229. مات ابن إياس قُرباً عام 1524م. عنوان كتابه عن تاريخ مصر: "الزهور الرائعة عن أحداث القرون".

(4) القسطنطينية قديماً، عاصمة الدولة العثمانية منذ عام 1453.

منها حتى الذمُّون، إذ أمر السلطان في عام 1488م، بعد أن استدعى بطريرك النصارى وكبير حاخامات اليهود في القاهرة، أن يفرضوا على طوائفهم ضرائب كبيرة لتساهم بنفقات الحملة القادمة. وكتب ابن إياس: "كانت هذه بداية مصادرة الأموال التي شملت الجميع فيما بعد"⁽¹⁾. وفي الوقت نفسه ضاعف البدو نشاطهم، في مصر العليا والدلتا، ومنعوا تزويد العاصمة بالقمح، وكذلك الأمر في سورية في مناطق طرابلس وحلب وحماة وحوارن وفلسطين حيث أصبحت الرملة، في نهاية القرن، خراباً، في حين دمرت معارك عنيفة منطقة نابلس. وعانت المراكز المدنية من المجاعة: ففي عام 1487م، أصبح خبز الذرة يباع في أسواق القاهرة، وهذا كما يذكر ابن إياس "لم يُر قط خلال أكثر المجاعات السابقة قسوة"⁽²⁾، فلقد كان الفقراء يموتون جوعاً وكانت جثثهم تغطي الطرقات⁽³⁾. وفي عام 1490م، بعد رفع جديد للضرائب ودفع إتاوات للمماليك - مئة دينار على الشخص، وصرف رواتب أربعة أشهر مقدماً للجندى وثمان جمل⁽⁴⁾ - نجح قايتباي في تأسيس جيش ضخم أدهش معاصريه، إذ كتب ابن إياس الذي قدّر التكلفة بخمسمئة ألف دينار⁽⁵⁾: "لم تتوقف الكتائب عن السير في أرتالها من شروق الشمس حتى وقت الظهيرة تقريباً". استطاع الجيش بقيادة الأتابك إزيك أن يلحق بالعثمانيين هزيمة نكراء قرب قيسارية. ووُقعت معاهدة سلام في العام التالي استمرت حتى نهاية حكم قايتباي. ومع هذا لم تُخفف الضرائب، إذ كتب ابن إياس: "كان الشخص يجد أمامه عندما يخرج من بيته أربعة جُباة يترصدون حركاته، فيصبح يومه مظلماً مكفهاً"⁽⁶⁾. وكان يُقتطع في دمشق أجرة خمسة أشهر لكل العقارات، ومنها أوقاف البيمارستان والمساجد والمدارس والأضرحة، في حين كان على القوم وكبار التجار "مطالبين" بدفع مبالغ كبيرة جداً. ولما كان لا يُكتفى بالمكاسب الصغيرة، استُجوب في القاهرة أمين خزانة السلطان الذي بالغ في زيادة ثروته، فصودر منه ستون ألف دينار⁽⁷⁾. أما حكام المقاطعات فكان يُطلب منهم أن يدفعوا

(1) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 278.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 266.

(3) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 266.

(4) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 303. يوضح ابن إياس أن ثمن الجمل كان 7 دنانير.

(5) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 303.

(6) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 314.

(7) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 314. للمقارنة بـ 500000 دينار كلفة حملة عام 1489م.

سنوياً للقاهرة مبلغاً محدداً، "فكانوا بالمقابل يلجؤون إلى بلادهم ليعوضوا المبالغ التي دفعوها كاملاً"⁽¹⁾ وهذا مما سبب استياء السكان وتدهور الوضع الاقتصادي. وكان هذا كما يذكر ابن إياس "سبب تداعي الزراعة وانخفاض أجرة الأرض الزراعية"⁽²⁾. و"برغم حالة الإفلاس استمرت إقامة الحفلات الرسمية الضخمة عند ترقية المماليك"⁽³⁾. وفي عام 1492م ظهر وباء الطاعون، وكان عدد الموتى بالمئات، وأصبح قماش بعلبك اللازم لإعداد الأكفان نادراً⁽⁴⁾. وفي نفس السنة، استرجع ألفونس دو كستيل غرناطة مما أثار مشاعر المسلمين كثيراً، أكثر بكثير من صراع الإخوة بين المماليك والعثمانيين. ويضيف ابن إياس "لقد كانت إحدى أفدح المصائب التي أصيب بها الإسلام"⁽⁵⁾.

في 8 آب 1496م، مات قايتباي بالتهاب معوي وله من العمر أربعة وثمانون عاماً. استُبعد خطر العثمانيين مؤقتاً، ولكن كلفت الحملات العسكرية الست عشرة الأخيرة أكثر من سبعة ملايين دينار⁽⁶⁾، وأصبحت خزائن الدولة فارغة، وكان الجيش في حالة من الاضطراب المستمر، ولم يعد، كما يذكر ابن إياس، المماليك الذين كانت طلباتهم تتناسب مع حجم التهديد الخارجي يُكثّنون أي احترام للحاكم⁽⁷⁾. ولم يعد أمن طرق المواصلات مضموناً، إذ كانت قوافل الحجاج تتعرض تقريباً في كل سنة لهجمات البدو. ولم يطل الأمر بالشاب الناصر محمد ابن قايتباي، الذي استولى على العرش قبل وفاة السلطان، فخلعه الأمير قانصوه، في كانون الثاني 1497م، وهو مملوك والده سابقاً، الذي قُتل بدوره بعد ثلاثة أيام أثناء اضطرابات عنيفة جداً. فجلس على العرش من جديد الناصر محمد بلقب الملك الأشرف. كان ضعيف العقل، "وتجاوزَ اختلال عقله الحدود: فلقد تعلم مهنة السياف وكان يقوم بنفسه بإعدام المحكوم عليهم، وبقطع أيدي وآذان وألسن الضحايا بعد قطعهم إلى نصفين"⁽⁸⁾. وتصرف الأمراء بوجود سيد كهذا بحرية متناهية، وعمّت الفوضى وبلغت أقصى حدوها. وتمرد الأمير أقبيردي مطالباً

(1) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 370.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 370.

(3) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 326.

(4) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 325.

(5) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 327.

(6) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 366.

(7) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 364.

(8) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 378 و 396.

بالسلطة العليا، وحاصر القلعة مدة واحد وثلاثين يوماً، سببت معارك الشوارع خلالها الخراب في المدينة. وخرج المجندون الجُدد جماعات من ثكناتهم، وقد التحق بهم السوقيون والعبيد السود فنهبوا أحد أضخم المباني الأثرية في القاهرة، وهو ضريح السلطان حسن، واقتلعوا الرخام والنوافذ والنحاس والأبواب. "لم يكن هناك إلا قتل ونهب، وهاجت القاهرة وعاشت في رعب"⁽¹⁾. وأصبحت مخازن الحبوب فريسة ألسنة اللهب، ونهبت الممتلكات. ذهب أقيردى إلى دمشق بعد أن انهزم في القاهرة، وهناك حاول خلال شهر الاستيلاء عليها قبل محاصرة حلب. وارتكب المماليك في القاهرة ليشبهوا نهمهم عمليات ابتزاز لا مثيل لفظاعة عنفها. فكان على كل الموظفين المدنيين وكبار القضاة وكبار تجار الجملة والطائفة اليهودية والطائفة النصرانية وعلى أغنى تجار السوق أيضاً أن يدفعوا غرامات، وقد استخدمت في ذلك وسائل تقشعر منها الأبدان. وقد كان قانصوه، خال السلطان، يشرف بنفسه على العمليات: "كان يأمر بإحضار المألازم والكُلابات والدروع المحماة، وكان يقوم بتفتيش المنازل مبعوثون متوحشون (...). وكان المال يُجبي بالجلد والسَّجُن والتوقيف"⁽²⁾. في بداية تشرين الثاني 1498م، اغتيل الناصر محمد وله من العمر سبعة عشر عاماً، وذلك أثناء رحلة صيد وبتحرير من مجموعة من الأمراء، جميعهم كانوا مماليك والده سابقاً. يذكر ابن إياس أنه كان يعيش حياة سافلة، ويعاشر أكثر الناس دناءة في المجتمع، وقد فاق أقرانه في ارتكاب الموبقات⁽³⁾. وتسلم خاله سيف الدين قانصوه بعد ثلاثة أيام تعييناً رسمياً له من الخليفة، واتخذ لنفسه لقب الملك الزاهر. وبينما كان الجيش العثماني على وشك دخول شبال سورية، وكان حاكم دمشق، قَسْرَوَه، قد نهب القلعة متمرداً علناً واستولى على طرابلس، طالب مجلس الضباط في 24 حزيران 1500م بإسقاط قانصوه الذي نجح في الهرب من القلعة متنكراً بملابس امرأة. وبعد يومين ولَّى مجموعة من الأمراء الأميرَ جان بلاط العرش، وهو زوج الأميرة أسالبي، أمَّ الناصر محمد. ولكي يدفع المال لكتائبه التي لم تتوقف عن التمرد، زادت حدة نظام مصادرة الممتلكات والاستملاك القسري و"عانى الناس مما لا طاقة لهم به"⁽⁴⁾. وينضاف إلى ظلم الضرائب والمصائب المتنوعة فسقُ المماليك الذي تكلم عنه المسافرون الأوروبيون بكثير من الإسهاب ويكل سرور، إذ كتب

(1) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 412.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 435.

(3) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 444.

(4) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 482.

جان تينود، حارس دير رهبان أنغوليم الفرنسي سكان، أثناء مروره في مصر عام 1512م: "عندما كان يعلم الممالك بوجود فتاة أو سيدة حسنة في أحد البيوت، كانوا يدخلونه ويطردون منه الآباء والأمهات والأزواج والأقرباء ليشبعوا شهواتهم (...). ولم يكن مسموحاً أو جائزاً لأي كان أن يدافع عن نفسه أو يتمرد، بل عليه أن يتحمل لأن أي إنسان يضرب مملوكاً سواء كان معه الحق أم لا، يفقد عينه ويده"⁽¹⁾. ولم يُحرم السلطان نفسه من إشباع شهواته: "إذا اكتشف (الناصر محمد) وجود فتاة حسنة في أحد المنازل كان يسرع إليه ويدخله من النافذة ويستولي على المرأة بعد أن يجلد زوجها في عقر داره"⁽²⁾.

في سورية استولى قسروه على القدس وغزة رافضاً الاعتراف بجان بلاط، مع أن الفضل يعود إليه في ترقيته في السلك العسكري. ومرة أخرى، تعلن سورية معارضتها لمصر. فاتجه في تشرين الأول عام 1500م الأمير طومان باي، وزير الحربية الجديد، نحو دمشق يقود جيشاً قوياً. وجاء قسروه لملاقاته في جنوب المدينة، واتفق الرجلان على توحيد قواتهما لمضادة جان بلاط. وفي فجر الخميس 26 تشرين الثاني 1500م، دخل جيش الممالك دمشق. دخلت في البداية السرايا الاثنتا عشرة الأولى بلباس الحفلات الرسمية، مشيرة إعجاب الجماهير، كما يذكر ابن طولون، ثم تبعهم الممالك الخاصكية⁽³⁾ يتبعهم الأمراء وفق ترتيبهم العسكري، والأعيان وأربعة قضاة، وفي الموكب الذي أحاط به كثير من أفراد الحاشية، طومان باي وعلى يمينه قسروه وعلى شماله الأمير قرقماس، حاكم حلب. عُقد اجتماع في القصر الأبلق بحضور الأعيان الرئيسيين، واعتقل نحو مئة من الضباط غير الموثوق بهم، وقيدوا بسلاسل من الحديد في القلعة. عُين قسروه قائداً للجيش، في حين حلَّ محله في حكم دمشق الأمير دولة باي، أخو طومان باي. أما طومان باي فقد عُين سلطاناً بلقب الملك العادل. وتنبه ابن إياس إلى أن قضاة دمشق كتبوا دون أن يبدوا أي ممانعة محضراً رسمياً بإقالة جان بلاط من منصبه وذلك "في غياب الخليفة"⁽⁴⁾. وبويع السلطان الجديد. وبينما كان جان بلاط متحصناً في قلعة القاهرة، كان طومان باي وقسروه ودولة باي يزحفون باتجاه مصر على رأس جيش كبير يضم الكتائب السورية النظامية،

(1) THENAUD, J., Le voyage d'outremer, E. Leroux, P56-57. 1884.

(2) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 440. الملاحظات نفسها نجدها عند Ludovico di Varthema، ص 18 - 20.

(3) الخاصكية هم الممالك المقربون من السلطان الذين يعملون في خدمته، ويأتون في الدرجة الأولى بين ممالك السلطان. المرجع

السابق، ص 305 - 306. فيما يتعلق بدخول الكتائب إلى دمشق انظر إلى LAOUST H. المرجع نفسه، ص 66.

(4) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 494.

إضافة إلى العديد من الأنصار من البدو. وفي نهاية كانون الثاني 1501م، دخل طومان باي القاهرة، وعبر المدينة وسط هتاف وتصفيق الناس الحاد لأنه، كما يذكر ابن إياس، كان شعبياً جداً وخاصة عند العوام⁽¹⁾. وسقطت القلعة بعد أسبوع من القصف المتواصل قامت به بطارية مدافع وُضعت في مدرسة السلطان حسن، ورُمي جان بلاط في سجن الإسكندرية بعد أن صُبط في إحدى زوايا حريمه، وهناك سُتق بعد وقت قصير⁽²⁾. لم يعرف ظلم طومان باي، الذي شبهه ابن إياس بوحش ضار، حدوداً: أوقف الأمراء والقضاة، وقتل قسروه، ولكي يلقي القبض على الأمراء الهاربين كثرت حملات التفتيش والمداهمات دون الأخذ بعين الاعتبار حرمة المنازل الخاصة والحرملك⁽³⁾، وأخيراً طُرد الخليفة من القلعة حيث كان مستقراً بأمر من جان بلاط. وانتهى الأمر بنشوب عصيان، فهرب طومان باي من القلعة في 15 نيسان ليلاً، في حين رحل أخوه "دولة باي" من دمشق مصطحباً معه عائلته وأثاثه⁽⁴⁾ ليحتمي في الإمبراطورية العثمانية.

وتولى الأمير قانصوه الغوري - كبير كتبة طومان باي - السلطنة بلقب الملك الأشرف، على ما يبدو رغماً عنه، لأنه كما يذكر ابن إياس، كان يبكي، وتطلب الأمر جره من ياقة معطفه ليجلس على العرش⁽⁵⁾. لقد كانت الظروف في الواقع صعبة جداً. ففي إيران أسس شاه اسماعيل الدولة الصفوية. وعانت التجارة العالمية مع الشرق الأقصى، وخاصة تجارة التوابل، من الركود منذ اكتشاف فاسكو دوغاما عام 1498م الطريق البحري إلى الهند، وأصبح من المتوقع وصول البرتغاليين في كل يوم إلى سواحل الحجاز. أثار سقوط غرناطة وما تبعه من سياسة فرض اعتناق النصرانية المشاعر الدينية في كل البلاد الإسلامية، على حين طالب ملوك المغرب وتونس بطرد كل التجار النصارى من بلاد المشرق ومنع حجاجهم من الوصول إلى المدن المقدسة. أما في الداخل، فلقد كان المماليك الذين كان من طبعهم العصيان يطالبون بأموال طائلة مقابل خضوعهم، مما فرض على الجزء المنتج من المجتمع

(1) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 497.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 497.

(3) المرجع الأخير، ص 513.

(4) ابن إياس، مذكرات بوردجوازي في القاهرة، ملحق لتاريخ المماليك، الترجمة الفرنسية، G. Wiet، باريس، 1955م، الجزء 1،

ص 5 و LAOUST، H.، المرجع نفسه، ص 74 - 77.

(5) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 2.

نفقات جديدة، واستغل البدو المتمردون دائماً ضعف السلطة المركزية وتعبئة الجيوش لمحاربة العدو الخارجي، فنهبوا القوافل وابتزوا القرى. وزادت حدة الغارات في مصر العليا، ودمرت الغوطة وحوران في سورية، وأصبح عدد القرى في البقاع أربعين بعد أن كان ثلاثمائة. وتردى الوضع الزراعي إلى درجة أنه في عام 1520م لم يجد العثمانيون عندما قاموا بجولتهم التفتيشية الأولى في منطقة طرابلس إلا نحو ثلاثمائة قرية منتجة من أصل ثمانمائة، وقدروا موارد مصر بما يقل عن مليوني دينار، في حين كانت تقريباً تقدر بعشرة ملايين في القرن الرابع عشر. وبسبب اختلال الأمن العام، بين عامي 1495 و1513م، كانت كل قوافل الحج تقريباً تتعرض لهجوم البدو، هذا إذا لم تُلغ أصلاً. ومن الناحية الاقتصادية، تسارع التضخم المالي حتى أصبح تجار السوق يعلنون إضرابهم عن العمل احتجاجاً على العملة الجديدة النحاسية التي سببت خسارة ثلث أموالهم عند الصرف⁽¹⁾. وأخيراً، كان العثمانيون، وهم يزدادون قوة يوماً بعد يوم، يستعدون للقتال عند الحدود الشمالية للإمبراطورية.

أثارت دمشق الإجراءات المكروهة شعبياً التي اتخذها حاكمها الجديد قانصوه البرجي، والابتزازات التي كان يقوم بها جنوده، وجعلت المدينة في حالة غليان. واتحد الزعر⁽²⁾ مزودين بالسلاح، وأقاموا المماريس في كل الأحياء واشتبكوا مع المماليك في معارك حقيقية خطط لها. وكانت الخسائر فادحة حتى إن ابن إياس ذكر أن الناس كانوا يخشون أن تهدم المدينة كلها⁽³⁾. هذأ روع الناس إلغاء بعض الضرائب وقتل بعض الجباة، وأصبح يُنادى بما يسميه ابن طولون "العودة إلى التقوى" التي تقوم، حسب رأيه، على تحريم الابتزاز والعدوان⁽⁴⁾. ولكن لم تستمر هذه التدابير الجيدة إلا بعض الوقت، إذ عادت الفتن والنهب ونشبت الحرائق من جديد بحدة أكبر، في حين أرسل الحاكم الذي لم يكن لديه على الأغلب ما يدفعه إلى مماليكه، رجاله لنهب الغوطة التي أصبح سكانها، كسكان قرية جبرود على سبيل المثال، يعانون فقراً مدقعاً، بعد أن جردوا من محاصيلهم وأغنامهم ومعداتهم⁽⁵⁾. وفي 8 آب 1504م أسلم الحاكم الممقوت روحه لبارئها، ودفن في الضريح الذي بناه خارج أسوار المدينة بجانب ضريح الشيخ أرسلان، حيث دفن ابنه قبل سنة. عمل

(1) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 18.

(2) مليشيات شعبية، انظر إلى المرجع التالي، ص 314.

(3) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 21.

(4) LAOUST, H. op. cit. p. 88.

(5) المرجع الأخير، ص 88.

خليفته الأمير أريكهاس على بعث روح التقوى: فبأمر من السلطان طالب بمنع المحرمات قانوناً، وحرم على النصارى واليهود شرب الخمر علناً، وأمر بجلد عدة أشخاص تعاطوا الخمر وعرضهم لسخرية الناس، وأمر باستخدام الخازوق، أو شطر أو شق المجرمين على اختلاف أنواعهم، وأغلق بيوت الدعارة⁽¹⁾. وأغلق العلماء دون شك أعينهم عن رؤية الابتزاز والمصادرات التي انهالت على الأحياء، في حين عمل الممالك على ابتزاز الغوطة، وأخذ الزعر، الذين كانوا يسخرون من أوامر الشريعة، يمشون وقتهم في الأكل واللهو وشرب الخمر وارتكاب "كل أنواع الفسق والجرائم"⁽²⁾ كما يذكر ابن طولون. وفي نيسان 1506م، اضطر أريكهاس أمام استياء الناس المتفاقم أن يغادر دمشق تحت وابل من الحجارة، وحل محله وزير الحرية الأمير سيباي، الذي قام، كالمعتاد، باتخاذ "إجراءات تدئين تملّقية" من إراقة الخمر وإغلاق مخازن المشروبات ومنع خروج الناس مسلحين بالخنجر، الخ. وفرض بدوره ضرائب استثنائية مخصصة رسمياً لمكافحة البدو وتجهيز الجنود المشاة ومحاربة العثمانيين. لم يفتأ ابن طولون يذكر الأزمة الاقتصادية أثناء حكمه، وغلاء الأسعار ونقص الخبز وبؤس الناس: "لقد تفاقم الوضع، وأذهلت الضرائب العديدة الناس في كل الأحياء، وفرض المحتسب أيضاً عديداً من الضرائب على أصحاب الدكاكين والمهنيين، وكان الزعر يفرضون الخوة على الدكاكين، ولم يكن بإمكان التجار البيع في أسواقهم دون أن يدفعوا إتاوات إلى قطاع الطرق هؤلاء"⁽³⁾. وصل إلى دمشق عماليك جراكسة جدد، من الذين لم يكن لطمعهم حدود: "فاستولوا على المؤن والملابس، وكل ما كانوا يحتاجون إليه؛ وكانوا يعترضون طريق المارة ليأخذوا منهم عمائمهم ومُهرهم؛ وكانوا يسرقون البضائع أثناء نقلها لبيعوها بعد ذلك خلسة، (...) وأغلق عديد من

(1) لم يتوسع المسافرون الأوروبيون والمسلمون في الكتابة عن الدعارة أو الرق في ذلك الزمن، ولدينا شهادة فليكس فابري من جماعة الإخوة الوعاظ الذي زار مصر عام 1483م أثناء حكم قايتباي، إذ يذكر أنه كان في القاهرة ودمشق وبيروت وطرابلس والإسكندرية والقسطنطينية مواخير "ملبئة بالنساء النصارى". ويذكر هذا الراهب، (وهو مثل كثيرين من أمثاله، لم يكن يتراجع أمام أي شيء لكي يقدر الإسلام الذي كان يجهل عنه كل شيء كما هو واضح)، أن المسلمين كانوا يمتلكون "بيوتاً خاصة للمراهقين اللذين كانوا يذهبون حتى إلى إسبيلات الحيوانات ليهارسوا الجنس بإذن من محمد". MASSON (R.P.), Voyage en Egypt de Félix Fabri, 1483 (Jacque), باريس، 1975م، الجزء 2، ص 706 - 707. فيما يتعلق بالدعارة في مكة في بداية القرن التاسع عشر انظر BURCKHARDT J.-L., Voyages... الجزء 1، ص 170.

(2) LAOUST, H., op. cit., p. 113.

(3) المرجع الأخير، ص 121.

الدكاكين والأسواق⁽¹⁾. تدين دمشق لسياسي ببناء آخر المباني التذكارية المملوكية: ففي عام 1509م، أمر بتشيد مدرسة جنازية في غرب باب الجابية، حيث دفنت أمه وابنته، وفي آذار 1511م، أمر ببناء مبنى في غرب البيهارستان النوري، شمال الحي الذي كان يطلق عليه في ذلك الوقت "حي الأجانب"⁽²⁾.

أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، فقد أرسل المهاليك - مدركين تمام الإدراك خطر وجود الأوربيين في المحيط الهندي على مبادلاتهم التجارية، شأنهم شأن مدينة البندقية - عدة حملات بحرية إلى الهند، وكان هذا قبل المرحلة النهائية للصراع مع العثمانيين. في البداية انتصرت الحملات عام 1508م، ولكنها سُحقت في العام التالي، في شباط 1509م. كتب ابن إياس: "لم تعرف جرأة الأوربيين حدوداً، فهم يطمحون الآن إلى الاستقرار في الهند، بعد أن هزموا الحملة المصرية"⁽³⁾. وبالفعل، في العام التالي، أسس أفونسو دلبُكر Afonso d'Albuquerque بعد أن استقر في غوا، مملكة برتغالية استعمارية في الهند. وأصبح البرتغاليون بعد خمس سنوات سادة الخليج الفارسي. وأصبح البحر الأحمر هو الآخر تحت رحمتهم بعد أن استولوا عدة مرات على حمولات سفن المسلمين⁽⁴⁾. وتابع العثمانيون من جهتهم تقدمهم: ففي عام 1514م احتل سليم الأول تبريز بعد انتصار ساحق غير متوقع، واحتل قاشان وجزءاً كبيراً من إيران الصفوية. وفي القاهرة عم الذهول، إذ كتب ابن إياس: "لم يأمر السلطان بقرع الطبول عندما وصلته هذه الأنباء، وبدأ الضباط يحذرون قوة العثمانيين"⁽⁵⁾.

في ظل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة والتوسع الأوروبي، كان على قانصوه الغوري تعبئة جيشه عام 1516م ليحاول الوقوف في وجه أهداف السلطان العثماني "سليم الأول" التوسعية. لا تسمح الصورة المحزنة، التي زودنا بها ابن إياس وابن طولون حول وضع الإمبراطورية، بالتنبؤ بأي مخرج للوضع؛ فلقد تفاقم التضخم المالي، وطرحت في الأسواق مرة أخرى نقود نحاسية

(1) المرجع الأخير، ص 122.

(2) المرجع الأخير، ص 127. لا يوضح ابن طولون هذا المبنى. وفيما يتعلق بالمدرسة الجنازية التي بدأ بناؤها عام 1509م وانتهى عام 1515م، انظر ص 133 وص 135. وراجع SAUVAIRE, H. الجزء 2، ص 262 - 263.

(3) ابن إياس، Journal...، الجزء 1، ص 176.

(4) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 309.

(5) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 369.

جديدة، مما أثار الاستياء ومظاهر المعارضة وأدى إلى إغلاق الأسواق في كل مكان. وضعت إيرادات الامتيازات العقارية، وهي الأساس الاقتصادي للنظام، بسبب طغيان الحكام وشيوخ البدو الذين كانوا وراء تصحر الريف. وأخطر من ذلك أن الجيش الذي هو عماد النظام ومصدر قوته لم يكن موضع ثقة. إذ أخذ الممالك يطالبون، والسلاح في أيديهم، بحقوقهم بعد أن مُنعت عنهم رواتبهم وحصصهم من اللحم⁽¹⁾. وكانوا يتمردون إذا ما رفضت مطالبهم: فينهبون كل شيء إن لم يحرقوه، من منازل الضباط والموظفين المدنيين والأسواق والدكاكين، وكانوا يزعجون المارة ويعتدون عليهم، إلخ. وفي شباط 1515م قلب الممالك حلب رأساً على عقب بعد أن عانوا من المجاعة، وباع بعضهم، لِيُقي على حياته، حصانه وأسلحته وزِيَّه العسكري، ثم عادوا إلى القاهرة على الحمير في حالة من الفقر المدقع. وفرغت خزينة الدولة بسبب الجهود المبذولة في الحرب المستمرة في المحيط الهندي "الموبوء بالسفن الأوروبية"⁽²⁾. وفي آب 1515م من نفس السنة أبحر أسطول من عشرين سفينة مجهزة بالمدافع بنيت حديثاً في ورشات السويس البحرية، وقصدت الهند. وفي اليوم السابق على انطلاق الحملة الكبيرة، بلغ تدهور الوضع المالي حداً جعل الخليفة لا يتسلم أية مكافأة، كما كان مألوفاً في مثل هذه المناسبات الكبيرة، بل اضطر أن يطلب من بعض أصدقائه قرصاً بالفائدة ليدفع تكلفة السفر ورواتب خدمه⁽³⁾. ولقد استُيحت كل الوسائل بغية الحصول على المال. فعمّ البيع الإجباري، الذي كان في الأصل حكراً على السلطان، ليصبح أداة لزيادة ثروة الأمراء وحكام الضواحي وعديد من الأعيان. وهكذا، ابتداء من سنة 1485م تقريباً، أُجبرت القدس والمدن المجاورة على شراء كميات كبيرة من الزيت بانتظام وبأسعار مرتفعة جداً. ولم يتوقف الفساد، كما هو عليه الحال في كل الأنظمة الشمولية، عن التفشي قبل الانهيار النهائي، وخاصة فساد أولئك الذين يُفترض أن يكونوا مسؤولين عن الأخلاقيات العامة. ولم تعد الأوقاف والمؤسسات الخيرية تُحترم أكثر مما تحترم مصادر الثروة الأخرى، وقام المفتشون باختلاس قسم كبير من مواردها. ويذكر المؤرخ ابن إياس، أن كثيراً من المحتسبين كانوا غير أوفياء، وكان العلماء بعيدين عن النزاهة، وكان

(1) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 394.

(2) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 431.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 29.

من عادة القضاة قبول الرشاوى قبل إصدار أحكامهم⁽¹⁾، أو كانوا يدفعون الرشوة للحصول على مناصبهم⁽²⁾، أو يشربون الخمر ويقتربون الزنى ويختلسون الأوقاف⁽³⁾. وبغية تجهيز الجنود المشاة الذين يتقدمون الجيش، أرهقت ضواحي حلب ودمشق بالضرائب، إذ يذكر ابن طولون: "لقد كانوا وراء إفلاس كثير من العائلات" ومع كل الظلم والعنف بشتى أنواعه، كانوا يهثون النفوس لتتمنى النصر للعثمانيين⁽⁴⁾. من قراءة ما كتبه ابن إياس، مع أنه كان حفيد أحد الأمراء المماليك، نلمس بوضوح مشاعر التضامن الإسلامي أولاً، وما كان يتمتع به الحاكم العثماني من محبة الناس له، لأنه "كان يجتهد بكل ما أوتي من قوة في محاربة الأوربيين دون هوادة وذلك لمصلحة المسلمين"⁽⁵⁾.

وفي خريف 1515م، كان آخر فصل من مسرحية المماليك المأساوية. إذ قصد أسطول عثماني مكون من أربعمئة سفينة تقريباً دمياط والإسكندرية، في حين كان قد نفذ صبر الجيش ذي العدة والعتاد الذي كان ينتظر عند حدود سورية الشمالية. وفي القاهرة، تم أخيراً تعبئة الجيش كييفها كان بعد تأخر استنكره من السلطان حاكماً حلب ودمشق، فاستنفذت واردات الإمبراطورية الأخيرة. واشترى إخلاص الضباط بالآلاف الدنانير: خمسة آلاف للقائد العام وحده، وهو صودون عجمي، ومئة دينار أي راتب أربعة أشهر، وهذا يعادل في مجموعه ثمانية آلاف دينار، وثمان جمل لكل مملوك. ولقد كُلف الأمير طومان باي، مملوك قايتباي سابقاً، بإدارة أمور الإمبراطورية أثناء غياب السلطان، وللمرة الأولى منذ الأشرف برسباي الذي قام بمحاصرة "عميد" في عام 1433م، غادر القاهرة جيش ضخّم. وفي فجر 18 أيار، دخل موكب فاقت فخامته التصور من باب زويلة وعبر المدينة "بتلك العظمة التي حركت مشاعر السكان"⁽⁶⁾، وسط حشد من الناس الفرحين وزغاريد النساء في الشرفات، ثم خرج من باب النصر. كان في المقدمة ثلاثة فيلة مزينة بالأشرطة، تتبعها كئائب من الأمراء بزيهم الرسمي، ثم ضباط الحرس، وأمراء الطبول، وأمراء العشرة وكبار الموظفين المدنيين:

(1) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 435.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 70.

(3) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 320 - 321.

(4) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 427.

(5) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 253.

(6) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 40.

وهم مستشار الملك، ومعتمد الجيش، ومعتمد الحاشية الخاصة، ورئيس حسابات الديوان الملكي، وأمين سر الجيش الملكي والمفتش الملكي للأسواق، ثم السادة النبلاء وإخوة الشريف بركات، أمير مكة، ثم قادة الألف جندي، وأربعة من كبار القضاة، وشيوخ الإسلام، وأمير المؤمنين "التوكل" وهو يرتدي رداء بعلبكياً مطرزاً من الحرير الأسود، وعلى رأسه عمامة بغدادية بطرفين متدليين، ثم خيول مدرعة بالفولاذ المرصع بالذهب وأغطية مخملية متعددة الألوان، وسروج من الكرستال المرصع بالذهب والعقيق الأحمر، ثم الحجاب وحاملو الفؤوس والحقائب وصناديق مغطاة بالحرير الأصفر والمباخر والمجامر، وأخيراً جاء دور قانصوه الغوري تسبقه الطبول السلطانية، ممتطياً فرساً أسمرًا مُحمرًا عليه سرج مذهب وشبرق، ومرتدياً لباساً أبيض اللون طرفه من الحرير الأسود المزركش بالذهب، ويتبعه حمالو الأسلحة وغللمان خزانة الملابس⁽¹⁾.

في 18 حزيران، و"وسط موكب لم يُر له مثيل"، دخل قانصوه الغوري دمشق من باب النصر يرافقه سييبي الذي كان، كما جرت عليه العادة في ذلك الوقت، يحمل المظلة والمنجل. كتب ابن إياس: "لقد كان يوماً خالداً، ويعتبر هذا العرض من الأحداث المثيرة العظام"⁽²⁾. لقد بدت المدينة بمنتهى الروعة، ودوّى قرع الطبول في القلعة، ورمى التجار الأوريون الذين كانوا هناك مصادفة، قطعاً صغيرة من الذهب والفضة تحت أقدام السلطان، في حين أخذ مدير الصرافة، اليهودي "ساذقه"، يرمي بقطع جديدة⁽³⁾. وأقيمت للسلطان وليمة فاخرة تبعتها تبادل الهدايا: تسلم سييبي ثوب شرف غالي الثمن "أخضر ومطرزاً بالذهب يشبه ريش الحمام، ومزيناً به وفقاً لطراز يسمى يلبغا"⁽⁴⁾، وتسلم السلطان أربع عشرة صينية مليئة بدراهم من الفضة وأقمشة ثمينة، ونحو عشرة من الخيل، ومثلها من الممالك الذين "جرى انتقاؤهم من بين أكثرهم جمالاً وكانوا من أهل الكتاب"⁽⁵⁾.

في يوم الأربعاء 24 حزيران، اتجه السلطان وجيشه شمالاً، وبعد قليل تبعهم سييبي الذي عهد بدمشق إلى الأمير تنام. وفي 10 تموز، وصل جيش الممالك إلى حلب. وضع قانصوه الغوري في

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 39-40.

(2) LAOUST, H., المرجع نفسه، ص 142.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 52.

(4) LAOUST, H., المرجع نفسه، ص 142.

(5) المرجع الأخير، ص 142.

القلعة ثروته التي كانت تقدر بمليون دينار إضافة إلى كل البضائع التي نهبها من أسواق القاهرة. وأجبر الضباط على أداء يمين الولاء وأن يحلفوا على المصحف. ولما كانت الحرب لإعلاء كلمة الله، تلي القرآن الكريم كاملاً أثناء الليل، على ضوء المشاعل في الميدان الكبير، وبحضور أمير المؤمنين والقضاة الأربعة وشيوخ الجمعيات الدينية الرئيسية وكامل الجيش. وفي 20 آب، اتجه جيش المماليك نحو الشمال الشرقي لمواجهة الجيش العثماني، وعسكر في مرج دابق. وفي 25 من نفس الشهر، وبعد صلاة الفجر، نظم قانصوه الغوري فيالق جيشه للمعركة وهو يرتدي معطفاً أبيض وعلى رأسه قلنسوة وعلى كتفه فأس. في المركز، وبجانب أمير المؤمنين الذي كانت ترفرف فوقه راية العباسيين السوداء، كان السلطان محاطاً بالأشراف وهم يحملون فوق رؤوسهم المصاحف الملفوفة بالحرير الأصفر ومن بينها مصحف عثمان النفيس. وكان سيباي في الجناح الأيمن، وخير بيك حاكم حلب في الجناح الأيسر. وفي الوقت الذي بدا فيه رجوح كفة المماليك، غادر خير بيك حومة المعركة مع كل فيالقه، فهاجم الجيش العثماني عدوه بأسلحته النارية. بلغت الفوضى في الصفوف السورية المصرية أقصاها، إذ قُتل صودون عجمي وسيباي، واخترق الجناح الأيمن، وتحلى عديدون عن السلطان الذي كان له من العمر ثمان وسبعون سنة، فوجد ميتاً قد صرعه الرعب أو لأنه تجرع السم الذي كان يحتويه فص من الماس، في رأي ابن إياس⁽¹⁾، أو قضى بعد نوبة من المغص الحاد حسب رأي ابن طولون⁽²⁾. و"بقي جسده مهملاً في ساحة المعركة، لتأكله الذئاب والحيوانات المفترسة (...). واختفى سلطانه عن الأنظار كأن لم يكن قط"⁽³⁾. هذا ما كتبه ابن إياس الذي لم يأسف على مصيره البتة، إذ أضاف: "لم يهّم السلطان وأمراءه جميعاً تحقيق العدل والمساواة بين المسلمين قط: لقد استحقوا ما نزل بهم بما كسبت أيديهم وبسبب أطعاهم"⁽⁴⁾.

(1) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 67.

(2) LAOUST, H., المرجع نفسه، ص 143.

(3) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 84 - 67. إن Machiavel مُعاصِر تلك الأحداث - كتابه Le Prince "الأمير" طُبِع في 1516م - يحلل جيداً تفوق العثمانيين فيما يتعلق بالأسلحة النارية: "في أيامنا هذه، انتصر الأتراك (...) على سورية، بفضل رش البنادق فقط، التي كان صوتها غير مألوف فأثار البلبلة والاضطراب في صفوف الخيالة وضمن للأتراك النصر". فن الحرب De l'art de la guerre، باريس، Flammarion - Garnier، 1991، م، ص 170.

(4) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 69.

كانت معركة مرج دابق للمماليك كمعركة أزينكور للفرنسيين التي انهزموا فيها شر هزيمة أمام الإنكليز. لم يقتل كثيرٌ من الجنود الشُّبان - فهم لم يشاركوا في المعركة بل "جهدوا في أماكنهم كالأوتاد" كما يذكر ابن إياس⁽¹⁾ - وأسِرَ عدد كبير من المحاربين القدماء والأُمراء، ومن بينهم ثمراز حاكم طرابلس، وترباي حاكم صفد، وأصلان حاكم حمص. وعاد محمد ابن الغوري إلى مصر بأسرع ما يمكن وبرفقته زوجته "شقراء" ابنة سييبي، وزوجته. أما ما تبقى من جيش المماليك، فلقد رجع إلى دمشق في فوضى عارمة وفي حالة يرثى لها، بلا زي عسكري أو حصان، يمتطي بعضهم حميراً، وبعضهم كان عاريّاً، وبعضهم يرتدي ملابس البدو أو مجرد كساء يستر عوراتهم⁽²⁾. ودخل العثمانيون حلب في 29 آب بعد أن نهبوا معسكر المهزومين، في حين هرب حاكم قلعة⁽³⁾ حلب قانصوه الأشرفي مع جيش المماليك. وضع سليم الأول يده على ثروات الغوري وأقام صلاة الجمعة في مسجد الأطرش⁽⁴⁾. وفي القاهرة بايع الضباط تومنباي سلطاناً بلقب الملك الأشرف، في حين كان البدو العرب ثائرين في كل مكان. في 3 أيلول انتخب في دمشق مجموعة من الأُمراء حاكمَ حماة الأمير جان بردي الغزالي حاكماً لدمشق، وهو مملوك سابق للسلطان الأشرف قايتباي، كان قد شغل منصب كبير الحجاب أثناء حكم أركهاش. وبعد أن أرسل الغزالي عائلته إلى مصر وسمح للمماليك بالذهاب إلى القاهرة، غادر في 21 أيلول دمشق محاطاً بحرسه وبرفقة عليّة القوم، وهو متيقن أن قوة نيران العثمانيين تجعل من العبث كل مقاومة. وانقضت في الحال عصابات الزعر على المنازل المهجورة وممتلكات التجار الأوروبيين وأحياء السامريين وهم قوم يشتركون مع اليهود في بعض العقائد، ينشرون القتل والنهب في كل مكان. كتب ابن إياس: "باختصار، كان وضع المقاطعات السورية فظيلاً"⁽⁵⁾. بقيت دمشق، التي مازالت قلعتها تحت سيطرة حاكمها المملوكي علي باي، مدة ستة أيام هائجة بلا حكومة شرعية. وفي يوم الخميس 27 أيلول، عندما قرر الأعيان

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 68.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 70.

(*) حاكم حلب هو خيربيك.

(3) فيما يتعلق بمسجد الأطرش انظر كتاب DEGEORGE G. سورية والفن والتاريخ والهندسة المعمارية، Syrie, art, histoire,

architecture، باريس، Hermann، 1983م، ص 202.

(4) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 80 - 81.

ومشايع الأحياء التوقف عن المقاومة، دخل يونس باشا، الذي كان معسكره في الميدان الأخضر، المدينة بصفته حاكماً عثمانياً. تجنب يونس باشا مجابهة علي باي، وقام بزيارته زيارة ودية وأهدى له ثوب الشرف العثماني ذا الأكمام المطرزة بالذهب. وفي اليوم التالي، خطب في الجامع الأموي باسم سليم الأول، الذي وصل في نفس اليوم إلى القابون يقود جيشاً هائلاً قدر ابن طولون عدد رجاله بمئة وثلاثين ألفاً⁽¹⁾. وهناك أقام معسكره، وعقد اجتماعاً مع القضاة الأربعة الكبار ثم مع الأشراف، واعتقل علي باي الذي جاء إليه يسلمه مفاتيح القلعة. وفي يوم الخميس 3 تشرين الأول، ظهر سليم الأول في دمشق يحرسه عدد كبير من الجنود، وذهب إلى حمام "الحموي" حيث أمر بحلق لحية⁽²⁾. وفي اليوم التالي، ذهب مباشرة إلى الجامع الأموي لأداء صلاة الجمعة التي نعته أثناءها كبير فقهاء المذهب الشافعي، ولي الدين بن فرفور، "بالمقتصر خادم المدينتين المقدستين، مكة والمدينة". وفي الوقت الذي كان الجنود العثمانيون يحتلون فيه عديداً من المنازل، بعد طرد أهلها دون الأخذ بعين الاعتبار لأعمار سكانها لمكانتهم الاجتماعية، ورمي ممتلكاتهم من النوافذ - من بينهم كان المؤرخ ابن طولون الذي عُثر على كتبه على قارعة الطريق - ويحولون عديداً من الأماكن المقدسة إلى إسطبلات أو مأوى لخرفانهم، صادر السلطان منزلاً جميلاً قريباً من المدرسة النورية وطرد كل سكان الحي. ولما كان سليم مهتماً بالحصول على مبايعة القبائل ليسهل على نفسه التقدم عبر فلسطين، ثبّت الزعيم البدوي ناصر الدين بن حنش "مقدماً" على سهل البقاع وسبّاه حاكماً لصيدا وبيروت، ومنحه قرية نوى في حوران إقطاعاً مقابل ضمان عدم تدخل قبائل المنطقة. وفي 7 تشرين الثاني، شنت أول حملة على المدن الفلسطينية. وبعد ثلاثة أيام، وصل إلى سليم نبأ احتلال جيشه للقدس وغزة، التي هزمت بالقرب منها قوات الصدر الأعظم سنان باشا جان بردي الغزالي شرّ هزيمة.

في القاهرة، كان الناس فريسة رعب شديد - هرب بعضهم إلى أعالي مصر، و"اختبأ بعضهم داخل أقباء المقابر"⁽³⁾ - ومما زاد الأمر سوءاً والقلق حدة، ما دار من آلاف الإشاعات المضخّمة حول

(1) LAOUST, H.، المرجع نفسه، ص 144. يذكر ابن إياس (الجزء 2، ص 116) أن عدد جنود الجيش العثماني يتجاوز 60000 مقاتلاً.

(2) بناء عز الدين أليك الحموي (ت 1303م)، حاكم دمشق من 1291 إلى 1295م. Cf. LAOUST, H.، المرجع نفسه، ص 6-7.

(3) ابن إياس، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 123.

الفضاعات التي ارتكبتها الجنود العثمانيون في دمشق: من تعاطي الخمر والجمعة والحشيش والشُخب، وتناول الطعام في رمضان، وما فعلوا بالصَّبيَّة من "الفواحش"⁽¹⁾، إلخ. وفي يوم الاثنين 15 كانون الأول، غادر سليم دمشق بعد أن أرسل رسولا إلى القاهرة يدعو طومان باي إلى الاستسلام⁽²⁾. وخرج من باب الجابية متجهاً نحو مصر التي عمل السلطان المملوكي جهده في تجهيزها لمقاومة العثمانيين: فجُنِّدت لهذا الهدف الميليشيات الشعبية، وصُنعت على عجل المدافع التي هُملت فوق عربات من الخشب تجرها الثيران والجواميس. وأقام الجيش تحصيناته في الريدانية، في الضاحية الشمالية للقاهرة، حيث أباده في 23 كانون الثاني 1517م عدو أفضل منه عدة وعتاداً. وترك جان بردي الغزالي معسكر الممالك واستسلم للسلطان العثماني الذي كان يتصل به في السر.

خلال ثلاثة أيام أحرق الجيش العثماني القاهرة وقتل أهلها بمساعدة "الميليشيات والخدم"⁽³⁾. وقطعت رؤوس الممالك وأولادهم الذين كانوا يُطاردون بلا رحمة حتى في المساجد والتُّرب حيث كانوا يلتجئون. لقد كانت تقطع رؤوسهم مباشرة حيث وجدوا، وكانت تكس فوق بعضها مكونة أهراماً، أو تدلى من حبالٍ بُتت في رأس العصي. وبعد معاركٍ أخيرة شنت بقيادة عدد قليل من رماة البنادق السود وممالك السلطان في الضاحية الجنوبية استمرت أسبوعاً، من 29 كانون الثاني إلى 3 شباط، هرب طومان باي متوقفاً الهزيمة إلى مصر العليا. ويكتب ابن إياس: "وابتليت القاهرة حينها بأكثر الأحداث مأساوية في تاريخها"⁽⁴⁾؛ إذ كرس العثمانيون وعامة الناس والخدم والرعاة أنفسهم للقيام بمذبحة عامة، فقُطعت رؤوس ثمانمئة مملوك أمام العاهل العثماني⁽⁵⁾، وكثرت الخرائق، ونهبت

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 116.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 117 - 118. كان نص الرسالة التي احتجزها الممالك كالتالي: "أنت عبد بيع وشري فلا تليق بك القيادة، في حين أنني أمير، ابن أمير، منذ عشرين جيلاً. أتولى السلطة بأمر رسمي من الخليفة والفقهاء (...). أنا خليفة الله في الأرض (...). أرسل لي كل عام إيرادات مصر، كما كنت ترسل إلى الخليفة في بغداد. (...) إذا لم تستسلم لي، فسأقتحم مصر، وسأقتل كل الأتراك الموجودين فيها، وسأبقر بطون كل النساء الحوامل، وسأخفي من الوجود كل الأجنة التي ستولد". لم يتغير شيء من زمن الطغاة الآشوريين.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 139.

(4) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 149.

(5) ذكر مذبحة الممالك التي قام بها سليم الأول Fra Suriano الذي كان موجوداً في ذاك الوقت في سورية. Cf. Treastise on

the Holy Land، القدس، 1949م، ص 207.

القبور ومن بينها قبر الإمام الشافعي، وأجهزت المجاعة على من بقي. وفي 2 نيسان، وعلى النيل عند ضفة الجيزة، "هُزم آخر الجنود الذين جمعهم طومان باي بعد أن أصمَّهم صوت القصف المدفعي"⁽¹⁾، ثم أُسر طومان باي فيما بعد مصادفة من قبل زعيم بدوي، فسلمه إلى سليم الذي أمر بتعليق جثته بعد شنقه على باب زويلة ثلاثة أيام، "إلى أن انبعثت منه رائحة نتنة"⁽²⁾. وقُضي بهذه المجزرة الفظيعة على المماليك الذين حكموا مصر وسورية مئتين وسبعاً وخمسين سنة.

يتملكنا الشعور عند قراءة ما كتبه ابن إياس وإن طولون بأن الحال لم يتغير فيما يتعلق بالسكان - فهم بريئون كبراءة بطة "ساد"، ومحكوم عليهم كما حكم عليها أن يتمنوا دائماً الأفضل، وأن لا يحكمهم إلا أحكام أكثر فظاعةً في كل مرة. فما حدث هو - في نظرهم - حادثة مألوفة في الحياة المحلية، وليس حدثاً عظيم الشأن، استهّل عصرًا جديدًا في حياة الشرق الأدنى. خَلَفَ الأتراك أتراكًا، وحل إنكشاريون بلا لحى محل ممالك بلحى، وتتابعت نفس الحفلات الرسمية الأسبوعية. أصبحت القاهرة من الآن فصاعداً عاصمة مقاطعة - تحت سلطة خير بيك، خائن مرج دابق الذي عُين حديثاً سيد مصر - تُرسل البضائع بدلاً من تسلمها⁽³⁾، وخابت سريعاً آمال كل من حلموا بتحسين الأمور. إذ تواصل العنفُ نفسه، واحتقار الفرد نفسه. وفي أحد أيام تموز 1517م، كتب ابن إياس، "الإخراج المدافع من القلعة، اعتُقل المارة، حتى أولئك الذين يبدو من هيئتهم الخارجية أنهم قضاة أو كتاب عدل (...)"، وقُيّدت أعناقهم بالأغلال لجرّ المدافع، وجُلِدَت ظهورهم بالسياط، دون الأخذ بعين الاعتبار لمكانتهم ومستواهم الاجتماعي الرفيع"⁽⁴⁾. يعطينا هذا فكرة جيدة عن العلاقة التي كانت سائدة بين الحكام والمحكومين. ففي المدينة، كان يبدو الجنود العثمانيون أكثر همجية من الجنود المماليك، يقتلعون من المنازل مواد البناء والزخارف الثمينة لبيعها بثمان بنخس، وينظمون في الشككات حفلات عريضة حيث تصب الجعة بغزارة، ويسلبون من المارة ملابسهم، ويختطفون النساء والصُّبَّية لإرضاء شهواتهم الحيوانية على الفور⁽⁵⁾.

(1) LAOUST, H., op. cit., t. 2, p. 166.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 171.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 210.

(4) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 185.

(5) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 209-210.

في منتصف أيلول 1517م، ذهب السلطان سليم الأول إلى سورية مرة أخرى واستولى، كما فعل قبله تيمورلنك في دمشق، على غنيمة ضخمة من: المقتنيات النادرة والنحاسيات والأسلحة والخيل والبغال والإبل والرخام النفيس بعد أن قُلِعَ من المباني، وألف جمل محمّل بالذهب والفضة، ومئات الحرفيين من كل المهن⁽¹⁾. وأُجبر آلاف الأعيان على الهجرة إلى إسطنبول: الأمراء وأبناء كبار الضباط والفقهاء ومساعدوهم، والعلماء وكبار الموظفين، والتجار والطواشيّة، إلخ⁽²⁾. وتلقّى سليم ولاء شريف مكة ومفاتيح المدن المقدسة، مما دّعم نفوذه في أعين السكان المسلمين. وأخيراً، انتزع من الخليفة المتوكل موارده - تذكر إحدى الروايات أنه تخلى له حتى عن لقبه - وأرسله مع الآخرين إلى إسطنبول. كتب ابن إياس: "لم تشهد مصر مصيبة مؤلمة أشد من هذه منذ زمن نبوخذ نصر البابلي، الذي هدم وحرق البلد إلى حد اقتضى أربعين عاماً لتقوم من جديد"⁽³⁾.

في 7 تشرين الأول 1517م، دخل سليم الأول دمشق وسط تجمع هائل من السكان، ومكث فيها أكثر من أربعة أشهر قبل أن يعود إلى إسطنبول في 21 شباط 1518م. وتحولت مدينة الأمويين القديمة إلى عاصمة لإحدى مقاطعات الإمبراطورية العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

لقد كان نظام حكم الماليك دون أدنى شك فريداً في التاريخ الإسلامي. ذلك أنه أمر يثير الدهشة أن تنجح برغم كل العقبات عصبة من العبيد "الأجانب"، أتراكاً كانوا أم جراكسة، جرى شراؤهم وهم في عنفوان شباهم من أسواق القوقاز أو آسيا الوسطى، وكانوا منعزلين عن رعاياهم المستقبلين، ولم يتكلموا لغتهم إلا نادراً، في بسط سلطتها على مجموع الأراضي السورية والمصرية أكثر من قرنين! إنه نظام حكم لم يعتبره العرب إلا "حكم الأتراك"، وكان المعاصرون الأوروبيون لا يرون فيه إلا تجمعاً من اللوطيين، ومنظمة شيطانية، غالباً ما يكون مخططها المقدس معاقبة النصارى. وهذا يعني أنه فرض عليهم هيئته. إنه نظام حكم قائم على الجلب المتواصل لرجال جدد مخلصين لسادتهم تمام الإخلاص، يبدأ فيه التضامن في الثكنات، ويشعر فيه كل أمير عالي المرتبة أنه مدعو لتولي الوظائف العليا. إنه نظام حكم لا مكان فيه للوراثة. ولا يجلس على العرش فيه إلا من هم في الأصل عبيد، وهو ليس نتيجة النسب، ولا الانتخاب، وإنما هو نوع من "الاصطفاء الطبيعي" يحدده

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 197.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 218.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 218.

الطموح والدهاء والعنف. ولا يرث أبناء الأمراء عقارات مع أنهم أكثر من آبائهم اندماجاً بالحياة المحلية وقد ولدوا أحراراً ومسلمين. لذلك كان على هؤلاء المماليك أن يُوفِّروا موارد عيشهم خارج الجيش، فكانوا يعتمدون غالباً لممارسة المهن الدينية، التي تعتبر في نظرهم مصدراً للعديد من المغنم غير الشرعية. يبرهن المصير المأساوي لبعض أبناء السلاطين الذي خلفوا آباءهم استحالة وضع نظام حكم قائم على الخلافة بالوراثة، وحتى المدة القصيرة من القرن الرابع عشر التي حكمت فيها سلالة قلاوون، تبقى أمراً استثنائياً. ففي القرن الخامس عشر عمد السلاطين إلى سجن أطفال السلاطين الذين سبقوهم في الحكم، فلقد كتب خليل الظاهري، أحد الوصوليين في أدب المماليك: "إنه حرص قاس كان يقتضيه أمن الإمبراطورية"⁽¹⁾.

تعود أسباب نجاح المماليك دون أدنى شك إلى انتصاراتهم الحربية التي جعلت حكمهم شرعياً في نظر العلماء والناس، وإلى التنظيم الإداري والعسكري الذي عرفوا كيف يفرضونه ويحافظون عليه بكل حزم ضروري. يأتي في مقدمة الصرح السياسي السلطان، وهو الأول بين الأمراء، ويعينه عادة هؤلاء ويقيدون - كما هو واضح - سلطته، نظرياً على الأقل، مع أنها تعتمد غالباً على حالة القوى الجاهزة، لدرجة أنه عندما كان يكتب إلى كبار ضباط الإمبراطورية - حتى لا يجرح كبرياء الذين كانوا بالأمس أكفاءه وقد يصبحون غداً منافسيه - كان لا يستعمل لقب السلطان - وهو لقب جيد للتأثير في الناس، التائقين دائماً إلى وجود "السلطان" - بل يبدأ رسالته بلقب "المملوك" تواضعاً منه⁽²⁾. لقد كان السلطان - إضافة إلى ما كان يتمتع به من كل رموز السلطة: العرش والرايات والطبول والمظلة، إلخ. - الصاحب، أي "مالك الإمبراطورية"، وكذلك قسيم أمير المؤمنين، أي يشارك - نظرياً على الأقل - أمير المؤمنين في السلطة. ووفق مفاهيم السلطة التي كان يُعمل بها في ذلك الزمن والتي يشرحها لنا خليل الظاهري، كانت سلطة السلطان صورة عن كل سلطة مقدسة، وقد أمر الله عباده بطاعته "طاعة عمياء

(1) Cf. GAULMIER, J. زبدة كشف الممالك لخليل الظاهري، النسخة المترجمة، بيروت، 1950م، ص 186. (كان خليل الظاهري نفسه أميراً مملوكاً). حصل نظام حكم المماليك على شهادة رضا من ابن خلدون الذي كان يرى انحطاط العالم الإسلامي ويدرك نهضة العالم الغربي الحديثة الولادة، فاعتبر نظام حكم المماليك بما حققه من استقرار معجزة سياسية. فلقد كتب: "إنه أجل درة في سلسلة الإمبراطوريات". (Le voyage d'Occident et d'Orient، باريس، سندباد، 1980م، ص 193 - 194).

(2) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 5.

والاستسلام دون تردد لأوامره التي يجلو له إصدارها"⁽¹⁾. ويفترض فيه أن يستخدم بحذر الصولجان والسيف اللذين وضعهما الله في يديه لإقامة النظام ومحق الفوضى والتمرد والإباحية والجريمة، وللمحافظة على الإمبراطورية بعيداً عن الإهانات الخارجية، وللعمل على احترام حياة المواطنين وممتلكاتهم، وباختصار، كما يذكر القرآن، مطلوب منه "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"⁽²⁾. لهذا كانت كل الوسائل مباحة. وقد وصل الأمر بخليل الظاهري، الذي يعد كتيبه صدىً للواقع، أن جعل "التعذيب" من وسائل الحكم⁽³⁾. بعد أن يصل السلطان إلى السلطة، ويكون الأمر عادةً عن طريق ثورة في القصر تصحبها عدة جرائم قتل لا يتورع عن ارتكابها في بعض الأحيان السلطان بنفسه. يتلقى العبد سابقاً الذي أصبح سلطاناً تنصيبه من الخليفة - عملية تشريفية للحفاظ على المظاهر - إلا أنه في واقع الأمر لا يُعَيَّن إلا بعد إجماع ورؤساء كبار الضباط والأمراء وكبار الفقهاء والعلماء.

كان السلطان يمتلك، إضافة إلى جزء كبير من واردات الأراضي، ثروات كثيرة مستورة إلى حد ما. ففي منتصف القرن الخامس عشر، كما يوضح خليل الظاهري، كان من نصيبه جمارك الإسكندرية على التجارة الأوروبية، مدفوعة عيناً غالب الظن، وجمارك توابل الهند، ورسوم على السماسرة والمترحمين، ورسوم تكرير السكر، وخمسة بالمئة من العقارات، وواردات عديد من القرى، ورسوم مدينة بيروت التي كانت ميناء كبيراً لتصدير التوابل إلى البندقية⁽⁴⁾، إضافة إلى إرث كل وجهاء القوم الذين يموتون ولا وريث لهم⁽⁵⁾، وممتلكات الحجاج والمسافرين الذين يموتون أثناء سفرهم.

كان الجيش، الذي يقوده السلطان مكوناً في المقام الأول من الفرسان⁽⁶⁾، وكلّ العبيد القدامى وأبنائهم المحررين من الرق. وكانت تُسخر في دعم الجيش كل قوى المملكة الحيوية والتجارة والإنتاج

(1) Cf. GAULMIER, J., المرجع نفسه، ص 76.

(2) المرجع الأخير، ص 76.

(3) المرجع الأخير، ص 82. لقد أثبتت توجيهاته على نحو واسع فيما يتعلق بهذا الموضوع. للاطلاع على دراسة عامة للسلطة في الإسلام وتطورها، انظر كتاب

LEWIS B., "Le Langage politique de l'islam", paris Gallimard, 1988،

(4) Cf. ADLER, E.N., op. cit. p. 198

(5) GAULMIER, J., op. cit., p. 179.

(6) (L'infanterie du soudan est fort médiocre; mais la cavalerie est nombreuse), Histoire orientale ou des Tartares..., HETHOUM، تاريخ المشرق أو التار، La Haye, J. Neaulme. 75، ص 1735،

دون أي حرج. لقد كان تفوق المماليك ومهارتهم وانضباطهم مصدر إعجاب الجميع. يذكر جاك دو فيرون أنهم كانوا "مشهورين بكونهم محاربين بواسل"⁽¹⁾ وإن بدا له أن خيولهم كانت صغيرة وأن أسلحتهم رديئة. ويعلل فيليكس فابري فعالية تدريبهم العسكري بهذه العبارة الصريحة: "إن اهتمامهم بموت رجل أقل من اهتمامهم بموت دجاجة"⁽²⁾. ويمجد لدوفيكو دي فارتما مهارتهم قائلاً: "لقد رأيت مملوكاً يعدو ممتطياً فرسه، ثم ينزع سرجه ويضعه على رأسه، ثم يعيده على ظهر الفرس دون أن يقع"⁽³⁾. وحسب رأي شرف الدين، مؤرخ تيمورلنك - لقد كان المغول أنفسهم خبراء في الفروسية - كان الفرسان المماليك بكل بساطة هم الأفضلين في العالم⁽⁴⁾. ويشهد خليل الظاهري وهو من أمراء المماليك أنهم كانوا لا يقهرون، إذ ذكر في كتابه، في منتصف القرن الخامس عشر، قبيل الهزيمة النهائية: "كانت الكتائب المجهزة لخوض الحرب مكونة دائماً من عدد كاف من الفرسان لإبادة العدو المتعرج الذي تجرأ وورط نفسه في مجابتهم"⁽⁵⁾.

لقد كان الجيش يتألف من فيالق رجالها عبيد الأمراء الذين كانوا يشترونهم من أموالهم الخاصة ويعملون على تدريبهم وإعدادهم العسكري. وكان قلب الجيش مكوناً من حرس السلطان الخاص من المماليك، الذين كان يطلق عليهم لقب السلطانيين، وكان عددهم عدة آلاف - لقد كان لقلاوون سبعة آلاف مملوك سلطاني - وكانوا عادة شديدي الولاء لسيدهم، وكان من مهمتهم حراسة القاهرة⁽⁶⁾. كان السلطان عند كل تغيير للسلطة، يحتفظ كلياً أو جزئياً بحرس السلطان السابق مضيفاً إليه ما يمتلكه من المماليك والمماليك الذين يشتريهم مستقبلاً. ثم يأتي دور جند الحلقة⁽⁷⁾، أي "فرسان الحلقة"، وكانوا هم أيضاً في خدمة السلطان، ويمنحون إقطاعات، وكان عددهم زهاء أربعة وعشرين ألف رجل، ومقسمين إلى أقسام في كل منها ألف رجل يقودهم أمير المئة. ويأتي أخيراً المماليك الذين

(1) VERONE, J. de, op. cit. p. 291.

(2) Cf. MASSON, R.P.J., op. cit., t. 2, p. 555.

(3) VARTHÈMA, L. DI, Les Voyages, Paris, 1888AD, p. 25.

(4) شرف الدين، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 313.

(5) GAULMIER, J., op. cit., p. 277.

(6) في منتصف القرن الخامس عشر، أحصى منهم الظاهري 10000. GAULMIER, J., op. cit., p. 172.

(7) ذكرها سابقاً 263, p. Joinville: "Les chevaliers de la Hauleca", cf. PAUPHILET A., op. cit.,

كان كل أمير يتعهدهم حسب مرتبته، ويشكلون حرسه الخاص، ويشرف على إعدادهم وتدريبهم وانضباطهم وحشدتهم للحرب. يقع في قمة التسلسل العسكري أمراء المئة، المكلفون عادة بمهام الدولة العليا، وكان كل واحد منهم يمتلك مئة مملوك، ثم يأتي أمراء الأربعين، وأمراء العشرين، وأخيراً أمراء العشرة أو الخمسة، ولكل منهم زي رسمي ثمين. صرّح معقد يقوم على أساس نظام إقطاعي، أي مَنح كل أمير وكل فارس من جند الحلقة هبة عقارية توفر له معيشته في أثناء السلام والحرب، وذلك على حساب الذين يزرعون الأرض. لهذا كان هناك قسم خاص في الحكومة "أكثر الأقسام شرفاً وأكبرها (...) تعالج فيه قضايا الإمبراطورية المهمة"⁽¹⁾، ألا وهو ديوان الجيش المكلف بإدارة واردات الأراضي المخصصة للهبات. وكان هناك سجلّ للمساحة معدّ بدقة متناهية ومجدد باستمرار لتاريخ اليوم الجاري، يقسم أرض الإمبراطورية إلى أربعة وعشرين قسماً، ويعد ركييزة لتوزيع الموارد: أربعة أقسام تمنح للسلطان، وعشرة للأمراء، وعشرة للجند. ويتغير هذا التوزيع جزئياً وفق الإصلاحات الإدارية التي كانت تقتضي في كل مرة إنشاء سجل مسح جديد. ولكن المصيبة المستشرية تكمن في انخفاض وارد الإقطاعات، الذي كان وراء تقويض أسس النظام، والذي سبق أن تنبه له المقرئ منذ نهاية القرن الثالث عشر⁽²⁾. لم تكن الهبات العقارية وراثية نظرياً، فهي تمنح عادة مدى الحياة أو مدة محددة، ومن الممكن إلغاؤها أو تعديلها في أي وقت. ولا تمنح الهبات العقارية ملكية أو حيازة أو تمتعاً بعقار، بل تمنح فقط جزءاً من واردات الأرض، ولا يتمتع المنتفع، الذي نادراً ما يسكن "أرضه"، بأي سلطة قانونية على الفلاحين الذين هم في منأى عن كل علاقة إقطاعية، والذين يخضعون دائماً من حيث المبدأ، لقانون واحد معترف به، وهو الشريعة. ويقوم بشؤون كل مدينة "نائب" يساعده عديد من كبار الموظفين، من مهامه قيادة الجيش وتحصيل الضرائب المدنية.

إضافة إلى الامتيازات العسكرية، كان الأمراء يتقلدون مناصب عالية في الوظائف المدنية، يجنون منها واردات كبيرة قانونية إلى حد ما. إذ إن جرد مقتنياتهم بعد موتهم أو إقالتهم كانت تبين مكاسبهم. ويشغلون أيضاً المراكز الأولى في البلاط الذي كان السلطان يتعهد، محاطاً بخواصه المقربين إليه من بين مماليكه، وذلك في قصره في قلعة القاهرة.

(1) GAULMIER, J., op. cit., p. 171-172.

(2) المقرئ، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 65-68.

تخبرنا الكتب الإدارية، مثل كتاب كبير موظفي الديوان، القلقشندي⁽¹⁾، الذي ألفه في بداية القرن الخامس عشر، عن مؤسسات الممالك وأنشطتها. يطبق في البلاط تسلسل الرتب بدقة متناهية، ويتميز كل فرد بزيه الرسمي الخاص. يأتي في مقدمة الوظائف الكبيرة منصب النائب الذي ينوب عن السلطان، ثم رئيس النوبة، أي رئيس الممالك السلطانية، ثم أمير المجلس، وهو الذي ينظم التشريفات، ثم أمير السلاح الذي يحضر للسلطان أسلحته أثناء الاحتفالات الرسمية الكبيرة، وأمير الآخور المكلف بإدارة الإسطبلات، وأمير (الدواة) "حامل المحبرة" وهو المسؤول عن إرسال المراسلات، و"الحاجب" المكلف بتحقيق العدل بين الأمراء والجنود، والأمير "جندار"، المكلف أيضاً بإقامة الحدود، و"الإستودار" كبير خدم القصر المكلف بالمحافظة على ثروة السلطان الخاصة، وإدارة المستودعات الملكية والمطبخ والخدم، وهو منصب ممتاز لزيادة الثروة ومطلوب جداً. كتب خليل الظاهري عنهم: "لقد كانوا يبدخون كالسلاطين، فلقد شوهد بعضهم - بعد أن فقدوا حظوتهم عند السلطان - مجبرين على تقديم تقارير عن إدارتهم وعلى أن يُخرجوا من صناديقهم خمسمئة ألف دينار، ثمرة نهبهم واختلاسهم، فضلاً على الجواهر وأثاث قصورهم الثمين والبضائع الغالية التي كانت تملأ مستودعاتهم"⁽²⁾.

عهد الأمراء بسرعة في إدارة أعمالهم إلى الديوانيين (البيروقراطيين)، منشغلين بامتيازاتهم ونفوذهم ومتعهم واستمرارية حكمهم قبل كل شيء وتأمين ثرواتهم ونصب المكائد. لقد كان عدد موظفي الدواوين كبيراً جداً، ويتألف جوهرياً، برغم كثرة أسماء المناصب والمراكز، من أربع مديريات كبيرة تحت سلطة الوزير: المراسلات، وتحصيل الضرائب، وإدارة الجيش، والديوان الخاص بالسلطان. وكان الموظفون جميعهم من السكان المحليين، مسلمين أو نصارى أو يهود، على عكس العسكريين الذين كانوا فقط من "الأجانب". وهؤلاء الموظفون فقط هم خدم السلطان الحقيقيون: فهم الذين يديرون أعمال الإمبراطورية، ويحمون بقاء الدولة أثناء الحروب المدنية، كل هذا وهم ينهبون ويحتلسون دون حرج.

إضافة إلى حاشيتهم المؤلفة من مماليكهم الخاصة وزوجاتهم وعائلاتهم وأبنائهم وخليلاتهم

(1) ألف القلقشندي (ت 1418م) كتاباً كبيراً "صبح الأعشى" يلخص فيه كل المعارف التي يجب أن تكون لدى كاتب ديوان جيد، بدءاً من المعلومات التقنية عن الحبر والورق، مروراً بتاريخ المقاطعات والدول التي كان للديوان علاقة بها، والتنظيم السياسي والإداري، إلى وصف مفصل لقبائل العرب وأنسابهم، وتاريخهم وحدود مراعاتهم إلخ.

(2) GAULMIER, J., op. cit. p. 177.

وخدمهم وعبيدهم وكُتَّابهم وموظفيهم، كان الأمراء مرتبطين بكثير من الأشخاص من كل فئات الناس، وكانوا يكسبون ولأهم من طريق التعامل. وكان هؤلاء الأشخاص سنداً قوياً لهم في تحقيق طموحاتهم، فهيئوا لهم مواقع السيطرة في المدينة. وهكذا، مع أنهم أجنب، ومع أن وظيفتهم قبل كل شيء هي حماية الإمبراطورية من كل الاعتداءات الخارجية، كانوا يؤدون دوراً مهماً جداً في المجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي. ففي غياب الدوائر المدنية كانوا هم الذين يديرون أقسام الشرطة والصحة، والذين يمولون الأعمال الكبيرة: في الرّيّ وشق الطرق والشوارع وبناء التحصينات وغير ذلك. وهم الذين كانوا - وشغلهم الشاغل تبرير سلطتهم وتأكيد التزامهم الديني وورعهم للآخرين - يمنحون مساعداتهم للمؤسسات الخيرية ولإدارة المؤسسات الدينية. لقد كانت أعدادهم وإمكاناتهم المالية كبيرة جداً - في القرن الرابع عشر، كان من الممكن أن يتجاوز وارد الأمير السنوي مليون درهم، في حين كان يصل وارد موظف ديني صغير إلى سبعة مئة درهم - فهم محرّكو الحياة الاقتصادية والمستهلكون الرئيسيون للمنتجات الغذائية، وللبضائع الكالمية وللتجهيزات العسكرية طبعاً. لقد كانت قدرتهم الشرائية كبيرة لدرجة أن ازدياد عدد جند حامية دمشق قد أدى في منتصف القرن الثالث عشر إلى إعادة توزيع الأسواق: إذ انتقل صناع السروج والعتاد والسلاح ومورّدو القش والشعير والجلد وغيرهم، من مركز المدينة إلى أسفل القلعة، والتحق بهم بسرعة النجارون والحدادون والنحاسون والخياطون والمطرزون، وقامت الخانات والملاهي وبيوت الدعارة. ولقد كان الحرفيون والتجار، الذين يعملون لحسابهم وحدهم، كثيرين.

لما كانت أجور الأمراء ومعهم كبار الموظفين عينية، وبوجه خاص من الحبوب، كانوا يشغلون مواقع مركزية في التبادلات بين المدن. لقد كانت مدخراتهم كبيرة جداً، كما يظهرها الجرد الذي كان يجري بعد موت أحدهم أو إقالته من عمله. فلقد ترك الأمير سيف الدين سلار، إضافة إلى ثروة كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة النفيسة والأسلحة والحيوانات والممتلكات المتنوعة، ثروة هائلة من القمح والشعير والفول تقدر بثلاثمئة ألف إِرْدَب^(*). كانت المضاربة في أوجها - لقد جعلها السلطان بارسباي نفسه من اختصاصه - ولقد وصلت أسعار الحبوب، أيام القحط خاصة، إلى مستوى دفع إلى التمرد أكثر المواطنين فقراً. ففي دمشق، في آذار 1397م، قُتل شخصٌ كان يُسمى ابن النشو، إذ كان

(*) الإردب يساوي 150 كغ تقريباً.

سمساراً لا يخاف الله، وكان قد خزن الحبوب في وقت المجاعة، فقتله حشد من الناس الغاضبين وقطعوا رأسه، ثم أحرقوا جثته واغتصبوا نساءه وسلبوا ممتلكاته⁽¹⁾. وكان السلطان والأمراء في كثير من الأحيان يجبرون التجار والطحانين وتابعيهم على شراء الحبوب - وأحياناً سلع غذائية أخرى - بأسعار أعلى من أسعارها في الأسواق. وقد سُجِّل في دمشق أول شراء إجباري عام 1289م: إذ كُـدس أحد الأمراء خشباً وسكراً وبضائع أخرى، آملاً أن يتمكن من بيعها بضعف أسعارها. في ظل حكم الأشرف برسبائي (1422 - 1438م)، أصبح الشراء الإجباري أساس الاقتصاد السياسي لتعويض الانخفاض الشديد في الواردات الزراعية. ومنذ بداية الربع الثالث للقرن الخامس عشر، لجأ الأمراء وحكام المقاطعات والموظفون إلى الشراء الإجباري على نطاق واسع بهدف تكديس الثروات الشخصية. وفي عام 1481م، أجبر حاكم دمشق السماسرة على شراء سكر أنتجته معامل تكرير السكر التي يمتلكها بأسعار تزيد على سعره في السوق بمرتين. وفي سنة 1491م، أعد الحاكم في القدس قائمة بالمشتريين وأجبر كل واحد منهم على شراء قنطار⁽²⁾ من الزيت بسعر خمسة عشر ديناراً. وفي زمن احتضار نظام الحكم، وفي محاولة أخيرة للحصول على نقود عينية، باع السلطان بهذه الطريقة أثاثه الخاص. وكان عديد من المضاربين يسعى للحصول على مركز احتكاري: ففي دمشق اشترى أحد الأمراء كميات هائلة من الأغنام وباعها فيما بعد بثلاثة أضعاف سعرها الأصلي⁽³⁾.

كانت محاولات الإصلاح الأخلاقي للحياة العامة التي عمل بها في بدايات الحكم، تحت ضغط السكان أحياناً أو بطلب من العلماء، تأخذ شكل مراسيم إلغاء ضرائب، تنقش على جدران المساجد والمدارس وأبواب الأسوار وبالقرب من الأسواق بحيث يتمكن عدد كبير من المهتمين من قراءتها، ولكن العمل بها كان نادراً؛ وبدل على ذلك إصدارها مرات عديدة. تزودنا هذه المراسيم التي كان يصدرها السلاطين - وليس بالضرورة أكثرهم استقامة - وكبار الموظفين والحكام والقضاة إلخ، والتي احتفظت بها مباني دمشق الأثرية، بتوضيحات مثيرة للاهتمام، تظهر البراعة في فرض الضرائب

(1) ابن سسر، المرجع نفسه، ص 273 والتالية. في الشهر التالي، صُلب ثمانية وعشرون شخصاً انتقاماً لقتل ابن النشو.

(2) قنطار واحد = 425 رطلاً دمشقياً. والرطل الواحد = 444 غ.

(3) LAPIDUS, I.M., Muslim cities in the later Middle Ages, Cambridge, Harvard University Press, 1967AD, p. 53.

التعسفية⁽¹⁾، وتجلو بوجه خاص الحياة الاجتماعية والمعيشة اليومية للناس الذين يهمل المؤرخون ورواة الأحداث الحديث عنهم عادة⁽²⁾.

في عام 1400م، أصدر سيف الدين سدن، نائب دمشق، مرسوماً نُقش على عمود من الرواق الغربي للجامع الأموي، يلغي فيه ضريبة كانت تُجَبى من الذين "يغسلون ويحملون أجساد الموتى"⁽³⁾. وفي سنة 1418م، أصدر قاضي الشافعية في دمشق مرسوماً نُقش على واجهة الرواق ذي الأعمدة في المدرسة العمرية وضع فيه حداً للتصرفات السيئة لبعض الإداريين المحتالين الذين كانوا يختلسون موارد المدرسة⁽⁴⁾. وفي سنة 1434م أصدر السلطان برسباي مرسوماً نُقش على أحد أعمدة الرواق الغربي للجامع الأموي ألغى فيه الضرائب المفروضة على الحجاج عند ذهابهم إلى مكة⁽⁵⁾. وفي سنة 1438م ألغى مرسوم سلطاني منقوش على جدار جانبي لبوابة جامع التوبة ضريبة مفروضة على تجار الجلود⁽⁶⁾. وفي سنة 1443م أصدر السلطان جقمق (1438 - 1453م) مرسوماً نُقش على دعامة نافذة في جامع الحنابلة، ألغى به الضريبة المفروضة على السلع الغذائية، التي كانت تباع في سوق الصالحية للفاكهة، لمصلحة مفتش الجيش وموظفين آخرين⁽⁷⁾. وفي سنة 1450م، ألغى مرسوم وضع على واجهة مسجد الأقطاب ضريبة فرضت على دكان مجاور لقصر الثياب⁽⁸⁾. وفي سنة 1460م ألغى مرسوم أصدره النائب وعُلّق في الجامع الأموي "ضريبة الشرطة الشهرية المفروضة على الأسواق"، وأيضاً "الضريبة الشهرية المفروضة على الدباغين" التي كانت تُجَبى لمصلحة الباشمقدار، أي حامل

(1) في دمشق، في ظل حكم سيباي (1505 - 1516)، فُرِضت ضريبة على حي القنوات بسبب حادث أصاب قناة الماء. وفي القاهرة فُرِضت ضريبة على بيع بعر الحيوانات لتحصيل مبلغ يشقّل نواكير القلعة. Cf. SAUVAGET, J., مراسيم الممالك في سورية، B.E.O.، الجزء 2، 1932م، والجزء 3، 1933م، والجزء 12، 1947 - 1948م.

(2) SAUVAGET, J.، مراسيم الممالك في سورية، B.E.O.، الجزء 2، 1932م، ص 2.

(3) SAUVAGET, J.، B.E.O.، الجزء 12، 1947 - 1948م، ص 5-7.

(4) المرجع الأخير، الجزء 2، 1932م، ص 6-10.

(5) المرجع الأخير، الجزء 12، 1947 - 1948م، ص 7-8.

(6) المرجع الأخير، الجزء 2، 1932م، ص 22-24.

(7) المرجع الأخير، ص 24-25.

(8) المرجع الأخير، ص 30-32.

البابوج⁽¹⁾. وفي سنة 1464م طالب مرسوم أصدره السلطان خوشقدم (1461 - 1467م) المنقوش على لوح من الرخام مثبت في الرُّواق الشرقي للجامع الأموي، بأن "يُمنع رئيس البغّالين (...) من الاستيلاء على قش فلاحي الغوطة"⁽²⁾. وفي سنة 1474م أعلم مرسوم أصدره السلطان قايتباي، وعُلّق في الجامع الأموي، السكّان أنه من الآن فصاعداً "يُمنع الاستيلاء على الإرث الذي يتركه الحجاج في حال موتهم في الطريق، ويُكلّف القاضي بإحصاء دقيق له (...) إلى أن يوصله لأيدي أصحابه الشرعيين"⁽³⁾. وبالطبع كانت الأماكن الفاسدة والمواخير والخمّارات هدف الإصلاحات الأخلاقية المفضل. وقد طالب مرسوم أصدره خوشقدم بإلغاء الممارسات الذميمة والأمور المحرمة وطالب أيضاً "بإراقة الخمر وطردها من المومسات من دمشق"⁽⁴⁾. ولكن رواة الأحداث بينوا أن إغلاق هذه الأماكن لم يكن إلا إغلاقاً مؤقتاً، إذ سرعان ما تلغى الرشاوى الخطر، إضافة إلى أن هذه المؤسسات اللاأخلاقية، التي كانت تُفرض عليها ضرائب كبيرة، كانت تزيد ثروة السلطان. وباستثناء بعض العلماء المتذمرين، لم يكن أحد مسؤولاً عن إغلاق هذه الأماكن. ففي الواقع، إذا صدق فنون سيدهايم القول، "كان جميع المسلمين تقريباً يشربون الخمر سراً"⁽⁵⁾، برغم العقوبات المفروضة - الأغنياء يدفعون غرامة، والفقراء يجلدون - وبرغم ما ينتظر المؤمنين من أنهار من خمر في الآخرة⁽⁶⁾. فلا عجب إذا علمنا كيف كان كثير من الناشئين المسلمين - ومنهم أتقياء - يقدرّون هذا الشراب المقدس، وبلهجة جدية بكهنة باخوس (إله الخمر عند الرومان)، كانوا يتغنون بفضائله. فلقد كان ابن الفقيه يرى فيه "أفضل شراب (...)"، لا مثيل له في عطر رائحته، وصفاء لونه، وعذوبة مذاقه، وسهولة انسيابه في الجسم، ونكهته اللذيذة، ولونه

(1) المرجع الأخير، الجزء 12، 1947 - 1948م، ص 41 - 44.

(2) المرجع الأخير، ص 18 - 24.

(3) المرجع الأخير، ص 25 - 26. عادة الاستيلاء على ممتلكات الحجاج والمسافرين ذكّرها سابقاً في النصف الثاني للقرن الثاني عشر Petachia de Ratisbonne: "إنها العادة هنا (في شمال العراق) عندما يموت مسافر يهودي، أن يتملك السلطان نصف ممتلكاته".

PETACHIA de RATISBONNE، المرجع نفسه، ص 11.

(4) المرجع الأخير، الجزء 12، 1947 - 1948م، ص 18 - 24.

(5) VON SUDHEIM, op. cit. p. 361.

(6) "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين..." السورة 47، الآية 15.

الجميل، وعطره النافذ، ولونه الأحمر، وجوهره المغذي"⁽¹⁾. وكان لا يفتأ يمدح فضائله، إذ كتب: "لأنه يطهر ويغسل الجسم ويزيد نقيّ العظم ويهذب الطباع ويصفي المنى (...)، يفتح الممرات المسدودة، ويخلص الجسم من الفضلات الزائدة، ويزوده بالدم الصحي الذي هو أساس الحياة (...)" ويشعل نيران الغريزة، ويرفع حرارة الجسم، ويمنحه ألواناً جميلة، ويدفع الكلى (...)" ويغسل المثانة، ويقوي الكبد والمعدة، ويساعد على هضم الأطعمة، ويطرد الريح (...)"⁽²⁾.

كان الماليك، إضافة إلى وضعهم المركزي في الدوائر التجارية نتيجة تشغيل قسم كبير من واردات إقطاعاتهم من حصيلة اختلاساتهم، يكوّنون لأنفسهم ثروات هائلة يمكن توريثها يشهد على تنوعها واتساعها صكوك الأوقاف: من بيوت ودكاكين وطواحين وقيصرات وخانات ومصافي زيوت ومعاصر سكر القصب وأفران وحمامات وإسطبلات ومخازن وورشات، ومخازن وحقول، وبساتين، إلخ. فلقد كانوا أصحاب رؤوس أموال كبيرة، مما جعلهم يؤدون، في أغلب الأحيان، دوراً رأسالياً حقيقياً، ويساهمون في المشاريع المهمة جداً. ففي دمشق، من بين واحد وأربعين مشروعاً تجارياً، من أسواق وخانات وقيصرات إلخ..، أمكن التعرف مؤسسيها، خمسة بناها السلطان، وثمانية وعشرون بناها الأمراء⁽³⁾ الذين كانوا غالباً ما يضعون أيديهم على الحرف والتجارات الربحية. وهكذا في دمشق، عام 1292م، حصل أحد الأمراء من السلطان، بعد أن اشترى من خزانة الدولة قيسارية القطن، الإذن بأن ينقل منها كل تجار حرير المدينة. ولكي يتجنب الأمراء مصادرة الدولة ما يُورث عند موتهم وفقاً للعُرف المتبع، كانوا ينشئون وقفاً لمصلحة جمعية خيرية، بجزء من أموالهم أو جميعها. وبهذا الشكل كان أولادهم، المستثنون أساساً من الوظائف العسكرية العالية، يواصلون بتحصيل واردات هذه الممتلكات بسبب تعيينهم حصرًا مديريين لها. هذه الإمكانية التي منحها لهم القانون الإسلامي لتجنب مصادرة أموالهم - والتي كان يعتبرها بعض الفقهاء تشويهاً لمبدأ الوقف - يفسر حصصهم الكبيرة في بناء المباني الدينية وفي إنشاء الأوقاف. ففي دمشق، من بين مئة وواحدة وسبعين منشأة، أو مشروع لإعادة بناء أو تجديد المساجد أو المدارس أو الخانات التي نُفذت في أثناء عصر الماليك والتي أمكن تعرّف مؤسسيها، اثنتان وثمانون مؤلها

(1) ابن الفقيه، المرجع نفسه، ص 153.

(2) المرجع الأخير، ص 153.

(3) LAPIDUS, I.M., op. cit., p. 59.

أمراء معظمهم من النواب، وعشر مولها السلطان، وخمس وعشرون مولها التجار وإحدى عشرة مولها كبار الموظفين، وثلاث وأربعون مولها العلماء منها ثلاث عشرة مولها القضاة⁽¹⁾.

استند العلماء إلى هذه الآية القرآنية: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾⁽²⁾، فأصبحوا دعاة للخضوع، وأنصاراً للسلطة التي بذلوا جهودهم في إضفاء الشرعية عليها، أكثر من كونهم حُماة ورعين يحرسون على تطبيق الشريعة التي كانوا مفسريها بلا منازع. ولما كانت السلطة السياسية حريصة على ألا ترى في العلماء إلا رجالاً يسهل قيادهم، شددت عليهم الرقابة، فكانت هي من تعين الرئيسين منهم: كبار القضاة وقاضي الجيش ومدير خزانة الدولة والمحتسب في أغلب الأحيان. أما القراء وكبار الأساتذة والخطباء الرسميون ومديرو المشافي وأئمة الجوامع وشيخ الشيوخ⁽³⁾ (مسؤول المذاهب الصوفية) فإذا لم تعينهم السلطة مباشرة، كانت مباشرتهم الوظيفة مرهونة بالحصول على توثيق رسمي. إضافة إلى ذلك كانت رواتب معظم أساتذة الدين وموظفيه - الذين كانوا في أغلب الأحيان من الطبقات الفقيرة وكانوا يشغلون وظائف أخرى في الحياة المدنية - من واردات الأوقاف، مما يجعلهم يتمتعون باستقلال نسبي. أما رواتب القضاة والمحتسين وكبار الإداريين فكانت من الدولة مع أن المثل الإسلامية القديمة كانت دائماً تحث على استقلالية رجال الدين عن السلطة السياسية. وهكذا وجد العلماء، الذين يتمتعون بمقام كبير برغم جبنهم وفسادهم، أنفسهم بين حجري الرحي، فلقد وُضِعوا بين الناس الذين يفترض أن يحموا مصالحهم وبين الطبقة العسكرية، وكانوا يؤدون دوراً اجتماعياً مزدوجاً يتعلق كثيراً بالظروف وبشخصية صاحب الحق. ولما كان العلماء ضروريين لنشر السلطة في المجتمع، كانت مساهمتهم وما يمثلون من ضمان - وخاصة لتشريع الضرائب غير الشرعية - مطلوبةً مهما كلف الأمر. ولأنهم

(1) المرجع الأخير، ص 73. كتب ابن خلدون عن الجمعيات الخيرية التي أسسها المالك: "في الواقع، كان الأمراء الأتراك يخافون على مستقبل أبنائهم الذين لم يكونوا إلا عبيداً أو عبيداً حرهم سادتهم: فلقد كان يُخشى دائماً الإزعاج والمصادرات من قبل السلطة. فبنوا عدداً كبيراً من المدارس والخانقاهات والرباطات وجعلوها أوقافاً جيدة الرِّيع. وهكذا قرروا أن يستفيد أبنائهم منها بصفتهم مديريها. تلك كانت نواياهم، إضافة إلى رغبتهم في إنجاز أعمال صالحة يُسابون عليها. وبالنتيجة، كثرت الأوقاف ووارداتها". "Discours sur l'Histoire Universelle"، باريس، 1978م، الجزء 2، ص 897.

(2) القرآن الكريم، الآية 59.

(3) أو شيخ المشايخ.

عُرِضُوا لضغوطٍ ومضايقات من كل الأصناف - وما يتعلق منها بالكرامة والاحترام أو بالمال لم يكن أقل من سواء ولا أضعف تأثيراً - كان مجال حركتهم لدى السلاطين والأمراء - الذين كانوا لا يتورعون عن فعل أي شيء - ضيقاً جداً^(*). هذا، وإن تدخلهم لمصلحة الرعية وإن كان نادراً جداً لم يكن دائماً بلا نتيجة. ففي دمشق عام 1311م، ترأس مجموعة من الفقهاء والخطباء وعلماء آخرون حركة استياء شعبي كانت تعارض الضرائب المرتفعة جداً، ومع أنه أُلقي القبض على المحرضين وعوقبوا، فقد خففت الضرائب. وقد حصل هذا بعد وقت قصير من بداية الحكم الثالث للسلطان الملك الناصر. ولكن كان معظم العلماء عموماً يبادرون إلى مساعدة السلطة متقادين لها، يُجنون منها شرعيتهم ومكافأاتهم. وهل كان بإمكانهم أن يفعلوا غير ذلك؟! فالتمردون القلائل الذين ذكرتهم النصوص ذاقوا، بمجرد أمر من الأمير، أقسى أنواع التعذيب، إذ إن بعض الأمثلة التي ذكرها ابن إياس لا تترك مجالاً للشك في فعاليتها، وتثير الاشمئزاز. ففي عام 1477 - 78م، طُيِفَ بأحد قضاة القاهرة بعد أن غضب عليه السلطان قايتباي - متهماً بتهمة غير معروفة - في شوارع المدينة وهو مثبت على جمل، ثم سُتِقَ على شجرة حمير بدل شقه إلى نصفين - كما جرت على ذلك العادة - بفضل "طلب استرحام"⁽¹⁾. وفي تشرين الثاني 1504م، فرض السلطان قانصوه الغوري على القاضي بدر الدين تعذيباً قال عنه ابن إياس، الذي كان خبيراً في مثل هذه الأمور: إنه كان مؤلماً جداً، إذ لم يَقم بتعذيبه المختصون بالتعذيب على كثرتهم في بلاط السلطان في القاهرة، بل قام به أحد الحجاج وأمين صندوق الدولة وأمين سر النائب، مما يفسر دون أدنى شك مدى فظاعة التعذيب: لقد سحقوا عقبي قدميه وركبتيه، وعرزوا أسياخاً سخنتها النيران في أصابعه حتى تحطم عديداً من شَلاَمِيَّاتِهِ. ثم تنوع التعذيب، واقتلعوا حلمتي صدره بملاقط حِماة حتى الاحمرار، وأجبروه على أكلها، وضغطوا على صدغه بحبل قنب إلى أن خرجت عيناه من مجريهما، وسقطت على خديه. باختصار، ذاق البائس من

(*) لا يمكن إنكار ما قام به كثير من العلماء ورجال الدين من دور عظيم في مكافحة الشر وتوجيه الناس نحو الخير والضغط على أولي الأمر، ونذكر على سبيل المثال الشيخ تقي الدين بن تيمية الذي كان وراء انتصار المسلمين على التتار في معركة شقحب، إذ يذكر ابن كثير في مؤلفه "البداية والنهاية" الجزء 14، ص 27، "دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد، وفرح الناس به ودعوا له وهنؤوه بما يمس الله على يديه من الخير، وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد أن يرجع إلى مصر، (...) وحرص السلطان على القتال وبشره بالنصر (...)".

(1) ابن إياس، تاريخ المماليك الجراكسة، ص 186.

الآلام والمعاناة ما لا يسمح به أي قانون، ونال من التعذيب ما يتعذر حدوثه في الواقع⁽¹⁾. وفي عام 1513م، من جراء اختلاف صغير في الرأي في قضية عادية في العدول عن الاعتراف فيما يتعلق بارتكاب الزنى، احتج نفس السلطان - "قانسوه الغوري" المشؤوم - على القاضي زنكالوني بقوله: "سينفذ حكمي، وليس لحكمك أي أهمية"⁽²⁾، ثم أمر بجلد القاضي الجسور ألف جلدة كانت سبب موته. من الواضح، أنه لا مجال في مثل هذه الظروف لانتقاد شرعية السلطة. كان الظلم مفضلاً على الفوضى والحرب المدنية وانشقاق صفوف المؤمنين. لا شيء يعرقل مذهب السياسة، الذي يسمح للسلطة السياسية بأن تتمتع بشيء من الاستقلالية إزاء الشريعة، مادام الحاكم يُقرُّ بالإسلام، ومادام الطابع العام للمجتمع طابعاً إسلامياً. عند قراءة تسلسل الأحداث نتساءل ما فائدة القضية (إذا استثنينا قضايا الطلاق والإرث وتحديد الأراضي) إذا كان القضاء - الذي كان في أغلب الأحيان يحكم الأمير وليس حكم القضية - قضاء عجولاً، وكانت العقوبات لا تتناسب مع حجم الجح في أغلب الأحيان. في عام 1498م، اعتقل شخص لأنه، كما ذكر ابن إياس، كان يسرق الأكفان من القبور. وبأمر من السلطان الناصر محمد، كشطوا جلدة وجهه ورأسه حتى العنق، وطيف به في شوارع القاهرة، وقد تدلى جلده على صدره، ثم شنقوه عند باب النصر⁽³⁾. وفي إحدى الليالي، أمر نفس السلطان بشق رجل إلى نصفين فوراً عندما أخبره أحدهم أنه سكير⁽⁴⁾. وفي أحد الأيام، بعد أن سجن السلطان زاهر قانسوه سارقاً أمر بإتلاف عينيه بإبر مسخنة إلى درجة البياض وقطع لسانه⁽⁵⁾.

ليس من العجيب في نظام حكم كهذا، أن ينقلب كبت وأحقاد الناس عنفاً. لقد كان العصيان يندلع بانتظام في الأسواق وفي كل مناسبة كتعيين حاكم لا يرغب فيه الناس، أو نقص في التموين، أو انخفاض قيمة العملة، أو غلاء المعيشة، أو تعسف المالك، أو استغلال ضريبي، أو بيع إجباري، أو عند اعتقال أحد العلماء أو عزله، أو عند إجراء مضاربات وقحة، إلخ.، وتغلق الدكاكين أبوابها. إن

(1) ابن إياس، مذكرات برجوازي في القاهرة، "Journal d'un bourgeois du Caire"، الجزء 2، ص 67 - 68.

(2) المرجع الأخير، ص 324. كل العالم الإسلامي يعلم قصة الفقيه الحنبلي الشهير، ابن تيمية، الذي سجن مرتين لأنه عارض سلطة المالك، ومات في أيلول 1328م، في غياهب سجن قلعة دمشق أثناء حكم الملك الناصر.

(3) المرجع الأخير، ص 432.

(4) المرجع الأخير، ص 437.

(5) المرجع الأخير، ص 451.

صفحات كتب التاريخ حافلة بأصداؤها. ففي عام 1401م، طرد الناس الحاكم. وفي سنة 1439 - 40م، اندلع صدام، عندما أجبر الحاكم تجار الخراف على بيعه خرافهم بسعر منخفض، فاقترحوا منزله ورجعوا عماليكه بالحجارة. وفي سنة 1475 - 76م، هوجم وكيل وأحرق منزله⁽¹⁾. وفي 1481م، تظاهر تجار سوق الطواقي وسوق جقمق في الجامع الأموي، فتطلب الأمر تدخل رماة السهام من المماليك. وفي سنة 1488م، طعن رسول كان يحمل مرسوماً سلطانياً يعلن ارتفاع ضريبة سمسة الحبوب، وأحرق جثمانه. وفي سنة 1492 - 93م، انهال الناس على الحاكم رجماً بالحجارة، أثناء اضطرابات عنيفة. وفي قرى الغوطة حيث لم يكن الوضع أفضل، كان يتكرر اغتيال الأمراء، وكانت بعض القرى، مثل المزة، تتميز بمعارضتها العنيدة لسلطة المماليك. ومع التدهور الاقتصادي والتفكك السياسي في نهاية القرن الخامس عشر، ظهرت في دمشق عصابات مسلحة من الشباب "الزُعر" خَلَفَتْ عصابات "الأحداث" التي ظهرت قبل عصر المماليك. كان الزعر يضعون على رؤوسهم عمامة مميزة تسمى القرعاني وملابس خاصة، وكانوا ينحدرون في الدرجة الأولى من قرى الغوطة وأحياء ضواحي دمشق: الشاغور والقيبيات وميدان الحصى وباب المصلى والسويقة وغيرها، حيث كان يعيش سكان من أصل ريفي، قد عمدنوا حديثاً ويجدون صعوبة في التأقلم مع حياة المدينة. ومع أن الحي لم يكن عامل تضامن أساسي، بل كان مجرد قاعدة "تجنيد" جغرافية، كان لكل حي عصابة خاصة به. يترأس العصابة "الكبير" أي الرئيس. ويتنحل كثير من رؤساء العصابات ألقاباً رنانة من مثل: الشريف أو السيد أو القُرشي، وهي ألقاب تخص نسل النبي (ﷺ)، وإن كان من المستحيل أن نجد في دوافعهم أي دافع ديني. لقد كانوا في الأساس أفراداً ينحدرون من الطبقات المحرومة التي يكثر فيها أيضاً المجرمون واللصوص. كان الزُعر يؤدون دوراً مزدوجاً وفقاً للظروف والطريقة التي بمقتضاها تنجح السلطات المختلفة في دمجهم في خططها: فكانوا لا يترددون للإبقاء على حياتهم في ابتزاز السكان ونهبهم أثناء الاضطرابات، وفي نفس الوقت كانوا في أغلب الأحيان حماة الأحياء الشجعان من جشع محصلي الضرائب، ومن طغيان المماليك، إذ كانوا يتصدون لهم أحياناً في معارك منظمة حقيقية. ففي عام 1498 - 99م قتلوا، بدفع من العلماء، أكثر من ثلاثين شخصاً في الصالحية، منهم رئيس الشرطة، وأكثر من مئة شخص داخل المدينة. وفي عام 1501 - 1502م أعلن

(1) الوكيل بالاشتقاق اللغوي هو مندوب مفوض بمباشرة دعوى قضائية بالنيابة عن الموكل. ثم توسع مفهوم كلمة الوكيل وأصبح يشير إلى إداريين من نماذج مختلفة.

الحاكم الجديد قانصوه البرجي حل الزعر وجبى ضرائب استثنائية. فنظم زعر ميدان الحصى والشاغور المقاومة وهاجموا الحامية، وتدخل زعر الأحياء الأخرى، وتوسعت المعركة حتى القبيبات. فأرسل قانصوه بعد أن عجز عن إعادة النظام شيوخاً وفقهاء للتفاوض. وهكذا ألغيت الضرائب غير الشرعية، وتطلب الأمر اغتيال عديد من الشخصيات الرسمية حتى قبلت السلطة الاعتراف بالزعر. وبعد وقت قصير عادت الاضطرابات بسبب فرض ضرائب جديدة، فاعتقل كبراء الشاغور وميدان الحصى، وهاجم المالك الشاغور، حيث أقيمت المتاريس، وخاض زعر الأحياء الأخرى المعركة، وأصبح جزء كبير من الشاغور فريسة لآلسنة اللهب. وأخيراً، عاد النظام، ومنح الحاكم عفواً عاماً، لكنه أعدم كبير الشاغور.

كان الزعر لا يترددون أبداً في الاتحاد لمواجهة المالك، ولكنهم كانوا في أغلب الأحيان عصابات متنافسة، ولم يكن القتال بين الأحياء من الأمور النادرة⁽¹⁾. ففي سنة 1480 و1485م تقابل حي القبيبات وميدان الحصى. وفي 1488م دخل زعر الشاغور في نزاع مع زعر حي المزابل وميدان الحصى. كانت الأحياء - إضافة إلى دوافع المعارضة العديدة - تُجرّأ إلى المشاركة في حروب الحكام الداخلية: ففي عام 1389م، قُسمت دمشق بين أنصار السلطان برقوق والأمير المتمرد منطاش وفق نهج لشق الصفوف يحمي ذكرى الخصومة القديمة بين القيسيين واليمنيين. وفي عامي 1497 - 98م، سببت البليلة بين زعر القبيبات وميدان الحصى الذين انضموا إلى الأمير المتمرد أقيردي، وبين زعر الصالحية والشاغور الذي وقفوا مع السلطان، خراب هذه الأحياء بما صحبها من نهب وحرائق، إلى أن وصل الحاكم الجديد كرتباي الأحمر الذي شتت الزعر ومنعهم من حمل السلاح. لم تنج قرى الغوطة من النزاعات؛ ففي عام 1516م، ضاعفت داريا والمزة المناوشات مجددين نزاعاتهم العشائرية القديمة. يبدو الزعر في كثير من الأحيان، برغم أعمالهم التي كانت أحياناً لمصلحة السكان - على الأقل في نظر المؤرخين الصائبي الرأي والحريصين على النظام والاحترام - بشوشين مرحين بلا رادع ولا دين،

(1) لم تكن النزاعات بين الأحياء خاصة بزمان المالك ولا بمدينة دمشق ولا حتى بالعالم الإسلامي، فهي على ما يبدو شر استوطن في عديد من المدن المسلمة. كتب ياقوت الحموي (1179 - 1229م) من قبل في حديثه عن أصفهان، عن النزاعات بين الشيعة والأحناف: "كانت النزاعات تنتشر من حي إلى حي، وكان المنتصر يحرق ويحرب كل ما ينتمي إلى المهزوم، دون الاهتمام بطائفتهم الأصلية ولا حتى بروابط الرحم". Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la Perse et des contrées adjacentes, Paris, 1861AD, p. 46.

لا يتراجعون أمام أي شيء مهما كان، فلقد كتب عنهم ابن طولون عام 1505م: "لقد كانوا جسورين جداً، ولا يدفعون أبداً ثمن أي شيء (...) يمضون وقتهم في الأكل وشرب الخمر وارتكاب كل أنواع الفسق والإجرام⁽¹⁾". تارة كانوا يجبرون التجار على دفع "ضريبة حماية"، وتارة أخرى يضعون في الدكاكين عملاء لهم يبيعون باسمهم ويجبرون الزبائن على الشراء بأسعار باهظة جداً. في عام 1497-98م اضطر الأمراء أنفسهم خوفاً من الزعر إلى وضع أموالهم داخل القلعة لتكون في مأمن منهم. وفي سنة 1516م، لما بدا انهيار نظام المماليك وشيكاً، صارت جسارتهم بلا حدود يقفون عندها: فنهبوا دمشق، وأشعلوا النيران في الأحياء التي رفضت أن تدفع إتاوة لهم، وانضم عديد من الوجهاء، خائفين منهم أكثر من خوفهم من وصول العثمانيين، إلى جيش المماليك المنسحب ورحلوا معهم إلى مصر. في شبكة معقدة جداً من التحالفات المتداخلة التي لم يكن حلها سهلاً، حاولت السلطة المركزية والحاكم والأمراء والأحزاب المتنوعة، أن يحولوا لمصلحتهم هذا العنف، الذي لم يكن أحد على ما يبدو راغباً في التخلص منه. وأغلق المماليك، كما هو واضح، أعينهم حتى لا يروا ابتزازاتهم، وجندوهم وضموهم إلى مشاة جيشهم، وجعلوهم يسيرون أرتالاً عند الاستعراض العسكري في الميدان الأخضر بوصفهم قوات مساعدة، واستخدموهم لإنجاز أكثر المهمات دناءة، وكانوا يكرمون رؤساءهم بعد شراء ولائهم، وذلك بمنحهم أثواب الشرف وبتزويجهم أحياناً بخادماتهم.

يضاف إلى عنف الزعر في السنوات العشر الأخيرة من الحكم، عنف جماعات أطلق عليها في كتب التاريخ لقب "النسر"^(*) أو "الحرامية". لقد كانت عصابات حقيقية إجرامية منظمة، يقودها أفراد بلقب "كبير" أو "رئيس". كانوا يهاجمون المزارات المنعزلة والمقابر، ويغزون الأحياء ويفرضون عليها إتاوات حماية، وينهبون مساكن الأغنياء ويغتصبون النساء في الحمامات. وكان هناك ما يسمى "الحرافيش" الذين ينتمون إلى أدنى الطبقات الاجتماعية، وهم متسكعون كان التسول مصدر رزقهم الوحيد؛ ولم يكن لهم من مأوى إلاّ التخشييات والمساجد والحمامات، والشوارع في كثير من الأحيان، حيث كان يموت كثير منهم برداً في فصول الشتاء القارسة⁽²⁾. كانت تصرفاتهم وحياتهم

(1) LAOUST, H., op. cit. p. 113.

(*) النسر: قطعة من الجيش تمرقّد الجيش الكبير (ج: مناسر).

(2) أثناء مرور Falix Fabri بمصر عام 1483م، رأى في الواقع: "أماكن واسعة ينام فيها الفقراء ليلاً في العراء؛ ويجلسون فيها أثناء النهار يقومون ببعض الأشغال. وهناك كانت تلد النساء الفقيرات أمام الناس إلاّ إذا أمرت بعض النساء لتغطيتهن

الهمجية تثير استياء المسلمين المحترمين. يظهرون فجأة في المساجد، فيملؤون المكان بشتائمهم إلى أن ينجح كرم بعض المصلين بفرض الهدوء عليهم مؤقتاً. وكانوا أيدي عاملة رخيصة جداً، ويُطْلَبون أحياناً، مقابل درهم واحد في اليوم، لأداء أكثر المهام صعوبة مثل: نقل وحرق جثث ضحايا الطاعون ليلاً، واصطياد وطرد الكلاب الشاردة من المدن، والتعامل مع المواد النجسة كالجيف والفضلات المختلفة. كانوا أثناء أوقات العصيان يتعاونون مع الزعر وينهبون براءة فائقة: ففي دمشق، عام 1299 - 1300م، ما أن أُعلنت هزيمة المماليك أمام قازان، حتى نهبوا البساتين، وهاجموا مساكن الأغنياء، فاقتلعوا منها الخشب المنقوش والأبواب والحجارة الملونة والرخام وبلاط الأرضية والنوافذ، إلخ... وقد نُظِّموا في جمعيات دينية صوفية، منذ بداية القرن الخامس عشر على أبعد تقدير، وكان يرأسهم شيوخ، يتمتعون أحياناً ببعض المعرفة الإسلامية، ولكنهم في أغلب الأحيان ينحدرون من أسر مشعوذة أو من حفّاري القبور أو خدام الحمامات. لم يكن هؤلاء الشيوخ متدينين كثيراً فتجدهم أحياناً يشتبكون مع إخوتهم في الجمعيات الدينية المحترمة الذين جاؤوا يطالبون بإغلاق أماكن تعاطي الخمر والحشيش. ويبدو أن نظام الحاكم، الذي لم يكن يتراجع أمام أي شيء لاستيعاب كل مراكز القوة، كان يمنحهم أحياناً لقب "السلطان" ويقبل مشاركتهم في بعض الحفلات الرسمية، مما كان يثير استياء المؤرخ ابن طولون الذي كان يرى في هذا خرقاً لم يسبق له مثيل لنظام التشريفات السياسية والعسكرية⁽¹⁾.

لم يعان الدمشقيون فقط من طغيان السلاطين وقسوة المماليك، بل عانوا أيضاً من نزوات الطبيعة من: زلازل وفيضانات وجفاف وأوبئة وحرائق وأسرارٍ من الجراد، إلخ... ولما كان التمرد أمام هذا التحالف دون فائدة، توكل الناس على الله وانتظروا تدخلاً ربانياً. ففي عام 1284م، بعد أمطار شديدة جداً، وصل الماء إلى باب الفراديس، فكسر الأقفال وخرب كل ما وراءه، وتهدم عديدٌ من المباني، وأصيب الناس، كما يذكر المقرئزي، بخسائر لا تحصى⁽²⁾. وفي سنة

بحجابهين". Masson, R.P.J., op. cit. Pp. 567-568. ذكر ابن جبير وجود أناس بلا مأوى في دمشق: "خصص أحد الرجال الذين يهيم نيل ثواب الله وفقاً للفقراء المضطرين إلى الإقامة في الجزء الشرقي من الجامع الكبير الأموي، لأنهم لا يملكون منزلاً يسكنونه"، (Voyages, t. VI, p. 339).

(1) LAOUST, H., op. cit. p. 95 وانظر أيضاً LAPIDUS, I.M., op. cit. p. 182.

(2) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 72.

1283-1284م كانت الفيضانات عنيفة بحيث جرف السيل في طريقه معسكر قلاوون⁽¹⁾. وفي سنة 1316-1317م سببت الفيضانات خسائر فادحة في الغوطة وفي المدينة: إذ دُمر ثمانمئة وخمسة وتسعون منزلاً وسبعة عشر فرناً وإحدى عشرة طاحونة وأربعون بستاناً وواحد وعشرون مسجداً وخمس مدارس، في حين اقتلعت الريح سقف كنيسة يونانية⁽²⁾. وكان الجفاف كثير الحدوث يدفع الناس إلى أداء صلوات الاستسقاء التي كان من النادر أن تعطي أي نتيجة. ففي عام 1291م، أقيمت مراسيم دينية بفاصل شهرين دون أن تحرز أي نجاح، ولقد كتب الجزائري: صعد عدد من المغاربة (جماعة مصرية) إلى مغارة الدم في جبل قاسيون، ومكثوا فيها ليالي وأياماً يقرؤون القرآن ويبكون ويتضرعون إلى الله، ومازالوا على هذا الحال إلى أن قبل الله دعواتهم وأنزل المطر⁽³⁾. وبعد ثلاث سنوات، أصاب الجفاف البلد مرة أخرى، فذهب كل الناس على الأقدام ومعهم النائب إلى مسجد القدم لأداء صلاة الاستسقاء⁽⁴⁾. وفي آذار 1397م لم يبق في نهر بردى ماء يكفي لتشغيل طاحونة واحدة، وتلفت معظم المحاصيل⁽⁵⁾، "فاجتمع الناس في عديد من المساجد يدعون الله لينزل عليهم المطر. واستمرت الابتهالات والدعوات والصلوات عدة أيام، وخشي الناس من غضب الله، وأعلن عدد منهم توبته (...)، واجتمعوا في سهل المزة يطلبون المطر. وجاء الفقهاء مشياً على الأقدام حاملين المصاحف والرايات، في حين كان الناس يصلون، ويدعون ويتضرعون إلى الله. وخرج كبير حجاب الملك وكل أمراء دمشق، كلهم على الأقدام، وخرج أيضاً العلماء والشيوخ والفقهاء، معظمهم عراة الأقدام، يبكون بخشوع وخضوع. وغادر عديد من الشباب مدارسهم، وقد وضعوا مصاحفهم على رؤوسهم وهم يتضرعون إلى الله. كان الحشد كبيراً جداً، لا يعرف عدده إلا الله، ووقف الناس بين يدي الله كما سيقفون أمامه يوم القيامة، بانتظار رحمته وكرمه"⁽⁶⁾. وكذلك كان وباء الطاعون كثير الوقوع، وفي كل مرة، إذا صدقت الأرقام، كان عدد الموتى كبيراً

(1) Cf. SAUVAGET, J., "Les Trésors d'or" de sibt ibn al-Ajami, PIFD, Beyrouth, 1950AD, p. 9.

(2) المرجع الأخير، ص 9.

(3) Cf. SAUVAGET, J., La chronique de Damas d'al-jazari, année 689-698 H. Bibliothèque de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes, fascicule 294, Paris, 1949AD, pp. 18-19.

(4) المرجع الأخير، ص 42.

(5) ابن سمر، المرجع نفسه، ص 263.

(6) المرجع الأخير، ص 263 و 272.

جداً. ففي عام 1348م تجاوز عددهم في دمشق ألف ضحية في اليوم⁽¹⁾، وفقاً لما ذكره ابن بطوطة⁽²⁾ عند مروره بدمشق قادماً من الصين، وقد سُمي هذا الطاعون "الطاعون العائلي" لأنه كان لا يصيب أبداً فرداً واحداً، ولكن كل أفراد العائلة⁽³⁾. وقد دُكِرَ حدوث العديد من الزلازل، كزلزال عام 1303م، الذي، كما ذكر المقرئ، أصاب كل الشرق الأدنى: "لم تتوقف الأرض خلال عشرين يوماً عن الاضطراب، ولقي عدد لا يحصى من الناس حتفهم تحت الانقراض. ففي دمشق، انشقت جدران الجامع الأموي (...)"⁽⁴⁾. وكانت الحرائق مدمرة غالباً لأنها تنتشر بسهولة كبيرة في هذه المدينة التي دُكرت قابليتها للاشتعال عدة مرات. ففي عام 1282م، في اليوم الواحد والعشرين من شهر رمضان، اندلعت النيران وأحرقت عدداً من المباني، من بينها سوق الكتّيبين، فخسر أحد تجارها، وكان اسمه شمس الدين إبراهيم الجزيري، خمسة عشر ألف كتاباً⁽⁵⁾. وكان عام 1396م عام شؤم، إذ كتب ابن سسر: في الخامس من أيار عام 1396م، نشب حريق لم يُر مثله قط، وصل إلى سوق الحرير، جنوب الجامع الأموي، وسوق الصابون وسوق القطن وسوق الدقاقين وسوق الفراء، وقيصرية الصوف وقيصرية العبيّ وقيصرية ابن البابي إلى عديد من الخانات، واحترقت جميع ممتلكات التجار الأوربيين تقريباً، لأنهم كانوا يقطنون في هذه الخانات، وخاصة في قيسارية ابن البابي. وفي نفس العام اندلعت نيران أشد من الأولى في حي كان يقع خارج الأسوار، والتهمت ألسنة النار قيسارية يلبغا⁽⁶⁾ وقيصرية الطواشي، وانتشرت حتى سوق القشاشين، الواقع عند أسوار القلعة حتى باب الفراديس. ووقع باب الفرج هو الآخر فريسة ألسنة النار "ولم يمنع انتشار الحريق داخل المدينة إلا أسوارها والنهر"⁽⁷⁾. وفي 13 تشرين الأول 1479م التهمت النيران ثمانية أسواق ثم الجامع الكبير الذي تحطمت مئذنته الغربية⁽⁸⁾.

(1) Cf. SAUVAGET, H., "Les Trésors d'or"..., p. 10.

(2) ابن بطوطة، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 228-229.

(3) المرجع الأخير، ص 10.

(4) المقرئ، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 216-217.

(5) المرجع الأخير، 1، ص 54.

(6) انظر إلى المرجع التالي، ص 343.

(7) ابن سسر، المرجع نفسه، ص 227-228.

(8) SAUVAIRE, H., op. cit., t. VII, 2, 1896AD, p. 226.

كانت سورية من الناحية الإدارية في عهد المماليك مقسمة إلى ست نيابات، نيابة دمشق، وحلب، وطرابلس، وحماة، وصفد، والكرك، ولا بد أن تضاف إليها أحياناً، حسب التعديلات، نيابة غزة. كانت نيابة دمشق أكبرها وأهمها، انتشرت سلطتها من شمال حمص إلى شمال الكرك، وعلى الساحل من صور إلى الجليل، وشرقاً حتى تدمر. تصدرت دمشق منذ حكومة تنكر النيابات السورية الأخرى باستثناء نيابة الكرك التي كونت، باسم مقاطعة مؤاب، حكومة مستقلة تتبع لها الشُّوبك. كان نائب دمشق ممثل السلطان وشخصية مهمة، تحيط به فخامة تعادل فخامة حكام القاهرة⁽¹⁾. كتب جان تنو Jean Thénau عام 1512م: "أمير دمشق غني وسلطته كبيرة جداً ويأتي في مقدمة الأمراء الآخرين"⁽²⁾. لقد كان يتمتع باللقاب لم تكن تُمنح أحداً غيره. وكانت المراسلات الرسمية توجه إليه بلقب: "صاحب السلطة الجلية في دمشق المحروسة"، مكتوبة على ورق أحمر، وهو اللون الرسمي الخاص بالسلطان. كان البيمارستان النوري والجامع الأموي تحت إدارته المباشرة، وهذا يعني مسؤولية كبيرة نظراً لأهمية الأوقاف المتعلقة بهما. كان تسلّم الحكام لوظائفهم مناسبة لإقامة حفلات رسمية فخمة. فإذا كان هدف هذه الاحتفالات تذكير كل الناس، ابتداءً بصاحب العلاقة نفسه بمكانته، لقد كان الهدف الرئيسي منها هو فرض الحاكم لهيبته على عامة الناس الذين، كما يذكر العالم بأصول حكم المماليك، خليل الظاهري، "كانت أعينهم بحاجة إلى أن تبهرها الأبهة والفخامة"⁽³⁾. ففي يوم وصوله، "كان يتسابق لاستقباله القضاة، وكل الحامية، والموظفون وشيوخ الطوائف المختلفة، وممثلو الأحياء. وما إن يصل النائب إلى باب القلعة ويضع رجله على الأرض، حتى يقوم كبير الحجاب وأربعة منهم بنفس الفعل، ويتقدم نحوه قائد القلعة ومتولي الحُجَر والتقيب، فيأخذون منه سيفه ويفكّون حزامه. فيصلي حيثُذ ركعتين بعد أن تحرر وسطه، ويضع حزامه حول الرقبة، على حين يحمل والي الحُجَر سيفه. ثم يُقدم له اللواء الملكي، فيقبّله، ثم يقبّل الأرض، ويركب فرسه من جديد، ويدخل قصر الحكم. هناك ينصت واقفاً لقراءة مرسوم تعيينه بحضور القضاة والمُشايير (يقرؤه أمين سر الدولة وهو قائم على منصة أقيمت لهذا الغرض)، وفي كل مرة كان يُذكر فيها اسم جلالة السلطان أو يمدحه فيها السلطان في المرسوم، كان كبير الحجاب يطلب منه تقبيل الأرض. ثم

(1) GAULMIER, J., La Zubda... de Khalil al-Zahiri, p. 217.

(2) THENAUD, J., op. cit., p. 114.

(3) GAULMIER, J., op. cit., p. 99.

يقوم بتوزيع أثواب الشرف على الموظفين تبعاً لمرتبة كل واحد منهم⁽¹⁾.

كان السلطان هو الذي يعين كبار الموظفين، الذين كان بعضهم مكلفاً فقط بالتجسس على النائب، منهم: الحاجب ورئيس الشرطة، وهو الشخصية الثانية بعد النائب، والذي ينوب عنه في حال غيابه، والوزير وأمين سر الدولة وحاكم الجيش، ومدير الشؤون السلطانية، وأمين خزانة الدولة، والقضاة الأربعة الكبار، وخطيب الجامع الأموي وغيرهم. وكانت الوظائف الوسطى مثل: أمين الخزانة وقاضي الجيش ومفتي دار العدل والمحاسب وغيرهم، تُمنح وفقاً للظروف: تارة يمنحها النائب، وتارة أخرى يمنحها السلطان. وكان من مهمة النائب تعيين الوظائف الثانوية فقط مثل: شيخ الشيوخ ورئيس مديري الخانقاهات، وخطباء المساجد، باستثناء الجامع الأموي، ووظائف التعليم، ومسؤول البريد ومدير المسابك ورؤساء الجمعيات مثل: رئيس الأطباء ورئيس الكحالين ورئيس الجراحين إلخ، وطبعاً، مثلي أهل الذمة - لأن وظيفتهم، كما يوضح القلقشندي: "تأهفة في النظام الإداري، وبعبارة عن بلاط السلطان"⁽²⁾ - : بطريك اليعقوبيين وبطريك الملكيين، ورئيس اليهود، وممثل رئيس السامريين المقيم في نابلس، في دمشق.

كان تعيين قائد القلعة، الذي لم يكن للنائب أي سلطة عليه، يُقرّر مباشرة في القاهرة بمرسوم سلطاني، وذلك للحد من طموح نواب دمشق الذين كانت مكانتهم تدفعهم بلا شك إلى التمرد⁽³⁾. لقد كان، نظرياً في الأقل، قاعدة في التجزئة وتحقيق التوازن والمراقبة المتبادلة، وقد لاحظ فصل السلطات هذا عديداً من المسافرين الأوروبيين، ولكن فعاليتها كانت مع كل هذه الاجراءات نسبية. فمن أصل أربعة وثمانين حاكماً لدمشق، درس غاستون ويت Gaston Wiet سيرتهم، تمرد تسعة وعشرون. وواصل من هؤلاء التسعة والعشرون اثنان، "لاجين" و"الشيخ"⁽⁴⁾، إلى السلطة، وأعدم أربعة عشر، واستطاع خمسة الحصول على عفو السلطان، وشُجن خمسة ثم أطلق سراحهم ليموتوا

(1) Cf. SAUVAGET, J. "Les Perles choisies" d'Ibn al-Athir pour servir à l'histoire de la ville d'Alep, Beyrouth, 1933AD, p. 203-204.

(2) GAUDEFRY-DEMOMBYNES, M. سورية في زمن المهاليك، ص 144 وص 167-168.

(3) كان يطبق مبدأ توازن السلطات نفسه في حلب وصفد.

(4) المرجع في الأعلى، ص 257-283.

على أسيَرَتهم، ونجح اثنان في الهرب إلى الخارج⁽¹⁾. كان على قائد القلعة المكلف هو كذلك بالتجسس على النائب ألا يتردد عند الحاجة في معارضته بقوة السلاح واعتقاله عند اللزوم. إن استقلالية قائد القلعة تؤكد النقوش: فالكتابات المنقوشة وقت بناء أو ترميم القلعة لا تذكر إلا اسم السلطان، وأحياناً اسم القائد، ولكنها لم تذكر قط اسم النائب⁽²⁾. كان يجري اختيار قائد القلعة من الأمراء البحرية (كُلُّ منهم أمير مئة)، من ضباط الحرس الذين كانت تأتي رتبته مباشرة بعد البرجيين. وكان يلقب بنائب قلعة دمشق، ويباع السلطان قبل تسلمه منصبه، كما كان عليه، كما ذكر القلقشندي، أن يكون "حاذقاً ومتنبهاً ونشيطاً ويقظاً وخبيراً بأنواع الاستحكامات المتنوعة والقتال والتحصينات والدفاع عن المواقع"⁽³⁾. كان يبدأ مرسوم تعيينه بذكر محاسن القلعة، مما يبرهن على أهميتها في أعين السلطة. "أخت قلعة القاهرة"⁽⁴⁾ التي هي "خطيبة السلطان"⁽⁵⁾، لقد كانت بالطبع أفخم وأقوى وكذلك أكثر ارتفاعاً لدرجة أن أبراجها كانت "تتجاوز البروج الفلكية"⁽⁶⁾، وكانت أيضاً من أهم السجون السياسية للإمبراطورية، حيث نُفذ العديد من أحكام القتل، وحيث كانت تفرع ضربات الطبول كل أربع دقائق لتساعد الخفراء على البقاء متيقظين طوال الليل لمنع حصول أي إحداها. وعند نجاح محاولة هرب، كان القائد يُعدم وخاصة عند الشك في تواطئه.

إضافة إلى احتوائها على خزانة المدينة⁽⁷⁾، كانت القلعة، التي كان تزويدها بالماء يوفره نهر بانياس وآبار احتياطية، تضم مستودعاً كبيراً للأسلحة، من سيوف وأقواس وسهام ورماح وزرد، ودروع من الحديد مكسوة بالدباج، وفؤوس ومنجنيقات، وأنواعاً مختلفة من العتاد، ومخزناً للملابس ومستودعات مليئة بالمؤن من فُرْنِيَّات (بسكويت) وطحين وزبد وعسل وعلف للمواشي، لتزويد القلعة بما يلزمها في حال الحصار. لقد أكسبتها مقاومتها الشديدة، وصمودها مراراً عديدة في

(1) WIET, G., Notes d'épigraphique syro-musulmane, Syria, 1926AD, p. 156.

(2) R.C.E.A., t. 12, n° 4476-4477, 4690, 4692 ; t. 13, n° 4796, 4925, 4927, 4928, 4929, 14, n° 5325.

(3) ذكرها wiet G., Notes d'épigraphie... سورية، 1926م، ص 174.

(4) GAUDEFRY-DEMOMBYNES, M., op. cit., p. 145.

(5) المرجع الأخير، ص 145.

(6) المرجع الأخير، ص 145.

(7) SAUVAIRE, H., op. cit., t. VII, 3, 1896AD, pp. 427-428.

وجه المغول، مجدداً لا مثيل له، فدمشق تدين لها دون أدنى شك ولأسوارها طبعاً بتسميتها "بالمحروسة". لم يخطئ المراقبون وعلماء الجغرافيا والتاريخ والمسافرون حين اعتبروا القلعة أكثر المباني أهمية بعد المسجد الكبير. كتب أبو البقاء عنها: "من روائع دمشق قلعتها، بما تتمتع به من اتساع وجودة في البناء. فهي في الواقع واسعة اتساع مدينة". وقد كتب فون سودهايم Von Sudheim: "في المدينة قلعة للسلطان محصنة تمام التحصين يسكن فيها ملك دمشق"⁽¹⁾. وقد كتب جاك دو فرون Jacque de Vérone "توجد بالقرب من المدينة قلعة تقع هي أيضاً في السهل. إنها قوية جداً ومنيعة ومربعة الشكل. يبلغ عرضها من كل الجوانب عرض رميتي منجنيق. وهي مزودة على كل ضلع من أضلاعها بخمسة أبراج عالية وعريضة جداً. تحيط بها أسوار عالية جداً، مبنية بحجارة ضخمة مثل أسوار المدينة"⁽²⁾. وقد ذكر الإيطالي غوتشي Gucci: "دمشق محمية جداً بأسوارها وخنادقها المحيطة بها، وفي داخلها قلعة يبلغ محيطها ميلاً تقريباً ومزودة أيضاً بخنادق عريضة وأسوار عالية"⁽³⁾. وكتب برترندون دو لا بروكيه Bertrandon de la Broquière: "يوجد فيها أيضاً قصر جميل جداً وكبير وقوي، مبني على أرض منبسطة ومحاط بخنادق جميلة كبيرة وعميقة"⁽⁴⁾. وأضاف مشيراً إلى فصل السلطات بين نائب دمشق ونائب القلعة: "لا يسمح قائدتها الذي يعينه السلطان أن يدخلها سيد المدينة (النائب)، وإن كان أقوى منه وهو سيد سورية ومصر بعد السلطان، ذلك لأنهم كانوا فيما مضى يتمردون على السلطان، لذا لجئ إلى هذه الطريقة لحراسة القصر"⁽⁵⁾. أما لودوفيكو دي فارتيما Ludovico di Varthéma فردد رواية أسطورية لم يفتأ المسافرون الأوروبيون يسردونها إلى منتصف القرن السابع عشر. تذكر هذه الأسطورة أن الذي بنى القلعة مملوك من فلورنسة، كافأه السلطان - من المحتمل أن يكون بيبرس - على إنقاذه من الموت مسموماً، ومنحه دمشق فبنى فيها القلعة: "لذا نرى في كل زاوية من هذا القصر أشكال أسلحة

(1) VON SUDHEIM, o. cit., p. 360.

(2) VERONE J., de, op. cit., p. 291.

(3) FRESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., op. cit., p. 142.

(4) LA BROUQUIERE, B., de, op. cit., p. 38.

(5) المرجع نفسه، ص 38.

فلورنسا منقوشة على ألواح الرخام⁽¹⁾. يحيط بالقصر خنادق جميلة وكبيرة وأربعة أبراج حصينة مزودة بمدفعية ثقيلة (...). وخصص لحراسة القصر في كل من الأبراج الأربعة عدد من الرجال، لا ينسون بكلمة حتى في الليل، ويوجد في كل برج طبل نصف "أخرس" يُضرب الطبل فترد عليه الأبراج الأخرى كل بدوره⁽²⁾.

نظم الممالك لنقل الأخبار - تهديدات الفرنجة والمغول والعثمانيين وتمرد الحكام - بأسرع وقت ممكن بين العاصمة والمقاطعات الأخرى في الإمبراطورية، شبكة اتصالات ثلاثية: بريد الخيل، وبريد الحمام، وأبراجاً ترسل إشارات ضوئية بالنار. كان النوع الأول يعرف بالبريد، وهو تعريب للكلمة اللاتينية veredus التي تعني فرس البريد، وهو خلف نظام كان يستخدم في الإمبراطوريات الأخمينية والساسانية والبيزنطية والرومانية، أدخله إلى العالم الإسلامي الخليفة الأموي معاوية، وقد استخدمه الوليد، كما يذكر العمري، لجلب الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق⁽³⁾. توقف البريد عن العمل خلال آخر قرنين من الخلافة العباسية - بأمر من السلطان السلجوقي ألب أرسلان عام 1063م⁽⁴⁾ - ثم أعيد استخدامه بأمر من السلطان بيبرس بسبب الحروب مع الصليبيين والمغول، اتباعاً لنصائح مستشار في شؤون الخلافة. كان دور البريد مهماً، لذلك خصص بيبرس له مبالغ كبيرة، وأعد الطرق، وأماكن تزويد المياه ونظاماً كاملاً مكوناً من محطات لتبديل الخيول، مزودة بالمؤن والعلف والخ. لم يتوقف هذا البريد، الذي كان في خدمة الحاكم فقط وكان يموله كاملاً من نقوده الخاصة، عن التطور والتحسين منذ السنوات الأولى للقرن الرابع عشر. وهكذا كانت مراكز كل النيابات والقلاع الرئيسية والمدن المتاخمة للحدود والمدن الساحلية على اتصال منتظم بقصر السلطان. يذكر المقرئ أن الأخبار تصل من مصر إلى دمشق حيث كان البريد تحت سلطة "قائد البريد" في أربعة أيام، في حين كان يحتاج المسافر لقطع هذه المسافة بالسرعة العادية في ذلك الزمن إلى أكثر من ثلاثة أسابيع.

وكذلك الأمر فيما يتعلق ببريد الحمام الذي كان يستخدم أثناء الحكم العباسي والذي استخدمه نور الدين بكثرة، فلقد تحسن وتطور، خاصة باتجاه حدود جبال طوروس والمدن الساحلية السورية. ولقد

(1) كانت زهرة السوسن من ضمن مجموعة شعارات العديد من السلاطين.

(2) VARTHEMA, L, DI, op. cit., pp. 11-14.

(3) GAUDEFRY-DEMOMBYNES, M, La Syrie à l'époque des Mamelouks, Paris, 1923AD; p. 241.

(4) SAUVAGET, J., La poste aux chevaux dans l'Empire des Mamelouks, Paris, 1941AD, p. 11.

طور كذلك نظام البريد بالإشارات الضوئية، الذي كان هو أيضاً موجهاً نحو الساحل خاصة لتدارك خطر نزول القبارصة المتوقع دائماً. قامت قلعة دمشق بدور كبير في إرسال هذه الإشارات النارية، وهذا ما نستنتجه من قراءة الفقرة التالية من مرسوم تعيين نائب القلعة والتي تنص على: "أنَّ برجها الذي توقد فيه النار هو الذي يوجه نحو السلام أو الحرب، إنه ينقل أوامر الملوك بالإشارات النارية"⁽¹⁾.

أسند إلى البريد في أثناء حكم السلطان الناصر محمد خدمة لا علاقة لها به في الأصل وهي: نقل الثلج من دمشق إلى القاهرة لتبريد مشروبات السلطان. ولقد كان لهذا الأمر قدر من الأهمية، حتى إن المقرئ لم يغفل ذكره في سرده للأحداث في تلك السنوات التي "لم يطل فيها الثلج في سورية"⁽²⁾. لقد كان الثلج يُحمل "من موانئ دمشق وبيروت وصيدا"⁽³⁾، ثم ينقل إلى دمياط بحراً، ومنها إلى بولاق عن طريق النيل. ثم يصل إلى قصر السلطان على ظهور البغال ليوضع في داخل صهاريج⁽⁴⁾. وما إن انتشرت الخانات على طول طريق البريد حتى عم استخدام الطرق من قبل القوافل وأصبح الثلج ينقل براً. يذكر خليل الظاهري أنه بين بداية شهر حزيران ونهاية تشرين الثاني كانت تغادر دمشق كل يومين خمسة جمال محملة بالمادة الثمينة "يقودها رجل خبير في فن حفظها ويرافقها ساعي بريد يحمل الأوامر إلى المحطات"⁽⁵⁾. كان كل شيء محسوباً، فكان يُعنى في كل محطة "بسته جمال حتى يكون هناك دائماً واحد احتياطي ليحل محلَّ الجمل الذي قد يمرض"⁽⁶⁾. ولقد كانت العناية بكل هذه المحطات - وعددها ثمانية وفقاً لخليل الظاهري - من مهام ولاية دمشق. لقد أثار هذا النقل الفريد للثلج فضول المسافرين الأوروبيين، إذ كتب فرنسيسكان بوججيبونسي Franciscaïn Poggibonsi عام 1348: "دمشق باردة جداً، يدوم الثلج على الجبال المجاورة لها إلى

(1) GAUDEFROY-DEMOMBYNES, M., La Syrie..., p. 145 في القرن الرابع عشر، أثار بريد الحمام فضول الرحالة جان دومانفيل وكتب عنه في كتابه "رحلة حول الأرض"، Voyage autour de la terre, Paris, Les belles Lettres, 1993AD, p. 89 وقد لفت انتباهه أيضاً بريد الخيل في الإمبراطورية المغولية الذي قال عنه: إنه "عُرِفَ رائع ومفيد"، المرجع نفسه، ص 182 - 183.

(2) المقرئ، المرجع نفسه، ص 2، ص 69 (عام 1298م على سبيل المثال).

(3) GAULMIER, J., op. cit., p. 198.

(4) المرجع الأخير، ص 198.

(5) المرجع الأخير، ص 198.

(6) المرجع الأخير، ص 198.

نهاية شهر حزيران؛ يُنزل الثلج بالإبل إلى المدينة حيث يباع في شهري أيار وحزيران؛ وهم يحتفظون به في مغارات ويضعونه في مشروباتهم"⁽¹⁾. ويذكر Florentin Sigoli إنهم لا يستخدمونه فقط لتبريد المشروبات، بل لتبريد الفواكه أيضاً، التي كانت "لذيذة جداً إذا تُلِّجت"⁽²⁾. ولكن ليس كل الثلج ثلجاً، فالمسألة ليست مسألة درجة حرارة، وليست كل الثلوج صالحة لهذا الاستخدام. ففي عام 1297م، لما كان الثلج غير متوفر في دمشق، كما يذكر الجزري، ذهب الناس يبحثون عنه في جبال طرابلس في "مخازن للثلج قديمة تعود إلى زمن الفرنجة، ولم تُفتح منذ عشرين سنة"⁽³⁾، ولكن الثلج الذي وجد فيها "لم يكن يُبرَّد كما كان يبرد الثلج الذي كان يستخدم عادة في دمشق"⁽⁴⁾ لدرجة أن الناس، كما يذكر الجزري، أصبحوا يفضلون تبريد الجعة بتركها في الخارج ليلاً⁽⁵⁾.

لم يصمد البريد وملحقاته أمام الانحطاط الذي حل بالإمبراطورية منذ بداية القرن الخامس عشر. ففي السنوات التي تلت وفاة السلطان الناصر محمد سُجل إهمال كبير في خدماته. وعجّل في انهياره ثورات الأمراء وإفلاس الخزنة المستمر وغزو تيمورلنك الذي أفرغ المحطات السورية من خيولها والعاملين عليها. ومع أنه استمر استخدام البريد في المناسبات حتى في العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر، فإنه لم يعد البريد منذ حكم المؤيد (1412 - 1421م) من مؤسسات الدولة تهتم بعمله بانتظام. وعرف بريد الحمام نفس النهاية، إذ ذكر خليل الظاهري ما حصل من هدم لكل أبراج الحمام الموزعة على طول الطريق بين القاهرة ومصر العليا⁽⁶⁾.

عرفت دمشق، ثانية مدن الإمبراطورية في زمن المهاليك، برغم التمردات والعصيان والكوارث الطبيعية، ويرغم غزو تيمورلنك، حقبة ازدهار كبير. من فون سدهايم Von Sudhem إلى جان تنو Jean Thénau، ومن الدمشقي إلى خليل الظاهري، وكل الكتاب والمسافرين والعلماء في الجغرافيا والتاريخ،

(1) POGGIBONSI, Fra Ni., da, op. cit., p. 78 من الجدير بالذكر أن الكلمة الفرنسية "sorbet" سوريه مشتقة مؤكداً من التركية "شوريه" وهي من أصل عربي "شراب"، ومن المعلوم اليوم أن فن صناعة السوربيه من اختصاص دمشق التي تشتهر به.

(2) FRESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., op. cit., p. 83.

(3) الجزائري، المرجع نفسه، ص 70.

(4) المرجع الأخير، ص 70.

(5) المرجع الأخير، ص 70.

(6) gaulmier, J., op. cit., p. 197.

جميعهم - حتى قبيل الكارثة النهائية - يتغنون بدهشة غير متصنعة بحدائقها ومياها ومنازلها ويرون فيها صورة عن الوفرة والجمال. فهي في نظر ابن بطوطة: "تفوق بجمالها وكمالها كل المدن الأخرى"⁽¹⁾. وفي نظر الدمشقي: "تشبه عصفوراً أبيض اللون يحط في سهل واسع ويشرب المياه التي تأتيه الواحدة تلو الأخرى"⁽²⁾. في وسط هذه الجوقة من المديح، لم يصمت الأوروبيون، إذ كتب جاك دو فيرون Jacques de Vérone: "إنها كبيرة وقوية، تشبه الجنة، وتبدو كأنها فاقت كل المدن الأخرى"⁽³⁾. ويقول بوغجيونسي Poggibonsi عنها: "المدينة الجليلة الملكية"⁽⁴⁾، أما في نظر لودوفيكو دي فارتما Ludovico di Varthema: "من الصعب وصف جمالها وكرمها"⁽⁵⁾، وفي نظر برترندون دو لابروكيير bertrand de la Broquière: "هي مدينة كبيرة وفسحة فيها بساين جميلة جداً لم أر ما يماثلها اتساعاً على الإطلاق، وفيها أفضل الفواكه وفيض من المياه"⁽⁶⁾. وفي عام 1495م، قال عنها فرا سوريانو Fra Suriano: "إنها كثيرة السكان وغنية وصناعية، وملينة بالأشياء الجيدة"⁽⁷⁾. وبعد سبعة عشر عاماً، حين كانت الإمبراطورية تنزف وتعيش آخر أيامها، كتب عنها جان تنو Jean Thénau: "مدينة دمشق، التي سُمح لي بدخولها، هي أفضل مدن السلطان بعد القاهرة، إنها جميلة جداً، ومكان للترهات وخصبة لدرجة أن خصوصيتها يصعب تصديقها. فيها نهران أطلق عليهما فيما مضى إيانا وفرفر، يسقيان الأرض الغنية جداً بالقمح والدوالي التي تعطي العنب في كل فصول السنة، والزيتون والبرتقال والرمال وكل أنواع الأشجار"⁽⁸⁾.

ومع هذا لم تكن دمشق كالقاهرة، بالحجم على الأقل. ففي دمشق دُهِش المسافرون، الأوروبيون خاصة، وأعجبهم هذه المدينة: "بابل" الحديثة، وعجزوا عن وصف عظمتها. قال مشولام بن ر. مناحيم Meshullam ben R. Menahem: "إن روما وميلانو وبادو وفلورنسة (...) وأربع مدن أخرى

(1) ابن بطوطة، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 188.

(2) الدمشقي، المرجع نفسه، ص 26.

(3) VERONE, J., de, op. cit., p. 291.

(4) POGGIBONSI, op. cit., p. 77.

(5) VARTHEMA, L., di, op. cit., p. 11.

(6) LA BROQUIER, B., de, op. cit., p. 35.

(7) SURIANO, Fra F., op. cit., p. 165.

(8) THENAUD, J., op. cit., pp. 113-114.

لا تحتوي مجتمعة نصف غناها وسكانها"⁽¹⁾. وقال فيليكس فابري Félix Fabri: "إنها كبيرة جداً، حتى إنه ليس بإمكان روما أن تتسع ضمن أسوارها للمساجد (...). الموجودة فيها"⁽²⁾. ولكن ما أدهشهم قبل كل شيء هو إضاءة المدينة التي لا بد أنها كانت من آثار ازدهارها ورخائها. كتب فابري Fabri: "يضيء في الليل الكثير من المصابيح في أبراج ومساجد هذه المدينة، بحيث يكون كافياً في جميع الأحياء ويبدد الظلام، وتبدو المدينة ليلاً كأنها شعلة من الذهب لكثرة أنوارها (...). ويصرّح النصراني الخبراء الذين شاهدوا هذا أنه ما من ملك في العالم النصراني كان بمقدوره أن يدفع من وارداته كلفة الوقود الذي تستهلكه مصابيح هذه المدينة وحدها"⁽³⁾. إضافة إلى اتساعها وكل ما عداها فإن دمشق تبدو لا مثيل لها. وبدون مراوغة قال مشولام بن ر. مناحيم الذي زارها عام 1481م: "لا توجد مدينة تضاهي دمشق جمالاً، ففي كل النواحي تفوق دمشق القاهرة وتزدهرها"⁽⁴⁾ قبل أن يقول: لم يُر مثيلُ الجمالها وللبضائع الموجودة فيها"⁽⁵⁾.

إن الازدهار ونمو السكان، الذي غالى الأوروبيون إلى حد ما في تقديره بمئة ألف نسمة⁽⁶⁾، أديا في زمن المماليك إلى توسع كبير في الضواحي، التي قال عنها ابن بطوطة عام 1326م دون تحديد دقيق: "غطت الضواحي مساحات واسعة"⁽⁷⁾ فقد كانت تمتد، كما ذكر جاك دو فرون Jacque de Vérone بعد عشر سنوات، "حول القلعة والمدينة بعرض يزيد عن ميل ونصف من كل الجهات"⁽⁸⁾. وقد ذكرها أيضاً فلورنتان غوشي Florentin Gucci عام 1386م: "تكونت في كل جوانب المدينة (...). أحياء فيها من المنازل والسكان ضعف ما نجد في داخل الأسوار. مدينة دمشق وضواحيها مليئة جداً

(1) Cf., ADLER, E.N., op. cit., p. 166.

(2) Cf. MASSON, R.P.J., t., p. 527 يؤكد فابري أن فيها أكثر من ستين ألف مسجد، وأربعة عشر ألف حي "تغلق كل مساء بحواجز وأقفال وسلاسل تربط الحواجز بعضها ببعض، ويفصل بينها أبواب حديدية، لمنع اندلاع النزاعات بين الناس"، المرجع نفسه، ص 527.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 528 - 529.

(4) Cf. ADLER, E.N., op. cit., p. 199.

(5) المرجع الأخير، ص 199.

(6) LA BROQUIERE, B., de op. cit., p. 38.

(7) ابن بطوطة، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 229.

(8) VERONE, J., de, op. cit., p. 229.

بالمنازل والسكان، وهما معمورتان حتى إنه ليس فيها مكان فارغ (...). وفي هذا الشأن يقال: إن عدد سكان دمشق وضواحيها زاد عن عدد سكان فلورنسة بثلاث مرات⁽¹⁾. في الحقيقة، وبرغم ما أكده المسافرون، لم يكن تطور الضواحي متماثلاً في كل الجهات. يسمح علم الآثار - ونخص بالذكر بناء المساجد الكبيرة، التي كانت تبنى عندما يصل توسع الأحياء إلى عتبة تجعل وجودها ضرورياً - بتأريخ وتحديد هذا النمو بكثير من الدقة. ففي الشرق، خارج الباب الشرقي، لا وجود لأي ضاحية. فكما كان عليه الوضع في الزمن الروماني، لا مجال للتوسع في تلك المنطقة الواقعة بين المدينة المسورة والغوطة. وعند أطراف الواجهة الشمالية، نشأ حزام من الأحياء، ومسجد لكل حي: مسجد السقيفة في باب توما؛ ومسجد الأقباص في باب السلام، ومسجد الجوزة والمعلق في حي العقبيّة، ومسجد المؤيد وبلغا في حي "تحت القلعة" "أسفل القلعة"؛ ومسجد الورد في حي سوق ساروجه. وفي غرب المدينة مسجد السنجقدار وتنكز. وفي الجنوب الغربي على طول طريق مصر، وفي حي السويقة مسجد التوريزي. وفي الجنوب، على طول طريق حوران والحجاز في حي الميدان، مساجد منجك والكريمي والتيّبيّة. وعلى نفس الطريق، في جنوب ميدان الحصى، كانت قرية القبيّبات منفصلة حين ذاك. وفي الشمال، عند سفح جبل قاسيون، حي الصاحية - الذي كان يشير إليه جاك دوفرون Jacques de Vérone، بلا شك، عندما كتب: "أكثر من ألف منزل من منازل المدينة كانت مبنية مقابل الجبل"⁽²⁾ - جُهِزَ هو أيضاً بمساجد جديدة منها مسجدا الأفرم والجديد. ضم الحي في نهاية عهد المماليك ما يقارب خمسمئة مسجد، وعديداً من الجوامع الكبيرة، والعشرات من المآذن، والمئات من المدارس، وعشرة خانات وعشرين حماماً والعديد من الأسواق، كان أحدها، كما يذكر ابن بطوطة دون أن يحدد اسمه، "لا مثيل لجماله"⁽³⁾. وهكذا امتدت الضواحي في الدرجة الأولى على طول الطرق المؤدية إلى الحجاز ومصر وبيروت لتحيط بالجزء الغربي للمدينة المسورة، هذا الجزء الذي من الواضح أن الإيطالي غوشي Gucci عندما كتب: "ويمتلئ مركز المدينة، أي نصف المدينة المسورة على الأقل، كل يوم بالناس، واقفين أو ذاهبين آيين، كما نرى في ميادين السباق لدينا، أو كما يحصل عندنا حين يجتمع الناس ليوم القديس الأكبر. فهناك كثير من الناس حتى إنه من المضني السير في

(1) FRESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., op. cit., p. 142.

(2) VERONE, J., de, op. cit., p. 291.

(3) ابن بطوطة، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 230.

الشوارع في أي ساعة من ساعات النهار"⁽¹⁾. لقد كانت كثافة السكان في المدينة المسورة، في الواقع، من الكبر بحيث إن الأبنية التي بنيت في عهد المماليك كانت قليلة إذا ما قارناها بالمدة التي سبقت حكمهم. من الأبنية الرئيسية للعهد المملوكي: دار الحديث "تنكز"، وضريح زوجة تنكز، والمدرسة الجوهريّة والجمجمة والخضرية، ومآذن هشام والقالبي و"سبيل الخزنة".

لئن بقي الجزء الغربي للمدينة المسورة، بقلعته والجامع الأموي والقسم الأكبر من الخانات والأسواق ودار السعادة (دار عدل نور الدين قديماً، التي تحولت إلى مقر إقامة الحاكم الرسمية) قلب دمشق النابض، لقد كان التوجه واضحاً في الزمن العثماني والمعاصر، لدفع عدد كبير من الأنشطة خارج الأسوار. فقد أقيم سوق الخيل في أسفل الواجهة الشمالية للقلعة، على الضفة اليسرى لبردى، في مكان يسمى تحت القلعة، يحده حيان هما السويقات وساروجه حيث كان يقطن العديد من الضباط. أصبح هذا السوق الضروري للجيش المؤلف من الفرسان خاصة، مركزاً كبيراً للحياة العسكرية، حيث كان الحاكم يمر مرتين في الأسبوع، الاثنين والجمعة، أثناء استعراض الجيش الذي كان يسبق جلسته القضائية الرسمية، فيتفقد دواب الركوب والأسلحة والتجهيزات، ويعلن قراراته، ويمنح المكافآت والإقطاعات. وبالتدريج غادرت المدينة المسورة كل المهنة التي كانت تبحث عن زبائن عسكريين، كصناع السلاح والخياطين وصاحبى الخانات، إلخ.، والذين كانوا يعيشون من تربية الخيل، وصناع السروج وتجار القش والعلف، إلخ.، وانتقلت كذلك بيوت البغاء ومستودعات الخمر والحشيش وأماكن أخرى سيئة السمعة من المدينة المسورة لتستقر على أطراف سوق الخيل، حيث يوجد إلى اليوم الحدادون والنحاسون وصُناع السروج والبرادع والأدوات. ويبدو أن سوق الخيل أصبح - كما يبين وصف أبي البقاء اللاذع - من الأماكن المفضلة لدى الدمشقيين، وغداً مكاناً للنزاهة والتسلية العديدة: "من أماكن دمشق الجميلة: "تحت القلعة"، فهو مكان لتزويد الغرباء بالضروريات، وساحة مكشوفة يجتمع فيها الناس، تحيط بها المنازل، وتطل عليها القصور، وتمتع النظر بكل ما يرغب فيه الإنسان وكل ماتشتهيه الشفاه والألسن. وتحت القلعة يوجد سوق البطيخ حيث تباع كل فواكه المدينة، وسوق للأقمشة التي جرت العادة على قياسها بالذراع، وسوق للأقمشة المخيطة للرجال وآخر للنساء، وسوق للفرو، وسوق لتجار السلع المتنوعة الرخيصة الثمن، وسوق

(1) GUCCI, G., op. cit., p. 142 من الممكن ملاحظة الشيء نفسه اليوم في الأماكن نفسها.

النحاسيات، وسوق السكاكين، وسوق تجارة القرب، وسوق الدباغة، وسوق الأقمشة وعدة الخيل، وسوق الخيل والبغال والدواب، وسوق الإبل وقطعان الماعز. ونجد هناك أيضاً سوق الرثاث (الألبسة العتيقة) وسوق التبن، وسوق النجارين والخراطين. ويحتوي أيضاً على سوق تجار الفاكهة المجففة، وسوق الزيت حيث تباع كل البضائع، وسوق صنّاع الغراييل وتجار الزجاجيات. أما الساحة، فمن الصعب رؤية أرضها بسبب العدد الكبير لمُصلحي الأشياء المختلفة الذي نجده هناك. ويختلط بهم المصارعون والمهرجون والعاملون في مختلف أنواع الترفيه، والقصاصون ورواة الحكايات الشعبية (حكواتيون). هناك نجد كل ما يسر السمع ويحقق رغبات الروح. ويستمر هذا الوضع ليلاً ونهاراً بلا انقطاع، ولكن يصبح الازدحام أشد في المساء، ويستمر الناس بالسهر حتى "الثلاث الأخير من الليل، وتفرق الطبول طوال اليوم من وقت لآخر"⁽¹⁾.

كانت المتزهات والأماكن الترفيهية تمتد على طول نهر بردى وقنواته، عبر ممرات يظللها شجر الحور، من سوق الخيل إلى أعماق الغوطة، حيث بساتين النعيم وحيث يذهب الدمشقيون، وليس فقط الأقل ثقى، ليتحللوا من قيود الإسلام الشديدة. ووفقاً لخليل الظاهري، الذي يرى في دمشق مدينة من "أجمل مدن العالم: تقع دمشق في أروع موقع (...)، وتغمرها بركات السماء في كل الأزمنة"⁽²⁾، إذا كان أجمل مكان في المدينة هو الميدان الأخضر "المحاط بقصور تثير روعتها الدهشة"⁽³⁾، فإن محيطها "يقدم للراغب نزاهات ممتعة من كل جهاته"⁽⁴⁾. والمرء لا يمكنه إلا أن "يحار عند الاختيار"، ويزودنا خليل الظاهري بقائمة بالأماكن التي تزار: متزهات جبلّية، والريوة، والعاشق والمعشوق، وجزيرة بين النهرين، وتريمة السلطان، والمُقَسَّم، والشرف الأعلى والشرف الأسفل، ونخوت وبيباعه وعنابه"⁽⁵⁾. أما سيغولي من فلورنسة Florentin Sigoli فقد أكد: "هناك، خارج دمشق بساتين جميلة جداً فيها كل أنواع الفاكهة التي يمكن للمرء أن يحلم بها، وهناك كثير من

(1) SAUVAIRE, H., op. cit., t. VII, 2, 1896AD, p. 427-428.

(2) GAULMIER, J., op. cit., p. 66.

(3) المرجع الأخير، ص 67.

(4) المرجع الأخير، ص 67.

(5) المرجع الأخير، ص 67.

الأشجار حتى إنها لا تسمح عندما تكون موزقة للشمس بالنفاذ، يستمتع فيها الرجال والنساء"⁽¹⁾. أما جاك دو فرون Jacque de Vérone، الذي أحصى عدد بساتينها فوجدها تزيد عن ثلاثين ألفاً، فلقد كتب: إنَّ فيها "أشجار البرتقال والليمون والتفاح السكري والرمان اللذيذ والعنب والتين والخضّر ومنتجات أخرى نافعة لجسم الإنسان"⁽²⁾.

كانت دمشق، مثل القاهرة وكل المدن الإسلامية، تتألف من تجاور أحياء تسمى أحياناً بالحارات أو المحلات أو أختات. كان هناك في بداية القرن السادس عشر نحو سبعين حياً داخل المدينة المسورة، وما يقارب الثلاثين في الضاحية الكبيرة "الصاحية". كانت الأحياء السكنية تمتد خارج المناطق التجارية، حيث تتمركز الأسواق والخانات والدكاكين، وقد زودت بمسجد وحمام وبضعة دكاكين، وأحياناً بضعة حرفيين من النّسّاجين عادة. وإذا كان من الواضح أن التضامن في أحياء اليهود والنصارى ذو طابع ديني، فلقد كان التضامن في أحياء المسلمين يقوم على عدة عوامل متنوعة ومتداخلة حسب الظروف. إذ تختلط الأصول العرقية - التركمان والأكراد والفرس والمغاربة والقيسيون واليمنيون، إلخ. - بالأصول الريفية والانتفاء إلى أحد مذاهب السنة الأربعة أو المذهب الشيعي. فكانت ضاحية الصاحية محسوبة على المذهب الحنبلي، في حين كان باقي سكان المدينة شافعيين في المقام الأول. وإذا كانت الطبقات المسورة تفضل وتشغل الجزء الغربي من المدينة المسورة والضواحي الغربية والشمالية الغربية، فلا شيء يدل على أن مستوى الغنى كان - كما هو عليه الحال في الغرب المعاصر - عامل فصل اجتماعي حاسماً. وكان تجانس بعض الأحياء، وخاصة تلك التي تجمع مهناً متنوعة، من دباغين وصباغين ونحاسين وبائعي حبوب وغيرهم، قائماً على طبيعة النشاط الاقتصادي، حتى في غياب جمعيّات مهنية حقيقية. وفي كل الأحوال، وبرغم عدم توفر معلومات دقيقة عن تنظيم الأحياء، فقد كان يدعم تضامنها حس المسؤولية الاجتماعية والإدارية والجزائية. وكان أحد الأعيان الرئيسيين الحامل للقب الشيخ أو العريف، والذي كان تعيينه وخلعه من مهام الحاكم، هو المسؤول والمدير وممثل الحي عند الحكومة في آن واحد. فإضافة إلى مهمته الأساسية وهي تقسيط وجبّي الضرائب وخاصة جباية الضرائب الاستثنائية، كان من مسؤولياته

(1) SIGOLI, S., op. cit., p. 181-182.

(2) VERONE, J., de, op. cit., p. 292.

صيانة المباني العامة وطرق المواصلات والقنوات وغيرها، وذلك بالتعاون مع غيره من الوجهاء والأمراء والعلماء والتجار الأغنياء. وكان أيضاً يقوم بمهام الشرطة، فهو المسؤول عن منع الجرائم والبحث عن الهاربين والمجرمين، وكان مسؤولاً أيضاً عن الأمن ليلًا وتطبيق القواعد الصحية، ومراقبة فتح الدكاكين وإغلاقها، وكان عليه أيضاً عندما تقتضي الحاجة أن يجمع البغاء وتناول الخمر والحشيش. وفيما يتعلق بالقصاص، كان التضامن في الأحياء قوياً جداً، وهو في هذا امتداد لتلاحم العرب العشائري، ولكن على حساب السكان، الذين كانوا في كل مرة يطالبون دون جدوى بمعاقة المذنبين فقط دون ذويهم. فقد كان تعرّف المذنبين - إذا صح عديدٌ من الروايات التي يصعب تصديقها في كثير من الأحيان - أمراً نادر الحصول: وهكذا في إحدى ليالي عام 1295م، هاجم نحو أربعين رجلاً يحملون الشموع مسلحين بالسيوف والمراوات دكاناً، وضربوا المتسكعين الذين انضموا إليهم ظناً منهم أنهم في موكب عرس، ونهبوا البضاعة بعد أن قتلوا شخصاً على الأقل، إلّا أنهم، كما يروي الجزري، "نجموا جميعاً دون عقاب"⁽¹⁾.

في حي النصارى، كان البطريك الذي يقوم جزئياً بدور الشيخ⁽²⁾ هو المسؤول عن تطبيق الإجراءات الجائرة، التي كانت الدولة تتخذها من وقت لآخر وتحت ضغط رعايا المسلمين، على أهل الذمة من مثل: وضع عمامة زرقاء⁽³⁾، ومنعهم من امتطاء الخيل أو البغال وحمل السلاح، ومنعهم كذلك من بناء مباني أعلى من مباني المسلمين وقرع الأجراس وشراء عبيد مسلمين وغير ذلك⁽⁴⁾. حسب رأي فون سدهايم Von Sudhem، كان في دمشق عام 1340م ما يقارب ستة عشر ألف منزل للنصارى. وفيها يهود، لأنهم كما يؤكد فون سدهايم "يشربون الخمر ويبيعونه للنصارى، إذ كان مباحاً لهم ومحرماً على المسلمين"⁽⁵⁾. لم يكن نصارى المشرق من الكاثوليك بل من اليعقوبيين والملكيين والأرثوذكس وغيرهم. وأنهم كانوا يدعون بأنهم "أقرب للحقيقة من نصارى الفرنجة" فإن هؤلاء كانوا يعتبرونهم كافرين ومنشقين. ويصل الأمر بالفرنسيين سكان المتواضع بوغجيونسي

(1) SAUVAGET, J., La Chronique de Damas d'al-Jazari... Paris, p. 51.

(2) المقرئ، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 178.

(3) كان على اليهود وضع عمامة صفراء وعلى السامريين وضع عمامة حمراء.

(4) المقرئ، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 178-179.

(5) VON SUDHEM, op. cit., p. 361. إن الرقم 16000 منزل الذي ذكره VON SUDHEM مبالغ فيه كثيراً.

Poggibonsi إلى الشكوى من أنه برغم عدد الكنائس النصرانية الكبير في دمشق "ما من كنيسة خاصة باللاتينيين"⁽¹⁾. وكان على رأس الطائفة اليهودية أيضاً مسؤول مكلف بتمثيلها، هذا ما يؤكد مشولام بن ر. مناحيم Meshullam ben R. Menahem الذي عدّ في دمشق أربعمئة وخمسين زعيم أسرة يهودية، "جميعهم أغنياء وتجار محترمون"⁽²⁾ وكان يرأسهم "يهودي حكيم ومحترم وورع، وهو الطبيب يوسف R. Joseph"⁽³⁾.

برغم انتقال عديد من التجارات والمهن إلى ما تحت القلعة، بقي "حي الأعمال" الكبير في جنوب الجامع الأموي. وإضافة إلى روايات المسافرين، شهدت على الازدهار الاقتصادي في دمشق في زمن المماليك حركة بناء المباني التجارية الواسعة. تذكر المصادر أنه في المدة بين أول مبنى مملوكي، وهو الذي بناه النائب تيرس الوزيري عام 1260 - 1260م في ضاحية العقبة، وآخر مبنى مملوكي، وهو الذي بناه آخر نائب "الأمير سييبي" في حارة الفولون خارج باب الجابية، أنشأ المماليك مئة وتسعة وأربعين خاناً أو قيسارية مقابل أربعة وعشرين مبنى أثناء الحكم الأيوبي، وأربعة وثمانين أثناء الحكم العثماني⁽⁴⁾. بقي من هذه الأبنية ثلاثة فقط، وهي في حالة سيئة. أولها خان الجوّاري الواقع في الجانب الشمالي للشارع الطويل، حيث كان يقام سوق العبيد أيام الاثنين والخميس، وهو من الممتلكات التي صودرت عند خلع تنكز من مركزه عام 1339م، وقد حوّل في الزمن العثماني إلى مصبغة، وفيه اليوم مطبعة ودكاكين لبيع الأقمشة وعديد من الحرف المتنوعة⁽⁵⁾. وثانيها خان جقمق الواقع هو أيضاً في الجانب الشمالي للشارع الطويل، والذي بناه الأمير سيف الدين جقمق، نائب دمشق بين 1419 و 1421م. للخان بوابة ضخمة - وهي أقدم بوابة خان سالمة في دمشق - وله باب من مصراعين من الخشب المغطى بالوراح من الحديد مثبتة بالمسامير، يقضي إلى ممر مقبب ينتهي بفناء مستطيل جُرد اليوم من حوضه المركزي. يحيط بالفناء ثمانية عشر مخزناً في الطابق الأرضي، واثنتان

(1) POGGIBONSI, op. cit., pp. 79.

(2) ADLER, Jewish Travellers, p. 199.

(3) المرجع الأخير، ص 199.

(4) YAHYA, F., op. cit., p.220.

(5) المرجع الأخير، ص 273.

وعشرون غرفة في الطابق العلوي. وثالثها خان الشاغور الذي ذكره المؤرخ ابن طولون⁽¹⁾ والذي تعرض لتعديلات كبيرة أثناء تمردات عام 1502م، وقد شغلت اليوم منازل سكنية طابقه العلوي من جانبيه الشرقي والغربي.

كانت هذه الخانات الحضرية، التي كان يديرها أحياناً أصحابها وأحياناً أخرى مديرون أو وكلاء، وفقاً لمصلحة منشآت أخرى أو أعمال خيرية متنوعة. وهكذا كانت واردات خان جقمق تقسم إلى ثلاثة أقسام، الأول مخصص للمؤسس وخلفه، والثاني لصيانة ضريح المؤسس، والثالث للمحتاجين. وكان جزء مهم من الواردات يُصرف على صيانة المبنى مع ضريحه، وعلى حمامه ودكاكينه الخارجية وإسطبلاته وخزاناته، في حال وجودها، وذلك بشراء متعلقاته من زيت للمصابيح وشباك وحبال وسطول وغيرها، وعلى رواتب الموظفين من أئمة ومؤذنين وبوابين وكتاسين وحمالين وسائسين وغيرهم. كان البواب، الذي يسكن عادة في غرفة تطل على بهو المدخل، يسهر على أمن الأماكن والبضائع المودعة، ويقوم بتأجير الغرف والدكاكين، ويجمع الأجرة ويبدل العملة، و يقوم أيضاً عند غياب الحارس - الذي يسكن عادة في غرفة عالية فوق المدخل تطل على الشارع بنافذة أو اثنتين - بالحراسة الليلية. ومع أن المعلومات التي حصلنا عليها عن قيمة الأجور مبهمة ومجزأة، فإنها تشهد بما يكفي على العائد الممتاز لبعض المنشآت: كانت القيسارية التي بناها عام 1347م، خارج باب الفرج، النائب سيف الدين يلبغا تؤجر سنوياً بمبلغ قيمته أربعة وثمانون ألف درهم⁽²⁾. يُضاف إلى هذه الواردات الشرعية، واردات أخرى غير معترف بها، ففي بعض الأحيان كان الخان يستخدم للبقاء، ويقوم الوكيل بمهمة قواد مشهور في كثير من الأحيان ويقتطع من المومسات⁽³⁾ رسوماً كبيرة. وفي هذه الخانات أيضاً كانت تجبى الضرائب المفروضة على البضائع: 2.5% من القيمة على البضائع المحلية، و 10% على البضائع المستوردة، وهذه الـ 10% تجبى عادة في خان مخصص لها، وهو خان الجمارك الذي حل في زمن المماليك محل دار الوكالة في الأزمنة السابقة. أما التجار الأوربيون، فكانت تفرض

(1) LAOUST, H., op. cit. p.90.

(2) YAHYA, F., op. cit., p. 178 كان يجبى هو من يجبى أجرة قيسارية يلبغا وهي أكبر الأجور، وكانت أجرة خان النام تصل إلى 70000 درهم في السنة، كان يخصص منها 45000 لمدرسة في القاهرة، ص 178.

(3) المرجع الأخير، ص 182.

عليهم ضرائب أثقل: رسم القبول يعادل دوكا⁽¹⁾ للشخص الواحد، ورسم بنسبة 2% على النقود العينية التي كانت في حوزتهم، وضريبة بنسبة 20% من قيمة البضائع.

كانت الأسواق والخانات القائمة بنشاطات واحدة تُدار من قبل "العُرفاء" الذين لم يكونوا - على عكس نقباء رابطة النقابات الأوربية في القرون الوسطى - ممثلين لأهل الحرفة، وإنما للسلطة التي كانت تعينهم، ويسهرون على مصالحها وخاصة الضريبة منها. وكان يساعد العريف نقيب وكاتبان، يشغلون هم أيضاً وظيفة الحكم والخير ومساعد المحتسب. وكانت أبواب كل سوق تغلق ليلاً، ويجرسه في الليل والنهار حارس⁽²⁾، ويوضع تحت إمرة شيخ⁽³⁾ من وجهاء الحرفة يعينه الحاكم، وهو مكلف بتطبيق النظام ومنع الغش، والعمل أولاً على جَبِّي الضرائب مثل العريف والمحتسب.

كان كبار التجار - الذين كوّنوا الطبقة الغنية القوية والمحترمة، والذين كان بعضهم أكثر غنى في بعض الأحيان من الأمراء الذين وكلوهم بإدارة أعمالهم - ملاكين كباراً يملكون الأراضي والأسواق والخانات والقيصريات والدكاكين والحمامات. وكان عدد كبير منهم يسكن قصوراً بمعنى الكلمة. أحصى جان تينو Jean Thénau في القاهرة في نهاية عهد المماليك مئتي تاجر غني يملك الواحد منهم أكثر من مليون "صراف" ذهب، وألفي تاجر يملك الواحد منهم أكثر من مئة ألف "صراف" ذهب⁽⁴⁾. كان وضعهم الاجتماعي وتواطؤهم مع السلطة والأمراء - إذ شغل بعضهم وظائف مرموقة في دوائر الدولة من ضمنها وظيفة القاضي والمحتسب - يسمحان لهم بالتهرب من دفع الضرائب، والقيام بنشاطات كثيرة مبنية على الاحتيال وتنافي الشرع أحياناً، مثل تجارة الخمر أو الخنازير مع التجار الأوربيين. وكان منهم تجار كبار للعبيد الذين كانت مهمتهم - علينا ألا ننسى هذا - ضرورة جداً لتجديد "نخبة" النظام، التي ليس لها تألّق بين أعيان المماليك.

بقيت الإسكندرية مع ما كانت تعاني منه من الخراب - إذ دُمرت عام 1365م وكانت تقريباً "خربة وغير مسكونة"⁽⁵⁾ في عام 1495م - أكثر الموانئ نشاطاً في الإمبراطورية، وباباً كبيراً لعبور

(1) الدوكا الواحدة تعادل (شَرْفِي) واحد.

(2) Cf. ADLER, E.N., op. cit. P.199.

(3) ابن الصقاعي، المرجع نفسه، ص218.

(4) THENAUD, J., op. cit., p. 48.

(5) SURIANO, Fra F., op. cit., p. 198.

التجار الأوربيين، ومنهم تجار البندقية الذين كانوا يشغلون مكانة راجحة. يذكر فرا سُرِيَانُو Fra Suriano الذي زارها عام 1495م: "كان فيها لكل أمة من أمم النصارى فندق (...)، ولكن لما كان عدد تجار البندقية أكبر من غيرهم، كان لهم فندقان، فندق كبير وآخر صغير"⁽¹⁾. كان تجار البندقية يتمتعون في الواقع بامتيازات تجارية خاصة بهم تعود إلى الزمن الأيوبي. فالاتفاقية التي عقدت عام 1207م، في خضم الحروب الصليبية، أذنت لهم بإقامة وكالة تجارية دائمة في حلب، وهي أول وكالة أوربية في المشرق. وفي عام 1302م، بعد أحد عشر عاماً فقط من سقوط عكا، طلب سفيرهم غيدو دو كانالي Guido de Canali تجديد الامتيازات القديمة. وفي عام 1345م أنشؤوا تعاوناً سنوياً منتظماً مع الإسكندرية. وابتداءً من عام 1366م، وإثر سياسة بيز الأول المغلوطة تاريخياً بشنه للحرب المقدسة، رست أساطيلهم في بيروت رأساً، وعقدوا معها بعد عشرة أعوام صلات منتظمة. في نهاية عهد المماليك، قويت الروابط التي تربط البندقية بمصر إثر الاكتشافات البرتغالية التي هددت تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط: إذ منذ نهاية خريف عام 1502م أرسل صاحب السمو، قنصل دمشق السابق بينيدتو سأنتو "Benedetto Sanuto" سفيراً إلى السلطان قانصوه الغوري ليحثه على مقاومة الاعتداءات البرتغالية. يؤكد هيمنة البندقية على التبادلات الأوربية مع الإمبراطورية - إذا كان هذا الأمر بحاجة لتأكيد - ما لاحظته فيليكس فابري Félix Fabri عام 1482م إذ كتب: "تجار البندقية هم في الواقع أكثر النصارى نفوذاً لدى المسلمين؛ فهم لا يخافونهم، بل ويقومون بتأديبهم"⁽²⁾، وهذا ليس بشيء يستهان به إذا أخذنا بعين الاعتبار طبائع المماليك. لم تشهد دمشق - التي جعل تعصب سكانها بلوغها صعباً - إقامة أول قنصل أوربي وهو فرنسيسو دندلو Francesso Dandello من البندقية، حتى العام 1384م.

كانت دمشق، وهي مركز تجاري كبير في المنطقة، تستورد بضائع سورية كلها مثل فاكهة ضواحي دمشق، ويقول حوران، وأرز منطقة الحولة وزيت نابلس، وحليب ويقول منطقة البقاع.

(1) المرجع الأخير، ص 199. وكذلك POGGIBONSI, op. و Meshullam b. R. Menahemtd ADLERM OP. CIT., P. 162. يشهد على أهمية تجارة الإسكندرية دو تودل de Tudèle، في القرن الثاني عشر إذ يقول: "في الإسكندرية تجارة كبيرة للتوابل المستوردة من الهند كان يشتريها التجار النصارى".

(ذكرها Wiet G., Marchands d'épices sous les sultans mamluks, p. 94).

(2) MASSON, R.P. J., op. cit. P. 697.

وكانت تُصدَّر إلى جهات المملكة الأربع منتجاتها الحرفية والأيدي العاملة المؤهلة: عمال البناء والرخام والفسيفساء وغيرهم، ومنتجاتها الطبيعية كالخشب. وهكذا عند تنفيذ الأعمال داخل قلعة حلب، أحضروا من منطقة دمشق الخشب اللازم⁽¹⁾، كما أوضح ابن الشحنة.

أما ما يتعلق بالتجارة العالمية، فلقد كانت البضائع تصل إلى دمشق عن طريق القوافل من كل بلدان المشرق: بلاد آشور والهند وبلدان عديدة أخرى، كما كتب جاك دو فيرون Jacques de véronه في عام 1335. فكان يأتيها عدد هائل من الإبل المحملة بكميات كبيرة جداً من البهارات والزنجبيل والقرفة وتوابل كثيرة أخرى⁽²⁾. وفي جدة، شاهد برترندون دو لابروكير Bertrandon de la Broquière قدوم التوابل بالسفن لتحملها الإبل باتجاه دمشق⁽³⁾. وكانت تستقبل من آسيا الوسطى وبلاد القوقاز العبيد، إذ كانت تجارتهم دون أدنى شك من أكثر التجارات ازدهاراً. ولقد خصص لهذه التجارة⁽⁴⁾ خان ذكره Bertrandon de la Broquière: "أعترف أنني رأيت في دمشق فتاة سوداء تباع، عمرها بين خمسة عشر وستة عشر عاماً. عرضت في الشارع عارية تماماً إلا البطن وما دونه، من الأمام والخلف"⁽⁵⁾. وكانت دمشق تعيد تصدير كثير من البضائع عن طريق موانئ صيدا وطرابلس وبيروت خاصة. وتأتي التوابل في الدرجة الأولى طبعاً كتلك التي رآها Meshullam في عام 1481م في بيروت، "آتية من دمشق لتنتقل باتجاه البندقية"⁽⁶⁾. وتُصدَّر كذلك منتجاتها الحرفية الشهيرة: الزجاج والمعادن والخزف، والحلي الذهبية والفضية والنحاسية، والأقمشة الفاخرة كالحرير والديباج والملابس المطرزة والقماش الدمشقي الموشى، وغيرها. في عام 1503م، رأى لُدوفيكو دي فارتينا Ludovico di

(1) SAUVAGET, J., Les Perles choisies, d'Ibn ach-Chihna ... p. 49.

(2) VERONE, J. de, op. cit., p. 291.

(3) LA BROQUIERE, op. cit., p. 58.

(4) المرجع في الأعلى، ص 333 و 266.

(5) LA BROQUIERE, op. cit., p. 135. في نهاية القرن السابع عشر، يروي الإنكليزي جوزيف بتس، وهو قوي الملاحظة، بيع العبيد في القاهرة: "في هذه المدينة، يوجد مكان خاص يقام فيه مرتين في الأسبوع سوق لبيع العبيد النصارى الذين يأتي بهم التجار الأتراك. (...) ومع أن النساء والفتيات متقبات، فيمكن للمشتري أن يرى وجوههن، ويضع أصابعه في أفواههن ليتحسس أسنانهن؛ وكذلك جس أذنائهن؛ وفوق ذلك، كما علمت، يسمح له الباعة بالتحقق من عنبرتهن بطريقة لطيفة"

A Faithful Account of the Religion and Manners of the Mahometan..., london, T. Longman, 1738AD, pp. 105-106.

(6) Cf. ADLER, E.N., op. cit. P. 198.

Varthéma في دمشق: "عديداً من دكاكين النصارى" ممتلئة كلها تقريباً "بالملاءات والمخمل والحرير"⁽¹⁾. ورأى بين التجار الأوربيين تجاراً أتوا من "فرنسا وجنوة وكتلونيا وفلورنسة وغيرها"⁽²⁾. كان تجار البندقية أكثر التجار نشاطاً، كما كان عليه الحال في الإسكندرية، فلقد كان لهم في دمشق عملاء تجاريون، وكان نشاطهم يشمل كل أوروبا. لذا كانوا في النصف الأول من القرن الخامس عشر يتحكمون تقريباً بكل تجارة البلدان الواقعة بين بروج Bruges ودمشق⁽³⁾.

اللوحة التي رسمها المسافرون الأوربيون عن الحرفيين والتجار - وخاصة قبل ما قام به تيمورلنك من نهب وترحيل إجباري للحرفيين - رائعة حقاً. كتب بوغجيونسي Poggibonsi في منتصف القرن الرابع عشر: "هذه المدينة مليئة بالبضائع الثمينة وبكل أنواع الحلي. تجد فيها كل ما تطلبه، وكل شيء فيها مصنوع بجودة لا مثيل لها في أي مكان آخر"⁽⁴⁾. وقال سيغولي Sigoli بعده بوقت قصير: "بإمكان البضائع الموجودة في دمشق أن تزود عالم النصارى كله بالمؤن مدة عام كامل"⁽⁵⁾. وحسب رأي مشولاييم بن ر. مناحيم Meshullam ben R. Menahem توجد فيها أربع أسواق رئيسية: واحدة للأحجار الكريمة واللؤلؤ، وثانية لكل أنواع التوابل، وثالثة لكل أقمشة الحرير، ورابعة للنحاسيات المرصعة بالذهب والفضة"⁽⁶⁾. ويذكر برترندون دو لابروكير Bertrandon de la Broquière: يغلق أبواب الدكاكين مساء "عقب غروب الشمس"⁽⁷⁾ أشخاص مكلفون بهذه المهمة ويفتحونها مرة أخرى في صباح اليوم التالي "عندما يحلو لهم"⁽⁸⁾. كانت الحرف منفصلة بعضها عن بعض، فكل حرفة تتمركز في حي خاص بها. ومع أن الأرقام التي أعطاها المسافرون مبالغ فيها، فإنها تشهد على ما أثاره فيض الأنشطة فيهم من انطباعات. إذ أحصى بوغجيونسي Poggibonsi عشرين ألف بستان وثلاثين ألف صائغ وصراف، وثلاثة وعشرين ألف نحاس، وعدداً لا يحصى من

(1) VARTHEMA, L. di, op. cit., p. 20.

(2) LA BROQUIERE, op. cit., p. 30-32.

(3) LANE, F.C., Andrea Barbarigo, Merchant of Venice, 1418-1449AD, Baltimore, 1944AD, p. 107.

(4) POGGIBONSI, op. cit., pp. 77.

(5) RESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., op. cit., pp. 182-183.

(6) Cf. ADLER, E.N., op. cit. P. 199.

(7) LA BROQUIERE, op. cit., p. 38.

(8) المرجع الأخير، ص 38.

تجار التوابل. ولكن ما يدهش هذا المسافر أولاً هو عدد الأشخاص الذين يُعدّون أطباق الطعام الجاهزة للاستهلاك، والذي بلغ اثنين وعشرين ألفاً وثماني مئة. فلقد كتب: "ما من أحد يطبخ في منزله، الغني كالفقير، الكل يشتري طعامه المحضر في الشوارع؛ فهم يجدون كل ما يرغبون فيه جاهزاً، نهاراً وليلاً، وفي كل ساعة، فالعرب يأكلون ليلاً ونهاراً وكأنّ معيّنهم من الحديد"⁽¹⁾. إن وفرة الطعام كانت واضحة جداً: "إذا أتى فجأة مئة ألف رجل، فإنهم يجدون طعاماً جاهزاً للأكل"⁽²⁾. وبرغم تدهور الحرف الدمشقية بعد مرور تيمورلنك⁽³⁾، فقد بقيت هذه الحرف طويلاً موضع إعجاب الغربيين، وخاصة السيوف التي اعتبرها برترندون دو لا بروكيير Bertrandon de la Bouquière "أجمل وأحسن سيوف سورية"، وزودنا عنها بمعلومات ثمينة: "الشيء الغريب هو رؤيتهم كيف يصنعونها، إذ يُحمونها على النار ثم يبردونها بالماء ويصقلونها بقطعة حديد مثبتة على خشبة كما يصقل المنجّر الخشب. ثم كانت السيوف تُعطى شكلها النهائي وتلمع حتى تصبح كالمرآة وتحد أنصالتها إلى درجة لم أر لها مثيلاً في أي مكان آخر"⁽⁴⁾.

مع أنه من الصعب تقدير أثر حكم المماليك في التجارة لقلة المصادر الدقيقة، فإنه من المؤكد أنه في زمن المماليك، كان للحج إلى مكة وزن كبير في ميزان اقتصاد دمشق. ويصعب تحديد نسبة الحجاج الذين كانوا يقومون بأعمال تجارية، ففي عام 1426م، كما يذكر المقرئزي، أُجبر التجار الذين اشترؤا بضائع من الهند، أن يذهبوا أولاً إلى مصر مع قافلة القاهرة ليدفعوا رسوماً جمركية على البضائع التي يحملونها وذلك قبل توجّهم إلى سورية"⁽⁵⁾. وفي بداية القرن التاسع عشر، لاحظ جون لويس بُرخردت Lewis Burkhardt - John أن القليل من الحجاج يصلون إلى مكة دون أن يكون في حوزتهم بعض منتجات بلادهم لبيعها، وأن البضائع كانت متنوعة جداً حتى إنها شملت أشياء "لها علاقة بتجارة العبيد"⁽⁶⁾. كان على آلاف الرجال الذين يقصدون الحج أن يعدّوا ما يحتاجون إليه، "من

(1) POGGIBONSI, op. cit., pp. 77-78.

(2) المرجع الأخير، ص 78.

(3) المرجع السابق، ص 284.

(4) LA BROQUIERE, B. de, op. cit., p. 60-61.

(5) Cf. WIET G., *Marchands d'épices sous les sultans mamluks*, p. 96.

(6) BURCKHRDT, J.-L., *Voyages en Arabie...*, Paris, 1835AD, t. 1, pp. 353-354..

الرأس إلى القدمين"، ويتزودوا بما يكفي من المؤونة ليتمكنوا من مواجهة أسابيع عديدة من السفر في الصحراء. وطبعاً، في العودة، كان كثيرون منهم يجلبون معهم منتجات شبه الجزيرة العربية والشرق الأقصى الثمينة.

لقد كان الحج حدثاً سنوياً هاماً جداً بما يبعثه من نشاط في حشود هائلة من الناس وفي ظروف لم تكن سهلة: إذ يواجه الحجاج في الشتاء العواصف المطرية الشديدة، وفي الصيف الطقس الحار وقلة الماء، وفي كل الفصول، خطر البدو الذين كان يشبههم ابن خلدون "بحيوانات مفترسة"، ويعتبرهم المسلمون "أسوأ خلق الله"⁽¹⁾، ويصفهم ابن إياس بأنهم "أشد بربرية من تيمورلنك"⁽²⁾، فهم ما تردوا قط في الهجوم على قوافل الحجاج وإن كانت ترافقها مفرزة مسلحة، وبرغم ما كان يدفع لهم الحجاج عادة من إتاوات تقارب عشرة آلاف درهم⁽³⁾. ولا تذكر كتب التاريخ عدد المرات التي ألغى فيها الحج لعدم توفر الأمن اللازم. أما عدد الحجاج فلقد كان يتغير حسب السنوات، ففي عام 1279م، قَدَّر الجزري عدد الحجاج من السوريين والعراقيين بأربعين ألف حاج⁽⁴⁾. وفي أيلول عام 1335م، قَدَّر جاك دو فيرون Jacques de Vérone القافلة العائدة من مكة بسبعة عشر ألف رجل وستة آلاف جمل⁽⁵⁾. وفي نيسان 1503م، نجح لدوفيكو دي فارتيما Ludovico di Varthéma بمساعدة ضابط مملوكي من أصل إيطالي، في الانضمام إلى موكب قافلة حجاج باسم يونس وقد "تنكر بملابس أحد المماليك"⁽⁶⁾. كانت تلك القافلة تضم: "خمسة وثلاثين ألف جمل، ونحو أربعين ألف رجل، وستين مملوكاً للحراسة مقسمين إلى ثلاث مجموعات، مجموعة في المقدمة تحمل الراية،

(1) Cf. SURIANO, Fra F., op. cit., p. 209: "كثير من البدو المشركين يعتقدون أن الشمس هي الرب الأعلى (...). ويعتبرهم المسلمون أسوأ خلق الله".

(2) Cf. WIET, G., Histoire des Mamluks circassiens, p. 32.

(3) كتب الجزري، "أنه أثناء الحج، كان يؤخذ من الحجاج مبلغ لشراء الهدايا الضرورية للحصول على رضا البدو. ويصل هذا المبلغ إلى عشرة آلاف درهم تقريباً. ولكن فيما بعد، واعتباراً من عام 681 (1282م) صار أمير الحج يدفع هذا المبلغ ولا يؤخذ من الحجاج ولا درهم واحد"، SAUVAGET J., La chronique de Damas d'al-Jazari ..., Paris, 1949AD, p. 87.

(4) JOMIER, J., op. cit., p. 86.

(5) المرجع الأخير، ص 87.

(6) VARTHEMA, L., op. cit., p. 21.

وأخرى في المؤخرة والأخيرة في الوسط⁽¹⁾. كانت العودة إلى دمشق حدثاً هاماً جداً، وقد كتب برترندون دو لا بروكيير Bertrand de la Broquière - وهو شاهد عيان في عام 1432م - ما يلي: "لقد شهدت دخول القافلة القادمة من مكة، التي كانت تضم كما زعموا ثلاثة آلاف جمل، ولقد اقتضى دخولهم دمشق ما يقارب يومين وليلتين، وكان هذا وسط احتفال كبير. إذ خرج الحاكم وكل الأعيان وساروا في المقدمة يحملون معهم القرآن، فقد أمرهم محمد (ﷺ) أن يضعوا القرآن على جمل وضع عليه غطاء من الحرير، وأن يغطوا القرآن بغطاء آخر من الحرير خطت عليه حروف عربية⁽²⁾. ويسير في المقدمة أربعة وزراء وعدد كبير من الطبالين يثيرون جلبة هائلة، وأمام ذلك الجمل وحوله ثلاثون رجلاً يحمل بعضهم القذافات⁽³⁾ وبعضهم الآخر سيوفاً مجردة، وتطلق كل المدافع حتى الصغيرة منها عديداً من الطلقات. ويتبع ذلك الجمل ثمانية رجال مسنين يركب كل منهم جملًا. وتتبعهم أفراس زينت بسروج ثمينة تبعاً لحالة البلد. وتتبعهم سيدة هي قريبة زعيم الأتراك⁽⁴⁾".

ومع أن أنشطة التجار والحرفيين كانت أكثر الأشياء التي أدهشت كثيراً من المسافرين، فإنهم تأثروا أيضاً ببعض مظاهر البناء. أولها، الطرق، ففي عام 1326م، لاحظ ابن بطوطة، مقارناً سعة طرق الضواحي بضيق طرق أحياء المدينة داخل السور⁽⁵⁾، فكتب: إنها "كانت مخوفة من الجانبين برصيفين للمشاة"⁽⁶⁾. ويذكر معاصره جاك دو فيرون Jacques de Vérone دون توضيح أن في دمشق "مباني جميلة وكبيرة مصفوفة جيداً، وساحات جميلة وشوارع عريضة"⁽⁷⁾. وبعد زمن قصير لاحظ الراهب الفرنسي سكاني بوجيوني Poggibonsi أن شوارع المدينة المسورة كانت مغطاة ومزودة

(1) المرجع الأخير، ص 21.

(2) حول زعم وجود القرآن في المحمل، انظر Le Mahmel et la caravane égyptienne des pèlerins de la Mecque (XIIe-XXe) JOMIER J. المحمل وقافلة الحجاج المصرية، القاهرة، 1953م.

(*) قوس قديمة لقذف السهام والكرات والحجارة... (المنهل).

(3) 55-56 LA BROQUIER, B., de, op. cit., pp. 55-56 ترك لنا ابن جبير في القرن الثاني عشر وصفاً مفصلاً لقوافل الحجاج موضحاً أنهم كانوا يسافرون ليلًا على ضوء مشاعل يحملها مشاة (Voyages ; t. V, p. 215). كان من بين حجاج ذلك العام

أميرة عمرها خمسة وعشرون عاماً يرافقها نحو مئة جمل لنقل حاجاتها ومؤناتها. المرجع الأخير، ص 212.

(4) ابن بطوطة، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 229.

(5) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 238.

(6) VERONE, J. de, op. cit., p. 291.

بُكَوَات لإضاءتها نهاراً وبقناديل للإضاءة ليلاً⁽¹⁾. ويؤكد سيغولي الفلورنسي Florentin Sigoli قائلاً: "كان الجزء الأكبر من شوارع دمشق مغطى بسقف أو بقبوات، والسقوف تسمح بمرور ما يكفي من النور، وعندما يحل الليل تضاء عديد من المصابيح الزجاجية في كل الشوارع وبين كل مصباحين 12 ذراعاً فتبدو وكأنها في وضوح النهار. يقال: إن هناك أكثر من ثلاثين ألف مصباح تضيء الشوارع كل مساء"⁽²⁾. وتبدو المساكن الدمشقية بأفنيتها ومياهها الجارية المنعشة والمملطة للجو، من المواضيع التي أثارت الفضول. كتب Poggibonsi: "إنها مساكن عالية جداً بنيت من خشب غير ظاهر للعيان (...)، وقد غطيت أرضيتها بالفيسفساء. ومن النادر أن تجد مسكناً بلا حوض ونافورة ماء، إنها حقاً رائعة"⁽³⁾. ويذكر غوشي Gucci: "توجد في كل منزل تقريباً نافورة ماء في وسط فناءه، ويجري الماء من بيت إلى آخر عن طريق مجارٍ تحت الأرض قد صممت تصميماً رائعاً. وعند هذه النوافير كانت تغسل كل الأشياء الموجودة في المنزل ويتجمع الماء المستخدم في مجارٍ أخرى. وهكذا كان يعبر المدينة مجارٍ للماء النظيف وأخرى للماء المستخدم. ثم يُجمع الماء الكثير المستخدم لتشغيل الطواحين قبل أن يجري خارج دمشق ليسقي كثيراً من الأراضي"⁽⁴⁾. أبرز Ludovico di Varthema التباين بين الداخل والخارج، وهو خاصة تميز مدن المشرق وخاصة دمشق، فكتب: "المنازل بشعة جداً من الخارج، ولكنها من الداخل جميلة جداً، ومزينة بأعمال فنية جميلة جداً من الرخام وحجر الساق"⁽⁵⁾. وسوف تكرر هذه المقابلة كثيراً في القرون اللاحقة.

وماذا عن الرجال والنساء الذين يسكنون المدينة؟ إنهم خاضعون للضرائب والسُخرة بلا رحمة - برغم كل المبادئ التي يدعو الإسلام فيها للمساواة - لكي تستمر طبقة المالك وتستمتع بالحياة⁽⁶⁾. ثم، إذا استثنينا الأمور الكبرى، من إيمان وصلاة وصيام وتناول، التي تصوغ حياة المؤمن، ظاهرياً

(1) POGGIBONSI, op. cit., p. 77.

(2) FRESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., op. cit., p. 183.

(3) POGGIBONSI ? op. cit., p. 77 أيضاً. Bertrandon de la Broquière لم يبق بيت من عهد المالك، ولكن المرجح أن البيوت كانت أعلى من بيوت العهد العثماني. تحدث ابن جبير في القرن الثاني عشر عن منزل بثلاثة طوابق، ص 202.

(4) FRESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., op. cit., p. 145.

(5) VARTHEMA, L. DI, op. cit., p. 15.

(6) وتحدث المذونات وحكايات المسافرين عن هذه الأمور أكثر مما ينبغي.

على الأقل، فكيف يقضي أهل دمشق أيامهم؟ إن روايات المسافرين الأوربيين في مجموعها لم تزودنا بمعلومات كافية عن هذا الموضوع. إذ ماذا بوسعنا أن نتوقع من رهبانية جاهلة تحن إلى الحروب الصليبية وقد أعمها كرها للإسلام إلا شتائم حمقاء، فلقد كتب على سبيل المثال فليكس فابري Félix Fabri، وهو راهب من الطائفة الدومينيكية: "يعاني المسلمون من رائحة فظيعة، وهذا ما يفسر لجوءهم للوضوء مراراً"⁽¹⁾، ويضيف: "نحن لا نعاني من هذه الرائحة، لذا فهم لا يمانعون أن نستحم معهم، وهذا أمر لا يسمحون به لليهود الذين تنبعث منهم رائحة أسوأ (...)"⁽²⁾. ثم يختم قائلاً: "وهكذا يَسُرُّ المسلم ذا الرائحة الكريهة أن يخالط من لا رائحة له"⁽³⁾. وعلى النقيض من هذه البلاغة المقرزة التي تبلغ عند اليسوعيين ذروتها⁽⁴⁾، هناك بلاغة لدوفيكو دي فارتيما Ludovico di Varthéma الذي يعترف - وعلياً أن نكون شاكرين له فهو من الأشخاص النادرين في ذلك الزمن - "بأنه مكث وقتاً طويلاً في دمشق ليتعلم لغة العرب"⁽⁵⁾. فعنده يخرج الرجال والنساء فجأة من الظل: "يرتدي العرب أثواباً طويلة وعريضة غير مخيطة، ويرتدي معظمهم بنطالاً قطنياً ونعلاتاً أبيض"⁽⁶⁾. أما النساء "فيلبسن ملابس أنيقة من الحرير، فوقها ملابس قطنية بيضاء فضفاضة براقية، ويرتدين جميعاً أحذية كبيرة بيضاء، ونعالاً حمراء أو مذبوغة، وحول أعناقهن وفي آذانهن وأيديهن كثير من الخلي"⁽⁷⁾. ويذكر فارتيما Varthéma عادة من عاداتهم وهي سهولة الطلاق، رافضاً اعتماد كثير من الآراء المتداولة الأخرى، وكتب: "اعلموا أن النساء يتزوجن وفقاً لرغباتهن، وعندما لا يرغبن الاستمرار مع أزواجهن، يذهبن إلى القاضي الشرعي ويطلبن الطلاق، ثم يتزوجن برجل آخر، ويتزوج الزوج السابق بامرأة أخرى"⁽⁸⁾، وهذا ما ذكره قبل ذلك بعدة سنوات مسافر من البندقية، الفرنسي سكاني فرا

(1) Cf. MASSON, R.P. J., op. cit., t. 1, p. 27.

(2) المرجع الأخير، ص 27.

(3) المرجع الأخير، ص 27.

(4) DEGEORGE, G., Damas des Ottomans à nos jours, Paris, L'Harmattan, 1994AD, pp. 61.62 -

(5) VARTHEMA, L. DI, op. cit., p. 11.

(6) المرجع الأخير، ص 20.

(7) المرجع الأخير، ص 18 - 19.

(8) المرجع الأخير، ص 19.

سريانو Fra Suriano وأضاف: "النساء محترمات جداً في كل المشرق"⁽¹⁾.

كما هو حال الدمشقيين، لم تثر المباني الدمشقية فضول المسافرين الأوربيين. ذُكر فقط الجامع الأموي "الجامع الرئيسي"⁽²⁾، وفي كل مرة ذُكر فيها كان الهدف هو تأكيد وجود جثمان القديس يوحنا المعمدان فيه، أو، كما ذكر بعضهم، جثمان "القديس زكريا، أبي القديس يوحنا المعمدان الذي يحترمه المسلمون كثيراً"⁽³⁾، وذكروا بوجه خاص أن هذا الجامع ليس إلا كنيسة "بناها النصاري"⁽⁴⁾، ولكن "المسلمين جعلوا منها مسجداً لهم"⁽⁵⁾. ومع هذا، وبرغم اللهجة العدائية والنية السيئة تجاه الإسلام، فقد فرض البناء هيئته عليهم بضخامته وغناه، حتى إن لدوفيكو دي فارتيا Ludovico di Varthéma وجان تنو Jean Thénau قارناه بسانت بيير في روما، وقارنه بوجيونيوني Poggibonsi بكنيسة سيين Sienne⁽⁶⁾. كان دخول الجامع ممنوعاً على غير المسلمين، وإذا صدق فون سودهايم Von Sudheim القول، يُقتل النصراني الذي يدخله إلا إذا ارتد عن ديانة المسيح⁽⁷⁾. أبدى جاك دوفرون أسفه لأن هذا "الجامع الإسلامي كان كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي، حين كان إمبراطور اليونان يحتل دمشق"⁽⁸⁾، وصار فيما بعد تُقام فيه صلوات "ديانة محمد الشائنة"⁽⁹⁾. ويذهب Jacque de Vérone إلى أبعد من هذا ويؤكد أنه "لم ير كنيسة في كل المناطق الإيطالية يمكن أن تعادل هذا الجامع بجماله وضخامته"⁽¹⁰⁾. وهذا إجلال عظيم يقدمه للعمارة الإسلامية على غير دراية منه. تُرى هل رأى داخل الجامع من أحد أبوابه؟ لأنه ترك لنا، على أية حال، وصفاً له يعد واحداً من أقدم

(1) SURIANO, Fra F., op. Cit., p. 205.

(2) VARTHEMA, L., op. Cit., p. 15.

(3) THENAUD, J., op. Cit., p. 114, Varthéma (p. 16) يذكر هذا الصرح باسم القديس زكريا.

(4) BOGGIBONSI, op. Cit., p. 78. وانظر أيضاً VERONE, J. de, op. Cit. P. 292، وفيما يتعلق بمشكلة الكنيسة والجامع المرجع السابق ص 124 - 125.

(5) المرجع الأخير ص 78.

(6) VARTHEMA, L. DI, op.cit., p. 15/ THENAUD, J., op. Cit., p. 114. POGGIBONSI, op. Cit., p. 79..

(7) VOV SUDHEM, op. Cit., p. 360.

(8) VERONE, J. de, op. Cit. P. 292 المقصود هنا في الحقيقة كنيسة القديس يوحنا المعمدان.

(9) المرجع الأخير ص 291.

(10) المرجع الأخير ص 292.

البيانات التي كتبت عنه. إنه صرح كبير جميل باهر، يبلغ طول كل جانب منه مدى رمية منجنيق، وله أربعة أبواب كبيرة وجميلة جداً، وفناء مربع كما في الدير، ومرصوف بالرخام والمرمر المصقول؛ وزخرفت الجدران وأعلى القباب المحمولة على أكثر من مئة عمود رخامي بالفسيفساء وبكثير من الذهب. يضيء الداخل، حتى في وضوح النهار، أكثر من ألفي مصباح⁽¹⁾. إضافة إلى الجامع الأموي، المبجل لكونه كنيسة قديمة، تأتي في مقدمة المباني التي أثارَت فضول المسافرين الأوربيين، الأماكن المقدسة التي لها علاقة بالأساطير الإنجيلية أو بأفعال القديس بولص، وخاصة مكان الهداية الذي يحدد بوجيجيوني Poggibonsi موقعه على بعد ثلاثة أميال شرق "الباب الشرقي"، على هضبة حيث تقوم كنيسة أرثوذكسية⁽²⁾، ويحدد فارتيما Ludovico di Varthéma موقعه "خارج أحد الأبواب (...)"، على بعد ميل تقريباً حيث يدفن كل النصارى الذين يموتون في هذه المدينة⁽³⁾. ولم يُنس مكان التعميد، فحسب رأي دو لا بروكيير Bertrandon de la Broquière، أنشئ مكانه سنة 1423م مسجد⁽⁴⁾. ومع أن دمشق تُعدُّ بعد القاهرة أكبر تجمع للمباني الإسلامية، فنحن لا نجد أي ذكر في روايات المسافرين الأوربيين لمئات المساجد والمدارس والحمامات والخانات والتُّرَب، والمآذن التي يتلئ من قممها في ليالي رمضان أكاليل مضيئة.

إذا كانت مباني الممالك الأولى في دمشق، مثل المدرسة الظاهرية، تندرج في فن العمارة الأيوبية، فمنذ نهاية القرن الثالث عشر، كما تشهد تربة السلطان كتبغا (1294 - 1296م) المبنية عام 1296م في غرب الصالحية، بدت أول علامات التغير. فمع أن قبائها القائمة على رقبات مثمثة، ومساكها المضلعة وبوابتها المقرنصة وواجهتها المرصعة بحجارة سوداء تعود إلى العمارة الأيوبية الجيدة، فقد كان هناك عديدٌ من الأمور التي بشرت بالتغير الذي حدث فيما بعد في العمارة المملوكية: رداءة المواد، وتناظر متكلف بمضاعفة القباب، وتناسب أقل انسجاماً. استقدم النواب منذ بداية القرن الرابع عشر، بتأثير

(1) المرجع الأخير، ص 292.

(2) POGGIBONSI, op. Cit., p. 79.

(3) VARTHEMA, L., Di, op. Cit. P. 16 موقع مكان الهداية غير معروف بدقة، ولكن المسافرين كتبوا عنه كثيراً، انظر فيما يتعلق بهذا الموضوع، NASRALLAH Mgr., Les souvenirs chrétiens de Damas، "المذكرات النصرانية في دمشق"، Harissa، 1944م، هناك بطاقة تصور المكان المقدس أثناء الانتداب الفرنسي.

(4) LA BROUQUIER, B., de, op. Cit., pp. 33-34.

تطور الفن في العاصمة - فرقا من حِرْفِيي القاهرة - فعاد ظهور الخشب والأجر، وقل استخدام الحجارة المنحوتة، وخسر المخطط وضوحه ومنطقيته، وتردَّى فن الزخرفة، وغزت الزخرفة الملونة الواجهات التي أصبحت غنية بترصيعات من الرخام الأحمر والأبيض والرمادي، وغيره، والخزف الأزرق الفيروزي اللون، والمشاكبي والأعمدة المصفورة والأكاليل والكوات والنقوش المسطحة ذات لبنات عقد ملونة وشُرُفات زهرية الشكل، وأثقلت إبر رفيعة من الحجارة الناتئة مقرنصات البوابات. في حين ضمرت القبوة التي تغطي هذه العناصر، والتي كانت حتى ذلك الوقت عنصراً أساسياً، وأصبحت صدفية الشكل صغيرة وقليلة العمق. وارتفعت المآذن لتصبح مثمثة الشكل بعد أن كانت مربعة، وزودت ببروزات متدرجة وشرفات وزخرفة ملونة كثيرة. وفتحت النوافذ داخل فجوات يعلوها تقبب من المقرنصات، وغزت الزخرفة الملونة شيئاً فشيئاً داخل الأبنية، فغطت الجدران ترصيعات من الرخام والحجارة الملونة على شكل رسوم هندسية، وغطت الرسوم المصاريح والصقالات والسقوف. وفي نهاية زمن المماليك، لم تعد الترصيعات حجرية، كما تشهد على ذلك مثذنة المدرسة السيائية، بل - وهذا الفن صار عاماً في العصر العثماني - جصية ملونة برسوم مختارة تملأ تجاويف الواجهة. وفي الوقت الذي استلهم فن عمارة المساجد المملوكي في مصر طرازه من بقايا الأبنية الفاطمية الرائعة، بقي في سورية الجامع الأموي المثال الأصلي الذي يحتذى به: فناء مستطيل محاط بأروقة، وقاعة للصلاة بأبهاء مسقوفة موازية لخائط القبلة، ومغطاة بسقوف مزدوجة الميلان. ولم يبق في دمشق إلا ما يقارب خمسين بناء مملوكياً من أصل مئتين وثلاثة وخمسين ورد ذكرها في المصادر الأدبية⁽¹⁾.

تقع في الصالحية مقابل دار الحديث الأشرفية تربة تقي الدين التكريتي الذي مات في دمشق "ليلة الخميس، في الثامن من شهر جمادى الأولى 698/1299 م عن عمر يناهز ثمانين"⁽²⁾. كان تقي الدين التكريتي مملوكاً لقلاوون و"رجلاً قديراً جداً"⁽³⁾، شغل منصب الوزير في دمشق أثناء حكم خمسة سلاطين: قلاوون والأشرف خليل، والناصر محمد، وكتبغا ولاجين. أمكن تعرف تربيته الخالية

(1) في القاهرة، تصبح هذه الأرقام على التوالي 217 و900. Cf. MEINZCKE, M., Damaszener Mitteilungen, Band 3, 1988AD, p. 203.

(2) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 138. وكذلك الجزري، المرجع نفسه، ص 88 و. SAUVAIRE, H., op. Cit., t. III, 2, 1894AD, p. 273 et t. III, 2, 1894AD, p. 273.

(3) المقرئزي، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 138.

من النقوش الكتابية من المصادر الأدبية، ولا يمكن تأريخها إلا بالمقارنة. وفيها يتجلى بوضوح الطراز المملوكي في نهاية القرن الثالث عشر، المتأثر بالطراز الأيوبي في البناء. بنيت بوابة المدخل في الواجهة الجنوبية لتفتح على بهو متطاوّل الشكل تغطيه قَبُوتان مزلعتان. توجد في الجهة اليمنى من البهو قاعة الضريح المغطاة بقبة محمولة على رقبَتين عدد أضلاعها الحجرية ثمانية وستة عشر، وتوجد في الجهة اليسرى قاعة الصلاة بقبة مزلعة تحولت اليوم إلى مكتب. خلّت الواجهة، التي صُفّت حجارتها الكبيرة الحجم وفق نسق جميل جداً، من الزخرفة الملونة واخترقها أربع نوافذ منخفضة - اثنتان تطلان على التربة واثنتان على قاعة الصلاة - يعلوها ساكف وأقواس طلاقة من الطراز الأيوبي. يحيط بالبوابة إفريز أعد للكتابة عليه، وتعلوها قنطرة بثلاثة صفوف من المقرنصات تعلوها صدفة. أنجزت الزخرفة الحصية لقاعة الصلاة - وهي إفريز نقش حروفه التي تشابكت ذيلها على خلفية من الرسوم الورقية - في القرن الرابع عشر على الأرجح، بعد أن نهب قازان المغولي الصالحية وحرّقها عام 1300م. تعد هذه الزخرفة النموذج الوحيد لهذا الطراز الذي بقي في دمشق، وهي تطابق من كل النواحي الأسلوب الأندلسي الذي تألّق على جدران قصر الحمراء في غرناطة.

على الضفة اليسرى لنهر بردى، في غرب سوق الخيل، في المكان الذي كان يُسَمَّى فيه المجرمون، بنى الأمير بلبغا عام 1347م جامعاً كبيراً. كان يلبغا مملوكاً للملك الناصر، يهوى الخيل ومغرم بالعمارة، وكما ذكر ابن طولون "جَمِلاً ومَحْسَناً"⁽¹⁾، وكان حاكم حماة، ثم حلب قبل أن يعين على دمشق في عام 1345م. خلال العامين اللذين حكم فيهما بنى قبة النصر لجامع القدم، وقيصرية خارج باب الفراديس، وحمامين خارج باب الجابية. بدأت أعمال بناء الجامع في نيسان 1347م، وفي هذه الأثناء أمر السلطان بخلق يلبغا. ويبدو من أجزاء النص المنقوش على الإفريز الخشبي، الذي يمتد على الجوانب الثلاثة لمشكاة واقعة في الزاوية الشمالية الشرقية لقاعة الصلاة⁽²⁾، أن إنجاز بناء الجامع قد تم عام 1361م. ووفقاً لنص آخر موجود فوق باب المئذنة، جدّد المبنى نائب دمشق سيف الدين تنيّاك: "قبواته وقاعاته والدهان الجصي (...) من أمواله الخاصة"، وذلك في عام 1398م، أي بعد الحريق الذي التهم الحي عام 1396م. وهناك نص ثالث في المشكاة الجنوبية

(1) LAOUST, H., op. cit. P. 10.

(2) R.C.E.A., t. 12. N° 4529.

الشرقية لقاعة الصلاة يخلد تاريخ أعمال بناء قام بها الأمير نوروز الحافظي، نائب دمشق من سنة 1406 إلى 1415م⁽¹⁾. كان الأسلوب العام للبناء، الذي أزيل تماماً عام 1975م أثناء أعمال إعادة تنظيم المدينة، يطابق في كل النواحي أسلوب بناء الجامع الأموي: قاعة للصلاة متطاولة أبعادها 12X67 متراً، مقسومة إلى ثلاثة أهباء ذات صفين من القناطر الموازية لحائط القبلة، علماً بأن البهو الأوسط أوسع من الآخرين؛ وهناك بهو مُسَنَّم يعامد الثلاثة، ويتصل بالفناء بواسطة ثلاثة أبواب؛ وتوضعت أبواب الفناء الكبير الثلاثة تماماً كما توضعت أبواب الجامع الأموي؛ واستندت المثانة إلى الجانب الغربي للباب الشمالي. امتد على حائط القبلة إفريزات رائعة من الجص المنحوت تذكرنا بتلك الموجودة في جامع السلطان حسن في القاهرة⁽²⁾. أعيد بناء قاعة الصلاة كلياً في القرن الثامن عشر عندما انهارت القبلة: واستبدل بسلسلي العقود الصغيرة سلسلة واحدة مركزية ولم تبني القبلة ثانية. في القرن التاسع عشر، في أثناء احتلال كتائب إبراهيم باشا المصرية لسورية، تحول المبنى إلى مصنع للفرنيات (للبسكويت). كان هذا المبنى الذي جرى فيه عديدٌ من الاحتفالات الرسمية موضع إعجاب كبير تشهد عليه أبيات شعر رواها نُعَيْمي: "تَوَجَّهْ نحو دمشق وعَرِّجْ على غربها وألق نظرة على ذلك الجامع المتين الجميل. ومن يقول حسداً: "رأيت ما يماثله بين الجوامع الكبيرة في البلدان الأخرى" فإنه يقول هذا بلا تفكير"⁽³⁾.

بنى جامع منجك الواقع في حي الميدان جنوب ميدان الحصى عام 1368م الأمير سيف الدين منجك الذي كان نائب دمشق مرتين بعد أن كان وزيراً في القاهرة وحاكم طرابلس. استمرت نيابته في المرة الأولى عام 1357م عدة أشهر وفي المرة الثانية عام 1368م خمسة أعوام. كان الشعب يقدره كثيراً، إذ كان عادلاً وكرماً ويتصف بخصال رفيعة وورع ذائع الصيت⁽⁴⁾ - كان يحمل معه دائماً شعرة

(1) HERZFELD, E., op.cit., p. 129. تحتوي اللوحات التوضيحية في مقالة E. Herzfeld على أربع صور لجامع بلبغا.

(2) SAUVAGET, J., Les monuments historique de Damas, p. 67. فيما يتعلق بجامع بلبغا انظر أيضاً أبو البقاء في SAUVAIRE, H., op. cit., t. VII, 3, 1896AD, p.431.

(3) SAUVAIRE, H., op. cit., t. VII, 3, 1896AD, p.237. بنى بلبغا قبلة النصر في جامع القدم، وقد كانت تؤدي دوراً كبيراً في الاحتفالات الرسمية في عهد المماليك. فلقد ذكرت مراراً عديدة في كتب تاريخ ابن طولون، ويسدو اليوم (سنة 1993م) أن هناك جامعاً جديداً يبنى في موقع جامع بلبغا القديم.

(4) SAUVAIRE, H., op. cit., t. IV, 2, 1894AD, p.286.

للنبي كان قد وجدها بنفسه⁽¹⁾ - يبدو أن الأمير منجك قد عمل جاهداً على صيانة دمشق، فلقد نظف حاراتها والعقبات، وبنى عديداً من الأبنية من ضمنها "زاوية" في قرية الكسوة⁽²⁾. تطابق مئذنة جامع الميدان النموذج المملوكي مطابقة تامة، وهي واحدة من تلك المآذن المتفردة التي احتفظت في قمتها إلى زمن قريب جداً بمجموعة القضبان الحاملة للمصاييح التي كانت تنير ليالي رمضان.

في حي باب السلام وعلى بعد مئتي متر تقريباً شمال بردي، في موقع كنيسة بيزنطية قديمة يقوم مسجد يعرف حالياً بمسجد الزينية، وكان مسجد الأقباص شغل موقعه منذ القرن الثاني عشر على الأقل، وهو يؤوي، كما يقال، رؤوس عديد من أصحاب النبي (ﷺ)، أنصار علي بن أبي طالب، الذين أعدموا بأمر من الخليفة معاوية⁽³⁾. أجرى فيه الأمير الأيوبي الأشرف موسى بعض التعديلات عام 1234 - 1235م، ومن بعده النائب القوي تنكر عام 1328 - 1329م، ليهدمه في النهاية محمد بن منجك، ويبني مكانه عام 1408م المسجد الذي مازلنا نراه اليوم⁽⁴⁾. يتألف المبنى من فناء يتوسطه حوض مركزي، وتحيط به الأروقة، ويفضي عن طريق خمسة أبواب إلى قاعة للصلاة مستطيلة، يفصل بهوئها سلسلة مركزية من العقود الصغيرة بأربع دعائم، وهما مغطيان بسقف تبدو صفالته للعيان من الداخل. بُدِّل بلاط الفناء القديم ذو الزخرفة الملونة في النصف الأول من القرن العشرين، في حين احتفظت قاعة الصلاة بمحارباها المزدوج التقوس، والذي جُعل في مركز لوحة كبيرة من الحجارة الملونة تزينه ترصيعات من الخزف المزخرف الفيروزي اللون، وكذلك ثبتت ثلاثة أقراص من الخزف⁽⁵⁾ الدمشقي الرمادي المُزرق، المتوضع فوق خلفية بيضاء على حائط القبلة. ولكن شوهت المبنى إضافات حديثة: إذ أخفت ثرياً ضخمة على الطراز الأوربي المحراب خلف زجاجياتها، ووضعت أجهزة التكييف أمام الأقراص الخزفية بالضبط. جزأت أفاريز المئذنة المربعة، المستندة إلى الواجهة الشمالية، إلى ثلاثة طوابق. يوجد على كل جانب من جوانب الطابق الأخير

(1) المرجع الأخير، ص 286 و 251، t. VI, 2, 1896AD.

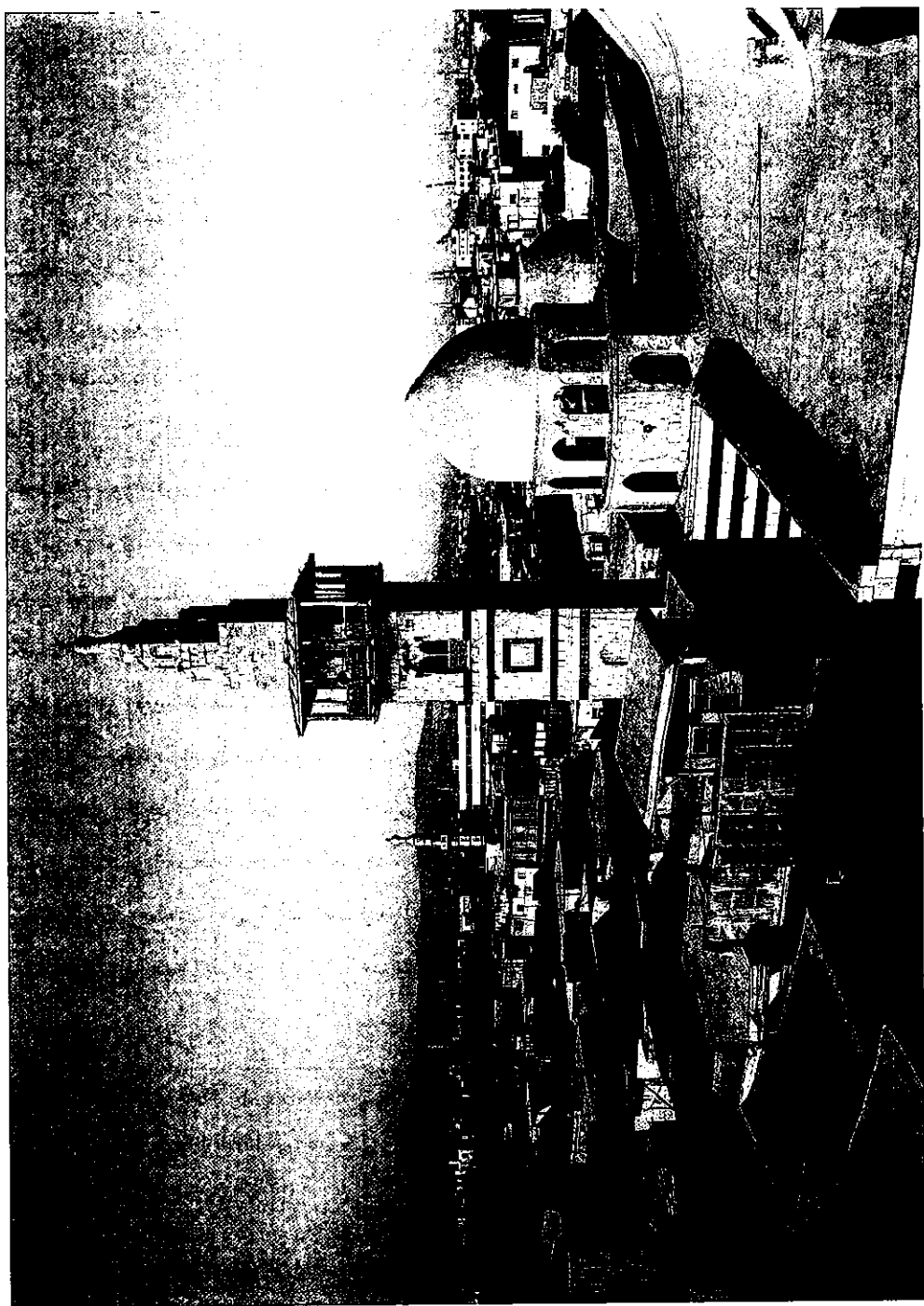
(2) LAOUST, H., op.cit., p. 13 عن المصاييح في رأس المآذن، انظر شهادة ابن جبير، المرجع نفسه، الجزء 5، ص 169.

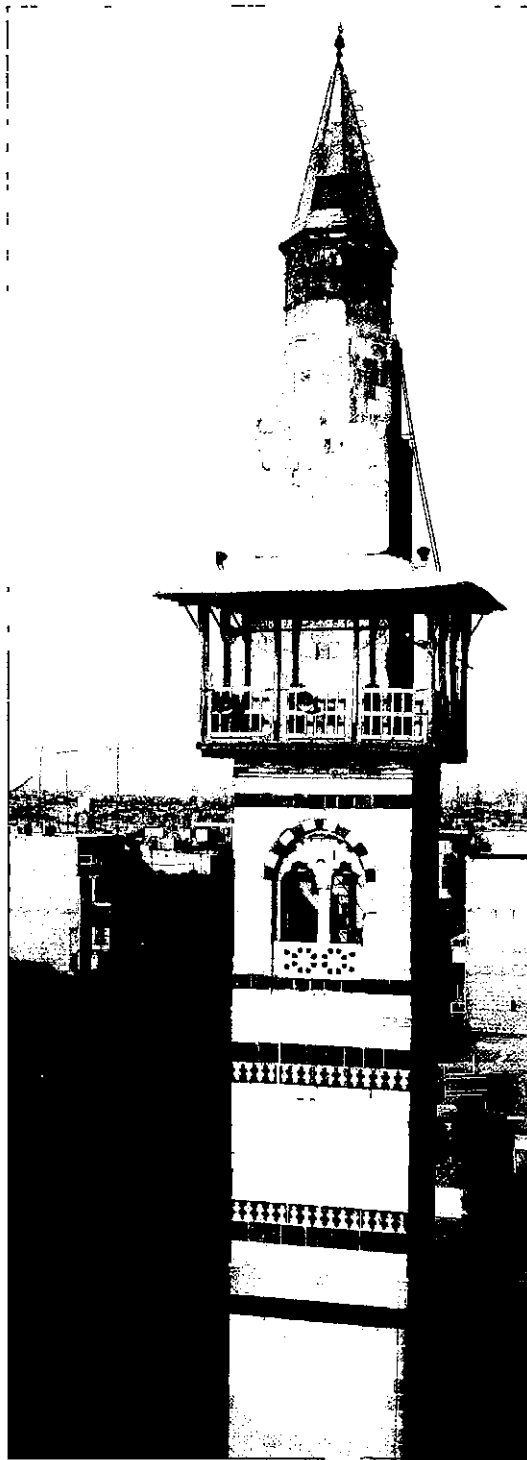
(3) ابن عساکر، المرجع نفسه، ص 152.

(4) SAUVAIRE, H., op. cit., t. VI, 3, 1895, p. 451 ; t.VII, 2, 1896AD, p.239.

(5) كانت أربعة أقراص في بداية القرن.

جامع التوريزي «التيروزي»





منذنة جامع الأقصاب

قوس مذببة (أي مكسورة في وسطها) لبنات عقدها سوداء وبيضاء، تحيط بفتحتين توأمين تعلو كلاهما قوس ثلاثية الفصوص، وترتكزان على عمود صغير مركزي اختفت قاعدته خلف درابزين من الحجارة المخرمة.

في حي السوق المتاخم للطريق المؤدي إلى فلسطين ومصر، بنى الأمير غرس الدين خليل التوريزي⁽¹⁾، كبير حجاب دمشق ابتداء من عام 1415م، مجمعا كبيرا يضم مسجداً وتربة وحاماً، بنيت التربة أولاً، وعندما انتهى بناؤها، بوشر ببناء المسجد (عام 1420م)، الذي افتتح قبل أو بعد موت مؤسسه بقليل في حزيران عام 1423م.

تألف التربة من قاعة صغيرة مربعة يمكن الوصول إليها من داخل المسجد عن طريق باب في الجانب الشرقي، وتغطي التربة قبة مرتفعة تحملها رقتان حجريتان لكل منها اثنا عشر ضلعاً، وتخترق الرقبة السفلى ثنائي نوافذ، والرقبة العليا اثنتا عشرة نافذة. يفضي المسجد إلى الشارع عن طريق باب مبني تحت قوس ثلاثية الفصوص، له واجهة من الحجارة البيضاء والسوداء، ويتألف من بهو مسقوف له حوض مركزي عوضاً عن الفناء - وهذه من خواص البناء المألوفة في مصر وغير مألوفة في دمشق - ومن قاعة للصلاة ذات أبهاء ثلاثة موازية لحائط القبلة الذي تركز صقالاته على صفين من القناطر لكل منهما ثلاث فتحات. المئذنة مستقلة عن المسجد ويفصل بينهما الشارع، وهي على طراز مسجد الأقصاب. تدل الكتابة المنقوشة عليها أن بناءها كان عام 1423م، ويبدو من بعض القطع الخزفية التي مازالت تحتفظ بها أنها كانت تحمل في الأصل زخرفة غنية من الخزف على شكل رسوم مورقة بيضاء على خلفية زرقاء.

بالمقابل، احتفظ المسجد والتربة بكل زخرفتهما الخزفية التي منحت مجموعة مباني التوريزي مكانة مرموقة جداً في الفن الإسلامي. تغطي بلاطات سداسية ملونة تحت خِزَاف (دهان الخزف) شفاف عديم اللون الجدران الداخلية للتربة على ارتفاع ثلاثة أمتار، بدءاً من الأرض، وكذلك الأمر فيما يتعلق بقاعدتي حائط القبلة والحائط الشرقي لقاعة الصلاة، ولكن على ارتفاع متر ونصف. ارتبطت بلاطات التربة، المزينة برسوم من الزهور أو النجوم يفصل بينها اللون الأزرق الكوبلت فوق خلفية بيضاء اللون، يرتبط بعضها ببعض عند رؤوسها ارتباطاً وثيقاً، وامتلات الفراغات المتوسطة

(1) SAUVAIRE, H., op. cit., t. IV, 2, 1895AD, pp.233-234 et not 46 p.281.

بمثلثات فيروزية اللون. تبدو بلاطات قاعة الصلاة التي ارتبط بعضها ببعض من أضلاعها كأنها رُصفت على عجل، بل يمتلكنا الشعور أحياناً أنها قطع أعيد استخدامها. تكشف الزخرفة، بعفوية إنجازها وبتنوعها الكبير وموضوعاتها، وبكونها مفصولة أيضاً بأزرق الكوبالت على خلفية بيضاء، عن تأثرها بالزخرفة الصينية: زهور بخمس عشرة أو ثلاثين بتلة، وأغصان مستقيمة أو حلزونية، وزخرفة على شكل أشنيات أو نباتات خيالية، وأشكال هندسية، غالباً نجوم سداسية، ارتبطت أحياناً بعناصر زخرفية من الزهور أو النباتات، والمزهريات والأباريق والطيور وغيرها. هذا الإبداع الجديد البعيد جداً عن كل نمط نموذجي، أنتجته الورشات الدمشقية - بعد أن عادت إلى ممارسة نشاطها بعد ما قام به تيمورلنك من نهب - بغية مباشرة أعمال ترميم الجامع الأموي. ويبدو أن الفضل في هذا الإبداع يعود إلى شخص اسمه آمال غيبي "التوريزي" أي إنه من تبريز، كما يدل التوقيع المكتوب بأحرف صغيرة على أحد ألواح حائط القبلة. تنتمي هذه المجموعة المعمارية، وهي أهم ما بقي في موقعه من تلك الحقبة من الزمن - والتي يتجاوز عدد بلاطاتها ألفاً وثلاثمائة - إلى طراز "عالمي" نشهده في كثير من الأبنية المعاصرة. في القاهرة، في ضريح علي نجم، الذي صُعب معرفة تاريخ بنائه بدقة، ولكن طرازه يعود إلى العهد المملوكي، وفي القدس في المسجد الأقصى، وفي دمشق في جامع الأقباص، وفي مئذنة جامع البذوري القريب من جامع التوريزي حيث توجد ثلاث بلاطات من شريط لكتابة منقوشة تشير إلى مالك من أصل مملوكي، وفي جامع باب الفرج الذي كُسيّت أعمدة محرابه بلاطات مزدانة برسوم بيضاء فوق خلفية زرقاء، وفي الأناضول المركزية في كاظم كربكير حيث بقي ثمان بلاطات سداسية ذات رسوم زهرية زرقاء فوق خلفية بيضاء، وخاصة في جامع أدرنة الذي بناه عام 1435 - 36م السلطان العثماني مراد الثاني، والذي جمع مثلث متوسط أزرق فيروزي بين بلاطاته السداسية الزرقاء والبيضاء عند رؤوسها، مثل بلاطات تربة التوريزي. ومن الراجح أن الحرفيين قد أتوا من أدرنة إلى "إزنك" حيث ازدهرت في بداية القرن السادس عشر أشهر مدرسة خزفية في العالم الإسلامي. وإضافة إلى الألواح أو أجزائها المتبقية في مواقعها، أصبح العديد من البلاطات المتفرقة والقريبة جداً بعناصرها ورسومها من بلاطات الجامع التوريزي منذ نهاية القرن التاسع عشر من مجموعات متاحف لندن ونيويورك وبرلين وكوبنهاغن⁽¹⁾.

(1) ATIL, E., Renaissance of Islam, Art of the Mamluks, pp. 176-182 أعيد إنتاج البلاطات المثلثة بزخرفة زرقاء

وبيضاء لمجموعة Madina (نيويورك)، والمتحف الوطني في دمشق ومتحف الفن الإسلامي في القاهرة.

ومع أن مصدرها غير معروف بالتأكيد، فمن المرجح أنها استخدمت لِكِسْوَة الجدران أثناء أعمال الإصلاح الكبرى للجامع الأموي التي جرت عام 1419م في ظل حكم السلطان المؤيد شيخ، وذلك قبل أن تجد طريقها إلى سوق التحف الفنية بعد حريق عام 1893م الكبير الذي ترك البناء حطاماً.

لم ينته بناء الحمام الذي بناه الأمير التوريزي، والذي يلاصق مسجد ضريحه إلا في عام 1441هـ - 42م. وهو مازال يستخدم وفي حالة جيدة إلى اليوم دون أن يتعرض لأعمال إصلاحية كبيرة، هذا إذا استثنينا القليل من التبليط والدهان الأحمر. يعد هذا الحمام نموذجاً لحمامات العهد المملوكي والوحيد الذي يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر. يقع الحمام بمحاذاة المسجد، وبني من حجارة ملونة، وتحترق واجهته نافذة منخفضة وبوابة تؤدي عن طريق دهليز مُكَوَّع إلى قاعة الملابس. تغطي هذه القاعة قبة مكونة من مثلثات كروية يعلوها منور، وهي مزودة بحوض مركزي فيه نافورة ماء، وهناك في جوانبها الثلاثة مصاطب، تحتها كُؤَات صغيرة مُعَدَّة لتوضع فيها قباقيب المستحمين. يبين تنسيق وعظمة القاعات النسبية التطور الذي طرأ على هذا الطراز من الأبنية خلال عهد المماليك. القاعة الباردة التي أصبحت صغيرة جداً هي الوحيدة التي احتفظت بمخططها المستطيل، مثل مخطط القاعة الحارة في الحمامات زمن نور الدين. وللقاعة الدافئة، المغطاة بقبة قائمة على قاعدة ذات اثني عشر ضلعاً، كفاعات العهود السابقة، أربع مقصورات تفصل بينها أربع حجيرات إضافية. وأصبحت القاعة الحارة بمساحتها وحجمها وملحقاتها وزخرفتها - بلاطاً ذا زخرفة ملونة، ومشاك تعلوها صدقات، ومقرنصات تربط القبوات بالسطح المستوي - أكثر القاعات أهمية. فهي تتألف من جزء مركزي مثنى له امتدادات على ثلاثة من أضلاعه على شكل مصاطب، اثنان منها، الشرقي والغربي، عميقان جداً، في حين تفضي الأضلاع الخمسة الأخرى، أحدها إلى القاعة الدافئة، والأربع الأخرى إلى مقصورات مزودة بالماء الساخن وأحواض حجرية (أجران).

بالقرب من الباب الشمالي للجامع الأموي، وفي موقع خانقاه قديمة خربها حريق أثناء احتلال تيمورلنك، بنى الأمير سيف الدين جقمق، نائب دمشق أثناء حكم المؤيد شيخ، مدرسته. وصل جقمق إلى دمشق عام 1418م ثم أعلن ثورة على القاهرة في كانون الثاني 1421م، واستولى على القلعة، ولكن طرده منها القوات الموالية للقاهرة، فهرب إلى صلخد. وبعد وقت قصير أُلقي القبض على "هذا

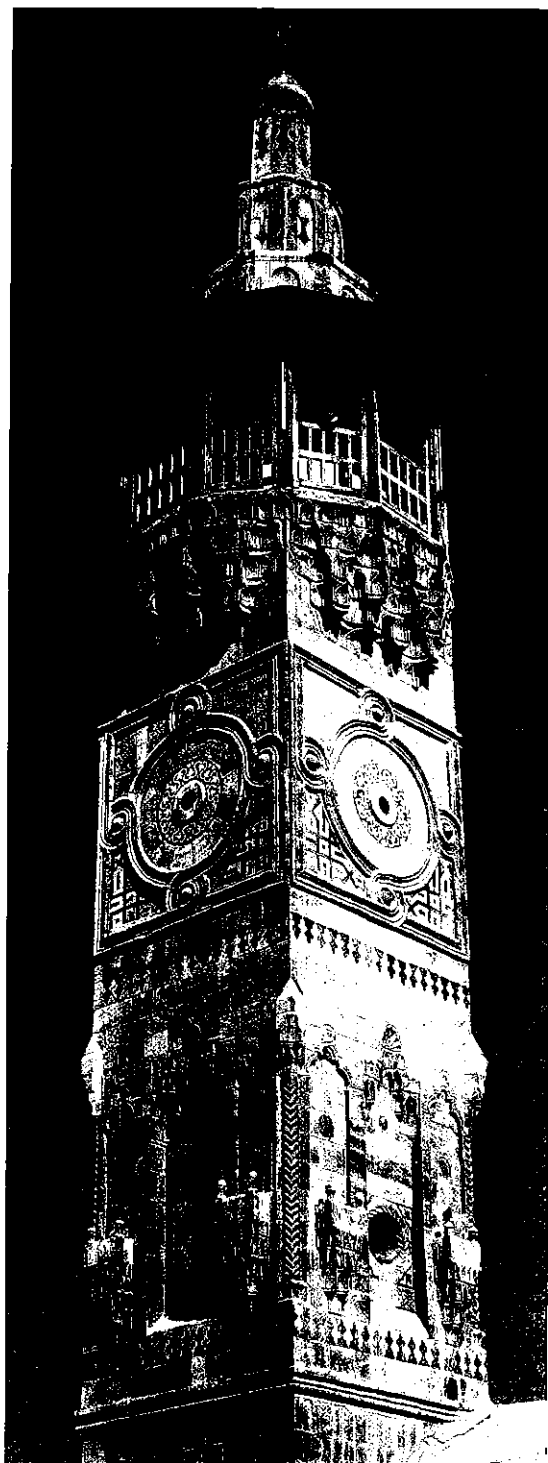
الرجل الظالم والحاتن الذي كان يعرف أسرار كل الناس"⁽¹⁾، وأجبر تحت التعذيب على الاعتراف بما يمتلكه من "ودائع وثروات مخبأة"⁽²⁾ قبل أن يقتل في شهر آب عام 1421م ويدفن في تربته التي خصص لها أوقافاً جزئية: سوق يقع داخل المدينة بالقرب من باب الجابية، وطاحونة وخان. وقد أعدّ في جنوب التربة مدرسة لليتامي، وفي شمالها خانقاه للصوفيين، ولكن لم يبق من هذه المنشآت إلا مدرسته. اكتمل بناء هذه المدرسة عام 1419 - 1420م، وتعد نموذجاً لفنون هذا العصر المعمارية في العاصمة بمخططها وزخرفتها على حد سواء. تتألف من بوابة تعلوها صدفّة قائمة على مقرنصات، ومن صحن تتوسطه بركة مسقوفة بسقف خشبي غني بالزخارف تدعمه أقواس كبيرة قائمة على أعمدة، ومن قاعة للصلاة بأرضية مرتفعة، وتربة. نجد في هذه المدرسة كل عناصر الزخرفة التي عرفها عهد المماليك، وقد نُفِذت بعناية فائقة ودقة متناهية ومهارة تُميّز - في جميع العهود - صروح سورية: شريط كتابة، ونقوش مسطحة بلبينات عقد إكليلية، ومداميك بيضاء وسوداء وحمراء، وتيجان ذات شُرَافات مزخرفة بزهريرات، ومشاك عالية وقليلة العمق، ودرازين من الجص المرصع بالزجاج الملون، وكوات وصدفات وظلّة من المقرنصات وشرائط متشابكة. أما الأجزاء السفلية من الجدران الداخلية فمكسوة بالرخام إلى ارتفاع كبير، وفوقها شريط من الكتابة المنقوشة، وتحيط بالمحراب الغني بالزخرفة الذي تحدّبت قبته المزينة بزخرفة عربية أصيلة متعددة الألوان.

تمثل ثلاث مآذن من القرن الخامس عشر، وهي مثذنة هشام وقلعي وقايتباي، تطور الزخرفة خير تمثيل. بنى المثذنة الأولى كبير حجاب دمشق، عام 1427م في سوق الصوف، وهي قريبة جداً بجذعها المثلث من مثذنة تنكز. شيدت هذه المثذنة بحجارة رديئة، وجزئت إلى عدة مستويات بأشرطة منخرطة ناتئة قليلاً، ويعلوها رواق يغطيه إفريز، محمول على خرقة بثلاثة صفوف من المقرنصات. يتكون لدينا بسبب الزخرفة الغزيرة التي زينت جميع واجهات المثذنة من القاعدة إلى القمة انطباع عن فوضى البناء: أشرطة بازلتية، ورسوم شارية^(*)، وشرفات، وأقراص يتوسطها مسامير خزفية مزخرفة الرأس، وأعمدة صغيرة، ومشاك مسدودة بأقواس ثلاثية الفصوص، وكوّات لها أقواس متعددة الفصوص وإلخ.

(1) Laoust, H., op. cit., p. 21.

(2) SAUVAIRE, H., op. Cit. T. IV; 2 ; 1894AD, pp. 248-249.

(*) حلية معمارية على صورة شارات عسكرية.



منارة قلعي

تعد مثذنة قلعي، المبنية عام 1470م، أكثر مآذن دمشق زخرفة وإن لم يكتمل بناؤها. تحت رواق، قاعدته مكونة من اثني عشر ضلعاً ومظلة ودرازين خشبي، مرتبط بالجدع المربع بواسطة خمس قواعد من الخرجات المقرنصة، تتألق الزخرفة في مستويين منفصلين بنقوش سطحية من كُينات عقد إكليلية سوداء وبيضاء. وعلى كل واجهة للمستوى العلوي، يلتف شريط مربع مزين بنتوءات حول أربعة "مسامير" مزخرفة من الخزف الصيني الفيروزي، وتدور على شكل دائرة ليحيط بثلاثة أكاليل متحدة المراكز في داخلها كوة صغيرة. ولم تكتمل التشبيكات الهندسية السوداء على خلفية بيضاء غطت الركنيات إلا من جهة واحدة. ويعد المستوى السفلي عرضاً حقيقياً للزخرفة المملوكية: أعمدة صغيرة إكليلية، وظلة منحنية تدلت منها النوازل، وشُرَيْقات على مقرنصات، ومشاك قليلة العمق، وأقواس ثلاثية الفصوص، وطُف مُحرَّمة، وحنيات عقد من المقرنصات وصدفات وكُوات، وترصيعات هندسية سوداء على خلفية بيضاء، و"مسامير" مزخرفة الرأس وأقراص وبلاطات خزفية.

أعاد السلطان الأشرف قايتباي (1468 - 1496م) في عام 1488م بناء المثذنة الغربية للجامع الأموي التي تهدمت في حريق 13 تشرين الأول 1479م⁽¹⁾. المثذنة شبيهة جداً بمآذن القاهرة وإن كانت أبعادها أضخم. ولقد قسمت إلى ثلاثة طوابق تتناقص مقاطعها تدريجياً بواسطة رواقين على مقرنصات، بدرازين حجري مُفرَّغ. زخرفة هذه المثذنة أقل من زخرفة مثذنة قلعي: فيها مشاك ذات أعمدة صغيرة وأقواس ثلاثية الفصوص، ورسوم نافرة أو لبنات عقد إكليلية حول كوة، وأشرطة حجرية سوداء. استخدمت مثذنة قايتباي نموذجاً لآخر مثذنتين مملوكيتين بنيتا في دمشق، مثذنة مدرسة سييائي⁽²⁾ ومثذنة الجامع المعلق.

شيد آخر حاكم مملوكي لدمشق الأمير سييائي بين شهر نيسان عام 1509م وشباط 1515م، خارج باب الجابية بناء يضم في آن واحد جامعاً كبيراً ومدرسة وزاوية وترتبه الخاصة طبعاً⁽²⁾. ولكي ينجز هذا العمل جيداً لم يتوقف الأمير سييائي أمام أي عائق: "لم يترك في دمشق مسجداً مهجوراً، ولا مقبرة في حالة سليمة إلا ونزع منها الحجارة ومواد البناء والرخام والأعمدة التي يريدونها وتوافق مرامه، مثابراً على أعماله الاختلاسية. حتى إن علماء دمشق أطلقوا على مبناه جامع

(1) المرجع السابق، ص 318.

(2) المدرسة السيائية (السيباهية، عند العوام).

(2) SAUVAIRE, H., op. Cit. T. IV, 2, 1894AD, pp. 262-263 et p. 255.

الجوامع" (1). دفنت أم الأمير وابنته في التربة (2)، إلا أنه لم يدفن فيها، فلقد مات في معركة مرج دابق ولم يرجع إلى دمشق أبداً (3). يخلو المبنى من كل جودة معمارية، فهو ينم جيداً على زمن كانت تصرف فيه كل موارد الدولة على الجيش ليحميها من أطماع البرتغاليين والعثمانيين.

مازال هناك كثير من المباني المملوكية موجودة اليوم في حالة جيدة تقريباً، منها ما بقي كاملاً، ومنها ما لم يبق منه إلا أجزاء، ومنها ما شوّهته أعمال الإصلاح المبالغ فيها أو استخدم مباني سكنية (4): التربة النجيبية (1268م)، وتربة غورلو (1319م)، وتربة بها درآص (1329م)، وأراق (1349م) (5)، والشيباني (1333م)، وأرغون شاه (1348م)، والشيخ صالح (1350م)، والجيعانيه (1353م)، وتربتان مزودتان بقاعة صلاة من نهاية القرن الرابع عشر معروفتان باسم جامع التَّيْنِيَّة والمدرسة الرشيدية، وتربة مجهولة يقال إنها تربة الشيخ حسن يدل طرازها على أنها تعود إلى القرن الخامس عشر، والمدرسة الأفريدونية (1348م)، والدَّلاَمِيَّة (1443م)، والشاذبيكة (1453م)، والصابونية (1464م)، وجوامع السنجدار (1348م) التابئية (1397م) والمؤيد (1399م) والجوزة (1402م) والسقيفة (1411م) والورد (1427م)، والخانقاه اليونسية (1382م)، وحمامات: السلطان والأشرف والورد والقيمرية والناصرية والزين، والسبيل والخزنة (1405م) إلخ. وقد اختفى عديد من المباني اليوم، ومصدر معلوماتنا هو المصادر التاريخية. وليس بالإمكان تحديد مواقع بعضها مثل المدرستين الأشرفية والقواسية أو خانقاه الدهنيانية إلا على التقريب، في حين يمكن تحديد أماكن القصر الأبلق ودار السعادة أو قصر الذهب لتتكز بدقة مُرضية، وذلك لأن النصوص تذكر اسم الأبنية التي حلت محلها.

برغم الأساطير العديدة التي تعود بأصول دمشق إلى رجال مشهورين مثل إبراهيم ونوح، فإن

(1) المرجع الأخير، ص 263.

(2) LAOUST, H., op. Cit. Pp. 133, 136.

(3) المرجع الأعلى، ص 297-298.

(4) فيما يتعلق بمدينة دمشق داخل السور، ثمة قائمة وتاريخ في: Sack, D., Damasskus, pp. 100-107، خريطة (6).

(5) MEINECKE, M., Die osmanische Architektur des 16. Jahrhunderts in Damaskus, Fifth International Congress of Turkish Art, 1979AD, pp. 575-595.

كل شيء يدعوننا إلى الاعتقاد بأنها برعمت حول قرية نيولوتية في العصر الحجري⁽¹⁾، وذلك في سفح أحد جبال سلسلة لبنان الشرقية، على الضفة اليمنى لنهر صغير يسمى بردى، محاط بالصحراء.

ورد ذلك في نصوص إبلا المسامرية⁽²⁾ في الألف الثالث قبل الميلاد، كما ورد في مخطوطة توئوسيس الثالث المنحوتة على جدران معبد آمون في الكرنك، وذلك في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ورد ذلك أيضاً في مخطوطات أمينوفيس الثالث ورسائل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. لكن لم تدخل دمشق التاريخ حقاً إلا في القرن العاشر قبل الميلاد، عندما كانت، وفقاً لصموئيل 5،8، إمارة آرامية بعد أن احتلها داود ملك إسرائيل. حاصرها الملك الآشوري سلمنصر الثالث مرتين في القرن الحادي عشر قبل الميلاد عندما أصبحت إحدى دول سورية الرئيسية. وقد ذُكر للمرة الأولى في النصوص التي تتحدث عن هذا النزاع عنصران هاما لحقيقة دمشق المدينة: أسوارها وبساتينها⁽³⁾ التي تمثل الطوق الأخضر المشهور، وهو الغوطة أشهر واحة في كل المشرق، وصورة طبق الأصل عن الجنة. إن محرر سفر التكوين الذي لم ينقل دائماً كلام الإنجيل - فالفرق بينهما كبير - قد جعل من دمشق في تلك الحقبة من الزمن موطن إلعازر خادم إبراهيم المفضل⁽⁴⁾. وقد احتل الآشوريون دمشق مرتين في القرن الثامن قبل الميلاد عندما كانت في أوج قوتها. احتلها في المرة الأولى نحو عام 796 ق.م حداد نيراني الثالث، الذي استولى بنفسه في القصر الملكي على غنيمة ثمينة جداً تشهد على ازدهارها⁽⁵⁾. وفي المرة الثانية قام باحتلالها في عام 732 تغلات بيلسر الثالث الذي وضع حداً نهائياً لاستقلالها السياسي، وحوّلها إلى مقاطعة آشورية صغيرة، وذلك بتقليص ممتلكاتها الإقليمية. إذن بدت لنا نبوءة النبي Isaïe^(*) الذي عاصرها حينذاك والتي نصها: (لن تبقى دمشق

(1) انظر إلى ملفات التنقيب التي قام بها H. de Contenson في مواقع مختلفة في دمشق، والتي نشرتها AAAS من عام 1964 إلى 1978م، وكذلك W.T. Pitard، دمشق القديمة، Eisenbrauns، 1987AD، Winona Lake, Indiana، Ancient Damascus، ص 4-10.

(2) PITARD, W.T.، المرجع نفسه، ص 24.

(3) كانت نهاية حصاري سلمنصر الفشل، مما يؤكد أن المدينة كانت محصنة، ويعلمنا النص المتعلق بحصار 841 قبل الميلاد أن سلمنصر أمر بقطع أشجار البساتين. J. Briand، CF.، و J. Seux، M.، نصوص عن المشرق الأدنى القديم وتاريخ إسرائيل، Orient ancien et histoire d'Israël-Textes du Proche، باريس Editions du Cerfs، 1977م، ص 87.

(4) 215، سفر التكوين.

(5) Briand J.، و J. Seux، M.، المرجع نفسه، ص 95.

(*) أحد أنبياء بني إسرائيل.

مدينة، بل ستصبح كومة من الحطام⁽¹⁾ مبالغاً فيها، وكان على عاصمة الآراميين الكبيرة أن تنتظر أربعة عشر قرناً لتصبح مجدداً عاصمة دولة مستقلة مع قدوم العرب المسلمين إليها.

اعتبرت دمشق في زمن البابليين الحديث والفرس وفقاً للجغرافي اليوناني سترابان - خلافاً لنبوءة Isaïe - أشهر مدينة في آسيا سابقاً⁽²⁾. في ظل حكم السلوقيين، حين أقل نجمها مقارنة بإنطاكية المدينة الكبيرة التي أسسها نكتار السلوقي على الضفة السفلى للعاصي، أصبحت دمشق عام 111 ق.م مركز حكم مؤقت لأنطيوخس التاسع. يُحتمل أن مستعمرة يونانية مقدونية قد استقرت في شرق المدينة الآرامية القديمة في تلك الحقبة من الزمن، وذلك في أحياء جديدة ذات شوارع متعامدة ومستقيمة.

وشهدت دمشق في زمن الرومان إصلاحات عديدة عظيمة. استطعنا بفضل ما تبقى منها معرفة طبوغرافية دمشق للمرة الأولى على نحو دقيق نوعاً ما. فلقد أعيد بناء المعبد القديم للإله الآرامي حداد، الذي أصبح منذ ذلك الحين يسمى جوبيتر، والذي تحدث الإنجيل عن أهميته⁽³⁾. وهكذا أصبح هذا المعبد من أكبر الأبنية الدينية في المشرق. هذا وقد بنيت أسوار وأبواب جديدة إضافة إلى طريق عريض ذي أروقة، هو الطريق المستقيم "Via Recta" الذي خلده كتابات الحواريين والقديس بولص. يقطع هذا الطريق المدينة من الشرق إلى الغرب، في حين تعبر قناة جديدة "نهر القنوات" تحت الأسوار لتدخل مياه نهر بردى إلى المدينة. وبسبب غياب التنقيب العميق أصبحت آثار هذا العصر - أجزاء المعبد والباب الشرقي وحجارة الأسوار وغيرها... - أقدم شواهد مادية معروفة في يومنا هذا.

إذا كان لدمشق الرومانية دور سياسي ضئيل، وكانت بعيدة عن منافسة أهمية وعظمة بعض المدن من مثل مدينة إنطاكية وتدمر والإسكندرية فإن الله أحب أن يعوضها بجعلها مسرحاً لأحد أعظم الأحداث التاريخية العالمية، وأكثر التحولات دويماً في تاريخ الأديان. ففي حداثتها، بعد موت المسيح بثلاث سنوات تقريباً، تعرض شاؤول التارسي "معذب يهو" لقبس نوراني سبب سقوطه من ظهر حصانه، وأصبح مستنيراً بنورانية المسيح. ومنذ ذلك الوقت قلبت "الكلمة الإلهية" العالم منادية في كل

(1) Isaïe, 17, 1.

(2) STRABON, Géographie, 16, 20.

(3) 2 سفر الملوك 18,5 و 2 سفر الملوك 12,10، 16.

مكان وبصوت عالٍ بأن الصلة الجديدة بالله لم تعد تحصل باستئصال القلفة، وإنما بتطهير القلب.

في نفس الوقت الذي كانت دمشق تتوسع فيه وتحسن، أصبح لها ذكر أكبر في كتابات ذلك العصر. فقد ذكرها بلين في كتابه "قصة طبيعية" عند مديحه لبياض تمثالها المرمري⁽¹⁾، وذكرها مارسيال في قصائده الهجائية مادحاً جودة خوخها المجفف⁽²⁾. وكذلك مدحها القديس بولص في رسائله الشعرية وهو يروي قصة هروبه في سلة⁽³⁾، والإمبراطور جوليان في رسائله التي مجّد فيها سعة معبدها⁽⁴⁾، وفالفوس جوزيف في كتابه "تاريخ اليهود" حيث يقول - ولا ندري لماذا - إن أس ابن عمران وحفيد سام هو الذي أسسها⁽⁵⁾. هذه النسبة إلى السامية الضعيفة جداً، نقلتها المراجع الإسلامية بتعديل طفيف، ولم تكن هذه المراجع أكثر حرصاً على تحري صحة مصادرها. وهكذا نجد ابن رسته، وهو كاتب من القرن العاشر من مواليد أصفهان، يؤكد دون تردد مدعياً المعرفة بأنه لا يتكلم بما سمع أن أول أسوار بنيت بعد الطوفان كانت أسوار حران وبابل ثم دمشق⁽⁶⁾. وهذا تأكيد ليس بالكلام القليل الأهمية، وإن كان ما من أحد يعرف حقاً متى نزل هذا الوابل من المطر الذي تذكره الكتب السماوية وتسميه الطوفان. على كل حال، ثمة تشديد على أن أصل دمشق يعود إلى ماضي قديم جداً - وهذا أمر كان يصعب على البحث التاريخي تحديده قبل ظهور علم الآثار الحديث - حتى إن البعض يؤكد أن جنة الله في الأرض كانت فيها ببساتينها وقنواتها، وكل هذا يثبت أقدميتها الأكيدة ومكانتها المرموقة التي تحتلها دائماً في خيال أهل المشرق.

في زمن البيزنطيين بذل الأساقفة متحدين في مجتمعات دينية عديدة، جهدهم لتفسير العقائد الغامضة للعوام على طريقتهم، وذلك فيما يتعلق بطبيعة المسيح الحقيقية. وسعت السلطة العالمية عبثاً لفرض دين واحد عنوة لتحقيق الوحدة التي كانت تحتاج إليها في مواجهة الإمبراطورية الساسانية. تبنت سورية مذهب "الهرطقة" الذي يدعو إلى الاعتقاد بطبيعة واحدة للمسيح رغبة منها في التخلص

(1) PLINE, Histoire Naturelle, 36,6.

(2) MARTIAL, Epigrammes, 5, 18.

(3) 2 Cor. 11,33.

(4) JULIEN، الإمبراطور، رسالة إلى سيرايون.

(5) JOSEPH, F، تاريخ اليهودية القديم، 1,64. Antiquités judaïques، فيما يتعلق بأبناء عمران، انظر إلى 23،10 سفر التكوين.

(6) ابن رسته، الحلي الثمينة، القاهرة، 1955م، ص 228.

من اضطهاد القسطنطينية الديني والضرابي، الأمر الذي أدانه المجمع المقدوني الديني في تشرين الأول عام 451. ونتيجة لذلك تعرضت سورية لاضطهاد شديد - خلافاً صريحاً لتعليمات المسيح - يعتبر من كل النواحي من أفظع أوقات الاضطهاد الديني. فأشعلت المحارق في كل مكان - كما ذكر عالم التاريخ الكنسي يوحنا الآسيوي - "حيث كانت تنبعث رائحة لحوم الشهداء المحترقة لتصل بحزن إلى أنوف المؤمنين"⁽¹⁾. وبذل جلاًدون يلبسون ملابس رجال الدين - مثل البطريك إفرام الأنطاكي الملقب بمعذب المؤمنين - كل جهودهم للقيام بهذه الأعمال الكنسية التعسفية. وأجبر المساكين المعدمون المؤمنون، الذين كانوا لا يقبلون في أي حال من الأحوال بطبيعة المسيح الثنائية والأقانيم ووحدة الجوهر، على الكفر وطردوا إلى الصحراء وذاقوا الموت بعد أن تعرضوا لعذاب شديد لا يتصوره خيال. حتى إن يوحنا الآسيوي ذكر أن ذلك التعذيب "كان فيه من الفحش والفظاعة ما يصعب ذكره"⁽²⁾. إن لم يوفر ذاك الاضطهاد أحداً، فلقد كان موجهاً بالدرجة الأولى إلى "الهراقة"، اليهود والسامريين والمانيين، وأكثر من عاناه هم الوثنيون المتبقون والمنبوذون بحق، الذين يستحقون كما تنص شريعة جوستينيان "غضب الرب العادل"⁽³⁾. ونظمت في كل مكان عمليات تنصير إجباري في ظل حكم جوستينيان، وهذا دفع يوحنا الآسيوي إلى الافتخار بمكاسب النصرانية، التي وصلت إلى سبعين ألف مؤمن "اعتنقوا الدين بأكثر الوسائل حزمًا"⁽⁴⁾. بعد إخفاق المذهب الذي يدعو إلى الاعتقاد بطبيعة واحدة للمسيح حاول مذهب هجين ذو تعبير شديد الغموض أن يوفق بين الأطراف. فزاد الاضطهاد فظاعةً، وصدر أمر في كل الإمبراطورية بنهب بيت كل من لا يلتزم بعقيدة مجمع نيقية الكنسي، وجذع أنفه وسلم أذنيه⁽⁵⁾. وهكذا يمكننا أن ندرك كيف استطاعت ديانة موحدة في مثل هذه الظروف أن تفرض نفسها بقليل من المعارك خاضتها كوكبة من الفرسان. هذه الديانة التي تفتحت براعمها حديثاً في صحارى الجزيرة العربية، والتي جعلت من التسامح أساس مذهبها،

(1) جان آسيا، ذكره E. Rabbath، المشرق النصراني قبل الإسلام، L'Orient Chrétien à la Veille de l'Islam، بيروت، نشر جامعة لبنان، 1980م، ص 24.

(2) جان آسيا، The Third Part of the Ecclesiastical History of John... ترجمه من اللغة السريانية R. Payne Smith، أكسفورد، 1860م، ص 8.

(3) Code I, 11, 10,5.

(4) RABBATH, E، المرجع نفسه، ص 33.

(5) ميشيل السوري، Chronique Syriacque، ترجمه إلى الفرنسية B. Chabot-J.، باريس، 1899-1910م، الجزء 2، ص 412.

لا تدعي غير رغبتها في هداية النصارى وإخراجهم من الضلال. يزيل ميشيل السوري عند تأريخه لأحداث نهاية القرن الثاني عشر، كل غموض فيما يتعلق بهذا الموضوع، إذ يقول: "لهذا بعث إليه الشار أبناء إسماعيل (العرب المسلمين) من الجنوب - بعد أن رأى شر الرومان الذين حيثما حلوا وسيطروا نهبوا بوحشية كنائسنا وأديرتنا وأدانونا دون رحمة - ليخلصونا من أيدي الرومان (...)، ولم يكن نخلصنا من وحشيتهم وشرورهم وغضبهم مجرد منفعة صغيرة"⁽¹⁾.

عندما دخل القائد المسلم خالد بن الوليد دمشق عام 635م بعد حصار دام ستة أشهر فُتحت صفحة جديدة في تاريخها: وانتهت ألف سنة من سيطرة الغرب، التي بدأت بفتح الإسكندر المقدوني عام 332 قبل الميلاد، لتحل محلها تدريجياً لغة جديدة وهي اللغة العربية القريبة من اللغة الآرامية - لغة أجداد الشعوب السورية - وديانة جديدة هي الإسلام. وفي عام 660م نقل معاوية - الحاكم الذكي وكاتب النبي (ﷺ) - مركز الخلافة إلى دمشق بعد انتصاره على منافسيه. وهكذا استعادت دمشق وللمرة الأولى منذ 732 ق.م. دورها كعاصمة، الدور الذي سلبه منها الغزو الآشوري. وعرفت دمشق في ظل الدولة الأموية، التي كان حكامها - أتباع ديونيسوس وإراتو وأتباع محمد (ﷺ) على حد سواء - رجال دولة لاعمين، وعهداً ذهبياً مدة قرن تقريباً. لقد أصبحت عاصمة أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ إلى ذلك الوقت - إمبراطورية تمتد سلطتها من الهند إلى بلاد الغال (فرنسا) الجنوبية، من المحيط الهندي إلى بحر الخزر - وسيدة جميع الطرق التجارية: الطريق المؤدي إلى أفريقيا وطريق منطقة البحر الأبيض المتوسط وطريق الحرير وخاصة طريق الهند الذي كان حقاً "شريان العالم"⁽²⁾. لقد كانت في ذلك الوقت مجمعاً للبضائع من كل أنحاء العالم، ومكة التجارة العالمية؛ كان عالمها الفكري والثقافي يعانق كل مجالات الفن والفكر؛ وكان عالمها الديني يتألق كمنارة يصل نورها إلى أقصى أطراف ديار الإسلام. كانت دمشق مقر بلاط الخلافة المتألق حيث ازدهر الشعر وعوقرت الخمر، وكان للغرام والإثارة بكل أشكالها مكانة مرموقة تعادل مكانة علوم اللغة والدين، باستثناء زمن خلافة الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز القصيرة، الذي طالب أقرباءه بتبني حياة الزهد والتقشف. وازدانت دمشق بمبانٍ جديدة وقصور فخمة منتشرة في البساتين،

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 412.

(2) Morand P., La Route des Indes, الطريق إلى الهند, Paris, Arléa, 1989AD, p.11.

وبمبنى ثقافي تناسب ضخامته حجم الإمبراطورية، إنه الجامع المشهور الذي شيد في مكان معبد جوبيتر والذي بقي اسمه مرتبطاً باسم الأمويين. هذا الجامع الكبير بصحونه الثلاثة التي يبلغ طول كل منها مئة وستة وثلاثين متراً، والتي تحيط بالجانب الجنوبي لفناء واسع محاط بأروقة، سحر الكتاب المسلمين فوصفوه "بلؤلؤة القرن" أو "تحفة الزمان" أو "أعجوبة العصور"، وإن كان في جوهره ليس إلا عكساً لصيغ سابقة رومانية وبيزنطية، فإنه أدهش العقول بزيته الفخمة من الفسيفساء على خلفية من الذهب، فصُنِّف أحياناً بين عجائب الدنيا.

وبعد أن انتزعت بغداد من دمشق دورها كعاصمة للإمبراطورية عام 750م، لتصبح عاصمة العباسيين الذين أسسوها على ضفاف دجلة بعيداً عن الأماكن الحافلة بذكرى من سبقوهم من الخلفاء، لم تعد دمشق منذ ذلك الوقت - حتى استقلال البلد عام 1945م - سوى عاصمة مقاطعة سورية. ومع أنها تضررت كثيراً من هزيمة مروان الثاني، آخر خليفة أموي، فقد استمرت بفضل موقعها الجغرافي تؤدي دوراً رئيسياً في تاريخ المنطقة على كل المستويات، الإدارية والتجارية والثقافية والعسكرية والدينية. بدءاً من الربع الأخير للقرن التاسع، اضطرت السلطة العباسية الضعيفة والمهددة من قبل عدوها الخليفة الفاطمي، إلى السماح بظهور سلالات حاكمة محلية، فدخلت دمشق في مرحلة طويلة من عدم الاستقرار السياسي، إذ تبدل الحكم أثناءها، في أقل من قرن، خمس مرات. ففي عام 878م، احتلتها كتائب الضابط التركي أحمد بن طولون الذي أعلن استقلاله في مصر. وفي عام 905م استرجعت السلطة العباسية سيادتها، ولكن في عام 945م، وبعد أن احتلها حمدانيو حلب مدة قصيرة، سقطت في أيدي محمد بن طُغج مؤسس الدولة الإخشيدية. وفي عام 970م، بعد أن انهزم الإخشيدون قرب الرملة، استولى عليها الفاطميون. وكان هذا بداية أظلم القرون في تاريخها بما شهدت من: مناوشات مستمرة بين الجيوش المغربية والمليشيات الشعبية، ومعارك منظمة بين الأحياء، وثورات الحكام، وصراع ديني بين الشيعة والسنة، وزوال أمن طرق المواصلات، وتخريب محاصيل الغوطة وقراها مما كان يقوم به البدو الذين كانوا يهرعون في كل مرة تضعف فيه السلطة المركزية إلى السلب والنهب. فكانت نتيجة اختلال الأمن المزمن هذا تغيراً جذرياً في معالمها الطبوغرافية: فبغية إعادة بناء ما دمرته الحرائق والتخريب الناتج عن البلبلية، حل تدريجياً محل مجموعة المساكن اليونانية والرومانية المتجاورة تداخل معقد من المساكن غير المنتظمة. وحلت في نفس الوقت محل الطرق العريضة المتعامدة والمستقيمة شوارع ضيقة ومتعرجة تمكّن الناس من

الدفاع عن أنفسهم، وتنتهي بحارات مسدودة تغلق كل مساء بباب. وأخذت دمشق تدريجياً شكلاً جديداً يمكن أن نسميه شكل المدينة الإسلامية. فعوضاً عن وحدة المدينة الرومانية القديمة قام تجمع من الأحياء التلقائية إلى حد ما، وقد تزود كل حي بجميع أنواع المؤسسات المدنية من: مساجد وأسواق صغيرة وحمامات وأفران وغيرها. كتب المقدسي⁽¹⁾، وهو عالم جغرافي سوري في نهاية القرن العاشر: "كانت البيوت قليلة السعة، والشوارع قليلة التهوية، وتقلصت الفسح بين الأبنية". وجاءت التهديدات الخارجية لتنضم إلى البلبلية الداخلية. ففي عام 975م، نزل جيش جان تزييميسس البيزنطي في وادي بردى بعد أن أحرق بعلبك، ولم تنج دمشق من الاحتلال إلا بعد أن وافقت على دفع جزية كبيرة بلغت مئة ألف درهم. وفي عام 1076م، ضمها الأمير التركي ألتسز بن أوفاك إلى أملاك السلاجقة، فوضع بذلك حداً لأكثر من قرن من السيطرة الفاطمية. وبعد عامين، أتى الأمير توتش، أخو السلطان الملك شاه، ليؤسس سلطة سلالته الحاكمة.

في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر عام 1097م جاء الجيش الصليبي قادماً من الأناضول حيث كان حرقَ المدن ودبَحَ اليهود ونهب كل المدن التي مر بها، جاء وقد أثارته البابوية ليحرر سورية التي يسميها المؤمنون "الأرض المقدسة" من الفئة الضالة، وحاصر إنطاكية. كتب المؤرخ الدمشقي ابن القلاسي: "توالت في الوصول إلى دمشق ذاك العام معلومات تفيد بظهور جيش هائل قادم من بحر مرمر. ولما تابعت الأخبار عن هذا الموضوع دون توقف، تملك الناس الرعب، وخافوا عندما سمعوا بانتشارهم"⁽²⁾. لم يتحرك الأمير دقاق ابن توتش، الذي كانت المدينة تحت سلطته - خوفاً من الفاطميين الذين عادوا إلى مهاجمتها بعد أن رفض الفرنجة مقاسمتهم سورية - ليوقف تقدم الغزاة الذين شجعهم انقسام العالم الإسلامي تحت سلطة خليفيتين متنافسين والصراع داخل الأسرة السلجوقية، فاستولوا على القدس في 3 حزيران/ يونيو عام 1098م. ولما كانت مملكة القدس اللاتينية خير وقاية من عودة أي هجوم فاطمي، بقيت السلطات الدمشقية زمناً طويلاً - برغم بعض المناوشات المتقطعة وغير المنتهية وإبدائها لعدائها - مترددة بوضوح في استرجاع القدس. وإذا كان استرجاع جيوش زنكي، أمير الموصل التركي، للرها في 24 كانون الأول/ ديسمبر عام 1144م، قد

(1) المقدسي، La Meilleure Répartition pour la Connaissance des Provinces، ترجمة A. Miquel، 1963م، ص 167.

(2) ابن القلاسي، دمشق من 1075 إلى 1154م. ترجمة مقطع عن تاريخ دمشق... R. Le Tourneau، بيروت، 1952م، ص 38.

غير توازن القوى تغييراً واضحاً، وترك نصارى الغرب في حالة من الذهول، فإن ابنه نور الدين هو من حقق وحدة سورية الضرورية لأي انتصار حاسم على الفرنجة، بما شنه من هجمات على إمارة إنطاكية. ودخل نور الدين دمشق في 25 نيسان/ أبريل عام 1154م، بعد عدة محاولات فاشلة، ونجح، حيث فشل والده من قبل، في وضع حد لحكم البُريديين الذين كانوا منذ موت دقاق عام 1104م يتآمرون مع العدو. وبرغم الحروب وعدم الاستقرار المزمّن الذي عانتته دمشق خلال القرنين السابقين، فقد بدأت عام 1154م، كما يذكر الإدريسي، مدينة غنية متألقة: "إنها من أكثر المدن السورية سموّاً، موقعها رائع، وجوها معتدل وصحي، وأرضها خصبة، ومياهها غزيرة، ومتجاتها متنوعة، وثرواتها هائلة، وسكانها كثيرون، ومبانيها رائعة. ترتبط بهذه المدينة منطقة جبلية، ووادي خصب مزروع يسمى الغوطة (...) حيث توجد قرى كبيرة كالمدن (...). يتراوح عدد سكانها بين الألف والألفي نسمة. ويتألف الجزء الأكبر من الغوطة من بساتين وحدائق تخرقها جداول الماء، وما ينتجه هذا الوادي من كميات كبيرة من الفواكه اللذيذة يفوق التصور، ويجعل من دمشق من أكثر المدن التي أبدعها الخالق متعة"⁽¹⁾. أما فيما يتعلق بنشاطها التجاري والحرفي، فتأتي في المقدمة أقمشتها التي، وفقاً للإدريسي، "تقارب بجودتها أندر صناعات أصفهان ونيسابور"⁽²⁾. وهي تؤكد أن الفوضى والحروب ومجاورة العدو الفرنجي لم تؤثر على ثروتها وازدهارها أبداً.

طبوغرافية دمشق في عهد نور الدين أقدم ما يمكن الرجوع إليه على نحو مفصل، وذلك بفضل مؤلفات المؤرخين الدمشقيين مثل ابن القلانسي أو ابن عساكر، وعديد من المباني الأثرية التي مازالت قائمة. إذ ظهرت فيها خلال عشرين سنة مباني متنوعة وبأعداد كبيرة: مدارس وهي مؤسسات حقيقية للدولة تهدف عن طريق تعليم العلوم الدينية دعم تضامن أهل السنة أمام الشيعة، ودور الحديث حيث تُعلم السنة النبوية الشريفة، وخانقاهات يشهد عددها على حيوية تصوف المسلمين في القرن الثاني عشر، ومشاهد لتخليد ذكرى الأشخاص المبجلين، ودار العدل حيث كان يحكم بين الناس، وبيهارستان (مستشفى)، وحمامات، وأضرحة، والعديد من المباني التجارية من أسواق وخانات وقيصرات كانت مخصصة غالباً لصناعة وبيع المنتجات الكمالية: الذهب والخير

(1) الإدريسي، "جغرافية" الترجمة إلى الفرنسية A. Jaubert، أمستردام 1975م، ص 349-350. إذا استثنينا الجامع الأموي، لم يبق اليوم ولا مبنى من المباني الرائعة التي ذكرها الإدريسي، تعود أقدم المباني في دمشق إلى عهد نور الدين.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 352.

والسجاد وغيرها. يشهد الحاخام الاسباني بنجمان دو تودل على الشهرة التي كانت تتمتع بها دمشق في ذلك الزمن كمركز للتجارة العالمية، إذ قام بزيارتها عام 1173م، وكتب: "تجذب دمشق إليها كل مدن العالم الأخرى بما يجري فيها من الأعمال التجارية"⁽¹⁾.

بعد وقت قصير من موت نور الدين في أيار 1174م، أصبحت دمشق تحت سلطة قائدها صلاح الدين، الذي جاء مسرعاً إليها من مصر حيث قتل الخليفة الفاطمي قبل ثلاث سنوات إرضاء للسلطة العباسية. اتحدت مصر وسورية حينذاك تحت سلطة واحدة، وأصبحت أيام الدول اللاتينية معدودة. ففي اليوم التالي لمعركة حطين عندما قضي في 4 تموز/يوليو عام 1187م على فرسان الفرنجة في الوقت الذي سقطت في أيدي المسلمين قطعة الخشب التي كان يعتقد المؤمنون النصراني أنها "الصليب الحقيقي"، فتحت عكا والناصرية، وقيسارية، ونابلس، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وعسقلان، والقدس. وفي العام التالي، هوجم العديد من الحصون ثم فتحت. وإن تمكنت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد من استعادة عكا، فإنها لم تحدث أي تغير في توازن القوى الجديد، ولم يعد بحوزة الفرنجة عام 1192م بعد توقيع اتفاقية "سلام الرملة" إلا بضعة أراضٍ ساحلية محصورة منعزلة عن داخل البلد، وبعض قلاع كان يشغلها الجند. في 3 آذار عام 1193م، قدم موت صلاح الدين للدول اللاتينية هزيمة لم يحلموا بها: إذ لم يتردد ورثته من الأيوبيين، بحكم الظروف، في التحالف مع الفرنجة، وأخذوا، طوال أكثر من نصف قرن، يتنازعون على إرثه، وتحاصم الإخوة وتقاتلوا. ومع هذا عرفت دمشق حقبة من الزمن تعد الأكثر تألقاً في تاريخها. إذ بفضل الأمن، توسعت القرى التي برعمت في عهد نور الدين لدرجة أن ياقوت، عالم الجغرافية المعاصر لتلك الحقبة من الزمن، ذكر أن "مساحتها كبيرة كمساحة المدن"⁽²⁾. وفي أسفل جبل قاسيون أصبحت الصالحية، التي كان أسسها فيما مضى الفلسطينيون الهاربون من احتلال الفرنجة، والتي لم يكن فيها في منتصف القرن الثاني عشر إلا بضعة منازل، مدينة حقيقية تجاوز امتدادها ألفاً وخمسمئة متر. وأعيد بناء القلعة التي كان أسسها التركي أئمز كاملاً، وزودت بآخر المخترعات التقنية، وبهذا شغلت مكاناً هاماً بين القلاع الواسعة والقوية في سورية المسلمة.

(1) Benjamin de Tudèle, Voyage du Célèbre Benjamin de Tudèle autour du Monde commencé en l'an 1173...،

رحلة بنجامين دو تودل الشهير حول العالم ابتداء من عام 1173م، La Haye، 1735م، ص 27.

(2) ذكره عبد القادر الرحاوي، Damascus. Its History, Development and Artistic Heritage، دمشق، 1977م، ص 271.

وتضاعف عدد الجوامع والمدارس والحمامات والتراب والحانات، وتوسعت الأسواق لتضفي على المدينة طابعاً هندسياً مازالت تحتفظ به إلى اليوم.

استحقت دمشق مكانة سامية في خيال المسلمين بسبب انتصاراتها على الفرنجة، وبساتينها وقنواتها المائية - صورة حقيقية عن الجنة - والعديد من المباني الدينية، وعدد كبير من أضرحة صحابة الرسول (ﷺ) والخلفاء الأمويين القدامى والأولياء وشهداء الجهاد، ودورها كآخر مكان لتجمع الحجاج المتجهين إلى مكة، ومجموعة من الأساطير التي تربطها بدون دليل بشخصيات متنوعة ومقدسة كآدم وقابيل وهابيل ونوح وإبراهيم وإسحاق وموسى وهود وجيرون وسليمان وداوود وأيوب ولوط ويحيى المعمدان ومريم العذراء والمسيح. في عام 1184م كتب الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي كان مسحوراً بها: "إنها جنة المشرق حيث يتألق الجمال الرائع، وهي مسك الختام لجميع البلدان المسلمة التي زرناها، وعروس بين المدن التي كشفنا النقاب عن وجهها. لقد تزينت بنباتات مزهرة عطرية، وازدانت بحلقة هبة من البساتين، واحتلت في درجات الجمال مكانة مرموقة. إنها تتألق في موكب استعراضها بزينة رائعة جداً (...). فيها رياض تنعش نسماتها العليقة الأرواح. وتبدي لناظرها سفوراً باهراً (...). وتحيط بها البساتين إحاطة الهالة بالقمر"⁽¹⁾.

في كانون الأول عام 1249م، في الوقت الذي كان فيه المغول سادة المشرق ويهددون الحدود السورية، نزل فرنجة الحملة الصليبية السابعة مصر بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، وركبوا سفنهم في النيل باتجاه القاهرة. في 6 نيسان عام 1250م، انتصر الجيش الأيوبي بقيادة المعظم توران شاه، حفيد أخي صلاح الدين، على الفرنجة انتصاراً حاسماً في فارسكور، وسجن ملك فرنسا والعديد من البارونات. في نفس الوقت، كان التمرد ينتشر في معسكر المسلمين: فتمرد فيلق من فرسان المماليك - مرتزقة أتراك جندهم السلطان السابق الصالح أيوب - خوفاً من فقدان نفوذهم على توران شاه وقتلوه بقيادة الأمير بيبرس. وهكذا نشأ بتصرف مزاجي لمجموعة من الجنود خافت من قلة خبرة أمير شاب، حكم المماليك، الذين استمرت سلطتهم على سورية ومصر حتى وصول العثمانيين عام 1516م. وتمكن المماليك بعد أن تغلبوا مرتين في منطقة غزة على الجيش الأيوبي المحتشد في سورية

(1) ابن جبير، رحلات، ترجمه إلى الفرنسية، Demombynes-M. Gaudfroy. وثائق متعلقة بتاريخ الحروب الصليبية، الجزء 6،

باريس، 1953-1956م، ص 301.

بقيادة الناصر يوسف، ابن حفيد صلاح الدين، من دحر الجيش المغولي وراء الفرات الذي كان قد دخل الجليل بعد أن احتل دمشق خلال صيف عام 1260م. واتحدت سورية ومصر من جديد، وتجددت دولة نور الدين القديمة، وأخذ المماليك يحاربون الفرنجة بحماس كبير كان المسلمون قد فقدوه منذ موت صلاح الدين.

تقلد المماليك الحكم بعد القيام بما يسمى اليوم بالعصيان المسلح، وأصبح حكمهم دون أي شك أحد الأنظمة الفريدة في تاريخ المسلمين. إنه لمن المدهش أن ينبجح في السيطرة على سورية ومصر مدة تزيد عن القرنين عصابة من الغرباء، أتراكاً كانوا أم جراكسة، جرى شراؤهم كعبيد من أسواق القوقاز أو آسيا الوسطى، وكانوا منعزلين عن رعاياهم قبل أن يحكموهم، وكانوا لا يتقنون لغتهم إلا نادراً. لا بد من البحث عن سبب هذا النجاح في التنظيم الإداري والعسكري الذي لم يكن له مثيل، والذي استطاعوا أن يحافظوا عليه بحزم منقطع النظير في خضم نزاعات داخلية مستمرة. يأتي السلطان في قمة هذا النظام، فهو الذي كان يسكن قلعة القاهرة والذي كان الأول بين الأمراء الذين جرى، في غالب الأحيان، انتخاب أحدهم ليحل محل السلطان بعد موته أو خلعه أو اغتياله. لقد كان حقاً نظاماً مؤسساتياً فريداً من نوعه، ولم يفت ماكيافلي أن يذكر: "من الجدير بالملاحظة (...) أن حكومة السلطان تختلف عن جميع الحكومات الأخرى، فهي لا تشبه أبداً نظام الباباوية عند النصاري، ولا يمكننا تسميته نظام إمارة وراثي أو نظام إمارة جديدة. إذ إنه عند موت الأمير، لا يرثه أولاده ولا يحكمون بعده، وإنما ينتخب خليفته الموكلون بهذه المهمة"⁽¹⁾. وهكذا كان أنداد السلطان يحدون من سلطته، وبناء عليه كان السلطان - مراعاة لأولئك الذين كانوا فيما مضى أمثاله وقد يصبحون غداً منافسيه - لا يلقب نفسه في رسائله لضباطه بالسلطان، وإنما بالملك أي العبد⁽²⁾.

كان تحت إمرة السلطان جيش مؤلف من فرسان شجعان من المماليك فقط، الذين كانوا ملكاً للأمراء الذين اشتروهم ودربوهم وسلحوهم من واردات الإقطاعات أو من جباية الضرائب. لقد كان هؤلاء الفرسان أثناء خدمتهم العسكرية يرقون إلى مراتب ذات تسلسل عسكري دقيق، وذلك بسرعة تتناسب مع قدراتهم العسكرية، أو ما يتحلون به من مزايا شخصية تثير عند ملاكهم التقدير

(1) MACHIAVEL, N الأمير، Le Prince، الطبعة 18-10، 1965م، ص 65.

(2) كلمة المملوك مشتقة من فعل ملك، فهي تعني الشيء المملوك.

والاحترام، إلى أن يأتي اليوم الذي يصبحون فيه أمراء من المرتبة العليا، وأقوياء بجيشهم الخاص واتفاقيات عقودها مع رفقاتهم القدامى في الثكنة، عندئذ يطالبون بدورهم بالسلطنة. يقوم النظام على مخصصات الضرائب التي كانت تضمن للأمراء معيشتهم على حساب الذين يفلحون الأرض، والتي كانت تمنح لهم طول حياتهم أو لمدة محددة، ولكنها لم تكن تمنحهم على عكس الإقطاعيات الغربية حق الملكية ولا حق الانتفاع بالأرض أو أية سلطة قانونية على الفلاحين الذين كانوا معفيين من كل الروابط الإقطاعية ولا يخضعون مبدئياً إلا لقانون واحد معروف وهو الشريعة. وكان ديوان الجيش - وهو يأتي في المرتبة الأولى من الأهمية بين الدوائر الإدارية - مكلفاً بإدارة وتوزيع موارد الأراضي وفق سجل مساحة دقيق جداً ومجدد باستمرار لتاريخ اليوم الجاري. في مثل هذا النظام حيث يشعر كل فرد فيه أن من حقه تولي السلطة العليا، يكثر التمرد والمؤامرات والاعتقالات التي تملأ صفحات المؤرخين، ولكن مما لا شك فيه أن تجهيزات الممالك من الأسلحة والقلاع والمؤن كانت متميزة جداً. في القرن الخامس عشر كتب الرحالة فليكس فابري وقد أذهله عن تدريباتهم العسكرية: "حياة الإنسان هنا أقل أهمية من ذبح دجاجة"⁽¹⁾. ويرى شرف الدين مؤرخ تيمورلنك - لقد كان المغول خبراء بالفروسية - ففرسانهم هم الأفضلون في العالم⁽²⁾. ولم يكن الممالك يشكّون في تفوقهم مطلقاً، إذ كتب خليل الظاهري مؤكداً، وهو فيلسوف السلطة وكاتب وصولي بحق في أدب الممالك: "تتألف فرق الجيش المدربة لخوض الحروب من عدد كاف من الفرسان للقضاء على العدو المغرور الذي تجرأ عليهم". لقد أنجز جيش الممالك ما بدأه صلاح الدين ونزع عكا من آخر المدافعين عنها في حزيران 1291م محرراً بهذا سورية من محتليها الفرنجة، وصد مراراً عديدة هجوم المغول.

في قلب العالم الإسلامي من حيث بدأ التدهور يصيب نواحي عديدة من الحياة، وظهر في الأفق بوادر هجوم غربي قريب⁽³⁾، بدت دولة الممالك بقوتها وثباتها وقد توجهت انتصاراتها، كأنها

(1) انظر إلى 1483، Masson, R.P.J., Voyage en Egypte de Félix Fabri, باريس، 1975م، الجزء 2، ص 555.

(2) شرف الدين، قصة تيمور بيك، المعروف باسم تيمورلنك الكبير، الترجمة إلى الفرنسية، Péris de la croix، باريس، 1722م، الجزء 2، ص 313.

(3) فيما يتعلق بالشعور بالانحطاط، انظر إلى ما كتبه ابن خلدون، مقالة عن تاريخ العالم، الترجمة الفرنسية، باريس 1978م، الجزء 2، ص 779 و 858 والجزء 3، ص 960، 1081، 1225. لا شيء يعبر عما جرى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر من تأرجح بين المشرق والغرب أفضل من هاتين الملاحظتين. في القرن العاشر، وفي العالم الإسلامي المدرك لتفوقه، ذكر المسعودي تدهور العلوم

معجزة سياسية حقيقية. في نهاية القرن الرابع عشر، لم يتوان ابن خلدون في كل مناسبة عن تمجيد عظمة دولة المماليك وازدهارها، متخذاً من حياتها الثقافية والدينية مثلاً يُحتذى به، فهي في نظره ليست إلا "أعجوبة الزمان" و"أجل لؤلؤة في عقد الإمبراطوريات"⁽¹⁾، في حين يرى في القاهرة "عاصمة العالم وإيوان الإسلام ومنهل العلم والفن"⁽²⁾. ولا بد أن نذكر أن ابن خلدون لم يرفض أن يشغل مناصب سياسية راقية عند السلطان. فهو من كُلف عام 1400م بالتفاوض حول شروط استسلام دمشق في خيمة تيمورلنك. إضافة إلى ذلك فإننا نجده وهو الذي يرى في مبدأ تولي نفس السلالة السلطة مؤشر عجز، يجد نظام المماليك مزيناً بكل الفضائل، هذا النظام المتجدد دائماً بورود دم جديد، حيث يكون تولي العرش نتيجة "انتخاب طبيعي" يحدده الدهاء والعنف.

ولما كان هم السلطان في مثل هذا النظام هو المحافظة على سيادته - كما لاحظ فيما مضى ماكيافل - فإننا نجده يركز اهتمامه على الجيش فقط ويهمل الشعب كنتيجة طبيعية لذلك⁽³⁾. وكان التعذيب - كما اقترحه خليل الظاهري الذي لم يتردد في استعماله كوسيلة للحكم - يومياً، ولا تستثنى منه طبقة العلماء المبجلين. ومع أن هؤلاء العلماء كان من مهمتهم ضمان تطبيق الشريعة، والدفاع عن مصالح الرعايا لدى الأمير فإنهم كانوا عاجزين عن معارضته، وفي كثير من الأحيان كانوا معينين مطيعين ومتساهلين مع الظلم. وكان القليل ممن تمرد منهم يخضع لتعذيب شديد جداً لا يقل فظاعة عما ورد في الأساطير. ففي تشرين الثاني 1504م، تحمل أحد القضاة الشجعان تعذيباً شنيعاً يفصح ما كانت السلطة تكنه من احتقار لرجال الدين المحترمين: "لقد سحقوا عقبي قدميه وركبتيه، وغرزوا أسياخاً أشعلت فيها

في الغرب: "... عندما ظهرت الديانة النصرانية عند الروم، كانت الضربة القاضية على الصرح العلمي: واختفت آثاره ومحيت الطرق المؤدية إليه. وتلاشى كل ما أنجزه اليونان القدامى وتشوهت الاكتشافات العبقريّة القديمة".

(Les Prairies d'or, trad. fr. Ch. Pellat, t. 2, p. 278, Publication de la société Asiatique, Paris, 1965AD)

وفي القرن الرابع عشر، بعد أن بين أسباب تدهور العالم الإسلامي، كتب ابن خلدون: "لقد سبب اليوم سقوط الدول وتدهور الحضارة انحطاطاً عاماً" (Discours..., t.2, p. 858) ولاحظ ابن خلدون إحياء العلوم في الغرب: "لقد بلغني أنه أصبح للعلوم الفلسفية أهمية كبيرة في بلاد الروم، وفي الأماكن الشبالية المجاورة لبلاد الفرنجة. وقد تأكد لي أنهم عادوا إلى دراستها وتدرسيها من جديد. فهناك عديد من الكتب المتعلقة بهذه العلوم، ويسعى كثير من الناس والطلاب لتعلمها"

(Discours..., t.3, p. 1049)

(1) ابن خلدون، رحلة من الغرب إلى الشرق، باريس، 1980م، ص 193 - 194.

(2) ابن خلدون (Discours..., t.3, p. 1238).

(3) MACHIAVEL, N., المرجع نفسه، ص 1238.

النيران في أصابعه (...)، واقتلعوا حلمتي صدره بملاقط محمية حتى الاحمرار وأجبروه على أكلها، وضغطوا على صدغه بحبل قنب إلى أن خرجت عيناه من محجريها وسقطتا على خديه"⁽¹⁾. وقد لاحظ المسافرون الأوروبيون أيضاً مرات عديدة كل أنواع العنف الذي مارسه الجنود الرعاع الهمج على السكان في شوارع دمشق أو القاهرة، دون مراعاة للسن أو الجنس. كتب جان تينود عام 1312م: "عندما كان المماليك يعلمون بوجود امرأة أو فتاة جميلة في بيت ما، كانوا يدخلونه ويطردون منه الأب والأم والزوج ليشبعوا شهواتهم (...). ولم يكن مسموحاً للأهل الدفاع عن أنفسهم أو التمرد، بل كان عليهم الصبر لأن من يضرب مملوكاً، سواء كان محقاً أو مخطئاً، تفقأ عيناه وتقطع يده"⁽²⁾. ولم يكن السلطان نفسه منزهاً عن هذا النوع من الفسق، وهو المكلف بموجب ما تأمر به الآيات القرآنية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كتب ابن إياس: "إذا شاهد ناصر محمد في بيت ما فتاة جميلة، كان يسرع في الدخول إليه من النافذة، ويخطف الفتاة ويأمر بجلد زوجها داخل منزله"⁽³⁾.

أصبحت دمشق في النصف الأول من القرن الرابع عشر مدينة رائعة لا مثيل لازدهارها بفضل الأمن الذي حققه لها حاكمها اللامع الأمير تنكز أثناء مدة حكمه الطويلة. إذ لم يُثر عصر سابقاً أو لاحقاً، لدى الرحالة الأوروبيين المبهورين بها بكل معنى الكلمة، تعليقات متحمسة كهذه. ففي عام 1332م رأى فيها غيوم دو بولدنسل: "مدينة ساحرة جداً، وجميلة وغنية جداً، وكثيرة المياه والعمران ومليئة بالبضائع والمؤن بأنواعها"⁽⁴⁾. وفي عام 1335م، مدح جاك دو فيرون منازلها "الجميلة" ومبانيها "الكبيرة والجميلة والمصفوفة جيداً"، وشوارعها "العريضة"⁽⁵⁾، وأدهشه عدد الجمال الكبير

(1) WIET, G., Journal d'un bourgeois du Caire, مذكرات برجوازي في القاهرة، باريس، 1955 - 1960م، الجزء 2، ص 67 - 68.

(2) THENAUD, J., Le Voyage d'outremer, باريس، 1874م، ص 56 - 57.

(3) WIET, G., المرجع نفسه، الجزء 1، ص 440.

(4) BOLDENSELE, G., feuillet 81. ترجمت رواية بولدنسل إلى الفرنسية عام 1351م، ضمن مصنف عن الأسفار نشره عام 1529م، Jehan de Saint Denys تحت عنوان: L'Histoire Merveilleuse (...) du Grand Empereur de Tartarie، باريس، 1529.

(5) VERONE, J. (de), "Liber Peregrinations, Fr. J. de Verona"، في مجلة المشرق اللاتيني L'orient latin، الجزء 3، 1895م، ص 291 (الترجمة إلى الفرنسية P. Sebag).

التي كانت تجوب المدينة في الليل والنهار "محملة كلها بالموثون والبضائع"⁽¹⁾. وفي عام 1340م، وجدها الألماني لدولف فون سودهايم "رائعة وغنية وراقية وجميلة جداً حتى إنه يصعب أن تجد في العالم ما يفوقها (...). إنها مليئة بكل الملذات، ومزودة بكل المباحج التي يمكن للإنسان أن يأتي بها (...). كثيرة السكان، وتعيش فيها أمم متنوعة، من النصارى والمسلمين وأتباع ديانات أخرى (...). وتوجد فيها كميات هائلة من القطع الذهبية والفضة والأحجار الكريمة والأواني والفراء والملابس المطرزة والأقمشة الحريرية والصوف وكل أنواع الأقمشة الثمينة"⁽²⁾.

في عام 1400م، عاشت دمشق التي احتلها مغول تيمورلنك أنعس أيام تاريخها: إذ قُتل كثير من سكانها، وأصبح الجامع الأموي والأحياء المجاورة له فريسة للسنّة النيران، وقيد الرجال والنساء وسيقوا عبيداً بعد أن جردوا من كل ممتلكاتهم، ونفي إلى سمرقند عدد هائل من الحرفيين وحائكي الأقمشة والنحاسين. والحدايد والصاغة وصانعي الخزف ونُحات الحجارة ونافخي الزجاج. كتب ابن إياس: "وهكذا أصبحت دمشق التي كانت شديدة الازدهار والمرح والتألق والغنى والروعة، كومة حطام وأنقاضاً مهجورة جردت من جمالها وفنها. ولم يبق من أحيائها إلا هياكل احترقت أجزاؤها ومقامات شوهاها الغبار، وغطاها رداء من الذباب وأصبحت فريسة وغنيمة للكلاب"⁽³⁾. ضمدت مدينة الأمويين النازفة جروحها رويداً رويداً، ولكنها لن تنهض أبداً بعد الضربة التي تلقتها من المغول. ولن يتغنى بروعتها وازدهارها بعد الآن المسافرون الذين مازالوا يجدون فيها بعض المباحج، كما تغنى بها من قبل بلودنسل أو جاك دو فيرون أو فون سودهايم.

في السنوات العشرة الأخيرة من القرن الخامس عشر، عندما كانت ميزانية الدولة قد استهلكتها الحملات المستمرة التي قامت بها سورية في الشمال على العثمانيين، واستنفدت النزاعات بين أمراء البلاد، وكان الجيش قليل الأجر في حالة من العصيان المستمر، كان البرتغاليون يحولون اتجاه التجارة البحرية من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح، ليحرموا بذلك دولة المماليك من جزء كبير من مواردها. في ظل هذه الظروف المأساوية بدأ آخر فصل من النزاع مع العثمانيين، وشن هؤلاء هجوماً في

(1) المرجع الأخير، ص 291.

(2) SUDHEIM, L. (de), "De Itinere Terre Sancte", في أرشيف المشرق اللاتيني، باريس، E. Leroux، 1884م، الجزء 2،

ص 360 (الترجمة إلى الفرنسية P. Sebag).

(3) WIET, G. (3) المرجع نفسه، الجزء 1، ص 274.

بداية عام 1516م حرصاً منهم على تدارك خطر التحالف الذي كان يُعد بين المماليك والسلاجقة. وجرت تعبئة الجيش في القاهرة كيفما كان لئلا تستنزف آخر موارد الدولة. وشُري إخلاص الضباط ببضعة آلاف من الدنانير، فحصل القائد العام، الأمير صودون عجمي على خمسة آلاف دينار، وكل مملوك على مئة دينار وراتب أربعة أشهر وثمان جمل. وفي أيار 1516م، عندما كان الأمير طومان باي حاكماً بالنيابة، خرج السلطان قانصوه الغوري من مصر على رأس جيش ضخم تتقدمه ثلاثة فيلة مزينة بالرايات في وسط حشد من الناس المهللة. وفي 24 حزيران سلك جيش المماليك الطريق المؤدي إلى شمال سورية، ولحقت به بعد بضعة أيام فرق الأمير سيباي حاكم دمشق. وفي حلب وضع السلطان ثروته التي كانت تقدر بمليون دينار بمأمن في القلعة. وهناك في الميدان الكبير وعلى أضواء المشاعل وبحضور أمير المؤمنين وأربعة قضاة وكبار الشيوخ والجيش كله أقسم الضباط على المصحف الكريم بولائهم للسلطان. وفي 20 آب سبق جيش المماليك قوات السلطان سليم الأول العثمانية وعسكر في شمال شرق المدينة في مرج دابق. وبعد خمسة أيام، قام قانصوه الغوري بعد صلاة الصبح بتنظيم جيشه للمعركة، مرتدياً معطفاً أبيض اللون، وقد اعتمر قلنسوة صغيرة حاملاً على كتفه فأساً. كان السلطان في المركز بجانب أمير المؤمنين الذي كانت ترفرف فوقه راية العباسيين السوداء، يحيط به الأشراف وعلى رؤوسهم مصاحف مغلفة بالحرير الأصفر. وكان سيباي في الجناح الأيمن، وخير بك حاكم حلب في الجناح الأيسر. وكاد أن يكون النصر للمماليك لولا أن خير بك ترك المعركة بكامل جيشه في الوقت الذي كان فيه العثمانيون يهاجمون بأسلحتهم النارية. فحل الاضطراب في الصفوف السورية والمصرية، وقتل صودون عجمي وسيباي، وأُخترق الجناح الأيمن. وتضاعف عدد المنسحبين من حول السلطان، فمات في المعركة. "وبقي جسده، كما كتب ابن إياس، مرمياً في ساحة المعركة تأكل منه الذئاب والوحوش المفترسة (...). وتلاشت سلطته وكأنها لم تكن أبداً"⁽¹⁾. وانسحب ما تبقى من الجيش ومعهم ابن السلطان وزوجة سيباي وابنته إلى مصر. وقد كانت حالة الجنود مزرية، وهم مجردون من زيهم العسكري وراجلون. يمتطي بعضهم البغال، وكان بعضهم عارياً، أو يرتدي لباس البدو أو مجرد كساء يستر عورتهم⁽²⁾. واعتلى طومان باي العرش في القاهرة متخذاً لنفسه لقب الملك الناصر، في حين كان عرب القبائل يثيرون البلبل في كل مكان وقد شجعتهم الظروف. وعين مجموعة

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 67-84.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 70.

من الأمراء الأمير جان بردي الغزالي حاكماً في دمشق، إلا أنه كان مقتنعاً أن مقاومة القوة العثمانية لا جدوى منها، فغادر بدوره دمشق في 21 أيلول يرافقه حرسه وأعيان القوم تاركين المدينة دون حكومة شرعية. وأسرعت عصابات اللصوص في السطو على المنازل المهجورة وممتلكات التجار الأوروبيين وحي يهود السامرة يقتلون ويسرقون. كتب ابن إياس: "بمختصر القول، كان وضع المدين السورية فظيلاً جداً"⁽¹⁾. ومع أن القلعة بقيت في أيدي حاكمها المملوكي علي باي، استمرت البلدة خلال ستة أيام إلى أن دخل يونس باشا الحاكم العثماني الجديد المدينة بعد أن دعاه وجهاء وشيوخ الأحياء. وفي اليوم التالي، بينما كانت الخطبة تلقى باسمه في الجامع الأموي، وصل سليم الأول على رأس جيش كبير - قدّر عدده المؤرخ الدمشقي ابن طولون بمئة وثلاثين ألف رجل⁽²⁾ - إلى منطقة القابون حيث أقام معسكره. وهناك أذن لكبار القضاة الأربعة ثم الأشراف بمقابلته، وقيد بالسلام على علي باي الذي جاء إليه يسلمه مفاتيح القلعة. وفي يوم الخميس 3 تشرين الأول، ظهر في دمشق مدة وجيزة محاطاً بالعديد من الجنود وذهب إلى حمام الحموي حيث حلق لحيته⁽³⁾ قبل أن يشهد في اليوم التالي صلاة الجمعة في الجامع الأموي، حيث نعتة كبير قضاة الشافعية ابن الفرفور "بالمختصر وخادم الحرمين، مكة والمدينة". لم يستقر العثمانيون في المدينة دون إثارة استياء شديد: ففي الوقت الذي احتل فيه الجيش العديد من المنازل بعد طرد أهلها منها دون مراعاة لأعمارهم ومراكزهم الاجتماعية، ورمي ممتلكاتهم من النوافذ - كان ابن طولون منهم، إذ رميت كتبه على قارعة الطريق - حول العديد من الأماكن المقدسة إلى إسطنبول، واستولى سليم على منزل جميل قريب من مدرسة نور الدين لاستخدامه الخاص بعد أن طرد جميع سكان المنازل المجاورة.

كان السكان في القاهرة في حالة من الذعر الشديد، فهرب بعضهم إلى مصر العليا، واختبأ بعضهم "داخل أقبية المقابر"⁽⁴⁾. وقد انتشرت آلاف الإشاعات المضخمة حول الفظاعات التي ارتكبتها الجنود العثمانيون في دمشق: من تعاطي الخمر والجعة والحشيش وعدم صيام رمضان وما افتعلوا

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 80 - 81.

(2) LAOUST, H., Les gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premier Ottomans (1260-1744AD) (658-1156).

حكام دمشق أثناء حكم المالك وبداية الحكم العثماني. ترجمة سجل ابن طولون وابن جمة، دمشق، 1952م، ص 148

(3) بنى الحمام عز الدين أيك الحموي (1303م)، حاكم دمشق من 1291 إلى 1295م. Laoust، المرجع نفسه، ص 6-7.

(4) WIET, G. المرجع نفسه، الجزء 1، ص 274.

بالصية من "الفواحش"⁽¹⁾ وغير ذلك. وفي يوم الاثنين 15 كانون الأول غادر سليم الأول دمشق من باب الجابية بعد أن أرسل رسولاً إلى القاهرة كلفه بدعوة طومان باي للاستسلام⁽²⁾، واتجه نحو مصر التي عمل السلطان المملوكي جاهداً في تجهيزها لمقاومة العثمانيين: فجندت الميليشيات الشعبية وأسرعوا في تجهيز سلاح مدفعية يرقى لمنافسة مدفعية العدو بتجميع مدافع وضعت على عربات تجرها الثيران. وفي 23 كانون الثاني انهزم جيش المماليك في الريدانية في ضواحي القاهرة. وانضم جان بردي الغزالي إلى معسكر المنتصر متخلياً عن معسكره. وأشعل الجيش العثماني النيران وسفك الدماء في القاهرة خلال ثلاثة أيام بمساعدة "الميليشيات والخدم"⁽³⁾. وجرت ملاحقة المماليك وأبنائهم بلا رحمة حتى في المساجد والترب حيث كانوا يلجؤون، فكانوا يقتلون في الحال، وتكس رؤوسهم بعضها فوق بعض على شكل أهرام أو تدلى معلقة بحبال من رؤوس رماح طويلة. وهرب طومان باي إلى مصر العليا يائساً من النصر في آخر معركة شنتها مجموعة من الرماة السود ومماليك السلطان. كتب ابن إياس: "وخضعت القاهرة حينئذ إلى أكثر المحن مأساوية في تاريخها"⁽⁴⁾. إذ قام العثمانيون والناس والخدم والرعاع بمذبحة عامة، فقطعت رؤوس ثمانمئة مملوك أمام الحاكم العثماني⁽⁵⁾، وانتشرت الحرائق ولم ينج شيء من النهب حتى القبور ومن بينها قبر الإمام الشافعي المحترم جداً. وفي 2 نيسان، انهزم في الجيزة آخر المخلصين لطومان باي بعد أن أصمته أصوات المدافع⁽⁶⁾. وبعد أن أسر زعيم بدوي آخر سلطان مملوكي سلمه إلى سليم الذي علق جسده بعد أن شنقه عند باب الزويلة "إلى أن

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 116.

(2) WIET, G، الجزء 2، ص 117 - 118. استولى المماليك على الرسالة التي أرسلها سليم الأول إلى طومان باي والتي تنص الآتي: ما أنت إلا عبد عُرض لبيع وجرى شراؤه، فلا يليق بك أن تحكم، في حين أنني أمير وابن أمير منذ عشرين جيلاً (...). وأنا خليفة الله في الأرض (...). فأرسل إليّ كل عام إيرادات مصر (...). وإذا لم تخضع لطاعتي سأدخل مصر وأقتل كل الأتراك الموجودين فيها، وسأعقر بطون النساء الخوامل وأمنع الأجنة من الولادة". لم يتغير أي شيء منذ زمن الطغاة الآشوريين. اقرأ عن انتصارات هؤلاء في J-BRIEND, J. et SEUX, M. المرجع نفسه.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 139.

(4) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 149.

(5) ذكر مذبحة سليم الأول للمماليك Fra Suriano الذي كان موجوداً في ذلك الوقت في مصر. Treatise on the Holy land، القدس، 1949م، ص 207.

(6) WIET, G. المرجع نفسه، الجزء 1، ص 166.

انبعثت منه رائحة ننتة"⁽¹⁾. وبهذا انتهت مذبحه الممالك الفظيعة. لقد حكموا مصر وسورية متين وسبعاً وخمسين سنة. وحصل سليم بعدها على ولاء شريف مكة ومفاتيح المدن المقدسة مما دَعَم نفوذه عند جميع المسلمين. وأخيراً حُرِم الخليفة العباسي المتوكل من أملاكه، وكما تذكر بعض الروايات فإنه قد تخلى عن لقبه للسلطان سليم ونفي إلى اسطنبول.

في منتصف أيلول 1517م، اتجه سيد المشرق العربي الجديد نحو سورية، وقد حمل معه - كما فعل تيمورلنك فيما مضى - غنائم كثيرة: أشياء ثمينة وأقمشة وأسلحة ونحاسيات وخيلاً وبغالاً وإبلًا ورخاماً أقتلع من المباني وألف ناقة محملة بالذهب والفضة ومئات الحرفيين من كل المهن⁽²⁾. وأجبر الآلاف من الأعيان والأمراء وأبناء كبار الضباط والقضاة ومساعدتهم والعلماء وكبار الموظفين والتجار والطواشي وغيرهم على الذهاب إلى اسطنبول⁽³⁾. كتب ابن إياس: "لم تعش مصر مصيبة أكبر من هذه المصيبة منذ زمن نبوخذ نصر البابلي الذي هدم وحرق البلد

فلزمها أربعون عاماً لتقوم من جديد"⁽⁴⁾. ولم يتغير شيء في دمشق والقاهرة تغيراً جذرياً. نشعر من قراءة ما كتبه ابن إياس أن فتح الاحتلال العثماني لم يكن إلاً حادثة طرأت على الحياة المحلية، مروعة ولكنها لا تمثل انقلاباً حقيقياً. إنها حدث كبير فتح عهداً جديداً في تاريخ المشرق الأدنى. لقد خلف الأتراك أتراك آخرون⁽⁵⁾، وحل الانكشاريون الحليقون محل الممالك ذوي اللحى. وأصبحت القاهرة من الآن فصاعداً عاصمة إقليمية تحت سيطرة خير بك خائن مرج دابق الذي رقي حاكماً لمصر يرسل البضائع بدل استلامها⁽⁶⁾. وسرعان ما خابت آمال أولئك الذين حلموا بأيام أفضل، فاستمر نفس العنف واحتقار الإنسان. ففي أحد أيام تموز 1517م، كتب ابن إياس: إنه بغية إخراج المدافع من القلعة ألقي القبض على المارة، وحتى على أولئك الذين كان يبدو من هيشتهم الخارجية

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 171.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 185.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 218.

(4) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 218.

(5) بقيت سورية باستمرار في أيدي السلطة التركية منذ وصول ابن طولون إليها في القرن التاسع. إضافة إلى أن هذا النظام الذي يسميه المؤرخون الأوروبيون بنظام الممالك لم يكن يسميه المؤرخون الشرقيون إلاً "حكم الأتراك".

(6) WIET, G (المرجع نفسه، الجزء 1، ص 210).

أنهم قضاة وكتاب عدل (...)، وغلت أعناقهم بحبل لجرهم وجلدت ظهورهم بالأسواط، دون مراعاة لمكانتهم ومستواهم الاجتماعي الرفيع⁽¹⁾. وبدأ الجنود العثمانيون في المدينة أكثر وحشية وفوضى من المالك. لقد نزعوا من المنازل مواد البناء والزخارف الثمينة لبيعها بأسعار بخسة، وأقاموا في ثكناتهم أمسيات عربية حيث كانوا يحتسون الجعة بغزارة، ونزعوا ملابس المارة، واعتدوا على النساء والصبية لإشباع غرائزهم الحيوانية في الحال⁽²⁾.

دخل السلطان العثماني سليم الأول دمشق في السابع من تشرين الأول 1517م عائداً من القاهرة حيث قضى على المالك نهائياً. وحلت راية العثمانيين الحمراء⁽³⁾ محل راية المالك الحربية الصفراء فوق بوابة الجامع الأموي المركزية الكبيرة، ودخلت دمشق مرحلة جديدة في تاريخها.

ومع هذا لم يتغير شيء في الحياة اليومية أو في التنظيم الإداري، وبقيت سورية كما كانت عليه في عهد المالك السابق مقسمة إلى ثلاث مقاطعات: حلب وطرابلس ودمشق، تحمل كل منها اسم الولاية ويحكمها والٍ يحمل لقب الباشا وله مرتبة وزير. كانت مقاطعة دمشق أهم المقاطعات، تمتد من معرة النعمان شمالاً إلى العريش جنوباً. وأثارت إجراءات النظام القضائي الذي كان يميل إلى هيمنة المذهب الحنفي - مذهب الدولة العثمانية الرسمي - استياء شديداً⁽⁴⁾. أما فيما يتعلق بأهل الذمة، فقد استمر العمل بالإجراءات القديمة. إذ حُرِّم على النصارى واليهود والسامريين، وكذلك على الأوروبيين العابرين ركوب الخيل أو البغال في دمشق كما في الضواحي وفي كل مكان يوجد فيه المسلمون ولو قل عددهم. وُضمت كل الأراضي التي كانت في حوزة المالك إلى أملاك السلطان. تُرك قسم منها للفلاحين المحليين مقابل نسبة معينة يدفعونها من المحصول، ووزع الباقي كامتيازات ضريبية ذات ثلاثة أشكال وفقاً لريعها السنوي: التيجار لريع يقل عن 20000 أسبر⁽⁵⁾، والزراعة لريع

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 185.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 209 - 210.

(3) LAOUST, H، حكام دمشق في عهد المالك والعثمانيين الأوائل، Les gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans، دمشق، 1952م، ص 149.

(4) WIET, G، مذكرات برجوازي من القاهرة، Journal d'un bourgeois du Caire، (الترجمة العربية لكتاب "تاريخ المالك" لابن إياس)، باريس، 1955 - 60م، الجزء 2، ص 233.

(5) الأسبر عملة مستخدمة في الدولة العثمانية، وهي قطعة فضية صغيرة أصبحت تمثل في نهاية القرن السادس عشر جزءاً من 120 من الدينار السلطاني "السكان" الذي كان من الذهب الخالص.

يتراوح بين 20000 و100000 أسير، والخاص لربيع يتجاوز 100000 أسير مخصص للسلطين والولاة. كانت الضرائب تفرض على كل المنتجات تقريباً، والمحاصيل والأشجار المثمرة والأعشاب والملح والحيوانات والبضائع المستوردة والمصدرة، وحتى الثلج كان يعتبر من ممتلكات الدولة. نانت الضرائب تقتطع في دمشق من أسواق الفاكهة والخضار والخليل والدكاكين والمقاهي، وكذلك من القبائل العربية والأكراد والتركمان، وأهل الذمة الذين كانوا يدفعون الجزية المقدرة بثمانين أسير على كل منزل.

قرر سليم الأول أثناء أحد المجالس (الدواوين) المنعقد في 11 تشرين الأول بعد أربعة أيام من وصوله، أن يقضي الشتاء في دمشق، وأمر اتباعاً لنصيحة إمامه حلیم شلبي ببناء جامع في الصالحية، بالقرب من ضريح الصوفي الأندلسي الكبير محي الدين بن عربي. وصَّه دق بنفسه على المخططات، وأمر بهدم مسجد وحمام⁽¹⁾. ولما كان راغباً في رؤية العمل منجزاً قبل رحيله، سلَّم الحسابات لموظف إداريٍّ عثماني بعد أن وضع تحت تصرفه 10000 دينار. وبنى أيضاً تكية، أي مأوى للصوفيين شمال الجامع، وكذلك ضريحاً فوق قبر الصوفي، وقد خصص لمصاريف الصيانة وتشغيل هذه الأبنية ريع سبع قرى. ورغب أيضاً في إخلاء ما حول القلعة، ولكنه عدل عن هذا المشروع بسبب المبالغ الباهظة التي كان سيتوجب عليه دفعها تعويضاً للملاك⁽²⁾. وأمر لأهداف تحريرية لا غير بإجراء إحصاء كامل للسكان وجرد لكل الأملاك كالأبنية والمنازل والدكاكين والخانات وغيرها⁽³⁾. وفي يوم الجمعة 5 شباط 1518م، صلى السلطان صلاة الجمعة في جامع الجديد حيث خطب القاضي ولي الدين بن الفرفور باسمه، وكان برفقته قاضيا الجيش وكبار الموظفين والأمراء الرئيسيون ومستشارو القضاة. إضافة إلى بناء هذه المباني اهتم السلطان سليم أثناء إقامته بالناس "ورجال الدين": فزار مقابر الأولياء، ووزع المال والطعام على الفقراء،

(1) LAOUST, H، المرجع نفسه، ص 148.

(2) في عام 1983م، لم تتردد الحكومة السورية في هدم الدكاكين الموجودة على طول الجانبين الغربي والشمالي للقلعة مقابل تعويض رمزي.

(3) BAKHIT, M.A.S., The Ottoman Province of Damascus in the sixteenth century (القرن السادس عشر، بيروت، 1982م، ص 45. J. P. PASCUAL, Damas à la fin du XVIe Siècle، دمشق في نهاية القرن السادس عشر، دمشق، 1983م، ص 23.

وحضر الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام عند رحيل قافلة الحجاج - التي تأخرت ذلك العام بسبب تمرد البدو - وقد أخذته الحمية ليصرح أنه لولا التزاماته العسكرية لحج معهم.

وفي يوم الاثنين 8 شباط 1518م، غادر السلطان سليم دمشق وأقام معسكره قرب برزة. وهناك بعد ثمانية أيام، وقبل رحيله إلى حلب بقليل، رغب بتجهيز دمشق وإعدادها للدفاع عن نفسها أمام تهديدات إسماعيل السلجوقي، فعين على رأس ولاية دمشق الأمير المملوكي القديم جانبردي الغزالي بعد أن منحه الحق في تعيين وخلع الموظفين كما يحلو له، وعهد إليه في ضرائب المقاطعة التي بلغت 230000 ديناراً⁽¹⁾. عمل جانبردي الذي استطاع أن يحصل على محبة الناس من قبل عندما كان كبير الحجاب، ليعزز مكانته عندهم: إذ بدأ مواظباً على حضور الاحتفالات الدينية، وأمن طريق الحجاز بقمع عصيان قبائل حوران، وكان يحضر احتفالات رحيل قافلة الحجاج، ويسعى لاستقبالهم عند عودتهم من مكة، وعرف كيف يحافظ على النظام ويطبق القانون، وجدد القنوات والمدارس والجوامع ومن ضمنها الجامع الأموي، ودار السعادة التي اقتلع منها بعض الأعمدة لاستخدامها في بناء جامع الصالحية. ولما كان حريصاً على التمكين لنفسه لتحقيق طموحاته، اتبع علناً سياسية معادية للموالين للعثمانيين، وقتل دون تردد عديداً من منافسيه، ونجح في اكتساب ثقة البدو في الوقت الذي كان يسلك معهم سياسة حازمة، وجمع حوله العديد من المماليك الذي كانوا قد هربوا من نظام الإرهاب الذي أقامه خير بك في مصر، وتمكن من تشكيل جيش قوي قوامه اثنا عشر ألف رجل ويضم على الأقل خمسة جند مسلحين بالبنادق⁽²⁾. وعندما وصله خبر موت السلطان سليم في أيلول 1520م أثناء إقامته في بيروت، عاد مسرعاً إلى دمشق رافضاً الاعتراف بالسلطان الجديد سليمان القانوني "المصلح"، وأعلن تمرده.

قام جانبردي بمحاصرة القلعة بمساعدة زُعرٍ أحياء الشاغور والصالحية وميدان الحصى، ونجح بدهائه في الاستيلاء عليها ونفي حاكمها إلى القدس. ثم صك النقود باسمه، وأغلق الجامع والتكية اللذين بناهما السلطان سليم، وصادر جميع أوقافهما، ونهب منازل ودكاكين العثمانيين، وأرجع زي

(1) LAOUST, H، المرجع نفسه، ص 151.

(2) تحدث ابن إياس عن نظام الإرهاب هذا: "إنه طاغ وظالم ودموي، وكانت حالات الإعدام أثناء إدارته كثيرة لا تحصى. إضافة إلى الأشخاص الذين سُفِّقوا أو فُلقت أجسادهم أو وضعوا على الخازوق. حتى إنه اخترع وسائل جديدة للتعذيب، فكان المحكوم عليهم يرفعون على الخوازيق وكأنها أسياخ "الباذنجان" (...) LAOUST, H، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 465-466.

المماليك، واحتل حماة وحمص وطرابلس. ويعد أن حاول عبثاً جذب خير بك، عين دوداره الثالث، قنبردي، حاكماً بالنيابة، وفي 26 كانون الأول توجه نحو حلب على رأس جيشه المؤلف من المماليك والتركمان والأتراك وعرب قبائل البقاع ومنطقة نابلس ودمشق. وحوصرت في 5 كانون الأول عاصمة شمال سورية التي كان قد جهزها حاكمها العثماني كراجا باشا للدفاع. وبعد خمسة أيام علم جانبردي أن الجيش العثماني وصل من الأناضول، وأن خير بك قد زحف نحو سورية، فعاد مسرعاً إلى دمشق. وفي 2 شباط أعلن نفسه سلطاناً في الجامع الأموي متخذاً الملك الأشرف لقباً له. ويزيادة الإجراءات الشعبية - من تحريم الخمر والحشيش والضرائب غير الشرعية - تمكن من تجنيد الزعر وسكان الغوطة بأعداد كبيرة واستعد للمواجهة. وفي 6 شباط 1521م انهزم هزيمة نكراء في القابون أمام جيش عثماني يفوقه عدداً (30000 رجل منهم 4000 إنكشاري إضافة إلى 180 مدفعا). كتب ابن طولون: "في ملح البصر انكسر جيش جانبردي"⁽¹⁾. وقُتل العديد من ضباط جيشه وثلاثة آلاف جندي في ساحة المعركة. أما هو فقد أُسر وقُطع رأسه وأُرسل مع نحو ألف أذن "استؤصلت من أجساد الجنود"⁽²⁾ إلى اسطنبول لإعلان النصر. وهكذا كانت نهاية آخر محاولة للمماليك في استرجاع الحكم.

انتشر الجنود العثمانيون في دمشق يعيشون فيها فساداً بلا رادع، كتب ابن جمعة: "لم يترددوا في خلع ملابس النساء ولم يحترموا فضل الرجال، ولم يراعوا الصوفيين والفقهاء ووجهاء القوم"⁽³⁾. ونهبت المنازل والأسواق والدكاكين والخانات. لقد وصل الأمر - كما يذكر ابن جمعة - إلى أن "المصيبة التي حلت بدمشق كانت شبيهة بما حدث أيام تيمورلنك، وتلك المصائب التي تعلن حلول الساعة"⁽⁴⁾. وفي اليوم التالي، 7 شباط، دخل قائد الجيش العثماني فرهد باشا دمشق ومعه كبير

(1) LAOUST, H، المرجع نفسه، ص 158.

(2) المرجع الأخير، ص 159.

(3) المرجع الأخير، ص 173. استمر فسق الجنود العثمانيين بعد الاستيلاء على دمشق زمناً طويلاً. ذكر ابن إياس عن القاهرة في شباط 1519م ما يلي: "ومع هذا لم تتوقف اعتداءات السبياء على الناس: ففي قارعة الطريق، كانوا يختطفون النساء والصبية. ولقد وصلت بهم الجسارة إلى خطف امرأة قرب درج مدرسة المؤيد في منتصف النهار، ثم اغتصبوها على مشهد من الناس قرب نافورة المدرسة، بجانب دكان للكمك. شهد كل المارة هذه الفضيحة، ولكن لم يجرؤ أحد على نجدها. كانوا يهاجمون الناس على اليابسة وفي النهر، ويستولون على الضرائب العينية (...). وكانوا يتهكون بأعة الفرق أيضاً (...). ولم يعد بإمكان سكان مصر تحمل شروهم". WIET, G، مذكرات برجوازي من القاهرة، الجزء 2، ص 281.

(4) المرجع الأخير، ص 173.

القضاة السابق ابن الفرفور الذي نجح في الهرب إلى حلب قبل تمرد جانبردي. واستقر النظام بسرعة، واستلم الحاكم الجديد إياس باشا وظيفته بعد بضعة أيام. وعُهد بكل الوظائف التي كان يشغلها الممالك القدامى إلى موظفين عثمانيين، وعاشت دمشق تنظيمًا إداريًا جديدًا استمر العمل به حتى منتصف القرن السابع عشر. وشهدت مقاطعة دمشق تقلص أهميتها، إذ لم تعد مؤلفة إلا من سناجق دمشق وصفد والقدس ونابلس وعجلون وتدمر وصيدا وبيروت والكرك والشوبك⁽¹⁾، يحكم كل منها سنجقباي تابع لوالي المقاطعة. كان الوالي الذي شملت سلطته مدينة دمشق وسنجقها المقسم إلى ثمان وأربعين ناحية يسكن في دار السعادة، مكان إقامة حكام الممالك سابقاً. وكان يساعد الوالي متسلم، وهو قائم مقام مكلف بحكم المقاطعة أثناء غيابه، يتجدد تعيينه كل سنة، ويتمتع أثناء فترة نيابته بربع عدة قرى قد يصل إلى مليون أسير، إضافة إلى الضرائب المتنوعة المقتطعة لخدمة المصالح العامة⁽²⁾. كان الوالي مثل السندجقباي مكلفاً برئاسة الجيش الذي كان يقوده بنفسه في القتال عند تلقي الأوامر، وهو مكلف أيضاً بصيانة المباني العامة من مساجد ومدارس وقلاع وجسور وغيرها، وتأمين استقرار النظام، وإكرام البدو والدروز والأقليات الأخرى المثيرة للبلبل، والعمل على أن يكون طريق الحجاز سالكاً باستمرار، وضمان سلامة الحجاج. وهو مكلف أولاً بالسهر على تزويد المدن بالحبوب والمنتجات الأولية في فترات القحط. إضافة إلى ذلك كان على الوالي تزويد الدفتردار - وهو مدير الإدارة المالية المقيم في حلب والذي كان يُعيَّن مباشرة من الباب العالي - بالفرق الضرورية لجباية الضرائب التي بلغت عام 1523م 8500000 أسير. كان "السباشي" وهم عمال مأجورون يقومون بجباية الضرائب سنوياً، أو كانت تحصل عن الزراعة بالأجرة.

يساعد الوالي في القيام بمهمته قوات مسلحة مؤلفة في المقام الأول من جنود مشاة مأجورين، كان من ضمنهم فرقة من الجنود الإنكشارية المشهورة، وفرقة من الفرسان "السياه". كانت عناصر الفرق الإنكشارية، التي كان يقودها آغا، تُجنَّد من شبان الجالية النصرانية في الإمبراطورية. وكانت مهمة الإنكشاريين الأولى الحفاظ على النظام في المدن. في حين كان يقود فرق السياه ألاي بيك برتبة تمار أو زعامة وفقاً لدرجته، وكانت مهمتها حماية القلاع المبنية حديثاً على طول طريق الحجاز ومصر وضمان أمن

(1) PASCUAL, J.-P، المرجع نفسه، ص 1 - 2.

(2) BAKHIT M.A.S، المرجع نفسه، ص 92.

الحجاج. في عام 1590م، كما يذكر الرحالة الفرنسي جاك دو فيلامونت، كان تحت إمرة والي دمشق خمسة عشر ألف سيباهي واثنان عشر ألف إنكشاري "لحراسة وضمان أمن البلد"⁽¹⁾. تبدو هذه الأرقام مبالغاً فيها، لأنه وفقاً لمصدر عثماني، وصل عدد السيباه في الربع الأخير من القرن السادس عشر إلى ثمانية آلاف ومئتين وثلاثة وستين خصصت لثلاث مقاطعات، وهي مقاطعة حلب ودمشق وطرابلس.

أما فيما يتعلق بالقضاء فلقد حل قاض كبير واحد محل كبار القضاة الأربعة الذين يمثلون المذاهب الفقهية في عهد المماليك. كان قاضي القضاة الذي يُعيّن سنوياً حنفي المذهب ومن أصل عثماني في أغلب الأحيان، وكانت سلطته تتجاوز مهمته القضائية لتشمل الإشراف على القضاة الآخرين المحليين. لم يُخف معظم المسافرين الأوروبيين تعجبهم من الطريقة التي كانت تقام بها العدالة. كتب جان شسنو مستغرباً من غياب المستشار ومحامي الدفاع والمدعي العام: "على كل فرد أن يدافع عن نفسه ويُحضر شهوده، أو يظهر بعض الوثائق فيصدر الحكم بسرعة بناء على ذلك"⁽²⁾، وذكر من جهة أخرى نوعاً من المسؤولية الجماعية التي كان يُعمل بها من قبل في عهد المماليك، وهي غريبة عن القانون الأوروبي⁽³⁾ قائلاً: "إذا عجزوا عن إيجاد المجرم كانوا يتوجهون إلى أقرب الناس في المكان الذي حدث فيه النزاع ويطلبون منهم التعاون، وإلا فإنهم كانوا يعاقبون، وكانت العدالة تنفذ في بعض الأحيان بلا إنسانية وبحزم شديد"⁽⁴⁾. في القرن التالي وصل الأمر بالأب أو جين روجيه مثل معظم أمثاله ليشكك بنزاهة القضاة وكتب: "كل هؤلاء القضاة، سواء كانوا رؤساء أو مرؤوسين، يتواطئون بعضهم مع بعض، وعندما ينوون الحكم جوراً، كانوا يتوازعون فيما بينهم أدوار الاختلاس والابتزاز والضغط التي كانوا يمارسونها على رعاياهم، فكانوا في أكثر الأحيان يعاقبون البريء ويرثون المتهم (...). ومع أنهم كانوا يقتربون كل الأعمال الجائرة والفظيعة التي لا يمكن تخيلها، فإنهم كانوا يوصفون بالنزاهة، ولم يكن أحد يتجرأ على الحديث عن تقصيرهم، وإلا أحيل إلى المفتي في اسطنبول. وإذا رغب إنسان في الذهاب إلى اسطنبول للشكاية كان يقتل قبل

(1) VILLAMONT J، رحلات السيد فيلامونت، Arras، Les voyages du Seigneur de Villamont، 1606م، ص 435.

(2) CHESNEAU J، رحلة مسيو أرامون، Le voyage de Monsieur d'Aramon، باريس، 1887م، ص 47.

(3) في أوروبا على الأقل. استخدمه الإنكليز ثم الإسرائيليون في القرن العشرين في قرى فلسطين. Cf. KAYALI A.W، تاريخ

فلسطين 1896-1940م، Histoire de la Palestine، ص 161.

(4) CHESNEAU J، المرجع نفسه، ص 47.

رحيله أو على الطريق"⁽¹⁾. أما فيما يتعلق بالعقوبات المستخدمة، فلقد وضع الأب الطيب الذي كان شديد الاهتمام بالموضوع قائمة طويلة بالعقوبات التي يليق بها أن تُلحق بها ذكر في "الكوميديا الإلهية" أو في "مئة وعشرون يوماً في مدينة لوط": كان مرتكبو الجرائم الصغيرة "يعاقبون بالضرب بالعصا، مئة أو مئتين وأحياناً خمسمئة ضربة موزعة على أسفل القدمين والبطن والمؤخرة، يستلقي الخاضع للتعذيب أثناء ذلك على الأرض، وهو مقيد الساقين اللتين تثبتان بعصا طويلة. يحضر القاضي العقوبة ويحصى الضربات بحبات مسبحة، ويمكن للمعاقب أن يدفع غرامة قدرها قرش عن كل ضربة عصا. وفي كثير من الأحيان يعيش المعاقبون بقية حياتهم مشوهين، ويموت بعضهم وهم مصابون بسلس البول. أما المرتد، فيربط بعمود ويحرق في مكان عام (...). والذين يشعلون النيران في مكان ما كانوا يُحرقون بالطريقة نفسها: تُنزع عنهم ملابسهم ويوثقون على ظهر حمير، ويُجرّحون جروحاً كبيرة بواسطة خنجر (...) ويوضع في كل جرح شمعة مشتعلة بحيث يدخل الشمع المذاب داخل الجرح (...). فيبدو المعاقب وكأنه قنفذ قد اشتعلت جميع أشواكه (...). أما اللصوص والقتلة، فلقد كانوا يرفعون على الخازوق، أو يعلقون بكلايب من الحديد، أو تقطع أقدامهم وأيديهم. وتقيد أيدي القوادين والقوادات بحبال (...). ويحرق النصراني الذي ارتكب الفاحشة بمسلة حياً"⁽²⁾.

عاشت سورية حتى الربع الثالث من القرن السابع عشر هدوءاً نسبياً بفضل الفتح العثماني. إذ اجتهد الولاة لضمان أمن الطرق وخاصة طريق الحجاز في استيعاب تمرّد البدو. وشنت حملات عسكرية عنيفة على الزعماء المحليين الذين كان الباب العالي يشك في ولائهم ويعتبرهم خطراً يهدد جباية الضرائب في المقام الأول. في عام 1523م، شن خورّم باشا عندما أصبح حاكماً لدمشق حملة على دروز الشوف الذين كانوا قد ثاروا وقتلوا الممثلين العثمانيين⁽³⁾. نهبت منطقة الباروك وأشعلت

(1) ROGER E. (le p.), La terre Sainte ou Description topographique... des Saints lieux et de la Terre de Promission, P 280-289, 1646

(2) (ROGER E., le P) المرجع نفسه، ص 280 - 283.

(3) كان تمرّد الدروز على السلطة المركزية أمراً مألوفاً. ففي 1300م، كما يذكر المقرئزي، ضايق "الدروز القاطنون في جبال كسروان" الجيش المصري بعد هزيمته أمام المغول وأثناء انسحابه باتجاه مصر. كانت طبيعة المنطقة تساعدهم على الإغارة. "كان الدروز يقيمون في جبالهم التي كان يتعذر الوصول إليها". QUATREMER E. تاريخ سلاطين ماليك مصر، Histoire des sultans mamelouks de l'Egypte، باريس، 1837-1845م، الجزء 2، ص 170 - 170. يأتي ذكر صفات الدروز

النيران في نحو أربعين قرية، و"وصلت إلى دمشق أربع عربات محملة برؤوس الدروز، ثم عُلفت على جدران قلعتها وفي شوارعها"⁽¹⁾. ولما كان رد فعل الدروز قتل السباشي رئيس مقاطعتهم، شن عليهم خورم باشا هجوماً لا رحمة فيه: "فأشعلت النيران في ثلاثين قرية، ونهبت قرى أخرى، واعتدي على النساء والأطفال"⁽²⁾. ووصلت إلى دمشق ثلاث عربات محملة برؤوس محمولة على أسنة الرماح وطافت في شوارعها قبل أن تعلق الرؤوس على جدران قلعتها. وجرت هذه العمليات بمباركة من العلماء. كتب ابن طولون: "إن أحد العلماء الشافعية، تقي الدين البلتونيسي، يرى أن قتل هؤلاء الدروز والاستيلاء على ممتلكاتهم حلال"⁽³⁾.

استطاع السلطان سليمان (1520 - 1566م) بانتهاجه سياسة النفوذ أن يرفع الدولة العثمانية إلى أوجها. فلقد كانت قوات جيشه معروفة بيسالتها وبأنها لا تهزم، وكانت كثيرة العدد ويمكن أن يتجاوز عددها ثلاثمائة ألف رجل في أوقات السلم⁽⁴⁾، ويصل إلى ستمئة ألف في أوقات الحرب⁽⁵⁾، وحسب جاك دو فيلامونت تضاف إلى هذه القوات ثلاثمئة سفينة شراعية حربية جاهزة للإبحار، هذا إذا استثنينا البواخر والقوارب الشراعية الحربية (غليون) والمراكب الشراعية الصغيرة (غليون) والحراقات⁽⁶⁾.

كانت المدفعية مخيفة وسلاح المشاة عالي التدريب، كتب فيلامونت: "كان الجنود الانكشاريون كلهم مشاة مسلحين بالآقواس والسيوف العريضة المعقوفة والقربينات (...)، إنهم رجال شجعان ذوو عزيمة لا يرهبون الموت ولا القيام بأي نوع من الأعمال، ويتحملون الجوع والعطش والنوم على الأرض بلا فراش وأموراً قاسية كثيرة أخرى"⁽⁷⁾. استولى سليمان من الغرب النصراني على بلغراد عام 1521م، ورودرس عام 1522م، وسحق الهنغارين في موهاكس عام 1526م، وحاصر فيينا عام 1529م.

الحربية كثيراً، إذ وصفهم المسافر الفرنسي Greffin Affagart في بداية القرن السادس عشر بأنهم: "محاربون شجعان"،

1533, (Relation de Terre Sainte), 1534AD - باريس، 1902م، ص 216.

(1) LAOUST, H، المرجع نفسه، ص 162.

(2) المرجع الأخير، ص 163.

(3) المرجع الأخير، ص 163.

(4) VILLAMONT J.، المرجع نفسه، ص 450.

(5) المرجع الأخير، ص 455.

(6) المرجع الأخير، ص 459.

(7) المرجع الأخير، ص 449.

كما استؤنفت الأعمال الحربية عام 1529م ضد الدولة الشيعية الصفوية، وفي 30 تشرين الثاني دخل السلطان بغداد رسمياً حيث جدد قبر أبي حنيفة مؤسس مذهب الدولة الفقهي الرسمي.

مع أن الفتح العثماني قد أنزل دمشق من مكانتها كعاصمة إلى "بشاليك" متواضعة، فإنها أصبحت تتمتع بحركة تجارية نشطة جداً لكونها مركزاً تتجمع فيه قوافل الحجاج السنوية، وبفضل موقعها على طرق القوافل للدولة مترامية الأطراف، فمن المغرب إلى بلاد فارس ومن البحر الأسود إلى البحر الأحمر تسير القوافل دون توقف خاضعة لنفس الأنظمة الإدارية. أصبحت المدينة مكونة في منتصف القرن من نحو سبعة وثلاثين حياً أو محلة يقع ثلثاها تقريباً خارج الأسوار، وفيها سبعة آلاف وخمسمئة منزل للمسلمين وستمئة منزل للنصارى وخمسمئة وعشرون منزلاً لليهود⁽¹⁾، ليصبح عدد السكان الكلي - تبعاً لعدد الأفراد المقيمين في كل منزل - ما يقارب خمسة وخمسين ألف نسمة⁽²⁾. وإذا كان وصف ابن طولون لدمشق يدعونا للاعتقاد بأن كثيراً من المباني كانت مهجورة، إلا أن الوصف الذي تركه لنا أول رحالة أوروبي في العهد العثماني، وهو موزس ماسولا حاخام أنكون، يصورها مدينة مزدهرة نشيطة ضاحكة مفتحة حيث ينعم المرء بالمسرات ويسهل جمع الثروات، وحيث يتعامل الناس بالربا رغم تحريم الإسلام له. إنها جنة للأعمال الحرة ولكل أنواع التجارة المشروعة وغير المشروعة، مدينة لم تتأثر بالأحداث الأخيرة التي عاشتها، ومتفوقة على مدن الغرب الكبيرة على كل حال. كتب ماسولا الذي دخل دمشق في 17 كانون الثاني 1522م، بعد أقل من عام من سقوط جانبردي: "دمشق مدينة كبيرة، أكبر من بولونيا بمرتين"⁽³⁾. إنها محاطة بأسوار واستحكامات قوية وخنديق. فيها قلعة قوية جداً وأسواق مغطاة جميلة. دمشق كثيرة السكان وتجارها كثيفة نشطة. نجد فيها كل أنواع التجارة والحرف اليدوية أكثر مما نجد في مدينة البندقية. تطورت فيها صناعة وتجارة الحرير خاصة. وتحصل النساء على كسب كبير أيضاً، فكل من يرغب أن يعمل بالتجارة يمكنه إعالة أسرته جيداً وإن لم يكن بحوزته إلا رأسمال صغير. يفتح بعضهم دكاكين لبيع الملابس بمئة دوقه

(1) في عام 1522م، أحصى حاخام أنكون، Moses Bassola، خمسمئة عائلة يهودية في دمشق. Cf. LEWIS B., "A Jewish

Source on Damascus just after the Ottoman conquest". BSOAS, X, 1/1939AD، ص 179.

(2) BAKHIT M.A.S، المرجع نفسه، ص 56-57 و PASCUL J. P، المرجع نفسه، ص 23 والتالية.

(3) يذكر هذا أيضاً الرحالة الفرنسي Greffin Affagart عام 1534م، إنها كبيرة مثل مدينة روان أو تولوز. Cf. Relation de la

Terre Sainte (1533) - باريس، 1902م، ص 217.

كرأس مال، ويعطيهم تجار البندقية ملابس للبيع بسعر محدد لتكون كل زيادة من نصيبهم (...). يخزن الأغنياء البضائع عندما تكون رخيصة الثمن ليخرجوها إلى الأسواق عندما يرتفع ثمنها. وهناك من يُقرض تجار البندقية بالفائدة ويربح مئتين في المئة في الشهر أو أكثر من ذلك في أوقات الحاجة (...). تنعم هذه الأرض بكثرة الأطعمة والفاكهة بشتى أنواعها، وفيها يجد الإنسان مسرات كثيرة متنوعة (...). المنازل من الداخل جميلة مزدانة بحدائقها ونوافيرها، وفي الأسواق هناك كثير من نوافير المياه (...). وفي مركز المدينة بالقرب من ساحة للبضائع، يوجد جامع رائع البناء، فناؤه الداخلي أكبر مرتين من ساحة سان مارك، أرضيته من الرخام اللامع، وهو محاط بأعمدة وركائز ضخمة قد عُشّق بعضها بالذهب. لا يدخله إلا المسلمون، ولكن له أربعة أبواب تمكننا من رؤيته. وهناك ثلاثة معابد لليهود، جميلة وجيدة البناء، معبد لليهود إسبانيا وآخر لليهود دمشق وآخر لليهود صقلية⁽¹⁾.

يضيف عالم الطبيعيات الفرنسي بيير بلون دومان وصفاً آخر لمدينة دمشق بعد ربع قرن في عام 1547م. يقف هو الآخر مثل غيره من الذين سبقوه مندهشاً أمام "وفرة الماء"⁽²⁾ إذ "توجد نافورة ماء في كل بستان ومنزل"⁽³⁾، وكذلك أمام جمال الأسواق "المغطاة"⁽⁴⁾، والجامع الكبير "الكبير جداً، والجميل والعظيم"⁽⁵⁾، والبازستان، وهو "مكان مشهور تباع فيه أغلى البضائع في المدينة، وحرائر عديدة الألوان وذهبيات وفضيات وحجارة شرقية وسيوف وسروج ولحم ومصنوعات أخرى ثمينة وكذلك العبيد ذكوراً وإناثاً"⁽⁶⁾. والغوطة "أكثر السهول غنى بالثمار التي لم تر عين مثلها (...). يعمل سكانها بجهد لجعلها خصبة (...). وخرها قوي جداً"⁽⁷⁾، والخانات "مبنية على شكل ردهات كبيرة ينزل فيها العابرون الغرباء أو من البلد دون مقابل أو بأجر زهيد

(1) LEWIS B، المرجع نفسه، ص 179. الجامع الذي ينوه عنه الحاخام هو الجامع الأموي الكبير.

(2) BELON P., Les observations de plusieurs singularitez et choses mémorables, trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egipte, Arabie et autre pays estrangers, P 149. 1555

(3) المرجع الأخير، ص 149.

(4) المرجع الأخير، ص 149.

(5) المرجع الأخير، ص 152.

(6) BELON P، ص 152.

(7) المرجع الأخير، ص 153.

جداً⁽¹⁾. وإن بدا بلون متحفظاً أمام شوارعها "الضيقة والمتعرجة"⁽²⁾، إلا أن منازلها التي "بنيت على شاكلة منازل القاهرة"⁽³⁾ بهرته بروعتها. وهو أول النادرين ممن أدركوا بفتنة نظام التعبير الحراري، إذ كتب: "إن منازلها مهيأة جداً لتكون منعشة. ففي حين زودت المنازل في مناطق الشمال الباردة بمحّمات للحفاظ على الحرارة، زودت منازل دمشق بدهاليز ذات نوافذ جانبية منخفضة حتى ينعم الجالسون على الأرض بالهواء البارد المنخفض فيشعرون بالانتعاش"⁽⁴⁾.

لاحظ بلون في دمشق وجود مسؤول من البندقية لتسهيل تجارة البضائع غير المشروعة "ذي سمعة" له خياطه وحذاؤه وحلاقه وطيبه وعطاره الخاص⁽⁵⁾. وأصبحت حلب حيث توجد "قنصلية"⁽⁶⁾ لأهل البندقية مركز سورية التجاري الكبير. ففي حلب تتبادل القوافل القادمة من بلاد فارس والهند والأناضول وبلدان أخرى من المشرق البضائع⁽⁷⁾، وإليها تصل كل بضائع المشرق⁽⁸⁾، وفيها "يجد الراغبون في الذهاب إلى بلاد الهند وفارس وأجزاء أخرى من المشرق كل البضائع المتداولة"⁽⁹⁾. ولحلب صلة بطرابلس - ميناء رئيسي على الساحل - وهي "مدينة جيدة البناء (...)" ترسو فيها سفن التجار الفرنسيين المحملة ببضائعهم غير المشروعة⁽¹⁰⁾، وفيها يوجد "فندق للفرنسيين يديره تاجر من مرسيليا"⁽¹¹⁾. وكان إعجاب جان شسنو - وهو أمين سر السيد أرمون الذي أرسله الملك فرانسوا الأول بمهمة إلى السلطان سليمان - بدمشق كبيراً عند زيارته لها في تموز

(1) المرجع الأخير، ص 152.

(2) المرجع الأخير، ص 149.

(3) المرجع الأخير، ص 152.

(4) المرجع الأخير، ص 152.

(5) المرجع الأخير، ص 150.

(6) المرجع الأخير، ص 158.

(7) المرجع الأخير، ص 158.

(8) المرجع الأخير، ص 158.

(9) المرجع الأخير، ص 158.

(10) CHESNEAU J., المرجع نفسه، ص 140.

(11) REGNAUT A., Discours du voyage d'outremer au Saint Sépulcre de Jérusalem et autres lieux de la Terre

Sainte p 30, 1573.

1549م - كما أعجب بها معاصره بيير بلون - وبموقعها "الجميل الممتع"⁽¹⁾ وبنوافير مائها وبساتينها وأشجارها المثمرة وسهولها وسواقيها الجميلة. ولاحظ أن "مدينة دمشق لم تكن كثيرة السكان وليست مبنية جيداً"⁽²⁾، في حين قال عن مدينة حلب "إنها أجمل وأغنى وأكثر سكاناً (...)"⁽³⁾. كانت دمشق في الحقيقة قد عانت من عدة أوبئة طاعون، فقد قضى وباء سنة 1523م على أكثر من مئتي إنسان في اليوم، وتوفي بسبب وباء 1543م كثيرون بحيث لم يبق في دمشق، وفقاً لشهادة ابن أيوب الدمشقي عام 1590م، إلا عدد قليل لا يكاد يملأ صفّاً واحداً في الجامع الأموي⁽⁴⁾.

إضافة إلى الكوارث الطبيعية، تركت حروب المماليك والفتح العثماني المدن السورية محطمة. إن قراءة ما كتبه المسافرون عنها أمر مضمّن. جميعهم قد كتب أن بعلبك ومعرة النعنان وحمص وقيسارية وصيدا واللاذقية وجبله وأنطاكية ومدناً كثيرة أخرى "كانت مهذمة كلياً تقريباً"⁽⁵⁾. وفي نهاية القرن السابع عشر لم يمنع هذا أن تبدو سورية في نظر المسافرين الأوروبيين "متفوقة" على الغرب في كثير من النواحي. إذ كتب جاك دو فيلمونت: "في الخلاصة (سورية) من أجمل وأغنى بلدان المشرق، فيها يجد الإنسان كل ما يتمناه من أسباب العيش ورقة الناس، وفيها من الثروات والصناعات الرائعة النادرة والممتازة ما يجعل كل إنسان يعترف بلا تردد بأن لا مثل لها في بلاد الغرب"⁽⁶⁾.

بعد موت السلطان سليمان عام 1566م، بدأت الدولة العثمانية عهداً طويلاً يتسم بالانحطاط بسبب السلاطين غير المؤهلين الذين وصلوا إلى السلطة بالمؤامرات. ففي عهد السلطان سليم الثاني (1566 - 1574م) الذي ترك شؤون الدولة إلى كبير وزرائه ليتفرغ للعريضة والخمر، فتحت جزيرة قبرص عام 1570م، وفي العام التالي أعلنت هزيمة الأتراك في ليبانت ونهاية التفوق العثماني في منطقة البحر الأبيض المتوسط. لقد أرهقت الحروب المستمرة مع النمساويين في أوروبا والصفويين في

(1) CHESNEAU J، المرجع نفسه، ص 112.

(2) المرجع الأخير، ص 112.

(3) المرجع الأخير، ص 112.

(4) BAKHIT M.A.S، المرجع نفسه، ص 53.

(5) BELON P، ص 154 (بعلبك)، 157 (معرات)، 156 (حمص). REGNAUT A، ص 147 (بافا). CHESNEAU J، ص 142

(جبله)، ص 143 (اللاذقية) ص 144 (أنطاكية). VILLAMONT J، ص 417 (قيسارية) ص 422 (صيدا).

(6) VILLAMONT J، المرجع نفسه، ص 486.

المشرق خزينة الدولة وصعدت الأزمة الاقتصادية مسببة تضخماً مالياً متزايداً وارتفاعاً كبيراً في أسعار السلع الغذائية والحاجات الأساسية⁽¹⁾. وأصبحت الدولة تلجأ كثيراً إلى فرض الضرائب والأجرة الزراعية التي كانت تحدد جزافاً كل سنة. عرقلت عوامل عديدة جباية الضرائب: إذ كانت مناطق عديدة غير مأمونة أو في حالة تمرد مستمر فترفض دفعها، وأصابت غزوات البدو ازدهار المقاطعات بأضرار جسام، ونجا كثير من الثروات الطبيعية الموقوفة (الأوقاف) لمصلحة مؤسسات خيرية من الضرائب، وتقاعس الحكام الذين كانوا حريصين على جمع ريع ممتلكاتهم الخاصة، في جمع ريع الممتلكات الخاصة بالدولة، وتسرب جزء كبير من دخل الدولة من مقاطعة دمشق المخصص للجيش أو لقوافل الحجاج من خزينة الدولة. ونضيف إلى كل هذا فساد الموظفين والحكام الذين أصدر بحقهم العديد من فرمانات السلطانية مما يؤكد وجود هذه الظاهرة. يذكر فرمان 17 أيار 1576م أن بيك القدس متهم بارتكاب "العديد من الأعمال الفظيعة غير المشروعة، ومن ضمنها تعذيب وقتل الكثير من المسلمين"⁽²⁾. وحكم فرمان 15 تشرين الثاني 1583م على ظلم وطغيان موظفين مسؤولين كل المسؤولية عن خراب القرى والأراضي "التي كانت فيما مضى مسكونة ومزروعة"⁽³⁾. ولكن العلاج المستخدم في بعض الأحيان كان أكثر سوءاً من الجرائم المرتكبة: إذ كان رؤوساء البدو الذين كانوا يُمنحون بفضل التسهيلات الإدارية والسياسية الانتهازية رتبة سنجقباي، لا يرون في ذلك إلا وسيلة إضافية لظلم الناس وتسهيل مشاريعهم التمردية.

لم ينج القضاء أنفسهم - مثل زملائهم في عهد المماليك - من الفساد. فكان بعضهم مشهوراً بالفساد أكثر من شهرته بالعدل. إذ اتهم ابن الفرغفور المشهور - كبير قضاة الشافعية في عهد المماليك الذي أصبح حنفياً أثناء حكم السلطان سليم الأول - بواحدة من تهمة عديدة أخرى، وهي الاستيلاء على ممتلكات اليتامى ومصادرة ممتلكات أنصار جانبردي. كما سرق عثمان بن إسرافيل (1537م) - كان كبير قضاة دمشق مرتين - كتب تلاميذه، وكان خليفته إسحاق البورصاوي متهماً باللواط⁽⁴⁾.

(1) PASCUL J. P. المرجع نفسه، ص 7.

(2) HEYDU، وثائق العثمانيين في فلسطين، 1552، Ottoman Documents on Palestine - 1615AD، أوكسفورد، 1960م، ص 62.

(3) المرجع الأخير، ص 54-55.

(4) انظر إلى ما كتبه EUGENE ROGER عن القضاة. موضوع القضاة غير الشرفاء موضوع ممتع وقديم. كتب المسعودي في

القرن العاشر عن قاض يجب ممارسة الجنس مع الأطفال. الترجمة الفرنسية Ch. Pellat، الجزء 3، ص 1114-1115.

ولم ينج الجيش بالطبع من ظاهرة الانحطاط العام. فعندما قَدَّر عديدٌ من السبباه أن وارداتهم غير كافية رغبوا في التهرب من التزاماتهم العسكرية، وحاولوا أن يتسلموا وظائف إدارية أكثر ربحاً: كوظيفة أمين الخزينة وجابي الضرائب ومدير وقف وغيرها. ولجأ بعضهم إلى كثير من الحيل لكي لا يلتحق بالجيش أثناء الحروب، وباع بعضهم أسلحتهم من البنادق للفلاحين، ووجد البعض الآخر أن النهب والسطو أجزى عطاء وأمتع من الحرب فالتحقوا بأسلحتهم وأمتعتهم بالبدو، ولم يعد يبالي كثيرون منهم بوظيفتهم: تأسف مرسوم صدر عام 1577م على أن معظم إقطاعيي سنجق صفد يقطنون دمشق. ولكي يعوض الجنود الانكشاريون انخفاض أجورهم بسبب التضخم المالي امتهنوا التجارة والمهن اليدوية، وأصبح بعضهم مرايين أو ملاك بساتين وأراض زراعية ودكاكين وحمامات وغير ذلك. أخذ الجيش الانكشاري الذي كان جنوده في الأصل عبيداً جُنِّدوا من سكان القرى النصرانية - وهذا يناقض تماماً القانون الإسلامي الواضح في هذا المجال - بالانفتاح وتجنيد رجال مسلمين أحرار، برغم مرسوم سلطاني منع عام 1577م هذه الممارسة في ضواحي دمشق⁽¹⁾. ولكن بمجرد أن يصبح الجنود مؤهلين لاستلام رواتب وظيفتهم الجديدة فإن عديداً منهم يتفرغون لأشغالهم المعتادة، فلا يضعون أقدامهم في ثكناتهم العسكرية، بل يحاولون التهرب من التزاماتهم العسكرية برشوة الضباط. إلا أن تدهور المؤسسة العسكرية والفساد لم يمنعا جاك دو فيلمونت من مديح الأخلاق العامة في الدولة إذ كتب: "لا بد من الإيضاح أنه لا شيء في تركيا يجعل من الرجل إنساناً عظيماً مثل بسالته وفضيلته، إذ لا قيمة للحظوة ولا للسلطة التي يمكن له يتمتع بها"⁽²⁾. إنها ملاحظة رائعة ولكنها الأخيرة من نوعها.

شجع ضعف السلطة المركزية وشيخوخة المؤسسات المدنية والعسكرية وغياب الولاة الطويل في كثير من الأحيان بسبب انشغالهم مع جيوشهم في الحروب نشوء حركات استقلالية وتمرد البدو وعصيان فرق الجيش والزاعات الاجتماعية. فمنذ بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر أنشأ عديدٌ من الزعماء المحليين - يدفعهم طموحهم إلى توسيع هيمنتهم - ميليشيات حقيقية مسلحة بالبنادق التي هربها إليهم التجار الأوروبيون وبعض الانكشاريين والسبباه. وبرغم صدور كثير من

(1) PASCUAL J.P، المرجع نفسه، ص8.

(2) VILLAMONT J، المرجع نفسه، ص454. علماً بأن فيلامونت كان في دمشق 1590م.

الفرمانات لمنع تجارة الأسلحة غير المشروعة إلا أنها كانت تجارة مزدهرة. يذكر فرمان صدر عام 1577م أن ما يقارب أربعة آلاف بندقية كانت في أيدي بدو جنوب سورية في ذلك الوقت⁽¹⁾. ولم يتوقف الدروز في الجليل والشوف عن تحدي السلطة المركزية طوال القرن السادس عشر والقرن الذي تلاه. وازدادت غزوات البدو منذ نهاية القرن مسببة تداعي الزراعة وانقطاع العلاقات التجارية بين دمشق والمدن الأخرى في الإمبراطورية. وعادت الأحقاد والعداوات بين الفئات الاجتماعية: بين القيسيين والبيانيين، وبين أهل السنة والدروز والشيعية، وبين الأحناف أتباع المذهب الفقهي الرسمي وهم أقلية، والشافعية وهم أكثرية، وبين المسلمين وأهل الذمة. وفي عام 1578م منع فرمان سامري ونصاري مقاطعة دمشق من ارتداء العمام الصفراء المصنوعة من الموصلين الناعم لأن هذا كان يسبب استياء المسلمين⁽²⁾. وفي عام 1581م، منع اليهود والنصارى بكل بساطة من ارتداء العمامة. وكانت نتيجة الفوضى تهرب مقاطعات كاملة من جباية الضرائب، وأصبح الإقطاعيون في كثير من الأحيان عاجزين عن تغطية مصاريفهم الخاصة. وتأثرت الحياة الدينية هي الأخرى وفسدت، إذ كانت صلاة الجمعة تلغى في كثير من الأحيان خوفاً من المتمردين.

شهد القرن السادس عشر مرحلة حاسمة في تدخل الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية للإمبراطورية. في الواقع لم يتقبل الأوروبيون وخاصة البابا ضياع الأرض المقدسة. ففي اليوم التالي لسقوط عكا - وبرغم زوال تمسك عامة الناس لهذا النوع من المغامرة الذي كان يعيق علاوة على ذلك مصالح تجارية قوية - أخذ البابا يقول الرابع بحث سكان جنوة والبندقية على تجاوز خلافاتهم، وينصح كل الأمراء النصاري بتشجيع الناس على خوض حرب صليبية. كما دعا في بداية القرن الرابع عشر البابا كلمنت الخامس إلى هذا النوع من المشاريع التي كانت كثير من الكتابات تشجعها؛ من هؤلاء الكتاب دعا سانيدو تورسلو من البندقية إلى فتح مصر أولاً - لمصلحة البندقية طبعاً - لكي تكون نقطة انطلاق للاستيلاء على سورية، وذلك بالاعتماد على المعلومات التي حصل عليها من الحجاج النصاري عند عودتهم من رحلاتهم الدينية⁽³⁾. وأثار تمسك الفرسان حمية السيدات المسنات اللواتي وصل بهن

(1) CHARKOUDIAN L، دمشق محمد محبي، Damascus of Mohammad Muhibbi، رسالة دكتوراه، جامعة هارفرد، 1968م، ص 111.

(2) HEYD U، المرجع نفسه، ص 173.

(3) لم ينس هذا الدرس Leibniz الذي أعد في عام 1672م مشروع حملة إلى مصر، ولا نابليون بونابرت عام 1799م.

الأمر إلى بيع مجوهراتهم بغية المساهمة في مصاريف حروب صليبية جديدة. وكانت تعد العدة للحملة هنا وهناك بتحريض الرؤوس المتوجة مثل الملك هنري السابع وفيليب لوبل وإدوارد ملك إنكلترا الثالث الذين استغلوا الظروف لاقتطاع إعانات مالية من رجال الدين. في النصف الأول من القرن الخامس عشر استحوذت فكرة الحرب الصليبية على دوق البورغون فيليب لوبون - وقد كان أقوى ملك في أوروبا - فأرسل غيلبرت دو لانوا في مهمة ترصد عام 1421م لكي يتعرف على ساحل مصر وسورية والمدن الرئيسية وشبه جزيرة غاليلوي التي كانت سفن الجيش العثماني ترسو فيها عند ذهابهم إلى أوروبا. وبعد تسعة أعوام أرسل لنفس الهدف معلم الفروسية برترندون دو لا بروكير الذي بعد أن رافق بعض السادة الرئيسيين في بلاط قصر البورغون أثناء زيارته لسورية، انفصل عنهم في بيروت وعبر برفقة قافلة حجاج عائدة من مكة منطقة شمال سورية والأناضول.

في الواقع، منذ مجمع البندقية عام 1312م الذي كان قد ألغى تحت ضغط ملكي جماعة رهبان وجنود الداوية، لم يعد هناك أمل في إعادة احتلال فلسطين عسكرياً، إذ إن تطور الوضع الفكري والنزاعات بين الإخوة التي كان يشنها في أوروبا الممالك القومية جعلت من هذا الاحتلال أمراً مستحيلاً على كل حال. بالمقابل حصل تغير حاسم في السياسة الأوروبية بتحريض من البابا كلمنت الخامس، واستبدل الغزو العسكري بمحاولة تنصير "الكفرة". وبغية دفع الناس لسماع "حقيقة رواية الإنجيل لآلام المسيح" افتتحت أقسام اللغة العبرية والعربية في جامعات روما وباريس وأكسفورد وبولونيا وسلامنك. وحلت مظاهر الماء المقدس محل السيف، وتشكل نموذج جديد للحرب الصليبية. إذ كتب في منتصف القرن السابع عشر الأب بسون من حملة المسيح الذي نصب نفسه خطيئاً لهذه الحرب الصليبية الجديدة: "البعثة التبشيرية هي إنجاز للغزو الصليبي، ويجب أن تكون غالية علينا مثل كلام الرب الذي هو سلاح مضيء أفضل من أسلحة المحاربين التي لا تعدو كونها حديداً وفولاذاً"⁽¹⁾، ويضيف: "بعثنا التبشيرية حرب صليبية أبدية، وسورية كلها هي أرض

SANUDO TORSELLO M., *Liber secretorum fidelium crucis super terrae recuperatione et conservatione*, Hanoviae, Heredes J. Aubrii, 1611.

(1) BESSON J، سورية المقدسة والأرض المقدسة في القرن السابع عشر، La Syrie Sainte et la Terre Sainte au XVII^{ème}،

siècle، بواتيه، 1862م، ص 196.

مقدسة في نظرنا (...)، وأسلحتنا هي الصلوات والدموع"⁽¹⁾.

واتجهت التنظيمات الكاثوليكية نحو بلاد المشرق واحدة تلو الأخرى تدفعها البابوية وفرنسا التي كانت ترى في الأقليات الكاثوليكية دعماً جيداً لسياستها في المشرق، وهناك استمروا في الحصول على سلطات ومؤسسات "دائمة". فمنذ عام 1217م، وفي غمرة الحروب الصليبية، استطاع الفرنسيون - الذين استقروا في القدس وتجمعوا في حرم الأرض المقدسة - الحصول بدعم من البابا على حق حراسة قبر المسيح في القدس. وفي عام 1333م، أصبح الفرنسيون أنفسهم بعد محادثات طويلة مع الممالك مُلاكاً للأماكن المقدسة، وأنشؤوا أديرة جبل صهيون وضريح المسيح ومغارة بيت لحم. وفي عام 1549م، شاهد جان شينو في بيروت ديراً لجماعة الفرنسيين مرتبطاً بديرهم في القدس⁽²⁾. وفي عام 1578م، أرسل الأب غرغوار الثالث عشر إلى مارونيّ جبل لبنان راهبين من حملة المسيح التي نجحت في بداية القرن السابع عشر في إنشاء مقر دائم لها في اسطنبول حيث عملت على التوسع نحو سورية.

من الناحية الاقتصادية - والأخلاقية والسياسية أيضاً - كان توقيع الامتيازات الأجنبية مرحلة رئيسية وحاسمة في التدخل الأوروبي في شؤون الإمبراطورية. فإذا لم تكن امتيازات عام 1535م التي بحث فيها الملك فرانسوا الأول والسلطان سليمان سوى أسطورة تاريخية⁽³⁾، فإن أول اتفاقية - حسب الأصول - وقعت في 18 تشرين الأول 1569م، وكانت تتكون من جزأين: معاهدة إدارية ومعاهدة تجارية. تضمنت المعاهدة الأولى لرعايا ملك فرنسا الحرية الفردية والدينية والتجارية، وتؤكد على حرمة منازلهم، وتخضعهم لقانون خاص بهم يمليه ملك فرنسا، وتسمح لهم بعدم الالتزام بالقانون العثماني في العديد من الأمور. وتناولت المعاهدة الثانية طبيعة السلع المتبادلة، وحددت البضائع المسموح بها،

(1) BESSON J، المرجع نفسه، ص 199. برغم ادعائهم عدم اهتمامهم إلا بالروح، كان هؤلاء المبشرون مدرّكين تمام الإدراك "لنتائج مهمتهم الثانوية". فالتعليقات التي أرسلها الأب جوزيف الشهير إلى الرهبان الكبوشيين نموذج عن السياسة الحقيقية التي لا تجهل "أن تأثير اللغة وتأثير الأخلاق يجهز الطريق لعقد اتفاقيات تجارية والحصول على امتيازات اقتصادية". انظر إلى BORDEAUX H، رحلة في المشرق، Voyage d'orient، باريس 1926م، الجزء 2، ص 289.

(2) CHESNEAU J، المرجع نفسه، ص 140.

(3) THOBIE P. Voyage de Texeira, ou l'Histoire des rois de Perse، مترجم من اللغة الإسبانية إلى الفرنسية، باريس،

1681م، ص 238.

وضبطت مسألة الرسوم الجمركية. وقد مُنحت فرنسا امتيازاً خاصاً: فأصبح يُسمح لكل السفن الأجنبية لأهم لم تشملها الامتيازات الأجنبية - إذ كان فقط أهل البندقية وجنوة يتمتعون بها - بالإبحار تحت حمايتها. ولم يُسمح لإنكلترا بالإبحار برايتها الخاصة إلا في عام 1583م، وهولندا في 1613م والنمسا في 1615م. وفي الأعوام 1581 و 1597 و 1603 و 1673م جُددت الامتيازات التي لم تكن إلا عقداً ملزماً لطرف واحد، إذ لم تكن سوى "تنازلات مجانية"، وكانت معمولاً بها مبدئياً طوال حياة السلطان الذي وقع عليها، وقابلة للتفاوض في بداية عهد كل سلطان جديد. في عام 1740م بدأت مرحلة جديدة: لم تعد الامتيازات محدودة بمدة حياة سلطان، بل أصبحت دائمة. فضلاً عن هذا، تدرع ملوك فرنسا الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ممثلي البابا بالصدامات العديدة التي حدثت بين الطوائف اليونانية واللاتينية والأرمنية فيما يتعلق بامتلاك الأماكن المقدسة، فحصلوا على إمتياز حماية الكاثوليك الفرنسيين، إلى جانب الكاثوليك الأوروبيين والكاثوليك من رعايا السلطان. هذه الحماية أثارت دهشة بعض المسافرين الغربيين، إذ كتب بدرو تكسيرا في آذار 1605م: "يتمتع قنصل فرنسا بامتياز خاص من السلطان يؤهله لحماية النصارى الأجانب وإن لم يكونوا من بلده"⁽¹⁾. لقد كان هذا حقاً مشابهاً لإدخال الذئب إلى حظيرة الغنم، وأصبحت البعثات التبشيرية والامتيازات الأجنبية أكبر وسيلتين لتدخل الغرب في سياسة الإمبراطورية الداخلية. بينما كان التدخل الأوروبي في عهد الماليك فردياً ولا يتجاوز ما تسمح به العلاقات الدبلوماسية العادية بين دولة وأخرى⁽²⁾، أصبح في عهد الدولة العثمانية، وخاصة مع بداية انحطاطها، تدخلاً عسكرياً حصلت عليه القوى الأوروبية، فرنسا وإنكلترا والنمسا وروسيا، بفضل الامتيازات. وبسبب هذه الامتيازات امتنعت الإدارة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر عن اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع استيطان المستعمرين اليهود في فلسطين رغم اعتراضات الفلاحين ونواب العرب⁽³⁾.

(1) TEXEIRA P., Voyage de Texeira; ou l'histoire des rois de Perse مترجم من الإسبانية إلى الفرنسية، باريس، 1681م، ص 229.

(2) يذكر المقريري على سبيل المثال أنه في عام 1304 أعيد في القاهرة افتتاح كنيسة لليعقوبيين وكنيسة أخرى للملكيين إثر تدخل سفير ملك آراغون، QATREMER E، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 229.

(3) كيبالي، المرجع نفسه، ص 38.

عرفت دمشق في القرن السابع عشر آخر حقبة من ازدهارها المعماري. إذ بفضل مبادرة أصحاب الرتب العالية في الدولة العثمانية كثر بناء المباني وتجديدها، وكذلك المساجد والمدارس والتكايات والعمارات والحمامات والأسواق والخانات والجسور وغيرها، وإن كان ذلك بوتيرة أضعف مما كانت عليه في عهد المماليك. وفي القرن التالي لم تسمح النزاعات المستمرة بين المقاطعات وقصر مدة حكم الحكام - مما تطلب منهم بذل كل الجهود لزيادة ثرواتهم في مدة قصيرة - بالقيام بأعمال بناء كبيرة.

كان السلطان سليم الأول من أمر في اليوم التالي من فتحه للبلاد ببناء مبنى تخليداً لذكرى الصوفي الأندلسي محي الدين ابن عربي⁽¹⁾، والمباني العثمانية الأولى في دمشق⁽²⁾، وجامعاً وتربة وتكية ومجمعاً دينياً تفوق على كل المنشآت الدينية السابقة، ولم يزل إلى اليوم أكبر مركز ديني في الصالحية. في عام 1518م انتهى بناء جامع الشيخ محي الدين الذي خصص له أربعة مؤذنين وثلاثون قارئاً يقرؤون القرآن كل يوم حتى شروق الشمس⁽³⁾. وقد شيد الجامع ذو الصحن المحاط بالأروقة وقاعة الصلاة المغطاة وفقاً للمخطط الهندسي التقليدي في دمشق. كما تطابق مئذنته بكواتها وتناوب ألوان مدامكها وشرفتها المحمولتين على مقرنصات حجرية نموذج البناء المملوكي برغم شكل تاجها العثماني. خصص للتكية التي دمرتها نيران حريق عام 1554م، والتي أعيد بناؤها فيما بعد، كثير من الواردات، فإضافة إلى وارد بعض الدكاكين والطواحين والمهن الحرفية خصص لها وارد عدة قرى لتتجاوز قيمة المبلغ المخصص لها سنوياً مئتين وثلاثة عشر ألف إسبر. يحتوي المبنى الذي خلدت ذكرى أعمال تجديده كتابة نقشت أعلى باب المدخل، على صحن كبير مستطيل مغطى بقبتين وعلى تقنيات محلية متنوعة. ومن الجهة الشرقية استندت التربة التي شيدت لإيواء ضريح ابن عربي إلى الجامع. تلفت التربة المغطاة بقبة محمولة على رقبة وحيدة الأنظار بألواحها الخزفية التي تكسو الجدران الداخلية حتى ارتفاع خمسة أمتار. في مركز كل لوح سرورة، وعلى أطرافها الجانبية أنصاف سروات بحيث يتشكل من تجاور هذه الألواح منظر زخرفي جميل. يوجد في مركز الجدار الشرقي شريط من تسعة ألواح تبدو محمولة على أعمدة مجدولة تعلوها ثلاثة أقواس تتدلى من أعلاها قناديل

(1) ولد في مرسية في أسبانيا عام 1165م، ومات في دمشق عام 1240م.

(2) المرجع الأخير، ص 31.

(3) SAUVAIRE H., J.A.، آذار-نيسان 1896م، ص 256.



جامع الشيخ محيي الدين بن عربي

الجامع. كتب في أعلى الأقواس بالأحرف العربية "الله" و"محمد" و"أبو بكر" و"عثمان". وفي الكوة المركزية وتحت عبارة "الله جلّ جلاله"، يوجد إناء مملوء بالقرنفل. وبرغم وجود سرورة وهي من خصائص الزخرفة العثمانية - خلفية بيضاء عليها رسوم بلون أزرق الكوبلت وأخضر الزيتون - تبدو هذه الألواح ممثلة للزخرفة السورية التقليدية، وقد صُنعت دون أدنى شك في الورشات المحلية⁽¹⁾.

شرع السلطان سليمان القانوني في عام 1554م ببناء مجموعة معمارية مخصصة للفقراء والصوفيين والحجاج في غرب دمشق، على الضفة اليمنى لنهر بردى، وعلى أنقاض القصر الأبلق - قصر بيبرس قديماً⁽²⁾ - . تضم هذه المجموعة مسجداً ومدرسة وتكية خصصت لها وارادت أربعين قرية تقريباً. وفي عام 1560م اكتمل بناء التكية التي أشرف على بنائها مهندس فارسي متبعاً مخططات المهندس التركي الشهير سنان. وهي تشير سواء بمجملها أو بتفاصيل زخرفتها إلى بداية تدخل طراز عاصمة الإمبراطورية الهندسي في دمشق. فهي تتكون من مجموعة من المباني المتنوعة تحيط بصحن سقاوي كبير ومستطيل: من مسجد في الجهة الجنوبية، وغرف للدراويش في الجهتين الشرقية والغربية، ومطابخ وغرف لموائد الطعام وقاعات للمؤمن في الجهة الشمالية. يتقدم المسجد رواق مزدوج بتيجان مقرنصة محمولة على أعمدة من الغرانيت؛ الرواق الخارجي مغطى بسقف خشبي مائل، والرواق الداخلي مسقوف بثلاثة قباب. واجهات المسجد الخارجية مبنية بمداميك من الحجر، يتناوب فيها الأبيض والأسود. يتألف المسجد وقد بني وفقاً للطراز المعماري العثماني، من قاعة مربعة الشكل مسقوفة بقبة عالية تحملها أقواس ملتصقة بجدران القاعة. ولا يزين المئذنتين العاليتين كاسطونتين والمؤلفتين من مضلع كثير الوجوه برأسين مخروطين مدبيين كقلم الرصاص إلا مقرنصات حجرية تحمل شرفة للأذان. يعلو الباب المحاط بإطار من الزخارف النجمية الشكل من الرخام الملون، مقرنصات مزودة بداليات حجرية تميز الطراز العثماني. في داخل قاعة الصلاة وفوق الشبابيك توجد ألواح من الفسيفساء الملون تغطيه طبقة زجاجية شفافة (القاشاني)، رسمت عليه عروق نباتية وأزهار يطغى عليها اللون الأحمر الآجر عوضاً عن الأحمر الإزنيكي. تمتد غرف الدراويش على طول الجهتين الشرقية والغربية، وهي مربعة الشكل مزودة بمناور ومغطاة بقباب، ويتقدمها رواق بتيجان

(1) Pierre Loti, La Galilée, Ibn 'Arabi' Sur le tombeau d , الخليل، عن ضريح ابن عربي، ص 167 - 168.

(2) بيبرس الأول البندقداري، سلطان مملوكي من عام 1260م إلى 1277م.

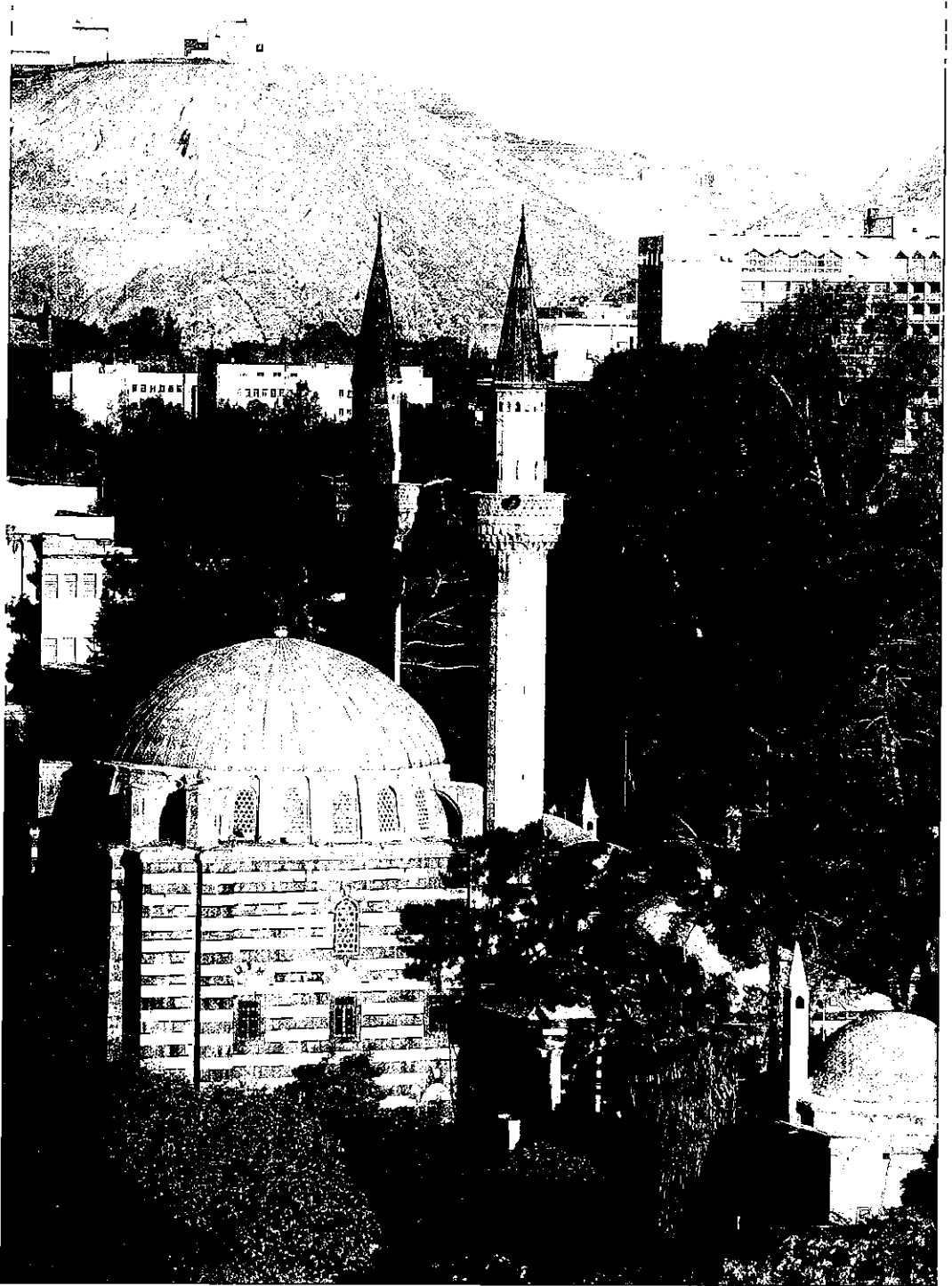
مقرنصة. وقد كست ألواح الفسيفساء المناطق الواقعة فوق الأبواب والنوافذ في سائر أنحاء التكية، ورسمت عليها رسوم نباتية وزهرية تنتمي إلى الطراز العثماني، إلا أن ألوانها من أزرق التركواز وأزرق الكوبالت وأزرق الباذنجان وأخضر الزيتون والأبيض ما هي إلا ألوان دمشقية نموذجية.

إلى الشرق من التكية توجد مدرسة يحيط بها سوق يحتمل أن يكون الهدف منه تزويد الحجاج بما يحتاجونه. اكتمل بناء المدرسة في عام 1566م، أي في نفس السنة التي مات فيها السلطان سليمان. يوجد في وسطها صحن مستطيل مزود ببركة مركزية ومحاط بأروقة وغرف للطلاب ومصلى مسقوف بقبة. تشبه المدرسة في طراز عمارتها وتصميمها مبنى التكية، إلا أن زخرفتها أغنى وأكثر ألواناً: مداميك من الحجر الأبيض والأسود، وأشرطة منقوشة على شكل ضفائر، وحليات مستديرة مرصعة، وترصيعات رخامية وألواح من الفسيفساء برسوم زهرية الشكل يغلب عليها اللون الأزرق.

ما فتئت هذه المجموعة المعمارية المبنية على الجانب الأيمن للطريق القادم من بيروت تلفت أنظار الرحالة الأوروبيين. إذ أثارت هذه المنشآت الخيرية إعجاب جاك دو فيلمونت الذي زارها في شهر آب عام 1590م وخصص لها في كتابه "رحلات" عرضاً مطولاً: "يوجد بالقرب من دمشق خان جميل جداً يدعى التكية، بناه السلطان سليمان، والد السلطان التركي الحالي، لإيواء جميع الحجاج المحمديين (حسب تعبيره)⁽¹⁾ الذاهبين إلى مكة لزيارة قبر محمد⁽²⁾ ولإطعامهم وإطعام خيولهم وإبلهم مدة ثلاثة أيام دون أن يدفعوا قرشاً واحداً. هذا المسكن جيد البناء وبالغ الروعة بحدائقه الجميلة المحاطة بأروقة جميلة ومسقوفة بقباب يتنزه فيها من ارتفع شأنه من الناس، في حين يتنزه من هم أقل شأناً في فناء آخر محاط هو أيضاً بأروقة حيث يبيتون مع خيولهم. في وسط هذا الفناء نافورة ماء عذب يشرب منها الجميع، وقد شيدت كل هذه المباني على شكل مربع وسقفت بالرصاص. ويوجد أيضاً مسجد مزود بأعمدة كثيرة ونافورة ماء موجودة بالقرب من الباب يغتسل منها المحمديون قبل أن يدخلوا المسجد لأداء صلواتهم. في هذا الحان يُستقبل النصارى جيداً ويقدم لهم الطعام مدة ثلاثة أيام لا فرق بينهم وبين الأتراك، لأن إحسان الأتراك يشمل كل الناس مهما

(1) مفهوم كلمة "المحمديين" فيه تحقير واضح. الإسلام على عكس النصرانية التي تعرف أتباعها بارتباطهم بنبيهم المسيح، لا يعرف أتباعه بارتباطهم بنبيهم بل بالرب. الإسلام يعني حرفياً الخضوع لله. ولا يُعرف المسلم نفسه بالمحمدي.

(2) يعرف الجميع أن قبر محمد (ﷺ) ليس في مكة وإنما في المدينة المنورة.



التكية السليمانية



التكية السليمانية

التكية السليمانية ونهر بردی



كانت أديانهم⁽¹⁾. في القرن التالي، وصف الرحالة بلتزار مونكوني البناء الذي حدد موقعه في البداية في "حقل دمشق"⁽²⁾ ويصفه بأنه مستشفى بناه السلطان سليم (حسب قوله)، وأنه من أشهر الأبنية التركية، ولكن يبدو واضحاً أنه يتحدث عن التكية السليمانية⁽³⁾.

في عام 1563م، في نفس العام الذي استلم فيه لالا مصطفى باشا، القائد البوسني، وظيفته كحاكم لدمشق حتى عام 1568م، أمر ببناء خان "عند سفح القلعة"⁽⁴⁾ وبالقرب من سوق الخيل، وهو خان البطيخ الذي "لم يكن له مثيل" كما يذكر أحد الكتاب المسلمين⁽⁵⁾. هُدم هذا الخان عام 1936م أثناء بناء سوق الهال. كان الخان مزوداً بماء جارٍ، وبنظام لتصريف الماء المستعمل ومصدر للماء، ويضم على الأقل مئة وسبعين مستودعاً وعدة دكاكين ومخبزاً ومسجداً وقاعة للوضوء ومرحاض. كما بنى مصطفى باشا إضافة إلى هذا الخان أسواقاً وعدة تكيات وحماماً.

في عام 1568م، بنى الحاكم مراد باشا في حي السوق تربة كسيت جدرانها من الداخل بألواح القاشاني الجميل، ومسجداً تأثرت زخرفته بالطراز المملوكي القديم برغم سقفه المقبب.

عندما عين الوالي درويش باشا - الذي كان الدمشقيون يقدرونه كثيراً لما قام به من جهد لكي يعم الأمن في المدينة⁽⁶⁾ - حاكماً لدمشق، أبدى نشاطاً كبيراً في البناء. إذ بنى إضافة إلى جسر وسوق وعدة سُبل ماء، خاناً وحماماً بالقرب من الجامع الأموي، ومسجداً شمال المدرسة السييائية، وتربة دُفن فيها عام 1580م. شيد المسجد، الذي لا مثيل لجماله كما يذكر ابن جمعة⁽⁷⁾، وفقاً للعمارة العثمانية:

(1) VILLAMONT J.، المرجع نفسه، ص 435.

(2) وهو الميدان الأخضر.

(3) MONCONYS B.، Journal de Voyages de Monsieur de Monconys، ليون، 1665م، الجزء 1، ص 341. في عام 1697م، وصف الرحالة الإنكليزي هنري موندلر هو الآخر التكية على أنها مستشفى (رحلة من حلب إلى القدس في عيد الفصح عام 1697م، Utrecht، 1705م، ص 216). وفي القرن التاسع عشر انظر أيضاً Addison ch. Gr.، دمشق وتدمر: رحلة إلى المشرق، لندن، 1838م، الجزء 2، ص 137-138. وما زالت المدرسة تُنسب حتى اليوم أحياناً إلى السلطان سليم.

(4) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص 186.

(5) المرجع الأخير، ص 186.

(6) المرجع الأخير، ص 188.

(7) المرجع الأخير، ص 187. بني المدرسة السييائية آخر حاكم مملوكي للمدينة، وهو الأمير سييائي، وذلك قبل وصول العثمانيين بوقت قصير.

صحن سماوي تتوسطه بركة ويحيط به رواق من جانبه الجنوبي يفضي إلى قاعة للصلاة غطي الجزء المركزي المربع منها بقبة، في حين غطت ثلاث قباب كلا الممرين الجانبيين. وزينت ألواح القاشاني أجزاء متنوعة من المبنى: جدران قاعة الصلاة وجدار الرواق الداخلي وجبهة القوس الذي يعلو النوافذ والجدار الغربي للصحن. وإذا كانت المناظر الخزفية من نباتات وأزهار رسمت باللون الأبيض والأخضر والأزرق والبنفسجي تنتمي إلى الطراز العثماني، فإن الزخرفات المصنوعة على شكل عناقيد عنب وأوراقه من خصائص الزخرفة السورية التقليدية. كما يوجد في أسفل جدار الصحن الغربي وفي مركز لوح قد أعد على عجل من قطع أعيد استخدامها لوح يلفت الأنظار بطبيعته وغفوية إنجازه الرائعة وجمال ألوانه والطير المرسوم عليه والذي قطع رأسه عدو للصور. وفي عام 1723 - 1724م، تحطمت المئذنة وبنيت أخرى جديدة "من القاعدة حتى القمة"⁽¹⁾.

في عام 1573م، بنى درويش باشا في جنوب غرب الجامع الأموي وبالقرب من السوق الكبير الذي كان قد بناه قيسارية خصصها وفقاً لمسجده. كان يفترض أن تحمل القيسارية اسم بانيتها ولكنها بعد أن خصصت لإيواء تجار وصناع الحرير أصبحت تسمى حتى اليوم خان الحرير. للخان باب بمداميك حجرية، يتناوب فيها اللون الأبيض والأسود، تعلوه نافذتان ذواتا قضبان، وينفتح في منتصف الواجهة الشمالية لدهليز مسقوف بقبوتين متقاطعتين. يؤدي هذا الدهليز إلى صحن مربع مبلط تتوسطه بركة وتحيط به أربعة مبان مكونة من طابقين. يؤكد نص التأسيس المنقوش على بلاطة فوق قوس كوة المدخل أن هذا المبنى "فريد زمانه ولا مثيل له في بلاد المشرق أو في بلاد الغرب"⁽²⁾. يحتوي الطابق الأرضي ذو المداميك البازلتية على مخازن مكونة جميعها من قاعة مسقوفة بقبوات متقاطعة ومزودة بباب وشباك يفضيان إلى الصحن. وبُني الطابق الأول بمداميك كلسية، يؤدي عمره المسقوف بقباب صغيرة إلى غرف سقفت جميعها، باستثناء أربع، بقبوات طويلة، يدخل إليها النور من شبابيك تطل على الصحن أو الشارع. مازال خان الحرير بحالة جيدة ولم تطرأ عليه تغيرات كثيرة مع الزمن، تشغله اليوم مخازن ومستودعات وورشات لصناعة منتجات متنوعة: البابووج والجوارب والأحذية والقباقيب والأحزمة والأقمشة المطرزة وغيرها.

(1) المرجع الأخير، ص 238.

(2) YAHYA F., Inventaire archéologique des caravansérails de Damas، رسالة دكتوراه من جامعة إكس إن بروفانس،

1989م، ص 358.

عندما استلم سنان باشا في كانون الأول 1587م مهامه والياً على دمشق⁽¹⁾، كان قد خلف وراءه حياة حافلة في السلك السياسي. فهو من أصل ألباني ترعرع في السرايا وشغل مناصب عالية في غزة وطرابلس وحلب قبل أن يعين حاكماً لمصر. ساهم انتصار حملاته العسكرية في سيطرة الإمبراطورية العثمانية على اليمن وتونس. ويعد أن عين صدرأ أعظم خلع ونفي. ولكنه نجح بعد أن حصل على العفو في الحصول على حكم مقاطعة دمشق. وبرغم قصر مدة حكمه - إذ خلع من منصبه بعد ثمانية عشر شهراً - احتفظ الدمشقيون له بذكرى حسنة. إذ كتب ابن جمعة: "لقد كان رجلاً مثقفاً ذكياً وعادلاً، يحب الرعية والفقراء والأتقياء وكل الأولياء الذين ياركهم الله. لقد أحسن كثيراً لكل البلد"⁽²⁾. مات سنان باشا في اسطنبول عندما كان صدرأ أعظم للمرة الخامسة، وخلف وراءه ثروة هائلة يؤكد جردها الذي زودنا به ابن جمعة على أن أصحاب الرتب العليا في الإمبراطورية العثمانية لم يكونوا أقل مهارة فيما يتعلق بالفساد وجمع الثروات، ولا أقل جشعاً من الممالك: "مئة وستون مصحفاً مرصعة باللآلئ والمجوهرات، وثلاثون إبريقاً أو جفنة من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة والياقوت، وخمسة صناديق مليئة بالزبرجد قيمتها لا تقدر، ومراوح وزوج ركاب وسروج وسلاسل من الذهب وسيوف ودروع وتيجان وأحذية وخناجر ومبخرات ومئات الخواتم والوسائد والشمعدانات ومئة وخمسون ثوب شرف وثلثمئة فروة زبلين وأربعمئة فروة أوس وثلثمئة آلاف ناقة وألفا بغلة وتسعمئة فرس، هذا إذا استثنينا الأواني الصينية والنحاسيات والأقواس المرصعة والزردات والرماح والرايات المطرزة بالذهب وعدد القتال وخوذات ذهبية وعدداً هائلاً من أشياء يستحيل حصرها"⁽³⁾.

قام سنان باشا بنشاط معماري كبير جداً. فلقد بنى في كل مكان من الإمبراطورية الآبار والخانات وأكثر من أربعة جوامع كبيرة وأكثر من مئة منشأة دينية⁽⁴⁾. ففي سورية شمل نشاطه كل المقاطعات: إضافة إلى تعبيد الشوارع في فلسطين، بنى في دمشق وقرى المنطقة حمامات وخانات ودكاكين وأسواقاً وعدداً كبيراً من المباني الدينية⁽⁵⁾: المساجد والمدارس والمكاتب والأربطة والعمارات، وخصص

(1) فيما يتعلق بتاريخ استلام سنان باشا لمنصبه انظر PASCUAL J.P، المرجع نفسه، ص 32 - 33.

(2) LAOUST H، المرجع نفسه، ص 191.

(3) المرجع الأخير، ص 192 - 193.

(4) PASCUAL J.P، المرجع نفسه، ص 35.

(5) يذكر الرحالة الفرنسي Jean Thévenot في منتصف القرن السابع عشر، خاناً بالقرب من دمشق بناه سنان باشا أثناء قيامه

لصيانتها، كما يذكر عقد الوقف الذي حرره قبل شهرين من وفاته "لكي تبقى ولا تختفي عبر القرون"، "منتجات عديدة وأرباح استثمارات ومباني وقرى وحقولاً مزروعة"⁽¹⁾، تقع بالقرب من دمشق في القرى المجاورة وفي فلسطين وجبل لبنان.

خارج باب الجابية، وفي موقع متميز يقع على تقاطع الشارع المستقيم - الشريان الكبير الذي يحاذي السور الغربي - مع الشارعين اللذين يؤديان إلى أحياء المنطقة الغربية، أمر سنان باشا ما أن استلم منصبه في بداية عام 1587م، ببناء الجامع الكبير الذي يحمل اسمه. فهدم المسجدين اللذين كانا في ذلك الموقع، وعهد بإدارة أعمال البناء إلى الأمير محمد بن منجك. وافتتح رسمياً جامع سنان باشا الذي اكتمل بناؤه وفقاً للطراز العثماني، والذي يعتبره الدمشقيون، إذا صدقنا ابن جمعة، من أجمل المباني الدمشقية⁽²⁾، في يوم الجمعة 2 تشرين الثاني 1590م بحضور ابنه حاكم المقاطعة الجديد - إذ كان سنان باشا قد عُزل من منصبه في حزيران 1588م - وأقيمت صلاة الجمعة فيه بحضور العلماء والأعيان⁽³⁾. زود صحن الجامع ببركة ثمانية الأضلاع تقع في مركزه، وبثلاثة أبواب، كما أحاط به من الجهة الجنوبية رواق جميل ذو أقواس وسقف بسبع قباب. يفضي الرواق إلى قاعة للصلاة مستطيلة الشكل تعلوها قبة كبيرة تحملها مثلثات كروية. والحرم غني بالزخارف على نحو خاص: مداميك حجرية يتناوب فيها الأبيض والأسود بنيت منها الجدران، وداميك بزخرفة ملونة بني منها جدار الرواق، ولبنات عقد بيضاء وسوداء في الأقواس، وأعمدة حلزونية، وبلاط مزخرف في الصحن، وألواح الفاشاني الرخامية، وألواح زجاجية ملونة، وجص منحوت على المثلثات الكروية التي تحمل القبة، وقرميد مزخرف أخضر في جذع المثلثة، ومقرنصات في قبوة الباب وألواح خزفية حيث تبدو سراوات ودوالي عنب وزخارف زهرية أخرى متنوعة.

"برحلة إلى مكة" وذهابه إلى اليمن. ويؤكد Thévenot أنه "أجل خان في كل البلد" نجد فيه كل الأشياء الضرورية (...). ويمكن أن يستوعب بسهولة ألف رجل مع خيولهم". THEVENOT J., Relation d'un voyage fait au Levant. باريس، 1664م، ص 444.

(1) المرجع الأخير، ص 47.

(2) LAOUST. H، المرجع نفسه، ص 191.

(3) PASCUAL. J.P، ص 98.

وبرغم أهمية جامع سنان باشا المعمارية، إلا أنه نادراً ما ورد ذكره قبل نهاية القرن السابع عشر. صنّفه الحاج المسلم أديب محمد، الذي أُلّف عام 1682م دليلاً للحجاج، إضافة إلى مسجدي درويش باشا ومراد باشا، من بين "أكثر مباني دمشق روعة"⁽¹⁾. واعتبرته إيزابل برتون التي أقامت في دمشق عام 1870م أجمل مباني المدينة⁽²⁾.

في جنوب شرق المسجد، بنى سنان باشا مكتباً قرب السور، وهو نوع من المدارس الابتدائية، يتألف من قاعة بسيطة مربعة مسقوفة بقبة قائمة على مثلثات كروية، يمكنها استيعاب زهاء خمسين طالباً كان نصفهم من اليتامى⁽³⁾. وفي الجهة الثانية للشارع مقابل المكتب جدد بناء حمام قديم كان قد بناه عام 1395م تاجر غني⁽⁴⁾. وفي الجنوب بنى سنان باشا سوقاً فيها ما لا يقل عن أربعة وسبعين دكاناً في الطابق الأرضي وأربع وثلاثين غرفة في الطابق الأول موزعة على جهتي ممر مسقوف بقبوات وقباب⁽⁵⁾. وقد بنى أيضاً داخل أسوار المدينة في الحي المعروف اليوم باسم الحريقة⁽⁶⁾ مسجداً متوسط الحجم⁽⁷⁾.

لقد كانت مجموعة سنان باشا المعمارية بما كلفته من أموال بعدد مستخدميهما واحدة من أكثر المنشآت أهمية في دمشق، ويمكن تصنيفها في المرتبة الثانية بعد الجامع الأموي الذي كان يوظف في نفس الزمن ما يقارب من مئة شخص⁽⁸⁾. ففي دمشق وحدها حيث توجد أبنية الأوقاف الرئيسية كانت أجور أكثر من مئتي شخص - معظمهم ملحق بالجامع الكبير - تدفعها مجموعة سنان باشا.

(1) EDIB Mehmmmed, Itinéraire, p 37-38.

(2) BURTON I., The Inner Life of Syria, Palestine, and the holy land، لندن، 1875م، الجزء 1، ص 51. لم نجد للجامع أي أثر في Voyage de Thévenot كما يؤكد WULZINGER K. و WATZINGER C، Damasckus, die islamische Stadt، ص 80 ومن بعدهما ذكر باسكال PASCUAL J.P، المرجع نفسه، ص 99 جامع السنانية قليلاً. بالمقابل، يصف Thévenot وصفاً وجيزاً مظهر الجامع الأموي الخارجي والصحن إذ لم يكن يحق له دخول حرم الجامع لكونه غير مسلم.

(3) PASCUAL J.P، المرجع نفسه، ص 100.

(4) المرجع الأخير، ص 100 وص 52 الرقم 3.

(5) ذكر الدليل Baedeker (طبعة 1906م، ص 301) "سقفاً خشبياً قائماً على صف من القناطر الحجرية العالية ارتفاعها تسعة أمتار"، ويوضح أن السوق كان يرتاده في المقام الأول البدو والفلاحون الذين كانوا يشترون منه "الملابس وجلود الخراف والأحذية والأسلحة والتبغ وأدوات منزلية متنوعة وخُصراً ومهابيب من خشب الصنوبر لدق القهوة، وإلخ".

(6) سمي بهذا الاسم إشارة للفصيف الفرنسي الذي هدم الحي القديم. المرجع السابق، ص 164 - 165.

(7) فيما يتعلق بموقع هذا المبنى انظر إلى PASCUAL J.P، المرجع نفسه، ص 101.

(8) PASCUAL J.P، المرجع نفسه، ص 100 - BAKHIT M.A.S، المرجع نفسه، ص 152 العدد 109.

في القرن السابع عشر، ظهر في دمشق أبنية جديدة، هي الخمارات حيث كانت تشرب القهوة في المقام الأول، وإن كان اسم المكان يدل على المشروبات الكحولية. دخلت الخمارة دمشق مرةً أولى عام 1534م، وعرف المشروب الجديد نجاحاً كبيراً، ولكنه أثار استياء المتدينين والصوفيين حتى إن بعضهم صرح بتحريم استهلاك كل مادة مخمّصة. ففي دمشق حرم مرسوم دولي القهوة في تشرين الثاني 1546م⁽¹⁾. وبعد وقت قصير سُوح بفتح الخمارات التي كانت تمولها شخصيات رسمية، وازداد عددها. ولما كانت وارداتها كبيرة فقد أصبحت مدرجة تحت المنشآت الدينية. ومن دمشق وصلت الخمارات إلى اسطنبول في عام 1555م، إذ يذكر أحد المؤرخين وهو إبراهيمي بشوي⁽²⁾ أن الذي قام بهذا رجل دمشقي "مخادع" يدعى "شمس" استطاع بعد ثلاثة أعوام العودة إلى سورية وفي حوزته أرباحٌ تقدر بخمسة آلاف قطعة ذهبية⁽³⁾. أثار هذا النوع الجديد من المنشآت مما لم يكن له مثيل في بلاد الغرب - فالمقاهي لم تنتشر فيها إلا في منتصف القرن الثامن عشر - فضول الرحالة الأوروبيين. كتب بدرو تكسيرا عندما مر بدمشق في طريقه إلى حلب في آذار 1605م: "يوجد عديدٌ من المقاهي المليئة بمصاييح مضاءة حيث يجتمع الناس في المساء خاصة لاحتساء مشروب وبحثاً عن الصحة"⁽⁴⁾. كما ترك لنا بلتسار مونكونيس عندما مرّ بدمشق في كانون الأول 1647م وصفاً وجيزاً لمقاهي المدينة: "كلها مغطاة بأسقف تتوسطها نوافذ زجاجية، وفي وسطها بركة ماء مربعة كبيرة ومزودة بنافورة، وقد غطيت كل المقاعد بالسجاد، وفيها مسارح حيث يسلي المنشدون والعازفون الحضور"⁽⁵⁾. وفي عام 1697م، ذكر هنري موندلر بين "عجائب" دمشق "مقهى يمكنه استيعاب أربعة أو خمسة آلاف شخص"⁽⁶⁾، ووجد في دمشق إضافة إلى المقاهي منشأة فريدة كانت تُقرض عليها ضريبة كبيرة وكانت مخصصة لاستهلاك الحشيش رغم معارضة العلماء.

(1) PASCUAL J.P., المرجع نفسه، ص 48 العدد: 1.

(2) ذكر هذا LEWIS B., اسطنبول والحضارة العثمانية، Istanbul et la civilisation Ottomane، باريس، 1990م، ص 144.

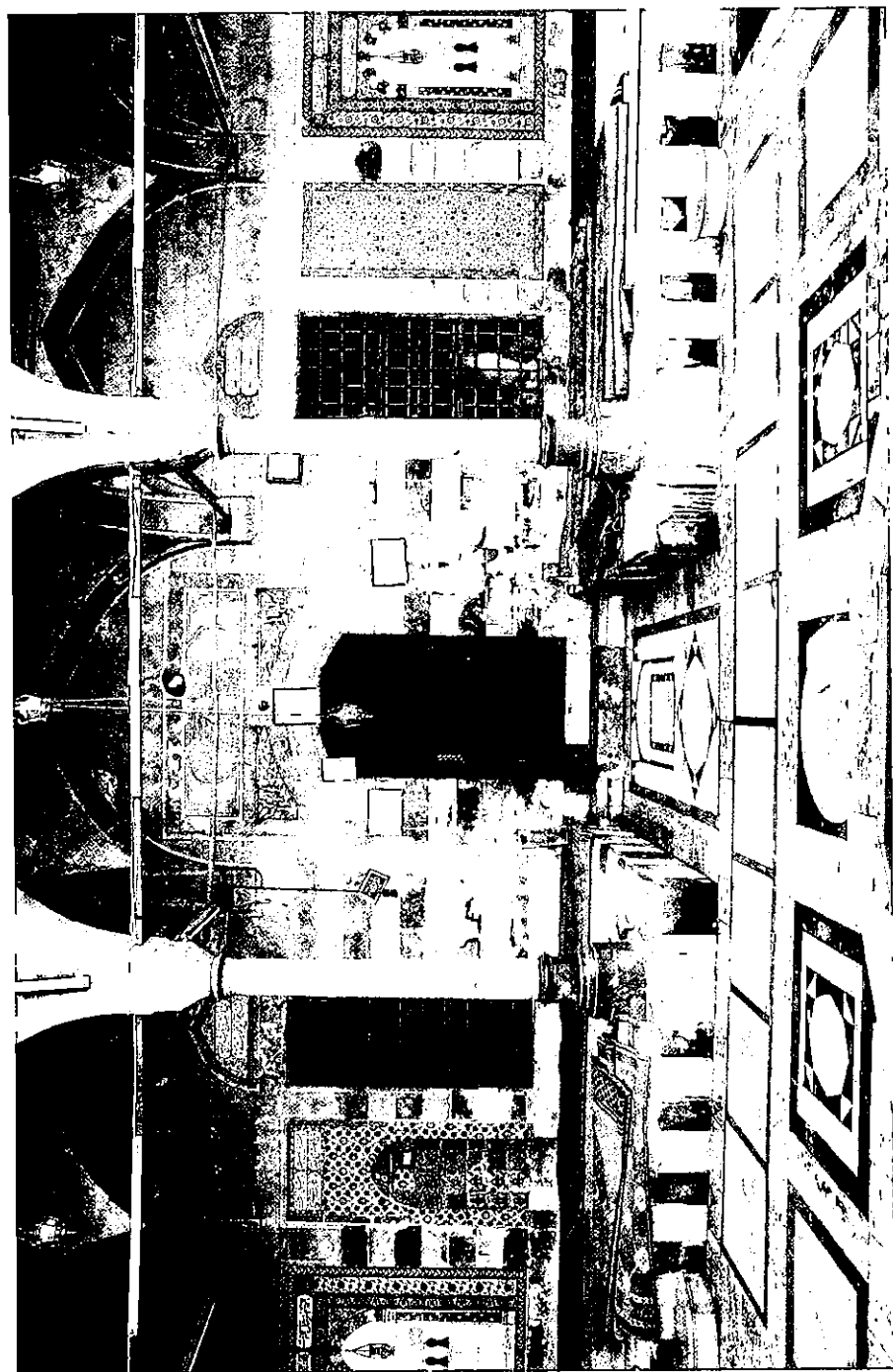
(3) المرجع الأخير، ص 147.

(4) TEXEIRA P., Voyages de Texeira, ou l'Histoire des Rois de Perse، رحلات تكسيرا، أو تاريخ ملوك الفرس،

باريس، 1681م، ص 240.

(5) MONCONYS B. de)، المرجع نفسه، ص 345.

(6) MAUNDRELL H., Voyage d'Alep à Jérusalem à Pâque en l'année 1697AD, Utrecht, p 216. 1706

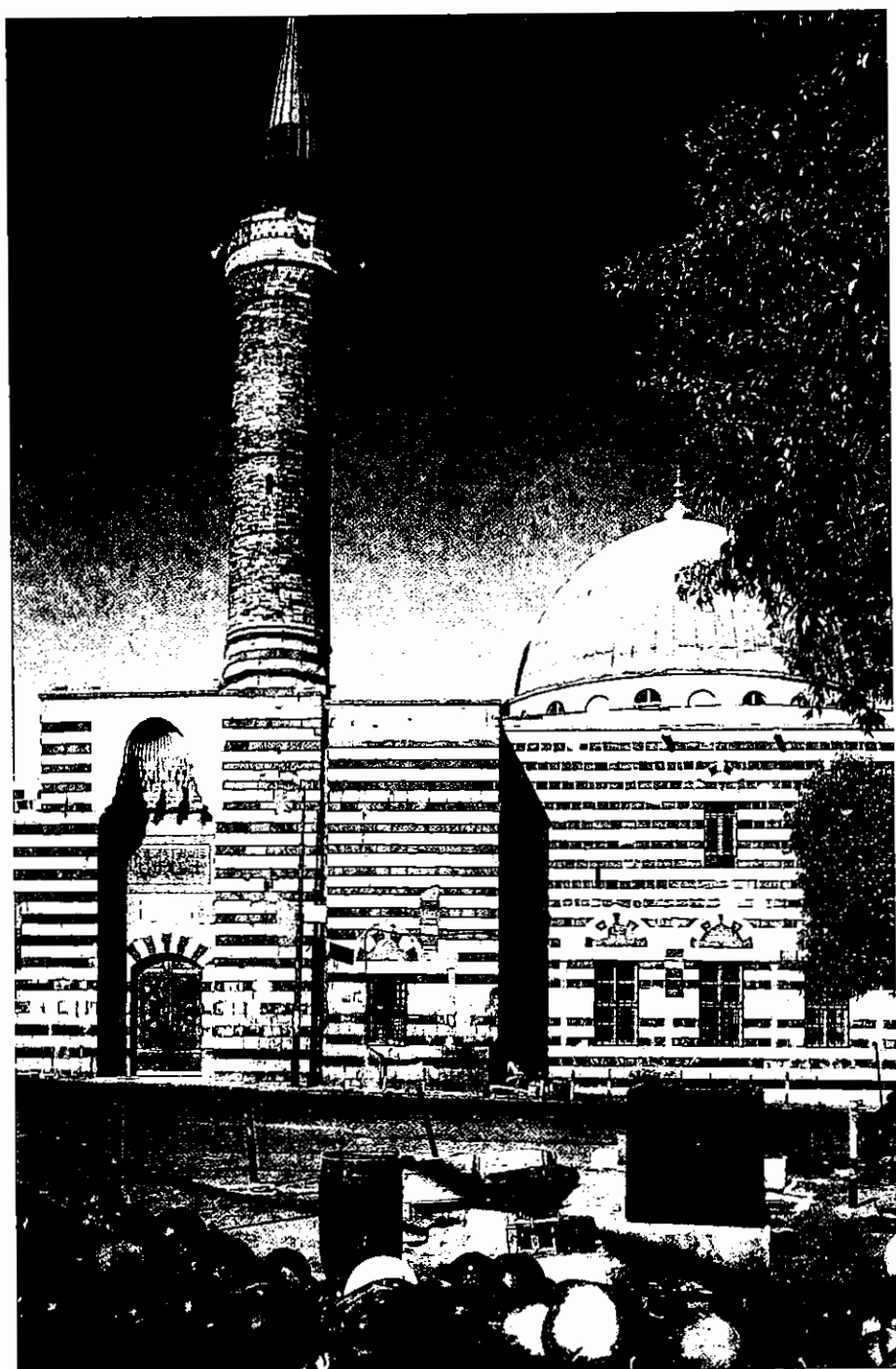


La cour de la mosquée Darwish Pasha

جامع درویش پاشا «الدرویشیة»



جامع مراد باشا النقشبندی



جامع سنان باشا «السنانیة»

في أثناء ولاية مراد باشا⁽¹⁾ - حاكم اليمن السابق ومقاطعة القرمات الأناضولية - على دمشق التي استمرت أكثر من عامين، بين 1593 و 1596 م⁽²⁾، شرع ببناء مجموعة من المباني التجارية في حي باب البريد وبالقرب من خان الحرير وسوق درويش باشا تضم مقهى وسوقاً وخاناً وبيهارستاناً. كان المقهى مكوناً من طابقين: في الطابق الأرضي إيوانات ومصاطب ومواقد وحوض تغذيه مياه القنوات، وفي الطابق الأول مخازن يمكن الوصول إليها عن طريق درج حجري⁽³⁾.

كانت السوق مؤلفة من سبع وأربعين دكاناً لصناعة وبيع قبعات أناضولية⁽⁴⁾. وكان الخان الذي اكتمل بناؤه في 1596-97م مختصاً على الأرجح بالبضائع الكالمية التي ينفرد بها السياه⁽⁵⁾. كان البازستان الذي بني في جنوب الخان⁽⁶⁾، في الثلث الأول من القرن السابع عشر مخصصاً لبيع الأقمشة الثمينة. وكانت تتوسط البازستان المربع الشكل بركة، وهو مجهز بأربعة أبواب ومسقوف بتسع قباب تحملها دعائم قوية. كما كان يتكون من واحد وستين دكاناً مغطاة بقبوات طويلة، تسعة منها كانت مبنية خارجه. وكان لطابقه الأول غرف عديدة: إذ كانت غرفة الحارس والمخازن تقع فوق الدكاكين، ويمكن الوصول إليها عن طريق درج خشبي عبر فتحة في القبوة. يمكن تحديد موقع البازستان في موقع بناء يعرف منذ القرن التاسع عشر باسم خان الجمرك، وإن كان الوصف المتعلق به الذي حصلنا عليه من صك الوقف لا ينطبق عليه تماماً⁽⁷⁾. هذا ويتألف خان الجمرك من مخزين هجرتها الجمارك عام 1864م، ثم أحرقتهما نيران سنة 1925م. ولكنهما ربما بعد وقت قصير وبيعا لتاجر نصراني حولهما إلى سوق للأقمشة⁽⁸⁾.

في نهاية القرن السادس عشر وبرغم البلبلة وضعف المؤسسة السياسية، استرجعت دمشق - وفقاً للدلائل المبهمة التي زودنا بها ابن أيوب والتي يصعب تفسيرها - ازدهارها، وكثر عدد سكانها⁽⁹⁾. إلا

(1) علينا أن نتبه كي لا نخلط بينه وبين شخصية أخرى تحمل نفس الاسم ذكرناها سابقاً.

(2) فيما يتعلق بتاريخ ولاية مراد باشا على نحو دقيق ارجع إلى PASCUAL J.P.، المرجع نفسه، ص 36-38.

(3) PASCUAL J.P.، المرجع نفسه، ص 68. القنوات الرئيسية المتفرعة من نهر بردى.

(4) المرجع الأخير، ص 107.

(5) المرجع الأخير، ص 108.

(6) فيما يتعلق بتحديد موقع هذه المباني الأكيد ارجع إلى PASCUAL J.P.، المرجع نفسه، ص 110-111.

(7) PASCUAL J.P.، المرجع نفسه، ص 112-115.

(8) YAHYA F.، المرجع نفسه، ص 389.

(9) ذكره PASCUAL J. P.، المرجع نفسه، ص 25.

أن الإحصائيات التي أجراها العثمانيون مرات عديدة خلال هذا القرن تدفعنا إلى الظن بأن عدد السكان قد قل كثيراً⁽¹⁾. وعلى كل حال، إن ظهور ثلاثة أحياء جديدة في الإحصائية التي أجريت عام 1596-1597م دليل واضح على توسع مساحة المدينة⁽²⁾. وأصبح تركز أهل الذمة من اليهود والنصارى في الجزء الشرقي من المدينة واضحاً متمعين باستقلالية واسعة منحها لهم الإدارة العثمانية، إذ أكد بيير بلون أن "اليهود كانوا منعزلين كما هو الحال في أفينيون"⁽³⁾، أما الأرمن واليونان فكانوا يسكنون في كل مكان غير منعزلين⁽⁴⁾.

وكانت دمشق بسكانها وتجارها مدينة ثانية في سورية بعد حلب. لقد أصبحت حلب بسبب علاقتها بميناء إسكندرونة الذي كان قد تطور على حساب ميناء طرابلس، وحيث كانت ترسو كل سنة خمس سفن من البندقية وثلاث من إنكلترا، وأكثر من واحدة وعشرين سفينة من فرنسا⁽⁵⁾، أصبحت المركز التجاري العالمي الأول في المشرق. فلقد كان البندقيون الذين نقلوا إليها قنصليتهم منذ عام 1548م يديرون فيها منذ بداية القرن السابع عشر أربعين متجراً تصل قيمة ريعهم السنوي إلى مليون ونصف قطعة ذهبية⁽⁶⁾، ويدير الإنكليز ثلاثة متاجر ريعها ثلاثمئة ألف سكي⁽⁷⁾، ويدير الفلمنديون متجرين بقيمة مئة وخمسين ألف سكي⁽⁸⁾. وكانت خمس عائلات فرنسية تدير وحدها ما قيمته ثمانمئة ألف سكي⁽⁹⁾. كانت دمشق خامس مدينة في الدولة، وكانت تتمتع في نظر مسلمي العالم كله بمكانة ثقافية ودينية كبيرة جداً بفضل جوامعها ومدارسها ومزاراتها وتربها. فلقد كان فيها كما يقول الحاج أديب محمد مبهوراً: "قبور رائعة لخمسمئة نبي"⁽¹⁰⁾. كما أنها كانت نقطة انطلاق إحدى

(1) نشر P. Pascual الأرقام، المرجع نفسه، ص 24.

(2) P. Pascual، المرجع نفسه، ص 25.

(3) P. Belon، المرجع نفسه، ص 150.

(4) المرجع الأخير، ص 150.

(5) P. Texeira، المرجع نفسه، ص 239.

(6) المرجع الأخير، ص 237.

(7) المرجع الأخير، ص 238-239.

(8) المرجع الأخير، ص 239.

(9) المرجع الأخير، ص 238.

(10) M. Edib، المرجع نفسه، ص 77.

قافلتي الحجاج - الأخرى كانت تنطلق من القاهرة - تلك التي كانت تضم في كل عام آلافاً عدّة من الحجاج القادمين من بلاد الأناضول والبلقان واسطنبول وبلاد ما بين النهرين وكردستان والقوقاز وأذربيجان وفارس. كان أغلبية الحجاج يقيمون شرق المدرسة السلمانية، وينزل آخرون في خان الحرمين الواقع قرب حي باب البريد، في حين كان ينزل الشيعة في حي الخراب، وهو أكبر تجمع للشيعة في دمشق. لقد كانت دمشق آخر مرحلة للحجاج قبل أن يواجهوا، في حر الصيف أحياناً، الصحراء التي تفصلهم عن الحجاز مسيرة أربعمئة وتسعين ساعة، ففيها كانوا يتزودون بما يحتاجون إليه من المطايا وعدد التخيم والمؤن، وكذلك العلف الضروري لتغذية دوابهم أثناء فترة الحج. يزودنا ببيير بلون الذي شهد رحيل قافلة حجاج عام 1555م بمعلومات دقيقة عن هذا الموضوع، إذ كتب: "يوجد في دمشق كثير من الدكاكين، كما في القاهرة، لا عمل لها إلا شئ الحُمص (...) وتحفقه في أوعية كبيرة مهواة، وطحنه ليصبح صالحاً لاستهلاك المسافرين. كان هؤلاء يأخذون معهم كعكاً ولحماً مملحاً ومجففاً وعنباً مطهّواً ورزاً وبرغلاً، وكشكاً وهو برغل يخلط باللبن ثم يجفف"⁽¹⁾.

كانت القافلة تضم عديداً من الأشخاص المهمين؛ يأتي في مقدمتهم أمير الحج الذي يعين من بين وجهاء القوم، ويكون عادة حاكماً لسنجاك غزة أو نابلس أو القدس أو الكرك، تؤهله معرفته بالظروف المحلية وعشرته لقبائل البدو أن يكون أفضل واق من خطر هجومهم. استطاع أعيان دمشق، ومنهم انكشاريون في كثير من الأحيان، أن يتولوا منصب أمير الحج بعد القضاء على فخر الدين عام 1635م⁽²⁾، وهذا دليل إضافي على زيادة سيطرتهم على المدينة آنذاك. بعد عام 1672م، كثر تعيين كبار موظفي الإمبراطورية العثمانية المنحدرين من أرض روم ومن بينهم حكام دمشق على رأس قافلة الحج. كان أمير الحج يتمتع بسلطة واسعة على جميع حجاج القافلة، وكان مسؤولاً عن تزويد القافلة بالجمال والخيول والماء والعلف، وكان عليه تأمين المرافقة العسكرية للقافلة وتتكون من مئة سيّاه تقريباً ومتي إنكشاري مسلحين بالبنادق والمدافع. وكانت القافلة تحتوي إضافة إلى الدوادر "السكرتير"، وهو المسؤول عن الحفاظ على النظام وناظر المنزل المسؤول عن التخيم، وقاضياً ومؤذناً وإماماً وسنجداراً وميقاتياً مهمته تحديد أوقات الصلاة وجهة القبلة، ومفتش على الخيل والإبل وأمين

(1) BELON P.، المرجع نفسه، ص 152.

(2) انظر إلى المرجع في الأعلى. ص 57.

صندوق المؤن ومسؤولاً عن حملة الماء ورئيس حمالين وطباخاً ورئيس حملة المشاعل ومأمور القدور النحاسية ومأمور المشروبات وطبيباً وجراحاً وكحالاً وحشداً من الخدم المكلفين بالخيام والأسلحة والعتاد. كان الحجاج ينطلقون على صوت المزامير وقرع الطبول والأناشيد في موكب يتقدمه المحمل⁽¹⁾، ويتوقفون عند قبور الأولياء والمباني الدينية للتعبّد. تغادر القافلة دمشق في الخامس عشر من شهر شوال وسط احتفال كبير، يرافقها الحاكم وكبير القضاة والأعيان حتى قبة يلبغا، وحشد من الدمشقيين حتى قرية الكسوة. كانت القافلة تتوقف أسبوعاً في مزريب، آخر مكان لتجمع الحجاج، فتنتهي تجهيزاتها الأخيرة وتسلم زعماء البدو الأتاوات المختلفة التي جرى الاتفاق عليها مقدماً ليتجنّب الحجاج كما يقول بيير بلون، "القتل على يد عرب الصحراء في الطريق"⁽²⁾.

إذا كان من الصعب أن يقدر بدقة أثر الحج الاقتصادي، ونسبة الحجاج الذين يقومون بأعمال تجارية، فإن الحج كان عاملاً مهماً في ازدهار دمشق. فلقد لاحظ البارون تيلور عام 1830م تزايد النشاط التجاري أثناء الحج، وكتب: "كان هدف القافلة دينياً فقط في الأصل، ولكنه أخذ منذ عدة قرون يتخذ منحىً تجارياً. فالقافلة وسيلة مريحة ومضمونة للاستثمار في كل مجالات التجارة الآسيوية والأفريقية أكثر من كونها قافلة حج. إنها سوق حقيقي متكرر، حيث يحضر كل مسافر ومعه منتجات بلده ليبيدها - سواء في الطريق أم في مكة - الموصليين أو الحُمُر الهندية أو أوشحة كشمير أو عنبر دكان أو لآلئ سيلان أو توابل سومطرة أو قهوة اليمن. فكثيرٌ من الحجاج هم سمسارة قوافل قدماء سلكوا طريق مكة عشرات المرات وجنّوا أرباحاً طائلة"⁽³⁾.

لم تعد تعدّ دمشق في نهاية القرن السابع عشر بنظر الزائر الأوروبي مركزاً تجارياً وحرفياً كبيراً

(1) المحمل سرج على شكل مكعب، يعلوه هرم بأربعة جوانب ومغطى بالحرير. يُحمل على ظهر ناقّة، ويرمز في قافلة الحج إلى وجود السلطان الذي كان اسمه يكتب بأحرف كبيرة على إحدى جوانب المكعب. إنه قبل كل شيء شعار سياسي وتعبير عن السيطرة على الحجاز. وخلافاً لما ذكره تقريباً كل الرحالة الأوروبيين، كان المحمل دائماً خالياً وليس فيه إلا مصحف Cf. JOMIER J., "Le Mahmel et la caravane égyptienne des pèlerins de la Mecque, XIIIe-Xxe siècle": Rech. Arch. Phil. His. XX.1953، القاهرة، المركز الفرنسي للآثار الشرقية، 1953م.

(2) BELON P.، المرجع نفسه، ص152.

(3) TAYLOR I. J. S. (3) La Syrie, la Palestine, et la Judée. Pèlerinage à Jérusalem et aux lieux saints، باريس، 1855م، ص120. فيما يتعلق بحجم التجارة في مكة أثناء الحج أرجع إلى ما رواه في القرن الثاني عشر الرحالة المسلم الكبير ابن جبير: "Voyages in: Documents relatifs à l'histoire des croisades"، باريس، 1951م، الجزء 5، ص140 و206.

كما كانت عليه في عهد المماليك. ومع أن مصنوعات اليدوية مازالت تثير الفضول إلا أن مباهجها وسحرها وأسلوب عيش الناس فيها أصبحت مركز اهتمام الراصين. وهكذا في عام 1590م، كتب جاك دو فيلامونت: "إنها مدينة كبيرة وقوية جداً، بنيت فوق سهل خصب جميل، وتجري فيها الأنهار (...) التي يتفرع منها عدد هائل من الجداول لري البساتين الغناء (...). معظم شوارعها مغطاة ومقبة فيتمكن المرء من التنزه فيها دون أن يخشى أوار الشمس ولا إزعاج المطر؛ وهذا شيء جميل ورائع، كما أنها منارة طوال الليل. أما المنازل فهي عالية مرتفعة، ورغم أن مظهرها الخارجي ليس جميلاً لأن الجدران مبنية بالطين، إلا أن داخلها شديد الروعة والجمال وغني بلوحات من الفسيفساء الغالية المذهبة. إضافة إلى ذلك، توجد في كل منازلها تقريباً نافورة ماء وحدائق جميلة جداً فيها فاكهة شهية في متناول الأيدي (...). يتنعم الناس كثيراً بجمال حدائقهم، وتجري مياهها ومياه البحرات في معظم شوارع دمشق، فتستخدم لتنظيف هذه الشوارع وتخليصها من أوساخها"⁽¹⁾. ويختتم رحلتنا حديثه قائلاً: " (...) من يتأمل جيداً في جمال وموقع وغنى هذه المدينة، فإنه يرى فيها جنة العالم، ليس بسبب أبنيتها، وإنما يكفيها طيب أرضها"⁽²⁾.

في الوقت الذي حصلت فيه السيطرة على عصيان الرؤساء المحليين في القرن السادس عشر، سبب تمردهم في القرن السابع عشر تغييرات سياسية واقتصادية هامة في جميع المدن السورية. إذ استغلت سلالات الحكم المحلية الصغيرة والإمارات خاصة وشيوخ البدو والأمراء الأكراد من التركمان أو العرب ضعف السلطة المركزية والحرب التي كانت الإمبراطورية العثمانية تشنها على الفرس وهنغاريا، فأضعفوا الوصاية العثمانية وحاولوا توسيع سلطاتهم على حساب جيرانهم.

في بداية القرن، أفلتت دمشق مدة عامين من سيطرة الباب العالي بسبب المتمرد علي بن جان بلاط وهو سنجقباي مقاطعة حلب الكردي. وفي الوقت نفسه، وبفضل موقف الباب العالي الحيادي والمتساهل، وبرغم معارضة حاكمي دمشق وطرابلس، نجح أمير صغير من دروز الشوف - وهو فخر الدين بن معن الذي كان قد رقباه مراد باشا حاكم دمشق إلى رتبة سنجقباي - نجح في إخضاع الشيوخ والأمراء المجاورين واحداً تلو آخر، وفي توسيع هيمنته حتى عجلون وصفد.

(1) VILLAMONT J.، المرجع نفسه، ص 431 والتالية.

(2) المرجع الأخير، ص 436.

واستطاع بمساندة المارونيين الذين كانوا أكثر إخلاصاً له من زعماء الدروز الذي كانوا يشعرون دائماً بالغيرة من نجاح أحدهم، وبفضل الثروات التي وفرتها له حروبه، أن يشكل جيشاً قوياً مؤلفاً من أربعة آلاف رجل، ومن مرتزقة ومجندين جرى تدريبهم على أراضيهم. ولكي يزيد دخله ويحصل على دعم غربي، أبرم مع الفلورنسيين المتهلفين لتوطيد نفوذهم عقوداً تجارية تضم اتفاقيات سرية ضد العدو المشترك: الإمبراطورية العثمانية. تخوف الباب العالي من الاتفاقيات التي عقدها الأمير مع الغرب ومن طموحاته، فعهد إلى حاكم دمشق حافظ أحمد باشا - وقد أعطاه كامل السلطة على جيوش الأناضول - بإعداد حملة في الوقت الذي أبحرت فيه زهاء ستين سفينة حربية باتجاه السواحل السورية. وتخلّى كثيرون عن فخر الدين وإقطاعيو الدروز خاصة الذين أخافتهم قوة المعنيين. فقرر بعد أن أحاطه الخطر بحرّاً وأرضاً الذهاب إلى إيطاليا لطلب المساعدة، وركب البحر من بيروت في 15 أيلول 1613م، وعهد بشؤونه إلى ابنه علي الذي نجح في التحالف مع الباب العالي. واسترجع الأمير عند عودته الأراضي التي كانت تحت سيطرته، وشجع صناعة الحرير والزراعة والتجارة وسمح للتجار الأوروبيين ببناء الخانات وفتح القنصليات.

فتح الفلورنسيون في صيدا قنصلية، وفتح الفرنسيون ثلاث قنصليات: واحدة في صيدا التي كان تحت سلطتها القضائية صور وبيروت ودمشق حيث لم يكن يقيم إلا نائب للقنصل، وثانية في عكا وثالثة في القدس عام 1621م⁽¹⁾. اتخذ الأمير الدرزي مقابل دعم القوى الأوروبية له وبغية إرضاء حلفائه المارونيين سياسة متساهلة مع النصاري، فسمح لهم بامتطاء الخيل وارتداء العمامة. وفتح الشوف للمبشرين الكيوشيين، وسمح بتشييد الكنائس والأديرة، كما سمح للفلاحين النصاري بالاستيطان في أراضي الدروز. ومكنته الضرائب التي كان يجنيها من مقاطعاته ورسوم صيدا وبيروت الجمركية من تجهيز جيش جديد قدر عدد جنوده الدبلوماسي الفرنسي ديشيه دو كورمنان عام 1621م بما يقارب عشرة آلاف رجل، وقدر عدده البيوغرافي الدمشقي محمد محبي⁽²⁾ بعد نصف قرن بمئة ألف رجل، وهذا يؤكد كم كانت ذكرى الأمير التي تركها في النفوس قوية.

يذكر ديشيه دو كورمنان أن الأمير فخر الدين كان في الواقع "الأول والأكثر احتراماً" بين

(1) ROGER E.، المرجع نفسه، ص 406.

(2) LAMMENS H.، La Syrie, précis historique, Beyrouth، 1921م، الجزء 2، ص 70. نُحِبِّي من مواليد دمشق عام 1651م

وقد توفي عام 1699م.

أمراء الإمبراطورية العثمانية، "كان يقوم بكل مهام الملك (...). ويمتلك منطقة الجليل العليا والجزء الأكبر من منطقة الجليل الدنيا مع الساحل الفينيقي (...). وكان متفاهماً مع ملك الفرس (...). ويمتلك وارداً سنوياً يقدر بتسعمئة ألف ليرة، كان يعطي ثلاثمئة ألف منها للباب العالي"⁽¹⁾. ويذكر الأب أوجين روجيه الذي كان من المقررين إليه أثناء إقامته في سورية بين 1629 و1634م، أن الفطنة فقط هي التي منعت من الاستيلاء على دمشق وطرابلس، وأن سلطته كانت قوية فلم يتمكن باشاوات دمشق وطرابلس الذين لم يكن تحت سيطرتهم إلا مدنها أن يرتفعوا بالوارد القليل الذي لا يكاد يكفي أن يدفع للسلطان⁽²⁾. ويذكر محبي "أنه لم يبق له إلا أن يطالب بالسلطنة"⁽³⁾. وفي عام 1623م أسرت قواته ممثل الباب العالي في الولاية وهو حاكم دمشق مصطفى باشا عند مروره بسهل البقاع. ولم يعد للباب العالي بعد أن سخر منه الأمير الدرزي القوي أي تأثير على البدو. ذكر ديشيه دو كورمنان: "كان ملك العرب الذي يحكم كل الصحراء من الأرض المقدسة إلى منطقة الفرات، يعترف بالسلطان العثماني دون أن يدفع له أي جزية: بل على العكس كان الباشاوات يرسلون إليه الهدايا عندما كان يقترب من دمشق أو حلب ليأمنوا جانبه. فلقد كان في أثره دائماً عشرة آلاف رجل من عرب البادية"⁽⁴⁾.

لما كان السلطان مراد الرابع، الذي كان محبي يطلق عليه لقب "أقوى السلاطين العثمانيين"⁽⁵⁾، قلقاً من الحملات العسكرية التي شنها فخر الدين في فلسطين، عزم على التخلص منه. فقام حاكم دمشق كوجاك أحمد باشا الذي اشتهر بين الدمشقيين بنجاحه في وضع نهاية لقطاع الطرق⁽⁶⁾، بحشد جيش كبير. وقُتل علي ابن الأمير في وادي تيم في جنوب البقاع، بعد أن باغته قوات يفوق عددها جيشه بكثير. ومنذ ذلك الوقت، وبعد أن أصبح مدخل الجبل مفتوحاً، احتلت الحصون واحداً تلو الآخر، وتقدم الجيش

(1) DESHAYES DE COURMENIN, Voyage de Levant fait en l'année 1621AD, P 347-348, Paris 1624.

(2) ROGER E. المرجع نفسه، ص 297.

(3) LAMMENS H. المرجع نفسه، الجزء 2، ص 88.

(4) DESHAYES DE COURMENIN، المرجع نفسه، ص 350.

(5) ذكر هذا LAMMENS H. المرجع نفسه، الجزء 2، ص 88.

(6) LAOUST H. المرجع نفسه، ص 204.

العثماني باتجاه بيروت. لجأ فخر الدين بعد أن منعه من الهرب عن طريق البحر أسطول كابودان باشا⁽¹⁾ الذي كان يحول في الساحل إلى قلعة فيها. ولكنه اضطر بعد أن خانته المقربون إليه أن يسلم نفسه إلى العثمانيين. فسيق مقيداً بالسلاسل إلى اسطنبول، وبرغم "أربعة عشر بغلاً محملاً بدراهم من الذهب والفضة وكنوز أخرى قدمها هدية إلى السلطان"⁽²⁾ فقد أُعدم شنقاً في 14 آذار 1635م وله من العمر سبعون سنة. واستسلمت كل الفرق دون تأخر، واستعاد الباب العالي سيطرته كاملاً. ولكي يسهل مراقبة مناطق الدروز جرى توحيد سناجق صيدا وبيروت وصفد التي كانت حتى ذلك الوقت مرتبطة بدمشق، فأصبحت مقاطعة واحدة وهي مقاطعة صيدا التي لم تكن إلا بلدة كبيرة. كتب كوين عام 1643م: "لم تعد مساحتها اليوم إلا ربع ما كانت عليه سابقاً. ولم تعد تضم إلا ستة آلاف نسمة"⁽³⁾. إلا أنها هدمت بعد عدة سنوات ليعيد الصدر الأعظم محمد كوبرلي تشيدها من جديد عام 1660م.

عانت التمرد والعصيان في دمشق والقرى المجاورة لها فساداً على مدى القرن السابع عشر، وأصبح الوضع كما كان عليه في عهد المماليك وإن كان العنف أقل. ومع نجاح أهل البلد في الانضمام على نحو متزايد إلى فيالق الإنكشاريين، برغم المراسيم السلطانية التي كانت حريصة على أن تجند فيها "الأجانب" من النصارى فقط⁽⁴⁾، فقد تدهورت العلاقة بين الإنكشاريين من طرف والحكام والسكان من طرف آخر⁽⁵⁾. وفي الوقت نفسه، قامت منافسة كانت تتحول غالباً إلى نزاع مفتوح بين المواليين للسلطان وأهل البلد. ففي عام 1652 - 1653م ثار الإنكشاريون وأجبروا حاكم دمشق على الهرب وأصبحوا سادة المدينة مؤقتاً. وفي عام 1656 - 1657م، كان لهم دور فاعل في عصيان حاكمي حلب ودمشق ضد سلطة الصدر الأعظم محمد باشا كوبرلي. بعد هزيمة المتمردين عام 1658 - 1659م، أسرع مئات من المقربين للسلطان من اسطنبول إلى دمشق حيث قُتل بأمر منه عديد من الإنكشاريين

(1) أمير الأسطول العثماني.

(2) ROGER E. المرجع نفسه، ص 313.

(3) COPPIN J., Relation de voyages faits dans la Turquie la Thébaïde et la Barbarie, p 420. 1720.

(4) المرجع السابق، ص 41.

(5) لاحظ هذا التطور في كيان الإنكشاريين الرحالة الأوروبيون، إذ كتب Fernanel مستشار برلمان روان الذي ذهب إلى دمشق في شهر آب عام 1630م: "كانت المدينة تنفق على ستة آلاف إنكشاري وأربعة آلاف سياه، كان جميعهم من مواليد البلد ومعظمهم حرفيين". FERMANEL G., le voyage d'Italie et du Levant de MM. Fernanel, Stochove. 1664م، ص 320 - 321.

الذين شاركوا في التمرد. وقُسم إنكشاريو دمشق حيثُ إلى فيلقين منفصلين، يقود كلاً منهما آغا يعينه الباب العالي، فيلق أطلق عليه اسم قايقولو أي عبيد الباب العالي، وفيلق الإنكشاريين المحليين أطلق عليه اسم يرليا. بدأ أفراد يرليا الذين كان من مهمتهم حراسة الحصون المنتشرة على طريق الحج أكثر اهتماماً بالحفاظ على مصالحهم الاقتصادية، ودخلوا في نزاعات مع قايقولو يخاصمونهم على ثروات أراضي الغوطة الزراعية. ولجأ كلاهما إلى العنف في تعاملهما مع السكان. ففي عام 1707-1708م ذكر ابن جمعة: "هاجم الإنكشاريون الدمشقيين وقتلوا عشرات من الناس، وأغلقت المدينة أبوابها ثلاثة أيام، ومنع بعدها الإنكشاريون الناس من تأدية صلاة الجمعة. فحاصر الدمشقيون الإنكشاريين في القلعة وأجبروهم على دفع دية من قتلهم"⁽¹⁾.

تسارع في القرن السابع عشر انحطاط الإمبراطورية العثمانية الذي كان قد بدأ من قبل في السنوات العشر الأخيرة من القرن السابق. فاغتصمت القوى الأوروبية هذا الوضع، وحصلت على امتيازات ومهامٍ توسلية لكي تتدخل أكثر فأكثر في الشؤون الداخلية للإمبراطورية. تشهد التقارير القنصلية والمعطيات الإحصائية وفرمانات الدولة وكتب التاريخ وقصص الرحالة على حالة الفقر وهجرة الريف وخراب المدن وعصيان البدو واختلال أمن طرق المواصلات وفساد الموظفين وتعسف السلطة واستياء السكان وتدهور السلطة المركزية.

بدأ عديد من المدن السورية وخاصة الجنوبية منها في حال مأساوية. وأصبحت، كما ذكر المسافرون، صور والجليل ويافا وقيسارية وصيدا وعكا وطبرية وصفد واللّد وعسقلان والرملة إما مهجورة أو تحولت من مدن إلى قرى⁽²⁾. وهجرها عدد كبير من سكانها خوفاً من البدو، كما حدث لمدينة حمص التي - كما ذكر الرحالة الإيطالي بترودولا فاليه - "لم يعد يسكنها إلا عدد قليل من الناس، بسبب أعمال العنف التي كان يمارسها عرب البادية من وقت لآخر، وما كانوا يطالبون به هؤلاء المساكين من مبالغ ضخمة"⁽³⁾. وخلافاً لما ذكر الرحالة المسلم أديب محمد، عام 1682م،

(1) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص 229 - 230. الدية هي ثمن الدم المهدور.

(2) MOCQUET J.p 407 DESHAYES DE COURMENIN, p 332,392,398.401 ROGER E, p44,61,76,160 COPPIN R, p 432,420 MONCONYS B, p 298,330 ARVIEUX L.p 15,24,32,72,98,318,397,444. GOUJON J, p 57,106,107. AUNDRELL H, p 90,103. BESSON J.p 237.

(3) VALLE P.(della), Voyages de Pietro della vallé dans la Turquie, l'Egypte, la Palestine, la Perse, les Indes orientales et autres lieux,p 133 VOL2,1745.

"توجد في سورية "في كل مكان تقريباً" أراض مزروعة وحقول وسهول ومراع "كثيرة جداً ذائعة الصيت" وفواكه كثيرة"⁽¹⁾، فقد لاحظ الرحالة الأوروبيون تدهور الزراعة وهجرة الريف، إذ كتب ديشيه دو كورمنان عام 1621م "بسبب قلة عدد سكان الأرض المقدسة اليوم فإنها لم تعد خصبة كما كانت عليه سابقاً (...)"، وهكذا أصبح أكبر جزء منها أرضاً بوراً"⁽²⁾. كما سبب اختلال أمن الطرق ضرراً كبيراً في الاقتصاد. وتنافس في البحر الأبيض المتوسط القراصنة من النصارى والمسلمين: الأتراك والبربر والمالطيين والإيطاليين والفرنسيين والإسبانيين. إذ تعرض دارفيو وتفرنييه إلى ملاحقة القراصنة مرتين، في حين أسر تيفنو مرتين.

كان الدروز وعرب القبائل خاصة ينهبون المسافرين ويفرضون غرامات على القوافل و"إتاوات أخوة" على المقيمين. لقد كانت قواتهم المسلحة هائلة وبإمكانها منافسة قوات الباب العالي. لقد كان الدروز، كما يذكر أوجين روجيه، يصل عددهم إلى ما يقارب ستة آلاف رجل قادر على حمل السلاح⁽³⁾، في حين كانت سورية كاملاً تحت سيطرة عرب القبائل باستثناء بعض المدن القوية. كتب تفرنييه: "كان بعض الأمراء العرب في مقاطعة الجنوب والبادية يملكون زهاء ثلاثين ألف فرس"⁽⁴⁾. ويذكر أرفيو عام 1660م أن جبل الكرمل وتوابعه كان تحت سلطة الأمير تورباي "الذي كان مستقلاً إلى حد ما عن السلطان الذي لم يعد السيد تماماً"⁽⁵⁾، في حين كان سهل عسقلان بأيدي عرب الأمير ناصر⁽⁶⁾. وكان البدو يفرضون قانونهم حتى أطراف المدن الكبيرة شديدة التحصين، كتب فرمايل: "كان في محيط حلب عدد من الأماكن الجميلة بسبب وفرة مائها، ولكن أهل حلب لم يكونوا يتمتعون بها كثيراً بسبب العرب الذين كانوا يتجولون كل يوم في محيط المدينة، حيث كانوا يسرقون كل ما يستطيعون سرقة ويترقبون القوافل، إذ لم تكن لهم وسيلة لكسب الرزق سوى السرقة"⁽⁷⁾. لقد كان

(1) EDIB M، المرجع نفسه، ص32.

(2) DESHAYES DE COURMENIN، المرجع نفسه، ص343 - 344.

(3) ROGER E، المرجع نفسه، ص291 (كان عدد المارونيين المسلحين خمسة عشر ألف رجل).

(4) TAVERNIER J.B.، Les six voyages، ...، باريس، 1713م، الجزء 1، ص170.

(5) ARVIEUX L.، Mémoires، ...، باريس، 1735م، الجزء 2، ص290.

(6) المرجع الأخير، ص292.

(7) FERMANEL G، المرجع نفسه، ص271.

باشاوات دمشق وحلب عاجزين عن المقاومة، فوجدوا أنفسهم مضطرين لشراء الأمن⁽¹⁾. ولم تنج من أطاعهم قافلة الحج بحجاجها الكثيرين والمحملين جميعاً بالبضائع الثمينة. في عام 1603 - 1604م يذكر ابن جمعة أن قافلة الحج هوجمت ونُهبت، ولم ينج إلا قليلاً من الحجاج⁽²⁾. وفي عام 1660م ذكر أرفيو الذي كان يأخذ كل حذره عندما كان يسافر: "فيلبس لباس أهل المشرق (...)"، ويتسلح ببندقية ومسدسين وسيف وخنجر⁽³⁾ إنَّ القنصلية الفرنسية قد انتقلت من دمشق إلى صيدا بسبب "الخطر الذي قد تتعرض له الأموال أثناء نقلها خلال ثلاثة أيام في طرق خطيرة وغير سالكة بسبب وجود البدو والدروز"⁽⁴⁾. والأسوأ من هذا أن أولئك الذين كانت مهمتهم تأمين أمن طرق كانوا هم بدورهم يطالبون المسافرين باتاوات. وفي عام 1674م، لاحظ نواتل مبعوث كولبرت: "يكن خطر التجول بين حلب وطرابلس في وجود مراكز الجنود الأتراك الموزعة على طول الطريق. كان يُفترض في هؤلاء أن تكون مهمتهم الحفاظ على الأمن مقابل رسوم فرضت على مرور القوافل (...)"، ولكن رسم المرور هذا كان ذريعة لهم للابتزاز والسرقة، فكان الناس يخشونهم أكثر مما يخشون قطاع طرق"⁽⁵⁾.

كان موظفو الإمبراطورية العثمانية يتجاوزون كما يبدو بعض قوانين الشريعة الإسلامية، إلا أن سلطتهم التعسفية وشبه المطلقة كانت تبدو على العموم أقل فظاعة من سلطة المالك، ولكن المؤرخين والرحالة لم يتحدثوا عن ذلك. فلقد لُقِب حاكم دمشق مصطفى باشا الذي أسره فخر الدين في البقاع بالحناق لأنه كما يذكر ابن جمعة "كان من عادته أن يتجول في الليل ويخنق من يصادفه في طريقه"⁽⁶⁾. ولما وقع حاكم حلب - الذي قال عنه جان موكيه: "قام بعددٍ من الأعمال العنيفة الهمجية" - في حب فتاة "من أرقى عائلات المدينة" اغتصبها في أحد الحمامات، وبخنجره "شطر جسدها بوحشية من أسفلها إلى عنقها"⁽⁷⁾. ويؤكد ر.ب. كوبن أن باشا القاهرة كان لا يتوانى

(1) DESHAYES DE COURMENIN، المرجع نفسه، ص 350.

(2) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص 198.

(3) ARVIEUX L.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 350.

(4) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 464.

(5) VANDAL A.، Les voyages du marquis de noitel, p 260 1900 paris.

(6) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص 203.

(7) MOCQUET J.، المرجع نفسه، ص 411.

بغرض تطبيق القانون عن فرض عقوبة السجن والاستيلاء على الممتلكات و"إصدار الأمر بالقتل دون محاكمة"⁽¹⁾. وكان القضاة والباشاوات يعملون جاهدين للاستفادة من العام الذي انتدبوا خلاله ليسترجعوا "مع الفائدة" المبالغ التي كانوا قد دفعوها رشوة إلى خزانة الدولة وأسيادهم ومُحاتهم للحصول على مناصبهم، فكانوا كما يذكر دارفيو "يؤذون الناس بتعسفهم وطغيانهم ويجبرونهم على التخلي عن منازلهم وممتلكاتهم"⁽²⁾.

ذكر المؤرخون حالة البؤس التي كان يعيشها عامة الناس. ففي عام 1660م ذكر دارفيو عدة ثورات قام بها الفلاحون عندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن دفع الضرائب بعد أن أفسد الجراد زرعهم⁽³⁾. وكتب كوبن أن "معظم السكان في القاهرة فقراء أو معدمون بسبب معاناتهم من ظلم العثمانيين زمناً طويلاً"⁽⁴⁾. وكتب الأب الفرنسيكاني جاك غوجون: "كانت معظم المدن الكبيرة مليئة بأجناس مختلفة من الناس، ولكنهم كانوا جميعاً فقراء يعيشون على الأرض والعُدى والحمص المحمص أو المسلوق وعلى الخبز المخبوز تحت الرماد والرقيق كالدرهم"⁽⁵⁾. وفي دمشق نفسها، رغم شهرتها بغناها، كتب أوجين روجيه: "كان جزء كبير من الأطفال إلى عمر الثامنة أو العاشرة يسرون عراة بلا ملابس"⁽⁶⁾.

في القرن السابع عشر دخلت الحملات التبشيرية - التي كانت الوجه الديني لسياسة القوى الكبرى - البلدان الإسلامية بقوة. فكانت أولها حملات اليسوعيين الذين حولوا أبصارهم عن اسطنبول حيث استقروا في بداية القرن في بلاد الشام بتحريض من البابا أوربان الثامن وبمساعدة فرنسا. وفي عام 1627م، استطاع راهبان من مقاطعة ليون الاستقرار في حلب برغم معارضة الفرنسيين. وفي عام 1644م انتشروا في دمشق وصيدا وطرابلس، وفي عام 1657م في عين توره. وبالطبع كان السفراء يزودونهم بالدعم والحماية. فعلى سبيل المثال كان دارفيو الذي وصفه البابا

(1) COPPIN R.P.، المرجع نفسه، ص 232.

(2) RIVIEUX L.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 291.

(3) RIVIEUX L.، "رحلة في فلسطين"، أمستردام، 1718م، ص 92.

(4) COPPIN R.P.، المرجع نفسه، ص 184.

(5) GOUJON J.، المرجع نفسه، ص 305.

(6) ROGER E.، المرجع نفسه، ص 208.

"بالهامي النبيل للكنيسة الكاثوليكية في المشرق" يحمي من قنصلية في حلب حيث عينه كولبرت عام 1679م أولئك الأشخاص الذين كان يطلق عليهم حينئذ "العمال الإنجيليون"، وأرجع إلى جبل كرمل الرهبان الكرملين "عراة الأقدام" الذين طُردوا منه عدة مرات. ولقد كان الرهبان الكبوشيون يمتلكون في دمشق مضافة وفي طرابلس كنيسة وديراً وبستاناً⁽¹⁾. وظهر رهبان القديس فرنيس (المتأملون) في القدس حيث وضعوا أيديهم على الأماكن المقدسة منذ عام 1628م⁽²⁾، وفي دمشق حيث كانوا يمتلكون ديراً يشغله ثلاثة أو أربعة رهبان⁽³⁾. وظهر الكبوشيون في حلب عام 1630م⁽⁴⁾، والرهبان "الملتزمون" في صيدا عام 1643م⁽⁵⁾، وفرنسيسكان الأرض المقدسة في دمشق عام 1660م⁽⁶⁾. وبالطبع كانت كل هذه الطوائف الكاثوليكية تتنافس علناً فيما بينها، إذ يذكر نوانتل أنهم "كانوا يتزاحمون على التنصير بضراوة تشابه سعي التجار وراء الربح"⁽⁷⁾. وليس المقصود هنا تنصير المسلمين لأنه إضافة إلى تحريم القانون العثماني القيام بأي محاولة لتنصير المسلمين، فإن عقوبة المرتد - "الجلد والحرق"⁽⁸⁾ - كانت تكفي وحدها لعدم المحاولة. وقد تبنت الباباوية التحريم نفسه إذ كانت ترسل اليسوعيين بعد أن تأمرهم "بألا يعتدوا على القانون العثماني وإنما أن يكتفوا بمنع النصارى من دخول الإسلام"⁽⁹⁾. وما وجه الضرر في عدم القدرة على تنصير المسلمين، لأنه كما يقول اليسوعي بيسون الذي تشرب بالرحمة النصرانية، سهرت العناية الإلهية على تقليص عددهم: "فالتطاعون شر يرسله الرب (...). ويفضله نقص كثيراً عدد المسلمين الكفرة الذين فاض العالم بهم"⁽¹⁰⁾. أما اليهود فلم يكن من السهل أيضاً تنصيرهم، وإن كانوا "أبخس من رمل بحر تبعثره الرياح (...). وقد رضعوا كرههم للمسيح منذ

(1) RIVIEUX L., Mémoires ..., الجزء 2، ص 389.

(2) ROGER E., المرجع نفسه، ص 383.

(3) المرجع الأخير، ص 380.

(4) FERMANEL G., المرجع نفسه، ص 268.

(5) COPPIN R.P., المرجع نفسه، ص 421.

(6) RIVIEUX L., Mémoires ..., الجزء 2، ص 464.

(7) VANDAL A., Voyages، أسفار، ص 156.

(8) ROGER E., المرجع نفسه، ص 281.

(9) BESSON J., المرجع نفسه، ص 174.

(10) المرجع الأخير، ص 403.

الصغر (...)، ولكن رحمة الله، كما يذكر بيسون، لم تتخل عن هؤلاء البؤساء فتنصر بعضهم⁽¹⁾. لقد كانت الحملات التبشيرية مقتصرة إذن على النصارى غير الكاثوليكين والأقباط والمؤمنين بطبيعة المسيح الواحدة الأرمن والأرثوذكس وغيرهم، لقد كان الكاثوليك يعتبرونهم منشقين وهراطقة ونعاجاً ضلت عن الدين الشرعي الوحيد بدرجات متفاوتة. لم يوفر المبشرون أحداً، فالأقباط وفقاً لأوجين روجيه الذي قام بإحصاء مفصل للنصارى في المنطقة، "أكثر الطوائف قضاة وجاهلاً بين كل نصارى المشرق"⁽²⁾، أما الأرمن وإن كانوا الأكثر اندفاعاً وحامساً وتحضراً بين نصارى المشرق المنشقين (...). إلا أنهم يدعون إلى بدعة ملعونة وأكثر خبثاً من جميع البدع الأخرى (...)، فهم يشاطرون أريوس خطاياهم⁽³⁾، والأرثوذكس "رجال دينهم جهلة إلى حد كبير، ويشغلون أنفسهم بالقيام بأعمال تافهة وحقيقية مثل الحياة وفنون يدوية أخرى (...)، إنهم مخطئون ومنشقون (...)، ولا يختلفون كثيراً عن المحمديين"⁽⁴⁾. ولما كان المارونيون مرتبطين منذ وقت طويل بسلطة البابا، وكانوا على معرفة بالديانة الكاثوليكية قبل مجيء المبشرين⁽⁵⁾، فكانوا الوحيدين الذين رضي المبشرون عنهم، إذ كتب أوجين روجيه: "إنهم يستحقون المديح لما يكونونه من محبة للكنيسة الرومانية ولحماسهم الديني"⁽⁶⁾. ومع هذا لم يكن لهذه النصرانية الشرقية أية قيمة، فحسب رأي الأب جاك غوجون "كان الدين هناك غارقاً في الجهل، فليس هناك تفان في سبيل الرب وكلامه، ويخيل الناس عن تقديم الصدقات (...)، وتذهب النساء إلى الحمامات والأعراس ولا يذهبن إلى الكنيسة (...)"⁽⁷⁾. لقد حان الوقت، وفقاً لما كتب اليسوعي بيسون، "أن تعكس الكنيسة الغربية أنوارها على كنيسة المشرق، حيث سقيت الأرض بدماء المسيح (...)، وبعد أن دنستها كثرة أعداد المحمديين والعرب والسود، وأصبحت ملتقى المنشقين والهراطقة واليهود (...)"⁽⁸⁾.

(1) المرجع الأخير، ص 49 - 50.

(2) ROGER E.، المرجع نفسه، ص 363.

(3) المرجع الأخير، ص 365.

(4) المرجع الأخير، ص 336 - 337.

(5) Lettres édifiantes et curieuses, p 141 VOL4 1707 - 1773 Paris.

(6) ROGER E.، المرجع نفسه، ص 439.

(7) GOUJON J.، المرجع نفسه، ص 52 - 53.

(8) Besson j.، المرجع نفسه، ص 7، ص 176، ص 364.

كان يرافق هذه الحملة التبشيرية رغبة كاثوليك الغرب في القيام بدعاية مكثفة لإحياء الروح الصليبية واعتبار المبشرين شهداء. فلقد أعد أوجين روجيه قائمة مثيرة يذكر فيها المعاناة التي عاشها هؤلاء الرهبان النصارى الطيبون: لقد "قطعت رؤوسهم" و"شطروا إلى شقين" و"صلبوا" و"قطعوا إلى أجزاء" و"قتلوا بقذيفة مدفع" و"سلخوا أحياء" و"جلدوا حتى الموت" و"سجنوا في دمشق" وإلخ⁽¹⁾. إن الراهب الذي لا يتوخى الحذر ويصادف جندياً تركياً في طريقه، فإنه إما أن يتلقى "ضربة بعقب البندقية تدق عموده الفقري، أو ضربة سيف تحطم جمجمته، أو طعنة تحترق فخذه"⁽²⁾.

وشاعت "روايات حقيقية" غريبة كرواية "الرهبان الكبوشيين الطيبين الأربعة" الذين جاؤوا إلى دمشق في كانون الثاني 1613م يعظون الناس ويذكرونهم "بتعاليم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية"، إذ اعتقلوا وعذبوا أمام الباشا الذي "أمر بحرقهم بالنار" لأنهم رفضوا اعتناق الإسلام، إلا أن رجلاً مسلحاً نزل من السماء وقتل الباشا⁽³⁾. ولم يكن هذا الباشا إلا حافظ أحمد المعروف بأمره ببناء مقام الأربعين في عام 1613م في جبل قاسيون بالقرب من مغارة الدم، والتي كانت ما تزال تُزار كما يذكر ابن جمعة في بداية 1615م⁽⁴⁾.

في سورية أثارت هذه السياسة في التنصير التي كانت ترافقها دعاية تمجد فرنسا وقوة ملكها وجيوشه، وأساطير أخرى استيلاء وأحياناً تمرد نصارى المشرق باستثناء المارونيين طبعاً. ذكرت مصادر كاثوليكية أنه في عام 1692م تظاهر "الهراطقة" بقيادة بطرياركهم أمام سرايا حلب وأخذوا يصرخون: "يريدون جعلنا فرنسيين، ونحن لا نريد ذلك. نحن مؤمنون وعبيد للرب الأعلى"⁽⁵⁾.

عارضت مظاهرة الإخلاص للباب العالي، والتي قام بها رعايا الإمبراطورية النصارى عديداً من الأصوات، ومن بينها أرفيو خاصة، إذ كان يرغب في تحويل النصارى والعرب إلى عدو كامن للأتراك. إضافة إلى ذلك، كما يذكر أوجين روجيه، كانت معارضة الأرثوذكس للوجود الكاثوليكي في الأرض

(1) ROGER E.، المرجع نفسه، ص 382 والتالية.

(2) المرجع الأخير، ص 388.

(3) "القصة الحقيقية للرهبان الكبوشيين الأربعة الذين عذبهم وقتلهم باشا دمشق" موجودة في أرشيف الرحلات، باريس،

1840م، الجزء 1، ص 161.

(4) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص 201.

(5) Lettres édifiantes et curieuses, p 87 VOL 4.

المقدسة على أشدها⁽¹⁾. وبرغم المقاومة أثمر نشاط المبشرين وانفصل بعض نصارى المشرق عن كنيستهم وارتبطوا بروما: في عام 1662م انفصلت كنيسة سورية الكاثوليكية عن الكنيسة اليقونية، وفي عام 1740م شيدت كنيسة أرمنية كاثوليكية، وفي عام 1742م شيدت كنيسة قبطية كاثوليكية.

في القرن السابع عشر جُددت الامتيازات وتوسعت لتجعل من القنصل و"أمته" دولة حقيقية في قلب الإمبراطورية. ومنحت الامتيازات التي وقعها أحمد الأول وهنري الرابع عام 1603م ملك فرنسا "حماية" الأماكن المقدسة التي كانت "ملك" الرهبان اللاتينيين. هذه "الملكية" أكدت امتيازات عام 1673م وناقشها نوانتل، مبعوث كولبرت، الذي طالب أيضاً بافتتاح معبر عن طريق السويس والبحر الأحمر للتجارة الفرنسية. وفي عام 1674م، منح لويس الرابع عشر براءة صادرة عنه حمايته لليقونيين والفرنسيين.

في القرن السادس عشر افتتحت فرنسا التي حصلت - على حساب تجار كاتلونيا والبندقية - على المكانة الأولى في التجارة مع المشرق منافسة بذلك الإسبان والهولنديين والإنكليز سادة تجارة الهند، وازدادت الامتيازات منذ بداية القرن السابع عشر لتشمل القوى الأوروبية الأخرى: فأرسل الإنكليز والهولنديون سفراءهم إلى اسطنبول، واستقبلوا بدورهم قناصلها وفتحوا قنصليات في المدن التجارية الرئيسية: حلب ودمشق وعكا وصيدا. وأصبحت التجارة الفرنسية بعد أن خسرت المرتبة الأولى في القرن السابق، القوة التجارية الأوروبية الثالثة في المشرق.

يتميز القنصل وهو ممثل السلطة الملكية عن مواطنيه الأوروبيين الذين يلبسون لباساً يتماشى مع العادات المحلية بلباسه الأوروبي، ويتمتع بامتياز يسمح له بالتنقل على حصانه⁽²⁾. وكان يقطن في خان مع جميع تجار بلده وبعض رجال الدين، وكان عدد خدمه كبيراً وكانت مصاريفه طائلة، إذ كتب ر. ب. كوين: "إضافة إلى طاقمه ومائدة طعامه والانكشاريين الستة وترجمانيه الذين كان يعطي كلاً منهم ستة دراهم شهرياً، والمبالغ الكبيرة التي كان ينفقها على الاحتفالات الرسمية، كان عليه أن يقدم أثناء السنة هدايا قيمة إلى الباشاوات وكبار القوم الذين يعنيه أمرهم (...). كانت حصته واحداً ونصفاً من المئة لكل البضائع التي يحملها التجار مقابل اهتمامه بحماية السفن والتجار

(1) المرجع الأخير، ص 65.

(2) ROGER E.، المرجع نفسه، ص 391.

من الأذى، ومعالجة كل القضايا التي يمكن أن تطرأ أمام الباشا وحكام المناطق⁽¹⁾. كانت سلطته تشمل "مواطنيه" من تجار ووكلاء أعمال ووسطاء وعدداً كبيراً من الزبائن سواء كانوا من رجال الدين أم من "المحمديين"، ولقد كان يقدر دوره جميع الناس. في بداية القرن الثامن عشر رأى شارل دو سانت مور خلافاً لمعظم المسافرين أن السبب الرئيسي في تدهور التجارة لا يكمن في جشع الباشاوات وإنما يعود إلى بخل "وقلة كفاءة القناصل". وأضاف: "إن السبب هو هؤلاء الحكام القذرون الذين يعهدون بالوظائف إلى أكثر الناس كسلاً وأقلهم كفاءة"⁽²⁾.

الامتيازات والبعثات التبشيرية كلمات غريبة تعني في الحقيقة أولاً الانقضاخ ثم السيطرة، وهي أدوات استخدمتها القوى الأوروبية في سياستها مع المشرق. فمنذ بداية نصف القرن الثاني، تضاعفت مشاريع التدخل في شؤون الإمبراطورية. ففي عام 1672م، أعد لينز للويس الرابع مشاريع لغزو مصر، في حين ظهرت في عام 1686م لأول مرة في وثيقة فرنسية إمكانية إنشاء "قناة تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط"⁽³⁾. وأعدت كل عناصر "اللعبة الكبيرة"⁽⁴⁾ التي كان يفترض أن تكتمل مع نهاية الحرب العالمية الأولى. إذ شرح نوانتل في رسالته إلى الملك: "لم تعد تركيا سوى شبح قوة. فالسلالة الحاكمة فاسدة، والوزراء رديئون وتركوا أنفسهم ينحرفون واستنفدوا كل وسائل السلطة. لم يعد هناك فرع في الإدارة خال من الفساد؛ فلا نجد إلا رشاوى وسرقات وتكاسل واستخفاف بمصالح عامة الناس وتبجح أحق، وأدى كل هذا إلى التفكك والخراب. لم تعد قوى النصارى تخاف من الإمبراطورية العثمانية الجبارة، هذا إذا اقتنعت بما يديه الوجه الثاني لهذا المظهر الرائع (...). إن على القوى البحرية وخاصة فرنسا أن تنسى هزيمتها وتقوم بالضربة القاضية وتحرر عالم النصارى"⁽⁵⁾. ستصبح الإمبراطورية العثمانية قريباً "رجل أوروبا المريض"، ولن يؤخر موتها إلا تنافس قوى العالم الغربي فيما بينها، ولم التسرع في إسقاطها

(1) TARVERNIER J.B.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 196، وCOPPIN R.P.، المرجع نفسه، ص 213.

(2) COPPIN R.P.، المرجع نفسه، ص 215.

(3) SAINTE MAURE Ch.، Nouveau voyage de Grèce, d'Egypte, de Palestine, p 83. 1724 Paris.

(4) VANDNAL A.، المرجع نفسه، ص 260.

(5) LAURENS H.، "اللعبة الكبيرة"، المشرق العربي والمنافسات العالمية"، Le Grand jeu. Orient arabe et rivalités

internationales، باريس، 1991م، ص 1.

ما دامت الوكالات التجارية الأجنبية في المشرق "حيث لا تملك فرنسا موطئ قدم" تعتبر نوعاً من "القوة الاستعمارية التي لا تتطلب احتلالاً عسكرياً، ولا تكلف نفقات تعيين حكام وموظفين، إنها حقاً قوة استعمارية رخيصة الثمن"⁽¹⁾. وللحصول على دعم آخر من الأقليات إضافة إلى دعم المارونيين أدى التأمل في تاريخ سلالات البشرية دوره، فاستُنتج أن المارونيين من أصل فينيقي وأن الدروز هم أحفاد الصليبيين⁽²⁾. واعتمد الأب الفرنسيكاني جاك كوجون على نظرة سطحية في تجانس الأصوات، فوصل به الأمر أن يقول عن الدروز إنهم: "أحفاد الدرويديين" "Druides"، كهان بلاد الغال القدامى"⁽³⁾. واستغلت كل حركات الانفصال التي كانت تعصف بالإمبراطورية لهذا الغرض. فإذا كان "تحرير" النصارى من سيطرة المسلمين أمراً لازماً، فإن تحرير العرب من "عبودية" الأتراك لم يكن أمراً منسياً. ويشهد على ذلك النص الذي كتبه دارفيو مستشرقاً المستقبل للقرن التالي لقرن التنوير. فبعد أن قارن بين حكومة شيوخ العرب الجيدة التي كان أفرادها حسب رأيه "لا يدفعون إلا ضريبة معينة خفيفة (...). ويعيشون حياة مرفهة وناعمة"، و"طغيان" الباشاوات، كتب: "لم يكن الأتراك محبوبيين على الإطلاق آنفاً في هذه البلاد. بل، أقل ما يقال: إنهم كانوا مكروهين جداً، فالتناس ينظرون إليهم مغتصبين وطغاة ويرغبون في التخلص منهم. من المؤكد أنه إذا اجتمع أمراء النصارى على طردهم، فإن العرب سينحازون إليهم، وسيقدمون لهم مساعدة كبيرة لإنجاز هذا العمل"⁽⁴⁾. كان لابد من الانتظار مدة قرنين ونصف لتبدأ الحرب العالمية الأولى وما تلاها من انتشار الإيديولوجيات القومية في المشرق لتصبح توقعات دارفيو حقيقة تاريخية بمساعدة أكاذيب الدبلوماسية الأوروبية.

بقيت المنتجات الصناعية الدمشقية في القرن السابع عشر تثير دهشة المسافرين الأوروبيين، إلا أنها لم تعد كما كانت عليه في عهد المماليك نوعاً وكماً. أما فيما يتعلق بتجارة دمشق التي مازالت "أنشط المدن تجارةً في الإمبراطورية العثمانية"⁽⁵⁾، فقد انتقلت إلى الدرجة الثانية بعد حلب التي أصبحت تعتبر منذ الثلث الأول

(1) VANDNAL A.، المرجع نفسه، ص 247.

(2) المرجع الأخير، ص 247 و 250.

(3) لابد من التوضيح أن الطائفة الدروزية نشأت قبل بداية الحروب الصليبية بما يقارب القرن.

(4) GOUJON J.، المرجع نفسه، ص 60.

(5) RIVIEUX L.، Mémoires, p 291-292, VOL2.

لهذا القرن "أكثر المدن أهمية في الإمبراطورية التركية بعد اسطنبول والقاهرة"⁽¹⁾، كما أصبحت "مشهورة بما يجري فيها من تداول تجاري كبير"⁽²⁾. لقد انتهى زمن تفوق دمشق التجاري، ففي عام 1612م كتب جان موكيه: "لقد كانت دمشق فيما مضى أكبر مركز تجاري للمنتجات الهندية والفارسية والأرمنية ومنتجات البلدان الأخرى"⁽³⁾. "إلا أن نشاطها بدأ بالتراجع تدريجياً. ونقلت القنصلية الفرنسية، التي كانت لا تزال في دمشق عام 1634م عندما مر بها أوجين روجيه"⁽⁴⁾، إلى صيدا بعد وقت قصير من هذا التاريخ بسبب اختلال أمن طرق المواصلات"⁽⁵⁾. ولم يحافظ البنادقة على مركزهم التجاري بعد عام 1605م. ولم يبق فيها في النصف الثاني للقرن السابع عشر أي مقيم أوروبي، لقد أصبحت دمشق مدينة مغلقة، و"متعصبة". في بداية القرن الثامن عشر، ذكر المسافر فان إغمونت أن قنصلي فرنسا والبندقية اضطرا للهرب أثناء عصيان شعبي مسلح وكادا ألا يستطيعا النجاة بنفسيهما"⁽⁶⁾.

كانت صناعة الأقمشة التي بقيت مزدهرة موضع الإعجاب بتنوعها وجودتها وغناها: فلقد كانت الأقمشة الحريرية والمخملية والتفتة والدمسقي والبروكار والنسيج المتموج، والأنسجة القطنية البيضاء الدقيقة شديدة النعومة⁽⁷⁾ المستخدمة لصنع العمامات والتي كانت تُصدر إلى كل أنحاء الإمبراطورية"⁽⁸⁾. وبقيت سقاية الفولاذ ودمشقتها، وصناعة المدافع ذات الطراز القديم التي "كان الأتراك يقدرونها كثيراً"⁽⁹⁾، وصناعة السيوف التي "كانت مسقة جيداً حتى إنها كانت تقطع الحديد دون أن تتلم"⁽¹⁰⁾ هي من الصناعات التي اختلفت بها دمشق التي كانت حسب فيلامونت

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 462.

(2) TAVERNIER J.B.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 194.

(3) VALLE P. (della)، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 335.

(4) MOCQUET J.، Voyages en Afrique, Asie, Indes orientales et occidentales, p378, 1617 Paris.

(5) ROGER E.، المرجع نفسه، ص 406.

(6) RIVIEUX L.، ...، الجزء 2، ص 464 والرجع السابق ص 59.

(7) VAN EGMONT J.A. و HEYMAN J.، Travels through part of Europe, Asia Minor, p 250 VOL2 1759, London.

(8) FERMANEL G.، المرجع نفسه، ص 321.

(9) المرجع الأخير، ص 321.

(10) COPPIN R.P.، المرجع نفسه، ص 466.

تضم أكثر من عشرين ألف حرفي⁽¹⁾. ويرى سرفتس - الذي سنت له الفرصة عندما جرح ذراعه الأيسر أثناء معركة لينت أن يقدر حدة السيف الدمشقي - أن هذا السيف من أكثر الأسلحة خطورة⁽²⁾. كان إنتاج "الرماد" الذي كان يُحصل عليه من حرق أعشاب جبال لبنان الشرقية والمرج في فصل الربيع في حفر في الأرض من الأنشطة الاقتصادية المهمة جداً؛ إذ كان يستخدم في صناعة الصابون والكريستال، وكان مطلوباً بكثرة من قبل الأوروبيين. كتب نوانتل: "كان بيع الرماد يدر أرباحاً كبيرة دفعت باشا طرابلس إلى احتكارها، فكان هو البائع بالمفرق حصراً"⁽³⁾. ويضيف نوانتل أن لهذا الرماد أهمية كبيرة "فوضعت قوانين صارمة لتوزيعه"⁽⁴⁾، وأصدر مرسوم يضمن توزيعه بالتساوي بين الأوروبيين والضباط وصنّاع الصابون⁽⁵⁾.

كانت دمشق مرتبطة في المقام الأول بحلب فيما يتعلق بمبادلاتها التجارية مع أوروبا والمشرق، وإن كانت لها صلة مباشرة بموانئ الساحل كعكا وصيدا حيث كانت التجارة الفرنسية مسيطرة، وبيروت وطرابلس حيث سيطرت التجارة الإنكليزية. كانت دمشق تصدر منتجات حرقها باستثناء السيوف التي كان ممنوعاً بيعها للأوروبيين. كان تجار البندقية يشترون رماد قرى الغوطة المستخدم في صناعة الكريستال، وكان تجار مرسيليا يشترونه لصناعة الصابون فيصل إليهم سواء إلى صيدا عن طريق قوافل تضم من أربعمئة إلى خمسمئة ناقة⁽⁶⁾، أو إلى طرابلس أو بيروت على ظهور البغال وليس على ظهور الإبل "بسبب وعورة الطرق"⁽⁷⁾ كما يوضح نوانتل. بدأت الأقمشة التي كانت دائماً موضع تقدير ومطلوبة كثيراً للتصدير، تعاني منافسة المنتجات الأوروبية. ففي عام 1630م لاحظ فرمانل أن تجار الإنكليز والبنادقة كانوا يبيعون الجوخ في حلب، وبعد وقت قصير جلب الفرنسيون الجوخ من مصانع لانغدوك التي كانت تنافس منذ زمن كولبرت الصناعات الإنكليزية والهولندية.

(1) VILLAMONT J.، المرجع نفسه، ص 433.

(2) CERVANTES M. (de) Don Auichotte, Edition Garnier, p568, 1961 Paris.

(3) (VALLE P. della)، المرجع نفسه، ص 151.

(4) المرجع الأخير، ص 310 (رسالة من السيد نوانتل إلى السيد بومبون أرسلها من صيدا في 28 حزيران 1674م).

(5) CHARKOUDIAN L.، المرجع نفسه، ص 103.

(6) VANDAL A.، المرجع نفسه، ص 151.

(7) VANDAL A.، المرجع نفسه، ص 313. يذكر نوانتل وعورة الطريق الجبلي بين بيروت ودمشق في (رسالة من السيد نوانتل

إلى السيد بومبون أرسلها من صيدا في 28 حزيران 1674م).

أصبحت تجارة التوابل حكرًا على الأوروبيين، إذ لم تعد سورية تصدرها في بداية القرن، وإنما تحصل عليها من الفلمندين الذين كانوا يجلبونها من الهند⁽¹⁾. وكانت دمشق تصدر أيضاً القمح⁽²⁾ والعنب الذي كان الفلمنديون يقولون عن بذوره "إن حجمها يقارب حجم بيضة الحمام"، والذي كان يجفف ويرسل "إلى كل بلاد النصارى"⁽³⁾. وكانت دمشق تحصل من التجار الأوروبيين على الأقمشة الحريرية والورق والقبعات وشرانق دودة القز والنيلة والسكر وبضائع كثيرة أخرى كانت تنقلها قوافل من موانئ بيروت وصيدا وطرابلس. تقلصت حصّة فرنسا مع منافسة هولندا وإنكلترا في هذه المبادلات التجارية الأوروبية تدريجياً، ولكن أثمرت في نهاية القرن سياسة كولبرت ومن تبعه: ففي عام 1683م وافق الباب العالي على تخفيض الجمارك من عشرين إلى ثلاثة بالمئة فتحسن وضع الفرنسيين، وتضاعف عدد مراكزهم التجارية، وفتحت أسواق جديدة. وفي عام 1740م أصبحت فرنسا من جديد أول شريك تجاري للإمبراطورية العثمانية. وكانت مبادلات دمشق التجارية مع أوروبا أقل بكثير من نظيراتها مع المشرق؛ فعن طريق حلب كانت تستورد من بغداد التمور والقطن والصوف والحرير والتوابل والعفصة. ومن بلاد الفارس والهند والجزيرة العربية كانت تستورد كل عام عن طريق قوافل الحجاج الأحجار الكريمة والحرير والعقاقير المتنوعة والزنجبيل والنيلة والصمغ والكافور والقهوة وعبداً سودانيين وحشيشين. ومع مصر كانت تبادل الأقمشة والعفصة والصابون وزيت الزيتون والفاكهة المجففة بالرز والفاصولياء والعدس والقمح في سنوات القحط.

رغم أن دمشق كانت تحتوي على قليل من الأبنية الجديدة في القرن السابع عشر، فإن الأمن الذي أصبحت تنعم به بسبب سعة حدود الإمبراطورية جعل من العبث إنشاء التدعيمات، وسمح بتوسع الضواحي. ردمت الخنادق شيئاً فشيئاً، وغزا السكان السور الذي أهمل منذ وقت طويل، إذ كتب فرمانل عام 1632م: "السور محطم كاملاً تقريباً، وتداعى في كثير من أنحائه، وأصبح من الممكن الخروج من المدينة فوق حطامه"⁽⁴⁾. تطور البناء غرباً بالقرب من التكية والمدرسة السلجانية، وكذلك في حي القنات حيث بنى عديدٌ من كبار الموظفين العثمانيين المدنيين والضباط منازلهم. ولكن التطور

(1) VALLE P.(della)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 143.

(2) COPPIN R.P، المرجع نفسه، ص 466.

(3) FERMANEL G، المرجع نفسه، ص 317-318 و COPPIN R.P، المرجع نفسه، ص 466.

(4) FERMANEL G، المرجع نفسه، ص 314.

الكبير حصل في الجنوب، على طول طريق الحج، ففي باب الجابية وحول جامع السنانية ظهرت أسواق جديدة تزوّد بكل البضائع الضرورية - رجال وسروج وخيام مصنوعة من ليف قنب الغوطة والخ... - الحجاج وهم في طريقهم إلى مكة، وفلاحو حوران وبدو الصحراء. اصطفت المستودعات وورشات الحرفيين على طول ثلاثة كيلومترات تقريباً من باب الجابية إلى باب الله مكونة ضاحية حقيقية اسمها الميدان نسبة لميدان الحصى القديم الواقع بالقرب منه. ومنذ بداية القرن أصبح الميدان ضاحية دمشق الرئيسية، إذ كتب فرمانل: "في دمشق تنتشر الضواحي في كل مكان، ففي عام 1632م كانت أكبرها الضاحية الجنوبية التي امتدت على طول أربعة كيلومترات، والتي كانت القوافل تجتمع فيها قبل توجهها إلى مكة وفيها من الحجاج ما يزيد عن عشرين أو خمسة وعشرين ألف حاج"⁽¹⁾. وأصبحت قرية القبيات شيئاً فشيئاً جزءاً من دمشق التي ارتبطت بها منذ عام 1635م بطريق معبد. إذ كتب مونكوفي عام 1647م عن قبابها: "إنّها أجمل ما في المدينة، وإن كانت منازلها مبنية من الطين، ولها شكل قوالب السكر، وقبابها مبنية من الطين أيضاً"⁽²⁾. كان سوق الجمال في موقعه الطبيعي عند أطراف هذه الضاحية الجديدة، في حين اكتسحت الأسواق المجاورة شيئاً فشيئاً سوق الخيل "سوق الممالك المشهور". في الشمال أصبح حي الصالحية - الذي كان المهاجرون الأكراد يتوافدون إليه طوال القرن - مكان اصطيف، إذ كتب دارفيو: "كان معظم سكان دمشق يملكون فيه منازل اصطيف جميلة رائعة بمناظرها وحدائقها الملحقة بها، وكانت المياه تجري في جميع أنحاء الهضبة"⁽³⁾. وفي عام 1675م، أمر حاكم دمشق فر حسين باشا برصف الطريق الذي يربط حي الصالحية بدمشق بالحجارة.

بدأ الرحالة منذ بداية القرن السابع عشر يكتبون عن تدهور الأوضاع في دمشق، إذ لم تعد مكائنها⁽⁴⁾ وتآلقها⁽⁵⁾ وتجارها⁽⁶⁾ كما كانت عليه، ولم تعد تُقارن كما في السابق بالمدن الأوروبية. كتب

(1) المرجع الأخير، ص 314.

(2) MONCONYS B. المرجع نفسه، الجزء 1، ص 342. مازال يوجد في منطقة حلب حتى اليوم قرى بمنازل مماثلة.

DEGEORGES G., Syrie, art, histoire, architecture, باريس، هرمان، 1983م، ص 234.

(3) ARVIEUX L. (de)، ذكريات..... الجزء 2، ص 458. MONCONYS B. المرجع نفسه، ص 434. MAUNDRELL H.

المرجع نفسه، ص 206.

(4) ARVIEUX L. (de)، ذكريات..... الجزء 2، ص 446.

(5) COPPIN R.P. المرجع نفسه، ص 465.

(6) MOCQUET J. المرجع نفسه، ص 378.

بيترو دولا فاليه عام 1616م: "أعترف لكم أننا لم نعد نرى فيها تلك المكانة المميزة، ولا جمال الأبنية والشوارع، ولا ذلك الأدب والتحضر، ولا حتى ذلك البريق والتألق الإيطالي"⁽¹⁾. ولكن هذا لا ينفي أنها مازالت من أكثر المدن ازدهاراً في الإمبراطورية العثمانية⁽²⁾، وأكثر المدن السورية والمصرية غنى بعد حلب، وهي تفوق المدن الأخرى بمفاتها وزيتها. إن رقي مستوى المعيشة فيها حتى اليوم لا مثيل له بكل تأكيد. كتب فرمانل: "يكاد المرء لا يصدق كيف يقضي السكان أوقاتهم فيها بمرح؛ إذ يبدو أن الاحتفالات لا تتوقف، فملاهيها وحدثاتها مليئة دائماً بالأتراك الذين يقضون فيها أوقاتاً سعيدة"⁽³⁾. ويضيف دارفيو بدهاء: "إن بسايتها تفيض "بكل ما هو ضروري للملذات الحية وبأسعار رخيصة"⁽⁴⁾، في حين يتأسف الزاهد بيسون لكونها "مليئة بالملذات"⁽⁵⁾. وصلت شهرتها إلى كل أرجاء الإمبراطورية، إذ كتب فرمانل: "كثيرٌ من الأتراك يأتون إليها ويمكثون فيها وينفقون مدخراتهم ويعيشون حياة متمعة"⁽⁶⁾. ولكن أكثر ما كان يميزها عن باقي مدن الإمبراطورية حسب رأي فرمانل غياب الفقر، فلقد كتب: "يكسب أشد الحرفيين فقراً عندما يعملون يوماً واحداً في الأسبوع ما يكفيهم ليمضوا بقية الأسبوع بالملذات؛ إذ لا وجود فيها لفقراء يتسولون، لأن الناس فيها محسنون جداً، والمعيشة فيها رخيصة؛ وأخيراً فإن كل أيامها هي كأيام ثلاثاء المرفع"⁽⁷⁾. ويبدو أن سكانها يميزون. كتب أوجين روجيه: "لا يوجد مدينة تركية بعد اسطنبول تحتوي على أعداد كبيرة من الأشراف، أي أمراء من نسل محمد (ﷺ)، ونبلاء كما تحتوي دمشق"⁽⁸⁾. في حين يرى بيسون "كل ما هو نبيل"⁽⁹⁾ عند المسلمين السوريين من رعايا الإمبراطورية

(1) VALLEE P. (della)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 125.

(2) ROGER E.، المرجع نفسه ص 193.

(3) FERMANEL G.، المرجع نفسه، ص 313.

(4) ARVIEUX L. (de)، ذكريات....، الجزء 2، ص 446.

(5) BESSON P.J.، La Syrie sainte ou la Mission de Jésus et des Pères de la Compagnie de Jésus en Syrie، p 70، 1660.Paris.

(6) FERMANEL G.، المرجع نفسه، ص 313.

(7) المرجع الأخير، ص 313.

(8) ROGER E.، المرجع نفسه ص 194.

(9) BESSON P.J.، سورية المقدسة في القرن السابع عشر، La Syrie sainte au XVIIe siècle، باريس، 1862م، ص 79.

التركية، وعند النصارى منهم "أكثر الناس علماً بين الضالين والمنشقين"⁽¹⁾. ويؤكد دارفيو على هذه الفكرة، إذ كتب: "إنهم نبهاء ولطيفو المعشر وبارعون، وماكرون رغم أدبهم مع الذين يحسنون التعامل معهم. تسمع في هذه المدينة أنغام العظمة والحرية كما لا تسمعها في أي مدينة أخرى، فالناس أغنياء وأقل عرضة لتسلط الباشاوات. إنهم يحبون اللباس الحسن والمسكن الجميل المقروش جيداً، كما يحبون حريتهم. فهم عبيد الله ولكنهم ليسوا عبيداً لأحد على الإطلاق (...)"⁽²⁾. لقد لاحظ المقدسي⁽³⁾ منذ القرن العاشر هذه الروح الاستقلالية برغم معاناتهم من الطغيان. يسود بين الدمشقيين كما تدعو إليه السنة الشريفة أدب المساواة على نطاق واسع؛ إذ كتب بيسون اليعقوبي: "يجلس السائس بجانب الأمير ويأكلان معاً في الصحن نفسه، ولا يأكل أحدهما من بقايا الثاني. الظروف المعيشية ليست متساوية ولكن المعاملة مساواة، إذ يشرب الخادم أمام سيده، والسيد يشرب من الجرة بعد خادمه"⁽⁴⁾. كما يسود بينهم نشاط اجتماعي كبير، فلقد كتب بيسون: "يعمل سيد هذه المقاطعات بستانياً، وكذلك لكل السادة الأتراك مهنة يحترفونها؛ أما في أوروبا فلا يحترف المهنة إلا من ينتمي للطبقات الدنيا"⁽⁵⁾.

أكثر ما يلفت الانتباه بين الطوائف الدينية الكثيرة في المشرق، طائفة الدراويش والمجاذيب والقلندريون، وقد خصص لهم أوجين روجيه دراسة طويلة. بعد قراءة القرآن يقف الدراويش، "الذين يعيشون في تكايا جميلة ذات حدائق رائعة ممتلئة بالأعشاب والزهور العطرية"، مصطفىين في حلقة وقد رفعوا أيديهم المتباعدة قليلاً، ينظر بعضهم إلى السماء وبعضهم الآخر إلى الأرض، في حين يقف سيدهم في وسطهم ويبدأ بالغناء بصوت مبهم. وفي نفس الوقت يبدأ الآخرون في الحلقة بالدوران حول أنفسهم على رجل واحدة، وقد ركزوا أبصارهم على مكان واحد بهيئة

(1) المرجع الأخير، ص 11.

(2) ARVIEUX L. (de)، ذكريات..... الجزء 2، ص 463-464.

(3) المقدسي، La meilleur répartition pour la connaissance des provinces، دمشق، 1963م، ص 78.

(4) BESSON P.J، المرجع نفسه، ص 429-430. يشمل هذا الرق في المعاملة الحيوانات أيضاً، كما يذكر الكاتب في ص 432: "في أوروبا تعامل الخيل كباقي الحيوانات؛ أما هنا فإنهم يعاملونها وكأنها رجال محترمون"، ولكنهم بالمقابل، لا يرفقون بزوجاتهم: "هنا، وأثناء من ليلة العرس، يركل الرجل زوجته ويأمرها بنزع جواربه ليؤكد على خضوعها له؛ في حين يبدو هذا الخضوع في أوروبا، أكثر تحضراً" (433).

(5) BESSON P.J، المرجع نفسه، ص 433.

وتواضع، ويستمرون عادة بالدوران مدة ساعة. إنهم يعملون جاهدين طوال الوقت الذي يدورون فيه على التركيز على أمر أدركوه عند قراءتهم، طائنين أنفسهم أنهم يرون الله فيمثلون أمامه بأوضاع غريبة، ويظن البعض أنهم انتقلوا إلى الجنة، ويتخيل البعض أنهم في حضرة النبي (ﷺ). وبينما هم في دورانهم يصرخون من وقت لآخر صرخات تثير الرعب في قلوب أكثر الناس شجاعة ممن لم يعتادوا المشاركة في هذا الجنون⁽¹⁾. والمجاذيب هم المتسولون، يلبسون ملابس النساك، ولا رئيس لهم، ويعيشون في فقر مدقع خارج أبواب المدينة في غرفة وحيدة فيها مكان للصلاة وجلد خروف وبساط بسيط من سعف النخيل⁽²⁾. ملابسهم غريبة جداً مكرنة من معطف يتدلى منه آلاف القناديل مختلفة الألوان، وطاقيّة من الريش أو طاقيّة عالية تتدلى منها كل أنواع الخرق، وجميعهم حفاة وسيقانهم مكشوفة⁽³⁾؛ وقد يخرج بعضهم شبه عار ليس عليه إلا سروال عريض من الجلد المدبوغ يغطي عورته، وعلى كتفه جلد دب أو أسد يستخدمه للنوم أينما ذهب⁽⁴⁾. تصرفاتهم شاذة أيضاً: ففي أيديهم دائماً عكاز من الحديد يستخدمونه كصولجان يضربون به رأس من يحلو لهم⁽⁵⁾؛ ويأخذون من الدكاكين أثناء مرورهم بها ما يريدون دون أن يتلفظوا بأي كلمة، ولا أحد يتجرأ على أن يرفض لهم طلباً أو يقاومهم⁽⁶⁾؛ ويدعي عديد منهم الجنون حتى يعاملوا كقديسين، مع أنهم يرتكبون من المحرمات ما لا يمكن تخيله⁽⁷⁾؛ ويفرش بعضهم غرفته بقرون التيوس والأبقار والثيران ورؤوس وجاجم الجثث وحيوانات ميتة ينامون عليها ليكفروا عن ذنوبهم⁽⁸⁾. ولكن أكثر هذه الطوائف غلوأهم القلندريون، "فهم أيضاً يخرجون عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم، وقد يفرزون

(1) ROGER E. المرجع نفسه، ص 244 - 245.

(2) المرجع الأخير، ص 247.

(3) المرجع الأخير، ص 247 - 248.

(4) المرجع الأخير، ص 250. وقد لاحظ VALLE P. (della) في قافلة الحجاج في القاهرة في 12 تشرين الثاني 1615م وجود:

"أفراد من الدراويش والمجاذيب يدون في هيثات لا مثيل لشذوذها في العالم، إذ يزداد احترام الرعا لسادتهم المجانين

ويعتبروهم أكثر تقاً والتزاماً بالدين كلما زاد عريهم"، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 319.

(5) المرجع الأخير، ص 247.

(6) المرجع الأخير، ص 248.

(7) المرجع الأخير، ص 247.

(8) المرجع الأخير، ص 250.

أحياناً حلقة حديدية بشخ الخنصر في الجلد الواقع تحت الذكر ليعرف الناس أنهم عفيفون"⁽¹⁾. لأن للرهبنة، التي ليست - حمداً لله - من قيم القرآن، أتباع هنا أيضاً.

تبدو من خلال الطبيعة العمرانية التي رسمها المسافرون في القرن السابع عشر بعض المظاهر الجديدة. فالأسوار التي قال عنها فرمانل وبيسون ودارفيو إنها مكونة من جدار مزدوج⁽²⁾، والتي قال عنها كوبن: إنها مكونة من جدار ثلاثي⁽³⁾، تعطينا انطباعاً أنها كانت محطمة برغم تأكيدات دارفيو الذي وجدها "حديثة باستثناء الجانب الذي أنزل عليه القديس بول داخل سلة". أما الشوارع فلم تعد جميلة، فلقد أصبحت كما يذكر البعض "ضيقة، وأصبحت المنازل غير جميلة مكسوة جميعها بالطين من الخارج"⁽⁴⁾، ويذكر البعض الآخر "لا شيء فيها جميل بسبب الأبنية المنخفضة المتراخمة وغير المتناسقة".

في حين بدت الشوارع في الأسواق وخارجها في بعض الأحيان مميزة جداً، حتى سحرت أعين المشاهدين الأوروبيين الذين كانوا يجهلون حتى ذلك الوقت الأرصفة المخصصة للمشاة: "على جانبي الطريق هناك مشى مرتفع يستخدم المشاة، وتستخدم العربات والحيوانات وسط الشارع المنخفض. هذا الإجراء يضمن أن يكون طريق المشاة دائماً نظيفاً"⁽⁵⁾. أما المنازل فيقول عنها فرمانل: "إنها بقدر ما هي جميلة ورائعة من الداخل فهي بشعة وسيئة البناء من الخارج"⁽⁶⁾. موندل هو الوحيد الذي استغرب أن تكون مبنية "بالطوب المجفف تحت أشعة الشمس"⁽⁷⁾، في حين تنتج الجبال القريبة كميات هائلة من الحجارة الجيدة لبناء أجهل الأبنية"⁽⁸⁾. وأخيراً تقدم الأسواق راحة مميزة: لكونها مبنية، كما يذكر لوران دارفيو، "من الحجارة المقصوبة، ومغطاة بقباب مزودة بفتحات متساوية البعد فيما بينها

(1) المرجع الأخير، ص 250 - 251.

(2) FERMANEL G.، المرجع نفسه، ص 314، BESSON P.J.، La Syrie sainte ou la mission de Jésus، ص 70،

ARVIEUX L. (de)، Mémoires، ص 447.

(3) COPPIN R.P.، المرجع نفسه، ص 466.

(4) MONCONYS B.، المرجع نفسه، ص 465.

(5) ARVIEUX L. (de)، Mémoires، ...، الجزء 2، ص 448.

(6) FERMANEL G.، المرجع نفسه، ص 135.

(7) MAUNDRELL H.، المرجع نفسه، ص 209.

(8) المرجع الأخير، ص 210.

تجعلها مضاءة جيداً (...) ويمكن زيارتها في أي وقت مهما كانت حالة الطقس⁽¹⁾.

إذا كانت الأماكن والأبنية التي لها علاقة بسيرة القديس بول، أو بعهود إنجيلية مزعومة هي السبب الأول للحج إلى دمشق لمعظم الأوروبيين، فإن أبنية إسلامية عديدة بدأت تثير فضولهم، وبخاصة المدرسة الظاهرية⁽²⁾ وضريح صلاح الدين⁽³⁾ واليبرستان⁽⁴⁾ والتكية السليمانية⁽⁵⁾ وجامع السنانية الذي يأتي ذكره باسم الجامع الأخضر والمشهور بمئذنته من الآجر المزخرف⁽⁶⁾. أما الجامع الأموي الذي استمر الأوروبيون يعتبرونه كنيسة زكريا أو القديس يوحنا المعمدان⁽⁷⁾، ذكر ر.ب. كوبن⁽⁸⁾ أن الأوروبيين كانوا يشتكون من عدم تمكن النصارى من دخوله "تحت طائلة الرفع على الخازوق أو اعتناق دين الأتراك". والذين لم يكونوا بذكاء دارفيو الذي شاهده "من نافذة سيد تركي"⁽⁹⁾ يكتفون مثل موندل "بإلقاء نظرة"⁽¹⁰⁾ من أحد الأبواب الثلاثة. على كل حال كان الجميع مبهورين بفنائه الفسيح، وأعمدته "الغرائبية"، وأروقته المزروجة وزخرفته. يقول بيسون عنه: "إنه أروع كنيسة في العالم"⁽¹¹⁾، في حين ذهب الأمر بفرمانل إلى أن يرى قديسين عديدين ممثلين في زخرفته⁽¹²⁾. وأعطوا الأقداح، وهي شعار السلاطين المماليك، والتي تبدو مطروقة على التليسة

(1) ARVIEUX L. (de), Mémoires ..., الجزء 2، ص 448.

(2) ARVIEUX L. (de)، ص 451. THEVENOT J.، المرجع نفسه، ص 435. المدرسة الظاهرية هي مدرسة الضريح السلطان المملوكي بيبرس الأول، توفي عام 1277م.

(3) MONCONYS B.، المرجع نفسه، ص 342.

(4) MONCONYS B.، المرجع نفسه، ص 345. ARVIEUX L. (de)، ذكريات.....، الجزء 2، ص 458. البيهارستانات ما هي إلا مستشفيات.

(5) MONCONYS B.، المرجع نفسه، ص 341.

(6) المرجع الأخير، الجزء 1، ص 342.

(7) BESSON P.J.، سورية المقدسة في القرن السابع عشر، La Syrie sainte au XVIIe siècle، ...، ص 65-66. في نظر بيسون المبنى ينسب رسمياً إلى النبي زكريا في حين ينسب الرأي العام إلى القديس يوحنا المعمدان.

(8) COPPIN R.P.، المرجع نفسه، ص 465.

(9) ARVIEUX L. (de)، ذكريات.....، الجزء 2، ص 451.

(10) MAUNDRELL H.، المرجع نفسه، ص 211.

(11) BESSON P.J.، سورية المقدسة أو رسالة المسيح...، La Syrie sainte ou la mission de Jésus، ...، ص 72.

(12) FERMANEL G.، المرجع نفسه، ص 315.

البرونزية للأبواب عدة تأويلات: فموندل يعتبرها كما هي حقيقية: "شعارات أو أسلحة الممالك"⁽¹⁾، في حين لا يرى فيها يسون حسب وجهة النظر اليسوعية سوى "أكثر الدلائل قدسية على توضيح النصارى، وهي الكأس"⁽²⁾، أي برهان إضافي بنظره على أن الجامع قد كان حقاً كنيسة. كانت القلعة محرمة أيضاً على الأجانب⁽³⁾. ويعتبر دارفيو من الأوائل الذين تمكنوا من دخولها، فقد ذكر أن "له أصدقاء في دمشق يعرفون اللغات التي تستخدم هناك ويلبسون الزي التركي"⁽⁴⁾. وهكذا كان الوصف الذي تركه لنا أقدم وصف قام به أوروبي. القلعة هي مربع كبير ومبنية بالحجارة المقصوبة ومحفوفة بأربعة عشر برجاً، تتوضع خمسة منها على كل جانب طولي، واثنان على كل جانب عرضي، ومحاطة بخندق عرضه زهاء عشرة قامات وعمقه ثلاث قامات، ويمكن تعبئته من ماء النهر المار بالمدينة. بعد الباب، حيث تتلى سلسلتان حجريتان يرى فيها الأتراك تحفة فنية، يوجد مركز للحراسة كبير وواسع مقبب ونظيف جداً، يليه مركز للسكن يدعى "القصبة" فيه تُصك النقود، وقاعة بقبة تحملها أربعة أعمدة. ويرى الديوان وهو صالة المجلس الاستشاري الكبيرة في نهاية الفناء، مقبباً ومطلياً بالذهب واللون الأزرق مع بعض الآيات القرآنية. وحول الفناء توجد مساكن مستندة إلى السور مقببة ومصاطبها مسقوفة مخصصة للضباط والإنكشاريين⁽⁵⁾.

يذكر بعض المسافرين مستشفى الجذام المبني خارج السور بالقرب من باب شرقي في موقع منزل نَعمان الذي شفاه النبي ذو اليسع من مرض الجذام⁽⁶⁾. وهي أرض مسورة بحديقة جميلة رأى فيها فرمانل في آب 1630م "خسة أو ستة مرضى مصابين بجذام حاد، منهم من فقد فكليه وآخرين مشوهين بشدة"⁽⁷⁾.

في عام 1699م وقعت معاهدة كارلوفتس المشؤومة التي اضطرت الإمبراطورية العثمانية

(1) MAUNDRELL H.، المرجع نفسه، ص 211.

(2) BESSON P.J.، سورية المقدسة أو رسالة المسيح...، La Syrie sainte ou la mission de Jésus...، ص 72.

(3) COPPIN R.P.، المرجع نفسه، ص 464، MAUNDRELL H.، المرجع نفسه، ص 213.

(4) ARVIEUX L. (de)، ذكريات...، الجزء 2، ص 450.

(5) المرجع الأخير، ص 449-451. يؤكد MONCONYS B.، المرجع نفسه، ص 344 أنه زار القلعة.

(6) سفر الملوك الفصل 2، 5.

(7) FERMANEL G.، المرجع نفسه، ص 317. وانظر أيضاً إلى ARVIEUX L. (de)، ذكريات...، الجزء 2، ص 457.

بمقتضاها بعد أن هزمها التحالف المقدس أن تتخلى لبولونيا وروسيا والبندقية عن أقاليم هامة، وفتحت نهاية سلالة الصدر الأعظم كوبرلي في بداية القرن الثامن عشر حقبة ضعف جديدة للسلطة المركزية. كما تسارع تدهور النظام الإقطاعي، وهو أساس المؤسسة العسكرية، وهذا يعني تدهور الدولة العثمانية. بعد أن لاحظ المسافر شارل بري تقلص عدد الزعامات والتيارات، لاحظ في عام 1740م تدهور وضع الفرسان، فكتب أن السبب يعود إلى "تملك أبناء وخدم الوزراء والحجاب وكتاب رئيس القضاة وأمين الخزانة لأفضل الزعامات والتيارات"⁽¹⁾. وإضافة إلى ما لحق بدمشق من كوارث طبيعية مثل الطاعون والمجاعة وغزو الجراد، جعلتها النزاعات بين القاييقلو واليرليا خلال القرن الثامن عشر تعيش عنقاً لم تعرفه في القرن السابق. كان الإقطاعيون يهزمون السلطة العثمانية في كل مكان خارج المدن تدعمهم الأقليات الدينية من الدروز والمارونيين والمتاولة والنصيريين وشيوخ القبائل الذين كانوا يسيطرون على أقاليم شاسعة ويهددون قافلة الحجاج. استغل المبشرون الكاثوليك هذه الظروف، فضاعفوا جهودهم، وظهرت القوات الأوروبية - البحرية الروسية أولاً، ثم الجيش الفرنسي - بعد الحروب الصليبية في سورية للمرة الأولى في القرن الثامن عشر. وفي عام 1705م كتب أحد المبشرين لأحد وزراء لويس الرابع عشر يطلب منه "ألا يكلمه على الإطلاق عن الإمبراطورية العثمانية، لأنه قال: أنا أعرف جيداً أن البلاط الملكي لا يجب أن نتكلم عن الجثث"⁽²⁾.

في عام 1706 - 1707م، كان لباشا دمشق من السلطان ما يكفي لطرد أغوات الإنكشاريين من المقاطعات، ولكن في العام التالي، لم يتوقف الصدام بين القاييقلو والدمشقيين إلا بعد موت ما يقارب عشرة أشخاص. من عام 1708 إلى 1714م نجح الحاكم نصوح باشا بن عثمان بفضل سياسته الحازمة خلال مدة ولايته الطويلة - على غير العادة - في إعادة سلطة الباب العالي. ولكن الاضطرابات عادت بعد وقت قصير من خلعها. في عام 1716م احتل القاييقلو محكمة العدل بعد أن هاجموا قوات الباشا، ولم يستقر الوضع إلا بعد إعدام بعض القادة. وبلغت الفوضى ذروتها في أثناء الحكم الثاني لعثمان باشا أبو طوق، فلقد مارس هذا الحاكم مدعوماً بالصدر الأعظم لكونه أخا زوج السلطان تعسفاً تجاوز

(1) PERRY C., A View of the Levant particularly of Constantinople, Syria, Egypte and Greece, p 47. 1743 London.

(2) ذكر هذا LAMMENS H، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 92.

بفظاعته، وفقاً لما ذكره ابن جمعة، تعسف يزيد بن معاوية⁽¹⁾. فلقد كتب المؤرخ: "خلال هذه المدة، قامت السلطة بعدد من التجاوزات؛ وكان عدد محصلي الضرائب كبيراً بوجه خاص. وعانت دمشق كلها من ظلم كانت في نفس الوقت ضحيته ومسؤولة عنه. لقد أصبح الوضع لا يحتمل (...). وتملك العرب جميع السكان، وقضى ثقل البؤس على الفرح (...). ويظن الرائي أن الناس سكارى وما هم بسكارى (...). لقد غرقت دمشق في الاضطراب والظلم (...)"⁽²⁾. في نيسان 1724م حصل تمرد في الصالحية أثناء غياب الباشا، وانتشر بسرعة في كل المدينة. فأغلقت الدكاكين وجرح الناس القاضي المسؤول عن مخالفات للشرعية أثناء رشقهم قصر العدل بالحجارة. نُفي معظم كبار العلماء إلى اسطنبول بسبب شكواهم العديدة ضد إدارة أبي طوق، في حين حكم بالموت على عديد من مساعديه المقربين ونهبت منازلهم. وفي 9 آذار 1725م خلع الباشا لكره الناس الشديد له وعين على صيدا.

كان تأمين سلامة الحجاج المهددة من قبل البدو همّ الحكومة العثمانية الدائم. إضافة إلى أهمية الحج الاقتصادية الكبيرة لدمشق ومنطقتها، كان الحج أولاً - فيما يتعلق بالسلطان نفسه الذي يعد حارس المدينتين المقدستين - رهاناً سياسياً جوهرياً يمكنه من تأكيد نفوذه على العالم الإسلامي السني. في السنوات العشر الأخيرة للقرن السابع عشر سبب تدهور المؤسسة العسكرية زيادة كبيرة في النفقات المصروفة على البدو. في عام 1678م كانت 24000 قرش تكفي رسم مرور، وحتى للحصول على مساعدة القبائل في بعض الأحيان، إلا إنه في بداية القرن الثامن عشر أصبح لابد من دفع ما يزيد عن 100000 قرش⁽³⁾. أضف إلى هذا، جشع بعض الباشاوات الذين كانوا لا يترددون لأسباب اقتصادية في تقليل عدد العسكر المرافقين لقافلة الحجاج، وأحياناً يختلسون جزءاً من المبالغ المتفق عليها بكل بساطة، مما كان يزيد في عدوانية البدو. مسؤولية الباشاوات هذه ذكرها الرحالة الألماني كارستن نيبهر الذي زار الشرق الأدنى في 1765م وكان من الأشخاص النادرين الذين قالوا: "لا يعود نهب قوافل الحجاج دائماً إلى حب العرب لقطع الطرق (...). إذا كان البدو يسلبون في بعض الأحيان هذه القوافل، فإن السبب الأول يعود إلى تكبر وخيانة الضباط الأتراك. فلقد كان هؤلاء الأتراك المتكبرون يعتبرون كل العرب متمردين، أي (...) إنهم رغم ضعفهم لا يستسلمون

(1) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص 239. يزيد بن معاوية (680 - 683 هـ) ثاني خليفة أموي.

(2) المرجع الأخير، ص 238-239.

(3) SHAMIR S., The Azm Walis of Syria, 1724 AD - 1785, برنستون، رسالة الدكتوراه، 1961م، ص 7.

بسبب وقاحتهم لظلم من هو أقوى منهم. فكانوا بسبب هذه الطريقة في التفكير لا يفون بوعودهم، فكان العرب يتقمون منهم بنهب القوافل"⁽¹⁾. كان الباب العالي في كثير من الأحيان يعين والي دمشق أميراً للحج بسبب اهتمامه الزائد بتأمين سلامة الحجاج، في حين كان يعين باشاوات طرابلس وصيدا رؤساء للجردة، أي الموكب الذي ينطلق لاستقبال الحجاج وتزويده في منتصف طريق عودته بالمؤن وحرس إضافي يرافقه حتى عودته إلى دمشق. كان أمير الحج إضافة إلى مسؤوليته في رئاسة الحج، يجوب المقاطعة قبل ثلاثة أشهر من رحيل القافلة على رأس الدورة وهي حملة هدفها أولاً جمع الأموال الضرورية لتمويل الحج، وكذلك قمع الانتفاضات والتفاوض مع البدو على شروط المرور. كان الغياب الطويل للوالي عن دمشق والذي يزيد عن خمسة أشهر في السنة يشجع القيام بمحاولات تمرد. ومع ذلك لم تكن هذه الإجراءات ناجعة، وتكرر الهجوم على القوافل في الثلث الأول للقرن الثامن عشر. في 1700 و 1701م كبد البدو قافلة الحجاج خسائر فادحة في الرجال والعتاد. وفي 1706 - 1707م هُبت الجردة بعد معركة قاسية مع أنها كانت بقيادة والي دمشق. وفي 1711م، وحتى في ظل ولاية نصوح بن عثمان الظالم، سلبت الجردة من جديد. وفي 1719م هوجمت القافلة بين تبوك ومدائن صالح، ومات في ساحة المعركة معظم الفرسان التركمان والأتراك الذين جندهم الباشا عثمان أبو طوق. في العام التالي، أُجبرت القافلة على التوقف في العُلا بانتظار الجردة التي لم تصل إلا بعد عشرين يوماً بعد أن سلبت كلياً. وفي 1724م هاجم البدو قافلة الحجاج الرئيسية التي كان يقودها أبو طوق والجردة التي كان يقودها باشا طرابلس.

لم يكن عصيان البدو يؤدي قافلة الحجاج فقط، بل جميع القوافل، إضافة إلى أنه لم يكن من النادر أن ترفض المراكب العسكرية، التي كانت مهمتها تحقيق الأمن، الاشتباك مع الغزاة. وهكذا في 1722م هوجمت القافلة التي كانت تضم الرحالة الإنكليزي توماس شو وذلك بين الرملة والقدس، ولكن كما يذكر "لم يتجرأ الجنود الأتراك أو لم يرغبوا" بحمايتها من البدو⁽²⁾. ولم يكن البدو يسيطرون على طرق القوافل فقط، وإنما على كل السناجق الواقعة عند أطراف الصحراء، وخاصة منطقة حماة والضفة الغربية وفلسطين التي كانت قراها ومحاصيلها تُنهب بانتظام.

(1) NIEBUHR C., Voyage de Niebuhr en Arabie et en d'autre pays de l'Orient ...، سويسرا، 1780م، الجزء 2، ص 174

177- 178.

(2) SHAW T., Voyage dans plusieurs provinces de Barbarie et du Levant، لاهاي، 1743م، الجزء 1، المقدمة ص 15.

مع أن الجبال الساحلية وجبل لبنان وكسروان والشوف وجبل عامل كانت تحت رقابة باشا طرابلس شهاً وباشا صيدا جنوباً، فقد كانت السلطات المحلية فيها تزداد قوة مستفيدة من دعم الأقليات الدينية. ففي عام 1698م بعد موت الأمير أحمد ابن أخي خير الدين وآخر أفراد عائلة المعنيين، اعترف باشا صيدا بسلطة الأمير بشير شهاب (1697 - 1707م) على جبل عامل ومنطقة صفد، مقابل تعاونه في محاربة المتأولة. وفي 1708م ظن حيدر باشا (1707 - 1732م) ابن عم وخلف بشير أنه قوي كفاية لطرد الحاكم المعين من قبل باشا صيدا من جبل عامل، وسحق بعد عامين في عين داره القوات المرسلة لمحاربتة. وأصبح يمارس من دير القمر التي كانت عاصمته سلطته على منطقة واسعة تضم تقريباً كامل ولاية صيدا وطرابلس وجزءاً لا يستهان به من منطقة دمشق. وفي الجليل كان الشيخ عمر من قبيلة بني زيدان الذي كلفه بشير شهاب بمراقبة المتأولة في المنطقة، يعمل هو الآخر على توسيع سلطته.

إضافة إلى تدعيم السلطات المحلية، اعتبر الباب العالي عمرد دمشق على عثمان أبي طوق في عام 1724م⁽¹⁾ مرحلة حرجة في تدهور سلطته، فكان من الضروري إصلاح الوضع بسرعة باتخاذ إجراءات صارمة. وفي آذار 1725م تقلد باشا طرابلس وقائد الجردة إسماعيل العظم السلطنة في مقاطعة دمشق وسناجق القدس وغزة ونابلس وعجلون حاملاً لقب المتصرف وأمير الحج. يدل هذا التعديل في الإجراءات المعتاد الأخذ بها على خطورة الوضع.

في تشرين الأول 1725م نجح إسماعيل بعد أن تصدى لهجوم البدو في العودة إلى دمشق على رأس قافلة الحجاج مؤمناً سلامة معظم المشاركين فيها. مكّنه هذا النجاح الذي زاد من نفوذه لدى الباب العالي من استحقاق رتبة الوزير وتعيينه والياً لدمشق، في حين استلم أخوه سليمان ولاية طرابلس. اجتهد إسماعيل أولاً في تحقيق النظام في المدينة مدعوماً بحرسه الخاص من المغاربة. وبغية كسب الوسط الديني مثلاً بالعلماء والأشراف لصالحه، بنى العديد من المباني: مدرسة وحاماً في سوق الخياطين⁽²⁾، وحاماً آخر في حي الخراب الشيعي، ومقهى ودكاكين عند القلعة، ومسجداً

(1) المرجع في الأعلى، ص 73.

(2) بنيت المدرسة المعروفة باسم أسعد باشا كما يدل النقش التذكاري لترميمها في عام 1749 - 1750م، أثناء ولاية أسعد باشا العظم عام 1718 - 1719م أي قبل ستة أعوام من استلام إسماعيل باشا لمنصبه في دمشق. وقد تُجَدّد حمام الخياطين عام 1881م وهو يؤوي اليوم حرف الحائكين (Cf. Sack D. Damaskus, Mainz am Rhein, 1989AD, p. 35).

ومكتبة وسرايا جديدة. كما لجأ إلى سياسة متساهلة مع المبشرين الكاثوليك والكابوشيين واليسوعيين والفرنسيسكان، حتى إن قنصل صيدا لم يتردد في طلب مساعدته لضمان حماية اليسوعيين المهددين من قبل الأرثوذكس⁽¹⁾. في أثناء ولايته كانت التقارير القنصلية مبشرة لأن "الهراطقة" لم يعودوا يجرؤون على "اضطهاد" المبشرين أو ابتزازهم كما كان الوضع في الماضي⁽²⁾. استحق إسماعيل باعتداله وحياديته في النزاعات بين النصارى احترام معاصره المؤرخ الدمشقي ميشيل بريق الذي أكد أنه "لم يكن طاغية ولا جزاراً" وإنما رجل "حق"⁽³⁾. كان ينجح كل عام برغم هجوم البدو المتكرر في إعادة قافلة الحجاج سالمة، فزاد تقدير الناس له في الأوساط الدينية، وكان هذا وراء تجديد ولايته مدة ست سنوات متتالية. عرف أثناء مدة حكمه الطويلة الاستثنائية كيف يستغل مركزه في جمع ثروة كبيرة عن طريق وسائل متنوعة وغير شرعية، ومنها تهريب لحم الخرفان.

في عام 1727م نُقل سليمان باشا إلى أورفه، ليحل محله على ولاية طرابلس إبراهيم باشا ابن إسماعيل، الذي عُيّن ابنه ياسين بيك حاكماً لللاذقية. حصل سليمان في عام التالي على ولاية صيدا، وعُيّن أسعد باشا وهو ابن آخر لإسماعيل متصرفاً في حماة، وهي إحدى أغنى سناجق ولاية دمشق. ومنذ عام 1730م أصبحت نابلس وغزة واللّد والرملة والقلعتان الواقعتان على طريق الحج، وهما الزرقاء والبلقاء، تحت سيطرة أسرة العظم أو شركائها المقربين. فمن العريش إلى حدود مقاطعة حلب كانت سورية خاضعة ولأول مرة لسلطة أسرة واحدة وهي أسرة العظم خلافاً للمبدأ المقدس المعمول به في توازن السلطات. لا بد أن الهدف من هذا الوضع المستحدث كان تسهيل مهام الحكومة المركزية وهي: تحصيل الضرائب، والحفاظ على النظام وأمن الحجاج. وإن كان هذا يناقض تماماً السياسة التي كانت تتبعها الإدارة العثمانية حتى ذلك الوقت، فلقد كان مبدؤها استبدال الولاة كل سنة لمنع استقرار أي سلالة حاكمة أو تشكيل أي التفاف "قومي" حول الولاة الذين كانوا دائماً "غرباء" على المقاطعات التي كانوا يحكمونها. كان أفراد أسرة العظم على العكس تماماً، فهم من قبيلة عربية بدوية استقرت حديثاً في شمال سورية في منطقة معرة النعمان⁽⁴⁾، وقد تمتعوا بالهيمنة الكاملة

(1) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص30.

(2) المرجع الأخير، ص30.

(3) المرجع الأخير، ص29.

(4) المرجع الأخير، ص43.

على الشؤون السياسية السورية حتى نهاية القرن باستثناء بعض العهود القصيرة.

في الأول من تشرين الثاني عام 1730م تُخلع السلطان أحمد الثالث إثر انتفاضة شعبية قادها العلماء وضباط الجيش الانكشاري، وحل محله ابن أخيه محمود الأول. وما إن وصل الخبر إلى سورية حتى تابعت الثورات المضادة لأفراد أسرة العظم في طرابلس واللاذقية بسبب استبدادها وسعيها وراء الثروة بلا وازع. فجاءت الأوامر لخلعهم من مناصبهم، واعتقل في بداية تشرين الثاني ياسين بيك وإسماعيل، وصودرت كل ممتلكاتهم. وهكذا إضافة إلى حصول الصدر الأعظم الجديد محمد باشا على رضا كل الذين كانوا يشكون من ظلمهم، وجد أموالاً جاهزة لحرب إيران ومراكز حكم مريحة لمرشحيه. وكان سليمان آخر من سقط، ففي 21 كانون الأول وصل فرمان إلى صيدا يأمر باعتقاله، فسجن في القلعة وصودرت ممتلكاته.

في 22 كانون الثاني 1731م دخل حاكم دمشق الجديد عبد الله باشا آيدنلي المدينة على رأس فيلق مسلح مكون من أربعمئة رجل. امتنع عبد الله باشا أثناء ولايته التي استمرت ثلاث سنوات عن الاختلاس، وكرس جهوده لتطوير المقاطعة، وحسن العلاقات التجارية بين دمشق وجيرانها، وخاصة صيدا حيث كان الفرنسيون يضاعفون مشترياتهم من الحرير والقطن، وأمر بتعبيد الطريق الذي يصل دمشق بالقنيطرة، وبنى العديد من القلاع على طريق الحجاز. ولما كان قد نجح في الحصول على احترام البدو له قاد بنجاح قافلة الحجاج ثلاث مرات متتابعات. في حين كان الوضع في مقاطعة طرابلس يتدهور يوماً بعد يوم، إذ لم ينجح عثمان باشا الحاكم الجديد في فرض سلطته على المدينة، وتزايدت المناوشات والصدام في الشوارع وفي الجبل حيث كان الدروز يخربون أراضي المتأولة، في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يسيطرون على المارونيين، فعمل عديد من العلماء والفرنسيين الذين تضررت تجارتهم بسبب الفوضى على عودة أسرة العظم. وفي تشرين الثاني 1731م بعد أن أصبح التوبال عثمان باشا صديقاً عظيماً خلع عثمان ليحل محله سليمان العظم الذي ما أن وصل إلى طرابلس حتى أخذت الاضطرابات، وعم السلام في المقاطعة؛ وكثرت مؤامراته للحصول على ولاية دمشق واستلام أفراد عائلته المناصب الرسمية. خلال صيف سنة 1732م أتيحت له الفرصة لكسب رضا الباب العالي: إذ شن حرباً وهو يرأس الجردة على عشرات الآلاف من البدو الذين كانوا يتهيؤون للهجوم على قافلة الحجاج، فقتل في ساحة المعركة أكثر من ثمانمئة بدوي، وأسر أكثر من ستين ومن بينهم ثلاثة من الشيوخ الكبار. في 14 كانون الثاني 1743م دخل سليمان دمشق بعد أن

أرسل آيدنلي إلى الجبهة الفارسية. ولكي يزيد موارده سهّل التجارة الفرنسية على وجه الخصوص التي نقل تجارها مركز نشاطهم من صيدا إلى دمشق. ونجح في الحفاظ على علاقات جيدة مع العلماء برغم سلوكه المتحرر، وأمر ببناء مدرسة⁽¹⁾ وحامين وخان. وقد سلك مع النصارى سياسة معتدلة ورحيمة، كما ضاعف جهوده في تهدئة حدة التنافس بين الأرثوذكس والكاثوليك، وكذلك بين عديد من الفئات اللاتينية. ورغم المبالغ الباهظة التي كان ينفقها في اسطنبول للحفاظ على ولايته فقد خُلع في تموز 1738م، وعين بعد وقت قصير حاكماً لمصر. وعاد من جديد مبدأ تعاقب الولاة السنوي خلال السنوات الثلاث التالية.

قام خليفته حسين باشا البستانجي، الذي كان حاكم طرابلس سابقاً، بإجراءات غير شعبية أثارت دمشق كلها في أقل من شهر بعد دخوله المدينة: فحاصر اليرليا والقايقولو القلعة، في حين أشعلت كتائب الوالي النيران في ضاحية الميدان التي كانت معقل اليرليا، وأراقت الدماء. وانتشرت الاضطرابات التي كانت وراء هروب التجار الفرنسيين، والتحق المقتي بمعسكر المتمردين. وفي 5 أيلول 1739م خُلع حسين باشا أخيراً، واضطر لمغادرة المدينة ليلاً. أثناء ولاية خلفه عثمان باشا فرّق البدو قافلة الحجاج، واندلعت المناوشات بين القايقولو واليرليا، في حين عمدت القوات التي أرسلتها اسطنبول لتحقيق النظام إلى القيام "بأعمال تقشعر منها الأبدان"⁽²⁾. خُلع عثمان باشا في النصف الثاني من شهر تشرين الأول 1740م، وحل محله حاكم بلغراد علي باشا الذي نجح في تحقيق السلام والأمن، وفسح تعيينه في أرض روم المجال لعودة سليمان باشا العظم. ففي 25 آب 1741م دخل دمشق حيث بقي في وظيفته حتى مماته في 26 آب 1743م. استطاع سليمان باشا بدعم من ميليشيات المرتزقة من البوسنيين والمغاربة والأكراد أن يصبح الحاكم المطلق، فمن أجل أن يقطع دابر أي رغبة بالمعارضة أمر بعد ثلاثة أيام من وصوله بإعدام ثلاثة من البدو الثائرين. أثمرت هذه الصرامة التي قال عنها القنصل الفرنسي: إنها جعلت البلد كلها ترتجف خوفاً⁽³⁾: فلم تنزف الدماء في دمشق بسبب أي ثورة خلال ولايته، ومع أنه استغل ولايته لزيادة ثروته، إلا أن المؤرخين المعاصرين لم يذكروا إدارته إلا بالخير. لقد ألغى عديداً من الضرائب غير الشرعية، وشجع الحرفيين، وفي تموز 1743م أمر باستصلاح نهر القنوات، فحسّن بذلك تزويد المدينة بالماء. يعتبر هذا المشروع في خدمة

(1) بنيت المدرسة في 1737 - 38م بجانب بدستان مراد باشا.

(2) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص30.

(3) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص79.

المصلحة العامة أهم مشروع منذ "إعادة بناء" دمشق بعد غزو تيمورلنك. إلا أن المجاعة والقحط والطاعون وارتفاع الأسعار بسبب المضاربة وزيادة قيمة الضرائب بسبب عودة القتال مع الفرس دفعت الفئات الفقيرة من السكان إلى التمرد: فهوجمت محكمة العدل وطُرد القاضي وتُهبّت المخازن، وبلغت الدعارة حداً لم تبلغه من قبل. وابتز الإنكشاريون أهل الذمة، وهاجم قطاع الطرق القوافل، ونهب الجنود القرى. وفقاً لما كتبه المؤرخ البديري، أنه عندما مات سليمان انكشف الغطاء عن ثروته الضخمة، وتبين للدمشقيين أن "ما عانتها النساء والرجال والأطفال والقطعان من جوع كان بسبب تجميعه لثروته"⁽¹⁾. وهذا برهان إضافي - إن دعت له الحاجة - على أنه في ذلك الوقت كما هو الحال اليوم ينجح الأقوياء بخبثهم في خداع الشعوب.

كان لسليمان بين الشخصيات الإدارية العالية الرتبة منافس برتبة دفتردار، دمشقي يعرف باسم فتحي أفندي الفلقنسي. عُيّن دفترداراً بين 1735 و1736م، ثم متسلماً أثناء ولاية حسن باشا، وكان يتمتع بدعم قوي جداً من اسطنبول، فدعم طموحاته باليرليا، والأعيان وهم كبار أصحاب رؤوس الأموال من المسلمين. سمحت له وظيفته وسلطته التي كان يمارسها على الأوقاف السليمانية بأن يجمع ثروة كبيرة استطاع بفضلها أن يتملق العلماء والرأي العام. وقام بأعمال بناء كبيرة لا يستطيع القيام بها إلا الولاة، ومن بينها: إعادة بناء منارتي جامع السليمانية 1737 - 1738م، تحسين الطريق المؤدي إلى الصاحية 1742 - 1744م، وفي العام التالي بناء مدرسة في حي القيمرية، وبعد وقت قصير بنى في حي الميدان الذي كان معقل اليرليا حاماً ومقهى. كان أسلوب حياته ونفقاته تليق بسلطان: عند زواج ابنته أحيى حفلة كبيرة استمرت عدة أيام، وخصص كل يوم منها لفئة معينة من المدعوين: يوم لسليمان وأتباعه، ويوم للعلماء، ويوم للضباط، ويوم لكبار التجار، ويوم للنصارى واليهود، ويوم للفلاحين، واليوم الأخير للبغايا. كان الدفتردار الطموح ينتظر موت سليمان ليعلن عن عدائه لأسرة العظم.

نجح سليمان لتوسيع سلطته على المنطقة الساحلية في سورية في تعيين عديد من أفراد عائلته في صيدا؛ أولاً ابن أخيه إبراهيم، ثم ابن إبراهيم أسعد باشا الذي أصبح فيما بعد أشهر حاكم عثماني. ولد أسعد باشا في معرة النعمان، وفي عام 1741م وصل وله من العمر ستة وثلاثون عاماً - بعد أن كان متسلماً لطرابلس ومتصرفاً لسنجقي حمص وحماة وبعد أن ساهم عدة مرات في إدارة قافلة الحج - إلى ولاية صيدا مكان إبراهيم الذي أدت سياسته إلى إفلاس ولايته. خلافاً لإسماعيل فشل

(1) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 22.

سليمان في تعيين أحد أفراد عائلته في طرابلس حيث كان الباب العالي يحرص على تعيين حكام يحققون له توازناً في السلطة.

تكللت سياسة سليمان مع البدو بالنجاح، فقد بايعته عديداً من القبائل القوية، وساهمت في حملاته العسكرية. كما وصل ستُّ من أصل سبعٍ من قوافل الحج التي قادها إلى دمشق دون خسائر. مات عديداً من حجاج قافلة الحج السابعة في ربيع عام 1743م بسبب هطول أمطار غزيرة في منطقة الإحساء والبلقاء.

كان إخضاع إقطاعي الجبل صعباً، ففي عام 1734م أوقف سليمان تقدم الأمير ملحم ابن الأمير حيدر وخليفته الذي كان قد نجح في دخول ولاية دمشق وغزا البقاع، وأجبره على دفع الجزية. في نهاية 1736م بعد أن سُحقت الحملة المرسلة لصد الدروز الذين عادوا إلى نهب البقاع، حشد سليمان بإذن من الباب العالي جيشاً قوامه ثلاثون ألف رجل⁽¹⁾ لمحاربة المتمردين، وذلك بمساعدة والي طرابلس وصيدا. فضّل ملحم التفاوض ودفع غرامة قيمتها 150000 قرشاً. وفي عام 1741م أثناء عودة سليمان إلى سورية لولايته الثانية، وقبل أن يدخل دمشق، قاد جيشه إلى البقاع حيث أجبر ملحم للمرة الثانية على الاستسلام.

غير أن الخطر الرئيسي الذي كان يهدد سلطة الباب العالي لم يأت من الجبال، ولكن من الجليل حيث كان ظاهر ابن الشيخ عمر شيخ قبيلة بني زيدان⁽²⁾، لا يتوقف عن توسيع سلطته. تمكن وهو سيد طبرية القريبة من طريق الحج والتي جعل منها عاصمة له من السيطرة على الأراضي الأردنية التي يمر منها طريق دمشق - غزة، وهو طريق حيوي للسيطرة على السناجق الجنوبية. هباً انتقل سليمان إلى مصر في 1738م الظروف المناسبة لتعزيز قوته: أصلح حصون طبرية، وجهز جيشاً حقيقياً يقوده ضابط مغربي يدعى أحمد آغا دنيزلي، وعقد أحلافاً مع المتأولة، وأنشأ علاقات طيبة مع الفرنسيين، ودعا النصارى واليهود للاستقرار والعمل بالتجارة في أراضيه. ما أن عاد سليمان إلى دمشق في 1741م حتى جهز حملة على ظاهر، وفي 7 أيلول 1742م وصل إلى أسوار طبرية جيش كبير العدد يضم زراع الألغام والتقاين وجنود المدفعية الذين أتوا خصيصاً من أسطنبول، ولكنه عاد إلى

(1) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 86.

(2) المرجع السابق، ص 75.

دمشق بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من حصار غير مثمر. في السنة التالية، توجهت حملة جديدة نحو الجليل تضم قوى من ولايات دمشق وطرابلس وصيدا وحلفائهم من الدروز والبدو. بعد وصولها عكا حيث أنزلت سفن العثمانيين المؤن والذخيرة، غيرت الحملة اتجاهها عندما وصلها خبر موت سليمان المفاجئ في 26 آب 1743م، إثر نوبة مغص حادة، مما أوقف العمليات العسكرية. وانسحب الجيش إلى دمشق حيث دُفن سليمان حسب رغبته في مقبرة باب الصغير⁽¹⁾.

وحان وقت تعيين الفلقنسي، الذي اكتسب قوته بدعم الباب العالي، ليصبح والياً لدمشق. ولكي يحقق هذا الحلم لم يدخر جهداً؛ ففي الحال أدار شؤون المدينة، وحجز على ممتلكات سليمان، واعتقل أمين خزنته وحامل سيفه وعديداً من أفراد عائلته. وبخلاف توقعاته عُيّن أسعد باشا ابن أخ المتوفى والياً على دمشق. في 13 تشرين الأول 1743م دخل أسعد باشا المدينة على رأس موكب فخم كان فيه الأعيان والانكشاريون والضباط. وبينما كان الوالي الجديد يقوم بتجهيز حملة الحج، سقطت دمشق في أيدي حزب الفلقنسي المؤلف من الأعيان والعلماء ورؤساء الأرثوذكس وجماعة الصوفيين واليرليا وميليشيات الدروز والعصابات. فقتل بعض أقرباء سليمان، وعقدت اتفاقية سلام باسم الوالي مع المتمرّد ظاهر بن العمر. ساند الفلقنسي الجبهة "كيسية" الذين قدموا من اسطنبول ليعيدوا إلى خزنة الدولة العثمانية أملاك سليمان التي لم ينجح الفلقنسي بعد في تملكها. وأجبرت أرامل وخدم المتوفى تحت التهديد والتعذيب على الكشف عن مكان ثروته. فاكشفت مبالغ ضخمة من الأموال وكثير من الأشياء الثمينة ومخزون كبير من القمح. في غياب أسعد الذي كان قد ذهب في جولة، لم يتوقف الوضع عن التدهور. فلقد أصدرت فتوى - عندما تعرض عديد من الأعيان ومن بينهم نقيب الأشراف⁽²⁾ سيد علي أفندي للاعتداء من قبل أحد رجال الدفتردار في وسط جامع الأموي - أمرت باعتقال وقتل المتهم الذي التجأ إلى حي الميدان.

عند عودة أسعد باشا من مكة فضل أن يستغل كراهية الفلقنسي للصدر الأعظم حسن باشا متجنباً بهذا كل مجابهة مباشرة، وحرك أنصاره في الباب العالي. وفي 9 آب 1744م استلم الدفتردار أمراً بالذهاب إلى إسطنبول، ولكن جسارة مؤيديه كانت بلا حدود؛ فقد اقتحموا السجون، وأطلقوا

(1) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص 247.

(2) نقيب الأشراف من نسل النبي (ﷺ)، وقد كانت وظيفته مهمة جداً في العهد العثماني.

سراح من يريدون. كان الناس يلوكون بأسعد باشا بألستهم ويشبهونه بامرأة نائمة، في الوقت الذي بدا منافسه وكأنه "سلطان دمشق"⁽¹⁾. تزامن ذلك مع موت كيزلر آغا بشير نصير الفلقنسي الرئيسي في إسطنبول، ووصل الفرمان المنتظر منذ زمن طويل إلى دمشق مانحاً أسعد الحرية باستخدام كل الوسائل لتثبيت سلطته. وفي 17 آذار 1746م احتل "الدالي" وهي القوى التركمانية والكردية التي كانت في خدمة الحاكم القلعة التي كانت في أيدي اليرليا، ولاحقوا المتمردين تحت تغطية المدافع في حي ساروجه الذي احتلوه بعد معارك عنيفة ونهبوه وحرقوا جزءاً منه. أما في الميدان حيث لجأت آخر مجموعة من المتمردين فهبت مئات المنازل وهدمت بعد معركة لم تدم طويلاً.

قُتل السجناء من قادة التمرد بما فيهم مئات من اليرليا، وشوهت جثثهم وعرضت عند السرايا. وساد النظام، ووصلت الهدايا والتهاني من إسطنبول. وفي دمشق ظلت المدافع تدوي مرتين في اليوم مدة شهرين، وأضيئت الزينات، وأقيمت المأدبات احتفالاً بالنصر. وجاءت فرقة من القابيقولو من اسطنبول بطلب من أسعد وسيطرت على القلعة، ولم يبق إلا التخلص من الفلقنسي. سهل المهمة ما وعد به السلطان من إعطائه خمسمئة ألف قرش من أملاك المنهزم. وهكذا في 5 تموز 1746م بينما كان الدفتردار يزور السرايا، أصدر أسعد فرماناً يأمر بإعدامه. وقُتل المتمرد في الحال وأرسل رأسه إلى اسطنبول في حين جر جسده المشوه في شوارع المدينة مدة ثلاثة أيام، وصودرت أملاكه وأملاك العديد من أفراد عائلته، واعتقل مؤيدوه الذين لم يتمكنوا من الهرب في الوقت المناسب وأعدموا. والتحق الآخرون بالقوى المعادية للسلطة العثمانية: الشيخ ظاهر والبدو والدروز، وقاموا معهم بشن سلسلة من الهجمات على المدينة.

لم يضع القضاء على الفلقنسي ودعم سلطة أسعد باشا حداً للاضطرابات المزمنة التي هزت دمشق. وأدى الأعداء في الخارج، والصدام بين القابيقولو واليرليا، والنزاعات بين الفرق العسكرية المختلفة، والصدام بين اليونان الأرثوذكس واليونان الكاثوليك، واضطراب الطبقات الشعبية دوراً رئيسياً في عدم الاستقرار. ففي حزيران 1748م لما ضرب آغا القابيقولو بالعصى أحد الأشراف لأنه أيقظه من نومه بإطلاق رصاصة من مسدسه أمام منزله، توجه جمع من الأشراف يحتجون أمام القلعة، فقتل ثلاثة وجرح عديد منهم. فعقد الديوان وحكم على القابيقولو الذين كانوا يدعمون

(1) البديري، ذكره SHAMIR S، المرجع نفسه، ص 106.

سلطة الوالي بغرامات مرتفعة، ودفع عديد منهم حياتهم ثمناً لموت الأشراف.

ولكن الهجوم الكبير حدث في أيلول 1748م عندما هاجم مؤيدو الدفتردار القدياء مع حلفائهم الدروز المدينة لتحرير المعتقلين في القلعة بعد أن أشعلوا النيران في الضواحي الجنوبية وأراقوا فيها الدماء. ولما كان عدد الفرق العسكرية في دمشق لا يكاد يصل إلى سبعمئة إنكشاري ومثلهم من المغاربة وزهاء ستمئة سييا⁽¹⁾، وهو عدد غير كافٍ لصدهم الهجوم، استقدمت وحدات من البدو وطلب الدعم من صيدا. أصبحت الأحياء التي وقعت في أيدي المتمردين مسرحاً لأعنف المعارك في تاريخ دمشق؛ من السوق إلى الميدان تحولت الضواحي إلى حقول كبير من الخراب، ونهب المنتصرون ما نجا من الدمار واصطحبوه إلى داخل الأسوار. قُمت الثورة بلا رحمة وقُتل كل "المتعاونين" تحت التعذيب المريع. إضافة إلى كل هذا العنف قامت الفرق العسكرية غير المنضبطة بنهب السكان والاعتداء عليهم في كل أنحاء الولاية، وذلك برغم كل الإجراءات القانونية التي وصلت أحياناً إلى الحكم بالموت. فلقد أكد المؤرخ البُديري في عام 1748م: "قد دمر فساد الدالي القرى"⁽²⁾.

فشل أسعد باشا في فرض السيطرة العثمانية على متمردي الولاية، وأخذ يفكر بعد انتصاره على اليرلياء في التغلب على دروز الجبل الذين كانوا، كما يذكر القنصل الفرنسي في صيدا، أقوى من ظاهر والي صيدا معاً⁽³⁾. لقد كانوا يرفضون دفع الأتاوات وينهبون قرى البقاع ولا يوفرون حتى ولاية دمشق التي ضاعفوا من غاراتهم عليها. ففي حزيران 1748م احتلوا ونهبوا قرية الزبداني في أعالي وادي بردى. ولما كانوا كثيري العدد ومسلحين جيداً استطاعوا في حزيران 1747م أن يكبدوا القوى الحكومية هزيمة شنعاء، وصدوا عديداً من الهجمات وخرجوا من المعركة أكثر قوة. قبل نهاية العقد، نصّب الأمير ملحم حسين بن حروفش المقرب إليه على بعلبك ثانية، وقهر المتأولة برغم المساعدات التي أرسلها لهم ظاهر، وضم بيروت التي أصبحت من أكثر الموانئ السورية أهمية.

أما المتأولة فلقد أصبحوا تحت زعامة الشيخ ناصيف وبفضل التحالف مع ظاهر أقوىاء فتمكنوا من الإفلات من سيطرة الوالي، وتوقفوا عن دفع الأتاوات لصيدا، واحتلوا ميناء صور، ونهبوا القوافل

(1) VOLNEY C.-F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 129.

(2) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 113.

(3) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 113.

التي كانت تسير بمحاذاة الساحل، ونجحوا في الاستيلاء على عديد من السفن الأوروبية.

أما ظاهر الذي كان مدعوماً من الباب العالي دعماً كبيراً بسبب علاقته بالصدر الأعظم مصطفى باشا، فلم يلق طموحه أي مقاومة. ولما كان راغباً في الحصول على منفذ بحري لتجارته وضع يده في عام 1749م على ميناء عكا مما أثار استياء الفرنسيين والإنكليز، فلقد كان قسم كبير من تجارتهم يعبر من هذا المنفذ. وقام بتحسين المدينة، وبنى فيها قصراً له وشجع التجارة. وفي ربيع عام 1752م نجح في الحصول على اعتراف رسمي به، واستلم من اسطنبول مباشرة لقب كاييسلار باشا ولقب ملتزم⁽¹⁾ عكا، مما مكّنه من التمتع باستقلال تقريبي عن ولاية صيدا. شجعت قوة ظاهر ثمرد القبائل، وخاصة حلفاءه منهم من مثل قبيلتي عنزة وبنى صخر اللتين كثفتا هجماتها على القرى والقوافل. كما سهلت على القراصنة المالطيين مهمتهم، فلقد كانت مغانمهم تجر عبر أراضيه منفذاً سهلاً، فضاغفوا هجماتهم، وقاموا في 30 نيسان 1766م بغزو يافا، مما سبب في هجوم السكان المسلمين الهاربين على الفرنسيين ونهبهم.

كان تهديد البدو هو الأمر الوحيد الذي حاول أسعد باشا مقاومته بحزم وبشيء من النجاح؛ ففي كل عام كانت ترسل حملات باتجاه حوران أو البادية بغية إخضاع القبائل التركمانية المتمردة والبدو الذين كانوا يشكلون خطراً على طريق الحج وتزويد دمشق بالمؤن. ومع هذا لم تضعف قوة البدو على الإطلاق، ولم تتوقف أهميتهم على مسرح السياسة السورية عن التزايد.

أما الطبقة الشعبية فقد بقيت حالها رقيقة جداً أثناء ولاية أسعد باشا. إضافة إلى الكوارث الطبيعية كالقحط خاصة وغزو الجراد الذي كان في بعض الأحيان يذهب بالمحاصيل الزراعية كلياً، عمل المحتكرون على شح الغذاء، في حين كان القضاة والمحتسبون المرتشون يغلقون أعينهم عن رؤية ما يجري من أعمال ممنوعة. ولم يكن رجال الدين أفضل منهم حالاً؛ ففي عام 1749م اعتبر مفتي دمشق من أكبر المحتكرين، وقد ذكر مؤرخو تلك الحقبة أن عديداً من الأعيان والعلماء ومشايخ الطرق كانوا يعيشون حياة بدخ فاحش حتى في سنوات المجاعة الشديدة⁽²⁾. وبالطبع كان أسعد باشا أكبر المحتكرين، إذ لم يكن يفوت أي فرصة ليزيد من غناه، فلقد كان يقرض بالربا ويضارب على كل شيء، ولم يوفر حتى الدعارة. وعندما كان العلماء يطلبون منه طرد البغايا من

(1) أي آثار، فهو مكلف بالتزام مزرعة ضرائبية.

(2) عن بريك ذكر هذا SHAMIR S، المرجع نفسه، ص 129.

دمشق كان يكتفي بتعيين سوابشي لمراقبتهم ويستمر في تحصيل ضرائب عالية على دخولهم. وفي عام 1747م عندما وصلت الغنيمة المأخوذة من البقاع إلى دمشق مسببة انخفاضاً في الأسعار عمل كل ما في وسعه للحفاظ على ارتفاعها، فعذب بوحشية الذين حاولوا البيع بسعر منخفض وصادر ممتلكاتهم. وفي شهري أيار وحزيران 1749م تدخل شخصياً لمنع انخفاض سعر الخبز الذي كان يطالب به السكان بعد مواسم الحصاد. وبالإهانة والابتزاز وبمصادرة ممتلكات أعدائه والحجاج المتوفين في الطريق - الذين لم يكونوا غالباً من الفقراء - جمع من الأموال ما لم يتمكن أي وال من جمعه سابقاً. أنشأ طوال فترة انتدابه ثروة كبيرة من العقارات التي وقف معظمها لمصلحة أبنائه وأحفاده، وتضمنت أراضي ومنازل وبساتين وخانات، وكذلك طواحين مكتته من التحكم بسعر الخبز. كان حكم فولني - الذي سافر إلى سورية بعد مرور أربعين سنة على ولاية أسعد باشا، وحصل على معلوماته من الأعيان الذين من عادتهم هنا كما في أي مكان آخر أن يكونوا أنصاراً للحاكم - على إدارة أسعد باشا إيجابياً في الغالب. فلقد "أحسن كثيراً"⁽¹⁾ أثناء ولايته، وإذا كان من الصعب نفي شغفه في جمع المال كما كان يفعل كل ما مماثليه من أصحاب المراكز فقط"⁽²⁾، ففي الوقت الذي كانت نسبة الفائدة في سورية ومصر تتراوح بين اثني عشر وخمسة عشر بالمائة، وأحياناً كانت تصل إلى الثلاثين بالمائة، "كان أسعد باشا يكتفي بنسبة ستة بالمائة".

وبرغم ادعاءات فولني كان السكان يتمرّدون - برغم عنف الاضطهاد والتعذيب وأحكام الإعدام - في السنوات العجاف؛ ففي تموز 1745م زحف حشد ينهشه الجوع إلى السرايا، وهجم على عديد من الأبنية العامة فنهبها وحرّقها. سعى أسعد باشا أمام استياء الأغلبية المسلمة إلى الحصول على دعم النصارى واليهود، مما حسن وضعهم؛ إذ ألغى ما كان مفروضاً عليهم من التقيد بلباس معين. كتب ميخائيل بريك وهو مؤرخ يوناني أرثوذكسي في كتابه "تاريخ دمشق": "قرأت قصصاً عن دمشق منذ فتح المسلمين لها إلى أيامنا هذه، ولم أجد ما يشير إلى أنّ النصارى تمتعوا في يوم من الأيام بسلطة وتأثير وشرف كما تمتعوا به السنوات العشر الأخيرة من ولاية أسعد باشا العظم"⁽³⁾.

قام أسعد باشا بفضل ثروته الهائلة بعديد من أعمال الترميم وإصلاح المباني وبناء الكثير منها مما

(1) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 375.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 375-376.

(3) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 134.

ساهم في شهرته حتى اليوم؛ ففي عام 1749م أمر بتجديد مدرسة كان قد بناها والده في سوق الخياطين وألحق بها مسجداً⁽¹⁾، وفي نفس السنة أمر ببناء سرايا جديدة في موقع دار الذهب، حيث كان قصر الحاكم المملوكي تنكز⁽²⁾، عمل في بنائها كل حرفي دمشق وأكثر من ثمانمئة عامل مدة ستين. اعتبر البناء بعد انتهائه من أجمل أبنية الإمبراطورية العثمانية كما يشهد البديري حسب رأي "الذين سافروا وشاهدوا كثيراً من الأشياء"، "لا مثيل له في الإمبراطورية العثمانية، ولا حتى قصر السلطان نفسه"⁽³⁾. وأمر بتجديد المساجد والمدارس، وحسّن نظام تزويد المدينة بالماء، ورصف طريق الميدان بين باب المصلى وباب الله، وكبّر جسر الكسوة، وهي قرية مجاورة لدمشق، وبنى حماماً في حي الشاغور. ولما كان مهتماً بشعبيته عند الشيعة فقد أمر ببناء ضريح على قبر السيدة زينب. وفي أيار 1751م أخذ يستولي على منازل ودكاكين سوق البزورية ليبني مكانها خاناً كبيراً. أثار هذا الخان - الذي بدأت أعمال بنائه في عام 1753م لتكلف مبلغاً زهيداً قيمته 1100 قرش في اليوم الواحد، وانتهت في أقل من أربعة عشر شهراً - إعجاب الدمشقيين، وكتب البديري: "لم يُبنِ بناء مثله في أي مكان آخر في العالم الإسلامي"⁽⁴⁾.

لما كان أسعد باشا مدركاً تمام الإدراك أن أي فشل للحج قد يسبب في عزله، فقد سعى جاهداً لإنجاحه. فحقق الحج أربعة عشر نجاحاً أثناء حكمه الذي استمر أربعة عشر عاماً. وجاء ذكر أول حج قاده بعد وقت قصير من دخوله لدمشق في شتاء عام 1743 - 1744م في سجلات التاريخ، وكتب عنه ابن جمعة أنه "كان حجاً باهراً"⁽⁵⁾، فذاع صيته في الباب العالي. وحققت حملات الحج التالية نجاحاً أفضل، وكان عدد الحجاج يزداد ويجذبهم الأمن عاماً بعد عام. كما وضعت خزانات ماء على طول طريق الحج وبنيت قلعة في مدائن صالح. إذا استثنينا الحوادث الطبيعية من فيضانات الشتاء وحر الصيف الشديد لم يُذكر إلا هجوم واحد وهو هجوم قبيلة حرب في تشرين الثاني 1752م. كان هذا النجاح المتكرر السبب الرئيسي دون شك في الطول الاستثنائي لفترة ولايته التي

(1) SACK D.، المرجع نفسه، ص 35.

(2) كان تنكز حاكماً لدمشق في النصف الأول من القرن الرابع عشر.

(3) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 136.

(4) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 136.

(5) LAOUST H.، المرجع نفسه، ص 248.

استمرت أربعة عشر عاماً محققاً بذلك رقماً قياسياً في تاريخ ولاية دمشق. وكان السلطان محمود الأول (1730 - 1754م) يرسل إليه الهدايا الفاخرة التي كانت لا ترسل عادة إلا لمن هم برتبة الصدر الأعظم، مما يؤكد على شدة اهتمام الباب العالي بنجاح الحج.

في كانون الأول 1754م مات السلطان محمود الأول في إسطنبول ليحل محله أخوه عثمان الثالث (1754 - 1757م). فحدثت تغيرات جذرية في إدارة الإمبراطورية. دفعت الغيرة من حاكم دمشق القوي والدسائس إلى عزل أسعد باشا من منصبه في 20 كانون الثاني 1757م، ليعين على حلب ويحل محله رجب محمد مرشح الصدر الأعظم مصطفى باشا. وهكذا في 5 شباط استلم أسعد باشا فرمان تعيينه، فشد رحاله بعد ثلاثة أيام متجهاً إلى حلب. ولما كان رجب محمد قد تبوأ في غضون ذلك منصب الصدر الأعظم، فقد عين حاكماً لدمشق المقرب إليه حسين باشا ابن أخي متسلم أسعد باشا في غزة سابقاً. فدخل المدينة في 25 شباط وحرص على تجديد اليرليا، وفي وقت قصير عمت الفوضى في المدينة كلها: القاييقلو واليرليا والدالي والدروز والأكراد والمغاربة وجنود حسين والأشراف وكل الأحزاب والفرق، جميعهم خرجوا إلى الطرق مسلحين. ولم يثمر تدخل العلماء والأعيان والوجهاء، وبدت دمشق في حالة حرب، إذ نهب عديد من أحيائها وأشعلت النيران في كثير من مبانيها - ولم توفر حتى المساجد - ووصل الاضطراب قرى الغوطة. وعاد الصدام في بداية أيلول ما بين القاييقلو واليرليا.

في غضون ذلك، في بداية آذار 1757م، عين الصدر الأعظم الجديد أسعد باشا حاكماً لمصر ليعده عن ولايته القديمة. وكذلك أبعد أخويه سعد الدين ومصطفى، والي طرابلس وصيدا، فعين الأول حاكماً لمراكش والثاني حاكماً للموصل. ولكن خبر نقل أسعد باشا كاد أن يوصل سكان حلب إلى الثورة، فتراجع الباب العالي وثبته في منصبه.

في بداية أيلول 1757م بعد أن رفض حسين باشا دفع الإتاوة للبدو، هجم بنو صخر وحرب على قافلة الحجاج في طريق عودتها، فكانت أكبر مصيبة حلت بها في تاريخها. بعد أن سُيِّحقت الجردة عن بكرة أبيها وأصبح سردارها موسى باشا في عداد الموتى، أوقف حسين باشا القافلة في تبوك حيث انتظر بلا جدوى وصول النجدة من دمشق. وبعد ثلاثة أسابيع من الانتظار وبعد أن أُستهلكت كل المؤونة، أمر حسين باشا بمتابعة المسير. وفي حر شمس أيلول قُضي بسرعة على الحرس العسكري، ولم يقاوم آلاف الحجاج المنهكين إلا قليلاً، وكانت مذبحة فظيعة. كان بين

الموتى الذين قُدر عددهم بعشرين ألفاً أخت السلطان وعديداً من الشخصيات المهمة في الدولة. أما الذين نجوا من المذبحة فشردوا في الصحراء شبه عراة بلا ماء أو زاد، ومات القلة الذين بقوا على قيد الحياة حين وصول قوة النجدة من الإنهاك عند الوصول إلى دمشق.

وصعقت الإمبراطورية كلها بما حدث، ويكت كثير من المدن في العالم الإسلامي على موتها، وفي إسطنبول كانت المشاعر متأججة، وكان لابد من إيجاد المذنبين بأسرع وقت. ولما كان من الصعب القبض على حسين باشا الذي بعد أن نجح في الحرب من المجزرة التجأ إلى غزة، أُعدم حاميه أحمد آغا في 27 تشرين الثاني وعرض رأسه أمام السرايا ومعه ورقة تؤكد أنه كان المسؤول عن كارثة الحج. نجح ظاهر حليف بني صخر المشهور والذي كان يتاجر علناً بغنائم القافلة، في إبعاد التهمة عنه مقابل العثور على المحمل المفقود ولواء النبي الأبيض. حينها انتشرت إشاعة بأن أسعد باشا كان وراء هذا الهجوم لكي يؤكد على ضرورة وجوده رئيساً للحج. ولم يعارض السلطان الجديد مصطفى الثالث (1757-1774م) هذه الإشاعة لحاجته الماسة إلى النقود، فاتهم أسعد باشا بالتآمر وحكم عليه بالنفي إلى جزيرة كريت، فألقي القبض عليه في آذار 1758م في سيواس حيث عين والياً منذ تشرين الأول 1757م. وفي 14 نيسان خنق بينما كان يتوضأ في حمام في أنقرة وهو في طريقه إلى منفاه، وأرسل رأسه مباشرة إلى إسطنبول. وبسرعة وزعت الحصص، فكانت ثروته المقدرة بأكثر من خمسين مليون قرشاً دعماً جوهرياً لخزينة الدولة. تطلب العثور على ممتلكاته من الذهب والمجوهرات والخيول والأسلحة والعييد وغيرها، وكذلك التجار الذين كانوا يتاجرون معه، من الجبابة "الكابيسي" المرسلين إلى دمشق وإلى كل الولاية أكثر من ستة أشهر. فصودرت جميع ثروته لتوضع في سرايا دمشق الجميلة. وفي 1868م تحدث المسافر لاكلاما أنيجهولت عن شعبية الحاكم الشهير قائلاً: "ترك أسعد باشا قام به من أعمال حسنة ذكرى عطرة مستمرة حتى اليوم"⁽¹⁾.

يبدو هذه المرة أن أسرة العظم قد اختفت نهائياً من المسرح السياسي. وكما يقول بوريك في حديثه عن أسعد باشا: "هل أغتته ثروته أو سلطانه؟ أصبح كل هذا هباءً منثوراً"⁽²⁾. بعد كارثة الحج وهرب حسين باشا إلى غزة، عين الباب العالي على ولاية دمشق حرصاً منه على فرض سيطرته أكثر

(1) LYCKLAMA a NIJEHOLT T. M.، رحلة في روسيا والقوقاز وفارس والأناضول وكردستان وسورية...، باريس،

1872-1874م، الجزء 4، ص 540.

(2) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 149.

رجال الدولة كفاءة عبد الله باشا شاتاجي، وهو من رجال الحرب الفارسية القدماء المحنكين، فدخل المدينة في 8 كانون الثاني 1758م على رأس ستة آلاف وخمسمئة رجل من جيشه، وهو مزود بسلطة مطلقة لتحقيق النظام. وأخضع الأشراف واليرليا وكل الفرق المتمردة بعد معارك حقيقية منظمة تركت وراءها الخراب في جزء كبير من المدينة، ولكنها حققت السلام المدني. ذكر أحد سكان دمشق: "كنا ننام والأبواب مفتوحة"⁽¹⁾. ثم توجه عبد الله باشا ليحارب القبائل، فهزم خلال صيف عام 1758م أثناء رحلة الحج الأولى، "التي كان يقودها حاملاً سيفه دون أن يدفع قرشاً واحداً للعرب"، قبائل حرب وبني صخر، وسجن شيوخها وذبحهم. وأقيمت مآدب كبيرة تحتفل بالنصر، وأهدى العلماء قصائدهم للحاكم. في نهاية عام 1759م بعد أن استقرت الأوضاع في دمشق وتحقق الأمان على طول طريق الحجاج، عُين عبد الله باشا في ديار بكر ليحل محله محمد باشا حاكم طرابلس. وبعد أقل من تسعة أشهر ترك الأخير محله لعثمان باشا الذي دخل دمشق في 11 كانون الأول 1760م. كوفئ عثمان باشا، الذي كان جورجي الأصل ومملوكاً لأسعد باشا ومحتسبه في حماه، على جهده ومساعدته للجباة في معرفة الأماكن التي كان سيده يخبئ فيها ثروته. سلك أثناء ولايته التي استمرت أحد عشر عاماً سياسة وفاق وتهذيب؛ فما أن استلم الحكم حتى أمر بخفض أسعار الخبز وعديد من المنتجات الأساسية، وألغى عديداً من الضرائب التعسفية، وقام بتجديد العديد من المباني العامة وصيانة قنوات الري. وفي عام 1769 - 1770م أمر ببناء حوض ماء في فناء الجامع الأموي يزوده نهر بردى. وحقق أمن قوافل الحجاج إحدى عشرة سنة متتالية، وأمر ببناء أو تجديد العديد من القلاع والخزانات على طول طريق الحجاز. كانت سياسته الخارجية مع الشيوخ والأمراء الذين كانوا يسيطرون على جزء كبير من ولايته أكثر عنفاً من سياسة أسعد باشا. بعد موت ملحم في عام 1761م شلت الدروز النزاعات المستمرة على الخلافة بين أخوي المتوفي أحمد ومنصور، فاستطاع عثمان باشا أن يركز جهوده على حرب ظاهر الذي كانت قوته تزداد في الجليل برغم جهوده المبذولة في التصدي لمنافسة أولاده له في الحكم. وتضاعف عدد الغزوات والمناوشات والمعارك غير الحاسمة لتستهلك ثروة الباشا، ولكي يمول حروبه اضطر إلى ابتزاز القرى وأصحاب الأملاك، مما أثار بين 1765 و1769م عديداً من الثورات الشعبية في سورية الجنوبية خاصة الرملة وغزة ويافا، ولكن كما يذكر

(1) VOLNEY C.-F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 385.

فولني كانت تخمدها "إجراءات أخرى أكثر فظاعة ووحشية"⁽¹⁾.

في عام 1770م كانت الإمبراطورية في وضعية الدفاع عن النفس، فلقد كانت تحارب روسيا منذ عام 1768م وخسرت أراضي على كل الجبهات، في حين انشقت في سورية المقاطعات المحيطة بولاية دمشق. وثار في حلب خمسون ألف شريف في غياب الوالي. وفي مصر كان الوضع أكثر حرجاً حيث كانت تزداد قوة أحد المماليك الجراكسة علي بيك يوماً بعد يوم. كان علي بيك قائد حملة الحجاج المصرية عام 1764م، وقد لُقّب بشيخ البلد عام 1768م، وأصبح اسمه يُذكر في الخطبة ونُقش على العملة، وانتهى به الأمر بطرد الباشا العثماني والامتناع عن دفع الأتاوات لإسطنبول. وفي تموز 1770م بعد أن أمر قائد جيشه محمد أبو ذهب⁽²⁾ بغزو الحجاز، سيطر على الحرمين. ثم عمل على إنشاء علاقات طيبة مع ظاهر، واتجهت أنظاره نحو سورية معلناً رغبته في تخليصها من طغيان عثمان باشا.

وفي منتصف تشرين الثاني عام 1770م قاد إسماعيل بيك أول حملة عسكرية قُدِّر عدد رجالها بخمسة عشر ألفاً مجهزة بالمدفعية، فاخترق حدود ولاية دمشق، ليصبح سيد غزة ثم الرملة حيث بقي ينتظر قدوم قوات ظاهر. فعُيِّن عثمان باشا جيشه على عجل وسلك طريق الساحل ليعسكر قرب يافا حيث نجحت بعض فرق جيشه في اختراقها. ولكن عدم انضباط جنوده الإنكشاريين والسباه وتخلي حلفائه من القبائل عنه عند اقتراب وصول قوات ظاهر أجبراه على الانسحاب. وفي 18 كانون الأول وصل إلى دمشق في حين كانت يافا، حيث كانت ستزل القوات البحرية المصرية، محتلة من قبل جيشي إسماعيل بيك وظاهر. في بداية آذار 1771م وصل أبو ذهب إلى غزة يقود جيشاً قوياً يتكون مما يقارب أربعين ألف رجل، لينضم إليه بعد وقت قصير جيش إسماعيل بيك والمتأولة وقوى ظاهر بقيادة ابنه علي. واحتلَّ ساحل سورية في غضون بضعة أيام، وفي 2 حزيران ظهر أبو ذهب عند أسوار دمشق. وفي الرابع من نفس الشهر اخترقت مقدمة جيشه حي الميدان حيث كان اليرليّا يتهيَّؤون للدفاع عن منازلهم. وفي السادس من نفس الشهر هرب عثمان باشا خوفاً من الثورة مع ابنه وكبار الموظفين والقادة العسكريين وعديد من العلماء. وفي اليوم التالي بدأت مفاوضات بين وفد من الأعيان بقيادة أحد العلماء الكبار علي أفندي وداجستلي وأبو ذهب. أكد أبو ذهب أنه لا يتمرد على

(1) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 235.

(2) لُقّب بأبي ذهب بسبب فخامة خيمته وعدته، VOLNEY C.-F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 121.

السلطان وإنما على عثمان باشا، فعرض فرماناً يذكر فيه تجاوزات عثمان باشا للإسلام ويظهر علي بيك محرراً. بعد يومين دخل الجيش المصري المدينة دون مناوشات، ولم تقصف إلا القلعة حيث رفض قائد القاييقولو مصطفى آغا الاستسلام.

وفي 18 حزيران وبخلاف كل التوقعات ولأسباب غير واضحة وجه أبو ذهب رسالة إلى داجستلي يخبره فيها أن مهمته قد انتهت وأنه عائد إلى مصر. فعاد عثمان باشا في 26 حزيران إلى دمشق، وثبتت ولايته واستلم ثوب الشرف والتهاني على شجاعته. قام ما إن رجع على تدعيم سلطته، وجند الآلاف من الدروز لتقوية جيشه. ولكي يمول مساعيه الحربية لجأ إلى أسوأ الإجراءات، وابتز السكان وصادر منهم مئات الآلاف من القروش أثناء جولة قام بها في آب على رأس كتيبة عسكرية تتألف من آلاف الرجال. غير أن جيش ظاهر هزمه هزيمة نكراء في 2 أيلول بالقرب من بحيرة الحولة، ومات غرقاً أكثر من خمسة آلاف من جنوده في نهر الأردن أثناء محاولتهم الهرب. واحتل ظاهر في 23 تشرين الأول صيدا في الوقت الذي عادت فيه القوات المصرية إلى الهجوم لتستولي على غزة وبافا والرملة. عندها وصل إلى دمشق الأمر بعزل عثمان باشا الذي بدأ حكمه محبوباً ومجداً ليتتهي مغضوباً عليه مهاناً. لم يدعه الدمشقيون يرحل إلا بعد أن حصلوا على ضمان بأن يعرضهم عن كل الأموال التي ابتزها منهم، وغادر المدينة وسط سخرية الناس.

عين الباب العالي مكانه محمد باشا حفيد إسماعيل العظم، الذي ولد في دمشق عام 1731م، وكان حاكماً لعدة مقاطعات مثل مقاطعة صيدا التي عين حاكماً لها مرتين، الأولى في 1763م والثانية في 1765م. وفي 4 تشرين الثاني 1771م دخل الوالي الجديد مسقط رأسه في موكب فخم ویرقة ابنه يوسف بيك. كانت مهمته الأولى الإعداد للحج. إلا أن مصادرة أملاك عثمان باشا لم تزوده بالثروة التي كان يحلم بها، كما أن احتلال الجيش المصري للسناجق الساحلية قلص من واردات المقاطعات، فاضطر محمد باشا أن يستدين مليوني قرش من كبار تجار السوق وآغاوات القاييقولو واليرليا وعديد من الوجهاء. وفي 21 كانون الثاني 1772م تحركت قافلة الحج يجرسها جيش كبير العدد لتعود إلى دمشق سالمة في 11 آذار. لم يكن الوضع في المقاطعات أقل حرجاً، إذ كان الجزء الأكبر من ولاية صيدا وكذلك السناجق الجنوبية لولاية دمشق تحت سيطرة ظاهر. كما امتدت سلطة علي بن ظاهر إلى حوران، في حين أبحر الأسطول الروسي الذي كان قد هزم الأسطول العثماني في تيشمه في تموز 1770م باتجاه سواحل البحر الأبيض المتوسط في المشرق. وفي القاهرة أسقط أبو ذهب علي بيك في

شهر نيسان، وتحالف مباشرة مع الباب العالي مما جعل خطر أي غزو قادم من مصر مستبعداً. نجح علي بيك الذي كان قد عقد اتفاقيات مع الروس في الوصول إلى معسكر ظاهر مع المئات من المماليك وتقريباً كل موارده المالية.

في أيار حاصر الدروز صيدا التي كان يدافع عنها دنزلي المغربي قائد كتائب مشاة ظاهر. أسرع ظاهر مع المتأولة ومماليكه إلى نجدة دنزلي، في حين استعد الجيش الدمشقي وعدده يزيد على عشرين ألف رجل لدعم الدروز. والتحم الجيشان في سهل الغزية بالقرب من صيدا في 11 حزيران. وهاجم ممالك ظاهر الجيش العثماني تحت تغطية مدافع الأسطول الروسي، فانهمز في أقل من ساعتين مع أن عدده كان أكبر بثلاث مرات. إضافة إلى ضعف الحكومة المحلية الشديد ونوعية التجهيزات العسكرية السيئة، بينت معركة الغزية أن السلطات المحلية المسلمة كانت مستعدة للتحالف مع القوى الأوروبية بغية تحقيق طموحاتها والتخلص من الهيمنة العثمانية. ويبدو أن هذه الهيمنة كانت قد ضعفت لدرجة أن القنصل الفرنسي في صيدا ضغط على وزير البحرية لكي يرسل الأسطول الفرنسي ويستولي على عكا وصيدا. وفي 18 حزيران 1772م قصفت السفن الروسية بيروت بطلب من ظاهر وعلي بيك، ونزلت فيها القوى الروسية ونهبوا المدينة ثم غادروها. كان غزو الجيش الروسي لسورية وشيكاً، فقد ذكر بريك أن اليونان الأرثوذكس في دمشق ابتهلوا وفرحوا لاقتراب تحررهم من السلطة العثمانية من قبل إخوتهم في الدين⁽¹⁾.

في تموز 1772م بعد أقل من سنة من تعيين محمد باشا العظم، عُزل وعين محله حاكم أرض روم وقائد الجيش العثماني في جورجيا، وهو مصطفى باشا بستانجي الذي دخل دمشق في 5 تشرين الثاني على رأس ستة آلاف رجل. أثناء ولايته التي استمرت ما يزيد عن سنة بقليل، عُدِّل توزيع القوى العسكرية في الشرق الأدنى. وفي نيسان 1773م اتجه علي بيك إلى القاهرة مع ممالكه راغباً في استرجاع عرشه، ولكن جيش أبي ذهب فاجأه بالقرب من غزة، فأسر وقيد إلى القاهرة حيث مات بعد بضعة أيام، فكانت هذه نهاية الدعم المصري للمتمرد ظاهر. في بيروت تألق مغامر من الطبقة الرفيعة اسمه أحمد، ولُقِّب بالجزار بسبب ممارساته الدموية، وأصبح في وقت قصير أقوى رجل في سورية، مستمتعاً بسلطة لم يجرؤ أحد من أسرة العظم أن يحلم بها، وكذلك عدو بونابرت المنتصر؛ إذ

(1) SHAMIR S. المرجع نفسه، ص 195.

تمكن بمقاومته له في عكا أن يعترض طريقه إلى دمشق. كان الجزار من أصل بوسني، وبعد بدايات صعبة في اسطنبول شغل مركز جلاد لعللي بيك في مصر. ومن مصر ذهب إلى دير القمر ليعمل لحساب الأمير الماروني يوسف بكر الأمير ملحم⁽¹⁾. ثم جاء إلى دمشق حيث استخدم مواهبه في خدمة الباشا. وعندما خاف الأمير يوسف بعد قصف الروس لبيروت أن تتعرض مدينته لنفس مصير صيدا التي نهبها ظاهر والمتاوله، طلب مساعدة باشا دمشق، فأرسل له فرقاً من المشاة بقيادة الجزار، وما أن وصل البوسني المحنك حتى انشغل في تدعيم الحصون والسيطرة على الجيش والتصرف كسيد مطلق. واستمرت دمشق في دعمه، في حين اتجه يوسف نحو أعدائه في السابق والتحق بمعسكر ظاهر. وفي تموز 1773م حاصرت قوى ظاهر بيروت متحدة مع قوى يوسف ومنصور، في حين قصفت حراقتان روسيتان المدينة. وبعد مقاومة شديدة استسلم المحاصرون من شدة الجوع. هجم ظاهر الجزار، ولكن الجزار خان حاميه وسلب منه قافلة ذخيرة وعاد إلى دمشق حيث استقبله الناس كبطل.

بينما كان الروس يقصفون بيروت، كان الناس يعانون من الفاقة في دمشق، فكثر عدد المظاهرات المضادة لسلبية مصطفى باشا الذي عزل أخيراً في نهاية شهر آب 1773م ليحل محله محمد باشا العظم. فدخل الأخير دمشق في بداية تشرين الثاني للمرة الثانية، في حين عُيّن ابنه يوسف بيك بعد وقت قصير حاكماً لطرابلس. وفي آذار اعترف الباب العالي بسيطرة ظاهر على الجليل وصيدا وأراضي المتاوله، ومنحه لقب باشا. وفي تموز 1774م بعد توقيع اتفاقية كوكوك كيناركا التي وضعت حداً للحرب الروسية العثمانية، قرر الباب العالي بغية فرض سيطرته على مجموع بلاد الشام أن ينتهي من أمر المتمرّد. واتجه السلطان الجديد عبد الحميد الأول (1774 - 1789م) نحو أبي ذهب الذي لم يتوقف منذ عودته إلى مصر عن التأكيد على وفائه وإخلاصه للباب العالي، فوعده بولاية دمشق في حال نجاحه في مهمته. ولم يتأخر أبو ذهب الذي كان يطمع في ثروة ظاهر الضخمة في الانطلاق في آذار 1775م على رأس جيش هائل مكون من ستين ألف رجل على الأقل، فاحتل غزة التي هرب منها رجال ظاهر. ثم استولى على يافا بعد مقاومة استمرت سبعة أسابيع وقتل سكانها، "قتل الجميع النساء والأطفال والشيوخ والرجال، وأمر محمد (أبو ذهب) الجبان المتوحش أن يُنصب أمام عينيه

(1) كان ملحم مسلماً ولكنه سمح لأولاده باعتناق النصرانية بعد اعتزاله.

هرم من رؤوس هؤلاء البؤساء كنصب تذكاري لانتصاره"⁽¹⁾. وانتشر الرعب في كل البلد، وأوشك الدروز والمتاوله وحتى أبناء ظاهر على الفرار. وبعد أن قضى أبو ذهب في طريقه على رهبان جبل كرمل زحف إلى عكا واحتلها ولكن لسوء حظه أصيب بالحمى وتوفي. نجى ظاهر مؤقتاً، إلا أن الباب العالي أعد مباشرة من جديد حملة بحرية وبرية في آن واحد. قاد حسن "كابودان باشا" الأسطول، في حين رأس محمد باشا العظم القوى البرية ضاماً قواته الخاصة إلى قوات ثلاث باشاوات: إبراهيم متصرف سناجق القدس، ومحمد بن إبراهيم والي أضنة، والجزار الذي عاد من اسطنبول برتبة باشا وبلقب "محافظ الساحل السوري". وفي آب 1775م بعد الهجوم على صيدا، أبحرت السفن العثمانية الإحدى عشرة إلى عكا حيث كان ظاهر متحصناً بعد انسحاب القوات المصرية. وقدم حسن باشا للمتمرد فرصة أخيرة: استسلام بلا شروط، وإخلاء المدينة، ودفع جميع ديونه لخزينة الدولة. رفض الشيخ المسن وكان عمره حينذاك يزيد على ثمانين العرض مخالفاً رأي دنزلي الذي أمر قواته بعدم المقاومة. واغتيل ظاهر في الوقت الذي كان يتجهز فيه للهرب، و"حمل رأسه إلى كابودان باشا الذي تأمله وأشبعه شتاً وفقاً للعادة التركية الفظيعة، ثم ملّحه وأرسله إلى إسطنبول (...). ليعرض على السلطان والشعب"⁽²⁾، واحتلت عكا قبل وصول القوات البرية.

وحانت ساعة الجزاء؛ إذ إن القضاء على ظاهر بعد أربعين سنة من أول صراع له مع سليمان باشا العظم ترك في سورية الجنوبية فراغاً عمل البوسني على ملئه بعد أن استبعد كل منافسيه. حصل أولاً على وظيفة محافظ وقائد حامية عكا. وفي كانون الأول 1775م أرسل مباشرة بعد عزل والي صيدا متسلماً يحكم باسمه. وأخيراً في آذار 1776م عينه السلطان والياً على صيدا ومُنح لقب وزير. وتمكن بفضل دعم الباب العالي ومباركته من إخضاع المتمردين. فقتل علي بن ظاهر، ودُبح أخواه سيد وأحمد مع أولادهما. وانتفت إلى الدروز والمتاوله، فاحتل الجبل اللبناني وسهل البقاع، ونجح هناك حيث فشل كثير من الولاة. زوده جشعه الفظيع ومهارته في تشجيع التجارة بما كان يحتاج إليه من المال. ثم شكّل من رجاله - فرسان بوسنيون وألبانيون ومشاة مغاربة - أقوى جيش في سورية، ونقل مقر الولاية من صيدا إلى عكا التي عمل جاهداً على تحصينها.

(1) VOLNEY C.-F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 143. أخطأ فولني في التاريخ، إذ حدد تاريخ الاستيلاء على يافا في 19 آذار 1776م.

(2) VOLNEY C.-F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 256.

برغم تفوق الجزائر السياسي والعسكري، ومؤامراته المستمرة للحصول على ولاية دمشق، نجح محمد باشا في الحفاظ على ثقة الباب العالي فيه، وبقي في وظيفته حتى مماته في عام 1783م. وعهد بكل الوظائف الإدارية المهمة في دمشق وكذلك في السناجق إلى أفراد أسرته، فعين ولديه يوسف وعبد الله اللذين رُفعا إلى رتبة باشا حاكمين على ولاية طرابلس. وفي عام 1778م ضم الباب العالي إلى ولاية دمشق - بغية موازنة قوة الجزائر - سناجق القدس التي فصلت عنها مدة طويلة. وبرغم المناوشات المستمرة بين الفرق المتنافسة، واختلال أمن طرق القوافل الدائم وتزايد الابتزاز، اعتبر معاصروه مدة إدارته من أفضل الأزمنة أثناء الحكم العثماني لسورية. ذكر ميخائيل بوريك أنه بين العامين 1770 و1776م جرى ابتزاز ما يقارب ستمئة ألف قرش سنوياً من نصارى دمشق⁽¹⁾. وعند نهاية الثلث الأخير من القرن تحسن الوضع على نحو واضح؛ إذ ذكر بوريك وفرة الطعام وانتشار الأمن وازدهار التجارة⁽²⁾. في حين يذكر المستشرق الفرنسي فتور دو بارادي الذي مكث في سورية عام 1777م، أن دمشق كانت أكبر سوق للتجار الأوروبيين الذين كانوا يجلبون البضائع عن طريق عكا وصيدا، وهي مدينة مزدهرة بالسكان وغنية جداً، تأتي إليها قوافل من بغداد مرتين أو ثلاث مرات في السنة لشراء كميات هائلة من البضائع⁽³⁾. ومع أن القوانين كانت لا تسمح للتجار الفرنسيين بالذهاب إلى دمشق لأسباب أمنية، فلقد كانت أضخم وكالة تجارية في صيدا تمتلك في دمشق فرعاً يديره موظف دمشقي "ومزود بكل البضائع الأوروبية"⁽⁴⁾.

سمح تحسن الوضع الاقتصادي بالعودة لبناء الأبنية العامة. ففي عام 1781م بنى محمد باشا على طول الجانب الجنوبي للقلعة سوقاً بعشرين دكاناً، اعتبره معاصروه من أجمل الأسواق السورية. وقد أعيد بناؤه في القرن التالي إثر حريق نشب فيه ليصبح اسمه سوق الحميدية الذي لا يزال نراه حتى اليوم. وبنى قصر جديد ومبان عامة، وجددت بعض أضرحة الأولياء كضريح ابن عربي، وأصلحت الحصون والخزانات على طول طريق الحجاز.

(1) SHAMIR S.، المرجع نفسه، ص 208.

(2) المرجع الأخير، ص 209.

(3) VENTURE de PARADIS, B.N., mss. fr. nouv. acq. 9135, Notes diverses sur la Grèce, l'Archipel, l'Egypte et la Syrie, Feuillet 70.

(4) المرجع الأخير، 71 Feuillet.

في 16 نيسان 1783م توفي محمد باشا تاركاً الدمشقيين الذين كانوا يعتبرونه أفضل وال حكمهم في حالة حزن شديد. فدفن في مقبرة باب الصغير، وبرغم التقدير الجليل الذي كان يتمتع به عند الباب العالي صودرت أملاكه مباشرة مثل الولاية الذي سبقوه. وبعد وقت قصير عزل ابنه عبد الله باشا والي طرابلس من منصبه واعتقل. وما أن علم الجزائر نبأ وفاة محمد باشا حتى أرسل في الحال رسولاً إلى إسطنبول يذكر بأحقية في ولاية دمشق. ومع هذا لم ير الباب العالي أن الوقت قد حان بعد لزيادة قوة البوسني الطموح، وتذكر أبناء عثمان باشا الحاكم القديم الذي عُزل في عام 1771م، وعين ابنه البكر محمد باشا والياً على دمشق وابنه الثاني درويش باشا والياً على طرابلس. ولكن محمد توفي في 10 تموز بعد أقل من شهر من تسلمه وظيفته، فتجهز الجزائر واثقاً هذه المرة من بلوغ أهدافه لقيادة الحج، وبدأ بتعيين محتسبيه. ومرة أخرى، وبرغم دسائسه وعطاياه خاب أمله، وعُين درويش باشا والياً على دمشق، في حين مُنحت طرابلس لحسن باشا ابن عثمان باشا الثالث. وفي أقل من عامين خرب درويش باشا بعدم كفاءته كل ما حققه الحاكم الذي سبقه تقريباً، وعانى الناس من المجاعة، وأصبح سنجق حماة لقمة سائغة للبدو، وهوجمت قافلة الحج، وثُبتت الحصون المبنية على طول الطريق. وفي كانون الثاني 1785م عُزل من منصبه، فوضع رحيله حداً نهائياً لدور أسرته في الشؤون السورية.

خلق التهديد بحرب جديدة مع الروس في الشمال واجتياح الوهابيين في الجنوب ظروفاً ملائمة لعودة سلطة قوية إلى سورية. ففي 19 كانون الثاني حصل الجزائر أخيراً على ولاية دمشق، وخلفه مملوكه سليم على ولاية صيدا، وعين مملوكه سليمان على طرابلس. وهكذا وسع الجزائر سلطته على مجموع الأراضي السورية المركزية والجنوبية وكذلك على الجبال الساحلية مأوى المتمردين التقليدي، وهذا عمل قدره له الباب العالي كثيراً. منذ أن عُين البوسني الجسور لأول مرة في صيدا عام 1776م إلى أن مات في 23 نيسان 1804م بقي في السلطة مدة تزيد عن ربع قرن مسجلاً رقماً قياسياً في تاريخ سورية العثماني. كانت الشكاوى التي رفعت ضد إدارته في دمشق وراء نقله واستبداله بوال آخر ثلاث مرات. من بين هؤلاء الولاة أفراد من أسرة العظم مثل عبد الله باشا بن محمد الذي عُين ثلاث مرات والياً على دمشق بين 1795 و1808م، والذي يعود إليه الفضل في بناء مدرسة تحمل اسمه بنيت عام 1779 - 1780م مقابل خان الحرير، وبناء المدرسة العلمية الواقعة إلى الشرق من المدرسة السابقة.

إلا أن الجزائر نجح في كل مرة في العودة إلى منصبه، في عام 1790م وعام 1799م وآخر مرة في عام 1803م. أحييت سلطته التعسفية ذكرى أسوأ أوقات الحكم المملوكي. لقد كان جشعاً بلا حدود، وادعى لنفسه الحق في تملك كل المحاصيل، والاستيلاء على كل المزارع، والتحكم بمبيعات كل المنتجات ليكون السيد الذي يرفع أسعار البضائع المستوردة كما يحلو له. لقد كان جلاذاً شرساً ولم يكن لوحشيته مثيل. إذ يذكر فولني أنه بقر بنفسه في صور عام 1784م بطن عامل بضربة معول⁽¹⁾. وعند حصاره لبيروت دفن الأسرى الذين كانوا يقعون في يده أحياء تاركاً رؤوسهم فقط عرضة ليران العدو، كما رفع على الخازوق وذبح وأغرق وشطر وشنق أناساً، وقطع الأنوف والأيدي والآذان وأعضاء أخرى. لقد اعتبره رونودوت قنصل فرنسا في عكا "أكثر الطغاة وحشية ودموية وجشعاً"⁽²⁾.

في بداية القرن التاسع عشر تغيرت طبيعة العلاقة بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية؛ إذ توقفت فرنسا الثورة عن اتباع سياسة النظام السابق الودية وانتقلت إلى الهجوم. ففي نهاية حزيران 1798م بدأت فرنسا بتنفيذ المشروع الذي كان قد عرضه لسينز على الملك لويس الرابع عشر⁽³⁾، والذي كان قد نادى به البارون توت عام 1778م عند عودته من المشرق، فنزل جيش بقيادة الجنرال الشاب بوناپرت في الإسكندرية. لم يعد المقصود من هذا المشروع كما أراد نوانتل في نهاية القرن السابع عشر "تحرير النصرانية"⁽⁴⁾، فإيديولوجية العبيد لم تعد فرنسا القومية والعلمانية والمقاومة للإكليروس تبالي بها. لقد أخذت فرنسا تنادي - مسلحة بمفاهيم برعمت حديثاً عن "التطور" و "تحرير الشعوب" و "الحضارة" و "حقوق الإنسان" - بمثاليات عالمية تفرض نفسها بسموها طوعاً أو كرهاً وبكل الوسائل على كل العالم. إن مقدمة كتاب فوريه "وصف مصر" التي راجعها بوناپرت بنفسه - والتي تعد ملخصاً عن النفاق الأوروبي الذي سيستخدم من الآن فصاعداً للتمويه الإيديولوجي على كل المشاريع الاستعمارية - توضح أن المقصود هو "القضاء على التعسف المملوكي، وتوسيع شبكة الري والزراعة، وفتح اتصال مستمر بين منطقة البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي، وإنشاء مؤسسات تجارية، وتقديم مثال مفيد

(1) VOLNEY C.-F. (de) المرجع نفسه، الجزء 3، ص 103.

(2) ROUX F.C., Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe siècle, p 139, 1928 Paris.

(3) المرجع في الأعلى، ص 64.

(4) المرجع في الأعلى، ص 64.

إلى المشرق عن الصناعة الأوروبية، وأخيراً تهيئة ظروف معيشية أفضل للسكان ومنحهم إيجائيات حضارة صالحة⁽¹⁾. فكان هناك بالطبع كثير من الأشياء التي يجب عملها، إذ كما يذكر فولني أحضر بونايرت معه الإلياذة كما فعل الإسكندر، "ففي مصر مازال كل شيء كما كان في القرن العاشر"⁽²⁾.

إن الأهداف التجارية الجشعة لم تكن خافية تماماً خلافاً للمنافسة مع بريطانيا التي حرص على إخفائها، فإن الهدف أولاً هو الشروع بمهمة نزية ذات بعد حضاري ستكون من اختصاص فرنسا في القرن التالي في كل القارات. وبغية جعل السكان المحليين يتحمسون لهذه المهمة النبيلة قدم بونايرت الشعب الفرنسي الذي تخلص حديثاً من ملوكه "ماليكه" مثلاً جيداً يُقتدى به⁽³⁾، ودعاهم إلى مقاومة "طغيان" الأتراك و"القومية" العربية ينعشها مجد مصر القديم - الفراعنة - الذي عمل علماء الحملة الفرنسية جاهاً لينفضوا الرمال عنه. وحتى الإسلام الذي كان بونايرت ينظر إليه بعيني شيمن⁽⁴⁾ أُسْتُغِلَ كذلك، ولكي يُضعف نداء الجهاد الذي نادى به سلطان إسطنبول لمحاربة الفرنسيين الكفرة، حُرِضَ شريف مكة العربي على معارضته باعتباره من الذين يدعون أنهم من نسل النبي (ﷺ)، مما يعطيه الأحقية في الخلافة.

(1) LAURENS H., Le Royaume impossible, المملكة المستحيلة، باريس، 1990م، ص 16. بعض هذه الحجج استخدمتها الصهيونية حرفياً. Cf. infra، ص 130 - 132.

(2) VOLNEY C.-F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 223.

(3) المرجع السابق، ص 65. "يُقى البلاغ الشهير الذي توجه به بونايرت في الإسكندرية إلى الشعب المصري خير مثال: "منذ زمن طويل يحكم البكوات مصر ويشتمون الأمة الفرنسية ويضايقون تجارها: لقد حان الوقت لعقابهم. منذ زمن طويل وهذه العصابة من العبيد الذين جرى شراؤهم من القوقاز وجورجيا ييمنون على أجل جزء في العالم، لكن الرب الذي بيده الأمر كله، قضى بأن تنتهي هيمنتهم. يا شعب مصر، سيقال لكم: إني أتيت لأهدم دينكم: فلا تصدقوا هذا: وقولوا إني أتيت لأعبد الحق إلى صاحبه، وأعاقب الفاسدين، وإني أحترم أكثر من الممالك الله ونيبه والقرآن. (...) أيها القضاة والشيوخ والأئمة قولوا للشعب إننا أيضاً مسلمون حقيقيون (هكذا). ألسنا نحن من أباد فرسان مالطا لأن هؤلاء المجانين كانوا يعتقدون أن الله يريدهم أن يحاربوا المسلمين؟ ألسنا نحن من كان في كل زمان أصدقاء الرب العظيم (إن شاء الله) وأعداء أعدائه؟ أما الممالك، فعل العكس، ألم يتمردوا دائماً على سلطة الرب ولم يعترفوا به؟ فهم لم يعملوا إلا بما غلب عليهم نزواتهم. يا لسعادة من سيكونون معنا! إنهم سيزدادون ثروة وجاهاً. ويا لسعادة من سيكونون على الحياد إذ سيكون لديهم الوقت لمعرفةنا وسينضمون إلينا. ويا لبؤس الذين سيتسلحون للقتال مع الممالك ومحاربتنا. هؤلاء لا أمل لهم؛ إنهم سيهلكون وسيختفي أثرهم من الوجود". GOUIN E.، مصر في القرن التاسع عشر، باريس، P. Boizard، 1847م، ص 46 - 47.

(*) Chimène بطلة Cid كانت تعشق Prodrigue قاتل أبيها وتطالب برأسه في الوقت نفسه.

بعد أن مرت في سورية اللحظات الأولى من الذهول والقلق أمام التفوق الفرنسي العسكري، تشكلت المقاومة وعمل الجزائر جاهداً على تقوية حصون عكا، وجهاز المدن الأخرى للدفاع عن نفسها، ووضع حامية في يافا وأخرى في العريش برغم تبعيتها لمصر، ولكي يمنع تحالف النصارى مع الغازي طردهم من المدن الساحلية، حيث كانوا قد استقروا بأعداد كبيرة وقد جذبتهم إليها التجارة وأمنت لهم القنصليات الحماية. جرى جمع القوات ببطء في دمشق لطرد الفرنسيين من مصر، في حين استمر إبراهيم بك المملوك الذي هزمه بونايرت يراقب الوضع عن بعد على الحدود المصرية.

في 10 شباط 1799م بعد ستة أشهر من كارثة أبوقير البحرية غادر بونايرت القاهرة مقتنعاً بأن وجوده في سورية سيحرض ثورة على الطاغية الجزائر، وقاد جيشاً يتألف من اثني عشر ألف رجل ومقسماً إلى أربعة فيالق يقودها القادة رنيه وكلبر ولان وبون. كان مورا يرأس لواءً مكوناً من تسعمئة فارس، وكان دومارتان مسؤولاً عن المدافع التي جرتها الجمال، وكان كافارلي مسؤول سلاح الهندسة، والعميد البحري بريه يؤمن عن طريق البحر المدافع اللازمة للحصار وذخيرتها. كان بونايرت يرمي دون أدنى شك - كما أسرَّ إلى بورين مساء الثامن من أيار عند أسوار عكا - إلى الزحف على دمشق والعودة إلى فرنسا في حال فوزه عن طريق الأناضول والبلقان، وأن يقضي على إسطنبول في طريقه⁽¹⁾.

في 17 شباط أحتلت العريش دون أي صعوبة، واستسلمت غزة دون مقاومة، وفي 4 آذار ظهرت طليعة الجيش عند أسوار يافا⁽²⁾. وبعد ثلاثة أيام استطاع الجيش فتح ثغرة والتسلل إلى المدينة، وحصلت مذبحة مريعة: "تخضبت الشوارع بالدماء (...)"، واستمرت المذبحة والقصف ليلة كاملة. وكان الجنود في كل مرة يستولون فيها على غنيمة يندفعون من الأبواب إلى الخارج ليضعوها في مأمّن. لقد أخذوا الخيل والبغال، وحملوا على أكتافهم صناديق مليئة (...). وكانت نساء عاريات يركضن خائفات يتعثرن بالموتى، فيقفن بين الحين والآخر للتعرف عليهم⁽³⁾. في العاشر من آذار أعدم رمياً بالرصاص ويكل برودة أربعة آلاف سجين كان قد وعدهم الضباط الفرنسيون بالحفاظ على حياتهم،

(1) BOURRIENNE L. A. F. (de), Mémoires de M. de Bourienne sur Napoléon, le Directoire, p 243-244, Vol.2. 1829 Paris.

(2) BOURRIENNE L. A. F. (de), المرجع نفسه، ص 220.

(3) LOCKROY E., Ahmed le Boucher. La Syrie et l'Egypte au XVIIIe siècle (3) الثامن عشر، باريس، 1888م، ص 233.

وُدُبح آخرون بالسلاح الأبيض لقلعة الذخيرة⁽¹⁾. بعد أسبوع حاصر الجيش عكا حيث كان فليبو - وهو مهاجر فرنسي عمل في خدمة إنكلترا وزميل دراسة لبونابرت سابقاً - يعمل على تقوية استحكاماتها، في حين كان أسطول إنكليزي يبحر في عرض البحر بقيادة العميد البحري سيدني سميث. لم ينجح الحصار بسبب سوء التحضير، ونجح الدعم القادم من دمشق في الانضمام إلى معسكر المحاصرين، فسقطت المدفعية التي كان قد أرسلها العميد البحري بريه في أيدي الأسطول الإنكليزي ووضعت مباشرة فوق الأسوار. وتبنى الأمير الماروني بشير الثاني (1788 - 1840م) الذي كان بونابرت قد طلب منه المساعدة موقفاً حذراً محايداً خوفاً من انتقام الجزائر في حال فشل الفرنسيين.

لما كان معسكر المحاصرين في مأمن من قصف الأسطول الإنكليزي، فإنهم قاموا بحفر خندق، في حين ضاعف جينو وكلبرت حملاتهم الاستكشافية في الأراضي المحيطة. وطال الحصار برغم هزيمة جيش دمشق في 16 نيسان في معركة جبل ثابور. ولم يتوقف الجزائر عن تلقي الدعم⁽²⁾، ولم تتمكن المدافع ولا المتفجرات من التأثير بالأسوار. وبدأت الذخيرة والمؤن تنقص، والبليلة تنتشر في صفوف القوات، وكان الطاعون والتيفوس والزحار تقضي في كل يوم على ما يقارب خمسين جندياً، ومات ثلاثة قادة بون ورامبو وكافارلي. وفي 10 أيار توقف بونابرت عن القتال بعد فشل آخر هجوم، وقرر الانسحاب في 17 من الشهر نفسه. وبعد أن رمى في البحر الصناديق والمدافع وكل العتاد الذي لم يتمكن من حمله، توجه إلى قواته بادعائه الشهير معلناً أنه حقق أهدافه. وعاد ما تبقى من الجيش الفرنسي إلى مصر عن طريق البحر مثقلاً بالجرحى والمصابين بالتيفوس. سجل بورين رواية مذهلة فيما يتعلق بهذا الانسحاب: "كان الطريق مضاء بمشاعل أشعلت لإضرام النيران في المدن الصغيرة والقرى والحنطة التي لم تحصد بعد. كانت البلد تحترق، ويبدو أن الذين كانوا المسؤولين عن هذه الكوارث رغبوا في الانتقام لما أصابهم والتخفيف عن آلامهم. لم نكن محاطين إلا بالموتى والسارقين ومضرمي النيران (...). ومع أن السماء كانت صافية والشمس ساطعة إلا أن دخان الحرائق التي كنا نضرمها باستمرار قد حجب نورها. كان البحر على يميننا، وعلى يسارنا

(1) BOURRIENNE L. A. F. (de) p 222, Vol 2.

(2) كتب كليبر إلى بونابرت في رسالته في تاريخ 1 أيار: "تؤكد كل التقارير أن العدو قد استلم دعماً كبيراً في دمشق وأنه يتقدم"، KLEBER، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 470.

وخلفنا الصحراء التي صنعناها بأيدينا، وأماننا الحرمان والآلام"⁽¹⁾. وأجهز البدو والفلاحون على ما تبقى، وقتل إنكشاريو الجزائر مرضى المستشفيات في جبل الكرمل بلا شفقة. وفي بداية حزيران وصل الذين بقوا أحياء إلى القاهرة. وليلة 22 آب غادر بونابرت مصر في السر عائداً إلى فرنسا تاركاً جيشه تحت قيادة كليبر.

خرجت سورية من القرن الثامن عشر تنزف مما أصابها من الحرائق والمجازر. إضافة إلى ضعف الدولة عموماً والفقر الذي سببته الحروب الخارجية والطغيان والفساد وأحكام الإعدام والإهانات والتعسف بجميع أنواعه، جاءت الثورات الداخلية تزيد الطين بلة. قبل سياسة فرنسا في حرق الأراضي كانت منطقة سورية الساحلية قد خربتها الحروب المستمرة المضادة لظاهر وعلي بيك. في عام 1777م لاحظ فتور دو بارادي حال صيدا المحزن: "إن سكانها الذي يتراوح عددهم بين ثمانية وعشرة آلاف قد حرّمهم التعسف العثماني من كل مورد، باستثناء شخصين أو ثلاثة كانوا يتمتعون بثروة صغيرة، ويعيش الباقي في بؤس مدقع (...)"، هذه المدينة التي كان فيها فيما مضى اثنتا عشرة وكالة تجارية كبيرة تقلص عددها إلى خمس منذ عدة أعوام"⁽²⁾. في عكا وصفد "كان كل شيء يزوي منذ حملة محمد بيك (...)"، إذ غادر السكان ريفهم (...) وتفرق التجار"⁽³⁾، وخرب تعسف الجزائر "في أقل من ثلاث سنوات كل ما كان قد حققه الشيخ ظاهر بحكمه العادل"⁽⁴⁾. أما يافا "أكثر المدن السورية معاناة من الاضطراب. فقد دمرها حصاران عنيّان ومجزرة لألف وخمسمئة شخص أمر بقتلهم محمد بيك بعد أن استولى عليها في عام 1773م"⁽⁵⁾. وفي أقل من عشر سنوات بعد مرور فتور دو بارادي، لم يكن تقرير فولني أقل ثقلاً، إذ كتب: "فلسطين من أكثر البلاد السورية دماراً"⁽⁶⁾. والدّد لم تعد إلّا أكواخاً متداعية وأنقاضاً⁽⁷⁾، ويافا التي كانت قبل أن تكابد الحصارين من

(1) BOURRIENNE L. A. F. (de) الجزء 2، ص 250 - 251. KLEBER، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 479 - 480.

(2) VENTURE DE PARADIS، المرجع نفسه، الأوراق 65 - 70.

(3) المرجع الأخير، الورقة 78.

(4) المرجع الأخير، الورقة 66.

(5) المرجع الأخير، الورقة 78.

(6) VOLNEY C.F. (de) الجزء 3، ص 50.

(7) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 53.

أروع المدن الساحلية لم تعد شيئاً يُذكر⁽¹⁾، والرملة مدمرة مثل اللد ولا يمكننا أن نمشي فيها إلا عبر الأنقاض⁽²⁾، ولم تعد غزة سوى بلدة بلا دفاع يسكنها ما لا يزيد عن ألفي نسمة⁽³⁾. وكان الوضع في القاهرة أسوأ، فهي عاصمة المماليك سابقاً، و"يذهل الغريب الذي يأتيها من انتشار الدمار والبؤس ومنظر الناس المتزاحمين في الطرق بأثواب رثة بشعة وعري مقزز (...)، ولا يتكلم الناس إلا عن الاضطراب المدني، وينتشر البؤس وابتزاز الأموال والجلد والقتل (...). وحيث لا أمان على حياة الفرد وأملاكه (...). وحيث يراق دم الرجل كما يراق دم الثور"⁽⁴⁾. وعن عكا كتب القنصل الفرنسي رنودو عام 1787م: "البؤس شديد جداً؛ ويدعو هذا الحكومة إلى الحذر وحرق الجثث حتى لا يُرى الناس يزاحمون عليها الحيوانات آكلة اللحوم (...). عدد الوفيات فظيع جداً هذا الشتاء لدرجة أنني ظننت أن عكا ستخلو من البشر"⁽⁵⁾. ومع أن شمال سورية كان محمياً فإن بعض مدنه لم تنج من الانحطاط؛ إذ لم تعد حصص "إلا بلدة كبيرة مدمرة لا يوجد فيها ما يزيد عن ألفي ساكن"⁽⁶⁾. وكان وضع الفلاحين بائساً فقد أفلسوا بسبب جشع الباشاوات وعملائهم والربا والذل وانعدام الأمن. ففي كل مكان أصبحوا يكتفون بقطعة خبز صغيرة من الشعير وبالبصل والعسل والماء، وفي أوقات القحط كانوا يكتفون بجوز الصنوبر المغلي أو المشوي تحت الرماد⁽⁷⁾. وتسارعت هجرة الريف كما يشهد المسافر الإنكليزي و. ج. بروان الذي مكث في المشرق الأدنى في الثلث الأخير من القرن، إذ كتب: "هُجرت القرى منذ وقت لا بأس به، لدرجة أنه على سبيل المثال، من أصل ثلاثمئة قرية كانت تحيط بحلب قبل مئة عام لم يبق الآن سوى عشرة أو اثنتي عشرة على الأكثر"⁽⁸⁾.

إضافة إلى مصادرة الأملاك والضرائب الباهظة بدا غياب الأمن كابحاً رئيسياً للنشاط

(1) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 52.

(2) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 54.

(3) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 61.

(4) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 183.

(5) ROUX F.C.، المرجع نفسه، ص 134.

(6) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 18.

(7) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 130.

(8) BROWNE W.G.، Nouveau Voyage dans la haute et basse Egypte, la Syrie, le Dar Four، باريس، 1800، الجزء

2، ص 231. وأيضاً VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 127، والجزء 8، ص 271.

الاقتصادي، لأنه كما لاحظ أوهرسن في بداية القرن التاسع عشر: "كانت ممتلكات الموظفين تصادر عند موتهم، هذا إذا لم تصادر في حياتهم. وما من أحد يجروء على إظهار ثروته خوفاً من لفت أنظار الحكومة إليها، ولا يعرف الناس كيف يستثمرون أموالهم (أثناء السلام بسبب قلة رجال الشرطة والاستبداد المفرط وقطاع الطرق)، وأثناء الحرب لا يوفر الجنود ممتلكات المواطنين وينقضون عليها كما ينقضون على ممتلكات الأعداء، والفرد تحت رحمة عملاء السلطة في كل الأوقات"⁽¹⁾. وسقطت المؤسسة العسكرية بعد أن بدأ تدهورها منذ نهاية القرن السادس عشر⁽²⁾، وأصبحت في حالة من الانحلال "حتى لم يبق أي أثر للنظام القديم"⁽³⁾. ولم يعد الإنكشاريون "هؤلاء الجنود أصلاً سوى حرفيين وفلاحين جهلة كغيرهم، ولكنهم أقل طوعية"⁽⁴⁾. وكان الباشاوات بسبب إزعاج قوات الإمبراطورية العثمانية لهم ورغبتهم الملحة في امتلاك قوة مسلحة خاصة بهم، يجندون مرتزقة أجانب لا تربطهم بالبلد أي رابطة: يأتي أولاً الفرسان التركمان والأكراد "الذين بعد أن كانوا لصوص البلد (...) أصبحوا وبالأعلى الأرياف التي كانوا يعيشون فيها الفساد، وعلى الفلاحين الذين كانوا ينهبونهم"⁽⁵⁾، وثانياً المشاة المغاربة الذين كانوا يقومون بدور لا قيمة له، إذ كتب عنهم فولني مستهزئاً: "ليس هناك من هو أخف حركة من هؤلاء المشاة، إذ كانت تقتصر عددهم وحقاتهم على بندقية صدئة وسكين كبيرة وكيس جلدي وقميص قطني وسراويل وطاقيّة حمراء وأحياناً خف. يستلمون شهرياً راتباً قدره خمسمئة قرش ينفقون جزءاً منه على صيانة أسلحتهم وشراء ملابسهم (...)"⁽⁶⁾.

ولما كانت الرواتب لا تدفع بانتظام، كان الباشاوات يغضون أبصارهم عن رؤية ما يقوم به رجالهم⁽⁷⁾ الكثيرون من نهب وفوضى: ففي عام 1785م قدر فولني عدد الفرسان الذين كانوا تحت

(1) OHSSON I.M., Tableau général de l'Empire Ottoman, p 295 Vol 7, 1988-1824. Paris.

(2) المرجع في الأعلى، ص 40-41.

(3) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 267.

(4) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 267. عند وصوله لحلب، لاحظ فولني أنهم جميعاً في دكاكينهم عوضاً عن القلعة (الجزء 2، ص 273).

(5) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 269.

(6) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 269-270.

(7) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 271.

إمرة باشا دمشق بألف فارس وستمئة مغربي. ولم يكن هناك أمل يُرجى من الإدارة المركزية؛ بل على العكس فالشر الذي استمد جذوره من هناك لا دواء له: "استمر السلطان يعيش حياة دعة في قصره، وتقوم النساء والطواشي بتعيين من يرغبون في الوظائف، ويبيع الوزراء الولايات والمناصب، وينهب الباشاوات الرعية ويزيدون في فقر المقاطعات، وبقي الديوان متمسكاً بمبادئه في العجرفة وعدم التسامح، وبالغ الناس والجنود في تعصبهم ومطالبتهم بالحرب، كما استمر القادة في صنع الحروب بغباء وخسارة المعارك حتى انهار فجأة هذا الصرح غير المتهاك ليصبح حطاماً عند آخر هزة (...)"⁽¹⁾.

في وسط هذا التردّي الكبير كانت بعض المدن السورية تتمتع بازدهار نسبي: طرابلس واللاذقية وبيروت على الساحل، وحلب ودمشق في الداخل. كانت بيروت بلا نقاش أكبر المستفيدين من هذه الظروف؛ إذ بفضل إدارة الدروز الجيدة ومكاسب التجارة وصناعة الحرير والتجار الأوروبيين أصبحت "أكثر المدن الساحلية غنى وكثافة بالسكان (...)"، ومرفأً تجارية مزدهراً جداً⁽²⁾، هذا ما لاحظته فتور دو بارادي الذي رأى أسباب ازدهارها في "الحرية والهدوء اللذين يتمتع بهما الناس هناك"⁽³⁾ وكذلك في "روح التسامح التي تحلّ بها الدروز"⁽⁴⁾، كما أصبحت ميناء دمشق الرئيسي مستفيدة من تدهور الأوضاع في صيدا.

وبقيت حلب برغم الانحطاط النسبي الذي أصابها مدينة مزدهرة؛ فبعد أن كانت المدينة الأولى في المشرق في بداية القرن السابع عشر، لم تعد منذ عام 1715م - بسبب ما تعرضت له من ابتزاز وتعسف الباشاوات والنزاعات المستمرة بين الإمبراطورية العثمانية وبلاد فارس التي أثّرت سلباً على المبادلات التجارية بين الخليج والمنطقة السورية الشمالية - سوى المدينة الخامسة بعد سمرقند والإسكندرية وإسطنبول وصيدا. ولكن فولني الذي زارها في عام 1784م اعتبرها "مدينة تجارية مهمة"⁽⁵⁾. عند نهاية القرن الثامن عشر أصبحت حلب بفضل توقف الحرب التركية الفارسية، وتحسن الأوضاع الداخلية في إيران أثناء حكم كريم خان أكثر المراكز التجارية السورية نشاطاً قبل صيدا وعكا. كان للفرنسيين فيها

(1) VOLNEY C.F. (de), Considération sur la guerre des Turcs في Voyage en Egypte p 276-277 Vol 3.

(2) VENTURE DE PARADIS، المرجع نفسه، الورقة 81.

(3) المرجع الأخير، الورقة 81.

(4) المرجع الأخير، الورقة 81.

(5) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 274.

قنصلية وسبع وكالات تجارية، وللإنكليز والبنادقة وكالتان، وللفورنيتين والهولنديين وكالة واحدة، أما روسيا فقد فتحت فيها وكالة واحدة قبل حلول عام 1784م بوقت قصير⁽¹⁾. أحصى فتور دو بارادي في طرابلس عام 1777م خمسة مراكز تجارية فرنسية وواحدة إنكليزية⁽²⁾، وكتب فولني: إن تجارتها كانت "في أيدي الفرنسيين فقط"⁽³⁾. كانت فرنسا في الواقع تمتلك في مجموع المدن السورية ثمانين مركزاً⁽⁴⁾، وأصبحت في نهاية القرن الشريك الاقتصادي الأوروبي الأول في المشرق. كانت تصدر في الدرجة الأولى جوخ لانغدوك وشرانق دودة القز والسكر والحديد المصهور وصفائح الرصاص والقصدير وقهوة جزر الأنتيل، وكما يقول فولني "كان لهم حظوة عند الأتراك"⁽⁵⁾. وكانت تستورد القطن خيطاً كان أو نسيجاً، وحرير طرابلس وجوز العفصة وغير ذلك. ومع أن المبادلات التجارية مع المشرق كانت في تراجع شديد بسبب منافسة الطرق البحرية الكبيرة إلى الهند والعالم الجديد: ففي بداية القرن السابع عشر كانت تمثل نصف التجارة البحرية الفرنسية، وفي القرن التالي أصبحت تشكل نصف المبادلات التجارية لبناء مرسيليا فقط. وهكذا ومنذ 1727م لاحظ اليسوعيون أن التجارة في حلب ضعفت قليلاً "منذ أن وجد التجار (الأوروبيون) الوسيلة للذهاب إلى الهند عن طريق البحر"⁽⁶⁾.

زادت الامتيازات الأجنبية عام 1740م من مكاسبها وحمايتها للتجار الأوروبيين. ففي الوقت الذي كان يدفع فيه رعايا الباب العالي نسبة عشرة بالمئة للجمارك⁽⁷⁾، كان التجار الأوروبيون لا يدفعون

(1) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 275. للتذكير، كان للإنكليز في حلب تسعة مراكز تجارية في عام 1740. فيما يتعلق بتفوق التجارة الإنكليزية في حلب في بداية القرن انظر أيضاً إلى van Egmont، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 346 و Nouveau Mémoires de la compagnie de Jésus، ص 175. فيما يتعلق بالتجارة الإنكليزية والهولندية في حلب في نهاية القرن والتنافس الفرنسي انظر إلى POCOCKE R., Voyages de Richard Pococke en Orient، باريس، 1777-1773م، الجزء 3، ص 448.

(2) VENTURE DE PARADIS، المرجع نفسه، الورقة 84.

(3) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 297.

(4) VOLNEY C.F. (de)، Considération sur la guerre des Turcs، Voyage en Egypte، p 350 Vol 3.

(5) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 144.

(6) Nouveau Mémoire، p 175.

(7) VOLNEY C.F. (de)، Considération sur la guerre des Turcs، Voyage en Egypte، p 344 Vol 3.

إلا ثلاثة بالثمة، وكانوا يهيمنون كما لاحظ فولني "رغم أنف أهل المشرق"⁽¹⁾ على جزء كبير من النشاطات التجارية. كما كانوا باعتمادهم على النصارى المحليين فقط، وإعطاء الأولوية للمارونيين، يساهمون في زيادة غنى طبقة جديدة من أهل الذمة ورفع مستواها الاجتماعي. ففي 1777م لاحظ فتور دو بارادي أن الأوضاع التجارية الجيدة جذبت "نصارى سورية بأعداد كبيرة (إلى بيروت)"⁽²⁾. يذكر البارون تيلور أنه في النصف الأول من القرن التاسع عشر: "هيمن الفرنسيون واليونان والأرمن على كل التجارة في سورية تقريباً"⁽³⁾. إن هجرة هذه الطبقة الجديدة وما لازمها من تغير في طريقة التفكير بسبب احتكاك أوثق بأوروبا أدى إلى شرح ملحوظ في التوازن الاجتماعي بين أهل الذمة والمسلمين. سيكون هذا الشرح، إضافة إلى عوامل أخرى، وراء انفجار اضطراب خطير بين الطوائف الدينية في القرن التالي. كان اليهود يحتلون طبعاً المكانة الكبرى في عالم الأعمال كما لاحظ المسافر الفرنسي شارل دو سانت مور في عام 1721م، فحسب رأيه "لا يمكن المتاجرة مع سورية دون وساطة اليهود الذين كانوا تقريباً سادة الموقف"⁽⁴⁾.

أما دمشق فهي المدينة التي عبرت القرن بأقل خسارة. يعتبرها فتور دو بارادي مدينة مأهولة بالسكان وغنية جداً⁽⁵⁾، وكانت ولايتها كما يذكر فولني أقل ولايات سورية تضرراً، وذلك بفضل حسن إدارة حكامها من آل العظم وطول فترة ولايتهم⁽⁶⁾. وتبقى مدينة دمشق مدينة المتعة بكل معنى الكلمة؛ كتب عنها شارل دو سانت مور: "إنها أجمل وأغنى مدينة في الإمبراطورية"⁽⁷⁾، ويعتبرها فولني "أروع مدينة في تركيا"⁽⁸⁾، كما يعتبر أراضيها "أفضل الأراضي سقاية وأكثرها جمالاً"⁽⁹⁾، أما ريتشارد بوكوك فإنه يؤكد لنا بأنه قضى فيها أروع أيام حياته⁽¹⁾، ولكن في هذه اللوحة

(1) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 219.

(2) VENTURE DE PARADIS، المرجع نفسه، الورقة 81.

(3) TAYLOR I.J. S. La Syrie, la Palestine et la Judée, Pèlerinage Jérusalem et aux lieux saints, p 420, 1855 Paris.

(4) SAINT MAURE CH. (de)، المرجع نفسه، ص 172.

(5) VENTURE DE PARADIS، المرجع نفسه، الورقة 70.

(6) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 375.

(7) SAINT MAURE CH. (de)، المرجع نفسه، ص 71.

(8) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 391.

(9) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 390.

الجميلة بقعة سوداء تعيها وهي وضعها الصحي: فمياه بردى المبيضة والباردة تجعل الدمشقيين عرضة للإمساك، في حين يؤدي الإفراط في تناول الفاكهة وخاصة المشمش إلى إصابتهم بالحمى المتناوبة والحرارة في الصيف والخريف. هذا الاهتمام الذي أعاره المسافرون لدمشق كان ذا صلة بعلاقاتهم بها؛ فالإنكليزي ريتشارد بوكوك، وهو أفضل شاهد في زمنه على الإطلاق، خصص لها خمسين صفحة، في حين لم يخصص ل حلب سوى ثماني صفحات.

من بين كل المباني الأثرية كان الجامع الأموي، الذي يعتبره هؤلاء المسافرون كنيسة محرماً على النصارى دخولها، أكثرها إثارة للفضول⁽²⁾. من هذا المنطلق يُعتبر بوكوك الأول والوحيد الذي أبدى بوضوح فهماً حقيقياً للآثار. ومع أنه كان يخلط بين الشمال والشرق، وظن كثير من المسافرين غيره أن صندوق بيت المال هو جرن العباد، واعتبر مثل معاصريه والمسافرين من القرون السابقة أن الجامع الأموي ليس إلا كنيسة قديمة، فإنه أول من لاحظ أن بناء المبنى ككنيسة يعتبر فريداً من نوعه⁽³⁾، وهو الوحيد الذي ذكر مخطط الأماكن في الزمن البيزنطي⁽⁴⁾، والأهم من ذلك أنه أول من ذكر مستنداً إلى كتابات المؤرخين العرب أن "بعض الناس" يعتقدون أن الجامع قد بناه الخليفة الوليد⁽⁵⁾. وانتبه لوجود بقايا معبد النبع في الفيحة⁽⁶⁾، وكذلك آثار قناة "محفورة في الصخر على منحدر الجبل يقارب عرضها أربعة أقدام وارتفاعها أربعة أو خمسة"⁽⁷⁾. وقد لاحظ أيضاً أن "أسوار دمشق بنيت على أسس قديمة" لأنه، كما يقول، "يرى في الأسفل وفي أماكن عديدة حجارة ضخمة قد قُدت دون إتقان وبحس ذوقي مختلف عن البقية"⁽⁸⁾.

للمقاهي التي ازداد عددها كما ازدادت سعتها مكانة جيدة بين ما يميز المدينة. ذكر فان

(1) POCOCCKE R., Voyages de Richard Pococke en Orient, p 372 Vol 3, 1773-1777 Paris.

(2) VAN EGMONT J.A., المرجع نفسه، الجزء 2، ص 259، Nouveau Mémoire، ص 125.

(3) POCOCCKE R., المرجع نفسه، الجزء 3، ص 355.

(4) المرجع السابق، ص 357.

(5) المرجع السابق، ص 358. في الواقع، اعتبر جميع المراقبين الأوروبيين تقريباً حتى وقت قريب نسبياً - وهم مخطئون في ذلك -

الجامع الأموي كاتدرائية بيزنطية قديمة شوهها المسلمون - دون أن يعدلوا زخرفتها - بأمر من الخليفة الوليد في عام 705 م.

(6) نبع عين الفيحة ترفد مياهه بردى. الآثار التي ذكرها بوكوك هي آثار معبد من الزمن اليوناني الروماني.

(7) POCOCCKE R., المرجع نفسه، الجزء 3، ص 400.

(8) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 352. ما ذكره بوكوك فيما يتعلق بالاختلاف بين حجارة المقلع صحيح تماماً.

إغمونت عام 1721م مقهين، يقع الأول خارج الأسوار "قرب حمام الباشا"، وهو يستوعب ألف شخص بكل سهولة، ويتألف من قسم شتوي وآخر صيفي⁽¹⁾، ويقع الثاني خارج باب السلام، وهو "رائع جداً مبني على الطراز التركي" فوق الماء ومزود بشلالات جميلة، وقد أحاطت به الأشجار وأجمل أنواع النباتات⁽²⁾. وفي عام 1737م يذكر ريتشارد بوكوك بكثير من الوضوح تلييسات الجدران والسقوف والأعمدة والأرائك والأفنية ذات الأحواض التي تظللها الأشجار وتحيط بها المقاعد. ويذكر من هذه الأماكن التي لا يقل الواحد منها جمالاً عن الأخرى منشأة يشرب فيها الناس القهوة ويتذوقون فيها المثلجات، توجد واحدة منها على نهر بردى بالقرب من جزيرة مشجرة يجد فيها المرء كل وسائل الترفيه التي يجدها عادة في المدن الكبيرة، وخاصة الحفلات الموسيقية وسهرات الحكاواتي⁽³⁾.

إن لم تعد النشاطات الحرفية والتجارية تثير الدهشة كما كانت تفعل في السابق، فإن دمشق مازالت غنية بكل الأشياء⁽⁴⁾. إذ كثيراً ما يذكر جمال أسواقها المغطاة جيداً، والتي يناقض عرضها ضيق الشوارع المجاورة لها، وحرفيوها الذين "تجاوزت شهرتهم كل حرفيي الإمبراطورية التركية"⁽⁵⁾، وإن عانت بعض الحرف من تدن واضح⁽⁶⁾ مثل صناعة أنصال السيوف التي كانت تشتهر بها في السابق، فإنها مازالت تنتج "كميات كبيرة رفيعة الذوق" من الأقمشة الحريرية والقطنية، وكذلك الفاكهة المجففة والحلويات المنكهة بماء الورد والمشمش والدراق والخ...⁽⁷⁾.

يختلف المراقبون في تقدير عدد سكان دمشق. إذ يبالغ و.ج. بروان، ويقدر عددهم بمئتي ألف نسمة⁽⁸⁾، وفولني بأربعين ألفاً، منهم خمسة عشر ألف نصرانيّ ثلاثهم "منشقون"⁽¹⁾. ويقدر بوكوك

(1) VAN EGMONT J.A.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 249.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 249.

(3) POCOCKE R.، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 361.

(4) VAN EGMONT J.A.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 248.

(5) PERRY C.، المرجع نفسه، ص 137.

(6) FERRIERES-SAUVEBOEUF (Comte de), MEMOIRES HISTORIQUES? POLITIQUES ET GEOGRAPHIQUES, p 164 Vol 2. Paris, BROWNE W.G, p 240, Vol 2 .

(7) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 397.

(8) BROWNE W.G.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 230 - 231.

عدد النصارى بعشرين ألفاً: معظمهم من اليونان الأرثوذكس، وثمانية آلاف يوناني كاثوليكي - رقم يشهد على فاعلية الحملات التبشيرية - وألف ماروني، ومئتا دومينيكي، وما يقارب ثلاثين عائلة أرمنية⁽²⁾، وحسب أقوال بونا بريت هناك مئة ألف ساكن منهم ثمانية عشر ألف نصراني⁽³⁾. عموماً لم يكن المسافرون الأوروبيون يحترمون هؤلاء النصارى على الإطلاق. إذ كتب بوكوك: "أخلاقهم سيئة جداً، ويُقال إنهم يتصفون جميعاً برذائل الأتراك مع فارق وحيد هو أنهم أكثر خجلاً، ومعظمهم ليسوا نصارى إلاً بالاسم"⁽⁴⁾. ويضيف فولني: إن نصارى دمشق مشهورون بكونهم "أكثر ندالة وخداعاً من النصارى في أي مكان آخر"⁽⁵⁾.

أما المسلمون، وإن كانوا فخورين بأنفسهم إلى حد التكبر، يجد فولني فيهم شيئاً من الطيبة والإنسانية والعدل إضافة إلى عزم شديد وطبع حازم⁽⁶⁾. ولكنه يجد مسلمي دمشق أكثر تعصباً ووقاحة من غيرهم، كما أنهم يكرهون الفرنجة مثل سكان القاهرة، ولكي يبرهن على ذلك ذكر أنه لا يمكن الذهاب إلى دمشق بزي أوروبي، وأن التجار الفرنسيين لم يستطيعوا أن يؤسسوا لهم منشأة فيها، ولا نجد في دمشق سوى مبشرين فرنسيين وطبيب غير مصرح به⁽⁷⁾. ويرجع سبب هذا التعصب لأن المسلمين يعتبرون دمشق - باب الكعبة - مدينة مقدسة حقيقية⁽⁸⁾. وأخيراً يرسم ريتشارد بوكوك صورة لاذعة عن الدمشقيين، إذ كتب: "إنهم غارقون في الملذات، ويجدون سعادة كبيرة في الخمول.

(1) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 392.

(2) POCOCCO R.، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 367.

(3) KLEBER، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 455-456.

(4) POCOCCO R.، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 367.

(5) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 392. عموماً لم يكن المسافرون الأوروبيون يقدرون نصارى المشرق على الإطلاق. مع أن Greffin Affagart كان يمقت الإسلام فإنه كان يجد نصارى المشرق "أسوأ من الأتراك" وينصح من رغب في السفر إلى المشرق "بالاستعانة بنصراني على الإطلاق، بل بتركي أو مسلم لأنهم أكثر إخلاصاً من نصارى هذا البلد، كما أن تركياً واحداً أقدر على الدفاع عنك ودعمك من جميع نصارى هذا البلد". Greffin Affagart، المرجع نفسه، ص 214-219.

(6) المرجع الأخير، الجزء 3، ص 205.

(7) VOLNEY C.F. (de)، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 392-393. من المفيد أن نذكر هنا بأنه في القرن الثاني عشر لام الرحالة الأندلسي ابن جبير، وهو مسلم ملتزم، الدمشقيين لأنهم "كانوا يعتنون أهل الذمة بالكفار، وهذا أمر قد حرّمه عليهم الشريعة". (Voyages)، الجزء 2، ص 345.

(8) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 393.

وهم بالطبع نبهاء، ويتمتعون بجمال باهر في شبابهم، ولكنهم بسبب حرارة الجو والرذائل الغارقين فيها، وتعودهم على ارتياد الحمامات وإعفاء اللحى يصبحون بشعين في سن النضج⁽¹⁾.

سمح السلام والأمن النسبي للذنان عرفتهما دمشق في القرن الثامن عشر أثناء حكم أسرة العظم ببناء مبان جديدة: منها مدرسة وخان وحمامات وقصور ومنازل. ظهرت في القرن السادس عشر والسابع عشر وخاصة في سوق الخياطين مبان تجارية واسعة⁽²⁾. استمر هذا التوجه في القرن الثامن عشر وظهر عديدٌ من الخانات في الحي الواقع جنوب الجامع الأموي، وقد اتخذ هذا الحي في نهاية القرن شكله الذي مازال محتفظاً به حتى اليوم. ولكن في الوقت الذي كان لجميع المباني السابقة - باستثناء بدستان الذي بناه مراد باشا قبل 1608م⁽³⁾ - فناء مكشوف، ظهر نموذج جديد على الطراز العثماني يكون فيه الفناء المركزي مسقوفاً بقباب. لخان سليمان باشا المبني في عام 1732م قبتان، ولخان السفرجلانية المبني قبل 1757م ثلاث قباب، ولخان السدرانية المبني أيضاً قبل 1757م اثنتان، ولخان أسعد باشا المبني عام 1753م تسع قباب.

في عام 1736م اكتمل إنجاز بناء خان سليمان باشا الذي بدأت أعمال بنائه عام 1732م، وجرى تمويله من غرامة دفعها الأمير ملحم. بني الخان كاملاً بمداميك حجرية يتناوب فيها الأبيض والأسود، وهو يفتح من الجانب الجنوبي للشارع المستقيم بباب يعلوه نقش تأسيس ونافذتين صغيرتين لغرفة الحارس المبنية في الطابق الأول. وللخان إيوان مسقوف بقبوتين متقاطعتين، وقد التصق به من كل جانب درج ودكان يفضي إلى فناء مستطيل الشكل أبعاده 24/11 متراً تقريباً، ويتوسطه حوض كبير وتغطيه قبتان كبيرتان قائمتان على مثلثات كروية بين الأقواس - وهي منهارة اليوم - تحملها سبعة أقواس مدببة كبيرة. في الزاوية الشمالية الشرقية يؤدي رواق ذو قباب طولية إلى فناء صغير تحيط به المراحض والإسطبلات. توجد في الطابق الأرضي سبعة عشر دكاناً ذات قباب طولية وتفضي إلى الفناء بباب له ساكف تعلوه نافذة. يؤدي السلم الشرقي الوحيد المتبقي إلى دهليز صغير يوصل إلى مجموعة سكنية مكونة من خمس غرف، وممر يحيط بالطابق توجد تحته تسع عشرة غرفة بقباب طولية. في عام 1906م، كما هو مذكور في دليل سورية "بيدكير"، كان الحرير والسجاد الفارسي منتشرين

(1) POCOCCKE R. المرجع نفسه، الجزء 3، ص 369.

(2) المرجع الأخير، ص 47.

(3) المرجع الأخير، ص 51-52.

وخاصة في خان سليمان باشا⁽¹⁾. يستخدم الطابق الأرضي اليوم مخزناً للحبوب والقهوة وزيت الزيتون والقنب، في حين نجد في الطابق الأول ورشات خياطة ومكاتب استيراد وتصدير.

في سوق البزورية وفي موقع قيساريين وعدة منازل ودكاكين هدمت بني خان أسعد باشا بين شهري شباط وتشرين الثاني من عام 1753م. يعد هذا الخان أوسع بناء تجاري في المدينة، ومن أكثر مبانيها الأثرية شهرة، وموضع إعجاب لا ينقطع للمسافرين من مختلف الجنسيات. في عام 1878م كان القساطلي يعتبره أفضل خان من بين تسعة وثلاثين خاناً أحصاها في دمشق⁽²⁾. في عام 1816م أعطى المسافر الإنكليزي بوكنگام وصفاً تفصيلياً لخان لم يُسمَّه، ولكنه كما هو واضح جداً ليس إلا خان أسعد باشا⁽³⁾. وفي عام 1830م قارنه البارون تيلور بسوق القمح في باريس⁽⁴⁾. وفي عام 1833م أمام روعة هذا المبنى الذي اعتبره لامارتين "أجل خان في المشرق" أكد أن "شعباً بإمكان مهندسيه تصميم مثل هذا المبنى، ويستطيع عماله إنجازه (...)" لم تزل فيه بقية من فن⁽⁵⁾. وفي عام 1880م يذكر الدكتور لورته أن بضائع ثمينة كانت تخزن هناك، وكان المرء يشم فيها "روائح يصعب وصفها؛ خليط غريب من عطر الورد والمسك مع فوح المجاري"⁽⁶⁾. وفي عام 1924م ذكر عالم الآثار الألمانيان ولزنجر وواتزنجر بين هذه البضائع الثمينة السجاد والمعادن والتوابل والأقمشة⁽⁷⁾. وفي 1932م وفقاً للمستشرق الفرنسي جان سوفاجيه كان المبنى لا يزال يحتفظ بمتاعه القديم: موازين احتفظ اليوم بواحد منها نموذجاً في قصر العظم، ومنصات وأبواب وأقفال ومصاريع وإلخ⁽⁸⁾.

بُني خان أسعد باشا بمداميك من الحجر يتناوب فيها الأبيض والأسود، وهو مربع الشكل طول ضلعه يقارب خمسين متراً، ويتألف من أربعة أبنية تحيط بفناء يتوسطه حوض وتغطيه قباب

(1) Guide Baedeker, 1906, ص 300.

(2) القساطلي مؤلف كتاب موجز عن تاريخ دمشق منذ العصور القديمة وحتى القرن التاسع عشر.

(3) BUCKINGHAM J.S., Travels among the Arab Tribes, p 335, 1825 London.

(4) TAYLOR I.-J.-S., المرجع نفسه، ص 117. أحصى تيلور 31 خاناً في دمشق (ص 115).

(5) LAMARTINE, رحلة في المشرق، Voyage en Orient, 1832 - 1833م، باريس، 1856م، الجزء 2، ص 72.

(6) LORTET L.-C. (Dr.), La Syrie d'aujourd'hui. Voyages dans la Phénicie, le Liban et la Judée, p 587, 1880-1884. Paris.

(7) WULZINGER K., WATZINGER C., Die islamische Stadt (7) ليزينج، 1921م، الجزء 2، ص 85.

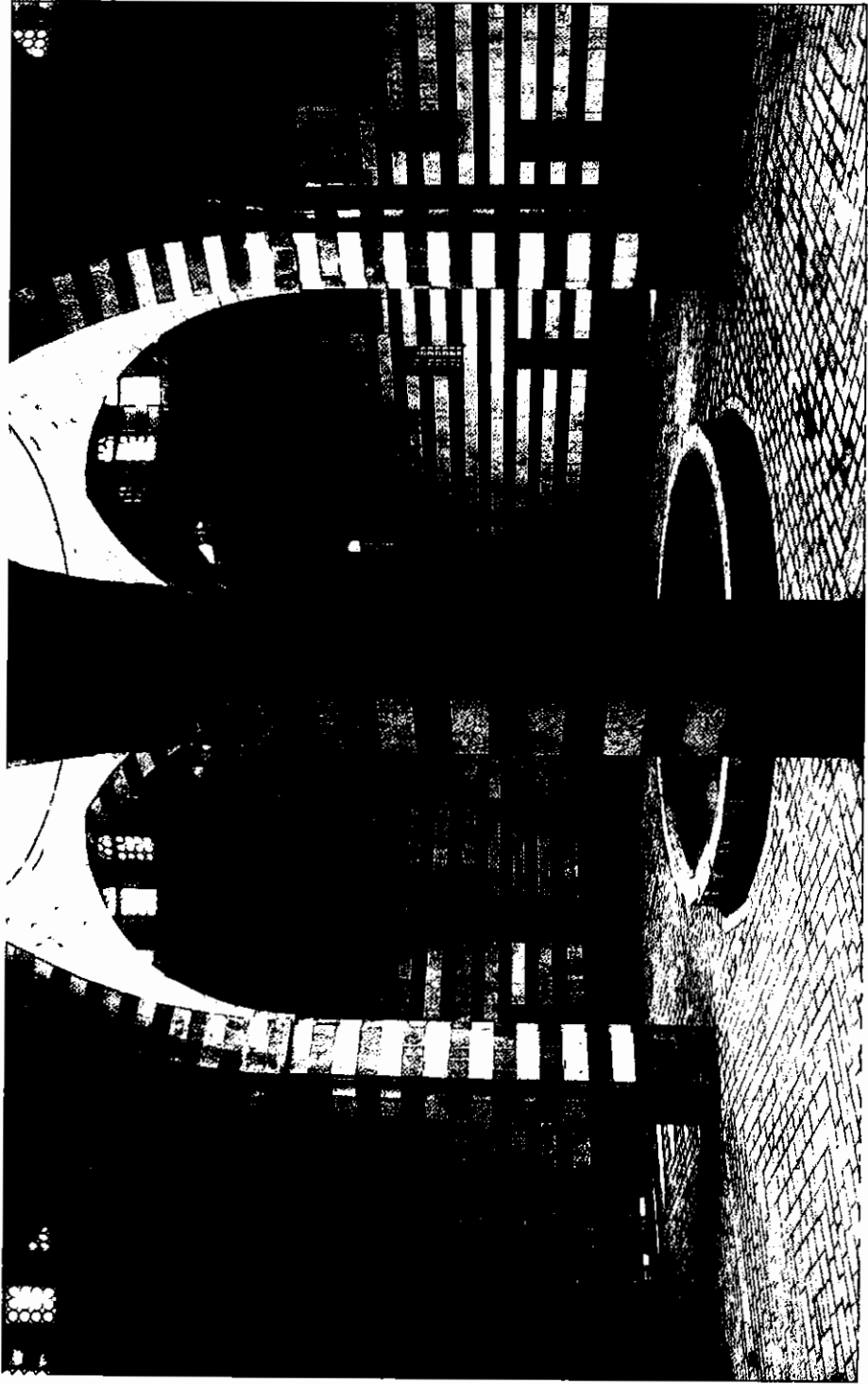
(8) SAUVAGET J., Les Monuments historique de Damas, Beyrouth, p 7, 1932.

محمولة على دعامات. بُنيت أربعة عشر دكاناً خارج الخان في الجانب الغربي بمحاذاة سوق البزورية، وسبعة عشر أخرى في الجانب الجنوبي بمحاذاة سوق الرز. البوابة المفتوحة في مركز الواجهة الغربية شديدة التميز، اعتبرها لامارتين "من أكثر الأعمال الهندسية غنى بالتفاصيل وأعظمها تأثيراً في العالم"⁽¹⁾. تحيط ثلاث أشرطة بالبوابة والشباكين الصغيرين المزدوجين اللذين يعلوانها؛ الأول مزخرف بالأربسك، والثاني بتشييكات زهرية تضم أشكالاً هندسية نجمية، والثالث مزخرف بتواءات فقط. كما تحيط بفرجة البوابة نتوءات تعلوها قوس مدببة ذات ثلاث حنيات تقوم من كل جانب على ثلاثة أعمدة صغيرة، وقد سقتها قبوة بخمسة صفوف من المقرنصات تنتهي بصدف. في فرجة البوابة وبين الدكتين الجانبيتين وتحت عقد مؤتور يوجد باب مؤلف من مصراعين خشبيين مكسوين بألواح حديدية مزينة بنجوم سداسية صغيرة منقوشة داخل مضلع سداسي الشكل. في المصراع الجنوبي باب نافذة يسمح بمرور المشاة فقط، وفي أعلى الباب لوح شبه دائري من الكلس الأبيض عليه كتابة تشير إلى تأسيس بناء.

تجانب غرف صغيرة متنوعة وبيتا درج دهليز المدخل المسقوف بقبوتين متقاطعتين ومزيتين بأشكال زهرية ونجمية وحلزونية، ويبلغ طوله زهاء عشرة أمتار. الفناء مربع طوله سبعة وعشرون متراً، وهو مبلط بالبازلت، ويتوسطه حوض مسدس مزدوج في وسطه بحرة رخامية لها نافورة. تقسم الفناء أربعة أعمدة متصالة إلى تسعة أقسام متساوية تغطي كلاً منها قبة ذات مثلثات كروية محمولة بأقواس مدببة قليلاً. في عام 1759 هدم الزلزالان الكبيران القباب الثلاث في الوسط وحطما عديداً من المباني، وقد استبدلت القباب "بسقف خشبي بلا فتحات مما جعل داخل البناء شديد العتمة"⁽²⁾. ولم تزل ست قباب قائمة حتى اليوم. هذه القباب من الأجر الأحمر كُجِل عند الملاط، تعلوها فوانيس تبلغ ذروة ارتفاعها اثنين وعشرين متراً، وتستند إلى مدقات لها ستة عشر وجهاً في كل منها شباك بتشييكات جصية وأشكال هندسية دائرية وعلى شكل معين. مازالت اثنتان من هذه القباب تحتفظ بتليستها الجصية المزخرفة بالنجوم والأشكال الزهرية والهندسية.

(1) LAMARTINE، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 72.

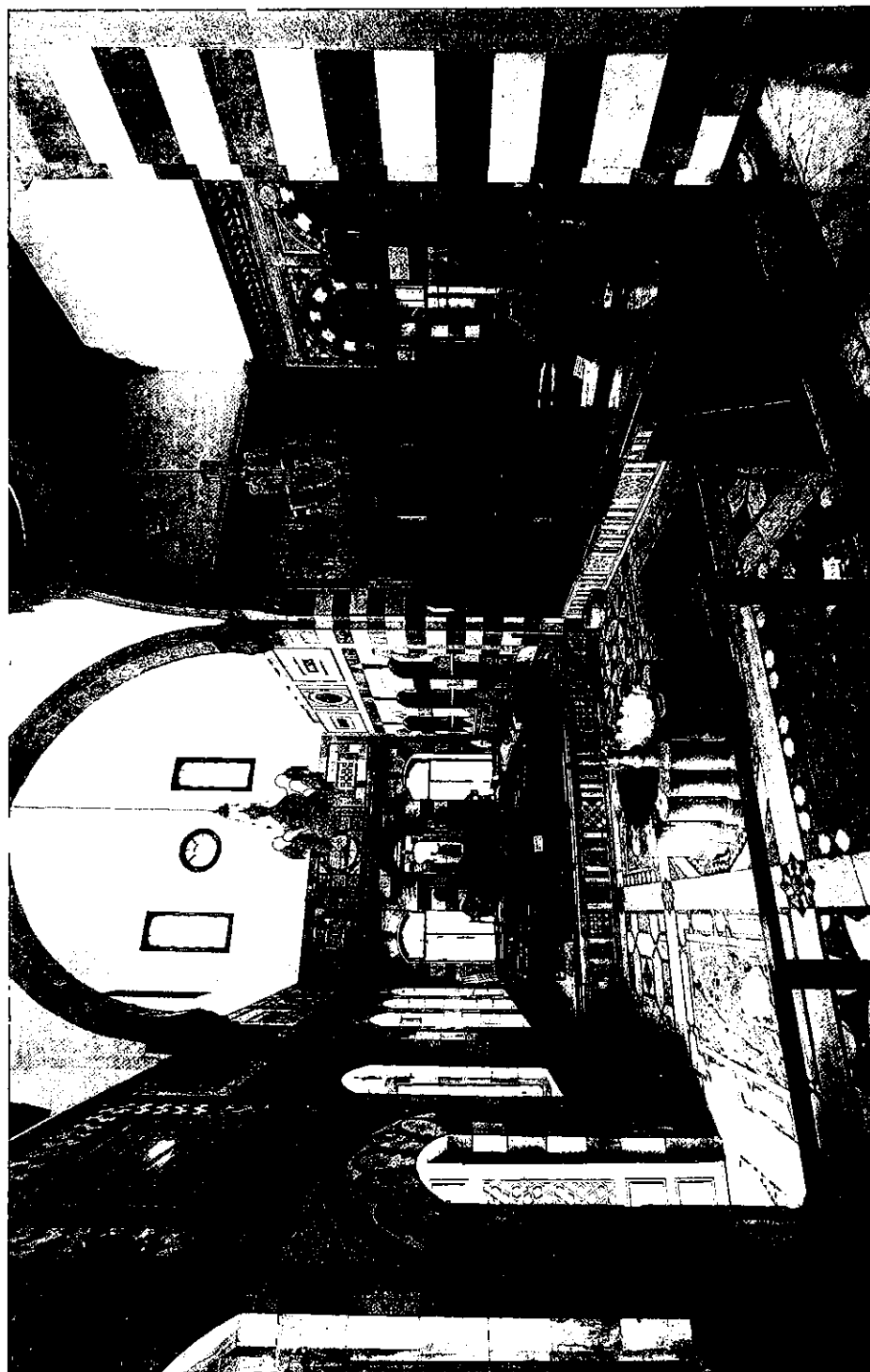
(2) BLONDEL E., Deux ans en Syrie et en Palestine (1838-1839), p 164, 1840.Paris.



خان أسعد باشا العظم



بوابۂ خان اسعد پاشا العظم



قصر أسعد باشا العظم

تفسي حجرات الطابق الأرضي إلى الفناء مباشرة عن طريق أبواب صغيرة من الخشب المنحوت تحت أقواس منخفضة بثلاث عقد. يرجح أن الجزء الأمامي من الحجرات المغطى بقبة مضلعة كانت تستخدم مكاتب، في حين كان الجزء الخلفي منها يستخدم مخزناً. يوجد في الجانب الغربي مسجد له باب يفضي إلى سوق البزورية، ويوجد تحت إيوانه قبران لفارسين مجهولين شهيدين كما يقول كبار السن في الحي⁽¹⁾. وبقي الجزء من الطابق العمودي على الضريحين المحترمين اللذين تُركا في مكانيهما عند بنائه غير مشغول. ويوجد في الجانب الشمالي ممر يؤدي إلى فناء صغير ومراحض وحوض وغرفتان صغيرتان. يوجد في الطابق الأول ممر مسقوف بقبوات مضلعة يحيط بالفناء ولا يتقطع إلا في الزاوية الشمالية الغربية. ويفضي هذا الممر إلى غرف مقببة جميعها بقناطر نصف إسطوانية وفي كل منها نافذتان، تطل إحداها على الممر والثانية على الخارج.

بني خان أسعد باشا وفقاً للطراز العثماني. وهو مبنى تجاري واسع لم يسبق له مثيل في دمشق ولا في سورية كلها. وهو لا يدل فقط على الازدهار الاقتصادي في دمشق في القرن الثامن عشر، بل يبدو أولاً صرحاً فخماً هدفه إظهار قوة مؤسسه من جهة، وتأمين موارد مهمة لعديد من الأوقاف التي وقفها لمصلحة أبنائه من جهة أخرى. وقد أستخدم لزمن ليس ببعيد مستودعاً لتجار - القنب والتوابل والأدوات المنزلية - بالجملة. في 5 نيسان 1973م صُنف، بطلب من إدارة الآثار، أثراً تاريخياً وأُخلي ممن يشغلونه. أرادت وزارة السياحة أن تجعل منه فندقاً دولياً، ولما كان المشروع غير واقعي ولا يمكن تنفيذه لكون الخان في حي داخل الأسوار - وهو حي مزدحم بالسكان وتجاري ولا يمكن للسيارات أن تصل إليه - تخلت وزارة السياحة حديثاً عن هذه الفكرة، إلا أن أعمال الترميم مستمرة ولكن ببطء شديد.

بعد حماما فتحي وقصر العظم من أكثر الأبنية التي حافظت على شكلها الأصلي بين حمامات القرن الثامن عشر. بني حمام فتحي عام 1745م في الجانب الغربي للشارع الرئيسي في حي الميدان بأمر من الدفتردار الشهير الفلقسي. وهو من الحمامات القليلة في دمشق المزودة بواجهة ضخمة. بنيت هذه الواجهة بمداميك حجرية متعددة الألوان وفقاً للطراز المملوكي، وقد اخترقها في المركز أربع نوافذ ذات قضبان قد التصقت بنقبين كبيرين ذات أقواس ثلاثية الفصوص، في النقب الشمالي باب

(1) يحيى، المرجع نفسه، ص 427.

المدخل وفي النقب الجنوبي سبيل. لم يطرأ على مخطط الحمام - وهو نموذج عن الحمامات العامة في القرن الثامن عشر حيث أصبحت الغرفة الحارة مسيطرة - أي تغيير لاحق. وأصبحت الغرفة الباردة أكبر نسبياً من الحمامات السابقة ومؤلفة من قسم مركزي مسقوف بقبة ومصطبتين، مصطبة في الشمال وأخرى في الجنوب، سُقفتا بقبوات على شكل قبة مطران، وتفتح في طرفيها الصغيرين على مقصورة. لم يعد حمام فتحي يستخدم حماماً، فبعد أن استخدم مدة طويلة مستودعاً للحبوب أصبح يُستخدم اليوم مستودعاً للبضائع.

إضافة إلى الخانات والمدارس والحمامات احتفظ لنا القرن الثامن عشر بأكثر البيوت قدماً. إذ لم يبق في الواقع من بيوت العهد المملوكي والقرون الأولى للحكم العثماني إلا بقايا جدران، أو إطارات أبواب أو نوافذ. حسب التقاليد القديمة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى التي فرضها الطقوس، اتجهت البيوت إلى الداخل، بحيث تفتح جميع الغرف على فناء داخلي. إن تباين المظهر المتكشف بل الفقير لواجهات البيوت مع الغنى الداخلي ذكره المسافرون كثيراً من المرات. فلقد كتب دارفيو عام 1660م: "بنيت معظم البيوت من الطين، وهي تبدو من الخارج غير لافتة للنظر، ولكن داخلها شيء آخر. فالغرف كبيرة وجيدة الترتيب، وهي نظيفة وجميلة الأثاث ومطلية وقد دهنت سقوفها حسب طراز البلد؛ واستخدم فيها الذهب واللون الأزرق اللازوردي. من النادر ألا يوجد في هذه المنازل نافورة ماء للزينة والترفيه"⁽¹⁾. هذا التباين حرص عديداً من المسافرين على ذكره بجمال معبرة، إذ كتب موريتز بوش عنه: "نواة من الذهب داخل صدفة من الصلصال"⁽²⁾، وقال لامارتين: "كوخ من الخارج وقصر رائع من الداخل"⁽³⁾. أما

(1) Mémoires, ARVIEUX L., ... الجزء 2، ص 447. و "Mémoires sur la ville de Damas" في Nouveau Mémoires des missions de la Compagnie de Jésus dans le Levant، VOLNEY C.F. (de)، 123، ص 391، الجزء 2، ص 391، POCOCCO R.، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 351، (le P.)، ROGER E.، المرجع نفسه، ص 194، Le، STOCHOVE Ch. V.، Voyage d'Italie et du Levant، روان، 1664م، ص 315، MAUNDRELL H.، المرجع نفسه، ص 210-211. قد كتب سابقاً عام 1504م المسافر الإيطالي Ludovico di Varthema: "هذه البيوت بشعة جداً من الخارج، ولكنها من الداخل جميلة جداً ومزينة بأعمال فنية رخامية جميلة جداً". Les Voyages، ...، باريس، 1888م، ص 15.

(2) BUSCH M.، L'Orient pittoresque، تريستا، 1865م، ص 88.

(3) LAMARTINE، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 57.

فيكتور غيران فقد قابل طين وبؤس الخارج برخاء وبذخ لا مثيل لها في الداخل⁽¹⁾.

في الواقع من النادر أن يسمح جدار الطابق الأرضي المبني بمداميك من الحجر ليقاوم الرطوبة - تكون الحجارة عادة ملساء بلا زخارف - بتميز الحد الفاصل بين الوحدتين السكنيتين المتجاورتين. يخترق الجدار باب وحيد، ونوافذ تكون عادة مقصليّة^(*) لكونها جميعها في الطابق العلوي. يبنى الطابق العلوي المغطى بسطح بارز عند الواجهة لينشر الظل والبرودة على الطريق، بألواح خشبية متفرقة من صفصاف الغوطة يملأ فراغها الآجر ويغطي كل هذا طبقة من الطين الممزوج بالقش. هذا المظهر الريفي للبيوت لم يكن يروق لكثير من المسافرين، كتب موندرك عام 1696م: "كانت جدران المنازل الخارجية مكونة من الآجر المجفف في الشمس، أو نوع من الطين، وقد بنيت بلا إتقان كما في القرى البشعة. لهذا النوع من الأبنية العديد من السليبات، ومن بينها ما يسببه هطول الأمطار من تخريب لهذه الجبلية وتغطية الشوارع بالوحل"⁽²⁾.

خلافًا للمساكن في القاهرة المتميزة بارتفاعها وكثافتها، فإن المساكن الدمشقية أفقية تلتف حول فناءات داخلية تشغل ما بين 25 و48 بالمئة من مساحة المسكن. يعد الفناء عنصراً مركزياً في حياة العائلة، ووظيفته الأولية هي التأقلم مع تقلبات الطقس، ففي الصيف يخترن الفناء برودة الليل ليلطف حر النهار، وفي الشتاء يسهل عملية تدفئة الغرف الواقعة في الجانب الشمالي منه. وتساعد النباتات الفناء في وظيفته بظلالها والرطوبة التي تنتجها، وكذلك الماء المتوفر دائماً الذي يخفف تبخره في الصيف درجات الحرارة المرتفعة؛ إذ يتوسط الفناء دائماً حوض كبير يعرف في دمشق باسم البحرة، ويكون في الجهة المقابل للإيوان.

في المخطط النموذجي، يكون الجانب الجنوبي للفناء مشغولاً في وسطه بإيوان فسيح يُرقيا إليه بدرجتين وتعلوه عادة قبوة، ويفضي إلى الفناء باتساع شاملاً ليكون دائماً في الظل، ويحتفظ بالبرودة قدر المستطاع. تحم هذا الإيوان غرفتان؛ تسمى الأولى القاعة، وتكون عادة غنية بالزخرفة، أما الثانية فيمكن عادة الوصول إليها عن طريق دهليز المدخل، وهي مخصصة في الأسر المسلمة لاستقبال

(1) GUERIN V., La Terre Sainte, باريس، 1882م، ص414.

(*) نافذة مقصليّة هي نافذة يتحرك مصراعها صعوداً أو نزولاً.

(2) MAUNDRELL H., المرجع نفسه، ص209-210.

الضيوف الرجال. يستخدم الجانب الجنوبي المحمي من الشمس في أيام الحر في فصل الصيف، وتشغل الجانب الشمالي صالات استقبال متنوعة من بينها صالة الشتاء. تكون هذه الصالة غالباً مرتفعة بعض الشيء فوق طابق تحت الأرض يستخدم كقبو، وتتألف من جزء منخفض هو "العتبة" منفصل عن جزء مرتفع هو "المصطبة" بدرابزين من الرخام أو من خشب السدر. يتوسط العتبة فسقية وهي نافورة ماء صغيرة للزينة، وقد كانت العتبة المكان الذي يمكث فيه الخدم والعبيد وحيث ينزع المرء حذاءه قبل أن يصعد إلى المصطبة المحاطة بجوانبها الثلاث بالوسائد والكراسي والأرائك المتنوعة. الجانبان الشرقي والغربي من المنزل فيها غرف لاستخدام الخدم: المطبخ والحمام متجاوران في أغلب الأحيان لتسهيل وصول الماء إليهما، وغرف تستخدم كمكتبة أو مكتب تتصل بالمدخل أو الدرج غالباً. في الطابق العلوي الذي يمكن الوصول إلى غرفه عن طريق رواق مفتوح يطل على الفناء، توجد غرف النوم وغرف الاستقبال. تستخدم الغرف الموجودة في الجانب الشمالي في الشتاء والموجودة في الجانب الجنوبي في الصيف. عموماً تنتقل الحياة في المنزل إلى الجانب الشمالي من الطابق العلوي أثناء فصل الشتاء لكونه أكثر تعرضاً لأشعة الشمس وسهولة تدفئته.

على هذا المخطط الأساسي تطرأ تغيرات متنوعة يتدخل فيها غنى الأسرة وديانتها. إذ لا تملك البيوت المتواضعة التي لا تزيد مساحتها عن مئة متر مربع إلا فناء واحداً صغيراً نسبياً قد لا يكون مزوداً ببحرة، ومحاطاً بغرف من جهة واحدة أو اثنتين فقط، وفي الجهات الأخرى جدران تفصل الفناء إما عن الحارات أو عن المنازل المجاورة. أما بيوت الأغنياء فمساحتها ألف ومئة متر مربع وسطياً، فيها جناحان أو ثلاثة موصولة بعضها ببعض. في البيت المسلم يحدد الفصل الحازم بين الحياة العامة والحياة العائلية وظيفة محددة لكل جناح. الجناح الأكبر الحرم ملك مخصص للنساء والعائلة، والجناح الأصغر مرتبط غالباً مباشرة بالحرم ملك، ويؤدي إلى غرف لاستخدام الخدم: مطبخ وحمام ومخازن وغرف نوم الخدم. أما الجناح الثالث، وهو سلامك، مخصص للضيوف ومزود عادة بحمامات وبئر ومطبخ صغير حيث يحضر الشاي والقهوة والمثلجات. هذا الفصل الواضح بين الأقسام الخاصة والعامة يبدو واضحاً جداً من خلال ترتيب المداخل. ففي الوقت الذي يفضي السلامك إلى المدخل مباشرة، فلا يمكن الوصول إلى الحرم ملك إلا عن طريق ممر مكويع - يحل محله أحياناً ستار أو حاجز - يمنع من تسلل نظرات المارة - وإن كانت غير مقصودة - إلى حياة المنزل الخاصة. فضلاً عن أن أبواب المنازل في نفس الحارة لا تكون أبداً متقابلة وإنما متناوبة، فقد حُرِّم

الطابق الأرضي من النوافذ إلا في بيوت اليهود والنصارى، إذ بدأت تظهر النوافذ في طابقها الأرضي منذ منتصف القرن التاسع عشر. يقوم الطابق السفلي في البيت المسلم الذي له فناء أو جناح واحد بدور السلامك، والطابق العلوي بدور الحرمك.

إذا كانت بيوت اليهود لا تختلف كثيراً عن بيوت المسلمين عموماً⁽¹⁾، باستثناء الإيوان الجنوبي الذي تحول فيها إلى مكان للعبادة، فإن بيوت النصارى تختلف عنها بعض الشيء، ففيها فناء واحد واسع جداً يفضي مباشرة إلى الحارة، ويؤدي وظيفة الحرمك والسلامك في آن واحد. إضافة إلى أن هذا الفناء يكون غالباً مزوداً في جانبه الغربي بإيوان ثان يسبقه أحياناً رواق يحميه من أشعة شمس الصباح.

مازال عديد من بيوت القرن الثامن عشر قائماً حتى اليوم ومنتشراً في كل أحياء المدينة. في أحياء المسلمين نذكر بيت أحمد السباعي الذي يعود تاريخ بنائه كما تدل الكتابة المنقوشة عليه إلى 1769 - 1770 و 1773 - 1774م، وبيت النابلسي إلى 1780م، وبيت القوتلي إلى 1797م، وبيت عبد القادر الجزائري الذي يعود تاريخ بناء أكثر أقسامه قديماً إلى نهاية القرن الثامن عشر، وبيت السفرجلاني. ونذكر في حي النصارى بيت أنطون فرنجي، وفي حي اليهود بيت ليسبونا وبيت دحداح ومعلم اللذين بناهما الثري فرحي. يذكر دومنيكو باديا إيليلش وهو مسافر إسباني تمكن من التنكر على هيئة مسلم باسم علي بيك أنه في عام 1807م كانت دمشق تحتوي أكثر من خمسمئة بيت رائع وكبير يمكن أن يطلق عليها اسم قصور⁽²⁾.

يعد قصر أسعد باشا العظم أشهر المنازل وأفخرها في القرن الثامن عشر. اكتمل بناؤه عام 1749م جنوب الجامع الأموي وفي مكان منزل الخليفة معاوية سابقاً⁽³⁾. سُخِّرَت لبنائه إمكانيات هائلة، ففُتِرَ له خلال عدة أشهر كل عمال وحر في دمشق، وهُدمت أسواق ليعاد استخدام حجارتها وأخشابها، وفككت مبانٍ أثرية في حوران، ونُقلت أعمدة قديمة من درعا وبصرى إلى

(1) لاحظ Pierre Loti هذا التشابه بين بيوت المسلمين والنصارى في كتابه La Galilée، باريس، 1924م، ص 146.

(2) BADIA Y LEYBLICH D., Travels of Ali Bey in Morocco, Tripoli, Cyprus, Egypte, Arabia, Syria and Turkey

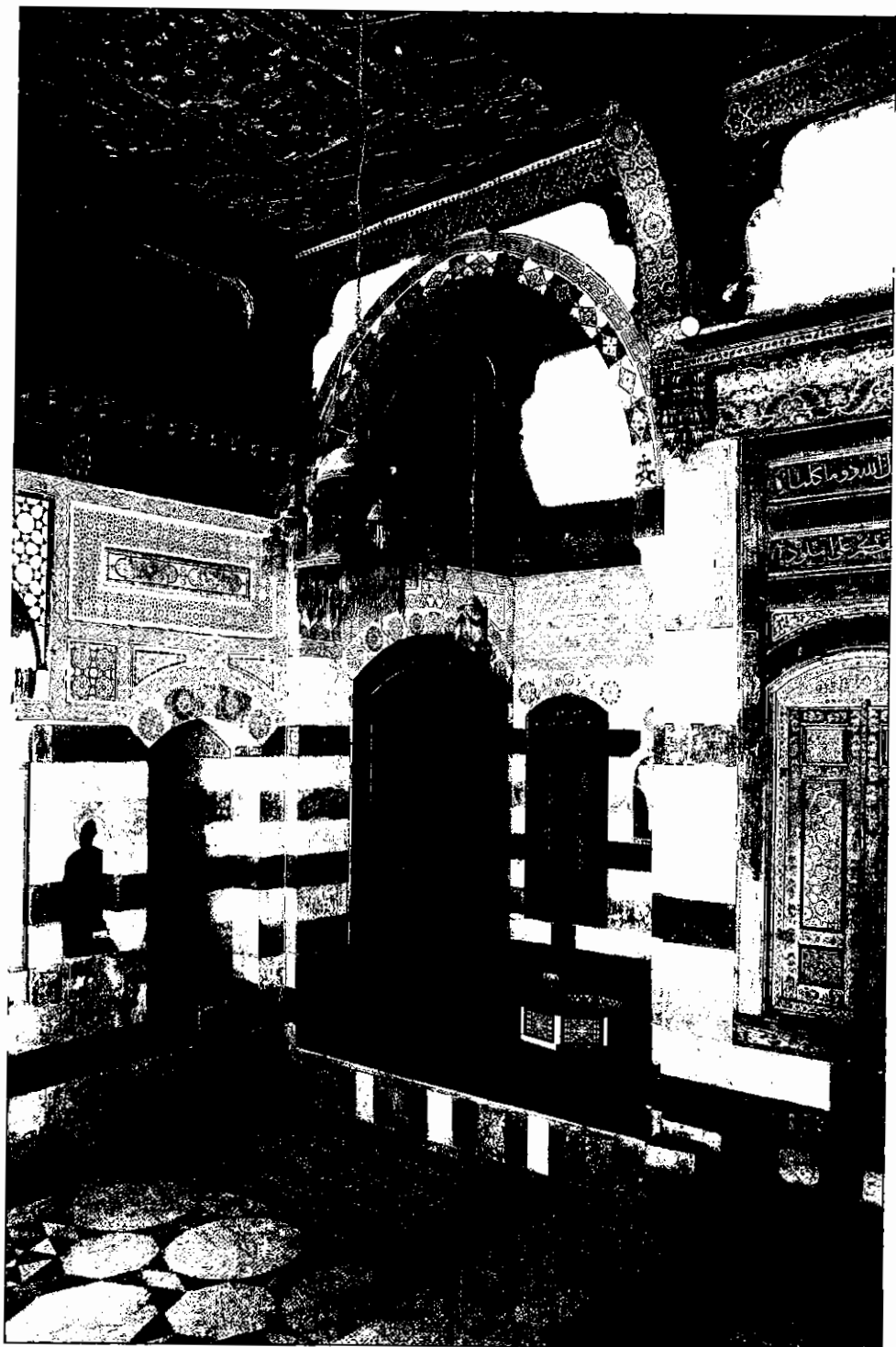
between the year 1809 and 1809...، لندن، 1816م، الجزء 2، ص 272. الرقم الذي زدنا به باديا يسمح بتكوين فكرة عن

ضخامة التخریب الذي حصل في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

(3) معاوية مؤسس الحكم الأموي وقد حكم دمشق التي اتخذها عاصمة له من عام 660 إلى 680م. وفي الموقع نفسه بنى الحاكم المملوكي تنكز من قبل منزله الشهير "بيت الذهب" في بداية القرن الرابع عشر.



بيت السباعي



بيت السباعي

دمشق على عربات تجرها الثيران، وحُوِّل مجرى مياه نهر بانياس لاستخراج ألواح حجرية، فعانى المقيمون عند ضفة النهر من نقص الماء مدة عشرة أيام. ولم يعد يجد المرء بناءً ولا نجاراً ولا خشباً ولا مسهاراً ولا حجراً إلخ... بل وصل الأمر إلى منع الحمامات من بيع رمادها لأنه يستخدم في صناعة الملاط. وقد جاب أسعد باشا بنفسه المدينة بحثاً عن المواد الثمينة فصادر أشجار السرو والأحواض وألواح الرخام والحجارة البازلتية والأخشاب إلخ... وجرت أعمال البناء بسرعة كبيرة. واستطاع أسعد باشا أن ينقل نساءه إلى جناح النساء قبل ثلاثة أيام من سفره للقيام بحجته الثامنة. وعند عودته كانت كل أعمال البناء قد أنجزت، فأقيمت حفلات كبيرة لهذه المناسبة التي خلدها كتابة نقشت على الخشب: "إنه منزل هناء باسمٍ مشرق، بني بمشيئة الله العلي القدير. تشرق شمس السمو في سمائه ولا مثيل له. السعادة تقطنه إلى الأبد (...) والمجد خادمه (...) والقوة تلازمه" (1).

عُدَّ المخطط قليلاً أثناء الإصلاحات التي أجريت عليه منذ قرنين، ويعد المخطط مطابقاً بكل تفاصيله لمخططات منازل المسلمين في ذلك الزمن. يفضي المنزل إلى الشارع عن طريق ممر مكوع، ويضم السلامك عدة صالات استقبال وإيواناً يحيط بفناء مزروع بأشجار البرتقال، ويتوسطه حوض مستطيل يزوده بالبرودة والانتعاش. أصبح هذا الجزء من المبنى الذي جُدد عام 1830م على طراز الأسلوب المحاري (*) الغني جداً بالزخرفة مسكن المندوب السامي في بداية الانتداب الفرنسي. يخرج من السلامك ممر مكوع يُغلق بثلاثة أبواب متتابعة، ثم يفضي إلى الحرمك، وهو أكبر الأجنحة في القصر وأغناها تدور فيه الحياة العائلية، وهو منزل الباشا ونسائه. رُصف الفناء بحجارة متنوعة الألوان، وزُين في مركزه بحديقة من شجر البرتقال والليمون والياسمين والريحان الشامي. يحده من الشرق حوض مستطيل كبير، ومن الغرب حوض صغير مصلح. يحمي غرف الجهة الشمالية من أوار الشمس رواق حملت أقواسه الخمسة المدببة أعمدة قديمة أعيد نحتها ورؤوس أعمدة استخدمت من قبل. يوجد في الجانب الجنوبي إيوان كبير يطل على الحوض المستطيل، في حين توجد القاعة بالقرب من المدخل، وهي صالة فخمة فيها كثير من الأبهة والبذخ. هذه القاعة مرتفعة قليلاً، ويؤدي إليها درج خارجي ذو دورتين، وهي مؤلفة من أربعة أجزاء على شكل حرف T: يتوسط

(1) LOREY E. (de), SAUVAGET J., "Le Palais 'Azm à Damas", La Revue de Paris في آذار - نيسان 1926م، ص 444.

(*) الأسلوب المحاري أسلوب معماري شاع في فرنسا في عهد لويس الخامس عشر تميز بخطوط ملتوية تشبه أشكال المحارة والصدف.

الجزء المنخفض حوض مزود بنافورة ماء، والأجزاء الثلاثة الأخرى عالية وتفتح بثلاثة أقواس كبيرة ومدببة مبنية من الرخام الأسود والأبيض متدلّية فوق أفاريز مقرنصة. تأثرت زخرفة القصر بالأسلوب المملوكي وهي متقنة جداً. بنيت الواجهة بمداميك حجرية متعددة الألوان يتناوب فيها الأبيض والأسود والأحمر الآجري. يعلو الباب نقش تذكاري يخلد ذكرى تأسيس القصر في عام 1749م، وتحيط به زخرفة من الرخام والفسيفساء والصدف. يتألف الحوض من ثمانين نصف أسطوانة من الرخام الأسود والأبيض والأحمر متجاورة. الجدران مؤزرة حتى نصفها بالرخام الملون ويعلوها إفريز خشبي مشكلاً تتجاويف مزينة بياقة زهور مرسومة. اشتعلت النيران في القاعة أثناء الأحداث التي هزت دمشق عام 1925م، فأعيد بناؤها كاملاً عام 1934م.

يضم الحرمك إضافة إلى مجموعة من الغرف الصغيرة المتشابهة المطلّة على الفناء، جزءاً منخفضاً مزوداً بنافورة ماء ترطبه وجزءاً مرتفعاً بمقدار ثلاثين سنتيمتراً. كسيت الجدران حتى منتصفها بألواح خشبية مزينة برسوم بارزة وموشاة بخيوط ذهبية رفيعة، في حين تتخلل الجزء العلوي للجدران نوافذ جصية مخرمة ومعشقة بالزجاج الملون. السقوف فخمة وغنية جداً بالزخارف: عوارض مدهونة برسوم زهرية، وتشبيكات هندسية ناتئة، وتجاويف مثمّنة الأضلاع، والخ... يتألّق في بعض المواضع كما في واجهة أقواس الباب عنصر جديد من عناصر الزخرفة الدمشقية ينقش فيها عادة باقة من الزهور ثم تملأ بنوع خاص من الملائم الملون.

في عام 1922م اشترت الحكومة الفرنسية قصر العظم من الورثة الذين بلغ عددهم ثمانية وستين، وأقامت فيه المعهد الفرنسي للآثار والفن الإسلامي.

مات الجزائر في عكا في 23 نيسان عام 1804م بعد وقت قصير من توليته على دمشق للمرة الثالثة. عمل بشير الثاني (1788 - 1840م) بعد أن ارتاح من سيده بكل ما أوتي من حزم على تقليص سلطة الأسر الإقطاعية الكبيرة، ودعم موقعه في الجبال اللبنانية، وفي عام 1806م بنى على هضبة بيت الدين القريبة من دير القمر مسكناً رائع الجمال جعل منه مقراً لحكومته. كان بشير في أوج سلطته يُعتبر "الأمير المطلق للدروز وكامل جبال لبنان"⁽¹⁾ مع أنه كان مارونياً. فاستطاع أن يفرض نفسه بكل ثقله على جميع الشؤن السورية. تبنى سياسة المصالحة مع ممثلي الباب العالي، ودعم المرشح الرسمي عندما

(1) LAMARTINE، المرجع نفسه، ص 187 - 188.

نشبت النزاعات بين الباشاوات بعد موت الجزائر. وفي عام 1810م عندما هدد الوهابيون دمشق انتهز الفرصة ليؤكد من جديد على ولائه للسلطة العثمانية.

الوهابيون أتباع حركة "أصولية" أسسها في القرن الثامن عشر محمد بن عبد الوهاب (1703 - 1792م)، وكانوا مفعمين بطموحات سياسية ودينية في آن واحد، وطالبوا بإحياء الإسلام والعودة إليه خالصاً نقياً كما كان، وبوحدة الأراضي العربية في ظل حكم إسلامي سني. وبعد أن وحدوا نجداً بفضل دعم آل سعود الأقوياء اتجهت أنظارهم إلى ما وراء شبه الجزيرة العربية. وفي عام 1802م استولوا على كربلاء، وهددوا السكان ونهبوا ضريح الإمام الحسين. استأنف سعود بن عبد العزيز منذ بداية حكمه الهجوم على الحجاز، فاحتل المدينة في 1804م، ومكة المكرمة في شباط 1806م، وجدة بعد وقت قصير. وبعد أن أصبح الوهابيون سادة المدينتين المقدستين أساؤوا إلى حسن سير الحج. ففي 1803م غير الجزائر اتجاه قافلة الحج. وفي 1805م تمكن إبراهيم باشا والي دمشق من إيصال الحجاج بصعوبة بالغة إلى الكعبة. وفي 1806م نجح عبد الله باشا العظم والي دمشق للمرة الثالثة بدوره في الوصول إلى مكة، ولكن مقابل غرامات كبيرة وإذلال كبير. وفي 1807م لاحظ المسافر علي بيك أن قافلة الحج قد توقفت "بسبب غزو الوهابيين"⁽¹⁾. وقد اضطر يوسف باشا والي دمشق الذي ذهب إلى الحج مصحوباً بموكب ضعيف أن يعود أدراجه تاركاً وراءه أكثر من نصف قافلة الحج. ولكي يجد من قوة المد الوهابي عاد يوسف باشا - برغم استياء النصارى واليهود في دمشق - إلى الإجراءات العنصرية القديمة: تحريم شرب الخمر وارتداء الملابس فاتحة اللون، والتصرف بحشمة بوجود المسلمين.

في ربيع عام 1810م دخل الوهابيون سورية ووصلوا إلى حوران وهددوا دمشق، ولكن في شهر تموز عادوا أدراجهم أمام جيش يوسف باشا حتى قبل أن ينضم إليه جيش سليمان باشا. وعندما استلم سليمان باشا أمر تعيينه والياً على دمشق تمرد يوسف باشا وتوقف عن القتال وهرب إلى مصر بعد أن دخل جيشا سليمان وبشير دمشق.

كلف السلطان محمود الثاني (1808 - 1839م) باشا مصر محمد علي بقيادة حرب الوهابيين رغبة منه في تحقيق أمن طريق الحج وتثبيت هيمنته على المدن المقدسة لأنها عاملان أساسيان في

(1) BADIA Y LEYBLICH، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 273.

التأكيد على مكانته في أعين المسلمين. في نهاية حرب استمرت سبع سنوات استولى الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا بن محمد علي في أيلول 1818م على واحة الدرعية، مركز الوهابيين، ووضع حداً للمملكة المنشقة، وقُتل ملكها عبد الله بن سعود في اسطنبول في 17 كانون الأول 1818م.

سيطر محمد علي بعد هذا النجاح العسكري على المدينتين المقدستين وازداد قوة وجاهاً، ولم يتوقف منذ تعيينه عام 1805م عن دعم قوته. وفي الأول من آذار 1811م قضى على معارضة البكوات المدعومين من الإنكليز، وذلك بقتل آخر المماليك في قلعة القاهرة. وجهاز جيشاً "وطنياً" يتألف من الفلاحين المصريين الذين جرى تجنيدهم بالقرعة، فأعدهم ودرّبهم جيداً، وجهّزهم أيضاً بما يلزم من الأسلحة، ونظّمهم على الطريقة الأوروبية مستعيناً بضباط فرنسيين استدعاهم إلى مصر. وقد عمل أيضاً على تحديث إدارة التعليم، وتطوير استغلال ثروات مصر، واستحدث زراعات وصناعات جديدة، وفتح المجتمع المصري على العالم الخارجي. وفي سورية حيث فرض نفسه حكماً في النزاعات حافظ على علاقات طيبة مع بشير الثاني وعبد الله باشا عكا.

في عام 1824م بعد أن طُلبت مساعدته لقمع ثورة اليونان التي دعمتها القوى الأوروبية سنحت الظروف من جديد لتشجيع أطماعه. فاستولى إبراهيم باشا على جزيرة كريت ثم على شبه جزيرة مورة، ولكنه أُجبر على إخلاء شبه الجزيرة بعد تدخل إنكلترا وروسيا وفرنسا وتحطم الأسطول التركي المصري في خليج نفارين في 20 تشرين الأول 1827م. ووقعت معاهدة أدرنة في أيلول 1829م التي تعترف باستقلال اليونان وصربيا ومولدافيا وفلاشيا، فكان هذا بداية تجزيء الإمبراطورية العثمانية. وأخذت القوى الأوروبية حينئذ تزيد من أطماعها فيما يلي سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية. ففي 14 حزيران 1830م نزلت القوات الفرنسية في الجزائر بقيادة الأميرال دبري والمارشال بورمونت. ولم تستطع الإمبراطورية العثمانية التي شلتها مشاكلها في سورية التدخل، فتشكلت المقاومة في وهران بقيادة الأمير عبد القادر. كان لخبر الاستيلاء على الجزائر صدى كبير في سورية، إذ لاحظ جوزيف ميشو أثناء مروره في أيار 1831م أن: "السكان المسلمين في دمشق كانوا خائفين جداً من حملة فرنسية، فلقد تأثرت هذه المدينة أكثر من أي مدينة أخرى في المشرق بخبر احتلال الجزائر الذي كان له فيها صدى مدوّ"⁽¹⁾.

(1) MICHAUD J., POUJOLAT B., Correspondance d'Orient, p 158, Vol 6 1833-1835 Paris.

بعد أن فشل محمد علي في الحصول على كريت ومورة اللتين وُعد بهما مقابل مساعدته في قمع اليونان طلب من السلطان الولاية على سورية. رفض محمود الثاني هذا الطلب، فأرسل باشا مصر القوي قواته لفتح سورية في خريف عام 1831م متذرعاً بخلافه مع عبد الله باشا عكا. كان الوقت الذي اختاره مناسباً جداً: فالدولة العثمانية كانت ضعيفة بسبب تعرضها للهجمات مدة طويلة، وقد قُضي على الإنكشاريين أهم مصادر القوة في الإمبراطورية العثمانية قبل خمس سنوات، وفي دمشق كان السكان الثائرون قد اغتالوا الوالي سليم باشا، في حين كانت القوات الحلبية مشغولة في حرب في منطقة الجزيرة. واستطاع محمد علي بحنكته المعروفة أن يخاطب الجهات المختلفة باللغة التي تروق لها؛ ففرنسا وعدته بدعمها واعتبرت تصرفه ثورة قومية عربية مضادة للطغیان التركي، وعرض نفسه كخليفة لبونايرت وباعثاً "للحضارة" في سورية، ومصلحاً للإمبراطورية العثمانية، وفرض نفسه على الشعب السوري كمدافع عن الحق والعدالة والإسلام مدعياً أنه يعمل لمصلحة شريف مكة الخليفة الحقيقي الذي كان في الواقع تابعاً له منذ فتحه للحجاز⁽¹⁾.

قامت حملة قوامها ثلاثون ألف رجل بقيادة إبراهيم باشا وسليمان باشا الضابط الفرنسي الذي فُصل أثناء حروب نابليون بحصار عكا في نهاية تشرين الثاني 1831م، في حين قامت البحرية بقيادة فرنسي آخر دو سريزي بإنزال المدفعية في حيفا. توقف بشير الثاني بعد شيء من التردد عن التزام سياسة الخضوع للباب العالي، والتحق بمعسكر المهاجمين ووضع المدن الساحلية في حالة دفاع ليمنع إنزال البحرية العثمانية. ونجح إبراهيم باشا حيث فشل بونايرت، واستولى على عكا بعد حصار دام ستة أشهر، وذلك في 27 أيار 1832م، ثم اتجه مباشرة نحو دمشق التي هرب حاكمها علوش باشا إلى حمص بعد أن تظاهر بالمقاومة، ولكنه قتل فيها في 8 تموز، ووقعت سورية مرة ثانية تحت السيطرة المصرية.

اجتهد محمود الثاني في تذكير المسلمين بأنه خليفتهم جميعاً، ودفع العلماء ليعلموا أن محمد علي خائن متمرد، ثم أرسل جيشاً بقيادة حسين باشا. ولما هُزم هذا الأخير في شمال سورية، دخل إبراهيم باشا الأناضول، وسحق في قونية جيشاً ثانياً بقيادة الصدر الأعظم رشيد باشا، وتقدم حتى وصل كوتاهيه. وأصبحت اسطنبول مهددة، فلم يتردد محمود باشا في الاستعانة بأعدائه في الأمس، فطلب مساعدة الروس في شباط 1833م، فأرسلوا أسطولاً قوياً إلى مضيق البوسفور. ولما كانت فرنسا

(1) LAURENS H.، المرجع نفسه، ص 93-104 و GOUIN E.، المرجع نفسه، ص 154-155.

وإنكلترا تريان في الحفاظ على تماسك الإمبراطورية العثمانية شرطاً أساسياً للتوازن الأوروبي، فلم تتقبلاً ازدياد القوة الروسية، وضغطتا على السلطان لسحب الأسطول الروسي. ولكن الروس رفضوا الانسحاب ما لم تحل القوات المصرية الأناضول. وبضغط من فرنسا وإنكلترا عُقد اتفاق لم يرض أحداً، ولكنه وُقِع أخيراً في كوتاهيه في 29 آذار 1833م بين العثمانيين والمصريين، بناء عليه: يخلي إبراهيم باشا الأناضول ولكنه يصبح حاكم سورية وصقلية والحجاز، في حين أُعطي والده محمد علي حاكم مصر جزيرة كريت. إنها المرة الأولى التي تلعب فيه القوى الغربية بمصير سورية، ومن الآن فصاعداً سيصبح تدخل القوى الغربية مستمراً في السياسة العثمانية.

جزاً إبراهيم باشا سورية إلى خمسة باشاليك: حلب ودمشق وطرابلس وعكا وغزة، وأسس إدارة جديدة مركزها دمشق عهد بولايتها إلى شريف باشا أحد أفراد عائلته. هذه التعديلات التي أوحى بها الغرب وطُبقت حرفياً قلبت معطيات الحياة التقليدية رأساً على عقب. إذ فقد الأعيان سلطتهم لمصلحة الموظفين، وأجريت تعديلات على الشرطة والقانون وفقاً للنموذج الفرنسي، واقتصرت مهمة العلماء على الإجابة على أسئلة المستفتين، ونشأت مجالس تمثيلية تضم ممثلين نصارى ويهوداً، وقضي بعنف على البدو وعلى كل أشكال العصابات، وعوقب الفساد الإداري بشدة، وشُجعت الزراعة والصناعة. وأثار عديدٌ من التعديلات استياء السكان المسلمين الشديدين: زيادة عدد القنصليات الأوروبية، وتعميم الضرائب التي كانت حتى ذلك الوقت مقتصرة على أهل الذمة، وتعميم التجنيد، ومنح النصارى حقوقاً سياسية كالمسلمين؛ إذ أصبحت لهم الحرية من الآن فصاعداً في المشاركة بإدارة البلد، وبناء أبنيتهم الدينية كما يحلو لهم. في حين شعر المارونيون من جبهتهم بعداء غير محتمل بسبب السياسة المركزية وفقدان استقلالهم وامتيازاتهم. إن إنشاء دولة "حديثة" ظاهراً أثار استياء عاماً، فزاد الانتماء الطائفي حدة، وتفاقت الخصومات السياسية بين النصارى والمسلمين وبين الدروز والمارونيين. هذه السياسة المشؤومة التي بسببها احتك المجتمع السوري للمرة الأولى وعن قرب بواسطة المستشرقين بما اتفق على تسميته "الحداثة الغربية" كانت سبب حدوث سلسلة متوالية من الأزمات التي ما زلنا نرى آثارها في مجموع بلدان المشرق الأدنى وأدى إليها تدخل القوى الأوروبية السفيه.

لاحظ لامارتين عندما كان يتجول في سورية بعد عام من الغزو المصري وفي الوقت الذي وُقعت فيه معاهدة كوتاهية استياء الناس في دمشق من نظام حكم إبراهيم باشا، فكتب: "أصدر

شريف بيك الحاكم الحالي أمراً يمنع دخول الأسلحة إلى المدينة، فالخوف من حدوث ثورة والرغبة في القضاء على القوات المصرية كانا يستحوذان على تفكيره"⁽¹⁾. وأضاف: "ضباط الباشا المصري وجنوده (...) في حالة تأهب مستمر في دمشق (...). كَوْن شريف بيك (...) معسكراً خارج الأسوار وعند ضفاف النهر يضم عشرة آلاف رجل، كما كانت في قصره حامية لحراسته (...). كانت أخبار أصغر فشل لإبراهيم باشا في سورية مدعاة لتمرّد عام وقتال عنيف في دمشق. كان ثلاثون ألفاً من النصارى الأرمن القاطنين في المدينة يعيشون في جو من الرعب، ومهددين بالموت في حال انتصار الأتراك. وقد أثارت المسلمين المساواة التي أقامها إبراهيم باشا بينهم وبين النصارى. فلقد استغل بعض هؤلاء النصارى هذا التسامح الذي حصلوا عليه، وأخذوا يسيئون لأعدائهم بالتعدي على عاداتهم مما أثار تعصب المسلمين"⁽²⁾. وكان هذا التعصب يزداد في كل مرة لم يعاقب فيها النصارى على تصرفاتهم الاستفزازية.

لما استنفدت صيانة جيش الاحتلال وبناء الحصون على الحدود الأناضولية موارد إبراهيم باشا بسرعة، لجأ إلى فرض ضرائب باهظة كانت تُحصل دائماً بوحشية وعنف. ولما كان حريصاً على زيادة قوة جيشه، فقد فرض إجراءات أثارت استياء الناس مثل السخرة والتجنيد الإجباري. انفجرت الثورات الأولى بتشجيع من الباب العالي عام 1834م في المناطق الجنوبية من سورية في نابلس ثم انتقلت إلى طرابلس ومنطقة اللاذقية، ولكنها قُمعت بقسوة بمساعدة الحليف المخلص الأمير الماروني بشير الثاني. ورفض النصيريون والمتاولة والدروز التجنيد الإجباري. وفي عام 1838م كانت كل معاقل الدروز وهوران والشوف ووادي التيم تغلي ثورة، وقد هُددت دمشق نفسها، ولكن قوات إبراهيم وبشير الثاني الخليفة قمعت التمرد في بداية الصيف. ذكر إدوارد بلونديل الذي مر بدمشق عام 1838م تعسف حكومة إبراهيم باشا الضرائب، وكتب: "عمل الطاغية المصري بلا كلل على خراب هذا البلد، ولم يترك لهذا الشعب المسكين إلا ذكريات حياة الرفاهية والغنى، إذ لم تكفه الضرائب التي كان يفرضها على السكان متذرعاً بألف حجة، فلقد بدا له أخيراً أن يفرض على الدمشقيين ديناً إجبارياً. فأرسل إلى كل تاجر أمراً بدفع خمسة أو عشرة أو خمسة عشر أو عشرين ألف

(1) LAMARTINE، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 56. دخل لامارتين دمشق في 4 نيسان 1833م، بعد أربعة أيام من توقيع معاهدة كوتاهية.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 67.

قرش إلى أمين خزنته. لم يُجَدِّع الذين أُجبروا على إقراضه، لأنهم عرفوا أنهم لن يسترجعوا بارة واحدة⁽¹⁾. اعتبر معظم المسافرين سياسة إبراهيم باشا كارثة اقتصادية، وحملوه مسؤولية إفقار سورية. فلقد كتب جوزيف ميشو: "أبدت هذه الحكومة غيرة من كل ازدهار اقتصادي، فلقد وضعت يدها على كل الصناعات التي كان يُرجى منها إنتاج وافر، وانهار كل شيء وأفلس بسبب امتيازات الاحتكار، وما كانت تفرضه خزينة الدولة من قوانين حظر مفضية"⁽²⁾.

دفع استياء السوريين - الذي أذكاه الباب العالي والعملاء البريطانيون المدعومون بالمبشرين البروتستانت - محمود الثاني الذي لم يتقبل بعد خسارة سورية ولم يعتبر معاهدة كوتاهيه إلا إجراء مؤقتاً، ليسرّع تجهيزاته لإعادة الفتح. وفي 21 نيسان 1839م عبر الجيش العثماني الفرات بقيادة حافظ باشا وبإشراف مديري روس وإنكليز وبروسيين من بينهم الجنرال فون دي مولتك. ولكن هزمه جيش إبراهيم باشا هزيمة نكراء في نصيبين في 24 حزيران، إذ كان أفضل منه استعداداً وتنظيماً. وقُتل آلاف من الرجال في ساحة المعركة وسقط سلاح المدفعية في أيدي الجيش المتصر. بعد وقت قصير استسلم الأسطول العثماني لمحمد علي بسبب خيانة حصلت في ميناء الإسكندرية، في حين احتل الإنكليز عدن. ولما توفي محمود الثاني في 30 حزيران قبل أن يصله خبر هزيمته، بدأ ابنه وخليفته عبد المجيد الذي لم يكمل ستة عشر عاماً المفاوضات مع محمد علي الذي لم يطلب منه مقابل السلام سوى حكم وراثي لمصر وسورية. قررت حيثنذ القوى الأوروبية التدخل، وفرضت حكمها كوسيلة وحيدة لحل الأزمة. وفي نهاية مفاوضات طويلة وقعت بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا اتفاقية لندن مع الباب العالي في 15 تموز 1840م برغم معارضة فرنسا التي كانت تدعم محمد علي وترغب في استمرار الحكم المصري ولو جزئياً. طالبت هذه الاتفاقية بإخلاء سورية خلال عشرة أيام، وقبلت باحتفاظ محمد علي وذريته بولاية مصر حيث منحوا لقب الخديوي، وبولاية عكا حيث منحوا لقب باشاليك طوال العمر. ولما رفض محمد علي هذه الاتفاقية أعلن السلطان عزله، وقبل 15 آب قام العملاء الإنكليز بتحريض تمرد كبير قام به السوريون ضد إبراهيم باشا وحليفه بشير الثاني. وثارت كل البلد بهارونيه ودروزها وفلاحها وإقطاعيها بعد أن انضم إليهم شيعة شمال البقاع وسنة منطقة طرابلس.

(1) BLONDEL E.، المرجع نفسه، ص 169.

(2) MICHAUD J.، POUJOULAT B.، المرجع نفسه، الجزء 5، ص 247.

وأبحرت لدعم التمرد سفن حربية إنكليزية ونمساوية بدءاً من 11 آب . وبعد شهر قُصفت المدينة مدة ثلاثة أيام، في حين نزل ثمانية آلاف وخمسمئة رجل من القوات التركية والبريطانية والنمساوية في خليج جونيه، وأحتلت المدن الساحلية الرئيسية بسهولة. وبعد هزيمة الجيش المصري في 10 تشرين الأول في معركة بحرصف، غادر بشير الثاني بيت الدين بعد حكم استمر ما يقارب ثلاثاً وخمسين سنة، واستسلم للمتصرين وركب من صيدا سفينة إنكليزية أوصلته إلى منفاه في مالطة، فحل بشير الثالث حفيد الأمير ملحم محله في رئاسة الإمارة، وعاد إبراهيم باشا أدراجه إلى دمشق بعد أن أضعفه انسحاب بشير الثاني. وفي 3 تشرين الثاني احتل بضعة مئات من البحارة الإنكليز عكا التي كانت آخر حصن ساحلي تحت سلطة إبراهيم باشا. كان الوضع ميؤوساً منه من الناحية العسكرية، فتفاوض محمد علي مع القائد البحري سير شارل نابيه، وتوصل معه إلى اتفاق يعترف له ولذريته بولاية مصر مقابل إخلائه لسورية وانسحاب الأسطول العثماني. وعاد إبراهيم باشا إلى مصر، ولم يبق من أصل ثلاثين ألف رجل غادروا معه دمشق إلا الثلث بسبب فرار الجنود وما تعرضوا له من تقلبات الطقس.

إن كان التدخل الأوروبي قد أنقذ الإمبراطورية العثمانية، غير أنه وضعها تحت وصاية القوى الأوروبية. وأصبح مصير المشرق من الآن فصاعداً متعلقاً بالقرارات الأوروبية؛ إذ أخذت فرنسا منذ تسوية المسألة المصرية تطالب بضمانات للنصارى، وارتفعت أصوات تطالب بالتدخل العسكري. وهكذا كتب أحدهم ويدعى بيير لورتييه في مجلة *la Revue du Lyonnais* في 25 كانون الأول 1840م: "ما فعلناه لليونان عندما كانوا تحت رحمة السيف التركي يمكننا فعله الآن لنصارى سورية (...). إنهم لا يريدون الاستبداد المصري ولا الاستبداد الإنكليزي التركي. بإمكان هؤلاء النصارى أن يكونوا عناصر دولة نصرانية في المشرق"⁽¹⁾. وعلى غرار فرنسا التي كان جلياً للجميع ما تتمتع به من إمتيازات لكونها "حامية" الكاثوليك، أرادت كل القوى الأوروبية الأخرى أن يكون لها طائفة تحميها؛ فالروس كانوا يدعمون الأرثوذكس، وقد حاولوا عبثاً أن يُعترف لهم رسمياً بحق الحماية. ولما فشل البريطانيون في كسب دعم المارونيين، ولم يجدوا من يحمون أخذوا يناوون على عدة محاور. في البداية وصل إلى سورية حوالي عام 1820م البروتستانت الذين كان أوائل مبشريهم من الإنكليز والأمريكان، ثم أنشئت في عام 1841م في القدس أسقفية إنكليزية بروسية كانت

(1) LORTET P., *Revue du Lyonnais*، ليون، 25 كانون الأول 1840م.

قد شملت سلطتها الدينية المشرق كله. وفي 1847م اضطر الباب العالي للاعتراف بوجود سلطة دينية للطوائف البروتستانتية التي لم تُشكل بسبب قلة أعدادها وسيلة ضغط داعمة لسياسة بريطانيا. ثم لجؤوا للدروز الذين زودوهم بالأسلحة والذهب أثناء ثورة 1838م، وجعلوا منهم أداة لمعارضة سياسة فرنسا، وأخيراً لليهود. فمنذ عام 1839م تبنت الصحافة اللندنية أفكار بعض المسؤولين البريطانيين الذين كانوا يرون في توطين اليهود في سورية وسيلة لتوطيد النفوذ البريطاني في المشرق⁽¹⁾. وفي آذار من السنة نفسها قُتحت قنصلية بريطانية في القدس مهمتها الرئيسية حماية اليهود. وفي العام التالي عندما رأت الحكومة البريطانية أن دعمها للدروز والبروتستانت غير كاف لمعادلة الدعم الذي تمنحه فرنسا للمارونيين، حاولت إقناع السلطات العثمانية بأن قبولها لتوطين اليهود في جنوب سورية سيفيدها كثيراً. إذ إن مجيء اليهود برؤوس أموالهم وخبراتهم في التجارة والصناعة سيكون حصناً للدولة من أي محاولة توسع مصري. وكتب اللورد بالمستون دون تردد: "سيساهم اليهود في تقدم الحضارة في هذا البلد"⁽²⁾. وقدموا كثيراً من الحجج استخدمها بعد نصف قرن مؤسس الصهيونية ثيودور هرتزل⁽³⁾. اكتفى البريطانيون أمام تحفظات العثمانيين بطلب حماية أوروبية لليهود في الدولة العثمانية، ولكن الباب العالي اعترض لأنه يرى أن أهل الذمة كانوا يتمتعون بضمانات كافية وأن "الحماية" الأوروبية غير ضرورية.

أصدرت الحكومة العثمانية في غمرة الحرب السورية مدركة أخطار التفكك على الإمبراطورية العثمانية مرسوماً إمبراطورياً في 3 تشرين الثاني 1839م، وهو خط الكليخانة الذي دعا من بين عدة أمور إلى ضرورة توطيد العلاقات بين العاصمة والمقاطعات⁽⁴⁾. أكد الباب العالي بعد نهاية النزاع على هذه السياسة المركزية حرصاً منه على إستعادة سلطته المباشرة على سورية. فقلص امتيازات الباشاوات، واجتهد في القضاء على كل حكم ذاتي محلي والإقطاعيات خاصة. وفي الساحل نُقل مقرا باشاليك عكا وصيدا القديمين إلى بيروت⁽⁵⁾. فحسب التصريحات التي أدلى بها باشا دمشق بعد عدة

(1) LAURENS H.، المرجع نفسه، ص 112 والملاحظة 6.

(2) ذكر هذا LEWIS B.، Juifs en terre d'islam، باريس، 1989م، ص 185.

(3) HERZL T.، Journal 1895-1904AD، باريس، 1990م، ص 87 - 191 - 302.

(4) تعني الكليخانة قصر الزهور. عن المحتوى اقرأ المرجع في الأسفل، ص 134.

(5) المرجع في الأعلى، ص 100.

سنوات للهاجور فريدولن، أثمرت هذه السياسة المتسلطة، فلقد قال له: "قبل ثلاثين سنة كانت السلطة العليا في هذا البلد ضعيفة جداً، فتاريخ سورية ليس إلا سلسلة طويلة من الحروب الداخلية بين الباشاوات والقسطنطينية؛ يمكنني أن أؤكد لك أنه ما من أحد يتجرأ اليوم أو حتى يحلم بالاستقلال أو عصيان أمر للدويان"⁽¹⁾. ومع هذا كانت السلطة المركزية تتوقف كما في القرون السابقة عند أبواب المدن؛ فاليانان القنصلية وروايات المسافرين أكدت عجز الحكومة عن دفع غزوات البدو على امتداد أراضي الإمبراطورية. ولاحظ جورج سالفرت أنه يُفضل للذهاب من دمشق إلى حلب العدول عن الطريق الصحراوي المباشر وسلوك طريق الساحل⁽²⁾، ولاحظ الكونت دو باريس أن القرى كانت خاوية لأن قبائل البدو أعداء القانون كانت قد غزت سورية⁽³⁾، ولاحظ أوجين ملشوار دو فوغيه أن "بدو الصحراء الكبرى وصلوا بغاراتهم إلى أبواب دمشق"⁽⁴⁾.

في جبل لبنان أخذ الوضع يتدهور بسرعة أكبر بعد رحيل إبراهيم باشا؛ فلقد ترك حكم بشير الثاني وثمان سنوات من السيطرة المصرية خلفهما إرثاً من خصومات لا يمكن السيطرة عليها لاسيما وأن الدروز والمارونيين كانوا مدعومين علناً من القوتين الأجنبية المتنافستين. وفي تشرين الأول 1841م اندلعت الأحداث في دير القمر، فأُحرق جزء من المدينة ومات ناس، وانتشر النزاع إلى المناطق المجاورة. حوصرت زحلة مدينة النصارى الرئيسية في البقاع، ونهبت عدة قرى وأُحرقت. وفي بداية تشرين الثاني هوجم قصر دير القمر، وسقط بشير الثالث في أيدي الدروز. وتحت ضغط القوى الأوروبية قرر الباب العالي التدخل. فأرسل مصطفى باشا، وهو ضابط ذو رتبة عالية، إلى بيروت ليحاول حل النزاع بين المتخاصمين. وفي 13 كانون الثاني 1842م خُلع بشير الثالث من

(1) Revue des deux mondes، باريس، 1854م، ص 80. FRIDOLIN (Major), Scènes de la vie religieuse en Orient، مشهد من الحياة الدينية في المشرق،

(2) SALVERTE G. (de), La Syrie avant 1860، سورية قبل عام 1860م، باريس، 1861م، ص 18.

(3) "Comte de Paris, "Damas et le Liban"، مقطع من Journal d'un voyage en Syrie au printemps de 1860، مذكرات رحلة إلى سورية في ربيع 1860م، لندن، 1861م، ص 46.

(4) VOGUE E.-M. (de), Syrie, Palestine, Monte Athos، باريس، 1919م، ص 91. رأي مسافرين حول البدو يختلف من مسافر إلى آخر، فلقد كتب Adisson Ch. Gr. بكثير من الجلاء: "عرب البدو - بمفهومهم لكلمة الحضارة - أكثر تحضراً من كثير من السكان البريطانيين"، Damascus and Palmyra، لندن 1838م، الجزء 2، ص 359. يبدو المسافرون الإنكليز عموماً أكثر محابة للبدو من أمثالهم من الفرنسيين.

منصبه وأرسل إلى اسطنبول، في حين عُين عمر باشا الكرواتي الأصل حاكماً للجبل. وكانت هذه نهاية إمارة الشهابيين وعودة الحكم الإداري المباشر. ومع هذا لم تضعف معارضة الدروز، وعادت الفوضى من جديد، وأخذ النزاع طابعاً دولياً. تدخلت فرنسا والنمسا مطالبتين بإقامة إمارة يرأسها أمير نصراني، في حين دعمت بريطانيا الطائفة الدرزية. اقترح الباب العالي تسوية عرفت باسم قائمقامين، فجزأ الجبل إلى جزأين؛ الجزء الشمالي يديره قائمقام ماروني، والجزء الجنوبي يديره قائمقام درزي، يعين كلاهما ويعزلها باشا صيدا. ولما كان في الشمال كثير من الدروز وكذلك في الجنوب كثير من المارونيين عرقلت عقبات لا يمكن تخطيطها إدارة المناطق المختلطة. وأدت مذابح جديدة وأعمال نهب وحرقات إلى إعادة صياغة النظام مجدداً في عام 1845م، واستمر هذا النظام حتى حصلت أحداث دامية عام 1860م رغم تعرض المنطقة لاضطرابات دورية قبل هذا التاريخ. وفي عام 1852م عندما أصر الباب العالي على تجنيد الدروز الإجباري، أعلن هؤلاء تمردهم، والتجؤوا إلى جبال وادي التيم وحوران، وقطعوا الطرق التي تصل بيروت بدمشق. وفي نهاية 1857م كان الوضع في الجبل معقداً جداً، ووصل النزاع بين الدروز والنصارى إلى نقطة حرجة، وتدخلت عوامل أخرى لها علاقة بالتطورات الدولية لتؤثر في النزاعات المحلية وتعجل في اندلاع صدام عام.

انتهت حرب القرم التي بدأت عام 1852م نتيجة نزاع بين الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية في القدس في عام 1855م بعد هزيمة الروس أمام التحالف الفرنسي الإنكليزي العثماني. وطالبت فرنسا وإنكلترا بالمقابل بإجراء تعديلات تسمح لهما برغم استياء غالبية السكان المسلمين بتوسيع دائرة نفوذهم. ودعا الخط الهمايوني في 18 شباط 1856م بعبارات أكثر جلاءً من خط الكلخانة إلى المساواة الدينية الكاملة فيما يتعلق بالضرائب والتجنيد، وكذلك تولي المناصب العامة. فكان هذا إلغاء نهائياً لوضع أهل الذمة الذي كان معمولاً به منذ بدايات الإسلام. وأعطت اتفاقية باريس التي جرى توقيعها في 30 آذار 1856م القوى الأوروبية حقاً أكبر في التدخل في شؤون الدولة العثمانية، وإن كان ظاهر الاتفاقية يبدو لمصلحة الإمبراطورية العثمانية. هذا وبرغم اعتراضات الباب العالي الذي اكتشف أن التعديلات الجديدة نزعته منه مبررات وجوده، جددت الاتفاقية نظام الامتيازات الأجنبية، وحولت الامتيازات السابقة إلى حقوق مشروعة. استفاد النصارى في دمشق والمدن السورية الكبيرة من هذه التعديلات في زيادة غناهم والتنعيم بمزيد من الحرية. وساد في أوساط المسلمين غضب مكتوم ينتظر الفرصة المناسبة لينفجر. فاندلع قبل نهاية عام 1856م تمرد معادٍ

للنصارى في حلب ونابلس ومدن أخرى أقل أهمية. وفي العام التالي زادت ثورة السيّاه على البريطانيين في الهند، وما تبعها من مطالبة بنهاية الدولة المغولية حدة مشاعر المسلمين المعادية للنصارى في العالم الإسلامي. وفي نفس الوقت زاد التدخل الأوروبي الاقتصادي كثافة، ففي عام 1858م تدخلت رؤوس أموال فرنسية للمرة الأولى في الدولة العثمانية: بمبادرة من الكونت إدموند دو برتوي بدأ إنشاء طريق دمشق بيروت - مما يؤكد على تفوق بيروت على عكا وصيدا وطرابلس - وقد لاحظ هذا التفوق المسافرون منذ عدة سنوات، إذ كتب بارديو عام 1849م: "لقد أصبحت بيروت مركز سورية التجاري الرئيسي، فهي ميناء دمشق ولكل الدول الأوروبية قنصلية فيها. يوجد فيها أعداد كبيرة من الأوروبيين، وتُسمع الفرنسية أو الإيطالية في كل مكان"⁽¹⁾. بعد عامين كتب س.و.م. فان دو فلد بدوره: "يمكننا القول إن التجارة في صيدا قد ابتلعتها بيروت، فمنتجات دمشق وبيروت أصبحت تصدر الآن من بيروت. وفقاً لتقرير أحد المبشرين، في عام 1836م بلغ عدد سكان بيروت 15000 نسمة (...). يستمر الأوروبيون وخاصة الفرنسيون في المجيء إلى لبنان والاستقرار فيها بأعداد متزايدة وقد جذبتهم إليها تجارة الحرير، وهي تجارة مربحة جداً (...). في المدينة الآن ما يزيد عن 40000 نسمة"⁽²⁾. ساهم تطور بيروت هذا الذي كان لمصلحة فرنسا ذات المصالح المرتبطة بالمارونيين فقط في زيادة سخط المنافسين من الديانات الأخرى.

في تشرين الأول 1858م أجاج نزاع ضمن الطائفة المارونية النار التي كانت مستترة تحت الرماد. وثار الفلاحون المارونيون في كسروان يدعمهم رجال الدين على مشايخهم الإقطاعيين، وامتد الاضطراب إلى المناطق المختلطة الطوائف ليأخذ بعدها سمة دينية. وانقض دروز الشوف والبقاع ووادي التيم على جيرانهم النصارى. وفي نهاية أيار 1860م كانت جميع قرى المتن تحترق، وهرب النصارى إلى صيدا أو بيروت أو دمشق، وانتشرت المعارك في جبال لبنان الشرقية، ودمرت منطقة جزين كاملاً حيث "نهبت الأديرة وأحرقت، وقُتل الرهبان، وذبح السكان"⁽³⁾. في بداية حزيران قتل الآلاف من الناس في حاصبيا وراشيا حيث سلم الجنود الأتراك السكان النصارى إلى الدروز بعد أن

(1) PARDIEU Ch. (Comte de), Excursion en Orient, l'Egypte et le mont Sinaï, l'Arabie, la Palestine, la Syrie, le Liban, p 327, 1851 Paris.

(2) VAN DE VELDE C.W.M., Narrative of a journey through Syria and Palestine in 1851-1852AD, p 61 Vol I, 1854. London.

(3) VOGUE E.-M.(de), "Les Evénement de Syrie", Le Correspondant, p 779, 1860.

نزعوا منهم السلاح. ثم جاء دور قرى النصارى في البقاع حيث انضم السنة والشيعة إلى الدروز. وفي منتصف حزيران أصبح الشوف ووادي تيم والبقاع تحت سيطرة المتمردين كاملاً. وصمدت زحلة ودار القمر آخر معاقل النصارى مدة من الزمن، ثم سقطت الأولى في 18 حزيران والثانية بعد يومين. إن كانت زحلة قد نجت من المذبحة فإن هذا لم يحصل في دير القمر: "كان الدروز يقتلون كل من يجدونه في المنازل، الرجال والصبية بلا تمييز (...). يمزقون أجسادهم بالسيوف والفؤوس، ويحرقون المنازل بعد نهبها"⁽¹⁾. وفي أقل من شهر من القتال قُدر عدد ضحايا النصارى بأحد عشر ألف قتيل، وعدد الذين سُلبت أملاكهم بأربعة آلاف، وعدد اللاجئين بمئتي ألف تقريباً.

في أوروبا كان الاستياء عاماً؛ وخاصة في فرنسا حيث كان الرأي العام شبه متفق ويطالب بتدخل عسكري مباشر. وبلغت حركة التعاطف مع المارونيين أوجهاً، وأظهر بعض كبار العارفين بالمشرك المارونيين وكأنهم السكان الأصليون الوحيدون في سورية. وهكذا في عدد تموز لمجلة "المراسل" لم يتردد أحدهم ويسمى ج. دو برتو في كتابة: "يؤكد علم العروق البشرية على الاعتراف بهم كعرق أصيل يمثل سكان البلد حقاً (...). أما النصارى من الطوائف الأخرى فهم ليسوا إلا بقايا شعوب طردها الطغيان التركي من الأراضي المنبسطة، وقد جاء المسلمون و الأرثوذكس والشيعة إلى البلد من كل مكان يبحثون في ظل الصليب عن الحماية والأمان اللذين كانا سيدفعون ثمنهما غالباً في ظل الهلال"⁽²⁾. ولم يطل الأمر حتى ادعى بعض المارونيين المخدوعين بهذا العلم الأوروبي الكاذب بأنهم أحفاد الكنعانيين حتى لا يقال عنهم بأنهم عرب. وبما أن اللجوء إلى القوة أسهل من اللجوء إلى الحوار لم يصنع أحد هؤلاء الذين حاولوا أن يوضحوا الصورة أو يحذروا. وهكذا ذكر كونت دو باريس الذي زار سورية في أيار 1860م أن المسلمين كانوا يعتبرون سكان البلد من النصارى مواليين للأوروبيين، وأن الحكومة العثمانية كانت تعتبر من جانبها الوصاية الأوروبية إهانة، وأن جميع المسلمين "يعانون مادياً

(1) ABKARIUS I., The Lebanon in Turmoil, Syria and the Powers in 1860AD، نيوهافن، 1920م، ص118. مذكور في

SALIBI K., Histoire du Liban du XVIIe siècle à nos jours، باريس، 1988م، ص193.

(2) BERTOU J.(de), "Les massacres de Syrie", Le Correspondant، تموز 1860م، ص602. وكتب كتاب آخرون دون تردد أن

المارونيين كانوا "فرنسيّ لبنان" POUJOLAT B., La vérité sur la Syrie, Beyrouth, 1986AD، الجزء 2، ص438.

ومعنوياً من غزو الأوروبيين وأنهم مستعدون للقيام بآخر محاولات المقاومة"⁽¹⁾.

حدثت "آخر محاولات المقاومة" هذه في دمشق. واندلعت نزاعات جديدة في بيروت بعد وقت قصير من نجاح خورشيد باشا حاكم بيروت في تجنب التدخل الأجنبي بإعلانه أن اتفاقاً قد عُقد بين الأطراف المتنازعة. طبعاً كان وراءها بدون أدنى شك تحريض، إذا ذكرت مجلة "الجنوب" في عددها الصادر يوم الاثنين 9 تموز: "كان المسلمون يرسمون الصليب على الأرض، ويدوسونه بأقدامهم، ويجبرون النصارى على فعل نفس الشيء، مما عرضهم للإهانة: فأوشكت مشاجرة كبيرة أن تقع، واحتجت القنصليات، فقبض الباشا بما عُرف عنه من الفظاظة على بعض المتهمين، فطالب الناس بتحريرهم. فحررهم الباشا شرط أن يكتسوا بأنفسهم المكان الذي حصل فيه انتهاك الحرمات، وهو مدرّك تماماً أن هذا سيكون بداية المذبحة"⁽²⁾.

في الساعة الثانية من اليوم التالي هوجمت القنصلية الروسية، وقتل الترجمان وجميع الموظفين، ووصلت أعمال النهب وإضرار الخرائق بمساعدة الجنود العثمانيين حتى حي باب توما. في حين طورد الهاربون الذين كانوا يحاولون الالتحاق بالقنصلية الفرنسية مطاردة شرسة. عندئذ كشف الأمير عبد القادر جهوده لإنقاذ الناس بمساعدة أسرته وجميع الجزائريين الذين انضموا إليه في منفاه⁽³⁾. لقد خرج من منزله سبع مرات إلى أن حل الليل ليحضر إلى بيته أو إلى القلعة مئات الأسر وكذلك قنصل فرنسا وروسيا واليونان وراهبات المبرة والعازاريون. وفي المساء تجمع في القلعة أكثر من أحد عشر ألف رجل وامرأة وطفل، وفي منزله الخاص أكثر من ثلاثة آلاف. وقد حاول كثيرون لم يتمكنوا من الانضمام إليه

(1) Comte de Paris، المرجع نفسه، ص 118.

(2) مقطع من رسالة أرسلت من دمشق في 29 تموز 1860م وقد نشرت في La Gazette du midi. ذكر هذا القس Jobin: Syrie en 1860 et 1861. رسائل ووثائق، باريس، 1880م، ص 95.

(3) كتب Melchior de Vogüé في Le Correspondant d'août 1860: "لولا شجاعة عبد القادر، لقضي على سكان المدينة من النصارى نهائياً".

سلم عبد القادر نفسه إلى القوات الفرنسية في 23 كانون الأول 1847م. لكنهم سجنوه في مدينة تولون ثم مدينتي بو وأمبواز حتى عام 1852م - برغم الوعود التي أُعطيت له ليغادر إلى المشرق - ثم حرره نابليون الثالث، وسافر إلى اسطنبول، واستقر في دمشق نهائياً في عام 1856م. مات عام 1883م، ودفن عند منحدر جبل قاسيون بجانب قبر الصوفي الأندلسي محي الدين بن عربي. وفي عام 1966م وبطلب من الرئيس بومدين نُقِلَ رفاتة إلى الجزائر حيث دفن مع الشهداء في مقبرة العلايا في ضواحي الجزائر العاصمة.

أن يصلوا عن طريق أسطح المنازل إلى منزل وكنيسة البطريرك اليوناني الكاثوليكي. ولما كانت النيران قد التهمت هذين المبنيين فإنهم غادروا دمشق واتجهوا إلى الدير اليوناني الأرثوذكسي في سيدنايا. وفي طريقهم اصطدموا بمئات من المسلمين وقد انضم إليهم جنود الحرس التركي: فقتل الرجال واغتصبت النساء بعد أن جُرَّت إلى الغوطة، ثم ذبحت أو بيعت إلى البدو كما يباع العبيد⁽¹⁾. وفي يوم الأربعاء 11 من نفس الشهر لم يعد حي النصارى سوى أتون ضخم. وغطت الجثث الأرض، إذ كتب جوزيف بوجولا في رسالته في تاريخ 27 تشرين الثاني 1860م: "لقد رأيت في حي النصارى التعيس مئات من الكلاب الميتة لأنها التهمت كثيراً من لحوم البشر"⁽²⁾. واستمرت المجزرة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم الاثنين 16 تموز. وصل عدد الضحايا إلى ما يقارب ستة آلاف، إضافة إلى النساء والأطفال الذين تراوحت أعمارهم بين العشرة والعشرين سنة والذين أخذوا إلى الصحراء عبيداً. هرب الآلاف من الناجين إلى بيروت والإسكندرية. وهكذا تبن للقس لافيغري الذي أصبح مطران الجزائر فيما بعد عندما مر بدمشق بعد وقت قصير من الأحداث أن حي النصارى داخل الأسوار لم يعد إلّا خرابة: "لم يبق من المنازل التي كانوا يسكنونها منزل قائم. لقد هُدمت جميعها، ودُكت بحيث لم يبق منها بقايا يمكن أن تُسكن"⁽³⁾. وهُدمت ثلاثة أديرة حجراً حجراً من بينها دير الفرنسيسكان الذي أسس عام 1664م، وأضرمت النيران أيضاً في إحدى عشرة كنيسة، وقلب قصر البطريرك اليوناني رأساً على عقب⁽⁴⁾. كما أضرمت النيران في جميع القنصليات رمز التدخل الأوروبي باستثناء القنصلية البريطانية. بالمقابل نجا من المجزرة النصارى الذين كانوا يسكنون في الأحياء خارج الأسوار. فهذا ما ذُكر في جريدة اللومند: "لم يعان ألفان من النصارى الذين كانوا يسكنون الميدان، وهو أكثر أحياء المسلمين شهرة. فلقد دافع عنهم "الناس السيئون" في الحي، وحموهم في منازلهم، وصدوا بحماس كل من هاجم أو حاول أن يعتدي على حياة أو شرف أو ممتلكات النصارى"⁽⁵⁾. وعانت دمشق من

(1) وفقاً للملخص بيان قدم إلى القنصليات في بيروت في JOBIN، المرجع نفسه، ص 85-93.

(2) في JOBIN، المرجع نفسه، ص 105.

(3) في GUERIN V.، المرجع نفسه، ص 402. وفقاً لما ذكره B. POUJOLAT، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 337، أن عدد المنازل في حي النصارى في ذلك الوقت كان ثلاثة آلاف وثمانمئة منزل.

(4) مقطع من رسالة من B. POUJOLAT في 27 تشرين الثاني 1860م. في JOBIN، ص 106، وكذلك في B. POUJOLAT، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 337-338.

(5) مقطع من Le Monde، في JOBIN، المرجع نفسه، ص 150-151.

جروحها زمنًا طويلاً؛ ففي تموز 1893م رأى المسافر شارل لالند في حي النصارى "حطام منازل لم تزل سوداء من النيران التي التهمتھا في السابق، ولم تزل خاوية من سكانها لأن هؤلاء قد اختفوا كلياً"⁽¹⁾.

في فرنسا كانت الصحافة مجمعة على مطالبتها بالتدخل؛ ففي مقالة طويلة جداً ظهرت في "المراسل" في عدد آب 1860م أظهر ملشوار دو فوغيه الأحداث وكأنها نتيجة "تآمر إسلامي مركزه مكة وهدفه القضاء على النصارى في المشرق"، وطالب بمقاومة هذا التآمر عن طريق "حملة صليبية نصرانية حضارية جديدة". ثم بعد أن نادى باحتلال دمشق "لمعاقبها"، اقترح مهاجمة حوران "ليتلقي الدروز ومشايخهم السفلة عقاباً قاسياً". ولما كانت فرنسا تعتبر نفسها "حارس النصارى الأول" فإن هدفها الأول كان "حماية غير المبالين من الأمم النصرانية"، أي إنه يقع على كاهلها هي أن تساعد نشوء "دولة نصرانية مستقلة (...)" تمولها رؤوس الأموال الأوروبية التي تجذبها تجارة الحرير"، دولة تضم "جبل لبنان وسهل بعلبك ومدن النصارى حاصبيا وراشيا وكل الساحل من طرابلس إلى صور". وهكذا كان من واجب الانتداب الفرنسي عام 1920م إضافة إلى معاقبة دمشق ومهاجمة الدروز، تأسيس هذه الدولة اللبنانية النصرانية التي كانت الغالية على ملشوار دو فوغيه⁽²⁾.

وبالطبع قلة من مراقبي الأحداث رأت أن جزءاً من مسؤولية النزاع الطائفي كان يقع على السياسة الفرنسية. بعد زهاء خمس عشرة سنة من الأحداث ذكر الدكتور لورته - وهو إنسان ما من أحد يشك أنه يكن أي مودة للإسلام - أن المارونيين كانوا مدعومين دعماً واضحاً من قبل فرنسا، وأضاف بوضوح رؤية نادر: "إنها هذه السياسة المتحيزة السافلة والمؤسفة هي التي كانت سبب تحول الخلافات الصغيرة بين الجماعات إلى نزاعات كبيرة أدت مرات عديدة إلى قتل أصدقائنا المساكين في لبنان وغيرها"⁽³⁾. إنها ملاحظة تحت كثير من رجال السياسة الغربيين وخاصة الفرنسيين إلى التأمل حتى اليوم.

ولما كان الباب العالي يهيم تجنب أي تدخل للقوى الأوروبية وتثبيت سلطته في سورية، فقد قام مباشرة باتخاذ إجراءات تعسفية. ففي 17 تموز عندما كانت السفن الحربية التابعة لبريطانيا وفرنسا ودول أوروبية غيرها تجوب طول الساحل، وصل وزير الخارجية فؤاد باشا إلى بيروت،

(1) LALLEMAND Ch., D'Alger à Constantinople, Jérusalem, Damas, Paris, s.d (1) ص 115. وانظر أيضاً BURTON.

المرجع نفسه، الجزء 1، ص 47.

(2) في الموضع نفسه، ص 162.

(3) L.C. (Dr), La Syrie d'aujourd'hui LORTET، سورية اليوم، باريس، 1884م، ص 608.

مكلفاً بسلطات غير محدودة لتحقيق النظام. وبرغم مقاومة الباب العالي وتحفظات البريطانيين اتخذ سفراء القوى الغربية الذين عقدوا مؤتمراً في باريس قراراً بإرسال حملة فرنسية إلى سورية لنصرة النصارى والعمل على إعادة تنظيم الجبل، فكما قال نابليون الثالث: "مساعدة السلطان على إخضاع رعاياه الذين أعماهم تعصب يعود إلى قرون سابقة"⁽¹⁾. وفي 16 آب نزل في بيروت الجنرال بوفورت دو هوتبول الذي كان قد خدم سابقاً في المشرق تحت إمرة إبراهيم باشا، وأقام معسكره في غابة الصنوبر القريبة من المدينة. ولما علم فؤاد باشا بقرار القوى الغربية أسرع إلى دمشق في نهاية تموز لمعاينة المجرمين بقسوة حتى لا يترك للفرنسيين أي ذريعة في التدخل. فحوكم مئات من الضباط العثمانيين ومن بينهم قواد كتائب حاصبيا وراشيا، ثم قُتلوا رمياً بالرصاص لأنهم أهملوا واجبه أو شاركوا في المذابح. وأعدم حاكم دمشق أحمد باشا وستة وخمسون متهماً من المدنيين والضباط، في حين حُكم على مئات آخرين بأحكام أقل قسوة. وأُخلي حي القنوات الذي كان يسكنه الأتراك فقط ليشغله النصارى المنكوبون. وفُرضت على المسلمين ضرائب عالية لتعويض المنكوبين. وأخيراً جُند ثلاثة آلاف وخمسمئة رجل مشبوه بهم في المشاركة بالمذابح في الجيش العثماني. ومع هذا لم يطمئن النصارى، إذ كتب عميل إنكليزي هو الرائد فرايزر في 20 تشرين الأول: "وجود فؤاد باشا في دمشق قد هدأ قلق النصارى قليلاً، ولكنهم مازالوا يغادرون دمشق إلى بيروت، ويبيعون مفارشهم وأدوات مطابخهم وكل ما يملكون لكي يستأجروا مطايا لرحلتهم"⁽²⁾.

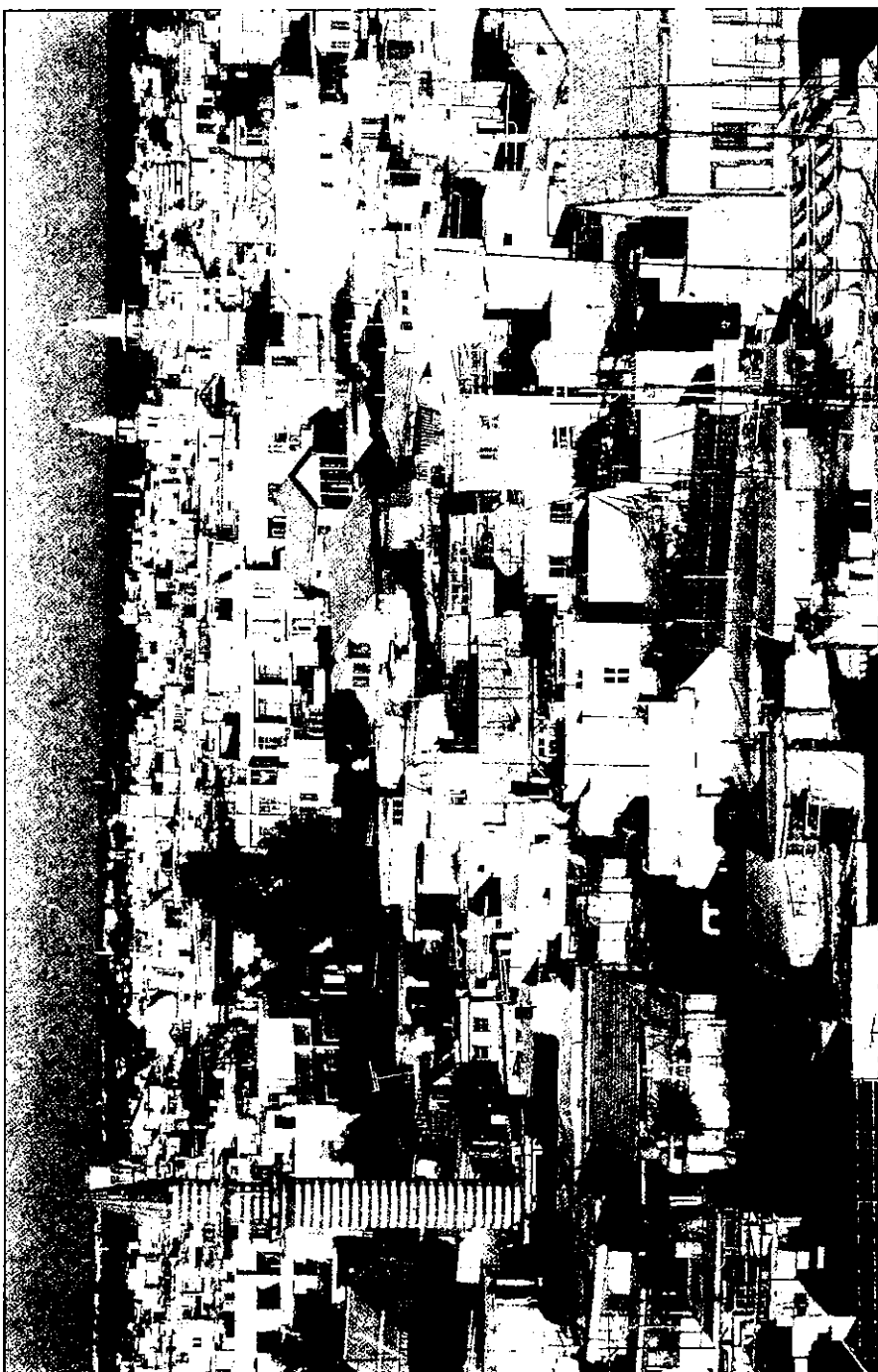
في 11 أيلول عاد فؤاد باشا إلى بيروت حيث كان قد اعتقل حاكمها خورشيد باشا وعديد من كبار الموظفين، في حين نُفي مئتان وخمسون درزياً إلى طرابلس الغرب. أما القوات الفرنسية فقد اكتفت بالتفرغ للمهام الإنسانية في الشوف حيث كان قد نجح الدروز بتواطؤ العثمانيين في الهرب إلى حوران. وفي باريس اشتكى مؤيدو اللجوء للقوة - بصوت ملشوار دو فوغيه طبعاً - لأن "القصاص المعاق بكل أنواع الحيل لم يُحقق"، وأخذوا يطالبون الآن بإنقاذ "الشرف الفرنسي"⁽³⁾.

(1) صرح نابليون الثالث بهذه العبارة في 7 آب في معسكر شالون في الساعة الواحدة وخمس وعشرين دقيقة بعد الظهر. ذكرها JOBIN، المرجع نفسه، ص 235.

(2) في SAINT-MARC GIRARDIN, La Syrie en 1861AD, Condition des chrétiens en Orient، سورية في عام 1861م، أوضاع النصارى في المشرق، باريس، 1862م، ص 28-29.

(3) Le Correspondant d'octobre 1860AD, "Affaires de Syrie في Melchior de Vogüé، شؤون سورية ص 341-342.

حي القنوت



وصلت في بداية أكتوبر لجنة أوروبية إلى بيروت مكلفة ببحث أسباب النزاع، وعلى من تقع المسؤوليات، وتعويزات الضحايا، والعمل أولاً على إعادة التنظيم الإداري في الجبل اللبناني. وبعد ثمانية شهور في 9 حزيران 1861م، أي بعد أربعة أيام من مغادرة القوات الفرنسية لسورية، وفي نهاية مناقشات حادة، وُقِعَ رسمياً قانون جديد عُرف باسم الأحكام الدستورية. وبسبب التنافس بين فرنسا وإنكلترا، قدمت اللجنة إلى الباب العالي تسوية لا تضر مصالحه كثيراً؛ فلقد أبعدت في الواقع المشروع الفرنسي في إحياء الإمارة اللبنانية وكذلك الاقتراحات البريطانية التي تهدف إلى تحويل سورية إلى مملكة تابعة للباب العالي على الطريقة المصرية، وجعل الجبل اللبناني ولاية عثمانية ذات حكم ذاتي مقسمة إلى سبع مقاطعات إدارية يحكمها متصرف يعينه الباب العالي وتكفله القوى الغربية⁽¹⁾. كان يساعد المتصرف - الذي من المفروض أن يكون من رعايا الدولة العثمانية الكاثوليك ولكن ليس من جبل لبنان - مجلس مكون من اثني عشر منتخباً يمثلون الطوائف المختلفة.

في عام 1864م عدّل قانون مركزي - يهدف إلى إلغاء آثار الحكم الذاتي في الولايات - تقسيم سورية الإداري ليعطل مرة واحدة جزءاً من محتوى الأحكام الدستورية. ولم تعد سورية تضم من الآن فصاعداً إلا ولايتين، ولاية حلب وولاية دمشق، وقد جرّئت كل منهما إلى متصرفات أو محافظات، ولم يعد جبل لبنان سوى متصرفية من بين المتصرفات الأخريات. وقد تمت هذه الإصلاحات على عدة مراحل. في حوالي 1887م أصبحت متصرفية القدس بسبب أهميتها للديانات الموحدة الثلاثة مستقلة وتخضع مباشرة لسلطة الباب العالي. وفي 1888م أصبحت بيروت بسبب نموها الكبير مقراً لولاية تضم متصرفات اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس. وفي نهاية القرن كانت سورية مقسمة إلى ست ولايات استمرت حتى نهاية الحرب العالمية الأولى: قسمت ولاية حلب إلى ثلاثة سناجق، وولاية بيروت إلى خمسة سناجق، وجرّئت ولاية "سورية" وعاصمتها دمشق إلى أربعة سناجق، حماة ودمشق وحوران والكرك، وثلاثة سناجق مستقلة تتعلق مباشرة باسطنبول، وهي دير الزور والقدس وجبل لبنان الممتد من جنوب طرابلس حتى شمال صيدا.

في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ساعد ضعف الدولة العثمانية المستمر القوى الأوروبية في السيطرة على مناطق متنوعة كانت مازالت مرتبطة بها ولو اسمياً على الأقل. وفي

(1) لم تكن بيروت ومقاطعة صيدا وطرابلس والبقاع ووادي تيم من ضمن القانون التنظيمي الجديد.

عام 1878م سُلمت قبرص لإنكلترا مقابل دعمها العسكري في الحرب على روسيا. وفي عام 1881م احتلت فرنسا "غامبتا وجول فري" تونس بغية "القضاء على الصحوة الإسلامية نهائياً وخدمة الحضارة خدمة جديدة وكبيرة" حسب رأي مؤسس المدرسة اللادينية⁽¹⁾. وفي مصر عام 1882م بعد أن أبعدت ثورة قام بها بعض الضباط أسرة الخديوي عن العرش بسبب محاباتها للمصالح الأوروبية، قررت القوى الأوروبية التدخل قلقاً من هذه الرغبة في الاستقلال أكثر من قلقها على مصر التي كانت على حافة الانهيار مما قد يهدد مصالحها المادية في المنطقة، واحتل الجيش البريطاني البلد.

في نفس الوقت تصاعد الغزو الثقافي والديني تصاعداً لم يسبق له مثيل؛ إذ تضاعفت الحملات التبشيرية، وفتح العزاريون والمبشرون الأمريكيون واليسوعيون وراهبات الناصرة وراهبات القديس جوزيف وفرنسيسكان مريم العذراء وراهبان المذهب النصراي والمريميون وراهبات المبرة وغيرهم مدارس ومدارس داخلية ومستوصفات في بيروت وعين تورا وزحلة ودير القمر وصيدا وحلب ودمشق وغيرها، واستمرت فرنسا اللادينية الراديكالية بتمويل كل هذه المؤسسات -وهي مدركة تمام الإدراك ما ستحصل عليه من امتيازات -متقيدة بعبارة غامبتا: "عداوة الإكليروس ليست للتصدير"⁽²⁾. واستقرت راهبات المبرة في دمشق عام 1854م، وظهر فيها اليسوعيون من جديد عام 1875م. وفي 1863م أسست ولاية نيويورك الكلية البروتستانتية السورية التي أصبحت الجامعة الأمريكية في بيروت. ونقل اليسوعيون لينافسوا هذه الكلية مدرستهم الاكليريكية في غزير إلى بيروت عام 1875م، وجعلوا منها مؤسسة للدراسات العليا، واضعين بذلك أسس جامعة سان جوزيف المستقبلية، "تلك المنارة الروحية في منطقة البحر الأبيض المتوسط في المشرق"⁽³⁾. لم يعد المطلوب تغيير الدين فقط، وإنما تشكيل "نخبة" شديدة التأثير

بالغرب، وباختصار كما يقول موريس بريس "غزو المشرق فكرياً"⁽⁴⁾. وحسب بيان نُشر قبل

(1) خطاب جول فري، في LAURENS H.، المرجع نفسه، ص 142.

(2) في MOUTRAN N., La Syrie de demain، سورية الغد، باريس، 1916م، ص 210.

(3) BARRES M., Une enquête aux pays du Levant، باريس 1923م، الجزء 1، ص 33.

(4) المرجع السابق، الجزء 1، ص 33. كتب Baptistin Poujoulat في آب 1860م: "نصارى سورية وخاصة الكاثوليك خاضعون لناروحاً وجسداً. وقد ساهم رعايا الأبرشيتين من نصارى الناصرة واليسوعيين الذين استقروا في هذا البلد منذ زمن طويل في نشر ودعم نفوذنا في سورية في الآونة الأخيرة مساهمة كبيرة (...). فكيف لا تؤدي كل هذه العناصر الكاثوليكية

وقت قصير من الحرب كان يدرس في هذه المنشآت الفرنسية 52000 طالب، أي أكثر من نصف طلاب المدارس السورية. وقد فضح عديدٌ من المثقفين المسلمين مثل محمد عبده (1849 - 1905م) هذا المظهر المخادع للتدخل الأوروبي وهم مدركون تمام الإدراك أهداف وأخطار هذه الظاهرة.

وكان الغزوان الاقتصادي والمالي اللذان مهدا للهيمنة السياسية يزدادان في الوقت نفسه. فمنذ عام 1860م بدت الدولة العثمانية لرأسمالي أوروبا وهي مجردة من رؤوس الأموال والآلات والمصانع - ما يقال عنها اليوم بلد متخلف - كبلد جديد يمكنهم أن يصبوا فيه منتجات مصانعهم ورؤوس أموال تسعى وراء ربح جيد. وأدى توقف الدولة عن دفع ديونها عام 1878م وضعف ميزانية الدولة إلى السيطرة على بعض مواردها - كاحتكار الملح والضرائب على المشروبات الروحية وموارد التبغ وغيرها - من قبل منظمة عالمية تسيطر عليها فرنسا وإنجلترا: إدارة سداد الديون الخارجية. إن كانت هذه المنظمة قد جُنِّبت الدولة العثمانية مصير تونس ومصر اللتين جرى احتلالهما بسبب افلاسهما، فإنها سببت للدولة خسارة فادحة في ميدان السيادة. وفي عام 1875م أقام بنك "le Crédit Lyonnais" فرعاً في اسطنبول⁽¹⁾، وفي عام 1888م وكالة في سمين⁽²⁾. وفي 1863م فُتِح طريق دمشق - بيروت الذي بنته مؤسسة فرنسية مقابل حصولها على رسوم العبور، وبدأت عليه خدمة منتظمة للنقل بين المدينتين. ويبدو أن المردود المالي من هذه العملية كان ممتازاً؛ فلقد وصل معدل ربح السهم 11٪⁽³⁾. وفي كانون الثاني 1890م تشكلت جمعية عثمانية برؤوس أموال معظمها فرنسية بغية إعداد واستثمار شبكة للترام في دمشق، وكذلك خط حديدي يربط بيروت ودمشق وحوارن. افتتح الخط الحديدي في 18 تموز 1894م، ودشن رسمياً في دمشق في 3 آب 1895م بحضور السلطات العثمانية المدنية والعسكرية. وفي بيروت بنت شركة فرنسية ميناء جديداً، وبدأ استخدامه في 1894م. وفي عام 1903م استثمر خط حديدي يربط دمشق بدرعا، الجزء الأول من الخط الحديدي الكبير الذي يفترض أن يربط العاصمة السورية بمكة.

وفي نفس الوقت حكم التنافس التجاري وتقدم التكنولوجيا في الغرب على عديد من

والفرنسية عاجلاً أم آجلاً إلى انتصار حاسم للحضارة الأوروبية في سورية؟". المرجع نفسه، الجزء 1، ص 23.

(1) THOBIE J., Intérêts et impérialisme français dans l'empire ottoman 1895-1914, p 92, 1977 Paris.

(2) المرجع الأخير، ص 113.

(3) المرجع الأخير، ص 164.

القطاعات الصناعية العثمانية بالزوال. إذ تشهد الإحصائيات التي زود بها المسافرون على أهمية هذه الظاهرة؛ فلقد تقلص عدد العمال الذين يعملون في ورشات حياكة الحرير بين 1820 و1840م من 10000 إلى 1000 في حلب، ومن 8000 إلى 2000 في دمشق⁽¹⁾. ومنذ 1840م غزت القطنيات الإنكليزية الأسواق. وفي نفس السنة صرح البارون تيلور أن مصدر ثروة منطقة طرابلس، وهو تجارة الحرير الخام، "أصبح في أيدي عدد قليل من الأوروبيين"⁽²⁾، وأن المفروشات وملابس الأتراك الفاخرة أصبحت تُستورد من أوروبا⁽³⁾. دعمت سياسة إبراهيم باشا المفتوحة هذه الظاهرة، ففي عام 1839م لاحظ إدوارد بلونديل تقلص عدد مهن الحياكة، وتنبأ بموت صناعة الحرير الدمشقية خلال وقت قصير⁽⁴⁾. وفي عام 1840م أحضر تاجر من جنوب فرنسا، وهو نيكولا بورتالي، ما يقارب أربعين عاملة غزل من منطقة دروم في فرنسا، وأنشأ ورشات غزل في جبل لبنان⁽⁵⁾. ومنذ ذاك الحين وبفضل الاستثمار ومنح اعتمادات كبيرة، أخذ صناع الحرير من مدينة ليون يهيمنون على إنتاج الحرير الخام بتربية دود القز في سورية. ولم يكن صناعيو ليون وحدهم في الميدان، ففي حزيران 1852م زار فان دو فلدا معملاً للحرير على بعد أربع ساعات تقريباً من بيروت لشخص يسمى مستر سكوت وهو "صديق عزيز للمبشرين التابعين لشمال أمريكا"⁽⁶⁾. وفي 1849م لاحظ باردو أن "كل ما هو جميل قد أتى من أوروبا، وأن الأقمشة الجميلة المقصبة بالحرير جاءت من ليون حيث جرى تصنيعها خصيصاً للمشرق، وأن الموصلين والبروكار والجوخ جلبت من سويسرا وفرنسا وإنكلترا"⁽⁷⁾. وفي حوالي منتصف القرن، ذكر المبشر الأمريكي و.م.س. توماس أن "المصانع الأوروبية قد شلت تقريباً كل أنواع الفن الشرقي التي كانت مزدهرة سابقاً في دمشق"⁽⁸⁾. وفي أيار 1860م لاحظ الكونت

(1) SEURAT M., L'Etat de barbarie, p 248, 1989 Paris.

(2) TAYLOR I. J. S., المرجع نفسه، ص 49.

(3) المرجع السابق، ص 421.

(4) BLONDEL E., المرجع نفسه، ص 169.

(5) CHEVALLIER D., "Lyon et la Syrie en 1919AD. Les bases d'une intervention" في: Villes et travail en Syrie du

XIXe au XXe siècle، باريس، 1982م، ص 57، وانظر أيضاً، PARDIEU CH. (Comte de)، المرجع نفسه، ص 378.

(6) VAN DE VELDA C. M. W., المرجع نفسه، الجزء 1، ص 63.

(7) PARDIEU CH. (Comte de)، المرجع نفسه، ص 345.

(8) THOMAS W.M.C., The Land and the Book, Lebanon, Damascus and beyond Jordan, 1881-1886, p 412 London.

دو باريس أن "انهيار التجارة والصناعة في سورية جعلها مرتبطة بأوروبا"⁽¹⁾. وبعد خمس عشر سنة أكد الدكتور لورته أن صناعة نسج الحرير الدمشقية كانت تتدهور بسبب منافسة بيروت لها واستيراد كميات هائلة من الحرير من نيم أوليون، وأن القطنيات كانت جميعها تقريباً مع أنها "تقليد بشع لقماش البلد المعروف" مستوردة من أمريكا وإنكلترا، وأن الصبغات أصبحت الآن تستورد من أوروبا باستثناء القليل منها⁽²⁾. في بداية القرن العشرين ذكر دليل بيدكير Baedeker طبعة عام 1906م أن معظم الأجواخ المباعية في الأسواق كانت أوروبية، وأضاف أن صناعة "أهل البلد الأصليين"، مع أنهم مازالوا يصنعون منتجات جميلة، كانت تتدهور، وأنه "برغم وجود عشرة آلاف ورشة نسج للأقمشة الحريرية والقطنية والصوفية، كانت الصناعة الأوروبية متفوقة في كل المجالات"⁽³⁾. وفي عام 1922م أكد بيان المفوضية الفرنسية العليا أن "صناعة الحرير كانت تدين ببقائها لعلاقتها مع فرنسا" وأنه بين 1890 و1905م تقلص عدد ورشات نسج الحرير والقطن إلى الثلث بسبب المنافسة الغربية، وانخفض عدد العمال إلى النصف⁽⁴⁾.

ظهرت في نهاية العقد الأخيرين من القرن التاسع عشر حركة أثرت كثيراً على مصير سورية، وما زالت سورية حتى اليوم تعاني من نتائجها وهي الصهيونية. كان اليهود منذ القديم يهاجرون إلى الأرض المقدسة بأعداد كبيرة إلى حد ما، ولكن دائماً لأهداف دينية. فلقد لاحظ الأب أوجين روجيه في عام 1634م أن يهود المشرق "يرتابون"⁽⁵⁾ من يهود أوروبا، وتكلم عن اليهود "الذين يعيشون حالة عزلة في الأرض المقدسة ملتزمين بشعائهم اليهودية، حيث يموتون ويدفنون في الأرض الموعودة"⁽⁶⁾، وخاصة في صفد، "إذ يعتقد رهبانهم أنه حان الوقت الذي يأتي فيه المسيح

(1) Comte de Paris، المرجع نفسه، ص 52.

(2) LORTET L.C.(Dr.)، المرجع نفسه، ص 583.

(3) BAEDEKER 1906، ص 293.

(4) La Syrie et le Liban en 1922، ص 264. يبدو أن العدد 10000 الذي أشار إليه دليل بيدكير مبالغاً فيه. حسب بيان المفوضية العليا: إن عدد ورشات نسج الحرير والقطن في سورية ولبنان عام 1905م كان 2000 وأن عدد العمال الذين يعملون فيها 10000.

(5) ROGER E.، المرجع نفسه، ص 322.

(6) المرجع السابق، ص 322.

الذي ينتظرون ولادته في هذه المدينة"⁽¹⁾. وحسب روجيه كان في فلسطين حينها 15000 يهودي تقريباً، منهم مئتا عائلة في صفد⁽²⁾. إذ لابد لبعث الصهيونية من التقاء عاملين هما: نهضة الحركات الأوروبية المعادية للسامية، والإيديولوجية القومية التي تخصص لكل مجموعة من الأفراد أرضاً باعتبارهم شعباً ضمن إطار مؤسقات لدولة أساسها هوية الجماعة. ومنذ عام 1860م وفي جو من صحوة القوميات - مثل حركة ريزوجيمنتو الإيطالي، والبعث البولوني والنخ. - أخذت الاتجاهات مختلفة تطالب بإعادة بناء القومية اليهودية. في نفس السنة تأسس في فرنسا "التحالف الإسرائيلي العالمي" (l'Alliance israélite universelle) للدفاع عن اليهود المضطهدين وإحيائهم. ولم تتوقف جمعيات الإحسان المحبة لفلسطين عن التزايد، فظهرت جمعية محبي صهيون والجمعية العبرية اللندنية لاستيطان الأرض المقدسة. في عام 1870م أسس التحالف الإسرائيلي العالمي مدرسة زراعية قرب يافا كبداية رمزية لاستيطان فلسطين.

لقد كان التطلع إلى العودة إلى "أرض الأجداد" بادياً إذن عندما اندلع في عام 1880 و1881م تمرد معاد للسامية في كل من برلين وبراندنبورغ وبومراتي. في عام 1881 - 1882م بعد اغتيال القيصر الإسكندر الثاني، جاء دور روسيا لتهزها مذابح اليهود⁽³⁾ الدموية. وبرزت حينها فكرة إعادة تشكيل أمة يهودية كرد فعل وحيد لفشل استيعاب الدول الأوروبية لليهود. وفي عام 1882م وبعد وصول ثلاثة إلى أربعة آلاف مهاجر يهودي إلى فلسطين من روسيا منع الباب العالي - الذي كان لديه ما يكفي من الحركات الانفصالية وتدخل القوى الكبرى ولا حاجة له بأقلية "قومية" إضافية - هجرة اليهود، وبيع الأراضي لليهود الأجانب، أي لغير رعايا الدولة. ولكن ما من شيء منع هجرة اليهود في الخفاء، ولا حتى شراء الأراضي بسبب فساد الموظفين المحليين، ورشوة كبار الملاكين من الإقطاعيين وفقر الفلاحين. منذ عام 1891م وبفضل دعم الرأسمالي البارون إيدموند دو روتشيلد أنشئت أكثر من عشرين قرية يهودية في فلسطين.

ومع هذا كان لابد من انتظار نهاية القرن التاسع عشر حتى تأخذ الصهيونية التي كانت ذات طابع خيرى أساساً منحىً سياسياً بفضل تحريض ثيودور هرتزل. فحسب رأي هرتزل أصبحت

(1) المرجع السابق، ص322.

(2) المرجع السابق، ص322 و66.

(*) حركات قامت بها السلطات القيصريّة لاستئصال اليهود.

الوسائل التقنية للعالم الحديث تسمح - بركة المعادين للسامية السعداء بتخلصهم من اليهود المحقوتين - بهجرة تلقائية كثيفة ومنسقة، وبإعداد دولة على أرض - يفضل أن تكون فلسطين - يكون اليهود سادة فيها، وتضمن الاستيلاء عليها اتفاقيات عالمية. أمام معارضة الباب العالي فكر الصهاينة بالأرجنتين وأوغندا وقبرص وحتى منطقة العريش التي كانت تحت سيطرة الإنكليز منذ احتلال مصر عام 1882م. ومع هذا أخذ بعض الصهاينة منذ ذلك الوقت يملكون إذا ما تمكنوا من الاستيلاء على فلسطين بدولة يهودية "تمتد من النيل إلى الفرات"⁽¹⁾. بينما كان هرتزل يسعى إلى الارتباط بالقوى الكبرى لكي تضغط على الباب العالي، فإنه عرض تحالف الصهاينة مع الدولة العثمانية. وبذل جهداً متواصلاً؛ فجاب أوروبا وجاء إلى اسطنبول خمس مرات. وأقنع من تباحث معهم من الغربيين بأن الصهيونية تقوي نفوذهم في منطقة البحر الأبيض المتوسط في المشرق⁽²⁾، و"تدعم الوجود الثقافي للعالم المتحضر فيه دعماً كبيراً"⁽³⁾. وحاول إقناع العثمانيين بأنه سيجلب الازدهار للدولة العثمانية و"المزيد من السعادة والثقافة لكثير من الناس"⁽⁴⁾. أما العرب الذين كانوا ضائعين بين القوى الكبرى والباب العالي فما من أحد منحهم كثيراً من الاهتمام، ولم يكن هرتزل يشك أبداً بسرورهم في مشاركة المهاجرين اليهود "محاسن التحضر"⁽⁵⁾. لم تؤثر كل هذه الحجج على السلطان، ففي عام 1896م أجاب عبد الحميد الثاني مبعوث هرتزل - الذي قدم ليعرض مساعدته المالية مقابل دعم رسمي لاستيطان اليهود في فلسطين - بهذا التحذير المقعم بالعظمة المؤثرة:

(1) HERZL Th., Journal، مذكرات، باريس، 1990م، ص 183 (15 تشرين الأول). في روايته Altneuland المنشورة في 1902م، بدأ هرتزل دون أن يكون دقيقاً فيما يتعلق "بحدود الكيان" الصهيوني، يرى آثار "معجزة" الصهيونية تصل إلى دمشق وحتى إلى تدمر (Terre ancienne, terre nouvelle, Genève, 1980AD, p. 74) "أرض قديمة، أرض جديدة، جنيف ص 74.

(2) المرجع السابق، ص 302.

(3) المرجع السابق، ص 243.

(4) المرجع السابق، ص 191.

(5) في الواقع لم يذكر هرتزل العرب على الإطلاق في مذكراته، وإن كان لابد أنه قد التقى ببعضهم أثناء زيارته القصيرة لفلسطين في عام 1898م. في Altneuland، يصف شخصية وحيدة وهي رشيد بيك الذي يبدو أنه ممتن للغاية للصهيونية ويقول على لسانه: "كانت هذه الصهيونية بركة علينا. وبالطبع، بركة أولاً على الملاكين الذين تمكنوا من بيع أراضيهم إلى المجتمع اليهودي بثمان مرتفع، أو تمكنوا من الاحتفاظ بها بانتظار ارتفاع جديد للأسعار". ص 136. أما الآخرون، يتابع رشيد بيك، فلقد استفادوا "شاؤوا أم أبوا (...)" من نظام حياة رائع". ص 138.

"ليحتفظ اليهود بملايينهم، فقد يحصلون على فلسطين بلا مقابل في اليوم الذي ستقسم فيه الإمبراطورية، ولكن سيكون ذلك على جثتنا. إنني لا أقبل أي تشريع لأجساد حية"⁽¹⁾. ومع هذا وبرغم معارضة الباب العالي لم يتوقف عدد السكان اليهود في فلسطين عن الزيادة ليصبح بعد أن كان 25000 يهودي عام 1880م - ما يقارب 0/05 من عدد السكان الكلي - 65000 في عام 1920م⁽²⁾.

لم يكن "لمحاسن التحضر" على أرض الواقع أي تأثير على الفلاحين المطرودين من أراضيهم. منذ عام 1886م وبعد أربع سنوات من وصول أول دفعة مهاجرين، احتج الفلاحون على انتزاع ملكيتهم لقراهم، وهاجموا المستعمرات اليهودية الحديثة⁽³⁾. وفي حزيران 1891م أرسل أعيان القدس، وهم مدركون تمام الإدراك مطامع الصهيونية السياسية، عريضة إلى الصدر الأعظم يطلبون فيها "منع يهود روسيا دخول فلسطين وشراء أراضيها"⁽⁴⁾. بعد أن تمكنت معارضة الصهيونية شيئاً فشيئاً من كسب جميع طبقات السكان لجانبها⁽⁵⁾، أخذت تسلك منحى سياسياً أكثر وضوحاً. إذ رأى القرويون المحليون في الصهيونية تهديداً مباشراً، وبدت الصهيونية خطراً على الدولة العثمانية والقومية العربية التي كانت في أوجها، وعلى وحدة سورية وحتى على المجتمع الإسلامي بمجمله. في نيسان 1909م نشر الصحفي التركي يونس نادي برغم عدم إطلاعه على مذكرات هرتزل مقالاً تحذيرياً: "إنهم يحملون ببناء مملكة إسرائيلية تضم دولهم القديمة في بابل ونيينوى وستكون القدس عاصمتها"⁽⁶⁾. في عام 1911م تحدث مراسل حاوّلان في فلسطين، وهي الناطقة بلسان الصهيونية المركزية، عن المعارضة العربية بعبارات تغني عن التعليق: "أكبر قوة في فلسطين هم العرب (...). لقد نسينا تماماً أن في فلسطين عرباً، ولم نكتشفهم إلا في هذه السنوات الأخيرة (...). إن المثقفين

(1) المرجع السابق، ص 104.

(2) الكيالي أ. و، تاريخ فلسطين 1896 - 1940م، باريس، 1985، ص 1.

(3) المرجع السابق، ص 12 - 13.

(4) المرجع السابق، ص 13. وانظر أيضاً LEWIS B., Sémites et anti-sémites، باريس، 1987م، ص 219.

(5) بدرجات مختلفة طبعاً. يعتبر المؤلف الكيالي أفضل خبير فيما يتعلق بموقف أعيان فلسطين والهاشميين والملوك العرب. لقد

كان وايزمان مقتنعاً بأنه يمكن شراء معظم القادة العرب. "Note on an Interview given to Dr. Weizmann by the high".

Commissionner on 20 March 1931 A.D. في الكيالي، المرجع نفسه، ص 181. بعد نصف قرن تقريباً لم يتغير الوضع على

الإطلاق فيما يخص هذا الموضوع.

(6) LEWIS B.، المرجع نفسه، ص 221.

العرب النصارى هم أكبر أعداء الجهود اليهودية"⁽¹⁾. وبلغت المعارضة ذروتها أثناء الأشهر التي سبقت الحرب العالمية الأولى، فلقد نشطت جمعيات قومية معادية للصهيونية كان نشاطها من الطلاب غالباً؛ في اسطنبول والقدس والقاهرة وبيروت وحيفا⁽²⁾. وفي ربيع 1914م نشر أعيان القدس ويافا وغزة نداء في جريدة إسطنبول: "إذا لم يأت الرجال المخلصون لنجدة الفلسطينيين، فإن مصيرهم سيكون كمصير الهنود الحمر في أمريكا. إن الصهيونية التي أصبحت وكأنها دولة ضمن الدولة العثمانية خطر يهدد وجود العرب في فلسطين"⁽³⁾.

كانت الدولة العثمانية مدركة لضعفها وتأخرها وللخطر الذي كان يهدد أمنها ووحدتها أراضيها بسبب الأطماع الأوروبية، فحاولت منذ نهاية القرن الثامن عشر أن تمنع انهيارها بتبني برنامج واسع من الإصلاحات طال كل المؤسسات. ولكن هذه الإصلاحات كانت مستوردة من أوروبا، وقد فرضتها السلطة العليا تحت ضغط القوى الكبرى التي لم ترفضها إلا وسيلة إضافية لزيادة نفوذها، فرفضها المجتمع الذي لم يكن مستعداً لاستقبالها بعد. إن العلاج في كثير من الأحيان كان أسوأ من المرض. إذ عملت هذه الإصلاحات بما نتج عنها من إحياء التضامن والروح القومية على ظهور انشقاقات وخلافات جديدة، وزادت الخلافات القديمة حدة. وفي الوقت نفسه ظهرت نخبة من المثقفين قلقة بشأن الانحطاط - وذكروا أمجاد الماضي ما زالت حية في مخيلتها - وأكثر تقبلاً للإيديولوجيات الأوروبية نتاج تطور العلوم (الحرية والتقدم واللا دينية والقومية)، فظهرت مذاهب فكرية تدعو إلى تبني الأساليب الأوروبية في كثير من المجالات لتجنب ما هو أسوأ. ولكن سرعان ما كشف الغطاء عن مظهرها المخادع الذي يرمي إلى التدخل الأوروبي، واتهمت بأنها تفسد العقول وتهدد الإسلام بإبعاد الشريعة وجعلها تقتصر على الحياة الخاصة، وبأنها قبل كل شيء تنقض أسس التضامن التقليدية؛ فأثارت هذه الحركة رد فعل شديد عند المحافظين الذين يرون في العودة إلى الإسلام الصحيح الوسيلة الوحيدة للأمن، وأخذوا ينادون بالجهاد ضد الغزو الغربي. إذ رأى جمال الدين الأفغاني (1839 - 1897م) وقد انشغل بادئ الأمر بدعم التضامن الإسلامي، أن يطالب

(1) Ha'olam، المجلد الخامس (1911). في الكيالي، المرجع نفسه، ص 25 - 26.

(2) الكيالي، المرجع نفسه، ص 32 - 36.

(3) الكيالي، المرجع نفسه، ص 39. فيما يتعلق بالمقارنة بين الهنود الحمر والفلسطينيين، وبين الإمبريالية الأمريكية والصهيونية، انظر إلى I، expulsion' SANBAR، Palestine 1948، واشتد د.س.، 1984م، ص 89 والثالثة.

بمعارضة أوسع، وينادي من الآن فصاعداً بوحدة "كل الشرقيين"⁽¹⁾ أمام التوسع الأوروبي.

كان سليم الثالث (1789 - 1807م) الذي استلم العرش في نفس السنة التي قامت فيها الثورة الفرنسية هو أول من بدأ بالإصلاحات الكبيرة الأولى. ولما كان مدركاً بأن تحديث الجيش شرط أساسي لبقاء الإمبراطورية، أنشأ بمساعدة تقنيين سويديين وألمان وبريطانيين وخاصة فرنسيين مدارس بحرية وعسكرية جديدة، وكذلك جيلاً جديداً من الجنود المشاة المدربين على الطريقة الأوروبية. وعندما وجد الإنكشاريون أنفسهم في خطر تمردوا بدعم العلماء، وعُزل سليم الثالث في أيار 1807م، وألغيت كل الإصلاحات التي قام بها أثناء خلافة مصطفى الرابع القصيرة. يعد محمود الثاني (1808 - 1839م) الذي توافق حكمه مع بداية تفكك الإمبراطورية العثمانية - حصلت اليونان على استقلالها، وكذلك حصلت صربيا ومصر على حكمهما الذاتي - المصلح والمجدد الحق بما قام به من إصلاحات سميت "التنظيمات"، والتي بدأت في عام 1826م بمذبحة للإنكشاريين. وأعد جيش جديد بمساعدة مدربين فرنسيين وبروسيين، وأسست مدارس للضباط والأطباء والموظفين، وأُرسلت بعثات للتعليم في أوروبا، وقُضي على آخر الإقطاعيات، وعُدِّل جهاز التوظيف كاملاً، وأُصلحت إدارة الأوقاف، وجرى تبني الزي الأوروبي كلباس رسمي. في 3 تشرين الثاني 1839م بعد وقت قصير من موت محمود، أعطى خليفته وابنه عبد المجيد الأول الإصلاحات منحى جديداً بإصدار الخط الهمايوني الذي عُرف كذلك باسم مرسوم غُلهان، وعمل على إجراء تعديلات جذرية في القطاعات القضائية والمالية والإدارية في السنوات التالية، ونشأت محاكم مدنية وجنائية وتجارية، وبدأ العمل بقانون الجزاء وقانون تجاري جديد. أكد خط الهمايون الصادر 18 في شباط 1856م على مواد الخط الهمايوني السابق. أخيراً في نهاية 1876م وتحت ضغط حركة الشباب العثماني التي كانت تدعمها القوى الكبرى، قام نظام يعتمد تمثيل الشعب ولكنه لم يستمر. قام عبد الحميد الثاني (1876 - 1909م) في اليوم التالي لاستلامه العرش بإصدار دستور يخضع الوزراء للمحاسبة، ويسمح بتشكيل مجلس شيوخ يعين أعضاؤه، ومجلس نواب منتخبين. وفي أقل من سنة حُلَّ البرلمان، وتوقفت الحكومة عن العمل، وأُرسل مؤسسها مدحت باشا إلى الحجاز ليعيش فيها تحت الإقامة الجبرية. وكانت هذه نهاية التنظيمات وبداية نظام استبدادي استمر أكثر من ثلاثين سنة، يتميز برد فعل شديد على سياسة التغريب السابقة، والعودة إلى الإسلام لكونه

(1) HOURANI A.، المرجع نفسه، ص123.

عامل التضامن القومي، والتقرب من الألمان لتعديل كفة أطماع الفرنسيين والإنكليز. وفي تشرين الأول 1898م تعهد الإمبراطور غليوم الثاني عندما كان في ضيافة السلطان عبد الحميد في دمشق في تصريح له بحمايته التامة "لثلاثمئة مليون مسلم" يعيشون في العالم⁽¹⁾.

في عام 1908م منع انقلاب "تركيا الفتاة" السلطان من إعادة العمل بدستور عام 1876م واستدعاء البرلمان. في العام التالي خلع عبد الحميد وحل محله أخوه محمد الخامس العجوز الطيب القلب ليحكم الإمبراطورية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. لجأت تركيا الفتاة متأثرة ببعقوية الثورة الفرنسية وقد أهمها أولاً إنقاذ وحدة الإمبراطورية إلى سياسة تترك مركزية صارمة أزكت طموح العرب في الحكم الذاتي. تشكلت جمعيات سرية في كل مكان تقريباً، في بيروت والقاهرة ودمشق، تنادي بالانفصال ووحدة العرب مسلمين ونصارى ويهود. ففي أول مؤتمر عربي عقد في باريس في حزيران 1913م طالب عديد من المشاركين بالاعتراف بالعرب "أمة" لها حقوقها في الحكم الذاتي ضمن دولة عثمانية لامركزية، وتمثيل عادل في البرلمان. اضطر أحد منظمي المؤتمر وهو ندره مطران المنحدر من أسرة أرثوذكسية دمشقية أن يعترف وهو ينادي بحماس "بحقوق ومصالح الفرنسيين الخبوية في المشرق" بأن "قسماً كبيراً من مسلمي سورية يحملون بدولة مستقلة، أو تتمتع بحكم ذاتي برئاسة أمير عربي يفضل أن يكون هاشمياً"⁽²⁾. أثمرت الإيديولوجية القومية المستوحاة من أوروبا، وتلاشت وحدة الأمة التي كانت منذ دولة المدينة المنورة تتجاوز كل المعايير العرقية واللغوية، وتبني روابط التضامن والوحدة على أسس إسلامية. وأخيراً ثار الخلاف بين الأتراك والعرب، الذي سبق أن رأى فيه كل من دارفيو ونوانتل⁽³⁾ عاملاً كامناً باعثاً للانشقاق والعمل السياسي. استغلت الصحافة الفرنسية هذا الانشقاق، وأخذت تطالب جميعها بحقوق فرنسا في سورية. ففي مجلة قضايا دبلوماسية واستعمارية "Questions diplomatiques et coloniales" جاء جورج بوانيان في آذار 1913م بطرح يقول: "إن سورية الفرنسية - حسب زعمه - جزء من تراث فرنسا الموروث"⁽⁴⁾.

(1) GEORGEON F.، في Histoire de l'empire ottoman، باريس، 1980م، ص 564.

(2) MOUTRAN N.، سورية الغد، La Syrie de demain، باريس، 1916م، ص 209، 210.

(3) المرجع في الأعلى، ص 64 - 65.

(4) في THOBIE J.، المرجع نفسه، ص 710. صرح في 21 كانون الأول 1912م ريموند بوانكاره وزير خارجية فرنسا في تصريح له في مجلس الشيوخ: "لا حاجة للقول: إن لنا في لبنان وسورية مصالح موروثة، وإنما نعمل لكي نُحترم (...). لن نتخلّى عن

في نهاية كانون الثاني 1913م وفي غمرة حرب البلقان استولت فئة من الضباط على السلطة بقيادة إنفر باشا. وفي الأول من آب 1914م اندلعت الحرب العالمية الأولى. وفي 9 أيلول ألغت تركيا الامتيازات الأجنبية، ووضعت حداً لنظام الحكم الذاتي في جبل لبنان الذي حسب نص برقية أرسلت من ألمانيا "فُرض على الدولة العثمانية تحت ضغط فرنسا"⁽¹⁾. وفي 29 تشرين الأول وبرغم ما تعرضت له الإمبراطورية العثمانية حديثاً من هزائم في البلقان، و"الخزنة الفارغة والجيش الرديئة اللباس والمجهزة بأسلحة متخلفة"، فإنها انحازت بوضوح إلى جانب إمبراطوريات أوروبا المركزية. وفي تشرين الثاني أعلن السلطان محمد الخامس الجهاد ضد الحلفاء، ولكن العرب كما يؤكد الجنرال ليمان فون سندرز رئيس الحملة العسكرية الألمانية لم يحركهم هذا النداء، إذ كتب: "لم تكن الدعوة إلى الحرب المقدسة لدى العرب المحمديين الخاضعين للهيمنة التركية كافيةً لمحو الكراهية العميقة الجذور بين الأتراك والعرب، والاستياء العام الذي عملت الإدارة التركية على تغذيته وشحنه جيلاً بعد جيل"⁽²⁾. وقمع جمال باشا قائد الجيش التركي في سورية القوميين العرب بوحشية متناهية، فنفي عدة آلاف منهم، وأعدم عشرات ومن بينهم حفيد الأمير عبد القادر الذي رافق موريس باريس في زيارته لدمشق قبل عدة أشهر⁽³⁾. ولم تضطر بريطانيا أن تبذل جهداً كبيراً في إقناع شريف مكة ليثور على الأتراك.

في القرن التاسع عشر بدت دمشق للمسافرين الأوروبيين مدينة متعصبة، وذلك بسبب عزلتها وضعف تعاملها التجاري مع أوروبا، وقوافل الحجاج الكبيرة التي تجمع فيها كل عام الآلاف من المؤمنين الراغبين في الحج⁽⁴⁾. في عام 1807م لاحظ المسافر الأسباني باديا إبلش أن "تعصب سكان دمشق يفوق تعصب سكان مصر، لدرجة أنه يُحشى على أوروبي السير في الطريق بزي بلده، لذا لا بد له من ارتداء لباس أهل المشرق"⁽⁵⁾. وفي عام 1831م ذكر جوزيف ميشو أن مدينة دمشق كانت

إرثاً، ولن تترك مصالحنا فيها تتأثر بأي شكل من الأشكال". في الأشكال". le Comte R. de gontaut-biron، كيف استقرت فرنسا في سورية، Comment la France s'est installée en Syrie، باريس، 1922م، ص 4.

(1) في LAMMENS، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 218.

(2) SANDERS L. (von)، خمس سنوات في تركيا، Cinq ans de Turquie، باريس، 1923م، ص 45. حول الأوضاع الداخلية في سورية أثناء الحرب، المرجع الأخير، ص 271، والتالية.

(3) BARRES M.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 154 - 160.

(4) BUSCH M. (Dr.)، المرجع نفسه، ص 89.

(5) BADIA Y LEYBLICH D.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 273.

تعمل جاهدة "لمنع روح أوروبا الفاسدة من العصف بها"⁽¹⁾ رغبة منها في البقاء طاهرة، وأن المؤمنين الصادقين كانوا لا يحبون السلطان محمود ويتهمونهم "بالابتعاد عن طرق الإسلام"⁽²⁾. ولقد أُجبر ميشو عندما وصل إلى أطراف المدينة أن ينزل عن فرسه ويتزع مسدساته من حزامه، لأنه كما ذكر "على الكافر ألا يدخل المدينة المقدسة إلا وقد بدت عليه الذلة"⁽³⁾. وبرغم حرصه على ارتداء "ملابس المسلمين"، كان يتلقى في كثير من الأحيان الشتائم عندما يُعرف بأنه إفرنجي⁽⁴⁾، وخاصة في القرى حيث كان الناس حسب رأيه أكثر وقاحة وتعصباً⁽⁵⁾. وفي نفس السنة عندما تهورج. روبنسون وغامر في البقاء على ظهر فرسه بالقرب من الأسوار، طرحه "ثلاثة أتراك ذوو وجوه كالحة" على الأرض، وانهالوا عليه بالشتائم⁽⁶⁾. فثار حشد من الناس، ونزعوا عمامته، وبصق "شاب سوقي" في وجهه، واستطاع في النهاية أن يصل إلى أبواب المدينة "يتبعه جمع من الأطفال والنساء وهم يرمونه بالحجارة"⁽⁷⁾. وقد كتب البارون تايلور: "تعصب المسلمين فيها كرهه وعنيف ولا مثيل له في أي مكان آخر"⁽⁸⁾. وقد حرص لامارتين عندما وصل إلى أطراف دمشق عام 1833م بعد عام من دخول جيش إبراهيم باشا المصري، على "إكمال"⁽⁹⁾ لباسه التركي لأن "الدمشقيين فقط من بين أهل المشرق يؤججون تعصبهم الديني ومقتهم للباس والأوروبي (...). فبرغم تهديدات الباب العالي، وتدخل إبراهيم باشا وفيلق من اثني عشر ألف جندي مصري وأجنبي، أصر السكان على منع القنصل الإنكليزي في سورية من اجتياز أسوارها (...). دمشق مدينة مقدسة متعصبة وحرّة؛ ولا يسمح لأي شيء أن يدنسها"⁽¹⁰⁾. ويضيف لامارتين: أن تعصب السكان هدد القنصل الفرنسي

(1) MICHAUD J. et POUJOULAT B.، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 157.

(2) المرجع الأخير، ص 157.

(3) المرجع الأخير، ص 147.

(4) المرجع الأخير، ص 167.

(5) المرجع الأخير، ص 201.

(6) ROBINSON G.، رحلة في سورية وفلسطين، Voyage en Syrie et en Palestine، باريس، 1838م، ص 121.

(7) المرجع الأخير، ص 155.

(8) TAYLOR I.J.S.، المرجع نفسه، ص 121.

(9) LAMARTINE، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 50.

(10) المرجع الأخير، ص 50.

م. بودان عدة مرات، وإن حياته كانت في خطر مستمر، وقد بنى لنفسه منزلاً في زحلة يلجأ إليه "في أوقات العصيان الشعبي"⁽¹⁾.

يبدو أن سياسة إبراهيم باشا التي "قمعت بحزم تعصب الدمشقيين المعادي للفرنجة والنصارى"⁽²⁾ قد أثمرت. ففي حين كان القنصل الإنكليزي متر فارن لا يتمكن من دخول المدينة إلا في ظل حراسة مصرية⁽³⁾، استطاع الأديب الإنكليزي شارت غرينستريت أديسون في عام 1835م دخول المدينة ممتطياً فرسه وبملابسه الأوروبية⁽⁴⁾. بعد انسحاب القوات المصرية اجتهد الباب العالي في الحفاظ على التغيرات التي طرأت على أخلاقهم، فلقد كتب بارديو عام 1849م: "نرى هنا نتائج تدابير إبراهيم باشا الحازمة، فلقد عمل جاهداً على ترسيخ احترام الأجانب لدى هؤلاء المسلمين الشرسين، حتى إن الإفرنجي كان بإمكانه بعد مرور زمن على رحيل إبراهيم باشا أن يتجول في كل مكان بزيه الأوروبي وبكل أمان"⁽⁵⁾. ولكنه أمان مؤقت، لأن "الخوف فقط هو الذي كبح تعصب وعنف الدمشقيين"⁽⁶⁾. لذا "أثناء انتشار وباء الكوليرا عام 1848م كان المتعصبون مقتنعين بأن النصارى هم الذين جلبوه، فقابلوا القنصل الفرنسي السيد كومب في السوق، وأخذوا يشتمونه وهجوا العامة ضده، فطرحوه أرضاً وأسأوا معاملته فتُقل إلى منزله"⁽⁷⁾، وفي عام 1850م مدح غوستاف فلويرت أدب وعادات أهل دمشق الطيبة بقوله: "إنهم أقل تعصباً وأكثر تسامحاً مما سبق"⁽⁸⁾. منذ ذلك الوقت وعلامات الانفتاح تتزايد. فبعد عدة سنوات لاحظ المايجور فريدولن أنه "بإمكان شخص يرتدي معطفاً أبيضاً أن يخرج إلى السوق دون أن يتعرض للخطر، وأن بإمكان النصارى التجول في الشوارع"⁽⁹⁾. وفي حوالي 1880م أكد الدكتور لورتيه أنه لم يعد أحد يشتم

(1) المرجع الأخير، ص 51.

(2) ADDISON Ch. G.، المرجع نفسه، ص 450.

(3) BURTON I.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 49. ROBINSON G.، المرجع نفسه، ص 442.

(4) ADDISON Ch. G.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 97.

(5) PARDIEU Ch. (Comte)، المرجع نفسه، ص 339.

(6) المرجع الأخير، ص 342.

(7) المرجع الأخير، ص 342.

(8) FLAUBERT G.، رحلة في المشرق، Voyage en Orient، باريس، 1949م، ص 190.

(9) FRIDOLIN (Major)، المرجع نفسه، ص 78.

نصارى البلد والأجانب أو يزعمهم، وأنه أصبح باستطاعتهم "التجول في كل مكان دون الحاجة إلى دليل وبكل أمان"⁽¹⁾. وفي عام 1906م لم يعد في دمشق حسب رأي جون كلمان شيء يذكّر بالتعصب⁽²⁾، وأنه يوجد في دليل سورية المسمى بيدكير الصادر في نفس السنة هذا الإيضاح الذي لا لبس فيه: "ومع هذا لا يمكن الادعاء بأن المسلمين هنا أكثر تعصباً من أتباع الديانات الأخرى: إنهم يتميزون حتى عن نصارى البلد بوفائهم"⁽³⁾.

كنتيجة طبيعية لمقاومة التأثير الغربي هذا، كانت المباني الدينية تُغلق في وجه الأجانب. ففي عام 1830م اشتكى تايلور لأنه مُنع من دخول صحن الجامع الأموي⁽⁴⁾. وفي عام 1831م "علم روبنسون أثناء إقامته في دمشق أن بعض النصارى الغرباء في المدينة ضُربوا على أقدامهم بالعصي لأنهم توقفوا لرؤية الفناء"⁽⁵⁾. وبعد عامين أكد لامارتين الذي كان يظن أن المبنى "هو كنيسة القديس يوحنا الدمشقي سابقاً"⁽⁶⁾، أن "النصراني الذي يندس الجامع بدخوله يعرض حياته للخطر"⁽⁷⁾، واكتفى باستراق النظر إلى الصحن من خلال "باب يؤدي إلى السوق"⁽⁸⁾. وفي نهاية الخمسينات من القرن التاسع عشر ذكر جورج دو سالفرت أن "أوروبياً دفعه فضوله المميت إلى أن يخاطر بنفسه، ويدخل متكرراً بزي تركي كنيسة يوحنا المعمدان التي تحولت اليوم إلى مسجد، اكتشف أمره فُضرب وفقد أذنه وكاد أن يفقد حياته"⁽⁹⁾. ولم يُرفع الحظر إلا بعد القمع الذي مارسه فؤاد باشا بعد مذابح النصارى في عام 1860م. فلقد ذكر ليكلاما أنجهولت أنه منذ ذلك الوقت أصبح بالإمكان التجول في أجزاء هذا الجامع دون أي إشكال، ولكن برفقة ترجمان أو أحد قواصي القناصل

(1) LORTET L.C. (Dr)، المرجع نفسه، ص 606.

(2) KELMAN J., From damascus to Palmyra, p 123, 1908 London.

(3) BAEDEKER 1906، المقدمة.

(4) TAYLOR I.J.S، المرجع نفسه، ص 115.

(5) ROBINSON G، المرجع نفسه، ص 299.

(6) LAMARTINE، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 72.

(7) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 72.

(8) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 72.

(9) SALVERTE G. (de)، المرجع نفسه، ص 157.

ويدفع بخشيش كبير"⁽¹⁾، حتى إنَّ عديداً من المسافرين صدعوا منارة العروس⁽²⁾. في حين استمر منع التصوير مدة طويلة كما يذكر جون كلهان الذي أكد لنا أنه استطاع أن يصور بنفسه عام 1906م دون إزعاج، ولكنه أضاف: إنه قبل عشر سنوات "كاد العوام أن يقتلوا أحد الدمشقيين لأنه حاول أن يصور حطام الجامع بعد حريق 1893م"⁽³⁾.

وبرغم هذا المنع الذي استمر حتى عام 1860م تمتع قلة من الأوروبيين قبل هذا التاريخ بزيارة المكان بالحنكة أو بفضل مراكزهم التي خولتهم الحصول على إذن استثنائي. ففي 1807م لم يجد باديا إلبيلش أي صعوبة في دخول المبنى، وقد ترك لنا أقدم وصف للجامع قام به أوروبي⁽⁴⁾. في 23 آذار 1816م افتخر الإنكليزي باكنكهام لدخوله الجامع بالحيلة، إذ كتب: "ولما كانت وجوهنا غير معروفة للمسلمين في دمشق، ذهبنا أولاً إلى الجامع الكبير حيث نزعنا أحذيتنا قبل دخولنا إليه، وعبرناه بجسارة، وقد ساعدتنا لحانا وعمائنا البيضاء وتقليد سلوك الأتراك أو العرب الذي لا يمكن القيام به إلا بالتمرن، فمررنا دون أن يكشف أمرنا، أو حتى ينظروا إلينا"⁽⁵⁾. يذكر لكلاما أنيجهولت أن دوق ودوقة برابانت حصلوا عام 1846م على إذن "بزيارة سريعة له"⁽⁶⁾. وأخيراً في أيار 1860م سمح باشا دمشق للكونت دو باريس بزيارة المكان، ولكن ليلاً حتى "لا يثير تعصباً ليس بمقدوره حمايته منه"⁽⁷⁾ حسب قوله.

إن كانت دمشق كما يذكر جورج سالفرت "ملجأ ومركز كل من يرفض الإصلاحات التي فرضتها أوروبا على الحكام العثمانيين، والتي لجؤوا إليها لإطالة عمر إمبراطوريتهم"⁽⁸⁾، وأنها أصبحت معقل مقاومة النفوذ الغربي، فلقد احتفظت بطابعها الشرقي مدة أطول مما احتفظت به

(1) LYCKLAMA A NIJEHOLT T.M.، المرجع نفسه، الجزء 4، ص 551.

(2) LYCKLAMA A NIJEHOLT T.M.، المرجع نفسه، الجزء 4، ص 554. BURTON I.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 167.

THOMSON W. M. C.، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 380.

(3) KELMAN J.، المرجع نفسه، ص 123. مُنع التصوير من جديد في قاعة الصلاة عام 1990م.

(4) BADIA Y LEYBLICH، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 265 - 266.

(5) BUCHINGHAM J.S.، رحلات بين عرب القبائل، Travels among the Arab tribes، لندن، 1825م، ص 307.

(6) LYCKLAMA A NIJEHOLT T.M.، المرجع نفسه، الجزء 4، ص 549.

(7) Comte de Paris، المرجع نفسه، ص 15 - 16.

(8) SALVERTE G. (de)، المرجع نفسه، ص 157.

اسطنبول أو القاهرة أو بغداد؛ هذا الطابع الشرقي أثار فضول المسافرين المغرمين بالأصالة واللون المحلي. ففي عام 1831م أكد روبنسون على طابعها "الشرقي الحق"⁽¹⁾. وبعد وقت قصير ذكر لامارتين أنه "لا علاقة بينها وبين أوروبا"⁽²⁾. وفي عام 1835م كتب شارل غرينستريت أديسون (وهو شديد الملاحظة) في مذكراته: "دمشق مدينة شرقية بحق، أكثر شرقية من إسطنبول. هنا كل شيء شرقي؛ لا وجود لحي إفرنجي، ولا يتسكع فيها فقراء الصعاليك ذوو القبعات السوداء والمعاطف الخضراء الطويلة، وما من أحد يقلد الزي الأوروبي المضحك أو الشطط الأوروبي بأمر من سلطان مجدد (...). إنها مدينة تفوق كل المدن التي شاهدها"⁽³⁾. ورأت فيها إيزابل بورتن "أكثر مدن العالم شرقية وأصالة"⁽⁴⁾. وفي نهاية سنوات 1870م لاحظ الدكتور لورتيه الذي لم ير فيها إلا ما يقارب عشرين فرنسياً وإنكليزياً، أن "زيارتها مثيرة أكثر بكثير من زيارة القاهرة أو اسطنبول اللتين أصبحتا اليوم مدينتين شبه أوروبيتين"⁽⁵⁾. وفي بداية القرن العشرين أكد رولاند دورجلية أنه وجد فيها "الشرق الأسطوري"⁽⁶⁾.

ومع هذا كانت أوروبا حاضرة منذ وقت طويل برغم رفض الناس لها، وقد كان فلوبرت من أوائل من لاحظ هذا عام 1850م. فلقد أصبح مقهى يقع في نهاية سوق العطارين فجأة "قطعة من أوروبا في آسيا"، إذ كان الأتراك يرتادونه بملابسهم الأوروبية⁽⁷⁾، وأصبح تُرى في بعض المنازل ثريات البندقية الزجاجية وطراز أثاث "متكلف يشابه في بعض الأحيان طراز لويس الخامس عشر"⁽⁸⁾. في عام 1850م كان تأثير أوروبا حسب رأي الماجور فريدولن واضحاً حتى في قلب "قلعة المحافظين" في قافلة الحج المقدسة؛ إذ كان موكب حرس المشاة يرتدي "لباساً على الطراز

(1) ROBINSON G.، المرجع نفسه، ص 290.

(2) LAMARTINE، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 63.

(3) ADDISON Ch. G.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 140 - 141 و 121.

(4) BURTON I.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 25.

(5) LORTET L.C. (Dr) ، المرجع نفسه، ص 586.

(6) DORGEL7S R.، قافلة بلا جمال، La caravane sans chameaux، باريس، 1928م، ص 155.

(7) FLAUBERT G.، المرجع نفسه، ص 194.

(8) المرجع الأخير، ص 187. مازال حتى اليوم يحب الدمشقيون البرجوازيون الأثاث على طراز لويس الخامس عشر.

الأوروبي وفقاً لتصاميم روسيني وميربير، مما أدهش أغنياء سمرقند وطهران والدرأويش⁽¹⁾. وفي عام 1872 رثى أوجين ملشوار دو فوغيه "غزو البناء الأوروبي الذي قضى على المنازل القديمة"، وأضاف: أن "كل ما في الأبنية الحديثة انحطاط شديد وغبي"، وإن كان المخطط التقليدي لا يزال مأخوذاً به⁽²⁾. ويذكر لورتيه أن "الأوروبيين أفسدوا الفن بإحضارهم الكنب وطاولات الصالات وغير ذلك من الأثاث الذي لا علاقة لطرازه بالإبداع العربي على الإطلاق"⁽³⁾. وبعد الملابس والأبنية جاء دور الهندسة المعمارية، ففي حوالي 1881م لاحظ ألسيد لورو عند وصوله إلى دمشق فيلات مبنية على الطراز الشرقي ولكن "أفسدها التأثير الأوروبي"⁽⁴⁾. وقد ذكر "أن أكثر الأحياء تأثراً بالطراز الأوروبي كان الحي المطل على نهر بردى"⁽⁵⁾. وفي عام 1894م فوجئ بيير لوتي الذي كان يتوقع رؤية مدينة قاسية محاطة بالأسوار⁽⁶⁾، بأن وجد في دمشق "مشرقاً مرحاً، ومدينة مسلمة ضاحكة ومنفتحة"⁽⁷⁾، وأن يرى فيها أيضاً "مدينة غنية بالفن"⁽⁸⁾ ويمجدها "شرقية"⁽⁹⁾ المظهر. وأكد خلافاً لفلوربت أنه لم ير على الإطلاق ملابس أوروبا التعيسة، ولا "حتى على ركاب عربات الخيل"⁽¹⁰⁾، ولكنه رثا وجود تلك "المستوردات البشعة كساعات البندول المصنوعة من البرونز المزيف، ومصابيح الزيت وثريات في غرف الطعام"، وتساءل: "ماذا سيحصل العام المقبل عندما تلفظ سكة الحديد بعد انتهائها بضائع الغرب الرديئة في دمشق؟"⁽¹¹⁾. في بداية القرن العشرين تسارعت حركة "التغريب". فكما يوضح دليل بيدكير كثر

(1) FRIDOLIN (Major)، المرجع نفسه، ص 93.

(2) VOGUE E. M. (de)، المرجع نفسه، ص 79.

(3) LORTET I. C. (Dr)، المرجع نفسه، ص 582.

(4) LOROUX A.، لبنان والبحر، بيروت، بعلبك، دمشق، نانت، 1888م. ص 68.

(5) المرجع الأخير، ص 71.

(6) LOTI P.، La Galillee، باريس، 1924م، ص 135.

(7) المرجع الأخير، ص 137.

(8) المرجع الأخير، ص 135.

(9) المرجع الأخير، ص 135.

(10) المرجع الأخير، ص 145.

(11) المرجع الأخير، ص 145 - 146.

ارتداء الناس وخاصة النصارى للملابس ذات الطراز الأوروبي التي كان يخطها الخياطون اليونان الأرثوذكس⁽¹⁾. كما رأى موريس باريس عند قدومه إلى دمشق قبل الحرب العالمية الأولى عن طريق بيروت "منازل أوروبية"⁽²⁾ على ضفاف نهر بردى.

ومع أن دمشق دون أدنى شك كانت مدينة شرقية بكل معنى الكلمة، إلا أنها لم تكن في نهاية هذا القرن "في أوجها" كما كتب بيير لوي⁽³⁾. فلقد مر وقت طويل على ما كان يؤكد المسافرون الأوروبيون مثل بوغجيوبونسي عام 1348م بأنهم كانوا مسحورين جداً بها لدرجة أنهم كانوا لا يكتبون عنها خوفاً من ألا يصدقهم الناس⁽⁴⁾. وفي القرن التاسع عشر هيمن الحديث عن التخلف على المواضيع الأخرى. في البداية كان التخلف مادياً؛ كتب بلوندل عام 1838م: "لا يصلح الأتراك مبانيهم العامة؛ فعندما تسوء حالتها وتصبح مهددة بالانهيار يتخلون عنها، فلا يهدمونها ليستغلوا موقعها أو مواد بنائها"⁽⁵⁾، وإنما يتركونها للزمن ليزيلها، ويختارون موقعاً أنسب للبناء الجديد"⁽⁶⁾. أما فيما يتعلق بالمنازل السكنية، فلقد لاحظ أن "مظهرها الخارجي وسخ وخرب"⁽⁷⁾. "لقد فقدت دمشق بريقها اليوم في نظر الدكتور م. بوخ الذي زارها قبل عام 1860م بقليل، (...) وازداد تلف أبنية المسلمين الجميلة عاماً بعد عام"⁽⁸⁾. وفي نظر أوجين ملشوار دو فوغيه، لم تحتفظ دمشق من ماضيها اللامع بشيء، ولم يبق شيء من عظمة الأيام الخالية (...)⁽⁹⁾. ولم تعد إلا "بلدة فقيرة (...)" وتجمع منازل مبنية من لبن الطين والقش، منخفضة ومقوسة ومبتورة وتائهة في متاهة من الشوارع الضيقة

(1) BAEDEKER، نشرة عام 1906م، ص 297.

(2) BARRES M.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 146.

(3) LOTI P.، المرجع نفسه، ص 145.

(4) POGGIBONSI Fra N. (da)، المرجع نفسه، ص 78.

(5) يمكن أن تكون هذه الملاحظة صحيحة جزئياً في القرن التاسع عشر، ولكنها بعيدة عن الصحة على طول التاريخ، إذ تؤكد أمثلة عديدة ذكرت في هذا الكتاب العكس.

(6) BLONDEL E.، المرجع نفسه، ص 151.

(7) المرجع الأخير، ص 167.

(8) BUSCH M. (Dr)، المرجع نفسه، ص 88.

(9) E. M. (de) VOGUE، المرجع نفسه، ص 75 - 74.

الوسخة، ومتجمعة حول مساجد شبه مهدمة⁽¹⁾. وحتى المنازل القديمة والجميلة التي أفسدها غزو المفروشات الأوروبية، لم تنج من "فقر وإفلاس العائلات"⁽²⁾. أما القلعة فلقد أصبحت حطاماً كما أكد معظم المسافرين⁽³⁾. ومن علامات هذا التداعي أن دمشق لم تعد "مدينة النور" التي كانت إنارتها الليلية تبهر زائريها في القرون الوسطى. بل على العكس، الكل يتعجب من كونها غير منارة مثل المدن المعاصرة لها في الغرب. إذ كتب روبنسون عام 1831م: "شوارع دمشق ليست فقط غير مضاءة في المساء، بل إن السير فيها ممنوع نوعاً ما في وقت متأخر؛ لأن في نهاية كل شارع يوجد حاجز خشبي - لمنع قيام حركات التمرد - فيضطر المرء بغية زيارة صديق، وإن كان بالجوار أن يصطحب معه شخصاً يحمل فانوساً ومسلحاً بعضاً بطرق بها الحواجز المختلفة التي يرغب بعبورها"⁽⁴⁾.

ثم كان التخلف اقتصادياً؛ ففي الثلث الأول من القرن بقيت بعض المهن اليدوية التقليدية مزدهرة. وفي عام 1807م حسب ما نقل باديا إلبيلش، كان في دمشق "أكثر من أربعة آلاف حرفي يصنعون الأقمشة القطنية والحريرية"⁽⁵⁾. وفي عام 1831م ذكر ميشو، من بين المنتجات المختلفة صناعة الحرير وسروج الخيل كانتا الفرعين التجاريين الرئيسيين⁽⁶⁾. كانت أسواقها غنية مثل أسواق اسطنبول، ولكنها أكثر أناقة وانسجاماً مع الثروات التي تحتويها⁽⁷⁾. نجد فيها 31 خاناً و72 دكاناً للسرور و129 مدبغة و47 مصبغة و22 مطبعة و195 صباغاً منهم 120 يهودياً مختصاً بصباغة الحرير و748 تاجر أقمشة يبيعون القماش المدعو "بالدمشقي" و98 قياطينياً⁽⁸⁾ و34 منزلاً لرزم الحرير و143 حائكاً و19 دكاناً لخياط القطن و11 تاجر خيام و47 تاجر نحاس و50 تاجر حديد و70 تاجر فرو

(1) المرجع الأخير، ص 72.

(2) المرجع الأخير، ص 79.

(3) PARDIEU C. (Comte de)، المرجع نفسه، ص 346. MADOX J., Excursion in the Holy Land, Egypt, Nubia, Syria, etc.، لندن، 1834م، ص 128.

(4) ROBINSON G.، المرجع نفسه، ص 297. وانظر أيضاً ADDISON CH. G.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 119 و LORTET L. C. (Dr) المرجع نفسه، ص 586.

(5) BADIA Y LEYBLICH D.، المرجع نفسه، ص 267.

(6) MICHAUD J. و POUJOLAT B.، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 165.

(7) المرجع الأخير، ص 166.

(8) القياطيني هو صانع أو تاجر القياطين، والقيطان محبوك من خيوط حريرية ومعدنية تزين به أطراف الثوب.

و24 تاجر حبوب و58 تاجر طحين و32 تاجر حلوى و6 تاجر ورق و43 بائع غلايين و150 تاجر تبغ وقهوة و211 تاجر توابل و129 قصاباً و122 مقهى و124 حلاقاً و19 تاجر أسلحة و71 خياطاً و6 تاجر ساعات و6 مُجلدي كتب و4 مصانع للزجاج و4 للصابون وأكثر من 500 طباخ وشواء لعامة الناس⁽¹⁾، وغيرهم. يذكر ميشو كدليل على حيوية التجارة، بأنه زار حياً واسعاً "تشغله كاملاً مجموعة من التجارين عملهم الوحيد تجهيز صناديق للبضائع"⁽²⁾.

كانت قافلة مكة أهم القوافل، ثم قافلة بغداد المكونة من ثلاثة إلى خمسة آلاف حمل⁽³⁾ والتي كانت تعبر الصحراء خلال سبعة وأربعين يوماً⁽⁴⁾ مرتين أو ثلاث مرات في السنة⁽⁵⁾، محملة بالبضائع من كل المشرق وجالبة منتجات أوروبية. ولكن كما ذكر ميشو كانت قوافل أخرى تحمل في كل يوم أقمشة الحرير والقطن والحلوى والفاكهة المجففة إلى مصر وبغداد وطرابلس واسطنبول⁽⁶⁾.

حسب ما كتبه مقالته نشرتها "مجلة المشرق" La Revue de l'Orient عام 1843م كانت أسواق دمشق كثيرة وغنية "البضائع الآسيوية والأوروبية"، وكانت دمشق من "أنشط المدن الآسيوية تجارة وأكثرها ازدهاراً"⁽⁷⁾. فلقد كان هناك سبعون متجرّاً مسلماً يتعامل مع أوروبا⁽⁸⁾، ومن بين التجار الذين كانوا يتعاملون مع البلاد الأجنبية اليهود الذين كانوا يتعاملون في الدرجة الأولى مع بريطانيا وقد كانوا "الأكثر غنى وثراء"⁽⁹⁾. فلقد كان رأس مال المتجر من متاجرهم والتي بلغ عددها أربعة وعشرين يقدر بثمانية عشر مليون قرشاً⁽¹⁰⁾.

(1) المرجع الأخير، ص 168 - 169.

(2) BADIA Y LEYBLICH، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 273.

(3) LAMARTINE، الجزء 2، ص 73: عدة آلاف. BLONDEL، ص 166 - 167: من أربعة إلى خمسة آلاف حمل.

(4) ADDISON Ch. G.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 142.

(5) BAEDERKE، 1906م، ص 303.

(6) MICHAUD J. وPOUJOLAT B.، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 166.

(7) "التجارة في سوريا. حلب ودمشق" Le Commerce en Syrie. Alep et Damas, Revue de l'Orient، 1843م، ص 185.

(8) المرجع الأخير، ص 186.

(9) المرجع الأخير، ص 186.

(10) المرجع الأخير، ص 186.

وبرغم هذا التقرير الإيجابي كانت الصناعة الدمشقية وهي تعاني من منافسة بيروت والمنتجات الأوروبية ومن سياسة إبراهيم باشا تتردى كماً ونوعاً. ففي عام 1833م شهد لامارتين الذي لاحظ عند مروره بدمشق أن "التجارة كانت شغل الدمشقيين الشاغل ومجال إبداعهم الوحيد"⁽¹⁾، واختفاء صناعة السيوف الشهيرة التي طالما امتدحت في زمن المماليك، فلقد كتب: "لقد أهملت كلياً، ولم تعد تصنع في دمشق إلا سيوف عادية جداً"⁽²⁾. أما فيما يتعلق بالمجوهرات، فلقد كان رأيه فيها قاسياً ومبالغاً فيه، "فلا فن فيها ولا ذوق"⁽³⁾. وفي عام 1838م لاحظ بلوندل تقلصاً شديداً في العديد من حرف حياكة الحرير وفقر السكان⁽⁴⁾. وبعد عشر سنوات كان تقرير بارديو لا يقبل النقاش: "الصناعة في هذه المدينة تقريباً منعدمة"⁽⁵⁾ وحتى المنتجات الحريرية التي كانت مشهورة جداً فيما مضى أصبحت اليوم، كما يقول، "مصنوعة دون إتقان (...)" وسيتة الإنجاز"⁽⁶⁾، وتزايد التخلف الذي بدأ في زمن إبراهيم باشا بعد مذبحة سنة 1860م، وهجرة النصارى التي تبعته. وفي عام 1868م شهد لوكلاما أنجهولت انحطاط التجارة التي، كما قال، "كانت فيما مضى مزدهرة جداً"، ولكي يبرهن على هذا الانحطاط أعد قائمة بالنشاطات الاقتصادية التي اختفت، وهي نفس القائمة التي أعدها ميشو في عام 1831م⁽⁷⁾.

في هذا الجو الهرم والمهترئ لم تُنتج إلا الأسواق والمقاهي والحمامات ومنازل الأغنياء وكذلك أحياء المدينة الغربية لكونها أحدث وعلى الطراز الأوروبي إلى حد ما. تبدو الأسواق ذات الطابع المحلي الغني بالألوان والأزياء الشعبية في نظر أوروبا التي تميل إلى التشابه والكآبة أفضل مكان للاغتراب،

(1) LAMARTINE، الجزء 2، ص 60.

(2) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 68. وانظر أيضاً BLONDEL E.، المرجع نفسه، ص 163.

(3) المرجع الأخير، الجزء 2، ص 68. تمتعت المجوهرات في دمشق وحتى اليوم بسمعة ممتازة تستحقها. وهو أكثر موضوعية من لامارتين ذكر أنهم احتفظوا بالطرق القديمة في صناعة الخيوط الذهبية "كان يعجز الفنانون الأوروبيون عن تقليدها". LORTET L. C.، المرجع نفسه، ص 582.

(4) BLONDEL E.، المرجع نفسه، ص 169.

(5) (BARDIEU Ch.) Comte de، المرجع نفسه، ص 345.

(6) المرجع الأخير، ص 345.

(7) LUCKLAMA ANIJEHOLT T.M.، المرجع نفسه، الجزء 4، ص 547. MICHAUD J. و POUJOULAT B.، المرجع نفسه،

نفسه، الجزء 6، ص 168 - 169.



مقامي بردی في دمر

وكذلك وعاء المشرق المثالي. ففيها يرى لامارتين حشداً من الناس كثير العدد مثل الذي نراه في دهاليز القصر الملكي، ولكنه أكثر إثارة للاهتمام، وترى إيزابيل بورتن أسواق دمشق أكثر أسواق المشرق تميزاً⁽¹⁾، ويرى هوراس فرنه تنوعاً صارخاً في النماذج والملابس⁽²⁾، ويرى فيها أديسون عرب الصحراء الأجلاف وبضائع بغداد وفارس ومصر والهند البعيدة، وتنوعاً كبيراً في الملابس والملامح⁽³⁾. ويترك لنا فلوربت وصفاً غنياً بالألوان، إذ كتب: "كل حياة دمشق مركزة حول الأسواق، فهي أسواق حية وزاخرة بالناس والشوارع خاوية وهادئة. فملابس الرجال الحمراء والخضراء والزرقاء، والكمية الكبيرة من المنتجات الحريرية التي سطع عليها نور لطيف من الأعلى، أضفى على هذه المجموعة من الألوان المتنوعة سحراً خاصاً (...). يسير في وسط هذا المشهد بائع الشراب والمثلجات ومؤجر الغلايين مع كانون الفحم لإشعال الغليون (...). ويتنزه هنا وهناك مجذوب عار، وهو شخص أحمق يعبس ويصرخ؛ تأتي إليه النساء العقيمت لتقبل ذكره؛ وقد حدث قبل زمن قصير أن وطئ أحد المجاذيب إحدى هؤلاء النسوة في وسط السوق، فالتف الأتراك الأتقياء حولهم وحجبوا المنظر بشياهم"⁽⁴⁾.

أما المقاهي فلقد كان جوزيف ميشو يرى فيها "قصائد دمشق الشعرية"⁽⁵⁾. فلقد كانت المدينة كما يذكر أديسون مشهورة بوفرة عدد المقاهي وأناقته، مما جعل من دمشق في نظر المسافر الإنكليزي "باريس المشرق"⁽⁶⁾. من بين أكثر المقاهي ارتياداً ومرحاً مقهى الوردتين ومقهى النهر وغيرهما. و كان أكثر المقاهي شهرة مقهى باب السلام الذي كان محاطاً بثلاثة أنهار، وتظلله أشجار الصفصاف الكبيرة، فكان حسب رأي ميشو "دار نعيم الدمشقيين"⁽⁷⁾؛ يجتمع فيه أكثر من مئتي شخص كل

(1) BURTON I. المرجع نفسه، الجزء 1، ص 42.

(2) VERNET H. رحلة في المشرق، Voyage en Orient، 1843م، ص 215.

(3) Ch. G. ADDISON، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 144.

(4) FLAUBEERT G. المرجع نفسه، ص 189.

(5) MICHAUD J. و POUJOULAT B. المرجع نفسه، الجزء 6، ص 178.

(6) Ch. G. ADDISON، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 144. وكذلك THOMSON W. M. C. المرجع نفسه، ص 391. أحصى

MICHAUD J. المرجع نفسه، ص 177، 122 قهوة، TAYLOR J.J.S. و REYBAUD L. في L Egypte, la Palestine et la

Judee، باريس، 1835 - 1838م، ص 25، ما يقارب 150.

(7) MICHAUD J. و POUJOULAT B. المرجع نفسه، الجزء 6، ص 178.

يوم، يدخنون النرجيلة ويشربون الخمر المر، ويلعبون الشطرنج على مصاطبها ومقاعدتها المرتفعة، وهم يسمعون خرير الماء مستظلين بشجر الصفصاف أو حصر معلقة⁽¹⁾. في عام 1906م مدح دليل بيدكير مقاهي دمشق واعتبرها أكبر المقاهي في كل المشرق⁽²⁾.

كانت الحمامات كالمقاهي "تفوق بوسائل الراحة المتوفرة فيها وبأناقته حمامات سميرن والقسطنطينية"⁽³⁾، وتثير فضول المسافرين. كتب علي بيك أنها "رائعة المظهر"⁽⁴⁾، وحسب ميشو الذي أحصى تسعة وخمسين حماماً إنما لا تخلو أبداً من الناس، وذلك من شروق الشمس وحتى المساء⁽⁵⁾. وقد كتب الدكتور لورتيه: "عندما يتعري المستحم يخلع قباقبه المرتفع، ثم يقوده شابان شبه عاريين ليدخل الغرفة الحارة حيث يبقى فيها برهة من الزمن، ويدخل بعدها غرفة أكثر حرارة، وأخيراً يدخل غرفة ثالثة حرارتها مرتفعة جداً لا يكاد يمكنه التنفس فيها. يغشى عرق غزير الجلد مباشرة، مما ينشط الوظائف التنفسية. وبعد أن يبلغ التعرق أشده يستلقي الزبون على بلاطات رخامية، فيدلك ويترك جسمه، ويرش رشاً متتابعاً بالماء الساخن والبارد من أجران بطاسات برونزية. ثم يدهن الجسم كله بالصابون، ويدعك بحزمة من الليف فتغويه الرغبة (...). ثم بعد أن يقلب الزبون ويعاد قلبه مراراً، ويدلكه من كل الجوانب مدلكون بلا رحمة، يُغسل بماء غزير، وينشف ويلف بمناشف ناعمة، ويلف حول رأسه منشفة فيبدو مثل ماماموشي (إحدى شخصيات روايات مولير)، ثم يدخل في صالة الاستقبال حيث يتمدد على أريكة، وتقدم له

القهوة والسجائر. بعد هذه المراسيم يكون الهناء كاملاً؛ فالجلد منتعش ونظيف حتى أعماق مساماته، ومستعد لمواجهة حرارة الصيف الشديدة لعدة أيام"⁽⁶⁾.

(1) المرجع الأخير، الجزء 6، ص 178.

(2) BAEDEKEER، 1906، ص 288.

(3) MICHAUD J. و POUJOULAT B.، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 177.

(4) BADIA Y LEYBLICH، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 268.

(5) MICHAUD J. و POUJOULAT B.، المرجع نفسه، الجزء 6، ص 177.

(6) LORTET L. C. (Dr.)، المرجع نفسه، ص 585، وانظر أيضاً إلى رأي أقل براءة، FLAUBERT G.، "Lettre a Louis

"Bouillet"، في 15 كانون الثاني 1850م، في Correspondance، الجزء 1، 1830 - 1851م، باريس، PLEAIDE، 1980م: "كنت

وحيداً في غرفة البخار أنظر إلى شروق الشمس من خلال العدسات الزجاجية الموجودة في القبة، وكان الماء الساخن يجري في

كل مكان، وكنت وأنا مستلقٍ أفكر في كثير من الأمور ومسامات جلدي تتوسع جميعها بهدوء. إن الاستحمام دون صحة،

=

برغم غزو الذوق الأوروبي منذ بداية النصف الثاني من القرن، بقي داخل المنازل الدمشقية مصدر إعجاب، فلقد كتب أوجين ملشوار دو فوغيه عنها حرفياً: "إنها الشيء الوحيد في المدينة الذي يتحدى نزوات الخيال دون خطر (...)، حيث الانتعاش والهدوء ومتعة البصر"⁽¹⁾. فإذا اتفق كل المسافرين في التأكيد على نظافتها وأناقتها وغناها، فإن الزخرفة أول ما يفرض نفسه على الأنظار، فلقد كتب المستشرق النمساوي ألفرد فون كرم: "يستحيل وصف الرسوم والزخرفة في المنازل الدمشقية وصفاً دقيقاً، فهي دون شك أكثر الزخارف جمالاً في كل المدن العربية". وتابع بقوله "إن مسافراً إنكليزياً قد زار قصر الحمراء فقال لي بأنه لم ير فيه إلا زخرفة غنية وذوقاً شبيهاً بداخل المنازل الدمشقية التي تذكره بصالات الملوك المسلمين فيه. يعتمد أساس الزخرفة في الغرف الدمشقية على الرسم على الخشب الذي لا يباثل تألقه إلا تألق الرسوم المائية لمخطوطات الفنانين الألمان في القرون الوسطى (...). المنازل العربية عادة قليلة الأثاث. تستخدم الأرائك الملتصقة بالجدران ككنب والطاولات والأسرة غير معروفة: فعند حلول الليل تُخرج الفرش من الخزانة لتفرش سواء فوق السجاد أو فوق المصطبة. إن المتاع الوحيد الذي يمكن أن نجده فيها (...) هو الغليون والترجيلة (...). للنوافذ مشبك خشبي خبازي اللون ذو صنعة جميلة. إذ إن زجاج النوافذ حديث العهد في دمشق وغير شائع"⁽²⁾. كما حازت السقوف على إعجاب خاص، إذ كتب أ. م. فوغيه: "إنها تتمتع بأناقة وبريق لا مثيل لهما، وهي مدعومة أحياناً بروافد صغيرة ذات نتوءات ملونة ومذهبة أو تجاويف حفرها نجارون مهرة في خشب الأرز والجميز، وزينوها بزخارف نباتية على شكل ورود ووريقات وزهور ذات ألوان متدرجة باعتدال ومعتمة تبرزها مسحات ذهبية. (...) إنها جديرة بأن تقارن بمنصات جوقة المرتلين الخشبية في الكنائس، والخشب المحفور في عصر النهضة"⁽³⁾. بنيت معظم

وأنت ضائع داخل هذه الغرف المعتمة حيث تصدر أضعف الأصوات دويّاً كدوي المدافع أمر مشير حقاً وذو طابع حزين لطيف، في حين ينادي المدلون العراة بعضهم بعضاً، ويقلبونك كما يفعل مغسلو الأموات عندما يهينونك للقبر. في ذلك اليوم (يوم الاثنين قبل أمس) كان مدلكي بدلكني بلطف، عندما وصل إلى أعضائي التناسلية، رفع خصيتي لينظفهما، ثم استمر في تدليك صدري بيده اليسرى".

(1) VOGUE E.M. (de)، المرجع نفسه، ص 77 - 79.

(2) Cahiers de recherche architecturale، مقطع من 1854، KERMER.A. (Von)، Topographie von Damaskus، Wien

10/11، باريس، 1982م، ص 114.

(3) VOGUE E.M. (de)، المرجع نفسه، ص 78 - 79.

منازل الأغنياء التي مازلنا نراها اليوم في القرن التاسع عشر. وهكذا لاحظ جورج سالفرت أن منازل اليهود "كانت أكثر غنى وروعة"⁽¹⁾، لأنهم كانوا متفوقين في الأعمال التجارية، وكانوا الوحيدين الذين يبنون منازلهم، كما ذكر أ.م. فوغيه، في حين كان المسلمون غير مباليين، وكان النصارى مذعورين. ويذكر أن أفخم المباني الحديثة كان لعنبر، وهو يهودي سافر إلى الهند خادماً وعاد منها كما تقول الشائعات "وطربوشه مليء بالماس"⁽²⁾.

من خصائص تطور العمران في مدينة دمشق في القرن التاسع عشر - أمام تغريب المؤسسات التدريجي - ظهور مبان عامة جديدة، ونقل مركز المدينة إلى غرب الأسوار. فلقد بنيت أثناء حكم إبراهيم باشا (1832 - 1840م) سرايا جديدة وثكنات لصيقة بالقلعة، في حين تحول مسجد يلغا برغم استياء المؤمنين الكبير إلى مصنع للبسكويت، وتحول مسجد تنكز إلى مدرسة عسكرية⁽³⁾. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح هذا الحي مركز المدينة الجديد، وهو الوحيد الذي بقي استحسان الأوروبيين. فلقد اعتبره البارون تيلور "أكثر ما في المدينة جمالاً"⁽⁴⁾، في حين رأى باردو - مؤكداً على أن الأحياء التركية "كانت أجمل الأحياء وأنظفها"⁽⁵⁾ - في شوارع الحي العريضة المرصوفة والنظيفة والتي غرس في بعضها أشجار وحفتها الدكاكين، صورة طبق الأصل عن شوارع باريس العريضة⁽⁶⁾. وحسب ليكلاما "تعد الأحياء المحيطة بالسرايا أكثر أحياء دمشق جمالاً وغنى"⁽⁷⁾. ومن الأحياء التي استحسنها الرحالة حي يقع في غرب السرايا تقريباً، وهو الميدان الأخضر القديم وضواحيه القريبة التي يلجأ إليها الدمشقيون للتنزه. لقد كتب بلوندل: "يخرج الدمشقيون أيام الجمعة والأحد خارج المدينة للتنزه في الميدان. لقد كانت أشجار الجوز ترمي بظلالها على هذا

(1) (de) SALVERTE G.، المرجع نفسه، ص152. وكذلك LOTI P.، المرجع نفسه، ص146.

(2) (de) VOGUE E.M.، المرجع نفسه، ص80 - 81 (كان فوغيه في دمشق في تشرين الثاني 1872م، أي بعد اثني عشر عاماً فقط من مجزرة عام 1860م). المنزل الذي ذكره ما هو إلا منزل عنبر الذي تحول إلى مدرسة حوالي عام 1890م والمعروف اليوم باسم مكتب عنبر.

(3) كان مسجد يلغا ومسجد تنكز من المباني المهمة في زمن المالك.

(4) TAYLOR I.J.S.، المرجع نفسه، ص115. وMICHAUD J. وPOUJOLAT B.، المرجع نفسه، الجزء 6، ص174.

(5) PARDIEU Ch.(Comte)، المرجع نفسه، ص346.

(6) المرجع الأخير، ص344.

(7) LYCKLAMA A NÜEHOLT T.M.، المرجع نفسه، الجزء 4، ص345.

المكان المرح الذي يرويه نهر بردى. هنا كان هواة الفروسية يتدربون على رمي الجريد بحضور المتفرجين المعجبين الذين يصفقون للمتصرين (...). وفي كل مكان؛ في ظلال الأشجار وعلى طول النهر يوجد حشد من النساء ملفوفات بملاءاتهن البيضاء. تزيج أصغرهن سنّاً وأكثرهن جمالاً خارهن مجاملة، ويوجهن لك الحديث عندما تمر بهن وما من رقيب مزعج من أبناء جلدتهن⁽¹⁾. وعلى طول طريق الصالحية أمر إبراهيم باشا ببناء ورشات واسعة لصناعة الخيوط⁽²⁾، ولكن بناءها لم يتم أبداً. وقد أنجزت كذلك أعمال ترميم على طول السور المجاور لباب كيسان⁽³⁾.

بعد المجازر والدمار الذي حصل عام 1860م أعيد بناء حي النصارى تدريجياً، وقد ذكر و.م. تمسون أن جزءاً كبيراً من إعادة البناء كان قد أنجز في منتصف 1880م⁽⁴⁾. وبغية تجنب أعمال شغب جديدة بنيت ثكنتان عام 1863م إحداهما داخل المدينة على طول الجانب الجنوبي للشارع المستقيم، وأخرى في ضاحية الميدان الفوقاني. وفي عام 1864 - 1865م صدر مرسوم يضع حداً للتطاوّل والتوسع على حساب الأرصفة، الأمر الذي كان مسموحاً به ويعتبر من حق الأفراد⁽⁵⁾، وقد لاحظته الأوروبيون، إذ كتب بلوندل: "في هذا البلد لا يتورع أحد في التطاوّل على الطرق العامة حسب حاجته ورغبته، فهذا أمر مقبول ومألوف ولا يُعاقب عليه"⁽⁶⁾. وفي عام 1866م أستصلحت أطراف نهر بردى. وما بين 1873 و 1884م بني سوق جديد - يعرف باسم سوق الحميدية على اسم السلطان عبد الحميد (1876 - 1909م) - من الزاوية الجنوبية الغربية للقلعة حتى مدخل الجامع الأموي. السوق مستقيم ومغطى بصفائح فولاذية مقوسة، أحاطت بطريقه المركزي المرصوف دكاكين تعلوها طوابق ذات واجهات مشابهة لطراز هوسمان المهندس الفرنسي الشهير وتتناوب فيها ركائز مضلعة ورؤوس أعمدة كورنيشية. أثناء ولايته لدمشق أمر مدحت باشا - صاحب دستور عام 1876م⁽⁷⁾ -

(1) BLONDEL E.، المرجع نفسه، ص 178.

(2) PARDIEU Ch.(Comte)، المرجع نفسه، ص 353.

(3) GUEIN V.، المرجع نفسه، ص 409.

(4) THOMSON W.M.C.، المرجع نفسه، الجزء 3، ص 409.

(5) BRUNSCHVIG R.، Urbanisme medieval et droit musulman R.E.I.، p 127-155، 1947.

(6) BLONDEL E.، المرجع نفسه، ص 180.

(7) عن مدحت باشا انظر إلى المرجع في الأعلى، ص 134.

بين عامي 1878 و 1881م ببناء سوق جديدة مغطاة بصفائح فولاذية نصف أسطوانية عند النهاية الغربية للشارع المستقيم، بين سوق التوابل وباب الجابية رغبة منه في تحسين وضع المرور الذي أصبح صعباً بسبب ظهور السيارات. وهكذا روى شارل لالماند عند مروره بدمشق في تموز 1893م: "وبكل بساطة أمر هذا الباشا العجول تعباً من رؤية الحارات الضيقة والمقززة في وسط المدينة بإشعال النيران في الأكواخ التي تحفها. ثم أمر ببناء سوق رائع يحمل اسمه فوق هذا الخطام الذي دمرته يده ببساطة"⁽¹⁾.

في السنوات العشرة الأخيرة من القرن بنيت في شمال غرب القلعة في ساحة المرجة مجموعة من الأبنية العامة تكشف عن تغريب واضح للحياة الإدارية. وفي عام 1877 - 1878م بني في الجانب الشمالي قصر العدل ومبنى البريد والبرق⁽²⁾ وسوق علي باشا الذي يصل الساحة بسوق الخيل القديم⁽³⁾. وفي عام 1895م بنيت في الجانب الغربي دار البلدية⁽⁴⁾. ثم بالقرب من مقر الشرطة بنيت سرايا جديدة وعدة فنادق. وفي عام 1907م شُيّد نصب تذكاري في مركز الساحة للاحتفال ببدء الاتصالات البرقية بين اسطنبول ومكة. وهكذا أخذ الحي الجديد بشكله هذا يحدد توسع المدينة باتجاه الشمال الغربي. وفي عام 1908م تبين أن الآبار والقنوات القديمة لم تعد كافية وملوثة جداً، فأعدت شبكة من قنوات جديدة تجلب الماء من عين الفيحة. أما الجامعة فلقد نشأت في عام 1903م عندما أقيم معهد الطب.

في عام 1907م أعدت شبكة الترام التي كانت عرباتها تنطلق من ساحة المرجة وتخدم الأحياء الواقعة خارج أسوار المدينة. وفي عام 1913م أنجزت محطة سكة حديد الحجاز التي كانت قيد البناء أثناء مرور لوتي بالمدينة عام 1894م⁽⁵⁾. وفي العام التالي قال موريس باريس عند وصوله إلى دمشق

(1) LALMAND Ch.، من الجزائر إلى القسطنطينية والقدس ودمشق، Damas، Jerusalem، D' Alger à Constantinople،

باريس، ص 101.

(2) هُدم في بداية 1950م.

(3) هُدم في بداية 1940م.

(4) هُدم في بداية 1940م.

(5) LOTI P.، المرجع نفسه، ص 134 - 135.

بالقطار: "محطة قطار وخطوط برقية وترام! كل المظاهر الخارجية تدل على تمدن عادي"⁽¹⁾. لقد انتهى زمن جنة الله في الأرض، زمن دمشق مدينة الورد الرائعة معشوقة الكتاب المسلمين، زمن اللؤلؤة وملكة المشرق التي كان لوتي يتغنى بها⁽²⁾.

في القرن التاسع عشر بدا حي الصالحية - وهي ضاحية رائعة (...) تتصل بالمدينة بالبساتين والحدائق والمنازل الريفية للطبقة الميسورة"⁽³⁾ - حياً سكانياً أكثر مما بدا في القرون السابقة. كان الأغنياء وكذلك السفراء الأوروبيون يبنون فيه منازلهم الريفية حيث يقضون فصل الصيف⁽⁴⁾. وكان "بطالو دمشق" على حد تعبير إ. بلوندل يأتون إلى المقاهي الصغيرة على ضفاف نهر يزيد ليتسلوا في ظلال شجر الصفصاف يدخلون النرجيلة ويرتشفون القهوة المعطرة⁽⁵⁾. خلال القرن بنى عساكر أكراد في شرق المدينة مساكن فسيحة كونت فيما بعد حياً جديداً يصل إلى حدود قرية برزة، يعرف باسم حي الأكراد. وفي عام 1870م كان عدد هؤلاء الأكراد وفقاً لحسابات إيزابل بورتن زهاء خمسة عشر ألف نسمة، وقد كانوا أكثر الناس تمرداً وفساداً⁽⁶⁾ في دمشق. إذ لم يكن أحد يتجرأ على التجول في حيهم، أو يسلك الطريق الذي يصله بالمدينة، لأنه كان غير مأمون وما من أحد يغامر ويسلكه ليلاً إلا وبصحبه رجل مسلح أو اثنان⁽⁷⁾. عند منعطف القرن جاء مهاجرون من روميلي وكريت، واستقروا عند سفح جبل قاسيون غرب الصالحية، في حي جديد أعطي اسم حي المهاجرين. كانت منازلهم مختلفة اختلافاً جذرياً عن منازل المدينة التقليدية؛ فلقد كانت بثلاثة طوابق ومربعة الشكل، فكانت بداية ظهور الأبنية على الطراز الغربي في دمشق⁽⁸⁾. وكذلك قامت الطبقة الأرستقراطية التركية، وقد جذبتها مباهج المكان و"وسائل الراحة الحديثة" والتهوية الأفضل والمنظر الجميل،

(1) BARRES M.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 141.

(2) LOTI P.، المرجع نفسه، ص 135.

(3) ROBINSON، المرجع نفسه، ص 153.

(4) CUINET V.، Syrie, Liban, et Palestine، باريس، 1896م، ص 394. PARDIEU Ch.، المرجع نفسه، ص 347.

(5) BLONDEL E.، المرجع نفسه، ص 177.

(6) BURTON I.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 29.

(7) المرجع الأخير، ص 29.

(8) بدا تأثير المدينة الأوروبية في القاهرة ملموساً قبل هذا بكثير، فلقد صُمم حي الإسماعيلية، مركز المدينة حالياً، بشوارعه الواسعة وساحاته الدائرية مهندسان فرنسيان أوصى بهما هُسان.

ببناء منازل فخمة مكونة حياً سكنياً فخماً خارج الصالحية. وفي بداية القرن العشرين توسعت منطقة قاسيون السكنية من الشرق إلى الغرب على طول ثلاثة كيلومترات ونصف.

امتدت المدينة في الاتجاه المعاكس للصالحية حتى حي الميدان "امتداداً طويلاً محفوفاً بالورود وسط خيلة من الأشجار الخضراء"⁽¹⁾. هذا الحي الذي سكنه كثير من الدروز اعتبر الحي الأفقر والأكثر تعصباً في دمشق، وأصبح بؤرة للتمرد الديني والسياسي، وكان مليئاً ببقايا رائحة لمساجد وحمامات⁽²⁾. عندما وصل غوستاف فلوريت إلى سورية دخلها عن طريق الميدان في بداية شهر أيلول 1850م، فكتب: "لقد دخلنا في ضاحية لا نهاية لها حيث كانت خيلنا تنزل على شارعها المرصوف بالحجارة. توجد على أطرافه أكوام قمح وغزال قطن ودباغون ومساجد ونوافير ماء وأشجار دائية قطوفها، وعدة مواكب جميلة للحرس التركي ومقبرة كبيرة"⁽³⁾ ذات غصون خضراء عند كل قبر يمر منها الطريق. ودخلنا المدينة (...) وازداد الزحام لدرجة أنه لم يعد بمقدور خيلنا التقدم"⁽⁴⁾. إن نعت حي الميدان بحي عربي أي "بدوي" ذكر مراراً عديدة، فلقد كتب شارل لاماند في عام 1893م: "ما إن تضع قدمك في هذا الحي المدهش، حتى تشعر أنك في بلد عربي، وكأن ريحاً من شبه الجزيرة العربية تهب عليك"⁽⁵⁾. وفي عام 1914م اعترض طريق م. باريس "رتل طويل من الجمال والبدو مسلحون برماح وبنادق في وسط تلك الرائحة التي تميز مدن المشرق حسب قوله"⁽⁶⁾

الأرقام التي قدمها المسافرون في القرن التاسع عشر لعدد السكان مختلفة وتراوح بين خمسة وثلاثين ألفاً حسب تيلور وريبود⁽⁷⁾، وأربعمئة ألف حسب لامارتين الذي أحصى حتى الضواحي وقرى الغوطة، متبعاً طريقة يُشك في دقتها، فوجد أن عدد السكان يقارب المليون⁽⁸⁾. وفي عام 1895م قدر فيتال كينييه عدد سكان سنجق دمشق بـ 334063 نسمة على مساحة 27000 كيلو متراً

(1) LOTI P.، المرجع نفسه، ص 169.

(2) BURTON I.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 39.

(3) إنها مقبرة باب الصغير.

(4) FLAUBEERT G.، voyage en Orient، p 186، 1949، Paris.

(5) LALMAND Ch.، المرجع نفسه، ص 117.

(6) BARRES.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 142 و LOTI P.، المرجع نفسه، ص 165.

(7) TAYLOR I.J.S.، REYBAUD L.، Egypte، la Palestine et la Judée 1835-1838، p 129 Vol I.

(8) LAMARTINE.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 79.

مربعاً، وأن في المدينة نفسها 154000 نسمة، وفي القرى المجاورة - تسع وعشرون في الغوطة وخمس وعشرون في المرج - 10000 نسمة. وفي عام 1906م أصبحت دمشق وفقاً للدليل بيدكير أكثر المدن السورية سكاناً، وتضم زهاء 200000 نسمة موزعين على النحو التالي: 144200 مسلم، و16500 يوناني أرثوذكسي، و1420 سوري أرثوذكسي، و15000 يوناني كاثوليكي، و8000 يهودي، و1210 أرمني، و800 سوري كاثوليكي، و380 أرمني كاثوليكي، و320 كلدانياً كاثوليكيّاً، و450 مارونياً، و700 لاتيني، و730 بروتستانتياً، و150 درزياً⁽¹⁾.

وأخيراً جاءت الحرب العالمية الأولى لتمنح الغرب الفرصة التي انتظرها طويلاً وحل التدخل المباشر محل سياسات التدخل التقليدية. فاستندت أطماع فرنسا إلى ادعاء قديم هدفه "حماية" الطوائف النصرانية، يدعمه غزو اقتصادي قوي، ورغبتها في أن تصبح القوة المسيطرة في المنطقة الإسلامية من البحر الأبيض المتوسط بعد أن سيطرت على المغرب العربي. وهذا أمر لا يمكن تجاهله إذ لم يتوان عن ذكره أقلية من السوريين المتادين باستقلال سورية "بقيادة فرنسا". فلقد كتب ندره مطران مندوب عرب بعلبك في مؤتمر العرب في باريس، وذلك في عام 1916م، أي قبل عامين من نهاية الاعتداءات: "لا يمكن لفرنسا ألا تهتم بسورية، فهي المكمل الضروري لإمبراطوريتها الأفريقية. فدمشق المدينة المقدسة في نظر فرنسا، وبوابة الكعبة، وحامية تقاليد العرب والإسلام، وتاج صريح أركانه الجزائر وتونس وفاس. فرنسا لم تحصل على القاهرة والقسطنطينية، لذا لا بد لها من أن تحصل على دمشق (...). فمن سورية ستراقب جيداً على المراكز التي تسعى لوحدة المسلمين، والتي يسعى أعداء فرنسا لإيجادها وتوظيفها ضدها. عندما تسيطر فرنسا على الرأس فإن الجسد سيصبح تحت إمرتها"⁽²⁾. طبعاً كانت الصبغ المطروحة في بعض الأوساط الفرنسية أكثر عنفاً. فلقد وصل الأمر بأحدهم وهو بول بك

(1) BAEDEKER 1906م، ص 292 - 293. وفقاً لبادكير، ص 365، يليها حلب 180000 نسمة، ثم بيروت 120000، والقدس 60000، ويافا 45000، وأنطاكية 28000. فيما يتعلق بدمشق إليكم بعض الأرقام التي زودنا بها المسافرون خلال القرن: ADDISON CH.G.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 390، 200000، BLONDEL E.، المرجع نفسه، ص 162: 80000. LYCKLAMA A NIJEHOLT T.M.، المرجع نفسه، ص 546، 200000، BURTON I.، المرجع نفسه، الجزء 1، ص 105، 150000. LORTET I.C. (Dr) ، المرجع نفسه، ص 607، 140000. جريدة المشرق اللاتيني، Revue de l'orient latin 1844م، ص 184، 160000. ROBINSON G.، المرجع نفسه، ص 304، 120000 أو 150000.

(2) MOUTRAN N.، المرجع نفسه، ص 48.



منظر عام لدمشق

أستاذ في الحقوق الدولية في جامعة ليون ليرى في سورية "امتداداً طبيعياً لفرنسا"⁽¹⁾.

وكذلك كانت أطباع بريطانيا التي أصبحت سيدة مصر وجنوب شبه الجزيرة العربية أساسية جداً: ضمان سلامة طريق الهند، وفي نفس الوقت حماية منطقة "مونرو" - وهي المربع المحدد بالزوايا: مصر والإسكندرون وبلاد فارس والمحيط الهندي - من أن تصلها أيدي الآخرين⁽²⁾، وكذلك حماية ضفاف قناة السويس، وتوسيع نفوذها داخل شبه الجزيرة العربية والخليج الفارسي وقسم من الساحل السوري، وأخيراً ولكن ليس آخراً، استبعاد فرنسا قدر الإمكان من المناطق الإستراتيجية.

أظهرت اللقاءات التي عقدت في القاهرة قبل بداية الحرب بين المندوب الإنكليزي في مصر اللورد كتشنر وعبد الله بن حسين شريف مكة للبريطانيين طموحات الهاشميين وإمكانية حدوث ثورة عربية على الأتراك. وعندما اندلعت الحرب كما كتب ت.إ. لورنس شعر الغرب أن "تجزئة المسلمين باتت ضرورة ملحة"⁽³⁾. اختار الإنكليز شريف مكة بعد عدة "محاولات فاشلة"⁽⁴⁾ مع عدة رؤساء عرب، "لأن شريف مكة يمكن أن يسبب صدعاً في الإسلام - حسب رأي لورنس - فالوضع الجغرافي يساعده على الاستمرار في الحكم، ورغم أن مكانته بين العرب تستند إلى أسس اعتبارية وهشة بسبب شرف النسب، ولكن لا يمكن الطعن بها في المشرق"⁽⁵⁾. وأخيراً أثمر العداء بين الأتراك والعرب الذي أصبح أشد حدة منذ انقلاب تركيا الفتاة⁽⁶⁾.

وبدأت التداولات بين حسين والسير هنري مك ماهون، مواطن بريطاني مقيم في القاهرة

(1) PIC P.، سورية وفلسطين، مقدمة GI Gourraud، باريس، 1924م، ص 7.

(2) LAWRENCEE T.E.، بيان سري، Rapport secret في Letters، باريس، ص 1948م، ص 223.

(3) المرجع الأخير، ص 223.

(4) المرجع الأخير، ص 223.

(5) المرجع الأخير، ص 223 - 224.

(6) لقد لعب انقلاب تركيا الفتاة دون أدنى شك دوراً هاماً في ولادة القومية العربية. ففي نظر الشريف حسين، كما كتب لورنس، "لم يكن رجال تركيا الفتاة سوى كفرة متمردين على دين قومهم وعلى واجهم الإنساني، وخونة لعصرهم ولمصالح الإسلام". (LAWRENCEE T.E.، أركان الحكمة السبعة، Les sept piliers de la sagesse، باريس، 1973م، الجزء 1، ص 55) إضافة إلى وضوح الرؤية لدى لورنس، فلقد كانت نظريته في مغزى الثورة العربية على السلطان واضحة جداً. إذ كان يرى فيها "النصر النهائي، وأكثر مظاهر القومية تألقاً في آسيا الغربية، وأساس العمل السياسي المعارض لمبدأ الدين العالمي". LAWRENCEE T.E.، "Lorient en mutation"، في Guerilla dans le desert، 1916م، باريس، ص 75 - 76.

منحته الحكومة البريطانية "كل الحرية ليعقد معه اتفاقاً بغية إدخاله في الصفقة"⁽¹⁾. وجرى تبادل ثنائي رسائل بين شهري تموز 1915م وكانون الثاني 1916م، التزمت بريطانيا بمقتضاها بالاعتراف "باستقلال العرب" جنوب خط العرض السابع والثلاثين باستثناء مقاطعات بغداد والبصرة حيث كانت مصالح بريطانية - استغلال حقول البترول - تجعل من الضروري اتخاذ إجراءات خاصة في الحكم الإداري، والمناطق التي لم يكن بمقدور بريطانيا "التصرف فيها بحرية دون المساس بمصالح فرنسا"⁽²⁾. وفي حزيران 1916م احتل الأشراف مكة، وتحررت الحجاز من الوجود التركي باستثناء المدينة حيث نجح جيش فخر الدين باشا في المقاومة بسبب ارتباطه بدمشق مقر قيادة الجيوش الجرمنية التركية، وذلك عن طريق السكة الحديدية التي عملت قوات فيصل على تفجيرها فيما بعد.

وفي نفس الوقت الذي قُدمت فيه هذه الوعود للعرب، كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا تتفق من خلال مباحثات سرية على توزيع الإمبراطورية العثمانية فيما بينها. وقرر اتفاق سايكس بيكو الذي عقد بين بريطانيا وفرنسا في 16 نيسان 1916م مصير سورية وقسمها إلى خمسة أجزاء، بطريقة معقدة جداً ودون مراعاة للمعطيات الجغرافية والثقافية:

منطقة زرقاء مخصصة لفرنسا. تبدأ من صور، وهي شريط ضيق على طول الساحل يصبح عريضاً في الشمال ليضم قيليقيا ونصف تركستان وأرمينية مع مدن ديار بكر وسيفاس وأضنه وأورفه.

منطقة حمراء مخصصة لإنكلترا وتضم سهل منطقة الرافدين حتى أعلى بغداد.

منطقة أ تضم مقاطعات حلب ودمشق والموصل ومدينة كركوك.

منطقة ب تمتد من جنوب المنطقة السابقة إلى العقبة.

منطقة بنية متطابقة تقريباً مع حدود فلسطين.

وكان يفترض أن تكون هذه المنطقة الأخيرة دولية، وحرصت بريطانيا أن تكون سلطتها مباشرة على عكا وحيفا. وتعهدت فرنسا وبريطانيا "بالاعتراف وحماية" دولة عربية "مستقلة" أو

(1) LAWRENCE T.E.، المرجع نفسه، ص 224.

(2) رسالة من السير H.M.C MAHON، بتاريخ 24 تشرين الأول 1915م: "رسالة إلى رئيس تحرير جريدة التايمز".

LAWRENCE T.E.، المرجع نفسه، ص 237.

اتحاد فدرالي لدول عربية يحكمها رئيس عربي في منطقة أ و ب⁽¹⁾، على أن تبقى المنطقة الأولى تحت "النفوذ" الفرنسي، والثانية تحت "النفوذ" البريطاني. أما المناطق الزرقاء والحمراء، فلقد ذكر النص أن بإمكان القوتين الفرنسية والبريطانية أن تقيا فيهما نظام حكم حسب رغبتهما، ولكن "بعد الوصول إلى اتفاق مع الدولة أو الاتحاد الفدرالي للدول العربية"⁽²⁾.

كان اتفاق سايكس بيكو أكثر تقييداً من اتفاق حسين - مكماهون، واختلف عنه في كثير من النواحي؛ إذ كان يستخف بالعهود التي قُطعت للشريف حسين الذي لم يُخبر به حتى شهر تشرين الثاني 1917م بعد انتصار الثورة البلشفية، عندما كُشفت بنوده بين الوثائق السرية لوزارة الخارجية الروسية، إذ فضح تروتسكي التحالف القيصري مع القوى الإمبريالية ونشر بنود الاتفاق في جريدتي إزفستيا والبرافدا.

وبرغم الاتفاقات السرية، أكد تصريح إنكليزي في 11 حزيران 1917م لسبعة سورين في القاهرة وعود عام 1915م التي تؤكد أن: "الدول العربية قبل الحرب والمناطق العربية التي حررها جهاد سكانها العسكري (...) ستبقى مستقلة كاملاً"⁽³⁾. في حين كان العرب يواصلون جهادهم للأتراك كانت القوى الغربية تتآمر عليهم. وفي 6 تموز 1917م بعد عبور بطولي للصحراء، دخلت قواتهم البقاع، وفتحت الطريق إلى دمشق.

في 2 تشرين الثاني 1917م زاد المسرحية المعقدة تعقيداً وعد بلفور، وهو وزير الخارجية في وزارة لويد جورج؛ إذ صرح "أن حكومة جلالة الملك" ترغب في التصالح مع اليهود المشايخين للجرمان، "وستبذل أقصى جهدها - بعد أن أصبح في تصرفها أرض ليست من ملكها - لتسهيل تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين"، ويضيف النص: "على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل قد يضر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين (...)". نعم "الحقوق المدنية والحقوق الدينية" وليس الحقوق السياسية أو وضع الطوائف غير اليهودية أو

(1) GONTEAU-BIRON، كيف استقرت فرنسا في سورية، Comment la France sest installée en Syrie، باريس، 1922م،

ص 10.

(2) المرجع الأخير، ص 10.

(3) LAWRENCE T.E.، المرجع نفسه، ص 237.

غير العربية⁽¹⁾. لقد فتح وعد بلفور في الحقيقة الباب - وإن كان على المدى البعيد - لتحول هذا التعبير القانوني المستحدث والمجهول حتى ذلك الوقت وهو "الوطن القومي" إلى دولة حقيقية، "يهودية بقدر ما أن إنكلترا إنكليزية"، على حد تعبير النص⁽²⁾. فلا يهم إذا كان هذا الأمر سيحصل على حساب اختفاء عرب فلسطين، لأنه كما ينص وعد بلفور، "الصهيونية (...) ذات أهمية كبيرة، وهي أهم بكثير من رغبات وحقوق السبعمة ألف عربي الذين يسكنون اليوم في هذه الأرض القديمة"⁽³⁾. لقد كان بلفور مدركاً تمام الإدراك لعدم الانسجام بين الوعود التي أعطيت للعرب ووعدده لليهود، لذا حاول أن يخلص نفسه بوقاحته المعتادة قائلاً: "فيما يخص فلسطين، لم تقم القوى بأي تقدير يبدو مغالطاً، وليست هناك نية للاغتصاب تُفهم من أي تصريح سياسي في الرسالة على الأقل"⁽⁴⁾. إنها حقاً صراحة تستحق التقدير، إذ إنها أمر نادر.

وفي 27 كانون الأول 1917م صرح وزير خارجية الجمهورية الفرنسية في مجلس النواب بعد إفشاء البلشفيين لاتفاقات سايكس بيكو: "... لم يكن في نية فرنسا على الإطلاق ضم أو دمج شعوب من حقها أن تقرر مصيرها بنفسها، وذلك بمنطق الاحتلال بأي شكل من الأشكال"⁽⁵⁾.

أما العرب، فلقد كانت مساهمتهم في حرب الأتراك أكثر فاعلية، وقاموا بالتزاماتهم على أكمل وجه. فملاحظات لورنس رفيقهم في السلاح لعدة أشهر تؤكد: "أن شجاعة ومهارة فيصل كانتا وراء امتداد ثورة مكة لتتجاوز المدن المقدسة، ولتصبح دعماً فعالاً جداً للحلفاء في فلسطين. الجيش العربي الذي نشأ في ساحة المعركة لم يكن إلاً حشداً غير منظم من البدو، ثم أصبح مجموعة من قوات منظمة ومسلحة جيداً. لقد أسروا خمسة وثلاثين ألف تركي، وقتلوا مثلهم، واستولوا على مئة وخمسين مدفعاً ومئتين وخمسين ألف كيلومتر مربع من الأراضي التركية. لقد خدمنا هذا كثيراً إذ كنا في أمس الحاجة لهذه الخدمة في الوضع الذي كنا فيه، وكنا ممتنين جداً لقائدهم فيصل لإخلاصه في

(1) ALEM J.P، وعد بلفور، AUX SOURCES DE Letat d'Israel، باريس، 1982م، ص 51.

(2) رسالة من M. Joseph Cohen، التاييمز، 19 أيلول 1919م.

(3) ALEM J.P، المرجع نفسه، ص 118.

(4) Balfour، المرجع نفسه، ص 345. ذكره Alem، المرجع نفسه، ص 112 - 113.

(5) Journ. Office، الجريدة الرسمية في 28 أيلول 1917م. وانظر أيضاً: اللجنة المركزية السورية. الرأي السوري في الخارج

خلال الحرب. وثائق، باريس، 1918م.

تجنيد القوى العربية وتحريكها في الزمان والمكان حسب أوامر اللبني⁽¹⁾.

في 27 أيلول 1918م عندما انسحبت القوات الألمانية والتركية من بعلبك عن طريق وادي بردى، كان سلاح الفرسان الإنكليز ودباباته تقترب من مزيريب⁽²⁾. وفي دمشق حيث كانت عصابات البدو المسلحة تصل تباعاً، وحيث كان السكان ثائرين بفضل عملاء فيصل، وقد وزعت عليهم كميات كبيرة من المنشورات الإنكليزية⁽³⁾، سيطر الأمير سعيد - حفيد عبد القادر الذي كان حتى ذلك الوقت يدعم الأتراك بسبب الرابطة الدينية⁽⁴⁾ - على المدينة ونادى باستقلال سورية يسانده أخوه الأصغر عبد القادر. وفي 30 أيلول عندما كانت القوات التركية الأخيرة تعبر المدينة باتجاه وادي بردى، أطلق الدمشقيون نيرانهم عليها "من السطوح وأبواب العربات والشرفات والنوافذ"⁽⁵⁾. واندلعت حرائق عديدة وأصبحت محطة القدم، وهي أول محطة لسكة الحجاز الحديدية، ومستودعات الألمان الموجودة فيها فريسة النيران⁽⁶⁾. وفي بداية تشرين الأول وصل خبر احتلال الإنكليز لبيروت التي أعلنت انضمامها إلى الحكومة العربية. وفي نفس اليوم دخلت الكتائب العربية دمشق يصحبها لورنس وتحت قيادة نوري سعيد. إذ كتب لورنس: "لقد كان سقوط دمشق نهاية سنتين من عدم الوضوح. أشعل الألمان النيران في مستودعات ذخائرهم قبل مغادرتهم المدينة. كانت أذاننا تكاد تتمزق من أصوات الانفجارات المتكررة كل خمس دقائق، لقد أصبحت السماء بيضاء من اللهب عند أول هجوم (...). التفّت إلى سترلنغ أتمتم: "دمشق تحترق" - وامتلكني الحزن وأنا أرى هذه المدينة العظيمة تتحول إلى رماد من أجل حريتها.

عند الفجر اتجهنا بعرباتنا إلى بداية الجسر المطل على الغوطة، ولم نجرؤ على النظر طويلاً نحو الشمال خوفاً من رؤية الحطام الذي كنا نتوقعه. ولكن هذا لم يحصل... ففي البساتين الهادئة حيث امتزجت الخضرة بضباب النهر بقيت المدينة متلاثلة وأكثر جمالاً من أي وقت مضى، كلؤلؤة في

(1) LAWRENCE T.E.، في Lobser 8 آب 1920م.

(2) SANDERS L.، المرجع نفسه، ص 344. مزيريب قرية تقع في جنوب دمشق.

(3) المرجع الأخير، ص 347.

(4) LAWRENCE T.E.، أركان الحكمة السبعة، Les sept piliers de la sagesse، باريس، 1973م، الجزء 2، ص 413.

(5) SANDERS L.، المرجع نفسه، ص 350.

(6) المرجع الأخير، ص 350.

الشمس الساطعة. وصمت دوي انفجارات الليل، وبقي فقط عمود من دخان كثيف مرتفع يخيم بسواده البائس على دكاكين القدم نهاية خط الحجاز (...).

وبهدوء صعدت عربتنا الشارع المستقيم الذي يؤدي إلى قصر الحكومة على ضفة بردى. كانت الأرصفة والشارع والنوافذ والشرفات والسطوح تعج بحشد كثيف من الناس. كان كثير منهم ييكون، ويهتف بعضهم بهتافات واهنة، (...). وانتابتنا رعشة مصحوبة بتنهيد طويل منذ عبرنا باب المدينة وحتى وصلنا مركزها (...).

وبدا وكأن جميع الرجال والنساء والأطفال قد نزلوا إلى الشارع، وكأنهم يرقبون مجرد ظهورنا ليتفجر حماسهم. لقد أصبحت دمشق مجنونة فرحاً، وأخذ الرجال يرمون عمامتهم في الهواء، والنساء تمزق ثُجُرُها، والناس يرمون من شبابيكهم الزهور ويفرشون السجاد عند أقدامنا، وانحنى زوجاتهم صاحكات من خلف القضبان ترشنا بالعطور.

وأحاط الدراويش المساكين بعربتنا، فكانوا يركضون أمامها وخلفها، ويجرحون أجسامهم بجنون، وفي وسط هذا الحماس وصراخ النساء كان الرجال يتشدون بصوت عال: "فيصل، ناصر، شكري، أورنس"، لقد ساروا وعبروا السوق وجابوا الشوارع إلى أن وصلوا إلى الباب الشرقي، وطافوا حول السور وعادوا عن طريق الميدان ليرفعوا حولنا قرب القلعة سوراً من الصيحات⁽¹⁾.

وقبل نهاية اليوم كانت حكومة الأمير سعيد المدنية قد حُلَّت، وعُين شكري باشا العقيد في الجيش العثماني سابقاً حاكماً عسكرياً. وفي اليوم التالي، 2 تشرين الثاني، دخل الجيش البريطاني بدوره المدينة. واتخذت إدارة مؤقتة الإجراءات المستعجلة التي تقتضيها الظروف: توزيع الماء والكهرباء والحفاظ على النظام - بمساعدة شيوخ الأحياء كما ذكر لورنس - ومكافحة حرائق مستودعات الذخيرة التي كانت تهدد بالانتشار، وتأمين الخدمات الصحية لأن الشوارع مخوفة ببقايا الجيش الألماني التركي: عربات وسيارات متروكة وحقائب ومعدات وجثث، ونجدة السكان وتزويدهم بالموث، وإعادة تشغيل سكة الحديد. وصدر عفو عام يشمل المدنيين والسياسيين والعسكر. وبعد عدة أيام قام الأمير سعيد بمحاولة انقلاب فأعتقل وأرسل إلى حيفا، في حين هرب أخوه عبد القادر. وفي 7 تشرين الأول نزلت السفن الفرنسية العسكرية في بيروت حيث طُلب من مندوب

(1) LAWRENCE T.E.، المرجع نفسه، الجزء 2، ص 41-415.

فصل الانسحاب، واحتلت الوحدات البريطانية حلب واللاذقية.

وفي 31 تشرين الأول وقّعت معاهدة مودروس لوقف القتال مع الأتراك. وقُسمت سورية إلى أربع مناطق توافق تقسيمات اتفاقيات سايكس - بيكو، وكلها تحت إمرة قائد الجيش البريطاني الجنرال اللنبي. وعُهد بالمنطقة الزرقاء إلى إداريين عسكريين فرنسيين يتصرفون بالنيابة عن السلطة البريطانية.

وفي 17 تشرين الثاني قام الفرنسيون والإنكليز لإزالة شكوك العرب بتصريح جديد مطمئن يؤكد أن "هدفهما هو تحرير شعوب عانت طويلاً من تعسف الأتراك تحريراً كلياً ونهائياً، وإقامة حكومات وإدارات قومية تستمد سلطتها من إرادة واختيار سكان البلد الأصليين الأحرار..."⁽¹⁾.

وفي 22 تشرين الثاني 1918م ركب فيصل باخرة "غلاوسستر" بدعوة من البريطانيين وبرفقة لورنس متجهاً إلى فرنسا لكي يدافع في مؤتمر السلام عن المصالح العربية، أي تشكيل الدولة الموحدة التي وعد بها السير هنري مكماهون عام 1915م. وفي كانون الأول استقبله بلفور الذي عمل جاهداً على طمأنته منافقاً نفاقاً بعيد الحد، فقد توصل كليمنصو ولويد جورج قبل أسبوع إلى مساومة جديدة "تخلي" بمقتضاها الحكومة الفرنسية رغم معارضة الوزارة الخارجية الفرنسية عن منطقة الموصل الغنية بالبتروول وعن فلسطين، مقابل اعتراف بريطانيا "بنفوذ فرنسا المطلق على باقي الأراضي السورية". نفوذ لم يكن يرغب به أحد في سورية باستثناء قلة من المثقفين المحبين لفرنسا والمعادين للهاشميين الذين بقوا في باريس بعد مؤتمر العرب في 1913م، وتجمعوا منذ 16 تموز 1917م في لجنة مركزية سورية. لقد صرح فيصل بأن "العرب يفضلون الموت على قبول الانتداب الفرنسي"، ولا عجب في هذا عند الاطلاع على سوء أفعال فرنسا أثناء وبعد احتلال الجزائر، وعدم كفاءة سياستها وإدارتها ودبلوماسيتها التي شهّر بها كثيرون لا يُشك برجاجة عقلهم مثل فتور دوبارادي وفولني وبنجمان كونستنت وتوكفيل. إن شهادة هذا الأخير - ابن خلدون الفرنسيين - معبرة فلقد كتب: "انطفأت حولنا - يقصد الجزائر بالتحديد - الأنوار، وتوقف انضمام رجال الدين والقانون المساندين للقضية الفرنسية، أي أننا جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤساً وفوضى وجهلاً

(1) GONTAUT-BIRON، المرجع نفسه، ص 74.

ووحشية مما كان عليه قبل أن نتعرف عليه"⁽¹⁾. إنه اتهام لفرنسا، وإن كان يخفي تبريراً مستتراً للاحتلال - فلقد كان توكفيل من أنصار الاحتلال والمؤمنين به مما يعطي ملاحظاته قوة أكبر - وله طابع الشفقة المتكبرة التي يشوبها الاحتقار، ولكنه ليس بلا جدوى. فليس من المستغرب أن يرغب السوريون - وهم على علم بما ينتظرهم وخاصة أن دمشق كانت تؤدي جالية مغربية كثيرة العدد منذ قدوم الأمير عبد القادر إليها - في التخلص من هذا النظام. أما فيما يتعلق بالإداريين والسياسيين الذين أرسلوا "إلى الخارج" - إذا استثنينا المحتلين أنفسهم - فإنهم لم يقدموا أي شيء لحل الأمور. وهكذا في رسالة في تاريخ 9 تشرين الأول 1918م كتب بول كمبون: "منذ سنوات لم نفعل شيئاً مفيداً في سورية (...). وما من حماقة إلا وارتكبتها فيها، ومازلنا حتى اليوم نكتب في صحفنا عن الضم والانتداب، في الوقت الذي مازالت هذه الكلمات تثير العرب، إذ يجب علينا أن نكون أذكياء في تعاملنا معهم، وهذا أمر لا يتصف به رجال السياسة عندنا"⁽²⁾. في مقالة في مجلة العالمين La Revue des deux Mondes الصادرة في 15 نيسان 1921م أكد ريموند بوانكاريه على نفس الأمر إذ كتب: "يقال أن بعض الوزراء كان يسرهم أن يرسلوا إلى سورية حثالة الموظفين، فأصبح المشرق جنة مخصصة للعملاء الذين لم يحالفهم الحظ في النجاح في بلادهم". وهذا ما أكدته بعبارات أكثر حدة أليس بولو التي سنحت لها الفرصة أن تشهد بنفسها على عين المكان مساوئ السياسة الفرنسية، إذ كتبت: "لقد أصبحت سورية فريسة ومرعى لأبناء الخمارات القادمين. ويبدو أننا رمينا فيها نفايات بلدنا (...). فلقد استحوذ عليهم غرورهم بالسلطة التي آلت إليهم ففقدوا صوابهم (...). لقد كان معظمهم جهلة سذج: كل ما يعرفونه عن المشرق يمكن تلخيصه بأفكار مبتذلة تتداولها الجرائد، وكلام معاد وآراء قديمة أثرية (...). فكل امرأة محجبة في نظرهم "امرأة" Moukèr، وكل رجل بطربوش هو "تيس" بائع للسجاد"⁽³⁾. وهكذا تؤكد التجربة ما أحس به فيما مضى فولني - وقد كان معارضاً لهذا النوع من الأعمال - من عدم كفاءة الفرنسيين في التقدم في المشاريع الاستعمارية، إذ كتب قبل بعثة بونابرت: "ما هي حاجتنا لأرض أجنبية وسدس بلادنا غير مزروع بعد (...). هل سنطبق تحت سماء أجنبية حكمة لا نستعين بها في بلادنا (...). لقد أحضر ضباطنا

(1) TOCQUEVILLE A. (de), De la colonie en Algerie, باريس، 1988م، ص 170.

(2) CAMBON P., Correspondance 1870-1924, باريس، 1940م، المجلد 2، ص 143.

(3) Yvetot, POULLEAU A., A Damas sous les bombes, 1930م، ص 40 - 41.

معهم تلك النبرة المتعالية غير المبالية التي تجعل الأجانب لا يستطيعون تحملنا، وتملاً قلوبهم حقداً علينا. ستكون هناك نزاعات وثورات مستمرة: سنعذب الناس (...) وسيحصل لنا ما حصل للإسبان في أمريكا، وللإنكليز في البنغال (...). سنبيد أمتنا: لقد مجدنا لطفنا وإنسانيتنا عبثاً؛ فالظروف هي التي تصنع الرجال، وكما فعل جيراننا كنا وحوشاً مثلهم (...) (1). وبدا كلام فولني محذراً ابتداء بالجزائر وانتهاء بفييتنام مروراً بسورية. جهل وعدم كفاءة وعجز ولا مبالاة، هذا ما اتصفت به السياسة الغربية في المشرق، والفرنسية خاصة. ومع هذا مازالت بعض الأوساط تظن أن فرنسا قد كانت قوة استعمارية طيبة بكل معنى الكلمة، ومن هؤلاء هنري بوردو الذي قال: "من بين كل القوى الأوروبية، وعلى نقيض ما هو شائع، إننا خير أمة مستعمرة، لأننا نعمل جاهدين على فهم شعوب البلاد الأصلية، ونحقق لهم توزيعاً عادلاً للثروات وتقدماً اقتصادياً في ذات الوقت، ونعمل على ألا نعارضهم بلا فائدة في عاداتهم وتقاليدهم" (2).

قابل فيصل أثناء إقامته في أوروبا رئيس المنظمة الصهيونية حاييم وايزمان - الذي كان قد استقبله سابقاً في العقبة في 4 حزيران 1918م - فوقع معه اتفاقاً بوحى من الإنكليز يحتوي على تسع نقاط، ويعترف فيه بالسلطة اليهودية في فلسطين - يجري تحديد حدود "البلد" في اتفاقية لاحقة - شريطة أن يحصل العرب على استقلالهم بالشروط الموضحة في مذكرة 4 كانون الثاني والتي سُلمت لوزير الخارجية البريطانية. إذا كانت الاتفاقية قد أُلغيت، فإن التحفظات عليها لم تؤخذ بعين الاعتبار مطلقاً، وليس هذا إلا مثال عن نموذج "للتنازلات" كان بعض النخبة العرب مستعدين للقيام بها لإرضاء أطماعهم على حساب الشعوب التي يدعون تمثيلها، وهذا ما يكررون فعله حتى الآن.

أمام تصلب فرنسا التي لم تكن لتراجع أبداً عن "حقوقها التاريخية" في سورية، اتجه فيصل الذي كان الإنكليز يدفونه للقيام بتنازلات للصهاينة إلى الأمريكان الذين لم يريدوا بدورهم أن يدعوا البريطانيين وحدهم في حقول النفط في بلاد الرافدين. اقترح الرئيس الأمريكي ويلسون في جلسة عامة في 29 كانون الثاني 1919م أن يضع هذه "المستعمرات" (على حد تعبيره) تحت سيطرة عصبة الأمم، وتعين قوى مهمتها إدارتها. وهكذا توسعت اتفاقيات سايكس - بيكو

(1) VOLNEY, Considération sur la guerre de Turcs، في رحلة في سورية ومصر، Voyage en Syrie et en Egypte، الجزء

3، ص 360-368.

(2) BORDEAUX H., Voyageurs d'Orient, p 243 Vol I, 1926 Paris.

التي كانت لا تشمل غير فرنسا وبريطانيا، وأصبحت تضم دولاً عديدة. وتبنت بريطانيا الطرح الأمريكي وكذلك فعلت فرنسا بعد شيء من التردد. وأصبح منذ ذلك الوقت تقسيم سورية أمراً مقضياً. ولم يأخذ الانتداب شكله النهائي إلا مع البند 22 لمعاهدة فرساي في 28 حزيران 1919م الذي يرى أن دولة الانتداب المعينة من قبل عصبة الأمم لمصلحة السكان الموضوعين تحته، ليست سلطة مالكة ولا حامية، وإنما وصية تمارس سلطتها تحت رقابة عصبة الأمم ولجنة دائمة، وهي سلطة محدودة ويمكن نقضها نظرياً. إذن لم يكن الانتداب نظام حماية، ولا استعماراً، ولكن بعثة مهمتها نصيحة البلد في تحضير استقلاله.

كان التنازل الوحيد الذي حصل فيصل عليه هو إرسال لجنة تحقيق إلى سورية - أمريكية فقط بسبب تخلي فرنسا وبريطانيا - وهي لجنة كينغ - كرين، مكلفة باستطلاع رأي الناس المرشحين للانتداب. فكان تقرير 28 آب الذي اتفق فيه جميع المراقبين على الاعتراف بخطورة الوضع وطالب بالحد من المخطط الصهيوني الذي رفضه الشعب الفلسطيني، وبإقامة دولة سورية موحدة - تضم فلسطين - تحت رئاسة فيصل على أن تكون الولايات المتحدة وبريطانيا دولتي انتداب، وليس فرنسا في أي حال من الأحوال، لأنه في حال حصوله فإن فرنسا كما يوضح التقرير قد تخلق أزمة خطيرة، ويجب حصر انتدابها على جبل لبنان فقط. ومع أن توصيات لجنة كينغ - كرين لم ترض تماماً الرأي العربي الذي كان يطالب باستقلال ناجز لسورية، من جبال طوروس إلى العقبة ومن البحر الأبيض المتوسط إلى الفرات، استطاعت اللجنة أن تجد وعلى نحو مؤقت على الأقل تسوية مقبولة. ولكن بقيت هذه التوصيات كلمات ميتة لا تأثير لها على القرارات المسبقة.

كان في فرنسا تيار فكري قوي تدعّمه الكنيسة الكاثوليكية، وتجمعات استعمارية يمينية متطرفة مثل لجنة دُبليكس، ومجموعات ضغط (لوبي) صناعية متعددة - وخاصة شركات الحرير في مدينة ليون التي كانت لها في المشرق مصالح تجارية كبيرة - وغرفة التجارة في مرسيليا وليسون، يضغط بقوة على الحكومة لتوسع وتمكن نفوذها في سورية. "سورية ابنة فرنسا، والأم لا تتخلى عن أطفالها أبداً"، هذا ما كتبه سيناتور ليسون إدوارد هريوت⁽¹⁾ بالحرف الواحد. وأخذت مجموعة من السوريين مجتمعة في اللجنة السورية المركزية، تساندها وزارة الخارجية الفرنسية،

(1) HOURANI A.، المرجع نفسه، ص 295.

تؤكد بوقاحة هذه الفكرة. فمنذ 1916م نصّب ندره مطران نفسه مدافعاً عن "حقوق ومصالح فرنسا الحيوية في المشرق" في كتابه *سورية الغد* الذي كتب في إهدائه إلى بول دوشانل رئيس مجلس النواب "...رجل الدولة المحسن الذي لم يتوقف عن حماية المصالح السورية"⁽¹⁾. إذ كتب وهو يتكلم عن موضوع العاشقة المنبوذة - المازوخية غريبة الأطوار والصبورة - : "إننا لا نطالب قبل النصر النهائي بالتخلي عن القوات التي جاءت لتحررنا من العبودية الممقوتة (...)، بل على العكس، إنه ليسعدنا أن نتألم ما دام الفرنسيون يتألمون. إننا سنتنظر بمعنويات مرتفعة ورباطة جأش سلامهم، فهو وحده سيكون سلامنا (...). ولن نترك الفرنسيين يظنون أن السوريين العاقين منهم والجاحدين قد يعارضون تدخلهم في سورية (...). فإلى من ينتمي هؤلاء الذين لا يتطلعون إلى الأرض الموعودة؟"⁽²⁾. ويضيف مطران الذي لم يقرأ تكفيل: "يعرف السوريون جيداً برغم الشائعات أن فرنسا تحترم في مستعمراتها المسلمة الديانة الإسلامية"⁽³⁾. ويتابع هذا الذي لا يخشى السخرية، بعد أن أكد أنه يجب على فرنسا المكلفة ألا تقدم إلى سورية "أي مساعدة مالية"⁽⁴⁾، ولكنها ستجد فيها "مصدراً للمكاسب والامتيازات"⁽⁵⁾، وأخذ يعدد في قوائم وصفحات كاملة المصالح المختلفة والمتنوعة التي ستجنيها فرنسا من سورية: وسيلة للحفاظ على مستعمراتها المسلمة في أفريقيا، ومواد خام هامة جداً لتطوير صناعاتها، وكثير من الثروات الطبيعية والزراعية والمعدنية والأثرية والسياحية⁽⁶⁾. وختم العندليب كلامه: "باحتلال سورية لن تلجأ فرنسا إلى سياسة مدفوعة بمشاعرها، وإنما ستجد فيها إرضاء لكل مصالحها المادية"⁽⁷⁾.

(1) MOUTRAN N.، المرجع نفسه، في المقدمة.

(2) MOUTRAN N.، المرجع نفسه، ص 5-6.

(3) المرجع الأخير، ص 35.

(4) المرجع الأخير، ص 42.

(5) المرجع الأخير، ص 45.

(6) المرجع الأخير، ص 53.

(7) المرجع الأخير ص 60. إنه حقاً نصير النقائص، فبعد أن صاح بأعلى صوته أن السوريين مفعمون حباً لفرنسا كتب ما يلي (ص 36): "ما إن يُجتل الساحل ولبنان حتى يُحكم على باقي سورية بالخضوع، وإلا فما ينتظرها سيكون إما القتال أو التجويع". بسبب هذا السلوك لم يحب السوريون فرنسا هذه التي طالما ناقوا إليها.

إلى جانب هذا النموذج في تشويه الحقائق، عملت دعاية معادية للهاشميين ذات طابع عرقي عنصري جامدة على تشويه التاريخ محاولة إعطاء أسس أقوى لهذا التقارب الفرنسي السوري الذي طالما غمته. ففي طلب وجهته اللجان السورية اللبنانية في مصر بتاريخ 10 كانون الثاني 1919م إلى سفراء الحلفاء في باريس يمكننا قراءة هذه السطور التي تدعو إلى الذهول: "إن سورية برغم لغتها العربية اليوم ليست من أصل عربي (...)"، فالتاريخ يشهد أن سورية قد هضمت غزاتها العرب، وأنه بفضل ذكائها الخاص وحضارتها السابقة استطاعت أن تطيع الحضارة العربية التي كانت مزدهرة حينئذ بطابعها. إن هذه الحقيقة جلية جداً لدرجة أن الفاتحين كانوا عاجزين عن تحقيق أي نوع من الحضارة في بلدهم الأصلي شبه الجزيرة العربية يمكن مقارنته بالتقدم الذي وصلت إليه سورية. فشبه الجزيرة بقيت محافظة على نظامها البدائي الذي مازالت تعيش فيه حتى اليوم⁽¹⁾. ولقد كتب أحدهم دون تردد وهو الدكتور ج. خليل: "إضافة إلى أن الفروق بين العرق الفرنسي والعرق السوري صغيرة جداً"⁽²⁾. من المعروف أن الدروز أُعتبروا منذ القرن السابع عشر من سلالة درويد كاهن بلاد الغال، وهكذا أصبح السوريون اليوم فرنسيين. حملت مجموعة من اليمين المتطرف في فرنسا على عاتقها هذه المهمة. ففي أثناء اجتماع نظمته لجنة دوبلكس في 15 حزيران 1920م في الجمعية الجغرافية تكلم أحدهم وهو م. سان إيف الذي دعا نفسه "بالمكتشف" وأكدت مجلة الحركة الفرنسية *Action française* التي ذكرت الحدث أن محاضراته كانت "موثقة من الناحية العرقية"، وقد قال أحد صحفيي الجريدة: "إن (المكتشف) يَبَيِّن أن سورية سورية وليست عربية، وأنه يجب اعتبار هذه "الجنسية" العربية وهذه الدولة العربية التي يتحدثون عنها كثيراً منذ زمن مزيفة تماماً. إذ لم تكن هناك حضارة عربية على الإطلاق، وكانت دمشق مركز الحضارة السورية، وبغداد مركز الحضارة الفارسية (...). العروبة موجودة فقط في شبه الجزيرة العربية. ولم يبدع العربي الحقيقي شيئاً يذكر لأنه بدوي دائم التنقل. إننا نطالب ألا نسلّم إلى بدو الملك حسين أو الأمير فيصل سكان سورية من

(1) "La Syrie devant la conférence", Memoire a G. Clemenceau, p 9-10, 1919 Paris.

(2) ذكر هذا SEURAT M. المرجع نفسه، ص 212. هذه العنصرية "اللبنانيون غير عرب" التي عانت فساداً في بعض الأوساط المارونية قد استمرت طويلاً. إذ ليس من المستغرب أن نقرأ على سبيل المثال لإيف كوريه وهو يتحدث عن الوضع في سورية أثناء رحلة J. Kessel: "يكره اللبنانيون العرب"، Joseph Kessel ou sur la piste du lion، باريس، 1985م، ص 269.

النصارى والمسلمين ومن ديانات أخرى متنوعة، الذين لفرنسا عليهم حقوق عرقية"⁽¹⁾. وفي نفس الوقت سخرت جريدة الإنسانية Humanité من النقلة من "حق الشعوب في تقرير مصيرها" إلى "حقوق فرنسا الخاصة" في سورية⁽²⁾.

في نيسان 1919م نزل فيصل في بيروت عند عودته من مؤتمر السلام. واستقبل في دمشق استقبال المنتصرين، وهناك أكد في 7 أيار تمسكه بالاستقلال دون شروط. وفي أثناء الأسبوع الأول من تموز أصدرت لجنة سورية منتخبة مجموعة طلبات جذرية قُدمت إلى المحققين الأمريكان في بعثة كينغ - كران: "استقلال سورية الكامل والفوري، دون حماية أو وصاية، وتمتعها بنظام ملكي دستوري (...)، ومعارضة الأطماع الصهيونية في خلق "كومونولث" يهودي في الجزء الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين، ومعارضة قطعية لفصل الجزء الجنوبي من البلد عن باقي سورية (...)"، ورفض لكل اتفاقية تنص على تجزئة سورية⁽³⁾.

تضاعف في دمشق عدد المظاهرات المعادية للفرنسيين، وتبين أن التعاون بين الإدارة العربية و"المستشارين" الفرنسيين صعبٌ جداً، في حين كثرت الاشتباكات بين جيش الاحتلال والكتائب السورية في المنطقة الساحلية. وفي خلال فصل الصيف أبحر فيصل إلى لندن حيث وصل في 18 أيلول، في نفس اليوم الذي نُشر فيه اتفاق 15 أيلول البريطاني الفرنسي الذي ينوي ابتداء من الأول من تشرين الثاني إبدال الكتائب البريطانية بالجيش الفرنسي في "غرب خط سايكس - بيكو". ومع أنه من المفروض أن يكون "الاحتلال العسكري" مؤقتاً "دون المساس بالحل النهائي لقضايا الانتداب والحدود"، لم ينحصر هذا التبديل السلطة الفرنسية في المنطقة الساحلية فقط، بل أفهمت الحكومة البريطانية فيصل بأن عليه من الآن فصاعداً أن يتعامل مع فرنسا. فاتجه فيصل نحو كلمنصو ووقع معه اتفاق 27 تشرين الثاني الذي جرى الاعتراف به بموجبه ملكاً لسورية، شرط أن يعمل على تحقيق الهدوء ويثبت سلطته، ويقبل بالاحتلال الفرنسي للمنطقة الساحلية، ومساعدة فرنسا في المجالات الإدارية والاقتصادية فقط. لقد كان ذلك تراجعاً حقيقياً واضحاً.

(1) Action française، 16 حزيران 1920م.

(2) L'Humanité، 17 تموز 1920م، الصفحة الأولى، رسم Frenekl.

(3) Memorandum of the General Syrian Congress to the American section of the Inter-Allied Commission، 3 تموز

1920م، ذكره KAYYALI A.W، المرجع نفسه، ص76.

اصطدم فيصل عند عودته إلى دمشق في كانون الثاني 1920م بالحركة الوطنية المعادية لأي تجزئة سورية ولأي وصاية أجنبية. فاضطر تحت ضغط المحيطين به أن يضع الحلفاء أمام الأمر الواقع، في حين كثرت المظاهرات المعادية لفرنسا التي كانت تجمع في بعض الأحيان أكثر من 150000 متظاهر، فنأى إلى عقد مؤتمر سوري عام ثان في 8 آذار، فأصدر وسط حماس الجميع قراراً تاريخياً نصه: استقلال سورية "بحدودها الطبيعية"، ورفض المطامع الصهيونية، وتبني نظام لا مركزي في جبل لبنان، وانتخاب فيصل ملكاً على سورية موحدة ومستقلة. وشكلت حكومة وطنية سورية برئاسة علي رضا الركابي، لواء في الجيش التركي وحليف الأشراف، في الوقت الذي أعلن فيه دستور ذو طابع ديموقراطي. وبالطبع رفض الحلفاء قرارات المؤتمر، وكلف ميلران اللواء غورو، المندوب الفرنسي السامي ورئيس قوات جيش المشرق منذ 9 تشرين الأول 1919م، بإعلام فيصل بأن فرنسا تعتبر قرارات المؤتمر لاغية وغير مرحب بها.

ومنذ ذلك الحين أخذت الأحداث تتسارع؛ ففي 25 نيسان 1920م اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى في سان ريمو ونقضوا عهدهم للعرب، وثبتوا تقسيم سورية، هذا التقسيم الذي أُعدَّ منذ 1916م بعد عدة مساومات فرنسية بريطانية، والذي تحدث لورنس عن استحالة الجغرافية عدة مرات. لقد فتح هذا باب عدم استقرار الشرق الأدنى، وتعرض للأحداث الدامية حتى يومنا هذا. وأصبح الجزء الشمالي من البلد - الوحيد الذي يحمل اسم سورية - تحت الانتداب الفرنسي، وأصبحت فلسطين وشرقي الأردن وبلاد الرافدين تحت الانتداب البريطاني. وأكدت هذه الاتفاقيات معاهدة سيفر واتفاق ثلاثي الأطراف في 10 آب 1920م مع تعديل بسيط للحدود: سحب الحدود الشمالية لسورية نحو الجنوب لإرضاء تركية الكمالية التي جرى توقيع معاهدة معها في 30 أيار.

وتفجّر الغضب والاستياء في العالم العربي، وهزت موجة من المعارضة فلسطين التي رفضت انفصالها عن باقي سورية، وحدثت اشتباكات عنيفة بين القبائل العربية والقوات البريطانية. وفي دمشق طالب المؤتمر الوطني من جديد في 8 أيار بالاستقلال الكامل ورفض كل وصاية أجنبية. وازدادت الهجمات العسكرية المباشرة على القوات والمنشآت الفرنسية. وارتفعت أصوات تنادي بالتعبئة ضد فرنسا. رفض فيصل الفكرة واستبدل برضا الركابي المعروف باعتداله الزائد هاشم الأتاسي. وأرسل اللواء غورو - الشهير بالطريقة التي أدخل فيها الرتل الذي يحمل اسمه مدينة فاس - إنذاراً نهائياً إلى الحكومة السورية في 14 تموز مستعجلاً فرض الانتداب الفرنسي، وطالب بقبول

احتلال فرنسا لرياق وحلب وحمص وحماة وكذلك بمعاينة محرضي الاضطرابات.

في دمشق بلغ الاستياء ذروته، وأصدر فيصل الذي كان لا يزال يأمل في الحفاظ على عرشه أمراً بتنزع السلاح، في حين تبنى المؤتمر موقفاً متصلباً متهماً إياه باللين. وفي 20 تموز أرسل غورو إلى فيصل معترضاً على تأخره في الرد عليه إنذاراً نهائياً ثانياً يصبر فيه على أن تأتي بعثة فرنسية إلى دمشق لتهيئة الظروف للانتداب، وضمان الالتزام بشروط الإنذار النهائي السابق. وفي نفس اليوم أطلقت الشرطة الرصاص على الحشد المتظاهر ضد اتفاقية التسليم، وزاد عدد الضحايا عن المئتين. بعد ثلاثة أيام بدأ الجيش الفرنسي تقدمه باتجاه دمشق، في حين أمر فيصل قواته بعدم المقاومة. وفي صباح 24 تموز قضت القوات الفرنسية مزودة بدبابات وطائرات و155 مدفعاً في خان ميسلون على ستمئة جندي برئاسة وزير الدفاع يوسف العظمة، وقد انضم إليهم بضع مئات من المتطوعين أتوا على عجل من دمشق⁽¹⁾. وفي نفس المساء دخل الجيش الفرنسي بقيادة اللواء غوييه المدينة التي كانت شوارعها مقفلة⁽²⁾. واستلم فيصل الذي مازال يأمل في التعاون مع فرنسا أمراً بمغادرة سورية. فذهب إلى حيفا ومنها أبحر إلى أوروبا، وهناك عوضه الإنكليز وقدموا له عرش العراق. وقُضي على المملكة العربية في دمشق بعد أقل من سنتين من ولادتها في الأول من تشرين الأول 1918م.

وبالطبع انتهجت اللجنة السورية المركزية وأخذت تحيي "النصر المألق (...)" الذي حرر سورية من ظلم الحجازيين"، ونشرت رسالة شكر "للواء غورو وقواته للعمل البطولي الذي قاموا به لتحقيق العدالة والحضارة"⁽³⁾. وبرر العقيد لورنس بدوره موقف فرنسا موضحاً أنها لم تتصرف في سورية إلاّ كما تصرف إنكلترا في بلاد الرافدين حيث قُمع التمرد بإراقة الدم، ثم ذرف في جريدة المشاهد The Observer في عدد 8 آب 1920م دموع التماسيح على صديقه القديم فيصل، إذ كتب: "نشعر في إنكلترا أن احتلال فرنسا لدمشق، وحرمان فيصل من العرش الذي حمله إليه السوريون عرفاناً منهم، ليس في النهاية إلاّ جزءاً سيئاً لما قدمه لنا فيصل أثناء الحرب، فالاحساس بأننا مازلنا مدينين لصديق شرقي

(1) Progrès de Lyon، 27 تموز 1920م.

(2) ذكر في عدد 30 تموز 1920م من l'Action française: "(...) دخلت قواتنا المدينة في 25 تموز في نظام رائع، وسط حشد كبير من الناس وفي غاية الاحترام." وفي اليوم نفسه كُتب في جريدة الصليب La Croix: "وصلت فرنسا للانتداب على سوريا من خلال رغبة سكانها الحرة أكثر من اعتمادها على ظلم الاتفاقية".

(3) SAMNE G.، سورية، La Syrie، باريس، 1920م، ص 675.

يجعلنا نشعر بعدم الارتياح"⁽¹⁾. في فرنسا رأت بعض التيارات الفكرية في احتلال سورية انتقاماً للحروب الصليبية طال انتظاره. ففي كتاب عنوانه *الطريق إلى دمشق Le chemin de Damas* الذي أهدى في عام 1925م إلى اللواء غورو كان الأخوان تارو واضحين جداً: "بعد عدة قرون ها نحن الآن نظهر من جديد في ساحل سورية (...). فتقوم مملكة فرنسا في سورية على مرأى من أعيننا. إنها حرب صليبية جديدة نبدأها من جديد هنا"⁽²⁾. وكتب هنري بوردو بأسلوبه المتكبر المتصنع المحبب إليه: "لقد رأيت الحملات الصليبية الأخيرة عند تخوم صحراء سورية، إنه دور جنودنا اليوم في الحراسة"⁽³⁾. ولكن منذ نهاية الثلاثينات وأمام إخفاق السياسة الفرنسية الجلية اضطر "أنصار الحملات الصليبية" أن يخففوا من غلوائهم، فلقد كتب الأخوان تارو عام 1937م: "في بداية الانتداب كان الجميع متفائلين، وتحيلوا أن فرنسا ستتابع بالحكمة والسلطان المهمة الكبيرة التي باشرتها الحملات الصليبية، وسعى إليها ملوكنا ومبشرونا وبحارتنا وتجار مرسيليا الذين أقاموا روابط عمل وصداقة كثيرة مع أساكن المشرق... ولكن للأسف! كان لابد من تخفيف غلوائنا! لقد ارتكبنا كثير من الأخطاء، وأبدينا كثير من الضعف؛ لقد سمحنا للآخرين أن يكتشفوا أننا لا نعرف ماذا نريد من هذه البقعة من الأرض المهمة جداً في العالم (...). حتى إنني فقدت حماسي (...)"⁽⁴⁾. ما نسيه الأخوان تارو وبوردو بكل بساطة، أنه بإمكان الجميع التفاوض والحلم ما عدا المعنيين بالأمر أولاً: السوريون.

بعد دمشق بوقت قصير احتلت حلب وحمص وحمّة. وفي 22 أيلول دخل الجيش الفرنسي إلى درعا محققاً "السلام" - وفقاً لمصطلح النصوص الرسمية - في كل المناطق الواقعة في جنوب دمشق. وقضت القوات الفرنسية القوية وقد تجاوز عدد رجالها سبعين ألفاً بسهولة على آخر معاقل المقاومة. وأحتلت دير الزور في حزيران 1921م، واستسلم بعد وقت قصير بدو العقيدات. وفي 22 حزيران 1921م نجا الجنرال غورو من عملية اغتيال بالقرب من منطقة القنيطرة؛ حيث أطلقت النار على عربته، ولقي الضابط المترجم بارنيه حتفه. بعد سحق ثورة منطقة حلب بقيادة الزعيم القومي إبراهيم بيك هنانو في تموز 1921م، وثورة جبل العلويين بقيادة الشيخ صالح العلي في تشرين الأول 1921م، قُضي على "السلام"

(1) LAWRENCE T.E., The Observer 8 آب 1920م، في رسائل، باريس، 1949م، ص 264.

(2) THARAUD J., Le chemin de Damas، باريس، 1923م، ص 53-54.

(3) BORDEAUX H., المرجع نفسه، الجزء 1، ص 292.

(4) THARAUD J. و J., إنذار خطر في سورية، Alerte en Syrie، باريس، 1937م، ص 22.

في سورية، في الوقت الذي "قُضي على أكثر حملة فكرة الوحدة الوطنية نشاطاً في البلاد"⁽¹⁾. وفي 1925م في الليلة التي سبقت ثورة الدروز لم يبق لفرنسا في المشرق غير عشرين ألف رجل⁽²⁾.

لجأت فرنسا - وقد شغلها القضاء على الرغبة في الوحدة التي كانت ترى فيها أكبر خطر على سيادتها - إلى تجزئة سورية متذرعة بسياسة حماية الأقليات، ومخالفة بذلك الهدف المعلن للانتداب في إحلال "السلام". فلقد اعترف المقدم كاترو مدير جهاز الاستخبارات في بيان سري: "لقد جزأنا الأراضي التي كانت تشكل مملكة فيصل للقضاء على الجهود المبذولة من أجل الوحدة"⁽³⁾. وفي الأول من أيلول 1920م أعلنت دولة لبنان الكبير رسمياً، وتضم جبل لبنان الصغير ذا الأغلبية المارونية، إضافة إلى سهل البقاع الذي كان دائماً مرتبطاً بدمشق، وكل الساحل من جبل عامل إلى طرابلس. ولما كانت الأغلبية سنية في المناطق التي ألحقت بالجبل - وقد كانت مقاطعة مستقلة سابقاً - فإنها لم تتوقف عن المطالبة بضمها إلى سورية⁽⁴⁾.

إضافة إلى لبنان نشأت ثلاث دول أخرى: دولة حلب وتضم سنجد الإسكندرون الذي مُنح استقلالاً نسبياً، ومنطقة العلويين، ودولة دمشق التي اقتطع منها جبل الدروز في آذار 1921م. كانت الرغبة في العقاب والإذلال جلية؛ كتب كاترو في كتابه خلاصة سياسية "Synthèse politique" ملخصاً شرحه لهذه التقسيم: "هكذا كانت نهاية الفخر الوطني السوري مؤلمة ومهينة للعاصمة الأموية العزيزة، إذ استبدل بطموحها للوحدة خلع فيصل والانتداب"⁽⁵⁾. ما اعترف به العسكريون المتورطون مباشرة في الأحداث كان مرفوضاً من قبل عديد من التيارات الفكرية، كتب بوردو الوقح: "اتهمنا بأننا أردنا أن نجزي لنهيم، ولكننا وجدنا الإنقسام واقعاً فوجب علينا التعايش معه، فلقد كان نقطة ضعف هذا البلد. لقد كانت مهمة الجنرال غورو تحويل عناصر غير متجانسة إلى أداة قوة

(1) CATROUX (Lt Colonel), "Synthèse politique"، في: الوضع السياسي والعسكري في المشرق في بداية كانون الثاني

1927. وثيقة شخصية. طباعة ونشر مفوضية الجمهورية الفرنسية العليا في سورية ولبنان، باريس، 1927م، ص 26.

(2) المرجع الأخير، الوضع السياسي والعسكري في المشرق في بداية كانون الثاني 1927م، ص 11.

(3) CATROUX (Lt Colonel)، المرجع السابق، ص 26.

(4) الوضع السياسي والعسكري في المشرق في بداية كانون الثاني 1927م، ص 251-252.

(5) CATROUX (Lt Colonel)، المرجع السابق، ص 26.

وجعلها تتقارب بانسجام عام، ولكنها لم تنتج إلا العجز والفوضى حتى الآن. إنه أسس السلام"⁽¹⁾.
وبرغم تشكيل حكومات في كل دولة عناصرها من أهل البلد الأصليين ولكن "مروضين"⁽²⁾،
وخلافاً لجوهر الانتداب الذي يميل إلى إبعاد كل تدخل مباشر للمتدب، فلقد كانت السلطة الفعلية
بيد المندوب السامي ممثل الجمهورية وقائد الجيش، يساعد أمين عام وممثلون للسلطة كانوا
"يراقبون" الحكومات المحلية. وبالطبع فقدت دمشق مكانتها عاصمةً لصالح بيروت "بعد أن
تراجعت إلى عاصمة ولاية فقط"⁽³⁾. وارتفعت في فرنسا أصوات تستنكر ما يجب تسميته بالاستعمار
المستتر. ففي جلسة 30 كانون الأول 1920م ذكر فيكتور برار عضو مجلس الشيوخ باقي الأعضاء أن
مجيء فرنسا إلى سورية كان بطلب من غرقتي تجارة ليون ومرسيليا "اللتين كانتا تريان فيها سوقاً
لبضائعها"، وقد توجه إليهم بقوله: "(...) يُراد لنا أن ينتهي بنا الأمر إلى احتلال مستمر وحكم
مباشر وسياسة تخالف كل التعهدات المعطاة وتهدد مستقبلنا في المنطقة، وتخالف أيضاً رغبات
وحاجات سكان البلد الأصليين (...)"⁽⁴⁾.

كان لسقوط مملكة فيصل العربية انعكاسات كبيرة على فلسطين. فيما يتعلق بالفلسطينيين ورغباً
عنهم بدأت عملية تغيير في الهوية تسعى لفصلهم عن باقي سورية التي كانوا جزءاً طبيعياً منها جغرافياً
ولغوياً وثقافياً منذ القديم. وجدد المؤتمر العربي الثالث في فلسطين الذي جرى في حيفا في 13 كانون
الأول 1920م مطالبته بالاستقلال في ظل وحدة سورية التي وعدت بها اتفاقيات حسين-مكماهون.

أمام التطلع القوي إلى الوحدة الوطنية الذي نتج عنه مظاهرات عنيفة في كل من دمشق وحمص
وحماة في نيسان 1922م، لجأت سلطة الانتداب حسب توجيهات كاترو ممثل المندوب السامي إلى
"إعادة تشكيل الحكومات" بهدف "تهدئة النفوس الراغبة بالوحدة، دون القضاء على الحكومات

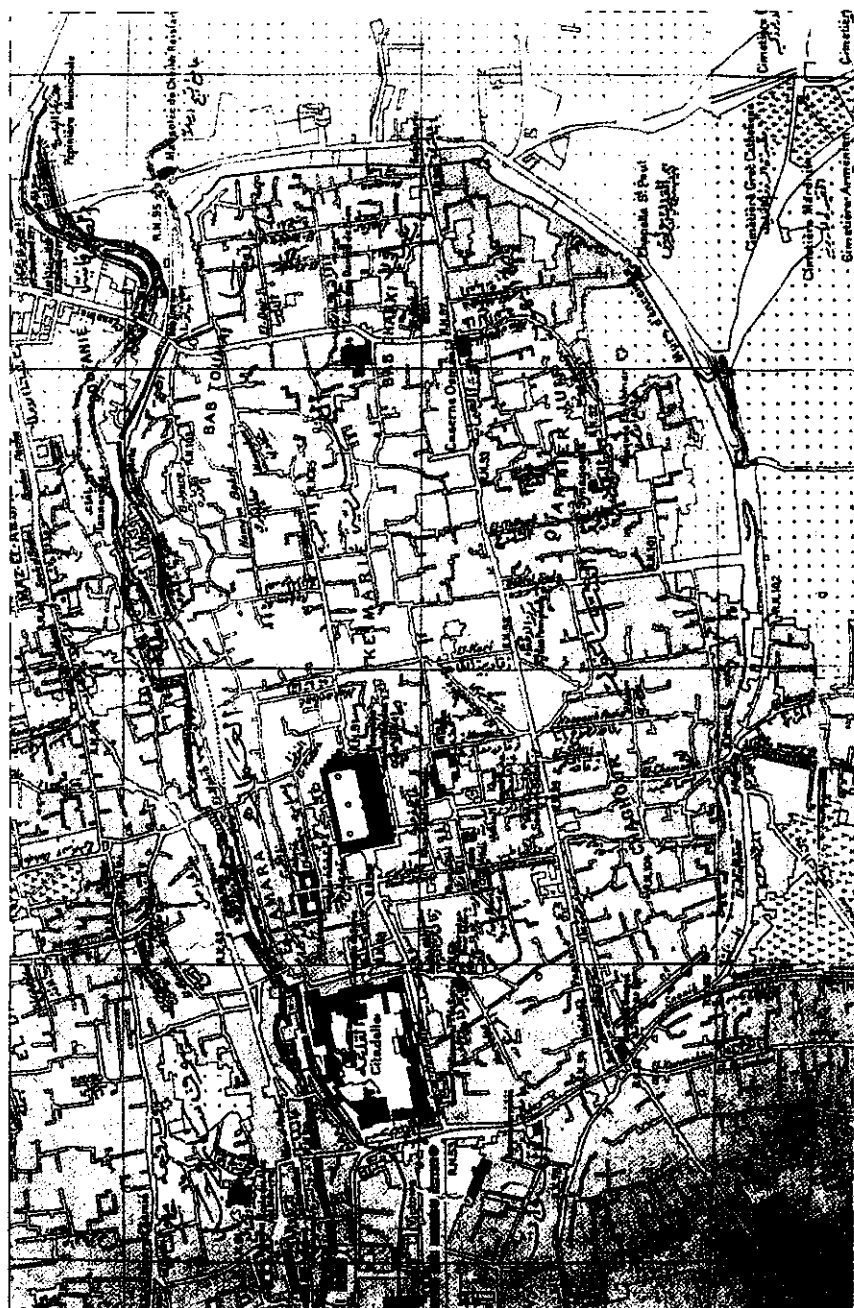
(1) BORDEAUX H. في جبل الدروز، Dans la montagne des Druze، باريس، 1926م، ص 53.

(2) CATROUX (Lt Colonel)، المرجع السابق، ص 26.

(3) المرجع الأخير، ص 26.

(4) RABBATH E. تطور السياسة في سورية في ظل الانتداب من 1920 إلى 1925م، " L'évolution politique de la Syrie "

sous mandat de 1920 à 1925AD، باريس، 1928م، ص 268.



Plan de Damas en 1924, détail

خريطة دمشق عام 1924

المستقلة المشكلة"⁽¹⁾. وفي 30 حزيران 1922م تجمعت دول دمشق وحلب ومنطقة العلويين في اتحاد. ولم تفتقر المطالبة بالوحدة فوقاً لاعتراقات كاترو "أصبحت مصداقية السياسة الفرنسية موضع شك من جديد"⁽²⁾. وامتنع الناس في المدن عن التصويت أثناء انتخابات عام 1923م سواء كانت للمجلس الفيدرالي أو لمجلس ممثلي دولة دمشق⁽³⁾. وبغية تهدئة ما كان يسميه الانتداب "إرادة مؤمنة بالوحدة معترفاً بقوة هذه الظاهرة، ألغى الجنرال ويغان Weygand المندوب السامي منذ 19 نيسان 1923م النظام الفيدرالي، وضم دولتي حلب ودمشق في دولة سورية الموحدة في عام 1924م، في حين بقيت دولة العلويين مستقلة. لاحظ كاترو، وهو أقل عنفاً من أقرانه، أن هذه الإجراءات لم يكن لها أي تأثير، بل أدت إلى زيادة كراهية المتدب وقلة احترامه⁽⁴⁾. في بداية 1925م بعد تعيين الجنرال سراي Sarraïl مندوباً سامياً، وقد كان معادياً للكنيسة وراдикаلياً وماسونياً، استغلت المعارضة الوطنية الانفتاح السياسي النسبي الذي سمح به هذا الأخير، واجتمعت حول الدكتور شهنذر مكونة الكتلة الوطنية التي ضمت معظم القادة السياسيين. وفي 8 نيسان 1925م أثار مرور اللورد بلفور بدمشق - قادمًا لافتتاح جامعة عبرية في فلسطين - مظاهرات عنيفة قُمت بشدة. وفي اليوم التالي أغلقت الأسواق، وغزت حشود الناس سوق الحميدية، فقمعتهم الشرطة وسقط العديد من الموتى والجرحى⁽⁵⁾.

أشعلت ثورة الدروز - التي لم تكن في الأصل إلا تمرداً محلياً ورد فعل للإقطاعيين على التغيرات الاجتماعية التي كانت تهدد امتيازاتهم - النار في المهشم. فبعد مناوشات مستمرة طوال شهر تموز 1925م تكبد جيش الاحتلال خسارة كبيرة. وفي 3 آب انهزمت فرقة مكونة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة الجنرال ميشو⁽⁶⁾، وتقدم الدروز بقيادة سلطان الأطرش تدريجياً وحرروا الجبل. وتوسع التمرد فيما بعد ليصل إلى مناطق درزية أخرى، في حين أضفت عليه الكتلة الوطنية صفة ثورة وطنية.

(1) CATROUX (Lt Colonel)، المرجع السابق، ص 28.

(2) المرجع الأخير، ص 29.

(3) المرجع الأخير، ص 29.

(4) المرجع الأخير، ص 30.

(5) BOKOVA L.، المجابهة الفرنسية السورية أثناء الانتداب 1925 - 1927م، "La confrontation franco-syrienne à"، ص 71.

"l'époque du mandat 1925-1927AD"، باريس، 1990م، ص 71.

(6) المرجع الأخير، ص 163.

وفي تشرين الأول وصلت الثورة إلى أطراف دمشق في الوقت الذي انتشر فيه الاضطراب في جزء كبير من سورية وجنوب لبنان.

في يوم الأحد 18 تشرين الأول اندلع القتال في حي الشاغور جنوب شرق دمشق. وداخل السور هاجم الثائرون بأعداد كبيرة قصر العظم مقر الجنرال سراي، كما هاجم المتظاهرون الحرس بالقنابل وسيطروا على سطوح المنازل. في اليوم التالي حوالي الساعة السادسة صباحاً كُسر الباب وأشعلت النيران في جزء من القصر. بعد ظهر الثلاثاء أخذ الناس ينهبون كل شيء بجنون: داست الأقدام على الملفات المرمية أرضاً فتمزقت، وسُرق الأثاث والسجاد الثمين والدواوين والقطع الفنية، وأنتزعت خطوط الكهرباء، وسُرقت من المتحف أجمل قطعه وأجهزة تصوير ومجموعة من اللوحات الحساسة تحتوي على 2000 صورة سلبية (كليشات) لأثار دمشق وحلب وحماة وبلاد الرافدين، وأُتلفت المكتبة⁽¹⁾. وفي المساء أمسى قصر العظم "كومة من الحطام"⁽²⁾. وبينما كانت الحواجز تقام في كل مكان في المدينة، هاجم المتعصبون كما في عام 1860م الشركس والأرمن والأوروبيين - الذين أسرعوا ولجؤوا إلى قنصلياتهم - فأستخدمت مدافع القلعة وسلاح الجو والدبابات. غادر السكان الأحياء المنخفضة، وهربوا إلى المهاجرين والصالحية، في حين اتجه خط متواصل من السيارات نحو بيروت. كتب أليس بولو وهو شاهد عيان: "لقد كان ما حدث عودة إلى عصر الظلمات والبربرية"⁽³⁾. بعد ثلاثة أيام من القتال والقصف بدت دمشق مدينة محطمة. "كانت أثار قذائف الدبابات بادية على الجدران والأبواب وواجهات المتاجر في الشارع المستقيم"⁽⁴⁾. ومزقت القنابل منزل أسرة القوتلي، وهو من أجمل منازل دمشق، مليء بالنفائس وبكثير من القطع الأثرية، واحترقت كل المنازل المحيطة به⁽⁵⁾. وحُطِّم كل ما يجاور جامع الدرويشية⁽⁶⁾. وعند مدخل

(1) LOREY E. (de)، الوضع الحالي لقصر العظم، "L'état actuel du palais Azm"، في سورية، 6، 1955م، ص 367.

(2) Poulleau A.، المرجع نفسه، ص 94.

(3) المرجع الأخير، ص 110.

(4) المرجع الأخير، ص 99.

(5) المرجع الأخير، ص 104.

(6) المرجع الأخير، ص 105.

الميدان أحدثت قذيفة ثقباً كبيراً في قبة جامع السنانية؛ ولكنها لحسن الحظ لم تنفجر⁽¹⁾. كتبت أليس بولو: "بالقرب من مصرف سورية و بين سوق الحميدية وسوق الطويل يوجد حي آخر شهد أموراً مرعبة؛ إذ لم يبق شيء قائم، ودفن الناس في بعض الأماكن تحت منازلهم، فانتشرت رائحة تفسخ الجثث (...). وفي كل مكان تكسّرت واحترقت أشجار الأبنية الداخلية المسكينة الضعيفة، وتراكم الحطام قرب الأحواض الفارغة. كان البدو يبنشون ما تبقى في الأبنية المحترقة (...). وتبعثرت أسلاك الكهرباء في كل مكان، وأغرقت مياه الأبنية المتشقة الحارات الميتة (...). وكانت أكثر الأمكنة إثارة للرعب أطراف سوق الطويل، حيث يحسب المرء نفسه أنه أمام بركان ما زالت الحمم تنبعث منه"⁽²⁾. بعد ثلاثة أيام من القصف هُدم 250 منزلاً، ودُفن تحت الأنقاض 135 شخصاً على الأقل⁽³⁾. اليوم أُعيد بناء الحي وسمي حي الحريقة تخليداً لذكرى مهمة فرنسا التحضرية. تسببت المعارك في سقوط عدة آلاف من الضحايا من الشوار والسكان المدنيين⁽⁴⁾. بعد أقل من ثلاث سنوات من الأحداث وجد رولاند دورجليه Roland Dorgelès وهو يتنقل بين حطام الأحياء المقصوفة أنها تشبه قرى جبهة القتال التي عرفها⁽⁵⁾، كما ذكرته "الشوارع العريضة المحطمة التي شقتها القذائف حول القلعة" بأحداث الحرب العالمية⁽⁶⁾.

أثار عنف القمع احتجاج القنصليات الأجنبية الشديد. وتوجب على سراي الذي كان قد أعطى الجنرال غاملان مطلق الحرية في التصرف أن يؤكد بأنه قصف دمشق ليحمي النصارى والدروز⁽⁷⁾. وبالطبع احتجت جميع البلدان العربية. وصحت حملة صحافية في فرنسا من غفلتها مؤقتاً تدفعها المنافسات السياسية الداخلية أكثر من التعاطف الحقيقي مع سورية وضحاياها. إذ كتب أ. غوفن في جريدة الحوار في 30 تشرين الأول: "انقض سراي على سورية كالجراد (...). لقد

(1) المرجع الأخير، ص 105.

(2) المرجع الأخير، ص 109. فيما يتعلق بالقصف انظر إلى Journal des Débats عدد 29 تشرين الأول 1925م.

(3) BOKOVA L.، المرجع نفسه، ص 212.

(4) Action française عدد 28 تشرين الأول 1925م.

(5) DORGELES R.، قافلة بلا جمال، La caravan sans chameaux، باريس، 1928م، ص 167.

(6) المرجع الأخير، ص 179.

(7) POULLEAU A.، المرجع نفسه، ص 119.

أضاع تراث سورية الرائع على نحو مخز، فلا بد من العقاب، ولا بد من تغيير النظام". وفي 11 تشرين الثاني 1925م أستبدل بسراي أحد أنصار الحرية الفردية وأحد أعضاء مجلس الشيوخ هنري دو جوفنل Henri de Jouvenel، وقد كُلف بإيجاد مخرج سياسي للنزاع. ومع هذا لم يُوضع حد لمهمة "السلام" العسكرية.

إذا كان القمع الوحشي قد أعاد النظام إلى دمشق، فإن الثوار الذين لجؤوا إلى الغوطة استمروا في كفاحهم حتى تموز 1926م. كتب الجنرال غاملان في بيانه العسكري: "إن مدينة كبيرة كمدينة دمشق ذات ضوايح نائرة مضطربة تصلها آلاف الدروب بالبساتين المحيطة بها، مركز حركي مثالي للثوار". لقد كانوا يخرجون من معاقلمهم ويدخلونها بسهولة متنكرين بهيئة سكان مسالين⁽¹⁾. فالتحذات إجراءات مستعجلة "بغية تحقيق الأمن، وقررت القيادة إحاطة المدينة بشبكة من الأسلاك الحديدية الشائكة تشرف عليها بروج مصفحة مجهزة برشاشات، ولا يوجد فيها إلا عدد محدود من المداخل. ساعد هذا النظام في السيطرة على حركة الناس جيداً، وسمح بتهدة الوضع الداخلي لمدينة مسلمة كبيرة، وأجبر العناصر المتمردة على مغادرتها نهائياً"⁽²⁾. وقد سجل لنا جوزيف كسل الذي أقام في سورية من نيسان إلى تشرين الثاني 1926م وجود هذه "الإنشاءات" العسكرية، إذ كتب: "أعطت هذه المراكز العسكرية المدينة طابعاً مميزاً؛ فهناك أكياس رمل وأسلاك شائكة وكوات رمي تخرج منها فوهات الرشاشات الدائرية البراقة. يختصر المشهد الحرب بكلمة حيث يعبر مسنون عرب جليلون ونساء محجبات الشارع، بينما يصدر عن المثلثة القريبة صوت المؤذن الحاد في جو شرقي"⁽³⁾. ورأى دورجلية بعد عامين أن حارات حي الشاغور مازالت "تُغلق في المساء بحواجز من الأسلاك الشائكة"⁽⁴⁾.

كما اتخذت "تغييرات" أخرى دائمة. إذ أصبح فصل المدينة عن الغوطة التي كانت مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً منذ القدم أمراً حيويّاً في نظر السلطات الفرنسية. وكذلك شقت معابر تسمح للفرق العسكرية والعربات حاملة الرشاشات بالوصول بسرعة من أي مكان إلى المدينة القديمة. وفي 10 كانون الأول استدعت حكومة دمشق المحافظ وأعضاء المجالس البلدية لتقديم لهم "مشروع تحسين"

(1) GAMLIN (G), Synthèse militaire, في: الوضع السياسي والعسكري في المشرق، باريس، 1927م، ص 44.

(2) المرجع الأخير، ص 44.

(3) KESSEL J., في سورية، En Syrie، باريس، 1927م، ص 23.

(4) DORGELES R., المرجع نفسه، ص 166.

المدينة. وباشر الحفارون في اليوم التالي عملهم بنشاط تحت حماية فرقتين من الرماة الجزائريين⁽¹⁾. وفي بداية كانون الثاني 1926م انتهى إعداد القطاع الشمالي، وفي بداية شباط أحاطت كيلومترات من الأسلاك الشائكة بالأسوار.

ولم يتوان المهندسون المعماريون والمدنيون عن تبرير هذه الأعمال بحجة متطلبات حركة مرور العربات، ولم تتردد السلطات على الإطلاق في التعمية والمواربة؛ ففي بيان - وهو بيان سري - عن الوضع في سورية بتاريخ 1 كانون الثاني 1926م كتب بيير أليب مبعوث المندوب السامي فوق العادة بكل صراحة: "لقد استدرج رجال العصابات ونالوا عقاباً شديداً، ولكنهم لم يخنثوا نهائياً. وأعدت مدينة دمشق كمعسكر محصن: وبوشرت أعمال ضخمة وأنجزت بسرعة بفضل همة وخبرة إدارة الجنرال أندريا - الذي سيبقى اسمه مرتبطاً بهذا الإنجاز الرائع - برغم الصعوبات التي نتجت عن حالة الطقس: إذ يمكننا الآن رؤية شوارع عريضة دائرية ذات منافذ عريضة مهيأة لتسهيل حركة وسائل القتال الحديثة؛ ونصبت أيضاً شبكة من الأسلاك الشائكة حول المدينة لحمايتها"⁽²⁾. وانتهت تلك الصلة الوثيقة التي كانت تربط المدينة ببساتينها والتي جعلت من دمشق جنة الله في الأرض، والتي مازال بيير لوتي يحتفظ بذكرى روعتها⁽³⁾.

كان الدمشقيون ينظرون بالطبع إلى هذه "التحسينات" نظرة استياء، ومما يزيد الأمر سخريه أن هنري دو جوفنل لم يُحْفَ أن هذه الأعمال ستمول من الغرامة التي فرضت على السكان والتي تقدر بمئة ألف ليرة. كتبت أليس بولو: "إنها في الحقيقة لهمجية أن تُحْرَب وتهدم النفاثس. ماذا ستفعل دمشق بهذا الحزام من الشوارع الخارجية لخدمة عربات بعض الموظفين أو بعض الباشاوات؟ وبهذا الحزام الذي يقطع الأحياء إرباً (...)، والذي يفصلها عن بساتينها (...)"⁽⁴⁾؟ ثم حذرت بقولها: "إذا سمحتم أيها

(1) BOKOVA L.، المرجع نفسه، ص 216.

(2) ALYPE P.، الوضع في سورية "La situation en Syrie" في الوضع السياسي والعسكري في المشرق، ص 141 - 42.

(3) LOTI P.L.، المرجع نفسه، ص 148.

(4) POULLEAU A.، المرجع نفسه، ص 233. أضافت بولو (ص 234) أنه بغية التخلص من نزع الملكيات الإجباري دون مقابل تبني كثير من الناس من أصحاب الممتلكات الموجودة في الشارع الجنسية التركية أو الإنكليزية أو الأمريكية لكي تناقش سفاراتهم فيها بعد باسمهم قضية النزع الإجباري لممتلكاتهم.

الدمشقيون لهذا أن يحدث، ستصبح شامكم القديمة بعد عشر سنوات مشابهة لـلوفالوا - بـريه"⁽¹⁾.

في نيسان ورغم البروج المصفحة والعوارض والأسلاك الشائكة والاعتقالات وشنق القادة الوطنيين استمرت المعارك محدمة في حي الميدان. كتبت أليس بولو في 15 نيسان 1926م: "أتساءل ماذا بقي في الميدان. اليوم أحرق مسجد كانت تُطلق منه النار على الطائرات وعدد كبير من المنازل المجاورة. كما سُرقَت تقريباً جميع المنازل التي مازالت قائمة، ولم يعد في الحي ساكن. قتلت قبلتان أسقطتهما طائرة ورأيتهما تنفجران من بعيد المصلين (...)"⁽²⁾. وفي 7 أيار بعد أن عاد الهدوء تعرض الميدان الذي لم يستطع جمع الغرامة التي فرضتها عليه القوات الفرنسية - كما كان يفعل المغول - إلى قصف مكثف. واستمرت النيران مشتعلة فيه حتى المساء، فتهدمت مئتان إلى ثلاثمائة منزل، وتضرر كثير من الأبنية التاريخية. وكما حدث في زمن المغول قتل الجنود الذين كانوا يحاصرون الحي الناس الذين حاولوا الهرب⁽³⁾. وفي نفس الوقت كان ثمانية آلاف وخمسمئة رجل يجتهدون بأمر من الجنرال أندريا قائد منطقة دمشق في تمشيظ الغوطة تدعمهم الدبابات والمدفعية. وأخيراً استتب الأمن في 10 تموز. وفي الحال أسرع وجهاء دمشق - الذين كان معظمهم مسؤولاً عن التمرد كما ذكر المندوب بمكر - "ليؤكدوا للمبعوث فوق العادة أن المدينة تخلصت نهائياً من الشوار"⁽⁴⁾. وفي نهاية 1926م جرت تهدئة جبل الدروز والحرمون وجنوب شرق لبنان، وحُلَّت "آخر العصابات"، ولكن الثورة الوطنية استمرت.

فشلت محاولة هنري دو جوفنل في قيام حياة سياسية طبيعية. بينما كانت عملية إحلال "السلام" على أشدها، وكانت المدافع لا تزال تدوي في الغوطة وجبل الدروز، جرت الانتخابات في الجزء الذي حل فيه "السلام" من البلد، ولكن في جو من اللامبالاة بعد أن دعا الوطنيون السكان إلى مقاطعتها. فكانت العقوبات فورية، ونُفي القادة إلى جزيرة أرواد، وأصبحت حصص وحماة تحت حكم عسكري⁽⁵⁾. وقامت حكومة وطنية مؤقتة بغية استدعاء مجلس تأسيسي مهمته إعداد دستور البلد "على أساس

(1) المرجع الأخير، ص 234.

(2) المرجع السابق، ص 218.

(3) المرجع السابق، ص 238.

(4) A. LYPE P.، المرجع نفسه، ص 199.

(5) المرجع السابق، ص 158.

السيادة الوطنية"⁽¹⁾. وفي الوقت نفسه اجتهدت فرنسا - بعد أن بدأت تدرك أنها لن تستطيع الاستمرار على هذه الوتيرة - في إيجاد صيغة تسمح لها باستمرار مصالحها في سورية. ونوقشت فكرة إعطاء الانتداب "شكل اتفاقية تستمر ثلاثين سنة (...) تحتفظ فرنسا ببناء عليها بنفوذها السياسي والأولوية الاقتصادية دون أن تنال من السيادة الوطنية"⁽²⁾. إذا بدأ أغلبية رجال الأعمال والعلماء "المقدمين في السن"⁽³⁾ موافقين على هذه التدابير، فإن الوطنيين لم يستسلموا، واعتقل ثلاثة وزراء وطنيين مع خمسة رجال من أعيانهم في مساء 11 حزيران⁽⁴⁾. واستقال هنري دو جوفنل في حزيران 1926م ليحل محله هنري بونسو، وهو دبلوماسي خبير أعاد الحريات العامة وأصدر حكماً بالغفو عن كثيرين. ساهم هذا التبديل في الموظفين برغم انتشار الجنود في إعطاء انطباع بالضعف وفقدان المهمة.

ذكر جوزيف كيسل في مذكراته أثناء وجوده في سورية في ذلك الوقت: "سوف يحس السوريون بعدم الاستقرار والريبة، وستُظهر للعالم عدم كفاءتنا، وسنجعل السكان يكرهون انتدابنا، وباختصار سنخسر سورية إذا لم نصرف على نحو آخر"⁽⁵⁾. كانت نتائج انتخابات نيسان في صالح الوطنيين في المدن والمعتدلين في القرى. أعدت لجنة من مجلس النواب يرأسها إبراهيم هنانو مشروع دستور: يتجاهل الانتداب، ويطالب من جديد بوحدة سورية بما فيها فلسطين والأردن ولبنان، ويعهد إلى الحكومة بمهمة تنظيم الجيش وإلى البرلمان بمهمة توقيع الاتفاقيات وتعيين الممثلين في الخارج. رفضت سلطة الانتداب كل المقترحات، ودخلت الحياة السياسية في سورية من جديد في طريق مسدود.

استمرت فرنسا في إبداء رغبتها في عقد اتفاق، على غرار البريطانيين الذين استطاعوا أن يوقعوا اتفاقية مع العراق، فنظمت انتخابات جديدة سنة 1931م، وتشكلت حكومة جديدة تضم وزيرين وطنيين، وقُدِّم مشروع اتفاقية إلى المجلس في 21 تشرين الثاني 1933م. نص المشروع على "ارتباط وثيق" بين فرنسا وسورية مدة خمس وعشرين سنة من دخول سورية عصبة الأمم، وانتقال

(1) المرجع السابق، ص 183.

(2) المرجع السابق، ص 183.

(3) المرجع السابق، ص 183.

(4) المرجع السابق، ص 195.

(5) KESSEL J.، المرجع نفسه، ص 94.

حي الشاغور



السلطة إلى سورية خلال أربع سنوات، واستمرار دولتي الدروز والعلويين. كانت المعارضة شديدة في الشارع كما في البرلمان، حتى إن المندوب السامي حلَّ المجلس، وسحب المشروع، وأنشأ "حكومة طوارئ"، وعاد الوضع إلى ما كان عليه سنة 1926م.

في نهاية 1935م عاد الوطنيون لنشاطهم تفاعلاً مع الأحداث في فلسطين حيث زادت حدة الاضطرابات المعادية لبريطانيا والصهيونية. شلّ اضراب عام دمشق في بداية 1936م، ثم انتشر وشمل كل سورية. بسبب الأخطار التي كانت تهدد أوروبا، وتوسع إيطاليا الاستعماري، تقربت فرنسا من الكتلة الوطنية رغبة منها في تدعيم مراكزها الإستراتيجية، وعقدت معها اتفاقية ساهم في تحقيقها نجاح الجبهة الشعبية وحكومة بلوم. وفي 9 أيلول 1936م وقّعت اتفاقية كانت تسعى للتوفيق بين الرغبة في إنجاز الاستقلال والوحدة ورغبة فرنسا في الحصول على ضمانات. واعترف بسورية ومن ضمنها أراضي الدروز والعلويين دولةً مستقلةً ستدخل في عصبة الأمم خلال ثلاث سنوات ابتداء من تصديق الاتفاقية. وربطت معاهدة تحالف سورية بفرنسا مدة خمس وعشرين سنة، على أن تحتفظ فرنسا في سورية بقاعدتين جويتين وفرق عسكرية مدة خمس سنوات في أماكن محددة. وحققت الكتلة الوطنية نصراً في انتخابات تشرين الثاني، وأصبح هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية.

وبعد رحيل حكومة بلوم، طالبت السلطات الفرنسية مستسلمة لضغط الأوساط المعتدلة بتنازلات إضافية، مما أربك الحكومة السورية. وفي نفس الوقت أخذت مسألة وضع سنجق الإسكندرون فجأة منحى خاصاً، فتأزم الوضع. كان للواء الإسكندرون - وهو مجرد منطقة صغيرة في الزاوية الشمالية الغربية السورية ذات أقلية صغيرة من التركمان - وضعاً خاصاً حددته الاتفاقيات الدولية. طالب الأتراك بعد إبرام المعاهدة بين سورية وفرنسا لكي يتمتع سنجق الإسكندرون باستقلالية أكبر، وهذا أمر رفضه مجلس النواب السوري. ناقشت الحكومة الفرنسية رغبة في الحصول على حياد الأتراك أمام صعود الخطر الألماني معاهدة صداقة مع مصطفى كمال في 4 تموز 1938م. وفي اليوم التالي بينما كانت الاستعدادات جارية لإحصاء السكان، دخلت القوات التركية السنجق بموافقة فرنسا. أظهر الإحصاء الذي جرى في ظل الإرهاب أن 63% من السكان أتراك، في حين لم يعط إحصاء 1933م سوى 38%⁽¹⁾. وفي حزيران 1939م أصبح سنجق الإسكندرون جزءاً من تركية يحمل اسم

(1) RAYMOND A، "سورية، المملكة العربية إلى الاستقلال" في سورية اليوم، باريس، 1980م، ص 75، والعدد 12.

مقاطعة هتاي. بعد فلسطين ولبنان والأردن والدول الطائفية كان لواء الإسكندرون آخر تقسيم سورية قامت به فرنسا معتدية على التزاماتها نحوها باعتبارها بلداً منتدباً عليها.

لما كانت الحكومة الوطنية ترى أن الحركات الإقليمية لم تكن إلا نتيجة مكيدة حاكتها السلطة المنتدبة، لجأت كرد فعل إلى سياسة مركزية شديدة، وتعاملت بحزم مع الحركات الانفصالية. فثار اضطراب كبير في جبل الدروز وأراضي العلويين والجزيرة. ونشأت أزمة ضمن الحكومة، فأعلن ج. بونيه وزير الشؤون الخارجية في 14 كانون الأول 1938م أن فرنسا تراجع عن طلب أي تصديق للمعاهدة. وفي 31 كانون الأول طالب مجلس النواب السوري بتطبيق معاهدة 1936م دون التعديلات السابقة. فحصلت اضطرابات عنيفة جداً في حلب ودمشق في آذار - نيسان 1939م، واضطر الجيش للتدخل. ومُنعت الحكومة من ممارسة أعمالها، وحُلَّ المجلس. وصدر مرسوم بتكوين مجلس حاكم من مدراء عامين في تموز، في حين أصبح جبل الدروز وأراضي العلويين والجزيرة تحت إدارة منفصلة. ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية عاد الوضع في سورية لما كان عليه عام 1926م.

بالطبع كانت لهزيمة فرنسا أمام ألمانيا مضاعفات خطيرة في الشرق الأدنى. عندما غادرت فرنسا في ظل حكومة فيشي عصبة الأمم في نيسان 1941م، لم يتأخر الوطنيون في التأكيد على أن الانتداب قد فقد كل مبرر له أمام القانون الدولي. واكتفى المندوب السامي الجنرال دنتز، وهو من مناصري حكومة فيشي، بإعلان تشكيل مجلس استشاري وحكومة ذات صلاحيات واسعة يرأسها خالد العظم. وفي نفس السنة قرر الألمان الطامعون بنفط الشرق الأدنى أن يساندوا القادة العراقيين الوطنيين الذين تمردوا على البريطانيين. فبدأت طائراتهم في نيسان بعد الحصول على موافقة حكومة فيشي باستخدام مطاري حلب ودمشق، في حين أرسلت ذخيرة سُحبت من مخازن جيش المشرق إلى العراق. وبمساعدة قوات الفرنسيين الأحرار قرر البريطانيون التدخل في النهاية، وفي 14 أيار قصفت طائراتهم المطارين السوريين. وفي 8 حزيران دخلت القوات الفرنسية والبريطانية سورية، في حين نادى الجنرال كاترو باستقلال سورية ولبنان حرصاً منه على الحصول على حياد السكان في ظل تلك الظروف الصعبة، ونادى بإمكانية اتحادهم من جديد إذا رغبوا في الوحدة. وفي 24 حزيران دخل دوغول دمشق المحررة من الفيشيين، واستقبله في اليوم التالي أعضاء الحكومة السورية برئاسة خالد العظم، فصرح قائلاً: "نادت فرنسا الحرة باستقلال سورية. ولا بد من السعي ليصبح هذا الاستقلال حقيقة في أقرب وقت. سيقوم الجنرال كاترو المندوب العام للمشرق باتخاذ الإجراءات

الأولى والخطوات الضرورية ما إن تنته الأزمة، أي في المستقبل القريب على حسب ظني"⁽¹⁾. وبرغم هذه الوعود التي لن توفى كسابقاتها، كان لابد من خمس سنوات من المناقشات الصعبة وقصف جديد لدمشق حتى تنتهي المعضلة السورية.

في 14 تموز وقّع البريطانيون هدنة مع الجنرال دنتر الذي غادرت قواته المشرق، في حين فرضت اتفاقية ليلتون - دوغول على سورية تنازلات لمصلحة فرنسا الحرة. وبدل الوفاء بالوعود اجتهدت فرنسا في الحد من التزامات 8 حزيران: استقلال دول المشرق وسيادتها يتعلق بمعاهدة تحالف تضمن لفرنسا حقوقها ومصالحها. واضطر كاترو أمام معارضة الوطنيين القوية جداً أن ينادي باستقلال سورية في 28 أيلول 1941م: "لقد حان الوقت لتقرر سورية المستقلة مصيرها (...). وتشكل دولة سورية وحدة لا تتجزأ سياسياً وجغرافياً"⁽²⁾. ومرة أخرى أخرت مراوغات انتهازية تبررها الحرب اتخاذ الإجراءات الفعلية اللازمة. ولم تجر الانتخابات إلا في تموز 1943م، فأصبح معظم أعضاء البرلمان ينتمون إلى الكتلة الوطنية، وانتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. أثارت مظاهرات فرنسا التي لم تراجع عن معاهدة التحالف مظاهرات عنيفة جداً في بيروت ودمشق حتى إن القوات البريطانية هددت بالتدخل. وفي الأول من كانون الأول 1943م صرح رئيس الوزراء السوري أن الانتداب قد انتهى، واعترف الاتحاد السوفيتي بالدولة السورية الجديدة في تموز 1944م، وكذلك فعلت الولايات المتحدة في أيلول. لكن فرنسا كانت لا تزال تأمل في الحصول على بعض الامتيازات، إذ لم تكتف ببقاء قواتها الخاصة في المكان مما كان يثير حنق السكان، بل أرسلت قوات جديدة إلى الموانئ اللبنانية. فانفجرت مظاهرات عنيفة جداً في كل البلد، ولا سيما في دمشق حيث أعلنت جماعة من المقاومين أنها ستعاقب كل فرد "يتعاون مع العدو الفرنسي بأي شكل من الأشكال أو تكون له أي صلة به"⁽³⁾. وانضمت قوات الشرطة السورية إلى المتمردين⁽⁴⁾، وهاجمت الشرطة المحلية مقر القائد العام للقوات الفرنسية، وقد كانت مكلفة بحمايته⁽⁵⁾. وفي 20 أيار اغتيل ضابط

(1) PILLEUL G. "الجنرال دوغول، سورية ولبنان" في فرنسا - بلاد العرب، تشرين الثاني، 1990م، ص 23.

(2) RAYMOND A. المرجع نفسه، ص 79.

(3) Le Monde، جريدة العالم، 31 أيار 1945م.

(4) المرجع الأخير، حزيران، 1945م.

(5) المرجع الأخير، 1 حزيران 1945م.

ومساعد وقناصة سنغالي في حلب⁽¹⁾. وفي جبل الدروز انضمت القوات السورية التي كانت بقيادة ضباط فرنسيين إلى الجنود غير النظاميين مع أسلحتها ومتاعها. وفي ضمير ثار السكان وقتلوا الضباط الفرنسيين⁽²⁾. وفي 28 أيار حوصرت مواقع فرنسية في دير الزور وفي جبل الدروز ودرعا⁽³⁾. وفي حماة تدخل الطيران الفرنسي انتقاماً لمهاجمة موكب فرنسي، فسقط مئات من القتلى ومثلهم من الجرحى⁽⁴⁾. وفي دمشق رد الفرنسيون على إطلاق النار من نوافذ البرلمان على مقر إقامة الجنرال أوليفا - روجيه بقصف مدفعي واحتلوا المبنى. وقصفت الطائرات القلعة مقر المتمردين العام. وأخيراً ولمدة يومين 29 و30 أيار، قصف أوليفا - روجيه المدينة للسيطرة على الوضع، فسقط مئات من الضحايا. ولم يتوقف القصف إلا في اليوم الثالث بأمر من البريطانيين الذين تحرك جيشهم التاسع. فطالبت الحكومة السورية واللبنانية حينئذ بانسحاب القوات الفرنسية بلا شروط. فبدأت هذه القوات بإخلاء دمشق في الأول من حزيران ظهراً، في حين دخلتها القوات البريطانية في الساعة الرابعة بعد الظهر⁽⁵⁾. وأخلت أيضاً مدينتي حماة وحمص وجبل الدروز وحوران. فيما عدا هذه المناطق بقيت القوات الفرنسية محاصرة في ثكناتها التي كانت تحميها دوريات بريطانية فقط بانتظار أمر الانسحاب، وقد حاصرتها حشود الناس الثائرة وهي تستفزها وترميها بالشتائم⁽⁶⁾. أما المدنيون الفرنسيون فلقد هربوا جماعات إلى لبنان بعد أن تركوا على عجل منازلهم التي كان السكان ينوون مهاجمتها وسرقتها، "ولا يملكون إلا الملابس التي يرتدونها"، وذلك عن طريق مطار المزة⁽⁷⁾. ولم تنج البعثات التبشيرية من غضب السكان، إذ قالت إحدى الراهبات: "لقد غادرنا وشتائم مرضانا تنهال علينا"⁽⁸⁾. وها هي فرنسا التي كانت تدعي نفاقاً الدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها تغادر أرض المشرق مغزية وسط سخرية الناس، هذه الأرض التي كانت تدعي أن لها فيها حقوقاً.

(1) المرجع الأخير، 8 حزيران 1945م.

(2) المرجع الأخير، 13 حزيران 1945م.

(3) المرجع الأخير، 8 حزيران 1945م.

(4) المرجع الأخير، 1 حزيران 1945م.

(5) المرجع الأخير، 13 حزيران 1945م.

(6) المرجع الأخير، 26 حزيران 1945م.

(7) المرجع الأخير، 13 حزيران 1945م.

(8) المرجع الأخير، 13 حزيران 1945م.

وانتهت خمسة قرون من سياسة غير منطقية متناقضة منافقة وغير مبالية بنصائح وتحذيرات فولني وكونستان وتوكفيل وزملائهم بفشل ذريع ونهائي⁽¹⁾، فكانت الخسائر المعنوية والمادية لا تقدر.

بعد مراوغات أخيرة غادرت القوات الفرنسية سورية في 17 نيسان 1947م. وتركت فرنسا وراءها بعد أن فشلت في مهمتها التي كانت تهدف نظرياً إلى مساعدة البلد على الاستقلال، بلداً مشحناً بالجراح وغير مستعد لخوض حياة سياسية مستقرة. لقد كان التدخل الفرنسي الأمريكي البريطاني في منطقة الشرق الأدنى كارثة حقيقية. فبدل مساعدته في تحقيق الوحدة الموعودة في 1915م، هذه الوحدة التي يطالب بها التاريخ والثقافة، لم تتوقف يوماً عن تقسيمه سياسياً، وفصلت المناطق الغنية بالبترول عن امتدادها الطبيعي، ووضعتها في أيدي أمراء أو ملوك كالدمى مرتبطين بمصالح الغرب⁽²⁾. لقد فصلت سورية عن العراق وشبه الجزيرة العربية وأستقطعت منها منطقة الموصل وقطاع عريض من المنطقة الشمالية ولواء الإسكندرون. لقد أصبحت سورية وفق جغرافية خيالية مقسمة إلى أربعة أجزاء: دولة لبنان التي ألحقت بها بغية إرضاء الأقلية المارونية المرتبطة بفرنسا أراض واسعة تسكنها غالبية مسلمة، والأردن التي وضع الإنكليز على عرشها في نهاية 1920م الأمير عبد الله شقيق فيصل، وفلسطين التي أصبحت مفتوحة - بفضل بركات الغربيين المعادين للسامية - أمام هجرة اليهود الأوربيين والتي عملت الأمم المتحدة على تحويلها من مأوى لليهود إلى دولة يهودية، وأخيراً الدولة التي احتفظت باسمها القديم سورية. وهكذا وجدت دمشق نفسها مقطوعة عن صلاتها القديمة قدم الزمن مع المدن المقدسة في شبه الجزيرة العربية، وموانئها الطبيعية اللبنانية والفلسطينية، ومفصولة عن الجليل وسهول البقاع الغنية بالحبوب. وحصل الاعتراف بدولة يهودية في فلسطين في 14 أيار 1948م في الساعة الخامسة بعد الظهر تحمل اسماً إنجيلياً وهو إسرائيل، تلك الدولة المجاورة لسورية ذات الأطماع التوسعية والمعادية لها. لا شك أنه لو كان باستطاعة الشريف حسين التنبؤ بما ستؤول إليه الأمور، وبما سيفعل الغرب بوعودهم التي قطعوها، لنادى "بوحدة كل المشرق" ضد أطماع الغرب في الهيمنة، كما فعل الأفغاني، بدل أن يشن الثورة العربية ضد إخوته المسلمين الأتراك.

(1) مما يثير الدهشة أن بعض رجال السياسة في الجمهورية الخامسة يتجروون اليوم بوقاحة في بعض المناسبات على ذكر "حقوق فرنسا في سورية".

(2) نذكر أن العرب ليسوا الوحيدين الذين خدعهم الغرب. ففي 1920م وعدت اتفاقية سيفير الأرمن والأكراد بالاستقلال...

رغم الأمل بالوحدة التي لم تتوقف الشعوب العربية عن السعي إليها، إلا إن فيروس الانقسام السياسي الذي كان الغرب يغذيه لم يتوقف عن العمل. ففي كل دولة نشأت ارتباطات وصداقات جديدة بمشاركة نشيطة "للنخبة" في السلطة التي كان يهمها فقط تقوية واستمرار سلطتها متوارية وراء ستار إيديولوجية الوحدة. وخلافاً لما جرت عليه العادة في السياسة الإسلامية التي لا تعترف نظرياً إلا بشرعية واحدة مع تقبل سلالات الحكم المختلفة، ذكر دستور جامعة الدول العربية التي أسست في آذار 1945م بمباركة بريطانيا في افتتاحيته "دولاً عربية مستقلة وذات سيادة". وهكذا صدّق أصحاب العلاقة بأنفسهم على الحدود التي رسمتها القنصليات الأوروبية، والتي كان منطقتها الوحيد هو خدمة مصالح القوى الاستعمارية والاستعمار الجديد. وهكذا أجلت كل إمكانية لوحدة سورية، أو توحيد الهلال الخصيب إلى أجل غير مسمى. ورسخت جذور هذه الحدود التي أقيمت على حطام الدولة العثمانية حسب رغبة السادة أنفسهم والدول الوطنية المصطنعة، دون أن تجد لها في ضمير الشعوب أي مبرر. وأصبحت من الآن فصاعداً كل محاولة للوحدة أو التقارب بين دولتين أو عدة دول تعبيراً عن رغبة في التوسع، وتثير على الفور الريبة ومعارضة الدول المجاورة. ووجد الشرق الأدنى العربي نفسه وجهاً لوجه مع إسرائيل في حالة من الفرقة والتنافس السياسي تشبه ما كانت عليه الحال قبيل الحملات الصليبية. أما الفلسطينيون وقد أصبحوا أكثر وعياً لقضيتهم عندما تبينت لهم السياسة الأنانية وانشقاق الدول العربية المجاورة، فقد بدأت عملية بطيئة في تغيير هويتهم وفصلهم عن سورية؛ ونشأ مفهوم "الشعب الفلسطيني" شيئاً فشيئاً. وبالتدريج أخذت تحلّ مطالبة الفلسطينيين بتحرير فلسطين بأنفسهم محل المطالبة الأولية بالوحدة مع سورية⁽¹⁾. ونادت القمة العربية في الرباط في تشرين الأول 1974م بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية OLP "ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني على كل الأراضي الفلسطينية المحررة". وفي الشهر التالي أكدت الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة على "الحقوق المحفوظة للشعب الفلسطيني في فلسطين".

لم يبق أمام سلطات الانتداب أمام الدين الثقيل تجاه سورية سوى الترويج لإنجازاتها المادية. فنشطت المؤلفات لنشر الدعاية والأكاذيب - إنجازات فرنسا في المشرق⁽²⁾ - وروايات خلاصة لعديد

(1) الكيالي أ.، المرجع نفسه، ص 68، 74، 98، 102، 126، 236، وغيرها.

(2) TESTIS، L'Oeuvre de la France au Levant، (سورية وصقلية)، باريس، 1921م، (مقطع من مجلّة Mondes Deux في 15

شباط والأول من آذار 1921م).

من المسافرين، وكلمات خطابية لسياسيين جهلة. ومنذ 1922م كتب هنري بوردو وهو نصير متحمس لغورو: "(...) لبنان وسورية (...) تعيشان في ظل الحماية الفرنسية وتحت عين الجنرال غورو الساهرة"⁽¹⁾. لقد ساهم الانتداب في الواقع في تطور البنية التحتية الضرورية لكل اقتصاد حديث. إذ ازداد طول شبكة الطرق من 700 إلى 2900 كيلومتراً، وأعيد بناء ما خربه الألمان من سكك حديدية وجسور وقنوات، ورفعت أنقاض مرفأ بيروت، ووسعت مرافئ الإسكندرون واللاذقية وطرابلس. وقامت بعض مشاريع إعادة التشجير والري والتجفيف، وزادت مساحة الأرض المزروعة بوضوح وخاصة في منطقة الجزيرة. وفتح العديد من المشافي والمدارس. مع أن المستفيدين من تطور التعليم كانوا النصارى، مما رسخ الانشقاق بين الأديان، فلإن عدد المدارس في سورية ولبنان أصبح 2800 في عام 1939م بعد أن كان 670 في عام 1919م، وأصبح عدد الطلاب 271000 بعد أن كان 50000⁽²⁾. ولقد أولى الانتداب تراث سورية التاريخي والأثري عناية خاصة. فقد أنشئ في عام 1920م مكتب للآثار تديره الإدارة العلمية للأكاديمية الفرنسية. وفتح متحف بيروت أبوابه بعد عامين، في حين نشأ معهد فرنسي لعلم الآثار والفنون الإسلامية في دمشق. وأصبح عديد من المباني الأثرية والتاريخية موضع دراسات معمقة. وخرج من الظل إرث لم يعره أحد أي اهتمام حتى ذلك اليوم. ففي عام 1926م وضعت أول خريطة مساحية للمدينة القديمة. وابتداء من 1933م أعيد تجديد العديد من المباني الأثرية، وخاصة - بفضل الأدوات التي جرى اكتشافها بعد الكارثة والصور القديمة - أقسام قصر العظم التي هُدمت أثناء عصيان 1925م. وفي عام 1939م رمم باب كيسان، وأعيد بناء كنيسة القديس بولص من الداخل.

كان الانتداب لدمشق بما ساهم به من تحديث مكثف وراء تطور فصلها عن الماضي كلياً. فبسبب هذا التعدي السافر انهار التوازن الاجتماعي والطائفي والاقتصادي الذي تألقت به المدينة إلى ذلك الوقت. فلقد زاد عدد السكان زيادة كبيرة، وتآزم الوضع منذ 1930م مع هجرة الريفيين بأعداد ضخمة: ففي عام 1922م كان عدد السكان 173000 ليصبح في نهاية الانتداب أكثر من 300000. كما أدى وصول الموظفين والجنود الفرنسيين مع عائلاتهم إلى تطور أحياء الشُّهَداء

(1) BOURDEAUX H.، يميله في ظل أشجار الأرز، Yamilie sous les cèdres، باريس، 1923م، ص2.

(2) RAYMOND A.، المرجع نفسه، ص83.

وعرنوس والجسر الواقعة على طول الطريق الذي يصل الصاحية بداخل المدينة. ومع أن عددهم كان قليلاً ولكنهم كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية وثقافية مميزة فاجذبوا إليهم الأوروبيين من الجنسيات الأخرى، وقنصليات إنكلترا وإيطاليا وبلجيكا، إضافة إلى بعض الفئات من البرجوازية الدمشقية المسيحية والمسلمة على حد سواء، إذ تركوا مدينتهم القديمة - بعد أن قدم إليها الريفيون بأعداد ضخمة - ليكونوا بالقرب من الأوروبيين، ويسكنوا مباني هي في نظرهم أكثر رفاهية وتجهيزاً وحدائث. حركة السكان هذه كانت وراء تردي البنية المدنية القديمة.

وهكذا كما في العصر الميمني نشأت مدينة جديدة بالفعل، مجاورة للسابقة ومنظمة وفق مبادئ وأسس تختلف تماماً عن المبادئ والأسس المحلية المعمول بها: شوارع عريضة متعامدة، وطرق تحفها الأشجار من الجانبين، ومبان سكنية متشابهة جداً مكونة من أربعة أو خمسة طوابق ذات شرفات ومحاطة بحدائق خاصة صغيرة. وحل محل ساحة المرجة مركز مدني جديد يضم الأقسام الإدارية والبنوك والبريد وقيادة المنطقة والأركان والشرطة والمستشفى العسكري والفنادق والمدارس والكنائس مثل كنيسة القديس أنطوان دو بادو التي بنيت عام 1926م، وفيما بعد البرلمان السوري الذي بدأت أعمال بنائه عام 1932م. وقد عرفت أحياء أخرى تطوراً سريعاً. ففي حي المهاجرين أقيم خط ترام يربطه بمركز المدينة عن طريق الصاحية، وتسارع تطور حي القصاع - في شمال شرق المدينة - بعد أن اخترقه شارع بغداد عام 1926، وحيث التجأ عديد من المهاجرين: نصارى حي الميدان الذين هربوا بعد قصف 1926 و1927م، والأرمن الهاربون من المجازر، واليونانيون القادمون من تركيا والهاربون من قوات كمال. أمام هذا النمو السكاني نشأت عام 1932م شبكة جديدة لتزويد الماء من نبع عين الفيحة عن طريق قناة طولها ثمانية عشر كيلومتراً.

ومع بداية الثلاثينات عهدت السلطة الانتدابية إلى المهندس المدني ر. دانجيه والمهندس المعماري م. إكوشار بإعداد خريطة مفصلة رغبة منها في توجيه توسع المدينة وإنقاذ الغوطة حيث كانت خمسة وعشرون ألف هكتار من البساتين والأراضي الزراعية يهددها التوسع المدني وتلوث مياه الري. كانت التوصيات فيما يتعلق بالغوطة، وهي متنفس دمشق الحقيقي، واضحة جداً: الحفاظ على الزراعة وتطويرها، تحديد توسع المناطق السكنية وتوجيهها أولاً باتجاه سفح جبل قاسيون بعيداً عن الأراضي الزراعية، ووضع حد للبناء المخالف للقانون، وخاصة ذلك الذي يهدد البساتين الواقعة في شمال شارع بغداد، وقد أكد ر. دانجيه: "أن ساحتنا لهذا العمران المخالف للقانون بالنمو يعني

ساحنا باختفاء البساتين ومعها الحزام الأخضر الذي يحيط بالمدينة، وسنفاجاً بعد بضعة أعوام برؤية أكواخ وسخة وغير صحية في مكانه مشكلة أكثر بؤر الأوبئة خطورة"⁽¹⁾. ورغم كل التحذيرات يعتبر العمران المخالف للقانون وغير المنظم المستمر إلى اليوم معضلة كبيرة في تطور دمشق⁽²⁾.

إضافة إلى حماية الغوطة وتخطيط النمو العمراني، فلقد أولى مخطط دانجيه - إكوشار طرق المواصلات بين الأقاليم والمناطق السكنية اهتماماً كبيراً. فأصبح طريق فلسطين - أكثر الطرق استخداماً في ذلك الوقت - وطرق بيروت وحوران وحمص وبغداد المتصلة بشبكة محيطية خارجية لمنع سيارات الشحن من دخول المدينة طرقاتاً عريضة بمسارين. ومن الناحية الصحية أوصي بتجهيز المجرى الرئيسي لنهر بردى لتجنب الفيضانات في مركز المدينة وخاصة بالقرب من ساحة المرجة. وأخيراً طُلب بفتح بعض الآثار التاريخية بغية "صيانة الآثار والأعمال الفنية" وفي مقدمتها القلعة وضريح صلاح الدين. ومنذ عام 1936م وقبل عام من الموافقة النهائية على الخريطة المفصلة، بدأت الأعمال: شق طرق جديدة وإعداد حدائق عامة وفتح المباني الأثرية وبناء متحف وطني جديد كما في مخططات م.م. إكوشار وبيرسون غرب التكية السليمانية مباشرة.

برغم حملة "التحديث" المستمرة ووصول "جماعات من السائحين"⁽³⁾ ودور السينما التي "أخلت المقاهي القديمة الساحرة"⁽⁴⁾ من روادها، وبرغم الترامات ومحطات القطار والشوارع العريضة ووسائل النقل الحديدية بقيت "أصالة" المدينة القديمة مؤثرة، إذ كتب رولاند دورجليه عام 1928م: "لقد بحثت لأسابيع عن مشرق الأساطير، فما كان علي إلا أن أدخل الأسواق لأجده مصادفة دون أن أطلبه. الشرق كله هناك: الحجاج بعثائمهم الخضراء، وال دراويش بقبعاتهم الصوفية، والمنجمون العميان، والمومسات ذوات الحزام الأحمر، وهؤلاء البدو بلحاهم القصيرة الذين يبدوون وكأنهم سادة مخلوعون برغم عيهم الفقيرة جداً. (...) فتقدمت مسحوراً بلا هدف تحت القباب، ونزلت الأدراج، (...) (...) وبحت في عتمة مقاهي العرب عن المدخنين وهم يلعبون الشطرنج

(1) DANGER، التمدن في سورية، "L'urbanisme en Syrie" في L'urbanisme، 1937م، باريس، 1937م، ص 154.

(2) المرجع السابق، ص 196.

(3) DORGELES R.، المرجع نفسه، ص 163.

(4) المرجع الأخير، ص 157.

مسترخين"⁽¹⁾. في حين كتب مسافرون آخرون أكثر تأثراً بتقلب الأيام عاجزين عن إخفاء خيبة أملهم مثل الأخوين تارو في عام 1923م: "ماذا بقي اليوم من مجد دمشق القديم؟ لاشيء في الحقيقة (...). لقد بحثنا عبثاً عن بقايا عظمة الماضي. فلم نجد إلا بضعة مساجد وأضرحة وقصرين أو ثلاثة ضائعة وسط الابتذال الحديث، ولوحات فنية تركية بلا معنى، كلها بائسة أمام الأسطورة التي تخرج من أعماق الذاكرة اسم دمشق العظيم (...). فهل هو جمال بسايتينها ووفرة حدائقها الذي يخفي عن الدمشقيين تداعي مدينتهم؟ إنهم لا يرون انحطاطها وجمالها الآخذ بالذبول"⁽²⁾.

كانت نهاية الانتداب لسورية بداية حقبة متناقضة من عدة وجوه. عدم استقرار سياسي مدة ربع قرن حدث فيه كثير من الانقلابات العسكرية وتغير الحكومات من جهة، وتطبيق مجموعة من الإصلاحات في مجالات الحياة اليومية استئنافاً لسياسة إبراهيم باشا مما جعل بنية المجتمع السوري تتغير تغيراً لا يمكن تعديله من جهة أخرى.

بعد رحيل فرنسا بقيت السلطة في أيدي الأعيان وكبار التجار والصناعيين وملوك الأراضي من الأغنياء - كان يمتلك بعضهم عشرات من القرى وعشرات الآلاف من الهكتارات - الذين كانوا يعتبرون أنهم قاموا باسم الوطنية بمقاومة سلطة الانتداب. وفي عام 1947م انقسمت الكتلة الوطنية إلى حزبين ليطفو على السطح إضافة إلى النزاعات الداخلية في سورية مفهومين مختلفين للوحدة العربية: الحزب الوطني المعادي للهاشميين والقريب من السعودية يضم وجهاء دمشق وأنصار شكري القوتلي رئيس الجمهورية منذ 1943م، وحزب الشعب بقيادة وجهاء حلب وحمص الذين كانوا أنصار وحدة الهلال الخصيب والملكية الهاشمية في العراق. ولما كانت في حوزة الحزب الوطني وسائل تمكنه من الحصول على نتائج تطابق رغباته فقد تمكن من الحفاظ على السلطة أثناء انتخابات تموز 1947م، ولكن عدم وجود أغلبية سياسية قوية ساهم في ظهور قوى سياسية جديدة: الحزب القومي السوري الذي أسسه عام 1932م أنطوان سعادة وهو يوناني أرثوذكسي "لبناني"، والذي كانت تدعمه الأوساط البرجوازية الصغيرة التي جعلت من العلمانية معتقداً لها ووحدة سورية الكبيرة من جبال طوروس إلى السويس ومن قبرص إلى الخليج الفارسي إحدى مطالبها الرئيسية، والحزب الشيوعي

(1) المرجع الأخير، ص 155.

(2) THARAUD J. et J.، طريق دمشق، Le chemin de Damas، باريس، 1923م، ص 220 و 225.

عام 1920م الذي كان يديره منذ عام 1932م طالب شاب كردي يدعى خالد بكداش والذي توسع نفوذه في الدرجة الأولى بين المثقفين والطبقة العاملة - وإن كان قليل العدد - وقد اعتبرته الولايات المتحدة عدوها الأول فضاغت استخباراتها المركزية محاولاتها في التدخل في لعبة السياسة السورية، وحزب البعث أي البعث العربي الذي أسسه في عام 1940م يوناني أرثوذكسي ميشيل عفلق، وآخر سني وهو صلاح الدين بيطار، وثالث علوي وهو وهيب الغانم. وهذا الحزب اشتراكي ثوري انتشر في صفوف الطبقات الوسطى والأعيان المحليين وأصحاب العقارات من الطائفة الدرزية والعلوية، وكان هدفه الأساسي وحدة الوطن العربي على أساس علماني بحت. والحزب الاشتراكي العربي الذي أسسه في عام 1945م أكرم حوراني، وهو من وجهاء حماة، وتمتع بدعم محلي قوي، ونصب نفسه مدافعاً عن صغار الفلاحين، وأخيراً حزب الإخوان المسلمين الذي كان يرفض كل الأشكال السابقة المستوحاة من الفكر الغربي، والذي كان يرى أن السلام الفردي والجماعي لا يكون إلا بتطبيق حربي للشرعية والعودة إلى الصفاء القديم في أصول الإسلام.

مع نهاية الانتداب كانت أول الإجراءات التي اتخذها نظام حكم الأعيان هو تقليص حجم القوات العسكرية. فأوشكت سورية المستقلة وهي تعاني حالة من الضعف بسبب جيشها غير المجهز والذي كان يضم 3000 رجل فقط أن تواجه أول حرب لها في تاريخها. ففي 29 تشرين الثاني 1947م تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة - 33 صوتاً مؤيداً مقابل 13 صوتاً معارضاً و10 دول امتنعت عن التصويت منها بريطانيا - القرار 181 القاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين، دولة يهودية وأخرى عربية ووضع خاص لمنطقة القدس. وبعد أقل من ستة أشهر بينما كان تدمير القرى الفلسطينية وطرد سكانها منها مستمراً، طالب الصهاينة في تل أبيب في يوم الجمعة 14 أيار 1948م بتشجيع من الرئيس ترومان الذي كان حريصاً على شعبيته بين الأوساط اليهودية قبل الانتخابات بقيام "دولة يهودية في فلسطين" تحمل اسماً توراتياً وهو إسرائيل. فبدأت الحرب فجر اليوم التالي. في الجنوب دخلت فلسطين ثلاثة أرتال من الجيش المصري، وفي الشمال تمركزت المصفحات السورية القادمة من القنيطرة عند بحيرة طبرية، في حين استعد العراقيون شرقاً في عدة مواقع لعبور الأردن. ولكن في أقل من أسبوعين سيطر غياب التنسيق بين الجيوش العربية والريية المتبادلة والنزاعات الداخلية على هذه الوثبة المبدئية المواتية. وسمح هجومان معاكسان مفصولان بهدنة باحتلال الجيش الإسرائيلي للجليل وصحراء النقب وجزء لا يستهان به من الضفة الغربية. وفي 7 كانون الثاني

1947م في آخر يوم من الحرب احتلت دولة إسرائيل مساحة تزيد عن ثلث المساحة التي منحها لها قرار 29 تشرين الثاني 1947م ووصلت بموقفها القوي إلى مفاوضات الهدنة.

ساهمت هزيمة 1948م المؤلفة في القضاء على شرعية الأعيان في دمشق. فعملت الولايات المتحدة خشية تواطؤ حكومة الأعيان مع الاتحاد السوفيتي على مساعدة رئيس الأركان حسني الزعيم - وهو كردي من أصل حلبي^(*) ومقرب من أكرم حوراني - في الاستيلاء على السلطة. وفي 30 آذار 1949م اعتقل الرئيس قوتلي وأعضاء الحكومة وزعماء الأغلبية الرئيسيون، في حين وقعت الإذاعة والإعلام تحت سيطرة الجيش. كان هذا أول انقلاب عسكري من سلسلة طويلة من الانقلابات في العالم العربي. وفي 25 حزيران 1949م انتخب حسني الزعيم بعد إعطائه رتبة المشير رئيساً للجمهورية، ففرض على الموظفين الزي الغربي مقتبساً أفكاره من مصطفى كمال، وساهم في تحرير المرأة التي منحها حق الانتخاب، وسارع في تبني قوانين جديدة على حساب الشريعة، وألغى قسماً كبيراً من الأوقاف، وأعاد تنظيم الجامعة وفقاً للنموذج الغربي. أثارت سياسته الخارجية معارضة حادة، إذ اتهم بأنه لم يحسن التصرف فيما يتعلق باتفاقية الهدنة الموقعة في 20 تموز 1949م، فقبل أن يصبح الجزء الصغير من الأرض الفلسطينية الموازي لبحيرة الحولة والذي مازال في أيدي الجيش السوري منطقة منزوعة السلاح وتحت إشراف الأمم المتحدة، وقد اتهم أولاً بأنه كان عميلاً وبأنه أراد مقابلة ابن غوريون سرّاً، فأسقطه انقلاب عسكري في 14 آب 1949م، ثم اعتقل وقُتل.

دعا الرجل الجديد والقوي العقيد سامي الحناوي أعضاء حزب الشعب لتشكيل الحكومة. فعين ميشيل عفلق وزيراً للتربية ليكون أول بعثي يصل إلى مركز مهم في الحكومة. ثم اتهم الحناوي هو الآخر بالعمالة بسبب تشجيعه للوحدة مع مملكة العراق بتحريض بريطاني. وفي 19 كانون الأول 1949م خلعه العقيد الشاب الكردي أديب الشيشكلي الذي أصبح خبيراً بالانقلابات بسبب مشاركته بالانقلابين السابقين. ثم اغتال الحناوي بعد أن نُفي إلى بيروت شباب أكراد انتقاماً لموت الزعيم.

احتفظ الشيشكلي بحكومة السياسيين التقليديين نحو عامين حيث استمر في قيادة الجيش، ثم تحمل وحده مسؤولية الحكم اعتباراً من 29 تشرين الأول 1951م بسبب التعديلات الوزارية المتكررة وتدهور الوضع في المنطقة بسبب عديد من الاشتباكات الحدودية مع إسرائيل. فحلَّ البرلمان

(*) حسني الزعيم من عائلة الزعيم المعروفة في حماة، وهو هوي الأصل بلا نقاش.

والأحزاب السياسية ومن ضمنها حزب الإخوان المسلمين، ومنع الصحافة المعارضة. ولما كان في خصام مع الراديكاليين مثل حوراني وعفلق وبيطار الذين هربوا إلى لبنان، وأمام عداء كان يتزايد حدة رتب الشيشكلي انتخابات عامة في تشرين الأول 1953م، حصلت فيها "حركة التحرير العربية" التي أسست في آب 1952م على 72 مقعداً من أصل 82. ومع هذا لم تخف حدة الاستياء، فكثرت المظاهرات المعادية للنظام، في حين أعلن جزء من الجيش تمرده بقيادة النقيب حمدون. ولكي يجنب سورية حرباً أهلية غادر الشيشكلي إلى المنفى في 25 شباط 1954م. لقد كان للإصلاحات التي قام بها تأثير كبير على الحياة السياسية والاجتماعية في سورية: فلقد أعاد تنظيم الجيش مراعيّاً ترقية الضباط الشباب الوطنيين، ونجح في الحفاظ على حياد سورية رغم الضغوط الأمريكية، وألغى كل شكل من أشكال التعصب الطائفي السياسي، وحد قوة الأعيان بدعمه للقطاع العام.

بعد مغادرة الشيشكلي سلم الجيش السلطة للمدنيين الذين أعادوها للبرلمان، وعادت التغييرات الوزارية من جديد. أظهرت انتخابات 24 أيلول 1954م - الانتخابات الحرة الوحيدة في سورية بعد الاحتلال إضافة لانتخابات 1961م - تراجع حزب الشعب قارعة أجراس الحداد على مشاريع الوحدة مع العراق الهاشمية، وتقدماً واضحاً للبعث الذي أصبح قوياً بتحالفه عام 1953م مع حزب الحوراني العربي الاشتراكي، والذي حصل على 22 مقعداً من أصل 142. عانى النظام البرلماني الضعيف من ضغوط قوية من قبل الغربيين، ففي 24 شباط 1955م عُقدت برعاية الولايات المتحدة حلف بغداد الذي ضم العراق وباكستان وتركيا والعراق. رفضت سورية الانضمام عندما شعرت أن استقلالها في خطر، وتقربت من الاتحاد السوفيتي ومصر التي وقعت معها في 2 آذار 1955م إثر الغارة الإسرائيلية على غزة في 25 شباط اتفاقاً تنسيق عسكري. وفي آب 1955م أُعيد انتخاب القوتلي من جديد رئيساً للجمهورية، في حين جرى توقيع عقد شراء أسلحة وهو الأول من نوعه مع الاتحاد السوفيتي في بداية 1959م.

في مساء 26 تموز 1956م أعلن جمال عبد الناصر الرئيس المنتخب حديثاً لجمهورية مصر أمام حشود الناس المتحمسة في الإسكندرية تأميم قناة السويس. فأعدت فرنسا الاشتراكية وبريطانيا العظمى عملية عسكرية في كتمان شديد - اشتركت إسرائيل فيها في النهاية - بغية القضاء على "هتلر الجديد" والعمل "لإعادة إعداد" المشرق الأدنى ليصبح أكثر مراعاة لمصالحها. وفي 29 تشرين الأول باشر الجيش الإسرائيلي عدوانه، وبعد أقل من أسبوعين هاجمت القوات الفرنسية والإنكليزية ميناء

بور سعيد جواً. كان نصر الرئيس جمال عبد الناصر السياسي ساحقاً مما زاده عزة وجاهاً، ليس فقط في نظر العرب وإنما في نظر العالم الثالث كله. أما فيما يتعلق بفرنسا وبريطانيا اللتين أخذتا بالتوازي أمام القوتين العظيمتين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، فلقد كانت نهاية طموحاتهما الاستعمارية في الشرق الأدنى.

ابتداء من شهر كانون الثاني 1957م أخذ الرئيس أيزنهاور يُعرّف الشرق الأوسط "ساحة معركة بين الشرق والغرب" مؤكداً بقوة وعلناً حقوق الولايات المتحدة في المنطقة. فوثقت سورية علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي، ووقعت معه معاهدة تعاون اقتصادي وتقني ذات أهمية كبيرة في 6 آب 1957م، في حين اندفع البعث للوحدة مع مصر معارضاً اتفاقية بغداد و"سياسة" أيزنهاور. وفي 22 شباط 1958م قامت الوحدة العربية وسط بهجة شعبية بين سورية التي شكلت "الإقليم الشمالي" ومصر التي شكلت "الإقليم الجنوبي". كان الانصهار بين الدولتين كاملاً، فجرى حل الأحزاب السياسية وإنشاء حزب وحيد وهو حزب الاتحاد القومي الذي سيطر عليه جمال عبد الناصر سيطرة كاملة، وجرت الأحداث دون شك بسرعة. وجدت البرجوازية السورية نفسها وهي تعاني من البيروقراطية الثقيلة مجردة من دورها في بلدها، في حين وجد الوزراء البعثيون الذين كانوا قد مُنحوا وعوداً جميلة أنفسهم بلا سلطة حقيقية في الحكومة الموحدة. وارتفعت الأصوات تفضح استغلال سورية الاقتصادي من قبل مصر. وأخيراً أثار التأميم والإصلاح الزراعي استياء أكثر الناس اعتدالاً. واستبعد في النهاية الوزراء البعثيون من الحكومة، وأخذت الأوضاع تتدهور يوماً بعد يوم. عهد جمال عبد الناصر بالسلطة في "الإقليم الشمالي" إلى المشير الوفي عامر قائد جيش الجمهورية العربية المتحدة، في حين كُلف بالقمع البوليسي العقيد سراج رئيس المخابرات سابقاً. وفي شباط 1959م كوّن مجموعة من الضباط الشباب السوريين والذين كانوا من مشجعي الوحدة مع مصر ومن بينهم صلاح جديد ومحمد عمران وحافظ الأسد في مصر حيث كانوا منفيين تنظيمياً سرياً بعثياً، وهو "اللجنة العسكرية" التي لم تتوقف أهمية دورها عن الازدياد في الحياة السياسية السورية. وفي 26 أيلول 1961م خُلع السراج من منصبه بغية تهدئة الوضع وتخفيف سخط الناس. وفي 28 أيلول استولى عسكريون دمشقيون تدعمهم عناصر محافظة على السلطة، فأصدر عبد الناصر تحنباً لحرب أهلية أمراً إلى كل المصريين في سورية بالعودة إلى مصر، وهكذا كانت نهاية الجمهورية العربية المتحدة.

الفهرس

7	المقدمة: صورة عن اللجنة
15	عالمان وجهاً لوجه
23	الكارثة
39	الفصل الأول: من البداية حتى الأمويين
175	الفصل الثاني: العباسيون والسلاجقة
319	حكم الأتراك

ملحق بفهرس لبعض الأخطاء المطبعية وغيرها قد أجري تصويبها
وسيتم إدراجها في الطبعة الثانية إن شاء الله

الصفحة	الخطأ	التصويب
8	يهوا	بلاد اليهودية الواقعة بين البحرين الميت والمتوسط
10	القديسة جان دارك	مدينة عكا
11	ابن خردانه	ابن خرداذبه
12	ارفاشاد	ارفكشاد
12	Bayle	Bayel
12	ابن روسته	ابن رُسته
12	الحلى الثمينة	الأعلاق النفيسة
12	المروج الذهبية	مروج الذهب
12	يوسف	يسوع
12	يعقوب	أيوب
15	Athanasiens eusébiens	أثناسيوسيون و أوسبيون
15	المرقس أورل	مرقس أورليوس
15	الألبانيين	الألبيجيون
16	أغسطان	أوغسطينوس
16/71/87/89 بول	بول	بولص
16	الدوترونوم	سفر ثنية الاشتراع
16	القديس لوك	القديس لوقا
16	البيزنطية	بيزنطة
16	جان الدمشقي	يوحنا الدمشقي
17	الوضيعون	المتواضعون
17	طاعون	وحش
18	تساميح أمراء النصارى	تعصب أمراء النصارى
18	حادثة الأسلحة	المأثرة
21	الوجودية	الجوهرية
23	حرية التصرف	تقرير المصير
24	1947	1946
28	Sir	السيد

المتدوب	المتدب	28
منظمة الأرغون	ارغون	30
الجزّار "صاحب الرؤيا"	مذبح مشهور	30
مدفن الآباء	سرداب البطارقة	30
طبيب على شاكلته	طبيب في دولته	30
قرية قرازة	قرية غرة	31
المتدوب السامي	المتدب	31
الاحتلال	الفتح	31
دالة	داله	33
الرملة	رام الله	33
المخالفة للشرعية	المخالفات الشرعية	37
العصر الحجري القديم	العصور الحجرية	39
المشرق	شرقي المتوسط	39
الألفية السابعة	الأول	43
جبيل	الجبيل	43
العمق	أموق	43
بلاد الرافدين	الحزيرة 99 /47 /46 /44	44
قرقميش	كركميش 47 /46 /45	45
بلاد الرافدين السومرية	السومرية	45
زغروس	زاكرو	46
أمورو	أمور	46
آبوم	عبوم	46
ختم اسطوان	سطل اسطوان	46
يمحص	يمخد	46
أحمس	حموسيس	47
أمنحوتب	أمينوفيس 49 /48 /47	47
بلغ الفرات	استولى على الفرات	48
دواوين	رؤوساء	48
اتباع مصر	اقطاعي مصر	48
الأبباع	الأقطاعيون	49
كامد اللوز	كميد اللوز	49
القاعة ذات الأعمدة	قاعة هيبوسيتل	49

49	رمسيس	رعمسيس الثاني
50	المسني	الموكني
50	قطنه	قطنا
50	رمسيس الثالث	رعمسيس الثالث
50	حبو في الطيبة	حابو في طيبة
50	البلستين "الفينيقيين"	البلست "الفلسطينيين"
50	اشود	أشدود
51/56/57	تغلات بيلسر	تجلفيلسر
51	الأخلام	الأخلامو
51	أنات	عناة
51	ماكاه	معكا
51	حنشور	جشور
51	زويه	صوبا
51/52/97	يعقوب	داود
51/52	حداد يزير	هدد عزر
51	وفق سام	المقصود هنا سفر صموئيل
51	أوغست	أوغسطس
52/53	المركزية	الوسطى
52	ريزون ابن إليادا	رزون بن إليادع
52	هيزيون وتاب رامن وباد حداد الأول	حزيون وطبرمون وبرهدد الأول
52	آسا وباسا	آسا وبعشا
52	يهوا واسرائيل	يهوذا واسرائيل
52/55/59/60/67	بار حدد	بارهدد
52	باسا	بعشا
52/53	حدد عيدر	هدد عزر
52/53	آشاب	آخاب
52	أشورناسربال	أشورناسربال
52	حماث	حماة
53	قاقار وجيلزاعو	بين قرقر وجيلزاعو
53	راموث غالاد	راموث جلعاد
53	جبل سانيرو	جبل الشيخ (حرمون)
54	حازائيل	حزائيل

54	تلغات بليسر	تجلتفليس
97/45	يهوا	يهوه
54	جيهو	ياهو
54	الغلايين والغادين والروبيين والمنسين	كل بلاد جلعاد والجادين والروبيين والمنسين
54	أروير	عروير
54	غلاذ وباسان	جلعاد وباشان
54	جواشاز	يهواحاز
54	غات	جات
54	يهوا	يهوذا
55/54	جواس	يوآش
55	التوراة	العهد القديم
55	خسر ابن جواشاز بعد أن هزمه جواش ثلاث مرات	تغلب على بارهدد يوآش بن يهواحاز ثلاث مرات... وخسر كل المدن
55	أفق	فيق
56	بازارسيك	بازارجيك
56	جيرويوم	ياربعام
57/56	اسحق/ اسحاق	أشعيا
57/56	راديان	ردين
56	فاسيه	فاقح
56	أشاز	آحاز
57	الإنجيل	العهد القديم
58	لوسيان دوسموسات	لوقيانوس السميساطي
59	الباريس	البريص
59	فرفر بانياس	فرفر
59	بار حدد تاب راما	بار هدد طبرمون
60	يهواشاز	يهواحاز
60	الراهب	الكاهن
60	سفكس	ابو الهول
60	ميدس	الماديين
61	نينيف	نينوى
61	JUDITH	يهوديت
61	Jerémie	ارميا

61	Ezechiel	حزقيال
61	سيروس	قورش
61	ماردوك	مردوخ
61	المرزبية	المرزبانة
63	إيسوس	إيسوس
63	غوغاميل	سهل (تل كومل)
63	الطبقة	ثابسكس
63	مدني	مديني
64	الكابادوس	قبادوقية
64	بافلاغونيا	بافلاغونية
64	تراس	تراقيه
73 / 64	اهلنية	اهلنسية
64	البطليموسيون	البطالة
68 / 64	أنطوخ	أنطيوخوس
65	انطاكية	أنطيوخوس
65	لاوديا	لاويكه
65	سلوسي	سلوقية
65	وشاسيس	وكاليسيس
65	ريث آمون	ربة عمون
66	تيت ليف	تيطس ليويوس
68 / 67	ملكارت	ملقارت
68	إستارته	استار / عشتار
68	ألات	اللات
69 / 68	ديمتريو / ديمتريوس	دمتريوس
68	سلوقس	سلوقية
68	لاوديكية	لاوديكة (اللاذقية)
68	اللاجيديون	اللاجيون وهم البطالة
70 / 69	الأساسيين	الأرشاقيون
69	ارساس	ارشاق
69	أوبوداس الأول	عبادة الأول
75 / 70 / 69	أريتاس الثالث	الحارث الثالث
70 / 69	سامبسيجرام	شمسي جرام

69	أرسوس	الرستن
69	وسع ارادوس	وسعت أرواد
69	انطيوخ	انطيوخوس
70	اريتوبول وهيركان	أرسطوبولوس وهيركانوس
71	ايبان	ايبانوس
86/71	فسباسيان	وسباسيانوس
71	بلين	بلينوس
71	37-14 ق.م.	37-14 م.
71	37-41 ق.م.	37-41 م.
83/71	ارتاس الرابع	الحارث الرابع
71	كورنثيان	الكورنثيين
76/72	سبتيم سيفير	سبتيموس سوريوس
72	سورية الزور	سورية المجوفة
76	قيمري	قيمرية
95/80	لوسيان/ لوسيانوس	لوقيانوس
82	الحواري بير	الحواري بطرس
97/86/83	يهوآ... أناني	يهوذا... حنانيا
84	إفير... كورنيت	أفسوس... كورنتوس
85/84	أغسطان	اغسطينوس
86	التارسي	الطر سوسي
86	تاسيت	تاكيتوس
86	اميان فارسلان	أميانوس مرقلينوس
107/88/86	المشرق	الشرق
87	جان كريستوم	يوحنا فم الذهب
87	ثيودوس	ثيودوسيوس
94/90/87	جوستينيان	يوستينيانوس
96/88	نيسه	نيقية
88	لوزب	أوسبيوس
88	Voltaire /Garnie	Voltaire /Garnie
89	كريستوم	يوحنا فم الذهب
89	سيريل	كيريلوس
89	اشمندريت	ارشيمندريت

الخلقيديوني / خلقيديونية	القليديوني / قليديونية	90 / 89
مريقانوس	مارسيان	95 / 90 / 89
ميخائيل	ميشيل / ميشل	93 / 90
البرادعي	البارادي	96 / 90
ميخائيل... الخلقيدونيين	ميشل... القلدونيين	92
اليوستينائية	الجوستانية	93
ادمون رباط	أدموند ربات	93
خلقيس	شالسي	94
يوليانوس	جوليان	94
ثيودوسيوس	ثيودوس	96 / 95
اركاديوس	أكاديوس	95
الرُّها (أورفا)	ايدس	96
ماغنوس	مانيوس	96
مريم	القديسة ماري	97
سمعان	سامان	98
قبر المسيح المقدس	القديس سبلكر	99
دومة الجندل	دومة / دوما	112 / 99
ثيودوروس	ثيودور	113
خلقدونيا	كلدونيا	115
خالقيس، منبج	شالسي، منجب	128 / 116
البلاذري	البلاضوري	127 / 117
طيسفون	ستيزفون	118 / 99
زاغروس	زاغرو	118
الغالي	الغولي	122
لامنس	لامن	123
المدرسة الصدرية	المدرسة السدرية	228 / 227
ابن واصل	ابن وسيل	270
تربة فروخ شاه وبهرم شاه	تربة فروخ شاه	282
قطز	قوتوز	319
2 تشرين الأول	22 تشرين الأول	319
تنكز	تنكيز	341
التربة	المرستان	338

الفهرس

7	 المقدمة صورة عن الجنة
15	 عالمان وجهاً لوجه
23	 الكارثة
39	 من البداية حتى الأمويين
40	 الألف الثامن ق. م وبداية الزراعة
40	 التل الأسود
42	 الألف السابع ق. م واستقرار الناس
43	 الألف السادس ق. م وصناعة الخزف
44	 الألف الخامس ق. م وحضارة العبيدين
44	 الألف الرابع ق. م وبلاد سومر
45	 الألف الثالث ق. م
46	 الألف الثاني ق. م
47	 الغزو المصري لسورية
49	 الحثيون
50	 الآراميون
52	 ملوك بني إسرائيل
53	 الآشوريون
59	 دمشق القديمة
61	 البابليون
61	 الفرس الأخمينيون
62	 سوريا الأخمينية
63	 الإسكندر المقدوني
64	 السلوقيون
67	 المدينة الإغريقية والمدينة الآرامية
70	 الرومان
71	 المقاطعة السورية الرومانية
71	 الأنباط واليهود
73	 دمشق الرومانية
73	 عمران دمشق الرومانية
76	 معبد جوبيتر الدمشقي
82	 قصة شاؤول وتغير الدين
86	 انتشار المسيحية في سوريا
93	 سورية البيزنطية

96	 دمشق البيزنطية
98	 التنظيم المدني لدمشق البيزنطية
102	 ولادة محمد ﷺ
102	 زواجه من خديجة وتلقيه الوحي
103	 الفترة المكية
104	 الهجرة الحبشة، عام الحزن، الهجرة إلى المدينة
105	 معركة بدر
106	 معركة أحد
107	 معركة الخندق ومصير بني قريظة
110	 صلح الحديبية
110	 فتح خيبر
111	 غزوة حنين
112	 غزوة تبوك
112	 فتح مكة
112	 وفاة محمد ﷺ
113	 أبو بكر خليفة للمسلمين
113	 تسير الجيوش لفتح الشام
113	 معركة أجنادين
113	 مبايعة عمر بن الخطاب
114	 فتح دمشق
116	 معركة اليرموك
117	 ولاية معاوية على الشام
118	 معركة القادسية
118	 تحرك الجيوش لفتح مصر
119	 اغتيال عمر بن الخطاب
119	 مبايعة عثمان بن عفان
119	 مقتل عثمان
119	 مبايعة علي بن أبي طالب
120	 معركة صفين
121	 سمات ولاية معاوية الإدارية
123	 وفاة معاوية
124	 خلافة يزيد بن معاوية
126	 مقتل الحسين
126	 خروج عبد الله بن الزبير
128	 محاسن خلافة يزيد

128	شق نهر يزيد
129	مبايعة مروان بن الحكم
130	تولية عبد الملك بن مروان
130	موت عبد الله بن الزبير وسقوط مكة
131	الإصلاحات الإدارية في عهد عبد الملك
132	ولاية الوليد بن عبد الملك
133	فكرة بناء المسجد الأموي
136	وصف بناء المسجد الأموي
144	قبة الخزنة
146	زخرفة المسجد الأموي
150	فسيفساء الأموي
151	تأثير المسجد الأموي على الطراز العمراني الإسلامي
160	أساطير ومعتقدات تتعلق بالمسجد الأموي
161	خلافة سليمان بن عبد الملك وإكمال البناء
165	خلافة عمر بن عبد العزيز
166	موت عمر بن عبد العزيز مسموماً
167	الفساد الأخلاقي في خلافة يزيد بن عبد الملك
168	خلافة هشام بن عبد الملك
168	الحكمة والإدارة الجيدة في عهد هشام
168	الفتوحات في عهد هشام
169	فساد الحكم في زمن الوليد بن يزيد
170	مبايعة يزيد بن الوليد
170	خلافة مروان بن محمد ، موت مروان بن محمد وسقوط الأمويين
171	ولاية أبي العباس السفاح وهمجيته
175	التقسيم الإداري لسورية في عهد العباسيين
176	هارون الرشيد يزور سورية مرة كل عامين
176	المأمون يبني رصداً فلكياً في قمة جبل قاسيون
177	تعلق المأمون وإعجابه بدمشق
178	السمات الفكرية لعصر المأمون
178	المعتزلة
180	العنصر الفارسي
181	العنصر التركي
183	اغتيال الخليفة المتوكل
183	دمشق في عهد ابن طولون
184	القرامطة

184	 الإخشيدون
185	 الفاطميون
192	 الخليفة الفاطمي الحاكم
197	 السلاجقة
199	 تأثر عمران دمشق في العصر الفاطمي
200	 أبواب دمشق السبعة
205	 ازدهار دمشق في عهد طغتكين
206	 جيوش الصليبيين تصل عبر بحر مرمرة
208	 مجزرة سقوط القدس
209	 بيمارستان (مستشفى) صفوة الملك
210	 أول مدرسة في دمشق
210	 قبر صفوة الملك
210	 ضريح سكيئة بنت الحسين
212	 قبر بلال بن رباح
213	 النزاعات الداخلية في العالم الإسلامي
214	 عماد الدين زنكي
215	 مذبحه الحشاشين
217	 الحلف بين زنكي وشهاب الدين
218	 سقوط الرها بيد زنكي
220	 نور الدين زنكي
220	 فشل الحصار الصليبي لدمشق
223	 استيلاء أسد الدين شيركوه على دمشق
224	 دمشق في عهد نور الدين
226	 مدارس دمشق
230	 تعيين صلاح الدين وزيراً لمصر
231	 التطور العمراني لدمشق في عهد نور الدين
233	 بيمارستان نور الدين
238	 المساجد في عهد نور الدين
239	 المدرسة النورية
241	 دار الحديث
245	 الخانقاهات
247	 دار العدل
247	 حمامات دمشق
252	 أسواق دمشق
254	 الحرفيون والتجار

255	الشرطة
257	النظام الإداري في عهد نور الدين
259	دخول صلاح الدين دمشق
260	معركة حطين
261	خلاص القدس من الصليبيين
262	الحملة الصليبية الثالثة
263	صلح الرملة
264	السلطان العادل
267	تسليم الكامل للقدس
269	استعادة الناصر داود لبيت المقدس
269	تجنيد المهاليك الأتراك من قبل الصالح أيوب
271	شجرة الدر
272	سقوط بغداد بيد المغول
273	هيمنة النصارى على دمشق في عهد هولاكو
275	عين جالوت
276	دمشق في العصر الأيوبي
280	أضرحة دمشق الأيوبية
288	المدرسة العادلية
296	المدرسة الماردانية
299	المدرسة المرشدية
301	مسجد الحنابلة
302	البيمارستان الأيوبي
303	جامع التوبة
305	حمامات العصر الأيوبي
306	الخانات والقيصريات
306	ترميم قلعة دمشق
316	قبور الأنبياء
317	وصف ابن جبير للدمشقيين
319	الظاهر بيبرس
322	حروب بيبرس
323	القصر الأبلق
327	الأمير قلاوون
328	جهاد قلاوون ضد المغول
330	سقوط عكا بيد الملك الأشرف
333	الصراع على السلطة بين المهاليك

335	هجوم التتار على دمشق
339	الملك الناصر ينجد دمشق
341	دمشق في عهد تنكز
344	دار الفلوس
345	التبادل التجاري مع الإمارات الإيطالية
348	حدائق دمشق وبساتينها
349	توسع دمشق خارج أسوارها
352	الحروب الداخلية بين المماليك
356	سقوط دمشق بيد تيمورلنك
362	الأعمال الوحشية لجيش تيمورلنك
363	حريق دمشق الهائل
364	مغادرة تيمورلنك دمشق
365	نزاعات مملوكية داخلية لمدة 10 سنوات
375	تولي الأمير قانصوه الغوري السلطنة
382	معركة مرج دابق
384	دخول السلطان سليم الأول دمشق
385	سقوط القاهرة بيد العثمانيين
389	النظام العسكري في عهد المماليك
394	محاولات الإصلاح الأخلاقي للحياة العامة
397	نظام الأوقاف في عهد المماليك
398	موقف العلماء من السلطة
401	ظاهرة "الزعر"
403	جماعات المنصر "الحرامية"
404	الكوارث الطبيعية في عهد المماليك
407	النظام الإداري في عهد المماليك
411	بريد الخيل وبريد الحمام
413	ازدهار دمشق ونمو السكان
418	المتنزهات والاماكن الترفيهية
419	البنية العمرانية لدمشق
421	الخانات
423	التجارة والاسواق
425	التجارة العالمية
427	دور الحج الاقتصادي
428	مهاجرة البدو لقوافل الحج
430	الحياة الاجتماعية زمن المماليك

432	 المباني الدمشقية
435	 جامع يلغا
436	 جامع منجك
437	 مسجد الأفتصاب
440	 مسجد وتربة حمام التوريزي
442	 المدرسة الحقمقية
443	 ثلاث مآذن في القرن الخامس عشر
446	 عدد كبير من الترب والمدارس والمساجد والحمامات
446	 الأساطير المتعلقة بأصول دمشق
447	 نبذة عن تاريخ دمشق حتى الأتراك
462	 معركة مرج دابق
464	 مذبحه الممالك في القاهرة
466	 التنظيم الإداري لسورية في عهد سليم الأول
467	 بناء جامع قرب ضريح محي الدين بن عربي
468	 تمرد جانبردي الغزالي على العثمانيين
469	 هزيمة جانبردي أمام العثمانيين عام 1521
469	 انتقام العثمانيين الشنيع من الدمشقيين
470	 التنظيم الإداري الجديد لدمشق
472	 حملة قمع عنيفة ضد دروز الشوف
474	 وصف دمشق عام 1522
477	 وبائين للطاعون عامي 1523 و 1543
478	 فساد القضاة
480	 تدخل الدول الأوروبية في الشؤون الداخلية
486	 بناء التكية السليمانية
491	 بناء جامع الدرويشية
494	 بناء جامع السنانية
495	 مجموعة سنان باشا المعمارية
496	 الخمارات (أماكن شرب القهوة)
500	 مجموعة مراد باشا المعمارية
502	 قافلة الحج
503	 المحمل
504	 تمرد فخر الدين المعني
507	 ثورات الانكشاريين
509	 مهاجمة الدروز وعرب القبائل لقوافل المسافرين
511	 دخول الحملات التبشيرية

516	اهداف الامتيازات والبعثات التبشيرية
518	صناعة الأقمشة والفولاذ والسيوف
523	طائفة الدراويش والمجاذيب والقلندريون
527	معاهدة كارلوفتس المشؤومة
530	تهديد البدو الدائم لقوافل الحج
533	سيطرة عائلة العظم الكاملة على الشؤون السياسية لسورية خلال القرن الثامن عشر
537	تولية أسعد باشا العظم دمشق
542	ترميم وإصلاح المباني وبناء الخانات
550	عبدالله باشا الجزائر قائد حامية عكا
552	الجزائر والياً لدمشق
553	الحملة الفرنسية على مصر عام 1798
557	صور من الأوضاع العامة المتردية في نهاية القرن الثامن عشر
566	نموذج عمراني جديد لخانات دمشق العثمانية
567	خان اسعد باشا
572	حمام فتحي
573	البيوت الدمشقية في القرن الثامن عشر
576	قصر أسعد باشا العظم
580	الأمير بشير الثاني
581	الوهابيون
582	احتلال الفرنسيين للجزائر
583	حملة إبراهيم باشا على سورية
584	معاهدة كوتاهيه
586	اتفاقية لندن
589	النزاع الدرزي الماروني (1841م)
591	مذابح النصاري في جبال لبنان
593	انتقال الفتنة إلى دمشق
593	حماية الأمير عبد القادر الجزائري لنصاري دمشق
598	اعتبار الجبل اللبناني ولاية عثمانية ذات حكم ذاتي
599	تصاعد الغزو الغربي الثقافي والديني
600	النفوذ الاقتصادي
602	نشأة الحركة الصهيونية
604	موقف عبد الحميد الثاني من قضية الاستيطان
606	دعوة جمال الدين الأفغاني للجامعة الإسلامية
608	انقلاب تركيا الفتاة
609	اندلاع الحرب العالمية الأولى

613	دمشق معقل مقاومة النفوذ الغربي
616	تلف الأبنية في دمشق
617	التخلف الاقتصادي
621	المقاهي الدمشقية
622	الحمامات في القرن التاسع عشر
623	وصف البيوت الدمشقية من الداخل
626	بناء قصر العدل ومبنى البريد والبرق
628	وصف حي الميدان في القرن التاسع عشر
629	الحرب العالمية الأولى
631	مراسلات حسين مكماهون
633	اتفاق سايكس بيكو
633	وعد بلفور
635	مغادرة الأتراك
639	مقابلة فيصل وايزمان في فرنسا
643	دخول فيصل دمشق عام 1919
645	سقوط وزير الدفاع السوري يوسف العظمة في ميسلون
647	تقسيم سورية إلى أربع دول
650	اندلاع الثورة السورية في عام 1925
653	استمرار الثورة في الغوطة
658	إضراب عام 1936
659	هزيمة فرنسا أمام ألمانيا
660	انتخاب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية
662	استقلال سورية في 17 نيسان 1947
662	قيام إسرائيل
663	إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية
664	تطوير البنية التحتية لدمشق
665	توسع المدينة ونشوء مدينة جديدة
665	مخطط دانجيه - إكوشار
667	انقسام الكتلة الوطنية
669	انقلاب حسني الزعيم
669	انقلاب أديب الشيشكلي
670	الانتخابات الحرة عام 1954
671	قيام الوحدة بين سورية ومصر
671	نهاية الوحدة وحكومة الانفصال